عبد الكريم الخطيب

التفسير القرآني للقرآن

الكتاب الثالث عشر
الجزءان الخامس والعشرون والسادس والعشرون

من مباحث هذا الكتاب

- قل لا أسألكم عليه أجرا .. ما تأويله ؟
- الشورى في الإسلام .. منهجا وتطبيقا .
- مفهوم جديد للحروف في أوائل السور .
- بيعة العقبة .. وليلة الجن .
- الحرب والسلام .. في الإسلام .
- النبي .. وما ذنبه الذي يستغفر له ؟
- الجهاد .. والحرب النفسية .

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

مطبعة السنة المحمدية
١٧ ش شريف باشا الكبير - عابدين
تليفون ٩٠٦٠١٧

رقم الإيداع
٢٩٢٤ / ١٩٧٠

الآيات : (٤٧ — ٥٤)

* « إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ».

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآية السابقة قد توعدت المشركين بقوله تعالى : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » وهؤلاء المشركون لا يصدقون بيوم القيامة ، ولا يؤمنون بالبعث ، وكانوا يسألون النبىّ عن يوم البعث سؤالَ المنكر بقولهم : متى هو ؟ .. فكانت هذه الآية جواباً عن سؤال يدور فى رءوسهم ، منكراً هذا اليوم .. وقد جاء الجواب على سبيل القصْر ، وجَعْلِ علمِ السّاعة من أمر الله وحده ، لا يعلمها إلا هو ، كما يقول الله تعالى : « قل إنما علمها عند ربىّ .. لا يجلّيها لوقتها إلا هو » (٨٧ : الأعراف) ..

فقوله تعالى : « إليه يردّ علم الساعة » حكم قاطع بأن علم الساعة ، وتحديدَ وقتها ، هو من أمر الله وحده ، لا يعلمها إلا هُو ..

وقوله تعالى : « وما تخرج من ثمراتٍ من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تَضَع إلاّ بعلمه » هو توكيد لعلم الله الشامل الذى يقع فى محيطه كلُّ شىء فى هذا الوجود ، لا علمُ الساعة وحده ..

فهذه الثمرات التى تخرجها الأرض ، هى فى علم الله . ثمرةً ثمرة ، بل قَبْل أن تكون ثمرة .. فهو سبحانه الذى أخرج نَبْتتها من الأرض ، وهو سبحانه الذى أطلع من النّبتة هذا الزّهر ، وهو سبحانه الذى أخرج من هذا الزهر ، الثمرَ ، وأنضجه ..

والأكمام ؛ جمع كِمّ ، وهو كأس الزهرة قبل أن تتفتح ..

هذا فى عالم النبات ، وكذلك الشأن فى عالم الحيوان والإنسان .. فما حملت أنثى حملاً ، ولا وضعته ، إلا والله سبحانه وتعالى عالم بما تحمل كل أنثى ، وما تضع من حَمْل ، كما يقول سبحانه فى آية أخرى : « الله

يعلمُ ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحامُ وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار » (٨ : الرعد) .

وعلم الله بما تحمل كل أنثى وما تضع من حمل ، لا يمنع من أن يعلم الناسُ من هذا العلم ، ما يقع لحواسهم ، من حمل الحوامل من إنسان وحيوان .. فعلم الله سبحانه علم قديم ، واقع قبل أن يقع الحمل وبعده ، وهو علم شامل لكل ذات حملٍ ، ووضع .. على خلاف علم العلماء ، فإنه علم حادث بعد أن يقع الحمل ، ثم هو علم محدود ، لا يقع إلا على ما يكون تحت حواسهم ، وهو قليل قليل إلى مالم يقع لحواسهم ، مما فى عالم البحار ، والطير ، والوحش ، والهوامّ والحشرات . . وغيرها كثير كثير . . فالعلم الشامل الكامل ، هو علم الله وحده .

قوله تعالى : « ويوم يناديهم أين شركائى ؟ قالوا آذنّاك ما مِنّا من شهيد » أى ويومَ القيامة ينادِى الحقُّ سبحانه وتعالى هؤلاء المشركين الضالين : أين شركائى الذين كنتم تعبدون من دونى ؟ فَيخرِسُون عن الجواب ، ويقوم شركاؤهم الذين عَبدوهم من دون الله ، فينطقون عنهم قائلين : « آذَناك ما مِنّا من شهيد » أى تبرأنا إليك يا ألله منهم ، من قبلُ أى فى الدنيا ، وليس الآن منّا مِن شهيد يشهد معهم موقفهم هذا ، ويقف إلى جوارهم . . وهذا هو بعض السر فى التعبير بالفعل الماضى : « قالوا » بدلاً من يقولون ، الذى يُعبّر به عما يُتوَقّع . .

يقال : آذنه بكذا . . أى أعلمه وأخبره .

قوله تعالى :

* « وضلّ عنهم ما كانوا يدعون من قبلُ وظنوا مالهم من محيص » .

أى وغاب عنهم ، أى عن هؤلاء العابدين الضالين ، ما كانوا يعبدون

من دون الله ، حيث يتلفتون فلا يجدون لهم أثراً فى هذا اليوم الذى يَرْجُونهم له .. وأيقنوا أن لا محيص لهم ، ولا نجاة من العذاب الواقع بهم ، وقد تخلى عنهم أولياؤهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله . .

والظنّ هنا بمعنى العلم واليقين .

والمحيص : المفرُّ ، والخلاص من هذا المأزق .

قوله تعالى :

* « لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مَسَّه الشرّ فيئوس قَنُوطٌ » .

تَشرح هذه الآية والآيات التى بعدها ، النفسَ الإنسانية ، وتكشف عن داء الطمع والشّره ، وحب الاستكثار من المال والمتاع ، المتمكن منها ، دون أن يقف بها الأمر عند حدّ القناعة ، أو الشبع .. بل إنها كلّما كثر لديها ماتشتهى من مالٍ ومتاع ، ازدادت جوعاً وطلباً . .

كالحوت لا يكفيه شىء يَلقَمه يُصبح ظمآنَ وفى البحر فمُهْ

— « لا يسأم الإنسان من دعاء الخير » أى لا يمل من طلب الخير لنفسه ، من مال ومتاع ، وولد ، وجاه وسلطان .. إلى غير ذلك مما يطلبه الناس ، ويتنافسون فيه ..

وسميت هذه المطالب خَيراً ، لأنها فى أصلها من نعم الله ، وهى فى ذاتها خير ، ولكنها حين تصبح غايةً لا وسيلةً ، تكون فتنةً وبلاءً .

والمراد بدعاء الخير ، هو طلبه واستدعاؤه ، والسّعى الجادّ لتحصيله ، لأنّ هذه الأشياء إنما يطلبها الإنسان ، لأنها غائبة عنه ، فهو يستدعيها إليه ، ويهتف بها من أعماقه أن تجيبه ، وتدنو منه .

— « وإن مسّه الشرُّ فيئوس قنوط » أى وإن ألمّ به الشرُّ ـ مجرد إلمام ، مع هذه النعم الكثيرة التى بين يديه ـ جأر بالشكوى ، وعلا صياحه بالسخط والضيق ، وكاد يؤدّى به ذلك إلى إعلان الحرب على ربه ! لأنه يائس من رحمة الله ، سيىء الظن بفضل الله وإحسانه ..

فهذا موقفُ من لا يؤمن بالله ، ولا يحسن الظن به ، ولا يعلّق الأمل والرجاء فيه .. إنه يقيس الأمور ويقدّرها ، حسْبَ مجرياتها بالنسبة له ، وحسب الأسباب التى بين يديه منها ، غيرَ ناظر إلى قدرة الله ، وإلى تعلق مصائر الأمور بمشيئته . .

أما المؤمن الذى يعمر الإيمان بالله قلبَه ، فإنه إذ يسعى سعيَه فى الحياة ، يتقبّل فى رضًى واستسلام ، كلّ ما يقع له من خير أو شر . . فهو مع الخير قانع ، راض ، شاكر ، ومع الضرّ صابر ، مترقب مواقع رَحمة ربه من قريب ، لا يبيت فى كل شدة إلا مع أملٍ ، فى رحمة من ربه تكشف هذا الضرّ الذى نزل به .. « إنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون» (٨٧ : يوسف) .

قوله تعالى :

* « ولئن أذقناه رحمةً منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ » .

أى أن هذا الإنسان الذى مسه الضر ، فبات يائساً قانطاً من رحمة الله — إذا أذاقه الله سبحانه رحمةً منه ، وكشف عنه الضر الذى مسه ، لم يجعل هذا إلى الله سبحانه ، ولم يُضفه إلى فضله وإحسانه ، بل يزيّن

له ضلالُه وغرورُه، أنّ هذا الخيرَ الذى أصابه بعد الضُرّ — هو من عمله، وحسنِ تدبيره، فيقول: «هذا لى» أى هذا من كسبى، وحسن تدبيرى، فهو لى، وليس لله فيه شىء، فلا يكون منه حمد لله، ولا ذكرٌ لفضله وإحسانه.. ثم يمضى فى غروره وضلاله، فيُدخل على نفسه الشكّ فى أمر البعث والحساب والجزاء، كى يُطلق العنان لشهواته ونزواته، غير عامل أى حساب ليوم الحساب: «وما أظن الساعة قائمة»!.

ثم إذا به بعد أن ألقى بذور الشك فى يوم القيامة، وغرَسَها فى مشاعره، يعود فيَروِى هذه البذور بالآمال الكاذبة، والأمانىّ الباطلة، حتى يُخيل إليه منها أنها قد استوت على سُوقها، ثم أزهرت وأثمرت.. فيحدّث نفسه بهذا الحديث الكاذب: «ولئن رُجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى»! هكذا ينتقل به الضلال، من وهْم إلى وهم، ومن خِداع إلى خداع، حتى يرد موارد الهلاك!.

«وما أظن الساعة قائمة»!.

إنه مجرد ظن! يحتمل أن تقوم الساعة، أو لا تقوم!.

وماذا لو قامت الساعة؟.

إنه لا خوف عليه منها! وماذا يُخيفه؟ إن له عند الله فى الآخرة — إن كانت هناك آخرة — مثلَ ما كان له فى الدنيا أو أكثر!!..

وهكذا يزين الضلال لأهله!

وقد أبطل الله سبحانه هذه الأمانى الباطلة، وردّها على أهلها حسرةً وندامة،

فقال سبحانه : « فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ » .. فهذا ما يلقاه الكافرون فى هذا اليوم .. إنهم سيلقون أعمالهم السيئة حاضرة بين أيديهم ، وسيحاسبون عليها ، ثم يُقضى عليهم بالعذاب الغليظ ، الذى يغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، خالدين فيه أبداً .

قوله تعالى :

* « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » .

وهذه صورة من صور الإنسان ، ومكْرِه بنعم ربه .. وكفره بإحسانه إليه ..

فهذا الإنسان ـ وله فى الإنسانية أشباه كثيرون ـ إذا أنعم الله عليه نعمة منه، شُغِل بالحياة مع هذه النعمة عن الله ، ونسى ما لله من حقوق عليه ، بل ربما ذهب إلى أبعد من هذا ، فاتخذ من هذه النعمة سلاحاً يحارب به الله سبحانه ، ليفسد فى الأرض ، ويقطَع ما أمر الله به أن يوصل ..

فإذا مسّ هذا الإنسان ضُرٌّ ، عاد إلى الله ، يدعوه لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، ويقطع على نفسه العهود والمواثيق ، لئن أنجاه الله من هذا البلاء ، وكشف عنه هذا الضرّ ، ليكونن من المؤمنين الشاكرين .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فذو دعاء عريض» أى يستكثر من الدعاء والتضرع إلى الله ، والإنابة إليه .. إنه لا يذكر الله ولا يعرفه إلاّ فى الشدة .. أما فى الرخاء . فهو معرض عن الله ، أو محارب لله ..

قوله تعالى :

* « قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضلُّ ممن هو فى شقاق بعيد » .

هو رد على تلك الأمانى الباطلة ، التى يعيش فيها أهل الغواية والضلال ، ممن يُقيمون أمرَهم فى الإيمان باليوم الآخر ـ على حَرْف . . فيقولون إن كانت هناك آخرة ـ ولا نظن ـ فإن لنا عند الله هناك ما كان لنا فى الدنيا ، من مال وجاه وسلطان . . وإن لم تكن آخرة ـ وهو ما نظن ـ فقد أخذنا أمرنا على هذا ، فلا يضيرنا أنه لم يجىء هذا اليوم ، فليس لنا شىء فيه ، ولا متعلَّق لنا به .

وهنا فى هذه الآية يكشف الله سبحانه وتعالى المشركين عن موقفهم من رسول الله ، ومن كتاب الله الذى بين يديه . . فهم فى شك من رسول الله ، وفى حيرة من أمرهم فيه ، بين التصديق والتكذيب ، أشبه بهذه الظنون التى تدور فى رءوس المشركين عن يوم البعث ، وقد جاءهم القــرآن ، وهم على هذا الشعور ، يحاسبهم به ، ويُسفّه منطقهم فيه .

فهم قد وقفوا من الرسول موقف الشك والارتياب ، بين التصديق والتكذيب ، كما كان ذلك شأنهم مع اليوم الآخر . . فليكن هذا . !

ولكن لماذا يرجّحون جانب التكذيب على جانب التصديق ؟ هذا هو الذى لايقبله منطق ! فهل يقبلون مثلا إذا جاءهم من يخبرهم أنه رأى جيشاً مغيراً وراء هذا الجبل ، يريد الهجوم عليهم ـ هل يقبلون أن يقيموا أمرهم على الشك، فى هذا الخبر ، ولو كان كاذباً من كاذب ؟ وهل يقبلون أن يخلو شعورهم من كل حَذَر وحيطة ؟ إن منطق الحياة يدعوهم إلى الأخذ بالأحوط ، وإلى أن يُعدّوا العدّة كاملة للقاء هذا العدو . . فإن كان هناك عدو ، كانوا قد أعدوا العدة اللقائه ، فلم يَبغتهم بخيله ورَجِله . . وإن لم يكن هناك عدوّ ، فلا خسران عليهم فيما فعلوا . .

وهنا ، إنسان يقول لهم: إنه رسول الله ، وإنه يحمل إليهم كتاباً من ربهم

يدعوهم فيه إلى الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، ويُنذرهم عذابَ يوم عظيم ، هو يوم القيامة . .

وهذا الرسول ، إما أن يكون صادقاً ، أو كاذباً .

فإن هم أقاموا أمرهم معه على أنه صادق ، وآمنوا بالله وباليوم الآخر ، وأعدّوا العدة للقاء هذا اليوم ، فإن كان صادقاً حقًّا فقد نجوا ، وخَلَصُوا بأنفسهم من عذاب هذا اليوم . . وإن كان كاذباً ، فما خسروا شيئاً . . وهذا ما يشير إليه سبحانه وتعالى فى قوله جل شأنه ، على لسان مؤمن آل فرعون : « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كَذِبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم » (٢٨ : غافر) .

وفى هذا المعنى يقول أبو العلاء المعرى .

قال المنجّم والطبيب كِلاهما ... لا تُبعثُ الأجساد قُلتُ إليكما

إن صحّ قولكما فلست بخاسر ... أو صحّ قولى فالخَسَار عليكما

وقوله تعالى : « من أضل ممن هو فى شقاق بعيد » .

الاسم الموصول « من » مفعول به لقوله تعالى : « أرأيتم » أى أعلمتم من أضل منكم ، إن كان هذا الرسول من عند الله ، ثم كفرتم به ؟ ويكون قوله تعالى : « إن كان من عند الله ثم كفرتم به » جملة اعتراضية شرطية ، وجواب الشرط محذوف ، دلّ عليه السياق .

وقد جىء بهم مع ضمير الغائب بدلا من ضمير المخاطب فى قوله تعالى : « من أضلّ ممن هو فى شقاق بعيد » ليروْا بأعينهم العبرةَ فى هذا الذى يُعرض عليهم من أهل الشقاق ، وهو صورة منتزعة منهم . . وفى هذا ما يدعوهم إلى أن ينظروا فى وجه هذا الغريب . وأن يطيلوا النظر إليه ، والحال أنهم إنما ينظرون إلى أنفسهم فى شخصه .

ولو جاء النظم هكذا : قل أرأيتم من أضل منكم إن كان هذا الرسول من عند الله ، ثم كفرتم به — لنفروا نفار الحُمُر الوحشية ، ولما استقبلوا هذه الدعوة التى يُدعَون إليها ، إلا بالصد والإعراض ، أو بالسب والشتم ، فيفوت بذلك الغرض المقصود من الإمساك بهم فى هذا الموقف ، لينظروا فى تلك المرآة ، التى يرون شخوصهم ماثلة فيها !

قوله تعالى :

* « سنريهم آياتِنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد . . »

أى أن هؤلاء المشركين ، الذين شكّوا فى رسول الله ، وفى آيات الله التى بين يديه — سيريهم الله آياته فى الآفاق البعيدة عنهم ، وفى ذات أنفسهم ، وستكشف لهم هذه الآيات التى يرونها ، أن هذا الرسول حق ، وأن الكتاب الذى بين يديه حقّ .

والآيات التى رآها المشركون فى الآفاق وفى أنفسهم كثيرة . . منها هذا المجتمع الجديد الذى قام لدعوة الإسلام فى المدينة ، واجتمع فيه المهاجرون والأنصار . . ومنها ازدياد قوة الإسلام ، وشوكة المسلمين، يوماً بعد يوم . . ومنها انتصار المسلمين يوم بدر وهم قلة ، وانتصارهم يوم الخندق بغير حرب . . ومنها جلاء اليهود عن المدينة ، وإنزالهم من صياصيهم . . ومنها فتح خيبر . . ثم منها فتح مكة . . ففى هذه الآيات رأى كثير من المشركين أن هذا الدين هو دين الله ، وأن الرسول رسول الله ، وأن الكتاب كتاب الله ، فجاءوا من كل فج يطلبون الإسلام ، ويدخلون فى دين الله أفواجا .

وقوله تعالى : « أَوَلَمْ يكفِ بربك أنه على كل شىء شهيد »

هو دعوة للنبىّ الكريم أن يصبر على أذى قومه ، وعلى موقفهم المتعنت منه ؛ وحسبُه فى هذا أن الله شهيدٌ على ما يعملون ، وسيجزيهم عليه . .

قوله تعالى :

* « ألآ إنّهم فى مِرْيَةٍ من لِقآء ربهم ألآ إنه بكلّ شىء محيطٌ » .

بهذه الآية تُختم السورة الكريمة ، وفيها كشفٌ عن الداء الذى يخامر المشركين ، ويفسد عليهم رأيَهم فى رسول الله ، وفيما يدعوهم إليه ، وهذا الداء هو إنكارهم للبعث ، واستبعادهم إعادةَ الأجساد بعد أن تصير عظاماً ورفاتاً . .

وفى قوله تعالى : « ألا إنهم فى مريةٍ من لقاء ربّهم » إخبار من الله سبحانه وتعالى بما فى نفوس هؤلاء المشركين من أمر البعث من شك وريبة فهم لهذا فى شك من لقاء ربّهم ، ومن محاسبتهم ومجازاتهم على ما يعملون فى دنياهم . .

وقوله تعالى : « ألآ إنه بكل شىء محيط » . . تهديد لهؤلاء المشركين بما يلقاهم من شكّهم فى لقاء ربّهم يوم القيامة ، حيث يَرَوْن أعمالَهم ، وقد أحصاها الله عليهم ، وحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة منها . . فالله سبحانه وتعالى محيط بكل شىء علماً .

٤٢ - سورة الشورى

نزولهـــا : مكية . . بإجماع .

عدد آياتها : ثلاث وخمسون آية .

عدد كلماتها : ثمانمائة وست وستون كلمة . .

عدد حروفها : ثلاثة آلاف وخمسمائة وثمان وثمانون حرفا .

مناسبتها لما قبلهـــا

تــكاد سور الحواميم تــكون سورةً واحدة فى نظمها وفى مضمونها . . فهى جميعها مكيةُ النزول ، وقد خَلَت من القَصص ، ومن التشريع ، وجاءت مساقاتها كلُّها فى مواجهة المشركين بشركهم وضلالهم ، وتــكذيبهم لِرسول الله ، وشكّهم فى البعث ، وفى لقاء ربهم . . ولقد لقيهم القرآن الــكريم فى هــذه السوَر بِــكل طريق ، ودخل على مشاعرهم وتصوراتهم من كل باب ، فلم يَدَعْ خاطرةً تدور فى رءوسهم من خواطر الشكّ والارتياب إلاّ كشف لهم عنها ، وأراهم باطلَها وضلالَها . . ثم نَصَبَ لهم معالم الهدَى ، ودَعاهم إلى أخذ الطريق القَاصد إليه . . وإلا فالنار موعدهم . .

وهذه السورة ـ سورة الشورى ـ تتصل بسورة فُصلت التى سبقتها اتصالًا وثيقاً ، فتُعيد على أسماع المشركين عَرْضَ تلك القضايا التى عَرَضتها السورة السابقة من شركهم بالله ، وتــكذيبهم لرسول الله ، وارتيابهم فى البعث ، والحساب والجزاء . . وفى هذا العرض المتجدّد ، يرى المشركون تلك القضايا ، وقد طلعت عليهم بمعاول جديدة ، تهدم تلك الجُدُر المتداعية من بناء معتقداتهم الفاسدة ، حتى لتــكاد تسقط عليهم ، وتدفنهم تحت أنقاضها . .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٢)

* « حمٓ (١) عٓسٓقٓ (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣) لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥) وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٦) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨) أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (١١) لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٢) »

التفسير :

قوله تعالى

« حمٓ * عسٓقٓ . »

هذه أحرف خمسة بدأت بها السورة الكريمة . . وذلك العدد هو غاية ما بُدىء به من حروف مقطعة ، على حين قد بدئت بعض السور بحرف واحد مثل « ص » و « ق » و « ن » كما بدئت بعض السور بحرفين مثل : « طه » و «طس»و« يس » و « حم » وبعضها بثلاثة أحرف مثل : «ألم» و« آلر » و« طسم » وبعضها بأربعة أحرف مثل « المص » و« المر » . .

ومما يلفت النظر فى هذا ، أن الكلمة العربية قد تُبْنَى على حرف واحد ، مثل « قِ » فعل أمر من « وَقَى » أو حرفين مثل « قُل » فِعلُ أمرٍ من قال ، أو ثلاثة أحرف .. مثل« قَرأ وسَجَد » أو أربعة أحرف مثل « بعثر » وزلزل أو خمسة أحرف مثل« تلعثم» . .

وعلى هذا يمكن أن يُنظر إلى هذه الحروف المقطّعة على أنها أفعال ، أو أسماء ، ذات دلالات خاصة ، يعرفها النبىّ ؛ ويَرَى فى أضوائها مالا يراه غيره ؛ وقد يشاركه فى هذه الرؤية بعضُ المؤمنين الراسخين فى العلم منهم . . وفى هذه الرؤية ينكشف كثير من الأسرار والمعارف ، التى تحويها هـــــذه الأحرف فى كيانها . . فهى أشبه بصناديق مغلقة على كنوز من الأسرار والمعارف ، يأخذ منها النبىّ ما شاء ، على حين لا تأذن بشىء منها إلا لذوى البصائر من عباد الله الصالحين المقرّبين ، ثم تظل مغلقةً على أسرارها ؛ دون من ليسوا من أهلها . .

وعلى هذا الفهم ، نستطيع أن نردّ الإشارة فى قوله تعالى : « كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيمُ » . . إلى هذه الأحرف ، وأن

الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى نبيه الكريم بهذه الأحرف التي تحمل في كيانها دِلالاتٍ يعرف النبيّ تأويلَها ، بما آتاه الله من علمٍ ، شأنُه في هذا شأنُ الأنبياء من قبله ، الذين أوحى الله سبحانه وتعالى إليهم بمثل ما أوحى إليه به من هذه الأحرف ، التي هي رموز إلى أمور يعرفون هم تأويلَها ، ويشاركهم بِنِسَبٍ مختلفة في المعرفة بعضُ أتباعهم وحوارييهم ، من الراسخين في العلم .

فالمراد ـ والله أعلم ـ بما يُوحِي به الله سبحانه وتعالى إلى النبيّ هنا ، هو بعض ما يوحى إليه ، لا كلّه ، وهو تلك الحروف المقطعة التي بدئت بها بعض السور ، لا كلّ ماأُوحى به إليه.

وفي قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجابٍ أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء » . . إشارة إلى أن هذا الوحى الذى تلَقّى به النبيّ صلوات الله وسلامه عليه هذه الأحرف، لم يكن عن طريق المَلَك الذى اعتاد أن يلقاه ، فيتلقّ منه ما أَذِن الله بوحيه إليه من آياته وكلماته . وإنما كان كلاماً من ربّه ، على تلك الصفة التي أشار إليها سبحانه في قوله : « وما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلا وحياً » . . أى إلهاماً منه سبحانه ، حيث يجد الرسول كلمات ربّه قائمةً في صدره ، مستوليةً على كيانه كلّه . . وهذا ما يشير إليه الرسول في قوله : « إن رُوح القُدس نفخ في رُوعى » . .

ومن هنا كان لهذه الأحرف هذا المقام الكريم ، في كتاب الله الكريم ، فكانت تلك الأحرف على رأس السّور التي نزلت معها . .

هذا ، وسنزيد الأمر بياناً في آخر السورة، عند تفسير قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء » .

قوله تعالى :

* « له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العلىّ العظيم » . . إشارة إلى ما لقدرة الله سبحانه وتعالى ، من سلطان قاهر ، يخضع له كل موجود فى هذا الوجود . . فهو ـ سبحانه ـ الخالق المالك المدبّر لكل ما فى السموات وما فى الأرض . . وهو « العلىّ » الذى يعلو بسلطانه على كل سلطان . . العظيم » الذى تذِلُّ لعظمته كل عظمة ، وكل عظيم . .

قوله تعالى :

* « تكاد السموات يتفطّرن من فوقهن والملائكة يُسبّحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم » .

أى: إنه لجلال الله سبحانه ولعظمته ورَهَبوته ، تكاد السموات يتفطرن من « فوقهن » أى يتشققن ويسقطن من علوّهن ، فيقع بعضهن على بعض .

فالضمير فى « فوقهن » يعود إلى السموات . . أى أنها تكاد تسقط من عليائها ، هيبةً وجلالا لله سبحانه . . وأن الانفطار ، وهو التشقق ، هو من الخشية والجلال لهذا القرآن الموحَى به إلى النبىّ ، والذى لا يتأثر به هؤلاء المشركون ، أصحاب القلوب القاسية . . وأن التشقق الذى يكاد يفتت السموات ، لا يقع ـ وحسب ـ من الجهة المواجهة للأرض ، لما نزل عليها من كلام الله ، بل يبلغ أقطارها العليا ، وينفذ إلى أعلى سماء فيها . .

وقوله تعالى : « والملائكة يسبحون بحمد ربهم » أى أن الملائكة وهم من عالم السماء . ـ عالم النور والطهر ـ . يسبحون بحمد ربّهم ، ويتقربون إليه ، ويبتغون مرضاته ، بالعبادة والتسبيح : « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » . ـ « ويسبح الرعدُ بحمده والملائكة من خيفته » .

وقوله تعالى : « ويستغفرون لمن فى الأرض » .. أى أن من عبادة الملائكة وتسبيحهم لله ، استغفارَهُمْ لمن فى الأرض .. إذ كان أهل الأرض متلبسين بالخطايا والذنوب .. فهم النقطة السوداء فى هذا الوجود النورانى ، المشعّ ولاء وخضوعاً لله رب العالمين ..

والمراد بمن فى الأرض هم المؤمنون ، كما يقول الله سبحانه وتعالى فى آية أخرى : « والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض » (٥ : الشورى) .وكما يقول سبحانه : (يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا) (٧ : غافر)

وقوله تعالى : « ألا إن الله هو الغفور الرحيم » .. أى أنه سبحانه يَقْبَل استغفار الملائكة لمن يستغفرون لهم من المؤمنين ، فيغفر الله سبحانه وتعالى لهم ، فهو سبحانه « الغفور » أى كثير المغفرة « الرحيم » ، أى واسع الرحمة ، تسع رحمته كل شىء .

قوله تعالى :

* « والذين اتخذوا من دونه أولياء اللهُ حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل » ..

هو معطوف على محذوف مفهوم من قوله تعالى : « ألا إن الله هو الغفور الرحيم » — أى أنه سبحانه يغفر للذين تابوا وآمنوا ، وأما الذين أشركوا بالله ، واتخذوا من دونه أولياء ، ولم يدخلوا فى دين الله ، ولم يتوبوا إليه — فالله « حفيظ عليهم » أى ممسك بهم ، قائم عليهم ، متولٍّ حسابَهم وجزاءهم .. وليس النبي بمسئول عنهم بعد أن بلغهم رسالة ربه .. « إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » (٤٠ : الرعد).

قوله تعالى :

* « وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لاريب فيه .. فريق فى الجنة وفريق فى السعير » .

فى هذه الآية إشارة إلى أن هناك وحياً من نوع آخر ، غير الوحى الأول الذى جاء فى مطلع السورة فى قوله تعالى : « كذلك يوحِى إليك وإلى الذين من قبلك اللهُ العزيز الحكيم » ..

وقد قلنا — حسب فهمنا — إن الوحى الذى أشار إليه قوله تعالى : « كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » هو وحى من الله بدون وساطة مَلَكَ ، وأنه المشار إليه فى قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله ، إلا وحياً أو من وراء حجاب أوَ يرسل رسولا فيُوحىَ بإذنه ما يشاء » فهذا الوحى ، وحى من الله بدون وساطة .. وقلنا إن هذا الوحى من الله سبحانه ، هو واقع على الحروف المقطعة التى بدئت بها بعضُ سور القرآن الكريم .. أما الوحى بوساطة المَلَك فقد أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله : « وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً » .. وهذا يشمل القرآن الكريم كلّه ، عدا تلك الحروف المقطعة .. ولهذا وصف بأنه قرآن عربىٌّ ، أى يُقرأ ويفهم عند من يحسن العربية ويفهم لغتها . . ولهذا أيضاً أتبع بالعلّة التى من أجلها كان وحىُ هذا القرآن ، وهى التبليغُ والإنذار : « لتنذر أم القرى » أى أهل مكة « ومن حولها » أى ومَن حولها من أهل القرى والخيام . .

ووصفُ مكة بأنها أم القرى ، إشارة إلى أنها ستكون قِبلة المسلمين فى صلاتهم ، ومجتمعهم فى حَجِّهم . .

وقوله تعالى : « وتنذر يوم الجمع » .. أى وتنذر الناسَ بلقاء ربهم « يومَ الجمع » أى يوم القيامة ، حيث يَبعث الله الناس من قبورهم ، ويحشرون إلى ربهم ، فيجتمعون جميعاً ، لا يغيب فرد واحد منهم .

وقوله تعالى : « لا ريب فيه » الجملة حال من يوم الجمع ، أى أن هذا اليوم آت لاشك فيه . .

وقوله تعالى : « فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير » أى أن هـذا الجمع الذى يضم الناس جميعاً ، سينقسم هناك إلى فريقين : فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير .. فلينظر الإنسان إلى نفسه ، وإلى أىّ فريق من الفريقين ينتسب ..فإن كان من المؤمنين المصدِّقين بالله وبرسوله ، وباليوم الآخر ـ فهو من فريق أهل الجنة ، وإن كان من المكذبين الضالين ، فهو فى الفريق المدعوّ إلى السعير . .

* قوله تعالى :

« ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولـكن يدخل من يشاء فى رحمته والظالمون مالهم من ولىّ ولا نصير » .

أى أن الله سبحانه وتعالى ، قد قضى فى عباده أن يكون فريق منهم فى الجنة ، وفريق فى السعير ، كما يقول سبحانه : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » (٢ : التغابن) . . هكذا كانت مشيئة الله فى عباده .. ولو شاء سبحانه لجعل النـــاس أمة واحدة ، ولأدخلهم يوم القيامة مُدخَلاً واحداً . .

وقوله تعالى : « ولـكن يدخل من يشاء فى رحمته » أى أنّ مَن أراد الله سبحانه بهم خيراً ، هداهم إلى الإيمان ، وأدخلهم فى رحمته ،

وأنزلهم منازل جناته ورضوانه .. فضلا منه وإحسانا، وكرماً .. جعلنا الله منهم ..

وقوله تعالى: «والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير» .. اختلَفَ فيه النظم، فجاء على غير ما يقتضيه ظاهر المقام، الذى يقضى بأن يكون المعادل لقوله تعالى: «ولكن يدخل من يشاء فى رحمته» — هو: «ويَحرم من يشاء منها» ..

فما سرّ هذا؟

السرّ — والله أعلم — هو أن الله سبحانه، هو صاحب المشيئة المطلقة التى لا معقب لها، وهو سبحانه بهذه المشيئة يفعل ما يشاء فى خلقه، فيعذّب من يشاء، ويرحم من يشاء .. «من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم» (٣٩: الأنعام) ..

تلك هى مشيئة الله المطلقة الغالبة «وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخِيَرَةُ» (٦٨: القصص) ..

ومع هذه المشيئة الغالبة المطلقة لله سبحانه، فقد جعل جلّ شأنه للإنسان — فضلا منه وكرما — مشيئةً، تقود فطرته، لتلتقى مع مشيئة الله، وتجرى فى محيطها العام المتدفق ..

ولكن الإنسان — وبمشيئة الله الغالبة — أفسد فطرته، فجمحت به إرادته عن أن يستقيم على سواء السبيل، فكان بهذا ظالما، جائراً عن قصد السبيل القويم .. فالظالم هو الوصف الذى يَرِدُ على كل إنسان عاقل رشيد مريد، إذا هو كان فى موقع انحرف فيه عن طريق الحق الذى قام عليه الوجودُ كلُّه ..

وهذا الانحراف ، هو بمشيئة لله سابقة غالبة ، ولكنّ للإنسان كسباً فى هذا الانحراف ، ومشيئةً متلبسة به . .

فالأمر فى ظاهره ، هو : أن هذا الظلم والانحراف من كسب الإنسان ، وهو فى باطنه بمشيئة غالبة لله ، وقَدَرٍ سابق ! ولله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد : « لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون » (٢٣ : الأنبياء) . .

قوله تعالى :

* « أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولىّ وهو يحيي الموتى وهو على كل شىء قدير » .

أى أن هؤلاء الظالمين ، قد اتخذوا من دون الله أولياء يرجون نصرهم . ويبتغون العزّة عندهم . . « فالله هو الولى » وحده ، لا يملك معه أحدٌ نصراً ، ولا عزّا . . « هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا » (٤٤ الكهف) .

وقوله تعالى : « وهو يحيي الموتى » إشارة إلى البعث ، وأنه حقيقةٌ مقررة ، وأن إنكار المنكرين لا ينفعهم من لقاء هذا اليوم ، ولا يصرفه عنهم ، بل إنهم مبعوثون ، ومحاسبون حساباً عسيراً . . « ألاَ يومَ يأتيهم ليس مصروفاً عنهم » (٨ : هود) .

وقوله تعالى : « وهو على كل شىء قدير » تأكيد للبعث ، وأن إحياء الموتى واقع فى قدرة الله التى لا يعجزها شىء .

قوله تعالى :

* « وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله ، ذلكم الله ربى ، عليه توكلت ، وإليه أنيب » .

هو معطوف على قوله تعالى : « وهو على كل شىء قدير » . . الذى هو من صفات الله سبحانه وتعالى ، الذى يحيى الموتى ، ويقْدِر على كل شىء ، وإليه مردّ الحكم فيما اختلفتم فيه . . فهو سبحانه الذى يقضى فى هذا الاختلاف الذى خرجتم به أيها الظالمون عن دعوة الحقّ ، وعن طريق الإيمان .

وقوله تعالى : « ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب » . . أى قل لهم أيها النبى : ذلكم المتصف بتلك الصفات ، هو ربى الذى آمنت به ، والذى أدعوكم إليه ، الذى عليه توكلت ، فجعلت ولائى له ، ومعتمدى عليه ، والذى إليه أرجع فى كلّ أمورى ، وأتوب إليه من كل ذنب .

قوله تعالى :

* « فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

هو من عطف البيان على قوله تعالى : « ذلكم الله ربى » . . أى ربى الذى عليه توكلت وإليه أنيب ، هو «فاطر السموات والأرض» ، أى خالقهما ، وموجدهما ابتداء ، على غير مثال سبق .. ومنه الفطرة ، وهى أصل الخِلقة .

ويمكن أن يكون هذا وما بعده من قول الرسول الكريم ، استكمالا لقوله : « ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب » . . ويمكن أن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى ، تعقيبا على إقرار الرسول بوحدانية ربّه ، وتوكله عليه . . أى أن هذا الربّ الذى اتّخذه الرسولُ ربًّا له ، وتوكّل عليه ، وأناب إليه ـ هو فاطر السموات والأرض .

وقوله تعالى : « جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا » أى هذا الربّ الذى خالق السموات والأرض ، هو الذى خلقكم ، وهو الذى « جعل لكم من أنفسكم أزواجا » أى جعل لكم من جنسكم ، ومن طبيعتكم أزواجا

لتسكنوا إليها ، وتألفوا الحياة معها ، كما أنه سبحانه قد جعل لكم من الأنعام أزواجاً ، ذكراً وأنثى ؛ لتتوالد ، وتتكاثر ، وتنتشر بينكم ، وتتسع لحاجتكم منها ، ركوباً ، وحملا ، وطعاماً .

وقوله تعالى : « يذرؤكم فيه » .

الذّرْء : إظهار عوالم المخلوقات ، التي كانت مكنونة في علم الله سبحانه وتعالى ـ ومنه الذُّرْأة ، وهى بياض الشيب ، لأنه ظهر بعد خفاء .

ومعنى الآية الكريمة ، أن الله سبحانه بهذا التزاوج بين الرجل والمرأة ، كثّر نسلَ الإنسان ، وأظهر به ماقدّر من مخلوقات بشرية ، من أصلاب الآباء ، وأرحام الأمهات .

والضمير فى « فيه » يعود إلى مصدر مفهوم من قوله تعالى : « أزواجا » أى تزاوجاً بين الذكر والأنثى ، فى عالم الأحياء ، من إنسان وحيوان .. فكأن هذا التزاوج هو الظرف،أو الوعاء الذى تتشكل فيه عوالم الأحياء ، أى يكثّركم فى هذا التزاوج . .

وقوله تعالى : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

هو مبالغة فى نفى المثلية عن الله سبحانه وتعالى ، وذلك بنفى المثلية عن مثله ـ تعالى الله سبحانه عن أن يكون له مثل . . فإذا انتفت المثلية عن المثل ، وهذا المثل ـ أيا كان ـ لا يساوى من يماثله ـ فإن انتفاءها عن الأصل الذى يقاس عليه المثل ـ أولى ـ بمعنى أنه ليس كمثل مثل الله شىء فى هذا الوجود ، فما بالك بمن يطلب ليكون مثلَ الله ذاتِه ؟ ذلك مستحيل بعدمستحيل . .

قوله تعالى :

« له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شىء عليم » .

القاليد : جمع مِقْلَد ، وهو ما يحيط بالشيء ، ومنه القلادة ، لأنها تحيط بالعنق .

أى أن الله سبحانه وتعالى ، له السلطان القائم على السموات والأرض ، وبيده سبحانه تصريفهما ، لا يملك أحد معه من الأمر شيئاً .

الآيات : (١٣ — ١٦)

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦) ﴾

التفسير :

قوله تعالى :

﴿ شرع لكم من الدِّين ماوصَّى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا

به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبرُ على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب » .

أى ومن نعم الله سبحانه وتعالى ، الذى خلقكم وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من الأنعام أزواجاً ـ أنه شرع لكم ديناً هو دينُه الذى ارتضاه ، وهوالدين الذى وصّى به نوحاً ، وهو الذى جاءكم به نبيكم محمدٌ ، وحياً من ربه ، وهو ما وصى به الله سبحانه الأنبياء ، إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، عليهم السلام .

وقوله تعالى : « أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » هو بيان لما وصى الله سبحانه به أنبياءه عليهم السلام ، وهو أن يقيموا الدين ، وأن يبلّغوه أقوامهم ، وأن يكونوا جميعاً على هذا الدين ، دينِ الله الذى ارتضاه لهم جميعاً ، وألاّ يتفرقوا فيه ، فيكون لكل نبىّ ، ولكل قوم دينٌ .. إن دين الله واحد ، هو الإسلام ، كما يقول سبحانه : «إن الدين عند الله الإسلام» (١٩ : آل عمران) وكما يقول سبحانه : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » (١٥٣ : الأنعام) . . وكما يقول جل شأنه فيما أخذه من ميثاق على الأنبياء جميعاً : « وإذ أخذ الله ميثاقَ النبيين لَمَا آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنُنّ به ولتنصرُنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين» (٨١ : آل عمران) وكما يقول النبى الكريم: «الأنبياء أبناء عَلاّت ، أمهاتهم شتّى ودينُهم واحد» .

وهذه الوصاة للأنبياء ، هى وصاة ملزِمة لأقوامهم باتباع دين الله هذا ، وهو الإسلام الذى كمل به الدِّين ، والذى أدركوه وبين أيديهم بعض منه .. ومطلوب من أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ أن يؤمنوا بهذا الدين كلّه ، وألا يتفرقوا فيه ، فيذهب كل فريق ببعض منه ، فيكون لكل جماعة دين من دين الله الواحد .

وهنا سؤال ، وهو : لماذا اختلف النظم فى هذا المقطع من الآية الكريمة ، فلم يجر على نسق واحد ؟ فقال تعالى : « ما وصّى به نوحا » ثم قال سبحانه : « والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » ولم يجىء النظم هكذا : « وما وصّيناك به » بل جاء هكذا : « والذى أوحينا إليك » .. فما سر هذا ؟

الجواب : — والله أعلم — من وجوه : فأولا أن ماأوحَى الله به سبحانه وتعالى إلى النبى من آياته وكلماته ، لم يكن مجرّدَ وَصاة .. بل إنه يحمل مع هذه الوَصاة المعجزَة التى تدلّ على أنه كلام الله ، على حين أن ما كان يوحَى إلى الأنبياء من وصايا لم يكن كلاماً يحمل فى طياته معجزة متحدية .. وهذا هو بعض السر فى كلمة « أوحينا » المقابلة لكلمة « وصينا » .. إذ أن الوحى فيه إشاراتٌ ، ولطائفُ ، لا تنكشف إلا لذوى البصائر والأفهام ، على خلاف الوَصاة فإنها تجىء صريحةً واضحةَ الدّلالة ، تعطِى كلماتُها كلّ ما فيها مرة واحدة .

وثانياً : أن هذا الوحى يحتاج إلى عقل يتدبّر هذه الكلمات الموحى بها ، وهذا يعنى أن المبلّغ إليهم هذا الوحىَ ، ينبغى أن يتدبروه ويعقلوه ، وأن يستخلصوا منه مواقع العبر والعظات ، وأن يأخذوا منه الأدلة والبراهين على مايدعوهم إليه من الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والتصديق برسوله ، وملائكته وكتبه ورسله ..

وهذا يعنى — من جهة أخرى — أن المبلّغين برسالات الرسل السابقين لم يكونوا مطالبين باستخلاص الدليل والبرهان على صدق الرسول ، وعلى صدق ما جاءهم به من وصايا ، إذ كان مع الرسول آيةُ صدقِه التى بين يديه من المعجزة أو المعجزات المادية ، التى يمكّن الله سبحانه وتعالى له منها ..

وثالثاً : فى الوحى بالشىء رفقٌ ولُطف بالموحَى إليه ، ومخاطبته بالإشارة دون العبارة .. وهذا يعنى أن الذين يخاطَبون بهـذا الوحى هم فى درجة من الفطنة والذكاء وكمال العقل ، بحيث لا يؤخذون بالزجر والقهر ، وإنما يقادون بالحكمة ، والمنطق ، وهذا ما يتفق والرسالةَ الإسلامية ، التى كمل بها دين الله ، والتى من شأنهـا أن تلتقى بأوفر الناس حظًّا من الكمال الإنسانى . .

وسؤال آخر . .

وهو : لمـاذا لم يجىء ذكرُ الأنبياء على نسق فى الترتيب الزمنى ، فجاء ذِكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد نوح ، وقبل إبراهيمَ وموسى وعيسى عليهم السلام ؟ . .

ثم لماذا وقد سبق ذكره — صلوات الله وسلامه عليه — إبراهيم وموسى وعيسى — لماذا لم يسبق نوحاً أيضاً ؟

والجواب — والله أعلم — من وجوه كذلك :

فأولا : قُدِّم النبىُّ صلوات الله وسلامه عليه ، على إبراهيم وموسى وعيسى ، لأن رسالته هى مجمع رسالات الأنبياء عليهم السلام ، وكتابه الذى أُنزل عليه هو المهيمن على الكتب السماوية .. إذ قد جمعت الرسالة الإسلامية ما تفرق فى الرسالات السابقة ، فكان الإسلام هو الدين كلُّه ، دين الله الذى كان لكل نبى نصيب منه .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » (١٩ : آل عمران) وقوله سبحانه : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » (٣٣ : التوبة) وقوله سبحانه : « قل يـٰأهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيلَ وما أنزل إليكم

من ربكم وَلَيَزِيدَنَّ كثيراً منهم ما أُنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً » (٦٨ : المائدة) وقوله تبارك وتعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » (٨٥ : آل عمران) .

وهذا يعنى أن من آمن بالرسالات السابقة ، وأقامها على وجهها ، لابد أن يُسْلِمَه ذلك إلى الإيمان بالإسلام ، لأنها من الإسلام ، مادةً وروحاً .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » (٤٨ : المائدة) .

وثانياً : قدم نوح — عليه السلام — لأنه أول الأنبياء أصحاب الرسالات ، وقد كانت له دعوة إلى الله ، وكان له قوم يدعوهم إلى الله ، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً كما ذكر القرآن .. وبهذا تعتبر رسالته مفتتحَ الرسالات إلى دين الله ، وهو الإسلام . . فكان تقديمه لا زماً لهذا الاعتبار . .

وثالثاً : أن تقديم نوح لم يكن إلا لمجرد الإشارة إلى أن دعوة الإسلام دعوة قديمة قِدَمَ الإنسانية ، يوم بلغت الإنسانية مبلغ الخطاب والتكليف ، ولم يكن لنوح حين جاء الإسلام ، قومٌ أو كتاب ، حتى يكون لتقديم الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — على دعوة نوح حجةٌ على قومه ، وهيمنةٌ على كتابه ، على خلافِ مَن هم مِن أتباع إبراهيم وموسى وعيسى ، فقد كانوا بمشهد من عصر النبوة ، وبمسمع من دعوة النبى ، وهم لهذا مطالبون باتباع هذا النبى والإيمان به ، وبكتابه المهيمن على ما فى صحف إبراهيم ، وعلى التوراة والإنجيل .. فقد كان اليهود أتباع موسى ، وكتابه التوراة ، وكان النصارى أتباع عيسى ، وكتابه الإنجيل ، وكان المشركون على دين

إبراهيم ، وإن كانوا جميعـــا قد تنكّبوا الطريق السَّوِىّ للدين الذى يدينون به . .

وقوله تعالى : « كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » — هو نخس للمشركين وتبكيت لهم ، وازدراء لغرورهم الذى أراهم فى أنفسهم هـذا الذى باعد بينهم وبين كتاب الله ، ورسول الله ، فأنِفُوا أن يستجيبوا لبشر مثلهم ، وأن يتناولوا من يده الدواء الذى يشفى عللهم ، ويذهب بأسقامهم .. لقد كَبُر عليهم هذا ، ورأوه مما ينزل بقدْرهم وينال من مكانتهم . . وإنه لعجيب غاية العجب ، أن يكون هذا موقفهم من كتاب هو المهيمن على الكتب السماوية كلها ، ومن رسول هو خاتم الرسل، ورسالته خاتم رسالات السماء ، ومن دين هو مجتمع دين الله ؟ « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .. فهذا هو الدين الذى شرعه الله سبحانه وتعالى لهم . واصطفى لحمله إليهم صفوةَ أنبيائه ،وخاتم رسله .. فكيف يستقبلون هذه المِنّة العظيمة بهذا الكِبر الأحمق ، وهذا الغرور السفيه ؟ .

وقوله تعالى : « الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب » . . هو تعقيب على موقف هؤلاء المشركين من دعوة الله سبحانه وتعالى ، التى يدعو بها رسولُه الناسَ إلى الله .. إذ ليس كلُّ مدعوٍّ مستجيباً لهذه الدعوة ، ولكن الله سبحانه وتعالى يختار من بين المدعوين من يدخلهم فى ضيافتهم ، ويأخذ بيدهم إلى رحاب كرمه وإحسانه ، فيستجيبون للداعى مسرعين ، فى غير تردُّد أو إبطاء ، وهناك آخرون من بين المترددين والمبطئين سوف يلحقون بهؤلاء السابقين ، ويدخلون فى ضيافة الله سبحانه ، إذا هم نزعوا أقدامهم من هذا الموقف المتردد الذى هم فيه ، وأخذوا طريقهم

إلى الله . . إن الله سبحانه ــ سيهديهم إليه ، وييسر لهم سبل الوصول إلى رحاب فضله وإحسانه .. « ويهدى إليه من ينيب » . . وهكذا تختلف منازل الناس عند الله . . فأناس يجتبيهم ويختارهم ، ويحملهم حملا على مطايا الفضل ومراكب الإحسان . . وأناس ينتظر بهم حتى يكون منهم سعى إليه ، واتجاه إلى مواقع رحمته. .وعندئذ تلقاهم عناية الله على أول الطريق ، فتقودهم إليه ، وتنزلهم منازل رضوانه..وأناس قعدوا حيث هم فأركسوا فى ضلالهم...إنهم لم يكونوا من أهل الاجتباء ، فتخف بهم مراكب النّجا إلى الله ، ولم يكونوا من ذوى القدرة على السباحة والعوم ، الذين تمسك أيديهم بحبل الله ، فيُسلمهم ذلك الحبل إليه .. بل كانوا من غير هؤلاء وأولئك ، ممن لم يرد الله لهم النجاة ، فكانوا من المغرقين . « أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم » .

قوله تعالى :

* « وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمّى لَقُضِىَ بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب » .

أى أن أهل الكتاب ــ من اليهود والنصارى ــ كانوا على حال واحدة من الكفر والضلال ، قبل مبعث الرسل إليهم ، فلما بعث الله فيهم الرسولين الكريمين ــ موسى وعيسى ــ وجاءهم العلم على يديهما ، وبيّنا لهم الهدى من الضلال ــ تفرقوا شيعاً ، فكانوا يهودَ ونصارى ، وما كان اليهود : مؤمنين ، وكافرين ، ومنافقين ، وكان النصارى: مؤمنين وكافرين ومشركين . . وهكذا تنازع القوم أمرهم ، وفرقوا دينهم ، كما يقول الله سبحانه وتعالى فيهم : « إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لستَ منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله . . ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » (١٥٩ : الأنعام) .

وقوله تعالى : « ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمًّى لقُضىَ بينهم » . .

أى ولولا ما سبق من قضاء الله ، فى أن يؤخر حساب هؤلاء المختلفين من أهل الكتاب، إلى أجل مسمى ، موقوت لهم ، وهو يوم القيامة ـ لولا هذا الذى سبق من قضاء الله « لقُضى بينهم » ، أى لفصل بينهم ، وأخِذَ كل منهم بما يستحق من جزاء فى هذه الدنيا ، فنُجِّى الذين آمنوا ، ووقع بأس الله بالقوم الظالمين .

وقوله تعالى : « وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب » ـ الضمير فى « منه » يعود إلى « الدِّين » فى قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا » وهو دين الإسلام، الذى يدعو إليه رسول الله بالكتاب الذى أُنزل إليه من ربه . .

والذين أورثوا الكتاب من بعدهم ، هم أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى ، الذين عاصروا الدعوة الإسلامية ، فهؤلاء الذين يدينون باليهودية والنصرانية ، هم الذين أوتوا الكتاب من بعد آبائهم الذين أورثوهم ـ مع هذا الكتابِ الذى فى أيديهم ـ فرقةً فيه ، واختلافاً عليه ، وهم لِمَا ورثوا من فرقة وخلاف فى دينهم ـ فى شك وارتياب من هذا الدين الإسلامى الذى يُدْعَوْن إليه ، إذ كان دينهم الذى هو من هذا الدين ، قد تغيرت معالمه ، وطُمِست وجوهه ، فلما التقى بدين الله الذى يَرُدُّ أصل دينهم إليه ـ لم يجدوه ملتقيًا معه ، ولا آخذاً سبيلَه ، فكان ذلك الشك المريب منهم فى دين الله !

قوله تعالى :

* « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل

الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

« الفاء » فى قوله تعالى : « فلذلك » ـ للسببية ، والإشارة إلى هذا الخلاف الذى وقع بين أهل الكتاب فى دينهم ، والذى أدى بهم إلى الشك والارتياب فى النبى ؛ وفيما يدعو إليه من دين الله . .

أى فلأجل هذا فلا تلتفت إلى أهل الكتاب ، ولا تقف طويلا معهم ، إذ كانوا وتلك حالهم من الشك والارتياب . . « فادع واستقم كما أمرت » أى فقم بدعوتك ، واصدع بما تُؤمَر ، مستقيما عليه ، غير ناظر إلى ما يجىء إليك من القوم من جدل ومراء . . « ولا تتبع أهواءهم » فإن ما يجادلون به ، هو أهواء وضلالات . . « وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب » أى قل آمنت بهذا الكتاب ، و بما أنزل الله من كتاب سماوى سابق لهذا الكتاب الذى بين يدىّ .

كما يقول الله تعالى لنبيه الكريم : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (٨٤ : آل عمران) .

وتنكير الكتاب فى قوله تعالى : « من كتابٍ » وجرّه بمن الدالة على الاستغراق ـ للإشارة إلى أن النبى مؤمن بكل كتاب نزل من عند الله .

قوله تعالى : « وأمرت لأعدل بينكم » أى أمرت لأدعوكم إلى دين الله ، بالعدل والإحسان ، لا أكرهكم عليه ، ولا أجادلكم إلا بالتى هى أحسن .

وقوله تعالى : « الله ربنا وربكم » أى أن الرب الذى أدعوكم إليه ليس ربىّ وحدى ، حتى يكون لى مصلحة خاصة فى دعوتكم إليه ، فهو سبحانه ربكم كما هو ربى . . وفى هذا تعريض باليهود الذين يجعلون الله سبحانه وتعالى ربًّا لهم وحدهم ، يؤثرهم بما عنده من خير وإحسان ، فيسمونه ربَّ إسرائيل ،

ويسمونه رب الجنود ، ويحملونه قائداً لجيشهم فى الحرب ، كما تصرح بذلك التوراة التى فى أيديهم ، فى أكثر من موضع منها . .

وقوله تعالى : « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » أى أن ما نعمله من خير أو شر ، هو لنا وحدنا ، ونجزيُّون به ، على الخير خيراً والسوء سوءاً . . وكذلك ما تعملونه أنتم ، هو لكم ، تجزون به ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر . . « كل نفس بما كسبت رهينة » (٣٨ : المدثر) .

وقوله تعالى : « لا حجة بيننا وبينكم » أى لا جدل بيننا وبينكم حتى تحاجّونا ونحاجّكم . . « لا حجة بيننا وبينكم » .

وقوله تعالى : « الله يجمع بيننا وإليه المصير » أى أن الله سبحانه وتعالى ، هو الذى يقضى فيما بيننا وبينكم من خلاف ، يوم يجمع بيننا جميعاً ، يوم القيامة ، فيقضى بالحق ، ويجزى كلاً بما هو أهلٌ له . . « وإليه المصير » والمرجع . .

قوله تعالى :

* « والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له ، حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد » .

« الذين يحاجون فى الله » أى يجادلون فى دينه ، وفى كتابه الذى أنزله على رسوله . . « من بعد ما استجيب له » أى يجادلون فى دينه من بعد أن استجاب له الناس ، وآمنوا به ، واطمأنوا إلى دينٍ . . فهذا الجدل وإن كان قد يقبل من غير المؤمنين بالله ، فإنه غير مقبول من المؤمنين به ، المستجيبين له من أهل الكتاب إذ لا يتفق إيمان بالله ، وجدل فيه .

واليهود هم المقصودون بهذا الحديث ، وهم الذين وقع عليهم غضب الله فى الدنيا ، والعذاب الشديد فى الآخرة . . فهم مؤمنون بالله ، ولكن إيمانهم هذا مشوب بالباطل والضلالِ ، بما بدلوا وحرفوا فى دين الله . .

ولقد كانوا يعرفون صدق النبي ، ويعرفون صدق الدين الذى جاء به ،. ولكنهم جحدوا هذا ، حسداً وبغياً ، فأوردوا أنفسهم موارد الهلاك ، وماتوا ظمأ دون أن يَرِدُوا الماء الحاضر بين أيديهم . . وفى هذا يقول الله تعالى فيهم : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين * بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين »(٨٩ - ٩٠ البقرة) .

وفى إسناد الفعل : « استجيب له » إلى غير فاعله ، ولم يسند إلى الفاعل هكذا : « من بعد ما استجابوا » - إشارة إلى أن استجابتهم لم تكن استجابة خالصة من الشك والارتياب ، ولهذا لم يسند فعلُ الاستجابة إليهم .

وقوله تعالى : « حجتهم داحضة عند ربهم » أى هذا الجدل الذى يجادل به أهل الكتاب من اليهود ، وهذه الحجج التى يوردونها للاحتجاج على الرسول بها - هى حجج داحضة ، أى باطلة ، توقع المسك بها فى مزالق الكفر والضلال . . والدَّحض من الأرض : الزلق ، الذى تزلّ به الأقدام . .وعليهم غضب فى الدنيا ، ولهم عذاب شديد فى الآخرة

الآيات : (١٧ — ٢٠)

* « اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ

بَعِيدٍ (١٨) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩)
مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ
الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب » . .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، أن الآية التى قبلها توعّدت الذين يجادلون فى الله وفى آيات الله ، من بعد ما استجابوا له ، وآمنوا به — توعدتهم ببطلان حجتهم عند الله ، وبحلول غضبه سبحانه عليهم فى الدنيا ، وعذابه الشديد لهم فى الآخرة ـ فكان قوله تعالى : « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان » ـ كان ذلك بياناً لمضمون ما تقرر فى الآية السابقة ، وأن الذين يحاجون فى الله وفى الكتاب الذى أنزله من بعد ما استجيب لله منهم ـ حجتهم واهية باطلة ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ، لأن الله سبحانه هو الذى أنزل هذا الكتاب بالحق ، وأقامه فى الأرض ميزان عدل وحق بين الناس . . وبهذا الميزان ـ ميزان الحق والعدل ـ ستوزن أعمال الناس يوم القيامة « فأما من ثقلت موازينه * فهو فى عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية » (٦ — ٩ : القارعة) .

وقوله تعالى : « وما يدريك لعل الساعة قريب » استفهام يراد به التقرير ، والإنذار بقرب الساعة ، وأن المؤمنين بها ، على رجاء اللقاء بيومها . .

قوله تعالى :

* « يستعجل بها الذين لايؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ، ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد » .

أى أن الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ولا يرجون لقاء الله ، يستعجلون الساعة ، استعجال التكذيب والتحدِّى ، ويقولون : « أيّان يوم الدين » ؟ أى متى هذا اليوم ؟ .

وفى تعدية الفعل « يستعجل » بحرف الجر « الباء » وهو فعل متعد بنفسه ، إذ يقال مثلا : يستعجل الذين لا يؤمنون بالآخرة الآخرةَ ـ والله يقول: (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) (١ ـ النحل) ـ إشارة إلى تضمين الفعل معنى المطالبة بها للتعجيز . . أى يطالب بالآخرة ، ويستعجلون يومها ، أولئك الذين لايؤمنون بها . .

واستعجال الذين لا يؤمنون بالآخرة ليوم القيامة ، لأنهم يستبعدون وقوعه ، كما أنهم لا يدرون ما يأتيهم منه من أهوال إذا وقع . . « يوم هم على النار يفتنون * ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون » (١٣ — ١٤ : الذاريات) . .

وقوله تعالى : « والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق » ـ هو بيان لموقف المؤمنين من يوم القيامة ، وهو موقف الخائف المشفق ، لأنه يومُ الحساب والجزاء ، ويومُ الأهوال والشدائد : « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سُكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » (٢ : الحج) .

وفى النظم القرآنى ما يبدو فى ظاهره ، أنه جاء على غير الترتيب الذى

يقع فى نفس المؤمن ، من مشاهد القيامة . . فالظاهر أن يؤمن المؤمن أولا بأن الساعة حق ، ثم تكون خشيته ، ويكون إشفاقه من لقائها . . ولكن النظم القرآنى قدم الخشية للقيامة ، والإشفاق منها ، على العلم بها وبأنها حق .. هذا ما يبدو فى ظاهر الأمر ..

والذى ينظر فى النظم القرآنى ، يرى أن الإشفاق قد تقدمه الإيمان ، فالذين يشفقون من الساعة هم الذين آمنوا بالله وباليوم الآخر .. كما يقول سبحانه : « والذين آمنوا مشفقون منها » .. إذ لا يكون المؤمن مؤمنا بالله إلا إذا كان مؤمنا باليوم الآخر .. أما العلم فهو مادة من المعرفة التى يؤيدها الدليل ، ويدعمها البرهان ، حيث يجىء إلى الإيمان الغيبى ، فيؤكده ، ويثبت دعائمه فى القلب ..

وقوله تعالى : « ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد » ـ هو حكم على الذين يشكّون فى الساعة ، ويكذبون بها ، ويمارون ويجادلون فيها ـ حكم عليهم بالضلال البعيد عن الحق : « فماذا بعد الحق إلا الضلال؟» (٣٢ : يونس) وماذا بعد الضلال إلا البلاء وسوء المصير ؟ .

قوله تعالى :

* « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن قوله تعالى : « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان » يشير إلى ما لله سبحانه وتعالى من لطف بعباده ، ورحمة بهم ، إذ بعث فيهم رسولَه ، وأنزل إليهم كتابه هدًى ورحمة . .

وقوله تعالى : « يرزق من يشاء » ـ إشارة إلى أن هذا الرزق الذى يسوقه الله سبحانه من لطفه ورحمته ، هو رزق الإيمان ، والهدى ، ففى هذا الرزق تزكيةُ النفوس وطهارتها بالإيمان وتقبلها للهدى ، واتصالها بالملأ الأعلى ، واستعدادها لدخول هذا الملأ ، فى جنات النعيم . .

وقوله تعالى : « وهو القوى العزيز » ـ إشارة إلى أنه سبحانه هو صاحب السلطان ، المتصرف فى ملكه كما يشاء ، لا ينازعه أحد فيما يسوق من لطفه ورحمته إلى من يشاء من عباده .

قوله تعالى :

* « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب » .

أى هذا رزق الله ـ من هدى ونور ـ ممدود مبسوط . . فمن كان يريد الهدى والإيمان ، ويعمل للآخرة ، ويغرس فى مغارس الإحسان ، يزد له الله سبحانه وتعالى فيما غرس ، ويبارك عليه ، ويضاعف له الجزاء أضعافا مضاعفة . . ومن أعرض عن الآخرة ، وعمل للدنيا ، وغرس فى مغارسها ، أخذ ثمر ما غرس فى دنياه ، واستوفى نصيبه منه ، حتى إذا جاء إلى الآخرة ، جاءها ولا نصيب له فى خيرها . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

« من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء ، لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحوراً * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » (١٨ — الإسراء)

الآيات : (٢١ — ٢٦)

* « أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١)

تَرَى ٱلظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ (٢٢) ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَاطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ ٱلسَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَٱلْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم » .

هو إضراب على موقف المشركين من قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » .

ففى هذا دعوة المشركين إلى الإيمان بهذا الدين الذى شرعه الله لهم ، وإذ هم أبَوا أن يستجيبوا لهذه الدعوة ، فقد أضرب الله سبحانه عن دعوتهم إلى هذا الدين الذى شرعه لهم ، ثم كشف سبحانه عن العلة التى تُمسك بهم عن الاستجابة

لهذه الدعوة، وهى أنهم على شريعة شرعها لهم رؤساؤهم، وسادتهم، وهى شريعة باطلة من مبتدعات أهوائهم، ونضيح ضلالاتهم، لم يأذن بها الله، ولم يرسل بها رسولاً من عنده..

وفى إطلاق الشركاء على زعماء الباطل، ودعاة الضلال، إشارة إلى أنهم يَدينون بهذه الشريعة الباطلة، ويَسْبَحُون فى ضلالها، مع أتباعهم.. فهم جميعاً ـ أتباعاً ومتبوعين ـ على سواء فى هذا الضلال..

وقوله تعالى: «ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم» ـ كلمة الفصل، هى الكلمة التى سبقت من الله سبحانه وتعالى بأن يؤجل عذابهم إلى يوم القيامة «إن يوم الفصل كان ميقاتا» (١٧ : النبأ)

ولولا هذه الكلمة لقُضى بينهم فى الدنيا، ولأخذهم العذاب كما أخذ الظالمين قبلهم..

وقوله تعالى: «وإن الظالمين لهم عذابٌ أليم» أى أن هؤلاء الظالمين إذا لم يقع بهم العذاب الدنيوى، فإنه ينتظرهم عذاب أليم فى الآخرة..

قوله تعالى:

«تَرَى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روْضات الجنات لهم مايشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير»

هو انتقال بهؤلاء المشركين الظالمين من موقفهم فى هذه الدنيا، إلى يوم القيامة، حيث يرَوْن العذاب، فيقع فى نفوسهم أنهم صائرون إليه، وأن ماأنذروا به فى الدنيا قد وقع.. فقد كانوا لا يؤمنون بالبعث، ولا يؤمنون بالعذاب.. وها هو ذا يوم البعث.. ومن ورائه العذاب المرصود لهم.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «ورأى المجرمون النارَ فَظَنُّوا أنهم مواقِعُوها ولم يجدوا عنها مَصْرِفًا» (٥٣ : الكهف)

وقوله تعالى : « وهو واقع بهم » الضمير للعذاب الذى جاء ذكره فى الآية السابقة فى قوله تعالى : « وإن الظالمين لهم عذابٌ أليمٌ » .. وفى عدم ذكره ، والإشارة إليه بضميره ـ إشارة إلى أنه شىء مهول ، وأن ما رأوا منه ليس إلا إشارة دالة عليه ، أما ما غاب عن أعينهم منه ، فهو الذى سيعرفونه حين يلقوْنه ويعيشون فيه ، وهو مما لا يحدّه وصفٌ ، من هولٍ وبلاء . .

قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ فى روضاتِ الجناتِ لهم ما يشاءون عند ربهم » . . هو بيان لما يَلْقىَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى هذا اليوم ، من نعيم فى روضات الجنّات ، التى عَرْضها السمواتُ والأرض « لهم ما يشاءون عند ربّهم » من عطائه الممدود ، بلا حساب ، .

وقوله تعالى : « ذلك هو الفضل الكبير » ـ الإشارة هنا ، إلى ما ينال المؤمنون من عطاء ربّهم ، وما يتلقوْن من فضله وإحسانه . . فذلك هو الفضل الكبير حقاً ، الذى يعدل القليلُ منه كلّ ما فى الدنيا من مال ومتاع . . والله ذو الفضل العظيم .

قوله تعالى :

* « ذلك الذى يبشّر اللهُ عبادَه الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة فى القُرْبَى ومن يقترفْ حَسَنَةً نَزِدْ له فيها حُسْناً إن الله غفور شكور »

الإشارة بذلك ، بدل من الإشارة فى قوله تعالى : « ذلك هو الفضل الكبير » أى ذلك الفضل الكبير ، هو ذلك الذى يبشر الله به عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. يبشرهم به على لِسان رسوله فيما يُنَزّل عليه من آيات ربّه ، ويبشرهم به عند لقاء الموت حيث تلقاهم الملائكة بما أعدّ الله لهم من نعيم فى الآخرة ، وحيث يَروْن بأعينهم مقامَهم فى الدار الآخرة ، ويبشرهم به يومَ البعث ، حيث

يقومون ونورُهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، كما يقول الله تعالى : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليومَ جنات تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيمُ » (١٢ : الحديد)

قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودةَ فى القربى » .

أى أن هذا الخير الكثير الذى يحمله النبىّ إلى المؤمنين ، ويسوق إليهم ما يبشرهم به ربهم ، من فضل وإحسان يلقونه فى الآخرة « فى روضات الجنات لهم فيها ما يشاءون » ـ هذا كله لا يطلب النبى منهم عليه أجراً ، فإن يكن ثَمَّةَ أجر فهو رعاية حرمة القربى بينه وبينهم ، وما ينبغى أن يكون بينه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وبينهم من رحمة ومودة ، . وهاهوذا — صلوات الله وسلامه عليه — يَصِلُهم بأعظم صلات الودّ بما يقدم إليهم من هذا الخير العظيم الذى يكفل لهم حياة طيبة كريمة فى الدنيا ، ونعيما ورضواناً فى الآخرة . .

ثم هاهم أولاء يَلْقَوْنه — صلوات الله وسلامه عليه — بالقطيعة ، ويرمونه بالعداوة ، غير مراعين للقرابة حقًّا ، أو حافظين لها عهداً ، أو مبقين على شىء من الإنصاف معه . . فلو أنهم أنصفوا القرابة ، لَمَا كان لهم أن يذهبوا إلى هذا المدى الذى ذهبوا إليه ، من قطيعة النبى ، والكيد له ، والتربص به .. لأنه صلوات الله وسلامه عليه — لم يكن قاطماً لهم ، أو متوجهاً بكيد إليهم ، أو متربصاً بسوء بهم ، بل إنه ليمد إليهم يداً كريمة بالخير والمعروف ، ويوجه إليهم دعوة رفيقة حانية ، تدعوهم إلى هذا الخير والمعروف . .

وكان من شريعة الإنصاف إن لم يقبلوا هذه الدعوة ، أن يردّوها برفق وأن يَدَعوا صاحبَ الدعوة وشأنَه مع من يستجيبون لدعوته ، ويطعمون

من مائدته ، لا أن يزعجوه ويزعجوا ضيف الله الذين دعاهم إليه ! .

هذا وجه من وجوه تأويل هذا المقطع من الآية الكريمة ..

ووجه آخر .. وهو أن النبي — صلوات الله وسلامه عليه — لا يسأل قومه أجراً على مايحمله إليهم من رحمة الله ، وفضله وإحسانه ، وإنما ذلك منه صلوات الله وسلامه عليه — هو مودة فى سبيل القُربى ، إذ آثرهم على غيرهم ، وجعلهم أولَ من يمد يده الكريمة إليهم بالنور الذى معه .. فهو منهم ، وهم أولى الناس ببرّه وإحسانه ..

وفى هذا يقول الله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » (١٢٨ : التوبة) ..

وقد بدأ النبىّ رسالته ، وما تحمل من هدى وخير ، بدعوة قومه إليها ، فكانوا أولَ من استفتح بهم النبى الكريم دعوته ، كما أمره الله سبحانه بذلك فى قوله : « وأنذر عشيرتك الأقربين » (٢١٤ : الشعراء) .

هذا ، ومن بعض التأويلات لهذا المقطع من الآية الكريمة أن المراد بالمودة فى القربى ، هى مودة آل البيت رضى الله عنهم ، وهى الأجر الذى يطلبه النبى — صلوات الله وسلامه عليه — من المؤمنين .. أى لا أسألكم أيها المؤمنون من أجر لى ، ولكن أسألكم المودة لآل بيتى . فهو الأجر الذى أسألكم إياه ، على ما أقدم إليكم من خير ، وما أحمل لكم من هدى ..

وهذا التأويل بعيد .. وذلك من وجوه :

فأولا : أن مودة المؤمنين بعضهم لبعض، هى من دين المؤمنين ، فالمؤمنون

كما يقول الله تعالى : « بعضهم أولياء بعض » .. وهم بهذا الولاء متوادّون، أو ينبغى أن يكونوا متوادين .. وأولى المؤمنين بمودة المؤمنين وولائهم ، أقربُهم إلى رسول الله .. فآل بيت رسول الله داخلون فى هذه المودة العامة التى بينهم وبين المؤمنين ، من باب أولى .. « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » ! فحبّ آل بيت رسول الله ومودتهم ، من إيمان كل مؤمن ، فلا يحتاج هذا إلى ذكر خاص ..

وثانياً : الأجر الذى يطلبه النبى — صلوات الله وسلامه عليه — ينبغى أن يكون لحساب الدعوة الإسلامية ، لا لشخصه ، ولا لذى قُربَى منه .. وهذا التأويل يجعل الأجر محصوراً فى هذا المعنى المحدود ، الذى يذهب بكثير من جلال هذا الأجر الذى لا يوفّيه أجرٌ مما فى هذه الدنيا من مال ومتاع. فالأجر الذى يطلبه النبىّ إنما يطلبه من الله ، كما يقول سبحانه على لسان أنبيائه .

« وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين » .
(١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠ : الشعراء)

وثالثاً : هذه الآية مكية ، وكان من آل بيت رسول الله كثيرون ممن لم يدخلوا فى الإسلام ، كعميه أبى طالب ، والعباس ، بل ومنهم من كان يؤذى النبى أذًى ، بالغاً ، ويكيد له كيداً عظيما ، كأبى لهب ، فلم يكن من المقبول — والأمر هكذا — أن تجىء دعوة السماء بمودة آل البيت الذين لم تتضح معالمهم فى الإسلام بعد .. وأولى من هذا أن تكون الدعوة بالمودة عامة ، بين النبى وقومه جميعاً ، وخاصة المشركين منهم ، ويكون معناها الدعوةَ إلى التخفف من عداوتهم للنبىّ ، وكيدهم له ، وتركه وشأنه ، مراعاة لتلك القرابة التى بينه وبينهم .. إذ لم يكن منه مساءة لهم ، بل كان ودودا لهم ، رحيما بهم ، يريد لهم الخير ، ويؤثرهم به ..

ورابعاً : أن الخطاب عام موجه إلى المشركين بصفة خاصة ، الذين

يحاجهم القرآن ، ويتهددهم بالنار ، ويعرض لهم فى مقابلها الجنة ، وما يلقى المؤمنون فيها . . « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم * ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير * ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » . .

أى لا أسألكم أجراً على هذا الخير الذى تنالونه من هذه الدعوة التى أدعوكم إليها ، والتى إن استجبتم لها بلغتم منازل الرضوان ، ونزلتم حيث ينزل عباد الله المكرمون فى جنات النعيم .. وذلك كله فى غير مقابل منى ، إلا أن ترعوا ما بينى وبينكم من قرابة ، هى التى جعلتنى أبدأ بكم ، وأوثركم على غيركم ، وهذا من شأنه أن يحملكم على رعاية هذه القرابة ، فلا تكونوا أنتم أولَ كافر بى ، ثم لا تكونوا أنتم أولَ من يسعى بالضر والأذى إلىّ . .

وقوله تعالى : « ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً » ..

هو دعوة إلى المشركين الذين يقفون هـذا الموقف العدائى من النبى ، أن يأخذوا جانب الخير الذى يدعوهم إليه ، وأن يتقبلوا منه هذه المودة التى يؤثرهم بها . . فمن استجاب منهم لهذه الدعوة ، وآثر الإحسان على السوء ، والإيمان على الكفر ، فإنه سيلقى جزاء إحسانه إحساناً مضاعفاً من الله . .

وفى قوله تعالى : « يقترف » وفى استعمال هذا الفعل فى مقام الإحسان ، على أنه يستعمل غالباً فى مجال الشرّ والمساءة « إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون » (١١٣ : الأنعام) فى هذا إشارة إلى أن اليد

التى تعمل السوء ، تستطيع أن تفعل الإحسان ، وأن الإنسان الذى يسلك طريق الشر ، هو نفسه يمكن أن يسلك طريق الخير . . وإذن فإنه لا حِجاز بين المشركين وبين الإيمان ، وأنهم إذا كانوا يلبسون رداء الشرك الآن ، فإنهم قادرون على أن ينزَعُوا هذا الثوب ، وأن يتزَيَّوْا بزىّ الإيمان .. فى لحظة واحدة .

وهذا ما يشير إليه التعقيب على هذا بقوله تعالى : «إن الله غفور شكور» فهذه مغفرة الله الواسعة ، مبسوطة لمن يجيئون إليه ، تائبين من ضلالهم ، متبرئين من شركهم ، حيث تشملهم الرحمة والمغفرة . . وحيث يشكر الله لهم ما صنعوا بأنفسهم من إحسان . . « إن الله غفور شكور » وإنه ليس أخسرَ صفقة ، ولا أضلّ سبيلا ، ممن يَرَى ـ وهو المذنب الغارق فى الذنوب ـ يدَ المغفرة مبسوطة له ، ويد الإحسان ممدودة إليه ، ثم يجمد حيث هو ، متلطخاً بآثامه ، غارقا فى ضلاله .

قوله تعالى :

* « أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته ، إنه عليم بذات الصدور » .

هو إضراب على موقف المشركين الذين دُعوا إلى أن يخرجوا من موقفهم العدائى للرسول ـ إلى المحاسنة والموادة ، إن لم يكن لأنه رسول الله ، فلأنه منهم ، وهم قومه ، وأولى الناس به ـ ولكنهم أبوْا أن يستجيبوا لهذه الدعوة التى تأتيهم من جهة القرابة والنَّسب ، بعد أن رفضوا الدعوة التى جاءتهم من قِبَلَ السماء ، هدى ونوراً .

فهاهم أولاء ماضون فى كيدهم للنبىّ ، وعدوانهم عليه ، واتهامهم له بالكذب : « أم يقولون افترى على الله كذباً» . فهذا هو كل ما استقبلوا به الدعوة الكريمة إلى المودة فى القربى .

إنه اتهام صريح للنبيّ بأنه كاذب افترى هذا القرآن الذى يدعوهم إليه ، بدعوة الله . .

وقوله تعالى : « فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته » . . هو تهديد المشركين بقبض هذه اليد الممدودة لهم بالهدى، ورفع هذه المائدة المبسوطة لهم بالخير . . وإذا هذا القرآن الذى نزل على النبي قد خُتم عليه فى قلبه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فاحتواه كله ، وغربت شمسه فيه ، فلم يخرج منه شيء لهؤلاء المشركين ، بل يُتركون وما هم فيه من ظلام وضلال ، وهذا ما يشير إليه سبحانه وتعالى فى قوله : « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا * إلا رحمةً من ربك إن فضله كان عليك كبيراً » (٨٦ ـ ٨٧ : الإسراء) . . والله سبحانه وتعالى قادر على أن يمحو هذا الباطل المجسد فى هؤلاء المشركين ويقطع دابرهم ، فلا ترى منهم أحداً ، فبكلمة من كلمات الله، يمحو سبحانه هذا الباطل ، ويقضى على أهله ، ويُحقُّ الحق ، ويثبت دعائمه .

وقوله تعالى : « إنه عليم بذات الصدور » أى أنه سبحانه إذ يقضى قضاءه فى هؤلاء المشركين ، فإنما يقضى بعلمه الذى يكشف ما تنطوى عليه الصدور ، فيهلك الضالين الظالمين ، وينجّى المؤمنين المتقين .

والمشيئة هنا فى قوله تعالى : « فإن يشأ الله يختم على قلبك » مشيئة غير واقعة ، لأنها معلقة بشرط غير واقع . . فالله سبحانه لم يشأ أن يختم هذا الختم على قلب النبي . . وهذا مثل قوله تعالى: «ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك» وقوله سبحانه : « ولو شاء ربك ما فعلوه » (١١٢ : الأنعام) . وقوله جل شأنه : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » (١١٨ : هود) .

قوله تعالى :

﴿وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون﴾

هو بيان شارح لقوله تعالى : «ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور » فهذه الآية ــ كما قلنا ــ دعوة للمشركين الذين اقترفوا السيئات ، أن يعودوا إلى أنفسهم ، ويقيموها على طريق الهدى ، ويقترفوا الحسنات ، كما اقترفوا السيئات . . ثم كان أن تهدّدم الله بما يقولون من منكر القول فى رسول الله ، وذلك ما حكاه القرآن الكريم عنهم فى قوله تعالى : « أم يقولون افترى على الله كذبا » ، ثم تهددهم بذهاب هذا النور الذى طلع فى ظلام ليلهم البهيم ، فقال تعالى : « فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته .. إنه عليم بذات الصدور » .

وفى قوله تعالى : « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون » عودة إلى المشركين بعرض هذا النور عليهم بعد أن آذنهم الله بزواله عنهم ، وفى هذا وصلٌ لتلك الدعوة التى دُعوا إليها باقتراف الحسنة ، وبيان شارح لها ، على اعتبار أن هذا التهديد اعتراض واقع فى ثنايا هذه الدعوة . . .

ففى قوله تعالى : « ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً . . إن الله غفور شكور » دعوة إلى التوبة ، وإلى اقتراف الحسنات بعد اقتراف السيئات . . وفى قوله تعالى : « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده » بيان للجهة التى يتوجه إليها التائبون بتوبتهم . . إنها إلى الله وحده . . فهم إنما يقدمون أعمالهم إلى الله ، ويتوجهون بتوبتهم إليه ، وعندئذ يجدون الله سبحانه هو الذى يتلقاها منهم . وفى هذا إغراء باللجأ إلى الله ، وإطلاق الإنسان من أىّ ولاء لغير الله .. وذلك

فى أول الطريق إلى الله . . فإذا آمن بالله ، آمن برسول الله ، وجعل ولاءه لله ولرسوله ، وللمؤمنين .

وفى تعدية الفعل (يقبل) بحرف الجر « عن » مع أنه يتعدى بمن ، فيقال قبل فلان من فلان كذا ، ولم يقبل منه كذا — فى هذا إشارة إلى تضمين الفعل معنى الحمل ، بمعنى أن الله سبحانه هو الذى يحمل التوبة عن عباده التائبين ، وإن جاءت توبتهم محملة بالذنوب ، مثقلة بالأوزار ، فإن التوبة ترفع عن كاهلهم ما أثقلهم من ذنوب قد حملها الله عنهم .

وقوله تعالى : « ويعفو عن السيئات » أى أنه سبحانه إذ يحمل التوبة عن عباده ، ويتلقاها بما تحمل من أوزار وسيئات ، فإنه سبحانه ، يعفو عن تلك السيئات ويتجاوز عنها ، ويغفرها لأصحابها . . فهو سبحانه الذى يقبل التوبة ، وهو سبحانه الذى يملك العفو عن السيئات . . وهو سبحانه الذى يعلم ما يعمل الناس من خير أو شر . .

وفى الآية الكريمة دعوة إلى العصاة والمذنبين أن يلوذوا برحمة الله ، ومغفرته ، وأن يوجهوا وجوههم إليه تائبين من ذنوبهم ، نادمين على ما فرط منهم ، فالله سبحانه وتعالى يلقاهم بالرحمة والمغفرة . .

ففى الصحيح ، من رواية عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَلّه تعالى أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه ، من أحدكم ، كانت راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمةً عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك » ! ! (أخطأ من شدة الفرح) .

هذا ، وليست التوبة ، كلمة يلفظ بها اللسان، وإنما هى نية منعقدة على الندم على ما وقع من ذنوب ، وعلى العزم على تجنب المعصية .

رُوى عن جابر بن عبد الله ، أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك ، وكبر (أى تكبيرة الإحرام للصلاة) ـ فلما فرغ من صلاته ، قال له علىّ كرم الله وجهه : يا هذا ، إن سرعة اللسان بالاستغفار توبةُ الكذابين ، وتوبتك تحتاج إلى توبة ! فقال : يا أمير المؤمنين . . وما التوبة ؟ قال : اسم يقع على ستة معانٍ : على الماضى من الذنوب بالندامة ، ولتضييع الفرائض ، الإعادة ، وردّ المظالم ، وإذابة النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية ، وإذاقة النفس مرارة الطاعة ، كما أذقتها حلاوة المعصية ، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته » .

قوله تعالى :

* « ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد » .

هو معطوف على قوله تعالى : « ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » ـ أى وهو سبحانه، يستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات أى أنه سبحانه يقُبل على عباده التائبين ، ويقبلهم . . فمعنى الاستجابة هنا القبول ، ولهذا عُدّى الفعل « يستجيب » لتضمنه معنى القبول . . أما الكافرون فلا يقبل عليهم الله سبحانه ولا يقبلهم ولهم عذاب شديد . . ويجوز أن يكون الفعل مسندا إلى « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » أى أنهم يستجيبون لله ، ويقبلون عليه تائبين . . وفى هذا إشارة إلى أن تقديم توبته سبحانه وإقباله على التائبين قبل أن يتوبوا ـ هى دعوة من الله سبحانه وتعالى إلى العصاة ، وقد قبلت توبتهم قبل أن يتوبوا ، وما عليهم إلا أن يستجيبوا لله ، ويقبلوا هذا العطاء العظيم ، من الرب الكريم .

الآيات : (٢٧ — ٣٥)

* « وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ، ولـكن ينزّل بقدر مايشاء ، إنه بعباده خبير بصير » .

[الناس : بين الغنى والفقر]

ما معنى بسط الرزق هنا ؟ ولماذا يقع البغى من الناس مع بسط الرزق لهم ؟

بسط الرزق معناه فى اللغة ، سَعَته وكثرته ، من مال ومتاع .

والمراد ببسط الرزق هنا سعته وكثرته للناس جميعاً ، بحيث لا يكون هناك فقير أو محتاج ، بل كل إنسان مكفول له الرزق الواسع ، الذى يعيش فيه مستغنياً به عن غيره . .

ويبدو فى ظاهر الأمر أن المجتمع الإنسانى الذى بُسط له الرزق وكُفلت فيه حاجة كل فرد ـ يبدو أنه مجتمع سعيد ، يعيش فى رِفْهٍ ورغد ، ويحيا فى سلامٍ وأمْنٍ . . إذ ماذا يبتغى الإنسان أكثر من أن تُسَدَّ مطالبه وتُقْضَى حوائجه ؟ . .

ولكن نظرةً وراء هذا الظاهر ، تكشف عن أن هذا المجتمع الإنسانى ـ إذا كان له وجود ـ تُفسده سعة الرزق ، وتُحيل حياتَه إلى حرب دائمة وعدوان متصل .. إذ ليست كلّ حاجة الإنسان فى أن يأكل ويشرب ، وأن يجد المأوى والملبس ، وإنما حاجاته ومطالبه أوسع من هذه المطالب القريبة التى لا تعد شيئاً إلى جانبها . . فهناك وراء مطالب الجسد ، مطالب العواطف ، والنزعات ، وهناك جوع أشد ضراوة وأكثر إلحاحاً من جوع البطون . . هو جوع الأَثَرَة ، والتعالى ، وحبّ التملك والسلطان . . والإنسان فى سبيل إشباع هذا الجوع لا يشبع أبداً . . ومن هنا يكون بغى الإنسان على الإنسان ، لا ليسدّ جوع بطنه ، وإنما ليشبع جانباً من جوع أثرته ، وتسلطه ، وقهره ، وتعاليه . . فهو لا يرضيه أبداً أن يكون فى مستوى الناس . . إنه يريد الامتياز عليهم ، والتعالى فوقهم ، وهو فى سبيل هذا يسلب غيره ، بل يسفك دمه إن استطاع .

وهذا واقع الحياة والمشاهد فيها . . فالمجتمعات ذات الغنى والثراء ، هى موطن الفتنة المتحركة ، التى توقد نار الحروب ، فيما بينها ، فإذا انفرد مجتمع منها بالغنى والسلطان تحول إلى عاصفة مدمرة تجتاح المجتمعات الفقيرة ، وتمتصّ البقية الباقية من دمها ، وتأخذ اللقمة من فمها . . هكذا الناس فى أفرادهم ، وجماعاتهم وأممهم . . الأغنياء يتسلطون على الفقراء ، والأقوياء يعتدون على الضعفاء . . لا لشىء إلا إشباعاً لشهوة التسلط والعدوان . . وفى هذا يقول الشاعر العربى الجاهلى ، الذى يضرب المثل بقبيلة « بكر » حين أخصبت أرضُها وكثُر خيرها ، فبغت وتسلطت . . يقول :

إن الذئابَ قد اخضرّت براثنها والناس كلُّهمُ بَكْرٌ إذا شبعوا

فكان من حكمة الله سبحانه وتعالى ، أن وزع الأرزاق بين الناس بقَدَر ، فلم يعط الناس جميعاً حاجتهم ، فوسّع على بعض ، وضيّق على بعض ، حتى يعمُر الكون ، ويتخذ بعضهم بعضا سخريا ، وحتى يُشْغلوا بمطالب العيش ، وحتى يكون فى هذا الشغل مايصرف جانباً من عدوان بعضهم على بعض إلى السعى والعمل فى وجوه الأرض . . إذ لو أنهم كُفُوا جميعاً السعىَ فى طلب الرزق ، لكان شغلهم كله ، هو البغى والعدوان . . فالذين بَسَط الله سبحانه وتعالى لهم الرزق ، هم غالباً مثار بغى وعدوان ، وقليل منهم من يشكر الله ، ويذكر فضله ، فيرعى حق الله فيما خوّله من نعم ، وبسط له من رزق . وهذا مشاهد فى الدول الاستعمارية الآن . . إنها مصدر إزعاج لأمن الإنسانية وسلامتها . .

وقد ضرب الله سبحانه مثلا لطغيان أصحاب المال وتسلطهم ، بقارون ، فقال تعالى : « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة » (٧٦ : القصص) !

كما ضرب سبحانه وتعالى مثلا بالخصمين اللذين اختصما إلى داود ــ عليه السلام ــ فقال تعالى على لسان أحدهما : « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولىَ نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزّنى فى الخطاب » (٢٣ : ص)

وفى قوله تعالى : « ولكن ينزل بقدر ما يشاء » أى أنه سبحانه ينزل من الرزق ما تقضى به حكمته ، فيبسط الرزق لمن يشاء ويقدره لمن يشاء ، كما يقول سبحانه : « الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له » (٦٢ : العنكبوت) .

وقوله تعالى : « إنه بعباده خبير بصير » ــ إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى إنما لم يبسط الرزق لعباده ، لأنه خبير عليم بهم ، بصير مقدّر لما هو أصلح لهم .. ولو أنه سبحانه بسط لهم الرزق لبغوْا فى الأرض ، ولمَا صلح لهم أمر فيها . .

قوله تعالى :

* « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولىّ الحميد » . .

والغيث ـ وهو رزق من رزق الله ـ إنما ينزل بقَدَر ، وحساب ، حسب تقدير حكمة الله .. فهذا الغيث ينزل فى مواقعَ دون مواقع ، فيكون حيث نزل الغيث ، الخصبُ والنماء والخير الكثير . ويكون حيث لا غيث ، الجدبُ والقحط .. وهكذا يكون الغنى والفقر ، والرخاء والشدة .. وبهذا يعتدل ميزان الناس فى الحياة ، ويتوازن موقفهم على جانبى الرجاء واليأس ، والأمن والخوف فلا يكونون على حال واحدة أبداً ، إذ لو كانوا على هذه الحال أو تلك ، لايتحولون عنها لملّوا هذه الحياة ، ولسئموا المُقام فيها ، ولجمدت مشاعرهم عليها .

وقوله تعالى: « من بعد ما قنطوا وينشر رحمته » أى ينزل الغيث على عباده بعد أن يئسوا ، وظنوا أن لاغياث لهم مما هم فيه ، من جدب يسوقهم إلى التهلكة . . فإذا أصابهم الغيث بعد هذا الكرب العظيم ، زغردت فى صدورهم بلابل البهجة والمسرة ، وأقبلت عليهم الحياة بمواكب الأعراس ، تزف إليهم بشائر الرزق والرحمة .. « وينشر رحمته » أى يبثها هنا وهناك ، فيكون فيها الحياة للأرض ، والغذاء والرِّىُّ للإنسان ، والحيوان ، والنبات . .

وقوله تعالى : « وهو الولىّ الحميد » أى أن الله سبحانه هو « الولىّ » أى الناصر والمعين ، لا ناصر لكم غيره ، ولا معين لكم سواه ، حين تمدون أيديكم إلى من ينصر ، وترفعون أبصاركم إلى من يعين . . وهو سبحانه « الحميد » أى المستحق للحمد وحده ، على ما أنعم من نعم ، وما أفاض من خير .

وفى الحديث الشريف : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لوفد

« فزارة » وقد شكَوْا إليه الجدب : « إن الله عز وجل ليضحك من شَعَفِكم وأزلكم[1] وقرب غياثكم » فقال أعرابى منهم : أوَ يضحك ربنا عز وجل ؟ قال : « نعم » فقال الأعرابىّ : لا نعدم من ربٍّ يضحك خيراً ، فضحك النبى صلى الله عليه وسلم من قوله .

قوله تعالى :

* « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذ يشاء قدير » .

أى ومن آثار قدرة الله ورحمته ، أنه خلق السموات والأرض ، وخلق ما بث ونشر فيهما من مخلوقات . . وهو سبحانه قادر على جمع هذه المخلوقات المنتشرة فى عوالم الوجود ، فى السموات وفى الأرض . . ثم إذا شاء سبحانه ، جمعهم جميعاً من أقطار السموات والأرض ، وهم أحياء ، ثم بعد أن يموتوا ويبعثوا . .

وفى الآية إشارة إلى أن فى العوالم الأخرى ـ غير عالم الأرض ـ مخلوقات حية ، على صور وأشكال لا يعلمها إلا الله ، وأنها تموت وتحيا . . وهى فى سلطان الله سبحانه . . يبسطها ويقبضها ، ويميتها ويحييها . . وليس ما على هذه الأرض من صور الحياة إلا صورة من صور لا حصر لها ، من صور الحياة ، فى هذا الوجود العظيم .

قوله تعالى :

* « وما أصابكم من مُصيبةٍ فبما كسبت أيديكم ويَعفُو عن كثيرٍ » .

---

(١) الشعف : اللهفة ، والحرقة من التطلع إلى الشىء الذى تريده النفس . . والأزل ، الشدة .

أى أن الله سبحانه وتعالى لا يسوق لعباده إلا الخير ، وهذا شأنه سبحانه وتعالى فيما خلق من مخلوقات فى هذا الوجود . . ولكنّ الناس لهم إرادة عاملة ، ولهم كسب هو ثمرة هذه الإرادة . . وهم بهذه الإرادة يحسنون ويسيئون ، ويستقيمون على طريق الحق ، ويركبون طرق الضلال .. فما كان منهم من إحسان ، قابلهم معه إحسان من الله إليهم ، وما كان منهم من إساءة رُدّت إليهم . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى للنبى الكريم : « ما أصابك من حسنةٍ فمن الله وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسك » (٧٩ : النساء) .

أما قوله تعالى فى سورة النساء: « وإن تصبهم حَسَنَةٌ يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قُل كلٌّ من عند الله . . » (٧٨ : النساء) فهذا ردٌّ على المشركين ، الذين كانوا يتطيرون بالنبىّ . . ولهذا جاء قوله تعالى : بعد ذلك : « ما أصابك من حسنةٍ فمن الله وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسك » ليروا فى هذا أن ما أصابهم من سوء لم يكن من النبىّ ، الذى لا يملك دفع سوء عن نفسه ، كما لا يستطيع سوقَه إلى أحدٍ ، وإنما الذى يملك هذا وذاك هو الله وحده . . وأن ما أصابهم أو يصيبهم من سوء ، هو من عند أنفسهم ابتداءً ، وأنه من عند الله ابتداءً وانتهاءً ! !

وقوله تعالى : « ويعفو عن كثير » . . إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى ، يعفو عن كثير من السيئات ، ويتجاوز عن كثير من الذنوب ، إذ لو أخذ سبحانه الناسَ بذنوبهم لأهلكهم جميعاً ، كما يقول سبحانه : « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجلٍ مسمّى » (٦١ : النحل) . وكما يقول « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » (٤٥ : فاطر) .

قوله تعالى :

* « وما أنتم بمعجزين فى الأرض وما لكم من دون الله من ولىٍّ ولا نَصيرٍ » .

أى أن الله سبحانه وتعالى إذ يعفو عن كثير من الذنوب ، ولم يعجّل بجزاء أهلها عليها ـ فليس ذلك لما يكون للمذنبين من جاهٍ أو سلطان ، فسلطان الله فوق كل سلطان ، وقوته فوق كلّ قوة ، وليس لأحدٍ عاصم يعصمه من بأس الله ، أو يدفع عنه عذابه ، فى الدنيا أو فى الآخرة ، ولكنّ الله سبحانه يمهل الظالمين ، ويمدّ لهم فى الضلالة ، ليزدادوا إثما . . وفى هذا يقول الله تعالى : « قل من كان فى الضلالة فليمدُد له الرحمن مدًّا » . . (٧٥ : مريم) ويقول سبحانه : « ولا يحسبنّ الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين » (١٧٨ : آل عمران) .

روى عن الإمام أحمد عن عقبة بن عامر ، رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إذا رأيتَ الله يُعطى العبد من الدنيا ما يحبّ فإنما هو استدراج[1] » ثم تلا قوله تعالى : « فلما نَسُوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شىء ، حتى إذا فَرِحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مُبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله ربّ العالمين » (٤٤ : ٤٥ الأنعام) .

قوله تعالى :

* « ومن آياته الجوارِ فى البحر كالأعلام * إن يشأ يسكن الرّيح فيظللن رواكدَ على ظهرِه إن فى ذلك لآيات لكلّ صبارٍ شكور » .

أى ومن الآيات الدالة على قدرة الله ، وعلى بسطة سلطانه ، وعلى فضله وإحسانه على عباده ، هذه « الجوار » أى السفن الجارية على الماء ، كالجبال فى ضخامتها ، وارتفاعها فوق سطح الماء . . فهى المعالم الوحيدة القائمة فوق وجه الماء ، كما تقوم الجبال على اليابسة . .

فهذه الجوارى ، إنما تجرى بقدرة الله سبحانه وتعالى ، بهذه الرياح

(١) استدراج الله تعالى العبد، أنه كلما جدد خطيئة جدد له نعمة وأنساه الاستغفار أو أن يأخذه قليلا قليلا ولا يباغته .

للسخرة ، التى تُجريها وتدفعها فوق الماء . . ولو شاء الله سبحانه لأمسك هذه الريح ، فسكنت وسكن مع سكونها جريان هذه الفلك ، فتظل رواكد على سطح الماء . . لا تتحرك . .

وقوله تعالى : « إن فى ذلك لآياتٍ لكل صبارٍ شكور » . . أى إن فى هذه السفن الجارية على الماءلآياتٍ ، لا آيةً واحدة ، لكل صبارٍ، أى كثير الصبر ، يجد مِن صبره ما يُعينه على الوقوف الطويل ، الدارس ، المتوسم ، فى آيات اللهِ ، فيرى فى كل معلم من معالم هذا الوجود آياتٍ من قـــدرة الله ، وشواهدَ من إبداعه ، وحكمته ، وتدبيره . . وهذا هو بعض السرّ فى جمع الآيات ، إذ لا يمكن أن يرى فى هذه الفلك وجريها على الماء ، تلك الآيات منها ، إلا الدارسُ ، المتأمل ، الذى يعينه صبره على الوقوف الطويل ، والنظر المتفحص . . أما من ينظر نظراً عابراً فى معالم هذا الوجود ، فإنه لا يرى إلا صوراً وأشباحاً . . إنه نظر جامد ، أشبه بالمرآة تظهر عليها صور الأشياء ، ثم لا تمسك منها بشىء . . والله سبحانه وتعالى يقول فى أصحاب هذا النظر البارد الفاتر ، السام : « وكأين من آيةٍ فى السموات ِ والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » (١٠٥ : يوسف) .. وفى قوله تعالى : « شكور » إشارة أخرى إلى أنّ هذه الآيات التى يراها المتأملون الدارسون ، لا تكون آياتٍ وشواهدَ إلا إذا صادفت قلباً مؤمناً ، يردّ هذه الآيات التى تكشفت له ، إلى قدرة الله ، وتدبيره ، وحكمته ، فيفيض قلبه تسبيحاً بحمد الله وشكراً له . . أما من يرى هذه الآيات بعين لا تكتحل بنور الإيمان ، فإن هذه الآيات لا تحيا فى وجدانه ، ولا تعيش فى مشاعره ، فلا ينفعل بها ، ولا يهتز لروعتها وجلالها ، الذى يرى فيه المؤمنون بعضَ جلال الله ، وروعة حكمته !

قوله تعالى :

* « أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير » .

هو معطوف على قوله تعالى : « يسكن الريح » أى إن يشأ الله سبحانه يسكن الريح فلا تتحرك ، وتظل السفن رواكد على ظهر الماء ، أو إن يشأ « يوبقهن بما كسبوا » .

ويوبقهن : أى يهلكهن ، والضمير يعود إلى الجوارى وهى السفن .. وأصله من الإباق ، وهو الفرار والهروب ، يقال أبق العبد ، أى هرب ، وأفلت من سلطان صاحبه .. ومعنى هذا أن هذه السفن وهى تجرى على سطح الماء ، لا يمسك لها إلا الله سبحانه ، وأنه سبحانه لو شاء لأفلت زمامها من يد أصحابها ، بأن يرسل عليها ريحاً عاصفة ، يضطرب لها البحر ، ويفور ، فتغرق، أولا يستطيع أحد أن يمسك زمامها ولا يدرى أحد أين وجهتها . . وفى هـذا الهلاك لراكبيها . .

وفى قوله تعالى : « بما كسبوا » إشارة إلى أن ما يحدث لهذه الجوارى من غرق ،أوتيه ، إنما هو بما كسب أصحابها من سيئات ، كما يقول سبحانه فى آية سابقـــة : « وما أصابـكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » . (٣٠)

وقوله تعالى : «ويعف عن كثير » ـ معطوف على قوله تعالى « أو يوبقهن بما كسبوا » أى وإن يشأ الله يعف عن كثير من سيئات المسيئين ، فلا يعجل لهم الجزاء فى الدنيا ، فتمضى سفنهم فى ريح رخاء حتى تبلغ مأمنها .. ثم يكون الحساب والجزاء فى يوم الحساب والجزاء . .

ويجوز أن يكون المعنى : ويعفو عن كثير من ذنوب هؤلاء المذنبين

الذين أخذوا ببعض ذنوبهم، لا كلّها، لأن ذنوبهم أكثر من أن تستوفى منهم بأى عذاب ينزل بهم فى هذه الدنيا، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى» (٤٥: فاطر).

قوله تعالى:

* «ويعلمَ الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص»..

هو معطوف على محذوف مفهوم من قوله تعالى: «ويعف عن كثير» أى ويعف عن كثير من ذنوب هؤلاء المذنبين فى الدنيا فلا يعجل لهم العذاب، وذلك ليعذبهم فى الآخرة، وليعلم الذين يجادلون فى آيات الله، ويكذبون بالبعث والجزاء — ليعلموا يومئذ ما لهم من محيص، أى ما لهم من مفر، ولا ملجأ..

الآيات: (٣٦ — ٤٣)

«فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى

ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (٤٣) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى ، للذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون » .

فى الآية الكريمة تهوين من شأن الدنيا ، واستخفاف بمتاعها ، إلى جانب ما فى الحياة الآخرة من جزاء كريم ، ونعيم خالد لا يفنى .

فقوله تعالى : « فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا » — هو حكم على هذه الحياة الدنيا ، بأن كل ما يناله الإنسان منها من مال أو جاه أو سلطان — هو متاع ، أى زاد لا يلبث أن ينفد ، أو ثوب لابد أن يبلى .. فكل ما فى الحياة الدنيا إلى نفاد ، وزوال .. وإن كثر وعظم ..

وقوله تعالى : « وما عند الله خير وأبقى » أى والذى يبقى ولا ينفد ، هو ما تقبّله الله من أعمال صالحة ، حيث يكون ثوابها عند الله نعيما لا يفنى ، ورزقا لا ينفد ..

وقوله تعالى : « للذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون » — أى أن هذا الذى عند الله من جزاء حسن ، هو للذين آمنوا ، وتوكلوا على ربهم ، وأسلموا أمرهم له .. وهو كأنه جواب عن سؤال تقديره : لمن هذا الذى عند الله فكان الجواب : للذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون .

قوله تعالى :

* « والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون » .

هو معطوف على قوله تعالى: « للذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون » — أى هذا الذى عند الله من خير ، هو للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، وهؤلاء هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون .

وكبائر الإثم ، هى كبائر الذنوب ، كالقتل ، والربا ، وشرب الخمر ، والزنا ، ونحوها .. والفواحش : هى المنكرات ، من قول ، أو فعل . . وصورتها البالغة فى الفحش ، تتمثل فى الزنا ، ولهذا غلب على الزنا ، الوصفُ بالفاحشة .

وفى قصر التجنب على كبائر الإثم ، وكبائر الفواحش ـ إشارة إلى أن الصغائر معفوٌّ عنها ، فضلا من الله وإحسانا ، كما يقول سبحانه : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة * هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » (٣٢ : النجم) .

فكل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون ، وليس من طبيعة الإنسان أن يتجنب الخطأ تجنبا مطلقا ، ولكن الذى تحتمله الطبيعة البشرية هو أن يكون منه الإحسان إلى جانب الإساءة ، وأن يتجنب الكبائر ، إذ كان وجهها القبيحُ ظاهراً ظهوراً بينا .. أما الصغائر ، فإنها كثيرا ماتعرض للإنسان، وكثيراً ما يختلط عليه أمرها . . ولهذا يقول الرسول الكريم : « قاربوا وسدّدوا » أى اجتهدوا فى أن تكونوا أقرب شىء إلى الاستقامة والسداد .

وقوله تعالى : « وإذا ما غضبوا هم يغفرون » هو صفة أخرى من صفات

الذين آمنوا.. وهى أنهم إذا ما استُغضبوا ، وغضبوا ، غفروا لمن كان منه المساءة التى أغضبتهم .

وفى قَرْن المغفرة بالغضب ، إشارة إلى أن المغفرة التى تـكون والإنسان فى حال الاستثارة والغضب ، هى المحمودة فى باب المغفرة ، لأنها تجىء عن مجاهدة ومغالبة للنفس ، إذ يقهر فيها الإنسان شهوة الانتقام ، ويَلْوِى فيها زمام هواه إلى حيث الصفح والمغفرة : « وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » (٣٥ : فصلت) .

وقرن المغفرة بالغضب ، أبلغ من قرنها بالإساءة . . فقد يُساء إلى الإنسان ، ولا يغضب ، ولا تتحرك فى نفسه داعية الانتقام ، فتكون مغفرته حينئذ مغفرةً لم يتكلف لها الإنسان مجاهدة ، ولم يحمل فى سبيلها مئونة . .

وفى ذِكر المغفرة هنا ، إغراء بها ، إذ كانت فى معرض مغفرة الله سبحانه وتعالى لما يقع من الإنسان من اللمم ، ومن صغائر الذنوب .

قوله تعالى :

* « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون »

هو استكمال لصفات الذين آمنوا . . فهؤلاء المؤمنون ، مِن صفاتهم أن يستجيبوا لربهم ، أى يمتثلوا أوامره ، ويجتنبوا نواهيه . . ومن امتثالهم لأمره ، أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة.. وإقامة الصلاة ، هى الركن الأول من أركان الدين بعد الإيمان بالله . وإيتاء الزكاة ، هو الركن الثانى بعد إقامة الصلاة . .

وفى قوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » ـ إشارة إلى أن من صفات

المؤمنين أن يكونوا على كلمة سواء فيما بينهم من شئون . . فتكون طريقهم واحدة ، ووجهتهم واحدة ، ويدهم واحدة ، وموقفهم واحداً ، فلا يذهب كل واحد منهم مذهباً ، ولا تركب كل جماعة طريقاً . . فهذا من شأنه أن يوهن قوة الجماعة الإسلامية ، ويَفُتّ فى عضدها ، ويوقع الشحناء بين جماعاتها وأفرادها . .

هذا ، ولم تجىء الدعوة إلى وحدة المجتمع الإسلامى ، دعوةً قاهرة ملزمة ، من غير أن يقوم إلى جانبها الوجود الذاتى للإنسان ، والهاتف الشعورى المنبعث من ذاته ، إلى هذه الوحدة ، بل قام مع هذه الدعوة ، بل أمام هذه الدعوة ، دعوة إلى الشورى بين الجماعة الإسلامية ، فى الأمر الذى يعرض لها ، ويتطلب وَحدة جماعتها . . فهذا الأمر يتلقاه المسلمون جميعاً ، ويتدارسونه فيما بينهم ، ويقلّبون الرأى فيه ، وفى هذا العرض للأمر ، ما يكشف لهم عن وجه الرأى فيه ، وما يأخذون أو يدَعون منه . . وعندئذ يكون رأيهم قائماً على وجهة واحدة ، هى الوجهة التى رضيها الجميع ، ونسجوا رايتها من تلك الخيوط التى اجتمعت من آرائهم ، فكان لكل إنسان مكانه من هذه الراية التى يسير تحت ظلها . . وبهذا تكون مسيرة المسلمين تحت هذه الراية ، مسيرةً ينتظمها شعور واحد ، ويحكمها رأى واحد ، وتحتويها عزيمة واحدة ، فيكون منهم بهذا نسيج واحد متلاحم ، أشبه بنسيج هذه الراية التى تشكلت من مجتمع آرائهم . . وهذا هو بعض السر فى أن جاء النظم القرآنى : « وأمرهم شورى بينهم » بدلا من أن يجىء مثلا هكذا : وكانوا أمة واحدة ، أو مجتمعاً واحداً . . ذلك أنه لن تكون الأمة أمة واحدة ، ولن يكون المجتمع مجتمعاً واحداً ، إلا إذا توحدت المشاعر ، ولن تتوحد المشاعر ، إلا إذا تلاقت الآراء وتوحدت ، ولن تتلاقى الآراء وتتوحد ، إلا مع عرضها ، وتَمَخُّلها ، وذلك لا يكون إلا بالتشاور بينهم .

وعرض رأى كل ذى رأى ، فى صراحة مطلقة ، وحرية كاملة . .

[الشورى فى الإسلام . . منهجاً وتطبيقاً]

ولابد هنا من وقفة مع هذا المبدأ العظيم ، الذى قرره الإسلام ، ليكون مادة أولى ، من مواد هذا الدستور السماوى الذى يحكم الجماعة الإسلامية ، ويدين به الفرد والجماعة على السواء . . ذلك هو مبدأ الشورى .

فالشورى شريعة من شرائع الرسالة الإسلامية ، حيث ينعقد بها الإجماع ، الذى هو أصل من أصول التشريع الأربعة ، المعتمدة فى الإسلام ، وهى الكتاب ، والسنة ، والقياس ، والإجماع . . حيث لا يكون الإجماع على أمر إلا بعد تمحيصه وتقليب وجوه الرأى فيه ، وتقديم الحجج والأدلة بين يدى كل رأى ، حتى ينتهى الأمر الذى يُجمَع عليه بالتقاء آراء ذوى الرأى فيه من المسلمين ، وهم الذين أطلق عليهم أهل الحل والعقد . .

وليس المراد بأهل الحلّ والعَقد طبقةً خاصة من الناس ، أو طائفة معينة من طوائفهم ، بل هم فى كيان المجتمع الإسلامى كله ، فى كل زمان ومكان ، لا يختص بهم موطن ، ولا يحصرهم زمن .. فحيث كان المسلمون فهم جميعاً المجتمعُ الإسلامى ، وفيهم أهل الحل والعقد . . أى أصحاب الرأى والنظر . . فكل ذى رأى ونظر ، هو من أهل الحل والعقد ، وله أن يأخذ مكانه فى الأمر الذى يَعرض للمسلمين ، وأن يدلى برأيه ، وبحجته التى تدعم هذا الرأى ، كما أن له أن ينظر فى رأى غيره ، وأن يقول رأيه فيه ، معدّلا أو مجرّحاً . . كل ذلك بالحجة القائمة على الحق والعدل ، لا الهوى وحبّ الغلب . .

والرأى الذى ينتهى إليه المسلمون ، أو أولو الحل والعقد فيهم ، هو ملزم لجماعتهم ، لا يجوز لأحد منهم الخروجُ عليه .. وليس فى هذا الإلزام جَوْر على ذاتية الفرد ، أو عدوان على حقه فى النظر فى الأمور ، ووزنها بميزان إدراكه

وتقديره ، بل إن هذا الإلزام هو حماية للشخص من أن يتبع هواه ، أو أن يذهب مذهباً غير مأمون العاقبة ، لو أنه أخذ برأيه ، وترك رأى الجماعة ، إذ كان رأيها هو الرأى الذى تلاقت عنده الآراء ، ونخلته العقول . .

وإذا كان الإجماع هو الوجه البارز من وجوه الشورى ، فإن للشورى وجوهاً أخرى . . إذ ليس كل أمر يعرض للجماعة الإسلامية ، ينتهى بالتشاور فيه ، إلى إجماع فى الرأى ، على نحو الإجماع المعروف فى الشريعة . . بل قد يقع الخلاف فى الرأى على أمر من الأمور ، ثم يرجح جانب فيه على جانب ، فيؤخذ بالجانب الراجح ، ويترك الجانب المرجوح . . !

على أن الذى يعنينا هنا ليس هو صور الشورى ، وأشكالها ، وإنما الذى يعنينا ، وله المقام الأول ، هو مبدأ الشورى ذاتها ، من حيث اعتبارها حقيقة من حقائق الإسلام ، وحكماً من أحكامه العاملة التى يأخذ المسلم نفسه بها ، ويقيم حياته عليها . .

فى قوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » خبر يراد به الأمر ، من حيث اقترن بركنين من أركان الدين ، وتوسطهما ، وهما إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، المأمور بهما شرعاً . . فكان حكم الشورى حكمهما ، من حيث الوجوب والإلزام . .

وفى مجىء الشورى بعد إقامة الصلاة ، وقبل إيتاء الزكاة ، إشارة إلى أمور :

أولا : أن الصلاة أقوال وأفعال ، والشورى كذلك أقوال تعقبها أفعال . . أما الزكاة فهى أفعال خالصة . . فناسب أن تقترن الشورى بالصلاة لمشاكلتها فى صورتها ، وأن تتقدم من أجل هذا على الزكاة .

وثانياً : أن الصلاة يؤديها المؤمن منفرداً ، أو فى جماعة .. وهو فى حال انفراده يؤديها على الصورة التى يراها ، من حيث الطول والقصر فى أفعالها ، قياماً ، وركوعاً ، وسجوداً .. أما فى حال أدائها فى جماعة ، فإنه ليس له هذا الخيار ، بعد أن يأخذ مكانه فى الجماعة ، وينتظم فى عقدها ، فهو والجماعة من وراء الإمام ، الذى يجب أن يلزموا متابعتـه فى كل حركاته وسكناته . .

والشورى ، صورة مقاربة للصلاة من هذا الوجه الذى صورناها به ..

فإذا كان الإنسان خالياً مع رأيه إزاء أمر من الأمور العارضة له ، كان له أن يتصرف فى هـذا الأمر على الوجه الذى يراه بعقله ، ويؤديه إليه اجتهاده .. أما إذا دخل مع جماعة المسلمين فى أمر عام ، وأخذ مكانه بينهم وانتظم رأيه مع آرائهم على طريق سواء ، لم يكن له أن يخرج عن هذا الرأى الذى انتظمت وراءه آراؤهم ، والذى يتمثل لهم حينئذ فى صورة الإمام الذى يأتمون به فى الصلاة .. فـكما لا يخرج المأموم فى الصلاة عن متابعة الإمام ، ولا يجوز له أن يستجيب لإرادته فى أن يطيل أو يقصّر ، فى قيام ، أو ركوع ، أو سجود ـ كذلك لا يجوز أن يخرج المؤمن عن الرأى الذى اجتمع عليه المسلمون بعد تشاورهم فيه ، وإن كان على خلاف ما يرى .. فالرأى الذى أجمع عليه المسلمون هنا هو من رأى الإسلام ، والسبيل التى يسلـكها المسلمون ـ متابعةً لهذا الرأى ـ هى سبيل الله . . والله سبحانه وتعالى يقول : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نُولّه ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » (١١٥ : النساء) .

وثالثا : أن الصلاة فريضة عامة ، تجب على كل مسلم ومسلمة وَجوبَ عَيْن ،

— وكذلك التشاور بين المسلمين ، أمر ملزم لهم جميعاً ، وحقٌّ يؤديه كل مسلم ومسلمة للجماعة الإسلامية ، وإنه ليس لأحد أن يحول بين المسلم وبين أخذ مكانه بين الجماعة الإسلامية وإبداء الرأى الذى يراه ، فى أى أمر يعرض لهم ، كما أنه ليس لأحد أن يحول بين المسلم وبين أن يأخذ مكانه فى صلاة الجماعة بين الصفوف المنتظمة فى الصلاة .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : «وأمرُهم شورى بينهم » .. ففى تنكير الشورى دليل على إطلاقها وعمومها .. وأنها ليست شورى على صفة خاصة معروفة بأهلها .. فكل مسلم ومسلمة أهل الشورى ، كما هو أهل الصلاة فى جماعة ..

ورابعاً : أن الصلاة يجب أن يسبقها من المسلم قبل الدخول فيها إعداد لها ، وذلك بالتطهر ، والوضوء .. وكذلك الشورى ، يجب أن تسبقها طهارة النفس من الهوى ، وخلوها من الدخَل .. وهذا ما يشير إليه الحديث الشريف « الدين النصيحة » قيل لمن يارسول الله ؟ : قال : « لله ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » ..
ولن تكون النصيحة نصيحة إلا إذا جاءت من قلب سليم ، وعن نية خالصة من الغش والنفاق ..

وخامساً : أن الصلاة وقتاً ، فإذا جاء وقتها أذّن المؤذن بها ، ودعا المسلمين إليها .. وكذلك الشورى وقتها .. فإذا حزَب المسلمين أمر ، تنادوْا به ، واجتمعوا له ، وتشاوروا فيه ..

ذلك هو بعض السر فى قرن المشورة بإقامة الصلاة .. ووراء ذلك أسرار وأسرار لا تنتهى ..

أما وصلها بالزكاة من طرفها الآخر ، فإنه يشير كذلك إلى أمور .. منها :

أولا : أن القرآن الكريم لم يعبّر فى هذا المقام عن الزكاة بلفظ الزكاة ، بل جاء بها فى هذا النظم الكريم : « وممـا رزقناهم ينفقون » فجعلها إنفاقاً من رزق ، وهذا الرزق من الله سبحانه وتعالى .. وكذلك « الشورى » هى إنفاق من رزق ، هو مما وهب الله من عقل ، ومما رزق أهلَ العقل من علم ومعرفة .. وهذا يعنى أن إبداء الرأى من ذوى الرأى ، أمر واجب عليهم ، وهو الزكاة المطلوبة منهم فى هـذا المقام ، لمـا آتاهم الله من فضله ، من علم ، وحكمة ، وحسن تدبير ..

فمن رأى فى أمر من أمور المسلمين خللا ، وكان عنده من الرأى والتدبير ما يُصلح به هذا الخلل ثم أمسك رأيه ، وحبس نُصحه ، كان آثمـاً .. شأنه فى هذا شأن من كان ذا مال وسعة ، ثم لم ينفق من ماله فى سبيل الله ، وفى سدّ حاجات ذوى الحاجة من المؤمنين ..

وثانياً : لم يقيد النص القرآنى هنا الإنفاقَ بالشىء الذى يُنفق منـه ، من مال أو نحوه ، بل جعله ، إنفاقاً مطلقاً ، يشمل كل مايرزقه الله الإنسانَ من خير .. فسمّاه سبحانه رزقاً ، ليشمل المال وغير المال ، من رأى ، وعلم ، وفنّ .. فلا يستبد المؤمن وحده ، برزق رزقه الله إياه ، وفيه فضل وسَعـة لغيره من المسلمين ..

وثالثاً : كذلك لم يقيد النص القرآنى ما يُنفق من هـذا الرزق بحدّ محدود ، كالزكاة ، بل جعله إنفاقاً مطلقاً .. لأنه فى مقام « الشورى » لا يكون الإنفاق بقدْر محدود مما يملك الإنسان من علم ، ومما عنده من معرفة ، بل إنه مطلوب منه فى تلك الحال أن ينفق كل ما لديه ، وأن يبذل كل ما عنده ، غيرَ ممسك بشىء من رأيه ، أو محتجز شيئاً من جهده ، واجتهاده ..

ونقرأ الآية الكريمة :

« والذين استجابوا لربّهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون » .

وننظر مرة أخرى فى قوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » وفى مقام هذا المقطع من الآية ، بين ماسبقها ، وما جاء بعدها من كلمات الله ، فنرى كيف احتفاء الإسلام بالشورى ، وكيف أنه أفسح لها مكاناً بين فريضتين من فرائضه ، هما الصلاة والزكاة ، اللتان آخى بينهما فى كل موضع جاء فيه ذكرهما فى القرآن الكريم . . كما يقول سبحانه : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » (٣ : البقرة) ويقول جلّ شأنه : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » (٤٣ : البقرة) ويقول سبحانه : « وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة » (٥٥ : مريم) ويقول عزّ من قائل : « وأوصانى بالصلاة والزكاة مادُمت حياً » (٣١ : مريم) . . ويقول تبارك اسمه: «قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * . والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون » (١ — ٤ : المؤمنون) . . والفصل بين الصلاة والزكاة بقوله تعالى « والذين هم عن اللغو معرضون » — ليس فصلا، لأن الإعراض عن اللغو هنا ، هو من تمام الصلاة التى يحفها الخشوع والخشية . . أما الفصل بين الصلاة والزكاة بالشورى ، فهو لما للشورى من منزلة فى ذاتها ، وأنها جديرة بأن تكون فى هذا المقام ، وأن تتوسط أعظم فريضتين من فرائض الإسلام ، وأهم ركنين من أركانه ، بعد الإيمان بالله .

والسؤال هنا : لماذا كانت الشورى بهذه المنزلة من الإسلام ؟ ولماذا تلتفت إليها الشريعة الإسلامية بهذا القدر ، وتنوّه بها إلى هذا الحدّ ؟

ولقد أشرنا من قبل إلى ما للشورى من آثار فى بناء المجتمع ، وفى حياطة هذا البناء ، وفى دفع العوارض التى تعرض له ، وتهدّد وجوده . .

ونريد هنا أن ننظر إلى المجتمع الإسلامى ، الذى يقوم أمره على الشورى، وما للشورى من آثار مادية ، ونفسية ، وروحية ، وعقلية . فى حياطته ، ودعم بنائه .

فالمسلمون مطالبون . . ديانة . . كما هم مطالبون سياسة وتدبيراً . . أن يقيموا أمرهم كله على الشورى . . وهذا من شأنه أن يجعلهم دائماً فى تواصل وفى تواصٍ بالنصح ، ومشاركة فى السراء والضرّاء ، حيث يجد المرء أنه مطالبٌ بأن يكشف لأخيه عن المشكلات التى تعرض له ، فيجد من صاحبه الرأىَ والنصيحة يبذلها له فى إخلاص ، بل ويسعى معه فى دفع الضرّ عنه ، ما استطاع ، حسبةً لله ، وأداء لحق وجب عليه . .

فإذا كان الأمر العارض من البلايا العامة ، التى تمسّ المجتمع ، أو طائفة من المجتمع ، تنادى لها المسلمون جميعاً ، وتداعوا عليها بالرأى ، والعمل معاً ، وحمل كلّ منهم همها ، وشارك فيها بكل ما وسعه من جهد . . هذا ما يقضى به الدّين ، إلى جانب ما تقضى به ضرورات أخرى كثيرة . .

وآثار هذه المشاركة كثيرة عميقة . .

فأولا : أنها توحّد مشاعر المجتمع الإسلامى وتشدّ المسلمين بعضهم إلى بعض . . وتجعل منهم جسداً واحداً ، فلا يشعر أحدهم أنه بمنجاة من الخطر الذى يهدّد أى عضو من أعضاء الجماعة . . وهذا ما يشير إليه الرسول الكريم فى قوله : «مَثَل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر » . .

وثانياً : فى عرض مشكلات المجتمع على الجماعة ، وطلب الرأى والنصيحة من أفرادها ـ تربيةٌ للفرد على أداء وظيفته الاجتماعية معها ، وإفساحُ مكان له فيها . . وهذا من شأنه أن يهيء للفرد فرصاً طيبة ، يُبرز فيها وجوده ، ويربّى فيها ملكاته ، وينمّى قواه المدركة ، حتى يكون أهلا لأن يأخذ مكانه منها ، وهذا بدوره ، داعية قوية تدعوه إلى طلب العلم والمعرفة ، وإلى لقاء الجماعة بما حصل من علم ، وما وعى من معرفة . .

وثالثاً : فى عرض الآراء ، وفى تقليب وجوهها ، تصحيح لكثير من الآراء الخاطئة ، وبالتالى تصحيح للمشاعر التى تتوالد عن هذه الآراء ، والتى لو شارك المرء الجماعة فى عمل من الأعمال ، وهو بهذه الآراء ، وتلك المشاعر ، لكان آلة متحركة بغير وعى ، عاملة بغير شعور ، إن لم يكن جسداً غريباً ، يعوق مسيرة الجماعة ، ويقلل من جهدها . . ولهذا كانت دعوة الله سبحانه إلى النبىّ الكريم ، بأن يقيم أمره فى المسلمين على الشورى ، فيقول سبحانه : « فبما رحمة من الله لِنت لهم ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك . . فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر »(١٥٩ : آل عمران) . . والرسول صلوات الله وسلامه عليه ـ بما أراه ربه ـ فى غنى عن المشورة ، وعن أخذ الرأى من أحد ، فإنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كما وصفه الحق جلّ وعلا : « وما ينطق عن الهوى » (٣ : النجم) . . ولكن هكذا أقام الله سبحانه أن النبىّ مع الجماعة الإسلامية على المشورة ، حتى تصحح الآراء الخاطئة على ضوء المشورة ، وحتى يشترك الجميع مع النبىّ فى إقامة الرأى ، وفى حمل تبعة العمل ، وتحمل المسئولية فيما ينجم عنه . . وقد رأينا النبىّ صلوات الله وسلامه عليه ـ بين يدى غزوة « بدر » يدعو الناس إليه قائلا : « أيها الناس . . أشيروا علىّ » . . وذلك أنه صلوات الله وسلامه عليه ، حين خرج

بالمسلمين من المدينة للقاء عِير أبى سفيان ، لم يكن مخرجه لحرب قريش . .
فلما أفلتت العِير ، جاءت قريش لتستنقذ العير أولا ، ثم لتحارب النبي ثانياً . .
فلما خَلَصت لها العير اتجهت إلى الحرب . . فكان هذا موقفاً جديداً بالنسبة للنبي والمسلمين ، ولم ير صلوات الله وسلامه عليه أن يُلزم المسلمين رأياً فيه ،
فطلب رأيَهم فى الحرب ولقاء قريش ، أو العودة إلى المدينة . . فكان الرأى الذى أجمع عليه المسلمون ، هو الحرب ، ولقاء العدوّ . . وقد كانت الحرب ،
وكان النصر !

هذه هى بعض ملامح الشورى ، فى الإسلام . وهى . . كما ترى . .
وثيقة من أروع الوثائق ، ودستور من أقوم الدساتير فى بناء المجتمع . وفى وصل مشاعر أفراده بعضها ببعض ، وفى صبّ آراء أفراده فى مجرى واحد ؛
يفيض بالخير والبركة عليهم جميعاً ..

* * *

قوله تعالى :

* « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » .

هو استكمال لصفات الذين آمنوا . . فإن من صفاتهم ــ إلى جانب ماذُكر لهم من صفات ــ أنهم لا يقبلون الظلم ، ولا ينزلون على حكم الظالمين ، بل إنهم حرب على الظلم وأهله ، يبذلون فى سبيل ذلك كل جهدهم ؛ وما ملكت أيديهم حتى إنهم ليقدّمون أنفسهم ، ويبيعونها بيعَ السماح من أجل إقرار الحق ، وإعلاء كلمته ، والضرب على يد الباطل ، وتنكيس رايته . . وليس الجهاد فى سبيل الله ، والاستشهاد فى ميدان الجهاد ، إلا صورةً من صور دفع الظلم فى أبشع صوره ؛ وردّ البغى فى أقبح وجوهه . لأن حرب الشرك والكفر هى

حرب على الظالمين والباغين، الذين يسعون فى الأرض فساداً، ويبغون فى الأرض بغير الحق..

وسواء أكان البغى الذى يصيب المؤمنَ بغياً واقعاً عليه هو فى ذات نفسه، أو واقعاً على الجماعة الإسلامية، فإن المؤمن مطالب ـ ديانةً، إن لم يكن حمية وأنفة ـ أن يدفع هذا البغى، ويرد ذلك العدوان.. فالبغى منكر غليظ، والمؤمن حرب على المنكر، أيًّا كان، وبأى سلاح يقدر عليه، وفى الحديث الشريف: « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه.. وذلك أضعف الإيمان ».. فأدنى منازل الحرب للظلم، هو إنكاره بالقلب، وازدراؤه وازدراء أهله.. وهذه منزلة لا يصير إليها المؤمن إلا إذا أعجزته القدرة عن الجهر باللسان، والتشنيع على الظلم والظالمين، كما أنه لا يقف المؤمن عند حدّ الحرب باللسان، إلا إذا لم يملك القوة المادية التى يضرب بها فى وجه البغى والباغين..

وفى قوله تعالى: « هم ينتصرون ».. وفى الإتيان بضمير الفصل « هم » ـ إشارة إلى أن من وقع عليهم البغى يجب أن يكونوا هم أول المتصدين له، العاملين على دفعه، لا ينتظرون حتى يتولى عنهم غيرهم الأخذ بحقهم، والانتصاف لهم ممن ظلمهم، وإن كان هذا لا يمنع المؤمنين جميعاً أن يساندوهم ويشدوا ظهرهم.. وفى إسناد دفع الظلم، ورد البغى، إلى من وقع عليه ظلم وبغى ـ هو إعلان لإنكار هذا المنكر، ممن وقع عليه، وإلا كان سكوته عليه، هو رضاً به، وتقبلاً له، الأمر الذى لا يقيم حجة لغيره أن ينتصر له، ويقف فى المعركة معه..

وفى التعبير عن التصدّى للعدوان، ودفع البغى بقوله تعالى: « ينتصرون »

بدلا من التعبير بلفظ مثل : يدفعون ، أو يردّون ، أو نحو هذا — تحريض لمن وقع عليه البغى أن يتحرك لردهذا العدوان ـ لأنه ، إن فعل ـ فسيكون على موعد مع النصر ، الذى وعده الله سبحانه وتعالى إياه فى قوله جل شأنه : « ثم بُغى عليه لينصرنه الله . إن الله لعفوّ غفور » (٦٠ : الحج)

قوله تعالى :

* « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله .. إنّه لا يحب الظالمين » .

هو تحريك لمشاعر أولئك الذينَ بغى عليهم أهل البغى أن يأخذوا بحقهم ، وأنه إذا كان العفو سنّة كريمة ، وعملا مبروراً ، فإنه لايكون كذلك حتى يجىء عن قدرة على مَن بَغَى ، فيكون العفو هنا ، عن فضل وإحسان ، ممن بُغِى عليه ، الأمر الذى يرى منه الباغى أن هناك يداً قادرة على أن تقطع هذه اليد التى بغت ، فلا يتمادى بعد هذا فى بغيه ، بل ينزجر ويندحر ، ولا يطل برأسه من جحره بعد هذا أبداً . .

ففى وصف البغى بالسيئة ، إشارة إلى أنه من المنكر الذى ينبغى على المؤمن محاربته . .

وفى وصف ردّ العدوان ودفع البغى بالسيئة ، إشارة إلى أن من أساء ، لا ينبغى أن يتحرج المؤمن من الإساءة إليه ، وإلحاق الضرر به ، كما أساء هو إلى غيره . وساق إليه الضرّ والأذى . . فالسيئة هنا ، إنما هى سيئة بالإضافة إلى من بدأ بالإساءة . . فما هى إلا عَمَلُه قد رُدّ إليه . . وفى قوله تعالى : «سيئة مثلها» إشارة إلى أن الجزاء ، هو من جنس العمل . .

وقوله تعالى : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » ـ إشارة إلى الأخذ

بما هو أولى من جزاء السيئة بسيئة مثلها ، وهو العفو عن المسيء ، وذلك بعد القدرة عليه ، ووقوعه ليد من بَغَى عليه . . فإن العفو مع القدرة ـ كما قلنا ـ هو عقوبة للمعتدى ، ووقعها على النفوس الحية أقسى وأمر من كل عقوبة . .

وفى قوله تعالى : « وأصلح » ـ إشارة إلى أن لمن أراد أن يأخذ بالعفو أن يسلك الطريق الذى يراه فى هذا المقام ، فله أن يعفو عفواً عامّا ، وأن يعفو عن بعض ، ويأخذ ببعض ، حسب ما يرى من المعفوّ عنه ، ومن الظروف والأحوال المحيطة به . .

وفى قوله تعالى : « إنه لا يحب الظالمين » ـ إشارة إلى المنتصر بعد ظلمه ، ألا يتجاوز حدود الأخذ بحقه ممن ظلمه ، وإلا كان ظالماً ، وانتقل بذلك من مبغىّ عليه إلى باغ ، ومن مظلوم إلى ظالم ، وقد كان الله سبحانه نصيراً له ، فأصبح مخذولا من الله ، مذموماً : « إنه لا يحب الظالمين » .

قوله تعالى :

* « ولَمَنِ انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم » .

هو عرض شارح لقوله تعالى : «وجزاء سيئة سيئة مثلها» . . وهو تحريك أيضاً لمشاعر الثورة على البغى ، ودفع لما يجد أهل السلامة والصلاح فى صدورهم من حرج فى أن ينالوا أحداً بسوء ، حتى ولو كان مسيئاً .. وهذا خروج على سنن العدل ، ومجافاة لطبيعة الحياة ، وإطلاق لأيدى السفهاء أن يعيثوا فى الأرض فساداً ، وأن يُبتلى بهم الأتقياء والأبرار ابتلاء عظيما . . ولهذا جاء الإسلام يقرر هذه الحقيقة ، ويعطى أهله حق الدفاع عن أنفسهم ، بلا بغى أو عدوان ،

حتى يكون لهم من ذلك وقايةٌ من آفات ذوى الشر والعدوان . .

ولقد كانت دعوة المسيح ـ عليه السلام ـ إلى اليهود ، أنّ « من ضربك على خدك الأيمن فأدرْ له خدك الأيسر ، ومن نازعك رداءك ، فاخلع له ثوبك أيضاً » ـ كانت تلك الدعوة بلاء من الله لليهود ، ونقمة منه سبحانه ، بعد أن بغوْا وأفسدوا فى الأرض . . وكانت تلك الجرعات المرة القاسية التى قدمها السيد المسيح لهم ـ هى من بقايا الكئوس المرة القاسية ، التى تجرعها الناس من سموم كيدهم ، ومكرهم ! .

فليس ثمة من سبيل ؛ ولا لوم ، على من انتصر من بعد ظلمه ، فانتصف ممن ظلمه . وأخذ بحقه منه . . وإنما السبيل واللوم على من بدأ بالظلم ، وبغى على الناس . . أو على من انتصر من بعد ظلمه ، فجاوز الحد ، وانتهى به ذلك إلى أن يكون من الظالمين الباغين .. فهؤلاء لهم عذاب أليم ، هو قصاص من العدل الإلهى ، ينتصف فيه سبحانه للمظلوم من ظالمه . .

قوله تعالى :

* « ولَمَنْ صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » .

الواو للقسم ، واللام واقعة فى جواب القسم .. والإشارة إلى الصبر والمغفرة . . أى إن الصبر والمغفرة من عزم الأمور .

وعزم الأمور ، هو موجبها ، ولازمها ، الذى هو مِلاكها ، الذى تقوم عليه ، بحيث لا يتم لها وضع صحيح إلا به . . فلكل أمر عزيمة ، هى السبب أو الأسباب الموصلة إليه . . وفى الحديث : « إن الله يحب أن تُؤتَى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » .. وهى فرائضه ، وما أوجبه الله سبحانه على عباده .

وفى إسناد عزم الأمور إلى الفاعل ، أى فاعل الصبر والمغفرة ، بدلا من إسناده إلى ذات الصبر والمغفرة ـ إشارة إلى أن المعوّل عليه فى إعطاء القيمة للصبر

والمغفرة هو الفاعل لها، وأنه بقدر صبره ومغفرته يتحقق للصبر والمغفرة ، الصفة المناسبة التى تكون له منهما .. ومن حِكَمِ العرب : «خيرٌ من الخير معطيه ، وشر من الشر فاعله » . .

والآية الكريمة تعقيب على هذه القضية العامة ، التى تنتظم الناس جميعاً ، فهم بين ظالمين معتدين، ومنتصفين من الظالمين المعتدين . . وهذا يعنى أنهم فى حرب متصلة لا تنقطع أبداً.. يوقد الظالمون المعتدون نارَها ، ويزيدها المظلومون المعتدَى عليهم ضِراماً ، بالاشتباك فى صراع مع من ظلمهم واعتدى عليهم . . وهذه فتنة وابتلاء للناس . . وأنه إذا كان من حقّ المظلومين أن ينتصفوا من ظالميهم ، فإن عليهم أن يذكروا أنهم فى وجه فتنة وابتلاء ، وأنه من الحكمة أن يعالجوا الأمر برفق ، وأن يأتوا إليه لإطفاء ناره ، لا لتأججها . . وهذا أمر متروك لتقدير الإنسان ، على ألا يخرج به الحال أبداً إلى الظلم والبغى . فإن شاء صبر ، وعفا ، وإن شاء انتصف وانتصر . .

الآيات : (٤٤ — ٥٠)

* « وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى ٱلظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا إِنَّ ٱلْخَاسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (٤٦) ٱسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا

إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ومن يضلل الله فما له من ولىّ من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مردّ من سبيل » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة ، عرضت قضية الظلم ، ومايقع من بغى الناس بعضهم على بعض ، وتوعدت الظالمين الباغين بالعذاب الأليم .. وهنا فى هذه الآية ، إشارة إلى أن المصدر الأول للظلم والبغى، إنما يأتى من جهة الكفر بالله ، والضلال عن سبيله ، وأن الكافرين الظالمين هم الذين لا يجدون لله وقاراً ، ولا يخشون له بأساً ، فهم لذلك يطلقون العنان لقوى الشر الكامنة فيهم ، فيعتدون على حرمات الله ، وعلى عباد الله ، فى غير تحرج أو تأثم . .

فهؤلاء الظالمون المعتدون ، هم ممن أضلهم الله . . « ومن يضلل الله فما له من ولىّ من بعده » أى ليس له نصير ينصره من بعد ضلاله وخذلان الله له . .

وقوله تعالى : « وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مردّ من سبيل » هو عرض للظالمين فى موقف الحساب والجزاء ، وأنهم فى هذا الموقف

فى كرب وبلاء ، يتنادَوْن بالويل والثبور ، وينظر بعضهم إلى بعض فى يأس قاتل ، متسائلين : « هل إلى مردٍّ من سبيل » ؟ أى هل هناك من سبيل إلى الخروج مما نحن فيه ، والعودة إلى الحياة الدنيا ، لنصلح ما أفسدنا ، ونعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل ؟ وهيهات هيهات !!

قوله تعالى :

* « وتراهم يُعرضون عليها خاشعين من الذلّ ينظرون من طرف خَفِىّ وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم » أى وفى هذا الموقف ـ موقف الحساب والجزاء ـ يرى الرائى ، الظالمين وهم يعرضون على النار ، ويقفون بين يديها ـ يراهم خاشعين فى مهانة وذلة وضراعة.. « ينظرون من طرف خفى » أى لا يستطيعون أن يفتحوا أبصارهم على هذا الهول الذى يَفْغَرُ لهم فاه ، بل إن أبصارهم ليصعقها هذا الهول ، فترتدّ عنه ، ويدعوها الخوف منه ، ومحاذرةُ الوقوع ليده ـ أن تنظر لترى أين موقعها منه ، فلا تكاد تلمحه حتى ترتد عنه . . وهكذا تظل أبصارهم مشدودة إلى هذا الهول ، تتحسسه ، فى مُخَالَسة ، كما يتحسس الأعمى حية التفت بعنقه . !

قوله تعالى : « وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . . ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم »

أى أن المؤمنين حين يرون هذا الموقف الذى يكون عليه الظالمون يوم القيامة.. ينظرون إلى أنفسهم ، فيحمدون الله أن عافاهم من هذا البلاء، ويقولون فيما يقولون : « إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة » أى أنه ليس خسراناً هذا الخسرانُ الذى يفوت الإنسانَ من حظوظ الحياة الدنيا ، فى نفسه، وأهله، وماله .. وإنما الخسران حقًّا هو هذا الخسران الذى يلقاه الظالمون

فى هذا اليوم ، حيث قد صَفِرتْ أيديهم من كل شىء ، وتقطعت بينهم وبين أهليهم الأسباب ، فلا يلقام أحد من أولادهم وأهليهم إلا مُعرضاً عنهم ، مشغولا بنفسه وبما يعانيه ـ إن كان من أهل النار ـ أو مشتغلا عنهم بنعيم الجنة ، ومنازعة أهلها طيِّبَ الأحاديث ، وكئوس النعيم ـ إن كان من أهل الجنة ..

وفى التعبير بالماضى عن حديث المؤمنين فى هذا اليوم ، إشارة إلى أن هذا الحديث ، واقع من نفوس المؤمنين موقعَ اليقين وهم فى هذه الدنيا .. فهم يؤمنون بأن هذا هو الذى لابد أن يكون يوم القيامة ..

قوله تعالى :

* « وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فماله من سبيل » ـ هو من قول المؤمنين فى الآخرة ، وهو قولهم فى الدنيا ، وإيمانهم به .. فالمؤمنون على يقين بأن الظالمين لا نصير لهم ، ولا مدافع عنهم فى هذا اليوم ، فإنهم ممن أضلهم الله ، وسلك بهم مسالك الطريق إلى جهنم ، فليس لهم سبيل إلى طريق آخر إلى غير هذا المورد الذى هم مساقون إليه ..

قوله تعالى :

* « استجيبوا لربكم من قبل أن يأتىَ يوم لا مردّ له من الله .. ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير »

هو دعوة إلى الظالمين ، المنحرفين عن طريق الهدى ، أن يستجيبوا لربهم ، وأن يُقبلوا على ما دعاهم إليه من الإيمان به على لسان رسوله ، وذلك « من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله » أى لا مرد لهم فيه إلى الحياة الدنيا ، وليس لهم فيه من ملجأ يفرون إليه من هذا العذاب المحيط بهم فيه ، وليس لهم فى هذا اليوم مَن يقوم فيهم مقام المنكِر عليهم ، ماهم فيه من ضلال ، فقد انتهت رسالة

الرسل . فلا وعد ولا وعيد ، ولا بشير ولا نذير . .

قوله تعالى :

* « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسانَ منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور »

أى فإن أعرض هؤلاء الظالمون المدعوون إلى الاستجابة لله ، عن قبول هذه الدعوة : « فما أرسلناك عليهم حفيظاً » أى فإنك أيها النبي لستَ مرسلا إليهم لتقوم على حفظهم من شرور أنفسهم وسيئات أعمالهم : « إنْ عليك إلا البلاغ » أى ما عليك إلا أن تبلغهم رسالة ربك ، وتدعوهم إليه ، وتحذرهم بأسه وعقابه ، وتبشرهم برحمته ورضوانه . . فإن هم استجابوا لله ، بعد أن تبين لهم الرشد من الغى ، فقد رشدوا ونجوْا ، وإن أبوا أن يستجيبوا لله ، فليس لك أن تتولى حفظهم ، وتأخذ بهم قسراً إلى طريق النجاة .. فإنه « لآ إكراه فى الدين » . . وإنّ على كل إنسان أن يتولى حفظَ نفسه ، ووقايتها ، وإقامتها على الطريق الذى يختاره لها ..وهذا ما يشير إليه قوله سبحانه : « إنْ كل نفس لمّا عليها حافظ » (٤ : الطارق) أى ما كل نفس إلا قائم عليها حافظ ، مطلوب منه أن يتولى حفظها ، وهو هذا العقل الذى أودعه الله فيها ، فإذا لم يوقظ الإنسانُ هذا الحارسَ ، وينبهه إلى أداء وظيفته ، ثم دخل عليه من يستبدّ به ، ويستولى عليه ، ويورده موارد الهلاك ، فلا يلومنّ إلا نفسه . .

قوله تعالى : « وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور » .

مناسبة هذا لما قبله ، هى أن ما سبق من قوله تعالى : « فإن تولّوْا فما

أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ » ـ يشير ضمناً إلى مافى بعض النفوس من فساد ، لا نجد معه مساغاً لطعم الخير ، ولا اشتهاء له ، وأن ذلك طبيعة غالبة فى الإنسان ، كذلك من طبيعة الإنسان أنه إذا مسّته رحمة من عند الله ، وأصابه خير ـ كَسَعةٍ فى الرزق ، أو نماء فى الثمر ، والولد — ابسته الفرحة ، وإن مسه ضر بما قدمت يداه نسى ما ألبسه الله تعالى إياه من نعم ، ولم يعد يذكر لله إلا هـــذا الضرّ الذى أصابه بما صنعت يداه . .

وفى إفراد الإنسان فى قوله تعالى : « وإنّا إذا أذقنا الإنسان منّا رحمة » ـ إشارة إلى كل فرد من أفراد هذا الجنس البشرى ـ فأل هنا للجنس ـ إذ أن كل إنسان أيا كان ـ مؤمنا كان أو كافراً ـ يفرح بالخير إذا أصابه ، ويَهَشّ له ، وتطيب نفسه به . .

أما عود الضمير جمعاً على الإنسان فى قوله تعالى : « وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم » فذلك لأنه ليس كل إنسان فى حيّز هذا الشرط وجوابه ، فيكفر بالله ، أو يسىء الظن به فى حال الضر ، بل إن الواقعين فى حيز هذا الشرط وجوابه ، هم الذين لا يؤمنون بالله مطلقاً ، أو لا يؤمنون به إيماناً وثيقاً ، مثل أولئك الذين يعبدون الله على حرف ، كما يقول الله تعالى فيهم : « ومن النـاس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين » (١١ : الحج) فكثير من الناس يقفون هذا الموقف من ربهم .. إن أصابهم خير ، رضُوا به واطمأنوا إليه ، وإن أصابهم شر بما قدمت أيديهم ، أنكروا من الله ما كانوا يعرفون .. وقليل من الناس ، وهم المؤمنون بالله حقًّا ـ لا تختلف حالهم مع الله أبداً .. فهم على إيمان به ، وحمدٍ له ، فى السراء

والضراء على السواء .. كما يقول الله سبحانه وتعالى فيهم : « والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدَقوا وأولئك هم المتّقون » (١٧٧ : البقرة) . .

وجواب الشرط هنا هو قوله تعالى : « فإن الإنسان كفور » أى وإن يصبهم شر بما قدمت أيديهم، فهم جميعاً هذا الإنسانُ الكافر الجحود . . وقد جىء بالجواب جملة اسمية ، للإشارة إلى أن هذا الحكم ليس حَدَثاً عارضاً فى مجرى حياة الإنسان ، بل إن ذلك جِبِلّة وطبيعة فيه ، وأنه إذا كان ثوب النعمة الذى لبسه حيناً من الزمن قد ستر منه هذه الطبيعة ـ فإن الضر الذى أصابه ونزع عنه هذا الثوب ـ قد كشف عنه ما كان مستوراً منه ، فظهر على حقيقته ، وهو الكفران والجحود !..

وفى قوله تعالى : « بما قدمت أيديهم » — إشارة إلى أن ما يصيب الإنسانَ من ضرّ هو من صنع يده .. كما يقول الله تعالى : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » (٧٩ : النساء) . . وأنّ تَبدُّلَ أحوال الناس من نعمة وعافية إلى سوء وبلاء ، هو بما كسبت أيديهم . . « ذلك بأن الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (٥٣ : الأنفال) . .

قوله تعالى

* « لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشآء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور * أو يزوجهم ذُكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير » .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، أن الآية السابقة أشارت إلى ما يصيب الناسَ من خير وشر ، وقد أضافت الخيرَ إلى الله سبحانه ، وأضافت الضرّ إلى كسب الناس ، وحتى لا يقع فى وَهْمْ الناس — وخاصة من لا يعرفون الله ولا يقدُرونه حقّ قدره — أن ما يصيب الناس من ضرّ هو مسوق إليهم من عند غير الله — حتى لا يقع هذا الوهم ، جاء قوله تعالى : « لله ملك السموات والأرض » ليدفع هذا الوهم ، وليقرر أن كل ما فى السموات وما فى الأرض ، وما يجرى فيهما من أمور ـ هو من عند الله : « قل كلٌّ من عند الله » (٧٨ : النساء) . .

فالله سبحانه يخلق ما يشاء ، ويهب ما يشاء لمن يشاء . . فيعطى ويمنع ، ويثيب ويعاقب . .

« يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذُكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً » . .

فهذا بعض تصريف الله فيما تتعلق به نفوس الناس ، من حبّ الولد . . فبعض الناس يهبهم الله إناثاً ، وبعضهم يهبهم ذكوراً ، وبعضهم يهبه الذكور والإناث معاً : « يزوجهم ذكراناً وإناثاً » أى يجعلهم أزواجا ، ذكرا وأنثى ، لا أن يتزوج بعضهم بعضا ، وقد جاء النص القرآنى : «ذُكراناً وإناثاً» للإشارة إلى ما يقع فى نسبة الذكور والإناث من اختلاف ، عند من يُرزقون الذكور والإناث . . فقد يرزق الإنسان ذكراً وأنثى ، أو ذكراً وعدداً من الإناث ، أو عدداً من الذكور وأنثى ، أو أعداداً متساوية من الذكور والإناث . .

وقوله تعالى : « ويجعل من يشاء عقيماً » — إشارة إلى الصنف الرابع

الذى تكمل به الصورة، التى يكون عليها حال الناس جميعاً فى هذا الرزق المقسوم من الولد ..

فالناس فى هذا الرزق أربعة أصناف، لا يتجاوزونها . .

بعضهم يُرزق الإناث، ولا ذكور، وبعضهم يُرزق الذكور، ولا إناث.. وبعضهم يرزق الذكور والإناث، وبعضهم عقيم، لا يُرزق ذكوراً ولا إناثاً . .

وفى قوله تعالى: « إنه عليم قدير » تعقيب على هذا الرزق الذى بين يديه سبحانه، والذى يهب منه ما يشاء لمن يشاء . . فهو العليم، بما يهب، ولمن يهب، وهو القدير على ما يشاء من عطاء ومنع . . « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » (٥٤ : الأعراف) ..

الآيات : (٥١ — ٥٣)

* « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ (٥٣) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وما كان لبَشَر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم » . .

[مفهوم جديد . . للحروف فى أوائل السور]

بهذه الآية ، والآيتين التى بعدها ، تختم السورة الكريمة . . وبهذا الختام ، يتم التلاقى بين بدئها وختامها . . فقد بدئت السورة بقوله تعالى : « حم * عسق * كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » وختمت ببيان الصور التى يتم بها الاتصال بين الله ورسله ، والتى يتلقّون بها كلماته وآياته . . وأن هـذه الصور لا تخرج عن أحوال ثلاث . .

الصورة الأولى : أن يكون ذلك الاتصال بين الله ورسله « وحياً » أى رمزاً وإشارة ، بحيث لا يعرف دلالةَ ما يوحِى اللهُ سبحانه به إلى الرسول ـ إلا الرسولُ وحده . .

والصورة الثانية : أن يكون الاتصال بأن يكلم اللهُ الرسولَ بكلماته التى يريد سبحانه إلقاءها إليه ، وذلك من وراء حجاب ، أى من غير أن يرى الرسولُ ذاتَ المتكلم ، سبحانه وتعالى ، حيث لا يمكن أن تقع هذه الرؤية لأبصارنا المحدودة الكليلة ، التى لا تتعامل إلا مع ما هو محدود ، والله سبحانه وتعالى منزّه عن التجسد ، والحدّ . . ولهذا كان قول الله لموسى حين قال : « ربّ أرنى أنظر إليك » . . . « قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربّه للجبل جعله دكّا وخرّ موسى صَعِقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » (١٤٣ الأعراف) .

الصورة الثالثة : أن يكون ذلك بوساطة رسول من عالم الرّوح ، يرسله الله سبحانه وتعالى ، حاملا آياتِه وكلماته التى أذِن بها له ـ إلى الرسول البَشَرىّ ، فيتلقاها النبىّ من رسول السماء .

وقد أشرنا فى أول هذه السورة ، عند تفسير قوله تعالى : « حم * عسق » . . إلى أن هذه الأحرف المقطعة ، هى صورة من صور الوحى ، وهى الصورة الأولى التى أشار إليها الله سبحانه وتعالى بقوله : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً » فهى ـ أى هذه الأحرف ـ من هذا الوحى الرمزى ، الذى هو سرّ بين الله سبحانه وتعالى وبين رسوله صلوات الله وسلامه عليه . . ! وهذا يعنى أن هذه الأحرف معروفةُ الدّلالة لرسول الله ، وإلا لما كان لوحيها إليه حكمة . . وهذا بدوره يدعونا إلى القول بأن الحروف المقطعة التى بدئت بها بعض السوّر القرآنية ـ يجرى عليها هذا المفهوم الذى فهمنا عليه هذه الأحرف المقطعة هنا فى تلك السورة .

والسؤال هنا ، هو :

إذا كانت هذه الأحرف وحياً خاصاً من الله سبحانه وتعالى إلى رسوله الكريم ، لا يعرف دلالتَها إلا الرسولُ ، فلماذا كانت قرآناً ، يُتلى ، ويُتعبد به ؟ وكيف يُتعبد بما لا مفهوم له ؟

وقبل أن نجيب على هذا نسأل : أكان الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، يعرف دلالة هذه الحروف ؟

والجواب على هذا بالإيجاب ، وذلك من وجهين :

فأولا : فى قوله تعالى فى أول السورة : « حم عسق * كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » . . وقد عاد اسم الإشارة

إلى هذه الأحرف ، وإلى أنها صورة من صور الوحى، التى يتصل فيها النبىّ بربّه جلّ وعلا .

وثانياً : فى قوله تعالى : فى ختام السورة : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب . . . الآية » . . إشارة إلى أن هذا الوحى هو مما كلم الله به نبيه . . والكلام لا يكون كلاما حتى تكون له دلالة مفهومة عند مَن يُلقَى إليه هذا الكلام . . لأن الكلام نَقْد متداول بين مُعطٍ وآخذ ، ولن تتم عملية المبادلة حتى يكون لهذا النقد قيمة معترف بها بين الطرفين ، أو الأطراف المتعاملة به . . وقيمة اللغة هى فى دلالتها ، وفى تحديد مفهومها بين المتخاطبين بها . .

فكلام الله سبحانه وتعالى لرسله، سواء أكان وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو عن طريق رسول سماوى ينقله إلى الرسول البشرى ـ هذا الكلام الإلهى لابدّ أن يكون واضحَ الدلالة ، بيِّنَ المفهوم عند الرسول المتلقى لهذا الكلام ، قبل كل شىء . . ثم لا يمنع ذلك من أن يكون للناس ـ وخاصة قوم الرسول ـ مشاركة فى هذا الفهم ، على اختلافٍ فى درجات هذا الفهم . . من الألف إلى الياء . . على حين تبقى للرسول درجة خاصة من الفهم لا يشاركه فيها غيره !

ونعود إلى الاجابة على سؤالنا آنفاً ، وهو : إذا كانت هذه الأحرف المقطعة ، وحياً خاصاً من الله سبحانه وتعالى إلى رسوله الكريم ـ فلماذا كانت قرآناً يتلى ويتعبد به ؟ وكيف يُتعبد بما لا مفهوم له ؟

والجواب على هذا . . والله أعلم . . هو :

أولا : أن اختصاص الرسول الكريم ، بفهمٍ خاص، لبعض كلماتٍ وآياتٍ

من كلمات الله وآياته ، التى يتلقاها وحياً من ربه — ليس هـذا الفهم الخاص بالذى يعزل هذه الآيات أو الكلمات عن آيات القرآن وكلماته . . إذ أن هناك آيات وكلمات ، تختلف مفاهيم أهل اللغة فيها ، وفى تحديد دلالتها ، وهى من المتشابه الذى أشار إليه سبحانه وتعالى فى قوله : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمُّ الكتاب . . وأخرُ متشابهات . . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربّنا وما يذّكر إلا أولو الألباب » (٧ : آل عمران) — ومع ذلك فهى قرآن يُقرأ ويتعبد به .

وثانياً : حكمة هذه الحروف المقطعة — وهى من المتشابه — أنهـا دعوة إلى الايمان بالغيب ، والتسليم بالتعبد بهذه الأحرف ، دون أن يكون للعقل سلطان معها ، بعد أن استوفى العقل حقّه ، وأعمل كلّ سلطانه مع المحكم من الآيات ، واستبان له — بما لا يدع مجالا للشك — أنها من عند الله . . فكان حَمْلهُ على الإيمان بما لا مفهوم له عنده من كلمات الله ، وإحالة مالم يفهمه على ما فهم — كان ذلك دعوةً مجددة له إلى الإيمان القائم على الولاء والتسليم المطلقيْن . . فذلك هو الإيمان فى صميمه ، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى : « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » . . وهذا ما نجده فى بعض أعمال الحج ؛ التى يقف العقل أمامها دون أن يجد لها مفهوما يلتقى مع منطقه . . كالطواف ، والسعى ، ورمى الجمرات ، ولمس الحجر الأسود أو تقبيله . . وهذه كلها ، وكثير غيرها من أعمال الحجّ ، هى من الإيمان القائم على التسليم المطلق لأمر الله ، وبمعزل عن سلطان العقل ، بعد أن امتلأ القلب إيماناً ويقيناً بما تلقى من العقل من إشارات مضيئة من الحجج والبراهين ، أضاءت له معالم الطريق الى

الله ، وإقامته مقاماً آمناً مطمئناً على الإيمان به[1] .

وثالثاً : فى اختصاص الرسول صلوات الله وسلامه عليه بهذا العلم الذى تحمله إليه هذه الأحرف المقطعة ، وغيرها من الآيات المتشابهة . . فى هذا ـ فوق أنه مزيدُ فضلٍ وإحسان من الله سبحانه لنبيه الكريم ـ هو تثبيت للنبىّ ، فى مقام الدعوة إلى الله ، وفى الصبر على ما يكابد من آلام فى سبيل هذه الدعوة ، وما يلقى من ضرّ فيما يسوق إليه المشركون والمعاندون من كيد . .

ففى هذه الأحرف ، يرى الرسول ـ فيما أراه الله منها ، من أنباء الغيب ـ الطريقَ الذى تسير فيه دعوته ، وما يلقى على هذا الطريق من مواقع الهزيمة والنصر ، وما ينتهى إليه هذا الطريق من إعزاز لدين الله ، وانتصار لجند الله ، وإعلاء لكلمة الله . . وفى هذا ما يعين الرسولَ الكريم على احتمال الخطوب والأهوال ، حيث يجد النصرَ قريباً منه ، يلوّح له برايات الأمان ، وينتظر سفينته التى تزأر من حولها الأمواج ، وقد أعد لها مرفأ الأمن والسلام . .

هذا ، ويلاحظ أن هذه الحروف المقطعة التى بدئت بها بعض سور القرآن الكريم ـ قد انتظمها جميعاً أمران :

الأمر الأول : أنها جاءت على رأس هذه السور.. وهذا يعنى أنها مفاتح لها، يفتح بها هذا الخير الذى تحمله كل سورة فى آياتها وكلماتها من مواعظ، وأحكام. . ثم يعنى ـ من جهة أخرى ـ أنها ذات منزلة خاصة ، إذ كانت وحياً مباشراً من الله سبحانه ، على خلاف ما تلقى الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من آيات ربه وكلماته ، بواساطة الرسول السماوى ، جبريل عليه السلام .

الأمر الثانى ، الذى انتظم هذه الأحرف ، أنه قد أعقبها ، واتصل بها ،

(١) وقد عرضنا لهذا فى مبحث خاص .(انظر تفسير سورة الحج)

ذِكر القرآن، تنويها به، أو بيانا لما يحمل من هدى ونور، أو إشارةً إلى مِنَّةٍ من مِنن الله على عباده المتقين. أو قسَماً بجلاله وعظمته، أو تشريفاً للأدوات التى تخدم هذا الكتاب، وتعمل فى كتابته.

وما ورد من الحروف المقطعة فى أوائل السور، هو قوله تعالى:

« الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ». (البقرة) - «الم. الله لا إله إلا هو الحى القيوم. نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه».. (آل عمران) - «الٓمٓصٓ * كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين» (الأعراف).. «الر. تلك آيات الكتاب الحكيم» (يونس).. «الر. كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» (هود). «الر. تلك آيات الكتاب المبين» (يوسف) «المر، تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق» (الرعد) «الر. كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم» (إبراهيم) «الر. تلك آيات الكتاب وقرآن مبين» (الحجر).. «كهيعص * ذكر رحمة ربك عبده زكريا» (مريم).. «طه» ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى (طه) - «طسم. تلك آيات الكتاب المبين» (الشعراء).. «طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين» (النمل) «طسم. تلك آيات الكتاب المبين» (القصص) «الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون» (العنكبوت) «الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيُغلبون» (الروم). «الم. تلك آيات الكتاب الحكيم» (لقمان).. «يس. والقرآن الحكيم» (يس)..

«ص والقرآن ذى الذكر» (ص).. «حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم» (غافر).. «حم. تنزيلٌ من الرحمن الرحيم»

(فصلت) .. « حم . عسق . كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » (الشورى) . . « حم والكتاب المبين » (الزخرف ، والدخان) « حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » (الجاثية ، والأحقاف) . . « ق . والقرآن المجيد » (ق) . . « ن . . والقلم وما يسطرون » (ن) .

هذا ويلاحظ عند النظر فى هذه المفاتح . . أمور . . منها :

أولا : اشتراك بعض السور فى صورة الحروف التى بدئت بها ، مثل « الم » فقد بدئت بها « البقرة و آل عمران والعنكبوت والروم ولقمان» .. و « الر » التى بدئت بها سور: « يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر » ، و « طسم » وقد بدئت بها سورتا « الشعراء والقصص » و « حم » التى كانت بدءاً لست سور ، هى : غافر ، وفصلت ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية . والأحقاف .

والسؤال هنا هو : إذا كانت هذه المفاتح ، تحمل دلالات خاصة ، هى سرٌّ بين الله سبحانه وتعالى وبين الرسول الكريم ، على هذا التأويل الذى تأولناها عليه ـ فكيف يتفق أن تتكرر هذه المفاتح ؟ وما داعية تكرارها إذا كان السر الذى تحمله ، هو هو فى أىّ منها ؟

والجواب على هذا ـ والله أعلم ـ هو ، أن هذا التكرار فى صورة الحروف ، لا يعنى أن تكون محامل الأسرار فيها مماثلة من كل وجه . . وقد قلنا إن هذه الحروف ، هى إشارات موحية ، وإيماءات دالة . . وعلى هذا ، فإنه ليس من الحتم اللازم أن تتحد الإشارتان أو الإشارات فى الصورة، ثم لايكون اختلاف فى المحتوى والمضمون . . فالكلمة مثلا تختلف دلالاتها باختلاف الحال المتلبسة بها ، والحركة بالعين أو اليد ، قد تقع على صورة واحدة ولكن مفهومها يختلف، حسب تأويل المتلقى لها . . والأحلام مثلا، تتفق فى

صورتها ويختلف تأويلها . حسب الأشخاص ، وحسب الأحوال للشخص الواحد . .

هذه صورة تقربنا من فهم ما نقول به ، من أن الاتفاق فى صورة الحروف المكررة ، لا يعنى الاتفاق فى دلالتها . . بل إن لكل صورة منها دلالة خاصة . . مع العلم بأن الله سبحانه قد وصف هذه الكلمات بأنها وحى ، وأنها مما كلم الله به رسله ، وقد قلنا إن الكلام لا يكون كلاماً إلا إذا كان ذا دلالة مفهومة بين المتكلم ، والمتلقى لهذا الكلام . . فكيف بكلام الله سبحانه وتعالى ، وما يَبْلُغُه من موقع الفهم عند من يكرمه الله ، ويكلمه بكلماته . .؟

وسؤال آخر . . وهو إذا كان لكل صورة من صور هذه الحروف المكررة تأويلا خاصاً ، ودلالة خاصة . . أفما كان من الأولى — وفى اللغة متسع لهذا — أن يكون لكلّ دلالة صورة من اللفظ خاصة بها ؟

والجواب على هذا — والله أعلم — أن هذا الاشتراك فى اللفظ والاختلاف فى المعنى ، هو من مظاهر اللغة العربية التى نزل القرآن بلسانها ، بمعنى أن الكلمة الواحدة قد تحمل دلالتين أو أكثر ، مثل كلمة العين ، التى تدل على عين الماء ، والعين المبصرة .

وهذا الاشتراك ليس عن قصور فى مادة اللغة ، وإنما هو من بلاغة هذه اللغة وذكاء أهلها . . حيث يفرّقون فى اللفظ المشترك بين المعنى الذى تقتضيه داعية الحال ، وبين المعنى الذى لا مقتضى له فى تلك الحال ، كما أنهم إذ يأخذون بالمعنى المراد للفظ المشترك فى الحال الداعية له ، لا يقطعونه عن المعنى أو المعانى الأخرى التى يحملها فى كيانه . .

فإذا جاء القرآن الكريم مستعملا اللفظَ المشترك فى تلك الحروف المقطعة — كان جارياً فى هذا على أسلوب اللغة التى نزل بها ، وأنه كما جاء باللفظ المشترك

فى الوحى الموحَى به بوساطة المَلَك السماوىّ ، جاء كذلك فى الوحى الموحَى به من عند الله سبحانه وتعالى ، بغير واسطة . . والله أعلم .

* * *

قوله تعالى :

* « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور » .

الإشارة هنا إلى قوله تعالى : « أو يرسل رسولا فيوحىَ بإذنه ما يشاء . . » أى وكما أرسل الله رسولا علويًّا بوحىٍ بإذنه ما يشاء إلى أنبيائه ، كذلك أرسلَ هذا الرسولَ ، إلى النبىّ الكريم ، يحمل إليه من آيات ربه وكلماته ، ما أذِن الله سبحانه وتعالى به من وحى .. وفى هذا إشارة إلى الصورة الثالثة من صور الوحى ، والتى كانت هى الصورةَ الغالبة على تلقِّى رسولِ الله مايتلقّى من وحى ربه . . أما الصورة الأخرى التى كان يتلقى فيها النبى كلمات ربه ، فهى ما أشار إليه سبحانه وتعالى فى أول هذه السورة بقوله : « حم * عسق * كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » . . فالإشارة هنا ، إلى هذه الأحرف المقطعة التى تلقاها النبى ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ وحياً من ربه ، دون وساطة رسول سماوى . . على ما ذهبنا إليه من تأويل لهذه الآية ، والذى نرجو أن يكون على منهج الحق والصواب . .

والروح فى قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » يحتمل دِلالتين : أولاهما : الدلالة على رسول الوحى ، وهو جبريل عليه السلام ، فهو روح من عند الله .. كما يقول الله سبحانه وتعالى فيه : « نَزَل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذِرين » (١٩٣ ــ ١٩٤ الشعراء)

وثانيتهما : الدلالة على القرآن الكريم ، فهو كلام الله . . وكلامه سبحانه وتعالى روح منه . كما يقول سبحانه وتعالى عن مريم : « ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » (١٢ : التحريم » . . ثم يقول سبحانه عن هذه النفخة : « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم » (١٧١ : النساء) فالنفخة التى تلقتها مريم من روح الله ، هى الكلمة التى ألقاها الله سبحانه وتعالى إليها . .

وهذا يعنى أن القرآن رُوح ، من روح الله ، وأن الذى حمله إلى الرسول رُوح من روح الله كذلك . . فهو روح ، يحمله روح . . وهذا يعنى من جهة أخرى ، أن القرآن الكريم حياة ورُوح تلبس النفوس المستعدة لاستقبالها ، كما تلبس الحياةُ والأرواح الأجسادَ ، بعد أن يتم تكوينها ، وتصبح مهيأة لاستقبالها.. وكما أن كل جسد يلبس من الأرواح بقدر ما هو مستعدّ له ، كذلك النفوس ، يفُاض عليها من روح القرآن ، على قدر ما هى مستعدة له ، ومهيأة لقبوله . .

وقوله تعالى : « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان » ـ هو بيان لحال النبى قبل أن يتلقى رسالة السماء ، وما تحمل إليه من كلمات ربه . . وأنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يكن قبل هذا التلقى يدرى شيئاً عن هذا الكتاب، أى القرآن الذى تلقاه من ربه . . كما يقول الله سبحانه : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » (٣ : يوسف)

وفى قوله تعالى : « ولا الإيمان » ـ ما يسأل عنه ، وهو : ما الإيمان الذى كان لا يعرفه النبى قبل النبوة ؟ وعلى أى دين كان يَدين ؟

ولا شك أن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان على دين الفطرة

وهو دين إبراهيم عليه السلام . . فقد كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مؤمناً بإله واحد ، قائم على هذا الوجود ، متفرد بالخلق والأمر . . أما ما لم يكن يعرفه النبي من الإيمان ، فهو ما يتصل بالشريعة التي تتصل بهذا الإيمان ، والتي جاء القرآن الكريم مبيّناً لها . . فالإيمان : قول، وعمل .. عقيدة، وشريعة .. وقد كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرف الجانب العقيدى ، ويتعبد لله عليه ، قبل البعثة . . أما الجانب التشريعى ، فلم يكن يعلم منه شيئاً إلى أن تلقاه وحياً من ربه ، في أحكام الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وفيما أحل الله ، أو حرم . .

فنفى علم النبي بالإيمان قبل الوحى ، ليس على إطلاقه ، وإنما هو نفى لتمام العلم بالإيمان كله ، عقيدةً وشريعة . .

قوله تعالى : « ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا » . . الضمير في جعلناه ، يعود إلى الروح الموحَى به من أمر الله ، أو إلى الكتاب . .

وفى قوله تعالى : « جعلناه نوراً » ـ إشارة إلى ما يحمل القرآن من هدى ونور ، يكشف معالم الطريق إلى الله . .

وفى قوله تعالى : « نهدى به من نشاء من عبادنا » ـ إشارة أخرى إلى أن هذا النور ، لا يهتدى به إلا من شاء الله سبحانه وتعالى له الهداية من عباده، فهو رزق من رزق الله ، « والله يرزق من يشاء بغير حساب »

وفى قوله سبحانه : « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » ـ إشارة ثالثة إلى أن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هو نور من هذا النور ، وأنه مَعْلَمَ من معالم الحق ، يهدى إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم ، وذلك في سنته القولية والعملية . . وهذا يعنى أن السنة المطهرة ـ قولية وعملية ـ هى من هذا النور السماوى .

وقوله تعالى : « صراطِ الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض » هو بدل من « صراط مستقيم » ـ أى أن هذا الصراط المستقيم الذى يهدى إليه الرسول مَن شاء الله سبحانه وتعالى لهم الهداية من عباده ـ هـذا الصراط ، هو صراط الله ، ودينه القويم ، الذى رضيَه لعباده ، كما يقول سبحانه : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » (١٥٣ الأنعام)

وقوله تعالى : « ألاَ إلى الله تصير الأمور » تعقيب على ما تقرر فى قوله تعالى : « الذى له ما فى السموات ومافى الأرض » وهو أنه سبحانه ـ بما له من سلطان مطلق فى هذا الوجود كله ، فى أرضه وسمائه ـ يُرَدّ إليه كل أمر ، ويرجع إليه كل شىء . . فلا يقع أمر إلا بإذنه ، وعلمه وتقديره . « ألاَ له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . .

* * *

٤٣ - سورة الزخرف

نزولها : مكية .. إجماعاً .

عدد آياتها : تسع وثمانون آية .

عدد كلماتها : ثمانمائة وثلاث وثلاثون .. كلمة .

عدد حروفها : ثلاثة آلاف وأربعمائة .. حرف :

مناسبة السورة لما قبلها

جاء فى أول سورة الشورى : « حم ، عسق كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » .. وقد قلنا فى تأويل هذه الآية : إن الوحى المشار إليه هنا ، هو الوحى بتلك الحروف المقطعة ، التى هى من كلام الله سبحانه وتعالى ، لنبيه الكريم ، من غير وساطة ملك ، وإن هذا الوحى هو أشبه بالرمز والإشارة ، بحيث لا يفهم ماوراء الرمز والإشارة ، إلا الرسول صلى الله عليه وسلم ..

ثم جاء قوله تعالى : فى أول سورة الزخرف هذه : « حم والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » فكان فى هذا إشارة إلى ما يوحَى إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - من آيات الله وكلماته ، عن طريق الرسول السماوى ، جبريل عليه السلام ، مع ما تلقاه وحياً مباشراً من ربه ..

وهذا الموحَى به عن هذا الطريق ، - طريق الرسول السماوى - هو الذى يشارك أهلُ اللسان العربى ، النبىَّ - صلى الله عليه وسلم - فى فهم دلالات ألفاظه ، ومعانى آياته ، لأنه بلسانهم الذى يتكلمون به ، وبألفاظهم التى يتعاملون بها .. فليس إذن كلُّ القرآن من هذا الوحى

الرمزى ، الذى اختُصّ النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بفهمه والعمل به ، دون أن يطالَب غيرُه من المؤمنين بالبحث عن دلالته ، وإن كانوا مطالبين بالتعبد بتلاوته .

ومن جهة أخرى ، فإنه قد جاء فى ختام سورة الشورى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور » .. ثم كان قوله تعالى فى مفتتح سورة الزخرف : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * وإنه فى أمّ الكتاب لدينا لعلى حكيم » ـ بياناً لهذا النور ، الذى يهدى إلى صراط الله ، وهو أنه قرآن كريم ، بلسان عربى مبين ، وأنه بهذا اللسان هو نعمة جليلة أنعم الله بها على العرب ، الذين كان معهم وحدهم مفاتحُ الطريق إلى هذا النور ، وكان إليهم قيادةُ الناس جميعاً إلى الهدى . . ثم كان قوله تعالى بعد ذلك : « أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين » ـ تهديداً لهؤلاء الذين جعل الله إلى أيديهم مفاتح هذا النور ؛ أن يصرف عنهم هذا العطاء الجزيل ، إذا هم لم يقبلوه ، ويُحسنوا الانتفاع به . . وبهذا ، وبكثير غيره مما سنراه عند وقوفنا بين يدى هذه السورة ، نجد التآخى بين السورتين ، ذلك التآخى الموصول بين آيات القرآن كلها ، وسوره . . آية آية ، وسورة سورة . .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٨)

* « حمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « حَم * والكتاب المبين » .

ورَدَ هذا المقطع : « حم » بدءا لست سور من القرآن الكريم ، هى : غافر ، وفصلت، والزخرف ، والدخان، والجاثية، والأحقاف.. وهذا الاتفاق فى اللفظ ــ كما قلنا ــ لا يلزم منه الاتفاق فى المحتوَى والمضمون ، الذى ينكشف للنبى منها .. فهذه الأحرف ، هى رمز وإشارة إلى معان وأمور يعرفها النبى ، على حين تظل هذه المعانى وتلك الأمور ، غيباً لا يعلمه إلا هو ، والراسخون فى العلم من أمته .

وقوله تعالى : « والكتاب المبين » .. معطوف على قوله تعالى : « حم » المقسَم به .. وبين المتعاطفين ، اختلاف ، واتفاق .. فهما مختلفان : لأن

أحدهما رمز وإشارة ، وهو « حم » والآخر ، كلام بيِّن القصد ، واضح الدلالة ، وهو « الكتاب المبين » .. وهما متفقان لأنهما ـ الخفى والجلى ـ كلاهما من عند الله ، ومن كلام الله . .

هذا ، وأُوثِرُ أن أفهم قولَه تعالى : « فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون * إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين » (٣٨ ـ ٤٣ : الحاقة) ـ أوثر أن أفهم القسم بما يبصرون وما لا يبصرون ، على أن ما يبصرون ، هو ما تتضح لهم دلالته من ألفاظ القرآن ، وما لا يبصرون ، هو ما لا يرون له دِلالة أصلا ، وهى تلك الحروف المقطعة ، وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بهما معاً ، كما جاء القسم فى قوله تعالى : « حم * والكتاب المبين » وفى أمثالها . . فهو قسم بالخفىّ والظاهر من آيات الله . . ثم إنه ليس هذا بالذى يمنع أن يشمل القَسَم ، ما يبصرون وما لا يبصرون ، من آيات الله القرآنية والكونية .. على السواء . .

ومما يُستأنس به فى هذا المقام ، أنه قد جاء بعد هـذا القسم ، نَفْى صفة الكَهَانة عن الرسول الكريم ، وأن ما يقوله من ألفاظ لا يفهمون دِلالتها ـ كهذه الحروف المقطعة ـ ليس هو من قبيل كلام الكهان الذى يجىء كله رموزاً ، وطلاسم ، وإنما هو قول رسول كريم ، تلقاه وحياً منزّلا من رب العالمين .

قوله تعالى :

* « إنا جعلناه قرآناً عربيًّا لعلكم تعقلون » .

أى أن الله سبحانه ، وتعالى قد أكرم هذه الأمة العربية ، ببركة هذا

النبيّ الذى هو صفوة خلق الله ، فجعل أمته خيرَ أمة أُخرجت للناس ، وجعل لغتَها هى اللغةَ التى تحمل دين الله كاملا ، وهو الإسلام ، فجاء القرآن الكريم بلغة العرب ، ليكون لهم حظُّهم الكامل منه ، وليكونوا هم أولَ من يقطف من كَرْمه ، وَيطْعَم من ثمره ..

وفى قوله تعالى : « لعلكم تعقلون » — إشارة إلى الحكمة من جعل القرآن الكريم قرآناً عربياً ، وهى لكى يتمكن العرب من الاتصال به ، وإدراك معانيه ، وعقْلها ، حتى يفُيدوا منه ، وينتفعوا بما فيه من خير .. وهذا يعنى أن العقل هو الوسيلة التى يُتوسل بها إلى الإفادة من القرآن ، وأن من يجىء إليه متخلياً عن عقله ، غير متدبر لآياته ، لا ينال من خيره شيئاً ..

قوله تعالى :

* « وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلىٌّ حكيم » .

هو وصف للقرآن الكريم ، وأنه مودع فى أم الكتاب عند الله ، وحسبه بهذا علوًّا وشرفاً ، وأنه علىٌّ فى ذاته ، حكيم فى أحكامه ، ومن شأن من يتصل به أن يستعلى بإنسانيته عن مستوى أهل الجهالة والضلال ، وأن يتزيّا بزىّ الحكمة ، التى هى العقل المتحرر من الأوهام والخرافات ، المستنير بنور العلم والمعرفة ..

وقد وُصف القرآن الكريم هنا بصفتين من صفات الله سبحانه وتعالى ، هما ، العلىّ ، والحكيم .. لأن القرآن كلام الله ، وكلام الله ، من صفات الله .. فكل ما لله سبحانه وتعالى من صفات الكمال ، هو لكل صفة من صفاته ..

هذا هو القرآن الذى يُدعى العرب إلى تعقله، وتدبره، والحياة معه بعقولهم وقلوبهم . فماذا كان منهم إزاء هذه الدعوة ؟ لقد تلبّثوا كثيراً، ووقفوا طويلا على حال من التردد بين الإقدام والإحجام، حتى إذا تبخرت سحب الضلال المتكاثفة حولهم، تحت أشعة هذه الشمس الطالعة فى سمائهم ـ صحُوا صحوة مشرقة، اهتزت لها أنفسهم من أقطارها، فاندفعوا وراء راية القرآن، اندفاع السيل الهادر، وقد اكتسح بقوته ما بين يديه من حواجز ومعوقات .

قوله تعالى :

* « أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين » .

هو استفهام يحمل التهديد لهؤلاء المشركين من العرب، الذين لم يلتفتوا إلى هذا القرآن الذى بين أيديهم، ولم يمدّوا أيديهم إلى تناول قطوفه الدانية ـ فماذا يظنون ؟ أيحسبون أن هذا الخير سيظل محبوساً على قوم لم يريدوه، وهناك نفوس كثيرة تشتهيه، وتنتظر حظها منه ؟ إنهم إن لم يبادروا إلى هذا الخير، ويمسكوا به، فإنه يوشك أن يتحول عنهم، وإذا هم إن طلبوه وجدوا غيرهم قد سبقهم إليه، وأخذ مقام الصدارة التى كان من شأنها أن تكون لهم . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وإن تتولوا يستبدلْ قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » (٣٨ : محمد)

والذكر : هو القرآن الكريم . .

وضرب الذكر عنهم صفحاً : صرفه عنهم . . أى تَحوُّلُ القرآن الكريم عنهم، وتنحيته جانباً . . وصفحة الوجه، وصفحة السيف : جانبه، وكذلك الصفحة من كل شىء . . وفى التعبير عن صرف القرآن عن المشركين، وتحوله عنهم ـ فى التعبير عن هذا بضربه عنهم ـ إشارة إلى أن القرآن الكريم متجه

إليهم ، راغب فى الاتصال بهم ، والحياة معهم ، وأنه لا يتحول عنهم إلا مكرَهاً.. وهذا يعنى أن هذه النعمة لاتتحول أبداً عن الأمة العربية ؛ لأن القرآن لا يُضرب أبداً ، لمقامه العظيم عند الله ، ولأنه صفة من صفاته جل وعلا ، وأنه إذا كان هؤلاء المشركون قد استقبلوا القرآن الكريم هذا الاستقبال المداثى ، فإنه سيجد منهم آخر الأمر ، الأمةَ التى تحتفى به أعظم احتفاء ، وتُنزله من نفسها أكرمَ منزل . . وهذا هو بعض السر فى التعبير بضرب الذكر عنهم صفحاً ، أى جانباً . . بمعنى أنه لا ينصرف عنهم انصرافاً كاملا ، بل ينصرف عنهم بجانب منه ، أشبه بالمغاضِب ، الذى يريد المُعْتِبَ ممن أغضبه ، وينتظر مصالحته . . ! وقد صالح العرب القرآن ، وأعتبوه ، وأدّبوا المتطاولين عليه ، وقَتَلوا من أجل ذلك أبناءهم ، وآباءهم ، وإخوانهم ، وباعوا أنفسهم بيعَ السماح لله ، فى سبيل نصرة دين الله الذى جاء به . .

وفى الاستفهام بقوله تعالى : « أفنضرب عنكم الذكر صفحاً » إنذار وتنبيه ، يشعر بالحرص على هداية هؤلاء المشركين ، مع أنّ إسرافهم فى الضلال والعناد ، كان يقضى بأن يُصرف القرآن عنهم ، من غير إنذار ، أو إعذار !

قوله تعالى :

* « وكم أرسلنا من نبى فى الأولين * وما يأتيهم من نبىّ إلا كانوا به يستهزئون » هو عزاء للنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وتسلية له مما يلقى من تأبّى قومه عليه ، وسخريتهم منه ، واستهزائهم به .. فهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ليس بِدعاً من الرسل فى هذا الذى يناله من قومه من أذًى .. فهذا شأن أنبياء الله ورسله جميعاً مع أقوامهم : « وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون » .

« وكم » هنا خبرية ، يراد بها التكثير .. أى ما أكثر ما أرسلنا من نبى فى الأولين ، أى السابقين .. فكانت حالهم أنهم لا يلقون النبى المرسل إليهم إلا بالاستهزاء ، والتحدّى ، والأذى ..

قوله تعالى :

* « فأهلكنا أشدَّ منهم بطشاً ومضى مثل الأولين » .

هو تهديد ، ووعيد للمشركين ، فقد أهلك الله المكذبين بالرسل من قبلهم ، وقد كانوا أشد منهم قوة وبطشاً .. فهل ينتظر هؤلاء المشركون إلا أن يحل بهم ماحل بالظالمين المكذبين من قبلهم ؟ أم أنهم أخذوا على الله عهداً أن يكونوا بمنجاة من عذاب الله ؟ .

وقوله تعالى : « ومضى مثل الأولين » ـ أى مضى المثل الذى يرى فيه المشركون العبرة والعظة ، وهو ماحدثهم به القرآن الكريم من مصارع القوم الظالمين ، كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وأصحاب مدين ، وقوم لوط .. ! كا يقول الله سبحانه : « فكلاًّ أخذنا بذنبه.. فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً .. ومنهم من أخذته الصيحة .. ومنهم من خسفنا به الأرض.. ومنهم من أغرقنا. . وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٤٠ : العنكبوت)

الآيات : (٩ — ١٩)

* « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ (٩) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤)

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِٱلْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم »

أى أن هؤلاء المشركين يختانون أنفسهم ، ويخادعون عقولهم ، فهم ـ مع علمهم بأن الله سبحانه هو خالق هذا الوجود ، والقائم عليه ـ لايقيمون أنفسهم على هذا العلم ، ولا يأخذون به ، بل يتبعون أهواءهم ، ويتجهون مع الريح التى تهب عليهم من أهوائهم . فلو سألهم سائل : « من خلق السموات والأرض ؟ » لقالوا فى غير تردد : خلقهن الله . . ثم إنهم من جهة أخرى لا يعطون الخالق ما ينبغى له من صفات الكمال والجلال ، والتفرد بالخلق والأمر ، بل يجعلون له أندادا وأعوانا ، وينسبون إليه بنين وبنات . . بغير علم . .

وفى قوله تعالى : « العزيز العليم » ـ إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه الإقرار الصحيح منهم، بعد أن أقروا بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض . . فإن الذى خلق السموات والأرض ، ينبغى أن يكون عزيزاً متفرداً بالعزة ، فلا يحتاج إلى معين من صاحبة أو ولد ، ولا يدخل على عزته ضيم بمشاركة شريك . . كما ينبغى أن يكون عليما محيطا علمه بكل شىء . . « ألا يعلم من خلق ؟ » (١٤ : الملك)

فقوله تعالى : « خلقهن العزيز العليم » ـ هو ـ وإن لم يكن مما نطق به القوم مقالا ، فقد نطقوا به حالا والتزاماً . . فإن إقرارهم بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض ، يقضى بأن يكون لله العزة المطلقة ، والعلم الشامل .

قوله تعالى :

* « الذى جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون »

هو إلفات لهؤلاء المشركين ، وهم فى موقف الاعتراف الملجىء لهم ، إلى القول بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض ـ إلفات لهم إلى أن الله الذى خلق السموات والأرض ، هو الله الذى جعل لهم هذه الأرض مهداً ، أى موطناً ممهداً ، كأنه المهد الذى يهيأ للوليد ساعة يولد ، حيث يقوم على هذا المهد من يرعى هذا الوليد ، ويسهر على راحته . فهذه الأرض هى المهد الذى يحتوى الناس ، والذى تحفه عناية الله ورعايته ، بما يمدهم به ـ سبحانه ـ من نعمه ، وما يُفيض عليهم من فضله ، وأنه لولا هذه الأمداد لم يكن للناس حياة ..

وفى قوله تعالى: « وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون » ـ إشارة إلى بعض هذه النعم التى أنعم الله سبحانه بها على الناس ، وهم فى هذا المهاد الممّهد . .

فمن هذه النعم ، تلك السبل ، وهذه المسالك التى فى البر وفى البحر ، والتى بها يعرفون وجوه الأرض ، وينتقلون من مكان إلى مكان دون أن يضلوا . . فهم يضربون فى كل وجه من وجوه الأرض ، ثم يعودون إلى مواطنهم ، كما تعود الطير آخر النهار إلى أعشاشها ..

قوله تعالى :

* « والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تُخرجون » . .

أى ومن نعم الله العزيز العليم ، هذا الماء الذى يُنزّله من السماء بقَدَر

وحساب ، حسب علمه وحكمته .. وهذا الماء المنزل من السماء ، هو الذى يبعث الحياةَ فى كل حى ، ويمسك الحياة على كل حى . .

وفى قوله تعالى : « فأنشرنا به بلدة ميتاً » إشارة إلى أن هـذه البلاد العامرة ، بما تزخر به من عوالم الحياة من نبات ، وحيوان ، وإنسان ـ هذه البلاد ، قد كانت مواتاً ، لا أثر للحياة فيها ، شأنها فى هذا شأن المقابر .. فلما نزل هذا الماء بقدرة القادر وتقديره ، دبّت الحياة فى الأرض الموات ، وقامت المدن والقرى ، وهذا هو بعض السر فى قوله تعالى : « فأنشرنا » الذى يشير إلى أن هذه البلاد العامرة نُشرت من عالم الموات ، وأنها كانت مطوية فى التراب فنشرها الله ، وأخرج منها هذه الحياة الدافقة ..

وقوله تعالى : « كذلك تُخرجون » ـ إشارة إلى أن بعث الموتى من القبور، هو صورة من هذا النشور ، الذى نُشرت به الحياةُ فى الأرض الموات ..

وفى وصف البلدة بأنها ميتة ، إشارة إلى أن هـذا الموت يحوى فى كيانه حياة ، ولـكنها حياة ميتة ، وستظل هكذا ميتة إلى أن يأذن الله لها بالحياة والنشور ، بما ينزل من السماء من ماء فتحيا به الأرض بعد موتها .. وفى إفراد البلدة ، وتنـكيرها ـ إشارة إلى الوقوف بالنظر عند بلدة واحدة من تلك البلاد القائمة ، حتى تُستخلص منها العبرة والعظة ، من غير أن يتشتت النظر ويتوزع فى كل بلد .. فإذا وقعت للإنسان العبرة والعظة فى البلد الواحد ، كانت كل بلدة بعد هذا ، هى هذا البلد ..فهى أولا بلدة ، ثم هى بعد ذلك بلاد كثيرة ، تشمل ماوقع عليه النظر ومالم يقع ! .

قوله تعالى :

* « والذى خلق الأزواج كلها وجعل لـكم من الفلك والأنعام

ماتركبون* لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » .

أى ومن نعم الله العزيز العليم ، كذلك، أنه خلق الأزواج كلها ، من جميع ما على الأرض من مخلوقات ، من عوالم النبات ، والحيوان ، والإنسان ــ فهذه المخلوقات كلها متزاوجة من ذكر وأنثى ، وهى بهذا التزاوج تتوالد فتتكاثر ، كما يتوالد ويتكاثر الإنسان .. وبهذا يعتدل ميزان الحياة بين الأحياء ، ويكون تكاثر النبات والحيوان فى البر والبحر مكافئاً لتوالد الإنسان وتناسله ، وبهذا يجد الإنسان كفايته مما على الأرض .

وفى قوله تعالى : « وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون » ــ إشارة إلى ماسخر الله سبحانه للإنسان من أدوات الركوب ، فى البر والبحر ، والتى بها ينتقل الإنسان من مكان، إلى مكان لم يكن ليبلغه مشياً على رجليه إلا بشق النفس .

وقوله تعالى : « لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » .

الضمير فى ظهوره يعود إلى الاسم الموصول « ما » أى لتستووا على ظهور ماجعل الله لكم من الفلك والأنعام من أدواتِ حمل وركوب .

والاستواء على الظهور ، هو التمكن منها ، والاقتدار عليها ، واقتيادها من زمامها إلى الوجهة التى يريدها الإنسان ..

فنى قوله تعالى : « وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون » ــ إشارة إلى أن هذا الجعل يحمل معه تذليل هذه المخلوقات وتسخيرها للإنسان ، وأنه لولا هذا لما كان للإنسان أن ينتفع بها ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى :

« وسخر لكم الفلك لتجرىَ فى البحر بأمره » (٣٢ . إبراهيم) أى ذللها لتجرى بسلطانه لا بسلطانكم عليها .. كما يشير إليه قوله تعالى : « ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » أى ما كنا قادرين على قيادة هذه المخلوقات ، التى هى أقوى قوة منا ، لولا أن سخرها الله سبحانه وتعالى لنا ، وملكنا أمرها ، والتصرف فيها ..

فاللام فى قوله تعالى : « لتستووا » هى لام التعليل الكاشفة عن العلة التى من أجلها سخر الله هذه المخلوقات .. فقد سخرها سبحانه ليستوى الإنسان على ظهورها ، ويملك تصريفها حيث يشاء ..

وفى العطف بثم فى قوله تعالى : « ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه » ـ إشارة إلى أن ذكر هذه النعمة ، إنما يكون على أتمه وأكمله، حين يكون الإنسان متلبساً بها ، معايشاً لها ، مستظلا بظلها ، طاعماً من ثمرها ..

عندئذ يكون إحساسه بهذه النعمة كاملا ، ويكون ذِكر المنعِم بها قائماً على شعور مدرِك ، يقدّر هذه النعمة ، وما لها من أثر بالغ فى الحال التى هو فيها مع هذه النعمة ، فيجد لذلك قلباً منشرحاً ، ولساناً رطباً طلقاً ، يسبح بحمد الله ، ويشكر له .. ولهذا جاء العطف بالحرف « ثم » الذى يفيد التراخى ، والذى يشير إلى أن الإنسان إذا غفل عن ذكر الله ، والنعمة غائبة عنه ، فإنه لا ينبغى أن يغفل والنعمة حاضرة بين يديه ، يعيش فيها وينعم بها ..

قوله تعالى :

* « وإنا إلى ربنا لمنقلبون » .

معطوف على قوله تعالى : « وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا » .. فهو من مقول القول . . أى وتقولوا . . إنا إلى ربنا لمنقلبون .. أى راجعون إليه ، بعد رحلتنا فى هذه الحياة الدنيا . .

وذِكر الرجوع إلى الله فى هذا المقام ، هو أنسب الأوقات الداعية إليه ، حيث المشابهة قوية بين هذه الرحلة التى يقطعها الإنسان على ظهر السفينة أو الدابة ، ثم يعود بعدها إلى مستقره ، الذى خرج منه .. فكذلك الحياة الدنيا ، هى رحلة بدأها الإنسان من يوم أن كان له وجود فيها ، هذا الوجود الذى خرج من عالم قائم وراء هذه الدنيا ، ثم لا يلبث أن يعود من حيث بدأ إلى هـذا العالم الذى خرج منه . « إن إلى ربك الرجعى » (٨ : العلق)

قوله تعالى :

* « وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين » .

هو معطوف على محذوف ، هو جواب لسؤال مقدر ، وهو : ماذا كان من أمر المشركين إزاء هذه النعم التى بين أيديهم ؟ وهل قالوا ماهو مطلوب منهم فى هذا المقام ، من ذكر الله ، والتسبيح بحمده ، حين استووا على ظهور هذه الأدوات المسخرة لهم ؟ وكان الجواب : إنهم لم يقولوا هذا ، بل استقبلوا تلك النعم بالجحود والكفران .. فلقد جعل سبحانه وتعالى لهم من الفلك والأنعام ما يركبون ، وجعلوا هم له من عباده جزءاً ، بأن أشركوا به ، وأضافوا إليه معبودات أخرى يعبدونها معه ، ونسبوا إليه الولد .. وهذا ضلال عظيم ، وكفران مبين ، إذ كيف يكون المخلوق بعضاً من الخالق ؟ وكيف يكون الله أبعاضاً وجزءاً ؟ فالولد بضعة من أبيه ، وفلذة من أفلاذه ! .

قوله تعالى :

* « أم اتخذ مما يخلق بناتٍ وأصفاكم بالبنين ؟ » .

استفهام إنكارى ، يكشف عن ضلال المشركين ، وفساد منطقهم .. فإنهم ـ وقد أراهم ضلالهم المبين أن ينسبوا الولد إلى الله ـ استغواهم الغى ،

فنزلوا بقدر الله سبحانه عن أن يكون مساوياً لهم ، فجعلوا لله البنات ، وجعلوا لهم هم البنين . وقالوا إن الملائكة بنات الله ، ولم يروا أن يكون هؤلاء الملائكة ذكوراً .. وهذا منطق سقيم . إذ كيف يكون الذكور والإناث من خلق الله، ثم يكون لهم هم أن يختاروا مايشتهون منها ، ويدعون لله مالا يشتهون؟« أصطفى البنات على البنين ؟ مالكم ؟ كيف تحكمون » (١٥٣ : ١٥٤ الصافات) .

« لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء .. سبحانه هو الله الواحد القهار (٤ : الزمر) .

قوله تعالى :

* « وإذا بُشِّر أحدهم بما ضربَ للرحمن مثلا ظل وجهه مسودّاوهو كظيم »

هو تسفيه المشركين ، ولقسمتهم تلك الجائرة . إنهم لايرضون أن يكون البنات ممن يولد لهم . فإذا ولد لأحدهم أنثى امتلأت نفسه غمّا وكمداً .. فكيف يُنسب إلى الله من هو ـ حسب تقديرهم هذا ـ مصدر همّ وغم ؟ أهذا أدب مع الله ، عند من يعترف بوجود لله ؟ إنهم لو أنكروا الله أصلاً ، ولم يعترفوا بوجوده ، لكان لذلك منطق عندهم . أما أنهم يعترفون بالله ، ثم يُنزلونه من أنفسهم هذه المنزلة التي لايرضونها لأنفسهم ، فذلك هو الضلال المبين ، الذي لايمكن أن يقام له منطق ، حتى من الضلال نفسه !

وفي قوله تعالى : « بشر أحدهم » إشارة إلى أن « الأنثى » نعمة من نعم الله ، وأن ورودها على الإنسان من البشريات المسعدة ، التي من شأنها أن تشرح الصدر ، وتسر القلب . ولكن القوم لجهلهم وضلالهم ، يَضيقون بهذه النعمه ، ويَشْقَوْن بلقائها .

وقوله تعالى : « بما ضرب للرحمن مثلا » ـ إشارة إلى مانسبه المشركون

إلى الله من ولد ، حين جعلوا الملائكة بنات الله ، وأن هذه النسبة من شأنها أن تجعل تماثلا بين الله ، وبين خلقه .. إذ كان الوالد والأولاد على صورة متشابهة أو متقاربة ، أو متماثلة .. جنساً ، وهيئة ، ولوناً ، وشكلا ..

قوله تعالى :

* « أوَ مَن ينشّأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » .

ينشأ : يربى ، ويَشِبّ ، ويكبر ..

والحلية : الزينة ، وما يُتحلّى به من حلى ، وثياب .. وهذا من شأن النساء غالباً ..

والآية تنكر على المشركين ـ فى أسلوب استفهامى ـ أن يجعلوا لله سبحانه الجانب الضعيف ، من المخلوقات وهو جانب الأنوثة ، على حين يجعلون لأنفسهم الجانبَ القوى ، وهو جانب الذكورة ..

إذ المعروف فى عالم الأحياء ، أن الذكر أقوى من الأنثى ، وأشدّ بأساً ، فى مجال الصراع والخصام ..

والمراد بالإبانة فى قوله تعالى : « وهو فى الخصام غير مبين » الكشف والتجلية والإفصاح عن القوة ، حين تدعو دواعيها ، وتُعرض فى مجال الامتحان .

والآية معطوفة على قوله تعالى : « أم اتخذ مما يخلق بناتٍ وأصفاكم بالبنين » ..

أى أم اتخذ ممن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ، وترك لكم أن تتخذوا مَن تجعلون منهم فرسانَ قتال وأبطال حروب ؟ .

قوله تعالى :

* « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويُسألون » .

هو معطوف على قوله تعالى : « وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين » . وهو بيان شارح للعباد الذين جعلهم للشركون جزءاً من الله ، فهذا الجزء هو الملائكة ، وقد جعلوا هؤلاء الملائكة إناثاً .. فالمشركون بعملهم هذا ، قد اقترفوا جرماً غليظاً ، يضم فى كيانه ثلاث جرائم : نسبة الولد إلى الله ، وجَعْل أولاد الله إناثاً ، ووصْفُ الملائكة بأنهم إناث .. وكل هذا زور وبهتان .. لامنطق له من العقل ، ولا مستند له من الكتاب .

وقوله تعالى : « أشهدوا خلقهم ؟ » إنكار لهذا القول الذى يقوله المشركون فى الملائكة ، إذ قالوه بغير علم .. إنهم لم يشهدوا خلقهم حتى يعلموا من أمرهم شيئاً يقولونه فيهم ..

وقوله تعالى : « ستكتب شهادتهم ويسألون ! » تهديد ووعيد للمشركين وأنهم سيحاسبون على هذا القول الذى يقولونه فى الملائكة ، والذى سيكتب على أنه شهادة منهم فى هذا الأمر .. وإذ كانت تلك الشهادة زوراً ، فإنهم سيعاقبون عليها عقابَ شاهد الزور !

الآيات : (٢٠ — ٢٥)

* « وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢)

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ آبَاءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون » ..

هو معطوف على جرائم المشركين التى عرضتها الآيات السابقة.. وجريتهم هنا أنهم يذهبون مذهب السفسطة، والمماحكة، فيعترفون بأن لله سبحانه مشيئةً عامة غالبة.. وهذا حق، ولكنه حق أرادوا به باطلا، فجعلوا عبادتهم الملائكةَ مشيئةً لله فيهم، وأن الله لو شاء لهم أن يعبدوا غيرها لعبدوه.. فهم ـ والحال كذلك ـ قائمون على أمر الله، غير خارجين على مشيئته.. وهذا مكر سيء منهم، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله..

ونعم إن لله سبحانه وتعالى كلّ شىء.. وإنهم لن يملكوا مع الله نَفَساً يتنفسونه إلا بأمره ومشيئته.. ولكن أين مشيئتهم هم ؟ أليست لهم مشيئة عاملة، يأخذون بها الأمور أو يدعونها ؟ إنهم لو عطلوا مشيئتهم فى كل أمر لكان لهم أن يقولوا هذا القول.. ولكنهم إذا حضرهم الطعام مدوا أيديهم إليه، وأخذوا منه مايسد جوعهم، فإذا شبعوا رفعوا أيديهم عنه.. فلِمَ يمدّون أيديهم إلى الطعام، ولا يقولون لو شاء الله أن نأكل لأكلنا ؟ هذه أقرب

صورة من صور مشيئتهم ، إلى مالا يحصى من الصور التى تتحرك فيها تلك المشيئة ، فى أقوالهم وأفعالهم .. فكيف يجعلون أفعالهم الضالة وأقوالهم المنكرة من مشيئة الله، ولا يجعلون لمشيئتهم وجوداً هنا ، مع أنها موجودة فى كل حال معهم ؟ إن ذلك ـ كما قلنا ـ مكر بالله ، وتبرير لكل جناية يجنونها على الناس أو على أنفسهم ..

ومن جهة أخرى ، فإن هؤلاء الغواة الضالين لو جروْا على منطقهم الذى يجعلون به لله سبحانه وتعالى مشيئة عامة شاملة ، لكان مؤدّى هذا أن يعبدوا الله وحده ، وأن يتبرءوا من كل شريك له ، إذ كان سبحانه ، صاحبَ السلطان المطلق ، والمشيئة النافذة .. وإنه لضلال سفيه أن يعبد المرء مَن لاسلطان له ولا مشيئة ، ويَدَع صاحبَ السلطان ، ورب المشيئة ! ولكن هكذا يزيّن الضلال لأهله سوء أعمالهم ، فيرونها حسنة .. وفى هذا يقول الله سبحانه على لسان أهل الضلال : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء » (١٤٨ : الأنعام) ويقول سبحانه على لسانهم كذلك :

« أنطعم من لو يشاء أطعمه الله ؟ » (٤٧ : يس) .

وقوله تعالى : « مالهم بذلك من علم » .. الإشارة بذلك إلى هذا القول الذى يقولونه باطلا وزوراً ، ويضيفون فيه عبادتهم الملائكةَ إلى مشيئة الله .. فهذا الذى يقولونه لاعلم لهم به .. لأنهم لا يعلمون ما هى مشيئة الله ، ولا يقدُرونها قدرها ، فهم إذا أساءوا ، ووضعوا موضع المساءلة والحساب ؛ قالوا هذا من مشيئة الله فينا ، وإذا كانوا فى عافية من أمرهم ، لم يلتفتوا إلى هذه المشيئة ، ولم يضيفوا إليها شيئاً مما هم فيه ، بل جعلوه من كسب أيديهم ، كما قال قارون : « إنما أوتيته على علم عندى » (٧٨ : القصص) .. وكما يقول

الضالون فيما ذكره الله تعالى على لسان كل ضال : « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولنّ ذَهَب السيئاتُ عنّى » (٩ ـ ١٠ : هود)

وقوله تعالى : « إنْ هم إلا يخرصون » توكيد لجهل القوم وضلالهم ، وسفاهة منطقهم فيما يقولون عن مشيئة الله .. فهو قول لامستند له من علم ، أو عقل ، وإنما هو قائم على الوهم والتخمين .. « إن هم إلا يخرصون » أى ماهم إلا يخرصون ، أى يرجمون بالغيب .. وإن من يبنى معتقده ، ويقيم دينه على مثل هذه الأوهام والظنون ، لايصل إلى حق أبداً ، والله سبحانه وتعالى يقول : « قُتِل الخراصون * الذين هم فى غمرة ساهون » (١٠ ـ ١١ : الذاريات)

قوله تعالى :

* « أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون » .

هو معطوف على قوله تعالى : « مالهم بذلك من علم » أى ليس عندهم بما يقولون علم ذاتىّ ، اهتدوْا إليه بعقولهم ، ولا علم من كتاب آتاهم الله إياه ، قبل هذا الكتاب الذى يتلوه عليهم رسول رب العالمين ..

فالمراد بالاستفهام هنا ، النفى ..

قوله تعالى :

* « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون »

أى إنه ليس لهم علم من ذات أنفسهم ، ولا من كتاب جاءهم قبل هذا الكتاب ، وإنما كل ما عندهم ، هو ضلال ورثوه عن آبائهم ، وقالوا لمن يسألهم عن دينهم الذى يدينون به ، ويعبدون عليه الملائكة من دون الله ، على اعتبار أنهم ، بنات الله ـ قالوا : « إنا وجدنا آباءنا على أمة » أى على دين .. فالأمة

فى اللغة تجىء بمعنى الدين ، حيث تجتمع الجماعة عليه ، وتكون أمة تنتسب إليه، كا تنتسب بقوميتها ، فكما يقال الأمة العربية ، يقال كذلك الأمة الإسلامية ..

يقول النابغة الذبيانى :

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً وهل يأثَمَنْ ذو أمة وهو طائع؟

أى وهل يحلفنّ كاذباً متأثماً من كان ذا دين ؟

وفى قوله تعالى : « وإنا على آثارهم مهتدون » ـ إشارة إلى ما بلغ بهم استسلامهم لموروثات آبائهم من ثقة ،فيما ورثوه عنهم ، فتلقوه فى اطمئنان ، دون أن ينظروا فيه بعقولهم،وأن يكشفوا عما فيه من حق أو باطل. . وإن هذا لايكون إلا من سفيه أحمق،يعطل عقله ، ويزهد فيه ، ويسترخصه ، فلا يعيش إلا من هذا الغذاء الذى هو فضلة مما ترك الآكلون ، وقد تعفّن وفسد ! ! فهل هذا شأنهم مع ما ورثوا عن آبائهم من أموال ومتاع ؟ ألم يقلّبوا هذه الأموال والأمتعة بين أيديهم ؟ ألم يطرحوا منها ما هو غير صالح ؟ ألم يأخذوا الصالح منها ، ويعملوا على الإفادة منه ؟ فما بالهم مع ما تلقوا عن آبائهم من عادات ومعتقدات هى مما يتصل بعقولهم ، ـ ما بالهم قد قبلوه على علاته ، وأخذوه دون نظر فيه : « أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟ (١٧٠ : البقرة)

قوله تعالى :

* « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

أى ليس هذا شأن هؤلاء المشركين وحدهم ، بل هو شأن أهل الضلال جميعاً فى الأمم السابقة ، ما جاءهم من نذير إلا تلقوه بهذا القول الضالّ المضلّ : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » !

وهكذا يقيم الضلال له مجرّى آسناً ، يتوارد عليه من منبعه إلى مصبه

أصحابُ العقول السقيمة، والنفوس الخبيثة، كما يسقط خسيس الطير على الجيف .

واختصاص المترفين بالذكر هنا ، لأنهم هم الذين يقومون دائماً فى وجه كل دعوةٍ تخرج بالنّاس عماهم فيه من حالٍ إلى حال ، فإن هذا التحول يُؤْذِنُ أهلَ الترف والغنى بأن يخرجوا عما هم فيه . ومن هنا كان أكثر الناس حَرْباً وأشدهم عداوة لدعوات الإصلاح ، هم أصحاب المال ، والجاه والسلطان ، حيث لا يريدون تحولًا عن حالهم التى هم فيها .

قوله تعالى :

* « قال أَوَ لَوْ جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون » .

أى أنه إذا جاء الرسول ، يُحاجّ هؤلاء المترفين ، ويردّ عليهم قولَهم هذا الذى يقولونه عن موروثاتهم من آبائهم ، فقال لهم : « أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ » أى أتظلّون ممسكين بهذا الذى ورثتموه عن آبائكم ، ولو دعوتكم إلى ما هو خير منه طريقاً ، وأهدى سبيلاً ؟ ـ فلا يتلقى الرسول منهم إلاّ إصراراً على ما هم فيه ، وإلاّ كفراً وتكذيباً بما يدعوهم إليه ..

وفى مخاطبة الرسول لهم فرداً ، وردّهم على الرسل جمعاً ـ فى هذا إشارة إلى أن هذا هو الجواب الذى تلقاه الرسل جميعاً من المترفين من أقوامهم .

قوله تعالى :

* « فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » .

هو إنذار لهؤلاء المشركين ، وتهديد لهم بأن يلقوْا ما لقى المكذبون قبلهم من نقمة الله ، ومن عذابه فى الدنيا والآخرة .. وفى هذا وعد كريم للنبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بالنصر والتأييد .

الآيات : (٢٦ — ٣٥)

* « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى بَرَاءٌ مما تعبدون ».

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الله سبحانه قد ذكر فى الآيات السابقة ما كان من الأقوام السابقين من تكذيبٍ لرسلهم ، وكفرٍ بما أُرسلوا

به إليهم . . فناسب أن يجىء ذكر إبراهيم - أبى الأنبياء - وموقفُه هو من قومه ، بعد أن كذبوه ، وأنكروا عليه ما يدعوهم إليه من عبادة الله رب العالمين . . .

فإبراهيم عليه السلام ، يتبرأ من دين أبيه وقومه ، كما تبرءوا هم من الدّين الذى يدعوهم إليه . . « إننى براء مما تعبدون » . .

وقوله تعالى :

* « إلاّ الذى فطرنى فإنه سيهدين » .

إلا هنا بمعنى لكن . . أى لكن الذى « فطرنى » أى خلقنى ابتداء ، هو الذى سيهدين إلى الحقّ ، ويقيمنى على طريق الهدى . .

ويجوز أن تكون « إلاّ » دالة على الاستثناء ، وفى هذا إشارة إلى أن هذه الأصنام التى كانوا يعبدونها ، لم تكن عندهم إلا أربابا مع الله . . فهم كانوا يعبدون هذه الأصنام لتقربهم إلى الله . ولهذا صحّ عندهم أن يدخل الله سبحانه وتعالى فى معبوداتهم التى يتبرأ إبراهيم من عبادتها . ثم يجىء الاستثناء منها لله ، سبحانه ، الذى هو المعبود الحقّ الذى يعبده إبراهيم ، ويطلب الهداية منه . .

قوله تعالى :

* « جَعَلها كلمةً باقية فى عقبه لعلهم يرجعون » .

الضمير فى جعلها يعود إلى مضمون قوله : « إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين » . . فضمون هذا القول هو الإيمان بالله وحده ، والإقرار بتفرده سبحانه بالخلق والأمر .. لاشريك له . . ومضمون هذا المضمون ، كلمةّ واحدة هى « التوحيد » فالكلمة التى جعلها إبراهيم ميراثاً منه لذريته من بعده

هى كلمة التوحيد ، وهى الإسلام ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ يا بَنِيّ إنّ الله اصطفى لكم الدِّين فلا تَمُوتُنّ إلاّ وأنتم مُسلمون » (١٣٢ : البقرة)

وقوله تعالى : « لعلّهم يرجعون » . . أى لعلّ ذرية إبراهيم يرجعون إلى هذا الميراث الذى تركه فيهم ، ويذْكرون ما وصّاهم به من الإيمان بالله وحده ، وألا يموتوا إلا وهم مسلمون . .

وإذ كان مشركو العرب ، من ذرّيّة إبراهيم ـ عليه السلام ـ فإن لهم ميراثهم من كلمته تلك ، وإنهم إذا كانوا قد وجدوا آباءهم على دينٍ غير دين أبيهم الأكبر إبراهيم ـ فإن أباهم هذا قد ترك فيهم ميراثاً خيراً من هذا الميراث، وديناً أقومَ من هذا الدين الذين تلقوْه عن آبائهم . . إن آباءهم قد ضيّعوا هذا الميراث ، فليمدّوا هم أيديهم لتلقيه ، والانتفاع به . .

* « بل مَتّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وآباءهم حتى جاءهم الحقُّ ورسول مبين » .

« بل » إضراب عن كلام محذوف ، دلّ عليه قوله تعالى : « وجعلها كلمةً باقية فى عقبه لعلهم يرجعون » . . وهنا كلام كثير يقتضيه المقام ، فكان سؤال ، وهو : هل رجع عَقِبُ إبراهيم إلى كلمته تلك ؟ وهل أقاموا دينهم عليها ؟ وكان جواب : « كلا » لم يرجعوا إلى كلمته ، ولم يستقيموا على دينه . . ثم كان سؤال ، وهو : « ماذا فعلَ الله بهم ؟ » وكان جواب هو : كلاّ . . « بل متّعتا هَٰؤُلَاءِ وآباءهم حتى جاءهم الحقُّ ورسول مبين » أى أن الله سبحانه وتعالى قد ترك هؤلاء المشركين كما ترك آباءهم من قبل ، فلم يَبْعث فيهم رسولًا ، فعاشوا كما تشاء لهم أهواؤهم ، مُطْلقين من كلّ قيد ، يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، غير مُنْذَرين ، أومُبَشَّرِين .. وقد ظلّوا هكذا ، مُعْفَين من التكاليف

الشرعية حتى جاءهم الحق ، وهو القرآن الكريم ، وجاءهم رسول مبين . . هو رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه .

وهذا الإعفاء من التكاليف الشرعية ، هو دليل مَرَض ، وليس علامَةَ صحة . . فهو يشير إلى أنّ الذين أُعفوا من هذه التكاليف ليسوا أهلًا للتكاليف . . شأنهم فى هذا شأن أصحاب الأعذار من الأطفال ، والمرضى ، والبلهاء والمجانين . .

وفى دعوة هؤلاء المشركين إلى دين الله ، وإلى حَمْل ما يُدْعَوْن إليه من التكاليف الشرعية ، إشارة إلى أنهم أهلٌ لهذه الدعوة ، وأنهم قد بلغوا مبلغ الرجال القادرين على حمل المسئوليات ، وتلقى الجزاء عليها ثواباً ، وعقاباً . .

قوله تعالى :

* « ولمّا جاءهم الحقُّ قالوا هذا سحرٌ وإنّا به كافرون » .

أى أنه حين جاءهم الحقّ ، وهو القرآن الكريم ، لم ينظروا فيه ، ولم يقفوا عنده ، بل بادروا بالإعراض عنه ، والتكذيب له ، وتحديد موقفهم منه ، وهو الكفر بكل ما جاء فيه . .

قوله تعالى :

* « وقالوا لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيم » .

أى وقالوا تعليلًا لتكذيبهم بالقرآن ، وبأنه سحرٌ . . « لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ؟ أى لو كان هذا القرآن من عند الله ، فلِمَ لم يكن المبعوث به إليهم من السّماء ، سيِّداً من ساداتهم فى مكة أو الطائف ؟ ولِمَ يقع الاختيار على رجل نشأ فيهم يتيمًا فقيراً ، لم يكن له فيهم رياسة فى سَلْم أو حرب ؟ .

وقوله تعالى :

* « أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » .

هو رد على هذا المنطق السقيم السفيه ، الذى تجرى عليه مقاييس الأمور عند هؤلاء المشركين ، وأنهم لا يفرّقون بين مطالب الجسد وحاجة الروح ، ولا ما هو من غذاء الأجسام ، وغذاء العقول . . ! فالإنسان العظيم عندهم هو من جمع ما جمع من مال ، وما استكثر من عتادٍ ورجال ، وإن كان لا حظّ له من عقل سليم ، أو خلق قويم .

وقوله تعالى : « أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ » . إنكار على المشركين ما أنكروه على النبىّ أن يكون موضعَ هذا الإحسان العظيم ، وحامل هذا النور القدسىّ السماوى . . إنهم ليسوا هم الذين يقسمون هذه الرحمة ، بل هى بيد الله سبحانه وتعالى ، يضعها حيث يشاء ، ويختصّ بها من عباده من يشاء .

وهذه هى حظوظهم التى بين أيديهم من الدنيا . . هى بيد الله . . يعطى منها ما يشاء لمن يشاء . . فليست حظوظهم منها على سواء . . فكلٌّ له منها ما قسم الله له . . فبعضهم غنىّ واسع الغنى كثير المال ، وبعضهم فقير ، لا يملك شيئاً ، وبعضهم كثير المال لا ولد له ، وبعضهم كثير الأولاد ولا مال له ، وبعضهم سقيم امتلأت يداه بالمال ، وبعضهم صحيح صَفِرتْ يداه من المال . وهكذا .. هم فى معيشة الحياة الدنيا درجات بعضها فوق بعض ..وذلك لأمرٍ أراده الله ، وهو أن يعيش النّاس فى هذه المستويات المختلفة ، حتى يملأوا كلّ فراغ فيها ، وحتى تتدافع بهم تيارات الحياة ، كما تتدافع الأمواج على صدر المحيط

وقوله تعالى : « لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا » . . إشارة إلى أن هذا

الاختلاف بين النـاس فى حظوظ الحياة ، هو الذى جعل لـكل واحدٍ منهم مكانه فيها . . فهذا خادم ، وذاك مخدوم ، وذلك مرءوس ، وهذا رئيس . . وهـذا ينسج وذلك يلبس ، وهذا يخبز وذاك يأكل . . وهكذا . . كلُّ الإنسان يَخْدم ويُخْدم ، من طريق مباشر أو غير مباشر :

الناس للناس من بَدْوٍ ومن حَضَرٍ بعضٌ لبعض وإن لم يشعروا خَدَمُ

قوله تعالى : « ورحمةُ رَبِّكَ خيرٌ مما يجمعون » . . الرحمة هنا هى القرآن الـكريم ، الذى هو رحمة من رحمة الله ، التى أشار إليها سبحانه فى قوله : « أم يقسمون رحمة ربك » فهذا القرآن ، وما يحمل إلى الناس من خير ، هو خيرٌ من كل ما يجمع الناس جميعاً من مال ، وما يقتنون من متاع ، وما يُرزقون من بنين . . .

قوله تعالى :

« ولولا أن يكون الناس أمَّةً واحدةً لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفاً من فِضَّةٍ ومعارج عليها يَظْهَرُونَ * ولبيوتهم أبواباً وسُرُراً عليهـا يتكئونَ * وزُخْرُفاً » .

تكشف هذه الآية وما بعدها عن الطبيعة البشرية التى يستهويها حبُّ المال ، وتفتنها شهوته . . فالنَّـاس جميعاً ـ إلا من عصم الله ـ أضعف من أن يقاوموا شهوةَ المال ، وأن يقهروا سلطانَه المتمكن من نفوسهم . .

وفى قوله تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدةً لجعلنـا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفاً من فِضَّةٍ » بيان لتجربة عملية يمكن أن يُمتحن بها الناس ، ويُرى فيها هذا الطبع الغالب عليهم ، من حبِّ المال وفتنته . . وتلك التجربة هى أن يُساق المال بغير حساب ، لـكل من يكفر بالرحمن ، حتى يتخذ هؤلاء الـكافرون لبيوتهم سقفاً من فضةٍ ، ومعارج ـ أى سلالم ـ من فضة ، عليها

يظهرون ، أى يصعدون بها على ظهور هـذه البيوت ، كذلك يتخذون لبيوتهم أبواباً من فضة وسرراً من فضة كذلك ، يتكئون عليها ، ويسمُرون فوقها ، كما يجلبون إلى هذه البيوت ألواناً من المتاع والزخرف حتى تفيض وتمتلىء . .

هذه هى التجربة المفترضة . . فماذا يكون الشأن لو أنها وقعت فعلا ، فكان لكل من يكفر بالرحمن ، هذا العطاء ، يساق إليه بغير حساب ؟ .

والجواب الذى تعطيه التجربة ، هو أن يتحول الناس إلى الكفر ، ويتزاحموا على طريقه ، حتى يكون لهم هذا المال الذى يُعطاه كل كافر . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة » . . فالأمة التى سيكون الناس عليها ، هى أمة الكفر ، والدِّين الذى سيدينون به هو الكفر ، لو فُرض ووقع جواب هذا الشرط ، وهو أن يكون لبيوتهم سقف من فضة ومعارج عليها يظهرون . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد لعباده الخير ، فعافاهم من هذا الابتلاء ، ودفع عنهم تلك الفتنة ، فجعل متاع الدنيا قسمةً بينهم ، ينال منه الكافرون والمؤمنون على السواء . . كلٌ حسب ما قُدِّر له . . دون أن يكون المال من حظ المؤمنين وحدهم ، أو الكافرين وحدهم . . فإنه لاحساب للإيمان أو الكفر ، فيما يساق إلى الناس من متاع الدنيا ، لأن هذا المتاع ــ مهما كثر ـ لا يصح أن يكون معياراً يقوم عليه ميزان الإيمان أو الكفر . .

وقوله تعالى : « وإن كل ذلك لَمّا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » . . أى ما كل ذلك مما يساق إلى الناس من مال ، وما يقيم لهم هذا المال من زينة الحياة الدنيا وزخرفها ـ ما كل ذلك إلا متاع هذه الحياة الدنيا وزاد أهلها . أما الآخرة فلها زاد غير هذا الزاد ، هو التقوى . . فالمتقون وحدهم هم

الذين ستكون لهم الآخرة ، وما فيها من نعيم مقيم .. أما من سواهم ، فلا شىء لهم من هذا النعيم . . وليس لهم فى الآخرة إلا النار . .

والجنة ونعيمها ، لا يقوم متاع الدنيا كلها بلحظات قليلة منه ، والنار وعذابها ، لا يكفى مال الدنيا كلها لدفع ساعة منه . .

الآيات : (٣٦ — ٤٤)

* « وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ (٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ (٤٤) وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » . .

عشا عن الشيء يعشو ، عشواً : فَعَل فِعْل الأعشى ، وهو كَلِيلُ البصر ..

والعشْوُ عن ذكر الرحمن ، الإعراض عنه ، مع قيام الحجج والبراهين بين يديه ، كما يعشو بعض الناس فى ضوء النهار لآفة تعرض لأبصارهم ..

فالذى يُعْرِض عن ذكر الرحمن هنا ، هو من قامت بين يديه الدلائل ، والحجج على صدق الرسول ، وصِدْق ماجاء به من عند الله . . فهذا المعرض عن ذكر الله ، يُقَيِّض الله له شيطاناً ، أى يسوق ويهيىء له شيطاناً « فهو له قرين» أى ملازم له ، مسلط عليه ، يقوده إلى حيث يشاء .. فهو شيطان مع الشيطان حيث يكون ..

وفى اختصاص صفة الرحمن بالذكر هنا من بين صفات الله سبحانه وتعالى ـ تذكير بهذه الرحمة المنزلة من الرحمن ، وهى القرآن ، وهى التى يُعرض عنها أصحاب القلوب المريضة ، فيتسلط عليهم الشيطان ، ويملك أمرهم .. وإنها لمفارقة بعيدة أن يرى الإنسان يدَ الرحمن الرحيم تمتد إليه بالرحمة ، ثم ينظر فيرى يد الشيطان الرجيم تمتد إليه بالبلاء والشقاء . . ثم يكون له — مع هذا — موقف للنظر والاختيار .. ثم يكون فى الناس من يمد يده إلى الشيطان مبايعاً على أن يصحبه إلى حيث ما يرى رأى العين من شقاء وبلاء ! .

قوله تعالى

* « وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » ..

الضمير فى « إنهم » للشياطين ، أى وإن الشياطين ليصدون المشركين عن سبيل الله ، ويدفعون بهم إلى طرق الغواية والضلال ، ويزينونها لهم حتى ليحسبون أنهم مهتدون .

فقوله تعالى : « ويحسبون أنهم مهتدون » جملة حالية ، تكشف عن الحال الشعورية التى يكون عليها المشركون وهم يركبون طرق الضلال .. فهم يساقون إلى الضلال وقد خيل إليهم أنهم قائمون على الهدى ، مستمسكون بالعروة الوثقى ! .

قوله تعالى :

* « حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بُعْدَ المشرقَيْن فبئس القرين » . .

حتى : حرف غاية ، لِمَا تضمنه قولُه تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نُقَيض له شيطاناً فهو له قرين » ـ أى أن الشيطان يظل فى هذه الحياة قرينا لصاحبه هذا الذى لزمه ، وأمسك بزمامه ـ إلى أن يجىء يوم الحساب والجزاء .. وهنا يتخلى الشيطان عن صاحبه ، ويتخلى صاحبه عنه ، ويتولى كلٌّ منهما رجمَ صاحبه بكل منكر ، وقذفَه بكل تهمة .. وفى هذا يقول الله تعالى ، عن الكافرين أصحاب الشياطين : « وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذيْن أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين » (٢٩ : فصلت) ويقول سبحانه عن الشيطان : « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لىَ عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم » (٢٢ : إبراهيم) ويقول سبحانه وتعالى عن إخوان السوء ، ورفاق الضلال : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين » (٦٧ : الزخرف) . .

وقوله تعالى : « ياليت بينى وبينك بعد المشرقين » ـ هو بيان لما

فى نفس هذا الضال الذى عَشِيَ عن ذكر الرحمن ، وأصبح من قرناء الشيطان ـ من ضيق بصاحبه ، ومن حسرة وندم على تلك الصلة التى كانت بينهما ، والتى أوقعته فيما هو فيه اليومَ من بلاء وعذاب .. ولهـذا فهو يتمنى أن لو لم يجمعهما فَلَكٌ ، وأن لو كان كلٌّ منهما فى عالم غير العالم الذى يعيش فيه صاحبه ..

فقوله تعالى : « بُعدَ المشرقين » ـ إشارة إلى استحالة الالتقاء بينهما ، كما يستحيل التقاء مشرق الشمس شتاء بمشرقها صيفاً .. مثلا ..

وأما قوله تعـالى : « وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » ـ فهو اعتراض بين الآيتين ، يراد به الإلفات إلى أن الحـكم الذى يقع على الواحد من أتباع الشيطان ، هو حكم عام يشمل أتباع الشياطين جميعاً ، وأنهم كلهم قرناء سوء ، كلما كثرت أعدادهم ؛ زاد إغواؤهم ، وإضلال بعضهم بعضاً ، حيث تشتد داعية الإغراء والإغواء ، كلما كـثرت الأعداد المتزاحمة على موارد الغواية والضلال ..

قوله تعالى :

* « ولن ينفعـكم اليومَ إذ ظلمتم أنـكم فى العذاب مشتركون » .

الخطاب هنا للفريقين .. التابعين والمتبوعين .. إنه لن ينفعهم اشتراكهم جميعاً فى العذاب . . ولن يشفى ما بصدور الضالين من نقمة وحَنَق على من كانوا سبباً فى إغوائهم وإضلالهم ـ أن يلقى هؤلاء المغْوُون ما يلقوْن من عذاب وبلاء . . وفى هذا يقول الله تعالى على لسان التابعين ، وهم يطلبون مزيداً من العذاب لمن كانوا سبباً فى فتنتهم وبلائهم : « قالت أُخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار » فيجيبهم سبحانه بقوله :

«قال لكلٍّ ضعف ولكن لا تعلمون» (٣٨ : الأعراف) ويقول سبحانه على لسان أئمة الكفر، ودعاة الضلال، وهم يردّون على أتباعهم الذين يتمنون لهم عذابا فوق العذاب: «إنا كلٌّ فيها إن الله قد حكم بين العباد» (٤٨ : غافر).

فالمراد بقوله تعالى: «ولن ينفعكم» ليس نفىَ مجرد النفع، وإنما المراد به النفع الذى يخلصهم من هذا العذاب، ويخرجهم من هذا البلاء.. إذ لاشك أن فى رؤية التابعين مشاركةَ سادتِهم لهم فى العذاب، بعضَ العزاء لهم، وإن كان هذا لا يخفف من العذاب الذى هم فيه شيئاً.

قوله تعالى:

* «أفأنت تسمع الصمّ أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين».

الاستفهام هنا يراد به النفى.. أى إنك أيها النبىّ لن تسمع الصمّ، ولن تهدى العمى، ولن تنقذ من كان فى ضلالٍ مبين..

وفى هذا عزَاء للنبىّ الكريم عن مصابه فى هؤلاء الضالين المفسدين من قومه.. الذين ركبوا رءوسهم، ومضوا يتخبطون فى طرق الغواية والضلال، غير ملتفتين إلى الداعى الذى يدعوهم إلى النجاة، ويرفع لهم بين يديه نوراً كاشفاً من نور الله..

وفى هذا أيضاً تهديد ووعيد لهؤلاء الضالين الذين اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله، ويحسبون أنهم مهتدون.. فليتركهم النبىّ مع قرنائهم هؤلاء، فإنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يبعث ليُسمع الصمّ أو يهدى العمى.. والله سبحانه وتعالى يقول: «وما أنت بهادى العميِ عن ضلالتهم إن تُسمعُ إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون» (٨١ : النمل).

قوله تعالى :

* « فإما نَذهبنّ بكَ فإنا منهم منتقمون * أو نُرينّك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون » .

أى أن هؤلاء الصمّ ، العمىَ ، الذين ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة — هؤلاء هم واقعون تحت بأس الله ، مأخوذون بعذابه . . فى الدنيا وفى الآخرة . .

ففى قوله تعالى : « فإما نَذهبنّ بك فإنا منهم منتقمون » — إشارة إلى أنهم لن يُفلتوا من قبضة الله ، ولن يَخلصوا من العقاب الراصد لهم ، سواء أكان ذلك فى حياة النبىّ أو بعد موته . . فإنه إن ذهب الله سبحانه بالنبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — ورفعه تعالى إليه ، فإن انتقام الله سبحانه واقع بهم ، وليس على النبىّ أن يشهد هذا الانتقام ، وإنما حسبه أن الله سبحانه آخذ له بحقه من هؤلاء الذين ظلموه ، وبغوا عليه . .

وقوله تعالى : « أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون » إشارة أخرى إلى ما قد يحلّ بالمشركين من انتقام الله فى الدنيا ، مما توعدهم الله به ، ومما يراه النبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — فيهم ، وذلك بما كان من قتل رءوس المشركين يوم بدر ، ومن خزيهم يوم الخندق ، ثم ذلّتهم وانكسارهم يوم الفتح . . فالله سبحانه وتعالى قادر على كل شىء ، غالب على أمره . . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . .

قوله تعالى :

* « فاستمسك بالذِى أوحىَ إليك إنك على صراطٍ مستقيم » .

هو تعقيب على ما توعد الله سبحانه وتعالى به المشركين ، من انتقام على

تكذيبهم للرسول ، واستهزائهم به ، واستكثارهم عليه أن يكون مبعوثَ الله إليهم ، دون سادتهم وأشرافهم .

وفى هذا التعقيب دعوة من الله سبحانه إلى النبى الكريم ألاّ يحفِل بهؤلاء المشركين ، وألا يفتّ ذلك من عَزمه ، وألا يقف به ذلك عن المضىّ فى سبيله ، مستمسكا بالذى أوحى إليه من ربه .. وفى هذا يقول له الله تعالى: « فاصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا » (١٠ : المزمل) . ويقول له سبحانه : « ولا تطع الكافرين والمنافقين ودَع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » (٤٨ : الأحزاب) .

وفى قوله تعالى : « إنك على صراط مستقيم » تحريض للنبىّ ، وتثبيت لقلبه .. ليمضى فى طريقه ، مع كتاب الله الذى بين يديه .. فإنه به على صراط مستقيم .. صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض .. ومن كان على هذا الصراط فهو على طريق النجاة ، والفلاح .. إنه على نور من ربه .. « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » (٤٠ : النور) .

قوله تعالى:

* « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون »

هو تحريض كذلك ، وشدّ لعزم النبىّ على الاستمساك بهذا الكتاب الذى بين يديه ، فإن فيه ذِكراً للنبىّ ، ولقومه ، وتمجيداً له ولهم على مرّ الأزمان .. إذ كان القرآن بلسان النبىّ ولسان قومه ، وكان الرسول المبلغ لرسالة القرآن عربياً من هؤلاء العرب .. وإنه مادام للقرآن ذكر ، ولرسالة القرآن ذاكرون ـ وهذا ماقدر الله له أن يكون إلى آخر الزمان ـ فإن ذِكر الرسول باق ، وذِكرَ قومه باق كذلك .. فما آمن مؤمن بالله ، ولا

دَان ذو دين بالإسلام، إلا كان إيمانُه برسول الله، وبكتاب الله، مِن تمام إيمانه بالله. وهذا فضل عظيم من الله سبحانه وتعالى على النبيّ صلوات الله وسلامه عليه، إذ رفع فى العالمين ذِكره، وأعلى فى المصطفَيْن من عباده منزلته، كما يقول سبحانه: «ورفعنا لك ذكرك» (٤: الانشراح)..

كما أنه إحسان عظيم، ونعمة سابغة على الأمة العربية، التى اختارها الله سبحانه وتعالى، لتكون الأفق الذى تطلع فيه شمس الهداية المرسلة إلى العالمين، وليكون لسانُها اللسانَ الذى ينقل إلى الناس هذا الهدى المرسل اليهم من ربهم.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى. «إنا جعلناه قرآنا عربيًّا لعلكم تعقلون» (٣: الزخرف)

وقوله تعالى: «وسوف تسألون».. إلفات إلى هذه النعمة العظيمة التى امتنّ الله بها على الأمة العربية، إذ اختارها لحمل هذه الأمانة العظيمة.. وأنها لمسئولة عن حفظ هذه الأمانة، وعن حراستها من كل عادٍ يعدو عليها، كما أنها مسئولة عن أداء هذه الأمانة إلى أهلها، وإزاحة المعوقات والعلل من طريقها، وإلا كان الحساب العسير على أى تقصير أو تفريط يقع من أولئك الذين حملوا هذه الأمانة.. أفراداً وجماعات.

إن الدعوة إلى الإسلام، هى مسئولية هذه الأمة التى جاءت شريعةُ الإسلام بلسانها.. وإنه لشرف عظيم لهذه الأمة، يكسو أفرادها وجماعاتها على مدى الأجيال، أثوابَ العزّة والفَخار..

ولهذا الشرف العظيم ثمن عظيم، يؤديه كل من يريد أن يتحلّى بهذا الشرف، بما يبذل من جهد، ومال، وجهاد فى سبيل الله، وتضحية بالنفس من أجل الدفاع عن دين الله، وكتاب الله..

قوله تعالى :

* « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهةً يُعبدون » . .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآية السابقة أشارت إلى هذه النعمة العظيمة التى أنعم الله بها على الأمة العربية ، بأن جعل خاتم الرسل منها ، وجعل خاتَم الرسالات دينَها وشريعتَها ، وجعل لها القوامة على هذا الدين ، وتلك الشريعة . . وهذا من شأنه أن يثير فى نفوس العرب حمية وغيْرةً على هذا الدين واجتماعاً على نصرته والدعوة له ، لا أن يكون منهم العدوّ الراصد له ، المتربص به ، الخارج على طريقه . . ! !

فقوله تعالى : «واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون » ـ إلفات إلى هؤلاء المشركين الذين يعبدون ما يعبدون من دون الله ، من أوثان ، وكواكب ، وملائكة ، وإلى أن ماهم عليه من هذا المعتقدات ليس من دين الله فى شىء . . وأن دين الله هو إفراده سبحانه وتعالى بالعبودية المبرأة عن الشريك ، والصاحبة والولد . . فمن أىّ رسول من رسل الله تلقى المشركون هذا الدين الذى يدينون به؟ أكان مِن رسل الله مَن دعا إلى عبادة غير الله ؟ وحاش لله أن يحمل رسولٌ من رسل الله دعوةً إلى عبادة غير الله ! ! إذ كيف يكون رسولا لله من يدعو لغير الله ؟

والسؤال من النبيّ لرسل الله هنا ، ليس سؤالا مباشراً ، بحيث يَسأل الرسلَ ويتلقى الجواب منهم . . وإنما هو سؤال بالنظر فيما قصّ الله سبحانه وتعالى على الرسول من قصص الرسل ، ومحامل رسالاتهم إلى أقوامهم . . فقد كانت دعوة كل رسول إلى قومه : « أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره » .

فهذا نوح ـ عليه السلام ـ يقول لقومه : « ألاّ تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذابَ يوم أليم » (٢٦ : هود) . .

وهذا هود ـ عليه السلام ـ يقول لقومه : « يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » (٥٠ : هود) .

وصالح ـ عليه السلام ـ يقول لقومه : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » (٦١ : هود) . .

وإبراهيم ـ عليه السلام ـ يقول لأبيه وقومه : « ماذا تعبدون ؟ أئفكاً آلهةً دون الله تريدون » (٨٥ ؛ ٨٦ : الصافات) .

وشعيب ـ عليه السلام ـ يهتف بقومه : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » (٨٤ : هود) . .

وهكذا كانت دعوة الرسل إلى أقوامهم ، تدور كلها حول تصحيح معتقدهم فى الله ، وإقامة وجوههم إلى الله وحده لا شريك له . .

وفى نظر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى أخبار الرسل مع أقوامهم يجد أن دعوتهم قائمة على توحيد الله ، وتحرير العقول من ضلالات الشرك به . وكأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بهذا ، قد سأل الرسل ، وتلقى الجواب منهم .

وليس الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى حاجة إلى أن يسأل عن أمر هو عالم به ، ولكن هذا السؤال منه ، هو دعوة إلى هؤلاء المشركين أن يشاركوا فى هذا السؤال ، وأن يتلقوا الجواب عليه ، حتى يكون لهم من ذلك علم يصححون به معتقداتهم الفاسدة ، التى جاء رسول الله ـ عليه الصلاة السلام ـ لعلاج مابها من أدواء ، كما جاء رسل الله جميعاً بدواء تلك الأدواء .

الآيات : (٤٦ — ٥٦)

* « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَآءَهُمْ بِآيَاتِنَآ إِذَاهُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧)

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَاأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَاهُمْ يَنكُثُونَ (٥٠) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيَ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (٥٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فقال إنى رسول رب العالمين » . .

مناسبة هذه القصة هنا ، هو هذا الشبه القريب بين فرعون ، وبين فراعين قريش ، الذين كانوا ينظرون إلى النبىّ من سماء عالية ، من الغرور الكاذب ، والوهم الخادع ، فيكذّبون رسول الله ، ويهزءون به ، لا لشىء إلا لأنه ليس أكثرهم مالا ، ولا أوسعهم غنى ، وإنهم لينكرون أن يختار الله لرسالته من لا يختارونه هم للرياسة عليهم ، والسيادة فيهم . . « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! » (٣١ : الزخرف) .

وقصة موسى مع فرعون ، هنا ، هى مرآة يرى المشركون على صفحتها

وجوههم المنكرةَ فى شخص فرعون ، وما رَكِبَه من غرور واستعلاء ، حتى أورده ذلك وقومَه موارد الهلاك . .

قوله تعالى :

* « فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون » . . هو رَجْعٌ لِصَدَى هذه الضحكات الهازئة الساخرة التى كان المشركون يلقَوْن بها النبى ، كلما طلع عليهم بآية من آيات الله . . كما يقول الله تعالى فى آية تالية من هذه السورة : « ولما ضُرِب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يَصِدّون » أى يضجون بالضحك الهازىء ، الساخر .. وكما يقول سبحانه : « أفمن هذا الحديث تعجبون ؟ وتضحكون ؟ ولا تبكون ؟ » (٥٩ ـ ٦٠ : النجم) .

قوله تعالى :

* « وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون » .

هو إشارة إلى ما كان بين يدى موسى من آيات عجبا ، عَرَضَها على فرعون وملائه،آية آية ..ليكون لهم فى هذا مزدجر ، فلم يزدهم ذلك إلا كفراً ، وضلالا..

وفى قوله تعالى : « إلا هى أكبر من أختها » ـ إشارة إلى الآثار التى كانت تُحْدِثُها هذه الآيات فى حياة القوم .. فكانت تنتقل بهم من سيىء إلى أسوأ .. كما يقول الله سبحانه : « فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون» (٤٢ : الأنعام) .

والمراد بالآيات هنا هى تلك الآيات التى أرسلها الله عليهم بالبلاء بعد البلاء .. كما يقول سبحانه : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّلَ والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين» (١٣٣ : الأعراف) .

قوله تعالى :

* « وقالوا يأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون » .

أى أنهم كانوا كلما نزل بهم البلاء ، وأحاط بهم الكرب ، جاءوا إلى موسى يسألونه أن يرفع عنهم هذا البلاء ، على أن يؤمنوا بالله الذى يؤمن به هو ، ويدعوهم إليه . .

وفى قوله تعالى : « يأيها الساحر » - إشارة كاشفة عما فى نفوسهم من إصرار على الكفر ، وإن نطقت ألسنتهم بالإيمان .. فهم لا يرون فى موسى إلا ساحراً كبيراً . وأنه قادر بسحره هذا على أن يسوق إليهم البلاء ، وأن يمسكه إذا شاء . . فهم بهذه الصفة يتعاملون معه . . أما دعواه بأنه رسول من رب العالمين ، فهذا ادعاء لم يصحّ عندهم ، وإن قبلوه منه ، فهو إلى أن ينكشف البلاء عنهم . . «ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون »(١٣٤ - ١٣٥ : الأعراف) .

وفى قوله تعالى : « ربك » - اعتراف ضمنى منهم ، بأنهم على ما هم عليه من كفر بالله .. فهو رب موسى . . وليس ربّهم . . وهو الذى عهد إلى موسى بهذا السحر الذى بين يديه ، وعلّمه إياه . .

قوله تعالى :

* « فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون » .

أى فلما استجاب الله لموسى فيما طلبه من رفع البلاء عنهم ، لم يستقيموا على العهد الذى عاهدوا موسى عليه ، من الإيمان بالله ، بعد رفع البلاء عنهم . . بل نكثوا العهد ، وأمسكوا بما هم عليه من كفر . .

قوله تعالى :

* « ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون » .

هو معطوف على قوله تعالى : « إذا هم ينكثون » . . أى لم يكتفوا بنكث العهد ، بعد أن رُفع عنهم البلاء ، الذى كان مشتملا عليهم ، ولم يشكروا الله على العافية ، بل ازدادوا كفراً وضلالا ، فجمع فرعون قومه ، وحشدهم بين يديه ، ليُعيد إليهم ثقتهم فيه ، وإيمانَهم به ، بعد هذه الزلزلة العاتية التى أصابتهم من هذا البلاء الذى لم يجدوا من فرعون حيلةً يحتال بها لدفعه ، حتى اضطروا إلى الوقوف بين يدى موسى موقف التذلل والرجاء ، طالبين إليه كشفَ الضر عنهم ، فكان لهم ما طلبوا ! ! وهذا موقف من شأنه أن يَذْهب بهيبة فرعون ، ويتحيّف سلطانه القائم فى قومه ، فكان هذا التدبير الذى جاء عقب هذه التجربة التى دخل فيها القوم بيد موسى ، ثم أخرجوا منها بيد موسى أيضاً . .

* « ونادى فرعون فى قومه . . قال ياقوم : أليس لى ملك مصر . . وهذه الأنهار تجرى من تحتى . . أفلا تبصرون ؟ » .

ومن أنكر على فرعون هذا الملك الذى له ؟ إنه هو الذى ينكر على نفسه هذا الملك ، بعد أن رأى كيف تهزه الأحداث ، وتزلزله النكبات ، وتكاد تبتلعه الأمواج المضطربة ، وهو لا يملك لذلك دفعاً ! ! فأين سلطانه ؟ وأين جبروته ؟ لقد تعرّى من كل شىء ، وأصبح فى هذه المحنة نَبْتةً هزيلة ، تعصف بها الرياح فيما تعصف به من نبات وأعشاب ! إنه يلوذ بموسى عدوّه ، طالباً أن يمد إليه يده ليدفع عنه هذا البلاء الذى نزل به . .

إن فرعون هنا يفكر بصوت عال ـ كما يقولون ـ فهو بهذا الحديث إلى قومه ، يكشف عما يشعر به من ضياع لسلطانه ، وذهاب لهيبته . وهو بهذا الحديث يتحسس وجوده الذى ذهب ، وسلطانه الذى ضاع . . تماماً كما يفعل من صحا من حلم مزعج ، رأى فيه أنه سقط من قمة جبل فتحطم ، وتبدّد

أشلاء ، إنه ليتحسس جسده ليرى إن كان حيًّا أو هو فى عالم الأموات ، وإن كان هو فى يقظة أو فى حلم ! .

وفى قوله : « أفلا تبصرون » طلبٌ من فرعون لمزيدٍ من الصفعات على وجهه ، ليتأكد له أنه موجود على قيد الحياة ، وأنه لا يزال قائمًا على كرسى الملك .. وإن من شك فى ذلك فلينظر .. فها هوذا فرعون .. وهاهو ذا عرش فرعون . . وهاهوذا قائم على كرسى مملكته !! إنه الغريق الذى احتواه اليمّ ، وقد يئس الذى ينظرون إليه من نجاته ، . وهو يهتف بهم : أنا هنا .. ما زلت حيًّا .. فلا تُهيلوا التراب علىّ !! .

قوله تعالى :

* « أم أنا خير من هذا الذى هو مَهين ولا يكاد يُبين » ..

أم هنا للإضراب على تلك المشاعر التى يراها فرعون تتحرك فى صدور قومه ، من استخفاف به ، وإكبار لموسى .. فهو يقول لهم : لا تظنوا هذه الظنون بموسى ، ولا تجعلوه معى على كفة ميزان .. إنه ليس مثلى ، ولا خيراً منّى . . بل أنا خير من هذا الذى هو مَهين ، لا مُلك معه ، ولا سلطان له ، ولا منطق مستقيم على لسانه . .

ومن قال من القوم إن موسى خير منه ؟ .

إن فرعون نفسه هو الذى يقول هذا ، وإنه ليرى موسى ، وقد نازعه سلطانَه ، بل وانتزعه منه .. وإن فرعون لينزل من سمائه العالية ، ويرضى أن يكون هو وموسى على كفتى ميزان .. على أن تكون كفته أرجحَ من كفة موسى .. أنا خير منه !! .

لقد نفذ القرآن الكريم بهذه الكلمات القليلة ، إلى أغوار النفس الإنسانية

ورصد حركاتها وسكناتها ، وكشف عما يندس فى مساربها من خواطر وتصورات ، وما يزدحم فى أعماقها من رُؤى وخيالات ..

وهذا وجه من وجوه الإعجاز القرآنى ، يطالع من ينظر فيه متأملا ، آيات بينات ، تشهد بأن هذا القرآن هو من كلام رب العالمين، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . تنزيل من حكيم حميد ..

قوله تعالى :

* « فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين » .

إن فرعون إذ يجلس على كرسى عرشه ، فزعاً مضطربا ، ليرى ـ بلمح الخاطر ـ يَدَ موسى تكاد تمتد إليه وتنتزعه من هذا العرش ، ثم يرى هذه اليد عُطلاً من كل حلىّ ، على حين يرى يديه هو وقد حليتا بأساور من ذهب ، مما يدل على أنه الملك الجدير بالجلوس على هذا العرش ـ وهذا يجدها فرعون فرصة ليضع فى كِفة ميزانه ثُقْلاً جديداً تثقل به كفته ، على حين تخف كِفة موسى.. فيقول : «أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين» . . ثم أنا خير من هذا الذى لم تُحلّ يده بحلية من ذهب ، شأن الملوك وأصحاب السلطان . . فلو أن هذا الإنسان كان رسولا من عند الله حقًّا لما ضنّ عليه ربه بأن يُلقَى عليه أسورة من ذهب ، كأمارة على أنه موفد من جهة عالية ، ذات بأس ، وذات سلطان ! فإن لم يكن أهلا لأن ينال من ربه هذه المكرمة ، أفلا جاء معه ملاك أو ملائكة من السماء ، يشهدون له أنه رسول من عندالله ؟ فإذا لم يكن هذا أو ذاك ، فبأى وجه يكون لموسى مقام بيننا ومكانة فينا ؟ .

واقتران الملائكة : هو اتصالهم ومرافقتهم لموسى .

قوله تعالى :

* « فاستخفّ قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين » .

أى أن فرعون استخف بعقول قومه ، واستصغر أحلامهم ، فتحدث إليهم بهذا الحديث الذى لا يقبله عقل ، ولا يستسيغه عاقل . . ومع هذا فقد تلقاه القوم بالتسليم والطاعة ، ولم يقم من بينهم قائم ينكر هذا القول المنكر ، ويسفه هذا المنطق السفيه . . « إنهم كانوا قوماً فاسقين . . » أى كانوا على ما كان عليه فرعون من سفاهة ، وجهلٍ ، فراجت عندهم هذه البضاعة الفاسدة ! وهكذا يستغلظ الضلال ، وتنتشر سحبه القائمة فى المواطن التى تقبل الباطل ، وتستجيب له . . تماماً كالبرك والمستنقعات ، تتداعى عليها الهوامُّ والحشرات ، وتتوالد وتتكاثر فى أعداد لا تعدُّ ولا تحصى . .

وإنها ليست مسئولية داعية الضلال وحده ، بل هى كذلك مسئولية . . الذين يستجيبون له ، ولا ينكرون عليه المنكر الذى يدعوهم إليه . . ومن هنا كان الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر مسئوليةً منوطة بكل مجتمع إنسانىّ ، فى أفراده وجماعاته ، إذ كانت الجماعة أشبه بالجسد ، فيما يعرض له من عوارض العلل والآفات . . فأى عضو فى الجماعة ، يعرض له عارض من عوارض الفساد ، يهدد الجماعة كلها بتلك الآفة ، التى إن لم تجد من يطبّ له منها ، سرت عدواها فى المجتمع كله ، وتهددت وجوده . .

قوله تعالى :

* « فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين » .

وهكذا كانت عاقبة الجماعة كلها . . داعيةِ الضلال ، ومن ضلّ بضلاله . . لقد أخذهم الله جميعاً بعذابه ، فأغرقهم كما أغرق فرعون . .

وفى قوله تعالى : « فلما آسفونا انتقمنا منهم » . . إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى ، قد أمهل هؤلاء الضالين ، ومدّ لهم فى ضلالهم ، حتى يكون لهم فُسحة من الوقت ، يراجعون فيها أنفسهم ، ويعدّلون موقفهم المنحرف . . فلما لم يكن لهم فى هذا الإمهال ، وفى تلك المطاولة ، إلا الإمعان فى الضلال ، والإسراف فى العناد ــ أخذهم الله بذنوبهم ، ولم يكن لهم من دون الله من ولى ولا نصير .

فقوله تعالى : « آسفونا » أى أسخطونا عليهم . . والله سبحانه وتعالى « حليم » فلا يغضب الله إلا على من أخذه بحلمه ثم لم يزده الحلم إلا سفهاً وجهلاً . .

قوله تعالى :

* « فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين »

أى أن العذاب الذى أُخذ به هؤلاء الضالون ، المسرفون فى الضلال ، كانا عذاباً يُضرب به المثل من بعدهم ، ويرى الخلف عبرةً وعظةً فيما نزل بهذا السلف . .

الآيات : (٥٧ — ٦٥)

* « وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوٓا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَآئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ

يَخْتَلِفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) »

التفسير:

قوله تعالى:

* « وَلمّا ضُرب ابن مَريم مثلاً إذا قَومُك منه يصدّون * وقالوا أآلهتنا خيرٌ أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون » .

يَصِدّون: أى يتصايحون، ويكثرون من الضجيج، شأن الجماعة يطلع عليها أمر على غير ما تتوقع، وهى فى مأزق حرج، فتتعلق بهذا الأمر الذى ترى فيه فرجاً ومخرجاً، فتصيح بصيحات الفرح المجنون، الذى تختلط فيه الأصوات، فلا يُعرف للكلمات مدلول، وإن عرف للإشارة والحركات مفهوم، يدل على الفرحة والابتهاج.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها، هى أن قصة موسى مع فرعون انتهت بتلك النهاية التى كانت مثلاً فيما تنتهى إليه طريق الضالين، المكذبين بآيات الله وبرسل الله.. وإن فى هذا المثل لعبرةً لمعتبر، وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد..

وفى عيسى بن مريم مثل بارز، لمن يتعقل الأمثال، وينتفع بها..

فنى ميلاده هذا الميلادُ العجيب ، من غير أب ـ مَثَل شاهد على قدرة الله ، وعلى أنه سبحانه يخلق ما يشاء ، على غير مثال سبق من تلك المخلوقات ، التى تجرى على طريق الأسباب الظاهرة لنا . . فالله سبحانه وتعالى خالق الأسباب والمسببات جميعاً . .

وفى هذا الميلاد العجيب ، الذى يبدو لنا من خَلْق عيسى عليه السلام من غير أب ، إشارة دالة على أكثرَ من أمرٍ . .

فأولاً : أن صفة هذا الميلاد الذى يكاد ينفرد به عيسى من بين بنى الإنسان؛ لا يصحّ أن يكون داعية لبعض الناس إلى عبادته ، وإلى رفعه عن مقام المخلوقين من مخلوقات الله . . فما هو إلا عبد من عباد الله ، وخلق من خلقه . . وأنه إذا كان قد وُلد من غير أب ، فالإنسان ـ أصلا ـ خلق من غير أب وأم . . «إن مَثَل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون» (٥٩ : آل عمران) فعيسى وآدم عبد الله على سواء .. كلاهما مخلوق لله .. سواء منهما من خلق ابتداء من غير أب ولا أم ، أو من خلق من أمّ دون أب . .

ومن هنا ، فلا يكون لأولئك الذين يعبدون عيسى ، ويجعلون له نِسبة خاصة بالله ـ لا يكون لهم حجة يتخذونها من ميلاده الذى جاء على تلك الصفة . .

وأنه إذا كانت لهم حجة ، فهى من واردات الأوهام والضلالات ، كتلك الحجج التى يقيمها عبّاد الأحجار والأصنام والكواكب ، والملائكة على معبوداتهم .. فالذى يعبد الحجر لا يَعْدَم أن يجد له منطقاً يعبده عليه ، تماماً كالذى يعبد الشمس ، أو القمر ، أو الملائكة ، أو الجن . . فكل

معبود من تلك المعبودات له عند من يعبده وجه يعبده عليه ، ومنطق يتعامل به معه ..

وثانياً : أن ميلاد عيسى على غير الأسلوب الذى ولد عليه سائر الناس ، دليل على قدرة الله التى لا تحكمها الأسباب . . وأن الله سبحانه قادر على كل شىء . .

وأنه سبحانه بهذه القدرة قادر على أن يبعث الموتى من قبورهم ، وأن يحيى هذه الأجساد بعد أن أبلاها البلى ، وذهب التراب بمعالمها ..

وفى قوله تعالى : « ابن مريم » دون ذكر عيسى باسمه ، أو لقبه « المسيح » ـ فى هذا إشارة إلى أنه ابن امرأة ، هى مولود من مواليد الإنسانية .. فهو ـ أيًّا كان ميلاده ـ ثمرةٌ من شجرة الإنسانية ، موصول نسبه بنسبها .. أيًّا كان لون هذه الثمرة ، أو طعمها !! .

وفى قوله تعالى : « إذا قومك منه يَصِدّون » ـ إشارة إلى هذا اللغط والصخب ، الذى أثاره المشركون عند ضرب هذا المثل فى تشبيه خلقِ عيسى بخلق آدم ، كما يقول الله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » (٥٩ : آل عمران) . . فقد انتهزها المشركون فرصة يَشْغبون بها على النبى ، ويأخذون منها الحجة عليه من لسانه ، بهذا المثل الذى ضربه ...

فهو سبحانه يقول لهم : إن عيسى بشر مثل سائر البشر ، وإنه مولود من الإناء الذى يولد منه كل إنسان، وهو رَحِم الأم ..وهم ـ أى المشركون ـ يقولون للنبى : هذا عيسى ، هو بشر ـ كما تقول ـ وقد عبده مَن هم أهل كتاب سماوى، ولابد أن تكون هذه العبادة عن دعوة من الله لهم ـ وإذن فعبادة غير الله

جائزة عند الله .. ونحن إنما نعبد الملائكة الذين هم بنات الله . . والذين نتمثلهم فى هذه الأصنام التى نسميها بأسمائهم ، كهبل ، واللات ، والعزّى ، ومَنَاة .. فأىٌّ خير ؟ آلهتنا تلك التى هى بنات الله ؟ أم المسيح الذى هو ابن مريم ؟ وإذا كان الله قد رضى لأهل الكتاب أن يعبدوا ابن امرأة ، أفلا يرضى الله لنا أن نعبد الملائكة .. وهن بنات الله ؟ .

هذا منطق القوم الذى استخرجوه من هذا المثل الذى ضُرب لهم فى خلق عيسى . . وهو منطق قائم على المماحكة والسفسطة . . إنهم أمسكوا بمقدمات باطلة ، ثم خَلَصُوا منها إلى نتائج فاسدة . .

فمن قال لهم إن عبادة الذين يعبدون المسيح قائمةٌ على الحق ؟ إنها كفر وشرك بالله ، مثل كفرهم وشركهم ، بما يعبدون من هذه الآلهة التى أقاموها بأيديهم ، وسموها بأسماء الملائكة كما يقول الله تعالى : « أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى * ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذا قسمة ضيزى * » (١٩ ـ ٢٢ النجم) ..

إن عبادة الذين يعبدون المسيح قضية أخرى .. لم يكن من شأن الدعوة الإسلامية أن تَعرض لها فى هذا الدور الذى تواجه فيه هؤلاء المشركين من قريش .. وتعلُّق المشركين بهذه القضية فى هذا الوقت ، ودعوة النبى إلى الدخول معهم فى مناقشتها والفصل فيها ـ هو مما يجعل المعركة بين النبى وبين المشركين تنتقل إلى ميدان آخر ، يقفون هم فيه موقف المتفرجين . . وهذا من شأنه أن يُغمد سيوف الحق التى تضرب فى وجوههم ، من قبل أن توقع الهزيمة بهم.. ولهذا جاء القرآن الكريم مبطلا مَكرَهم هذا بقوله سبحانه: « ماضربوه لك إلا جدلا . . بل هم قوم خَصِمون » . . أى ما ضربوا هذا

المثل الذى يوقع الشبه بينهم وبين أتباع المسيح الذين يعبدونه ، من جهة ، وبين آلهتهم التى يعبدونها ، وبين المسيح ـ من جهة أخرى ـ ما ضربوا هذا المثل إلا جدلا ، أى لأجل الجدل الذى يصرف عن الحق ، ويُعمّى السبل عنه.. وهذا شأن القوم فى أكثر أمورهم .. فهم قوم خصمون .. أى شديدو الجدل فى الخصومة .. كما يقول الله سبحانه وتعالى فيهم : « وتنذر به قوماً لُدًّا » (٩٧ : مريم) أى شديدو اللدد والعناد فى الخصومة ..

وفى قوله تعالى : « قومك » إشارة إلى قوم آخرين ، لهم خصومة فى ابن مريم ، وهم أتباع المسيح الذين يعبدونه ..

قوله تعالى :

* « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل » ..

هذا هو مقطع القول فى المسيح ، بلا جدل ، ولا مماحكة .. ما هو إلا عبد من عباد الله ، ورسول من رسله ، أنعم الله عليه بالرسالة ، وجعله معلماً من معالم الهدى لبنى إسرائيل ، بعد أن ماجوا فى الفتن ، وغرقوا فى الضلال .. فإذا ضل فيه الضالون ، وفتن به المفتتنون ، فليس فى هذا حجة يحتج بها المشركون على النبي ، ويتخذون منها ذريعة لتبرير منكرهم الذى هم فيه ، من عبادة الملائكة الذين نصبوا لهم هذه التماثيل ، وأطلقوا عليها ما أطلقوا من أسماء ..

قوله تعالى :

* « ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يَخلُفون » .

هو ردٌّ على المشركين الذين ينظرون إلى الملائكة نظرة ترفعهم إلى مقام

الألوهية.. بهذا النسب الذى ينسبونهم به إلى الله.. وهذا نظر فاسد .. فإنه مهما يكن مقام المخلوق فى المخلوقات ، فإنه عبد من عباد الله ، وخلق من خلقه ، يعبد الله ويسبح بحمده ، شأنه فى هذا شأن كل مخلوق لله . . « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدُهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله وليًّا ولا نصيراً » (١٧٢ ـ ١٧٣ : النساء) .

فهذا هو المسيح ـ على ما يرى الناس من عجيب مولده ـ وهؤلاء هم الملائكة ـ على ما يرى الناس من عظمة خلقهم ، وقربهم من ربهم ـ إنهم جميعاً عبيد لله : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » (٦ : التحريم) . . فكيف يُعبد العبد مع السيد ، ويؤلَّه المخلوق مع الخالق !

وقوله تعالى : « ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون » ـ أى أنه لو شاء الله لجعل الناس على صورة الملائكة ، خلقاً وتكويناً ، ولأقامهم على خلافة الأرض ملائكة لا بشراً . . فإن الذى خلق الملائكة جنداً فى السماء قادر على أن يخلق ملائكة ليكونوا خلفاء فى الأرض .. وفى هذا تذكير للناس بهذه الخلافة التى لهم على هذه الأرض..وأن الله سبحانه وتعالى قد جعلها للناس دون الملائكة الذى طمعوا فيها ، ورأوا أنهم أحق من البشر بها ، كما يقول الله سبحانه وتعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون » (٣٠ : البقرة) وفى هذا ما يرى منه هؤلاء المشركون الذين يعبدون الملائكة أنهم إنما يعبدون خلقاً مثلهم ، أرادوا مرّة أن يكون لهم ما للإنسان من هذا السلطان الذى له فى هذه الأرض . . فكيف يجوز فى عقل عاقل أن يعبد الإنسانُ من كان يطمع فى أنه

يكون فى منزلته ؟ . . أليس ذلك تدلّياً وسقوطاً ؟ وبلى إنه التدلّى السفيه ، والسقوط المهين !

قوله تعالى :

* « وإنه لَعِلم للساعة فلا تمترنّ بها واتبعون هذا صراط مستقيم » .

هو تعقيب على قوله تعالى فى شأن عيسى : « ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون » .

وهذا التعقيب يجب أن يكون من كل عاقل على ماسمع من قول الله تبارك وتعالى فى شأن عيسى ، وأنه عبد من عباد الله ، وأنه إذا كان المشركون المعاندون قد تعلقوا بحبال الضلال من هذا المثل ، واستخرجوا منه هذا المنطق الفاسد الذى تصايحوا به فرحاً ـ فإن العاقل لَيجد فى هذا المثل دليلاً يستدلّ به على البعث ، فيزداد إيماناً به ، ويقيناً بأن الساعة آتية لا ريب فيها . .

أى « وإنه لعلم للساعة » أى وإنه ، أى ابن مريم ـ فى الميلاد الذى ولد به ـ ليفيد علماً بالساعة ، أى بالبعث ، حيث يتجلى فى خَلقه على تلك الصورة بعضٌ من مظاهر قدرة الله ، وأن البعث الذى ينكره المشركون ، استعظاماً له ، إذ يقولون : « من يحيى العظام وهى رميم » (٧٨ : يس) . ويقولون : « أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد » (٣ : ق) ـ هذا البعث ، هو أمر واقع تحت سلطان قدرة الله التى لا يعجزها شىء . . فمن نظر إلى ميلاد المسيح الذى جاء على غير تلك الأسباب التى يعرفها الناس ، لم يُنكرِ البعثَ وإعادةَ الحياة إلى من فى القبور ، وإن جاء على غير ما يعرف الناس من أسباب . . وهذا هو العلم الذى يستدل به أولو النظر ، على إمكان البعث ، والحساب ، والجزاء ، إذا هم نظروا نظراً مستبصراً فى ميلاد المسيح على تلك الصورة الفريدة التى ولد بها . .

وقوله تعالى : « فلا تمترنّ بها » هو تعقيب على قوله تعالى : « وإنه لعلم الساعة » . .

بمعنى أنه إذا كان ميلاد المسيح يفيد علماً بإمكان البعث ، ومجيء الساعة ـ فإنه يجب ألا يمترى فيها الممترون ، وألا يجادل فيها المجادلون ، وألا يكذب بها المكذبون ، وبين أيديهم الدلائل والشواهد عليها ..

وقوله تعالى : « واتبعون . . هذا صراط مستقيم » معطوف على قوله تعالى : «فلا تمترن بها» أى فدعوا المراء والجدل فى الساعة ، والتكذيب بها ، واتبعون فيما أدعوكم إليه أيها المشركون من الإيمان بالله ، واليوم الآخر . . فهذا هو الصراط المستقيم ، الذى يسلك بمن يأخذ طريقه عليه ، إلى غايات الأمن ، والسلامة ، والنجاة . .

قوله تعالى :

* « ولا يصدنكم الشيطان . . إنه لكم عدو مبين » . .

هو معطوف على قوله تعالى : «واتبعون هذا صراط مستقيم» أى اتبعونى ولا تتبعوا ما يدعوكم إليه الشيطان ، الذى يصدكم عن اتباع هذا الصراط المستقيم الذى أدعوكم إليه . . فأنا أدعوكم إلى الخير ، وأرتاد لكم طريق النجاة ، لأنى محبٌّ لكم ، حريص على سلامتكم ونجاتكم . . أما الشيطان ، فهو عدو ظاهر العداوة لكم ، لا يدعوكم إلا إلى ما فيه بلاؤكم وهلاككم .

قوله تعالى :

* « ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبيّن لكم بعضَ الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون * إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » . .

أى أنه لما جاء عيسى إلى بنى إسرائيل بالآيات البينات ، بما أجرى الله سبحانه وتعالى على يديه من معجزات ، وبما أجرى على لسانه من الكلِم الطيب الحكيم ، الذى يَشْفِى سَقَم العقول ، وآفات القلوب ـ لما جاء إلى بنى إسرائيل « قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه » أى أن هذا الذى جئتكم به من آيات بينات ، هو مما أمرنى الله سبحانه وتعالى أن أحمله إليكم من عنده لأطبَّ لكم به من عللكم وأدوائكم العقلية والروحية والجسدية . . « ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه » ـ أى ولأكشف لكم عن مواقع الحق فيما اختلفتم فيه من التوراة ، وأحكامها . . وهذا ما يشير إليه سبحانه وتعالى فى آية أخرى على لسان المسيح : « ومصدقاً لما بين يدىّ من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون » (٥٠ : آل عمران » .

فالمسيح لم يجىء إلى بنى إسرائيل داعيا لهم أن يعبدوه من دون الله ، كما ذهب إلى ذلك أهل الضلال ممن عبدوه ، وجعلوه إلهاً . . وفى هذا يقول الله تعالى : « وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمىَ إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب * ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد » (١١٦ ـ ١١٧ : المائدة) .

قوله تعالى :

* « فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » أى أنه قد وقع الخلاف بين بنى إسرائيل فى شأن المسيح ، وفى مفهوم

دعوته التى جاءهم بها ، فكانوا فى ذلك أحزاباً وشيعاً .

ففريق منهم بَهتَه وكذبه ، ورماه وأمه بالفُحش والزور من القول . . وقالوا إنه ابن زنى ، وإن أمه جاءت به من سفاح !

وفريق غالى فيه ، ورفعه إلى مقام الألوهية . . فقالوا إنه الله تجسد فى مريم ، وجاء على صورة المسيح !

وهكذا هلك الفريقان فيه . .

وبين هذين الفريقين فرق أخرى كثيرة ، بعضها مبالغ ، وبعضها مقتصد . .

وفى قوله تعالى : « فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » وعيد لهذه الفرق المنحرفة جميعها . . فكلٌّ جائر ، حائد عن طريق الحقّ فى المسيح ، وفى المفهوم الذى فهموه عليه . . فهو ليس إلٰها ولا ابن إلٰه ، كما زعم أنصاره وأتباعه . . وهو ليس ابن زنى ، ولا كذاباً ، ولا دجالا ، كما رماه بذلك المفترون الضالون من اليهود . . وإنما هو كما قال الله سبحانه وتعالى : « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل » .

الآيات : (٦٦ — ٧٣)

* « هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ

ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « هَل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتةً وهم لا يشعرون » .

هو عودة بالخطاب إلى المشركين ، بعد أن ضُرب لهم المثل بالمسيح بن مريم ، وبما كان منهم من شغب فى هذا المثل ، وما كان من بنى إسرائيل من خلاف فى شأنه .. وفى هذا الخطاب الاستفهامى تهديد للمشركين بما سيحل بهم ، إذا هم أمسكوا بما هم عليه من شرك وضلال . . فماذا ينتظرون ؟ إنه ليس وراء هذا الانتظار إلا أن يموتوا على شركهم ، وإلا أن يجدوا أنفسهم فجأة ، وعلى غير توقع منهم ـ أنهم بين يدى عذاب الله ، الذى أعدّ للضالين المكذبين . .

قوله تعالى :

* « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌّ إلا المتقين »

الأخلاء : جمع خليل . . وهو الصاحب الذى اتصل الودّ بينه وبين صاحبه . .

والمعنى : أنه فى يوم القيامة يُشغل كل إنسان بأمر نفسه ، لما يرى من أهوال هذا اليوم .. «يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه» (٣٤ ـ ٣٧ : عبس) .. هذا شأن الناس جميعاً .. أما أهل الضلال ، وإخوان السوء ، فإن لهم إلى هذا الشأن شأناً آخر . وهو أنهم

يترامون بالتهم ، ويتقاذفون باللعنات . . كل منهم يُلقى باللائمة على صاحبه ويقول له أنت الذى دعوتنى إلى كذا وكذا من المعاصى ، وأنت الذى زينت لى كذا وكذا من الشرور ، كما يقول الله سبحانه على لسان المستضعفين ، ونقمتهم على سادتهم وكبرائهم : « ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار » . (٣٨ : الأعراف) .

وكما يقول سبحانه عن أهل الضلال جميعا : « ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » (٢٥ : العنكبوت) . .

وقوله تعالى : « إلا المتقين » استثناء من هذا الحكم العام : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو » .. فليس كل الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو .. وإنما هذا الحكم واقع على إخوان السوء ، وأهل الضلال . . أما أهل الإيمان ، والتقوى ، المتحابّون فى الله ، المجتمعون على ذكره وطاعته ـ فهؤلاء يَلْقَى بعضهم بعضا بالحمد والثناء ، حيث كان بعضهم لبعض ناصحا وهاديا . .

قوله تعالى :

* « ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » . .

هو دعاء من رب كريم ، لعباده المتقين ، الذين استخلصهم سبحانه من بين هذه الجموع المتخاصمة المتلاعنة من أهل الفسق والضلال ..

فأهل المحشر جميعا بعضهم عدو لبعض إلا المتقين ، الذين ينادون من قِبَل الرحمن بقوله تعالى : « ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » ..

وفى نداء المتقين من بين هذا المعترك الصاخب من حولهم ، وفى إضافتهم إلى الله سبحانه وتعالى: « ياعباد » ؛ لطف من لطف الله بهم ، حيث تسكن بهذا النداء الكريم نفوسهم المضطربة ، وتطمئن قلوبهم الواجفة ، لما يرون من تناهش أهل الضلال حولهم ، وترامیهم بالعداوة والشنآن .. فإذا سمعوا هذا النداء الكريم بأن لاخوف عليهم ولا هم يحزنون أمنوا من خوف ، واطمأنوا من فزع .. إنهم ناجون وحدهم من بين الركب الذى تتخبط به السفينة فى متلاطم الأمواج ، وتوشك أن تهوى إلى القاع ! .

قوله تعالى :

* « الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين » .

هو وصف لهؤلاء العباد ، الذين ناداهم الحق جل وعلا بقوله : « ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » . . فهم إنما استحقوا هـذا التكريم من الله سبحانه وتعالى ، بندائهم ، وبإضافتهم إلى ذاته جل وعلا .. لأنهم آمنوا بآيات الله .. وكانوا مسلمين ..

وفى وصفهم بالإيمان ، ثم وصفهم بأنهم كانوا مسلمين قبل أن يكونوا مؤمنين ـ فى هذا إشارة إلى أنهم قبل أن يؤمنوا على يد الرسل ، ويصدّقوا بآيات الله التى فى أيديهم ـ كانوا مسلمين ، أى على فطرتهم السليمة ، التى لم تفسدها الأهواء الموروثة ، لقد كانوا على السلامة والبراءة ، حتى إذا التقوْا برسل الله ، ونظروا فيما معهم من آيات ، استجابوا لدعوة الحق ، وآمنوا بآيات الله .. أشبه بالأرض الطيبة ، التى احتفظت بكل ما فيها خير ، حين لم تجد الماء الذى يُحيى مواتها ، حتى إذا غاثها الغيث ، اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم .. وليس كذلك الأرض الخبيثة ، فإنها حين

لا تجد الماء ، حيث تنضح بكل ما فيها من خبث ، فتصبح منبتاً للحسك والشوك ، ومأوى للآفات والهوام . .

وقوله تعالى :

* « ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تُحبرون » .

بعد أن يجتمع المؤمنون على هذا النداء الكريم من ربهم ، يدعوهم الله سبحانه وتعالى إلى ضيافته فى الجنة .. « ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون » أى حيث تلقوْن المسرة والحبور مع أزواجكم اللائى آمنّ معكم . .

وبهذا يكمل أنسهم ، ويتم نعيمهم . .

قوله تعالى :

* « يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون » . .

فى الانتقال من الخطاب فى قوله (أنتم وأزواجكم) إلى الغيبة ، فى قوله تعالى : « يطاف عليهم » بدلا من « يطاف عليكم » ـ فى هذا إلفات للأنظار إلى هذا النعيم الذى يساق إلى عباد الله المتقين ، الذين استضافهم سبحانه وتعالى فى رحاب كرمه ، وأنزلهم منازل رضوانه .. وفى هذا ما يبعث فى قلوب المكذبين والضالين ، من حسرات ، إلى ما هم فيه من آلام ، وأحزان ، كما أنه يضاعف من نعيم أهل هذا النعيم ، حيث ينظرون إلى أنفسهم وإلى ما هم فيه من عافية ، وحيث يَلْقَى غيرهم صنوف البلاء والهوان . .

وفى قوله تعالى : « بصحاف من ذهب وأكواب » ـ إشارة إلى الطعام

وهو فى آنية الطعام ، وهى الصحاف ، جمع صحفة . . وإلى الشراب وهو فى آنية الشراب ، وهى الأكواب : جمع كوب . . وهى جميعها من ذهب . .

وقوله تعالى : « وفيها ما تشتهيه الأنفس » ـ إشارة أخرى إلى أن وراء هذه الأطعمة والأشربة التى يطاف على أهل الجنة بها — وراء هذه الأطعمة كل ما تشتهى الأنفس من طيبات . . فلا يطلب أحد شيئاً إلا وجده حاضراً بين يديه ، كما يقول الله تعالى : « ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون » (٣١ : فصلت) . .

وقوله تعالى : « وتلذ الأعين » — إشارة ثالثة إلى ما للأعين من مُتَع خاصة ، تجدها فيما ترى من آيات الله ، وبديع صنعه فى هذه المنازل الكريمة، التى استضافهم الله سبحانه وتعالى فيها . .

هذا ، وقد تأول بعض المفسرين قوله تعالى : « وتلذ الأعين » بأنه النظر إلى الله سبحانه وتعالى ، حيث لا يكمل نعيم أهل الجنة إلا بالنظر إلى الله سبحانه ، فيتجلى الله سبحانه وتعالى على أهل الجنة ، فيكون لهم من ذلك ما لا يحيط به الوصف من رضاً ورضوان . .

هذا وقد أشرنا فى أكثر من موضع إلى أن هذه الأوصاف الحسية التى يذكرها القرآن لنعيم الجنة ، من ألوان الطعام والشراب ، وأنواع اللباس والحلىّ ـ كلها مما يساق إلى أهل الجنة ، الذين كانوا يشتهون هذه الأمور فى الدنيا ، ثم تقصر أيديهم عنها ، أو كانوا يحرمون أنفسهم منها ، ابتغاء مرضاة الله ! .

فكان من تمام إكرامهم ، أن يجدوا بين أيديهم كل ما كان من نعيم الدنيا ، الذى فاتهم حظهم منه . . عجزاً ، أو استعلاء . .

قوله تعالى :

* « وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون * لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون » .

الإشارة إلى الجنة هنا ، هى دعوة لأهلها إلى أن يُزَفّوا إليها ، وأن ينالوا منها ما يشاءون . . فقد أصبحت ملكا لهم ، يتصرفون فيها تصرف المالك فيما ملك . .

وقد عبّر القرآن عن المِلك بالميراث ، لأمرين :

أولا : أن الوارث لا يبخل على نفسه بالتمتع بكل ما ورث ، حيث لا يشتد حرصه عليه ، لأن ماورثه قد جاء إليه من غير عَنَاء . . وفى هذا دعوة إلى أهل الجنة أن ينالوا من هذا النعيم الموروث ما يشاءون ، غيرَ مضيقين على أنفسهم فى شىء . .

وثانياً : أن هذه الجنة التى نزل المؤمنون رحابها ، وورثوا نعيمها — هى فضل من فضل الله عليهم ، وإحسان من إحسانه إليهم ، وأن أعمالهم الصالحة التى عملوها فى الدنيا ليست هى الثمن الذى يكافىء هذا النعيم العظيم . . وأن هذه الأعمال لم تكن إلا سبباً ووسيلة يتوسلون بها إلى مرضاة الله . . كما يتوسل الوارث إلى مورثه بسبب من قرابة ونسب ، فتكون هذه القرابة سبباً لميراث ما يرث ، وإن لم يكن له فيما ورثه من عمل . .

أما قوله تعالى : « بما كنتم تعملون » — فهو لتحقيق أمرين كذلك . .

أولهما : الاحتفاء بالأعمال الصالحة ، والإشارة بقدرها ، وإلى أنها تثمر ثمراً طيباً . . وأن من يغرس فى مغارسها لا بد أن يجنى منها ثمراً طيباً مباركا . .

وثانيهما : تكريم العاملين ، وإطعامهم من ثمرة عملهم .. ففى هذا لذة مضاعفة لهذا الثمر الذى غرسوا مغارسه ، وتعهدوها بالعمل .. على خلاف ماينالة الإنسان عفواً من غير عمل له .. فإنه وإن كان طيباً كريماً ، يجد فيه المرء هناءته وسعادته - فإنه يقوم معه شعور فى النفس بأنه ليس ملكا خالصاً لصاحبه ، وأنه أشبه بالضيف الوارد عليه .. وفى هذا مايزعج الإنسان عما يجد فيه من هناءة وسعادة ..

وفى التعبير القرآنى : « وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون » مايجعل هذه الجنة ونعيمها ، ملكا ، مصفىًّ من كل شائبة ، معزولا عن كل شعور يعزل الإنسان عن هذا النعيم ، أو يقطعه عنه .. فهى ميراث ينفق منه الإنسان كيف يشاء ، وينال منه مايريد .. وهى ثمرة عمل وجهد .. ومن حق العامل أن ينعم بما عمل ! .

الآيات : (٧٤ — ٨٣)

* « إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّا كِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَا كُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوٓا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ (٨٣) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون » .

هو بيان لما يَلْقَى أهل الضلال والكفر من عذاب وبلاء فى الآخرة ، بعد هذا البيان الذى كشف عما للمؤمنين المتقين عند الله من جنات ونعيم .. فالناس فى الآخرة فريقان : فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير .. فريق يتلقى الكرامة والتكريم ، وفريق يَلْقَى الهوان والعذاب..

وفى التعبير عن أهل الضلال بالمجرمين ، إشارة إلى أنهم أصحاب جنايات جنوها على أنفسهم وعلى غيرهم من عباد الله .. وأن هذا العذاب الذى يعذّبون به فى الآخرة بالخلود فى نار جهنم - إنما هو جزاء لهذه الجرائم التى اقترفوها فى دنياهم ..

قوله تعالى :

* لا يُفَتّر عنهم وهم فيه مبلسون » .

هو صفة للعذاب الذى يخلد فيه المجرمون .. فهو عذاب لا ينقطع عنهم أبداً ، ولا يفتر أو يضعف أبداً ، بل هو متصل دائماً ، وعلى حال واحدة من الشدة والبلاء ، وإن اختلف صوراً وألواناً .

وقوله تعالى : « وهم فيه مبلسون » حال كاشفة عن هؤلاء المجرمين وهم يصلَوْن هذا العذاب الأليم .. والإبلاس : هو الوجوم ، والجمود ، من شدة الحزن واليأس .. فهم أجسام قد تبلدت فيها العقول ، وجمدت منها المشاعر ، وذُهلت النفوس ..

قوله تعالى :

* « وما ظلمناهم ولـكن كانوا هم الظالمين » .

أى أن هذا العذاب الذى هم فيه ، لم يكن لظلم وقع عليهم ، حيث يرام الرائى فيستفظع هذا العذاب ، الذى لا ينقطع أبدا ، ويخيل إليه أنه ليس هناك من ذنب يستحق هذا العذاب الذى لاتحتمله السموات والأرض .. وكلا فإنهم لم يُظلَموا ، وإنما هم الذين ظلموا أنفسهم ، فأوردوها هذا المورد ، وسعوْا بها إلى هذا البلاء ، فـكفروا بالله ، وحاربوا الخالق ، وخرجوا بهذا على الولاء لله ، والانقياد لرب العالمين ، الذى انقاد له الوجود كله ..

قوله تعالى :

* « ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ، قال إنـكم ما كثون » .

مالك ، هو الملَكَ الموكّل بالنار من عند الله سبحانه وتعالى ، وهو الذى يقوم عَلى أهل النار ، كما يقوم السجان على المسجونين ..

وفى قولهم : « يامالك ليقض علينا ربك » ما يكشف البلاء النازل بهم ، كما يكشف اليأس الذى وقع فى نفوسهم من أن ينالوا من الله خيراً .. فهم لا يرجون الله فى هذا اليوم ، ولا يطمعون فى رحمته ، حتى إنهم لينادون مالـكاً: « يامالك ليقض علينا ربك » ولم يقولوا « ليقض علينا ربنا » ـ إنهم على يأس من أن يُنْسَبوا إلى الله ، وأن يَقْبل الله منهم قولا .. وذلك من ضلالهم الذى صحبهم فى آخرتهم . فلم يَقْدُروا الله قدره .. ولم يروْا سعة رحمته ..

وقوله تعالى : « قال إنـكم ما كثون » — هو ردّ مالك على ماطلبوه منه أن يسأل ربه القضاء عليهم ، وإهلاكهم ، حتى ينقطع عنهم هذا العذاب ..

وقول مالك : « إنـكم ما كثون » .. أبلغ من قوله إنـكم لن تموتوا أو ان

يُقضى عليكم ، لأن قوله : « إنكم ماكثون » يدل على أنهم لن يموتوا ، ولن يُقضى عليهم ، كما يدل فى نفس الوقت على أنهم لن يتحولوا عن حالتهم تلك التى هم فيها .. إنهم ماكثون فيما هم فيه من عذاب أليم ، وعلى تلك الحال التى هم عليها ..

أما لو قيل لهم لن يقضى عليكم ، أو لن تموتوا ، فقد يظلون أحياء، ولكن فى غير صحبة هذا العذاب الذى معهم ! وإن كان ذلك بعيداً عن محامل اللفظ ، إلاّ أن المكروب يتعلق بأوهى الأسباب ، وفى هذا القول متعلق لهم ، وإن كان متعلقاً كاذباً .. فجاء قوله تعالى : « إنكم ماكثون » ليقطَع حتى هذا الوهم الذى يتعلقون به ! .

قوله تعالى :

* « لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون » . .

يكاد يجمع المفسرون على أن هذا الخطاب موجه إلى أهل النار ، وأنه من مقول القول الذى ردّ به مالك عليهم ، وأن جمع الضمير فى قوله « جئناكم » لأن مالكا إنما يتحدث إليهم بلسان الملائكة الذين هو منهم ، والذين جاءوا إلى هؤلاء المشركين بالحق من ربهم ، فيما حملوا إلى رسل الله من آيات الله !

وهذا مردود من وجهين :

فأولا : فى قوله تعالى : « ولكن أكثركم للحق كارهون » مايشير إلى أن بعضاً من المخاطبين بهذا الحديث غير كارهين للحق ، بل هم مستعدون لقبوله ، والانتفاع به ..

وهذا لا يتفق مع أهل النار ، الذين قيل إن هذا الخطاب موجّه إليهم ، إذ ليس فيهم أحد لم يكن كارهاً للحق ، مجانباً له ، بل ومحارباً لكل من

يتجه إليه .. ولو كان على غير تلك الصفة لمَا ورد هذا المورد ، ولما لقى هـذا المصير المشئوم !!

وثانياً : أن قوله تعالى فى الآية التالية : « أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون » — هو — وبإجماع المفسرين — خطاب إلى المشركين !

وهذا الخطاب — كما ترى متصل بالـكلام الذى سبقه ، إذ هو إضراب عنه ، وإنشاء لخطاب آخر معهم .. كما سنرى ..

وعلى هذا ، فإن قوله تعالى :

« لقد جئناكم بالحق ولـكن أكثركم للحق كارهون » — هو خطاب من الله سبحانه وتعالى للمشركين ، على لسان النبى صلوات الله وسلامه عليه ..

وفى هذا الخطاب ردٌّ على هؤلاء المشركين ، الذين يُدعوْن إلى هذه النار التى يُعذّب فيها المجرمون ، الذين نادوْا مالـكاً قائلين : « ليقض علينا ربك » هؤلاء المشركون يدعون فى هذه اللحظة إلى تلك النار ، وهم إذ يطلبون وجهاً للفرار منها ، يلقاهم هذا القول الذى يمسك بهم ، ويدفعهم دفعاً إلى جهنم : « لقد جئناكم بالحق ولـكن أكثركم للحق كارهون » .. والمخاطبون بهذا إنما هم أكثر المشركين الذين كانوا إلى هذا الوقت يقفون من الله هذا الموقف المعادى ، فأبوا أن يستمعوا لآيات الله ، وأن يستجيبوا لها ..

أما الذين استجابوا للرسول ، وآمنوا بالله ، فقد كانوا قلة قليلة منهم . .

ولهذا صح أن يخاطبوا بقوله تعالى : ولـكن أكثركم للحق كارهون »..

قوله تعالى :

* « أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون » . .

هو إضراب عن هذا الخطاب الذى وجه إليهم ، والذى كان من شأنه أن يُحدِث لهم ذكراً ، وأن ينقادوا للحق ، ويذعنوا له .. وأمّا ولم يكن لهم من هذ الحديث عبرة وعظة ، فقد كان من التدبير الحكيم أن يُطوى عنهم هذا الحديث ، وأن يواجهوا بهذا الواقع الذى هم فيه ، وهو أنهم قد أبرموا أمرهم وأحكموه على هذا الضلال ، والله سبحانه قد أحكم أمره ، على أن يأخذ المجرمين بجرمهم .. وفى هذا وعيد لهم بما سيلقون من عذاب أليم ، يوم لايغنى مولًى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون .

قوله تعالى :

* « أم يحسبون أنا لانسمع سرّهم ونجواهم ؟ بلى ورسلنا لديهم يكتبون » .

هو إضراب أيضاً عن الخطاب الذى وجه إليهم فى قوله تعالى : «أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون » .. حيث أن هذا الوعيد الذى يحمله الخطاب إليهم لم يلق منهم إلا استهزاء ، واستخفافاً ، لأنهم على ظنٍّ بأن لا بعث ، ولا حساب ، ولا جزاء .. وأنه إذا كان بعث وحساب وجزاء ـ فأين هى أعمالهم التى يحاسبون عليها ؟ ومن رآها منهم وأحصاها عليهم ؟ وإذا كان هناك من يرى أعمالهم الظاهرة التى يعملونها على مشهد من الناس ، فأين من يعلم مايعملونه فى الخفاء ، وما يضمرونه فى الصدور ؟ .

فجاء قوله تعالى : « أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم ؟ » ليكشف عن هذا الوسواس ، الذى توسوس به لهم ظنونهم الكاذبة، عن علم الله سبحانه وتعالى ، وليقرر لهم الحقيقةَ التى غابت عنهم ، وهى أن كل شىء عملوه فى السرّ أو فى الجهر ، يعلمه الله الذى لاتخفى عليه خافية .. بل وليس هذا فحسب ، بل إن أعمالهم كلها ــ سرها وجهرها ــ مسجلة فى كتب يكتبها رسل من عند الله موكّلون بهم .. « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » (١٨ : ق)

قوله تعالى :

* « قل إنْ كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » .

هو بيان للموقف الذى يتخذه النبي من دعوى المشركين بأن لله ولداً ، وهم الملائكة الذين نسبوهم إلى الله ، ثم عبدوهم من دونه ..

فلو أنه سُلِّم بهذا الأمر جدلا ، وكان للرحمن ولد كما يزعمون ـ فهذا لايجعل للولد مكاناً متقدماً على الوالد ، حتى يؤثر بالعبادة من دونه .. فالوالد مقدّم على الولد رتبةً وزماناً .. فهو بهذا معبود قبل أن يوجد الولد .. فإذا وُجد الولد بعد هذا ، فليس له أن يزيل الوالد عن مكانه ! وعلى هذا ، فإنه لوسُلِّم للمشركين بما يقولونه من أن لله ولداً ، فإن هذا لايعطيهم حجةً على عبادة الولد دون الوالد .. ولهذا كان أن واجههم النبي بما ينبغى أن يكون عليه الأمر — على فرض التسليم بدعواهم الباطلة — وهو أن النبىّ أول العابدين لله ، دون التفات إلى هذا الولد على فرض التسليم به .. !

وهذا الأسلوب فى محاجّة الخصم ، هو أبلغ الأساليب فى إفحامه ، وقَطْع حجته ، وذلك بإقامة الحجة عليه من واقع إقراره واعترافه ، عملاً بالمثل القائل : « مِن فِمك أُدينك » .

قوله تعالى :

* « سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون » .

هو تنزيه لله سبحانه وتعالى عن هـذا القول الذى يقوله المشركون بالله ، من نسبة الولد إليه ، والذى سلم به جدلا ، لإظهار فساد منطقهم حتى مع هذا المدعَى الباطل الذى يدّعونه على الله .. أما الله سبحانه وتعالى فهو منزه عن أن يكون له ولد .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قوله تعالى :

* « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون » ..

هو استصغار لأحلام هؤلاء المشركين ، وأنهم أشبه بالأطفال ، يخوضون ويلعبون ، فلا معتبر لما يقولون .. لأنهم يرمون بالكلام على عواهنه ، دون أن يكون لعقولهم نظر فيه ، أو تقدير له ، ولهذا فإن الأولى بالنبى — صلوات الله وسلامه عليه — أن ينصرف عنهم ، وأن يدعهم لما هم فيه من لهو ولعب ، حتى تقع بهم الواقعة ، ويأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ..

الآيات : (٨٤ — ٨٩)

* « وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم » .

هو بيان لقدرة الله ، وجلاله ، وعظمة ملكه ، واقتدار سلطانه ..

فهو سبحانه، المتفرد بالألوهة فى السماء.. لاشريك له فيها.. وبهذا يَدين له أهل السماء بالعبودية..

وهو سبحانه، المتفرد بالألوهة فى الأرض.. لاشريك له فيها.. وبهذا يدين له أهل الأرض بالولاء ويخصّونه بالعبادة.. وأنه إذا كان فى الناس مَن ضلّ وغوى، فانحرف عن هذا الوضع الذى يتخذه أهل السماء والأرض، فإنهم — مع هذا — مقهورون لله، واقعون تحت سلطانه.. طوعاً أو كرهاً، كما يقول سبحانه: «إنْ كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً» (٩٣: مريم) وكما يقول جل شأنه، «ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً» (١٥: الرعد).

وقوله تعالى: «وهو الحكيم العليم» — إشارة إلى الصفتين الكريمتين اللتين يتجلّى الله سبحانه وتعالى بهما على ملكه فى السموات والأرض.. وهما: الحكمة والعلم فكل ماخلق الله سبحانه، موزون بميزان الحكمة، مقدر بقدرها.. وكل مافى السموات والأرض، واقع فى علم الله «لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولافى الأرض» (٣: سبأ) وهكذا كل أمر — صغُر أو كبُر — إنما مِلاكه الحكمة والعلم.. فبالحكمة يقوم الأمر، وبالعلم تضبط مصادره وموارده،ولهذا كان مما طَلبَ به «يوسفُ» القيامَ على تدبير خزائن الأرض — أنه حفيظ عليم، فقال للملك: «اجعلنى على خزائن الأرض.. إنى حفيظ عليم» (٥٥: يوسف) والحفظ شعبة من شعب الحكمة!.

قوله تعالى:

* «وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه تُرجعون».

هو تسبيح بحمد الله وتقديس لجلاله، بلسان كل مخلوق فى السموات والأرض.. فهو سبحانه ـ المتفرد بالألوهة فى السماء، والأرض.. ومن ثَمّ كان كل من فى السموات والأرض لسانَ حمد لله، وتسبيح لله، وولاء لجلاله.

وفى قوله تعالى: «وعنده علم الساعة وإليه ترجعون» تذكير للناس ـ وهم يشهدون جلال الله، وعظمته فى هذا الملك العظيم الذى له وحده — تذكير لهم بيوم الحساب والجزاء، الذى لا يعلمه إلا هو.. وذلك يوم يُرجعون إلى الله، ويُجزَى كل امرىء بما عمل..

قوله تعالى:

* «ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون»

المراد بالمدعوّين من دون الله هنا، هم الملائكة، الذين يعبدهم المشركون فى هذه الأصنام التى سموها بأسماء أطلقوها على بعض الملائكة، مثل اللات، والعزى، ومناة، وغيرها، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمُّون الملائكة تسمية الأنثى» (٢٧: النجم)

وهؤلاء الملائكة الذين يعبدهم المشركون فى تلك الأصنام التى يتمثلونها فيهم ـ وبتلك الأسماء التى يسمونهم بها ـ هؤلاء الملائكة، لا يملكون الشفاعة لأحد، كما يتوهم هؤلاء المشركون إذ يقولون عنهم: «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» (٣: الزمر) ويقولون فيهم: «هؤلاء شفعاؤنا عند الله» (١٨: يونس).

وقوله تعالى: «إلا من شهد بالحق» هو استثناء من عموم النفى الواقع على شفاعة الملائكة.. أى أن الملائكة لا يشفعون إلا لمن شهد بالحق، فآمن بالله، وبرسل الله، وباليوم الآخر.. كما يقول الله تعالى: «لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون» (٧٨: الزخرف).. فهؤلاء الذين كرهوا

الحق وأنكروه ؛ ليس للملائكة شفاعة فيهم .. وهم أكثر المشركين .. أما من شهد بالحق من هؤلاء المشركين ـ وهم أقلية ـ وآمنوا بالله ، وأخلصوا دينهم لله له ، فإن للملائكة شفاعة فيهم ، تنال العاصين منهم .. وتلك الشفاعة ، هى الاستغفار لهم كما يقول الله تعالى : « ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » (٧ : غافر) . فهذا من شفاعة الملائكة للعصاة من المؤمنين .. وهى شفاعة مقبوله عند الله سبحانه وتعالى ..

وقوله تعالى : « وهم يعلمون »

يمكن أن يكون حالا من الاسم الموصول « الذين » أى أن الملائكة لا يملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق .. وهم يعلمون هذا .. أى يعلمون أنهم لا يملكون الشفاعة إلا لمن شهد بالحق .

ويمكن أن يكون حالا من الاسم الموصول « مَنْ شهد بالحق » أى لا تشفع الملائكة إلا لمن شهد بالحق ،أى شهادة قائمة على علم ، يملأ القلب إيمانا واطمئنانا ، لا مجرد شهادة ينطق بها اللسان دون أن تقع من القلب موقعاً ..

قوله تعالى :

* « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون » .

أى أن هؤلاء المشركين إذا سئلوا عمن خلقهم ، لما وجدوا بين أيديهم إلا جوابا واحداً ، وهو أن الله هو الذى خلقهم .. إنهم لا يستطيعون أن يقولوا إن الملائكة الذين يعبدونهم ، هم الذين خلقوهم ، وخلقوا من فى السموات والأرض .. بل إنهم ليعلمون أن الملائكة من خلق الله ، وإن كانوا أبناء الله عندهم .

ومع هذا الإقرار منهم بخلق الله لهم ، فإنهم لا يعبدون رب السموات والأرض ، الذى خلقهم ويعبدون خلقاً من خلقه .. وهذا منطق معكوس ، لا يلتقى أوله مع آخره .. ولهذا جاء قوله تعالى : « فأنى يؤفكون » منكراً على هؤلاء

المشركين هذا الإفك والافتراء الذى جعلوا منه ديناً يدينون به ، ولا مستندَ له من منطق ، حتى منطقهم هم الذى ينتزع قضاياه من الوهم والضلال ..

قوله تعالى :

* « وقيلِهِ يارب إن هؤلاء قوم لايؤمنون » .

القيل : معناه القول .. والضمير المضاف إليه هذا القول ، هو للنبى صلوات الله وسلامه عليه .. ومقول القول هو قوله تعالى : « يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون » .

وهو مثل قوله تعالى : « وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هـــذا القرآن مهجوراً » (٣٠ : الفرقان) وقد اختلف المفسرون اختلافاً كبيراً فى الربط بين هذه الآية وما قبلها .. كما اختلف القُرّاء فى قراءة « وقيله » فقرىء بفتح اللام ، وقرىء بكسرها ، وقرىء بضمها . . ولـكل قراءة تأويل تؤول عليه..

ولا نريد أن نعرض لهذه المقولات ، فهى مبسوطة فى كتب التفاسير ، يرجع إليها من شاء مزيداً من العلم ، أو الرياضة الذهنية ..

والذى نراه فى تأويل هذه الآية ، ونرجو أن يكون بتوفيق الله صواباً ، هو — والله أعلم — أن الواو فى قوله تعالى : « وقيله » .. هى بمعنى « مع » .. وعلى هذا تـكون الآية مرتبطة بقوله تعالى : « فأنى يؤفـكون ؟ » .. فهذا الاستفهام ينـكر عليهم أن يعبدوا غير الله ، وأن ينصرفوا إلى غير خالقهم وخالق السموات والأرض ، الذى شهدت له بذلك ألسنتهم .. ومع هذا فهم يعبدون غير الله ، بشهادة الواقع الذى هم فيه ، وبشهادة الرسـول الذى خَبرَ حالهم ، وعرف الداء المتمـكن منهم ، فقال شاكياً إلى ربه : «ياربِّ إنــ هؤلاء قوم لايؤمنون .. »

وتحرير المعنى ، هو : إلى أين ينصرف هؤلاء المشركون ، مع شركهم الذى هم فيه ، ومع مايرى الرسول من حالهم فى المستقبل ، وأنهم ممن لا يرجى صلاحهم ، أويتَوَقع شفاؤهم من هذا الداء الذى معهم ؟ .

ولهذا جاء قوله تعالى بعد ذلك :

● « فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون » .

— جاء رداً على قول النبى : « يارب إن هؤلاء قوم لايؤمنون » وداعياًله إلى الرفق بهم ،ومقابلة جهلهم بالحلم ، وسفاهتهم بالمغفرة والصفح .. وأنهم كلما قالوا فحشاً وهجراً قال لهم سلاماً ومغفرة ، كما يقول سبحانه فى وصف عباد الرحمن : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » (٦٣ : الفرقان) وكما يقول جل شأنه لنبيه الكريم: « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » (١٩٩ : الأعراف) .

وفى هذا مايشير إلى أن هؤلاء المشركين ينتظر منهم خير كثير ، وسيكون منهم بناة الإسلام ، ومادة دولته التى ستظهر عما قريب.. وقد كان، فدخل كثير من هؤلاء المشركين فى دين الله ، حتى أنه إذا جاء يوم الفتح لم يبق مشرك من قريش — خاصة — لم يدخل فى الإسلام .

وفى قوله تعالى : « فسوف يعلمون » أى أنهم هم الآن على جهل زيّن لهم هذا الباطل الذى هم فيه ، ويغذيهم بهذا السفه الذى ترمى به أفواههم .. ولكنهم مع الزمن ، ومع مايأخذهم به الرسول الكريم من حلم ، وصفح ومغفرة ، سيعلمون بعد جهل ، ويؤمنون بعد كفر .. ويصبحون جنداً من جنود الله ، ورايات من رايات الإسلام التى تخفق فى آفاق الأرض . . وليس هذا من الوعيد ، كما يذهب إلى ذلك جمهور المفسرين .. فإن السورة قد ختمت بهذا الختام الذى يدعو النبى إلى الصفح والمغفرة والمسالمة .. ولا يتفق مع هذا

أن يلقى النبىُّ المشركين بالصفح والمسالمة ، ثم يلقاهم الله سبحانه بعد ذلك بالوعيد ..

هذا ، والله أعلم .

* * *

ونود هنا ، بعد ختام هذه السورة أن نشير إلى أمر كان مُلفِتاً للنظر .. فقد كثُر فى هـذه السورة ذِكر الاسم الكريم « الرحمن » الذى تكرر فى سبعة مواضع من السورة هى :

* « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ... » الآية : (١٧)

* « وجعلوا الملائـكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ... » الآية : (١٩)

* « وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم ... » الآية: (٢٠)

* « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ... » الآية (٣٣)

* « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ... » الآية : (٣٦)

* « واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون .. » : (٤٥) .

* « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ... » الآية : (٨١)

ولذِكرِ « الرحمن » موقعه فى الآية التى ذكر فيها ، كما له حكمته التى تلتمس من هذا الذكر فى هذا الموضع .. فحيث ذُكر « الرحمن » جلّ وعلا ، كانت تجليات الرحمة ، ورحمات الرحمن ، مبسوطةً لكل طالب ، طالبة لكل

مُعرِض فمن فاته حظه من رحمة الله فى هذا المقام فهو الشقى المحروم من كل خير ..

ولـكن الذى نريد أن نقف بين يديه موقفَ النظر والاعتبار ، هو هذا الإكثار من ذكر هذا الاسم الـكريم فى تلك السورة ..

وبادىء ذى بدء ، فإن تـكرار هذا الذكر للاسم الـكريم « الرحمن » هو تأكيد لتلك الدعوة التى يدعو إليها الرحمن عبادَه ، ويبسط بهـــا يده تبارك وتعالى إليهم بالرحمة ، يلقاهم بها على كل طريق من طرق الغواية والضلال التى يركبونها .. فهذا الذكر نداءات متتابعة ، إلى موارد هذه الرحمة الواسعة.. وهذا التـكرار فى ذاته ، هو رحمة من رحمة الله ..

ثم إنه — من جهة أخرى — كانت السورة كلها معرضاً لمواجهة المشركين بعبادتهم للملائـكة ، على أنهم أبناء الله ، وأنهم كانوا يعرفون الله تعالى ، ويعترفون بأنه خالق السموات والأرض — كما أنه كان من أكثر أسماء الله عندهم هو اسم « الرحمن » ولهذا كان الحديث إليهم عن الله باسم (الرحمن) إشارة إلى أنه هو الإله لذى يُدْعون إلى عبادته ، وأن اسمه « الرحمن » ، وأنه ليس له ولد.. ولهذا أنـكروا أن يكون الرحمن الذى يعرفونه ، هو الرحمن الذى يدعوهم النبى إلى عبادته ، كما يقول الله سبحانه : « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ . أنسجدلما تأمرنا ؟ وزادهم نفوراً » (٦٠ : الفرقان) إن الرحمن فى تصورهم هو أب لقبيلة كبيرة ، هى الملائـكة !! .

ومن جهة ثالثة ، فإن موقف هذه السورة من المشركين ، هو موقف ملاطفة ، وموادعة ، على مسيرة لدعوة التى كثُرت فيها القوارع التى يقرع بها

القرآنُ عنادَ المشركين ، ويسفّه أحلامهم ، ويفضح جهلهم .. فكانت هذه السورة أشبهَ بالهدنة التى يراجع فيها المتحاربون موقفهم ، وقد ينتهى الأمر إلى الصلح ، والسلام .. ومن أجل هـذا كثر فى السورة ذِكر الرحمن الذى يذكّر بالرحمة التى ينبغى أن تكون بين النبى وأهله .. ولهذا دعى النبى إلى أن يصفح عنهم ، وأن يلقاهم بالموادعة والسلام ، وقد وُعد بأنهم سيَعْلَمون بعد الجهل ، ويؤمنون بعد الكفر ، فكان ختام السورة قوله تعالى : « فاصفح عنهم وقل سلام .. فسوف يعلمون » ..

* * *

٤٤ - سورة الدخان

نزولها : مكية .. باتفاق .

عدد آياتها : تسع وخمسون .. آية ..

عدد كلماتها : ثلاثمائة وست وأربعون.. كلمة .

عدد حروفها : ألف وأربعمائة وواحد وثلاثون .. حرفاً .

مناسبتها لما قبلها

خُتمت سورة «الزخرف» التى سبقت هذه السورة بقوله تعالى : «فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون» .. وقد قلنا إن هذا الختام يتّسق مع السورة التى كانت تمثّل مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية فى مواجهة المشركين ، وأن هذه المرحلة كانت أشبه بالمدنة بعد هذا الصراع الذى كان محتدماً بين النبى والمشركين ..

وقد بدئت سورة « الدخان » ، بذكر القرآن الكريم ، وأنه نزّل فى ليلة مباركة ، يفُرق فيها كل « أمر حكيم » وهذا البدء ، هو تحريك لمسيرة الدعوة ، بعد تلك المدنة ، ومن أول المسيرة يواجه المشركون بالقرآن الكريم ، وما يحمل إليهم من خير وبركة ، وأنه إذا كان قد أنذرهم وتوعدهم بالعذاب ، فإنما ذلك لأنه حريص على هدايتهم ، ضنين بهم على النار التى أُعدت للكافرين ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٦)

« حمٓ (١) وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ (٢) إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦) رَبِّ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨) بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين » . .

الليلة المباركة هى ليلة القدر ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « إنا أنزلناه

فى ليلة القدر » . . وليلة القدر ليلة من ليالى شهر رمضان الذى أُنزل فيه القرآن ، كما يقول الله سبحانه : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » (١٨٥ : البقرة) . .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنها ليلة النصف من شعبان . تلك الليلة التى اعتاد كثير من المسلمين الاحتفاء بها ، وتلاوة بعض الأدعية المرتبة لها ، باعتبارها الليلة التى يفرق فيهـا كل أمر حكيم ، وتقدر فيهـا الأرزاق والأعمار . .

وهـذا بعيد عن مفهوم الآيات الـكريمة التى تنطق صراحة بأن الليلة المباركة التى نزل فيها القرآن هى ليلة القدر ، وأن شهر رمضان هو الذى أنزل فيه القرآن ، وليس لشهر شعبان ولا ليلة النصف منـه أى إشارة فى القرآن الـكريم . .

وعلى هذا ، فإن ليلة النصف من شعبان ، ليست من الليالى الإسلامية ذات الشأن الخاص ، وإنما هى ليلة من ليالى الزمن ، غير موسومة بسمة خاصة ، تمتاز بها على غيرها من الليالى ..

أما ليلة القدر ، وهى الليلة التى أُنزل فيها القرآن ، فهى ليلة باركها الله سبحانه وتعالى ، واصطفاها من بين الليالى ، كما يصطفى من يشاء من عباده للنبوة .. فهى ليلة مباركة ، لأنها كانت ظرفاً حاوياً للرحمة المنزلة من السماء إلى الأرض ، وهى القرآن الـكريم . .

ومعنى : « أنزلناه فى ليلة القدر » أى ابتدأ نزولُه فى ليلة القدر ، وابتداء النزول مؤذن بنزوله كله تباعاً بعد ذلك . .

وقوله تعالى : « إنا كنا منذرين » ــ إشارة إلى أن إنذار النـاس ،

وتنبيههم من غفلتهم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب — هو مما اقتضته رحمة الله بعباده.. والمراد بالإنذار ما تحمله كلمات الله وآياته من تحذير من عذابه، وتخويف بعقابه، وذلك ليستقيم الناس على الطريق السوىّ، وليرجعوا إلى الله، بعد أن تقطعت بهم السبل إليه..

وفى الاقتصار على الإنذار، مع أن رسالات السماء تحمل بين يديها - مع النذر التى تحملها إلى المشركين، والمكذبين - بُشْرَيات برضوان الله، وجنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين - فى هذا إشارة إلى أن رسالات السماء إنما تجىء وقد ركب الناسُ رءوسهم، وتنكبوا عن طريق الحق، وجرفهم تيار الضلال إلى حيث يشرف بهم على الهلاك، فكان من شأن من يَخِفّ للنجدة، والإنقاذ، أن ينفخ نفخة النذير، وأن يصرخ فى هذا الموكب المتجه إلى حَافة الهلاك: أن قفوا، وإلا فهو الهلاك وسوء المصير.. فإذا كان من هؤلاء الضالين استماع لهذا النذير، واستجابة لدعوته - كان للحديث عن الحياة الجديدة التى يحياها الناس مع الإيمان بالله والاستقامة على طريق الحق، وما وراء هذه الحياة من نعيم مقيم فى جنات عرضها السموات والأرض، أعدت للمتقين - كان لهذا الحديث آذان تسمع، وقلوب تفقه، وصدور تنشرح، ونفوس تتهيأ للبذل والتضحية فى سبيل هذا المعتقد الذى اعتقدته، واطمأنت إليه..

هذا، ومن مبادىء الشريعة: أنّ دفع المضار مقدم على جلب المصالح.. وعلى هذا فالإنذار من الخطر هو المطلوب أولا.. ثم يكون الاتجاه بعد هذا إلى جلب المنافع..

قوله تعالى:

* «فيها يُفْرَق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين».

فَرْق الأمر : قطعه ، والفصل فيه .. ومنه الفاروق ، الذى يفْرِق بين الحق والباطل ..

والمعنى : أنه فى هذه الليلة المباركة يُقْضى ويُفصل كل أمر حكيم ، أى محكم ، لا يُنقض ، ولا يبدل ..

والمراد بالأمر الحكيم هنا ، هو القرآن الكريم ، الذى ابتدأ نزوله فى ليلة القدر ، وسُمّى حكيما ، لأنه قائم على الحكمة الإلهية ، مقدر بقدرها ، ولأنه كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. « لا تبديل لكلمات الله .. » (٦٤ : يونس) .

وما يضاف إلى هذه الليلة المباركة ، من البركة ، ومن القضاء بكل أمر حكيم فيها ، هو خاص بهذا الكوكب الأرضى ، وبالإنسان الذى يقوم على خلافة الله فيه ، حيث لكل عالم نظامه الزمنى ، وأوقاته المباركة ..

وقوله تعالى : « أمراً من عندنا » منصوب على الاختصاص ، أى أخص وأعنى بهذا الأمر الحكيم ـ أمراً صادراً من عندنا ، هو القرآن الكريم ..

وهنا سؤال ، وهو كيف خُصّ وصف الأمر بالحكمة هنا ، مع أن كل أمر يقضى به الله هو موصوف بالحكمة من غير وصف ؟

والجواب على هذا ـ والله أعلم ـ أن وصف الأمر بالحكمة ليس وصفاً مخصصاً له ، وإنما هو وصف مؤكد للوصف القائم فى ذات الأمر ومبين له ..

كما يقال فى وصف العسل مثلا بأنه حلو ، وفى وصف المسك بأنه طيّب الريح .ا..

وسؤال آخر . . وهو : كيف خصصت هذه الليلة بأنها يُفرق فيها كل أمر حكيم ؟ وهل يعنى هذا أنها الليلة التى يقضى فيها الله سبحانه وتعالى بما يقضى ، ثم لا يكون له سبحانه قضاء فى غيرها ؟ وكيف وهو سبحانه يقول : « كلَّ يوم هو فى شأن ؟ » (٢٩ : الرحمن) .

والجواب على هذا — والله أعلم — أن هذه الليلة ، كما قلنا ، خاصة بالعالم الأرضى ، وعلى هذا، فإن ما يُقضى به فى هذه الليلة من عند الله يكون خاصاً بهذا العالم، وبالمخلوقات ، والكائنات الموجودة فيه . . وهذا يعنى أن مقدرات ما يجرى على هذا العالم الأرضى فى مدة عام مقبل يفرق ، ويقضى به فى هذه الليلة إلى مثلها فى العام القادم . . وهذا الذى يُقضى وإن كان قد قُضى به أزلا ، فإن القضاء به فى تلك الليلة معناه نقله من اللوح المحفوظ إلى جند الله من الملائكة الموكلين بإنفاذ ما قضى الله به . .

وقد كان مما قضى الله سبحانه وتعالى فى تلك الليلة نزولُ القرآن ، وبعثة الرسول الكريم ، وذلك فى عام البعثة النبوية . . ولهذا جاء قوله تعالى بعد ذلك : « إنا كنا مُرسلين » ، مشيراً إلى أنه مما قضى الله به فى عباده أن يبعث فى هؤلاء الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . . وذلك ليقيم الحجة على عباده ، وليأخذهم بذنوبهم إذا هم عصوْا رسله وردوا الهدى الذى يحملونه من الله إليهم . . كما يقول سبحانه : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (١٥ : الإسراء)

وقوله تعالى :

* « رحمةً من ربك إنه هو السميع العليم » . . تعليل لبيان الحكمة التى من أجلها يُرسل الله سبحانه وتعالى الرسل إلى عباده . . فهو سبحانه إنما يرسلهم رحمةً منه ، وفضلا وإحسانا . . وإلا فإن مع كل إنسان رسولاً يدعوه إليه

الإيمان بالله ، وهو عقله ، الذى لو أحسن النظرَ به ، ووجهه نحو الاتجاه الصحيح لعرف ربه ، وآمن به . . ولـكن من رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده ولطفه بهم ، أنه لم يدعهم لعقولهم التى قد تضل وتزيغ ، فبعث إلى هذه العقول رسولا من عنده ، ينبه الغافل منهـا ، ويوقظ النـائم ، ويهدى الضال الحائر . . « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (١٦٥ : النساء)

وفى وصف الله سبحانه وتعالى بأنه : « السميع العليم » ـ إشارة إلى إن هاتين الصفتين اللتين لله سبحانه ، قد جَعَل منهما للإنسان ما يقابلهما ، رحمةً منه وفضلا وإحسانا . .

فالإنسان من شأنه أن يسمع ، وأن يكون سميعاً ، ومن شأنه أن يعلم وأن يكون عليما . . وبهذا يرتفع إلى هذا المستوى الـكريم ، الذى أقامه الله سبحانه وتعالى فيه ، خليفةً له على الأرض . .

وإن خير ما يسمعه الإنسان ، من كلام ، وخير ما يتعلم من علم ، هو العلم المودع فى كتاب الله . . فمن كانت له أذنان فليسمـع ، ومن كان له قلب فليعقل ! .

قوله تعالى :

* « ربِّ السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * لا إله إلا هو يحيى ويميت ربـكم ورب آبائـكم الأولين » .

هو بدل من قوله تعالى : « من ربك » . . أى إنا أرسلناك رحمة من ربك ، رب السموات والأرض وما بينهما . .

وفى قوله تعالى : « إن كنتم موقنين » ـ استدعاء لهؤلاء المشركين

الذين سئلوا من قبل فى آخر السورة السابقة : « الزخرف » : « مَن خلقهم » فقالوا : « الله » . (الآية ٨٧) ـ دعوة لهم أن يصححوا قولهم هذا الذى أنطقهم الواقع به ، من غير أن يكون له رصيد من وعى ، وإدراك ، ونظر فى ملكوت السموات والأرض . . ولهذا ، فإن هذا القول لم يقع من أنفسهم موقع اليقين ، أى المستيقن ، المحقق ، الذى تدعمه الأدلة والبراهين . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟ » (٢٠ ـ ٢١ : الذاريات) .

فالآية الكريمة دعوة إلى العلم الذى يقوم على النظر المتأمل ، والعقل المتيقظ ، والإدراك الفاقه . . فهذا العلم هو الذى يقيم فى كيان الإنسان يقيناً بما علم ، وعن هذا اليقين تتحرك نوازع الإنسان ، وتتجه إرادته ، وتمضى عزيمته ، وفى صحبته شعلة من هذا العلم ، تضىء له الطريق ، وتكشف له معالم الحق والخير . .

وقوله تعالى : « لا إله إلا هو يحيى ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين » ـ هو منطق المستيقن ، الذى عَلِم عن يقين ، أن الله رب السموات والأرض وما بينهما . . فمن علم هذا واستيقنه ، أسلمه هذا العلم إلى أن يعلم ويستيقن أن رب السموات والأرض وما بينهما ، ينبغى أن يكون الإله المتفرد بالألوهة : « لا إله إلا هو » وأنه سبحانه هو الذى يحيى ويميت ، وأنه سبحانه رب الناس جميعاً . . السابقين والحاضرين واللاحقين . .

قوله تعالى :

* « بل هم فى شك يلعبون » . .

هو إضراب عن الحديث إلى هؤلاء المشركين ، الذين دُعوا ليسمعوا

كلام الله ، وليكونوا من السامعين ـ فلم يسمعوا ، ولم يعقلوا .. فكان أن صرف الله سبحانه ، النبيّ عنهم ، لأنهم ليسوا أهلا لأن يقوم فيهم هذا المقام .. فهم فى شك يفسد عليهم كل أمر يتصل بالرسول ، وما يتلوه عليهم .. وهم لهذا لا يستمعون إليه إلا استماع الأطفال الذى يشغلهم اللعب عن كل حديث فيه جِدّ . .

قوله تعالى :

« فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون * أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون * إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون ، يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » . .

اختلف المفسرون فى هذا العذاب الذى يغشى الناس . . وأكثر المفسرين على أنه كان ضربا من العذاب أخذ الله به المشركين ، استجابةً لدعوة يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بها على مضر ، فقال : « اللهم اشدُد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنين يوسف[1] » وقد اشتد القحط وعم الجدب ، حتى أكلوا الجيف والعِلْهِز[2] . قالوا وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان ، وكان يحدّث الرجل صاحبه ولا يراه لكثرة الدخان . . ثم إنهم جاءوا إلى الرسول مستشفعين ، فشفع لهم ، وكشف الله الضر عنهم . . فما زادهم ذلك إلا طغيانا وكفراً . .

(١) يستشهد النحاة بهذا الحديث على أن جمع سنين ـ مفرد سنة ـ يعامل معاملة المفرد وأن نونه أصلية تظهر عليها حركات الإعراب ، ولا تحذف عند الإضافة .

(٢) العلهز : هو الصوف أو الوبر يغمس فى الدم .

وقيل ـ وهو رأى قِلّة من المفسرين ـ إن هذا الدخان الذى يغشى الناس هو ما يطلع على الناس يوم القيامة من أهوالها ومرجفاتها . .

والرأى الأول هو الذى نقول به ، وذلك لأمرين :

أولهما : ما جاء بعد ذلك من قوله تعالى : « إنا كاشفو العذابِ قليلا إنكم عائدون . . »

وعذاب الآخرة لا يكشف عن أهل النار ليختبر بهذا الكشف ما عندهم من وفاء أو نكث بما عاهدوا الله عليه ، إن كشف الضر عنهم . . فالآخرة دار جزاء ، وليست دار ابتلاء واختبار . . وهذا يعنى أن الكشف المراد هنا ، هو كشف عذاب وقع بالقوم فى الحياة الدنيا . .

وثانيهما : ما جاء بعد ذلك أيضاً فى قوله تعالى : « يوم نبطش البطشة الكبرى . . إنا منتقمون » . . فهو وعيد من الله سبحانه وتعالى لهؤلاء المشركين الذين نقضوا ما عاهدوا الله عليه ، بأن يُؤمنوا إذا كشف الضرّ عنهم . . فلما كُشفَ عنهم الضرّ عادوا إلى ما نُهوا عنه .

وهذا يعنى أن الفعل الذى وقع الوعيد عليه كان فى الدنيا ، لأنه لا وعيد على ما يقع من الناس فى الآخرة . .

وقد يسأل سائل فيقول : كيف يقع عذاب على هؤلاء المشركين ، وقد وعد الله سبحانه وتعالى النبى الكريم ألا يعذّب قومه وهو فيهم ، كما يقول الله تعالى . « وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون » (٣٣ : الأنفال) فكيف هذا ؟ .

والجواب ـ والله أعلم ـ أن هذا العذابَ الذى لقيه المشركون من قحط أو قتل ، ليس هو العذاب الذى كان يؤخذ به أقوام الرسل من قبل ، والذى

كان بلاء شاملا يستأصل القوم ، ويأتى على كل شىء ، فلا تبقى منهم باقية . . كما حلّ بقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وأصحاب مدين ، وقوم لوط . . وإنما هذا العذاب الذى نزل بالمشركين ، لم يكن إلا وجهاً من وجوه الحياة التى كانوا يتقلبون فيها . . فإذا نزل بهم قحط ، فقد عرفوا هذا القحط من قبل وذاقوا العذاب منه . . وإن أصيبوا فى أنفسهم فى معركة ، من المعارك كيوم بدر ؛ فما أكثر المعارك التى أريقت فيها دماؤهم وأزهقت أرواحهم . . ولكن الذى يجعل لهذا العذاب الذى ينزل بالمشركين طعماً جديداً ، هو أنه يأتى على يد النبىّ ، بدعائه عليهم،وذلك فيما أصابهم من قحط ،أو على يد أصحابه يوم بدر . . فهذا هو الذى يجعل لهذا العذاب حساباً خاصاً عندهم ، وأثراً مضاعفاً فى نفوسهم . هذا ما يشير إليه القرآن الكريم ؛ فى قوله تعالى : « قل هل تربّصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون » (٥٢ : التوبة) . . فالنبىّ والمسلمون معه، إنما يتربص بهم ، وينتظر أن يحلّ بهم عذاب من عند الله ، وهو هذا القحط الذى حلّ بهم ، أو أن يحلّ بهم عذاب بأيدى المؤمنين ، وهو ما أصابهم على أيدى المسلمين من خزى وهوان فى ميادين القتال ، حتى لقد انتهى الأمر بدخول المسلمين عليهم ، مكة ، واستسلامهم للنبىّ ، وإسلامهم لله رب العالمين . .

ومن جهة أخرى ، فإن هؤلاء المشركين قد دخلوا جميعاً فى الإسلام ، ولم يمت منهم على الكفر إلا أعداد قليلة بالنسبة لمجموعهم ، سواء من مات منهم فى ميدان القتال بأيدى المسلمين ، أو من مات حتف أنفه . . وهذا من شأنه ألاّ يوقع حكماً عاماً على هؤلاء المشركين بالعذاب الأليم يوم القيامة ، وذلك لأنهم سيصبحون عما قليل فى عداد المؤمنين بالله . . وعلى هذا فإن

ما يتهددهم به القرآن من عذاب ، هو العذاب الدنيوى ، الذى يرونه رأى العين ، والذى يكون فيه عبرة وعظة ، تفتح لهم الطريق إلى الإيمان بالله ، كما يقول الله سبحانه عن غزوة بدر : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مِثْلَيْهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء . . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » (١٣ : آل عمران) .

وقوله تعالى : « أنّى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلّم مجنون » . . هو استبعاد لأن يقع فى نفوس المشركين شىء من العبرة والتذكر من هذا الابتلاء الذى ابتلوا به من القحط ، الذى كان آيةً على صدق النبىّ ، وعلى صلته بربّه ، إذ كان هذا القحط دعوةً مستجابة له من الله ، كما كان رفع هذا البلاء عنهم استجابةً أخرى للنبىّ من الله سبحانه وتعالى . . فهو معجزة من معجزات النبىّ ، المادية ، بعد أن ملأ النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الدنيا عليهم ، بالمعجزة الكبرى، التى تطلع عليهم من آيات الله وكلماته . . فماذا تفعل هذه الآية فى نفوس تحدّتْ الرسول وما بين يديه من كتاب مبين ، تنطق آياته وكلماته بالمعجزات التى لا تنتهى ؟ لقد تولوا عنه ، وأعرضوا عن الاستماع إليه ، والنظر فيما بين يديه ، واتهموه بالكذب والافتراء والجنون ، وقالوا « معلم » أى علمه غيره ، و« مجنون » يهذى بهذا الذى اختطفه من علم العلماء ! !

وفى وصف الرسول الكريم بأنه « مبين » ، إشارة إلى القرآن الكريم الذى بين يديه ، والذى فيه البيان المبين إلى الهدى ودين الحق ، وأنه بهذا القرآن يقدم الحجة الدامغة ، والسلطان المبين ، كما يقول سبحانه : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل إليهم » (٤٤ : النحل) .

وقوله تعالى : « إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون » . . هو حكم

كاشف عن حال هؤلاء المشركين مع تلك التجربة ، وأنهم سينكثون هذا العهد الذى عاهدوا الله عليه ، لو أنه كشف عنهم العذاب . .

وفى قوله تعالى : « إنكم عائدون » . . هو إشارة إلى أنهم كانوا أثناء تلك المحنة قد اتجهوا إلى الله ، وأخذوا طريقهم إلى الإيمان به ، فلما كشف الضرّ عنهم عادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ، وانسحبوا من هذا الطريق الذى وضعوا أقدامهم عليه . . وهكذا شأن أهل الضلال ، إذا مسّهم الضر دعوا الله مخلصين له الدين ، فإذا كشف الضرّ عنهم تولّوا عنه معرضين . . وفى هذا يقول الله تعالى : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق » (٢٢ ـ ٢٣ : يونس) .

وقوله تعالى : « يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » أى إننا منتقمون منكم أيها الضالون الناكثون العهد ، وذلك يوم نبطش بكم البطشة الكبرى ، وهذه البطشة الكبرى هى يوم بدر ، حيث قتل من رءوس المشركين وسادتهم سبعون قتيلا ، وأسر منهم سبعون مقاتلا . . !

الآيات : (١٧ — ٣٣)

* « وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ

أن ترجمون (٢٠) وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون (٢١) فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون (٢٢) فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون (٢٣) واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون (٢٤) كم تركوا من جنات وعيون (٢٥) وزروع ومقام كريم (٢٦) ونعمة كانوا فيها فاكهين (٢٧) كذلك وأورثناها قوما آخرين (٢٨) فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين (٢٩) ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين (٣٠) من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين (٣١) ولقد اخترناهم على علم على العالمين (٣٢) وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين (٣٣) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم »

قلنا فى أكثر من موضع ، إن القرآن الكريم يجمع فى كثير من المواقف ، بين مشركى قريش ، وبين فرعون وآله ، وذلك لما بين الفريقين من تشابه كبير فى الكبر ، والاستعلاء والعناد ، مع الجهل الذى يدفع بهذه القوى الغاشمة الجامحة ، إلى حيث يلقون مصارعهم على يديها . .

وإنه كما فتن قوم فرعون بأنفسهم ، وبما زين لهم الجهل والغرور ، فرأى فرعون فى نفسه أنه إله ، ورأى الملأ من حوله أنهم أشباه آلهة ـ كذلك فتن المشركون من قريش بأنفسهم ، ورأوا أنهم أكبر من أن يتلقوا شيئا من إنسان، ولو كان هذا الإنسان مرسلا من رب العالمين . .

وفى قوله تعالى : «وجاءهم رسول كريم» إشارة إلى موسى ـ عليه السلام ـ وأنه الرسول الكريم الذى جاء إلى فرعون وملائه . .

وفى وصف موسى بالكرم، لما فى يديه من معجزات كثيرة ، عاد على الناس خيرُها ، فعاشوا فى ظلها كما يعيش الناس فى ظل جناب كريم مِعطاء . . فقد كان بين يدى موسى من المعجزات : العصا ، التى أخرج بها بنى إسرائيل من العذاب المهين ، والتى فجر بها الماء من الحجَر . . كما كان من معجزاته المنّ والسلوى ، الذى كان طعامَ بنى إسرائيل إلى أن عافُوه ، وزهدت فيه نفوسهم الخبيثة . .

وقد كان يمكن أن يكون لفرعون نصيب عظيم من هذا الخير الذى بين يدى موسى ، لو أنه صدّقه ، وآمن بالله . .

قوله تعالى :

* «أن أدّوا إلىّ عبادَ الله إنى لكم رسول أمين»

هو بيان لمضمون الرسالة التى حملها هذا الرسول الكريم إلى قوم فرعون ، وهو أن يؤدّوا إليه عبادَ الله ، أى يطلقوهم ، ويرسلوهم معه إلى حيث يخرجهم من هذا البلاء الذى هم فيه . .

وفى التعبير عن بنى إسرائيل بقوله تعالى : «عباد الله» ـ إشارة إلى أنهم ليسوا عبيداً لفرعون ، ولا لقوم فرعون ، وإنما هم عبيد لله . . وهذا رسول الله يطلبهم ليُنقلوا من هذه العبودية للناس ، إلى العبودية لله

وفى التعبير عن إرسال بنى إسرائيل مع موسى بقوله تعالى : «أدوا إلىّ عباد الله» ـ إشارة إلى أنهم أمانة لله فى يد القوم، وأن عليهم أن يؤدوا هذه الأمانة عند طلبها . . وهذا يعنى أن الضعيف أمانة فى يد القوى ، وأن عليه أن يرعاه

ويحفظه ، وألاّ يضيّع إنسانيّته بالقهر والبغى ، فيتحول فى يده إلى إنسان قدفقد وجوده . . إنسان قد مُسخت إنسانيته فاستخذَى وذلّ . . وهذا هو الضياع ، الذى هو الموت بالحياة !

وفى وصف موسى بالأمانة فى قوله تعالى : « إنى لكم رسول أمين » ـ إشارة أخرى إلى أنه سيحفظ أمانة الله فى عباده ، إذا صاروا إلى يده ، وألا يضيّعهم كما ضيعهم فرعون ، بل إنه سيصلح ما أفسد فرعون منهم ، ويَطِبّ لِما رماهم به من داء اغتال كل معانى الإنسانية فيهم . .

قوله تعالى :

* « وألا تعلوا على إنى آتيكم بسلطان مبين »

هو من مضامين هذه الرسالة ، ومن مقول القول الذى واجه به موسى القوم . . وهو أنه قد جاءهم بسلطان مبين ، أى سلطان ظاهر ، يعلو كل سلطان.. ومن كان هذا شأنه فلا يصحّ أن يلقاه القوم متعالين . . فإنه ـ وهو أعلى منهم سلطاناً وأقوى قوة ـ قد جاءهم طالباً راجياً ، ولم يأتهم آمراً مستعلياً . .

وفى التعبير عن السلطان الذى يَلْقَى به القوم ـ فى التعبير عن هذا بفعل المستقبل « آتيكم » ـ إشارة إلى أن هذا السلطان الذى معه لم يره القوم بعد ، وأنهم إذا شاءوا أن يروه أراهم إياه . .

وفى هذا يقول الله تعالى ، فيما كان بين فرعون وموسى: « قال أو لوجئتك بشىء مبين ؟ قال فأت به إن كنت من الصادقين ! * فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين » (٣٠ ـ ٣٣ : الشعراء)

فالسلطان المبين الذى جاء به موسى ، هو عصاه ، ويده ، ولم يكن فرعون

ومَن معه يرون فى العصا واليد سلطاناً .. فلما سألوا موسى أن يريهم هذا السلطان ـ ألقى عصاه ، ونزع يده . . فكانتا آيتين من آيات الله ! !

قوله تعالى :

* « وإنى عُذت بربى وربكم أن تَرْجمون * وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون »

هو أيضاً من مقول القول من موسى إلى فرعون وملائه . يقول لهم .. إنى مستعيذ بالله ، ومستجير بربى وربكم أن تأخذكم العزة بالإثم ، فتمتد أيديكم إلىّ بالأذى ، أو أن تتطاول علىّ ألسنتكم بالفحش من القول ، فترجمونى بقوارص الكَلِم ، وبذيئه . .

فالمراد بالرجم هنا ، القذف بالكلمات البذيئة ، من غير حساب . .

وفى قوله : « وربكم » مع أنهم لا يعترفون بربّ موسى ربًّا لهم ـ إلزام لهم بالاعتراف برب موسى ، وإن لم يقبلوه ربًّا لهم . فذلك هو الحق الذى يقال ، سواء قبله القوم أم رفضوه . .

وقوله تعالى : « وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون » أى وإن لم تصدقونى ، وتسلّموا بما جئتكم به ، ودعوتكم إليه ، فليكن الأمر بينى وبينكم على ما كان عليه من قبل ، وهو أن تكفّوا عنى ، وتدعونى وشأنى ، بعد أن بلغتكم رسالة ربى ..

قوله تعالى :

* « فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون * فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون * واترك البحرَ رهواً إنهم جند مغرقون » .

أى دعا موسى ربه : أن هؤلاء قوم مجرمون ، وأنهم قد استحقّوا بإجرامهم أن يلقوْا جزاء المجرمين .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى على لسان موسى فى موضع آخر : « وقال موسى ربّنا إنك آتيت فرعون وملأهُ زينة وأموالاً فى الحياة الدنيا ربنا ليُضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدُد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم * قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعآنّ سبيل الذين لا يعلمون » (٨٨ - ٨٩ يونس) ..

وقوله تعالى : « فأسر بعبادى ليلا إنكم متّبعون » - هو جواب لنداء موسى ربّه ، ودعائه إياه أن يأخذ هؤلاء المجرمين بجرمهم . . ولم يصرح القرآن الكريم بالجزاء الذى طلب موسى من ربه أن يجزى به القوم المجرمين ، وإنما اقتصر على عرض القوم وهو فى تلبسهم بالكفر الذى هو الجريمة التى يدانون بها . . وفى هذا ما يشير إلى أن عقابهم على هذا الجرم أمر مفروغ منه ، وأنه لا يحتاج إلى طلب ، إذ كانت تلك الجريمة الشنيعة تنادى بالويل والهلاك لمن ألمّ بها ..

ولهذا جاء قوله تعالى : « فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون » معطوفاً بالفاء التى تدل على الترتيب والتعقيب — على قوله تعالى : « فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون » - وذلك مما يشعر بأن الدعاء واستجابة الدعاء ، أمر واحد .. بمعنى أن الجريمة وعقابها مترابطان متلازمان . . فحيث كانت هذه الجريمة ، كان العقاب مصاحباً وملازماً لها . .

وفى قوله تعالى : « فأسر بعبادى ليلا » بذكر الليل مع أنّ السُّرى ، لا يكون إلا ليلا — فى هذا ما يشير إلى ما ينبغى أن يكون عليه موسى وقومُه ، من الحذر ، وهم يأخذون طريقهم ليلا ، فارّين هرباً من وجه فرعون ..

فقد يكون السير ليلاً ؛ فاضحاً لأهله، إذا هم أحدثوا جلبة وضوضاء . .

وأصل السُّرى من السرّ ، وسمى السير بالليل سُرًى لأن الليل يكتم تحرك الأشياء ، ويسترها عن الأعين . .

وقوله تعالى : « إنكم متبعون » بيان للحكمة من السير ليلا ، إذ أن هناك من يتربص بالقوم ، ويتتبع آثارهم وأخبارهم . .

قوله تعالى : « واترك البحر رَهْواً إنهم جند مغرقون » . .

الرهو : المستوى ، المتسع ، من كل شىء .

وهذا أمر لموسى من ربه ، أن يترك البحر قائما فيه الطريقُ الذى أحدثه بعصاه . . لأنه سيطبق وشيكا على فرعون وجنوده ، بعد أن يجاوزه موسى وقومه . .

وسمى فرعون وقومه هنا جنداً ، لأنهم كانوا فى معركة مع موسى ، وقد انتهت هذه المعركة ، وكانوا من المغرقين . .

والآيات هنا تختصر الأحداث ، وتطويها طيًّا ، لأن تفصيل هذه الأحداث ، قد جاء به القرآن فى مواضع أخرى ، فكانت الإشارة إليها هنا مغنية عن الشرح والتفصيل .

قوله تعالى :

* « كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونَعمة كانوا فيها فاكهين * » .

هذا بيان لما خلّف هؤلاء الهالكون غرَقاً ، فقد خلّفوا وراءهم جنات مثمرة ، وعيوناً جارية ، وزروعاً مونقة ، وحياة طيبة ، ومعيشة راضية . . وهو

شيء كثير أفاضه الله على القوم من فضله ، فما زادهم ذلك إلا طغياناً وكفراً .. وهاهم أولاء قد خلّفوه وراءهم ، يعيش فيه غيرهم ، وينعم به سواهم .. فما أغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله من شيء ..!

قوله تعالى :

* « كذلك .. وأورثناها قوماً آخرين » .

أى بمثل هذا الإحسان العظيم إليهم ، كان عقابنا الشديد لهم ، فنزعنا هذه النعم من أيديهم ، وأورثناها قوماً آخرين من بعدهم ، وهم أبناؤهم الذين صارت إليهم هذه الأرض ، وما خلّف المغرَقون فيها من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ..

وسُمّى الأبناء الوارثون لهؤلاء المغرَقين ـ سُمّوا قوماً آخرين ، لأن آباءهم كانوا على حال من الضلال ، بحيث لا يكاد يجمعهم بأبنائهم أى وجه من وجوه الشبه .. فمهما ورث أبناؤهم من بعدهم من الكفر والضلال ، فإن المسافة بينهم وبين أبنائهم ستظل دائماً بعيدة ، لأن آباءهم قد بلغوا فى هذا الضلال غايةً لا يبلغها أحد ..

هذا ويذهب كثير من المفسرين إلى أن القوم الآخرين ، هم بنو إسرائيل .. وهذا غير معقول ، لأن بنى إسرائيل قد خرجوا من هذه الأرض ، فِراراً من العذاب ، الذى سُلّط عليهم فيها ، وقد تحدث القرآن عن تِيهِهِم فى الصحراء أربعين سنة ، ثم عن حياتهم فى أرض كنعان ، بعد موت موسى ..

ثم إن المراد بالميراث هنا ليس هو الوارث ، ولهذا جاء مجهَّلاً بقوله تعالى « قوماً آخرين » ..

وإنما المراد ، هو الإخبار عن هلاك فرعون ، وإخلاء يده مما كان يعتز به من مُلك وسلطان ، كما يقول الله سبحانه على لسانه : « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ؟ » (٥١ : الزخرف) فلقد ذهب كل ذلك ، ولم يغن عنه شيئاً ، بل وصار ميراثاً لغيره . .

قوله تعالى :

* « فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا مُنظَرين » .

أى لقد أهلكهم الله ، وأخذهم بعذابه ، فلم يأسَ عليهم أحد ، ولم تَبكِهم عين ، ولم يحزن من أجلهم قلب .. بل ذهبوا كما يذهب الوباء ، يتنفس بعده الناس أنفاس العافية والرجاء . .

فليس لهؤلاء الهلكى أولياء فى السماء ، ولا فى الأرض . . فهم أعداء الله ، وأعداء ملائكته ، وأعداء رسله ، وأعداء الإنسانية كلها . .

راحوا فما بكت الدنيا لمصرعهم ولا تعطّلت الأعياد والجمعُ

وقوله تعالى : « وما كانوا منظَرين » ـ أى لم يكونوا ممن يُمهلون بالجزاء إلى يوم القيامة ، بل كان عذابهم معجّلا فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم . .

وهذا يعنى أمرين :

أولهما : أنّ جُرم هؤلاء المجرمين قد بلغ من الشناعة حدًّا بحيث لا يسعه عذاب الآخرة ، فكان عذابهم فى الدنيا ، وفى الآخرة جميعاً . .

وثانيهما : أن هؤلاء المشركين من قريش ، لن يعجّل لهم العذاب ، كما عُجّل

لقوم فرعون ، بل إنهم مُنْظَرون إلى يوم القيامة . . وفى هذا رحمة من الله بهم ، وإكرام لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ربه فى قومه . فإن هذا الانتظار بهم ، سيفسح لهم مجالا لإصلاح ما فسد منهم ، واللحاق بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الإيمان .. وقد كان .. فدخل هؤلاء المشركون فى دين الله ، وكانوا جنداً من جنود الله ، للجهاد فى سبيل الله ، وإعلاء راية دين الله . .

قوله تعالى :

« ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين »

فى هذا بيان لما كان لله سبحانه وتعالى من فضل وإحسان ، فى نجاة بنى إسرائيل ، أجداد هؤلاء اليهود الذين يقفون من دين الله موقف المتربص به ، والمتحفز للانقضاض عليه . . فقد نجّى الله سبحانه وتعالى آباءهم الأولين من العذاب المهين الذى أخذهم به فرعون . . فليذكرْ اليهود نعمة الله عليهم ، وليكونوا أولياء لأوليائه . . وإلا فالويل لمن يحادّ الله ، ورسل الله !

قوله تعالى :

« ولقد اخترناهم على علم على العالمين * وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين »

أى ومن نعم الله وإحسانه على بنى إسرائيل أنه سبحانه قد اختارهم على أهل زمانهم ، ليكونوا موضع امتحان وابتلاء ، فجعل فيهم الأنبياء الذين جاءوهم بالآيات البينات من عند الله . .

وفى هذه البينات ابتلاء لهم أى ابتلاء . . فقد تتابعت آلاء الله عليهم ،

وكثُرت نعمه فيهم .. وإنه على قدر الإحسان يكون الحساب . . وقد خرج بنو إسرائيل من هذا الامتحان بأخسر صفقة ، إذ كشف ذلك منهم عن نفوس خبيثة ، وقلوب مريضة ، وطبائع شرسة ـ فكان أن أخذهم الله بالبأساء والضراء ، وأنزل بهم الضربات القاصمة ، فكانوا عبرة وعظة لمن يكفر بنعم الله ، ويستنبت من إحسانه وفضله أنياباً ومخالب يَنهش بها عبادَ الله . . فلقد لعنهم الله وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت .. وفى هذا يقول الله تعالى : « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه » (١٣ : المائدة) . .

ويقول جـل شأنه : « لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بمـــا عصوْا وكانوا يعتدون » (٧٨ : المائدة) . .

ويقول سبحانه فيهم : « وإذ تأذّن ربك ليبعثَنّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب .. إن ربك لسريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم » (١٦٧ : الأعراف) ..

وفى قوله تعالى « على علم » إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى ، إنما كان اختياره لبنى إسرائيل ، واختصاصهم بكثرة الأنبياء الذين أرسلوا فيهم ، والآيات التى جاءوهم بها ، وتظاهر النعم عليهم ـ إنما كان ذلك على علم منه سبحانه وتعالى بما سيكون من هؤلاء المناكيد ، من كفرٍ بهذه الآيات ، وتكذيب لرسل الله ، وإعنات لهم ، كما يقول سبحانه وتعالى فيهم : « أفكلّما جاءكم رسول بمالا تهوى أنفسُكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » (٨٧ : البقرة) . .

ففى قوله تعالى : « على علم » ردٌّ على من لا يعرف قَدْر الله سبحانه وتعالى ، ولا يعبو لجلاله وعظمته ، فيسوء ظنّه بالله ، حين يرى آثامَ بنى إسرائيل ، وشناعاتهم ، ومفاسدهم فى الأرض ، ثم يرى كثرةَ الرسل الذين بعثهم الله فيهم، وكثرةَ الآيات التى جاءوهم بها ، مما لم يكن لأمة من الأمم ، أو شعب من الشعوب . .

فكان قوله تعالى : « على علم » ردًّا على من يظن هذا الظن فى الله ، ويرى ـ عن جهل ـ أن اختيار الله سبحانه لهؤلاء القوم ، واختصاصهم بالرسل والشرائع والمعجزات ، لم يكن واقعاً موقعَه الصحيح ، إذ لم يثمر إلا هذا الثمر النكد الخبيث ! ! وكلا .. ثم كلا .. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .. فقد كان اختيار هؤلاء القوم لرسالات السماء ابتلاء لهم وامتحاناً ، وتجربة للإنسانية ، تُعمل فيها السماء أسلحتها فى النفس البشرية ، لتخرج منها ما كَمَن فيها من آفات وعلل .. وقد تخيرت السماء لهذه التجربة أخبثَ ما فى الإنسانية من نفوس ، وأرذَلها من جماعة ، فبعثت بالأطباء والأساة يحملون الدواء لكل داء .. فلم تتقبل نفوسهم الخبيثة أى دواء ، ولم تستجب له .. فعاشت بدائها .. وماتت به ! . .

الآيات : (٣٤ — ٤٨)

« إِنَّ هَٰؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَٰهُمَآ

إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إنّ هؤلاء ليقولون * إن هى إلا موتتُنا الأولى وما نحن بمنشرين » .

الإشارة هنا « هؤلاء » إلى مشركى قريش ، الذين استمعوا إلى هذا الحديث من أمر فرعون وموسى ، وما كان من استكبار فرعون وعتوّه ، وما أخذه الله به من عذاب ونكال .. ثم ما كان من إحسان الله سبحانه إلى بنى إسرائيل وفضله عليهم ، ثم مكرهم بآيات الله ، وتكذيبهم لرسله .. فكان أن لعنهم الله ، ومزّق شملهم ، وفرق جماعتهم . . وقطّعهم فى الأرض أمما . .

وهؤلاء المشركون .. ماذا هم فاعلون مع رسول الله ، وما يحمل إليهم من آيات ربه ؟ فهذا سؤال يسأله الذين استمعوا إلى هذا الحديث الذى

تحدث به القرآن عن فرعون وموسى ، وعن بنى إسرائيل وآيات الله إليهم .. فكان الجواب :

« إن هؤلاء ليقولون * إنْ هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين » — هذا هو الداء المتمكن من القوم ، وهو إنكارهم للبعث ، وللحساب والجزاء ، وذلك لاستبعادهم أن تعود الحياة مرة أخرى إلى الموتى ، بعد أن يصيروا عظاماً ورفاتاً .. إنهم على يقين من أنهم لم يُبعثوا ، وإنهم ليقولون لمن يحدثهم عن البعث : « إنْ هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشَرين » .. أى ما هى إلا موتة واحدة ، لا حياةَ بعدها .. وهم بهذا يردّون على تصور خاطىء للبعث — ففى تصورهم هذا ، أن البعث يَعْقُبه موت .. لأنه حياة بعد موت ، وهذه الحياة — فى تصورهم — سيعقبها موت . . ثم حياة . . ثم موت ، وهكذا . . ولهذا جزموا بأنه لا موت بعد أن يموتوا ، بمعنى أنه لا بعث ، ولا موت بعد البعث . . إن كان هناك بعث !!

وفى التعبير عن الحياة بعد الموت بالنشر ، تشبيه للموت بأنه طىٌّ لحياة الإنسان ، كما تُطوى الصحف على ما ضُمّت عليه من كلمات . . فإذا أُريد النظر فى هذه الكلمات مرة أخرى ، نُشرت هذه الصحف ، بعد طيّها . .

فالموت ليس إلا طيًّا لصفحة الحياة ، مع بقاء الحياة كامنة فى هذه الصحف المطوية ، ونشر الصحف بعد طيّها أمر هين ، لا يحتاج إلى عناء ومعالجة ، كما أنه لا يدعو إلى استبعاده وإنكاره !! .

قوله تعالى:

* « فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » .

هو من تحدّيات المشركين المنكرين للبعث ، لمن يحدثونهم عن البعث ، ويدعونهم إلى الإيمان .. إنهم يؤكدون أنه لا موت إلا الموتة الأولى ، التي تُنهى حياتهم تلك ، ثم لا حياة ولا موت بعد هذا .. ثم إن لهم على هذا شهوداً من الواقع .. فهؤلاء آباؤهم الذين أودعوهم القبور ، لم يَعُدْ أحد منهم . فإن كان الذين يقولون بالبعث على يقين من هذا القول ، فليأتوا على هذا ببرهان ، وذلك بأن يجيئوا لهم بآبائهم هؤلاء الذين ذهبوا .. فإذا لم يرجع هؤلاء الذين ذهبوا ، فكيف يرجعون هم إذا ذهبوا ؟ ذلك منطقهم الذى جعل البعث عندهم أبعدَ من أن يُتَصوّر ..

إنهم كانوا يؤمنون بأن لهذا الوجود ربًّا قائماً عليه ، هو الذى خلقه ، وهو الذى يدبر أمره ، وإن كان هذا الإيمان قد اختلط بشوائب كثيرة أو قليلة من الأهواء الفاسدة ..

ولكن الشيء الذى لا يتصورونه ، ولا يصدقون به ، هو البعث .. وهو الداء الذى أفسد عليهم إيمانهم بالله ، وأقامهم فى هذه الدنيا مقاماً قَلِقاً مضطرباً ، يتهددهم فيه الفناء الأبدى المطلّ عليهم من كل وجه ..

وهذا قسّ ، بن ساعدة الإيادى ، من حكماء العرب ، وخطبائهم المعدودين . وقد نسب إليه أنه كثيراً ما كان يخطب فى الناس فيقول :

« إن فى السماء لَخبرًا ، وإن فى الأرض لَعبراً . سماء ذات أبراج ، وأرض ذاتِ فجاج ، . البعرة تدلّ على البعير ، والأثَر يدلّ على المسير ... »

ومن هذه العبارات وأمثالها يقيم قسّ الأدلة والبراهين على وجود إله قائم على هذا الكون .. فإذا جاء إلى الموت لم ير فيه إلا حكما واقعاً على الأحياء ، وأنه سَفَر بلا عودة ، وذَهاب ولا إياب . . وينسب إليه أنه كان يقول :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

لما رأيتُ موارداً للموت ليس لها مصادر

ورأيتُ قومي نحوها يمضي الأكابر والأصاغر

أيقنت أني لا محا لة حيث صار القوم صائر

لا يَرْجع الماضون لا ولا يبقى من الباقين ناظر

فهو — كما ينطق هذا الشعر — لا يرى عودةً للموتى ، وإن كان يرى أن لا بقاء لحيّ في هذه الحياة . !

قوله تعالى :

* «أهم خير أم قوم تُبَّع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين » .

هو تهديد لهؤلاء المشركين المكذبين برسول الله ، وبما يتلو عليهم من آيات الله ، . وأنهم ليسوا أحسنَ حالا من قوم تبع الذين أهلكهم الله وبدد شملهم ، فلم يغن عنهم ما كانوا فيه من عزة وقوة ومَنَعة ..

وقوم تبع ، هم الذين كانوا يسكنون اليمن ، قبل أن يشملها الخراب والدمار ، بانهيار سدّ مأرِب .. وتبع هو الجدّ الأعلى لقومه..

وقد ذكر القرآن الكريم فى موضع آخر ما أخذ الله به هؤلاء القوم - قوم تبع، من نكال وبلاء، بعد أن كفروا بنعمة الله، وبطِروا معيشتَهم . . وفى هذا يقول الله تعالى : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشِمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العَرِم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أُكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل * ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازِى إلا الكفور » : (١٥ - ١٧ : سبأ) .

وليس قوم تبع إلا جماعة من تلك الجماعات الكثيرة التى أهلكها الله سبحانه وتعالى ، وأخذها بعذابه الأليم فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . .

فمن قبل قوم تُبع،أهلك الله قومَ نوح ، وأهلك عاداً ، وثمود ، وأصحابَ مدين وقوم لوط . . وهؤلاء ممن ذكر القرآن أخبارهم . . وهناك كثيرون من الأفراد والجماعات لم يُذكروا . . إذ ليس المقصود من الذكر إلا العبرة والعظة . وفى هذا القليل الذى ذُكِر ، عبرة وعظة لأولى الألباب . .

قوله تعالى :

* « وما خلقنا السموات والأرضَ وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلا بالحق ولكنّ أكثرهم لا يعلمون » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة ، ذكرت إنكار المشركين البعث ، وما لهم على هذا الإنكار من حجج باطلة . . وقد تهددهم الله سبحانه وتعالى وتوعّدهم بالهلاك فى الدنيا ، كما أهلك الظالمين المكذبين قبلهم . . وهذه الآية ، والآية التى بعدها ، هى تعقيب على ما هُدِّد له به المكذبين من

بلاء . . وذلك أن الله سبحانه أقام هذا الوجود على الحق ، كما خلقه بالحق الذي ينتظم كل ذرة فى هذا الوجود . . ولهذا فقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يجعل سلطان الحق قائماً على هذا الوجود ، وأن يقطع دابر الباطل إذا هو طاف بحمَى الحق ، واعترض سبيله . . وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم فى أكثر من موضع ، فيقول الله سبحانه وتعالى : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » (١٨ : الأنبياء) ويقول سبحانه : « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » (٧ — ٨ : الأنفال)

وإذن ، فهذه الضربات التى تنزل بأهل الباطل ، فى هذه الدنيا ، هى وقاية للحق من أن يغتاله الباطل . . فإذا كانت الآخرة ، كان القضاء المبرم على الباطل وأهله جميعاً . . وفى هذا اليوم ينطق الوجود كله بحمد الله ، أن قُضِيَ على الباطل والشر والضلال ، وكل ما من شأنه أن يخرج على طريق الحق . . « وقُضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » (٧٥ : الزمر)

قوله تعالى :

* « إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين * يوم لا يغنى مولىً عن مولىً شيئاً ولاهم يُنصرون * إلا من رحِمَ الله إنه هو العزيز الرحيم » .

الميقات : اسم زمان ، والمراد به وقت الموعد الذى يكون فيه الحساب والجزاء . . وهو يوم القيامة .

فى هذا اليوم ـ يوم القيامة ـ يُصفّى حساب الناس جميعاً . . فيجمع أهل الباطل على مختلف صُوَرهم ، ويُلقى بهم فى جهنم ليكونوا حطباً لها . . وبهذا يتخلص الحق من كل ما علق به من شوائب . . وفى هذا اليوم يتعرّى أهل

الضلال من كل سلطان يدفع عنهم هذا المصير ، الذى هم صائرون إليه .. إنه لا ناصر لهم من دون الله ، يخلصهم من هذا العذاب الأليم ..

وقوله تعالى : « إلا من رحم الله » هو استثناء من الضمير فى قوله تعالى : « ولا هم يُنصرون » .. أى لا ناصر لأحد فى هذا اليوم ، ولا مخلّص له من عذابه ؛ إلا من رحمه الله من عباده ، فهداه إلى الإيمان ، ووفقه لطاعته .. فكل من زُحزح عن النار وأدخل الجنة ، فذلك برحمة من الله وفضل وإحسان .. وفى هذا يقول النبى الكريم : « لا يدخل أحد الجنة بعمله » (قيل ولا أنت يارسول الله) قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته »

وقوله تعالى : « إنه هو العزيز الرحيم » .. فهاتان الصفتان من صفات الله ، التى يتجلى بها الله سبحانه وتعالى على أهل المحشر يوم القيامة .. فبعزته ـ سبحانه ـ يملك أمر هذا اليوم ، ويقضى فيه بما شاء فى الظالمين ، وأهل البغى والعدوان ، فلا يكون لهم مع سلطان الله سبحانه سلطان ، ولا مع عزته عزة .. وبرحمته ـ سبحانه ـ يُدخل من يشاء من عباده الجنة ، ويُضفى عليهم ما يشاء من فضله وإحسانه .. كما يقول سبحانه : « يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليما » (٣١ : الإنسان) ..

قوله تعالى :

* « إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلى فى البطون * كغلى الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم » ..

تُحدّث هذه الآيات عن صورة من صور العذاب الذى أُعد للظالمين ، يوم

القيامة .. وقد جاءت هذه الصورة من العذاب ، مفردة ، حيث تحصر فى إطارها إنسانا ظالما ، باغيا ، من هؤلاء الظلمة الباغين .. فيبدو فى هذه الصورة وكأن العذاب الجهنمى قد احتواه وحده ، . وفى شخصه هذا يرى كل ظالم أثيم أنه هذا الإنسان الشقى المنكود ، يتقلب وحده فى هذا العذاب الذى تقشعر من هوله الجبال ! .

وشجرة الزقوم ، كما وصفها القرآن الكريم هى شجرة : « تخرج فى أصل الجحيم * طلعها كأنه رءوس الشياطين » . . وإن شجرةً تغتذى من جهنم ، وتمتد أصولها وفروعها بين جمرها ولهيبها ، لهى شجرة أقوى من جهنم ، وأعتى من النار .. فكيف بثمرها هذا الذى تختصر وجودَها كله فيه ؟ إن هذا الثمر هو طعام الأثيم !! . وإنه كالمهل ، أى خُثارة الزيت بعد غليانه ..

وقوله تعالى : « خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم » — هو تنكيل بهذا الأثيم ، ومضاعفة لما يلقى من ذلة وهوانٍ فى هذا اليوم ، حيث يُساق إلى جهنم بين زبانيتها سوقا عنيفا ، ثم يُعْتَل عَتْلا ، ثم لا يُلقى به حيث يقع ، بل يُدفع به دفعا حتى يبلغ سواء الجحيم ، أى وسطها ، ومركز دائرتها . . وبهذا يتلقى من العذاب أقساه وأشده . .

وقوله تعالى : « ثم صُبّوا فوق رأسه من عذاب الحميم » — هو عذاب إلى هذا العذاب ، الذى يأكل هذا الأثيم أكلا ، ثم يلفظه ، ثم يأكله .. وهكذا .. وما يصبُّ فوق رأسه ليس ماء ، وإنما هو عذاب .. ولكنه من حميم ، أى من ذَوْب جهنم ، ونضيج عرقها !!..

والحميم : الماء الحار الذى يغلى . . ومنه الحمّى ، لاشتداد حرارة المريض بها . .

وقوله تعالى : « ذُقْ إنك أنت العزيز الكريم » — هو مما يُساق إلى هذا الأثيم ، من ألوان العذاب .. فهو إذ يُشوى بنار جهنم ، يُصَبّ فوق رأسه ما ينضح عليه من لهيبها من عرق ، ليتبرّد به . ثم يُلقى فى أذنه بهذه التحايا التى كان يتلقاها فى دنياه من ندمائه وأتباعه . . وإنها لتحايا تملأ قلبه حسرة وكمداً .. « ذق » ! وأى شىء يذوق ؟ مُهْلاً يغلى فى بطنه ، وحميا يُصَبّ فوق رأسه ، وناراً تُقَطّع له منها أثواب فوق أثواب ! .

هذا هو نعيمه الذى ينعم به ، وتلك هى التحايا التى يُحَيّا بها ، والكؤوس التى يتناولها من يد السقاة والندمان !! وإنه مع هذا هو العزيز الكريم .. يَحْضُره فى هذا البلاء المشتمل عليه ـ ما كان له فى دنياه من عزة ومنعة فى قومه ، وما كان له من كرامة فيهم ، وإكرام منهم . . فهذان شاهدان من أهله ـ عزته وكرامته ـ يشهدان هوانَه ، وذِلته . . وإنه ليس أشد إيلاماً للنفس ، ولا إزعاجاً للفؤاد ، من أن يُفتضح المرء فى أهله ، وأن يُعرّى على أعينهم ، مع ما كان له فيهم من عزة وكرامة ..

قوله تعالى :

* « إنّ هذا ما كنتم به تمترون » .

عاد الخطاب إلى الجماعة ، بعد أن شهدوا أنفسهم فرداً فرداً ، فى شخص هذا العتلّ الأثيم ، الذى تجرع كئوس العذاب والهوان ألواناً مترعة .. فهذا العذاب ، هو الذى كان يمترى فيه ، أى يجادل فيه هؤلاء الضالون ، الذين كانوا يجادلون من يحدثهم عن اليوم الآخر ، ويحذرهم من لقاء ربهم فيه ، على ماهم عليه من شرك وضلال ..

الآيات : (٥١ — ٥٩)

* « إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إن المتقين فى مقام أمين * فى جنات وعيون » .

هذه الآيات والتى بعدها ، تعرض الصورة المقابلة لأهل الضلال والمنكر ، وما يلقون فى جهنم من عذاب وهوان .. وفى المقابلة بين الصورتين تتضح المعالم فى كلٍّ منهما ، ويرى كلٌّ فى الصورة المقابلة ، ما يضاعف ما هو فيه من بلاء أو نعيم . .

فأهل النار ، إذ يرون أصحاب الجنة ، وما هم فيه من نعيم ورضوان ، يزداد بلاؤهم وتتضاعف محنتهم ، ويشتد عذابهم وحسرتهم .. وأصحاب « الجنة » إذ يرون أهلَ النار ، وما هم فيه من محن وشدائد ، يَعظُم نعيمهم ، ويتضاعف رضوانهم ، فلا يجدون غير أن يسبّحوا بحمد ربهم أن عافاهم من هذا البلاء .. « وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحَزَنَ . . إن ربنا لغفور شكور * الذى أحلنا دار المُقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب » (٣٤ ـ ٣٥ : فاطر) .

ولهذا كان أصحاب الجنة وأصحاب النار ، على مشهد من بعضهم ، حيث يرى

بعضهم بعضاً ، ويتحدث بعضهم إلى بعض ، دون أن يصل إلى أصحاب الجنة شيء من عذاب أهل النار ، ودون أن يصل شيء من نعيم الجنة وريحها إلى أهل النار .. « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله .. قالوا إن الله حرمهما على الكافرين » (٥٠ : الأعراف) .

قوله تعالى :

* « يلبسون من سندس وإستبرق .. متقابلين » .

وحيث يلبس أهل النار من النار أثوابا ، يلبس أصحاب الجنة حللا من سندس وإستبرق .

والسندس .. الرقيق من الديباج وهو ما كان سَدَاه ولَحمته من الحرير . . والإستبرق : الغليظ من الحرير . .

وإذ يتدابر أهل النار ، فلا ينظر بعضهم إلى بعض ، لِما وقع بينهم من عداوة ، ولما يشهدون من العذاب الذى يعذب به المعذبون ـ فإن أصحاب الجنة ، يواجه بعضهم بعضاً ، ويأنس بعضهم بالنظر إلى بعض ، وبما يصافح أنظارهم من آيات الرضا والبهجة ، التى تملأ الصدور ، وتفيض على الوجوه . . « على الأرائك ينظرون * تعرف فى وجوههم نَضْرَةَ النعيم » (٢٣ ـ ٢٤ : المطففين)

قوله تعالى :

* « كذلك . . وزوجناهم بحور عِين » .

أى كذلك شأنهم الذى هم فيه . . وأكثر من هذا ، فقد زوجهم الله سبحانه وتعالى ، بحور عين من حور الجنة ، وعرائسها . .

والحور : جمع حوْراء .. وهى التى فى عينها حَوَر ، وهو شدة سواد العين مع شدة بياضها ، وهذا من مفاتن المرأة ، يقول جرير :

إن العيون التى فى طرفها حَوَرٌ قتلننا ثم لا يحيين قتلانا

والعِين : جمع عيناء ، وهى الواحدة من بقر الوحش ، وذلك لسعة عينيها وجمالها ، وبها تشبه المرأة الحسناء ، ذات العيون الفاتنة .

قوله تعالى :

* « يَدْعون فيها بكل فاكهة . . آمنين » .

أى يُرزقون فيها من كل فاكهة يطلبونها ، مما تشتهيه أنفسهم . .

وقد عبر عن الطلب بالدعاء ، لأنه التماس ورجاء من رب كريم . . وعُدّى الفعل بالباء مع أنه يتعدى بنفسه ، لتضمنه معنى الهتاف بالفاكهة . . فما هى إلا أن يَهتف بها أحدهم حتى تكون حاضرة بين يديه ، من غير أن يحملها إليه أحد ، أو يمد إليها هو يده .. بل يجدها بين يديه ، وهو آمن ، ساكن ، لا يلتفت ، ولا يتحرك .

قوله تعالى :

* « لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم » .

هو تعليل لقوله تعالى : « آمنين » . . أى أنهم فى أمان من أن يُزعجهم عن هذا النعيم الذى هم فيه ، أىُّ خاطر يخطر لهم ، من انقطاع هذا النعيم بالموت ، أو بالتحول عنه إلى غيره .. فهم فى أمان من الموت .. « لا يذوقون فيها الموت » أبداً ، فإنها حياة خالدة ، ونعيم خالد .. فلا يتحولون أبداً عن هذا النعيم إلى ما يقابله من عذاب الجحيم الذى يصلاه أهل النار ، فقد وقاهم الله هذا العذاب وأنقذهم منه ، فلا يتعرضون له أبداً . .

وفى قوله تعالى : « إلا الموتة الأولى » إشارة إلى قول المكذبين باليوم

الآخر : « إن هى إلا موتَتنا الأولى وما نحن بمنشرين » . . أى أن أهل الجنة قد ذاقوا هذه الموتة الأولى ، التى كانوا على إيمان بالحياة والبعث بعدها ، فكان هذا الإيمان سبباً فى خلاصهم من عذاب النار ، كما كان سبباً فى هذا النعيم الذى هم فيه . . ومَذَاق هذه الموتة عندهم ، غير مذاقها عند من يكذبون بالبعث . . حيث يجد المؤمنون بالبعث ، أن هذا الموت سبيل إلى الحياة الآخرة ، وإلى لقاء الله ، وإلى ما أعد الله للمؤمنين المحسنين من جزاء كريم ، على حين يجد المكذبون باليوم الآخر ، أن الموت هو حكم عليهم بالفناء الأبدى ، الذى يتحولون بعده إلى تراب فى هذا التراب . . إنه الضياع الأبدى لهم ، والفراق الذى لا لقاء بعده للأهل والولد ! فهم يعذبون بالموت فى الدنيا ، كما يقول الله سبحانه وتعالى : « وتَزْهق أنفسُهم وهم كافرون » (٥٥ : التوبة) وهم كذلك يعذبون بهذا الموت فى الآخرة ، إذ كان هو الذى انتقل بهم إلى هذا العذاب الجهنمى الذى يتجرعون كئوسه ألوانا . .

فهذا الموت ، الذى ذاقه المؤمنون فى الدنيا ، هو سبب مسراتهم التى يُسَرّون بها فى الجنة ، إذ يذكرونه ــ وهم فى الجنة ــ فيذكرون أنه هو الذى أوصلهم إلى هذا النعيم ، فلولا الموت لما كان البعث . .

قوله تعالى :

* « فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم » .

هو تعليل لقوله تعالى : « لا يذوقون فيها الموتَ إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم » أى أن ما قضى الله سبحانه وتعالى به فى أهل الجنة ، من أنهم

لا يذوقون الموت ، ولا يتحولون عن هذا النعيم الذى هم فيه ، إنما كان ذلك فضلا من فضل الله ، وإحسانا من إحسانه ، ورحمة من رحمته ، إلى عباده المؤمنين .. وحسبهم بهذا فوزاً .. فذلك هو الفوز العظيم ، الذى لا يُعْدِلُه فوز ..

قوله تعالى :

* « فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » ..

الضمير فى « يسرناه » يُراد به القرآن الكريم .. والمراد بتيسيره .. بلسان النبى ، تمكين العرب من الالتقاء بهذا القرآن ، والأخذ عنه ، وتلقّى الهدى منه ، لأنه بلسانهم ، الذى هو لسان النبى المبعوث فيهم ..

وفى قوله تعالى : « لعلهم يتذكرون » .. تذكير لهؤلاء المشركين بنعمة الله عليهم ، إذ أنزل عليهم كتاباً من عنده ، باللسان الذى يتكلمون به .. ولو جاءهم بغير هذا اللسان ، لما كان لهم سبيل إلى الاتصال به ، والحياة فى رياضه النضرة ، والاقتطاف من ثماره الطيبة المباركة ..

فهذه نعمة جليلة من نعم الله على الأمة العربية ، وإنه لجدير بها أن تلتقى بهذه النعمة ، وأن تأخذ حظها منها .. فهو كتاب الله إليهم ، ورحمته فيهم ..

وقد ذُكر القرآن بضميره ، دون أن يكون لهذا الضمير مرجع ، لأن القرآن أشهر من أن يُذكر ، إذ هو حجة قائمة على المؤمنين ، وغير المؤمنين جميعاً ..

قوله تعالى :

* « فارتقب إنهم مرتقبون » .

العطف بالفاء هنا يشير إلى أن الأمر بين النبي ، وقومه ، لم ينته إلى نهايته بعد ، وأنهم مازالوا فى هذا الامتحان مع القرآن الكريم ، فلينتظر النبي ما يكون منهم ، وليصبر على أذاهم ، ولا ييأس من استجابتهم له ، وذلك لأنهم « مرتقبون » لم يقطعوا برأى بعد فيما يدعوهم إليه ، وإن كانوا مقيمين على كِبر وعناد .. وهكذا كان شأن قريش مع النبي » .

إنهم لا يكذبون النبي ، ولا يشكّون فى أنه رسول الله ، ولكنّ كبرهم وعنادهم هو الذى كان يقطع عليهم الطريق إليه .. وإنهم لينتظرون ما تأتى به الأيام . . ولن تأتى الأيام إلا بما يسوء المعاندين والمكابرين منهم . . . ويخيب ظنونهم ، حيث يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون . . إنهم سيُبعثون ، وقد كانوا لا يتوقعون بعثاً ، وإنهم ليحاسبون ، وقد كانوا لا يرجون حساباً ، وإنهم ليعذبون فى النار ، وقد كانوا فى تكذيب بهذا العذاب ، وفى شك منه ..

وإذا كان القوم لم يرتقبوا شيئاً من هذا كله ، فإنهم مكرهون على هذا الارتقاب ، إذ لا مفرّ لهم منه . .

ولقد أدّى بهم ارتقابهم فى الدنيا إلى أن رأوا كلمة الله تعلو ، وشهدوا جند الحقّ ينتصرون ، وإذا ظِل الشرك يُنسخ شيئاً فشيئاً حتى تدول دولته ، ويجىء فتح الله والنصر ، ويدخل الناس فى دين الله أفواجاً . . وهنا يرى النبىّ قومه وقد استجابوا لدعوته ، وأصبحوا جميعاً جنداً من جنود الحق الذى يدعو إليه .. فكان ذلك يوم النصر والفتح ، الذى تحقق فيه للنبي ما وعده به ربّه يومَ اصطفاه لحمل الرسالة ، فقال سبحانه : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » .

* * *

٤٥ - سورة الجاثية

نزولها : مكية .. بإجماع .

عدد آياتها : سبع وثلاثون .. آية ..

عدد كلماتها : أربعمائة وثمانون آية ..

عدد حروفها : ألفان ومائة وتسعون حرفاً ..

مناسبتها لما قبلها

ختمت سورة الدخان بقوله تعالى : « فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون * فارتقب إنهم مرتقبون » .. وقد قلنا إن هذا الختام هو دعوة إلى النبي أن ينتظر ما ستأتي به الأيام من قومه ، ولن ييأس منهم .. كما أن هذا الختام هو دعوة للمشركين أن يأخذوا حظّهم من هذه الرحمة المنزلة عليهم من السماء ، والتي يسر الله سبحانه وتعالى مواردهم إليها ، فجعل القرآن بلسان عربي مبين ، ولو كان بغير اللسان العربي ، لما كان لهم سبيل إليه ..

وهنا تبدأ « سورة الجاثية » بالحديث عن هذا القرآن ، وأنه كتاب مُنزّل من الله العزيز الحكيم .. ثم تعرض الآيات بعد هذا بعضَ ما اشتمل عليه هذا القرآن من هدًى ، ونور .. فكان هذا البدء متلاقياً مع ختام السورة قبلها ، معانقاً له .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٥)

* « حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَٱخْتِلَافِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » .

مضى تفسير « حمٓ » فى مطلع أكثر من سورة من الحواميم . . وقد جاء بدء سورة غافر ، هكذا :

« حمٓ . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » .

والاختلاف بين مطلع السورتين ، فى وصف الله سبحانه وتعالى هنا بالحكمة بعد العزة ، على حين جاء الوصف فى سورة غافر ، بالعلم بعد العزة . .

وهذا الاختلاف يقتضيه المقام هنا وهناك . . ففى سورة غافر ، كان العلم مطلوباً للكشف عما يدور فى نفوس المشركين من هواجس ، وما يبيّتون من مكر . .

وهنا الحكمة مطلوبة ، حيث تَعرض الآيات القرآنية مشاهدَ من هذا الوجود فى أرضه وسمائه ، .. وكل مشهد منها تتجلّى فيه الحكمة الإلٰهية التى أبدعت هذا الوجود وأقامته على أكمل نظام وأروعه ..

قوله تعالى :

* « إن فى السمٰوات والأرض لآياتٍ للمؤمنين » ..

هو عرض عام للوجود كله ، فى السموات والأرض . . فنى كل نظرة ينظر بها المؤمن فى هذا الوجود ، يرى آياتٍ دالةً على قدرة الله ، وعلمه ، وحكمته . .

فالكون كله ـ فى نظر المؤمن بالله ـ هو كتاب مفتوح ، يقرأ فى صفحاته آيات تحدث عن جلال الله ، وعظمته ، وكماله ..

وفى كل شىء له آية تدلّ على أنه الواحد

أما غير المؤمن فلا يرى فيما يرى من هذا الوجود ، إلا أشباحاً تتحرك ، وكائنات تظهر وتختفى .. وقد ينبهر بما يرى ، ويُفتَن بما يملأ عينيه من جمال ، ولكنه يظل حيث هو فى تعامله مع كائنات الوجود وعوالمه ، دون أن يصله شىء من هذا بخالق الكون ومبدعه !

قوله تعالى :

* « وفى خلقكم وما يبثُّ من دابةٍ آيات لقومٍ يوقنون » .

وهذه نظرة فى أفق محدود من آفاق الوجود .. إنها نظرة ينظر بها الإنسان إلى نفسه .. وكيف خلق ؟ ومن أين جاء ؟ ثم نظرة أخرى يتجاوز بها حدود نفسه ، إلى عوالم الأحياء التى تدب على الأرض وتعيش فيها . فهى عوالم كثيرة ،

مختلفة الأشكال والصور ، بعضها يعيش على اليابسة ، وبعضها يعيش فى الماء ، وبعضها يَسْبح فى الجو . . وفى كل عالم منها أجناس كثيرة لا تـكاد تقع تحت حصر . .

ففى هذه النظرة القائمة على حدود الإنسان وما يحيط به من كائنات حية ، يرى المؤمن ما يملأ قلبه يقينا بالله سبحانه وتعالى من حكمة ، وعلم ، وقدرة ، حيث تصنع القدرة الإلهية من تراب هذه الأرض ، تلك الكائنات المنتشرة فى كل أفق من آفاقها ، والتى تملأ وجه الأرض حياة ، وحركة ، وجمالا . .

قوله تعالى :

* « واختلافِ الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آياتٌ لقوم يعقلون » .

وهذه نظرة أخرى فيما وراء الحياة وصورها المختلفة ، فى الإنسان والحيوان .. نظرة فى هذه الحركة الدائمة بين الليل والنهار ، حيثِ يخلف أحدهما الآخر ، كما يقول الله تعالى : « وهو الذى جعل الليل والنهار خِلفة لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكوراً » (٦٢ : الفرقان) .

وعلى امتداد هذه النظرة فى الليل والنهار ، حيث تَلْبس الأرض ثوبا من ضياء بالنهار ، ثم تخلعه لترتدى ثوبا أسود بالليل ـ على امتداد هذه النظرة ، تُرى السماء وقد نزل منها الغيث الذى ينزع عن الأرض ثوب الموت ، ويُلبسها ثوب الحياة ، كما تُرى الرياح التى تدفع السحب ، وتسوقها إلى كل اتجاه .

فهذه النظرة تحوى فى أعماقها نظرات معطية لكثير من الدلائل والآيات الدالة على قدرة الله .. وإنها لن تتجلى إلا لأولى العقول السليمة ، والمدركات

القوية النافذة .. الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ثم ينتهى بهم التفكير إلى الإيمان بالله ، والإقرار بوحدانيته ، وتفرده بالخلق والأمر ..

الآيات : (٦ — ١١)

* « تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « تلك آياتُ الله نتلوها عليكَ بالحقّ فبأيِّ حديثٍ بعدَ اللهِ وآياته يؤمنون » .

آيات الله، هى تلك الآيات التى ذكرت من أول السورة .. وليست آيات الله محصورةً فى هذه الآيات ، وإنما عبّر عن هذه الآيات بما يفيد حصر آيات الله كلّها على هذا النمط العالى من الكمال والجلال ، والإعجاز .. فكل آية من كتاب الله ، تمثل آيات الله كلّها فى إحكامها وإعجازها .

وقوله تعالى : « نتلوها عليك بالحقّ » جملة حالية من قوله تعالى : « آيات الله » أى هذه آيات الله متلوّةً عليك بالحقّ الذى تحمله فى كيانها .

وفى إسناد تلاوة آيات الله على النبي ، إلى الله سبحانه وتعالى ، مع أن الذى يتلوها عليه هو جبريل - فى هذا تشريف للنبيّ ، واحتفاء به ، وتكريم له . . وحسبه - صلوات الله وسلامه عليه - من الشرف والرفعة ، أن ينكشف الحجاب بينه وبين ربّه جلّ وعلا وأن يُخلِىَ جبريل مكانه بين الله سبحانه ، وبين عبده محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فلا يسمع الرسول إلا كلمات ربّه ، من ربّه وإن كان جبريل هو الذى يحملها إليه .

وقوله تعالى : « فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون » استفهام إنكارى تقريعىّ ، يسفّه موقف المشركين من آيات الله ، واتهامهم لها ، وشكّهم فيها وتوقفهم عن الإيمان بها . فأى حديث بعد حديث الله ، وأى آيات بعدَ آيات الله ، ينتظر القوم أن يأتيهم ببيان أجلى من هذا البيان ، وحجة أبلغ وأصدق من هذه الحجة ، ليؤمنوا به ، ويطمئنوا إليه ؟ .

إن الله سبحانه وتعالى هو الذى يتحدث بآياته تلك التى يتلوها الرسول عليهم . . فالله سبحانه وتعالى يتلوها على الرسول ، والرسول يتلوها عليهم ، ويبلغهم إياها . . ولو أنهم أحسنوا الاستماع ، وفتحوا لما يسمعون آذانهم وقلوبهم ، لسمعوا الحقّ جلّ وعلا ، يتلو عليهم هذه الآيات التى يتلوها الرسول عليهم ، ولارتفع الحجاب بينهم وبين ربّهم . . فإن كلمات الله تأخذ طريقها مباشرة إلى القلوب المهيأة لها ، المستعدّة لاستقبالها .

قوله تعالى :

« ويلٌ لكلِّ أفاك أثيم * يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

هو تهديد ووعيد بالويل والبلاء ، لمن يسمع آيات الله تتُلى عليه ، ثم يلقاها ضائقاً بها ، متكرِّهاً لها ، مستعلياً ومستكبراً ، على الإقبال عليها ، والنظر فى وجهها ، فلا يأبَه لما يُتلى عليه منها ، بل يمضى كأن لم يسمع شيئاً ، كأن فى أذنيه صمماً . .

والأفاك : صيغة مبالغة من الإفك ، والافتراء ، وقلب الحقائق . .

والأثيم : صيغة مبالغـة كذلك من الإثم ، وهو اقتراف المنـكر ، واجتراح السيئات .. وهاتان الصفتان هما الآفتان اللتان تتسلطان على أهل الزيغ والضلال ، فلا يكون منهم قبول للحق ، ولا تجاوب معه . . إذ كـيف يجد الحق له مكانـاً فى نفوس لا تستمرىء إلا الإفك ، ولا تستطيب إلا الإثم ؟ . .

وقوله تعالى : « ثم يُصُرّ مستكبراً » . . إما أن يكون من الإصرار ، وهو التمسك والتشبث بما مع المشركين من شرك .. ويكون المعنى : ثم يصر على الـكفر ، ويتشبث به ، مستصحباً معه الـكبر والاستعلاء . . وهذا مثل قوله تعالى فى قوم نوح : « واستغشوْا ثيابهم وأصروا واستـكبروا استكباراً » (٧ : نوح) . .

وإما أن يكون من الصَّر ، وهو تجهّم الوجه ، ضيقاً وتـكرها . . ومنه قوله تعالى :

« فأقبلت امرأته فى صَرّة فصكت وجههـا وقالت عجوز عقـيم » (٢٩ : الذاريات) ..

ومنه الصِّرُّ ، وهى الريح الباردة التى يجمد منها الدم فى العروق .. ومنه الصَّرْصَر ، وهى الريح العاصفة الباردة . .

وقوله تعالى : « فبشره بعذاب أليم » ـ هو بيان لهذا الويل ، الذى توعد الله سبحانه وتعالى به كل أفاك أثيم ، ذلك الذى يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يلقاها متنكرا مستكبراً ..

فالذى يساق إلى هذا الأفاك الأثيم من بشريات فى يوم القيامة ، هو العذاب الأليم .. فهذا هو النعيم الذى يُبشّر به ، ويُزَفّ إليه .. ! فكيف إذا انتقل من هذا النعيم الجهنمىّ إلى العذاب الموعود به ؟ .. وهذا أسلوب من الأساليب البلاغية التى تكشف عن جسامة الأمر ، وفداحة الخطب ، وذلك بوصفه بغير صفته .

قوله تعالى :

* « وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين » .

هو معطوف على تلك الأوصاف التى وُصف بها الأفاك الأثيم فى الآية السابقة .. فهو لا يسمع آيات الله ، ولا يعقلها ، ثم إنه إذا سمع شيئاً من آيات الله ـ عَرَضاً ـ ووقع له منها بعضُ العلم ـ عفواً ، من غير قصد ـ لم ينتفع بهذا العلم ، بل يتخذ منه مادة للسخرية والاستهزاء .. لأنه لم يكن حين استمع لآيات الله يقصد استماعاً ، ولا يبغى علماً .. ومن هنا لم يكن لما وقع له من علم ، ثمر ينتفع به ، أو خير يرجى منه .. بل لقد فتح له هذا العلم طريقاً جديداً من طرق الضلال التى يسلكها ..

وفى قوله تعالى : « أولئك لهم عذاب مهين » بضمير الجماعة العائد على المفرد ـ فى هذا ما يشير إلى أن استهزاء المستهزىء ، وسخرية الساخر بآيات الله ، لم تكن تتحق صورتها ، إلا بمشاركة ممن يستمع له ، ويجرى معه فى استهزائه وسخريته ، سواء أكان ذلك بمجرد الاستماع والاستحسان ، أو بتجاذب حبل الحديث معه ، ومدّه بمدد جديد من السخرية والاستهزاء ..

فالسخرية والاستهزاء ، لا يكون لهما وجود بعملٍ فرديّ ، وإنما الذى يعطيهما الحياة ، هو المشاركة الصامتة ، أو الناطقة ، ومن هنا كانت كلمة السوء فى مجلس من المجالس ، مأثماً يحيط بأهل المجلس جميعاً ، إن هم سكتوا على كلمة السوء ، ولم يقم فيهم من ينكرها على صاحبها ، و يُكبته ويُخزيه ..

وفى قوله تعالى : « أولئك لهم عذاب مهين » ـ وفى وصف العذاب بأنه عذاب مهين لهم ، مُذِلّ لكِبرهم ـ هو رد على استهزائهم بآيات الله ، واستخفافهم بها . .

قوله تعالى :

* « من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم » .

أى أن العذاب المهين ، الذى سيأخذ المستهزئين بآيات الله ، المستخفّين بها ـ هو عذاب جهنم ، التى تَطْلُع عليهم وهم فى غفلة عنها . . إنها تأتى من وراء تلك الحجب من الضلال التى حجبتهم عن اليوم الآخر ، فلم يروْه ، ولم يعملوا على اتقائه ، والفِرار منه ..

ثم إن فى وصف جهنم بأنها من ورائهم ، وفيما يشير إليه هذا الوصف من غفلتهم عنها ـ تقريراً للحقيقة الواقعة ، وهى أن جهنم وإن كانت أمامهم ، تنتظرهم على الموعد الذى يلاقونها عنده ـ فإنها لا تأتى إلا بعد زمن متأخر عن يومهم هذا الذى هم فيه . .

وقوله تعالى : « ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء » جملة حالية ، تكشف عن تعرية القوم من كل واقٍ يقيهم هذا العذاب الذى يَمُدّ يده لاختطافهم ، وهم فى غفلة عنه ..!

وقد يكون الإنسان فى غفلة عن خطر يتهدده ، ولكن هناك ما يحميه من هذا الخطر ، ويردّه عنه ، كأن يكون فى حصن قد أحكم بناءه ، وأقام الحراس عليه ، أوقد يكون له أولياء يَخفّون لنجدته إذا دهمه خطر ! .

أما هؤلاء المشركون ، المكذبون بآيات الله ، والمستهزئون بها ، فلا شىء لهم من هذا . . فهم عن هذا الخطر فى غفلة ..، ولا حارس يقوم على حراستهم . . والمال الذى فى أيديهم ، والذى كان من شأنه أن يكون ذا غَناء لهم فى هذه الشدة ـ قد خلت أيديهم منه .

وآلهتهم التى عبدوها من دون الله ، وكان لهم متعلق بها ، ورجاء فيها ـ قد أنكرتهم ، وخلّت بينهم وبين ماحل بهم من بلاء ..

فكيف يكون لهم نجاة من هذا العذاب الذى يسوقهم أمامه ؟

وفى قوله تعالى : « ولهم عذاب عظيم » .. استكمال لصورة هذا العذاب الذى يلقاه هؤلاء المشركون . . فهو عذاب مهين ، وهو مع ما يسوق إليهم من ذلة وهوان ـ عظيم فى وقعه ، شديد فى بلائه ..

قوله تعالى :

* « هذا هدًى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم » . .

الإشارة هنا ، إلى القرآن الكريم ، وإلى ما تحمل آياته الكريمة المباركة من هدى ونور . . وفى هذا دعوة لهؤلاء الضالين الذين جلسوا مجلس الاستهزاء والسخرية بآيات الله ، والذين تتهددهم جهنم بعذابها وهم فى غفلة عنها ـ فى هذا دعوة لهم إلى أن يهتدوا بهذا الهدى الذى بين أيديهم ، وأن

يأخذوا به طريق النجاة من النار، التي تكاد تمسك بهم من خلف.. فإن هم لم يفعلوا، فهذه جهنم، وهذا عذابها..!

والرجز: القذر، والمنكر المكروه من كل شيء..

وفى وصف العذاب بأنه مخلق من القذَرَ، إشارة إلى ما يساق إلى أهل النار من طعام وشراب، هو فى أصله مستقذر تعافه النفوس.. فكيف به إذا كان مع استقذاره مقتطعا من النار.

الآيات: (١٢ — ١٥)

* « اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) »

التفسير:

قوله تعالى:

* « الله الذى سخر لكم البحر لتجرىَ الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »..

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآية السابقة عليها ، أشارت إلى القرآن الكريم ، ونبهت إلى أنه الهدى لكل من طلب الهدى . . ثم تهددت الآية أولئك الذين يكفرون بربّهم ، ولا يقُبلون على هذا الهدى الذى أنزله الله سبحانه وتعالى إليهم . .

وهذه الآية ، تجىء بعد هذا ، لتحثّ أولئك الذين استمعوا للآية السابقة ، ووقفوا موقف التدبّر والتبصر ـ على أن يسرعوا الخطا إلى الله ، وأن يستجيبوا لما يدعوهم إليه الرسول ، من خير وهدى .. وإنهم إذ يتجهون إلى الله ليجدون هذه الدعوة المجدّدة إليهم ، والكاشفة لهم عن جلال ربهم وعظمته وقدرته ، وماله من فضل وإحسان إليهم . . فهو سبحانه ، الذى سخر البحر ، ومكّن الناس من أن يجعلوه طريقاً ذلولا تجرى الفلك عليه ، كما تجرى الدواب على اليابسة . . كل هذا بأمر الله وحكمته . . فهو سبحانه الذى قدّر بحكمته أن تطفو بعضُ الأجسام على الماء ، حسب قانون محكم لا يتخلف أبداً . . ومن عجبٍ أنه بحكم هذا القانون ، أن يُلْقَى بالحصاة الصغيرة فى الماء فتغوص فيه ، على حين أنه يلقى فوق ظهره بالسفينة محملةً بالدواب ، والناس ، والأمتعة، فتظلّ سابحة فوقه !

قوله تعالى :

* « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وهذا الإله الذى يُدعى إليه العباد ، هو الذى سخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض ، وأتاح لهم الانتفاع به فى كل وجه من وجوه الانتفاع ، حسب استعدادهم وقدرتهم على التصرف فيه ..

فنى السماء ، النجوم ، والكواكب . . وهى مسخرة بأمر الله سبحانه وتعالى ، فى دورانها فى أفلاكها ، على ما يرى الناس منها ، فى جميع الأوقات.. وهى قائمة على ما أقامها الله عليه ، من إرسال أضوائها ، وأنوارها على الأرض ، دون أن يكون للناس شأن ، أو حول ، فى تحويل مداراتها ، أو تغيير نظامها . . ثم إن للناس مع هذا أن ينتفعوا بكل ما أمكنهم الانتفاع به منها . . فإذا كشف لهم العلم عن إمكان اختزان الطاقة الحرارية للشمس ، واستخدام هذه الطاقة فى إدارة المحركات ، وتسيير البواخر ، والقاطرات ، والسيارات ، وغيرها ـ فذلك مما سخر الله للناس ، ويسر لهم الانتفاع به . . وقل مثلَ هذا فى كل ما يمكن أن يحصل عليه الإنسان من عالم السماء . .

وفى الأرض . . ما لا يحصى من قوى الطبيعة المختزنة فيها ، والتى جعل الله مفاتحها فى يد الإنسان ، بما يكشف له العلم من أسرار . .

فهذا البناء الشامخ للمدنية ، وما تَزَخَر به الحياة فى هذا العصر من ألوان لا حصر لها ـ هو مما أودعه الله سبحانه وتعالى فى هذه الأرض ، وهو ما استطاعت يد الإنسان أن تطوله . . وهناك ذخائر كثيرة لا تزال مطوّية فى صدر الطبيعة ، تنتظر يد الإنسان القادر على الوصول إليها ، وكشف الستر عنها . .

وقوله تعالى : « جميعاً منه » حالان من لفظ « ما » فى قوله تعالى : « مافى السموات ومافى الأرض » أى سخر كل هذا مجتمعاً ، فى حال أنه من الله سبحانه وتعالى . . أى من فضله وإحسانه . .

هذا ؛ وقد رأى بعض أصحاب الجدل والمِراء ، من طوائف المعتزلة والمتصوفة وغيرهم ، أن فى قوله تعالى : « منه » يشير إلى أن هذا الوجود فى أرضه وسمائه ، هو من ذات الله ، وأن هذه العوالم هى ظل الله ، وتجلّياته ، أو هى الله ذاته . . إلى

غير ذلك من المقولات ، التى تنتهى إلى القول بوحدة الوجود ، وأنه ليس ثَمَّةَ خالق ومخلوق . .

ولا شك أن هذا تعسف فى التأويل ، فضلا عن فساد المعنى المستنبط من هذا التأويل . . فإن الجار والمجرور « منه » متعلق بمحذوف ، هو مضاف إلى الله سبحانه وتعالى ، أى ذلك كله ، من فضل الله ، ورحمته . .

وفى قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » دعوة إلى إعمال الفكر ، فى مواجهة هذه القوى المسخرة ، حتى ينسج الإنسان من هذه الخيوط المتناثرة هنا وهناك ، ثوباً قشيباً ، يتزين به ، ويكون سِمَةً له ، وشارة تفرق بينه وبين عالم الحيوان ، الذى يعيش على ما تعطيه الطبيعة ، دون أن يكون له أثر يُذْكر فى تحوير شىء أو تبديله . .

قوله تعالى :

* « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون » . .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة قد كشفت عن بعض الوجوه المنكرة من المشركين الذين إذا علموا من آيات الله شيئا اتخذوها هزواً ، ومع هذا فإن الله سبحانه وتعالى لم يُمسك رحمته عنهم ، بل ساق إليهم آياته ، تحمل إليهم الهدى ، وتدعوهم إليه ، وتغريهم بالإيمان بالله ، بما تعرض عليهم من دلائل قدرته ، وسوابغ نعمه . .

ثم إنه لكى يكون من المشركين الضالين إصاخةٌ إلى هذه الدعوة الكريمة من الله سبحانه وتعالى لهم ، ثم يكون منهم نظر فيما يُدْعون إليه من النظر فى آيات الله ، وفيما سخر للناس فى السموات وفى الأرض من نعم ـ لكى يكون من المشركين هذا ، كان على المؤمنين ألا يدخلوا معهم فى مجال الخصومة الحادة ،

والجدل العنيف ، فإن ذلك من شأنه أن يثير فى القوم دوافع الكبر والاستعلاء، وأن يُشغلوا بالمؤمنين ، وبالانتصار عليهم فى المقاولة والمصاولة ـ عن النظر فى أنفسهم والإفادة من آيات الله التى تُتلى عليهم . .

ومن أجل هذا جاء قوله تعالى : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله » ـ جاء داعياً المؤمنين إلى أن يتجاوزوا عن سفاهة هؤلاء المشركين ، وألا يُلقوا سفههم بسفه مثله ، حتى تتاح الفرصة لهؤلاء المشركين أن يستمعوا إلى آيات الله ، فى جوّ لا تنعقد فيه سحب الجدل والخصام ، التى تحجب عنهم الرؤية الصحيحة لآيات الله . . وبهذا تقام الحجة عليهم ، بعد هذا البلاغ المبين لدعوة الله . . فإذا لم يستجيبوا بعد هذا ، لم يكن لهم عذر يعتذرون به ، ووقعوا تحت طائلة العقاب الذى هم أهل له . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ليجزى قوما بما كانوا يكسبون » . . فلقد أزيلت الحواجز التى تحجز القوم عن الاستماع إلى آيات الله ، حتى لقد احتمل المسلمون ما احتملوا من سفههم وتطاولهم عليهم، كى يهيئوا لهم الجوّ الصالح للاستماع ، والنظر ، والتأمل ، فإذا كان بعد هذا ثمة حاجز يحجزهم عن الإيمان بالله ، فهو من عند أنفسهم ، وكان كفرهم وضلالهم من صنع أيديهم، التى حجبوا بها نور الحق عنهم . .

وفى قوله تعالى : « ليجزى قوما بما كانوا يكسبون » . . وفى تنكير « قوم » إشارة إلى قوم بأعيانهم ، وأن أمرهم مع تنكيرهم ، أظهر من أن يُدلّ عليه ، وأن يعرّف به . . وهؤلاء القوم، هم أولئك المشركون ، الذين دُعى المؤمنون إلى أن يغفروا لهم ، وأن يتجاوزوا عن سيئاتهم وسفاهاتهم . .

فهؤلاء القوم قد امتنّ الله سبحانه وتعالى عليهم بهذه المنة العظيمة ، بفضل مقام رسول الله فيهم ، فلم يعجّل الله سبحانه وتعالى لهم العذاب ، بل أمهلهم إلى آخر لحظة من حياتهم ، حتى تكون أمامهم فسحة من الوقت ،

يُصلحون فيها أنفسهم ، ويُصححون عقيدتهم .. ثم إنه ـ سبحانه ـ بعد أن أفسح لهم المقام فى هذه الحياة الدنيا ، صرف عنهم الدواعى التى تَشغلهم عن الاستماع إلى آيات الله التى تتلى عليهم ، أو تحول بينهم وبين النظر فيها ، فدعا الله سبحانه وتعالى الذين آمنوا ، أن ينفروا لهم ، وألا يدخلوا معهم فى جدل .. وهذا كله دليل على مزيدٍ من الفضل والإحسان إلى هؤلاء القوم .. فإذا لم يستقبلوا هذا الفضل وذلك الإحسان بالإقبال على الله ، والاستجابة لما يدعوهم سبحانه وتعالى إليه ، من هدى ـ لم يكن لهم بعد هذا إلا العقاب الأليم ..

وأيام الله ، التى لا يرجوها هؤلاء المشركون ولا يتوقعونها ، هى الأيام الواقعة فى الحياة الآخرة ، والمراد بها الحياة الآخرة ذاتها ، وإنما عُبِّر عنها بالأيام، لأن الأيام دِلالة على وحدة من وحدات الزمن فى الحياة الدنيا ، وهناك فى الحياة الآخرة أيام ذات دلالة على الزمن ، وإن اختلفت تلك الأيام عن أيام الدنيا فى مقدارها .. وهذا ما يشير إليه سبحانه وتعالى فى قوله عن أهل الجنة : « ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشياً » (٦٢ : مريم) .. وفى إضافة أيام الآخرة إلى الله سبحانه وتعالى ، مع أن الأيام كلها هى أيام الله ـ إشارة إلى شرف هذه الأيام ، وإلى عِظَم قدرها ، وأن أيام الحياة الدنيا إذا ووزنت بها لاتساوى شيئاً، كما يقول الله سبحانه : « وماهذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان » (٦٤ : العنكبوت) .. وكما يقول سبحانه: « وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع » (٢٦ : الرعد) .

فللأيام أقدار وأوزان عند الله ، كأقدار الناس وأوزانهم ، فالناس كلّهم عباد الله ، ولكن الله سبحانه يُضيف إلى ذاته أهلَ ودّه ، ومحبته ، تكريماً لهم وتشريفاً . فيقول سبحانه : « فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » (١٧ ـ ١٨ : الزمر)

قوله تعالى :

* « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون » .

هو تعقيب على الآيات السابقة ، وما حملت إلى المشركين من دعوة إلى الإيمان ، وما دعت إليه المؤمنين من الرفق بالمشركين والتجاوز عن جهلهم وسفاهتهم .. فمن استجاب لأمر الله ، وعمل صالحاً ، فله جزاء عمله ، ومن أعرض عن الله سبحانه وتعالى ، وركب طرق الباطل والضلال ، فسيلقى جزاء كفره وضلاله .. فهنالك يوم يرجع فيه الناس جميعاً إلى الله ، ويحاسبون على كل ما عملوا ، ويجزون عن الإحسان إحساناً ورضواناً ، وعن السوء عذاباً ونكالا . .

الآيات : (١٦ — ٢٢)

* « وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين » .

مناسبة هذه الآية وما بعدها مما فيه ذكرٌ لبنى إسرائيل ، هى أن الآيات السابقة عليها قد وضعت بين يدى المشركين من قريش هذا الهدى الذى أرسله الله إليهم ، وتلك الرحمة التى ساقها لهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يقفون من هذا الهدى وتلك الرحمة ، موقفَ الشك ، والاتهام ، والتردد ، وإن ذلك يوشك أن يعرّضهم لعقاب الله ، وينزلهم منازل سخطه وغضبه ـ فناسب ذلك أن يُلفتوا إلى بنى إسرائيل الذين يجاورونهم ، ويعيشون بينهم، وإلى ما آتاهم الله من الحكم والنبوة ، وما رزقهم من طيبات ، حيث أنزل عليهم المنّ والسلوى ، وكانوا بهذا مثلا فريداً فى الناس بكثرة الأنبياء الذين بُعثوا فيهم ، وبالملوك الذين جمعوا بين الملك والنبوة ، فحكموهم بسياسة الملك ، وحِكمة النبوة .. ثم بتلك المعجزات الكثيرة التى جاءتهم من الله سبحانه على يد الأنبياء والرسل . . فهذه الألطاف والنعم لم تجتمع لمجتمع كهؤلاء القوم ، ومع هذا فقد تحولت تلك النعم فى أيدى القوم إلى بلاء ونقم، حيث مكروا بآيات الله وكفروا بها ، فرماهم الله سبحانه وتعالى، باللعنة ، وأمطرهم برجوم من سخطه

وغضبه، وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت ، وأقامهم فى هذه الدنيا مقاماً مضطرباً قلقاً ، لا يجدون فيه إلى الأمن والسلام سبيلا ، إذ قطّعهم فى الأرض أمما ، وسلّط عليهم الناس فى كل مجتمع يعيشون فيه ، كما يقول سبحانه : « وإذ تأذّن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » (١٦٧ : الأعراف) .

فهذا التفضيل الذى فَضّل الله به بنى إسرائيل ، هو ابتلاء لهم ، كَشَفَ عن نفوسهم الخبيثة ، وطباعهم الشرسة ، كما يكشف الغيث المنزّل من السماء عن معدن الأرض السبخة التى يصيبها الماء الغَدَق ، فإذا هى بعد قليل قد أصبحت مستنقعاً آسناً متعفناً ، يؤذى كل من يُلِم به . .

فى هذا المثل ، يرى المشركون عاقبةَ من يكفر بنعم الله ، ويمكر بآياته . . وهاهم أولاء بين يدى نعم الله وآياته . . فماذا هم فاعلون ؟ أيكفرون ويمكرون ، فيلقوْا جزاء الكافرين . . الماكرين . . أم يشكرون ويؤمنون ، فيكونَ لهم جزاء الشاكرين المؤمنين ؟ ذلك ما تكشف عنه التجربة التى لم يخرجوا منها بعد . .

قوله تعالى :

* « وآتيناهم بيناتٍ من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . .

هو معطوف على قوله تعالى : « ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة . . . » أى وآتيناهم كذلك بينات من الأمر . .

والبينات : هى المعجزات التى تكشف لهم الطريق إلى الأمر الذى يُدعون إليه ، ويؤمَرون باتباعه ، وهو دين الله وشريعته . .

وقوله تعالى : « فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » ـ أى أن هذه الآيات البينات ، وهذا العلم الذى تحمله تلك الآيات البينات ، قد كان سبباً فى اختلافهم ، فآمن فريق منهم ، وكفر فريق ، وشكّ فريق ، وقد كانوا من قبل هذا العلم على طريق واحـد ، هو طريق الغواية والضلال . .

وفى قوله تعالى : « بغياً بينهم » ـ إشارة إلى أن هذا الاختلاف والتفرق الذى حدث بينهم حين جاءهم العلم ، إنما هو عن بغى وعدوان منهم ، وإلا فقد كان من شأن هذا العلم أن يجمعهم على الهدى ، وأن يقيمهم على طريق الحق ، لو سَلِمتْ نفوسهم من داء البغى والعدوان .

وقوله تعالى : « إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » أى أن هذا الخلاف الذى وقع بينهم لن يذهب من غير حساب وجزاء ، بل إن الله سبحانه وتعالى سيحكم بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه ، فيجزى أهل الضلال بضلالهم ، وأهل الإحسان بإحسانهم .

قوله تعالى :

« ثم جعلناك على شريعـة من الأمر فاتبعها ولا تتبـع أهواء الذين لا يعلمون » . .

هو معطوف على قوله تعالى : « وآتيناهم بينات من الأمر » .. أى ثم بعد أن آتينا بنى إسرائيل ما آتيناهم من بينات من دين الله وشريعته ، جعلناك أيها النبى على شريعة من الأمر ، فاتبعها ..

وفى العطف بثم ، إشارة إلى تراخى الزمن ، بين ما أنزل الله سبحانه

على بنى إسرائيل من آيات ومعجزات ، وبين بَعثة الرسول ، وما أنزل الله الله سبحانه وتعالى عليه من آياته وكلماته ..

وفى قوله تعالى : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر » — إشارة إلى أن الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — لم يؤتَ مجردَ آيات ، وبينات من الدين ، وإنما أوتى الدِّينَ كلَّه ، وأنه قد جُعل القائمَ على شريعة هذا الدين ، حيث يَرِد الواردون إليه ، فيجدون الرِّىّ من هذا المورد ، ويحمل كل وارد ما استطاع حمله منه ..

والشريعة : مورد الماء .. وفى تشبيه الشريعة الإسلامية بمورد الماء ، إشارة إلى أمور :

أولها : أن القرآن الكريم ، الذى هو مصدر هذه الشريعة ، هو شىء واحد ، أشبه بالماء .. طبيعة واحدة ، لا يختلف بعضٌ عن بعض من حيث هو ماء يرده الواردون للسقيا منه . . وكذلك آيات الله وكلماته ، كلها على سواء فى جلالها وإعجازها وما فيها للأرواح من حياة .

وثانيها : أن إعجاز القرآن ، يبدو فى كل آية من آياته ، كما يبدو فى القرآن كله . . كالماء تكشف القطرة منه عن جوهره كله ..

وثالثها : أن ما أوتيه الرسل من المعجزات ، هو بينات من الدين الذى يَدْعون إليه ، وليس بينّة واحدة ، إذ كانت كل معجزة تختلف عن أختها فى صورتها ، وفى آثارها فى الناس . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى عن الآيات التى جاء بها موسى إلى فرعون وملائه . . : « وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها » (٤٨ : الزخرف) . .

أما ما أوتيه الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — فهو بينّة واحدة ، وآية واحدة ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « لم يكن الذين كفروا

من أهل الكتاب والمشركين منفكّين حتى تأتيَهم البينةُ * رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة * فيها كتب قيمة » (١ ـ ٣ : البينة) كما يشير إليه الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى قوله : « ما من نبى من الأنبياء إلا أوتىَ من الآيات ما مثلُه آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحى إلىّ ، فأنا أرجو أن أكون أكثرَهم تابعاً يوم القيامة » .

وفى قوله تعالى : « فاتبعْها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » — إشارة إلى أن هذه الشريعة ، لا يتجه إليها ، ولا يرد مواردها إلا من كانت معهم عقولهم التى ينظرون بها إلى هـذه الشريعة ، ثم يؤديهم هذا النظر إلى العلم الذى يكشف لهم الطريق إليها .. أما مَن زهد فى عقله ، وصحب هواه ، فلن يتعرف إلى هذه الشريعة ، ولن يرد مواردها ..

قوله تعالى :

* « إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين » ..

الضمير فى « إنهم » يعود إلى المذكورين فى قوله تعالى فى الآية السابقة « ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » .. وهم المشركون الذين استولى عليهم الجهل ، واستبدّ بهم العمى ، فانقادوا لأهوائهم ، ولم يلتفتوا إلى هـذا الهدى الذى يُدْعَوْن إليه ..

فهؤلاء الضالون ، ينبغى على النبى أن يَدَعهم وما اختاروا لأنفسهم ، بعد أن أنذرهم ، ومدّ إليهم حبل النجاة ، فأعرضوا عنه ، وأن يستقيم هو على طريقه ، وألا يَشْغَل نفسه بهم .. فإنه مسئول عن نفسه أولاً ، وأن هؤلاء الضالين لن يُغنوا عن النبى شيئاً ، إذا هو شُغل بهم ، وقصّر — وحاشاه —

فى حق ربه .. وأنه إنما يتولى المؤمنين ، الذين استجابوا لله والرسول ، ويعمل على ما يعينهم على البر والتقوى .. أما الظالمون فإنما يتولى بعضهم بعضاً .. لا ولاية لهم من الله ، ولا من رسوله ، ولا من المؤمنين .. أما المؤمنون فإن بعضهم أولياء بعض ، والله ورسوله أولياء لهم ، كما يقول سبحانه : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » (٥٥ : المائدة) ..

قوله تعالى :

* « هذا بصائر للناس وهدًى ورحمة لقوم يوقنون » ..

الإشارة هنا إلى القرآن الكريم ، وهو الشريعة التى جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ النبىّ قائماً عليها ..

فهذا القرآن هو « بصائر للناس » — أى مَرادٌ ومسرح للعقول ، حيث يقيم لها من النظر فيه ، بصائرَ ، تتهدى إلى الحق ، وتتعرف إلى مواقع الهدى ..

والبصائر : جمع بصيرة ، والبصيرة ، قوة من قوى الإدراك المستنير المشرق .. يرى بها الإنسان من عالم الحق ، ما يرى البصر من عالم الحسّ ..

وفى تسمية القرآن بأنه « بصائر » إشارة إلى أنه هو ذاته عيون مبصرة ، وأنه بقدر ما يفتح الله للناس منه ، بقدر ما يكون لهم من نور تستبصر به عقولُهم ، وبقدر ما يحصلون من « هدى » وما ينالون من « رحمة » .

وقوله تعالى : « لقوم يوقنون » — إشارة إلى أن هذا القرآن ، وما فيه من بصائر للناس جميعاً وهدى ورحمة لهم ـ لا يَرِد مورده ، ولا يرتوى من هذا المورد إلا من جاء إليه بقلب سليم ، مهيأ لاستقبال الخير وتقبله ..

قوله تعالى :

* « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم .. ساء ما يحكمون » ..

هو تهديد لهؤلاء الذين دُعوا إلى الحق ، فلم يستجيبوا ، ورُفعت لهم معالم الاستبصار ، فلم يُبصروا — فهؤلاء لهم عذاب شديد ، على حين أن الذين آمنوا واهتدوْا سيلقوْن من الله سبحانه رحمة ورضوانا . . فهذا هو ميزان الناس عند الله إنه ميزانُ عدل ، لا يسوى فيه بين من «اجترحوا السيئات » أى اقترفوا الآثام والمنكرات ، وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . فهؤلاء غير أولئك ، فى الدنيا وفى الآخرة جميعاً .. إنهم ليسوا سوآء عند الله فى الدنيا أو فى الآخرة .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى موضع آخر : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » (٢٨ : ص) . .

فالمؤمنون على هدًى من ربهم فى الدنيا ، وفى الآخرة ، يؤنسهم الإيمان فى الدنيا ، ويملأ قلوبهم أمناً وطمأنينة ، وهم بهذا الإيمان يَلقوْن ربهم فى الآخرة ، فيُنزلهم منازل رحمته ورضوانه .

أما الكافرون وأهل الضلال ، فهم من كفرهم وضلالهم ، لا يجدون برْدَ الطمأنينة فى الدنيا ، ولا ريح الرحمة فى الآخرة . . وذلك هو الخسران المبين . .

وفى قوله تعالى : « اجترحوا السيئات » إشارة إلى أن اقتراف السيئات لا يكون إلا بجرح فضيلة من الفضائل ، وبعدوانٍ على حق من الحقوق ..

فالاجتراح من الجرْح ، الذى يجىء عن طريق العدوان ، والذى يوقع صاحبَه تحت حكم القصاص منه ، كما يقول سبحانه : « والجروح قصاص » (٤٥ : المائدة) .

قوله تعالى :

* « وخَلَق الله السموات والأرضَ بالحق ولتُجزى كل نفسٍ بما كسبت وهم لا يظلمون » ـ يمكن أن يكون معطوفاً على قوله تعالى : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه » وتكون الآيات الواقعة بين المتعاطفين ، اعتراضاً يراد به الإلفات إلى موقف الناس من آيات الله الكونية أو الكلامية ، وأنهم ليسوا سواءً فى موقفهم من تلك الآيات ، فبعضهم مؤمن مهتدٍ ، وكثير منهم فاسقون . .

ولكلٍّ من الفريقين حسابه عند الله ، حيث لا يسوَّى بين المؤمنين وبين الكافرين الظالمين . .

ثم يجىء بعد هذا قوله تعالى : « وخلق الله السموات والأرضَ بالحق » استكمالا لعرض آيات الله الدالة على قدرته ، وعلمه ، وحكمته . .

ويجوز أن تكون الواو هنا للحال ، لا للعطف ، ويكون الحال من الفاعل ، وهو الله سبحانه ، فى قوله تعالى : « أن نجعلهم » .. أى أيظن الذين كفروا بالله ، واقترفوا ما اقترفوا من آثام ـ أن يجعلهم الله كالذين آمنوا وعملوا الصالحات على سواء ، فى الحياة ، وفى الممات ، وفيما بعد الممات ؟ . أيظنون هذا وقد خلق الله السموات والأرض بالحق ؟ إن هذا ظنٌّ فاسد ، وما يُبنى عليه من تصورات وأحكام لا يكون إلا فاسداً .. فإن هذا الوجود الذى خلقه الله من مادة الحق ، وأقامه على الحق ، لا يمكن أن يدخل عليه ما يغيّر صورةَ الحق . .

وإن مما يغير صورةَ الحق أن يُسَوى بين المحسنين والمسيئين .. وهذا مالا يكون أبداً واقعاً فى مُلك الله ..

وقوله تعالى : « ولتُجزى كل نفس بما كسبت » معطوف على محذوف دلّ عليه السياق ، أى وخلق الله السموات والأرض بالحقّ ، وأرسل رسله بالبينات ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، ولتقوم عليهم الحجة ، « ولتجزى كل نفس بما كسبت » .

وقوله تعالى : « وهم لا يظلمون » جملة حالية من فاعل الفعل « كسبت » المراد به الناس جميعاً ..أى أن الجزاء الذى يجزى به الناس ، لايدخل عليه جوْر ، ولا يتلبس به ظلم .. فالمحسن ينال جزاء إحسانه ، من غير أن يُنقص منه شىء .. بل سيضاعف له الجزاء .. والمسىء سينال جزاء إساءته وما كسبت يداه ، دون أن يؤخذ بجريرة أحد .. « ولا تكسب كلُّ نفس إلا عليها ولا تزرُ وازرة وِزر أخرى » (١٦٤ : الأنعام) .

الآيات : (٢٣ — ٣٥)

* « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لاَ يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣) وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ آيَاتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوةً فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » .

هو عرض لصورة واحد من صور هؤلاء الضالين ، الذين عَمُوا عن آيات الله ، بعد هذا العرض العام الذى لاحت فيه صور للمبطلين ، الذين خرجوا عن

سَنن الحق الذى خلق الله سبحانه وتعالى به السموات والأرض ، والذى فرّق به الله سبحانه بينهم وبين المؤمنين ، فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . .

فى هذه الصورة المفردة لواحد من آحاد الضالين المكذبين ، يرَى كلُّ واحد من أهل الزيغ والضلال وجودَه فى هذه الصورة ، وينكشف له الداء المسلط عليه . .

فهذا المكذب بآيات الله ، المعرِض عن دعوة الهدى التى يدعوه إليها رسولُ الله ـ إنما يتبع هواه ، وينقاد له ، انقياد المؤمنين لله . . فالإله الذى يعبده هذا السفيه الضال ، هو ما يقيمه له هواه ، ويصوره له سفهه ، من معبودات يتخذها من دون الله ، من أصنام وغير أصنام .

والاستفهام هنا تعجبى ، يراد به الاستهزاء والسخرية من هذا الضال ، وفضحه على الملأ وهو عاكف على هذا الضلال الذى يعبده من دون الله . .
أى إن لم تكن قد رأيتَ هذا الإنسان المنكود الضال الذى يعبد هواه ، فهاهو ذا ، فانظر إليه ! !

واتخاذ الهوى إلها ، إنما هو بالانقياد لهوى النفس ، والامتثال لما تأمر به . .
وفى الأثر : « الهوى إله معبود » .

وقوله تعالى : « وأضله الله على علم » جملة حالية من فاعل « اتخذ » وهو هذا الذى اتخذ هواه إلها معبوداً من دون الله . . أى أنه قد اتخذ إله هواه ، فى الحال التى أضله الله فيها على علم . . وهذا يعنى أنه ، مع ما جاءه من العلم الذى بلّغه الرسول إياه ، وكشف له به معالم الطريق إلى الله ـ قد اتبع هواه ، وركب مركب الضلال . .

وفى إسناد الإضلال لهذا الضال إلى الله سبحانه وتعالى ، إنما هو بسبب

ما كان من إعراض هذا الضال عن آيات الله ، وعن العلم الذى جاءه منها .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وما كان الله ليُضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون » (١١٥ : التوبة) وقوله سبحانه : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم .. والله لا يهدى القوم الفاسقين » (٥ : الصف) .

وقوله تعالى : « وختم على سمعه وقلبه » ـ معطوف على قوله تعالى : « وأضله الله » أى وأضله الله إذ دعاه إلى الهدى فلم يستجب لدعوته ، وختم على سمعه وقلبه ، أى أغلقهما ، وأطبقهما على مافيهما من ضلال ، فلم تنفذ كلمة الحق إلى أذنه ، ولم يدخل نور الهدى إلى قلبه ..

فالختم على الشيء : إغلاقه على ما فيه ..

وقوله تعالى : « وجَعَل على بصره غشاوةً » .. الغشاوة ما يغشى العينَ من ظلام ، فيحجبها عن أن ترى الأشياء رؤيةً كاشفة .. وهذا من الأدواء التى رَمَى الله سبحانه وتعالى بها أهلَ الضلال ، حيث يحجب أبصارهم عن النظر فى آيات الله ، نظراً يكشف ما فيها من حق ، وهدى ، يهدى الى الله ، وإلى طريق مستقيم ..

وقوله تعالى : « فمن يهديه من بعد الله ؟ » أى أنه لا سبيل إلى هداية هذا الإنسان التعس الشقى ، بعد أن أضله الله سبحانه وتعالى ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ! إن الله سبحانه قد رماه بهذه الآفات ، وحال بينه وبين أن ينال خيراً من هذا الخير الممدود على مائدة الهدى .. فمن ذا الذى يمكن أن يَرِدَ بهذا الضال موارد الهدى ؟ ومن ذا الذى يَفُضّ هذا الختم الذى ختم الله به على سمعه وقلبه ؟ ومن ذا الذى يرفع هذه الغشاوة التى ضربها الله على بصره ؟ والله سبحانه وتعالى يقول : « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشداً » (١٧ : الكهف)

وقوله تعالى: «أفلا تَذَكَّرون» ـ دعوة إلى الوقوف عند هذا المشهد الذى يُرى فيه هذا الإنسان الذى اتخذ إلٰهه هواه ، وأضلّه الله بعد أن جاء العلم ، وختم الله على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة . .

فليأخذ كل إنسان لنفسه عظة من هذا المشهد ، ولينظر إلى نفسه ، فإن كان بالمكان الذى فيه هذا الضّالّ فليحاولْ أن ينخلع عن هذا المكان ، وليمدّ يده إلى الله طالبًا العون منه . . فإنه لا يُطلب العون إلا منه ، ولا يُرجى الخلاص إلا على يده سبحانه .

قوله تعالى :

* «وقالوا ما هى إلا حَيَاتنا الدنيا نموتُ ونحيا وما يُهْلِكُنا إلا الدّهرُ وَمَا لَهُم بذلك من علمٍ إنْ هم إلاّ يظنون» .

تلْقَى هذه الآية أصحابَ الزيغ والضلال ، بعد أن أرتهم أنفسهم فى واحدٍ منهم ، قد رماه الله بتلك الآفات المهلكة ، التى حجبته عن كل هدًى ، وحالت بينه وبين كل سبيل إلى النجاة . .

والآية الكريمة معطوفة على محذوف ، يفهم من قوله تعالى : «أفلا تذكرون» .

أى أن هؤلاء المشركين الضالين ، لم يستجيبوا لهذه الدعوة التى تدعوهم إلى التذكر والتدبّر فى أمرهم . . فلم يتذكروا ولم يتدبروا ، بل أمسكوا بكل ما فى كيانهم من ضلال ، وقالوا ما كانوا يقولونه من قبل ، من أنه لا بعثَ ولا حساب ولا جزاء ، وأنه ليس إلا هذه الحياة الدنيا ، ولا حياة بعدها .

* «وقالوا : ما هى إلاّ حياتنا الدنيا نموتُ ونَحْيَا وما يُهْلِكُنَا إلاّ الدّهر» .

أى إن حياتنا ما هى إلا هذه الحياة الدنيا . . «نموت ونحيا» . . أى

لا نرى فيها إلا هذه الصور المكررة من حياة وموت ، وموت وحياة . . أحياء يموتون ، ومواليد يُردّون إلى الحيـاة . . ! ولا شيء غير هذا . . « وما يهلكنا إلا الدهر » وهكذا تمضي بنا الأزمان والدهور ، فتحتوى كلّ حيّ ، وتضمّه فى كيانها ، وتدْرُجه فى أكفان العدم الأبدىّ . .

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحُور رمادًا بعدُ إذ هو ساطعُ

وقوله تعالى : « وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » أى إن هذا القول الذى يقولونه ، ويقيمون تصوراتهم وأفكارهم عليه ، إنما هو من واردات الظنّ الذى لا يستند إلى شيء من العلم . « إن الظنّ لا يغنى من الحقّ شيئًا » (٣٦ : يونس)

قوله تعالى :

* « وإذا تُتلَى عليهم آياتُنا بيّناتٍ ما كان حُجّتَهُم إلاّ أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » .

أى ومن مقولات هؤلاء الضّالين ، القائمة على الظنّ الفاسد ، أنهم إذا تليت عليهم آيات الله تحدّثهم عن البعث ، والحساب والجزاء ، أنكروا هذا الحديث ، وردّوه بلا حجّة ، إلا هذه الحجة الفاسدة ، وهى أنهم لن يصدّقوا هذا الحديث ، ولن يأخذوا به إلا إذا رُدّ إليهم آباؤهم الذين ذهبوا ، وأن يروهم رأى العين أحياء بينهم ! وهذا منطق لا يقبله عقل . . إذ كيف يقوم الأموات من القبور ، ويعودون إلى الحياة مرة أخرى ، ويعيشون فى النـاس ، ويشاركونهم الحياة فى هذه الدنيا ؟ أهذا مما تحتمله الحياة ؟ . وهل بَعْثُ الأموات من قبورهم ليكونوا فى هذه الحياة الدنيا مرةً أخرى ـ مما لا تتسع له الحياة .؟ . إن الحياة الدنيا لا تتسع إلا لأهلها الأحياء فيها ، فإذا ذهبوا جاء غيرهم ليأخذ

مكانهم .. وهكذا .. ولو أنه كان من تدبير الله سبحانه أن يَرُدَّ الموتَى إلى الحياة الدنيا ، ويجعل لهم مقاماً فيها لما كان من هذا التدبير أن يموتوا ، وانظلوا أحياء أبدَ الدهر .. وهذا لايكون إلا إذا لم يكن من هؤلاء الأحياء الخالدين توالد .. لأن التوالد معناه أن يبقى الخَلَفُ ويذهبَ السلف ..

وانظر كيف يمكن أن تكون الحياة ليومنا هذا ، لو طلع علينا الأموات الذين ضمتهم الأرض ، واحتواهم التراب ، منذ كان للناس وجود على هذه الأرض ؟ يقول المعرّى ، وقد وقع فى خاطره هذا التصور :

لو هبَّ سكان القبورَ من الثرى
أعيا المحل على المقيم الساكن
لغَدوْا وقد ملأ البسيطةَ بعضهم
ورأيت معظمَهم بغير أماكن !!

فأين هى الأرض التى تتسع لأجيال الناس ، وهى تكاد تضيق بهذا الجيل من الناس ؟ .

فهذا القول الذى يقوله المشركون ، ويتحدّون به دعوتَهم إلى الإيمان بالحياة الآخرة — قول فاسد ، لامنطق له .. بل إن هؤلاء المشركين أنفسهم لهم أولُ الذين يدفعونه لو أنه تحقق ، وطلع عليهم موتاهم من الآباء والأجداد ..

وسُمِّى قولُهم هذا حجة ، لأنه لا حجة عندهم إلا هو .. فهو كل بضاعتهم فى هذا المقام ..

قوله تعالى :

* « قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . .

هو ردٌّ على مقولة هؤلاء المشركين ، وتقرير للحق الذى لا ريب فيه ، دون إقامة وزن لهذه التُّرَّهات التى يَهْذون بها ..

« الله يحييكم » أى هو سبحانه الذى أوجدكم فى هذه الحياة ، وأخرجكم من عالم الموات إلى عالم الحياة، وأمسك عليكم هذه الحياة التى ألبسكم إياها « ثم يميتكم » وهو سبحانه الذى يميتكم ، وينزع عنكم ثوب الحياة الذى ألقاه عليكم ..

« ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » — وهو سبحانه الذى يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى ، لا إلى هذه الدنيا ، وإنما ليدعوكم إلى دار أخرى ، غير تلك الدار ويجمعكم فيها ..

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .. أى أن أكثر الناس هم الذين يكذبون بالبعث ، وينكرون اليوم الآخر .. وذلك لما ركبهم من جهل ، وما غشيهم من ضلال ..

قوله تعالى :

* « ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون » . .

أى أن هذا الذى يكون من حياة وموت ، وبعث ، هو من تدبير الله ، ومن تصريفه فى ملكه ، لا يُسأل عما يفعل . . فمن أسلم نفسه لله ،

فقد فاز ونجا ، ومن أبى أن يُسلم نفسه لله ، فقد خاب وخسر .. وذلك يوم تنكشف له الحقيقة ، ويجد اليومَ الذى كان يكذب به ، والنار التى توعّد الله بها المكذبين ..

قوله تعالى :

* « وترى كلّ أمة جاثية كلُّ أمّةٍ تدعى إلى كتابها اليوم تُجزون ما كنتم تعملون » . .

هو معطوف على قوله تعالى : « يخسر المبطلون » أى وفى هذا اليوم — يوم القيامة — يخسر المبطلون ، وفى هذا اليوم ، « ترى كلّ أمة جاثية » . .

والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو خطاب لكل مَن هو من شأنه أن يرى فى هذا اليوم ، ويجد من نفسه القدرة على النظر إلى ما حوله ، فى هذا الهول الذى يشتمل على الناس ..

والجثو : الإناخة على الركب .. حيث تنحلّ عزائم الناس من الهول المحيط بهم فى هذا اليوم ، فلا تحملهم أرجلهم ، فيجثون على ركبهم ..

أى فى هذا اليوم ترى كل أمة قد اجتمعت ، وجثت على ركبها . .

وقوله تعالى : « كل أمة تدعى إلى كتابها » . . هو جواب عن سؤال يعرض لبيان سبب هذا الجثو ، ولهذا وقع الفصل بين الجملتين . . فكأنه قيل : لم تجثو هذه الأمم ؟ فكان الجواب : « كل أمة تدعى إلى كتابها » أى أن هذا الاجتماع ، والاحتشاد من الأمم ، لأن كل أمة مدعوة إلى كتابها ، الذى تحاسب به ، على حسب شريعتها التى دعيت

إليها .. فلكل أمة شريعة ، ولكل أمة حسابها على هذه الشريعة .. من حيث اتباعها والاستقامة عليها ، أو تضييعها . والخروج عنها ..

وقوله تعالى : « اليوم تجزون ما كنتم تعملون » .. لم تعطف هذه الجملة على ما سبقها ، لأنها فى تقدير جواب على سؤال مقدر .. فكأنه قيل : لم تدعى الأمم إلى كتابها ؟ فكان الجواب: « اليوم تجزون ما كنتم تعملون » .. فهذا هو يوم الحساب والجزاء ، بما تنطق به هذه الكتب التى فى أيدى الناس من كل أمة ..

قوله تعالى :

* « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » ..

أى أنه حين تجتمع الأمم ، وتدعى كل أمة إلى تناول كتابها ، يقال للناس وهم يأخذون كتبهم : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » أى يتحدث إليكم بالحق ..

وفى تعدية الفعل ينطق بحرف الاستعلاء « على » إشارة إلى أنه ينطق من علوّ ، لأنه حق ، وحيث كان الحق ، فهو على رأس كل أمر ..

وقوله تعالى : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » أى أن فى هذا الكتاب الذى فى أيديكم أعمالكم التى عملتموها فى دنياكم ، فلا تعجبوا أن تجدوا فى هذا الكتاب كل شىء كان منكم ، لأننا كنا نكتب ما كنتم تعملون ، كما يقول سبحانه فى موضع آخر : « إنا نحن نحيي الموتى

ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين »
(١٢ : يس) . .

والاستنساخ ، نقل من أصل يُنسخ منه ، ويُؤخذ عنه ما يُنقل . . والأصل هو اللوح المحفوظ . . وهذا يعنى أن الملائكة الموكلين بحفظ أعمال الناس وتسجيلها إنما ينسخون هذه الأعمال من اللوح المحفوظ ، التى سبق علم الله بها ، فهى تجرى على ما كان فى علم الله ، وعلى ما سُجّل فى الكتاب الإمام ، وهو اللوح المحفوظ ، كما يقول سبحانه . « وكلّ شىء أحصيناه فى إمام مبينٍ » . .

قوله تعالى :

* « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين » . .

ويُبدأ بالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلا يُنتظر بهم حتى يُفصل فى الكافرين والضالين ، وذلك ليروا وجه الخلاص والنجاة من أول الأمر ، وبذلك تخلو نفوسهم من هواجس القلق ، والفزع ، لِما يرون مما يحلّ بالظالمين ، من بلاء . .

فهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، يدخلهم ربهم فى رحمته ، ويُفيض عليهم من إحسانه ، وينزلهم منازل رضوانه . و« ذلك هو الفوز المبين » الذى لا فوز مثله . .

قوله تعالى :

* « وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تُتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين » . .

وإذ يُدعى الذين آمنوا إلى جنات النعيم ، وإذ يخلو الموقف إلا من من الضالين والمكذبين والكافرين ـ عندئذ يُدْعى الضالون والكافرون ، يدعون إلى المساءلة والحساب ، وقد عرفوا مقدماً المصير الذي هم صائرون إليه ، فيقال لهم على سبيل التقريع والتنديم : « ألم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين » وفى هذا مواجهة لهم بالاتهام ، وحكم عليهم بالإدانة فيما اتهموا به ..

قوله تعالى :

* « وإذا قيل إن وعد الله حق والساعةُ لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين » .

هو مما يقال للكافرين وأهل الضلال فى موقف الحساب . . وهو معطوف على قوله تعالى : « فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين » أى وكنتم إذا قيل لكم : « إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها » أنكرتم هذا القول ، ورددتموه على قائليه ، وقلتم فى تجاهل غبىّ : « ما ندرى ما الساعة ؟ » إنها لا تقع فى تصورنا إلا من قبيل الظن ، الذى لا يبلغ بصاحبه مبلغ اليقين . فكيف ندع حياةً نحن فيها ، ونتعامل مع حياة أخرى ، لا نراها إلا من وراء أوهام وظنون ؟ .

قوله تعالى :

* « وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

أى أنه ظهر للكافرين ما كانوا يعملون من سيئات ، وانكشف لهم وجهها القبيح الذى ينادى عليهم بالويل والثبور .. « وحاق بهم » أى حلّ وأحاط بهم ، هذا اليوم الذى كانوا يستهزئون به ، وينكرون أن يكون واقعاً أبداً . .

قوله تعالى :

* « وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هـذا ومأواكم النار وما لـكم من ناصرين » . .

أى ومما يقال للـكافرين فى هذا اليوم ، هـذا القول الذى يملأ قلوبهم حسرة ويأساً . . إنهم سيتركون فى هذا الهول ، كما يترك الشىء المنسىّ ، وذلك لأنهم أهملوا النظر فى يومهم هذا ، ولم يذكروا أبداً أنهم على وعد معه . . وإن النار لهى مأواهم ، ومنزلهم الذى ينزلونه فى هذا اليوم ، وإنه لا ناصر لهم يخرجهم من هذا البلاء النازل بهم . .

قوله تعالى :

* « ذلـكم بأنـكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتـكم الحياة الدنيـا فاليوم لايخرجون منها ولا هم يستعتبون » .

الإشارة إلى هذا العذاب الذى يعذّب به الـكافرون ، وأنه إنما كان بسبب اتخاذهم آيات الله هزوا ، حيث كانوا ، إذا تليت عليهم آيات الله أعرضوا عنها ، واستخفوا بها ، وأطلقوا ألسنتهم بالهذر من القول فيها . . إنهم يفعلون هذا وملء كيانهم كِبرٌ وغرور بالحياة الدنيا ، وما يتقلبون فيه منها من متـاع . .

وفى قوله تعالى : « فاليوم لايُخرجون منها ولا هم يستعتبون » وفى الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ـ إشارة إلى تنوع مواقع المساءات التى تأتيهم من كل جهة .. فتارة يواجهون بما يسيئهم، وتارة تجيئهم المساءات من حيث لا يشعرون.. فهم إذ يواجهون بهذا التقريع لِما كان منهـم من الهزؤ بآيات الله ، والغرور بدنياهم ـ يجيئهم صوت من بعيد، بهذه الصاعقة التى تنصب على رءوسهـم :

« فاليومَ لايُخْرجون منها ولا هم يُستعتبون » أى أنه لاخروج لهم من هذه النار التى ألقوا فيها ، ولا يُسمَع منهم عذر ، ولا يقبل لهم اعتذار .

الآيتان : (٣٦ — ٣٧)

* « فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣٧) »

التفسير :

بهاتين الآيتين الكريمتين تختم السورة ، فيلتقى ختامها مع بدئها ، ويكون أشبه بالتعقيب عليه .. فقد بدأت السورة بالإشارة إلى القرآن الكريم ، وبأنه منزل من الله العزيز الحكيم . ثم تلا ذلك الإشارة إلى السموات والأرض وما فيهما من آيات للمؤمنين .. وكان مؤدّى هذا، أن كثيراً من الناس ، نظروا فى آيات الله القرآنية ، والكونية ، فرأوا فيها آيات من جلال الله ، وعظمته ، وقدرته ، فآمنوا بالله ، وانشرحت صدورهم،واطمأنت قلوبهم بهذا الإيمان، ومن أجل هذا فهم يحمدون الله ، ويشكرون له ، أن هداهم للإيمان ..

فالحمد لله وحده ، لاشريك له ، هو سبحانه المستحق للحمد ، لأنه رب السموات والأرض . وهو المتفرد بالحكم والسلطان فيهما ، بعزته ، وحكمته .. فالعزة ، سلطان غالب قاهر ، والحكمة ، ميزان حق وعدل فى يد العزة الغالبة القاهرة ، فلا ظلم ولا جور من سلطان العزة الغالبة القاهرة ..

* * *

٤٦ - سورة الأحقاف

نزولها : مكية بإجماع

عدد آياتها : خمس وثلاثون آية

عدد كلماتها : ثلاثمائة وأربع وأربعون كلمة

عدد حروفها : ألفان وخمسمائة وخمسة وتسعون حرفاً

مناسبتها لما قبلها

ختمت سورة الجاثية بحمد الله ، من عباده المؤمنين ، الذين نظروا فى آيات الله القرآنية والكونية ، وقرأوا فيها دلائل قدرة الله ، وعلمه ، وحكمته .. ومن ثمّ كان إيمانهم بالله ، وحمدهم له ، أن هداهم إلى الإيمان ..

وهنا تبدأ سورة الأحقاف ، فتكشف عن الوجه الآخر من وجوه الناس ، وموقفهم من آيات الله .. وهؤلاء هم المشركون ، الكافرون ، الذين عُرضت عليهم آيات الله ، فأعرضوا عنها ، وتليت عليهم آياته ، فصمُّوا آذانهم عنها ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٦)

* « حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ ٱئْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » . . مضى تفسير هاتين الآيتين فى أول السورة السابقة : (الجاثية) .

قوله تعالى :

* « ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجلٍ مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون » .

أى أن خلق السموات والأرض وما بينهما ، كان خلقاً قائماً على الحق ،

متلبساً به ، فما خُلق شيء في هذا الوجود إلا بحكمة وتقدير . وما خلق شيء عبثاً أولهوًا ، كما يقول سبحانه : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون » .. فكل ذرة فى هذا الوجود ، لها مكانها فيه ، ولها وظيفتها التى تؤديها لانتظام نظامه ، واتساق حركته : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » (٣ : الملك) .

وقوله تعالى : « وأجلٍ مسمى » معطوف على قوله تعالى « بالحق » أى ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وبتقدير أجل مسمًّى لكل مخلوق خُلق .. فكل مخلوق خُلق لغاية ، وحكمة .. وكل مخلوق له أجل ينتهى به دوره ، كما يقول سبحانه وتعالى : « لكل أمّة أجل » (٤٩ : يونس) وكما يقول سبحانه : « لكل أجل كتاب »(٣٨ : الرعد).

وقوله تعالى : « والذين كفروا عما أنذروا معرضون » .. جملة حالية ، تكشف عن موقف بعض مخلوقات الله التى خرجت عن سَنَن الحق الذى قام عليه الوجود كله .. فهؤلاء الذين كفروا ، لم يقفوا عند حدّ كفرهم ، وانحرافهم عن جادة الطريق ، بل إنهم ــ مع كفرهم وضلالهم ــ لم يقبلوا دعوةَ الهدى ، ولم يستمعوا إلى هذا النذير ، الذى جاء ينذرهم ويحذرهم عاقبة كفرهم وضلالهم ..

وفى الجمع بين كتاب الله المنزّل من الله العزيز الحكيم ، وبين السموات والأرض والحق الذى خُلِقا به ــ فى هذا الجمع ، إشارة إلى أن آيات الله القرآنية ، وآياته الكونية ، على سواء ، فى أنها جميعاً من الحق ، وأن ما يتلوه أصحاب الألباب من صحف الكون ، هو شبيه بما يتلونه من كتاب الله ، وآياته .. فمن لم تنفذ العبرة والعظة إلى قلبه عن طريق السمع ، بما يُتلى عليه من

آيات الله وكلماته كان له من نظره فى آيات الله الكونية ، ما يفتح له الطريق إلى الله . . أما من أغمض عينيه عن آيات الله الكونية ، وأصم أذنيه ، عن آيات الله القرآنية فهيهات أن تنفذ إلى قلبه شعاعة من هدى ، أو قبسة من نور . .

قوله تعالى :

* « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » . .

المراد بالاستفهام فى قوله تعالى : « قل أرأيتم ماتدعون من دون الله ؟ » هو إلفات المشركين إلى هؤلاء المعبودين الذين يعبدونهم من دون الله ، وإعادة النظر إليهم ، نظراً فاحصاً محققاً ، وذلك ليجيبوا على ما يسألون عنه فى شأن هؤلاء المعبودين . . وفى هذا إشارة إلى أن هؤلاء المشركين ، كانوا فى غفلة عن معبوداتهم تلك ، وأنهم إنما يعبدونها عن تقليد ، بلا وعى أو تفكير . . ولهذا طُلب إليهم أن يعيدوا النظر فى معبوداتهم تلك ، وأن يتحققوا من صفاتها ، وما تملك بين أيديها من قُوَى . .

وقوله تعالى : « أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شِرك فى السموات » . .

هو السؤال الذى يُطلب إلى المشركين الإجابة عليه ، بعد أن استعدوا لهذا الامتحان ، بالنظر إلى معبوداتهم ، والكشف عن حقيقتها . .

والسؤال هو : « ماذا خلقوا من الأرض » ؟ أى ماذا لهؤلاء المعبودين من مخلوقات فى الأرض ؟ وأىّ شىء خلقوه منها ؟ « أرونى ماذا خلقوا من الأرض؟ » إنه لا شىء لهم فيا على هذه الأرض من مخلوقات ، كَبُر شأنها أم

صَغُر .. إنهم لن يخلقوا ذُباباً ولو اجتمعوا له .. كما يقول سبحانه : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذُباباً ولو اجتمعوا له » . (٧٣ : الحج)

وقوله تعالى : « أم لهم شِرك فى السموات » هو إضراب عن السؤال السابق ، بعد أن عُرف الجواب عنه ، وهو الصمت والوجوم . . وإنشاء لسؤال آخر ، فربما وجد المشركون جواباً له ، بعد أن عجزوا عن الإجابة عن السؤال الأول ..

« أم لهم شرك فى السموات ؟ » أى إذا لم يكن لهؤلاء المعبودين شىء مما خلق الله سبحانه وتعالى فى الأرض من مخلوقات . . فهل لهم شركة مع الله فيما خلق فى السموات ؟ وإنه لا جواب على هـذا إلا العجز الصامت ، والوجوم المطبق ! . .

فإن كان هناك مَن يكابر ، ويأبى إلا أن يجعل لهذه المعبودات سُلطاناً فى السموات أو فى الأرض ، فليأت بكتاب من عند الله من الكتب التى سبقت القرآن الكريم ، وتقدمت نزوله .. فإن لم يكن كتاب فليكن « أثارة من علم » أى أثر ولو قليل من علم ، مصدره أهل الذكر والعلم .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدًى ولا كتاب منير » (٨ : الحج) . .

وفى السؤال عما للمعبودين فى الأرض بلفظ « الخلق » وعما لهم فى السموات بلفظ « الشِّرك » — فى هذا مراعاة لمقتضى الحال التى عليها المشركون مع آلهتهم .. حيث يبدو لهم من معبوداتهم أن لها تدبيراً وتصريفاً مستقلا فى شئون الحياة .. كما كان فرعون يدّعى أنه بألوهيته ، هو الذى يُمد قومه بأسباب الحياة ، وما ينزل عليهم من مطر ، أو ينبت من نبات . . وكما كان

يدعى « النمرود » أنه يحيى ويميت ، وفى هذا يقول الله تعالى : « إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت » (٢٥٨ : البقرة) .

أما العالم العلوى ، فإن دعوى خَلْق شىء من عوالمه ، أكبر من أن يتسع لها ادعاء ، على حين يمكن أن تُدّعى الشركة ، وأن يُنسج لها ثوب ملفق من الوهم والخيال . . حيث لا يُطالب الشريك بالتصريف فى شىء ، منفرداً عن شريكه . .

قوله تعالى :

* « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون » ..

هو تعقيب على هذا الموقف الذى وقف منه المشركون مع معبوداتهم ، موقفَ امتحان وابتلاء .. وقد تكشف لهم من هذا الامتحان أن معبوداتهم تلك ،لا تملك شيئاً من هذا الوجود فى أرضه أو سمواته . . وإذن فما أضل من يعبدها ، ويرجو العونَ منها .. إنها لا تستجيب لمن يدعوها ، ولو امتد دعاؤه ، وطال وقوفه بين يديها إلى يوم القيامة .. إنها لا تملك شيئاً ، ولن تملكه ، حالا أو مستقبلا . . وطلب شىء ممن لا يملك شيئاً ، هو السفه الجهول ، والضلال المبين .:

وقوله تعالى : « وهم عن دعائهم غافلون » جملة حالية ، تكشف عن غفلة هذه المعبودات ، عن دعاء من يدعونها . . إنها لا تسمع ، ولو سمعت ما استجابت ، لأنها فى قيد العجز المطلق ، الذى لا تملك معه من أمر الله فى عباده شيئاً ..وفى هذا يقول الله تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضُّرِّ عنكم ولا تحويلا » (٥٦ :الإسراء) ويقول سبحانه:

« إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم » (١٤ : فاطر).

وفى التعبير عن عدم الاستجابة بالغفلة ، إشارة إلى استخفاف هذه المعبودات بعابديها ، وأنها لا تلتفت إليهم ، ولا تأبه لدعائهم ، حتى ولو كان من شأنها أن تسمع وتعقل .

قوله تعالى :

* « وإذا حُشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .

أى وليس هذا الذى تَلْقى به هذه المعبودات عابديها ، من استخفاف بهم ، وشُغْل عنهم — ليس هذا كل ما هنالك . . بل إن لهذا الحساب بقيةً فى الآخرة ، حيث تنتظر هذه المعبودات مَن عبدوها فى موقف الحساب والجزاء ، وهناك تقف منهم موقف العداوة والخصومة ، حيث تشهد عليهم بأنهم كانوا كافرين بالله ، مفترين عليها بتأليهها ، وعبادتها ، وجعلها أنداداً لله سبحانه .. وهذه جريمة شنيعة ، ألصقها هؤلاء المشركون بتلك المعبودات ، وإن من حق هذه للمعبودات أن تطلب القصاص من عابديها ، الذين عرَّضوها فى معرض البهتان والضلال . .

الآيات : (٧ — ١٤)

* « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ

الرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللهَ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين » :

أى أن هؤلاء المشركين الذين انكشف لهم ما عليه آلهتهم التى يعبدونها من دون الله ، من ضعف وعجز عن أن تملك لهم ضراً أو نفعاً — لم يكن لهم من العقل والرأى ما يحولهم عن موقفهم هذا الذى جمدوا عليه مع آلهتهم ، وحتى إنهم إذا تليت عليهم آيات الله بينة بيان الصبح ، مشرقة إشراق الضحى ، خدعوا أنفسهم عنها ، وقالوا هذا سحر

مبين .. إذ لم يستطيعوا أن ينكروا سلطان هذه الآيات ، أو يدفعوا حجتها القائمة عليهم ، إذ كان سلطانها أكبر من أن يدفع ، وكانت حجتها أقوى من أن ترد — فكان هروبهم منها وفرارهم من بين يديها ، مستنداً إلى هذا الادعاء الباطل ، بأن هذه الآيات من السحر المبين ، الذى يملك «محمد» من أعاجيبه وحِيَله ، مالا يملكون ..

وفى إظهار الضميرين فى « عليهم » « وآياتنا » كشف للحقيقة المنطوية فيهما .. فضمير المشركين ، يطوى تحت كيانه وجهاً منكراً من وجوه الناس ، هم « الذين كفروا » .. وضمير الآيات البينات ، يضم تحت جناحيه الحق المبين ..

وفى قوله تعالى : « قال الذين كفروا للحق لما جاءهم » — إشارة إلى أن هذا الحق الذى طلع على المشركين من تلك الآيات البينات التى تليت عليهم ـ كان من الظهور والبيان بحيث يرونه رأى العين ، حتى إنه ليتمثل لهم منه كائن شخصى ، عاقل ، يجىء إليهم ، ويخاطبونه ، ويشيرون إليه قائلين «هذا سحر مبين » .

قوله تعالى :

* « أم يقولون افتراه . . قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم » .

هو إضراب عن مقولتهم عن القرآن ، هذا سحر مبين » وعدول عن هذا القول إلى قول آخر ، إذ لم يطمئنوا إلى هذا القول فى القرآن . . فهو آيات بينة المعنى ، واضحة القصد ، وكلمات محددة الدلالة ، صريحة المعنى ، فمن أين يكون بينها وبين السحر جامعة تجمعها به ، والعهد بالسحر ، أنه

خفايا وأسرار ، تطلع من وراء سُتُر محجبة ، لا يعرف الطريقَ إليها إلا أصحابها ، الذين يخيِّلون للناس منها ما يخيلون ..

فالقول بأن هذا القرآن مفترًى على الله أقرب إلى القبول فى باب الجدل والمراء من القول بأنه سحر . . ولكن هذا القول لا يلبث أن ينكشف زيفه وبطلانه إذا وضع موضع الاختبار ، إذا قيل لقائليه : مالكم لا تأتون بعشر سور مثله مفتريات ، أو بسورة واحدة مفتراة ؟ وماذا يحول بينكم وبين الافتراء ، والمجال فيه متسع فسيح لمن يشاء أن يرد موارده ؟ .

وقد رَدّ الله سبحانه وتعالى على مقولتهم تلك ، فى غير هذا الموضع من القرآن الكريم ، فقال تعالى : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » (١٣ : هود) . .

وهنا ، فى هذا الموقف يلقاهم ، رد آخر فى قوله تعالى : « قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا » .. وهذا الرد يتجه إلى الافتراء من حيث هو كذب على الله ، وعدوان عليه سبحانه وتعالى ، وأن من افترى على الله فقد تعرض لسخطه ونقمته ، وأنه لا أحد يدفع عن المفترِى على الله سَخط الله ، وعذاب الله ! فلمَ يفترى النبي على الله ، ولِمَ يعرض نفسه لهذا البلاء ؟ وما الثمن الذى أخذه من وراء هذه المجازفة ؟ .

وقوله تعالى : « هو أعلم بما تفيضون فيه » هو تهديد للمشركين بقولهم هذا الذى يقولونه فى كلمات الله وآياته ..

وأفاض فى الحديث : توسع فيه ، وأكثر منه . . حتى يجاوز الحدود ، ويخرج عنها ، كما يفَيض السائل من الإناء ، ويَسيل فى كل مسيل ..

وإفاضة القوم فى القرآن ، هو مقولاتهم الكثيرة فيه ، وهى مقولات

باطلة لاحدود لها ، وهذا يعنى أن مقولاتهم فى القرآن مقولات باطلة ، تتسع لكل قول .. ولو أنهم قالوا قولا حقاً ، لما كان لهم إلا قولة واحدة ، هى أن هذا القرآن من عند الله ، وأنه الحق من ربهم ..

وقوله تعالى : « كفى به شهيداً بينى وبينكم » .. تهديد ووعيد آخر للمشركين ، وأنهم فى موضع الحساب والمساءلة من الله تعالى ، وأنهم مأخوذون بما يقولون من مفتريات على آيات الله ، وعلى رسول الله .

وقوله تعالى : « وهو الغفور الرحيم » — دعوة إلى هؤلاء المشركين أن ينظروا إلى أنفسهم ، وأن يطلبوا النجاة من هذا الموقف المهلك الذى هم فيه ، وأن يفرّوا إلى الله ، وأن يطلبوا المغفرة والرحمة من رب غفور رحيم ..

وفى هذه الدعوة — إشارة إلى أن الرسول الكريم ، إنما جاء رحمة للناس من ربه ، وأنّ ربه غفور رحيم ، يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات .. وأن هؤلاء المشركين فى معرض المغفرة والرحمة ، إذا هم طلبوا مغفرة الله ورحمته ..

قوله تعالى :

* « قل ما كنت بِدعاً من الرسل وما أدرى مايُفعل بى ولا بكم إن أتبعُ إلا ما يوحى إلىّ وما أنا إلا نذير مبين » ..

هو دعوة أخرى إلى هؤلاء المشركين ، أن يعيدوا النظر فى هذا النبىّ ، وفيما يدعوهم إليه .. إنه بشر مثلُهم ، شأنه فى هذا شأن المرسلين من قبله إلى أقوامهم .. وهو إنما يبلغ ما يتلقاه من ربه ، شأنه فى هذا أيضاً شأنُ كل رسول قبله .. فهو ليس بدعاً من الرسل ، أى ليس على صورة غريبة ، خارجة عما

جاء عليه الرسل من قبله ، سواء فى شخصه ، أو فى مضمون ما أرسل به .. فماذا ينكر القوم منه ؟

وفى قوله تعالى : « وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم » .. هو تقرير ابشرية الرسول ، وأنه ليس إلا عبداً من عباد الله ، لا يعلم الغيب ، ولا يملك لنفسه ، ولا لأحد ضرًّا ولا نفعاً ، إلا ماشاء الله ..

« قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضرًّا إلا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (١٨٨ : الأعراف) ..

قوله تعالى :

« قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين » ..

هو تحريض للمشركين من قريش على أن يسبقوا إلى هذا الخير الذى يدعوهم النبىّ إليه ، وأن يسارعوا إلى أخذ حظهم منه ، قبل أن يسبقهم إليه غيرهم من أهل الكتاب الذين يعرفون أنه الحقّ من ربهم ، وأن بعضاً منهم ــ ممن لا يستبد به الحسد ، ولا تغلبه شقوته ــ سيؤمن بهذا القرآن ، ويهتدى بهديه ..

وتحرير معنى الآية .. ماذا يكون موقفكم أيها المشركون ، إذا كان هذا القرآن من عند الله ، وقد كفرتم به ، على حين أن بعضاً من اليهود قد عَرف وجه الحق فيه ، ورأى من آيات الحقّ منه، مثلَ مارأى فى الكتاب الذى معه، فآمن بالله ، وصدق بهذا القرآن واستكبرتم أنتم حين عرفتم الحقّ ولم تؤمنوا ــ ماذا يكون موقفكم ، وقد فاتكم هذا الخير الذى أعطيتموه ظهركم ؟

ألا يكون منكم إلا الانطلاق فى هذا الضلال الذى أنتم فيه إلى غاياته ؟ إن ذلك عدوان منكم على الحق ، وظلم مبين منكم لأنفسكم ، والله لا يهدى القوم الظالمين ، الذين يرون الحقّ ، ويأبون أن يأخذوا طريقهم معه !

هذا ، وقد كاد يكون إجماع من المفسرين على أن هذه الآية قد نزلت فى عبد الله ابن سلام ، وهو من اليهود الذين دخلوا فى الإسلام ، ويأتون على هذا بأخبار ومرويات من الأحاديث فى كتب الصحاح كالبخارى ومسلم ، وغيرهما ..

والسورة مكية ، وليس هناك شاهد قوىّ يشهد بأن هذه الآية مدنية ـ كما يقول بذلك الذين يذكرون سبب نزولها ـ بل إن هناك أكثر من شاهد بأنها مكية ..

فأولا : أن السياقَ متصل ، بحيث يجعل الآية فى مواجهة هؤلاء المشركين الذين يحاجّون النبىّ ويرمونه بالكذب والافتراء وفى هذه المواجهة يرى المشركون أن موقفهم من الرسول ، ومن القرآن ، سينتهى بهم إلى أن يسبقهم أهل الكتاب إلى هذا الرسول الذى كانوا يتمنون على الله أن يكون لهم كتاب مثل أهل الكتاب .. وكانوا يقولون ما حكاه القرآن عنهم : « لو أنّا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم » (١٥٧ : الأنعام) وها هم أولاء قد جاءهم الكتاب ، ويوشك أن يفلت من أيديهم

وثانيا : أن فى هذه الآية المكية ، دعوة غير مباشرة إلى أهل الكتاب أن يؤمنوا بهذا الرسول ، وبالكتاب الذى أنزل إليه من ربه وفى هذه الدعوة إرهاص بالمواجهة التى سيواجه فيها الرسول والقرآن أهلَ الكتاب ، فيما بعد ، . وهذا أسلوب من أساليب القرآن فى دعوة أهل الكتاب إليه ، وهو فى الطريق إليهم ، قبل أن يلقاهم لقاءً مباشراً

وإذن فليس هناك داعية إلى القول بأن هذه الآية مدنية ، وبالتالى أنها نزلت فى عبد الله بن سلام أو غيره .. وإن الذى ينظر فى الأحاديث والمرويات، التى ذُكرت فى هذا المقام ، يرى فيها اختلافاً ، وتضارباً ، بحيث ينقُض بعضها بعضها ، ويهدم بعضها بعضاً. مما يجعل مجاوزتها والعدولَ عنها، أولى من الوقوف عندها ، وأخذِ شىء منها ..

قوله تعالى :

* « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » ..

أى ومن الشُّبَه والضلالات التى أضلت المشركين عن الإيمان بالله والاستجابة للرسول ـ أن كثيراً من الذين سبقوهم إلى الإيمان بالله ،والاستجابة للرسول، كانوا من الفقراء ، والمستضعفين، كبلال ، وعمار ، وصهيب ، وغيرهم ممن سبقوا إلى الإسلام .. وهذا عند المشركين من الأدلة الناطقة بأن هذا الذى يدعو إليه محمد، ليس مما تهفو إليه نفوس أصحاب الجاه ، والمنزلة . . فى الناس ، وأنه لو كان كذلك لما سبق إليه الأرقاء والمستضعفون فيهم ، وكيف . . وهم السباقون إلى غايات السيادة والمجد ، يسبقهم عبيدهم وإماؤهم إلى أمرٍ ،ثم يكونون هم وراءهم ، يأخذون مكانهم فى الصفوف المتأخرة فيه ؟ وإذن فهذا الذى يدعو إليه محمد ليس إلا إفكا مفترى، ولهذا كان المنخدعون به ، هم أولئك الأرقاء والأدلاء من بينهم . وهكذا تأمرهم أحلامهم ، وتسوّل لهم أنفسهم!!

قوله تعالى :

* « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » ..

هو رد على مقولة المشركين فى القرآن بأنه إفك قديم .. أى أن هذا القرآن ليس إفكا قديماً كما يدعون .. فلقد سبقه كتاب موسى ، الذى هو إمام أى هدى يهتدى به الناس ، ورحمة من الله إليهم .. وهذا القرآن هو مصدق لما فى كتاب موسى، لينذر هؤلاء المشركين الذين ظلموا أنفسهم بالإعراض عنه ، ويبشر المحسنين ، الذين أحسنوا إلى أنفسهم بهذا الخير الذى ساقوه إليها من هذا الكتاب ..

وفى قوله تعالى : « لساناً عربياً » مقابلة لقوله تعالى عن كتاب موسى « إماماً ورحمة » .. أى أنه إذا كان كتاب موسى إماماً ورحمة ، فإن هذا الكتاب لسان عربى ، ومن هذا اللسان العربى يتفجر ينابيع الهدى والرحمة .. وفى هذا تنويه باللسان العربى ، من حيث هو لغة ، فكيف إذا كان هذا اللسان يحمل آيات الله البينة ، وكلمات الله المعجزة ؟

قوله تعالى :

* « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون * أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » ..

هو بيان للمحسنين ، ولما يحمل إليهم القرآن الكريم من بشريات .. وقد جاء هذا البيان على تلك الصورة التقديرية المؤكدة ، إظهاراً لمزيد الاعتناء بهم والتنويه بشأنهم ، وبشأن الجزاء الكريم الذى أعده الله سبحانه وتعالى لهم .. فالمحسنون ، هم الذين قالوا ربنا الله ، أى آمنوا به ، ثم استقاموا على شريعة الله ، فامتثلوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه .. فهؤلاء هم المحسنون ، وهم الذين لا خوف عليهم مما يخيف أهل الشرك والضلال يوم القيامة ، وهم الذين لا يحزنون يوم تمتلىء قلوب أهل الشرك والضلال حزناً وكمداً على ما فرطوا

فى جنب الله .. إنهم أصحاب الجنة لهم فيها دار الخلد ، فلا يتحولون عنها أبداً ، جزاء ما عملوا فى دنياهم من طيبات ..

الآيات : (١٥ — ٢٠)

* « وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله

وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده ، وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين * أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون » .

فى هاتين الآيتين مباحث :

أولا : مناسبتهما لما قبلهما :

وتبدو هذه المناسبة فيما تضمنته الآيات السابقة من الإشارة إلى القرآن الكريم ، وأنه يحمل النذيرُ بالعذاب إلى الذين ظلموا ، والبشرى بالجنة والرضوان للذين آمنوا وأحسنوا .. ثم ماجاء بعد ذلك من تعقيب بقوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثمّ استقاموا ... » وما فى هذا التعقيب من بيان لما أعد الله للذين آمنوا واستقاموا من جزاء كريم فى الآخرة ، وأنهم أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » .. ثم كان قوله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً .. » دعوةً مرافقة للدعوة إلى الإيمان بالله ، وإحسان العمل فى سبيل مرضاته ، وأن من الإحسان ، الإحسانُ إلى الوالدين ، فلن يكون الإنسان من المحسنين ، إذا فاته الإحسان إلى أبويه .. وفى أكثر من موضع من القرآن الكريم ، اقترن الأمر بطاعة الله ، بطاعة الوالدين ، والإحسان إليهما : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » (٢٣ : الإسراء) .. « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنىّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم * ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهنٍ وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » (١٣ ـ ١٤ لقمان) .

وثانياً : المراد بالإنسان فى قوله تعـالى : « ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً » أهو مطلق الإنسان أم هو إنسان بالذات ؟ . .

أكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه ، وأنه هو الإنسان المقصود هنا . ومستندهم فى هذا ، أن أبا بكر رضى الله عنه ، هو الذى آمن ، وآمن معه والداه ، أول الدعوة الإسلامية ، وأنه — رضى الله عنه — كان فى أول الدعوة الإسلامية فى الأربعين من عمره ، إذ كان — كما يقولون — أصغر سناً من النبى — صلى الله عليه وسلم — بنحو عامين . .

والذى نراه — ونرجو أن يكون صواباً — هو أن المراد بالإنسان ، هو مطلق هذا الإنسان ، الذى وصاه الله بوالديه إحساناً . . فهذه الوصاة بالإحسان إلى الوالدين موجهة إلى كل إنسان . . ولـكن كما يتردد بعض الناس فى قبول دعوة الله إلى الإيمان به ، أو يرفض هـذه الدعوة — كذلك يتردد بعض الناس فى امتثال أمر الله بالإحسان إلى الوالدين ، أو لا يستجيب لهذه الدعوة أبداً .. وكما يتوب الله سبحانه وتعالى على العصاة ويتجاوز عن سيئاتهم ، ويقبلهم فى أهل الإيمان والإحسان ، كذلك يقبل الله سبحانه من يراجع نفسه ، ويُقبل بالإحسان إلى والديه بعد أن فرّط وقصر ..

ففى قوله تعالى : « حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ ... » فى هذا ما يشير إلى شىء من التقصير فى حق الوالدين ، وإلى مطاولة الزمن وعدم المبادرة بالإحسان إليهما منذ مطلع الصبا والشباب ، حتى امتدّ هذا التفريط والتقصير إلى أن بلغ هذا الإنسان أشده ، وبلغ أربعين سنة ، حيث استوفى غاية ما يمكن أن

يبلغه من سلامة إدراك ، وحسن تقدير .. وعندها ثاب إلى رشده ، وأقبل على والديه ، يصلح من أمره معهما ما أفسده بتقصيره وتفريطه . . ثم هو فى هذا الموقف ، وقد بلغ من العمر أربعين سنة ، ينظر إلى ذريته نظرة أبويه إليه ، فيذكر فضلهما عليه ، وإحسانهما إليه ، وما يؤثرانه به من خير وبرّ ، كما يؤثر هو ذريته من خيره وبره .. وهذا من شأنه أن يحرك عاطفته الجامدة نحو أبويه ، ويؤدى ما قصر فيه من حقهما ، كما يود أن يؤدى له أبناؤه ما يجب عليهما له من طاعة وولاء ..

فالإنسان هنا ، هو الإنسان الذى قصر فى حق والديه ، ثم عاد فأحسن صحبتهما ، وأدى ما يجب عليه نحوهما . . وبهذا تقبل الله عنه أحسن ما عمل ، وتجاوز عما كان منه من تقصير . . « أولئك الذين نتقبّل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون » ..

ثالثاً : فى قوله تعالى : « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا . . . الآية » ما يدل على أن الآية السابقة ليست خبراً عن إنسان واحد بعينه ، وإنما هى خبر عن كل إنسان كان على هذا الوصف من أبويه . . فرّط فى حقهما ، وقصر فى الإحسان إليهما ، ثم كانت منه توبة إلى الله ، وإحسان إليهما .. وهذا مثل قوله تعالى : « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما » (٧٠ : الفرقان) .

رابعاً : من العبارات التى تحتاج إلى شرح :

قوله تعالى : « حملته أمه كرها ووضعته كرها » أى حملته واجدةً ما تكرهه من آلام الحمل والولادة ، لا ما تكره من الحمل نفسه ، فهى ـ مع هذه

الآلام التى تجدها ـ حريصةٌ على أن تحمل جنينها ، وأن تتحمل هذه المكاره فى سبيله . . فهى بهذا إنما ترضى طبيعة الأنثى فيها ، وإن كانت تقاسى ما تقاسى من آلام فى الحمل ، وفى الوضع . .

وقوله تعالى : « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » أى مدة حمله وفطامه ثلاثون شهراً .. وقد جُمع بين مدة الحمل ومدة الفطام معاً ، للإشارة إلى أن الأمّ تعانى من المشقات وتتحمل من الآلام فى مدة الرضاع والقيام على شئون وليدها ، نفسَ المشقات والآلام التى كانت تعانيها وتحتملها أثناء الحمل والولادة، وإن اختلفت طعومها وألوانها ..

قوله تعالى :

* « والذى قال لوالديه أفٍّ لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين » ..

فى هذه الآية بيان للصنف الثانى من الأبناء ، وهم الذين مضوْا فى عقوقهم لأبويهم إلى آخر أيام حياتهم ، فلم يكن لهم عند بلوغهم غايةَ ما يبلغه الإنسان من كمال عقلى ، وتوازن شعورى ، بعد أن يبلغ أشده ، وتذهب فورة الشباب ، ويسكن جنون الصبا — لم يكن لهم عند هذا واعظ من أنفسهم ، يعظهم ، ويقيم وجوههم على الطريق القويم . .

ثم إنه ليس الذى كان من عقوق هنا هو مجردَ التقصير فى حق الأبوين ، بل تجاوز هذا إلى العدوان عليهما ، إذ يدعوانه إلى الخير ، ويمدان إليه أيديهما بالإحسان ، حين يطلبان إليه أن يؤمن بالله ، وأن يخرج من هذا الضلال الذى اشتمل عليه ، وقاده إلى عذاب جهنم ، فيلقاهما بهذا الردع

والزجر ، ويرمى فى وجهيهما بهذه القولة الآثمة : « أفٍّ لكما » !!

وفى قوله تعالى : « أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى » — استفهام إنكارى ، ينكر به هذا الابن الضال العاق ، على والديه أن يدعواه إلى الإيمان بالله ، وأن يحدثاه عن البعث والحياة بعد الموت ، وأن هذا أمر لا يصدقه عقل ، وقد مضت القرون ، ولم يبعث الموتى من قبورهم .. فكيف يكون هناك بعث ؟ ولو كان ذلك أمراً كائنا لبُعث الذين ماتوا من آلاف السنين . . هذا هو منطق الضالّين الأغبياء !

وقوله تعالى : « وهما يستغيثان الله ويلك آمن .. إن وعد الله حق » .. إشارة إلى ما فى قلب الوالدين من حرص على نجاة هذا الولد العاق ، وإن رماهما بما يسوء من منكر القول . . إنه يقول لهما : « أفٍّ لكما » وهما يستغيثان الله من أجله ، ويطلبان من الله أن يهديه ويصلح أمره !.

قوله تعالى :

* « أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين » . .

أى أن هذا الصنف من الذين عقُّوا آباءهم ، وخرجوا عن طاعتهم ، كما أنهم حادُّوا الله ، وحادُوا عن طريق الهدى — هؤلاء قد حق عليهم القول ، ووقعوا تحت حكم الله على أهل الضلال والكفر فى الأمم السابقة من الجن والإنس . . وأولئك هم الخاسرون ، الذين خسروا أنفسهم ، فكانوا من أصحاب الجحيم . .

هذا ، ويقال إن هاتين الآيتين، نزلتا فى عبد الرحمن بن أبى بكر ،

كما نزلت الآيتان السابقتان عليهما ، فى أبى بكر رضى الله عنه . .
وهذا مردود لما يأتى :

أولا : لأن عبد الرحمن بن أبى بكر قد أسلم ، وأنه لو صحّ منه هذا الموقف قبل إسلامه ، لكان إسلامه دافعاً عنه هذا الحكم الذى تضمنته الآية ، والذى سلك أهله فى سلك الفاسقين الذين حق عليهم القول ، ولكان ثوب الإسلام الذى لبسه ، ساتراً له ، إلى أن يلقى ربه بما هو عليه من عمل . .

وثانياً : لأن أبا بكر ـ الذى قيل إن الآيتين السابقتين نزلتا فيه ـ قد كان من دعائه قوله : « وأصلح لى فى ذريتى » . . فكيف يكون من أبى بكر هذا الدعاء ، ثم يكون من ذريته من يفضحه الله بهذا الخزى على الملأ ، ويُلبسه ثوب جهنم فى الدنيا ؟ أيتفق هذا وما لأبى بكر عند الله من هذا المقام الكريم الذى سجله القرآن فى أكثر من موضع ؟

قوله تعالى :

* « ولكلّ درجات مما عملوا وليوفيَهم أعمالهم وهم لا يظلمون » .

أى ولكل من هذين الصنفين من الأبناء ، درجاتهم ومنازلهم عند الله ، بحسب أعمالهم ، التى يوفون جزاءها بالحق ، فيجزَى أهل الإحسان بالإحسان ، وأهل الإساءة بالإساءة ، . . ولا يظلم ربك أحداً . .

قوله تعالى :

* « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » . .

هو عرض لمشهد من مشاهد القيامة ، يُرى فيه الكافرون وقد وقفوا موقف الحساب ، والمساءلة ، على ما كان منهم فى حياتهم الدنيا ، من بغى ، واستكبار فى الأرض بغير الحق .

إن الكافرين والضالين ، إذ يُعرضون على النار فى هذا اليوم ، ويساقون إلى العذاب الأليم فيها ، يقال لهم وهم على شفيرها : هذا جزاؤكم ، فلقد أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ، واستمتعتم بها ، ولم تدخروا منها شيئاً لهذا اليوم .. لقد كانت معكم عقول تعقلون بها ، وآذان تسمعون بها ، وأعين تبصرون بها ، فما استعملتم شيئاً من هذا فى سبيل التعرف على الله ، والاهتداء إليه ، بل صرفتم هذا كله إلى مواقع الكفر والضلال : « فاليومَ تجزون عذاب الهون » الذى تُهدر فيه آدميتكم ، وتذهب كرامتكم ، فلا يكون لكم إلا الهوان والإذلال ، إذ كنتم ولا عقل معكم ، ولا سمع ، ولا بصر ! وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى هذه السورة : « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » (الآية : ٢٦) .

فالطيبات التى أذهبها الكافرون فى حياتهم الدنيا ، هى تلك القوى التى أودعها الله سبحانه وتعالى فيهم ، من عقل ، وسمع ، وبصر ، ونحوها مما يكون به الإنسان إنساناً ، والتى يكشف بها مواقع الهدى والخير .. وقد عطل الكافرون هذه القوى ، وأفسدوها حين صرفوها فى وجوه الفساد ، وفى اصطياد اللذات وجلب الشهوات ..

الآيات : (٢١ — ٢٨)

* « وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوٓا إِلاَّ ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَىٰٓ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَارُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين

يديه ومن خلفه ألاّ تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » . .

كانت الآية السابقة مواجهةً للمشركين ، بما يلقى الكافرون من عذاب وبلاء فى الآخرة . . وهنا فى هذه القصة مواجهة لهم بما لقى الكافرون المكذبون بآيات الله ورسله من بلاء ونكالٍ فى الدنيا . . فإذا لم يصدِّق المشركون بالآخرة وبما ينتظرهم عندها من عذاب جهنم ، فإنه لامفر لهم من أن يصدقوا بهذا الواقع الذى يرونه بين أيديهم من مصارع الضالين ، وما رماهم الله سبحانه وتعالى به من مهلكات فى هذه الدنيا .

وأخو عاد ، هو « هود » عليه السلام ، وعادٌ هم قومه ، وسمّى أخاهم ، لأنه منهم ، وليس غريباً عنهم . .

والأحقاف ، جمع حِقف ، وهو الكثيب من الرمل ، يستطيل ، ويمتد فى غير استقامة . .

وقد كانت منازل عاد على مثل هذه الأماكن ، وهى فى جنوب اليمن ، وفيها إرم ، ذات العماد . .

وقوله تعالى : « وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه » أى مضت النذر التى رآها القوم ، أو سمعوا أخبارها من آبائهم . . فالنذر التى بين يديه هى الأحداث القريبة ، والتى من خلفه ، هى الأحداث البعيدة . . كما يقول الله سبحانه على لسان هودٍ مذكراً قومه بما حدث لقوم نوحٍ : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة » (٦٩ : الأعراف) .

وقوله تعالى : « ألا تعبدوا إلا الله » هو النذير الذى أنذر به هودٌ قومه ، وهو تحذيرهم من أن يعبدوا غير الله . . فإنهم لو عبدوا غير الله لساءت عاقبتهم ، ولحل بهم العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة جميعاً . .

قوله تعالى :

* « قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » ..

هذا هو رد القوم على دعوة رسولهم لهم ، وتحذيرهم من الخطر الداهم الذى سيقع بهم ، إذا هم أمسكوا بكفرهم وضلالهم ، ولم يُخلصوا دينهم لربهم ..

« قالوا أجئتنا لتأفِكنا عن آلهتنا » ..

والاستفهام إنكارى ، إذ ينكرون على هود هذه الدعوة التى يدعوهم إليها ، ويتهمونه بأنه إنما جاء ليضلهم عن آلهتهم ، ويصرفهم عنها ، ويفسد ما بينهم وبينها ..

وقوله تعالى : « فأْتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » هو تحدٍّ لرسولهم ، مع تكذيبهم له ، واتهامهم إياه ، وبأنه إنما جاء ليفسد عليهم دينهم الذى ارتضوه .. وأنه إذا كان صادقاً فيما يهددهم به من عذاب الله ، فليأت به !

قوله تعالى :

* « قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوماً تجهلون » ..

هو ردّ « هود » على هذا التحذير .. إنه لا يعلم ما سيطّلِع عليهم فى غدهم من خير وشر ، فذلك علمه عند الله ، وإنما هو رسول يبلغ رسالة ربه إليهم .. وإن كان الذى يتوقعه فيهم، هو أن يحل بهم العذاب ، لأنهم فى جهل مطبق ، لا يرون معه طريق الحق أبداً .. ومن كان هذا شأنه، فهو فى معرض البلاء والنقمة من الله سبحانه ..

قوله تعالى :

* « فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا .. بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم » . .

العارض : السحاب الذى اعترض فى الأفق فسَدّه .

والضمير فى قوله تعالى : « رأوه » يعود إلى العذاب الذى أنذروا به ، وقد جاءهم فى صورة رحمة ، وهو السحاب الممطر ، وذلك ليكون العذاب أشد وقعاً حيث يجيئهم على حال كانوا يتوقعون فيها الخير والعافية من جهته ..

« فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم » أى فلما رأوا السحاب مقبلا نحو أوديتهم فرحوا واستبشروا ، وقالوا هذا عارض ممطرنا .. ! !

وقوله تعالى : « بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم » هو رد على قولهم هذا عارض ممطرنا ، وهو بلسان الحال والواقع .. إنه ليس سحاباً ممطراً ، بل إن الذى ترونه هو ريح عاصفة ، محملة بالأتربة والرمال ، حتى ليخيّل إليكم منها أنها سحاب مقبل بالغيث ، وهى فى الحقيقة مرسلة إليكم بالعذاب الأليم ..

وقوله تعالى :

* « تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين » ..

أى أن هذه الريح لا تمر على شىء إلا دمرته ، وذهبت بمعالم الحياة والخير فيه . . إنها آية من عند الله ، مسلطة على أعداء الله ، ترميهم بالهلاك والدمار ..

كما يقول الله سبحانه وتعالى فى وصف هذه الريح فى آية أخرى : « ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » (٤٢ : الذاريات) وفيها يقول سبحانه أيضاً :

«وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية » (٦ ـ ٨ : الحاقة) ..

وفى قوله تعالى : « كذلك نجزى القوم المجرمين » وعيد وتهديد للمشركين ، الذين يأخذون موقف قوم عاد ، من التكذيب للرسول ، والتحدى له .. وقد عرفوا ورأوا بأعينهم مساكن قوم عاد ، وقد أصبحت مَعلماً من معالم الخراب ، وإن الذى حلّ بقوم عاد لموشك أن يحل بهم ، إن لم يتحولوا عن موقفهم هذا الذى هم فيه ..

قوله تعالى :

* « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » ..

الضمير فى « مكناهم » يراد به قوم هود ، وأما ضمير المخاطب فى « مكناكم » فيراد به المشركون من قريش .. « وإنْ » هنا للنفى بمعنى «ما» أى ما مكناكم فيه .. والمعنى أن الله سبحانه وتعالى قد مكن لقوم عاد فى الأرض ، وأمدهم بأنعام وبنين ، وكانوا على حال من الأمن والكفاية أكثر مما عليه هؤلاء المشركون ..

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى موضع آخر : « مكناهم فى الأرض ما لم

نمكن لكم » (٦ : الأنعام » ومع هذا فلم يغن عنهم ذلك شيئاً ، ولم يردّ عنهم بأس الله إذ جاءهم . . فهل يغنى ما مع المشركين ـ وهو قليل إلى جانب ما كان بين يدى قوم عاد — هل يغنى عنهم ما معهم شيئا من عذاب الله ؟ . .

ثم إن الله سبحانه وتعالى قد جعل لقوم عاد ، سمعاً ، وأبصاراً ، وأفئدة ، وهى نعم من نعم الله ، كان من الخير لهم أن يفيدوا منها ، وأن يرسلوها فى آفاق الوجود ، فتجىء إليهم بالهدى يكشف لهم معالم الطريق إلى كل خير .. ولكنهم عطلوا حواسهم تلك ، أو وجهوها إلى وجوه الشر والفساد ، فلم يجنهم منها إلا ما هو شر وفساد ..

وقوله تعالى : « إذ كانوا يجحدون بآيات الله » — بيان للعلة التى كان بسببها تعطيل هذه الحواس ، وتلك المدركات ، فلم تغن عن أصحابها شيئاً ، ولم تجلب لهم أى نفع ، وهذه العلة هى ما كان فى كيان القوم من فساد ، بحيث أفسد كل شىء كانوا يستقبلونه من حواسهم ومدركاتهم . . إنهم كانوا على إصرار لما حملوا من كفر وضلال .. ولهذا كانوا كلما تأتيهم آية من آيات الله ، عن طريق سمعهم أو أبصارهم أو أفئدتهم — تغيرت معالمها ، وانقلبت حقيقتها فى كيانهم ، فرأوا النور ظلاماً ، والهدى ضلالا ، والخير شراً . . وهكذا النفوس الخبيثة ، يَخبُث فيها كل طيب ، ويعوجّ على صفحتها كل مستقيم . . شأن المرايا المحدّبة ، أو المقعرة ، تتغير على صفحتها الصور الواقعة عليها ، وتتبدل حقائقها . .

وقوله تعالى : « وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » أى وأحاط بهم العذاب الذى كانوا يستهزئون به ، ويستعجلون وقوعه ، ويقولون لرسولهم فى استهزاء واستخفاف ، وتحدّ : « فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » .

قوله تعالى :

* « ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون»

الخطاب للمشركين ، وهو تهديد ووعيد لهم بأن يصيروا إلى هذا المصير الذى حلّ بالقرى التى حولهم ، كقرى عاد ، وثمود ، وقوم لوط . .

وقوله تعالى : « وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون » .. هو حديث عن أهل هذه القرى التى أهلكها الله . . فما أهلك الله سبحانه أهل هذه القرى حتى بعث إليها رسلا منهم ، يبلغونهم رسالة ربهم ، وينذرونهم بأسه وعذابه ، إن لم يؤمنوا بربهم ، ويستقيموا على طريقه المستقيم . .

وتصريف الآيات ، تنويعها ، واختلاف وجوهها ، وتباين معارضها ، حتى تتوارد أنظارهم على هذه الآيات ، فيكون لهم مع كل آية نظر ، ويكون لهم من كل نظر عبرة ومزدجر . .

وفى قوله تعالى : « لعلهم يرجعون » — إشارة إلى أن تصريف هذه الآيات وتنويعها ، إنما كانت غايته أن تتيح للقوم أكثر من فرصة للتأمل والنظر ، . لعلهم ينتفعون بهذا ، ويرجعون عما هم فيه من كفر وضلال . . ولكنهم لم ينتفعوا ، ولم يرجعوا ، فحق عليهم القول بما ظلموا ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . .

والترجّى — كما أشرنا فى أكثر من موضع — إنما هو منظور فيه إلى الناس ، وإلى أن هذا الذى يساق إليهم من آيات مختلفة الأشكال والألوان ، كان يمكن أن يناط به الرجاء ، وتتعلق به الآمال فى إصلاح القوم ، ولكنهم قطعوا بأيديهم حبـــل الرجاء الممتد إليهم من تلك الآيات ! . .

قوله تعالى :

* « فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون » . .

لولا ، حرف تحضيض ، بمعنى هلاّ ، وفى هذا استدعاء لآلهتهم التى عبدوها من دون الله ، وحثّ لها على أن تخفّ لنجدتهم ، واستنقاذهم مما رماهم الله به من عذاب ، وما صب عليهم من بلاء ! .

فأين آلهتكم تلك ؟ وهل هناك حال أدعى من هذه الحال لمدّ يد العون إليهم ، وانتشالهم من بين هذه الأمواج المطبقة عليهم ؟ .

وقوله تعالى : « قربانا آلهة » أى اتخذوها آلهة يتقربون بها إلى الله ، كما يقول الله تعالى عن المشركين : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (٣ : الزمر) . .

وفى تقديم القربان على الآلهة ، إشارة إلى أنهم لم يكونوا ينظرون إلى هذه المعبودات أولَ الأمر على أنها آلهة ، وإنما كان نظرهم إليها على أنها وسائل يتوسلون بها إلى الله ، ويتقربون بها إليه ، ويقولون فيما يقولون : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (١٨ : يونس) . . ولكن ما إن يمضى الزمن بهم حتى تتحول هذه الوسائل إلى آلهة تُعبد من دون الله ، وتصبح مستأثرة بمشاعرهم ، مستولية على عقولهم . . وليس لله سبحانه مكان فى شعورهم ، أو موضع فى قلوبهم ..

قوله تعالى : « بل ضلوا عنهم » — هو إضراب عن دعوة هذه المعبودات إلى نصرة عابديها . . إنهم لن ينصروهم ، ولن يجدوا لهم

ظلاً فى هـذا الموقف . . فقد ضلوا عنهم ، وتاهوا فى زحمة هذا الكرب العظيم . .

وقوله تعالى : « وذلك إفكهم وما كانوا يفترون » — الإشارة إلى تلك الحال التى عليها هؤلاء الكافرون ، وما أحاط بهم من بلاء لا يجدون له دفعاً . . فهذا هو عاقبة كذبهم ، وافترائهم على الله . .

الآيات : (٢٩ — ٣٥)

* « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) »

التفسير :

[بيعة العقبة .. وليلة الجن]

قوله تعالى :

* « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين » . .

مناسبة هذه الآية وما بعدها للآيات التى سبقتها ، هى أن الآيات السابقة كانت تذكيراً بدعوة نبىّ من أنبياء الله هو « هود » عليه السلام ، وموقف قومه من هذه الدعوة ، وتكذيبهم له وتحدّيهم لما ينذرهم به .. ثم كان من هذا، البلاء الذى أحاط بهم ، وأتى على كل عامر فيهم — فناسب أن يذكر فى هذا المقام موقفُ المشركين من دعوة النبى — صلوات الله وسلامه عليه — وتكذيبهم له ، واستهزاؤهم به ، وأخذه وأصحابه بكل ما استطاعوا من كيد وضر ، حتى لقد هاجر كثير من المسلمين فراراً بدينهم ، وحتى لقد ضاق صدر النبى ، وغامت نفسه فى مكة ، ولم يعد يحتمل لقاء المشركين ، والنظر فى وجوههم المنكرة ، فخرج إلى الطائف ، يلتمس عند أهلها « ثقيف » شيئاً من العزاء والرجاء فى تصديقه والاستجابة له .. وفى الطائف وجد النبى — صلوات الله وسلامه عليه — وجوهاً أشدّ ضلالا ونُكراً من وجوه قريش ، إذ رده القوم ردًّا سفيهاً ، ولم يكتفوا بهذا بل أغروا به صبيانهم وإماءهم وعبيدهم يرجمونه بأفواههم وبأيديهم . .

وبين الطائف ومكة نزل الرسول الكريم منزلا يبيت فيه ، عند موضع يقال له « نخلة » وكان معه غلامه زيد بن حارثة الذى صحبه فى رحلته إلى

الطائف . . وفى هذا المنزل بات النبى — صلوات الله وسلامه عليه — مع آيات ربه ، يرتلها ، ويتلقى منها أمداد الصبر ، والعزم ، بما يتلو من قصص الأنبياء السابقين ، وما احتملوا فى سبيل الدعوة إلى الله من سفهاء قومهم وشياطينهم . .

وما يكاد النبى يختم تلاوته ، ويفرغ من صلاة الصبح ، حتى يستقبل مع أضواء الفجر ، سفيرَ السماء إليه من ربه ، يحمل إليه قرآنا ينبئه بما كان فى ليلته تلك ، وأنه لم يكن وحده فى هذا المنقطع من الأرض ، وأنه إذا كان قد وجد من الناس إعراضاً عنه ، وزُهدا فيما بين يديه وعلى فمه من آيات الله — فإن لله سبحانه جنوداً غير الناس ، يعْمُر بها كل قفر . . فهاهم أولاء جند من جنود الله ، قد جاءوا إليه يستمعون القرآن ، ويحسنون الاستماع إليه ، وينتفعون بما استمعوا منه ، فيؤمنون برسول الله ، ويصدقونه ، ثم لا يقفون عند هذا ، بل يُصبحون دعاةً يدعون بدعوته ، ويبلغون رسالته إلى من لم تبلغه من قومهم . .

* « وإذ صرفنا إليك نَفَراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قُضِىَ ولّوْا إلى قومهم منذرين » .

وإذن ، فالنبى — صلوات الله وسلامه عليه — لم يكن وهو فى هذا المكان المنعزل ، بعيداً عن موقع الدعوة ، بل إنه قائم عليهـا ، حيث تجد آذانا تسمع ، وعقولا تعقل ، وقلوبا تؤمن . . وأنه إذا لم يكن الرسول هو الذى يسعى إلى من يدعوهم إلى رسالته ، فإن طالبي الهدى قد سعَوْا هم إليه ، حين آنسوا بشائر النور ، واستشعروا ريح الخير . . وهكذا شأن أهل الخير ، وطلاب الكمال الإنسانى ، ينشدون الهدى ، ويرتادون مواقعه ،

ويستنبئون أنباءه ، حتى إذا لاحت لهم بشائره ، ولمعت بروق غيوثه ـ أقبلوا عليه مسرعين ، فى لهفة وشوق ، لا يثنيهم عن وجهتهم إليه بُعد الشقة ، ولا قلة الزاد ، ولا تربص الأعداء .. وكما يسعى الكائن الحى إلى رزقه، ويطرق من أجله كل باب يخيل إليه أن وراءه شيئاً يشبع جوعه ، أو يطفىء ظمأه ـ كذلك يفعل الراشدون والعقلاء من الناس ، حيث يسعون فى طلب غذائهم الروحى ، والعقلى ، كما يسعون فى طلب حاجة الجسد ، وما يكفل له الحياة الهنيئة الطيبة . .

وإذا كان النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد وجد فى هذا الخبر السماوى الذى يحمل له أنباء هذا الوفد الكريم ، الذى بات فى ضيافته ، يتلقى أكرم وأطيب ما يتلقاه ضيف من مضيفه ، من بر وإحسان .. حيث قضى هذا الضيف ليلة مباركة يستمع فيها إلى ما يتلو الرسول من آيات الله ، ويتلقى من أنوار هذه الآيات ونفحاتها حياةً مجدِّدة للأرواح ، مطهرة للقلوب ، مزكية للنفوس ـ وإذا كان النبى الكريم ، قد وجد فى هذا الخبر السماوى ما آنس وحشته ، وثبت فؤاده ، وآسى جراح نفسه مما أصابه من يد السفهاء وأفواههم من رَمَيات عمياء حمقاء ـ فإنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ رأى فى نور هذه الآيات ، ومضات مشرقة واضحة على طريق دعوته . .

أن هذه الدعوة ستأخذ لها مطلعاً جديداً تطلع منه ، وأنها ستلتقى بوجوه أخرى لم يكن فى حساب الدعوة أن تلتقى بها فى هذه المرحلة من مسيرتها .. وأنه كما صرف الله إلى النبىّ نفراً من الجن يستمعون القرآن ، ويؤمنون به ، ويحملون دعوته إلى قومهم ، كذلك سيصرف إليه نفراً من الناس ، يجلسون إليه ، ويستمعون إلى ما يكون من آيات الله ، ويؤمنون بما يُتلى عليهم ، ثم ينقلبون

إلى قومهم منذرين ، داعين إلى الله ، فاتحين الطريق إلى تلك الدعوة لتأخذ مكانها بين من يؤمنون بها ، ويدافعون عنها ..

وفى بيعة العقبة الأولى ، نرى هذا النفر الكريم من الأنصار ، وقد انفرد برسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكان منعزل خارج مكة ، بعيد عن أهل الموسم الذين امتلأت بهم شعاب مكة وساحاتها ، وعلى خوف من قريش ، وعيونها الراصدة لحركات النبى ، ولكل من يطلب لقاءه ، أو ينشد أخباره من أهل الموسم .. ثم جلسوا بين يديه يستمعون فى رهبة وخشوع إلى آيات الله ، التى كان قد وقع فى آذانهم شىء منها ، فيما كانت تتناقله الركبان ، وترددة الألسنة .. ثم ما أن انتهى النبىّ من تلاوة ما تيسر من آيات الله ، حتى وجدت الجماعة نور الإيمان يملأ قلبها ، وبَرْدَ اليقين يُثلج صدرها .. فمدوا أيديهم إلى الرسول الكريم ، يبايعونه على الإيمان بالله ، والدعوة إلى الله ، والنصرة لدين الله ..

ويحدث التاريخ أن رجال العقبة الأولى كانوا اثنى عشر رجلا ، يُذكرون بأسمائهم .. وأنهم كتموا أمرهم عمن شهدوا الموسم من قومهم، فلما انتهى موسم الحج ، ورجعوا إلى المدينة ، ذاع أمرهم ، وكثر أعداد الداخلين فى الإسلام من أهل المدينة ، من الأوس والخزرج..

ثم إنه لما كان الموسم التالى ، جاء كثير من المسلمين إلى مكة ولم يكن همهم أن يشهدوا الموسم بقدر ما كان من همهم أن يلتقوا برسول الله ، وأن يبايعوه ، ويتلقوا هدى السماء منه ..

وفى ليلة من ليالى الموسم كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه على موعد للقاء القوم عند العقبة ، على نحو ما كان من لقائه إخوانهم فى الموسم السابق ..

وهناك فى أخريات الليل ، توافد القوم أفراداً على هذا المكان ، حتى إذا اكتمل جمعهم ، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين ـ كما يقول ابن إسحاق ـ تحدث إليهم الرسول الكريم ، وتلا عليهم ما تيسر من آيات الله ، ثم أقبلوا يبايعون رسول الله، على الإيمان بالله ، والسمع والطاعة فى المكْرَه والمَنْشطَ ، والجهاد فى سبيل الله ، وأن يمنعوا رسولَ الله يمنعون منه أنفسهم وأهليهم ..

وهكذا تلتقى بيعة العقبة الأولى بليلة الجن فى « نخلة » ، ويستقبل النبىّ الكريم فى ليلة العقبة نفراً من الإنس ، وقد صرفهم الله سبحانه وتعالى إليه ليستمعوا القرآن ، فلما حضروه واستمعوا إليه ، آمنوا به ، ثم ولّوا إلى قومهم منذرين ..

وكما أن النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم ير الجن ولم يعرف وجوههم ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه ، لم يكد يَرَى شُخوص هؤلاء النفر من الإنس ، أو يعرف وجوههم ، إذ جاءوا إليه فى سِتر من الليل وفى تهامس وتخافت ، أشبه بالحجاب المضروب بينهم ..

ومن جهة أخرى ، فإن فى قوله تعالى على لسان الجن : « ياقومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم » ـ فى هذا إشارة أخرى إلى بيعة العقبة، وإلى تلك الدعوة التى حملها أهل البيعة إلى قومهم بالمدينة، حيث مجتمع اليهود ، وحيث كان كتاب موسى « التوراة » هو الكتاب السماوى الذى يعرف أهلُ المدينة شيئاً عنه، مما كان يحدث به اليهود عن كتابهم ، وعن نبيهم موسى عليه السلام .. ولا شك أن حديث أصحاب البيعة إلى قومهم إنما كان يحمل إليهم مع أنباء النبى الجديد الذى ظهر فى العرب ، ومعه كتاب منزل من ربه ، يتلوه على الناس ـ كان يحمل إليهم مع هذا حديثاً مقارناً لهذا

الكتاب والكتاب الذى بين يدى اليهود ، وهو التوراة ..

ولعلّ هذا هو السرّ ، فى اختصاص كتاب موسى بالذكر ، دون الإنجيل ، وهو أقرب عهداً بالقرآن .. !!

ومن عجبٍ أننا لا نجد أحداً من المفسرين ـ فيما بلغ علمنا ـ قد التفت إلى ما وراء ليلة الجن هذه ، وما تومىء إليه من اتجاه مسيرة الدعوة الإسلامية ، بعد تلك الليلة ، وما بينها وبين بيعة العقبة من مشابه ، وخاصة بعد أن أصبحت بيعة العقبة أمراً واقعاً ، يأخذ مكانه البارز فى حياة الدعوة الإسلامية ..

من عجب ألا يلفت أحد من المفسرين إلى شىء من هذا ، على حين اتسع لهم مجال القول ، وانفسحت أمامهم آفاق الخيال .. فتحدثوا أحاديثَ عجباً عن هذا النفر من الجنّ الذين استمعوا إلى الرسول ، فذكروا عددهم ، وأسماءهم واحداً واحداً ، والقبيلة التى ينتسبون إليها من قبائل الجنّ ، والوطن الذى يعيشون فيه ، وهو «نصيبين» من أرض الشام .. إلى غير ذلك من الأخبار التى تَنطق الآيات القرآنية بِـكذبها .. فالقرآن يحدّث بأن النبى صلى الله عليه وسلم ، لم ير لهؤلاء الجن وجها ، ولم يحس لهم رِكزاً ، حتى جاءه خبر السماء بقوله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين .. »

فهذا إخبار للنبى بأمرٍ لم يقع منه موقع الحس والمشاهدة .. وأكثر من هذا ما نجده فى قوله تعالى : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً» .. فهذا خبر صريح بأن النبى لم يكن يعلم من أمر هذا النفر من الجن شيئاً،وأن الله سبحانه قد أوحى إليه بأن الجن قداستمعوا إليه» .. فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً» .. فعِلْم النبى عن هؤلاء الجن إنما كان بما أوحى إليه الله سبحانه وتعالى من خبرهم ، وما أعلمه من أمرهم ..

فكيف يقال ـ مع هذا ـ إن عددهم كان كذا ، وأن أسماءهم هى كيت وكيت ، وأن موطنهم هو كذا ، وأن قبيلتهم هى كيت ؟ .

كيف يقال هذا ، والنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يحدّث بشىء منه قطعاً ، لأنه لايحدث إلا بما يعلم ، وهو لم يعلم من أمر هؤلاء الجنّ شيئا ، حتى أعلمه الله سبحانه ، أن جماعة من الجن قد استمعوا إليه ، دون أن يراهم ، أو يشعر بهم ! .

ونعود إلى شرح مافى الآيات من مفردات ، وعبارات . .

قوله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن » ـ صرف الشىء حوله من حالٍ إلى حال ، ومن موقف إلى موقف ، وصرف الشىء إلى الشىء توجيهه إليه . . ومنه تصريف الرياح ، أى إطلاقها من مهابّها التى تهبّ منها إلى الجهات الموجهة إليها . .

وهذا يعنى أن الله سبحانه وتعالى ، قد وجّه هؤلاء النفر من الجِنّ ، إلى حيث كان النبى صلى الله عليه وسلم ، يتلو القرآن . .

النفر : الجماعة التى تصلح للنفير من ثلاثة إلى عشرة .

قوله تعالى : « فلما حضروه » أى كانوا بمحضر منه ، بكيانهم كلّه ، حسًّا ومعنى ، فالحضور هنا حضور تجتمع له ملكات الحاضر كلها . . ولهذا كان من الجن هذا الإدراك السّريع ، والفهم الفاقه لما استمعوا إليه من آيات الله ، وإنه ما إن وقع لآذانهم شىء من القرآن ، حتى خشعوا بين يديه ، وقالوا بلسان واحد : « أنصتوا » . . وهذا الإنصات الخاشع اليقظ ، هو الذى يفتح المدركات إلى آيات الله ، ويجعل للبصائر بصراً هادياً إلى مواقع العبرة والعظة منها ، ولهذا جاء قوله تعالى : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم

تُرحمون » (٢٠٤ : الأعراف) . . فالرحمة إنما تُرجى لمن يمتلىء قلبه بإيمان الله وخشيته ، ولن يقع الإيمان والخشية إلا لمن يتلقاهما من آيات الله وكلماته . . ولا يتلقى من آيات الله وكلماته شيئاً إلاّ من أنصت خاشعاً ، ونظر مفكراً ، واستمع متدبِّرا . .

قوله تعالى :

« فلمَّا قُضِيَ » أى فُرِغ من تلاوة ما كان يُتلى من القرآن . .

وفى التعبير ، بالفعل « قُضى » بدلا من فُرِغ ، أو انتهى ، ونحوهما مما يَدلّ على بلوغ الغاية — إشارة إلى أن حقًّا يُقضى ، ومطلوباً يطلب . . فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يقصد بتلاوة القرآن فى ليلته تلك ذِكرَ ربه ، وإرواء قلبه ، بكلمات الله وآياته . . والجنّ الذين استمعوا . قد كان مجلسهم للاستماع ، إنما هو لالتماس خير ، وطلب هدًى .. وقد قضى النبي الكريم مأربه ، بتلاوة ماتيسر له من القرآن ، كما قضى الجنّ طَلِبتهم فيما جاءوا له ، من التماس الخير والهدى . .

* * *

قوله تعالى :

* « أو لم يَرَوْا أن الله الذى خَلَق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادِرٍ على أن يحيِيَ الموتى بلى إنه على كلّ شىء قديرٌ » .

عاد القرآن الكريم إلى مواجهة المشركين ، بعد أن ساق إليهم هذا الخبر العجيب الذى يحدّث عن استماع الجن لهذا القرآن ، الذى ، كذبوا به ، وسخروا من الرسول الذى يتلوه عليهم ، مع أن الكتاب كتابهم ، واللسان الذى ينطق به لسانهم ، والرسول الذى يتلوه عليهم بشر مثلهم ، وواحد من قومهم ! فهل بعد هذا الضلال ضلال ؟ وهل بعد هذا الخسران خسران ؟

ففى مواجهة القرآن للمشركين بعد هذا ، وفى لقائهم بما شبّه عليهم من أمر البعث ، الذى كان السببَ الأول فى تكذيبهم للرسول ، وإنكارهم لكل ماجاءهم به — فى هذا مايجعل هؤلاء المشركين يلقوْن قضية البعث لقاء مجدّدًا ، قد يفتح لكثير منهم الطريق إلى الحق والهدى . . فقد رأوا مابين يدى الله من قدرة قادرة ، ملك بها هذا الوجود زمانًا ومكانًا وخَلْقًا وتصريفًا ، وأنه سبحانه الذى خلق السموات والأرض ، وما عليهما ، وما فيهما ، وما بينهما . . فكيف ينكر عاقل على الله — وتلك بعض مظاهر قدرته — أن يحيى الموتى ، ويبعثهم من قبورهم ؟ « أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئًا ؟ » فهؤلاء الموتى لم يكونوا شيئًا ، فإعادتهم إلى الحياة بعد الموت ، أيسر ، وأقرب — فى حدود النظرة الإنسانية — مِن خلقهم الأول ، ولم يكونوا شيئًا !!

وقوله تعالى :

« بلى » أداة يُجاب بها فى الإثبات للمستفهَم عنه ، الواقع فى حيز استفهام منفىّ .. أى بلى ، قادر على أن يحيى الموتى .. وهذا الجواب ، هو الجواب الحق ، الذى ينطق به الوجود كلّه ، وهو حجة لازمة للمشركين ، سواء أنطقوا به أو لم ينطقوا . .

وقوله تعالى :

« إنه على كل شىء قدير » تقرير للجواب ، وتأكيد له . .

قوله تعالى :

* « ويومَ يُعْرَض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحقّ قالوا بلى وربِّنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » :

ومن هذه المواجهة للمشركين بأمر البعث ، وتقريره على تلك الصورة القاطعة الملزمة ـ ينتقل المشركون المكذبون بالبعث فى سرعة خاطفة ـ لا إلى البعث ، بل إلى ماوراء البعث،من حساب وجزاء ، وإذا هم بين يدى جهنم التى كانوا يكذبون بها، ويكفرون بيومها ـ : « هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن » ..

وقوله تعالى : « أليس هذا بالحق » .. هو سؤال تأنيب ، وتقريع، وإيلام للمشركين المكذبين بيوم الدين ، وبما أنذروا به من عذاب الله فى هذا اليوم ..

والمشار إليه هنا ، هو العذاب .. أى أليس هذا العذاب بالحق ؟ إنكم لم تُظلموا شيئاً ، فهذا جزاء ماعملتم ..

وقوله تعالى : « قالوا بلى ! » هو إقرار منهم ، يُدينون به أنفسهم ، وبأن هذا العذاب الواقع بهم هو من صنع أنفسهم ، وبما كسبت أيديهم !

وقوله تعالى : « قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » هو دفع بالمشركين إلى أودية جهنم ، وإطعام لهم مما فيها من ألوان العذاب والنكال .. فليذوقوه حميا وغساقاً ، فليس لهم اليوم ها هنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين ..

قوله تعالى :

* « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار .. بلاغ .. فهل يُهلك إلا القوم الفاسقون » ..

وبهذه الآية الكريمة تختم السورة بهذا التوجيه الكريم من الله سبحانه لرسوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يدعوه فيه إلى أن يصبر على ما يلقى من

أذى المشركين ، وعنادهم ، وألا يستعجل لهم العذاب فى الدنيا ، فإن العذاب الذى ينتظرهم فى الآخرة قريب ، وأنه حين يقع بهم ، لا يحسبون حساباً لأيام الدنيا التى عاشوها ، وقطعوا فيها أعمارهم ، فإنه أيًّا كانت أعمارهم تلك من الطول ، فسيرونها يومئذ لم تكن غير ساعة من نهارٍ . . وأنهم وُلدوا صباح يوم ، ثم أخذهم عذاب الآخرة فى ضُحَى هذا اليوم ! فهل من يرى هذا الزمن على حقيقته يستعجل العذاب لأهل العذاب ؟ . .

وفى قوله تعالى : « كما صبر أولو العــــزم من الرسل » — ما يُسأل عنه . .

فأولا : مَن هم أولو العزم من الرسل ؟ وهل من الرسل ما لا يتصف بهذه الصفة ؟ ثم ألاَ يكون عدم اتصاف الرسول بتلك الصفة مما ينافى المهمة المنتدب لها من السماء ؟ . .

اختلف المفسرون فى تحديد أولى العزم من الرسل . . والرأى على أنهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، صلوات الله وسلامه عليهم . .

ولا شك أن الرسول — صلوات الله وسلامه عليه ، — وهو المقصود بهذا الأمر ، كان يعرف عن يقين من هم أولو العزم من الرسل . . أما غير الرسول فإنه ليس مطالباً بأن يعرف من هم أولو العزم من الرسل ، إذ لم يكن لغير الرسول شىء فى هذا الأمر الموجه إليه من ربه ، إذ كان امتثال هذا الأمر ، والوفاء به ، هو مما يطالب به النبى وحده ، لما آتاه الله من فضله ، من نفسٍ عظيمة تتسع لهذا الأمر العظيم ، والله سبحانه وتعالى يقول : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (٢٨٦ : البقرة) . . وإن كان هذا لا يمنع من أن يكون لنا فى رسول الله أسوة ، فى مقام الصبر على ما نُبتلى به من شدائد .

أما أن يكون هناك من الرسل من لا يتصف بهذه الصفة ، فذلك ما صرح به القرآن فى قوله تعالى عن آدم عليه السلام : « ولقد عهدنا إلى آدمَ من قبل فنسى ولم نجد له عزماً » (١١٥ : طه) وقوله تعالى عن يونس عليه السلام : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت » (٤٨ : القلم) ..

فالرسل — عليهم الصلاة والسلام — وإن كانوا أكملَ الناس كمالا ، وأكرمهم مقاماً ، هم ـ فى كمالهم ومقامهم الذى لا يساميه أحد من البشر ـ درجات ، بعضها فوق بعض ، كما يقول سبحانه : « تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض » (٢٥٣ : البقرة) ..

وإذا كان فى الرسل ـ عليهم السلام ـ الفاضل والمفضول ، فإن هذا ـ كما قلنا ـ لا ينقص من قدر المفضول ، إذ كان ـ وهو فى مقامه هذا ـ على هامة الكمال المتاح للبشر ، من غير رسل الله . .

وثانيا : فى دعوة الرسول إلى أن يتشبه فى الصبر بمن سبقه من أولى العزم من الرسل ـ فى هذا ما يُفهم منه أن غاية الرسول من الصبر هو أن يكون كأحد هؤلاء الرسل الكرام ـ والسؤال هنا : كيف يكون الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى مقامِ مَن يطلب الأسوة اللحاق بغيره من أولى العزم ، وهو خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ؟ .

والجواب على هذا من وجهين :

أولا : أن الأمر بالصبر هنا يحمل تهديداً للمشركين ، وأن على النبى ألا يستعجل لهم العذاب ، الذى هو قريب منهم .. فالمراد بالصبر ليس صبر المعاناة والاحتمال وحسب ، وإنما المراد به أولاً ، هو صبر الانتظار ، والإمهال ،

كما يقول سبحانه : « فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً (١٧ : الطارق) . . وقد كان الرسل فى هذا فريقين ، فريقاً استعجل العذاب لقومه ، بعد أن بلغهم رسالة ربه، كما يقول الله سبحانه على لسان نوح : « وقال نوح رب لا تذَر على الأرض من الكافرين ديّاراً » (٢٦ : نوح) . . وكما فعل يونس ، حين زايل موقفه من قومه قبل أن يؤمنوا بالله ، وتركهم لمصيرهم ، الذى يصير إليه الضالون المكذبون . . وفريقاً صبر وانتظر ، حتى جاء أمر الله فى قومه ، كما فعل إبراهيم، وموسى ، وعيسى ، فلم يدعُ أحد منهم ربّه بأن يهلكهم ، على كثرة ما ساقت إليهم أقوامهم من ألوان العنت والأذى . .

أما النبى صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه قد جاوز هذه الغاية إلى غاية أخرى ، فكان لسانه دائماً داعياً إلى الله بهداية قومه ، والصفح عنهم . . حتى فى أشد أحوالهم إعناتاً وأذى له .. كما كان ذلك فى موقفه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يوم أحد ، وقد شجه المشركون ، وأسالوا دمه ، وكسروا رباعيته ، فما زاد أن وجّه وجهه إلى السماء ، وبسط يديه إلى ربه قائلا : « اللهم اهدِ قومى فإنهم لا يعلمون » .

وثانيا : أن فى قوله تعالى : « ولا تستعجل لهم » ـ إشارة صريحة إلى إلى أن الصبر المطلوب هنا ، هو صبرُ الإمهال والانتظار ، لا صبر الاحتمال والمعاناة ، ـ كما أشرنا إلى إلى ذلك من قبل ـ وهذا يعنى أن الأمر بالصبر الموجه إلى النبى من ربه سبحانه وتعالى ، إنما يراد به تهديد المشركين بالعذاب الذى ينتظرهم، والذى يطلب إلى النبى ألا يستدعيه لهم ، ولا يستعجل وقوعَه بهم ، فهم سائرون إليه ، وسيلقونه عما قريب . . إنها ساعة من نهار ، ثم يلقاهم العذاب الذى يستعجلونه . .

وعلى هذا ، فإن الصبر المطلوب من النبىّ ، منظور فيه إلى قومه ، وإلى أنهم لن يُعذَّبوا فى الدنيا ، وإنما سيؤجل عذابهم إلى الآخرة ، كما فُعل بأقوام أولى العزم من الرسل . .

* * *

٤٧ - سورة « محمد »

نزولها : مدنية بالإجماع

عدد آياتها : ثمان وثلاثون آية

عدد كلماتها : خمسمائة وتسع وثلاثون كلمة

عدد حروفها : ألفان وثلاثمائة وتسعة وأربعون حرفاً

مناسبتها لما قبلها

خُتمت سورة الأحقاف بقوله تعالى : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يُهلك إلا القوم الفاسقون » . .

وبدئت سورة « محمد » بعدها بقوله تعالى : « الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله أضل أعمالهم » . .

فكان هذا البدء - كما ترى - أشبه بالوصف الكاشف عن القوم الفاسقين ، فهم الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، الذين أضل الله أعمالهم . .

فالسورتان ، أشبه بسورة واحدة ، فى تجاوب آياتها والتحام معانيها . .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٩)

* «الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩)»

التفسير :

قوله تعالى :

* «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم» ..

هكذا تبدأ السورة بهذه المواجهة، التي تلقى المشركين والكافرين

بهذا الخبر المشئوم ، الذى يسدّ عليهم منافذ النجاة ، ويَدَعهم فى متاهات الضلال يتخبطون ، وقد تقطعت بهم الأسباب ، وأفلت من أيديهم كلّ متعلق كانوا يتعلقون به ، من أوهام وظنون . .

ويبدو هذا اللقاء بالكافرين وكأنه أولُ وجه يلقاهم على طريق ضلالهم ، ثم لا يكون منه إليهم إلا أن يُلقىَ إليهم بهذا الخبر المزعج ، وأنهم فى وجه عاصفة وشيكٍ التقاؤهم بها ، وهلاكهم بين يديها . . ذلك على حين أن هؤلاء الكافرين ، قد كان لهم قبل هـذا أكثر من لقاء مع آيات الله ، ومع رسول الله ، يدعوهم إلى الله ، ويكشف لهم طريق الهدى ، ويحذرهم عاقبة ماهم فيه من ضلال . . ولكن هكذا يجىء اللقاء بهم هنا ، وكأنه يضرب صفحاً عن كل هذه المواقف التى كانت لآيات الله ولرسول الله معهم إذ لم يكن لهذا كله ، أثر فيهم ، ولا نفع لهم . . وإذن فليستقبلوا ما كانوا .. يستحقون أن يُستَقبلوا به من أول الأمر . . فهذا هو حسابهم وجزاؤهم . . أما ماقُدّم إليهم من قبل من وسائل الهداية ، وسبل النجاة ، فهو مما يقيم الحجة عليهم ، ويقطع كل عذر لهم عند أنفسهم ، كما أنه مما يملأ قلوبهم حسرة وكمداً ، حين ينكشف لهم الأمر ، ويحلّ بهم البلاء ، ويرون أن وسائل النجاة من هذا البلاء ، قد كانت بين أيديهم ، وتحت سمعهم وأبصارهم ، فلم يلتفتوا إليها ، ولم يمدّوا أيديهم لها . .

وإنه ليس أشدّ إيلاماً للإنسان من أن تكون السلامة فى يده ، ثم يُلقِى بنفسه إلى التهلكة ! ! .

ثم إنه مما يزيد فى حسرة هؤلاء الذين كفروا ، أنهم لم يُهلكوا أنفسهم وحسب ، بل إنهم أهلكوا أهليهم وإخوانهم ، إذ كانوا دعوة من دعوات الضلال لهم ، وبمحادتهم لله ورسوله . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة » (١٥ : الزمر) .

وقوله تعالى : « أضلّ أعمالهم » هو حكم على الـكافرين بفساد أعمالهم كلها ، وردُّ الله سبحانه وتعالى لها ، وعدم قبولها منهم ، حتى ولو كانت مما يُحسب فى الأعمال الصالحة . . فـكل عمل لا يزكيه الإيمان بالله ، هو عمل ضائع ، ضال . . لا يعرف له طريقاً إلى مواقع الرضا والقبول من الله .

قوله تعالى :

* « والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزّل على محمد وهو الحقّ من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم » .

هو بيان الوجه الآخر من وجوه الناس ، وهم الذين آمنوا بالله ، ثم أتبعوا إيمانهم بالله ، الأعمالَ الصالحة ، التى هى ثمرة الإيمان بالله ، فمن آمن بالله ، كان مطلوباً منه ، بمقتضى هذا الإيمان ، أن يستجيب لله ، وأن يستقيم على طريق الحق والخير ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . .

وقوله تعالى : « وآمنوا بما نزل على محمد » هو إيمانهم بالرسالة الإسلامية التى جاء بها النبىّ ، بعد الإيمان الذى تلقاه المؤمنون من الرسالات السماوية السابقة ، أو دلّتهم عليه عقولهم . .

فمن كان مؤمناً بالله قبل الرسالة المحمدية ، كان من شأن إيمانِه هذا ، أن يدعوَه إلى الإيمان بتلك الرسالة ، لأنها دعوة مجدّدة إلى الإيمـان بالله . . والإيمان بالله ، طريق واحد ، يلتقى عليه المؤمنون جميعاً . . وإنه ليس للمؤمنين بالله طريقان ، بل هو طريق واحد . . فمن كان على غير هـذا الطريق فهو ليس من المؤمنين ، كما يقول الله سبحانه : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبعْ غير سبيل المؤمنين نُوَلِّهِ ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » (١١٥ : النساء) .

وعلى هذا ، فإن من بلغته الرسالة الإسلامية ، من المؤمنين ، من أهل الكتاب ، أو الفلاسفة والحكماء ، ثم لم يؤمن بهذه الرسالة ، فهو ليس مؤمناً وليس على طريق المؤمنين . .

وقوله تعالى : « وهو الحقّ من ربهم » . . إشارة إلى أن المؤمنين الذين آمنوا بالله ، إنما يؤمنون ـ إذ يؤمنون بما أنزل على محمد ـ بالحقّ المنزل من ربهم . . فمن أنكر هذا الحق المنزل من عند الله ، فليعلم أن ماعنده من إيمان ليس من الحقّ ، إذ لو كان حقاً لالتقى مع هذا الحقّ ، فالحقّ لا يصادم الحق، ولا تختلف طريقُه معه . .

وقوله تعالى : « كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم » . . هو خبر لقوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزّل على محمد وَهو الحق من ربهم » أى أن الذين آمنوا هذا الإيمان ، وعملوا الصالحات ، كفّر الله عنهم ما كان منهم من سيئات ، قبل أن يؤمنوا بالرسالة المحمدية ، فهو إيمان مجدّد لإيمانهم ، ومصحح له ، إذ كان هو الدّين كله ، وبه تمّ الدين الذى جمع كلّ ما جاء به الرسل ، كما يقول الله تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » (١٩ : آل عمران) وكما يقول جل شأنه : « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (١٣ : الشورى) وكما يقول جل شأنه : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقُبل منه » (٨٥ : آل عمران) .

وفى قوله تعالى : «وأصلح بالهم» ـ إشارة إلى مايثمره الإيمان بدين الإسلام ، إذ يجمع قلوب المؤمنين به ، ويقيم مشاعرهم على أمر واحد ، فلا يكون منهم التفات إلى هذا الدين أو ذاك ، إذ أن الإيمان بالإسلام إيمان بجميع رسالات السماء ،

وتصديقٌ بكل رسل الله .. سواء أكان هذا الإيمان بالإسلام من أهل الكتاب ، أو ممن لا كتاب لهم .. وبهذا الإيمان يستريح بال المؤمن ، ويطمئن قلبه ، ولا تنزع به نازعة من عداوة أو بغضة أو مجافاة ، لأى دين من الديانات السماوية ، إذ كانت كلّها مجملة فى الإسلام ، مطوية تحت جناحه .. ولعلّ هذا معنًى من معانى، كلمة « الإسلام » التى كانت عنواناً لهذا الدين، الذى يجد من يدين به ، السلامَ بين مشاعره ، كما يجد السلام مع الناس ! وذلك صلاح البال على تمامه وكماله ..

والبال هو الحال والشأن ، الذى يكون عليه الإنسان ، يقال: ما بال فلان؟ أى ما شأنه ؟ وما حاله ؟.

قوله تعالى :

* « ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحقّ من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » ..

الإشارة هنا « ذلك » مشار بها إلى ما تقرر فى الآيات السابقة ، من أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزل على محمد ، سيهديهم الله ويصلح بالهم ، وأن الذين كفروا قد أضل الله سعيهم ، وأفسد مشاعرهم ، وأزعج خواطرهم ــ فهذا الذى فيه المؤمنون من هدًى وإصلاح بال، وما عليه الكافرون من ضلال وسوء حال ، هو بسبب أن كلاً من الفريقين قد سلك الطريق الذى يصل به إلى هذا الذى هو فيه .. فالذين كفروا اتبعوا الباطل ، فكان أمرهم إلى الخذلان والبوار ، والذين آمنوا اتبعوا الحق المنزّل عليهم من ربهم ، وهو القرآن ، فكان أمرهم إلى الأمن والهدى والسلام ..

وقوله تعالى : « كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » ــ الضمير فى «أمثالهم»

يصحّ أن يكون عائداً إلى الناس ، بمعنى أنه بمثل هذه الأمثال يضرب الله للناس الأمثال ، التى تكشف لهم أحوالهم . .

ويجوز أن يكون الضمير عائداً إلى الكافرين ، والمؤمنين ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يضرب للناس أمثال الكافرين والمؤمنين ، ليكون لهم العبرة والعظة ، فيما يرون من هؤلاء وأولئك . .

قوله تعالى :

* « فإذا لقيتم الذين كفروا فضربَ الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوَثاق فإما منًّا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم » . .

بعد أن بينت الآيات السابقة حال كلٍّ من الكافرين والمؤمنين ، وأن الكافرين قد أضل الله أعمالهم ، وأفسد أحوالهم ، وأنه سبحانه قد هدى المؤمنين وأصلح بالهم ـ بعد هذا جاءت النتيجة اللازمة لهذا البيان ، وهو أن الناس فريقان : كافرون ومؤمنون ، وأعداء لله ، وأولياء لله . . ومن ثَمّ كان لا بد أن يقف المؤمنون فى وجه أعداء الله ، وأن يعملوا على حماية أنفسهم من شرهم ، إذ كان أهل الشر والفساد ـ دائماً ـ حرباً على أهل الخير والسلامة ، شأن المصاب بداء خبيث ، فإنه يكون خطراً على من يخالطه أو يتصل به . .

وعلى هذا ، فإن على المؤمنين ، إذا التقوا بالكافرين فى ميدان قتال ، أن يوطنوا أنفسهم على أن تكون الغلبة لهم ، فإن انتصارهم انتصار للحق والخير ، وهو انتصار لله ، ولدين الله ، وأن هزيمتهم تمكين الباطل ، وتسليط البغى والعدوان ، على مواقع الخير والحق . .

وقوله تعالى : « فضربَ الرقاب » أى فاضربوا الرقاب .. وقد أقيم مصدر الفعل مقام الفعل ، للإشارة إلى أنه لايكون للمؤمنين فى لقاء الكافرين أى فعل أو شأن ، إلا الضرب ، والضرب للرقاب . .

والمصدر هو أصل لما يشتق منه من أفعال وصفات ، وأسماء .. وهذا يعنى أنه جامع لكل معنى يُشتق منه .. وهذا يعنى أن تسليط المصدر على شىء ، هو قَصْرُ كل معطيات المصدر على هذا الشىء وحده ، دون التفات إلى شىء غيره . .

وهنا فى هذا المصدر « ضرب الرقاب » .. قد سُلّط المصدر على الرقاب ، فكان هذا قاضياً بألا يكون للمؤمنين شأن فى موقف القتال مع الذين كفروا ـ إلا الضرب ، والضرب فى الرقاب ، دون غيرها . .

والمراد بضرب الرقاب ، الضرب فى موطن القتل ، لا فى موطن آخر ، كالأطراف ونحوها ، حيث لا يكون القتل محققاً بضربها ..

هذا ، وليس الضرب للرقاب أمراً لازماً لابد منه ، إلا إذا أمكن ، وسنحت الفرصة للمؤمن من ضرب الكافر الضربةَ القاتلة .. أما حين لا يمكن ضرب العنق ، أو الضرب فى مقتل ، فليضرب حيث أمكنه الضرب ، فى الأطراف أو غيرها . .

أما فائدة الأمر بضرب الرقاب ، فهو لعزل شعور المسلمين عن الاستبقاء على من أمكنتهم الفرصة فيهم من الكافرين ، وقَدَروا على قتلهم ، يريدون بذلك أسرهم ، وجعلهم من مغانم الحرب .. وهذا من شأنه ألا يقيم نظر المسلم على الجهاد فى سبيل الله ، وجَعْله خالصاً له ، إذ كان ينظر إلى ما يقع ليده من مغانم ، وهذا بدوره يدعو المسلم إلى الحرص على حياته ، والنجاة من القتل ، حتى

يأخذ حظه من تلك المغانم ، وهذا من شأنه أن يُضعف من بلاء المسلم فى القتال، ومن نكايته فى العدوّ .. وهذا ، وهذا ، وكثير غيره ، مما يَخفّ به ميزان المجاهد فى سبيل الله ، وتذهب به ريح المجاهدين ، إذا نظر المجاهد فى ميدان القتال إلى نفسه ، وطلب لها السلامة ، أو الغنيمة ، ولم يكن مطلبه الأول هو الانتصار على العدوّ ، أو الاستشهاد فى ميدان القتال ..

وقوله تعالى : « حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق » ..

« حتى » حرف غاية ، لبيان الحدّ الذى يجب أن يقف فيه المسلم عن قتل الكافر ، فى ميدان القتال ، وهو أن يرى الكافرَ وقد أثخنته الجراح ، وسقط فى ميدان المعركة .. ، ولم يعد قادراً على المشاركة فيها ـ هنا لايجوز للمسلم أن يقتل هذا المثخن بالجراح ، بل كل ما يفعله ، هو أن يتحقق من أنه لن ينهض ليحارب من جديد ، وذلك بأن يشد وَثاقه ، أو يضربه ضربة تُعجزه عن القيام، وَلا تقضى عليه ..

فشدّ الوثاق ، قد يكون على حقيقته ، إن أمكن ، وَقد يكون بتعجيز الجريح عن أن ينهض ، ويعود إلى قتال المسلمين مرة أخرى ، فى هذه المعركة ..

وهذا وجه من وجوه الإسلام المشرقة ـ وكل وجوه الإسلام وضيئة مشرقة ـ وما فيه من معانى الإنسانية الرفيعة السامية ، التى تراود أحلام الفلاسفة والأخلاقيين ، ولا يجدون لها فى عالم الواقع مكاناً ..

فالإسلام فى حربه للكافرين ـ وهم حرب على كل حق وخير ـ لايريد قتلهم ، ولا يشتهى إراقة دمائهم ، ولو كان من همّه هذا لما ردّ سيفه عمن كانوا لساعتهم حرباً على المسلمين ، يقتلونهم ويسفكون دماءهم ، ثم أغمدت سيوفهم ، وتكسرت رماحهم ، وأصبحوا فى عجز قاهر لهم عن أن يضربوا بسيوفهم أو يطعنوا برماحهم ! ..

إن غاية الإسلام من حرب أعدائه هو دفع شرّهم ، ووقاية المسلمين من الخطر الذى يتهددهم من جهة عدوّهم . . فإذا لم يكن ثمة خطر ، فلا حرب ، ولا قتل ، فإذا كان خطر ، فهى الحرب ، والقتال والقتل . . فإذا زال الخطر غمدت السيوف ، وأطمئنت نار الحرب . .

هذا هو الإسلام فى حربه .. إنها الحرب لطلب السلامة والسلام ، وليست حربا للبغى ، والتسلط . .

فأى ميزان أعدل وأقوم من هذا الميزان فيما بين الناس والناس ؟

وأى أمن وأى سلام كهذا الأمن والسلام ، الذى يجده المجتمع الإنسانى فى ظل مبدأ كهذا المبدأ ، الذى يفرضه الإسلام على أتباعه فى وجه العداوة وفى ردّ العدوان ، مما تسوقه إليهم الحياة على يد الأعداء والمعتدين ؟

يقول الرسول الكريم فى شرح هذا المبدأ ، وتوكيده . .

« لا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلا صغيراً ، ولا امرأة »

وكان صلوات الله وسلامه عليه ، يوصى من يبعثهم للجهـــــاد بقوله :
« اخرجوا باسم الله تعالى تقاتلون فى سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ، ولا تَغُلّوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الوِلدن ولاأصحاب الصوامع »

إنها حرب الإسلام ، غايتها الإصلاح ، ودفع الخطر ، وبتر الأعضاء الفاسدة من المجتمع الإنسانى . . ولو كان من همّ الإسلام الحرب للغلب والقهر والتسلط ، لما كان معها إلا التدمير لكل شىء ، والقتل لكل نفس . .

وقد تلقى المسلمون من دينهم ، ومن هدى نبيهم هذا الأدب الإنسانىّ العالى ، فى حرب عدوّهم ، فلم تسكرهم حُمَيَّا النصر ، ولم تَجُرْ على دينهم

ومروءتهم شهوة الانتقام والتشفى .. بل كانوا على هذا الأدب الربانىّ فى السلم والحرب ، وفى حال الهزيمة والنصر ..

يقول أبو بكر رضى الله عنه ، وهو يودّع يزيد بن أبى سفيان وكان أحدَ القواد الأربعة ، الذين وجههم أبو بكر لحرب الروم فى الشام :

« إنى موصيك بعشر خلال .. لا تقتل امرأة ، ولا صبيًّا ، ولا كبيراً هَرِماً ، ولا تقطع شجراً مثمراً ، ولا تخرّب عامراً ، ولا تعقرنّ شاة ولا بعيراً إلا لمأ كله ، ولا تعقرنّ نخلا ولا تحرقه ، ولا تَغْلُلْ ، ولا تَجْبُنْ » .

وقوله تعالى :

« فإمّا منًّا بَعدُ وإما فداءاً » .. هو تعقيب على قوله تعالى : « حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق » . إذ المراد بشدّ الوثاق ـ كما قلنا ـ هو عزل الذين يُثْخَنون بالجراح عن القتال ، ثم أخذهم فى الأسرى ، وإنزالهم على حكم الأسر .. إذ ليس الجريح من الأسرى إلا واحداً منهم ، فلا يؤخذ بحكم المقاتلين ، فيجهز عليه .. وهذا ماجاء فى قوله تعالى : « فإما منًّا بعد وإما فداء » .. لتقريره ، ولدفع ما يقع من شبهة فى معاملة الجرحى ، وإلحاقهم بالمحاربين الذين تضرب رقابهم ..

فهؤلاء الجرحى من مقاتلى العدوّ ، يؤسرون ، ثم يؤخذون بحكم الأسرى على إطلاقه ، وهو إما أن يُمنّ عليهم ، ويطلق سراحهم ، تفضلا عليهم ، وإحسانًا إليهم ، ومقابلة إساءتهم وعدوانهم بهذا الفضل والإحسان ؛ وإما قبول الفدية منهم ، وهو عِوَض مالىّ ، أوعينى ، أو شخصىّ . وذلك بأن يفرض على تخليص الأسير من الأسر قدر من المال ، أو السلاح ، أو المتاع ، أو بتخليص أسير فى يد العدو من أسرى المسلمين ..

والأمر فى هذا كله متروك لولىّ الأمر ، القـائم على شئون الحرب الدائرة بين المسلمين ، وبين العدوّ ، فهو الذى يقدّر الأمرَ فى شأن أسرى العدو ، أفراداً أو جماعات ، بالعفو والمنّ ، أو الفداء ..

قوله تعالى :

« حتى تضع الحرب أوزارها » — هو غاية للحكم الذى جاء به الأمر فى قوله تعالى :

« فضربَ الرقاب » . . فهذا الحـكم قائم على المسلمين الذين يلتقون بالـكافرين فى ميدان القتال . . إنهم مأمورون أمراً إلهياً بأن يضربوا الضربات القاتلة للأعداء ، غير ملتفتين إلى أخذهم أسرى ، الأمر الذى يحملهم على أن يتحروْا ضرب المواطن غير المميتة منهم ، حتى يكونوا مغنماً من مغـانم الحرب .. ومن جهة أخرى تشير هذه الغاية إلى أن حكم الضرب فى رقاب الـكافرين ، إنما هو فى حال الحرب ، أما إذا انتهت الحرب ، وخمدت نارها ، فليس للمسلم أن يبدأ بعدوان ،أو أن يقتل أحداً من الـكافرين إذا لقيه وأمكنته الفرصـة منه . . إذ لا يستباح دم الـكافر إلا إذا كان فى حرب على المسلمين .. أما فى غـير الحرب ، فإن لدمه حرمةً يجب على المسلمين رعايتها ، وصيانتها . .

وهكذا يقيم الإسلام فى نفوس أتباعه هـذه المشاعر الإنسانية العالية حتى مع عدوهم ، الذى كان فى وقت ما حرباً عليهم ، والذى لا يزال على نية الحرب والعدوان ، إذا أمكنته الفرصة ..

وأوزار الحرب : أثقالها ، وأعباؤها ، وما يحمل المسلمون منها فى مصادمة عدوهم ، ودفع شره عنهم . . فإذا انتهت الحرب ، وأخلى العدو ميدان

القتال ، بالفرار ، أو الأسر .. فقد رُفع عن المسلمين المقاتلين ما كانوا يحملون من أعباء ثقال . . وهنا تنتهى أحكام الحرب ، ويعود المسلمون إلى موقفهم الأول من الكافرين ..وهو أن لاّ قتل ولا أسر لمن يقع لأيديهم من الكافرين فى غير الحرب . .

وفى إسناد الفعل « تضع » إلى « الحرب » مع أن الذى يضع الأوزار ، والأعباء هم المحاربون ـ فى هذا إشارة إلى أن الحرب هى سبب هذه الأوزار وتلك الأعباء ، وأنها هى التى جلبتها ، وألقت بها على كاهل المحاربين . .

وفى هذا تشنيع على الحرب ، وتنفير منها ، وتصوير لها فى صورة كريهة ، حيث لا تحمل إلى المتلبسين بها إلا ما يَبْهظهم ويُثقل كواهلهم ..

ثم إن فى تسمية أعباء الحرب ، وأثقالها ، أوزاراً ، تشنيعاً آخر على الحرب ، وتأثيماً لها ، وأنها ـ أيًّا كانت شىء ـ كريه ، لا يطلبه المسلم ، ولا يسعى إليه ، ولا يرغب فيه ، إلا إذا لم يكن منه بد ، كدفع عدوان ، أو إطفاء فتنة . .

وهنا يدخل المسلم الحرب ، من باب المحظور الذى يباح عند الضرورة ، فيتعاطى منها بحساب ، على قدر ما يدفع الضرر ، فى غير شهوة ، ولا إسراف . .

أفرأيت وجهاً للحرب ، أقربَ إلى السلام ، وأدنى إلى العافية ، من هذه الحرب التى يكون الإسلام طَرَفاً فيها ؟ إنها حرب يتمنى أن يعيش فيها الناس ، ما يعيش فيه السلام العالمى اليوم ، الذى قل أن يمسى أو يصبح فى غير حرب . .

ذلك أن العالم اليوم إذا أظلّه صباحُ يوم أو مساؤه بغير حرب معلنةأو سافرة ، كانت الحرب الخفية مشبوبة الأوار ، فى صدور تغلى مراجلها بالعداوة والبغضاء ، وفى نفوس تتحرق مشاعرها شهوةً إلى إراقة الدماء ، وإزهاق الأرواح ، وإبادة الأمم والشعوب ! .

قوله تعالى : « ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم » ـ الإشارة هنا إلى ما يطالَب به المؤمنون من لقاء العدو فى ميدان القتال ، ومن توجيه الضربات القاتلة له ، القاضية على كل كيد يكيد به للإسلام والمسلمين ، ولو كان فى ذلك تعريضُ كثير من المؤمنين للاستشهاد فى سبيل الله .. فذلك ابتلاء من الله للمؤمنين ، وإنزالهم هذا المنزل الكريم الذى يلبسون فيه ثوب المجاهدين فى سبيل الله ، الواقفين فيه موقف جنود الله ، المدافعين عن حرماته .. ولولا هذا الصدام بينهم وبين أهل الكفر والضلال ، لما وقفوا هذا الموقف الكريم ، ولما نالوا هذا الشرف العظيم ..

فهذه الحرب بين المؤمنين والكافرين ، هى لحساب المؤمنين قبل كل شىء ، إذ هى التى أنزلتهم هذه المنزلة العالية ، وأحلّتهم هذا المحل الكريم .. وما كان الله سبحانه وتعالى بحاجة إلى جنود يجاهدون فى سبيله ، ويقفون فى وجه هؤلاء الكافرين المحادّين له سبحانه .. إذ لو شاء الله سبحانه وتعالى « لانتصر منهم » أى لسلط عليهم آفة مهلكة من الآفات ، أو لما جاء بهم إلى هذه الحياة الدنيا ، أو لهداهم إلى الحق ، وكانوا فى المؤمنين .. ولكن هكذا شاءت مشيئة الله سبحانه . . فجعل الشرّ فى طريق الخير ، وجعل الكافرين فى وجه المؤمنين ، وذلك ليتيح للمؤمنين فرصةَ العمل لما يرفع منزلتهم عند الله ، ويُعلى قدرهم ، وينزلهم منازل رضوانه ..

فهؤلاء الكافرون ، والمشركون ، والضالون ، وهذه الآفات والشرور المبثوثة بين الناس ، إنما هى القرابين التى يتقرب بها المؤمنون والصالحون من عباد الله ، إلى الله ، بالتصدّى لها ، وإعلان الحرب عليها .. وبهذا ينالون من ثواب الله ورضوانه بقدر ما يعملون .. ولولا هذا لما كان ثمة عمل يمتاز به الخبيث من الطيب ! وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ولكن ليبلو بعضكم ببعض » أى هذا الاختلاف بين الناس ، وهذا الصدام الذى يقع بين المؤمنين والكافرين منهم ، إنما هو ابتلاء وامتحان لهم ، حيث يكشف احتكاك بعضهم ببعض عن معدن كل منهم ، كما يقول الله تعالى : « ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوَ أخباركم » (٣١ : محمد) ..

هذا ، وأرى شفاهاً تتحرك عليها عبارات التساؤل أو الإنكار ، لهذا الذى نقوله ، من أن وجود أهل الضلال فى هذه الدنيا ، هو سبيل من السبل التى يتخذها المؤمنون للتقرب إلى الله ، ولرفع درجاتهم عند الله بجهادهم ، وقتالهم ، أو الاستشهاد فى سبيل الله على أيديهم .. وقد يقول قائل : ما ذنب هؤلاء الضالين فى تقديمهم على مذبح القربان لله ؟ وألهذا كانت الغاية من خلقهم ؟ .

ونقول : وماذا ينكر المنكرون من هذا ؟ ولم لا يكون هؤلاء المشركون والكافرون والضالون جميعاً قرباناً يُتقرب إلى الله بجهادهم من أهل الإيمان ؟ .

وقد يقول قائل : أهذا ممكن أن يكون فى شأن الإنسان ، الذى كرمه الله سبحانه ، ورفعه على سائر مخلوقات الأرض ، وجعله خليفةً له فيها ؟ .

ونقول : نعم ، هذا ممكن .. فإن هذا الإنسان الذى كرّمه الله سبحانه وتعالى ، وفضله على كثير من خلقه ، وجعله خليفة له فى الأرض ـ هذا الإنسان ، قد نَزَع بيده هذا الثوب الكريم الذى ألبسه الله إياه ، وتخلّى عن عقله الذى هو التاج الذى نال به شرف الانتماء إلى الإنسانية .. وقد عطل وظيفة هذا العقل ، فلم ينظر به فى آيات الله الكونية ، ولم ير من خلال هذا النظر وجهَ خالقه ، ولم يتعرف إلى ما للخالق سبحانه من جلال وقدرة ، ثم إنه حين جاءته آيات الله على يد رسله لم يتنبه من غفلته ، ولم يَحِدْ عن طريق ضلاله ، بل ازداد كفراً بالله ، ومحادّة له ـ فكان بهذا على غير صورة الإنسان الذى كرمه الله، وخلقه فى أحسن تقويم .إنه حينئذ هو الإنسان فى أسفل سافلين ، ومن هنا كان إلى الحيوان أقرب منه إلى الإنسان ، ومن هنا أيضاً كان حيوانا يُقَدَّم على مذبح التقرب إلى الله ، إذا هو أعمل قرونه ومخالبه وأنيابه فى عباد الله .. وأولياء الله .. فإن هو أمسك شره ، فلم يعرض لعباد الله بأذى ، تُرك وشأنه ، كما تترك الوحوش فى الغابات .

قوله تعالى : « والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يُضِلّ أعمالهم » .

هو تنويه خاص بشأن الذين يستشهدون فى سبيل الله . فهؤلاء الشهداء لن يضل الله أعمالهم ، بل سيقيمها على طريقه المستقيم ، حيث تنزل منازل الرضا والقبول من الله رب العالمين .. فهم داخلون أولا فى قوله تعالى : «والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم » ثم هم مختصون ثانياً بهذا الذكر ، الذى يقيمهم بعد موتهم ، مقام الأحياء ، الذين لم يفارقوا هذه الدنيا ، وذلك بإصلاح بالهم ، على حين يقيمهم مقام أهل الجنة قبل أن يدخلها أحد غيرهم ، فهم ساعون إلى الجنة، آخذون طريقهم التى يعرفونها، إليها ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « ولا تحسبن

الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يُرزقون» (١٦٩ : آل عمران)

قوله تعالى :

* « سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرّفها لهم » ـ هو بيان لقوله تعالى : « والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم » .. أى أن الله سبحانه وتعالى سيهدى الذين قتلوا فى سبيل الله ، ويقيم بين أيديهم من أعمالهم الدليل الذى يأخذ بهم إلى الجنة التى أعدها الله لهم ، وعرّفهم الطريق إليها .. وهذا مثل قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم » (٩ : يونس) .

فأعمال الشهداء ، مستنيرة مبصرة ، تعرف طريقها إلى مقام الرضا والقبول ، وأصحاب هذه الأعمال ، وهم الشهداء ، يتبعون أعمالهم تلك ، ويأخذون طريقهم على هديها ، حيث تنتظرهم عند الله فى جنات النعيم التى أعدها سبحانه لأصحاب هذه الأعمال الطيبة كما يقول سبحانه : «يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم »(١٢ : الحديد) فالذى يسعى بين أيديهم هو هذا النور المشعّ مما فى أيمانهم ، وهو سجل أعمالهم ، التى صارت كتباً تداولوها بأيديهم اليمنى .

قوله تعالى :

* « يـأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

هو التفات من الله سبحانه وتعالى إلى المؤمنين ، ودعوة منه جل شأنه إلى أن يكونوا جميعاً فى هذه المنزلة التى أعدها للمجاهدين فى سبيله ..

فالمؤمنون الذين يقاتلون فى سبيل الله إنما يَنصرون الله .. فهم جند الله ، الذين يحاربون من حارب الله ..

ونصر المؤمنين لله ، إنما هو بنصر دينه ، وإقامة شريعته ، ودفع الضلال والشرك والإثم ، وكل مايعترض سبيل الله ، ويخالف ماأمر به ..

وفى إسناد نصر الله إلى المؤمنين تكريم لهم ، ورفع لقدرهم ، وإنزالهم منزلة المعين لله ، المؤيّد له ، والله سبحانه غنىّ عن كل معين ومؤيد .. إذ كل شىء فى هذا الوجود هو منه ، وله .. لا يملك أحد شيئاً .. فكيف يطلب النصر من خلقه الذين لا يقوم وجودهم لحظة واحدة إلا بحفظه ، ورعايته ؟ إن ذلك ـ كما قلنا ـ هو تكريم للمؤمنين ، وإحسان من الله إليهم . كما فى قوله تعالى: « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً » .. فلله سبحانه هو المعطى لكل ما فى أيدى الناس .. ثم هو سبحانه ـ فضلا وإحساناً منه ـ يدعوهم إلى أن يقرضوه مما أعطاهم !! .

وفى قوله تعالى : « ينصركم ويثبت أقدامكم » ـ إشارة إلى أن نصر المؤمنين لله ، ليس نصراً على حقيقته ، وإنما هو مظهر من مظاهر الطاعة والولاء لله . . وإلا فإن النصر الحقيقى هو الذى يمنحه الله سبحانه وتعالى المؤمنين ، ويمدهم بالأسباب الممكنة لهم منه .. فهو سبحانه الذى ينصرهم على عدوهم ، و ثبت أقدامهم فى مواقع القتال ؛ على حين يملأ قلوب الذين كفروا رعباً وفزعاً . . « وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم »(١٠ : الأنفال) .. ومع أن هذا النصر من عند الله ، فإنه محسوب للمؤمنين ، يلقوْن عليه أحسن الجزاء فى جنات النعيم .

قوله تعالى :

* « والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم » .

هو فى مقابل قوله تعالى للمؤمنين : « ينصركم ويثبت أقدامكم » فإنه ـ سبحانه ـ إذ ينصر المؤمنين ويثبت أقدامهم ـ يخذل الكافرين ، ويُنزلهم منازل البوار والتعس ، ويبطل أعمالهم ، فلا يقبل منهم عدلا ولا صرفاً . فكل عمل الكافرين إلى ضلال ، وضياع .. وإذ كان الإنسان من وراء عمله ، ينظر إليه ، ويتبع آثاره ليجنى ثمرة ماعمل ، فإن الكافرين ستقودهم أعمالهم التى أضلها الله ، إلى الضلال ، وإلى عذاب السعير .

وفى التعبير عن التعّس والخسران ، بالمصدر « فتعسًا لهم » ، وعن ضلال الأعمال ، بالفعل « وأضل أعمالهم » . . فى هذا ما يشير إلى أن التعّس والبوار والخسران ، صفة ملازمة لهم ، مستولية على كيانهم كله ، فى أقوالهم وأفعالهم ، وفى ماديات حياتهم ومعنوياتها . . فالمصدر ـ كما قلنا ـ يجمع كل معانى الأحداث المشتقة منه .. على نحو ما أشرنا إليه فى قوله تعالى « فضرْبَ الرقاب » . أما ضلال أعمال الكافرين ، فهو حَدَث متسلط على أعمالهم ، فكل ما يقع منهم من عمل تَسلّط عليه الضلال ، وطواه تحت جناحه . .

وفى التعبير بالماضى « أضلّ » بدلاً من المضارع «يُضلّ » ـ إشارة أخرى إلى أن الكافر محكومٌ مقدماً على كل عمل من أعماله بالضلال ، دون نظر فى وجه العمل ، فإنه يستوى فى ذلك الحسَنُ والقبيح ، والخير والشر ، من أعمال الكافرين .. إذ كل أعمالهم قبيحة ، وكل أفعالهم شر . هكذا تقع أعمال المشركين تحت حكم الضلال ، وقوعاً مطلقاً ، فلا يُنتظر فى الحكم عليها حتى ينكشف وجهها ، ويُعرف الحَسَنُ والقبيح منها .. إنها كلها قبيحة الوجوه ، منكرةُ الوجود ، قبل أن تولد ! . .

قوله تعالى :

* « ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » ..

هذا بيان للسبب الذى من أجله كان الحكم عليهم بالبوار والخسران ، وبإبطال كل عمل يعملونه ، ولو كان مما يُعدّ فى الأعمال الصالحة .. إنهم « كرهوا ما أنزل الله » .. وهو القرآن الكريم ، الذى يدعوهم إلى الإيمان بالله ، ويحمل إليهم الهدى والنور ..

وكراهيتهم لِما أنزل الله ، هى التى دعتهم إلى اتخاذ هذا الموقف العِدائىّ لرسول الله ، ولآيات الله التى يتلوها عليهم .. فإن من كره شيئاً تجنبه ،

وعاداه .. على خلاف من أحب الشيء ، فإنه يدنو منه ، ويقاربه ويختلط به ، ويأنس إليه ..

وإحباط الأعمال ، هو إفسادها ، ووأدها فى مهدها .. ومنه الحديث الشريف :

« إن من الربيع ما يقتل حَبَطًا أو يُلِمُّ » .. والقتل الحبط ، هو أن تأكل البهيمة حتى تنتفخ وتموت مُتْخَمة !

الآيات : (١٠ — ١٥)

* « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم (١٤) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

« أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها » ..

هو تهديد ووعيد للمشركين الذين كذبوا رسولَ الله ، وأنكروا عليه ما دعاهم إليه من الإيمان بالله وحده ، والإيمان باليوم الآخر ، وبالحساب والجزاء ..

وقد حُمل هذا الوعيد إلى المشركين فى هذا الاستفهام الإنكارى الذى يرميهم بالعمَى والغفلة عن النظر فيما حولهم ، وفيما أصاب المكذبين برسل الله قبلهم ، من عذاب ونكال .. لقد دمر الله على هؤلاء المكذبين ، وأتى بنيانهم من القواعد ، وأن للكافرين عند الله أمثال هذا التدمير ..

وفى قوله تعالى : « دمّر الله عليهم » وفى تعدية الفعل بحرف الاستعلاء « على » ـ إشارة إلى أن هذا التدمير ، قد وقع عليهم من جهة عالية ، متمكنة منهم ، بحيث يكونون تحت رمياتها التى لاتخطىء الهدف أبداً . .

وفى قوله تعالى : « وللكافرين أمثالها » بجمع أمثال ، بدلا من قوله ـ مثلها ـ إشارة إلى أن ما يُرمى به الكافرون من مهلكات ، ليس على صورة واحدة ، بل إن لكل أمة ، ولكل جماعة لوناً من ألوان الهلاك .. كما يقول الله تعالى : « فكلاًّ أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا » (٤٠ : العنكبوت) ..

فهى ألوان من الهلاك ، مختلفة الأشكال ، وإن كانت متفقة فى الآثار . .

قوله تعالى :

* « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » ..

فى الآية إشارة ضِمْنية إلى أن المؤمنين بالله واليوم الآخر ، لا يصيبهم شىء من هذا البلاء المسلط على الكافرين .. وذلك بسبب « أن الله مولى الذين آمنوا » أى ناصرُهم ودافعُ المكروهِ عنهم .. أما الذين كفروا فلا ناصر لهم ولا معين يعينهم ..

فإنه لا يملك النفع والضر إلا الله سبحانه وتعالى ، وقد لاذ المؤمنون بحمى الله ، فلم يصل إليهم ضر ، ولم يصبهم مكروه ، على حين رَكَن المشركون والكافرون إلى ما يعبدون من دون الله ، فلم تغن عنهم آلهتهم من الله من شىء ..

قوله تعالى :

* « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوًى لهم ..

ومن آثار وَلاية الله سبحانه وتعالى للمؤمنين أنه يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار .. فهم فى الدنيا ، فى أمن من أن يَحِلّ بهم ما يحل بالكافرين من البلاء العام الشامل الذى يأتى على كل شىء .. وهم فى الآخرة ، ينعمون فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ..

وفى قوله تعالى : « وعملوا الصالحات » ــ إشارة إلى أن الإيمان الذى يثمر هذه الثمرات الطيبة لأهله ، إنما هو الإيمان الذى يصدّقه العملُ الصالح . فليس الإيمان مجردَ قول باللسان ، وتصديق بالقلب ، فهذا إيمان لا ثمرة له ،

وإنما تظهر ثمرة الإيمان ، فيما يكون عليه سلوك المؤمن ، وما تكسب جوارحه ..

وقوله تعالى : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » ..

كان مقتضى السياق أن يكون نظم الآية هكذا مثلا .. والذين كفروا لهم عذاب جهنم ..

ولكن النظم القرآنى ، المعجز ، يضع الأمرَ موضعه ، فيصل حياةَ الكافرين فى الدنيا ، بحياتهم فى الآخرة .. إنهم على طريق واحد فى دنياهم وأخراهم جميعاً ..

فهم فى الدنيا ، يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، وهم فى الآخرة يُلقَوْن فى عذاب جهنم . .

والناظر المدقق فى الحالين يرى أنهما على سواء ،وإن بدا الاختلاف بينهما بعيداً فى عينى من لا بصيرة له . .

فالإنسان ليس جسداً حيوانياً ، غايته أن يأكل كما تأكل البهائم ، وإنما الإنسان إنسان، لأن له روحاً يهفو إلى الملأ الأعلى ، ويتشوف إلى مطالع النور منه ، ولهذا الروح مطالبُ يجب أن يؤديها الإنسان له ، حتى تظل أسبابه موصولة بالملأ الأعلى ، آخذة طريقها إليه .. وإلا انقطعت تلك الأسباب ، وأصبح الإنسان جسداً حيوانياً ، لاشىء من معالم الإنسانية فيه .. وهذا عذاب وبلاء للإنسان .. إذ أنه يعيش فى الناس حيواناً ممسوخاً فى جسد إنسان ، أو إنساناً مردوداً فى طبائع الحيوان ..

وفى قوله تعالى : « يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام » ــ إشارة إلى

أن مايتمتع به الكافرون من مُتع فى اتصال الرجال بالنساء ، هو عند الكافرين متعةٌ حيوانية ، يستجيبون فيها لغريزة الحيوان لحفظ النوع .. على حين أن المؤمنين يجدون فى قضاء هذه المتعة شيئاً أكثر من حفظ النوع .. إنهم يرونها نعمة من نعم الله ، كما يرون فيها بعضَ قدرة الله فى خلق الإنسان ، وتطوره فى هذا الخلق ، من ماء دافق ، إلى إنسان رشيد عاقل ..

فقوله تعالى : « يتمتعون » أى يتناكحون ، وينزو الذكر منهم على الأنثى كما ينزو ذَكَر الحيوان على أنثاه .

فتمتعهم الجنسية متعة حيوانية ، لإشباع حاجة الجسد ، وحفظ النوع .. وأكلهم أكل حيوانى ، لإشباع البطون ، وحفظ الحياة ..

وتبدو لنا من الآية الكريمة صورة مُسعِدَة مشرقة ، لأولئك الذين يعيشون فى هذه الدنيا على ذلك الزاد الطيب من المعانى الكريمة ، والمُثُل الرفيعة ، والمبادىء القويمة ، وإن فاتهم كل شىء من ماديات الحياة ومتاعها ..

إنهم فى نعيم يملأ حياتهم المقفرة من متاع الدنيا ، بألوانٍ من البهجة والمسرة ، لا يجد أحد مثلها إلا فى الجنة التى وعد الله المتقين من عباده .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع » (٢٦ : الرعد)

قوله تعالى :

* « وكأيّن من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم » ..

هو تهديد للمشركين من قريش ، الذين آذوا النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وآذوا أهله وأصحابه ، حتى اضطر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى

الهجرة من بلده ، وأهله ، والبيت الحرام الذى تعلّق به قلبُه ..

فـكثير من القرى ، كانت أشد قوة من هذه القرية ـ مكة ـ أهلـكها الله ودمّرها على أهلها ، ولم يكن لهم من ناصر ينصرهم من بأس الله إذ جاءهم .. وهذه القرية قد فملت فملَ القرى الظالمة التى أهلـكها الله ، فهل إذا أراد الله هلاك أهلها ـ أهناك من يدفع عنهم ما يرميهم الله سبحانه وتعـالى به من إمهلـكات ؟ ..

وفى إضافة القرية إلى النبىّ ، إشارة إلى أنها قريته ، وهو صاحبها ، وأولى الناس بها ، وإن أُخرج منها .. إنها ستفتتح عما قريب ذراعيها للنبىّ ، وتستقبله استقبال الأرض الجديب جاءها الغيث ، وإنها لتـكون عمـا قريب البلدَ الإسلامى الأول ، الذى يوجه النبىّ والمؤمنون معه ، وجوهَهم إلى البيت الحرام فيه .. وفى الآية إشارة إلى أن هذه القرية لن يحل بها من الدمار والخراب ماحلّ بقرى القوم الظالمين ، ففى إضافتها إلى النبىّ الـكريم ، ضمان لها من كل سوء إلى يوم القيامة ، إنها قرية النبىّ ، وستظل قريته إلى يوم الدين ..

قوله تعـالى :

* « أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمـله واتبعوا أهواءهم » . .

المراد بالاستفهام هنا ، النفى ، بمعنى أنه لايستوى من كان على بينة من ربه ، وعلى هدى منه ، ومعرفة به ـ لا يستوى من كان هذا شأنه ، ومن زُين له سوء عمله ، فرأى القبيح حسناً ، والشر خيراً ، والهدى ضلالا .. إنه لشـتان بين هذا ، وذاك .. «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » (٩ : الزمر) . « أفنجعل المسلمين كالمجرمين* مالـكم ؟ كيف تحكمون ؟ »(٣٥ ـ ٣٦ : القلم) .

وفى إفراد « من كان على بينة من ربه » إشارات :

أولها : أن الذى يكون على بينة من ربه ، وعلى هدًى منه ، إنما هو إنسان استقلّ بنظره ، واحتكم إلى عقله ، ولم يكن منقاداً لهوى غيره ، أو منساقاً وراء هوى نفسه .

وثانيها : أن المؤمنين ـ وإن كانوا ذواتاً كثيرة متعددة ـ كل منهم له كيانه ووجوده الذاتى المتحرر من التبعية الاعتقادية ـ هم جميعاً ذلك المؤمن الذى على بينة من ربه .. فكل مؤمن يرى وجوده ووجهه فى هذا المؤمن ..

وثالثها : أن المؤمن الذى يكون على بينة من ربه يرجح ميزانه موازين غير المؤمنين جميعاً . .

وفى إفراد « زُين له سوء عمله » وجمع « واتبعوا أهواءهم » ـ فى هذا أكثر من إشارة كذلك . .

فأولا : إفراد الذى زين له سوء عمله مع بناء فعله للمجهول ، يشير إلى أن هذا التزيين ، وإن كان يَرِد على الإنسان من جهة تزين له المنكر ، وتغريه به ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وقيّضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم » (٢٥ : فصلت) . .

ـ هذا التزيين وإن كان يَرِد على الإنسان من خارج ـ فإنه لا يدفع عنه حمل المسئولية ، ولا يُعفيه من الحساب والجزاء ، إذ كان لكل إنسان ذاتيته ووجوده .. والله سبحانه وتعالى يقول :

« كل امرىء بما كسب رهين » (٢١ : الطور) ويقول سبحانه : « كل نفس بما كسبت رهينة » (٣٨ : المدثر) .

وثانياً : فى جمع « واتبعوا أهواءهم » ـ إشارة إلى أن أهل الضلال

والفساد ، يُغرى بعضهم بعضاً ، ويُغوى بعضهم بعضاً ، وإذا هم جميعاً يتبادلون أهواءهم بينهم ، فكل منهم يأخذ بِهَوَى الآخرين .. وهذا هو المصدر الذى يجىء منه التزيين ، كما يقول سبحانه : « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » . (١١٢ : الأنعام) .

قوله تعالى :

* « مثل الجنة التى وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفًّى ، ولهم فيها من كل الثمرات ، ومغفرة من ربّهم كمن هو خالد فى النار ، وسقوا ماءً حميما فقطع أمعاءهم » . .

هذا تعقيب على الآية السابقة : « أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ؟ » . .

ففى قوله تعالى : « مثل الجنة التى وعد المتقون ... » الآية ـ فى هذا ، جواب على هذا السؤال الذى أثارته الآية السابقة .. وقد جاء هذا الجواب فى صورة سؤال يحتاج هو الآخر إلى جواب ، ولكن جوابَ هذا السؤال قريب واضح ، يكاد يمسك باليد ..

فما هى إلا نظرة يلقيها الإنسان إلى أهل الجنة وما يَلْقَوْن فيها من نعيم ، وإلى أهل النار ، وما يساق إليهم من عذاب ، حتى يرى هذا البعد البعيد بين حال هؤلاء وأولئك .. أصحاب الجنة ، وأصحاب النار .. من كان على بينة من ربه ، ومن زين له سوء عمله فرآه حسناً .. ومن هنا كان من المناسب ، ذكر الجنة ، وما فيها من ألوان النعيم . .

وقوله تعالى : « مثل الجنة التى وعد المتقون » ..هو استفهام يُردّ به على الاستفهام فى قوله تعالى : « أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله » .. والتقدير : كلا .. ليس من كان على بينة من ربه ، كمن زين له سوء عمله ،

وكيف يكونان متماثلين؟ أمثل الجنة التي وعد المتقون، ينعمون فيها بما يشاءون كمثل النار التي يُلقى فيها المجرمون، يطعَمُون من جمرها، ويشربون من لهيبها؟

ويلاحظ في الآية الكريمة أن عرضَ المقابلة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، لم يكن متطابقاً، فقد جاءت الجنة مقابلة لأصحاب النار هكذا: «مثل الجنة التي وُعد المتقون ... كمن هو خالد في النار؟ ولو جاءت المقابلة على وجه التطابق، لجاء النظم هكذا: أمَثَلُ الجنّةُ التي وُعِدَ المتقون .. كمثل النار التي وعد المكذّبون المجرمون؟ أو هكذا: أمثَل أصحاب الجنة التي ينعمون بطيباتها . . . كمثل أصحاب النار الذين يتقلبون على جمرها؟

فما وجه هذا؟ وما سِرّه؟

الجواب - والله أعلم - من وجوه:

فأولاً: ليس المهمّ في بلاغة المقابلة بين الأمور - لكي تتضح وجوه الخلاف بينها، ومن ثمّ تتضح سِمَة كل مقابل في وجه مقابِله - ليس المهمُّ في بلاغة المقابلة هنا، هو التطابق بين الصورتين، الموجبة والسالبة، كما في العمل «الفتوغرافى» .. وإنما الصميم من البلاغة، هو أن يقع التطابق فيما وراء الغلاف الخارجي، أو السطح الظاهري للأشياء .. بحيث يبلغ أعماقها، وينفذ إلى جوهرها ..

وثانياً: هنا في هذه الصورة التطابقية التي جاءت بها الآية الكريمة، لأصحاب الجنّة وأصحاب النار - نرى صورتين متطابقتين أتم التطابق وأكمله وأروعه ..

ففي صورة النعيم، نرى جنّة!

وهذه الجنة موصوفة بصفتين:

أولاهما: أنها للمتقين الذين وعدهم الله إياها ..

وثانيهما: أن فيها أنهاراً من ماء غير آسن، وأنهاراً من لبن لم يتغير

طعمه ، وأنهاراً من خمرٍ لذّة للشاربين ، وأنهاراً من عسلٍ مُصَفّى ، كما أن فيها مايشتهى أهلها من الثمرات . .

فاللون الغالب البارز فى هذه الصورة ، هو لون الجنة . . أما أصحابها فهم لونٌ أقل بروزاً وظهورا من الجنة ذاتها . .

وهذا يعنى ـ فى مقام الإحسان ـ المبالغةَ فى إكرام هؤلاء الضيف المدعوّين من الله سبحانه ، الموعودين بالنعيم فى جناته . . فإنه بمقدار الاهتمام بالإعداد لاستقبال الضيف ، يكون مقدار منزلته عند مُضيفه .

وفى صورة الإعداد لاستقبال الضيف ـ أى ضيف ـ يَعْرِف ـ من لم يكن يعرف ـ قدرَ هذا الضيف ومنزلته ، وإن لم يعرف من يكون ، وما الجهة التى يجىء منها . .

وفى الصورة المقابلة لصورة النعيم . . ماذا نرى ؟

نرى اللون الغالب فيها ، والذى يكاد يغطى الصورة كلّها ، هو أصحاب النار ، وما يَلْقَوْنَ فيها من عذاب ونكال . .

فهناك أناس خالدون فى النار ، مقيمون إقامةً دائمة فيها ، شرابهم ماء يَغْلى فيقطع الأمعاء . . هذا هو كل مافى الصورة !

ولكن كلمة « النار » ، وإن أخذت حيزا ضئيلا من الصورة ، فإنها تُلقِى على الصورة كلها ظلالاً كثيفة كئيبة ، تتراقص عليها واردات جهنم كلها ، وما يساق إلى أهلها من ألوان العذاب والنكال .. ومن تلك الواردات هذا الماء الجهنمى الذى يقطع أمعاء مَن يدخل إلى أمعائهم . .

ومن جهة أخرى ، فإن إبراز أصحاب النار فى النار ، وتلونهم باللون الغالب الواضح فيها ـ إشارة إلى أن أصحاب النار قد أصبحوا بعضاً من النار ،

بل إنهم الشاهد المبين عنها وعن أفعالها وآثارها . . إنهم حطب جهنم . . فهم إذن هذا اللهب المتسعّر منها ، وأنه لولا هذا الحطب لما كانت هذه النار . . وهل نار بغير وقود ؟

فإذا نظرنا إلى الصورتين : صورة النعيم ، والصورة المقابلة لها على نحو نظرتنا هذه ، وجدنا الجنةَ وأهلها ، والنارَ وأصحابها ، ورأينا التقابل كاملا بين الصورتين ، وذلك بما يجريه العقل من عمليات منطقية ، تقيم المتقابلين على مايقضى به التطابق بينهما . .

فإذا كانت هنا جنة ، فليكن هناك نار . .

وإذا كان فى النار أهلها وما يكابدون من عذابها ، فليكن فى الجنة أهلها وما ينعمون به من خيراتها . .

وهكذا تتبادل الصورتان ، فتأخذ كل منهما من الأخرى عكس ماتعطى . . من الصفات أو الذوات . .

قوله تعالى : « فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خَمْرٍ لَذَّةٍ للشاربين وأنهار من عسلٍ مصفّى »

هو من صفات هذه الجنة ، وما فيها من ألوان النعيم .

فإذا كان فى جنات الدنيا ، جداول تجرى ، أو أنهار تتدفق . . فالجنة التى أعدت للمتقين فيها أنواع شتّى من الأنهار لم تعرفها الجنّات فى الدنيا . .

ففى الجنة التى وُعد المتقون : « أنهار من ماء غيرِ آسن » ، أى غير متغير الريح أو الطعم ، فهو ماء جار ، صافٍ ، طهور . . عذب فرات . .

وفى هذه الجنة « أنهار من لبن لم يتغير طعمه » أى ابن كأنما حُلِب لساعته ، لم يمر به زمن يُنقل فيه اللبن من حالٍ إلى حال ، أو أحوال ، أخرى . .

وفى تلك الجنة « أنهار من خمر لذة للشاربين » ، أى يلذ طعمها للشاربين . . فليس فيها من خمر الدنيا هذا الطعم المرّ اللاذع ، كما أنها لا تخامر العقل ، ولا تذهب باللب ، كما يقول الله تعالى : « لا فيها غول » (٤٧ : الصافات) .

وفى الجنة أيضاً أنهار من عسل مصفى أى خالص من أى شائبة تعلق به . .

إنها جنة فيها مشابه مما عرف الناس من نعيم الدنيا ، ولكن الفرق بعيد ، والبون شاسع بين الحقيقة والمثال ، بين الكائن الحىّ وظله الواقع على الأرض !

الآيات : (١٦ — ١٩)

* « وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » . .

الضمير فى « منهم » يعود إلى مفهوم من الآيات السابقة ، التى أشارت إلى

للمشركين ، وتوعدتهم بالعذاب فى الدنيا والآخرة . . ففى قوله تعالى : « أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم » — فى هذا إشارة إلى المشركين . . وقوله تعالى : « وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم » — فيه إشارة أخرى إليهم . . فهم الموصوفون بأنهم ممن زين لهم الشيطان أعمالهم واتبعوا أهواءهم ، وهم المتوعَّدون بأن يُسقَوا ماء حميا يقطّع أمعاءهم . .

فقوله تعالى : « ومنهم من يستمع إليك » أى ومن هؤلاء المشركين ، منافقون ، جاءوا يستمعون إليك . . لا يريدون الهدى ، ولا يطلبون الإيمان ، وإنما يريدون أن يَشْغَبوا ، وأن يشوشوا على النبى ، إن وجدوا سبيلا إلى الشغب والتشويش ، فإن لم يجدوا سبيلا إلى هذا فى مجلس النبى صلوات الله وسلامه عليه ، تصيّدوا الأكاذيب والمفتريات ، ثم أذاعوها فى الناس ، متخذين من حضورهم مجالسَ القرآن ، دليلا على أنهم يقولون عن علم ، ويتحدثون عن وقع ! . .

وقوله تعالى : « حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذَا قال آنفاً » ؟ . .

« حتى » حرف غاية ، أن غاية هؤلاء الذين يستمعون هذا الاستماع إلى النبى ، وإلى ما يتلو من آيات الله — غايتهم هى أن يقفوا من الذين أوتوا العلم هذا الموقف ، الذى يلقونهم فيه هازئين ، مشككين فى آيات الله ، وفى المعانى الكريمة التى بين يديها ..

فلولا حضورهم مجالس النبى والاستماع إلى ما يتلو من آيات الله ، لما كان لهم سبيل إلى أن يقفوا هذا الموقف من المؤمنين ، الذين حضروا معهم هذا

المجلس — لحضورهم مجلس النبي له غاية ينتهى إليها ، وتلك الغاية هى الخروج من عند النبي ، وموقفهم مع المؤمنين قائلين لهم : « ماذا قال آنفا ؟ » . .

وواضح أن هؤلاء الذين أشارت إليهم الآية فى قوله تعالى : « ومنهم من يستمع إليك » — واضح أن هؤلاء من المشركين المنافقين الذين جاءوا إلى النبي يستمعون إلى ما يقول ، وهم على شِركهم ، وإن أعلنوا إسلامهم ، ودخلوا فى المسلمين . .

والذين أوتوا العلم فى قوله تعالى : « قالوا للذين أوتوا العلم » هم المسلمون ، الذين دخلوا فى الإسلام مؤمنين ، وكانوا فى مجلس النبي يستمعون لآيات الله تتلى عليهم . . فهؤلاء المسلمون المؤمنون ، هم أهل علم بما استمعوا إليه من آيات الله ، وكلماته . . لأنهم استمعوا بآذان مصيغة ، وقلوب واعية ، وعقول متحررة من التبعية والتقليد الأعمى . . ومن هنا كان لهم هذا العلم الذى حصلوه من آيات الله التى استمعوا إليها . . وفى هذا تعريض بالمنافقين ، ووصفهم بالجهل والغباء والبلادة . . وأنهم لو كانوا على حظ من العقل والإدراك ، لكانوا من الذين أوتوا العلم ، الذين جلسوا فى مجلسهم ، واستمعوا إلى ما استمعوا إليه ، ولكن شتان بين أذنين تسمعان . . أذن إنسان ، وأذن حيوان !! .

فهؤلاء المنافقون ، الذين استمعوا إلى النبيّ ، قد فضحوا أنفسهم ، وكشفوا عن غبائهم ، إذ جاءوا يسألون عن مضمون كلام استمعوا إليه ، دون أن يدركوا له معنى ، مع أن هذا الكلام قد أفاء على من استمعوا إليه ، وأحسنوا الاستماع — قد أفاء عليهم علماً ، وخلع عليهم خلعة العلماء ، فكانوا من الذين أوتوا العلم ، يسألهم المشركون المنافقون هذا السؤال الغبيّ : « ماذا قال آنفاً » ؟

وهو سؤال المستهزىء .. و « آنفاً » أى من قبل .. فهى كلمة تدل على الزمن الماضى .. منصوبة على الظرفية ، كأنهم قالوا : ماذا قال عشيةً ، أو غدوة ، أو صباحاً ، أو مساء ..

قوله تعالى : « أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » هو الحكم الذى وقع على هؤلاء المنافقين ، بعد موقفهم هذا من الاستماع إلى القرآن الكريم ، يتلوه الرسول الكريم ، ثم سؤالهم عما سمعوا ، هذا السؤال المستهزئ المنكر ..

فهؤلاء هم الذين طبع الله على قلوبهم ، وختم عليها ، فلا تَقبل خيراً ، ولا تأذن بخير يدخل إليها ، ومن أجل هذا فقد أُخلوا مع أهوائهم ، تقودهم إلى حيث مواقع الضلال والهلاك ، دون أن تمتد إليهم يد منقذة . . إنهم قطعوا كل سبب يصل بينهم وبين أية وسيلة من وسائل الإنقاذ ..

قوله :

* « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » .

الذين اهتدوا هم أولئك المؤمنون الذين أوتوا العلم ، وهم كل المؤمنين .. إذ لا يكون الإيمان إيماناً إلا عن علم ..

والذين اهتدوا إنما اهتدوا لأنهم أوتوا علماً ، فكان هذا العلم طريقاً فسيحاً لهم إلى مزيد من العلم ، ومزيد من الهدى . . فكلما ازداد الإنسان معرفةً بربه ازداد هدى . . وازداد تقوى . . « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (٢٨ : فاطر) ..

وهذا يعنى أموراً :

أولا : أن على الإنسان أن يلتمس الهدى ويطلبه من ذات نفسه . . وهو فى هذا إنما يستجيب لفطرته ، ولداعى عقله .. فإذا لم يتجه إلى هذا الاتجاه ، كان مصادما لفطرته ، معطلا لمدركاته . . إنه حينئذ يكون أشبه بالحبّة التى أصابها السوس ، أو مسّها العفَنَ والعطن . . إنها تُبذر مع غيرها من الحب ، وتُسقى الماء كما يسقى غيرها ، ولكنها تظل جسما ميتا هامدا فى الأرض ، يأكله الثرى ، على حين يخرج غيرها نباتا ، ثم يكون زرعا ، مزهراً مثمراً . .

إن كل حبة من تلك الحبات التى نبتت وازدهرت وأثمرت ، لم تخرج إلى وجه الأرض إلا بما فيها من حياة كامنة ، وإلا بمجهود ذاتى ، بذلته الحبة حين اختلطت بالماء والتراب ، حتى لكأنها الأنثى تضع حملها ، فتعانى آلام الطلق ، والوضع ! .

والذين « اهتدوا » أى بذلوا جهداً ذاتيا من أنفسهم ، للاتجاه نحو النور ، والدخول فى دائرته ـ هؤلاء يزيدهم الله هدى بهذا النور الذى وضعه بين أيديهم ، فيرون على ضوء هذا النور أكثر مما رأوا ، حيث تهديهم هذه الرؤية إلى نور أعظم ، فيسمون إليه ، ويدخلون فى دائرته .. وهكذا .. « نور على نور .. يهدى الله لنوره من يشاء » (٣٥ . النور)

وفى قوله تعالى : « وآتاهم تقواهم » ـ إشارة إلى أن التقوى التى يبلغها المؤمن بإيمانه ، هى مطلب أعظم من مطلب العلم ، وأنها إنما تُنال بعد جهد ومصابرة . . ولهذا ، فإنه إذ يبلغ الإنسان الدرجة التى يدخل بها مدخل المتقين ، يُحتفى به فى الملأ الأعلى ، وتُخلع عليه خِلعة التقوى من الله رب العالمين ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وآتاهم تقواهم » .. إنها هبة عظيمة من الله ، وعطاء كريم ، من رب كريم ، لعباد كرام على الله ، مكرمين فى رحابه ..

وفى قوله تعالى : « والذين اهتدوا » وقوله تعالى : « وآتاهم تقواهم » ـ مايشير إلى أن تحصيل العلم ليس غايةً فى ذاته ، وإنما هو وسيلة إلى تحصيل الهدى ، وبالهدى يكون تحصيل الصفات الطيبة ، التى تـكمّل الإنسان ، وتجمّله ، وأنه لا أكمل ، ولا أجمل من التقوى .. كما يقول سبحانه : « ولباس التقوى ذلك خير » (٢٦ : الأعراف) وقوله سبحانه . « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » (١٩٧ :البقرة) . .

ومن أجل هذا ـ والله أعلم ـ جاء فعل الهدى محمولا على فاعله : « والذين اهتدوا » .. على حين جاء إتيان التقوى مسنداً إلى الفعّال المريد ، الله رب العالمين : « وآتاهم تقواهم» لأن التقوى مطلب عسير ، ومقام كريم ، تمتد به يد الرحيم الـكريم ، إلى من أخذوا بالأسباب إلى التقوى ..

قوله تعالى :

* « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم » .

الاستفهام هنا إنـكارى ، تقريعى ، تهديدى ، ينـكر على المشركين موقفَهم هذا ، من الإيمان بالله وبرسول الله ، ويقرّعهم على أنهم لم يفتحوا أبصارهم ولا بصائرهم لهذا النور الذى بين أيديهم ، ولا إلى هذه المَثُلات التى حلّت بالأمم من قبلهم .. ثم يتهددهم بالعذاب الذى يلقاهم يوم القيامة ، وقد قرب يومها ، وجاءت أشراطها ، أى العلامات المنذرة بمقدمها . .

فهؤلاء المشركون ..ماذا ينتظرون ؟ هل ينتظرون ـ إن انتُظر بهم ـ إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لايشعرون ؟ .. وإنها لآتية لاريب فيها .. فـكيف يكون حالهم إذا جاءتهم ، وقُدّموا للحساب والجزاء ؟ .. هل ينفعهم شىء فى هذا اليوم ؟ وهل من سبيل إلى أن يصلحوا ما أفسدوا ؟ كلا ، فقد انتهى وقت

العمل ، وجاء وقت الحساب والجزاء .. لقد انتقلوا من دار العمل والابتلاء إلى دار الثواب والعقاب .

وقوله تعالى : « فأنّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم » .. أى فكيف تنفعهم الذكرى ، إذا جاءتهم الساعة ؟ والذكرى هى العبرة والعظة .. وفى يوم القيامة تكثر العبر والعظات ، وتمتلىء القلوب بالندامة والحسرة على ما كان من الإنسان من تفريط فى جنب الله ، وتقصير فى رعاية حقه .. فمن لم يكن مؤمناً قَتَلَ نفسه حسرة على أنه لم يكن فى المؤمنين ، ومن كان مؤمناً ندم على ألا يكون فى المحسنين ، ومن كان فى المحسنين ، ندم على أنه لم يزدْ إحساناً .. ولكن لاشىء ينفع فى هذا اليوم ، إلا ما كان من عمل فى الدنيا . وهذا مايشير إليه قوله تعالى . « يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى * يقول ياليتنى قدمت لحياتى » (٢٣ ـ ٢٤ : الفجر) .

قوله تعالى :

* « فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم مُتقلّبكم ومثواكم » .

المتقلب : مايتقلب فيه الإنسان من شئون الحياة ، والمراد به الحركة .. والمثوى المأوى ، الذى يثوى إليه الإنسان ، ويسكن إليه ، والمراد به : السكون .. والآية التفات من الله سبحانه وتعالى إلى النبى الكريم ، واستدعاء ، واستدناء له من الله ، ليتلقّى مايوصيه به ربه ،تاركا هؤلاء المشركين وما هم فيه من عمى وضلال .. إنهم استحبوا العمى على الهدى، وآثروا الضلال والشرك ، على الإيمان .. فليموتوا بشركهم ، وليلقوْا المصير الذى هم أهل له ..

أما أنت أيها النبى « فاعلم أنه لا إله إلا الله » .. فالألوهة مقصورة على الله وحده ، لايشاركه فيها أحد .. « إنما هو إله واحد » .. « وإلهكم إله واحد» لا إله إلا هو الحى القيوم » .

والسؤال هنا : ماذا يراد بالعلم المطلوب من النبي أن يعلمه ، من أنه لا إله إلا الله ؟ وهل كان النبي إلى نزول هذه الآية الكريمة ، لايعرف هذه الحقيقة؟

إن النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان على التوحيد الخالص لله قبل أن يُبعث ، فكيف يراد منه أن يعرف هذه الحقيقة بعد أن بُعث ؟ وهل الخلاف بينه وبين قومه إلا على عبادة الله وحده ، دون مايعبدون من آلهة ؟ .

فما مفهوم هذا الأمر بالعلم ؟

الجواب ـ والله أعلم ـ من وجوه :

أولا : أن دعوة النبي من الله سبحانه وتعالى للعلم بأن لاإله إلا الله ـ هو نداء قربٍ وأنس للنبي من ربه ، يلقى إليه فيه بالوصف الذى ينبغى أن يعلمه من ربه ، فيحققه ، ويؤكده ..

وثانياً : العلم المطلوب من النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ليس هو العلم المجرد ، وإن كان مستيقناً ، وإنما هو العلم الذى يعطى ثمراً حاضراً . . والمراد بدعوة النبي هنا بأن يعلم أن لاإله إلا الله ـ هو ألاّ يأسَى على هؤلاء المشركين والمنافقين ، وألا يحفل بهم وبكثرتهم وقوتهم ، فإن الله الذى لا إله إلا هو ، معينه ، ومؤيده ، وناصره على كل عدو له ، وللدين الذى جاء به .. إنه سبحانه صاحب الأمر ، ومالك الملك ..

وثالثاً : إذا كان مطلوباً من النبي أن يذكر ربه ، وأن يجدد له كل حين بهذا الذكر ولاءً لربه ، وخضوعاً لجلاله وقدرته ـ إذا كان ذلك مطلوباً من النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو الذى تنام عينه ولا ينام قلبه عن ذكر ربه ـ فإن غير النبي أولى بأن يقيم على نفسه من هذا الأمر حارساً يحرسه من أهواء نفسه ، ووساوس شيطانه ، حتى لايلهو عن ذكر الله ،ولا يقطع الصلة بينه وبين ربه ، فتمتد غُربته عن ربّه ساعات ، أو أياماً ، أو شهوراً ، أو سنين !! .

قوله تعالى : « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » . . أى اطلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى ، لذنبك ، ولذنوب المؤمنين والمؤمنات ، وذلك فى حال استحضارك ذكرَ ربك ، والإقرار بتفرده بالألوهة .. فإذا كان ذلك ، كان طلب المغفرة لذنبك ، ولذنوب المؤمنين ، طلباً واقعاً موقعَ القبول ، لأنه متوجّه به إلى من يملك الأمر كله . .

[النبي . . وما ذنبه الذى يستغفر له ؟]

والسؤال هنا : هل للنبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ذنوب يطلب لها المغفرة من الله سبحانه وتعالى ؟ وكيف يتفق هذا والعصمة الواجبة للنبى ؟

والجواب على هذا ـ والله أعلم ـ من وجهين .

فأولا : عصمة النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لاتقطعه بحال أبداً عن البشرية ، التى لا تسلمَ ـ مهما بلغت من السموّ والكمال ـ من عوارض الخطأ ، والتقصير ، وذلك كشاهد على بشريّتها .

وما يقع من الأنبياء والرسل من خطأ وتقصير ، هو من الهِنات التى تُعدُّ حسناتٍ إذا صدرت من غيرهم . . ومثل هذه الهنات لا تجور على عصمة النبىّ ، فإنه ـ مع هذه الهِنات ـ لا يزال على قمة الإنسانية فى أكرم صفاتها ، وأنبل أخلاقها . . وقد استغفر كثير من الأنبياء من ذنوب سجلها القرآن الكريم عليهم . . كما فى قوله تعالى عن داود عليه السلام : « وظن داود أنما فتنّاه ، فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب » (٣٤ : ص) .

وكسليمان ـ عليه السلام ـ إذ يقول سبحانه : « ولقد فتنّا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب » (١٤٤ : الصافات) .. ويونس عليه السلام : « فلولا أنه كان المسبّحين ، للبث فى بطنه إلى يوم يُبعثون » (١٤٤ : الصافات) . .

وإبراهيم أبو الأنبياء ، عليه السلام ، يقول عن نفسه : « والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » (٨٢ : الشعراء) . .

فكل ابن آدم خطّاء ، وخير الخطائين التوابون . . والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أبناء آدم .. وأخطاؤهم هى أخطاء على حدود الكمال المطلق، الذى لا تطوله يد بشر !

وثانياً : أن فى دعوة النبى ـ صلوات الله وسلامه عليـه ـ إلى الاستغفار لذنبه ، إشارة إلى أن الإنسان مهما كان أمره من الإيمان والتقوى ، لا يبلغ أبداً غايةَ الكمال المطلق . . فإنه كلما حَثّ الخطَا إلى هذا الكمال ارتفع صُعُداً فى منازله ، ووجد منازل لا تنتهى . . وذِكر الله ، واستغفاره ، يبعث فى شعور الذاكر المستغفر ، أنه بين يدى الله الذى لا إله إلا هو ، وأنه فى حضرةِ مَن يعلم السرّ وأخفى ، فتأخذه لذلك خشية ورهبة من كل زلة زلها ، أو هفوة وقعت منه . . فلا يجد غير الله ملجأ يلجأ إليه ، ليغفر له ما كان منه . . « ومن يغفر الذنوب إلا الله » . (١٣٥ : آل عمران) .

فإذا كان النبى مطالباً بأن يستغفر لذنبه ، فكيف حالنا نحن ؟ وكيف بما نحمل من أوزار لا تستقلّ بحملها الجبال ؟ ثم كيف بأولئك الذين يحسبون ـ إن صدقا وإن خداعاً ـ أنهم على هدى ، وتقوى من الله . . كيف بهم يُخلُونَ أنفسهم من التكاليف الشرعية ، بدعوى يدّعونها لأنفسهم ، أو يدّعيها لهم غيرهم ـ بأنهم من الواصلين .. أى الذين وصلوا إلى غاية الكمال ، وتحرروا من القيود والحدود ، وفنوا فى المطلق ؟ إن من يفنى فى المطلق لا يكون إنساناً ، ولا ينبغى أن يسكن إلى الناس ، وأن يسكن إليه الناس . . !

وقوله تعالى : «وللمؤمنين والمؤمنات» معطوف على قوله تعالى «لذنبك» أى استغفر لذنبك ، ولذنب المؤمنين والمؤمنات . . وأعيد حرفُ الجر « اللام »

للإشارة إلى أن ذنب النبي غير ذنب المؤمنين والمؤمنات . . وأن ذنب النبي هو ـ في باب الفضل والإحسان ـ عدم تحرّى الأخذ بما هو أفضل وأحسن .

وفى اختلاف النظم القرآنى بين قوله تعالى فى شأن النبي : « واستغفر لذنبك » وبين قوله تعالى فى شأن المؤمنين والمؤمنات : « وللمؤمنين والمؤمنات » من غير أن يُضيف إلى المؤمنين والمؤمنات ذنوبا ـ فى هذا الاختلاف أكثر من إشارة :

فأولا : فى قوله تعالى فى شأن النبي : « واستغفر لذنبك » ـ إشارة إلى أن ما كان من النبي صلى الله عليه وسلم من ذنب ، هو معلوم له . . ذلك أن ما يُعدّ من الذنب فى مقامه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يَشعرُ به النبي صلى الله عليه وسلم بمجرد وقوعه ، لأنه شيء مظلم يدخل على هذا الوجود المشرق بنور الحق . . إنه سَرْعان ما يجد النبي فى نفسه نخسة لهذا الذنب ، وسَرْعان ما يتجه إلى الله سبحانه ، طالباً التوبة والمغفرة . . فإذا غفل النبي ، عن ذنب وقع منه نبهه الله سبحانه وتعالى إلى ذنبه ، وكشف له عنه ، فى صورة عالية من الأدب الربانىّ . . ومن هذا عتابه سبحانه وتعالى لنبيه ، فيما كان منه حين أعرض عن ابن أم مكتوم ، الذى جاء يسأله عن شيء من أمر دينه ، على حين كان النبي مشغولا بالحديث إلى جماعة من أشراف قريش ، جاءوا يحاجّونه ويجادلونه . . فقال تعالى : « عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى » (١ـ٣ : عبس) .

ومن هذا أيضاً عتابه سبحانه للنبي ، وقد أذِن لبعض المنافقين الذين جاءوا يستأذنونه فى التخلف عن الجهاد .. فقال سبحانه : « عفا الله عنك: لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ؟ » (٤٣ : التوبة) .

هذا هو مما يُرَى فى حق النبي ذنباً . .

فقوله تعالى : « واستغفر لذنبك » ـ إشارة إلى ذنبٍ معلوم للنبى ، قد علمه بمراجعة نفسه أو بإعلام الله إياه . . وهذا يعنى أن ذنب النبي شيء قليل ،

لا يمكن أن تجتمع منه ذنوب .. فهو ذنب قليل ، كمًّا وكيفاً . .

وثانياً : فى وقوع فعل الاستغفار على الذنب ، فى قوله تعالى : « واستغفر لذنبك » ، إشارة أخرى ، إلى أن هذا الذنب لم يدخل على النبى صلوات الله وسلامه عليه شىء منه ، بل ظلت ذاتية النبى فى صفائها ونقائها ، وظل هذا الذنب كائنا يحوم بأجنحته حول حمى النبوة ، دون أن يقدر على اختراق هذا الحمى . .

ففى إفراد الذنب ، وعزله عن ذنوب المؤمنين ـ تكريم للنبى ، وإعلاء لقدره ، وتنويه بمقامه عند ربه ، وأنه شىء ، وهذا الذنب شىء آخر .. إن هذا الذنب هو الذى يحتاج إلى معالجة ، أما النبى الكريم فهو على الصحة والسلامة .

وثالثاً : فى قوله تعالى : « وللمؤمنين والمؤمنات » هو مقابل لذنبك . . فالنبى إذ يستغفر لهذا الذنب الذى كان منه ، عليه كذلك أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات الذين هم غرس يده .

وإن عمل النبىّ ـ أيًّا كان هذا العمل ـ هو عمل مبرور . . وإن ما يعمله النبىّ ويحسب عليه من قبيل الذنب . . هو عمل مبرور كذلك ، وإن لم يستوفِ غاية البرّ . . شأن عمل النبى هنا ، فى هذا شأن المؤمن أو المؤمنة ، يتلبسان بالذنوب ، ويختلطان بالآثام .. ثم هما ـ مع ذلك ـ أقرب إلى الله ، وأدنى إلى رحمته ممن لا يؤمنون بالله ، ولو لم يواقعوا إثماً ، أو يفعلوا منكراً . .

فكما أن الإيمان يحمى المؤمن من غائلة المعاصى ، التى تقع منه ، وذلك بأن يتوب إلى الله فيتوب الله عليه ، ويستغفر لذنوبه فيغفر الله له . . على حين أن غير المؤمن لا يُقبل منه عمل أبداً ـ كذلك النبوّة تحمى النبىّ من أن يعلق به ذنب ، أو تتحكك بحماه معصية .. إن ذنبه طاهر أشبه بطهر المؤمن أو المؤمنة .

وكما يرى النبيُّ المؤمنين أو المؤمنات فى حاجة إلى تطهير مما علق بهم من خطايا وآثام ، كذلك يرى بعضَ أعماله التى تُعدّ عليه ذنبا ـ فى حاجة إلى تعديل وتقويم وإن كان وجهها قائماً على قبلة الحقّ ، آخذاً سمت العدل والإحسان . .

ورابعاً : استغفار النبيّ لذنبه . . استغفار لذات محدّدة معروفة ، هى هذا الذنب ، « استغفر لذنبك » . . أما استغفاره ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ المؤمنين والمؤمنات ، فهو استغفار لتلك الذوات . . ذوات المؤمنين والمؤمنات . . وما تلبس بها من ذنوب ، وهذا يعنى :

أولا : أن النبيّ إذ يستغفر لذنبه ، إنما يستغفر لذنب غفره له الله سبحانه وتعالى ، من قبل أن يقع منه ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » (٢ : الفتح) وقوله سبحانه : « ووضعنا عنك وزرك * الذى أنقض ظهرك » (٢ ـ ٣ الانشراح) . . فالاستغفار هنا استغفار حمد وشكر ، كما يشير إلى ذلك النبيّ الكريم ، وقد سئل ، كيف يُجهد نفسه فى قيام الليل حتى تورمت قدماه ، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ فيقول صلوات الله وسلامه عليه :

« أفلا أكون عبداً شكوراً » .

ثانياً : أن استغفاره صلى الله عليه وسلم . . للمؤمنين المؤمنات . . ذواتاً وذنوباً ، هو بركة ، ورحمة ، تتنزل عليهم ، فتشيع فى قلوبهم السكينة ، وتُجلى عن أبصارهم غواشى الجهل والضلال . . فيتوب العاصى ، ويهتدى الضال ، ويزداد الذين اهتدوا هُدًى . .

فاستغفار النبيّ للمؤمنين والمؤمنات ، إنما هو دعاء لهم بالخير والهدى واستدناء لهم من رضا الله وتوفيقه . . وبهذا يكون للمؤمنين والمؤمنات ، من

هذا الاستغفار ، داع خفيّ يدعوهم إلى الله سبحانه ، وينهج بهم مناهج الخير والهدى . . لا أنّ هذا الاستغفار من النبيّ للمؤمنين والمؤمنات ، يغفر لهم ذنوبهم ، ويمحو عنهم سيئاتهم ، فإن غفران الذنوب ومحوها إنما يكون بعمل ذاتيّ من الإنسان نفسه بأن يتوب إلى الله ويستغفر لذنبه ، كما يقول سبحانه: « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » (٢٥ : الشورى) .

وكما يقول جل شأنه : « ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما » (١١٠ : النساء) أو بأن يعمل المرء عملاً صالحاً ، فيكون ذلك العمل الصالح طهرة من العمل السيء ، كما يقول سبحانه : « إن الحسنات يذهبن السيئات » (١١٤ : هود) أو أن يكون ذلك بفضل من الله ونعمة .

وهذا الذى ذهبنا إليه من أن استغفار النبيّ للمؤمنين والمؤمنات ، لا يكفر عنهم ذنوبهم ، وإنما يمدّهم بأمداد الهدى والاستقامة ـ هذا الذى ذهبنا إليه ، هو ما يتفق وروحَ الشريعة الإسلامية ، التى تحترم الإنسان ، وتُعلى ذاته ، وتجعل إليه وجوده كله ، من غير قَوَامة عليه من أحد . . فهو بهذا الوضع إنسان يحمل المسئولية كاملة ، ماله ، وما عليه . .

ولو كان استغفار النبيّ للمؤمنين والمؤمنات مكفّراً عنهم سيئاتهم غافراً لذنوبهم وآثامهم . . لكان من هذا داعيةٌ إلى المؤمنين والمؤمنات إلى إخلاء أنفسهم من المسئولية ، ولما كان للإساءة حساب عندهم ، إذ كان هناك من يستغفر لهم ، ويحمل عنهم ذنوبهم !

ومن جهة أخرى ، فإنه لو كان معنى استغفار النبى للمؤمنين والمؤمنات ، هو طلب المغفرة لذنوبهم ، لكان ذلك أمراً مَقْضِيّا للنبى عند ربّه ، ولَغفر الله سبحانه وتعالى ذنوب المؤمنين والمؤمنات جميعاً، لأنه دعاء من النبيّ ، وكل دعاء من النبيّ إلى ربّه ، هو دعاء مستجاب ، لا يتخلف أبداً . . وقد رأيتَ ما يُفضى إليه غفران ذنوب كل مؤمن ومؤمنة ، من غير عمل منهم .

واستمع بعد هذا إلى قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم » (١٠٣ : التوبة) . .

ففي هذه الآية الكريمة ، ترى المؤمنين في مقام الإحسان ، وهم يؤدون زكاة أموالهم إلى النبي ، فيقبلها النبي منهم ، فيكون لهم من هذه الزكاة طهرة لأنفسهم ، وزكاة لأموالهم : « تطهرهم وتزكيهم بها » . . فإن زكاتهم تلك التي أخذها النبي منهم ، يردّها عليهم طهراً لأنفسهم ، ونماء لأموالهم . . فهذا إحسان إليهم ، في مقابل إحسان منهم و : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ » (٦٠ : الرحمن) . .

ثم بعد مقابلة هذا الإحسان بإحسان ، دعا الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم إلى أن يضيف إلى هذا الإحسان إحساناً ، فضلا وكرماً من الله سبحانه ، وذلك بأن يصلى النبي على هؤلاء المتصدقين : « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » فهذه الصلاة ، من النبي على المتصدقين ، هي سكن لهم ، واطمئنان لقلوبهم ، وزادٌ من الإيمان يثبت أقدامهم على الخير ، ويفتح أبصارهم إلى مواقع الإحسان .. أما غفران ذنوبهم — كلها أو بعضها — فهو موكول إلى الله ، وبما يقدمون لله سبحانه وتعالى من طاعات وقربات . .

« والله يقول الحق وهو يهدى السبيل »

الآيات : (٢٠ — ٣٠)

* « وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ

مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ (٢٤) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشىّ عليه من الموت فأولى لهم * طاعة وقول معروف » .

هذه لفتة من القرآن الكريم إلى مواقع المسلمين ، ونظرة ينظر بها إلى مجتمعهم الذى أصبح يضم كثيراً من الجماعات .

لقد كان القرآن الكريم منذ يوم نزل على النبى ، وهو فى مواجهة دائمة

المشركين ، يدعوهم إليه ، ويقيم لهم معالم الطريق إلى الله ، ويفند أباطيلهم ، ويفضح سفههم . .

وقد قطعت الرسالة الإسلامية إلى يوم نزول هذه السورة ـ سورة محمد ـ (وهى مدنية) ـ شوطاً بعيداً على الطريق إلى غايتها ، ودخل كثير من الناس فى دين الله ، فكان من تدبير الحكيم العليم أن يُلفت المسلمين إلى أنفسهم ، وإلى أن يكتشفوا مواقع القوة والضعف منهم . . فهم ليسوا على حال واحدة من السلامة والعافية فى دينهم ، وإن من الخير لهم ـ وهم على الطريق ـ أن ينظروا إلى أنفسهم ، وألا يشغلهم النظر الدائم إلى عدوهم ، عن النظر إلى أنفسهم ، فإنه من الغبن والظلم معاً ، أن يرعى الإنسان غيره ويُهمل نفسه ، ففى ذلك تضييع للراعى ولمن يرعاه جميعاً . .

وقوله تعالى : « ويقول الذين آمنوا لولا نُزلت سورة » ـ إشارة إلى تطلع أنظار المؤمنين ، إلى آيات الله ، وتعلق قلوبهم بما ينزل من وحى السماء . . فهم على شوق دائم بهذا النور الذى ينزل من السماء ، فإذا أمسك الوحى عنهم قليلا ، هفت قلوبهم إليه ، وشاقهم الحنين له ، وباتوا يتمنون على الله أن ينزّل عليهم سورة ! « لولا نزّلت سورة » ! ! فلولا هنا استفهام يراد به الرجاء والتمنى . . .

هذا هو موقف المؤمنين من آيات الله . . يرصدون منازلها ، ويَشُدّون قلوبهم وعقولهم إلى مطالعها ، وينتظرون فى لهَف وشوق هطول غيوثها . .

أما من فى قلوبهم مرض من المؤمنين ـ فإن لهم مع آيات الله موقفا غير هذا الموقف ، وشأنا غير هذا الشأن . .

وقوله تعالى : « فإذا أُنْزِلَتْ سورة مُحْكَمَةٌ وذُكِرَ فيها القتال رأيتَ الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغْشىِّ عليه من الموت » .

إن مقام القول سهل ميسور ، ومجال الكلام واسع فسيح . . وإن وضع القول على محكّ العمل ، هو الذى يكشف عن معدنه ، وما فيه من صدق أو كذب ، وحق أو باطل ، وصحيح أو زيف .

فهذه السورة التى كان يتمناها المؤمنون ، قد نزلت إليهم ، وهى سورة محكمة ، أى محددة المعنى ، محكمة المفهوم ، لامجال فيها لتأويل ، أو تخريج . . إنها على مفهوم واحد لا اختلاف فيه . . ولكن هذه السورة المحكمة تحمل إلى المسلمين ابتلاء واختباراً . . إنها تدعوهم إلى الجهاد فى سبيل الله ، وإلى القتال والقَتْل فى سبيل الله . .

وهنا تختلف بالمؤمنين مواقفهم من هذه السورة المحكمة ، التى تحمل دعوةً إلى الجهاد فى سبيل الله . .

فأما المؤمنون الصادقون ، الذين أخلصوا دينَهم لله ، فهم يستبشرون بما تَلَقَّوْا من آيات الله ، إذ يتلقون الأمر الصادر إليهم منها بالرضا والقبول ..

وأما الذين فى قلوبهم مرض ، فيأخذهم لهذا الأمر همٌّ ثقيل ، إنهم يتمثلون فى تلك الحالة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو على رأس المؤمنين ، يقودهم إلى الجهاد فى سبيل الله ، فيتمثل لهم أنهم فى هذا الجيش الذاهب إلى ميدان القتال ، وتتمثل لهم مصارعهم هنك ، فيغشاهم لذلك مايغشى الميت ساعةَ احتضاره ..

إن آيات التى الله تنزل من السماء ليست أناشيد تردد ، ولا مزامير ترتّل ، ولكنها رسول هداية ، ودليل خير ، وقائدٌ يقود إلى العمل فى مواقع الحق والخير ، وداع يدعو إلى البذل ، والتضحية والفداء . .

وفى الآية الكريمة ، إشارة كاشفة إلى أول عَرَض من أعراض النفاق ، وأول سحابة تطلع فى سماء المؤمن من سحبه .

فقد يكون المؤمن على درجة من الإيمان . . فهو يؤمن بالله ، وبكتاب الله وبرسول الله ، وباليوم الآخر . . ولكن فى مجال الامتحان ، تَضْمُرُ هذه المعانى فى نفسه ، وتخفّ موازينها فى كيانه . . وهذا من شأنه ـ إن تمكن فى قلب المؤمن ـ أن يذهب بإيمانه كلّه . . إن الإيمان ولاء مطلق . . فى السّرّاء والضرّاء، فى الرخاء والشدة . . أما الإيمان فى حال الميسرة والرخاء ، والجزع والتشكك ، أو التردد فى ، حال الشدة والبلاء ـ فذلك هو الطريق إلى النفاق والكفر .

وهذا أول مرض تكشف عنه الآية الكريمة فى نظرتها الأولى إلى الجماعة الإسلامية . . إنها أرت المسلمين بعضاً من أنفسهم ، وإن بهم خللا ينبغى أن يعالجوه فيما بينهم ، وأن يتلافوه قبل أن يستفحل ويعظم ، وتتولد منه مواليدُ كثيرة من المنافقين ، الذين يكونون حرباً خفية على المسلمين .

وقوله تعالى : « فأولى لهم * طاعة وقول معروف » — هو دعوة من الله سبحانه وتعالى إلى هؤلاء المؤمنين ، الذين عرَفوا أن فى قلوبهم مرضاً ، وذلك لِما وجدوا فى أنفسهم من ضيق وهمّ ، حين استمعوا إلى آيات الله التى تنزلت على النبى ، داعية إلى القتال — هو دعوة من الله سبحانه إلى هؤلاء المؤمنين ، أن يغيروا مابأنفسهم ، وأن يصححوا إيمانهم بالله،وأن يكونوا على ولاء مطلق لله ، فيسمعوا ، ويطيعوا ، على المكرَه والمنشط . . فذلك هو الذى يمسك عليهم إيمانَهم بالله ، وفى هذا سلامة لهم ، وصلاح لأمرهم فى الدنيا والآخرة جميعا . . .

هذا ، وقد جاءت الجملة الخبرية : « فأولَى لهم * طاعة وقول معروف » — جاءت وأحد جزءيها (المبتدأ) فى آية والجزء الآخر (الخبر) فى آية أخرى .

فما سرّ هذا ؟ أو ما بعض سره ؟

يقول المفسرون ، وعلماء البيان : إن ذلك لمراعاة الفاصلة القرآنية . .

فقوله تعالى : « فأولى لهم » هو فاصلة الآية ، لتنسق مع فواصل الآيات في هذه السورة ، وهي تعتمد على اللام ، والهاء ، الميم : « لهم » أو الهاء والميم : « هم » أو الميم الساكنة وحدها .. مثل « أعمالهم » .. « بالهم » .. « أمثالهم » ... ومثل : « تقواهم » .. « ذكراهم » ومثل « مثواكم » ...

وهذا قول لا يستقيم مع إعجاز القرآن ، ومع أوضح وجه من وجوه إعجازه ، وهو النظم ..

فهذا النظم ، لكي يكون معجزاً ، ينبغي أن يعلو على حكم الضرورات ، التي تتحكم في أعمال البشر ..

والقول بأن الوقوف بالآية عند قوله تعالى : « فأولى لهم » كان لرعاية الفاصلة — هو قول بإخضاع القرآن لحكم الضرورة ، وعجزه عن أن يخرج من قيدها ..

إنه لا بد أن يكون لهذا سر ، بل وأسرار ، ليس منها هذا الذي يقال ، عن الفاصلة ورعايتها ..

فما السر ؟ وما بعض السر ؟

نقول — والله أعلم — : إن هذا الفصل بين المبتدأ والخبر ، مقصور قصداً من القرآن الكريم ، وأنه بغير هذا الفصل لا يتحقق المعنى كاملا كما قصد إليه القرآن ..

فالله سبحانه وتعالى ، يلفت المؤمنين الذين في قلوبهم مرض ، إلى هذا المرض الذي اندس في قلوبهم ، ولا يكادون يعرفون أنهم مصابون به .. ولكن بعد أن نزلت السورة المحكمة التي تحمل أمراً محكماً بالقتال — عرف الذين في قلوبهم مرض ، أن في قلوبهم مرضاً ، لِمَا عراهم من تلك الأوصاف التي

وصَفَتْ بها الآية ، مَن كان فى قلوبهم مرض .. « رأيتَ الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشىّ عليه من الموت » ..

وفى قوله تعالى : « فأولى لهم » دعوة إلى هؤلاء المؤمنين الذين فى قلوبهم مرض - دعوة لهم إلى ماهو أولى وأوفق بهم أن يفعلوه فى هذا الموقف .. فإن كلمة « فأولى لهم » ، تعنى أن هناك انحرافاً لا يصحّ للإنسان أن يظل فيه، وأن هناك ماهو أولى به ، وأحق من هذا الموقف ..

وهذا يَعنى :

أولا : أنهم على غير الطريق السوىّ ، الذى ينبغى أن يكون عليه المؤمن .. وأنه من الخير لهم أن يغيّروا من وضعهم هذا الذى هم فيه ..

وثانياً : أنهم - وهم مؤمنون - مطلوب منهم أن يكشفوا عن الآفات التى تَعرض لهم ، وتحاول أن تفسد عليهم إيمانهم ، لأنهم أولى الناس وأجدرهم بأن يكونوا على الصحة والسلامة .. إنهم مؤمنون بالله ، وإن المؤمن ليبلغ به إيمانُه أقصى درجات الكمال البشرىّ ، إذا هو كان على نية مخلصة ، صادقة ، وعلى وعى وإدراك للحقائق الدينية التى آمن بها ..

وهنا سؤال :

أين خبر المبتدأ : « فأولى لهم » ؟

هذا ما أراد النظم القرآنى أن يكون مَثار بحث وتفكير .. حتى إذا أخذ العقل طريقه للبحث عن هذا الخبر ، ثم اهتدى إليه ، أو هُدى إليه - كان له فى النفس موقعه الذى يحقق له وجوداً ذاتياً متمكناً ، فى إدراك الإنسان وشعوره ..

ومرة أخرى .. أين خبر المبتدأ ؟

إن كلمة « أولى لهم » تشير إلى أن المخاطَبين بهذا فى وضع غير صحيح مع إيمانهم ..

وأنه من الأولى لهم أن يتحولوا عما هم عليه ، وأن يتبدّلوا بحالهم حالاً أحسن ، وأجمل ..

فما هى تلك الحال ؟

قد تكون التوبة إلى الله ، والاستغفار لما كان منهم من استقبال سيىء لآيات الله المحكمات ..

وقد تكون بالعمل الفورىّ ، بطلب الجهاد فى سبيل الله ، والغزو فى أى وجه يوجههم إليه الرسول ..

وقد تكون ، وتكون .. مما يراه المؤمن مصححاً لإيمانه ، بعد أن كشفت الآية عن ضعف هذا الإيمان .. و ذلك على نحو ما فى قوله : « أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى » (٣٤ ، ٣٥ : القيامة) .

حيث جاء المبتدأ ولا خبر له !

فهذه الحال التى يرى المؤمن التحولَ إليها ليصحح إيمانه ــ هذه الحال هى خبر المبتدأ .. أى فأولى لهم أن يرجعوا إلى الله ، أو فأولى لهم أن يتلقّوا آيات الله سبحانه بالحفاوة والتكريم والولاء ...

أما قوله تعالى : « طاعة وقول معروف » .. فهو الدواء الذى تقدّمه السماء لأولئك المؤمنين ، الذين يريدون أن يصححوا إيمانهم .. وهو خبر المبتدأ ، الذى طلع من أفق جديد ، فى سماء آية جديدة .. فإذا التقى به المؤمن بعد هذا ترك جميع الخواطر التى طرقته ، وجاء إلى هذا الدواء السماوى الذى حملته

الآية الكريمة ، ليكون الخبرَ الذى طال البحثُ عنه ..

إن الخبر الصحيح المبتدأ هو : « طاعة وقول معروف » .. وهو الذى يجمع فى كيانه كل ما وقع فى خاطر الإنسان ، وهو يبحث عن الطريق التى يقيم عليها إيمانَه ، ويسلك به المسلك الذى هو أولى بالمؤمن .. !

فالطاعة المطلقة ، والولاء الخالص ، والتسليم الكامل ، هى الإيمان فى صميمه .. وإنه لا إيمان فى شىء ، أو بشىء ، إلا إذا سكن هذا الشىء فى ضمير الإنسان واستقر فى وجدانه ، وخالط مشاعره ، وملأ عليه وجوده .. ومن هنا يكون الولاء والتسليم ، والطاعة ..

ومن هنا أيضاً ، كان من أول مبادىء الإسلام التى قامت عليها دعوته ، هو أنه : « لا إكراه فى الدين » .. إذ لا يتفق الولاء والتسليم والطاعة مع الإكراه ..

ونودّ أن تنظر بنفسك فى وجه الآية الكريمة على هذا المفهوم الذى فهمناها عليه ..

فلعلك ترى هذا الذى رأيناه ، أو يفتح الله سبحانه وتعالى لك أبواباً من المعرفة تطّلع منها على مالا حصر له من الأسرار ..

« فأولى لهم * ... طاعة وقول معروف » .

إننا نرى ـ والله أعلم ـ أن الوقوف على فاصلة الآية ، هو وقوف محمود ، إن لم يكن لازماً !!. فهاتِ رأيك ، أو خذ بما رأينا !

قوله تعالى :

* « فإذا عزم الأمر فلو صَدَقوا الله لكان خيراً لهم » ..

هو تعقيب شارح لقوله تعالى : « طاعة وقول معروف » ..

أى أن الأولى بالمؤمنين ، هو الطاعة المطلقة ، لما تدعو إليه آيات الله ، وهو القول المعروف ، ، أى الحسن الذى يلقى المؤمنون به ما يتنزل عليه من تلك الآيات ـ فهذا عمل باللسان . . يكشف به المؤمن عن ظاهره .. فإذا جاء وقت الابتلاء والاختبار ، استكمل المؤمن إيمانه ، بأن يجعل هذا الكلام الذى نطق به اللسان ، وكشف به عن ظاهر حسن له ـ أن يجعل هذا الكلام عملا واقعاً ، وأن يصدِّق فعلُه قولَه . . فإن قولاً لا يصدّقه الفعل ، هو باب من أبواب النفاق . .

فقوله تعالى : « فإذا عزم الأمر » أى إذا جاء وقت الابتلاء ، وهو الجهاد ، الذى أمر الله به المؤمنين ، أصبح هذا الأمر عزيمة لا يجوز للمؤمن أن يترخّص فيها ، أو ينْـكُل عنها .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «فلو صدقوا الله لـكان خيراً لهم » أى فإذا جاء أوان الجهاد انـكشفت على محكّه حقيقة الإيمان ، وظهر الصادقون والـكاذبون ، فلو أن هؤلاء المؤمنين صدقوا الله فيما أعطوْا من إقرار بالإيمان به ، وجاهدوا فى سبيله — لو أنهم فعلوا ذلك لـكان خيراً لهم ..

فالفاء فى قوله تعالى : « فلو صدقوا الله » هى للتفريع ، والتعقيب على كلام محذوف ، هو جواب « إذا » فى قوله تعالى : « فإذا عزم الأمر » — ، أى فإذا عزم الأمر انـكشفت أحوال المؤمنين وأقوالهم ، وظهر الصادق والـكاذب.. فلو صدق هؤلاء المتخلِّفون ، أو الذين تحدِّثهم أنفسهم بالتخلف ـ لو صدقوا الله وجاهدوا ، لـكان خيراً لهم . .

ويلاحظ فى نظم الآية الـكريمة ، أنها لم تأخذ الخط الطبيعى الذى تقوم عليه العلاقات بين الـكلمات ، والترابط بين أجزاء العبارات والجمل . . كما

رأينا ذلك فى الفصل بين المبتدأ والخبر فى قوله تعالى : « فأولى لهم * طاعة وقول معروف » وكما رأيناه فى هـــذا التدافع بين أواتى الشرط : إذا ، ولو . .

وقد كشفنا عن بعض السر فى هذا ، وما يحمل هذا النظم الذى جاءت عليه الآية الـكريمة من معان لا يمكن أن يستقلّ بها نظام آخر ، على أى وجه كان من وجوه النظم ، غيرَ هذا النظم القرآنى . .

ولـكن الذى نريد أن نشير إليه بتلك الملاحظة ، هو أن هذا النظم الذى جاءت عليه الآية الـكريمة ـ بصرف النظر عن المعانى التى يحملها فى فى كيانه ـ هذا النظم يمثل فى صورته اللفظية ، من تقطّع ، وتوقّف ، وتدافع، ما تـكون عليه أحوال المؤمنين الذين لم يدخل الإيمان فى قلوبهم دخولا متمكنا — من اضطراب ، وخلخلة ، وتردد ، وتدافع بين مختلف العواطف ، حين يُدْعى هؤلاء المؤمنون إلى الجهاد ، وقد عزم الأمر ، وجدّ الجد ! فجاء النظم على صورة هذه المشاعر ، يفرقها ، ويجمعها ، كما تتفرق وتجمع فى هذا المقام ! . .

فسبحان من هذا كلامه . . سبحانه .. عدد كلماته .

قوله تعالى :

* « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامـكم » . .

هو بيان للحال التى سينتهى إليها أمر هؤلاء المؤمنين ، الذين فى قلوبهم مرض ، وهو أنهم إذا لم يستجيبوا لدعوة الله سبحانه وتعالى لهم ، ولم يسمعوا ويطيعوا ، ويجاهدوا فى سبيل الله — فإن هذا سينتهى بهم إلى أخذ طريق

غير طريق المؤمنين ، ثم يمضى بهم هذا الطريق رويداً رويداً إلى الخروج عن الإيمان ، إلى ما كانوا عليه من كفر ..

وفى إسناد فعل الرجاء « عسى » إلى هذه الجماعة من المؤمنين ، إشارة إلى هذا الأمر الذى وقع عليه الرجاء ، وهو الإفساد ، وتقطيع الأرحام — وأنهم إنما يرجونه هم لأنفسهم ، بتولّيهم ، وإعراضهم عن الله . . وهذا لا يكون إلا ممن سَفِه نفسه ، وخان إنسانيته ، حتى لقد أصبح ما يتمناه لنفسه ، ويرجوه لها ، هو هذا الشر الصُّراح : الإفساد فى الأرض ، وتقطيع الأرحام !.

وماذا يكون من شأن من لا يؤمن بالله ، ولا يرجو لله وقاراً ؟ . . أتراه يرى لإنسان حرمة ، أو يؤدى لذى رحم حقًّا ؟ إنه إنسان ضال ، سفيه الرأى ، غليظ القلب ، متلبد الإحساس . . فهل يكون منه غير الإفساد ، فى الأرض ، وقطع كل سبب طيب يصل بينه وبين الناس ، من قريب ، أو بعيد . .

واختصاص ذوى الأرحام بالذكر هنا — هو إشارة إلى أن هذا الذى تولّى وأعرض عن الإيمان بالله ، لا يُرجى منه خير لإنسان ، ولو كان فيه خير يُرجى ، لكان ذلك فى أهله ، ولمّا قطع صلة الرحم بينه وبينهم . .

والمراد بالتولّى هنا — والله أعلم — هو الإعراض عن الاستجابة لدعوة الله والرسول إلى الجهاد . .

قوله تعالى :

* « أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم » . .

هو حكم صادر على هؤلاء الذين دُعوا إلى الايمان — قولاً وعملا —

فأعرضوا، وتولّوا . . ثم مضوْا على غير طريق الإيمان ، فإذا هم فى الكافرين..
فهؤلاء قد لعنهم الله ، فأصابهم بالصمم والعمى ، فلم يسمعوا كلمة خير ، ولم
يروْا طريقَ هدى ..

وانظر :

لقد كان هؤلاء المؤمنون فى موقف خطاب من ربّ العزة جلّ وعلا فى
قوله تعالى : «فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم»ـ
كانوا هنا فى موقف الخطاب ، لأنهم كانوا فى جماعة المؤمنين ، وكانت الدعوة
إليهم ليصححوا إيمانَهم ، وليأخذوا السبيل التى يأخذها المؤمنون الصادقون..
أمّا هنا ، فى قوله تعالى : «أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم»
فإنهم الآن بعد حُكم صدر عليهم ـ وهو أنهم يولّون وجوههم إلى طريق آخر
غير طريق الإسلام ـ فقُذف بهم بعيداً عن هذا الوطن الكريم الذى كانوا فيه
بين المؤمنين ، ثم أُتبعوا بهذا الحكم الذى يأخذ طريقه معهم إلى حيث انتهى
بهم المطاف : « أولئك الذين لعنهم الله ، فأصمّهم وأعمى أبصارهم » . .

قوله تعالى :

« أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالُها » .

هو سؤال يتردد فى صدور من ينظرون إلى هؤلاء الذين كانوا على طريق
الإيمان ، ثم لم يلبثوا أن انحرفوا عنه ، وضلوا سواء السبيل . . ثم ألقى
بهم بعيداً عن دائرة المؤمنين ..

فكل من كان بمشهد منهم من المؤمنين ، يسأل هذا السؤال : ما بال
هؤلاء الأشقياء ، قد ألقوا بأنفسهم فى مواقع الهلاك ، وقد كانت آيات الله بين
أيديهم ؟ أمع آيات الله يكون عمًى وضلال ؟ وكيف وهى صبح مشرق ،
ونور مبين ؟ . .

أمران لا ثالث لهما ، هما العلة التى جاء منها هذا البلاء الذى حلّ بهؤلاء الأشقياء المناكيد .. إما لأنهم لم يتدبروا القرآن ، ولم يُحسنوا الإصغاء إليه ، والاتصال به ، والأخذ عنه .. وإما لأنهم تدبروا وأصغوْا ، وحاولوا أن يتصلوا بالقرآن ، ولكن كانت قلوبهم مغلقة ، ومختومًا عليها ، فلا ينفذ إليها شعاع من هدى أبداً ..

وسواء أكان هذا أو ذاك ، فإن الداء منهم ، وفيهم .. وليس من آيات الله ، ولا فى آيات الله .. فما فى آيات الله إلا هدًى ، وحق ونور .. وهذا مثل قوله تعالى : « أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين » (٦٨ : المؤمنون) . .

ولا يصحّ أن يكون الاستفهام فى قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن » للتحضيض ، بمعنى هلاّ ، لأن التحضيض إنما يكون لمن يُرجى منه إتيان ما يُحضّ عليه ، وهؤلاء قد سبق الحكم عليهم بأن الله قد لعنهم فأصمهم وأعمى أبصارهم . . فكيف يُدْعَون بعد هذا إلى تدبر القرآن ؟

وفى قوله تعالى : « أم على قلوب أقفالها » — جاء النظم على خلاف الظاهر ، وهو أن يجىء هكذا مثلا : أم على قلوبهم أقفال . . وبذلك يتحقق إضافة هذه القلوب إلى أهلها ، ونسبتها إلى أصحابها ، هؤلاء الذين لم يتدبروا القرآن . . فما سرّ هذا النظم القرآنى ؟

نقول ـ والله أعلم ـ : إن من بعض أسرار هذا النظم :

أولا : فصْل هذه القلوب عن أصحابها ، وذلك يحقق للقلوب وجوداً ذاتياً مستقبلاً ، فتقوم مقام أصحابها ، وهذا يعنى أن القلب هو الإنسان مختصراً ، وأنه السلطان القائم على كيان الإنسان ، فإذا أفسد القلب فسد الإنسان ،

وإذا صلُح القلب ، صلح الإنسان .. وهذا مايشير إليه الرسول الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ، فى قوله : « ألا وإن فى الجسد مضغة وإذا صلُحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألاَ وهى القلب »

وثانياً : تنكير هذه القلوب ، وفى هذا التنكير ، إشارة إلى أنها قلوب فاسدة ، لا يقام لها وزن بين القلوب السليمة ، فهى ـ والحال كذلك ـ قلوب ـ مجرد قلوب ـ فى صورتها اللحمية ، أما فى حقيقتها ، فهى هواء ، وهباء !

وثالثاً : فى إضافة الأقفال إلى القلوب « أقفالها » — إشارة أخرى إلى أن لهذه القلوب أقفالاً خاصة بها ، مقدرة بِقدَرها . . فلكل قلب قُفله الذى يلائمه . .

قوله تعالى :

* « إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى . . الشيطان سوّلَ لهم وأملى لهم »

سوّل لهم : أى زين لهم الضلال ، وأصله من السُّؤل ، وهو ما يَسأل الإنسانُ غيره لتحقيقه ، « قال قد أوتيت سُؤْلك ياموسى » . . وسوّل لهم الشيطان : أجاب سؤلهم بالخداع والتضليل . . وأملى لهم : أى مدّ لهم فى حبال الأمل والرجاء فيما يمنّيهم به . .

والآية ترجُم أولئك الذين كانوا قد دخلوا فى الإيمان ، ثم لم يحتملوا تبعاته ، فعادوا إلى الكفر . ترجمهم الآية بهذه الرجوم والصواعق ، التى تصبّ عليهم لعنة الله ، وتجمع بينهم وبين الشيطان على مودة وإخاء ! !

وفى ارتدادهم على الأدبار إشارة إلى أنهم كانوا على الإسلام ، وأنهم إذ يولّون وجوههم إلى المسلمين ، يرجعون إلى الوراء شيئاً فشيئاً ، على أدبارهم ، على

حين أنهم كانوا يواجهون المسلمين . . ثم ما زالوا كذلك حتى بعدت الشقّة بينهم وبين المسلمين ، وانقطعت بينهم الأسباب . . فهم ينظرون إلى المسلمين ، ويُحسبون أنفسهم عليهم ، ولكنهم ـ فى الوقت نفسه ـ يأخذون طريقاً بعيداً عنهم ، يسيرون فيه فى وضع مقلوب ـ على أعقابهم ، فلا يدرون إلى أين تتجه بهم خطواتهم العمياء !!

قوله تعالى :

* « ذلك بأن قالوا الذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم »

الذين كرهوا ما نَزّل الله : هم اليهود ، يقول الله سبحانه : « ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم » (١٠٥ : البقرة) . .

والذين قالوا ، هم هؤلاء الذين تحولوا من الإيمان إلى النفاق ، مرتدّين على أدبارهم . . والذى قالوه هو قولهم : « سنطيعكم فى بعض الأمر » . . أى أنه التقى هؤلاء المنافقون مع اليهود لقاء الأولياء ، تقدّموا إلى اليهود يعرضون عليهم أن يكونوا من ورائهم فى حربهم مع المسلمين . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أُخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنّكم » (١١ : الحشر) هكذا كان موقف المنافقين من النبى والمسلمين بعد غزوة الخندق (الأحزاب) وكان على رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول ، الذى خذّل الناس عن القتال يوم أحد . . فلما أن ردّ الله الأحزاب على أعقابهم خاسرين ، التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليهود الذين كانوا قد حزبوا الأحزاب على رسول الله ، وتحالفوا مع المشركين على أن يكونوا

لهم ظهراً إذا التحم القتال .. إن اليهود إذا ظلوا فى المدينة على ما هم عليه من كفر وحسد ، أفسدوا على المسلمين أمرهم ، وأوقعوا الفتنة بينهم إن هم عجزوا عن جَلْب الفتن إليهم من الخارج .. فكان أن ندب النبي المسلمين إلى حربهم ، وألا يُلقوا سلاحهم الذى كانوا يواجهون به الأحزاب .. فقال صلى الله عليه وسلم : « من كان سامعاً مطيعا فلا يصلينّ العصر إلا فى بنى قريظة » وهناك حاصرهم النبي والمسلمون ، ثم استسلموا الحكم النبي فيهم ..

وفى أثناء الحصار الذى ضربه النبي والمسلمون على بنى قريظة ، كان كثير من المنافقين يبعث إلى اليهود أن يَثْبتُوا فى حصونهم ، وألا يستسلموا ، وألاّ يخرجوا من ديارهم .. وأن النبي لو أخرجهم لخرج المنافقون معهم ، احتجاجاً على إخراج اليهود من المدينة ، ولن يسمعوا لأحد قولا يفرق به بين اليهود وبينهم ، وأن النبي والمسلمين لو قاتلوا اليهود ، لكان هؤلاء المنافقون مقاتلين معهم .. وهكذا مَنّى المشركون إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب — منّوهم هذه الأمانى الكاذبة ، التى فضحها الله سبحانه وفضح أهلها ، فقال تعالى : « والله يشهد إنكم لكاذبون * لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولُنّ الأدبار ثم لا يُنصرون » (١١ — ١٢ : الحشر)

قوله تعالى :

« والله يعلم إسرارهم »

أى ما أَسَرّ به المنافقون واليهود ، بعضهم إلى بعض ، وسيجزيهم عليه جزاء وفاقاً ..

قوله تعالى :

* « فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم » .

الفاء هنا للتفريع على كلام سابق مقدّر ، وتقديره : لقد كان جزاء هؤلاء

المنافقين السوء والخزىَ فى الدنيا ، وأنهم إذا كانوا قد احتملوا السوء والخزى فى حياتهم ، فكيف يكون حالهم إذا توفتهم الملائكة ، وأخذوهم صفعاً على وجوههم ، ورَكْلاً على أدبارهم؟ أيحتملون هذا البلاء ، الذى يدفع بهم إلى جهنم، ويُلقى بهم فى سعيرها ؟ .

فالاستفهام هنا لتهويل العذاب الأخروىّ الواقع بهؤلاء المنافقين ، وأنه عذاب لا يُحتمل ، وإنه لمن العجب أن يُرى هؤلاء المنافقون فى النار ، وفيهم أثر للحياة . وهذا مثل قوله تعالى : « فما أصبرهم على النار » .

وقوله تعالى : « يضربون وجوههم وأدبارهم » جملة حالية ، من الملائكة، أى يتوفونهم وهم يضربون وجوههم وأدبارهم . . أى يضربونهم من أمامٍ ، إذا أقبلوا ، ويضربونهم من خلفٍ ، إذا أدبروا . .

قوله تعالى :

* « ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم » .

الإشارة هنا إلى هذا الذى يلقاه المنافقون ، من السوء والخزى فى الدنيا ، والعذاب والنكال فى الآخرة ، وأن ذلك إنما هو بسبب زيغهم وانحرافهم عن الطريق المستقيم ، واتباعهم ما أسخط الله ، وأغضبه ، وأوجب لعنته ، بما أتوا من منكر القول ، والعمل .

وقوله تعالى : « فأحبط أعمالهم » إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يقبل منهم عملا ، حتى ولو كان مما يُحسب فى الأعمال الصالحة للمؤمنين ، لأنهم غير مؤمنين بالله ، والإيمان بالله شرط أول فى قبول العمل !

قوله تعالى :

* « أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم » .

أى أوقع فى ظن هؤلاء المنافقين الذين فى قلوبهم مرض ، أن الله تعالى سيستر عليهم نفاقهم ، ولا يكشف هذا الخَبَث الذى دسّوه فى قلوبهم ، والذى تغلى مراجله فى صدورهم ، ضِغناً على النبي والمؤمنين ، وشنآناً لهم ، وكيداً ومكراً بهم ؟ ـ أحسب هؤلاء المنافقون أن يظل نفاقهم مستوراً ، دون أن يفضحه الله ويفضحهم به على أعين الناس ؟ إنهم لواهمون ، مخدوعون ، بما يصور لهم هذا الوهم .

وقوله تعالى : « أن لن يخرج الله أضغانهم » ـ أى لن يُبدِيَ هذه الأضغان ، ويكشفها ، فتظهر لأعين الناس ، بعد أن كانت مخبوءة فى الصدور ..

قوله تعالى :

* « ولو نشاء لأريناكهم فَلَعَرَفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم » .

هو معطوف على محذوف يقدر جواباً على الاستفهام الواقع فى قوله تعالى : « أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم » .. أى أن ذلك ظنّ باطل منهم ، وأن الله سبحانه سيخرج أضغانهم ، ويفضحهم بها على الملأ ، وأنه سبحانه لو شاء أن يَسِمهم بسمات مادية ، يطبعها على وجوههم ، فلا يراهم أحد إلا عرف أنهم منافقون ـ لو شاء الله أن يفعل ذلك بهم لفعله ، ولرآهم النبى رأى العين ، ولرآهم المسلمون معه . ولكن الله سبحانه لم تشأ حكمته أن يشاء ذلك ، إذ لو أنه حدث لكان فتنة للناس .. وكيف لا يفتن الناس إذا كان ما يُسرونه فى أنفسهم ، وما يُودعونه ضمائرهم ، يظهر مجسداً عليهم ؟ ثم كيف لا يُفتنون إذا فعل أحدهم فعلا قبيحاً لم يطلع عليه أحد ، ثم إذا هذا الفعل قد لبس صاحبه ، وأخذ ينادى فى الناس بهذا المنكر الذى فعله صاحبه ؟ كيف يكون حال الناس لو أن هذا كان حادثاً فيهم ؟ تُرى أتحتمل الحياة الإنسانية ـ فى

طبيعتها البشرية - إفرازات العواطف ، والنوازع ، والمشاعر ، واستقبال كل ماهو مختزن فى الضمائر ، ومستودع الصدور ؟ إنه لو كُشف للناس عما طويت عليه صدورهم ، لمَـا جمعتهم جامعة أبداً ، ولما التقى أحدهم بالآخر إلا على عداوة ، وعدوان .. وفى هذا يقول أبو العتاهية الشاعر :

أحسن الله بنـــــا أن الخطايا لاتفوح

أى أنه لو كان للذنوب التى نقترفها آثاراً مادية تعلق بصاحبها ، وتكشف للناس أمره ، لكان ذلك ، ابتلاء عظيما .. ولكن الله أحسن إلينا ، إذ عافانا من هذا البلاء .

فقوله تعالى : ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم » - هو خطاب للنبى ، وتهديد للمنافقين الذين ظنوا أن الله سبحانه لن يفضح نفاقهم ، وينزع عنهم هذا الثوب الزائف الذى لبسوه ، وظهروا به فى سَمْت المؤمنين .. فالله سبحانه وتعالى قادر على أن يخرج نفاق المنافقين من طوايا أنفسهم ، وينسج منه وجوها يلبسها هؤلاء المنافقون بدلا من تلك الوجوه الآدمية التى لهم .. فإذا أطل أحدُ المنافقين بوجهه هذا الذى نسجه له الله سبحانه ، من نفاقه — قال الناس جميعاً : هذا منافق .. ولكن الله سبحانه لم يفعل هذا بالمنافقين ، ليكونوا هكذا ، فتنة للناس وتقريراً لهم بأنفسهم ..

والسيما : السّمة ، والعلامة ..

وقوله تعالى : « ولتعرفنهم فى لحن القول » .. هو معطوف على محذوف ، تقديره : وإذ لم يشأ الله تعالى أن يُريكَ - أيها النبى - المنافقين لتعرفهم بسيماهم ، فإنه مطلوب منك أيها النبى أن تتعرف إلى المنافقين بنظرك الشخصى ، وإنك

لتتعرف عليهم ، من حديثهم ، وما يجرى على ألسنتهم من زور وبهتان . . فإن كلمة الزور تخرج باهتة ، عليها مسحة من الخزى والتخاذل . .

فوقوع الفعل « تعرف » جواباً لقسم ، الأمر الذى أوجب توكيده ـ إشارة إلى أن هذا الفعل واقع لامحالة ، وخاصة إذا كان القسم الواقع عليه ، من الله سبحانه . . ولهذا فإن هذه الجملة جملة خبرية ، تحدّث عن أمر سيقع مستقبلا على سبيل القطع والتوكيد . . فهذا وعد موثق مؤكد من الله تعالى للنبى الكريم ، بأنه سيعرف المنافقين من لحن القول . . والتوثيق والتوكيد لهذا الخبر ، لالإزالة شك من النبى فى تحقيق مايُخبرَ به من ربه ، فإن الرسول الكريم على ثقة وإيمان مطلَقَين بالله ، وبقدرة الله . . ولكن توكيد هذا الخبر وتوثيقه ، يحمل أكثر من دلالة :

فأولا : إلفات النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلفاتاً قوياً إلى المنافقين . ومراقبتهم مراقبة دائمة ، وخاصة فيما يجرى على ألسنتهم من كلام . .

وثانياً : أنه إذا اشتبه على النبى أمر فى أحد مرضَى القلوب من المسلمين ، فلا يدعه معلقاً فى حبال هذه الشبهة ، بل ينبغى ، أن يكشف عنه كشفاً دقيقاً ، بهذا المِسْبَر الذى يعرف به أهل النفاق ، مما يجرى على ألسنتهم من مقولات . . فإذا كشف هذا الاختبار عن هذا الإنسان أنه منافق ، فهو من المنافقين ، وإلا كان من المؤمنين ، فإنه إذا برىء المؤمن من النفاق فقد سلم له دينه ، على أى حال كان عليه . .

ولحن القول ، هو مايندسّ فى الكلام من معان خفية ، ذات دلالات وإشارات ، يعرفها المنافقون فيما بينهم ، ويتعاملون بها ، وسمى هذا الضرب من الكلام لحناً ، لأنه يخرج فى صورة خادعة من النظم ، تتماوج فيها المعانى ، وتتراقص الكلمات ، فتتناغم العبارات ، فتخرج أشبه باللحن الموسيقى الذى

يُسمع منطوقه ، ولا يكاد يُعرف مفهومه إلا لأهل العلم فى هذا الباب ..

وقد كان للمنافقين من لحن القول هذا ، نماذج ، كشف القرآن الكريم عن بعض منها ، لتكون للنبى وللمؤمنين معلماً من معالم الكشف عن نفاق المنافقين ، فى لحون أقوالهم .. فيقول سبحانه ، عن مقولة من أقوالهم: « ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مُسمَع ، وراعنا .. ليًّا بألسنتهم وطعناً فى الدين .. ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم » (٤٦ : النساء)

فهم يقولون: « سمعنا » .. يقولونها جهرة ، ثم يتبعونها بقولهم سراً « وعصينا » ! أى يعطون النبى تسليما بالسمع، لقد سمعوا ما قال ، ويبدو من هذا أنهم مؤمنون، ولكن يضمرون فى أنفسهم ، ويحركون على ألسنتهم العصيان لهذا الذى سمعوه .. وهم يقولون للنبى : « اسمع » أى اسمع منا ما نقول لك ، .. يقولون ذلك جهراً ، ثم يُتبعون ذلك بدعاء خفى على النبى : « غَيرَ مسمع » أى أصمّ ، لاتسمع .. وهو دعاء أى اسمع .. لاسمعت .. لعنهم الله بما قالوا ..

وهم يقولون فيما يقولون من خطابهم للنبى : « راعنا » أى ارعنا ، وانظر إلينا .. ويلوون بها ألسنتهم ، فتخرج منطوقة هكذا « راعناً » بالتنوين المدغوم .. وهى من الرعونة ، والطيش ، يدعون بها على رسول الله .. أى ذا رعونة ، مثل لابن ، وتامر ، أى صاحب لبن وتمر ..

وقد رسم الله سبحانه وتعالى صورة سليمة مستقيمة لهذا الكلام السقيم المعوج ، فقال تعالى : « ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم .. »

ومن هذه الأساليب وأمثالها مما ينطق به المنافقون ـ عرف النبىّ المنافقين، وعَزَلهم عن المجتمع الإسلامى .. وكان كثير من المؤمنين، يعرفون وجوه المنافقين

وجهاً وجهاً ، ومن هؤلاء الصحابىّ حُذَيفة بن اليمان ، رضى الله عنه .. وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ يسأل حذيفة أن ينظر إليه ، ليرى إن كان فيه نفاق أم لا .. فيقول : ياحذيفة .. أنت صاحب سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنت تعرف المنافقين ، وتعهدهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانظر ما فىّ من النفاق ، فعرفنى به ، فيقول : ياأمير المؤمنين : لا أعلم فيك نفاقاً .. فيقول عمر : انظر ودقق النظر ، فيبكى حذيفة ويبكى عمر ، رضى الله عنهما ..

وقوله تعالى : « والله يعلم أعمالكم » أى أنه سبحانه، لايؤاخذ على ماتُكنّه الضمائر ، وما تخفيه الصدور ، ولكنه يؤاخذ على مايقع من أعمال ، إذ هى التى يكون لها آثارها فى الحياة ، وفى الناس .. وهذا هو بعض السرّ ، فى جعل فاصلة الآية «أعمالكم» على حين جاء فاصلة الآية (٢٦) :«والله يعلم إسرارهم» .. لأن هنا مقاماً ، وهناك مقاماً .. فهنا حساب للمنافقين على جرائمهم التى تقع من أعمالهم ، أو أقوالهم، التى تجرى مجرى الأعمال .. وهناك محاسبة المنافقين على أقوال جرت فى الخفاء بينهم وبين اليهود .. فهى سرّ بالنسبة إلى المؤمنين ، لأنه جرى بعيداً عنهم ، وقد كشف الله سبحانه هذا السرّ ، وفضح أهله ، .. فقال سبحانه « ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم » ..

الآيات : (٣١ — ٣٨)

* « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَاقُّوا

ٱلرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) • يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَالَكُم (٣٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

• « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوَ أخباركم » ..

الواو : واو القسم .. والابتلاء : الاختبار ..

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى الآيات السابقة أشارت إلى أن هناك فى المجتمع الإسلامى منافقين ، وأصحابَ قلوب مرضى ، وأن الله سبحانه لو شاء أن يكشف عنهم ، ويفضح مستورهم لفعل ، إذ لا شىء يصادم إرادته ، أو يعطّل مشيئته ــ ولو شاء سبحانه ــ لأهلك هؤلاء المنافقين ، أو لهداهم إلى الإيمان وقتل هذه الآفات الخبيثة التى ترعى كل نبتة خير فيهم .. ولكنه سبحانه لم يقدّر هذا

ولم يشأه ، بل كان مما قضت به حكمته أن يجعل إلى الناس أنفسِهم مشيئةً عاملة ، وإرادة نافذة ، وأن يكون لهم بتلك الإرادة ، وهذه المشيئة رسالة يؤدونها فى هذه الحياة ، وهى إصلاح الفاسد ، وإقامة المعوج ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان فى الناس الفاسدون ، والمعوجون .. وهنا يكون الابتلاء والامتحان ، حين يتصادم المصلحون والمفسدون ، ويتلاقى المستقيمون والمعوجّون ..

فقوله تعالى : « ولنبلونكم » ـ هو خبر مؤكد من الله سبحانه وتعالى إلى المؤمنين بأنهم لم يتركوا هكذا ، يتحلوْن بحلية الإيمان ، وينزلون منازل المؤمنين دون أن يُوضعوا موضع الامتحان والابتلاء .. فهذا الامتحان هو الذى يكشف عن حقيقة الإيمان فى قلوب المؤمنين ، وهل هو إيمان صادق ، انشرح به الصدر ، واطمأن به القلب ، أم هو مجرد صورة من الشارات والمراسم .. ؟ « أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون » (٢ : العنكبوت)

وقوله تعالى : « حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوَا أخباركم » ..

حتى غايةٌ لهذا الامتحان أو الابتلاء .. بمعنى أنكم أيها المؤمنون واقعون ـ لا محالة ـ فى مواقع ابتلاء ، وأنكم لن تُتركوا حتى تدخلوا فى هذا الابتلاء ، وتتجرعوا كؤوسه المرّة ، فإن صمدتم فى هذا الابتلاء ، وصبرتم على ما تلقون من بأساء وضراء ، فقد أثبتم أنكم مؤمنون .. وهذا حسبكم من إيمانكم .

وقُدم الجهاد على الصبر ، لأنه أعم منه .. فقد يكون فى المجاهدين من لا صبر له على الجهاد ، فلا يثبت للأعداء إذا رأى الخطر محدقاً به ، ولا يقدم على القتال والهجوم إذا رأى الموت دانياً منه .. إنه مجاهد فى حواشى المجاهدين ،

وفى مؤخرتهم .. ومع هذا فلا يُحرم أن يدخل تحت هذه الكلمة ، التى تخلع على صاحبها خِلعاً سنية ، من الرضا والرضوان .. وفى هذا دليل على شرف الجهاد ، وعلى علوّ منزلة المجاهدين ، وأن أقلهم فى الجهاد منزلة ، وأبخسهم فى المجاهدين حظاً ـ هو من المجاهدين ، الذين لا يحرمون شرف الجند ، وثواب المجاهدين ..

أما الجهاد الذى يكون معه الصبر ، فهو الجهاد الكامل ، الذى تم عَقْدُه وتوثيقه ، بين الله سبحانه ، وبين المجاهدين ، وفى هذا العقد يقول الله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به .. وذلك هو الفوز العظيم » (١١١ : التوبة) .

وفى قوله تعالى : « ونبلو أخباركم » ـ إشارة إلى أن الأفعال هى التى عليها المعوّل فى الكشف عن إيمان المؤمنين وصبر الصابرين .. فابتلاء الله سبحانه لأخبار المنؤمنين ، إنما هو ابتلاء لهم ، وتعرّفٌ على أحوالهم ، من أخبارهم ، التى هى حكاية لأعمالهم ، وتصوير لها . . وهذا يشير أيضاً إلى أن للأعمال آثارها فى الحياة ، وفى الناس ، وأنها تقع تحت حكم الناس عليها والإخبار عنها بما يرضيهم أو يسخطهم منها . . وهذا يشير مرة أخرى إلى أن المجتمع الإنسانى له وزنه وله قدره ، فى الحكم على أعمال الناس ، وأن حكمهم على عمل بأنه حسن غير حكمهم عليه بأنه سيء .. فلهذا وزنه ، ولذلك وزنه عندهم ، وعند الله كذلك . .

قوله تعالى :

* « إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد

ما تبين لهم الهدي لن يَضروا الله شيئا وسيُحبط أعمالهم » .

هو حديث إلى أولئك المنافقين ، مرة أخرى ، بعد أن تهددتهم الآيات السابقة بفضح نفاقهم ..

فهذا وعيد المنافقين ، الذين يُمسكون بما معهم من نفاق .. إنهم كفروا بعد أن آمنوا ، وصدّوا أنفسهم عن سبيل الله بعد أن وردوا عليه ، وشاقّوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى .. هكذا المنافق ، لا تستقيم له على سبيل الإيمان طريق ، ولا تثبت له فيه قَدَم !

وقوله تعالى : « لن يضروا الله شيئا » هو خبر عن هؤلاء المنافقين ، الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى، أى أنهم بفعلهم هذا ، وخروجهم من الإيمان إلى الكفر والنفاق ـ لن يضر الله شيئا من الضر ، كما أن إيمان المؤمنين لن ينفعه شيئا من النفع ..

وقوله تعالى : « وسيُحبط أعمالهم » أى يفسد تدبيرهم ، ولا يقبل لهم أى عمل ، ولو كان من الأعمال الحسنة فى ذاتها ..

قوله تعالى :

* « يٰأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » ..

هو دعوة كريمة ، والتفاتة رحيمة، من رب كريم رحيم،إلى عباده المؤمنين، وقد طال وقوفهم مع حديث الله سبحانه وتعالى إلى المنافقين ، فشاقهم أن أن يسمعوا حديثا من الله سبحانه عنهم .. فناداهم الحق جل وعلا ، واستدناهم منه ، ثم أسمعهم ما فيه رشدهم ، وصلاحهم ، وفوزهم .. فى الدنيا والآخرة .. فقال سبحانه : « يٰأيها الذين آمنوا .. الآية

« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول . .

« ولا تبطلوا أعمالكم . . »

فطاعة الله وطاعة الرسول ، شرطٌ أولُ من شروط المؤمن ، فإنه لا إيمان بغير طاعة ، وتسليم ، وانقياد . .

وإن عصيان الله وعصيان رسوله ، لا يُبقِي على إيمان ، إذ لا يجتمع إيمان وعصيان . .

وإذا أخلى الإيمانُ مكانه من القلوب ، لم يبق غير الكفر ، وغيرُ بطلان العمل ، لمن تبدل الكفر بالإيمان . .

فالآية دعوة للمؤمنين أن يحفظوا إيمانهم ، ويوثقوه ، بالطاعة لله ورسوله . .
وفى الآية تهديد للمؤمنين الذى لا يلتفتون إلى أنفسهم ولا يحرسونها من النفاق ، أن يدخل عليهم فيطرد الإيمان من قلوبهم ، ثم لا يكون لهم بعد هذا عمل إلا بطل وفسد ! . .

وقوله تعالى :

* « إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم » .

هو دعوة إلى هؤلاء المنافقين الذين كفروا بعد إيمانهم — أن يتوبوا إلى الله من قريب ، وأن يؤمنوا بالله ، حتى تنالهم مغفرته . . فإن هم أبوا إلا أن يمضوا على كفرهم إلى أن يموتوا ، فإنهم يموتون على الكفر ، ومن مات منهم على الكفر فلن يغفر الله له . .

قوله تعالى :

* « فلا تَهِنُوا وتدعوا إلى السَّلْم وأنتم الأعلوْن والله معكم ولن يَتِرَكُم أعمالَكم » . .

فلا تهنوا ، أى لاتضعفوا ،وتتخاذلوا .. وهو من الوهن ، أى الضعف ..
ولن يتركم أعمالكم : لايبطلها كما أبطل أعمال المنافقين والكافرين ..
وأصله من الوِتر ، وهو الفرد .. ومعنى هذا أنه لا يقطع أعمالكم عنكم ، بل هى فى صحبتكم ، تجدونها حاضرة يوم الجزاء .

والآية تعود إلى أولئك المؤمنين الذى أسمعهم الله سبحانه وتعالى .قوله :
« يٰأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » ..
ثم تركهم فى هذا الموقف . حتى يتدبروا هذا القول ويأخذ كل منهم موقفه منه .. إنهم مدعوون إلى أن يسمعوا ويطيعوا .. أما مايُدْعَون إلى أن يسمعوه ويطيعوه ، فهو آت ، ولكن بعد أن يأخذ هذا القول مكانه من العقول والقلوب ..

وفى فترة الانتظار هذه ، يسمع المؤمنون هذا الوعيد الذى يتهدد الله سبحانه وتعالى به أهل الكفر والنفاق .. « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم » .. إنها صورة كريهة للإنسان ، ونهاية محزنة ، تلك التى ينتهى إليها من يكفر بالله ، ويموت على الكفر .. ومن هـــذا الوعيد يتدسس إلى مشاعر المؤمنين التى دخلت عليهم من قوله تعالى :
« يٰأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » — يتدسس إلى هذه المشاعر مايدفع بها بعيداً عن مزالق الكفر .. ولن يكون ذلك إلا بالسمع والطاعة لله ورسوله ..

وهنا يلتقام قول الله تعالى : « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » .

وكأن هذا الخطاب وارد على سؤال سأله الله سبحانه وتعالى المؤمنين ، بعد

أن أمرهم بطاعته وطاعة رسـوله ، وبعد أن تركهم وقتاً يتدبرون فيه ما أمرهم به . . وتقدير السؤال هو :

هل سمعتم ما أمرتم به ؟ وهل أنتم على السمع والطاعة ؟ وهل اختبرتم ما فى قلوبكم من إيمان ؟ . .

إذن : « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم . . »

فهذا أمر من الله إليكم ، وهو ألا تهنوا ، أو تتخاذلوا فى موقفكم من العدو ، وألا تطلبوا السلم . . فإن طلب السلم لا يحمله أعداؤكم إلا أنه ضعف منكم ؛ وشعور بالهزيمة ، وهذا من شأنه أن يغرى العدو بكم ، ويشدد وطأته عليكم ، ولا يجيبكم إلى السلم الذى تدعون إليه ، لأنه يراكم غنيمة ليده . .

هذا ويلاحظ أن ماطلبه الله سبحانه وتعالى من المؤمنين فى قوله سبحانه : « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم » — لم يلقهم سبحانه به لقاء مباشراً ، بل جاء هذا الطلب إلى المؤمنين ، بعد وقفة طويلة معهم على مجتمع الكافرين والمنافقين ، حيث يُرمَوْ من الله بنذر من رجوم الهلاء والهلاك ، ثم بعد دعوتهم إلى أن يجعلوا إيمانهم بالله قائماً على الطاعة والولاء لله ورسوله ، وكان هذا كله تمهيداً لأن يتلقى المسلمون قولهَ تعالى : «فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم» ، وأن يستجيبوا له . . فلا يقع منهم فى ميدان القتال فتور أو تخاذل ، وبهذا يحاربون ، وقلوبهم على إيمان بالنصر الذى وعد الله المؤمنين ، فلا يمدون أيديهم مستسلمين للعدو أبداً .

وهذا الأسلوب الذى جاء عليه الطلب فى قوله : « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم » ـ يدل على مزيدٍ من العناية بهذا الطلب ، وإلفات المخاطبين به إلى ما لهذا المطلوب من قدر وخطر . . .

والحق أن قوله تعالى : « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم » هو دعوة إلى مالا يقوم الإيمان إلاّ به ، ولا تقوم للمؤمنين دولة إلا عليه ، وهو الجهاد في سبيل الله ومواجهة أعداء الله وأعداء رسوله ، وأعداء المؤمنين ــ مواجهتهم بالقوة التي تردّ بأسهم ، وتُبطل كيدهم ، حتى يسلم المؤمنون منهم ، ومن أن يكونوا تحت يدهم ، فيفتنوهم فى دينهم . .

وإنه ليس هناك عدو يستطيع أن يقف فى وجه المسلمين المجاهدين فى سبيل الله ، إذا هم أعطوا الجهاد حقه . . مهما كان قليلا عددُهم وعدتهم ، بالنسبة إلى عَدد عدوهم وعُدّته . .

وحق الجهاد ، هو أن يقوم على نية القتال والقتل فى سبيل الله . . ومن كان من المجاهدين على تلك النية ، فإنه لا ينظر إلى كثرة العدو ، ولا يقيم موازنة بين جيش المسلمين وجيش العدوّ ، على أساس العدد والعتاد ، فإن ذلك إن وقع فى شعور المجاهد ، حارب بنفس متخاذلة ، وبقلب يخفق خفقات الهزيمة . . فذلك كله يجب ألا يكون فى حساب المجاهد شىء منه . . فهو يجاهد ، ويقاتل فى سبيل الله ، ولن تبرأ ذمته من أداء هذه الأمانة ــ أمانة الجهاد ــ إلا إذا رجع من جهاده بإحدى الحسنيين ، إما النصر على العدوّ ، والفوز بالغنائم ، وإما الموت والفوز بالشهادة . . فالمؤمنون بهذه المشاعر هم الأعلوْن دائماً . .

إن المجاهد ــ حقّ المجاهد ــ هو الذى يقاتل العدوّ بكل مالديه من قوة ، وأن يكون وجهه للعدو ، ولأسلحة العدو ، يَضرب ويُضرب ، وينفذ ضرباته فى العدو ، ويتقى ضربات العدو له ، غير مبال إن وقع على الموت أو وقع الموت عليه . . !

[الجهاد .. والحرب النفسية]

والحرب النفسية أداة من أدوات الحرب ، وسلاح ماض من أسلحة القتال.. وكم تركت هذه الأداة من آثار سجلها التاريخ لها ، فهزمت الأبطال ، ومزقت الجيوش ، ومكنت الفئة القليلة من أن تغلب الفئة الكثيرة ..

وهل كان ميزان المؤمنين ثقيلا فى ميدان القتال ، حتى ليعد الواحد منهم بعشرة من عدوهم ـ هل كان هذا الميزان ثقيلا إلاّ لِما امتلأت به مشاعر المؤمنين من إيمان بالله ، وثقة فى ثوابه ، وتصديق بوعده الذى وعد المجاهدين ؟ وهل استخف المؤمنون بالموت ، إلا لِما امتلأت به قلوبهم من إيمان بالحياة الآخرة ، وأن حياتهم الدنيا هذه ، ليست إلا مرحلة على طريق الحياة الأبدية الخالدة ؟ .

النفس إذن ، وما تحمل من مشاعر ، هى التى تحدد موقف المحارب فى جبهة القتال ، وهى التى تزين له الموت فى الميدان ، أو تغريه بالنجاة والفرار . .

فحبّ الجبان النفس أورده التُّقى(١)

وحبّ الشجاع النفس أورده الحربا ! !

فكلا الجبان والشجاع محبٌّ لنفسه ، ولكن شتان بين حبّ وحب .. فالجبان يحب نفسه لابسة جسده ، ولو كانت مهينة ذليلة ، ترعى المهانة ، وتُسام الخسف ! والشجاع يحب نفسه عزيزةً كريمة ، فإنه إن رأى أنها لن تسكن إليه إلا على مركب الذل والهوان ، ضنّ بها على أن تلقى الإهانة والإذلال فى هذا المقام، مقام الجسد ، فأوردها مورد القتل ، لتتخلص من هذا البلاء ، وتأخذ طريقها إلى العالم الآخر . .

---

(١) أورده التقى : أى دفع به بعيدا عن مواطن الخطر واتقاء ما يقع للمحاربين من قتل أو أسر .

وليست الحرب النفسية سلاحاً يتحصن به المحاربون ، ضد عوامل الوهن والضعف ، التى تدخل عليهم فى ميدان القتال ، وإنما هى سلاح أيضاً يستخدمه المحاربون فى التدسس إلى عدوّهم ، وإشاعة الرعب فى نفوسهم ، وإشعال نار الفتن بينهم . . وذلك مجال فسيح للعمل والتدبير ، يحتاج إلى العقل الذكى ، والبصيرة النافذة ، والنظر المتفحص ، وإلا ارتد هذا السلاح إلى اليد التى تضرب به . . ذلك أن المعركة هنا معركة داخل النفس البشرية ، التى لا ساحل لها ، ولانهاية لأعماقها ، والتى هى دائماً فى معرض التقلب والتحول ، وفى معاناة المدّ والجزر . . فمن جاءها على حال غير مواتية لها ، غير جارية مع الريح التى تجرى فيها ، لم يبلغ منها شيئاً ، بل ربما انقلبت حرباً عليه .

وقد اهتدى الإنسان بطبيعته ، إلى أن تكون النفس ميداناً من ميادين الحرب التى يشتبك فيها مع غيره من بنى جنسه ، وأن يتخذ منها درعاً واقية له . . حيث يدخل المعركة ، وقد صفّى حسابه بينه وبين نفسه ، وأجلى عنها كل نوازع الخوف من الموت ، أو الإشفاق على ما يخلّف وراءه من ولد ، وأهل ، وصديق . . يقول قَطَرِىّ بن الفُجاءة : وقد راودته نفسه على أن يطلب السلامة ، ويدع مواطن الحرب ، وما يتعرض له المحاربون من قتل . . يقول :

أقول لها وقد طارت شَعَاعاً ... من الأبطال ، ويحكِ ، لن تُراعِى
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذى لك لم تُطاعِ
فصبراً فى مجال الموت صبراً ... فما نيلُ الخلود بمستطاعِ

وفى الوقت الذى يتخذ فيه المحارب ، من الحرب النفسية درعاً حصينة ، يتحصن بها ، من عوارض الخوف والخَوَر ، التى تعرض له ــ فى الوقت الذى يفعل فيه هذا ــ يعمد إلى الهجوم على نفس عدوّه ، فيريه من بأسه وقوّته قبل أن يلقاه ، ما ينخلع به قلبه ، وما تطير معه نفسه شعاعاً . .

سئل عنترة بن شداد ـ الفارس العربى الجاهلى المعروف ـ سئل عن هذا الرعب الذى يملأ قلوب الأبطال منه ، وكيف يبلغ رعبُهم منه إلى هذا الحدّ الذى يُبطل عمل الأبطال ، ويشل حركتهم ؟ فقال عنترة : « أبدأ القتال بأن أعمد إلى أى فارس من عامة الفرسان ، فأضربه ضربة ينخلع لها قلب الشجاع » ! .

ولهذا كان من سياسة الحرب أن تكون الضربةُ الأولى ضربة يَرمى فيها كلٌّ من المتحاربين بثقله كله ، حتى تقع الضربة موقعاً قائماً وراء تقدير العدو ، الذى ما كان يحسب حساباً لها من هذا الوجه . . وهنا تكثر دواعى البلبلة والاضطراب، ثم التفكك والانحلال، ثم الهزيمة والاستسلام ، إذا لم يكن الضارب قد تلقى ضربة كهذه الضربة . . وعندئذ تتعادل الكفتان ، ثم يكون الغَلَب لمن أمسك بالثقة والطمأنينة فى قلبه ، واحتمل فى صبر وجلد نار الحرب ، وأهوالها . . إنها الحرب ، وإنها ابتلاء فى الأموال والأنفس والثمرات ! إنها قتال وقتل . . !

يُروى أن سائلا سأل عنترة : كيف كان منك أنك لم تفرّ فى معركة قط ، على كثرة ما دخلت فى معارك ، وما التقيت بأبطال ؟

فقال عنترة لسائله : أعطنى يدك ، وخذ يدى ، وعَضّ إبهامى وسأعض إبهامك ! ! ففعل الرجل ، وفعل عنترة . . ولكن سرعان ما صرخ الرجل ! فبادره عنترة قائلا : إنك لو لم تصرخ أنت لصرخت أنا » ! ! وبهذ تلقى الرجل الجواب الوافى الشافى على سؤاله .

إن عنترة إنسان قبل أن يكون بطلا ، فهو يخاف ، ويتألم ، ويكره أن يقتل ، أو يجرح .. شأنه فى هذا شأن الناس ، أبطالا ، وغير أبطال .. ولكنه لبس ثوب البطولة بصبره على المكاره ، أكثر من خصمه . . فلو أن خصم عنترة صبر صَبْرَه على المكروه ، الذى يسقيه كل منهما لصاحبه ـ أو أنه صبر

هذا الصبر ، لما استسلم لعنترة ، بل وربما كان عنترة هو الذى يستسلم له .

وكثير من الحيوانات ، فى مختلف أجناسها ، تستخدم هذا السلاح فى لقاء عدوها .. فتستعرض كل ما عندها من قوّى جسدية ، ظاهرة ، أو خفية ، حتى تبدو فى صورة مخيفة مفزعة للعدو .. وقد تكون هذه الحركات قاضية على العدو من غير قتال ، فيجمد فى مكانه ويستسلم لعدوه ا .

وإذا كان الجهاد والقتال فريضة واجبةَ الأداء على كل قادر من المسلمين ، متى دعت دواعى الجهاد ، ولزم القتال — لأنه لا يقوم أمر الجماعة الإسلامية ، فى المجتمع الإنسانى إلا إذا كانت ذا قدرة على حماية وجودها ، ودفع الأيدى الباغية عليها — نقول إذ كان شأن الجهاد على تلك الصفة فى الإسلام ، فقد كان من تدبير الإسلام أن التفت التفاتاً قويًّا إلى هذا الجانب من الحرب الذى يُعرف فى عصرنا هذا ، بالحرب النفسية ، فوضع بين يدى جند الله ، المجاهدين فى سبيله منهجاً متكاملا للتدريب على هذه الحرب ، واستخدام أسلحتها ، والضرب بهذه الأسلحة حيث تقع الضربة ، فتصيب الصميم مما وقعت عليه . .

ومن تدبير الإسلام فى هذا :

أولا : أنه هَوّن على المؤمنين خَطْب الموت ، وذلك بإيمانهم بالحياة الآخرة إيماناً يشعرون معه أن الموت ليس إلا انتقالا من عالم إلى عالم أرحب ، وأفسح ، . ومن هنا فلا ينظرون إلى الموت على أنه فناء أبدى للميت ، وضياع لا نهائى لمن يموت ، كما ينظر إلى ذلك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر .. إنه ليس معهم إلا هذه الحياة الدنيا ، وأنهم إذا فارقوها ، فارقوها إلى غير رجعة أبداً .. فهم لهذا أحرص ما يكونون على حياتهم هذه ، وأشد ما يكون جزعاً إذا ذكروا الموت ، أو أحسوا قُربَ الأجل . .

وثانياً : أنه وعد المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله ، درجات عالية عند الله ، سبحانه ، حيث ينزلون منازل الأنبياء والصديقين ، كما يقول سبحانه : «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » (٦٩ : النساء) .

وإنما تتجلى طاعة الله ورسوله على أتم وجه وأكمله فى ميدان الجهاد فى سبيل الله . . يقول سبحانه : « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » (٧٤ : النساء) . . فالأجر العظيم الذى يناله المجاهد من ربه مشروط بأحد شرطين : أن يقتل فى ميدان القتال ، أو ينتصر على عدوه . . فلا يعود المجاهد إلى أهله إلا منتصراً على العدو . . فإن لم يشهد نهاية المعركة ، ومات قبل أن يحقق المسلمون النصر ، فإنه يكون قد شارك بدمه المراق على أرض المعركة ، فى كتابة كلمة النصر ، التى يؤذن بها مؤذن الحق فى نهاية المعركة ..

وثالثاً : أنه توعد الذين ينتظمون فى صفوف المجاهدين ، ثم إذا التحم القتال ، وتساقطت الرءوس ، وتناثرت الأشلاء ، وسالت الدماء — ركبهم الفزع ، واستبد بهم الجزع ، والتمسوا وجوه النجاة فى الفرار من الميدان ، أو النكوص على الأعقاب ، أو الدعوة إلى السلم ، والاستسلام — توعد الإسلام من كان فى المجاهدين ، المقاتلين ، ثم أخذ هذا الموقف المتخاذل — توعده بغضب من الله ، وبعذاب أليم فى نار جهنم ، كما يقول سبحانه : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » (١٥ ، ١٦ : الأنفال) . .

والجانب النفسى هو المنظور إليه هنا ، فى هذا الوعيد الذى يأخذ به الله سبحانه من لبس ثوب الجهاد وانتظم فى صفوف المجاهدين القاتلين ، من بلاء ونكال ، الأمر الذى يُحبط إيمانَ المؤمن ، ويبطل عمله ، ويسلكه مع المنافقين والكافرين .. ذلك أن فرار المجاهد من بين صفوف المجاهدين يحدث فتنة ، ويثير خلخلة واضطراباً فى نفوس المجاهدين وفى صفوفهم ، وسرعان ما تسرى عدوى هذا المقاتل الفارّ إلى كثير غيره ، ممن لم يكن فى حسابهم أن يفروا ..

إن هذا الفارّ إنما يمثل — من غير قصد — صرخة الانهزام فى صفوف المجاهدين ، وإنه لخير له وللمسلمين المجاهدين ، ألا يشهد مثل هذا الإنسان مواقف القتال ، وألا يكون فى صفوف القاتلين .. وأمّا وقد خرج ، ودخل المعركة ، فإن فراره من القتال ، خيانة لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين ..

ومن أجل هذا ، عزل الله سبحانه وتعالى المنافقين عن مواقف الجهاد ، ونقىّ جيشَ المجاهدين من هذه الأجسام الغريبة التى تدخل على الجسد السليم بأعراض الحمى . من صداع ، وعرق ، وأرق ! فقال سبحانه لنبيه الكريم : « فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين » (٨٣ : التوبة) ..

ومن التطبيق العملى لهذا الذى نسميه الحرب النفسية — أن الرسول — صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته عليه — حين رجع من غزوة أحد ، وعلم أن قريشاً تريد الكرة على المدينة ، وتنتهز فرصة الهزيمة التى حلت بالمسلمين فى أحد ، فتضرب ضربتها القاضية ، والحديد ساخن ، كما يقولون — نقول حين علم الرسول الكريم بهذا دعا أصحابه ، إلى أن يخرجوا إلى ظاهر المدينة ، للقاء عدوهم ، إن هو سولت له نفسه أن يهجم على المدينة .. وكان مما

اشترطه الرسول فيمن يشهدون هذا الموقف معه ، أن يكونوا ممن شهدوا القتال فى أحد ، أما من كان فى المتخلفين ولم يشهد الحرب ، فلا مكان له بينهم .. هذا والمسلمون الذين شهدوا أحداً كانوا مُثخنين بالجراح ، منهوكى القوى ، يعانون من آلام نفسية وجسدية ما تنهدّ به عزائم الرجال .. ومع هذا ، فقد رأى النبى فى هؤلاء المجاهدين — على مابهم من آلام وجراح — خيراً كثيراً ، وأن أيًّا منهم ـ على مابه من ضعف ـ خير من مئات ممن فى قلوبهم مرض ، من الذين يكثر بهم سواد المجاهدين بالقدر الذى يقلّ به غَنَاؤهم .. !

وقد كان لهذا أثره النفسى عند المشركين ، فإنهم ما إن علموا بأن محمداً قد خرج بأصحابه وراء القوم حتى توقفوا عن المسيرة نحو المدينة، وقد وقع فى أنفسهم أن محمداً يطلبهم ليثأر من هزيمة أمس فى أحد ـ وطالب الثأر هيهات أن يُغلب ، وحسبهم ماظفروا به من المسلمين فى معركة الأمس ، فقد تدور الدائرة عليهم فى الكرة التالية .

ورابعاً : من أساليب الحرب النفسية — تخويف العدو وإرهابه ، بما يرى فى جيش المجاهدين من أمارات القوة ، ووسائل الغلب .. وشبيه بهذا ماتقوم به الأمم من عرض قوتها فى تلك العروض العسكرية ، التى تكشف بها عن بعض عدتها وعتادها ، على حين أنها إذ تكشف عن بعض قوتها ، فإنها تشير إلى أن وراء هذا الذى أعلنته قوى كثيرة خفية ، أشد أثراً ، وأقوى فتكا ، من هذا الذى عرف الناس أمره ، وأن ذلك سرٌّ من أسرارها الحربية ، التى لا تظهر إلا عند الحرب !! .

ولهذا الجانب من الحرب النفسية أثر كبير فى كسر شوكة العدو ، وفى قتل مطامعه فى النَّيل من عدوه ، فلا يُقدم على العدوان وهو يرى هذه القوى المهيأة للحرب ، الراصدة لكل عدو .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وأعِدّوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدواللّه وعدوكم » (٦٠ : الأنفال).

كل هذا الذى يراه العدو فى جيش المسلمين ، من استخفاف بالموت ، وإيثار للموت فى سبيل الله على الحياة ، والثبات فى ميدان المعركة حتى النصر أو الموت ، والإعداد الدائم لعدد الحرب ورجالها ـ كل هذا يبعث الرعب فى قلوب الأعداء الذين يواجهون مثلَ هذا الجيش ، الذى لا يرجع من المعركة إلا منتصراً ، أو مستشهداً . . وإلى هذا يشير الرسول فى قوله فى مقام تَعداد فضل الله سبحانه وتعالى عليه ، إذ يقول : « ونصرت بالرعب مسيرة عام » أى أن أعداءه المحيطين به ، يجدون فى أنفسهم رهبة له ، وللجيش المسلمين ، وذلك على امتداد مسيرة عام بينه وبينهم ، لِما يتناقل الناس من أخبار المجاهدين المسلمين ، واسترخاصهم لنفوسهم فى ميدان القتال ، حتى ليَكون ذلك حديثَ الدنيا كلها . .

* * *

قوله تعالى :

* « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم » .

هو تعقيب على قوله تعالى : « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون » . .

وفى هذا التعقيب دعوة المؤمنين إلى أن ينظروا إلى الحياة الدنيا نظراً جادًّا متفهما، فإنهم لو نظروا إليها هذا النظر ،لعرفوا أنها لعب ولهو ، وأنها متاع قليل وظل زائل ، وأنها إذ كانت هكذا هزيلة باهتة ، فإن الحرص عليها ، والتشبث بالحياة فيها على أية صورة من صور الحياة ، وإن كان فى ثوب الذل والمهانة ـ إن هذا غبن للإنسان ، وجور على إنسانيته . .

وإذن ، فإنه إذا كان هناك قتال بين المسلمين وبين عدو لهم ، فلا ينبغى أبدا أن يقع فى نفوسهم وهن أو ضعف ، أو أن يمطوا أيديهم لعدوهم ، ويستسلموا له ، ، فإن هذا لا يكون إلا من نفوس تحرص على الحياة ، وتتشبث بالبقاء فيها ، على أى وضع ، ولو سيمت الخسف ، وَرعَت المهانه والذلة . .

قوله تعالى : « وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم » . .

هو بيان لما هو مطلوب من الإنسان فى هذه الدنيا ، حتى ينال الجزاء الطيب من الله سبحانه وتعالى ، وينزل فى الآخرة منازل رضوانه . .

وهذا المطلوب من الإنسان هو الإيمان ، ثم العمل الصالح الذى يبلغ بالإنسان مبلغ التقوى . . فمن آمن واتقى أخذ أجره كاملا فى الدنيا والآخرة . .

وإتيان الأجر ، هو الجزاء الحسن الطيب ، للأعمال الحسنة الطيبة ، كما فى قوله تعالى : « وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » (٢٧ : العنكبوت) . وقوله تعالى : « ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله » (٣٠ : فاطر) فالأجر هو جزاء عن عمل طيب ، يؤجَر عليه صاحبه . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى على لسان ابنة شعيب عليه السّلام : « ياأبت استأجِرْه » (٢٦ : القصص)

وقوله تعالى : « ولا يُسألكم أموالكم » ـ هو واقع فى جواب الشرط ، معطوف على قوله تعالى : « يؤتكم أجوركم » أى أنه إذا حقق المؤمن الإيمان والتقوى فإنه لا يُسأل شيئاً من ماله ، الذى بين يديه ، غير ماهو مفروض عليه فيه من زكاة . .

وهذا يعنى :

أولا : أن أداء الفرائض على وجهها كاملة ، هو غاية المطلوب من الإنسان . . وأنه يأخذ أجره كاملا ، دون أن يقدم نظير هذا الأجر عِوَضاً له من ماله . .

وثانياً : أنه مهما حَرص الإنسان على أداء الفرائض كاملة مستوفاةً شرائطُها ، وأركانُها ـ فإنه لا يمكن أن يتحقق له ذلك على كماله وتمامه ، لما يعرض للإنسان من معوقات نفسية ، ومادية ، تحول بينه وبين الوصول إلى درجة الكمال . . ومن هنا كانت النوافل ، التى تقوم إلى جانب الفرائض ، ليجبر بها الإنسان مايقع منه من تقصير فيها . . كما فى النوافل التى تصحب الصلاة والصوم ، والزكاة ، والحج . . فكل فريضة من هذه الفرائض تصحبها نوافل ، هى فى حقيقة أمرها ـ تعويض وجبر لما قد يقع ـ ولا بُدّ ـ فى أداء الفريضة من تقصير . . .

وثالثاً : ماتجبر به الفرائض من نوافل قد يَخفّ أمره على النفوس ، إلا ما كان منها متصلا بالمال ، الذى هو رغيبة النفوس ، ومتعلق الآمال . . كما يشير إلى ذلك قوله تعالى فى الآية الكريمة بعد هذا . .

* « إن يَسْأَلكموها فيُحفِكُم تبْخَلوا ويُخرجْ أضغانكُمْ » .

يسألكموها : أى إن يسألكم إياها ، أى يطلب إليكم مزيداً من الإنفاق من أموالكم ، غير ماهو مفروض عليكم من زكاة فيها . .

« يُحفِكم » : أى يشتدّ عليكم فى الطلب ، ويطلب الكثير مما فى أيديكم . وأصله من الحفا والحفاء ، وهو مايصيب الراحلة من الإبل ، من طول السفر ، حتى تَحفَى أخفافها ، ويتآكل جلدها ولحمها . . يقول الأعشى عن ناقته التى كان يتجه بها إلى الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ليعلن إسلامه

يقول :

فآليت لا أرثى لها من كلالةٍ ولا من حَفَى حتى تلاقِى محمدَا

ويخرج أضغانكم : الأضغان : جمع ضِغْنٍ ، وهو ماتنطوى عليه الصدور من كراهية وحقد . .

ومعنى الآية الكريمة أنه لِمَا يعلم الله سبحانه وتعالى من طبيعة النفوس ، وحرصِها على المال ، وتعلقها به ، فقد كان من رحمته سبحانه وتعالى بالناس أن رَفق بهم ، ورضى بالقليل من أموالهم ينفقونها فى سبيل الله . . ولو أنه سبحانه وتعالى ألزم المؤمنين أن يقدموا المال فى مقابل الأجر الذى ينالونه من عند الله ، لأتى ذلك على كل مامعهم من مال ، ولما استوفت كلُّ أموالهم بعضَ ما أخذوا من أجر ، ولَوقع المؤمنون فى حرج شديد ، ولأَخذوا مأخذ المخالفين المقصّرين . . فكان من حكمة الحكيم العليم ، ورحمة الرحمن الرحيم ، أن أعطى النفوس حظها من هذا المال ، واكتفى بأخذ القليل منه ، الأمر الذى لاتضيق به النفوس ، ولاتُحرج به الصدور ، وذلك مع إعطائهم أجرَهم كاملا ، بما فى قلوبهم من إيمان وتقوى . .

وفى الآية الكريمة ، إشارة إلى أن هذا المال ، هو مال الله سبحانه وتعالى ، وأن لله سبحانه وتعالى أن يسأل هذا المال كلّه ، وأن يأخذه جميعه ، دون أن يكون فى هذا ظلم لأحدٍ ، لأنه سبحانه لم يأخذ شيئاً ليس له ! !

ومع هذا ، فإنه سبحانه ، أعطى الكثير متفضّلا منعما ، وأخذ القليل ، رحيما مترفقاً . . فسبحانه ، سبحانه ، يهب فضله وإحسانه لعباده ، ثم يتقبل منهم بعض ماوهب ، ليكون رصيداً لهم من الفضل والإحسان ، يُطهرون به نفوسهم ، ويغسلون به أدرانهم . .

قوله تعالى :

* « هَاأنتم هؤلاء تُدْعَوْن لتنفقوا فى سبيلِ الله فمنكم من يَبْخَلُ ومن يَبْخَلْ فإنّمَا يَبْخَلُ عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوْا يَسْتبدِل قوماً غيرَكم ثم لايكونوا أمثالكم » .

بهذه الآية الكريمة تختم السورة ، فتلتقى بالمؤمنين ، بعد أن وضعتهم فى مواجهة أعدائهم من الكافرين والمشركين ، الذين يحادون الله ورسوله ، ويتربصون بالمؤمنين الدوائر ، وأنه مطلوب من المؤمنين أن يعملوا على حماية أنفسهم من هذا العدو المتربص بهم ، وذلك بالجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . .

ولمّا كان المال سلطانُه على النفوس ، فقد جاءت الآيات السابقة تكشف عن هذه المشاعر ،التى يَجدها المؤمنون حين يُمتحنون فى أموالهم ، وأن الله سبحانه وتعالى قد شملهم برحمته ، فلم يَدْعُهم إلى الخروج عن أموالهم جملة ، على سبيل الإلزام والفرض ، بل جعل ذلك دعوة مطلقة ، يأخذ منها الناس ما تتسع له نفوسهم ، كلٌّ على حسب ما تسخو به نفسه ، ورضاه قلبه . . دون حرج أو إعنات .

وفى قوله تعالى : « هأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله » امتحان للمؤمنين ، واستدعاء لما فى نفوسهم من إيمان ، فى مقام البذل فى سبيل الله . .

وقوله تعالى : « فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه » هو بيان لما كشف عنه هذا الامتحان من شُحّ فى بعض النفوس ، وضنّ بالبذل

والإنفاق فى سبيل الله .. وهذا البخل إنما هو عائد على من بخل ، إذ حَرَم نفسه هذا الخير الكثير الذى كان ينتظره لو أنه أنفق من هذا المال الذى حَبَسه ، وضنّ به . . إنه هو المحروم ، وهو الخاسر فى هذا الموقف ، حيث آثر ما يفنى على ما يبقى . .

وفى تعدية الفعل « يبخل » بحرف الجر « عن » بدلا من الحرف « على » الذى يستدعيه ظاهر النظم — فى هذا إشارة إلى أن هذا البخل هو حجزٌ للخير عن النفس ، التى كان من حقها على صاحبها أن يسوقه إليها من هذا المال الذى بخل به ، وهو يظن أنه إنما فعل ذلك ابتغاء لخيرها وإسعادها . .

وقوله تعالى : « والله الغنى وأنتم الفقراء » — هو تعقيب على موقف أولئك الذين بخلوا بالإنفاق فى سبيل الله ، ولم يستجيبوا لدعوة الله ، الذى آتاهم من فضله ، ووسّع لهم من رزقه ـ فالله ـ سبحانه ـ غنىّ عنهم ، وهم الفقراء إليه . . ولو شاء سبحانه أن يعفيهم من هذا الامتحان ، لفعل ، ولحرمهم الثواب الذى ينالونه بما ينفقون من مال الله الذى بين أيديهم ..

وقوله تعالى : « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » .. هو تهديد ووعيد لهؤلاء الباخلين بأموالهم عن الإنفاق منها فى سبيل الله . وأنهم إذا أصروا على موقفهم هذا ، ولم ينفقوا فى سبيل الله ، كان فى المؤمنين من يقوم مقامهم ، ويسدّ هذا النقص الذى كان منهم .. ثم إن هؤلاء الذين يلبسون الإيمان ظاهراً وباطنا ، لا يكون منهم تردد ، أو نكوص عن تقبل البذل والإنفاق ، كما كان من هؤلاء المترددين المنقلبين على أعقابهم ، بل ستثبت أقدامهم على طريق الإيمان إلى النهاية . .

* * *

٤٨ - سورة الفتح

نزولها : مدنية .. نزلت بعد صلح الحديبية ..

عدد آياتها : تسع وعشرون آية ..

عدد كلماتها : خمسمائة وستون كلمة

عدد حروفها : ألفان وأربعمائة وثمانية وثلاثون حرفاً

مناسبتها لما قبلها

ختمت سورة « محمد » (عليه الصلاة والسلام) بدعوة المؤمنين إلى البذل والإنفاق فى سبيل الله ، حاملة بين يدى هذه الدعوة ، إشارةً إلى أن هذه الدعوة لا تاقى قبولا من بعض ذوى النفوس التى لم يتمكن الإيمان منها ، وأن هؤلاء سيُخلُون مكانهم لغيرهم من المؤمنين الذى صدقوا الله ورسوله ، . وهؤلاء المؤمنون هم الذين يتلقاهم الله سبحانه وتعالى بالقبول ، ويمنحهم النصر والتأييد الذى وعد عباده المؤمنين ..

وقد جاءت سورة « الفتح » تزف إلى المؤمنين هذه البشرى بالفتح والنصر الذى أعز الله به نبيه ، وأعز به المؤمنين معه .. كما يقول سبحانه فى مطلع السورة : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » .. وكما يقول سبحانه بعد ذلك : « ومغانم كثيرة تأخذونها وكان الله عزيزاً حكيما * وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدىَ الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » ..

ومن جهة أخرى ، فإن سورة « محمد » (صلى الله عليه وسلم) قد حملت إلى النبى الكريم هذا الأمر الكريم من ربه : « فاعلم أنه لا إله إلا الله

واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات» — فجاءت سورة «الفتح» مفتتحة بقبول هذا الاستغفار ، وشمول الرسول الكريم بهذا الغفران المطلق ،الشامل لكل ما تقدم من ذنبه وما تأخر ..

ومن جهة ثالثة — فإن محمداً — صلوات الله وسلامه عليه — الذى حملت السورة السابقة اسمه ، يناسبه أعظم المناسبة أن يجىء فى أعقاب سورته سورةُ «الفتح» إذ كان هذا الفتح لمحمد عليه صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٣)

* « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إنا فتحنا لك فتحا مبينا »

الفتح : فى الأصل الحكم والقضاء بأمر من الأمور ، ومنه قوله تعالى : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » .. أى احكم ، وقوله سبحانه : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها» أى مايقضى به الله ..

والفتح ، قد غلب استعماله فى النصر على العدو ، والاستيلاء على بلاده ، التى كانت من قبل مغلقة فى وجه من يريد دخولها من غير أهلها — ومنه قوله تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح » .

والمراد بالفتح هنا : التأييد ، والنصر ، والتمكين ..

وقد نزلت هذه السورة الكريمة ، بعد صُلح الحديبية ، الذى كان يَرَى كثير من المسلمين عند عقد هذا الصلح، أنه أشبه بالاستسلام .. فلقد كان النبىّ صلى الله عليه وسلم قد دعا أصحابه إلى أن يهيئوا أنفُسَهم لأداء العمرة ، وكان ذلك فى السنة السادسة من الهجرة . . فلما تمّ لهم ذلك ، سار بهم النبىّ — صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى مكة ، يسوقون الهَدْىَ أمامهم ، ويحبسون سيوفهم فى أغمادها . فلما دَنَوْا من مكة ، كانت قريش قد استعدّت للحرب ، إن دخل النبىّ والمسلمون عليهم مكة . .

وقد بعث إليهم النبىّ أنه إنما جاء معتمراً لا محارباً . . ولكن القوم ركبوا رءوسهم ، وأبَوْا إلاّ أن تكون الحرب ، إن دخل النبىّ والمسلمون مكة .. وقد كادت الحرب تقع، وخاصة حين جاءت إلى المسلمين شائعة بأن عثمان ابن عفان ، رضى الله عنه ، قد نالته قريش بسوء ، وكان الرسول الكريم ، قد بعث عثمان إلى قريش ، يخبرهم بالأمر الذى جاء من أجله النبىُّ والمسلمون . . ثم انتهى الأمر أخيراً إلى عقد صلح يقضى بأن يرجع النبىّ والمسلمون عامَهم هذا، وأن يعودوا فى العام القابل ، فتُخْلى لهم قريش مكة ، فيدخلها النبىّ وأصحابه ثلاثة أيام يقضون فيها عمرتهم . .

وقد كثرت مقولات المسلمين ، رفضاً لهذا الصلح قبل أن يتم ، وتعقيباً عليه بعد أن تمّ . . حتى لقد خلا عمر بن الخطاب ، بأبى بكر ، رضى الله عنهما ، وأسرّ إليه بما فى نفسه من هذا الصلح الذى يرى فيه غبناً على المسلمين ، وحتى لقد جاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له :

«يارسول الله : ألسنا على الحقّ ؟ أليس القوم على الباطل ؟ قال رسول الله : بلى ! قال عمر : فلم نُعطى الدنية فى ديننا ؟

فقال ـ صلوات الله وسلامه عليه . . : « أنا عبد الله ولن أخالف أمر ربى ولن يضيّعنى » !

فلما تم الصلح ظلت كثير من المشاعر المتضاربة تنخس فى صدور المسلمين ، خاصةً ، وأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، كان قد تحدث إليهم بأنهم سيدخلون مكة ، وأنه رأى فى ذلك رؤيا ، وفيها يقول الله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » . . ويقول الله سبحانه فى آخر سورة الفتح : « لقد صدَق الله رسولَه الرؤيا بالحقّ لتدخُلُنّ المسجدَ الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » . . فهذه الرؤيا التى رآها الرسول الكريم رؤيا صادقة ، ولكنّ تأويلها لم يكن قد جاء زمنه بعد .. إن المسلمين سيدخلون مكة ، آمنين محلّقين رءوسهم ومقصرين . . هذا هو مضمون الرؤيا ، أما زمنها فلم تحدده الرؤيا ، وقد عاد المؤمنون من صلح الحديبية ، وهم على عهدٍ مع قريش على دخول البيت الحرام فى العام القابل . . أما الفتح القريب الذى أشار إليه قولُه تعالى : « فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » فهو فتح خيبر ، التى فتحها النبى بعد منصرفه من الحديبية ، وفى طريق عودته إلى المدينة . .

وصلح الحديبية فى يومه الذى وقع فيه ، وقبل أن تتكشف الأحداث التى أعقبته ـ هذا الصلح هو فى ذاته فتح مبين ؛ كما يقول سبحانه وتعالى تعقيباً عليه : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » .

وأى فتح أعظم وأظهر من أن يعود النبىّ بالمسلمين إلى البلد الحرام ، وأن يقيموا على مشارفها ، فلا تجرؤ قريش على الخروج للقائهم ، بل تنتظر حتى يدخلها عليهم النبىّ والمسلمون ، وهم الذين أخرجوا النبىّ والمسلمين منها ، وهم الذين تهدّدوا النبىّ والمسلمين ، وجاءوا إلى المدينة بجيوشهم يريدون أن

يدخلوها على أهلها فى غزوتى « أُحُد ، والأحزاب ».. ؟

فأى فتح أعظم عند المسلمين من هذا الفتح ، الذى أذلّ قريشا ، وعرّاها من كل ما كان لها فى نفوس العرب من عزّة وسلطان ؟ . لقد ذلت قريش ، وأعطت يدها للنبىّ وا سلمين ، ولم يكن هذا الصلح فى حقيقته إلا حفظا لبقية من هذه العزّة الضائعة ، وسترا لهذا الكبر المتداعى ! ! لقد انقلبت موازين القوى فقوى المستضعفون ، وضَعُف الأقوياء ، وتحول المدافعون إلى مهاجمين . . وإنه لو وقف الأمر بالمسلمين عند هذا الحدّ لكان ذلك نصراً لهم ، وفتحا . . ولكن لم يكن هذا الفتح إلا مقدمةً لفتوحات كثيرة ، منها فتح مكة ، ودخول أهلها فى دين الله . .

وفى هذا يقول الرسول الكريم ، وقد بلغه أن لَغَطا بين أصحابه يدور حول هذه القضية ، وأنهم لم يتحقق لهم ما وعدهم الرسول به من دخول مكة . يقول الرسول الكريم :

« بئس الكلام هذا ! ! بل هو أعظم الفتوح ، وقد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ، ويسألوكم القضية ، ويرغبوا إليكم فى الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا »

وقوله تعالى : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما » . . هو بيان لما ترتب على هـذا الفتح من سوابغ النعمة ، وفواضل الإحسان ، التى يفيضها بالله سبحانه وتعالى على نبيه الكريم . .

إن هذا الفتح هو بداية الخاتمة لجهاد النبى . . صلوات الله وسلامه عليه ، وهو القدم الأولى التى يضعها النبى على طريق النصر لدعوته ، التى قام عليها

هذه السنين . والتى احتمل فى سبيلها ما احتمل من عَنَت قريش ، وإخراجها له من بيته فى البلد الحرام ،وما أصيب على يديها فى أحبابه وأصحابه الذين استشهدوا فى الحرب معها . .

إنه وقد انكسرت شوكة قريش فى صلح الحديبية ،فقد بات الأمر وشيكا بانتهاء هذا الصراع المحتدم ، بين الدعوة الإسلامية ، وبين المتربصين بها ، وأنه بين يوم وليلة ستنحسر هذه السحابة السوداء من سماء الإسلام ، ويدخل الناس فى دين الله أفواجاً . .

إذن ، فقد أدّى النبى رسالته ، وحقق ما ندبته السماء له ، ودعته إليه . . وإذن فليتقبل النبىّ عطاء الله له ، وليسعد بما سيلقى من جزاء كريم ، على هذا الجهاد العظيم ، الذى ظلّ قائماً عليه نحو عشرين عاماً ، موصولا ليلها بنهارها . .

فهذا الفتح ، وإن كان من الله ، فقد أضاف الله سبحانه وتعالى جزاء هذا الفتح إلى الرسول الكريم . . « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتمّ نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما * وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

فالفتح ، فتح الله ، وهو فتح للنبىّ ، ومغفرةٌ لما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهداية له إلى صراط الله ، ثم نصر عزيز ، تُختم به الانتصارات التى بدأت بصلح الحديبية . . !

وقد وُصف صُلح الحديبية بأنه فتح مبين ، على حين وصف فتح مكة الذى سَيَلِى هذا الفتحَ ، بأنه نصر عزيز . . وذلك لأن صلح الحديبية ، لم يكن الفتحُ فيه عن قوة غالبة قاهرة ، إذ كان لا يزال فى قريش شىء من القوة ،

والاستعداد للقاء النبيّ والمسلمين . . أما فتح مكة فقد كان تحت قوة قاهرة ، وسلطان غالب ، فلم يكن فى قريش من تحدّثه نفسه بلقاء النبيّ والمسلمين ، والتصدى لهذا الجيش الغالب الذى دخل مكة على أهلها ، وأعطاهم الأمان على حياتهم وأموالهم ، إذا هم دخلوا فى دين الله ، وقد دخل القوم فى دين الله صاغرين . . فهو نصر عزيز غالب ، لا يلقاه القوم إلا فى ذلّة وانكسار .

إن صلح الحديبية يقدّم الحساب الختامى لجهاد النبيّ فى سبيل الدعوة ، فيغفر له ربّه كلّ ما ألمّ بحمَى النبوة ، أو طاف بحرمها الطهور ، من غبار هذا الاحتكاك المتصل بالحياة وأهلها .

إن هذا الغفران ، هو عملية اغتسال بتلك الأنوار القدسية المنزلة على النبيّ من السماء ، فلا يَعْلق بها بعد هذا شىء من غبار هذه الأرض . . وبهذا تتم نعمةُ النبوة ، وتخلص للنبيّ ، علويّةً ، قدسية ، لم يمسسها سوء .

الآيات : (٤ — ٧)

« هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « هُوَ الَّذِي أنزل السكينةَ في قلوب المؤمنينَ ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم ولله جُنُودُ السَّمَوَاتِ والأرضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حكيمًا » .

ومن هذا الفتح المبين ، الذى فتحه الله للنبىّ الكريم ، ومن هذا الخير العظيم المنزّل على النبىّ من ربّه بسبب هذا الفتح – من هذا وذاك ، يأخذ المؤمنون نصيبَهم ، إذ كانوا قبساً من نور النبوّة ، ومشاعلَ تنير الطريق للناس ، من بين يدى كوكبها المتألق ، ومن خلفه ، فكان لهم نصيبهم من هذا الخير العظيم ، وذلك النصر العزيز الذى ساقه الله سبحانه وتعالى إلى النبىّ الكريم قائد هذه الحملة السماوية المباركة .

وقوله تعالى : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم » – هو بشرى إلى المؤمنين ، فى مقابل البشرى التى حملها القرآن إلى النبى الكريم فى قوله تعالى : « إنّا فتحنا لك فَتْحًا مبينًا » .. أى إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ، وأنزلنا السكينة فى قلوب المؤمنين . .

وقوله تعالى للمؤمنين : « ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم » هو فى مقابل قوله تعالى للنبىّ : « ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر » . .

ولكلٍّ من النبىّ والمؤمنين ، مقامُه ، ومنزلتُه من ربِّ العالمين ، ومن سوابغ رحمته ، وفواضل إحسانه . .

فالنبىّ له هذا الفتح المبين ، والمغفرة الشاملة العامة ، التى لا تُبقى على شىء يطوف بحمَى النبوّة من هنات وهَفَوات ، فيُسوّى حسابُه على أن تكون له النبوّة خالصةً بجلالها وصفائها ، بعد هذه الرحلة الطويلة التى طوّفَت بها فى

دنيا الناس ، وخالطت فيها وجودهم ، واحتكّت بخيرهم وشرّهم ، وواجهت أخيارهم وأشرارهم . .

أما المؤمنون ، فإن لهم من هذا الفضل الإلهى ما يحفظ عليهم إيمانهم ، ويزكّيه ، وينقّيه ، وينمّيه . . « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم » .

والسكينة التى أنزلها الله سبحانه وتعالى على قلوب المؤمنين ، هى ما وقع فى قلوبهم من رضًا وطمأنينة وسكينة ، بعد هذه الموجات التى تدافعت فى صدورهم ، من وساوس الحيرة والبلبلة ، ساعةَ صلح الحديبية . . فلقد اضطربت كثير من القلوب ، وزاغت كثير من الأبصار ، وقصُرت كثير من الأفهام عن أن ترى ما وراء هذا الصلح من خير كثير ، وفتح مبين ، فوقعت فيما وقعت فيه من حيرة وبلبال .

وقد كانت هذه التجربة القاسية التى عاناها المؤمنون من أحداث الحديبية ـ باعثًا يحرك فى قوة وعنف ، مافى كيانهم من مشاعر ، وما فى عقولهم من مدارك ، ليقابلوا بها هذه المتناقضات التى بدت لهم من ظاهر موقفهم الذى اتخذوه من النبىّ مع أحداث الحديبية ، حتى إذا بلغ الأمر غايته من ضيق الصدور ، وحرج النفوس ، طلع عليهم من حيث لم يحتسبوا ولم يقدروا ـ ما وراء هذا الصلح من خير كثير ، وفتح مبين ، فكان لذلك من السلطان على العقول ، والأثر فى النفوس ، ما للتائه المكروب المضطرب فى محيط الصحراء ، تطلع عليه من حيث لا يحتسب قافلة تنتشله من يد هذا الضياع المستبدّ به ! ! إنه بَعْثٌ له من عالم الموتى ، وحياة مجدّدة له بين الأحياء . . وإنها لحياة عزيزة غالية ، تلك الحياة الجديدة التى لبسها ، وإنه لواجد فيما يستقبل من حياة طعماً جديداً لتلك الحياة ، وحرصاً شديداً على ألا ينفق شيئاً منها فى غير النافع المفيد . .

كذلك تماماً كان شأن المؤمنين أثناء صلح الحديبية ، ثم بعد هذا الصلح، وما لقيهم على طريقهم من فتح مبين ، ونصر عزيز .. فازدادوا إيماناً مع إيمانهم ، ويقيناً إلى يقينهم .. وهكذا يربى الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين، ويصنع لهم من الأحداث والمواقف ما يثبت به خطوهم على طريق الإيمان ، فلا تنال من إيمانهم الأحداث ، ولا تتسرب إلى مشاعرهم الوساوس ..

وقوله تعالى : « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيما » هو تعقيب على هذا الخبر الذى تضمن هذا الخير الكثير والعطاء الجزيل ، الذى أفاضه الله سبحانه وتعالى على النبي ، ومن معه من المؤمنين .. فهذا العطاء وذلك الإحسان ، هو من مالك الملك ، ومن بيده ملكوت السموات والأرض .. وهو سبحانه إذ يخبر بهذا الخبر ، ويَعِدُ به ، فإنما هو خبر صادق ، وعِدَة محققة ، لأنها ممن له جنود السموات والأرض ، كلها مسخرة له ، عاملة بمشيئته .. مشيئة العليم الحكيم .. العليم الذى يقضى بعلم، الحكيم ، الذى يُمضى كل أمر بتقدير وحكمة ..

قوله تعالى :

* « ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيما * ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً » . .

هو تعليل لقوله تعالى : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين . . » . فهذه السكينة التى أنزلها الله فى قلوب المؤمنين ، هى التى أمسكت بهم على طريق الإيمان ، وأمدتهم بعزائم قادرة على ملاقاة الشدائد والمحن التى ابتُلُوا بهـا من

الكافرين حتى استطاع المسلمون أخيراً أن يهزموا الشرك ، وأن يدكوا حصونه . .

وفى هذا الصراع الذى احتدم بين المؤمنين والمشركين والمنافقين ، كان الابتلاء ، الذى أخذ به كل فريق مكانه ، من الإيمان بالله ، أو الكفر به ، حيث يُجزى كل فريق الجزاء الذى يستحقه من الثواب أو العقاب . .

فالمؤمنون والمؤمنات ، يُدخلهم الله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، متجاوزاً لهم عن سيئاتهم ، التى لو حُوسبوا عليها ، فلربما حجزتهم عن الجنة ، أو عوّقت مسيرتهم إليها . .

وفى تقديم إدخال المؤمنين والمؤمنات الجنةَ على تكفير السيئات ، وذلك على خلاف الظاهر ، الذى يقضى بأن يكون تكفير السيئات أولاً ، ثم دخول الجنة ، ثانياً ، إذ لادخول للجنة إلا بعد تكفير السيئات — فى هذا إشارة إلى أن دخول الجنّة أمر مقضىّ به لكل مؤمن ومؤمنة ، سواء كان ذلك من غير عذاب ، أو بعد أن يستوفى العصاة من المؤمنين عذابهم ، فهم جميعاً موعدون بالجنة ، وحسْب المؤمن — أيًّا كان — أن يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة ، كما يقول سبحانه : « فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » . .

هذه هى القضية . . أما تكفير السيئات ، فهو إلى رحمة الله سبحانه وتعالى ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى فى ختام الآية : « وكان ذلك عند الله فوزاً عظيما » . . أى كان دخول الجنة ، والقرب من الله ، والنعيم برضوانه — « فوزاً عظيما » . . أما تكفير السيئات والتجاوز عنها بالعفو والمغفرة ، فذلك إلى حكمة الله ، وإلى مشيئته فى عباده ، إن شاء غفر ، وإن شاء حاسب وعاقب .

أما المنافقون ، والمنافقات ، والمشركون والمشركات ، الذين لم يكن نفاقهم وشركهم إلا عن سوء ظن بالله ، وأنه سبحانه لايقوم على هذا الوجود ، حسب تقديرهم ، ولا يعلم ماتكن الضمائر وما تخفى الصدور — فهذا الظن الباطل ، هو

الذى أفسد عليهم صِلتهم بالله ، فلم يرجوا له وقاراً ، ولم يعملوا له حساباً ، فكان أن ساء مصيرهم ، ووخمت عاقبتهم ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » (٢٣ : فصلت)

وقُدم المنافقون والمنافقات على المشركين والمشركات ، فى مقام الإساءة والبلاء ـ لأن النفاق ، أغلظ إثماً ، وأشنع جرماً من الشرك ، لأن الشرك وجه واحد من وجوه الشر ، أما النفاق فهو وجوه كثيرة من الشر ، يعيش بها المنافق ، ويلبسها وجهاً وجهاً ، ويتبدّلها حالا بعد حال . .

قوله تعالى :

* « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيما »

هو بيان لسلطان الله المتمكن فى هذا الوجود ، وأنه سبحانه ، بيده الأمر كله ، يجزى المحسن إحساناً ، ويضاعف له ، ويجزى المسىء سوءاً ، ولا يظلمه : «ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » (٣١ : النجم) .

الآيات : (٨ — ١٤)

* « إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إنا أرسلناك شاهداً وَمُبَشِّرًا ونذيراً » .

هو استئناف لتقرير خبر آخر عن الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وما له عند ربه — سبحانه وتعالى — من العطايا الجليلة ، والمواهب العظيمة .. فقد فتح الله سبحانه وتعالى عليه هذا الفتحَ المبين ، ووعده بهذا النصر العزيز ، وأتمّ عليه نعمته بغفران ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وذلك كله واقع من وراء إحسانٍ سبق ، وفضل تقدم من الله سبحانه وتعالى ، وهو اصطفاؤه سبحانه عبدَه محمدا للنبوة ، والرسالة ، والتى استحق بقيامه بحق الرسالة ، وحمل أعبائها ، أن يُعطى هذا العطاء الجزيل ، وأن يفتح له هذا الفتح المبين . .

فاصطفاء النبي الكريم للرسالة ، منحة خالصة من الله سبحانه وتعالى ، وإحسان مبتدأ ، ليس لسعى النبي دخل فيه ، ولا لجهاده ولا اجتهاده سبيل إليه. فذلك أمر لاينال أحدٌ بعمل ، ومطلب لايبلغه إنسان باجتهاد . . إنه رحمة من رحمة الله ، وفضل من فضله ، يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . .

أما مافتح الله به للنبيّ ، وما مكّن له من نصر ، وما غفر له من ذنب —

فهو - وإن كان من فضل الله ورحمته - فإن للنبي سبباً متصلا به ، بما كان منه من جهاد وبلاء ، فى القيام بأمر ربه ، والوفاء بأداء الأمانة التى حملها . .

وقُدم المسبّب على السبب ، أى قُدِّم الفتح ، والنصر ، ومغفرة الذنب ، على اصطفاء الرسول للرسالة ، وعلى الجهاد الذى جاهده من أجل الوفاء بها - وذلك للإشارة إلى أن هذه الأسباب هى مجرد أمور ظاهرية ، وأن مايقضى به الله سبحانه وتعالى فى خلقه لايتوقف على سبب ، وأن ماقضى به سبحانه للنبىّ الكريم ، من فتح ونصر ومغفرة لما تأخر من ذنبه وما تأخر ، هو فضل خالص من فضل الله ، وإحسان مطلق من إحسانه إلى رسوله الكريم ، وأن الرسالة نعمة أخرى ، وأن حَمْل أعبائها ، هو شكر لتلك النعمة العظيمة ، التى أقامت النبى مقام الإمام للناس جميعاً . .

قوله تعالى :

* « لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزّروه وتوقروه وتسبحوه بكرةً وأصيلاً » . .

عزّروه : أى نصروه ، وعزّزوه ، وأيدوه . .

واللام فى قوله تعالى : « لتؤمنوا » لام التعليل . .

وقد قرىء بضمير الغيبة : ليؤمنوا ، ويعزّروه ، ويوقروه ، ويسبحوه . . واختُلف فى مرجع ضمير النصب فى الأفعال . . والرأى على أنها جميعاً عائدة إلى الله سبحانه وتعالى . . فالتعزير ، والتوقير ، والتسبيح ، كلها عائدة إلى الله سبحانه على هذا الرأى . .

على أننا نخالف هذا الرأى ، ونرى - والله أعلم - أن الضمائر ، بعضُها

عائد إلى الله سبحانه وتعالى ، وبعضُها عائد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

فالتعزير ، للرسول ، وهو فى الوقت نفسه تعزير لله ، ونصر لرسول الله ، وتأييد لدينه .. ولكن إضافة هذا التعزير للرسول تكريم له ، لأنه القائم على دين الله ، وحامل راية الجهاد فى سبيل الله .. ويشهد لهذا قوله تعالى : « فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » .. (١٥٧ : الأعراف) فالضمائر هنا كلها عائدة إلى الرسول الكريم من غير شك ، والقرآن الكريم يفسّر بعضه بعضاً ..

وأما التوقير فهو لله ، وللرسول .. وأما التسبيح بكرة وأصيلاً ، فهو خالِصٌ لله وحده ..

قوله تعالى :

* « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليهُ اللهَ فسيؤتيه أجراً عظيما » ..

المفسرون على رأى واحد ، بأن المراد بالمبايعة فى الآية الكريمة ، هو بيعة الشجرة ، وتسمى بيعة الرضوان ، وهى التى تشير إليها الآية الكريمة بعد هذا ، حسب هذا الرأى .. والآية هى قوله تعالى :

« لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » ..

والرأى عندى ــ والله أعلم ــ أن المبايعة هنا عامة ، تدخل فيها البيعة على الإسلام ، كما تدخل فيها بيعة الرضوان على القتال ، وكلُّ بيعة بين النبى والمؤمنين .. فقد كان الذين يستجيبون لرسول الله ، ويدخلون فى دين الله ،

- كانوا يبايعون النبىّ ، على الإيمان بالله ورسوله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والجهاد فى سبيله ، كما بايع الأنصار النبى - صلى الله عليه وسلم - بيعتى العقبة الأولى ، والثانية ، على هذا الإيمان ، وعلى أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ..

والذى رجّح عندنا هذا الرأى ، أمور منها :

أولا : أن بيعة الرضوان كانت لأمرٍ عارض ، وهو قتال المشركين ، إذا ثبت أنهم اعتدوا على « عثمان » مبعوث رسول الله إليهم .. فلما ظهر أن المشركين لم ينالوا عثمان بأذى ، بل إنهم عَرَضُوا عليه أن يطوف بالبيت إن أراد ، ولكنه أبى أن يطوف إلا أن يطوف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم - لما ظهر هذا ، انحلّ عقد هذه البيعة ، وبقى المبايعون على عقدهم الأول الذى دخلوا به فى الإسلام .. فلم يقع فى هذه البيعة نكث ، لأن المسلمين لم يدخلوا فى حرب مع المشركين تحت حكم هذه البيعة ، ومن ثَمّ لم يكن متّجَهٌ لهذا التهديد الذى جاء فى قوله تعالى : « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » وإنما متجهه هو إلى عموم النكث ، وفى جميع المواقف والأحوال ..

وثانياً : أن بيعة الرضوان ، قد ذُكرت ذكراً خاصاً فى قوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً »

وفى الآية الكريمة أن الله سبحانه قد رضى عن جميع المؤمنين الذين بايعوا رسولَ الله تحت الشجرة ، وأن الله سبحانه ، قد علم ما فى قلوبهم من إذعان لدعوة رسول الله ، وولاء وتسليم له ، مع ما كانوا يجدون فى صدورهم من حرج ، فى التوفيق بين ما جاءوا له ، وهو دخول المسجد الحرام ، وبين هذا الصلح الذى

تمّ بينهم وبين قريش ، ولهذا أنزل الله السكينةَ عليهم ، وجزاهم جزاءً طيباً ، بهذا الفتح القريب ، وهو فتح خيبر ..

فالمؤمنون الذين بايعوا الرسولَ تحت الشجرة ، دخلوا جميعاً فى هذا الحكم ، وهو رِضا الله عنهم ، وإنزالُ السكِينة على قلوبهم .. وهذا يقطع بأن أحداً منهم لم ينكث أبداً ..

وفى قوله تعالى : « إنما يبايعون الله » ـ إشارة إلى أن مبايعة المؤمنين لرسول الله ، ليست لحساب الرسول ، ولا لشأن من شئونه الخاصة ، وإنما هى بيعة خالصة لله ، وللجهاد فى سبيل الله ، وما الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، إلاّ قائم بأمر الله ، قائد للمجاهدين فى سبيله ..

وقوله تعالى : « يَدُ الله فوق أيديهم » ـ هو توكيد لهذه الحقيقة ، وهى أن البيعة لله ، وأن الذين أعطوا أيديهم مبايعين لرسول الله ، إنما أعطوْا أيديهم لله ، ويد الرسول التى صافحت هذه الأيدى المبايعة ، هى ـ من غير تشبيه ـ نيابة عن يد الله ..

وهذا كله من قبيل التمثيل ، كما فى قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فَيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذين بايعتم به » .. فالأمر فى ظاهره ليس بيعاً ولا شراء ، ولكنه فى واقعه بيع ربيح ..

قوله تعالى :

* « سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضَرًّا أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً » ..

هو إخبار من الله سبحانه وتعالى للنبىّ الكريم ، بما سيلقاه به الذين تخلفوا من الأعراب عن دعوة الرسول لهم ، فى السير معه إلى مكة ، لزيارة البيت الحرام ، وليكثر بهم أعداد المسلمين ، ليكون فى ذلك ما يُرهب قريشاً ، فلا تعترض سبيلَ النبىّ والمسلمين لزيارة بيت الله .. ولقد تقاعس هؤلاء الأعراب الذين كانوا يعيشون قريباً من المدينة ، وتعللوا بأعذار شتى ، وفى تقديرهم أن الذين يصحبون النبىّ فى هذا السير ، لن يسلموا من القتل ، ولن يَرجعوا إلى أهليهم أبداً ، وإنه لهو الهلاك المحقق لهذه الجماعة التى استجابت للرسول ، وسارت معه .. إذ كيف يُعقل ـ وهذا تقديرهم ـ أن يواجه النبىّ والمسلمون قريشاً بهذا العدد من المسلمين ، الذين لايتجاوز عددهم ألفاً ، وأن يدخلوا عليهم ديارهم ، ويطئوا بلدهم ، وقد كانت قريش فى الأمس القريب ، فى موقعة أُحد ، تهدد المسلمين ، وتكاد تدخل عليهم المدينة ، وتستولى على ديارهم ؟

فلما سار النبىّ الكريم مسيرته بأصحابه الذين استجابوا له ، وتم صلح الحديبية بينه وبين قريش ، وأخذ النبىّ بأصحابه طريقَه إلى المدينة ، وفتح الله له « خيبر » من غير قتال ، ـ لما كان هذا أخذ هؤلاء المخلَّفون من الأعراب يدبرون أمرهم ، ويُعِدّون المقولات التى يلقوْن بها النبىّ ، والمعاذير التى يعتذرون بها إليه ، عند رجوعه إلى المدينة . .

ومن تلك المقولات ما ذكره الله سبحانه وتعالى عنهم فى قوله تعالى : « شَغَلَتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا » ..

وقد فضح الله سبحانه وتعالى كذبَ هذا القول ، وردّه على قائليه ، فقال سبحانه :

« يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم » أى أنه ليست الأموال والأهلون هى التى شغلت هؤلاء الأعراب عن الاستجابة لدعوة رسول الله ، ولكن

الذى أمسك بهم عن تلبية هذه الدعوة ، هو ماوقع فى نفوسهم من شبح الخطر الذى يترصد كلّ من يسير هذه المسيرة ، ويدخل على قريش ديارها ..

وقوله تعالى : « قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضَرًّا أو أراد بكم نفعاً ؟ » — هو رد على هؤلاء المخلّفين، وعلى سوء ظنهم بالله سبحانه وتعالى ، وجهلهم بماله جل شأنه من سلطان مطلق فى هذا الوجود ، وأنه سبحانه هو الذى بيده مقاليد السموات والأرض ، وأن أحداً لا يملك معه ضَرًّا أو نفعاً ..

وقوله تعالى : « بل كان الله بما تعملون خبيراً » ، هو تقرير لتلك الحقيقة التى خَفيت على هؤلاء المخلفين ، وأن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يخفون وما يعلنون ، علمَ الخبير الذى لا تخفى عليه خافية ، فى الأرض ولا فى السماء . .

قوله تعالى :

* « بل ظننتم أن لن ينقلب الرسولُ والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزُيّن ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً » .

هذا هو ما انطوت عليه صدور المخلفين من أوهام وظنون ، تسلطت عليهم ، فأخذوا هذا الموقف الخاسر ، الذى عزلهم عن مواقع الخير ، وحرمهم ما ناله المؤمنون الذين ساروا فى مسيرة رسول الله ، مِن رِضا الله عنهم ، ومن هذا الخير الذى امتلأت به أيديهم من غنائم خيبر . .

والبُور : الهلاك . . والقوم البور ، هم الهالكون ، الذين خسروا الدنيا والآخرة جميعاً ، وذلك هو الخسران المبين ..

قوله تعالى :

* « ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً » .

هو بيان للجهة التى جاء منها هذا الهلاك والبوار لأولئك المخلّفين، وهو أنهم لم يكونوا مؤمنين بالله ورسوله، إذ لو كانوا مؤمنين حقًّا لما كان منهم هذا التخلف عن دعوة الرسول لهم.. إذ الإيمان ـ فى حقيقته ـ ولاء مطلق، ومتابعة بلا تردد، ولا مراجعة..

قوله تعالى:

* « ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيما » ..

هو إلفات إلى الإيمان الصحيح بالله سبحانه وتعالى، وهو الإيمان القائم على اليقين بأن الله سبحانه، له ملك السموات والأرض، وأنه وحده سبحانه، يملك الضر والنفع، فمن آمن بالله على هذا المفهوم واستيقنه، فإنه ـ فى سبيل الاحتفاظ بهذا الإيمان، والدفاع عنه ـ يتحدّى الناس جميعاً، لا يخاف سلطاناً، ولا يرهب قوة..

وقوله تعالى: « وكان الله غفوراً رحيما » — هو دعوة إلى الذين ساء ظنهم بالله، أن يقيموا إيمانهم بالله على هذا المفهوم، فإن هم فعلوا، غفر الله سبحانه وتعالى لهم ما كان من تقصير فى حق الله، وسوء ظنٍّ به.

الآيات: (١٥ — ١٧)

* « سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥)

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدّلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبلُ فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا » .

هو إخبار من الله سبحانه وتعالى ، لما سيكون من هؤلاء المخلّفين ، بعد أن يلتقوا بالنبي ، وقد رجع من مسيرته منتصراً غانماً ، من حيث قدّروا الهزيمةَ ، والهلاك . . إنهم سيَعْرضون على النبي أن يقبلهم فى المجاهدين إذا هو سار مسيرة كتلك المسيرة ، التى يكون منها الغنم والظفر . . وهذا ما يكشف عما فى قلوبهم من إيمان زائف . . فهم إنما يكونون فى المؤمنين المجاهدين ، إذا كان من وراء هذا الإيمان والجهاد ، سلامة ومغنم . . والإيمان – فى حقيقته – هو بذل ، وتضحية ، غير منظور فيه إلى تحصيل كسب ، أو ظَفَرٍ بمغنم . .

وقوله تعالى : « إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم » –

بيان للغاية التى يتغيّاها هؤلاء المخلفون من الأعراب ، من هذا العَرْض الذى يَعرضونه على النبى بالسير معه إلى الجهاد ، وأنهم إنما يسيرون حيث تكون هناك مغانم يملئون أيديهم منها ..

وقوله تعالى : « يريدون أن يبدّلوا كلام الله » .. كلام الله : هو حكمه وقضاؤه ، وهو أن تكون المغانم من حظّ المجاهدين ، لا أولئك الذين يتصيدون الفرص لتقع إلى أيديهم الغنائم من غير قتال .. وهؤلاء المخلفون لا يخرجون مع المجاهدين إلا إذا كان الخروج إلى مغانم من غير قتال ، وهذا من شأنه — لو حدث ولن يحدث — أن يبدل حكم الله الذى جعل الغنائم للمجاهدين ..

وفى هذا النظم الذى جاء عليه الخبر ، تيئيس للمخالفين أن يكون لهم فى هذه المغانم نصيب ، لأن أخذهم شيئاً منها ، فيه تبديل لكلمات الله ، وإنه لا مبدِّل لكلمات الله ..

وقوله تعالى : « قل لن تتبعونا » هو تعقيب على قوله تعالى : « يريدون أن يبدلوا كلام الله » وتصريح بالحكم الذى تضمنه ، فإن من مضمون قوله تعالى : « يريدون أن يبدلوا كلام الله » أنهم لن يخرجوا مع المؤمنين ، لأن فى خروجهم تبديلا لكلمات الله ، ولا مبدل لكلمات الله ..

وقوله تعالى : « كذلكم قال الله من قبل » .. الإشارة هنا هى إلى الحكم الذى جاء فى قوله تعالى : « لن تتبعونا » .. أى مثل هذا الحكم الذى قضينا به عليكم ، وهو ألا تتبعونا ، كان قضاء الله فيكم وحكمه عليكم من قبل هذا الحكم الصريح الذى واجهناكم به ، أيها المخلفون ، فقد قال الله

من قبل فيكم : « يريدون أن يبدلوا كلام الله » — ومضمون هذا أنكم لن تخرجوا معنا . .

هذا ، وقد اضطربت آراء المفسرين فى هذا ، وكثرت مقولاتهم ، ولم نر فيما رأينا من آراء ومقولات ، ما نطمئن إليه . . فكان هذا رأينا الذى نرجو أن يكون صوابا .. والله أعلم . .

قوله تعالى : « فسيقولون بل تحسدوننا » — هو من مقولات المخلفين التى يمكن أن يقولوها ، ردّا على قول النبي والمؤمنين لهم : « لن تتبعونا » — وهو ردٌّ أحمقُ جَهُول ، فيه مغالطة فاضحة . . إذ كيف يحسدهم المؤمنون ، وقد دُعوا من قبل إلى الجهاد ، فأبوْا وتخلفوا ؟ وكيف وطريق الجهاد مفتوح على مصراعيه للمجاهدين حقًّا ، الذين يريدون بجهادهم وجه الله ، وإعلاء دين الله ؟ .

وقوله تعالى : « بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا » أى أن هؤلاء الأعراب المخلفين ، إنما هم على عمًى وجهل ، ولو أنهم كانوا على شىء من العلم بدين الله ، وبحقائق هذا الدين ، لما وقفوا هذا الموقف من الجهاد ، ثم لما كان منهم هذا الاعتراض فى طريق المجاهدين بهذا المنطق الجهول . . أما ما لهم من فقه قليل ، فهو ما كان من أمر الدنيا وشئونها ، ومع هذا فهو قشور من الفقه ، لا يصل إلى شىء من لباب المعرفة ، وهذا مثل قوله تعالى : « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون » (٧ : الروم) .

قوله تعالى :

* « قل للمخلّفين من الأعراب ستُدْعون إلى قوم أولى بأس شديد

تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبلُ يعذِّبكم عذاباً أليماً » .

هذه دعوة إلى هؤلاء المخلفين ، تقطع عليهم مقولتهم المؤمنين : « بل تحسدوننا » . . وهم فى هذه الدعوة مدعوون إلى قتال قوم أولى بأس شديد ، وأنهم مطالبون كذلك فى هذا القتال أن يقفوا موقف المجاهدين حقًّا ، وهو ألا يتحولوا عن القتال إلاّ إذا استسلم لهم العدوُّ ، ودخل فى دين الله . .

وقد اختلف المفسّرون فى هؤلاء القوم ذوى البأس الشديد ، الذين سيُدعَى هؤلاء المخلفون إلى قتالهم ، حين يُندب المؤمنون إلى قتالهم . .

ويذهب كثير من المفسرين ، إلى أن هؤلاء القوم هم فارس ، والروم . . وهذا غير صحيح من وجهين :

أولهما : أن قتال فارس والروم لا يكون فيه قتالهم إلى أن يدخلوا فى الإسلام ، بل إنه يُكتفى منهم بقبول الجزية فى حال هزيمتهم ، وإبائهم أن يدخلوا فى الإسلام ، وإنما حكم القتل أو الإسلام هو فى حقّ العرب وحدهم ، لأنهم هم الذين تقوم عليهم الحجة كاملة ، بتلك المعجزة التى فى كتاب الله المعجز ، الذى جاء بلسانهم . .

والوجه الآخر ، هو أن هؤلاء المخاطبين المخلفين ، ينبغى أن تكون دعوتهم إلى قتال هؤلاء القوم بعد زمن قليل من وقت نزول هذه الآية . . حتى لا يذهب الموت بكثير منهم ، إذ طال الزمن بهم ، وقتال الفرس والروم جاء بعد نزول هذه الآيات ، بنحو عشر سنين . .

والذى يصحّ عندنا من هذه المقولات ، هو القول بأن القوم ذوى البأس الشديد ، هم بنو حنيفة ، قوم مسيلمة الكذاب ، الذين ارتدوا عن الإسلام ،

بعد وفاة النبي ، صلوات الله وسلامه عليه ، وكان ذلك بعد أربع سنين من نزول هذه الآية . .

وبنو حنيفة ، قد ارتدّوا عن الإسلام ، بعد وفاة الرسول ، فندب أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ المسلمين إلى جهادهم ، وقد حاربوا جيوش المسلمين حرباً قاسية ، حتى لقد استشهد من المسلمين أعداد كثيرة ، كان من بينهم سبعون شهيداً من القرّاء وحدهم ، كما يقول ذلك أصحاب المغازى . .

وهذا كله حديث عن مستقبل لم يجىء بعد ، وإنما هى أحداث ومواقف سوف تقع تباعاً ، ابتداء من نزول هذه الآيات . .

قوله تعالى :

* « ليس على الأعمَى حَرَج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حَرَجٌ ومن يُطع الله ورسوله يدخله جنات ٍ تجرى من تحتها الأنهار ومن يتولّ يُعَـذِّبْه عَذاباً أليماً » .

رفع الحرج هنا عن هؤلاء الذين ذَكرت الآية الكريمة صفاتهم ، إنما هو فى مقام الجهاد فى سبيل الله . . فهؤلاء مُعْفَوْن من الجهاد ، بحكم الأعذار التى معهم .. وقد رُتّبوا ترتيباً تنازلياً .. فالعَمَى عذر قاطع ، لاشبهة فيه فى الحرب، والعرج عذر غير ظاهر ، قد يكون معه عجز عن القتال أو قدرة عليه ، وأمر ذلك موكول إلى تقدير ولىّ الأمر ، وإلى ضمير صاحب الآفة ودينه . .

أما المرض ، فهو عذر يغلب عليه الخفاء ، وأمره متروك تقديره للمريض نفسه ، وإلى ما يمليه عليه دينه . .

الآيات : (١٨ — ٢٦)

* « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » .

المؤمنون الذين رضى الله عنهم ، وشملهم بهذا الرضوان العظيم ، هم الذين كانوا مع النبيّ فى الحديبية ، والذين بايعوه على قتال المشركين ، حين جاءت أخبار من مكة تقول: إن المشركين قد نالوا عثمان رضى الله عنه ، بسوء ، وقد كان الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بعثه إليهم ، ليخبرهم بأن الرسول وأصحابه إنما جاءوا معتمرين زائرين للبيت الحرام ، ولم يجيئوا لقتال . .

وقوله تعالى : « وأثابهم فتحاً قريباً » أى أن الله سبحانه وتعالى ، مع هذا الرضوان الذى شمل به المؤمنين من أهل الحديبية ـ قد فتح عليهم خيبر وملأ أيديهم من مغانمها ، وبهذا رجعوا ومعهم حظ الدنيا والآخرة جميعاً . .

ووصف الفتح بأنه قريب ، وذلك لقرب زمانه ، إذ كان على أيام من صلح الحديبية ، ثم لقرب تناوله ، إذ لم يلق المسلمون من أهل خيبر بلاء كثيراً ، بل سرعان ما استسلم يهود خيبر ليد النبيّ ، ونزلوا على حكمه . .

قوله تعالى :

* « ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً » . .

هو معطوف على قوله تعالى : «وأثابهم فتحاً قريباً » . . أى وأثابهم مغانم كثيرة يأخذونها ، فى قتالهم المشركين ، والكافرين والمنافقين ، ومنها غنائم هوازن فى موقعة حنين ، ثم تلك المغانم الكثيرة فى حرب فارس والروم . .

قوله تعالى :

* « وعدكم الله مغانِمَ كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه وكفَّ أيدِىَ الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيما » . .

هذا وعد من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين وهم على طريق الجهاد ، بأنه سبحانه ، سيمكّن لهم من مغانم كثيرة يأخذونها ، وأن هذا الذى أخذوه فى « خيبر » ليس إلا ثمرة معجّلة من ثمار جهادهم ، وإلا باكورة من بواكير هذا الثمر . .

وقوله تعالى : « وكفَّ أيدى الناس عنكم » . . المراد بالناس هنا هم من واجههم النبىّ والمسلمون فى مسيرته تلك ، وهم أهل مكة ، وأهل خيبر ، فهؤلاء ، وهؤلاء ، لم يدخلوا مع المسلمين فى حرب ، بل عافاهم الله من هذا البلاء ، وأعطاهم ثمرته ، فسلّمت لهم قريش بحق دخولهم مكة ، والطوافِ بالبيت الحرام ، واستسلم لهم يهود خيبر ، وسلّموا لهم ما بين أيديهم من أموال ، وزروع . .

وقوله تعالى : « ولتكون آيةً للمؤمنين » معطوف على محذوف ، يفهم من قوله تعالى : « فعجل لكم هذه وكفّ أيدى الناس عنكم » أى لتكون هذه الغنائم جزاء طيبا لكم ، وليكون منها آية للمؤمنين ، يرون فيها أن الله سبحانه وتعالى غنىّ عن الجهاد ، وأنه سبحانه قادر على أن يفتح لهم البلاد ويُخضع لهم العباد من غير قتال . . ولكنّ هذا يَحرِم المجاهدين فضلَ الجهاد ، ولا يجعلهم فى مكانٍ هم أولى به من غيرهم ، من رضوان الله ، ومن الغنائم التى ينالها المجاهدون . .

وقوله تعالى : « ويهديكم صراطا مستقيما » معطوف على قوله تعالى : « ولتكون آية للمؤمنين » أى وليكون لكم من هذه الآية، ما يملأ قلوبكم

إيمانا بالله ، ويقينا بدينه ، حيث ترون آثار لطف الله سبحانه ، وشواهد قدرته . .

قوله تعالى :

* « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً » . .

الأخرى : هى مكة . .

وقوله تعالى : « لم تقدروا عليها » صفة لمكة . .

والمعنى ، أنه إذا كان لكم فى مغانم خيبر ، وفى غلبكم عليها ـ إذا كان لكم فى ذلك آية ، فإن لكم فى أهل مكة آية أخرى ، إذ كان المشركون فى صراع طويل معكم ، وكانت الحرب بينكم وبينهم سجالاً ، وأنكم لم تقدروا أن تنالوا منهم الاستسلام لكم . . ثم هأنتم هؤلاء ترون وقد جئتموهم لغير حرب ، وفى عدد قليل ، ومع هذا فقد ذَلّوا بين أيديكم ، وطلبوا عقد هدنة معكم ، وليس ذلك إلا لأن الله سبحانه وتعالى قد أحاط بهم ، وأخذ على أيديهم ، وأوقع الرعب منكم فى قلوبهم . .

قوله تعالى :

* « ولو قاتلكم الذين كفروا لَوَلّوا الأدبار ثم لا يجدون وليّا ولا نصيراً » . .

أى أنكم أيها المؤمنون لاتقاتلون عدوكم بكثرتكم ، ولكن تقاتلونهم بإيمانكم بالله ، وتوكلكم عليه ، وإخلاص نيتكم له ، وهذا هو ضمان النصر لكم من ربكم . .

ولو أن هؤلاء المشركين ـ وهم فى عَدَدهم ، وشوكتهم ، وفى بلدهم وبين أهليهم ـ لو أن هؤلاء المشركين ، قاتلوكم يوم الحديبية ، لنصركم الله عليهم ، ولولّوا الأدبار منهزمين ، ثم لا يكون لهم ولىّ يقوم لهم ، ولا ناصر يفزع لنصرهم ..

وهذا حكم مطلق على ما سيكون بين المسلمين والمشركين ، منذ نزول هذه الآية .. فإن أى لقاء سيلتقى فيه المسلمون بالمشركين ، لن يكون للمشركين فيه إلا الهزيمة ، التى لا يُقيلهم منها ولىٌّ ولا نصير ..

وقد تحقق هذا ، فلم يكن بين المسلمين والمشركين بعد الحديبية حرب ، وإنما كان من المشركين استسلام ، وإسلام ، فى يوم الفتح ..

قوله تعالى :

* « سنةَ الله التى قد خلت من قبلُ ولن تجد لسنة الله تبديلا » ..

« سنة » منصوب بفعل محذوف ، وتقديره ، لقد سنّ الله سبحانه وتعالى بهؤلاء المشركين سنة الله التى قد خلت من قبل ، وهى سنة الله فيما بين أولياء الله وأولياء الشيطان ، بين أهل الحق ، وأهل الباطل .. وسنة الله : هى حكمه ، وقضاؤه ..

وحكم الله وقضاؤه ، هو نصرة الحق وخذلان الباطل ، كما يقول سبحانه :

« بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق » ـ ويقول تعالى: « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى .. إن الله قوىٌّ عزيز .. » (٢١ : المجادلة)

قوله تعالى :

* « وهو الذى كفّ أيديَهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا » ..

يُجمع المفسرون على أن ماتشير إليه الآية من كف أيدى المشركين عن المؤمنين ، وكف أيدى المؤمنين عن المشركين ـ إنما هو عن صلح الحديبية . .

ولكن قوله تعالى : « ببطن مكة » يردّ هذا القول .. فالمؤمنون لم يدخلوا مكة عام الحديبية ، بل ولم يظفروا بالمشركين الظفر الذى يمكّن لهم منهم . .

والذى نراه ـ والله أعلم ـ أن هذا إنما كان يومَ الفتح ، حيث دخل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة ، على رأس جيش من عشرة آلاف مقاتل ، وأن قريشاً قد فزعت لهذا ، واستسلمت من غير قتال ، طالبةَ الأمان من رسول الله ، بعد أن مكّن الله له من رقابهم ، فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه قولته الخالدة : « ماتظنون أنى فاعل بكم » ؟ ـ إنهم الآن بين يديه ، وفى متناول سيوف المسلمين ، وإن النبي قد مَلَكهم مِلكا مطلقاً ، يتصرف فيهم كيف يشاء . .

ولم يجد القوم جواباً يجيبون به على هذا التحدّى ، الذى يستثير الحمية ، ولكن لم يكن للقوم بعد مارأوا من جيش المسلمين ـ لم يكن عندهم بقية من حمية تُستثار ، فكان جوابهم للنبي ، هذا الجواب الذليل المستسلم :

« أخ كريم ! وابن أخ كريم !! » . .

ألاَ لقد ذلّت جباه المتكبرين ، ورَغِمت أنوف المتعالين !!

وقد كان رد النبيّ الكريم ، سمحاً كريماً ، كما هو شأنه فى جميع أحواله .. فقال صلوات الله وسلامه عليه : « أذهبوا فأنتم الطلقاء » !!

لقد أطلقهم بتلك الكلمة الطيبة الكريمة من الأسر ، وحفظ عليهم دماءهم التى كانت مهدرة !

ولا يُعترض على هذا الرأى الذى ذهبنا إليه ، بأن الآية تحدّث عن أمر

وقع فعلا ، وذلك فى قوله تعالى : « كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم .. » بلفظ الماضى ..

والجواب على هذا من وجهين :

أولهما : أن الإخبار عن المستقبل بالفعل الماضى ، إشارة إلى تحققه ، وأنه إن لم يكن قد وقع ، فهو واقع لاشك فيه ..

وثانيهما : أنه قد تكون هذه الآية نزلت بعد فتح مكة ، ثم أخذت مكانَها من السورة ، لتكون إلى جانب أحداث الحديبية التى تلقّى فيها الرسول الكريم قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » .. فهذا الفتح يطوى فى كيانه فتحَ مكة ، وإن كان فتحها لم يقع بعد ..

قوله تعالى :

* « هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدىَ معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبَكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما » ..

هو بيان للسبب الذى من أجله أخذ سبحانه المشركين بالخزى والخذلان ، وسنّ بهم سنته ــ سبحانه ــ فى الذين خلوْا من قبل .. ذلك لأنهم كفروا بالله ورسوله ، وصدّوا النبى والمسلمين عن المسجد الحرام ، ومنعوا الهدْىَ أن يبلغ محِلّه من البيت العتيق ..

والخطاب للنبى صلوات الله وسلامه عليه ، وللمؤمنين معه ، الذين واجههم المشركون يوم الفتح ..

وفى هذا إلفات للنبى وأصحابه إلى حالهم التى كانوا عليها يوم الحديبية وإلى حالهم اليوم من القوة ، والتمكن من قريش ، وأن سيف الباطل الذى كانت

تضرب به قريش فى وجوه المسلمين ، وتلجئهم إلى الفِرار من ديارهم ـ هذا السيف قد تحطم على صخرة الحق ، وخَذَلَ أهلَه فى الموقف الحاسم ، فى ساعة العسرة ..

لقد استدار الزمن ، وأصبح الضعفاء الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ـ أصبحوا أصحاب هذا البلد الذى أُخرجوا منه ، وصار إلى أيديهم أن يُخرجوا أو يَقتلوا أولئك الظالمين الضالين الذين أخرجوهم بالأمس من ديارهم . .

هذا بعض ماوقع فى مشاعر كل من المسلمين والمشركين من تلك المواجهة التى كانت بينهما يوم الفتح ، كلٌّ منهما يراجع مسيرةَ الأحداث التى جرت بينهما ، حتى إذا انتهوا إلى يوم الفتح هذا وجدوا مفارقات بعيدة بين بدء الأحداث ونهايتها ، حيث انقلبت الموازين ، وتبدلت الأوضاع ، وأصبح الذين كانوا لا يملكون شيئاً ، يملكون كل شىء ، وصار الذين كانوا يملكون كل شىء لا يملكون شيئاً .. و « إن فى ذلك لعبرة لأولى الألباب » ..

قوله تعالى : « والهدىَ معكوفاً » هو معطوف على ضمير النصب فى قوله تعالى : « وصدوكم عن المسجد الحرام » أى وصدوكم وأنتم محرمون عن أن أن تطوفوا بالبيت الحرام ، وصدوا الهدىَ وهو معكوف عن أن يبلغ محله ..

والهدْىُ ، ما يُهدى للبيت الحرام من بهيمة الأنعام ..

والمعكوف : أى المحبوس على هذه الغاية ، والموقوف عليها ، فلا يتصرف فيه ببيع ولا بغيره ..

قوله تعالى : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم » ..

جواب لولا محذوف ، دل عليه المقام ، وهو مقام تهديد للمشركين ، وتذكير لهم ، بجناياتهم الشنيعة على الدعوة الإسلامية ، وعلى المسلمين .. والتقدير : لولا هؤلاء الرجال المؤمنون والنساء المؤمنات الذين يعيشون مع هؤلاء المشركين ولم يعلنوا إيمانهم ، وأنهم قد يؤخذون بما يؤخذ به المشركون لو وقعت الحرب بينهم وبين المسلمين ـ لولا هذا لسلطكم الله عليهم يوم الفتح ، وهم تحت أيديكم ، ولذهبت سيوفكم بكثير من تلك الرءوس التي كانت تكيد للإسلام وتسوق الأذى والضر إلى أهله ..

وقوله تعالى : « لم تعلموهم » هو صفة للمؤمنين والمؤمنات ، أى أن هؤلاء الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات ، كانوا يُسِرّون إيمانهم ، ويُمسكون به في قلوبهم .. خوفاً من أهلهم المشركين ـ فهم في نظر المؤمنين مشركون ، يؤخذون بما يؤخذ به المشركون ، لأنهم لا يعلمون عن إيمانهم شيئاً ..

وقوله تعالى : « فتصيبكم منهم معرة بغير علم » ..

المعرّة : المذمة ، والعائبة التي تعيب الإنسان وتنقصه ..

وفى إسناد المعرة إلى هؤلاء المؤمنين والمؤمنات الذين يُسرون إيمانهم ، فى قوله تعالى : « فتصيبكم منهم معرة » ـ فى هذا إشارة إلى أن الذى يتوجه إلى المسلمين باللوم والعيب هم أولئك المؤمنون والمؤمنات أنفسهم ، لأنهم هم الذين يعلمون أنهم مؤمنون ، وأنهم قتلوا بيد إخوانهم المؤمنين ، الذين خفى عليهم إيمانهم ..

وقوله تعالى : « ليدخل الله فى رحمته من يشاء » ـ هو تعليل لمفهوم المخالفة من جواب الشرط المحذوف ، أى لولا رجال مؤمنون ، ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم ، فتصيبكم منهم معرة بغير علم ـ لولا هذا لسلطكم الله على المشركين ، ولكنه سبحانه لم يسلطكم عليهم ، ليدفع عنكم المعرّة ، بما تصيبون

من المؤمنين والمؤمنات ، وليدخل فى رحمته من يشاء .. فإن الله سبحانه فى هؤلاء المشركين من يريدهم لدينه ، ويُدخلهم فى رحمته ، ولهذا مدّ لهم فى الأجل ، ودفع عنهم أيدى المسلمين من أن تقضى عليهم ، وذلك ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وليدخل فى رحمته من يشاء من هؤلاء المشركين ..

وقوله تعالى : « لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما » أى لو انفصل هؤلاء المؤمنون والمؤمنات الذين أرادهم الله للإيمان ـ لو انفصل هؤلاء وهؤلاء عن كيان المشركين ، الذين لن يؤمنوا بالله أبداً ، لو انفصلوا عنهـم لعذب الله سبحانه الذين كفروا منهم عذاباً أليما ، بأن يسلطكم عليهم أو يرسل عليهم عذابا من عنده ، ولـكن الله سبحانه ـ حمايةً للمؤمنين والمؤمنات ودفعاً لما يلحقهم من مكروه إذا نزل العـذاب بهؤلاء المشركين الذين يخالطونهم ويمتزجون بهم ـ لم يُنزل عذابه فى الدنيا بهؤلاء المشركين الذين لن يؤمنوا أبداً ، وأنظرهم إلى يوم الدين . .

وهكذا أكرم الله المؤمنين ، فلم يفجعهم فى أهليهم من المشركين ، ولم يُرهم مايسوءهم فيهم ، وهكذا يصنع الله لأوليائه . .

قوله تعالى :

* « إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليما » . .

الحمية الغيرة ، والأنفة ، وهى التى تحتمى بها الحرمات . . وهى محمودة إذا كانت فى جانب الحق ، والعدل والإحسان ، ومذمومة إذا كانت فى جانب الهوى والسّفه ، والضلال . .

وحمية الجاهلية ، حمية استعلاء ، وتطاول بغير حق ، لا يضبطها عقل ، ولا تسوسها حكمة . .

أى أنه على حين امتلأت قلوب المشركين الذين كفروا من حمية الجاهلية ، وغذّوها بهذه المشاعر الكاذبة الفاسدة ، بما كان لهم من قوة ظاهرة على المسلمين ـ فإن الله سبحانه وتعالى حين منح المسلمين القوة ، ومكن لهم من هؤلاء الكافرين ، حرس هذه القوة من أن تكون أداة بغى وعدوان ، فأنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين ، ونزع ما فى قلوبهم من حفيظة على المشركين وألزمهم كلمة التقوى ، وهى الكلمة التى عفا الرسول صلوات الله وسلامه عليه بها عن المشركين ، حين قال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ـ فهذه الكلمة التى لا يقولهـا فى هذا المقام إلا رسول الله ، وهو أحق بها وأهلها من دون الناس جميعاً ، والمؤمنون هم على هذا المورد الطيب الذى وَرَدَه الرسول ، فهم بهديه مهتدون ، وعلى سنته قائمون . .

الآيات : (٢٧ — ٢٩)

* « لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّؤْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ

شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لَتَدْخُلُنَّ المسجِدَ الحرامَ إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصّرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعَل من دون ذلك فتحاً قريباً » . .

هو ردٌّ من الله سبحانه وتعالى على ماوقع فى نفوس بعض المسلمين من مشاعر القلق، والضيق ، والاتهام ، لما فاتهم من دخول المسجد الحرام يوم الحديبية ، وقد جاءوا إليه وهم على يقين بأنهم داخلوه ، تصديقاً للرؤيا التى رآها النبيّ وأخبرهم بها . .

فقوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق » تصديق لرؤيا الرسول الكريم ، وأنها رؤيا من الله ، وأنها الصدق المطلق ، والواقع المحقق ، وإن كان تأويلها لم يجىء بعد . .

وقوله تعالى : « لتدخلُنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين » ـ هو جواب لقسم محذوف ، وهذا القسم هو لتأكيد هذا الخبر الذى يخبر الله سبحانه وتعالى به المؤمنين ، وأنهم داخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ، لاتعترضهم قريش ، ولا يقع منها مايسوؤهم ، وأنهم سيقضون عمرتهم ، ويحلّقون ويقصرون ، إيذاناً بالحِلّ من العمرة وإحرامها . .

والتحليق ، هو أن يحاق بعضهم لبعضٍ شعورهم .

والتقصير ، هو قصّ الشعر . . ولو بضع شعرات منه .

وقوله تعالى : « فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » ـ أى أن الله سبحانه وتعالى لم يقدِّر للنبى والمسلمين دخولَ المسجد الحرام هذا العام ، لأمرٍ أراده ، وحكمة لايعلمها إلا هو ، فصَرَف المسلمين عن دخول مكة هذا العام ، وجعل بين صرفهم عنها ، ودخولهم إياها الذى وُعدوا به ـ جعل بين هذا الوقت وذلك ، فتحاً قريباً ، هو فتح خيبر . .

فكان للمسلمين من ذلك فتحان : فتح قريب ، هو فتح خيبر ، وفتح يأتى بعده ، هو فتح مكة . .

قوله تعالى :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كلّه وكفى بالله شهيداً » أى الذى جعل من دون ذلك فتحاً قريباً ، هو الله سبحانه ، الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليكون على يديه تبليغ هذا الدين ، الذى سيجعله الله فوق كلّ دين . . وهذا وعدٌ من الله سبحانه ، وكفى بالله شهيداً على هذا الوعد الذى لن يُخلَف أبداً . .

قوله تعالى :

* « محمدٌ رسول الله والذين معه أشداء على الكفارِ رحماء بينهم تراهم ركّعًا سجّدًا يبتغون فضلا من الله ورضوانًا سيماهم فى وجوههم من أثرِ السجودِ ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعَدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً » .

بهذه الآية الكريمة تختم سورة « الفتح » .

وبهذا الفتح الذى وعد الله المؤمنين تقوم دولة المسلمين ، ويأخذ مجتمعهم مكانه فى الحياة ، ويرى الناس وجهَ الإسلام فى هذا المجتمع .

والصفة التى تغلب على هذا المجتمع ، ويُعرف بها فى الناس، أنه مجتمع شديد الغلظة على الكفار ، الذين يحادّون الله ورسوله ، فلا يكون بينه وبين الكافرين ولاء أو مودة يُجارُ فيها على دين الله ، أو يُنتقص بها حق من حقوق المسلمين .
هذا حالهم مع أعداء الله .. أما هم فيما بينهم فهم رحماء ، تفيض قلوبهم حنانًا ورحمة ومودة ، تجمعهم أخوة بارّة فى الله ، وفى دين الله . .

هذا ماتنطوى عليه صدورهم ، وتفيض به مشاعرهم ، نحو أعداء الله ، وأوليائه . .

أما مايراه الناس من ظاهر أمرهم، فهو اجتماعهم فى الصلاة ، وتولية وجوههم جميعًا لله . . يركعون معًا ، ويسجدون معًا . . يريدون بذلك مرضاة الله ، ويبتغون فضله وإحسانه . .

فإذا لم يرهم الرائى فى مقام الصلاة ، رأى منهم أثر هذه الصلاة ، وما يترك السجود على جباههم من آثار ، هى سمة المسلم المصلّى ، وهى الشارة التى تشير إليه ، وإلى الدين الذى يدين به . .

وهذا يعنى أن الصلاة هى شعار المسلم ، وأن من لا يؤديها لاتظهر عليه سمة الإسلام ، ومن هنا كانت الصلاة الركن الأول الذى يقوم عليه الإسلام بعد الإيمان بالله . . وفى الحديث : « بين الرجُل وبين الكفر ترك الصلاة » . . وفى الحديث أيضا : « العهد بيننا وبينكم الصلاة فمن تركها فقد كفر » . . يريد تركها عامدًا منكرًا .

وقوله تعالى : « ذلك مثلهم فى التوراة » أى هذه الصفة هى صفة المسلمين التى وصفهم الله بها فى التوراة ..

والإشارة : إما أن تكون إلى جميع هذه الأوصاف ، وإما أن تكون إشارة إلى قوله تعالى : « سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » ..

وقوله تعالى : « ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما » ..

الشطء : أول مايبدو من النبات على ظاهر الأرض ، وشاطىء الشىء ، حافته .. أى ومثل المؤمنين الذين مثّلهم الله سبحانه وتعالى به ، فى الأنجيل ، هو الزرع ، يبدأ بذرة هامدة فى الثرى ، فإذا أصابها الماء ، اهتز كيانها ، ودبّ دبيب الحياة فيها ، وأخذت بهذا الرصيد القليل من الحياة التى سرت فيها — أخذت تحاول جاهدة أن تصافح النور ، وأن تلتمس لها طريقاً إليه ، من بين هذا الظلام المطبق عليها ، ثم سرعان ما يطلع لها لسان تتحسس به الطريق إلى النور ، وتتذوق به نسمة الحياة ، وإذ شىء أخضر صغير ، لايكاد يرى ، يطل على الحياة فى استحياء ثم لا يلبث أن يؤازره آخر مثله ، ثم ثالث ورابع .. وهذا هو الشط ، وجمعه شُطآن ..

وشيئاً فشيئاً تنمو هذه الشطآن ، وتعلو ، ويتخلّق لها ساق تقوم عليه ، وأوراق تكسو هذا الساق ، وفروع وأغصان ، وأزهار وثمار ، حتى يكون من ذلك نخلة باسقة ، أو دوحة عظيمة ! .

وهكذا المسلمون، بدءوا بذوراً كهذه البذور التى طال حبسها عن الأرض ، حتى إذا امتدت إليها يد الزارع فغرسها فى الأرض ، وساق إليها الماء ،

وتعهدها بالرعاية والرى ، طـالت ، واندلحت ، وأزهرت ، وأثمرت ، وملأت وجه الأرض المغبرّة ، حسناً ، وجمالا ، وخيراً ..

وشُبه المسلمون بالزرع لأنهم كثير ، ولأن كل واحد منهم له ذاتيته إلى جانب هذه الشجيرات الـكبيرة التى يضمها الحقل ..

وقوله تعالى : « ليغيظ بهم الـكفار » ـ هو إشارة إلى هذا الزرع الطيب ، الذى يملأ العين سروراً ورضاً ، وهو فى الوقت نفسه يملأ قلوب الـكافرين حسرة وحسداً ..

وقوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهـم مغفرة وأجراً عظيما » إشـــارة إلى أن وصف المؤمنين لا يتم إلا بالعمل الصالح وأن الذين لهم المغفرة والأجر العظيم من الله ، هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لا المؤمنون على إطلاقهم .. وهـذا هو السر فى قوله تعالى : « منهم » الذى يعزل الذين آمنوا وعـملوا الصالحات ، عن الذين آمنوا ولم يعملوا الصالحات .. فهؤلاء غير أولئك ..

« هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون »

* * *

٤٩ - سورة الحجرات

نزولها : مدنية

عدد آياتها : ثمانى عشرة آية ..

عدد كلماتها : ثلاثمائة وأربعون كلمة .

عدد حروفها : ألف وأربعمائة وأربع وسبعون حرفاً .

مناسبتها للسورة قبلها

كان صدّ المسلمين عن البيت الحرام ،وقد جاء بهم النبى صلوات الله وسلامه عليه إلى مكة معتمراً ، واعداً إياهم أن يدخلوا المسجد الحرام ، وأن يحلقوا ويقصروا ، وقد كان النبى رأى فى منامه رؤيا تأولها هـذا التأويل وأخبر أصحابه بها ـ كان هذا الصد داعية إلى إثارة هَياج فى نفوس المسلمين ، وإلى جريان كثير من اللفظ على ألسنتهم ـــ فجاءت سورة الحجرات ، بعد أن رأوا من آيات الله ما رأوا ، وبعد أن صَدَقت رؤيا الرسول الكريم ، ودخلوا المسجد الحرام آمنين ومحلقين ـ جاءت تحمل إليهم هذا الأدب الإلهى الذى يؤدبهم الله سبحانه وتعالى به ، ويقيمهم على طريقه، مع النبى الكريم ، وفى الإيمان به إيمانَ يقين ، لا يخالطه شىء من ريبة أو شك ، كما سنرى ذلك فيما جاء فى مطلع السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ ـــ ٥)

* « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَاتَكُمْ

فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « يأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم » :

التقديم بين يدى الله ورسوله ، هو السبق بقطع الأمر دونهما ، وبعيداً عن الحكم الذى يقرّره الله سبحانه وتعالى لهم فى كتابه ، وسنة رسوله ..

وفى الآية الكريمة عتاب للمؤمنين ، الذى لَغَطُوا بما لغطوا به فى صلح الحديبية ، وهو فى الوقت نفسه تأديب عام لهم ، وإقامتهم بالمكان الذى ينبغى أن يكونوا فيه من أمر الله ورسوله .. فإذا قضى الله ورسوله أمراً،لم يكن لمؤمن بالله ورسوله خيار فى هذا الأمر .. فإما للتابعة فى ولاء ورضاً وغبطة ، وإما حَلٌّ لعقد الإيمان الذى عقدوه مع الله ورسوله .. والله سبحانه وتعالى يقول : «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ، إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرة من أمرهم ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً ».

فقوله تعالى : « لا تقدموا بين يدى الله ورسوله » أى لا يكن لكم أمر

تنفردون به دون أمر الله ورسوله ، فلا تقطعوا أيها المؤمنون أمراً يقوم على خلاف ما أمر به الله ورسوله .

وقوله تعالى : « واتقوا الله » أى استقيموا على تقوى الله ، بطاعته وطاعة رسوله ، وامتثال أمره ، ومتابعة رسوله ..

وقوله تعالى : « إن الله سميع عليم » أى يسمع ماتقولون ، ويعلم مالاتقولون مما تخفونه فى صدوركم .. فيجازيكم بما كان منكم من حَسَن أو سوء ..

قوله تعالى :

* « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون » .

هو من تمام أدب المؤمنين مع رسول الله ، الذى ينبغى أن يكون صوته أعلى الأصوات ، وكلمته رائدةُ الكلمات وهاديتها .. ورفع الصوت بين يدى النبى ، فيه استخفاف ، وفيه تجرد من مشاعر الهيبة والإكبار ، وجفاف من عواطف الحب والولاء .. فالكلمات التى تصدر فى مقام الجلال والإكبار ، كلمات ضامرة ضاوية ، أمام مايروعها من هيبة وجلال .. والكلمات التى تخرج من أفواه المحبين كلمات مستحيية ضارعة بين يدى من يُحبّون ..

والمسلمون فى حضرة النبى الكريم ، يشهدون أروع آيات العظمة والجلال، وحديثهم إليه ، إنما هو حديث يفيض من قلوب مَلَكها الحب ، وخالط شَغَافها.. وإنه لايجتمع مع هذا أن يرتفع صوت من مؤمن فى حضرة الرسول ، فإن ارتفع فلن يكون إلا دون صوت النبى ..

وقوله تعالى : « ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » .

المراد بالقول هنا ، ما يكون بين الأصدقاء والإخوان من معاتبات تنحلّ

فيها عُقَدُ ألسنتهم ، ويجهرون فيها بما يتحرجون من الجهر به فى غير خلواتهم مع من يكونون على شاكلتهم ، وفى مستوى مكانتهم بين الناس . .

فالجهر بمثل هذا القول ، وإن لم يرتفع به الصوت فوق صوت النبى ، فيه دلالة على عدم الاحتشام والحياء فى حضرة رسول الله ، الأمر الذى لا يليق أن يكون من مؤمن بالله ورسوله ، ولا يلتقى مع التوقير لرسول الله ، الذى دعا الله سبحانه المؤمنين إليه فى قوله سبحانه : « لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا » . .

وقوله تعالى : « أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » . .

حبط الأعمال : إبطالها ، وحرمان أصحابها الثمرة المرجوة منها . .

والسؤال هنا : كيف تحبط أعمالهم بعملٍ يعملونه ولا يشعرون بالآثار المترتبة عليه ؟ وهل يؤاخذ الإنسان على ما يعمله عن غفلة وجهل ؟ .

والجواب على هذا — والله أعلم — أن هذا تحذير من أن يكون من المؤمنين شىء من هذا المنهىِّ عنه ، مستقبلا ، بعد أن نهاهم الله سبحانه وتعالى عنه . . فالمؤاخذة على ما نُهوا عنه ، إنما تبدأ من بعد تلقيهم هذا النهى . . ولأن مثل رفع الصوت ، والجهر بالقول ، مما قد يكون من بعض الناس طبيعة لازمة ، أو عادة متحكمة ، فقد جاء هذا التحذير ليتنبه المؤمنون وهم بين يدى النبى ، وليحرسوا أنفسهم من أن ينزلقوا ، تحت حكم الطبيعة أو العادة ، إلى هذا المنزلَق الذى تضيع فيه أعمالهم الطيبة من غير أن يشعروا أنهم يأتون منكراً ، أو يقصدون إساءة أدب فى حضرة الرسول ! .

وهذا ، وإن كان من غير قصد ، هو مزلق إلى ما يكون عن قصد ، ووعى ، بعد أن يصبح ذلك عادة مألوفة . .

قوله تعالى :

* « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم » . .

هو بيان لما لهذا الأدب الذى يأخذ به المسلمون أنفسهم بين يدى رسول الله ، من ثواب عظيم ، وأجر كبير عند الله . .

وقوله تعالى : « يغضون أصواتهم عند رسول الله » أى يخفضونها حياء وإجلالا . . وفى التعبير عن خفض الصوت بالغض الذى هو من شأن النظر ، إذ يقال غضّ فلان بصره ولا يقال غض صوته — فى هذا التعبير إعجاز من إعجاز النظم القرآنى ، الذى تحمله كلمات الله متحديةً الجنّ والإنس جميعاً . . ذلك أن خفض الصوت إنما يكون عن مشاعر الحياء ، التى من شأنها أن تنكسر معها حدة البصر ، فلا يستطيع المرء أن يملأ عينيه ممن يهابه ، ويُجلّه ، ويوقره . . فهو إذا نظر غَضّ بصره ، وإن هذا الغض من البصر يستولى على مخارج الصوت أيضاً ، فيحبس الصوت عن أن ينطلق إلى غاياته ، بل يكسر حِدته ، كما كسرّ حدة النظر . .

ففى قوله تعالى : « يغضون أصواتهم » إشارة ضمنية إلى غض البصر حياء ، وأن سلطان الحياء هو المتحكم فى هذا المقام . وهكذا يتسلط الغضّ على الأبصار ، والأفواه جميعًا .

وقوله تعالى : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » إشارة إلى أن قلوب هؤلاء المؤمنين الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله قد أعدها الله سبحانه وتعالى وأرادها لتكون مستقراً ومستودعاً للتقوى ، وهذا هو السر فى تعدية الفعل « امتحن » باللام ، فى قوله تعالى « للتقوى » مع أن الأصل فى فعل الامتحان أن يتعدى بالباء ، فيقال : « امتحنه بكذا ، لا لكذا » .

وفى هذا ما يشير إلى أن تلك القلوب التى يغضّ أصحابها أبصارهم عند رسول الله ، قد امتُحنت فعلاً بالتقوى ، وقد نجحت فى هذا الامتحان ، فأصبحت قابلة للتقوى ، متجاوبة معها . . فقد يُمتحن الإنسان بالشىء ، ولا يقبله ، ولا يتجاوب معه .. أما إذا امتحن للشىء ، واختِير له ، فإن ذلك يعنى أنه أهلٌ لهذا الامتحان ، وخاصة إذا كان المتخيِّر له ، هو الحكيم العليم ، رب العالمين ..

ولهذا ، فإن قوله تعالى : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » هو خبر لقوله تعالى : « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله » بمعنى أن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله هم من أهل التقوى .. فهذا هو حكمهم عند الله ..

وقوله تعالى : « لهم مغفرة وأجر عظيم » خبر ثان لقوله تعالى : « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله » بمعنى أنهم أهل التقوى ، وأنهم مجزيّون من الله سبحانه وتعالى بالمغفرة والأجر العظيم ..

وفى الآيات الكريمة ما يكشف عن جانب عظيم من أخلاقيات الإسلام ، وآدابه العالية ، فيما يُعرف اليوم بالدبلوماسية السياسية ، التى تَفْرِض على الناس مراسم من الأدب فى حضرة الملوك ، والرؤساء ، والقادة ، والزعماء ، وأصحاب السيادة والسلطان ..

ولكن شتان بين أدب الإسلام ، الذى ينبع من مشاعر صادقة ، ويفيض من قلوب عامرة بالحب ، خفّاقة بالولاء ، وبين هذا الأدب التمثيلى المصطنع ، الذى لا يتجاوز الكلمات التى ترددها الألسنة ، والحركات التى تصطنعها الأجسام !! إنه أدب أشبه بأدب القرود بين يدى مؤدبها ! .

وألاَ فلْتخضع الرقاب ، وتنخفض الجباه أمام هذا الأدب الإسلامى ، ولتَخرْس الألسنة التى ترمى بالتهم فى وجه هذا الدين الذى جمع الفضائل كلها ، والذى يقود ركب الحضارة فى أعلى مستوياتها ، وأروع مظاهرها . . إنه ليس دينَ بداوة جافية غليظة ، كما يتخرص المتخرصون ، بل إنه دينُ للدنية الخالصة من شوائب الزيف ، وطلاء الخداع !! .

قوله تعالى :

* « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » - هو إلتفات إلى النبى الكريم [بهذا العُذر الذى يقدمه الله سبحانه وتعالى إلى الرسول العظيم ، عن هذا الجفاء ، وتلك الغلظة ، مما يغلب على أهل البادية ، الذين يجيئون إلى النبى ، فينادونه من وراء الحجرات التى كان يتخذها النبىّ سكناً له مع أهله . . فهؤلاء الأعراب لم يتأدبوا بأدب الإسلام ، بعد ، ولم تظهر عليهم آثاره ، وإنهم لجديرون بأن يقابلوا من النبى بالتسامح ، وأن يُعذروا لهذا الجفاء البادى منهم . .

قوله تعالى :

* « ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم » هو إلفات إلى هؤلاء الأعراب ، وتوجيه حكيم رفيق بهم ، إلى هذا الأدب الذى لم يألفوه بينهم . .

وفى قوله تعالى : « والله غفور رحيم » — تطمين لهؤلاء الأعراب الذين قد يقع منهم هذا الفعل ، وأنهم فى سعة من رحمة الله ومغفرته ، إذا هم أخذوا بأدب القرآن ، ونزعوا عما غلبتهم عليه طبيعتهم . . كما أنه دعوة إلى النبى الكريم ، أن يغفر ويرحم ، فقد غَفَر الله ورحم ! . .

الآيات : (٦ — ١٣)

* « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) »

التفسير :

فى هذه الآية استكمال للأدب الذى تُحكم به الروابط التى ينبغى أن تقوم بين أفراد المجتمع الإسلامى ، بعد أن بيّنت الآيات السابقة الأدب الذى ينبغى أن يتأدبَ به المسلمون فى حضرة النبى الكريم . .

وقوله تعالى :

* « يـأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » . .

النبأ : الخبر ذو الشأن ، وأصله من النبوّ وهو الظهور ، والخروج عن المألوف . .

قيل إن هذه الآية نزلت فى شأن الوليد بن عقبة ، وقد بعثه النبىّ إلى بنى المصطلق ، ليجمع مال الصدقة منهم . . فلما أشرف عليهم . . وكانوا قد علموا بقدم مبعوث رسول الله إليهم خرجوا للقائه ، ظنّ أنّهم إنما يريدون به شرّاً ، فقفل راجعاً ، وأخبر النبىّ والمسلمين أن القوم قد منعوا الزكاة ، وأنهم همّوا بقتله ، فأعدّ النبىّ العدة لقتالهم ، وقبل أن يسير النبىّ بالمسلمين إليهم جاءه وفدهم يكذّب ما كان من مقولة الوليد بن عقبة فيهم ، وأنهم على الإسلام ، يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة . . فنزلت هذه الآية مصدقةً لهم . .

وأيّا كان سبب النزول ، فإن الآية عامة مطلقة ، تحذّر المسلمين من الأنباء الكاذبة التى يُرجف بها المرجفون ، ليشيعوا فى المسلمين قالة السوء ، وليوغروا بها صدورهم على أهل الإيمان والسلامة فيهم ، وأن هذا من شأنه لو وقع موقع

القبول والتسليم من المؤمنين ، من غير تبصر أو تمحيص ، لأفسد عليهم أمرهم ، ولنزع الثقة والطمأنينة من بينهم . .

فما أكثر ما كان يُلقى به المنافقون ، واليهود ، فى محيط المسلمين من أكاذيب وأراجيف وشائعات ، الأمر الذى يقضى على المسلمين بأن يمحصوا هذه الأخبار ، وألاّ يأخذوها مأخذ القبول والتسليم دون نظر فاحص لها . .

وفى قوله تعالى : « فاسق » . . إشارة إلى أن المقولة إنما ينظر فيها إلى صاحبها الذى وردت منه ، فإن كان من أهل الإيمان والثقة استُمع لقوله ، وأخذ به ، وإن كان ممن يُتهَم ، استُمع إليه ووضع قوله موضع التمحيص ، فلا يحكم على قوله بالردّ ابتداء ، فقد يكون فى قوله صدق ، أو شىء من الصدق ينتفع به المسلمون . .

وقوله تعالى : « أن تصيبوا قوماً بجهالة » هو بيان . . للعلة التى من أجلها كان الأمر بالتبين والتثبت لِما يجىء للمسلمين من أنباء يحملها قوم لم يُعرفوا فى المسلمين بالصدق ، ووثاقة الإيمان . .

وقوله تعالى : « بجهالة » إلفات للمسلمين إلى ألاّ يقيموا أمراً من أمورهم على جهلٍ ، وعلى عدم رؤية واضحة لهذا الأمر ، فذلك من شأنه إن أصاب مرة أن يخطىء مرات كثيرة .

وقوله تعالى : « فَتُصبحوا على ما فعلتم نادمين » أى أن الأخذ بالنبأ الوارد من فاسق قبل التثبت منه ، يعود على المسلمين بالحسرة والندم ، لأنهم وضعوا الأمر فى غير موضعه ، ورتّبوا على هذا القول الكاذب أموراً لا يمكن إصلاحها بعد أن وقع عليها ما وقع .

قوله تعالى :

* « واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون » .

هو إلفات إلى المؤمنين بأنهم مع الرسول ، فى حراسة من السماء ، وأنه قائم فيهم، يكشف ما يقع على طريقهم من خيانات الخائنين ، وأراجيف المرجفين . . ولكن الأمر سيختلف بعد وفاة النبىّ ، ويكون عليهم حينئذ أن يتدبّروا أمرهم بأنفسهم ، وأن يتثبتوا من الأخبار التى تحمل إليهم . .

وقوله تعالى : « واعلموا أن فيكم رسول الله » توجيه للمسلمين ألاّ يقدّموا بين يدى الله ورسوله ، وأن ينتظروا بالأمر غير الجلىّ الذى بين أيديهم ، حتى يبينه الرسول لهم ، فإن من الغبن والضلال معاً ، أن يتخبط المرء فى الظلام وهناك مصباح سماوىّ مضىء ، يكشف له كل خافية ، ويجلى له كل خفىّ . .

وقوله تعالى : «لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم» . . بيان لما بين النبىّ وبين المسلمين من فرق بعيد ، فى حكمه على الأمور ، وحكمهم عليها . . فالنبى ، يَرَى بنور الله ، ويهتدى بهدى الله ، فإذا قضى فى الأمر كان قضاؤه الحق ، وحكمه العدل والخير والإحسان . . أما ما يقضى به المسلمون فى أمورهم ، فهو قضاء قائم على مستوى الفهم البشرى ، الذى قد يصيب وقد يخطىء . .

ومن هنا كان على المؤمنين ـ ما دام الرسول فيهم ـ ألا يقطعوا أمراً ذا بالٍ دونه ، وألا يخرجوا عن أمرٍ يدعوهم إليه ، فإنهم إن فعلوا ، وأكرهوا الرسول على أمرٍ لم يكن موضع رضاً منه ـ لم يجنُوا من هذا الأمر إلا ما فيه إعنات لهم ، وإلاّ أصابهم منه مالا يحبون . .

والمَثلُ لهذا ما يذكره المسلمون من يوم أحد ، وقد أكرهوا النبيّ على الخروج من المدينة ، للقاء المشركين، وكان من رأيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن يتحصّن بها ، فإن دخلها عليه المشركون قاتلهم المسلمون، وقاتل معهم الصبيان والنساء ، وكانت الدور حصونًا لهم . . وقد خرج النبيّ بالمسلمين إلى أحد ، على غير رضًا ، وكان الذى حدث !

ومَثلٌ آخر ، يذكره المسلمون من يوم الحديبية ، فلو أن الرسول استجاب لما كان يراه المسلمون يومئذ من قتال المشركين ، حتى يتمكنوا من دخول مكة ، والطواف بالمسجد الحرام ـ لو أن الرسول فعل هذا وكان قتال بينهم وبين المشركين ، لسالت دماء غزيرة ، ولذهبت نفوس كريمة من المؤمنين وربما كانت الدائرة عليهم . . وهاهم أولاء يرون أن الطريق إلى البيت الحرام قد صار مفتوحا لهم من غير قتال ، وأنهم قد غنموا خيبرَ أيضًا ، إلى جانب هذا الفتح الذى لم ترق فيه دماء ، ولم تذهب فيه أرواح !

قوله تعالى : « ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون » .

أى ولكنكم أيها المسلمون لم تخالفوا رسولَ الله ،ولم تخرجوا عن أمره ، إذ قد حبّب الله سبحانه وتعالى إليكم الإيمان وزيّنه فى قلوبكم ، وبهذا الحبّ للإيمان ، والولاء لجلاله وجلاله فى نفوسكم ، كنتم على طاعة وولاء لرسول الله، لأن ذلك من ثمرات الإيمان الوثيق ، الذى تعلقت به القلوب ، وانتعشت به النفوس ، وذلك الإيمان الذى غرسه الله فى قلوبكم ، وحببه إليكم ، وزينه لكم ـ قد كرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان . . إذ لا يجتمع إيمان وكفر ، ولا يلتقى إيمان وفسوق عن أمر الله ورسوله ، وعصيان لله ورسوله . .

وقوله تعالى : « أولئك هم الراشدون » . . إشارة إلى هؤلاء المؤمنين

الذين حبب الله إليهم الإيمان ، وزينه فى قلوبهم ، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان . . فهؤلاء المؤمنون هم الراشدون ، الذين قام أمرهم على الرشد والخير والفلاح . .

وفى العدول عن الخطاب إلى ضمير الغيبة عند الإشارة إلى هؤلاء المؤمنين ـ فى هذا إلفات إليهم ، وإلى علوّ مقامهم ، وأنهم بحيث ترنو الأبصار إليهم ، وتمتد مطارح النظر نحوهم . . حتى لكأنهم ـ وهم فى مقام الحضور أجساداً ـ هم بعيدون منزلةً ومقاماً . .

قوله تعالى :

* « فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » ـ أى أن هذا الذى سكبه الله سبحانه وتعالى فى قلوب المؤمنين من حب الإيمان ، وتزيينه فى قلوبهم ، ومن كراهية الكفر ، وما يجر وراءه من فسوق وعصيان ـ هو فضل من الله ونعمة أنعم بها على عباده المؤمنين .. « والله عليم حكيم » ينزل فضله ، ويوفد روافد نعمه حيث قضت حكمته المؤاخية لعلمه ، الذى لا يخفى عليه خافية .

قوله تعالى :

* « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فآءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

كانت الآيات السابقة دستوراً فى الأدب للمسلمين مع النبى ، ثم دستوراً بين المسلمين وبين أعدائهم الذين يَدُسّون عليهم الأخبار الكاذبة ..

وفى هذه الآية وما بعدها دستور من الأخلاق ، والأدب والسياسة ، فيما بين المسلمين أنفسهم ..

فالمسلمون ، وقد فرغوا أو كادوا يفرغون من مواجهة العدو الذى كان يحيط بهم من المشركين ، واليهود ، والمنافقين ــ فإن ذلك من شأنه أن يُتيح فرصة لطبيعة العدوان فى النفس البشرية ، فإذا لم يجد المسلمون من يقاتلون من أعدائهم ، لم يَسْلمْ الأمر من أن يقع الشر بينهم هم أنفسهم ، ويقاتل بعضهم بعضاً .. فتلك هى الطبيعة الإنسانية ، والتى يمثلها قول الشاعر الجاهلى ، وهو يتحدث عن الخيل التى أعدّها قومه للغارات :

وكنّ إذا أغرن على جَناب وأعوزهن نَهْب حيث كانا
نزلن من الرّباب على حلول وضَبَّةَ إنه من حان حانا
وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا !!

ومن هنا نبه القرآن الكريم إلى حماية المسلمين من هذا الشر الذى قد يرد عليهم من ذاتِ أنفسهم ، ولم ينبه إلى عدم وقوع الشر والقتال أصلاً ، لأن ذلك مما لا تحتمله النفوس احتمالا لازماً مطلقاً ..

فالقرآن يسلّم ــ وإن كان ذلك على غير ما لا يرضاه للمؤمنين ــ يسلّم بالأمر الواقع فى الحياة ، ويفترض وقوع القتال بين المؤمنين ، ولكنه يدعو إلى إطفاء وَقْدة هذا الشر ، ويدعو المسلمين جميعاً إلى المشاركة فى إخماده ، قبل أن يتسع ، ويستغلظ .

فيقول سبحانه وتعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » .. فهاتان طائفتان من المؤمنين ، قد وقع بينهما قتال ، وهم مع هذا القتال مؤمنون ، لم يخرجهم القتال عن الإيمان ..

إنهم مؤمنون ، وإن كانوا على هذا المكروه .. وواجب المؤمنين حينئذ ،

هو أن يعملوا على إصلاح ذات البين بين الطائفتين ، وأن يُنزلوهما على مايقضى به كتابُ الله وسنة رسوله ..

وقوله تعالى : « فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » . . يشير إلى الخطوة الثانية بعد دعوة الطائفتين إلى الصلح ، وإلى النزول على حكم الله ورسوله الذى يقضى به المسلمون بينهما ـ والخطوة الثانية هى أنه إذا لم تقبل إحدى الطائفتين النزولَ على حكم الله ورسوله ، كانت باغية معتدية ، وكان على المؤمنين أن ينصروا الطائفة الأخرى ، المبغىَّ عليها ..

وقوله تعالى : « فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » . . هو بيان للخطوة الثالثة ، بعد أن ينتصر المؤمنون للطائفة المبغىِّ عليها ، وبعد أن تنزل الطائفة المعتدية على حكم الله ورسوله .. عندئذ لا يُترك الأمر هكذا ، باستسلام الفئة الباغية تحت حكم السيف .. فإن ذلك من شأنه أن يترك آثاراً من الضغينة والبغضاء ، لا ينحسم معها شر أبداً ، وإن خمد إلى حين ..

ومن هنا كانت الدعوة إلى المصالحة بين الفريقين ، وجمعهما على الإخاء والمودة ، ونزع ما فى النفوس من سخائم ، وغسل ما نجم عن هذا القتال من آثار ، ومداواةِ ما كان منها من جراح ..

وفى قوله تعالى : « فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .. إشارة إلى ما يكون قد وقع فى نفوس المسلمين الذين قاتلوا الفئة الباغية ، من بغضةٍ لها ، وكراهية لموقفها المتعنت .. الأمر الذى قد يحمل المسلمين على أن يجوروا عليها ، ويُنزلوها منزلة العقاب والانتقام . . إن ذلك من شأنه ـ وهو فى ذاته خارج على سنن الحق والعدل ـ أن يؤجج نار الحقد، والعداوة

ولا يطفىء نار الفتنة التي قام المسلمون لإطفائها . . فوجب على المسلمين أن يأخذوا الفئة الباغية بالعدل ، وأن يُقسطوا أي يَعدلوا في حكمهم عليها « إن الله يحب المقسطين » في كل حال ، مع الأولياء والأعداء على السواء .. والله سبحانه وتعالى يقول : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » (٨ : المائدة)

قوله تعالى :

* « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » ..

هو تعقيب على الآية السابقة ، وعلى ما دعت إليه المؤمنين من حسم الخلاف الذي يقع بين جماعاتهم ، ثم هو إلفات إلى أن الأخوة القائمة بين المؤمنين لا تتغير صفتها ، ولا تنقطع آثارها بتلك العوارض التي تعرض لهم في حياتهم، فإنما هي موجات من ريح عابرة ، لا تلبث أن ر ، ثم يعود إلى البحر سكونُه، وصفاؤه ، وجلاله . .

ومن جهة أخرى ، فإن الفئة الباغية ، لا يزال لها مكانها في المؤمنين ، ولا تزال لها أخوتها فيهم ، وإذن فلا يُجار عليهم لأنهم جاروا ، ولا يعتدى عليهم ، لأنهم اعتدوا ، وإنما يقبل منهم قبولهم لما قضى به المؤمنون عليهم ، ثم إن لهم بعد هذا حقهم كاملا لا يُنقص منه شيء .. فالمعتدون والمعتدَى عليهم إخوان للمؤمنين جميعاً ..

قوله تعالى :

* « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهنّ ولا تلمزُوا أنفسكم ولا

تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » . .

إن من أفتك الآفات التي تغتال مشاعر الإخاء والمودة بين المجتمعات ، استخفافُ جماعة بجماعة ، والنظر إليها نظراً ساخراً ، فإن ذلك من شأنه أن يُغرى هؤلاء المستخفّين المستهزئين بمن استخفوا بهم ، ونظروا إليهم باستصغار واستهزاء ، ثم هو من جهة أخرى يحمل الجماعة المستخفّ بها ، المستصغَرَ لشأنها ـ على أن تدافع عن نفسها ، وأن تردّ هذه السخرية ، وهذا الاستهزاء بالسخرية والاستهزاء ، ممن سخروا منهم ، وهزءوا بهم . . وهذا أول قدح لشرارة الحرب . . فإن الحرب أولها الكلام ، كما يقولون . .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن هؤلاء المستهزئين الساخرين قد يكونون أقل عند الله شأناً ، من هؤلاء الذين اتخذوهم غرضاً للهزء والسخرية . .

فلا ينبغى الانخداع بالظاهر ، ووزن الأمور عليها . . فكيف يكون الحال لو أن هؤلاء المستهزَأ بهم كانوا عند الله أفضلَ وأكرم من هؤلاء المستهزئين ؟ ألاَ يخافون أن ينتقم منهم الله لأوليائه ؟ ألا يستحون أن يستخفّوا بمن هم أثقل منهم ميزاناً ، وأكرم منهم معدناً؟ إن هذا أمر لولم يؤثمه الدين ، لأنكره العقل ، ورفضته المروءة ، وجفاه المنطق ، ولفظه العدل والإنصاف .

وفى جمع الرجال والنساء ، إشارة إلى أن هذه السخرية إنما تكون على غايتها من الشناعة والسوء ، حين تكون فى صورة جماعية ، إذ أنها تشد أعداداً كثيرة من الناس إلى هذا الشر ، وتوقعهم فى هذا البلاء .

وقوله تعالى : « ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » . .

اللّمز هو الغمز بالمعايب ، والتلويح بها . .

والتنابز بالألقاب : الترامى بها ..

ومن الآفات التى تهدد كيان المجتمع ، وتقوض بنيانه ، شيوع الاستخفاف بأنفسهم ، وعدم التحرج من ذكر بعضهم بعضاً بالمقابح والمساوئ، فهذا إنما يكون من إفرازات الجماعات المتحللة من القيم الخلقية ، التى تتبادل المنكرات كما تتبادل السلع الرخيصة فى البيع والشراء ..

ذلك أن الذى يَعيب الناس ، ويرميهم بما يسوء من الألقاب ، لايسوؤه كثيراً أن يعيبه الناس ، وأن يرجموه بكل سوء .. وهذا ـ والله أعلم ـ هو ما قصد إليه قوله تعالى : « ولا تلمزوا أنفسكم » بأيقاع الفعل عليهم ، فكأنهم إذ يلمزون غيرهم يلمزون أنفسهم ضِمْناً ..

وقوله تعالى : « بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » أى بئس الاسم الذى يُطلَق عليكم بعد أن ينزع عنكم الإيمان الذى خرجتم منه بما كان منكم من لمز لأنفسكم وتنابز بالألقاب بينكم .. فقد كنتم مؤمنين ، ثم هاأنتم أولاء أصبحتم فاسقين ، أى خارجين عن الإيمان ، بهذا اللغو الساقط من الكلام .. فبئس هذا الاسم الذى سُمّيتم به فاسقين ، بعد أن كنتم مؤمنين ..

قوله تعالى : « ومن لم يَتُبْ فأولئك هم الظالمون » ..

أى ومن لم يرجع عن هذا الترامى بكلمات السوء ، ويستقيم على ما يدعوه إليه دينه ومروءته ، من القول المعروف ، وتجنب اللغو والسَّقَطِ من الكلام ـ ومن لم يرجع عن هذا ، ثم يرضى لنفسه أن يقيم على الفسق ويهجر الإيمان ، فهو من الظالمين وللظالمين عذاب أليم ، كما يقول سبحانه : « يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليما » .. (٣١ : الإنسان)

قوله تعالى :

* « يـأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتبْ بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فـكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم » ..

الظنّ : ما يقع فى نفس الإنسان من تصورات الأمر ، من واردات خيالاته ، وأوهامه ، دون أن يكون بين يديه دليل ظاهر ، أو حجة قاطعة ..

والظنون التى تَردُ على الناس كثيرة لاتحصى ، إنها خواطر تتردد فى صدور الناس ، ويكون لها دور كبير فى تصرفاتهم ..

ولهذا جاء النهى باجتناب كثير من الظن ، لا كلّ الظن ، وهذا يعنى ألا يأخذ الإنسان بكل ما يقع له من ظنون ، بل يجب أن يكون حذِراً فى مواجهة كل ظن ، وعليه أن يمحصه كما يمحص النبأ الذى يرد عليه من فاسق .. فإن مورد الظنون متّهم ، لأنه مورد يقوم عليه هوى النفس ، ووساوس الشيطان .. وفى الحديث : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ، ولاتحسسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا . . »وفى المأثور : « الظنّ أكذب الحديث » : أى أن الأحاديث الواردة من موارد الظنون ، هى أحاديث يغلب عليها الـكذب أكثر من أى أحاديث أخرى . .

وفى قوله تعالى : « إن بعض الظن إثم » ـ إشارة إلى أن بعض الظن ، هو الذى يقع تحت حكم المنهى عنه ، لأنه إثم ، إذ كان قائماً على باطل ، وفى الحديث : « إذا حَسَدْتَ فاستغفر ، وإذا ظننتَ فلا تُحقّق ، وإذا تطيرت فأمض » . .

وقوله تعالى : « ولا تجسسوا » أى لاتتبعوا مساوىء بعضكم، ولا تكشفوا عما ستره الله من عيوبكم ..

وقوله تعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضاً » أى ولا يتحدث بعضكم عن بعض بمكروه فى غيبته ..

وقوله تعالى : « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » ..

هو تشنيع على الغيبة ، وازدراء وتنديدٌ بأهلها ، إنهم أسوأ من أخس الحيوانات موقفاً ، وأنزلهم منزلة .. إنهم يأكلون لحم إخوانهم ، والحيوانات تعاف أن يأكل الجنس لحم جنسه .. وليس هذا وحسب ، بل إنهم ليأكلون هذا اللحم ميتاً ، متعفناً ، وكثير من الحيوانات ـ كالأسود مثلا ـ تعاف أكل الميتة ، ولو ماتت جوعاً ..!!

فهذا مثل ضربه الله سبحانه وتعالى للمغتاب .. فإنه إذ يغتاب شخصاً ما ، فإنما ينهش عِرضه ، وهو غائب دون أن يملك صاحبُه أن يدفع هذه السهام التى تَفْرِى جلده ، وتنفذ إلى عظمه .. تماماً كشأنه لو كان ميتاً ، ثم جاء هذا المغتاب إلى جسده ، وأعمل فيه أسنانه ، وأكله كما تأكل الذئاب جريحها .. إنه لا يملك من أمره شيئا ..

وقوله تعالى : « فكرهتموه » .. هو تعقيب على هذا الجواب المحذوف الذى تنطق به الحال من قوله تعالى : « أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا » ؟ والجواب على هذا، جواب واحد ، لاخلاف عليه ، وهو : « لا » .. فكان التعقيب على هذا الجواب: أما هذا « فكرهتموه » .. وأما شبيهه ومثيله فما زال طعمه حلواً فى أفواهكم ، فاكرهوه كما كرهتم مثيله طبيعةً « واتقوا الله إن الله تواب رحيم » يقبل توبتكم إن أنتم نَزَعتم عن هذه المنكرات واستقمتم على طريق الإيمان ..

وفى الحديث : « يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه .. لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته . . »

قوله تعالى :

* « يـٰأيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبيرٌ »

هو تعقيب عام على هذه الأحكام وتلك الآداب ، التى كانت خطاباً للذين آمنوا ، ليرتلوها ، ويأخذوا أنفسهم بها . . وليس هذا فحسب ، بل إن عليهم أن يراعُوا هذه الأحكام وتلك الآداب مع غير المؤمنين . . مع الناس جميعاً ، من كل أمة ، ومن كل دين . . إنها أخلاق إنسانية ، يجب أن تكون طبعاً وجِبلّة فى المؤمن ، يعيش بها فى الحياة كلها ، ومع الناس جميعاً ، فلا تكون ثوباً يلبسه مع المؤمنين ، حتى إذا كان مع غير المؤمنين نزعه . . فإنه بهذا إنما ينزع كالاً خلعه الله عليه ، ويتعرّى من جلال كساه الله إياه . .

ولهذا جاء الخطاب هنا للناس جميعاً : « يـٰأيها الناس » والمستمع لهذا الخطاب ، والعامل به ، هم المؤمنون . .

ثم أعقب هذا الخطاب ، تقرير هذه الحقيقة التى ينبغى أن يعيها المؤمنون : « إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى » .. فأنتم أيها الناس ـ مؤمنين وغير مؤمنين ـ إخوة فى الإنسانية ، إذ كنتم من طينة واحدة ، ومن جرثومة واحدة : « كلكم لآدم وآدم من تراب » وأنه إذا كان للمؤمنين منزلة عند الله ، وفضل على غير المؤمنين ، فذلك رزق من رزق الله ، وإن من الخير للمؤمنين أن ينفقوا من هذا الخير على الإنسانية كلها ، وأن يكونوا الوجهَ الكريم الطيب ، الرحيم ، فيها . .

وقوله تعالى :

« وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » .

الجعل ، كما قلنا فى أكثر من موضع ، هو إضافة جديدة تدخل على أصل الشىء ، فهو من متعلقات الموجودات ، وليس له هو وجود ذاتى . .

فتوزّعُ الناس إلى شعوب وقبائل ، ليس أمراً ذاتياً ، تتغير به حقيقة الإنسانية فى الناس . . إنهم مهما اختلفوا شعوباً وأوطاناً ، فإنهم إخوةٌ قرابة ونسباً ،

وقوله تعالى : « لتعارفوا » تعايل لهذا التقسيم الذى وقع فى محيط الناس ، فكانوا شعوباً وقبائل ، وذلك ليتعارفوا ، وليكون لهم فى مجتمع الشعب أو القبيلة ، تماسك وترابط ، لأنهم فى هذا المحيط الضيق ـ نسبيًّا ـ أقدر على أن يتعارفوا ، ويتآخوا ، الأمر الذى لايقع ـ إن وقع ـ إلا باهتاً ، لايكاد يحسّ ، لو أن الإنسان كان فرداً فى الإنسانية كلها . .

فلما جعل الله سبحانه وتعالى لنا من أنفسنا أزواجاً نسكن إليها ، وأولاداً تقرُّبهم أعيننا ، وتصبّ فيهم روافد عواطفنا ـ جعل الله لنا المجتمعات التى ننتمى إليها ، والأمم التى نرتبط بالحياة معها . .

وكما أن الأسرة لاتعزلنا عن أمتنا ، ولا تقطعنا عن مجتمعنا ، كذلك ينبغى ألا تعزلنا أمتنا عن الأمم ، ولا يقطعنا مجتمعنا عن المجتمعات الأخرى . .

فالاختلاف الواقع بين الناس ، وتمايزهم شعوباً وأمماً ، هو فى الواقع سبب تعارفهم ، وداعية إلى قيام هذه الوَحَدات الحية فى كيان المجتمع الإنسانى ، للمثلة فى الشعوب والأمم . . فهذه الوحدات هى التى غذّت مشاعر العصبية القومية ، ووثقت من روابط الجماعة التى تضمها وحدة ، من وطن ، أو لغة ، أو دين ، فتعاونت ، وترابطت ، وصارت أشبه بالكيان الواحد .

وقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » هو استكمال لوجه القضية

التى عرضها القرآن الكريم فى قوله تعالى : « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » ـ فقد كان من داعية هذا الانقسام بين الجماعات الإنسانية ، وانحياز كل جماعة منها إلى موطن خاص بها ، ولسان تتخاطب به ، ودين تدين به ، وحياة اجتماعية وسياسية تعيش فيها ـ كان من داعية هذا أن تمايزت الجماعات ، وتفاوتت حظوظها فى الحياة . وكان من هذا تعالِى بعضُ الشعوب على بعض ، وتفاخرها بما جمعت بين يديها من أسباب القوة والسلطان ـ ولقد جاء قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ليصحح هذه المفاهيم الخاطئة ، التى دخلت على الناس من مظاهر التفاوت المادى والعقلى بين جماعاتهم ، وليقيم المفهوم الصحيح الذى هو ميزان التفاضل بين الناس ، إن كان ثَمّةَ تفاضل ، وهو التقوى ، فمن كان لله أتقى ، كان عند الله ـ وينبغى أن يكون كذلك عند الناس ـ أفضلَ وأكرم ، ففى مجال التقوى ينبغى أن يتنافس المتنافسون ، وعلى ميزان التقوى يجب أن تقوم منازلهم ، وتتحدد مراتبهم . .

وقوله تعالى : « إن الله عليم خبير » ـ إشارة إلى أن التقوى ـ ومحلها القلوب ـ أمر قد يخفى على الناس ، فلا يعرفون مَن التقىّ ، ولا مقداره مِن التقوى . . وإذ كان ذلك شأن الناس ، فإن الله سبحانه وتعالى : « عليم خبير » يعلم ماتخفى الضمائر ، وما تسرّ الصدور . . وفى هذا إشارة أيضاً إلى أن السخرية بالناس ولمزهم وعيبهم ،وسوء الظن بهم ـ قد يكون عن تقدير خاطىء وحساب مغلوط ، قائم على حكم الظاهر ، على حين تكون القلوب عامرة بالتقوى ، مزهرة بالخير . . ولو اطلع هؤلاء اللامزون المتنابزون بالألقاب ، على قلوب الناس ، لَتغيّرَ رأيهم فيهم . . وإذن فيجب ألا يأخذ الناس بحكم الظاهر ، وألا يحكموا على الإنسان من ظاهره وحسب . وهذا مايشير إليه

قوله تعالى : « لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن » . (١١ : الحجرات)

(الآيات : (١٤ — ١٨)

* « قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٧) إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفورٌ رحيم » .

الأعراب ، هم سكان البادية ، الذين يعيشون فى مضارب الخيام ،

ويشتغلون بالرعى ، ويتتبعون مواقع الماء والكلأ .. وقد طبعتهم هذه الحياة المتبدّية ، على الجفاء والغلظة ، ومن هنا لم يجد الإسلام طريقه إليهم إلاّ وسَطَ هذه الأحراش النابتة فى صدورهم ، من النِّفار والوحشة .. وفى هذا يقول الله تعالى : « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدرُ ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » (٩٧ : التوبة) .. وفى المأثور : « من بَدَا جَفَا » ..

وقوله تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان فى قلوبكم » .. هو تصحيح لما يفهمه الأعراب من الإيمان ، ومن حقائقه التى ضُمّ عليها ، فهو ليس كلمةً تقال ، وإنما هو عقيدة ، وعمل يقوم فى ظل هذه العقيدة وهدْيها .. فقول الأعراب « آمنا » بمجرد تلفظهم بشهادة « أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » هو قول غير صحيح .. إن هذا إسلامٌ لا إيمان .. وهم بالتلفظ بالشهادة ، وإقرارهم بالإسلام ، إنما يدخلون فى المسلمين ، وتجرى عليهم أحكامهم ، وتُعصم بهذا دماؤهم ، وأموالهم ، كما فى الحديث الشريف : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإن قالوها عصموا منّى دماءهم وأموالهم ، وحسابهم على الله » ..

فقوله تعالى : « قل لم تؤمنوا » هو ردّ على قول الأعراب آمنا ..

وقوله تعالى : « ولكن قولوا أسلمنا » هو بيان للقول الحق الذى يقال فى هذا المقام .. فَهُمْ مسلمون ، غير مؤمنين ..

وقوله تعالى : « ولمّا يدخل الإيمان فى قلوبكم » هو بيان العلة التى من أجلها لم يكن الأعراب مؤمنين ، بل كانوا مجرد مسلمين .. لأن الإيمان لم يدخل فى قلوبهم بعد ، وأنه ما زال مجردَ كلمة تجرى على ألسنتهم ..

وقوله تعالى: « وإن تطيعوا الله ورسوله لا يَلِتْكم من أعمالكم شيئاً »
لا يلتكم: أى لا ينقصكم، ولا يبخسكم حقكم..

وفى هذا دعوة إلى الأعراب أن ينتقلوا من الإسلام إلى الإيمان، وأن يجعلوا هذه الكلمات التى دخلوا بها فى الإسلام غرساً طيباً يغرسونه فى قلوبهم، ومِشْعلا هادياً يقودهم إلى طريق الخير والإحسان، آخذين بما يأمرهم به الله ورسوله، فإن هم فعلوا كانوا فى المؤمنين حقاً، وكان لهم كل ما للمؤمنين عند الله من رحمة ورضوان.. وإن صفة « الأعراب » التى وصفوا بها، لا أثر لها فى أعمالهم، وإن كان لها أثرها فى تأبّيهم على الإيمان، وفتور خَطْوِهم إليه، وتأخرهم عن اللحاق بركب المؤمنين.. ومع هذا فإنهم فى أى وقت يدخلون فيه إلى الإيمان دخولا صحيحاً، ويستقيمون على أوامر الله ونواهيه ـ يلحقون فوراً بالمؤمنين، ويُجْزَوْن بأعمالهم جزاء من سبقوهم إلى الإيمان.. « والله غفور رحيم » يتجاوز لهم عن هذا الجفاء الذى كان بينهم وبين الإيمان..

قوله تعالى:

* « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ».

هذا هو الإيمان الذى فات الأعراب أن يحصّلوه، وتلك حقيقة المؤمنين التى لم يحققها الأعراب بعدُ بإسلامهم..

فالمؤمنون، هم الذين آمنوا بالله ورسوله؛ فنزل هذا الإيمان فى قلوبهم منزلةَ اليقين، لا يزحزحهم عنه أى عارض من عوارض الحياة، ولا يغيّر وجهه فى قلوبهم ما يلقاهم على طريق الحياة من بأساء وضراء، ثقةً منهم بالله، وركوناً إليه، ورضاء بقضائه، وصبراً لحكمه.. « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله

ورسوله ثم لم يرتابوا » . . هذا هو الإيمان فى صميمه . . أمّا الإيمان الذى يهتزّ كيانه فى قلب الإنسان لأى عارض ، ويتضاءل شخصُه عند أى بلاء ، فهو إيمان غير خالص ، بل هو مشوب بآفات كثيرة من الشك ، وسوء الفهم ، فإذا وُضع على محكّ التجربة والامتحان ، ظهر ما فيه من ضعف ، فلم يحتمل صدمة التجربة ، ولم يصمد أمام تيار الامتحان .

وقوله تعالى : « وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » . . وهذا هو مجال الامتحان لإيمان المؤمنين . . فمن آمن بالله ورسوله ، ووقع منه هذا الإيمان موقع القبول واليقين ، لم ينكُل عن دعوة الجهاد فى سبيل الله بماله ونفسه ، بل يقدم ماله ونفسه قرباناً لله ، فى رضا وغبطة . .

وفى الآية الكريمة إشارة إلى أن الجهاد بالمال والنفس ، هو الميدان الذى يمتحن به إيمان المؤمنين ، والذى به تظهر حقيقة مافى قلوبهم من إيمان . . فالمؤمن ، قد يصلىّ ، ويصوم ، ويحجّ ، ويزكى ، ولكنه حين يُمتحن فى ماله أو نفسه بالجهاد فى سبيل الله ، يضنّ بماله ، ويحرص على سلامة نفسه ، وعندئذ يعلم حقيقة إيمانه ، وأنه لم يستوف حقيقة الإيمان بعد . . والله سبحانه وتعالى يقول : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونَبلُوَ أخباركم » ويقول سبحانه : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتَنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمَنّ الكاذبين . . » (٢ ، ٣ : العنكبوت) .

وقوله تعالى : « أولئك هم الصادقون » . . هو الوصف الذى يستحقه الذين آمنوا بالله ورسوله ولم يرتابوا ، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وهو أنهم مؤمنون حقاً . . قد صدّق فعلهُم قولَهم . .

قوله تعالى :

* « قل أتعلّمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله بكلّ شىء عليم » . .

هو إنكار على هؤلاء الأعراب ، الذين ادّعوا تلك الدعوى ، بأنهم مؤمنون ، وهم فى حقيقة أمرهم غير مؤمنين ، إذ أنهم أسلموا ، ولم يدخل الإيمان فى قلوبهم بعد . .

فلمَنْ يقولون هذا القول ؟

أيقولونه لله ؟ وكيف يتفق قولهم هذا مع الإيمان بالله ؟ إن الإيمان بالله حقا ، يقضى على المؤمن ألا يقول غير الحق . . لأن الله سبحانه وتعالى يعلم خائنةَ الأعين وما تخفى الصدور ، وإنه لن يكذب على الله إلا من استخفّ بجلال الله وعظمة الله ، وعِلم الله ، جهلا منه بما لله سبحانه من كمال مطلق . « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم (٧ : المجادلة)

قوله تعالى :

* « يمنّون عليك أن أسلَمُوا قل لا تمنوا علىّ إسلامكم بل الله يَمُنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » .

المنّ : الإدلال بالإحسان على من أحسن إليه . . وهو مما يذهب بثواب الإحسان ، ويفسد مغارسه . . والله سبحانه وتعالى يقول : « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون * قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » (٢٦٢ ، ٢٦٣ البقرة) .

وهذا من جفاء الأعراب ، ومن بُعدهم عن الإيمان ، وفساد تصورهم له .. إنهم يَمنّون على النبي والمؤمنين ، أنهم آمنوا بالله ، واستجابوا لما يدعوهم إليه الرسول ، وإنهم ليعدّون هذا مأثُرةً لهم عند الرسول ، ويداً يحسبونها لهم عليه .. وهذا وضع مقلوب للقضية .. إنهم إن كانوا مؤمنين حقـاً ، فإن عائدة هذا الإيمان وثمراته راجعة إليهم ، لأنهم خرجوا بهذا الإيمان من الضلال إلى الهدى ، ومن الظلام إلى النور ، ومن البلاء والهلاك والعذاب الأليم فى الآخرة ، إلى العافية ، والسلام ، والخلود فى جنات النعيم .. وتلك نعمة أو نعم لا يقدر أن يقوم بشكرها إنسان ..

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها .. كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » (١٠٣ : آل عمران) ..

فعجيب أن يمنّ الآخذ على المعطى ، ويطلب المريضُ الجزاء من الطبيب الذى طبّ لمرضه ، وشفاه من علته ! ! ولكن هكذا يفعل الجهل بأهله ..

وفى قوله تعالى : « يمنون عليك أن أسلموا » — بدلا من أن يقال : يمنون عليك أن آمنوا ، أخذاً برأيهم فى أنفسهم ، وبما نطقت به ألسنتهم — فى هذا تكذيب ضمنى لقولهم : « آمنا » بعد أن كذبهم الله تكذيباً صريحاً فى قوله تعالى : « لم تؤمنوا » .. فهو تقرير للأمر الواقع منهم ، وهو الإسلام ، لا الإيمان ..

وقوله تعالى : « بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم

صادقين » ـ هو دعوة لهؤلاء الأعراب أن يحققوا حقيقة الإيمان الذى يدّعونه ، وأنهم إذا كانوا مؤمنين حقًا ، فليحمدوا الله ، وليشكروا له ، لأنه سبحانه صاحب المنة عليهم ، أن هداهم للإيمان .. فهم مسلمون ، وهم بهذا الإسلام يستطيعون أن يخطوا الخطوة التالية إلى الإيمان ، وأن ينقلوا كلمة الإسلام من ألسنتهم إلى قلوبهم ، وبهذا يكونون مسلمين مؤمنين ..

قوله تعالى :

* « إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون » ـ هو تعقيب على قوله تعالى : « إن كنتم صادقين » ، وجواب على ما قد يتردد فى أنفسهم من تساؤلات ، مثل أن يقولوا : ومن يعلم إن كنا صادقين أو كاذبين ، إذا كان مرجع الإيمان إلى ما استقر منه فى القلوب ؟ ومن يكشف ما فى قلوبنا من هذا الإيمان ؟ .. فكان الجواب . إن الله يعلم غيب السموات والأرض ، لا غيب القلوب وحدها ، وهو البصير الذى يرى ما يعمل العاملون ، مما هو مستقيم على طريق الإيمان ، أو مائل عنه ، فيجزى كلاًّ بما عمل . .

* * *

٥٠ - سورة «ق»

نزولها : مكية

عدد آياتها : خمس وأربعون آية ..

عدد كلماتها : ثلاثمائة وخمس وسبعون كلمة

عدد حروفها : ألف وأربعمائة وأربع وسبعون حرفا (مثل الحجرات) !!

مناسبتها لما قبلها

هذه السورة مكية ، وسورة الحجرات قبلها مدنية ، ومع هذا ، فإن المناسبة بينهما قريبة ، والجامعة بينهما وثيقة ..

فأولا : كانت سورة « الفتح » ـ وهى مدنية أيضا ـ أول بشائر النصر ، الذى تعلو به راية الإسلام ، ويتم به دين الله ، ويرى به النبي والمهاجرون والأنصار ثمرة الجهاد فى سبيل الله ، وما احتمل النبي وأصحابه من بلاء عظيم.. ثم تلا هذه السورة ، سورة « الحجرات » ، التى كانت أشبه بتعليق وتعقيب على سورة الفتح ، وعلى ما وقع فيها من أحداث وخاصة فى صلح الحديبية ..

فجاءت سورة « ق » تذكر النبي وأصحابه بما كان فى بدء الدعوة الإسلامية ، من عناد المشركين وضلالهم وسفههم ، وأن هؤلاء المشركين الضالين السفهاء قد تحولت بهم الأحوال ، وأوشكوا أن يدخلوا فى دين الله ، بعد أن كُسرت شوكتهم ، وبدأت غشاوة الضلال والسفه تنجلى عن أبصارهم ، بما رأوا من إعزاز الله لدينه ، ونَصْره لأوليائه ..

وثانيا : جاء فى ختام سورة « الحجرات » ما كان من موقف الأعراب

من دين الله ، وأنهم كانوا من الإسلام فى موقف أشد ضلالا ، وأكثر بعداً من موقف إخوانهم المشركين أهل مكة .. إذ أن المشركين كانوا يعلمون صدقَ النبي ، ويدركون حقيقة مايدعو إليه من إيمان بالله . أما هؤلاء الأعراب، فإن جَفاء طباعهم ، وغِلظة أكبادهم ، حالت بينهم وبين أن يدركوا حقيقة هذا الدين ، ولم تتسع عقولهم لاستيعاب مراميه ، كما يقول سبحانه وتعالى فيهم : « الأعراب أشد كفراً ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » (٩٧ : التوبة) ـ فجاءت سورة « ق » تحدثهم عن إخوانهم المشركين ، وما كان لهم من تعلّات على دين الله .. ثم ها هم أولاء ، وقد دخل كثير منهم فى الإسلام ، ثم الإيمان ، هاهم أولاء قد أصبحوا فى جند الله المجاهدين فى سبيل الله .. وإذن فليكن لهؤلاء الأعراب أسوة فى إخوانهم هؤلاء ، الذين كانوا على الشرك والضلال ، ثم أصبحوا وقد لبسوا الإسلام دِثاراً ، والإيمان شعاراً ..

وهكذا تبدو سورة « ق » وكأنها تعقيب على سورة« الفتح » واستعادة للماضى وأحداثه ، بين يدى هذا الحاضر المسعد ، والمستقبل المشرق ، فتعظُم تلك النعمة التى يعيش المسلمون فيها مع هذا الفتح العظيم ، الذى لم يكن يراود أحلامهم ، فى يوم من الأيام ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١١)

* « قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ

رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١)»

التفسير:

قوله تعالى:

* «ق والقرآن المجيد» . .

ما يقال عن «ق» هو ما قيل فيما مضى عن الحروف المقطعة . .

ومطلع السورة هنا شبيه بمطلع سورة «ص» . . حيث بُدئت السورة بالحرف «ص» ثم بالقسم بالقرآن ذى الذكر، ثم مواجهة المشركين بمقولاتهم المنكرة فى القرآن الكريم، وفى الرسول الذى يتلو آيات الله عليهم . .

والواو فى قوله تعالى: «والقرآن المجيد» للقسم، والقرآن المجيد، مُقْسَمٌ به، ووصف القرآن الكريم بأنه مجيد، إشارة إلى صفاء جوهره، ومجادة ذاته، والمجيد صفة من صفات الله سبحانه وتعالى، كما يقول سبحانه: «وهو الغفور الودود، ذو العرش المجيد» (١٤، ١٥: البروج) وقد جعل الله سبحانه هذه الصفة لكلامه، لأن كلام الله سبحانه، صفة من صفاته، والصفة عين الموصوف.

قوله تعالى :

* « بل عجبوا أن جآءهم منذرٌ منهم فقـال الـكافرون هذا شيء عجيب » ..

هو إضراب عن تساؤلات تتردّد فى الوجود كله ، حين يستمع إلى هذا القسم من رب العالمين ، بكلامه المجيد .. حيث يتلفت الوجود كله إلى مواقع هذا القرآن ، وإلى المتجه الذى يتجه إليه ، وهل عرف الناس قدره ؟ وهل اهتدوا بالنور الذى يطلع عليهم منه ؟ .. فـكان الجواب : كلاّ .. « بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم فقال الـكافرون هذا شيء عجيب » .. أى أن الذين جاء إليهم هذا القرآن لم يلتفتوا إليه ، ولم يأخذوا بشيء منه ، لا لشيء فى هذا القرآن، ـ لأنهم لم ينظروا فيه أصلاً ـ وإنما لأن الذى جاءهم بهذا القرآن هو رجل منهم ، فـكان ذلك حِجازاً بينهم وبين أن ينظروا فى شيء من هذا القرآن ، وأن يستمعوا إلى ما يتلى عليهم منه ، لأن الذى يتلوه عليهم رجلٌ منهم !! وكيف لرجلٍ منهم أن يأخذ هذا المـكان منهم ، ويقوم بالسفارة بينهم وبين الله ، ويصبح صاحب كلمة الله إليهم ؟ وأين هم إذن ؟ وأين أغنياؤهم وأصحاب السيادة فيهم؟.. فلتتخطفهم العقبان ، ولتحرقهم الرجوم .. فذلك أهون عليهم من أن يَسُودَهم سيد ، أو يَقُوم عليهم قيم !! هكذا فـكروا وقدروا : « بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم » ! وأخذوا يرددون مقولات الدَّهَشَ والتعجب والإنـكار : « أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشِر » (٢٥ : القمر) « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (٣١ : الزخرف) .. « مالِ هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيـكونَ معه نذيراً » (٧ : الفرقان) .

وقوله تعالى : « فقال الـكافرون هذا شيء عجيب » الإشـارة هنا إلى

ما أثار عجب الكافرين من هذا القرآن المجيد ، وهو أن يجيئهم هذا القرآن على لسان رجل منهم . . فهذا ـ عندهم ـ مما يثير العجب والدهش ، ثم الإنكار . .

قوله تعالى :

* « أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد » . .

هو مما تسلط عليه اسمُ الإشارة ، هذا ، فى الآية السابقة . . فقولهم « هذا شىء عجيب » مشار به إلى ما سبقه من قوله تعالى: « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم » . . ثم هو مشارٌ به إلى ما بعده من قوله تعالى : « أإذا متنا وكنا ترابا » أى أإذا مِتنا وكنا تراباً تعود إلينا الحياة مرة أخرى ؟ « ذلك رجع بعيد » ! تنكره الحياة ، ولا تصدقه العقول !! فما أبعد ما بين الحياة وهذا التراب الهامد الذى غربت فيه الحياة ! هكذا يقولون ، ساخرين ، مستهزئين .

قوله تعالى :

* « قد علمنا ما تَنْقُص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » . .

هو ردٌّ على استبعاد الكافرين لعودة الحياة إليهم مرةً أخرى ، بعد أن يذوبوا فى التراب ، ويصيروا بعضاً منه . .

فالله سبحانه وتعالى يَعلم ما أخذت الأرض منهم ، وما أكلَتْ من ذرّات أجسامهم ، ذرة ذرة . . فإذا أراد الله سبحانه عودة الحياة إليهم دعا هذه الذرات المتناثرة فى الأرض ، ونظم منها عِقْدَ الحياة من جديد ، كما تنظم حبّات العِقد فى خيطٍ جديد بعد أن ينقطع خيطها الذى بَلِىَ فانقطع ! فهذه الذرات التى تناثرت فى الأرض ، هى محفوظة فى كتاب حفيظ ، لا يضيع منه شىء . .

قوله تعالى

* « بل كذّبوا بالحقّ لما جآءهم فهم فى أمرٍ مَريج » .

هو إضراب آخر لبيان موقف الكافرين من آيات الله ، بعد أن بين الإضراب السابق موقفَهم من الرسول الذى حمل إليهم هذه الآيات . . إن جنايتهم جناية غليظة مزدوجة . . فهم يتهمون الرسول الذى حمل إليهم رسالة الله ، وكلماته . . ثم دفع بهم هذا الاتهام إلى أن يخرجوا عن عقولهم ، وأن يكذّبوا هذا الحق الواضح الذى يملأ عليهم الوجودَ من آيات الله . . فإذا كان اتهامهم للرسول مما يجدون له عذراً عند أنفسهم ، متعللين لذلك بما يجدون فى صدورهم من حرَج فى أن يستجيبوا لرجل منهم ، وأن يمتثلوا الدعوة التى يدعوهم إليها — فإن اتهامهم لهذا القرآن الذى يُتلى عليهم ، والذى ينطق بالحق المبين الواضح ، لا يقوم له عذرٌ ، حتى عند أنفسهم ، فهم يكذِبون عن عمدٍ ، ويذهبون مُذهب الضلال على علم . . وهذا ما يجعل جرمهم أشنع الجرم وأغلظه . .

وقوله تعالى : « بل هم فى أمرٍ مريج » .

الأمر المريج : المختلط ، الذى يموج بعضه فى بعض ، ومنه قوله تعالى : « مرج البحرين يلتقيان » أى خلط بعضهما ببعض ، وجمع بين الملح والعذب ، فى هذه الأمواج التى تتضارب عند التقائهما . . ومنه قوله تعالى : « وخَلَق الجانّ من مارجٍ من نار » . . حيث يضطرب اللهب ويتماوج بيد الهواء الذى يسبب عملية الاحتراق .

والأمر المريج الذى فيه هؤلاء الكافرون ، هو اضطراب مقولاتهم فى الرسول الكريم ، وفى القرآن المجيد . . شأنهم فى هذا شأن كل من يركب

متاهات الطرق ، وطوامسها ، فلا يدرى أىّ اتجاه يتجه . . إنه يتجه تارة يمينا وتارة شمالا ، ومرة وراء ، ومرة خلفاً . . إنه لا يأخذ فى اتجاه حتى تساوره الشكوك . والظنون ، فيعدل عنه إلى غيره ، الذى يحسب أنه الطريق القاصد، ثم لا يلبث أن يتهم نفسه فيما حسب ، فيعدل . . وهكذا . .

هذا شأن الإنسان وحده مع نفسه . . فإذا كانوا جماعة على ضلال ، كان لكل منهم وجهة ، ولكل سبيل ، ومع الوجهة وجهات ، ومع السبيل سُبل . . أما من كان على الحق ، سواء أكان وحده أو فى جماعة ، فإن الطريق واحد ، له ولهم ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُل فتفرّق بكم عن سبيله » (١٥٣ : الأنعام) . . وقد شرح الرسول الكريم ، هذه الآية الكريمة فى الحديث الشريف الذى يُروى عن ابن مسعود ، قال : « خطّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًّا بيده ثم قال : « هذا سبيل الله مستقيماً » وخط عن يمينه وشماله ، ثم قال : « هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » . . ثم تلا الآية : « وأن هذا صراطى مستقيماً . . » .

قوله تعالى :

* « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » .

فى هذه الآية لقاء مع الكافرين ، بعيداً عن الرسول وعن القرآن الذى بين يديه . . إنه لقاء مع عقولهم ، إن كانت لهم عقول ـ فليدَعوا الرسول وما جاءهم به ، ثم لينظروا نظراً مجرداً ، لا يرد عليهم منه هذه الشبه التى وردت عليهم من أهوائهم ، حين نظروا إلى الله سبحانه وتعالى من خلال الرسول ، الذى يدعوهم إلى الله ، وما أثار هذا من الحسد ودخان الغيْرة أن يكون لرجل منهم هذه النعمة التى أنعم الله بها عليه . .

فليَدَعوا الرسول ، وليَدَعُوا ما يتلوه عليهم من آيات الله ، وليكونوا

هم رسلَ أنفسهم ، فى دعوتها إلى الله ، والتعرف عليه . .

فلينظروا إلى السماء فوقهم . . إنها ليست بعيدة عنهم ، بل هى قائمة فوق رءوسهم ، لا تحتاج رؤيتها إلى أكثر من أن يفتحوا عيونهم عليها . . فإنهم إن فعلوا ، كان عليهم ـ إن كانوا يريدون الحقّ والهدى ـ أن يُجيبُوا على هذه الأسئلة التى تطلع عليهم من وراء النظر إلى السماء : كيف قامت هذه السماء ؟ ومن أقامها ؟ ومن زينها بالكواكب ؟ ومن أحكم نظامها ، ونظام الجاريات فيها ، فلم تتصادم كواكبها ، ولم تنطفىء أضواؤها وأنوارها المنبعثة منها على آماد السنين وتطاول الأزمان ؟ فهل نظروا إلى السماء فوقهم ؟ وهل أثار هذا النظر عقولَهم ، فسألوا أنفسهم تلك الأسئلة ؟ وهل بحثوا عن جوابٍ لها ؟ إنهم لم ينظروا ، ولو نظروا ما رأوا شيئاً من هذا كله ، لأنهم ينظرون بعيون كليلة ، وعقول سقيمة ، وقلوب مريضة !

وقوله تعالى « مالها من فروج » الفروج ، الصدوع ، والتشققات التى تكون بين الشىء والشىء . . والمراد بنفى هذا العارض من الفروج عن السماء أنها على امتدادها ، واتساعها الذى لا حدود له ، قد قامت بناء راسخاً ، متلاحم النسج ، لا تفاوت فيه : « ما ترى فى خَلْق الرحمن من تفاوت . . فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ » (٣ : الملك)

قوله تعالى :

* « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسىَ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » . .

وإذا كان هؤلاء الكافرون المشركون قد كلّت أبصارهم عن أن ترى السماء وما فيها من دلائل القدرة ، والحكمة ، والعلم ، فلينظروا إلى مواطىء أقدامهم . . إلى هذه الأرض التى يمشون عليها . . إنهم لو نظروا نظراً باحثاً متفحصاً لرأوا الأرض غير الأرض ، ولرأوا فيها من آيات الله ، ودلائل قدرته

وحكمته وعلمه ، مالم يروْه ، وهم يمشون فيها بعيون مقفلة ، وقلوب فارغة ، وعقول لاهية . . إنها كون فسيح ممدود إلى غايات بعيدة ، تتجاوز هذا القدْر المحدود الذى لا يتعدّى مواطىء أقدامهم ، ولا يخرج عن محيط مغداهم ومَرَاحهم . . وإن هذه الجبال التى تطاول السماء بين أيديهم ، ليست مجرّد أكوام من الأحجار ، بل هى أوتاد تمسك هذه الأرض أن تميد ، وتضطرب بما عليها من موجودات . . وإن هذه الزروع والحدائق ، والمروج التى تغطّى وجه الأرض ، ليست إفرازاً من إفرازاتها ، وإنما هى حلل من الجمال ، والبهجة والحسن ، كساها الله سبحانه وتعالى بها ، حتى تطيب للناس الحياةُ فيها ، وحتى تُفيض عليهم بهجةً وحبوراً ، مما تنتعش به النفوس ، وتسعد به القلوب ، فلا يكون حظّ الإنسان من هذه الزروع مقصوراً على الغذاء الذى يملأ البطون ، كما هو حظ الحيوان ، الذى لا يعنيه من أمر هذه الخيرات إلا أن يملأ بطنه منها . .

قوله تعالى :

* « تبصرةً وذكرى لكل عبدٍ منيب » .

هو بيان للعلة التى من أجلها قامت السموات والأرض على هذا النظام البديع المتقن ، المحلّى بحلى الجمال والبهجة . . إن فى هذا كله ما يفتح البصائر إلى مطالع الحق ، ويمدّ العقول بكمالات المعارف الموصلة إلى الله ، وذلك حين تصادف الإنسانَ الذى لم تفسد فطرته ، ولم تنطمس بصيرته ، ولم تستولِ على عقله الضلالات والسفاهات . .

والعبد المنيب ، هو العبد المستعدّ لقبول الخير حين يدعى إليه ، ولاتباع سبيل الحق حين يستبين له وجهه !

قوله تعالى :

* « ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد » .

وهذا معرض ثالث من معارض النظر ، ومَرادٌ من مرادات التدبر والتفكّر . .

وأنه إذا كان هؤلاء الكافرون الضالون ، قد كلّت أبصارهم عن أن تصافح السماء ، وتقع على موقع العبرة والعظة منها ، وأن يعموا أو يتعاموا عن الأرض وما بين أيديهم من آيات الله منها ـ إذا كان هذا شأنهم فيما فى السموات والأرض ، فهذا معرض جديد من معارض النظر ، ليس فى السماء ، ولا فى الأرض ، وإنما هو بين السماء والأرض ، وفى مستوى النظر ، لكل ذى نظر لا يتكلف له مدّ بصره إلى السماء ، ولا إلقاء نظره على الأرض ، بل حسبه أن يفتح بصره مجردَ فتح ، فيرى هذا المطر المتدفق من السماء إلى الأرض . . أفلا يرى هذا الماء أيضاً ؟ إنه إن لم يكن يراه ، فإن الماء يَرْجُمه بهذه القطرات التى تتساقط عليه ، حتى يستيقظ ويصحو من ذهوله وغفلته . .

وهذا الماء . . ماشأنه ؟ ومن أين جاء ؟ ولم جاء ؟

إنه لم يكن عن مصادفة ، ولم يقع حيث وقع إلا ليبعث الحياة فى الأرض الهامدة ويخرج من بطنها هذه الجنات والزروع التى يحيا عليها ، ويعيش من ثمرها وحبّها الإنسان والحيوان . .

وفى وصف الماء بأنه مبارك ، إشارة إلى مايحمل هـذا الماء الذى كثيراً ماتستخف به العيون ، ولا تتملاّه الأبصار ، من خيرات ونعم ، ولا يحصيها المحصون ، ولا يدرك أسرارها إلا أولو الأبصار من عباد الله . .

إن قطرات هذا الماء النازل من السماء، هى أرواح تَلْبَسُ الأرض كما تلبس

الأرواح عالم الأجساد ، فيكون منها هذا الإنسان الذى يبلغ به الغرور إلى أن يكون إلهـا فى الأرض ، يأبى أن يعطى ولاءه لله رب العالمين . . ! !

قوله تعـالى :

* « والنخلَ باسقاتٍ لها طلع نضيد » .

هو معطوف على قوله تعالى : « جنات وحب الحصيد » أى وأنبتنا بهذا الماء المبارك جنات ، وزروعاً ، ونخلا باسقات . .

وفى تعريف النخل ، مع اختصاصها بالذكر من بين مافى الجنات من أشجار ـــ فى هذا إشارة إلى تـكريم هذه الشجرة المباركة ، لمـا فيها من منافع كثيرة نُجتنى من كل شىء فيها . . من جذرها إلى جذعها ، إلى ليفها ، إلى جريدها ، إلى سعفها ، إلى ثمرها ، إلى نوى هذا الثمر . . فهى شجرة كلها خير ونفع ، ليس فيها شىء يُلفظ ، مع عظم جسمها ، وامتداد طولها . . ولهـذا كانت وَصاة النبى الـكريم بها فى قوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : « أكرِموا عماتـكم النخل ، فإنهن خلقن من طينة آدم » .

هذا ، وتحتل النخلة مكان القمة فى المملـكة النباتية ، كما يأخذ الإنسان مكان القمة فى المملـكة الحيوانية . . ولهذا كثر ذكرها فى القرآن ، وخاصة فى معرض التذكير بنعم الله ، وبما بين يدى الناس من هذه النعم ، التى تتجلى فى الجنات والزروع . . فلا تـكاد تُذكر الجنات وما فيها من ثمر ، حتى تأخذ النخل مكان الصدارة ، أو تنفرد وحدها بالذكر ، اكتفاء بها عن كل شجر غيرها ، وحتى لـكأنّ الجنة لاتـكون جنة إلا إذا كانت النخل آخذةمكانَها فيها . . يقول تبارك وتعالى : « أيود أحدكم أن تـكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الـكبر وله ذرية ضعفاء

فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت » (٢٦ : البقرة) ويقول سبحانه : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً » (٣٢ : الكهف) ويقول جل شأنه على لسان صالح عليه السلام ، وهو يحاج قومه بنعم الله عليهم : « أتتركون فيما ههنا آمنين * فى جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم (١٤٦ ـ ١٤٨ : الشعراء) . .

ويقول سبحانه : « ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات » (١١ : النحل) . . ويقول جل شأنه لمريم : « وهزّى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيًّا * فكلى واشربى وقرى عيناً (٢٥ ـ ٢٦ مريم) » . فقد كانت النخلة قائمة بمشهد من هذه المعجزة التى ستطل على الوجود بميلاد المسيح عليه السلام، روح الله وكلمته إلى مريم . . فكانت متكأً لمريم ، وصدراً حانيا تستند إليه فى شدتها التى كانت تعانى منها ، كما كان ثمرها مائدة الله التى دعا مريم إلى أن تطعم منها . . إنها خير ثمر وأطيب ما تخرج الأرض من ثمر !

وقوله تعالى : « باسقات » أى عاليات ، تطاول أعناقها السماء ، فلا تكاد شجرة فى الأرض تبلغ المدى الذى تصل إليه ، وكأنها بهذا تتربع على عرش المملكة النباتية ، وتشرف عليها من هذا العلو . .

وقوله تعالى : « لها طلع نضيد » الطلع أول مايبدو من ثمر النخل ، حين يتفتح الجراب الذى يضم فى كيانه زهر هذا الثمر . . والنضيد : المنضود ، وهو المرصوص فى نظام تجتمع فيه الحبات ، كما تجتمع حبات العقد النظيم .

وفى هذا الوصف للنخلة فى سموقها وطولها ، وللثمر فى تنضيده ، وانتظام حباته ـ فى هذا إلفات إلى هذا الحسن الرائع ، والجلال المهيب ، مما يراه الذين يرون مواقع الحسن والروعة والجمال والجلال فى آيات الله ، وما أبدعت قدرته فى هذا الوجود !

قوله تعالى :

* « رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج »..

هو بيان لبعض ما لهذه الجنّات والزروع والنخيل من أثر فى حياة الناس ، وأنها مما يرزقه الله عباده من رزق كريم ..

وقوله تعالى : « وأحيينا به بلدة ميتا » معطوف على قوله تعالى : « فأنبتنا به جنات وحبّ الحصيد » .. أى وأحيينا بهذا الماء بلدة ميتاً ، فلولا هذا الماء ماقامت حياة على هذه الأرض ، وما قامت هذه البلاد العامرة ، والتى كانت قبل الماء ترابا هامداً ..

وقوله تعالى : « كذلك الخروج » ــ هو تعقيب على قوله تعالى : « وأحيينا به بلدة ميتاً » .. أى أنه كما أقام الماء هذه الحياة من الأرض الميتة ، فإنه غير منكور أن يُبعث الموتى من القبور ، ويلبسوا الحياة من جديد ، كما لبست الأرض الميتة الهامدة هذه الحياة حين أصابها الماء ، وسرى فى أوصالها ..

الآيات : (١٢ — ٢٦)

* « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ

فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ (٢٠) وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ (٢٦) » .

التفسير :

قوله تعالى :

* « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسّ وثمود * وعادٌ وفرعون وإخوان لوط * وأصحاب الأيكة وقوم تبع كلٌّ كذب الرسل فحق وعيد » . .

أصحاب الرس : قيل إنهم أهل قرية باليمامة ، وقد كثرت الأقوال فيهم ، زماناً ومكاناً ، كما أن القرآن لم يذكر اسم رسولهم[1]

وأصحاب الأيكة : هم قوم شعيب ، والأيكة : الشجر الكثير الكثيف . .

وقوم تبع : هم أهل سبأ ، من اليمن ، وقد ذكرهم القرآن ، وذكر كفرهم بنعم الله ، وقد أرسل الله عليهم سيل العَرِم ، فأتى على كل عامر بين أيديهم . .

والضمير فى « قبلهم » يعود إلى مشركى مكة . . وهم المخاطبون بالآيات السابقة . .

وفى هذه الآيات تُعرض عليهم صورة من حياة الماضين الذين كانوا على ضلال كهؤلاء الضالين . . وقد عُرضت عليهم من قبل آيات الله ، تحمل إليهم

---

(١) انظر ص ٢٥ من الكتاب العاشر للتفسير القرآنى للقرآن .

دلائل قدرته ، وما أفاض عليهم ، وعلى العباد من نعمه ومِنَنِه ، فإن هم لم ينظروا فى هذه الآيات ، ويهتدوا إلى الله ، ويؤمنوا به ، ويشكروا له ، أخذهم الله بما أخذ به الضالين المكذبين قبلهم .. فهم ليسوا أول من كذب بآيات الله ، وبهت رسلَ الله ، وهم لن يخرجوا عن سنة الله التى خلت فى أخذ الظالمين بظلمهم ، وإنزال البلاء بهم . .

« كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسِّ وثمود * وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تُبعٍ » . . فهؤلاء بعض المكذبين فى القرون الماضية ، والأمم الغابرة ، وقد علم المشركون أخبارهم ، وما كان من أخذ الله لهم ، ووقعاته فيهم .. ولهذا خصهم الله بالذكر . .

ويلاحظ هنا أن فرعون ذُكر وحده ، دون قومه ، وعُدَّ وحده مجتمعاً قائماً بذاته ، إذ كان سلطانه ممكناً فى قومه ، وكان قومه جميعاً فى قبضة يده ، فكفر قومه تبع لكفره ، كما يقول سبحانه : « فاستخف قومه فأطاعوه » (٥٤ : الزخرف) .

وقوله تعالى : « كلٌّ كذب الرسل » أى أن هؤلاء الأقوام جميعا كذبوا رسل الله السابقين ، كما كذب المشركون رسول الله محمداً . .

وقوله تعالى : « فحق وعيد » أى وجب عليهم وعيد الله ولزمهم .. ووعيد الله عذابه الذى توعد به المكذبين والضالين ..

قوله تعالى :

* « أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد » ..

عادت الآيات لتكشف عن الآفة التى أفسدت على المشركين أمرهم ، وباعدت بينهم وبين الإيمان بالله ، والتصديق برسول الله .. وتلك الآفة هى استبعادهم

للحياة بعد الموت ، ثم الحساب والجزاء .. وكان قولهم فى هذا ما حكاه القرآن عنهم فى قوله تعالى : « إنْ هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » (٣٧ : المؤمنون) ..

فقضية البعث والقيامة، هى المدخل الذى دخل منه على القوم كل كفر وضلال.. إنهم مستعدون لأن يؤمنوا بالله ، وأن يُفردوه وحده بالألوهية .. ولكن الأمر الذى لايقبلونه ، هو الإيمان باليوم الآخر ، فذلك مالا يتصورونه ،ولا يسمعون لقولٍ يقال لهم فيه ..

والإيمان كلٌّ لايتجزأ ، فمن آمن بالله ، وكفر بكتبه ، ورسله واليوم الآخر ، فهو على غير سبيل المؤمنين ، والله سبحانه وتعالى يقول : « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّهِ ما تولى ونصلِهِ جهنم وساءت مصيراً » (١١٥ : النساء) ..

فقوله تعالى : « أفعيينا بالخلق الأول» هو مواجهة المشركين بما ينكرونه من أمر البعث ، وما يقع فى تصورهم من استبعادٍ له ..

فهذا الاستفهام ينكر على المشركين ضلال تصورهم لقدرة الله ، وسوء إدراكهم لآثار تلك القدرة .. فهذا الوجود القائم ، بعوالمه المختلفة فى السموات والأرض ــ ألم يكن من صنعة الله ؟ فهل عجز الله ــ سبحانه ــ عن أن يبدع هذه المبدعات ؟ وهل أعياه أمرها ؟ فكيف يعجز سبحانه عن إعادة ما انتثر من عِقدها ؟ وكيف يعيا ــ سبحانه ــ عن أن يبعث الحياة فيما همد من أحيائها ؟ ذلك مالا يقبله عقل نظر فى خلق الوجود كله ابتداءً ، ثم تطلع إلى طيه ونشره ثانياً ! ..

وقوله تعالى : « بل هم فى لَبْسٍ من خلق جديد » ..

اللبس : الاختلاط الذى يقع من عدم وضوح الرؤية للأمر ، وتبيّن وجه الحق فيه ..

واللّبس الذى لبس عقول المشركين واستولى عليها ، هو فيما يتعلق بالبعث ، وإعادة الحياة إليهم بعد الموت ..

وهذا مما يشير إليه قوله تعالى فى آية سابقة من هذه السورة ، وهى قوله تعالى : « بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مَرِيج » .

قوله تعالى :

* « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ..

فى هذه الآية عرض آخر لقدرة الله سبحانه وتعالى ، وقد غاب مفهوم هذه القدرة عن عقول هؤلاء المشركين . . وفى إعادة هذا العرض لقدرة الله ، تذكير لهم ببعض مظاهرة هذه القدرة ، ليراجعوا عقولهم مرة أخرى ، وليَرجعوا من طريق الضلال الذى هم سائرون فيه ..

فالله سبحانه ، هو الذى خلق هذا الإنسان من تراب الأرض ، فجعل منه هذا الكائن العاقل ، السميع ، البصير ، وهو سبحانه الذى يعلم من أمر هذا الإنسان ما توسوس به نفسه من خواطر ، وما يضطرب فيها من خلجات .. وهو سبحانه أقرب إلى الإنسان — كل إنسان — من حبل الوريد . .

وحبل الوريد : هو عِرق فى صفحة العنق .. وسمِّى العِرْق حبلا ، لأنه يشبه الحبل فى امتداده واستدارته .. وسمى وريداً ، لأنه يستورد الدم النقى من القلب ، ويصبّه فى الأوعية الدموية التى يتغذى منها الجسم ..

قوله تعالى :

* « إذ يتلقّى المتلقّيان عن اليمين وعن الشمال قعيد » . .

أى أن الله سبحانه مع قربه هـذا القرب المستولى على كيان الإنسان كله ، ظاهراً وباطناً ـ فإنه سبحانه قد وكّلَ بهذا الإنسان جنديين من جنوده ، يتلقيان منه كل ما يصدر عنه ، من قول أو فعل ، فيكتبانه فى كتاب يلقاه منشوراً يوم القيامة ..

و « إذ » ظرف متعلق بقوله تعالى : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ـ بمعنى أن الله سبحانه وتعالى أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ، وفى الوقت نفسه يقوم عليه جنديان من جنود الله ، يسجلان عليه كل ما يقول ، أو يفعل . . كما يقول سبحانه : « وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون » . فكيف يكون للإنسان مهرب من الحساب والجزاء ؟

قوله تعالى :

* « ما يَلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ـ هو بيان شارح لوظيفة الجنديين القاعدين عن يمين الإنسان وعن شماله . . فهما واقفان للإنسان بالمرصاد . . ما يلفظ من قول إلا كان على هذا القول « رقيب » أى مراقب ، يسمع ما يقال ، ويسجله ، وهو « عتيد » أى حاضر دائماً لا يغيب أبداً .. وليس رقيب وعتيد ، اسمين الملكين القائمين على الإنسان ، الموكلان به ، وإنما ذلك وصف لكلٍّ منهما ، فكل منهما رقيب يقِظ ، حاضر أبداً . .

قوله تعالى :

* « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد » .

سكرة الموت : ما يغشَى الإنسانَ ساعةَ الاحتضار ، من غيبوبة أشبه

بغيبوبة من يقع تحت خُمار الخمر ، فتنطفىء لذلك تلك الشعلة التى تَمُدّ كيانه بالحرارة والحركة ، ويبدو وكأنه جثة هامدة ، بلا شعور ، ولا حركة ، ولا وعيا .

وقوله تعالى « بالحق » متعلق بالفعل « جاء » أى جاءت سكرة الموت محملة بالحق ، الذى غاب عن هذا الإنسان الذى لا يؤمن باليوم الآخر ، حيث يرى عند الاحتضار ، مالم يكن يراه من قبل ، وحيث يبدو له فى تلك الساعة كثير من شواهد الحياة الآخرة ، التى هو آخذ طريقه إليها ..

وقوله تعالى : « ذلك ما كنتَ منه تحيد » ـ الإشارة إلى « الحق » وهو الموت ، وما وراءه من بعث وحساب وجزاء .. وذلك الحق هو ما كان هذا الكافر باليوم الآخر ، منكِراً له ، حائداً عن الداعى إليه ، المنذِر به ..

وقرىء : « وجاء سكرة الحق بالموت » ويكون المعنى على هذا ، وجاءت سكرة الحق بالموت الذى كان يحيد عنه هذا الإنسان ، والذى كان فى حياته غير مقدر أنه سيموت .. « يحسب أن ماله أخلده » .. فهو لهذا غافل عن الموت ، كما يقول سبحانه وتعالى : « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ..

قوله تعالى :

* « ونُفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد » ..

هو عرض للأحداث التى تجىء بعد الموت .. فليس هذا الموت هو آخر المطاف ، وإنما وراءه بعث ، وحساب ، وجزاء ..

والنفخ فى الصور ، هو كناية عن أمر الله ، ودعوته إلى الموتَى بالخروج من قبورهم ، كما يقول سبحانه : « ثم إذا دعاكم دعوةً من الأرض إذا أنتم تخرجون » (٢٥ : الروم) ..

والصور : أداة يُنفخ فيها ، عند كل أمر عظيم ، يجتمع له الناس ، لحرب أو نحوها.. وكان يتخذ عادة من قرن حيوان من ذوات القرون الكبيرة كالوعول ونحوها . .

وقوله تعالى : « ذلك يوم الوعيد » أى ذلك النفخ إيذان بحلول يوم الوعيد ، وهو يوم القيامة ، الذى توعّد الله سبحانه وتعالى فيه أهلَ الشرك والضلال ، بالعذاب الأليم فى نار جهنم . .

قوله تعالى :

* « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » ـ أى فى هذا اليوم ـ يوم الوعيد ـ تجىء كل نفس ومعها « سائق » من ورائها يسوقها إلى المحشر ، وموقف الحساب ، « وشهيد » ـ وهو الذى يشهد على الإنسان بما كان منه فى الدنيا ، من إيمان بالله وباليوم الآخر ، أو كفر بالله ، وبالبعث والحساب والجزاء.. فهو يحضُر الحساب ، ويشهد على الإنسان بما عمل . .

ومع كل إنسان أكثر من شاهد .. فهناك الرسول الذى يشهد على قومه ، كما يقول سبحانه : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » (٤١ : النساء) ، وكما يقول جل شأنه : « ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم » (٧٥ : القصص) . . وهناك الجوارح التى تشهد على الإنسان ، كما يقول سبحانه : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » (٢٤ : النور) . . وهناك الملَكان الموكّلان بالإنسان ، واللذان سجلا عليه كل أعماله . .

وقد أفرد هؤلاء الشهدء ، فكانوا « شهيداً » واحداً ، لأنهم يشهدون شهادة واحدة ، لا اختلاف فيها ، لأنها شهادة الحق الذى لا تشوبه شائبة

من كذب ، أو افتراء . . فكانوا بهذا أشبه بشاهد واحد ، وكأنهم صوت يتردد . . له أكثر من صدًى . .

قوله تعالى :

* « لقد كنتَ فى غفلة من هـذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ».

هو جواب عن تساؤلات كثيرة يتساءلها هذا الإنسان الذى كان لا يؤمن بالله ، ولا باليوم الآخر . . وذلك أنه حين يُنفخ فى الصور ، ويخرج من قبره مع الخارجين من قبورهم ـ يدهش لهذا الأمر ، وتعروه منه حال من التبلد والجمود والحيرة ، وكأنه فى حلم رهيب مزعج . . ويسأل نفسه ما هذا الذى يجرى حوله ؟ وأين هو ؟ وما خطبه ؟ وماذا يراد به وبالناس ؟ . . إلى غير ذلك من الأسئلة التى لا يجد لها جواباً . . ثم ينكشف له الأمر حالا بعد حال ، وإذا منادى الحق يناديه هذا النداء الذى يكشف له عن المصير المشئوم الذى هو صائر إليه : « لقد كنتَ فى غفلةٍ من هذا » فى حياتك الدنيا ، لا تستمع إلى من يحدثك به ، ويقدم لك الأدلة والبراهين عليه . .

أما الآن ، فإنك سترى بعينيك حقيقةَ ما كنت تحسبه وهماً وضلالا : « فكشفنا عنك غطاءك فبَصَرُكَ اليوم حديد » . .

لقد كُشف عنك غطاء الغفلة الذى كان مضروباً على بصرك ، فبصرك اليوم حديد ، أى قوىّ ، يرى كل ما بين يديك وما خلفك . . فالحديد من الحِدّة ، وهى القوة ، وحدّ السيف : الجانب القاطع منه . .

وهذه الآية تشبه ما جاء فى قوله تعالى : « ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون * قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟ هـذا ما وعد الرّحمٰن وصدق المرسلون » (٥١ ، ٥٢ يس)

قوله تعـالى :

* « وقال قُرِينُه هذا ما لدىّ عتيد »

القرين هنا ، هو صاحب السوء ، الذى يُضلّ صاحبه ، ويقوده إلى مواقع الإثم والضلال . . والمراد به هنا الشيطان ، ومن يشبه الشيطان من الناس فى الإغواء والإضلال . .

إن قرناء السوء يبرأ بعضهم من بعضٍ يوم القيامة ، ويقع بينهم التّلاحِى والترامى بالتهم . . أما أهل السلامة والتُّقى ، فإن المودة قائمة بينهم فى الدنيا ، على التناصح ، والتناصر ، والتواصى بالحق والصبر ، فإذا كان يوم الآخرة ، تلاقوْا على الرضا ، وتساقوْا كئوس الحمد والرضوان ، كما يقول سبحانه : « الأخلاّء يومئذٍ بعضهم لبعضٍ عَدوٌّ إلا المتقين » (٦٧ : الزخرف) .

فقرين السوء الذى زيّن الضلال لصاحبه ، يلقاه يوم القيامة بمـا كان قد زيّنه له ، مما يسوءه ويسوقه إلى جهنم . . إنه حين تحيط بالضال خطيئته ، يتلفت حوله باحثاً عن قرينه ، فلا يجد من قرينه إلا هذه البضاعة الحاضرة ! !

قوله تعـالى :

* « ألقيا فى جهنّم كلّ كفّارٍ عنيدٍ * منّاعٍ للخير معتدٍ مُرِيب * الذى جَعَلَ مع الله إلٰها آخر فألقياه فى العذاب الشديد »

الضمير فى « ألقيا » يعود إلى السائق والشهيد ، فى قوله تعالى : « وجاءت كل نفسٍ معها سائق وشهيدٌ » ـ فتلك هى الغاية التى يُساق إليها هذا الضالّ المكذِّب بالله واليوم الآخر ، وذلك هو الحكم الذى يقضى به الحَكَمُ العدل ، بعد أن يؤدى الشاهد شهادته . . وليس هذا حكماً مقضيًّا به على واحد بعينه ، وإنما هو حكم يؤخذ به كل كفار عنيد . . إنه حـكم عام على أهل الكفر

والضلال . فكل نفس قد جاءت ومعها سائق وشهيد . . أما النفس المؤمنة الصالحة ، فتزفّ إلى الجنة ، فى حفاوة وتكريم . . وأما النفس المجرمة الفاجرة فإنهـــــا تُدفع دفعاً ، وتُلقى إلقاء فى جهنم ، كما يلقى الحطب فى النار . .

وقوله تعالى :

« مناع للخير معتد مريب * الذى جعل مع الله إلٰها آخر » هو من حيثيات هذا الحكم الذى حُكم به على أهل الكفر والضلال . . فالكفر هو الذى أورد أهله هذا الموردِ الوبيل ، والكفر هو الذى قاد صاحبه إلى العناد والشرود عن الحق ، وهو الذى جعل بينه وبين الخير هذه العداوة المستحكمة ، التى تجعله يكره وجه الخير ، فيلقاه محارباً له فى نفسه ، وفى الناس .. والكفر هو الذى جعله حرباً على الآمنين والمسالمين ، يبادئهم بالعدوان بغير جريرة منهم إليه . . ثم يقوم على هذه المآثم كلها ، هذا الإثمَ الغليظ ، وهو الشرك بالله . .

وقوله تعالى :

« فألقياه فى العذاب الشديد » تأكيد للحكم : « ألقيا فى جهنم » الذى وُجه به الكافر قبل أن يستمع إلى حيثيات الحكم ، ثم إذا استمع إلى تلك الحيثيات ، جاء الحكم فى صورة أشدّ هولاً ، وأسوأ عاقبة . . إنه ينزل من جهنم فى أسوأ منازلها ، وأشدّها عذاباً . .

الآيات : (٢٧ — ٣٧)

* « قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ

لَدَىَّ وَمَآ أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « قال قرينه ربنا ماأطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد »

هو عرض لصورة من صور التلاحى والترامى بالتهم بين قرناء السوء يوم القيامة . .

فحين يؤخذ أحد القرينين ــ وهو التابع ــ ليساق إلى جهنم ، يتعلق به صاحبه ، قائلا : رب هو الذى أضلنى عن الحق ، وأغوانى بما أغوانى من ضلال . .

وهنا يحاول القرين المتبوع ، وهو الشيطان ــ دفع هذا الاتهام عن نفسه ، فيقول: « ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد » . . إنه كان مسوقاً إلى الضلال بنفسه ، متجها إليه بأهوائه ، سواء وجد من يدعوه إلى هذا الضلال أو لم يجد .

وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لىَ عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم » (٢٢ : إبراهيم)

قوله تعالى :

* «قال لاتختصموا لدىّ وقد قدمت إليكم بالوعيد» ..

هو قولة الحق من الله سبحانه وتعالى ، إلى قرناء السوء ، سواء منهم التابعون، والمتبوعون .. إنه لاتخاصم اليوم بين يدى الله ، فقد توعد الله أهل الضلال ، وحذرهم عاقبة أمرهم ، وإن مع كل إنسان عقلا يدرك به، ونظراً يرى به عواقب الأمور ، وليس يُغنى فى مقام المساءلة والمحاسبة أن يُلقىَ إنسان بجرمه على غيره « بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره » (١٤ ـ ١٥ : القيامة) ..

قوله تعالى :

* « مايبدل القول لدىّ وما أنا بظلام للعبيد » ..

أى أنه لايُنقض هذا الحكم الذى قَضَى الله به فى أهل الضلال ، ولن تنفع الظالمين معذرتُهم ، ولا هم يُستعتبون ..

وقوله تعالى : « وما أنا بظلام للعبيد » .. هو توكيد لقوله تعالى : « ما يُبدّل القول لدىّ » .. لأن هذا حكم من أحكم الحاكمين ، رب العالمين ، الذى يقضى بين عباده بالحقّ ..

قوله تعالى :

* « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » ..

أى إن هذا القضاء إنما يكون يوم القيامة ، يوم يُعرض الناس على رب العالمين ، يوم يساق المجرمون إلى جهنم .. وإنهم لأعداد كثيرة ، يقتحمونها فوجاً بعد فوج ، وهى فاغرة فاها لتبتلع كل وارد عليها ، دون أن تشبع .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « أليس فى جهنم مثوى للكافرين » ٦٨ : (العنكبوت) ..

قوله تعالى :

* « وأُزلفت الجنة للمتقين غيرَ بعيد » ..

هذه أول آية فى هذه السورة تتحدث عن المؤمنين ، وما أعد الله لهم من ثواب عظيم وأجرٍ كريم .. فقد كانت السورة كلها مواجهة لأهل الشرك والضلال ، وما دخل عليهم من شركهم وضلالهم ، من إنكار ليوم البعث ، حتى إذا جاءهم هذا اليوم ، ذُهلوا وذعروا ، ثم إذا سيقوا إلى المحشر ، والتقى بعضهم ببعض — أنكر بعضُهم بعضاً ، وتراموْا بالعداوة والبغضاء ، ثم أُلقُوا جميعاً فى جهنم التى لاتضيق بكثرة الواردين إليها ..

فقوله تعالى : « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد » هو النسمة العليلة المنعشة التى تطلع فى هذا الجوّ الخانق ، الذى يكظم الأفواه ، ويزكم الأنوف ، مما يهب من سعير جهنم ، ومن صرخات أهلها ..

إن يوم القيامة ليس كله هذا الهولَ وهذا البلاء ، بل إن فى هذا اليوم مباهج ، ومسرات ، وبشريات مسعدة لأهل الإيمان والتقوى .. وأنه إذا كان هناك جهنم التى تفغر فاها لأهل الشرك والضلال ، فإن هناك أيضاً جنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين .. وأنه إذا كانت جهنم تنتظر الواردين الذين يسوقهم إليها سائق عنيف يَدُعُّهم دعًّا ، ويلقى بهم إلقاءً فيها ، فإن الجنة تسعى للقاء أهلها ، وتلقاهم متوددة ، متلطفة ، تماماً كما يفعل المُضيف عند استقبال ضيف عزيز كريم ، فيلقاه على الطريق مرحباً محيياً ..

فقوله تعالى : « وأزلفت الجنة » أى قربت ، والزلفى : القرب .. وهذا يكون فى مقام الإحسان ، كما فى قوله تعالى : « وإن له عندنا لزلفىَ وحسنَ مآب (٤٠ : ص) ..

قوله تعالى :

* « هذا ما توعدون لـكل أوابٍ حفيظ * من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب .. »

أى هذا الجزاء الـكريم الطيب ، هو ما وعد الله سبحانه به الذين آمنوا وعملوا الصالحات ..

والأوّاب : مبالغة من الأوب ، وهو الرجوع ، والمراد به الرجوع إلى الله ، والاعتصام به فى كل حال ، وإضافة الأمر إليه فى السراء والضراء .. فهذا هو مقتضى الإيمان الحق بالله ، حيث يقوم من هذا الإيمان شعور قوىّ حىّ ، يصل الإنسان بربه أبداً ، فإذا كان منه انحراف مع هواه لم يلبث أن يردّه هذا الشعور إلى ربه تائباً مستغفراً ، كما يقول سبحانه . « إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » .. (٢٠١ : الأعراف)

والحفيظ : مبالغة من الحفظ ، وهو حفظ الإنسان لنفسه ، وحراستها من الأهواء والضلالات التى تَرِدُ عليها .. ثم حفظ ما اؤتمن عليه من أحـكام دينـه . .

وقوله تعالى : « من خشى الرحمن بالغيب » بدل من قوله تعالى : « أوابٍ حفيظ » .. فالأوّاب إنما كان أواباً وكان حفيظاً ، لأنه كان على خشية لربه ، وخوفٍ من لقائه ، وعذابه ..

والمراد بالخشية بالغيب ، الخشية التى تـكون من الإنسان فى غير حضور من وازع سلطان أو قانون ، وحيث تُمـكِّن الإنسانُ الفرصةَ من أن يفـعل المنـكر ، ويرتـكب الفحشاء من غير أن يطلع عليه مطلع ، ولـكنه يردّ نفسه عن هذا خوفاً من الله ، وحياءً من جلاله ..

وفى ذكر الاسم الكريم « الرحمن » هنا ـ إشارة إلى مبلغ التقوى والخشية التى تستولى على نفس هذا المؤمن الذى يخشى ربه ، وهو يستحضر رحمته ويذكر سعة هذه الرحمة ، ومع هذا فإن ذلك ـ وإن أطمعه فى رحمة الله ـ لايجرّئه على محاربته بالمعصية ، بل إنه فى حضور هذه الرحمة يكون أشد حبًّا لربه، ومن أحب لم يكن منه عصيان لمن امتلأ قلبه بحبه ..

وقوله تعالى : « وجاء بقلب منيب » ـ معطوف على قوله تعالى : « خشى الرحمن بالغيب » .. أى كانت منه خشية الرحمن بالغيب ، وكان منه مجىء ، وعودة إلى ربه بقلب منيب ، أى راجع من شروده الذى كان متجهاً به إلى طريق المعصية .. فالقلب هو موطن المعتقدات الصالحة أو الفاسدة ، ومصدر التصرفات الطيبة أو الخبيثة ، كما يشير إلى ذلك الحديث الشريف : « ألا وإن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب) ! ..

قوله تعالى :

* « ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود » ..

هو التفات إلى أهل الإيمان والتقوى ، هؤلاء الذين يخشون ربهم بالغيب ، ويُقبلون عليه بقلوب سليمة ، منيبة ، وهو دعوة كريمة من رب كريم إليهم أن يقبلوا هذه الضيافة الكريمة التى يُنزلهم فيها ، وقد جاءوا إليه سبحانه ، مسلمين تائبين .

وقوله تعالى : « بسلام » هو حال من فاعل « ادخلوها » أى أدخلوا هذه الجنة التى أزلفت لكم ، مصحوبين بسلام ، لا يمسّكم ما يسوء أبداً . .

قوله تعالى :

* « لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » ..

الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، فيه مزيدُ حسرة لأهل الضلال والشرك ، وكأن هذا حديث إليهم ، وردّ على ما يغلى فى صدورهم من حسدٍ لأهل الإيمان والتقوى ، الذين دعاهم الله سبحانه إلى جنته ورضوانه ، وأنهم إذ يحسدون المؤمنين على هذه الجنة التى أزلفت لهم فَلْيسمعوا إذن ما يؤجج هذه النار المشتعلة فى قلوبهم من حسرة وحسد : إن هذه الجنة سيجد فيها أهلها ما يطلبون ، وما يشتهون من كل شىء ، يجدون ذلك حاضراً عتيداً بين أيديهم من غير سعى أوكد . . بل وأكثر من هذا ، فإن الله سبحانه يسوق إليهم من فضله وإحسانه ما لم يقع فى حسابهم ، وما لم يخطر على بالهم ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ولدينا مزيد » بعد قوله سبحانه : « لهم ما يشاءون فيها » . .

قوله تعالى :

* « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا فى البلاد .. هل من محيص »

عاد الحديث مرة أخرى ، ليصل ما انقطع من أخبار أهل الكفر والضلال ، وما يلقون على طريق كفرهم وضلالهم ، وما تنتهى إليه مسيرتهم التى تُلقى بهم فى سواء الجحيم . .

وهذا الحديث يواجه المشركين بعد أن رأوا مشاهد القيامة ، وما فيها من عذاب ونعيم ، عذابٍ لأهل الكفر والفسوق والعصيان ، ونعيمٍ لأهل الإيمان ، والطاعة والتقوى .. فلينظروا بعد هذا إلى أنفسهم ، وليأخذوا الطريق الذى يشاءون ، إلى النار إن شاءوا ، أو إلى الجنة إن أرادوا . وأنهم إن أبوا أن يتوقفوا عن مسيرتهم على طريق غيهم وضلالهم ، مغترين بقوتهم ، معتزين بمكانتهم فى أهليهم ـــ فليعلموا أنهم أضعف قوة ، وأقل شأناً ممن

كان قبلهم من أهل الضلال، وقد أهلكهم الله، وأنزلهم منازل الهُون والعذاب . .

وقوله تعالى : « فنقبوا فى البلاد » . . التنقيب فى البلاد : السعى بالإفساد فيها، واستعمال قوتهم فى الاستبداد بالعباد، كما يقول سبحانه فى فرعون وملائه : « وفرعون ذى الأوتاد * الذين طغوا فى البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب » (١٠ ـ ١٣ الفجر)

وقوله تعالى : « هل من محيص ؟ » أى هل انتفع هؤلاء المغترون بقوتهم المعتزون بسلطانهم، فى ردّ بأس الله عنهم، وفى رفع البلاء الذى أخذهم به ؟ كلا . فما أغنى عنهم ذلك من الله من شىء . .

والمحيص : المفرّ من مواجهة البلاء، والتماس السلامة من الهلاك . . وفى هذا يقول الشاعر :

وهل نحن إن حصنا عن الموت حيصة

هل العمر باق والمدى متطاول ؟

قوله تعالى :

* « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » أى فى هذه المعارض التى تعرضها الآيات، فى مقام الوعد أو الوعيد — فى هذه المعارض موعظة، واعتبار، وذكرى . . ولكن ليس هذا لكل إنسان، بل « لمن كان له قلب » — أى كان ذا قلب سليم، معافىً من الآفات التى تقتل كل بذرة خير تُبذر فيه، فلا تنبت زهراً، ولا تطلع ثمراً . . كما أن المعارض فيها عبرة، وذكرى، وموعظة، لمن كان قلبه فى غفوة وغفلة عن مواقع العبر والعظات، ولكن كان له أذن واعية، تستمع لما يلقى إليها من آيات الله

وكلماته ، ومن نصح الناصحين ، ووعظ الواعظين . . وهنا يتنبه القلب الغافل ، ويصحو القلب الغافى . .

وهذا يعنى أن الإنسان قد يتهدّى إلى الهدى بنفسه ، ويرد موارد السلامة والنجاة ببصيرته ، إذا كان معه قلب سليم ، وفطرة لم تقع فريسة لآفات الهوى والضلال . . فإذا لم يكن مع الإنسان هذا القلب وتلك الفطرة ، فإنه يمكن أن يأخذ طريق الهدى من خارج ذاته ، إذا هو أصغىَ إلى كلمات الحق الواردة عليه من رسل الله ، أو الراشدين المهتدين من عباد الله . . شأنه فى هذا شأن الأعمى ، الذى إن أسلم يدَه لمبصرٍ قاده إلى مأمنه ، وإن هو استبدّ به العناد ، وأبى أن يعطى يده لأحد ، سار متخبطاً ، يتردّى فى الحفر والمعاثر ، حتى يهوى فى مَهلَكة من المهالك !

الآيات : (٣٨ — ٤٥)

* « وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ ٱلسُّجُودِ (٤٠) وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِى وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب »

اللغوب : الفتور الذى يلحق الإنسان من عمل مُجهِد شاق . .

والآية تعرض بعض مظاهر قدرة الله ، ليرى منها المغترون بقوتهم ، أين تقع هذه القوة من قوة الله . . وهل إذا طلبهم الله ، وأرادهم بسوء — هل لهم من قوتهم ما يدفع عنهم بأس الله ، وتلك بعض مظاهر قوته . . ؟

وتقدير خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ليس الزمن الذى تحتاج إليه قدرة الله لخلق هذه العوالم ، وإنما هو ـ كما قلنا فى أكثر من موضع ـ تقدير الزمن الذى تنضج فيه وتستوى هذه الأكوان ، شأنُها فى هذا شأن كل مخلوق ، كما يرى ذلك فى مسيرة الحياة فى الأحياء من نبات وحيوان . . أما قدرة الله سبحانه وتعالى ، فلا يحكمها زمان : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » (٨٢ : يس)

وهذا يعنى أن الزمن عنصر من عناصر الخلق ، وأن لكل مخلوق زمناً يتحرك فيه ، كما أن له مكاناً يدور فى فلكه . .

قوله تعالى :

* « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب »

هو مواساة للنبىّ الكريم فيما يلقىَ من أذى قومه ، وما تلقِى به

أفواههم من فحش القول، وزور الحديث، فى شأن الرسول، وفى آيات الله التى يتلوها عليهم.. ثم هو تهديد لهؤلاء المشركين، وأنهم مأخوذون بوعيد الله لهم، وأنهم لن يفلتوا من بأس الله إذا جاءهم..

وقوله تعالى: «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب» هو دعوة للنبى أن يَدَعَ هؤلاء المشركين، وألا يصرف وقته كله فى النصح لهم والجدل معهم.. بل إن عليه أن يخلص بنفسه ساعات يلقَى فيها ربه، مسبّحاً بحمده، متزوداً بهذا الزاد الطيب الذى يمده بأسباب القوة والقدرة على احتمال هذا العبء الثقيل الذى تنوء به الجبال..

وفى اختصاص هذين الوقتين ـ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ـ بتسبيح الله وحمده، لأنهما ـ والله أعلم ـ هما الوقتان اللذان يحويان بين طرفيهما، الوقتَ الحىّ من حياة الناس، والذى فيه يكون العمل فى ميادينها المختلفة.. والتسبيح بحمد الله قبل طلوع الشمس، هو السلاح الذى يتسلح به الساعى إلى العمل والجهاد، فيكون له منه القوة التى تعينه فى عمله وجهاده.. والتسبيح بحمد الله قبل غروب الشمس، هو صلاة شكر وحمد لله على ما كان منه من عون وتوفيق.. ثم هو استغفار لما وقع من إهمال أو تقصير.

قوله تعالى:

* «ومن الليل فسبحه وأدبار السجود»..

«من» هنا للتبعيض.. أى ومن بعض الليل لا كله..

وهو معطوف على قوله تعالى: «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب».. أى وسبحه كذلك بعضاً من الليل، وفى أدبار السجود، أى أعقاب الصلوات.. فى الليل أو فى النهار..

والتسبيح بالليل يعنى أن الليل ليس كله وقتاً ميتاً ، بل فيه أوقات حية عند المؤمنين بالله ، يحيونها بذكر الله والتسبيح بحمده ، حيث تخلو النفس من شواغل الحياة ، ويفرغ القلب من الواردات التى ترد عليه منها فى النهار .. ففى هذه الأوقات من الليل يطيب الذكر ، وتصفو موارد الذاكرين .. ومثل الليل فى هذا الأثر الذى يُحدِثه فى النفس من الصفاء والصحو الروحى ـ ما يكون من المصلّى أثناء السجود ، حيث يضع المصلى وجهه على الأرض ، فلا يرى من هذا الوجود شيئاً يحجبه عن الله ، أو يشغله عن النظر إليه .. وهذا ما يشير إليه النبى صلوات الله وسلامه عليه فى قوله : « أقرب ما يكون العبد من ربه ، وهو ساجد » ..

قوله تعالى :

* « واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب » ..

الخطاب للنبى صلوات الله وسلامه عليه ، ومِن ورائه المؤمنون .. وهو معطوف على قوله تعالى : « فاصبر على ما يقولون ... » وما بعده ..

والمراد بالاستماع هنا ، إما أن يكون الانتظار ، كما يقول سبحانه : « فارتقبهم واصطبر » (٤٧ : القمر) وكما يقول جل شأنه : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » (١٠ : الدخان) وقوله جل شأنه : « وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين »(١٨ : غافر) ..

وعلى هذا يكون الفعل مسلطاً على ما بعده ، وهو « يوم ينادى المنادى» الذى وقع مفعولا لهذا الفعل ..

وفى التعبير عن الانتظار والترقب بالاستماع ـ إشارة إلى ما يجىء وراء

هذا الانتظار ، وهو هذا النداء الذى ينادَى به الموتى من قبورهم ، فيخرجون من الأجداث سراعاً .. فكأن الأمر بالانتظار يحمل فى مضمونه أمراً بالاستماع ، فحسُن فى مقام التهديد أن يقوم المحمول مقام الحامل ، لأنه هو المراد ..

وإما أن يكون الاستماع على حقيقته ، ويكون معموله المسلط عليه محذوفاً ، تقديره « واستمع » ما سنحدثك به بعد ، وأصغ إليه سمعك ، فهو أمر عظيم ، ينبغى أن يلقاه الإنسان بكيانه كله ، حتى يعِيَه ، وحتى لا يفوته منه أى شىء ..

وعلى هذا يكون قوله تعالى : « يوم ينادى المنادى من مكان قريب * يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج » — يكون هذا هو ما دُعِىَ النبي صلوات الله وسلامه عليه إلى الاستماع له .. ومفهوم هذا أن هناك يوماً سينادى فيه المنادى من مكان قريب ، وأن هذا اليوم هو اليوم الذى يسمع فيه الموتى هذا النداء ، وذلك هو يوم الخروج من القبور الذى يكذب به المشركون ..

ووصف المكان بأنه قريب — إشارة إلى أن كل إنسان سيسمعه ، أيا كان مكانه ، حيث يقع النداء فى أذن كل ميت ، وكأن هاتفاً يهتف به وهو قائم على رأسه .. !

قوله تعالى :

* « إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير » ..

هو إشارة إلى ما لله سبحانه وتعالى من سلطان مطلق فى مُلكه ، وأنه سبحانه يفعل ما يشاء ..

وبهذا السلطان يحيي الله سبحانه وتعالى كل حيّ ، وبهذا السلطان يميت الله كل حي ، وبهذا السلطان يصير كل ما فى الوجود إليه ، يقبضه وَيبسطه كيف يشاء . . فالبعث الذى ينكره المشركون ، هو أمر واقع فى سلطان الله . . فكما مَلَكَ ـ سبحانه ـ الحياة ، يملك الموت ، وكما ملك الموت يملك الحياة . .

قوله تعالى :

« يوم تَشقق الأرض عنهم سِراعاً ذلك حَشْر علينا يسير » .

هو متعلق بقوله تعالى : « وإلينا المصير » — أى إلينا مصير الخلق جميعاً ، يوم تتشقق الأرض عنهم ، ويخرجون من قبورهم سراعاً إلينا ، أى مسرعين إلى حيث الحساب والجزاء . .

وقوله تعالى : « ذلك حشر علينا يسير » . . أى ذلك الحشر ، حشر يسير علينا ، لا نتكلف له جَهداً . . « إنما قولُنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (٤٠ : النحل) . .

قوله تعالى :

« نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكرْ بالقرآن من يخاف وعيد » .

هو تهديد ووعيد المشركين المكذبين بيوم الدين . . فالله سبحانه وتعالى يعلم ما يقولون من مفتريات وأباطيلَ فى النبى ، وفى الكتاب الذى يتلوه عليهم ، وسيجزيهم بما هم أهلٌ له ، من العذاب والنكال ا

وقوله تعالى : « وما أنت عليهم بجبار » — هو بيان لموقف النبي من هؤلاء المعاندين المكابرين ، الذين لجّ بهم الضلال ، والعناد ، ولن يأخذوا طريق الهدى إلا إذا أُخذوا قهراً وقسراً ، بيد قوية جبارة . . وهذا ليس من وظيفة النبي ، ولا من محامل دعوته التى جاءت تُحاجّ العقل ، وتقوده بالحجة والبرهان . . فذلك هو السبيل الذى تصلح به القلوب الفاسدة ، إن كان ثمة سبيل إلى إصلاحها ..

وذلك هو الأسلوب الذى يقيم الدينَ بمقامه المكين من النفوس ، إن كانت مهيأةً لقبول الخير ، صالحةً للتجاوب معه . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين » وقوله سبحانه : « أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وقوله جل شأنه : « فذكِّرْ إنما أنت مذكِّر * لستَ عليهم بمسيطر » ..

وقوله تعالى : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » — هو بيان لمقام النبي من دعوته ، وأسلوبه فى الدعوة إليها : التذكير بالقرآن ، وذلك بتلاوته على الناس جميعاً . كما يقول له الحق سبحانه وتعالى :

« إنما أمرت أن أعبد ربَّ هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين * وأن أتلوَ القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذِرين »(٩١ ـ ٩٢ النمل) . .

وفى اختصاص الذين يخافون وعيد الله بتلاوة القرآن عليهم ، وتذكيرهم

بما فيه من زواجر ، مع أن الرسول مطالب بأن يتلوَ القرآن على الناس كلهم ، وأن يذكّرهم بزواجره — فى هذا إشارة إلى أن الذين من شأنهم أن يخافوا وعيد الله إذا استمعوا إليه ، هم الذين ينتفعون بهذا القرآن ، وأمّا سواهم الذين لا يسمعون ، ولا يعقلون ، فهم هَمَل ضال ضائع ، لا حساب له فى هذا المقام . . كما يقول سبحانه : « إنما تنــذر الذين يخشون ربهم بالغيب » (١٨ : فاطر) وقوله تعالى : « إنما أنت مُنْذِرُ من يخشاها » (٤٥ : النازعات) . .



٥١ - سورة الذاريات

نزولها : مكية

عدد آياتها : ستون . . آية

عدد كلماتها : ثلاثمائة وستون . . كلمة .

عدد حروفها : ألف ومائتان وسبعة وسبعون حرفاً

مناسبتها لما قبلها

ذَكرتْ سورة « ق » موقفَ المشركين ومقولاتهم المكرَّرة للبعث ، كما ذَكرت مع هذه المقولات من آيات الله ومن دلائل قدرته ، ما يكشف عن ضلال هذه المقولات ، وانحراف هذا الموقف . . ثم خُتمت السورة بتخلية النبىّ بين المشركين المعاندين ، وبين ما ركبوا من ضلال . .

ثم تجىء سورة « الذاريات » ، لتَلْقىَ هؤلاء المشركين المعاندين ، بحديث مُجدَّد عن البعث ، والحساب والجزاء ، ولكن لاتلقاهم لقاءمواجهاً لهم وحدهم ، بل ضمن حديث عام مطلق ، موجَّه إلى الناس جميعاً . . فإن شاءوا استمعوا إليه ، وكان لهم أن ينتفعوا به ، وإن شاءوا مضوْا على ماهم عليه من إعراض ونفور ! وذلك ما سنراه فى مطالع هذه السورة الكريمة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٤)

• « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣)

فَٱلْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ ٱلْخَرَّاصُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « والذاريات ذرواً * فالحاملاتِ وِقراً * فالجـاريات يُسراً * فالمقسِّمات أمراً » .

هذه أربعة أشياء أقسم بها الله سبحانه وتعالى بها، فى نسقٍ واحد .. الذاريات ، فالحاملات ، فالجاريات ، فالمقسّمات . .

وقد اختُلف فى هذه الأشياء المقسَم بها . . أهى شىء واحد تعددت صفاته وآثاره ؟ أم هى أشياء متعددة ، لكل شىء منها صفته وأثره ؟

والرأى الراجح فى هذه الآراء ، هو أنها أربعة أشياء .. لكل شىء ذاتيته ووظيفته . .

فالذاريات : الرياح ، التى تذرُو التراب ، والدخان ، كما تذرُو بخار الماء ، وتدفعه أمامها ، وتعلو به إلى طبقات الجوّ العليا ، حتى يتجمع ، ويصير سحابا : .

والحاملات : هى السحب ، المحمّلة بالماء . .

والجاريات : هى السفن التى تجرى فوق الماء . .

والمقسّمات : هى الملائكة التى تتقاسم العمل بأمر الله ، فى تدبير شئون الناس . .

وهذا الرأى يعضّده حديث يُنسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما يُسند حَمْل هذا الحديث إلى عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وقد سأله ابن الكوّاء عن حقيقة هذه المسميات ، فأجابه عمر ـ رضى الله ـ على نحو هذه الإجابة ، وفى كلّ واحدة منها يقول عمر :

« ولولا أنى سمعت رسول الله يقولها ما قلتها » . .

وعلى هذا تكون هذه الآيات قد تضمنت أربعة أقسام ، مرتبة بهذا الترتيب المتعاقب . .

أما الكلمات : ذرْوًا ، ووِقرًا ، ويُسراً ، وأمراً ، فالرأى الذى نراه ـ والله أعلم ـ أنها أحوال متلبسة بهذه الأشياء التى أقسم الله سبحانه وتعالى بها ، وأن الله سبحانه وتعالى أقسم بها فى تلك الحال المتلبسة بها . . فهذه الحال هى التى تجعل لهذه الأشياء شأناً وقدراً ، ولو أنها تجردت من هذه الحال ، أو لبست حالا أخرى ، لما كان لها هذا الشرف العظيم ، بأن أقسم الله بها ، فإن فى قسم الله سبحانه وتعالى بالشىء تكريماً له ، ورفعاً لقدره ، وتنويهاً لمقامه بين الأشياء . .

فالذاريات ذرْوا : هى الرياح فى حال هبوبها ، وقدرتها على حمل بخار الماء والصعود به إلى طبقات الجوّ العليا ، ولو أنها كانت أنساماً رقيقة مريضة ، لَما أثارت الأمواج ، ولما تحرك من صدر البحار بخار ، ولو كان هناك بخار لَما استطاعت حمله ، والارتفاع به إلى حيث يصير سحابا . .

فذَرْواً ، مصدر بمعنى اسم الفاعل ، والتقدير : والذاريات ذاريةً ، أى حاملةً ما يُذْرَى . . وقد تكون الرياح وليس فى كيانها شىء تذروه معها . أما هذه الرياح ، فهى حاملة ماتذروه ، ولهذا سميت ذاريات .

والحاملات وقراً : هى السحب الموقَرة ، أى المحملة بالماء ، المثقلة به ، وتوشك أن تلده ، كما تلد الحوامل المثقلات حملهن . .

والجاريات يسرا : هى السفن ، فى حالٍ من اليسر ، مواتيةٍ لسيرها فى ريح رخاء ، لا عاصفة ، ولا هامدة . .

والمقسّمات أمراً ، هى الملائكة فى حال حملها لما تؤمر به .

وننظر فى هذه الأقسام على هذا الوجه ، فنجدها هكذا : فالرياح ذارية ، والسحب موقرةَ ، والسفن مُيسّرًا لها الجرىُ ، فالملائكة مأمورة بما تقسّمه فى الناس من أرزاق وأرزاء . .

فالرياح ، والسحب ، والسفن ، والملائكة ، هى فى أحوال لها فيها وجود عامل مؤثر فى حياة الناس.. وفى قسم الله سبحانه وتعالى بها وهى متلبسة بأحوالها تلك ـ دعوة إلى الناس أن يلتفتوا إليها ، وأن يروْا آثار رحمة الله بهم فيها . . فلو شاء الله أسكنت الريح ، فلم تتخلق السحب ، ولم تجر السفن ، ولما كان للملائكة عمل على هذه الأرض ، إذ لا حياة فيها مع فقدان الماء ، الذى يقول سبحانه وتعالى فيه : « وجعلنا من الماء كل شىء حىّ » .. وهذا ـ والله أعلم ـ هو السرّ فى هذا الترتيب المتعاقب بين هذه الأشياء . . فكان أولها الرياح ، التى تتخلق منها السحب ، التى هى المصدر الوحيد للماء العذب الذى تفيض به الأنهار وتتفجر منه العيون ، ثم هى التى تجرى بها السّفن محملة بالناس والمتاع . . ثم هى التى جعلت للملائكة عملا فى حياة الناس ، بعد أن كان للناس حياة فى الأرض، بالماء الذى نزل من السحب ، والذى تخلّق بفعل الرياح . .

قوله تعالى :

* « إنما توعدون لصادق * وإن الدّين لواقع » .

هو المقسم عليه بهذه الأقسام الأربعة ، وهو ما يُسمّى بجواب القسم . .

والآيتان إخبار من الله سبحانه وتعالى بأن ما يوعَد به الناس من البعث من قبورهم بعد الموت ، هو وعد صادق ، لا شك فيه ، وأن « الدّين » وهو الدينونة والجزاء ، واقع لا محالة . .

وفى الإخبار عن الموعود به بأنه صادق ، دون القول بأنه « صدق » إذ الصدق وصف الخبر ، والصادق ، وصف للمخبِر به ـ فى هذا إشارة إلى أن هذا الوعد ذاتىّ ، وأنه هو ذاته الصادق الذى ينطق بالصدق . .

وليست أخبار الله سبحانه وتعالى ـ وهى الحق المطلق ـ بالتى تحتاج إلى توكيد تحققها بقسم أو غيره ، ولكنّ أهلَ الضلال والعناد ، يشكون فى نسبة هذه الأخبار إلى الله ، كما أنهم لا يرتفعون بقدر الله وجلاله كثيراً عن المستوى البشرى . . ففى تأكيد الخبر لهم بالقسم ، دلالة على تكذيبهم لرسول الله ، ثم سوء ظنهم بالله . .

قوله تعالى :

* « والسماء ذات الحُبُك * إنكم لَفى قولٍ مختلفٍ * يؤفك عنه من أفك » .

الحُبك : جمع حَبيكة ، والحبيكة : ما يكون فى طرف الرداء من طُرُز ونقوش . .

والسماء ذات الحبك : أى السماء المطرزة المزينة بالكواكب والنجوم .

ويؤفك : أى يُصرف، وهو من الإفك ، وهو افتراء الكذب الذى يُصرف به صاحبه عن الحق ، وما وراء الحق من خير

وقوله تعالى : « والسماء ذات الحبك » ـ قَسَم ، والمقسم عليه هو قوله تعالى : « إنكم لفى قول مختلف » والخطاب للناس جميعاً ، والقول المختلف، هو اختلاف مقولات الناس فى أمر البعث، والجزاء . . فهم بين مؤمنين مصدقين بما وعُدوا به ، وبين مكذّبين بهذا الوعد ، منكرين له . .

وقوله تعالى : « يُؤْفَكُ عَنْه من أفك » أى يُصرف عن وجه الحق فى أمر البعث والجزاء ، « من أفك » أى من صُرف عن الحقّ بطبعه ، وما غَلَب عليه من شِقوة ، فهو وإن كان قد أعرض عن الإيمان بالله ، والتصديق بالبعث والجزاء ـ فإن ذلك حكم سابق فيه ، وقضاء قُضى عليه به ، لأن الله سبحانه قد علم ما يكون من قبل أن يكون . . وقد علم سبحانه أنه ذو طبيعة لا تقبل الحق ، ولا تستجيب لداعيه ، فصرفه الله عن الحق ، كما يقول سبحانه : « ثم انصرفوا صَرَفَ الله قلوبهم » (١٢٧ : التوبة)

وقوله تعالى :

* « قُتل الخراصون الذين هم فى غمرة ساهون » . .

الخراصون : جمع خَرّاص ، وهو الذى يَخرِص الأشياء ويقدرها بحدسه وظنّه ، دون أن يستند فى ذلك إلى علم محقق ، كما يفعل الذى يَخرِص ما على النخل من تمر ، وما يعطى الزرع من حبّ . .

فالخراصون ، هم الكذابون ، الذى يقولون بغير علم . .

وقوله تعالى : « قُتل » — هو دعاء عليهم ، ورمىٌ لهم باللعنة والطرد من رحمة الله . .

وقوله تعالى : « الذين هم فى غمرة ساهون » صفة ، أو بدل من

« الخراصون » . . والغَمْرة : الشدّة التى تغمر الإنسان وتغطى على مشاعره ، وتستولى على تفكيره ، وهى من الجهل الذى يغمر صاحبه ، ويغطى على عقله ، وسمعه ، وبصره . .

والساهون : الغافلون . .

فاللعنة واقعة هنا على الذين يُلقون بالسوء من القول ، ويرجمون الناس بالتهم جزافاً ، من غير تعقل أو تدبّر ، شأنهم فى هذا شأن من غلب السكر على عقله ، فجعل يَهذِى من غير وعى . فهؤلاء الخراصون هم فى سكرة من الجهل والغَباء ، إلى ما فيهم من عناد واستكبار . .

قوله تعالى :

* « يسألون أيّان يومُ الدين » .

أى أن من ضلال هؤلاء الخراصين ، ومن مقولاتهم الضالة الكاذبة ، هذا السؤال الذى يسألونه عن يوم القيامة ، سؤالَ المنكر له ، المستبعد لوقوعه ، المكذب به . . فيقولون : متى يوم الدين ؟ كما ذكر ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى عن إنكار المنكرين للبعث : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » (٢٥ : الملك) . . وقد عُبر بالاستفهام عن الزمان بأداة المكان « أيانّ » للإشارة إلى أنهم ينكرون وقوع هذا الأمر ، زماناً ومكاناً ، فلا يقع فى مكان ، أو فى زمان . . وهذه مبالغة منهم فى الإنكار والجحود . . وكأنهم يقولون أين هذا اليوم ؟ إنه لا وجود له ! . .

وقوله تعالى :

* « يوم هم على النار يُفتنون » . .

هو جواب لهذا السؤال الإنكارى الذى سألوه بقولهم : « أيّان يومُ الدين ؟ » ..

فكان الجواب : سيعرفونه « يَوْمَ هم على النار يُفتنون » أى يُحرقون فيها ويقلّبون على جمرها ..

وأصل الفَتْن ، عرض الذهب وغيره على النار ، ليظهر ما فيه من خَبَث .. وقد عُدل عن الخطاب إلى الغيبة ، إبعاداً للمشركين عن مقام الحضور ، وطرداً لهم من مقام أهلية الاستماع إليهم ، والردّ عليهم ..

قوله تعالى :

* « ذوقوا فتنتكم .. هذا الذى كنتم به تستعجلون » ..

هو مواجهة لهم بالعذاب ، ولقاء لهم بما يسوءهم .. أى يقال فى هذا اليوم : « ذوقوا فتنتكم » أى عذابكم الذى أُعِدّ لكم ، وهو العذاب الذى يُجزى به الذين فتنهم الشيطان ، وأغواهم فكفروا بالله ، وضلوا عن سواء السبيل . .

فالفتنة هنا تجمع بين معنيين ، بين الفتنة ، أى الضلال الذى كانوا فيه ، وبين الفتنة ، التى هى النار التى تُذيب المعادن ،وتصهرها .. فهم فتنة فى أنفسهم ، ثم تلقاهم يوم القيامة فتنة ، هى العذاب الذى يُصهر به ما فى بطونهم والجلود ..

الآيات : (١٥ — ٣٢)

* « إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ (١٩)

وَفِى ٱلْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إن المتقين فى جنات وعيون » ..

هو بيان الجزاء الذى يجزى به الفريق الآخر ، الذى يقابل فريقَ الخرّاصين المكذبين .. فقد جاء قوله تعالى : « والسماء ذات الحبك * إنكم لفى قولٍ مختلف » مبيناً موقف الناس من الإيمان بالبعث والجزاء ، وأنهم فريقان مختلفان ، مؤمنون وكافرون ، مصدقون ومكذبون ..

وقد جاء التعقيب على هذا ، بما يَلْقى الكافرون المكذبون ، من عذاب ونكال ، فأُخذوا دون إمهال إلى جهنم ..

ثم جاء بعد ذلك المؤمنون ، المصدّقون بالبعث والجزاء ، فُتّحت لهم أبواب الجنة ، وسِيق إليهم فيها ما تشتهى أنفسهم من نعيمها ..

وقوله تعالى :

* « آخذين ما آتاهم ربهم * إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » ..

أى يتقبلون من ربهم ما يُساق إليهم من ألطافٍ ، وما يقدم إليهم من ألوان النعيم ، مما لم يكن يخطر لهم على بال ، أو يقع لهم فى أحلام ..

وفى مدّ الله سبحانه وتعالى لهم يده الكريمة بهذا الإحسان، وفى تناولهم هذا

الإحسانَ من ربهم ـ فى هذا ما فيه من تكريم لايناله إلاّ المقربون ، الذين رضى الله عنهم ، جعلنا الله سبحانه وتعالى منهم ، إنه ذو الفضل العظيم ..

وقوله تعالى : « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » هو بيان للأسباب والوسائل ، التى توسل بها هؤلاء المكرَمون من عباد الله ، إلى هذا النعيم العظيم الذى هم فيه ، وذلك أنهم كانوا قبل ذلك اليوم ، أى يوم القيامة ، وهو الدنيا ـ كانوا محسنين ، فلقيَهم الله بإحسان مضاعف ، كما يقول سبحانه : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » (٦٠ : الرحمن) .

قوله تعالى :

* « كانوا قليلا من الليل ما يَهجَعُون » ..

هو بيان مفسِّر لإحسان هؤلاء المحسنين .. فقد كان من إحسانهم أنهم يذكرون ربهم ، لايكادون يغفلون عن ذكره ، ولا يُعطون أنفسهم حظها من النوم .. فإذا نام الغافلون ، قطعوا هم ليلهم ترتيلا ، وتسبيحاً ، وصلاة ، وذكراً .. والهجوع ، هو النوم القليل ، وهو ما يُسمى بالغِرار ، كما يقول :

ما أذوق النوم إلا غِرارًا مثل حَسْوِ الطير ماء الثِّمالِ [1]

« وما » فى قوله تعالى : « ما يهجعون » . . إما مصدرية ، أى كانوا على حال قليل فيها من الليل هجوعُهم . وإما موصولة ، والمعنى : كانوا على حال قلّ فيها الزمن الذى يهجعون فيه من الليل .

---

(١) ماء الثمال : الماء فى الأرض السبخة ، فهو ماء مشوب بالملح .

قوله تعالى :

* « وبالأسحار هم يستغفرون »

الأسحار ، جمع سَحَر ، وهو آخر الليل . .

استغفارهم في آخر الليل ، الذى قطعوه تسبيحا وذكراً ، وترتيلا وصلاة — إشارة إلى أنهم يرون أن ما قاموا به من تسبيح وذكر ، وصلاة ، وترتيل — لم يستوف مالله من حق عليهم ، فى عبادته وتسبيحه ، فهم لهذا يستغفرون ربهم ، ليتجاوز عن تقصيرهم فى حقه . .

قوله تعالى :

* « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم »

أى ومن أعمال هؤلاء المؤمنين المصدقين بالله ورسوله ، واليوم الآخر — أنهم يُشاركون الناس فيما فى أيديهم من مال ، ويرون أن فى هذا المال الذى أعطاهم الله ، حقًّا لكل محتاج ، من سائل ، يطلب ، أو محروم يتعفف عن السؤال . .

قوله تعالى :

* « وفى الأرض آيات للموقنين »

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، أنها تنعَى على هؤلاء الضالين المكذبين ، كفرَهم وضلالهم الذى فوّت عليهم هذا النعيم الذى أعده الله المؤمنين ، وأنهم إذا كانوا قد استكبروا على أن ينقادوا لرسول الله ، وأن يستجيبوا لما يدعوهم إليه من هدًى — أفلا كانت لهم عيون تنظر فى هذا الوجود ، وتطالع ما فيه من آيات تشهد بما لله سبحانه وتعالى من قدرة وسلطان ، وعلم وحكمة ؟

إنه كما فى يد الرسول آيات ناطقة بالحق ، داعية إليه — كذلك هناك آيات أخرى فى الأرض ، وفى السماء ، وفى كل ما خلق الله ، تشهد بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه الباطل . . ولكنهم اشقوتهم قد أصمّوا آذانهم عن سماع كلمات الله ، وأغمضوا أعينهم عن النظر فى كتاب الوجود ، فكفروا ، وضلّوا . . فكان مأواهم جهنم وساءت مصيراً .

وفى قوله تعالى « للموقنين » — إشارة إلى أنه لا ينتفع بتلك الآيات الكونية ، ولا يقع على مواقع الهدى منها ، إلا أهلُ اليقين ، الذين يطلبون العلم والمعرفة، بالبحث الجادّ ، والنظر المتفحص ، فإذا وقع لهم من ذلك علم ، كان علمهم عن برهان وحجة ، فيقع منهم ذلك العلم موقع التثبت واليقين . . فهم - والحال كذلك - لا يتّبعون الأهواء ، ولا يُتابعون أهل الضلال . .

قوله تعالى :

* « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »

أى إذا كنتم أيها المكذبون الضالون ، قد كلّت أبصاركم عن أن تنظر فى صفحة هذا الوجود ، وأن تمتد إلى أبعد من مواطىء أقدامكم ، فإن ذلك لا يحول بينكم وبين الوصول إلى الدليل على قدرة الله وسلطانه القائم على الوجود ، وإنه لَيكفى أن تنظروا فى ذات أنفسكم ، فإن فى أنفسكم عالماً رحيباً ، وكوناً فسيحاً . . وإنه ليكفى أن يُقيم أحدكم بصره على مسيرته فى الحياة ، من وجوده نطفة إلى أن صار رجلا . . إنكم ستجدون فى هذا سِجلاً حافلا بالآيات الدالة على قدرة الخالق ، وعلى حكمته ، وعلى بديع صنعه ، وحكمة تدبيره . .

والاستفهام هنا توبيخ وتعنيف ، لهؤلاء الذى عَمُوا عن مشاهد القدرة الإلهية ، وآثارها الناطقة فى كل ما خلق الخالق جلّ وعلا . .

قوله تعالى :

* « وفى السماء رزقكم وما توعدون »

أى ، وانظروا فى السماء ، فهى أوضحُ صورةً ، وأجلى بياناً مما فى الأرض أو فى أنفسكم . . إن فيها أسبابَ رزقكم ، ومِلاكَ حياتكم ، بما ينزل منها ماء ، وما يجرى فيها من شمس ، وقمر ، وكواكب ، ونجوم . . بل إن فيها عرشَ الله ، وفيها ملائكته ، وفيها مقدّرات الأمور .. فكل مايجرى على الناس وغيرهم من شئون ، هو منزّل من علوّ . كما يقول سبحانه : « وينزل لكم من السماء رزقا » (١٣ : غافر) وكما يقول جل شأنه : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده » (٢ : النحل) . . والتنزيل لا يكون إلا من جهة عالية . . فالسماء هنا ، إشارة إلى جلال الله ، وعظمته ، وعلوّ مقامه ، وقيومته على هذا الوجود . .

قوله تعالى :

* « فو ربِّ السماء والأرض . . إنه لحقٌّ مثلَ ما أنكم تنطقون »

بعد أن أقسم الله سبحانه وتعالى ببعض مخلوقاته ، توّج هذه الأقسامَ جميعَها بالقسم بذاته العلية جلّ شأنه ، واصفاذاتَه الكريمة، بأنه رب السموات والأرض ومدبرُ أمرها . . والمقسَم عليه هنا، كلُّ ما وقعت عليه الأقسام السابقة ، من صدقِ ما يوعَد الناس به من بعث وديْنونة ، وحساب وجزاء ، وما جاء من أخبار عن نعيم أهل الجنة ، وعذاب أهل النار ، ثم ما أخبر به جل شأنه ، من أنه المالك للأرزاق ، والمقدّر لها ، كما أنه مالك يوم الدين ، وما يَلقَى الناس فى هذا اليوم . .

فهذا كله حقٌّ لا امتراء فيه ، وهو واقع كما أخبر به الحقّ جلّ وعلا ، على سبيل القطع واليقين . .

وقوله تعالى « مثلَ ما أنكم تنطقون » صفة لمصدر محذوف يقع مفعولا مطلقا لصفة محذوفة أيضاً لخبر إن، والمقام دالٌّ على هذين المحذوفين والتقدير : فو رب السماء والأرض إن ذلك كله لحق واقع وقوعاً مماثلا لوجودكم الذى أنتم عليه ، والذى لا يمكن أن تنكروه . . وهل ينكر الإنسان وجوده ، وهو حى ناطق ؟

واختيار النطق صفةً دالةً على وجود الإنسان، لأن النطق هو الصفة المميزة للإنسان عن عالم الحيوان ، ولأن النطق كذلك يدلّ على أن وراءه إنسانا ذا حس وإدراك ، وأنه إذا غابت عنه المحسات والمدركات ، فلن يغيب عنه الإحساس بوجوده ، وإدراك أنه موجود . .

أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم عن الحسن أنه قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قاتل الله قوماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدّقوا »

ورُوى عن الأصمعى أنه قال : أقبلت من جامع البصرة ، فطلع أعرابى على قعود ، فقال : ممن الرجل ؟ قلتُ : من بنى أصمع ، قال : من أين أقبلت ، قلت من موضع يُتلى فيه كلام الرحمن قال: اتلُ علىّ ، فتلوت « والذاريات » فلما بلغتُ « وفى السماء رزقكم وما توعدون » قال : حسْبُك . . فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما ، وولىّ . .

يقول الأصمعى : فلما حججت مع الرشيد ، طَفِقت أطوف ، فإذا أنا بمن يهتف بى بصوت رقيق ، فالتفتّ ، فإذا بالأعرابى قد نَحَل واصفرّ ، فسلّم علىّ ، واستقرأنى السورةَ، فلما بلغت الآية : «وفى السماء رزقكم وما توعدون»

صاح ، وقال : قد وجدنا ما وَعَدنا ربّنا حقًّا .. ثم قال : وهل غيرُ هذا ؟ فقرأت : « فو ربِّ السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » فصاح وقال : يا سبحان الله ، من ذا أغضب الجليل حتى حَلَفَ ؟ لم يصدّقوه بقوله حتى ألجئوه إلى اليمين ؟ قالها ثلاثا ، وخَرجتْ معها نَفْسه !! »

الآيات : (٢٤ — ٣٠)

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين » ..

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة كانت عَرْضاً لعناد المشركين وضلالهم البعيد، المُغرق فى السفه والضلال ، حتى مع هذه الأقسام التى أقسم الله بها سبحانه وتعالى ، فى سَوْق الأخبار إليهم .. فكانت الآية وما بعدها من آيات ، نذيراً من النذر التى تحمل إلى هؤلاء المشركين المعاندين تهديداً بأن يلقوْا مصيراً كمصير المعاندين الضالين ، وهم قوم لوط ..

وفى قوله تعالى : « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين » ـ انتقال بالنبيّ من هذا الجو الخانق الذى يعيش فيه مع قومه ، وما يفوح منهم من ريح خبيثة ، محملة بإفرازات كفرهم وضلالهم .. ففى الاستفهام دعوة للنبيّ الكريم من ربه ، إلى أن يخرج من هذا الجوّ الفاسد ، وأن يملأ صدره بشذا هذه الريح الطيبة التى تهب عليه من ذكرى نبيٍّ كريم ، هو إبراهيم عليه السلام ، وما كان له عند الله من فضل وإحسان . .

وفى مجىء هذا الحديث منقطعاً عما قبله ، غيرَ معطوف عليه ــ عزل تام له عن الحديث السابق ، حتى لا يدخل عليه شىء منه ، وحتى لا يُطلّ عليه وجه من تلك الوجوه المنكرة ، التى كان يراها النبى الكريم من قومه . .

والضيف ، بمعنى الضيوف ، فهو يطلق على الفرد والجمع . . ومثل هذا قوله تعالى على لسان لوط مخاطبا قومه : « إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون » (٦٨ : الحجر) فهو يشير إليه إشارةَ الجمع « هؤلاء » كما وُصفوا هنا بصفة الجمع « المكرمين »

قوله تعالى :

* « إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً .. قال سلام .. قوم منكرون » .

« إذ » ظرف مقيّد لهذا الحديث ، أو الخبر ، الذى كان من الملائكة مع إبراهيم .. فالمراد بالخبر الذى يورده الله سبحانه وتعالى على النبى فيما كان بين الملائكة وبين إبراهيم ـ هو هذا الخبر الذى كان فى هذا الوقت الذى دخلوا عليه فيه ..

وقوله تعالى : « فقالوا سلاماً » — أى قالوا لإبراهيم هذه الكلمة ، يحيّونه بها ، ويبعثون إليه منها أمنا وسلاماً ، ويؤذنونه بأنهم لا يريدون به سوءاً ، بعد أن وقع فى نفسه ما وقع ، من دخولهم عليه هذا الدخول المفاجىء — من مشاعر الريبة ، والخوف ، وتوقع الأذى ! كما يشير إلى ذلك ما جاء فى قوله تعالى على لسان إبراهيم فى آية أخرى : « إنا منكم وجلون » (٥٢ : الحجر) ..

وقوله تعالى : « قال سلام » — هو رد إبراهيم على ضيفه ، وهو رد مقتضب موجز ، فى مقابل تحيتهم الموجزة الخاطفة .. وهو يدل على ما وقع فى نفس إبراهيم من توجس وريبة منهم ..

وقوله تعالى : « قوم منكرون » .. هى كلمة قالها إبراهيم بينه وبين نفسه ، ترجمةً لتوجّسه وخوفه منهم .. فإنه ما كان لنبى الله ، وقد وصفه الله سبحانه وتعالى بالحلم ، أن يَجْبَهَ ضيفَه بهذا القول ، ويرمى به فى وجوههم ، ثم يلقاهم بهذا الإكرام والحفاوة ، بما يقدم لهم من طعام طيب كريم ..

قوله تعالى :

« فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين » ..

راغ لأهله : أى مال إلى أهله ، وانسرب إليهم فى خفة من غير أن يكاشف ضيفَه بما يريد من إكرامهم وإعداد الطعام لهم .. فذلك من شأنه أن يُحرج الضيف ، ويحمله على أن يطلب إلى مضيفه ألا يفعل ..

قوله تعالى :

* « فقربه إليهم قال ألاَ تأكلون » ؟ — هنا إيجازُ حذف دلّ عليه المقام ..

أى فقرّبه إليهم ، فلم يمدّوا أيديَهم إليه ، ولم يُقبلوا على الأكل منه ، كما هو شأنُ الضيف حين يُقدّم إليه . . الطعام فلما رأى ذلك منهم نَكِرهم ، وأوجس منهم خيفة ، وقال : « ألاَ تأ كلون ؟ » . .

قوله تعالى :

* « فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم » . .

وهنا كلام محذوف أيضاً .. « قال ألا تأ كلون » .. فلم يأ كلوا ، ولم يستجيبوا لهذه الدعوة المجددة إليهم « فأوجس منهم خيفة » أى فازداد إحساسه بالخوف منهم ، وقوى عنده الشعور الذى وقع فى نفسه من أول دخولهم عليه ، ولقائهم له . .

« قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم » ـ أى أنهم حين رأوا ما انطبع على وجه إبراهيم من أمارات التوجس والخوف ، سكّنوا من رَوْعه ، وقالوا له : لا تخف ، ثم ألقوا إليه بهذه البشرى المسعدة ، وهى أن يولد له الولد الذى كان ينتظره منذ شبابه الأول ، وهاهو ذا وقد بلغ من الكبر عتيًّا ، وأخلَى يديه من هذا الأمل الذى كان يراوده ، وخاصة أن امرأته كانت عقيما ، ثم اجتمع مع هذا العقم تجاوزها العمر الذى تلد فيه النساء ـ ها هوذا يتلقى هذه البشرى المسعدة .

والغلام الذى بُشر به هو إسحق ، من زوجه سارة . . « والعليم » ، مبالغة من العلم ، والعلم كان صفة بارزة من صفات إسحق ، كما كان الحلم الصفةَ البارزة فى إسماعيل ، كما يقول سبحانه : « فبشرناه بغلام حليم » (١٠١ : الصافات) .

قوله تعالى :

* « فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ».

الصَّرَّة : الصيحة ، من دَهَش ، أو فزع . .

وصَكُّ الوجه : لطمه تلقائيًّا ، عند ورود أمر عجيب ، غير متوقع . .

والمعنى ، أن امرأة إبراهيم ، حين سمعت بهذا الخبر من ضيفه ، وبأنهم يحملون إليه البشرى بولد ـ أخذتها حال من الدَّهَشَ والعجب ، فأقبلت إليهم ، فى وَلْولة وصياح وانزعاج ، وقد ضربت بيديها على وجهها ، ثم قالت :

« عجوزٌ عقيم » ! ! فكيف يكون هذا ؟ وكيف تلد العجوز ؟ ثم كيف تلد مَن اجتمع مع شيخوختها العقم ؟ إنه هذا لشىء عجيب ! !.

قوله تعالى :

* « قالوا كذلكِ قال ربُّك إنه هو الحكيم العليم » . .

أى أن هذا الذى نقوله ليس من عندنا ، وإنما هو ما قاله الحق جَلّ وعَلاَ . .

وهو « الحكيم » الذى يدبر الأمور بحكمته ، فيقع الأمر حيث أراد ، ومتى أراد . . كما أراد .

وهو « العليم » ، الذى يضبط الأمور بعلمه ، ويزنها ويقدّرها بحكمته . .

وهذا الموقف الذى كان بين إبراهيم ، وضيفه ، وامرأته ، لم تذكر الآيات الكريمة هنا منه ، إلاّ الأحداث البارزة فيه ، وقد ذُكِر هذا

الموقف فى مواضع أخرى من القرآن الكريم ، وكل موضع منها يمسك بالموقف كله ، كاشفاً عن جانب من جوانبه ، مسلّطا الضوء على مقطع من مقاطعه . . فإذا نظر الناظر إلى أى موضع جاء فيه ذِكرُ هذا الموقف فى القرآن الكريم ، وجد بين يديه حدثاً كاملا ، فإذا ضُمّت هذه المواضع بعضها إلى بعض ـ رأى صورة مكبرة للحدث ، تزداد به الصورة وضوحاً . . تماماً كما تفعل « المصوِّرة » فى نقل صور للشىء الواحد من أكثر من جانب ، وفى أكثر من وضع . .

والشىء هو الشىء ، فى أية صورة من تلك الصور . .



عبد الكريم الخطيب

التفسير القرآني للقرآن

الكتاب الرابع عشر

الجزءان السابع والعشرون والثامن والعشرون

من مباحث هذا الكتاب

- هذا الانقلاب فى عوالم الوجود يوم القيامة ما تأويله؟
- البعث.. وعلى أية صورة يقع ؟
- المعراج.. وما يقال فيه
- سورة الرحمن.. ونظمها
- الأقسام المنفية فى القرآن.. ودلالتها
- المسيحية رأفة ورحمة.. ثم ماذا ؟ !
- الحروف التى يقال بزيادتها.. ما تأويلها ؟
- القرآن.. وما يتجلى على الوجود منه
- المسيح.. وتبشيره بالنبى
- "فاتقوا الله ما استطعتم" ما تأويله؟
- الحياة الدنيا.. ما نأخذ منها وما ندع

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى

(الآيات : (٣١ — ٣٧)

* « قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَآ آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٣٧) »

٢٧٤

التفسير :

قوله تعالى :

* « قال فما خَطْبكم أيها المرسلون » ..

الخطب : الشأن العظيم ، والأمر الخطير ذو البال . .

ولقد ذهب عن إبراهيم الرّوعُ من ضيفه هؤلاء ، بعد أن عرف أنهم من ملائكة الرحمن ، وسكنت امرأتُه بعد هذا الهياج الذى استولى عليها من أن يكون لإبراهيم ولدٌ منها بعد هذه الشيخوخة والعقم ! ..

وهنا يتجه إبراهيم إلى ضيفه من الملائكة يسألهم عما جاء بهم إليه ..

إنهم لم يجيئوا على تلك الصورة الغريبة ، التى أوقعت الرّعب فى قلبه ليبشروه بغلام . . فإن الذى يحمل البشرى إنما يقدّم بين يديه دلائلَ هذه البشرى وأماراتها ، بل إن ريح البشرى نفسها لتسبق الحامل لها ،

فيجد لها المحمولةُ إليه ، وقعاً طيبا فى نفسه ، وشعوراً مُسعداً فى كيانه ، قبل أن تبلغه .. تماماً كما وجد يعقوب من ريح يوسف ، قبل أن يأتيه البشير بقميصه .. ومن هنا كان سؤال إبراهيم الملائكة عما وراءهم ، من أمرٍ خَطير ، وماذا يحملون من شئون تتصل به من قريب أو بعيد ؟ .

وفى نداء إبراهيم لهم باسم المرسَلين، لا باسم الملائكة ، إشارة إلى أنهم ليسوا مجردَ ملائكةٍ عابرين به ، بل إنهم محمّلون برسالة من رب العالمين .. فهو يسألهم عن محتوى ما أُرسلوا به إليه ..

قوله تعالى :

* « قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين » ..

أى أننا لم نُرسل إليك بما توقّعته من شرّ ، وإنما أُرسلنا إلى قوم مجرمين ..

والقوم المجرمون ، هم قوم لوط ، كما يُفهم ذلك من مواضع أخرى فى القرآن الكريم .

* « لِنرسلَ عليهم حجارةً من طين * مسومة عند ربك للمسرفين » ..

هو بيان السبب الذى من أجله أُرسل هؤلاء الرسل إلى القوم المجرمين ، قوم لوط .. إنهم أرسلوا إليهم ليرسلوا عليهم حجارة من طين ، وكأنّ هذه الحجارة هى الرسل التى تنزل عليهم من السماء بالدمار والهلاك ، فى حين أن هناك رسلاً أخرى تنزل على المكرمين من عباد الله بالرحمة والإحسان ..

وفى وصف الحجارة بأنها من طين ـ إشارة إلى أن هذا الطين اللّين الرخو ، يفعل بقدرة الله فِعْلَ الحجارة الصلدة، فيهلك ، ويدمّر ، وكأنه الصواعق المنقضّة من السماء ..

وقوله تعالى : « مسومةً عند ربك » : أى مُقَدَّرة ، ومهيأةً عند الله ومرصودة لهؤلاء القوم « المسرفين » الذين جاوزوا الحدّ فى الضلال ، وفى ارتكاب هذا المنكر الذى كانوا يعيشون فيه ، ففى كل حجر سِمَتُهُ التى وُسم بها ، والتى تحدِّد له موقعه من القوم ، وصَرْعاه الذين يقع عليهم ..

* « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين » ..

لم تَذْكر الآياتُ هنا ما كان من إبراهيم من مراجعة الملائكة فى هذا الأمر الذى جاءوا به ، ومن تخوفه على لوط أن يناله سوء مما يحل بهؤلاء القوم الذين سترسِل السماء عليهم هذه الحجارة المهلكة ، ولوط بينهم — لم تذكر الآيات هذا ، لأنه قد ذُكر فى مواضع أخرى ، كما فى قوله تعالى على لسان إبراهيم : « قال إن فيها لوطاً » وقد أجابه الملائكة بقولهم : « نحن أعلم بمن فيها .. لننجينّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين » (٣٢ : العنكبوت) ..

وهذا القول هو من الله سبحانه وتعالى ، وهو إخبار بما انتهى إليه أمر هؤلاء القوم المسرفين ، وما كان من نجاة لوط ومن آمن معه ..

والضمير «فيها» القرية ، قرية لوط وقومه .. ولم تُذكر هنا ، لأنها معروفة بما ذكر عنها فى مواضع أخرى من القرآن الكريم ، ثم لأنها معروفة ضمناً فى هذا الحديث ، إذ من المعروف أن القوم يسكنون فى قرية أو قُرًى ا ..

* « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » ..

أى لم يكن فى هذه القرية إلا بيت واحد استحق السلامة والنجاة من هذا البلاء الذى أتى على القرية وأهلها ..وهو بيت لوط ومن آمن من أهله .

* « وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم » ..

أى أن هذه القرية قد ذهبت بمن فيها ، وبقى من هذه القرية آثار واضحة

من الدّمار والهلاك الذى حلّ بها وبساكنيها .. يراه من كان يمر عليها بعد هذا العذاب الذى نزل بها ، ثم بقى لها بعد ذلك ذكرٌ سيِّىء فى صحف التاريخ ، وفى الـكتب السماوية التى نزلت على رسل الله بعد هذا ..

وفى هذا وذاك آية ، للذين يؤمنون بالله ، ويخافون العذاب الأليم يوم القيامة ، فيرون فى تلك الآية سلطان الله وقدرته ، وأخذه الأليم الشديد لمن يخرجون عن صراطه المستقيم ..

الآيات : (٣٨ — ٤٦)

* « وَفِى مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ (٤٢) وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين * فتولّى بركنه وقال ساحرٌ أو مجنون ».

هو معطوف على قوله تعالى: « وتركنا فيها آية » ـ أى وتركنا كذلك آيةً فيما كان بين موسى وفرعون..

والسلطان المبين الذى أُرسل به موسى إلى فرعون، هو ما كان معه من آيات معجزة متحدية، كالعصا، واليد..

وقوله تعالى: « فتولّى بركنه » أى أعرض عن النظر فى هذه الآيات، معتزاً بركنه، أى قوته وسلطانه.. والركن: مايركن إليه الإنسان فى الملمات، ويحمى ظهره به، كما يقول تعالى على لسان لوط، مخاطباً قومه: « لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » (٨٠: هود).. والجارّ والمجرور حال من الفاعل المستتر وهو « فرعون »..

وقوله تعالى: « وقال ساحر أو مجنون » ـ حال أخرى من فرعون ساعةَ توليه وإعراضه عن دعوة الحق، التى يدعوه إليها موسى، أى تولى معتزًّا بركنه وقوته، قائلا هذا القول الآثم فى موسى: « ساحر أو مجنون ».. وساحر خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو، أى موسى.. ولم يُذكر موسى ظاهراً أو مضمراً، حمايةً له من أن يقال هذا القول المنكر فيه..

وقوله: « ساحر أو مجنون » ـ إشارة إلى أن هذا القول لم يكن من فرعون عن علم، وإنما هو رمية من رميات طائشة، يرمى بها من غير حساب أو تقدير..

فهو متردد فى الحكم الذى يحكم به على موسى.. ولكن لابد من أن يصدر حكما، ويقول قولاً..

وهذا شأن أهل الضلال، حين يقهرهم الحق، وتسقط من بين أيديهم الحجة على دفعه.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى هذه السورة عن المشركين الذين قالوا مثل هذا القول فى رسول الله محمد صلوات الله وسلامه عليه: « كذلك

ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون » (الآيتان : ٥٢ ـ ٥٣) ..

* « فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم » ..

المراد بالأخذ هنا ، الأخذ الذى يَرِدُ بصاحبه موارد الهلاك، وأخْذ الله سبحانه لايكون إلا حيث تقع نِقَمُه ، وينزل بلاؤه . . مثل قوله تعالى لفرعون: « فأخذه الله نكال الآخرةِ والأولى » (٢٥ : النازعات) ..

وقوله تعالى : « فنبذناهم فى اليمّ » أى ألقيناهم فى اليم ، أى البحر ، ونَبْذُ الشىء ، طرْحُه وإلقاؤه دون مبالاة . .

وقوله تعالى : « وهو مليم » جملة حالية ، تصف الحال التى كان عليها فرعون ، حين نُبذ هو وجنوده فى اليم . .

والمُليم . المستحق للوم ، وفعله : ألاَم : أى أوقع نفسَه فيما يُلام عليه..

وفى عود الضمير على فرعون وحده فى قوله تعالى : « وهو مليمٌ » ـ إشارة إلى أنه هو وحده الذى يحمل وزره ووزر قومه، إذ كان هو داعيتهم إلى هـذا الضلال . . أما قومه فإن كلا منهم يحمل وزر نفسه ، لمتابعته الداعيةَ الذى دعاه إلى هذا الضلال . .

* « وفى عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم » . .

معطوف على قوله تعالى : « وفى فرعون » — فهو عطف حَـدَث على حدث . .

والريح العقيم ، هى الريح التى فسدت طبيعتها ، فلا تلد خيراً أبداً ، بل تلد الهلاك والدمار لمن تشتمل عليه ، وتلفّه فى كيانها ، والأصل فى الريح أنها

تجىء محمّلة بالخير ، بل والحياه للأحياء كلها ، إذ منها يتنفّس كل حى أنفاس الحياة .. ولـكن هذه النعمة قد صارت نقمة على القوم الضالين ..

* وقوله تعالى : « ما تَذَرُ من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » — هو بيان لِمَا تترك هذه الريح العقيم من آثار ومخلّفات وراءها . . إنها لاتترك شيئاً تمرّ عليه إلاّ دمّرته ، وحطمته ، وأتت على كل صالحة فيه ، فيتحول إلى كيانٍ بالٍ متفتت .

والرميم : العظام البالية ، والرُّمة : الحبل البالى ، والرَّمُّ : إصلاح الشىء البالى ..

قوله تعالى :

* « وفى ثمودَ إذ قيل لهم تمتعوا حتى حينٍ * فعَتَوْا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون * فما استطاعوا من قيامٍ وما كانوا منتصرين» ..

هو معطوف كذلك على قوله تعالى : « وفى عاد » ـ عطف حَدَث على حَدَث ، وقصّة على قصة . .

أى وفى ثمود آية .. بما أخذهم الله به من نـكال وعذاب ..

فلقد كان القوم فى نعمة ظاهرة ، وقوة متمكنة ، إذ بوّأهم الله الأرض ، وملّـكهم القدرة على إثارتها وعُمرانها ، فاتخذوا القصور فى سهولها ، ونَحَتُوا البيوت فى جبالها ، كما يقول سبحانه على لسان نبيهم « صالح » إذ يقول لهم : « واذكروا إذ جعلـكم خُلفاء من بعد عادٍ وبوّأ كم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبالَ بيوتاً » (٧٤ : الأعراف) ..

وفى قوله تعالى : « إذ قيل لهم تمتعوا » ـ إشارة إلى هذه النِّعم التى كان القوم فيها ، وأنها تتيح لهم التمتع بحياة طيبة فيها ، لو أنهم رَعَوْها حق

رعايتها ، ولم يلبسوا بها ثوب الغرور والجهالة ، ولم يتخذوا منها سلاحاً يحاربون به الله ، ويحادّون رسوله ..

ولم يقل لهم أحد تمتعوا ، ولـكنه لسان الحال إذ ماسيقت إليهم هذه النعم إلا ليعيشوا فيها ، وليتمتعوا بها إلى أن تحين آجالهم ..

وقوله تعالى : « حتى حين » بيان للغاية التى يكون تمتع القوم فيها بهذه النعم ، وأنها لا تنقطع عنهم حتى يحين أجلهم المقدور لهم عند الله . .

وقوله تعالى : « فَعَتَوْا عن أمر ربهم » العُتوّ : التمرد والاستعلاء . .

وقوله تعالى : « فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون » ـ هو تعقيب على عتوّهم ، وخروجهم عن أمر الله .. وأن هذا العذاب الذى أُخذوا به ، إنما هو لعتوّهم ، وتمردهم على الله ، وكفرهم به . .

وقوله تعالى : « فما استطاعوا من قيام » — أى حين نزل بهم العذاب ، بَهَظَهم ، وكظم أنفاسهم . ، ولم يجدوا معه قدرة على أن يقوموا لدفعه ، والهروب من وجهه . .

وقوله تعالى : « وما كانوا منتصرين » — أى وما كانوا منتصرين على هذا العذاب لو أنهم قاموا له ، وتلقّوه بكل مامعهم من حول وحِيلةٍ ..

قوله تعالى :

* « وقومَ نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين » . .

هو معطوف على المفعول به فى قوله تعالى : « فأخذهم العذابُ » ..

أى وكذلك أخذ العذابُ قومَ نوح من قبل هؤلاء الذين أخذهم الله سبحانه بعذابه . . « إنهم كانوا قوماً فاسقين » أى خارجين عن أمر ربهم ، متجاوزين حدوده ..

الآيات : (٤٧ — ٦٠)

* « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١) كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « والسماء بنيناها بأيدٍ وإنّا لموسعون » .

الأيد : القوة ، والتمكن ..

والآية معطوفة على الآية السابقة : « وقومَ نوح .. » أى وقوم نوح أخذناهم بالعذاب ، والسّماء بنيناها بأيدٍ ..

ومع ما يبدو من بُعد المفارقة فى الظاهر بين أخْذ قوم نوح ، وبين بناء السماء ـ فإن هـذه المفارقة تبدو موافقة ، إذا نظرنا إلى قدرة الله سبحانه وتعالى ، وقيومته جلّ شأنه ، على كل شىء . . فهو سبحانه ، يحيى ويميت ، ويُغنى ، ويُفْنى ، ويرفع ويضع ، وهو سبحانه الذى أخذ الظالمين بالهلاك ، وهو جلّ شأنه الذى أقام السماء بقدرته . .

وفى قوله تعالى : « وإنّا لموسعون » — إشارة إلى امتداد السماء واتساعها ، كما يبدو ذلك لأى ناظر ينظر إليها ، حيث لا يبلغ الإنسان لها حدّاً ، فحيث كان من عالم الأرض ، فإن السماء تظلّه على امتداد الآفاق ، حوله.. فإذا نظر بعين العلم ، أراه العلم أن هذا الوجود فى نماء مستمرّ ، وأنه أشبه بالـكائن الحىّ فى دور نموّه واكتماله . . وفى حين أن الـكائن الحىّ يبلغ حدًّا يقف عنده ، إلا أن الوجود فى نمو دائم لا يتوقف ، ولعل هذا من بعض ما يشير إليه قوله تعـــالى : « يَزيد فى الخلق ما يشاء » (١ : فاطر) . .

قوله تعالى :

* « والأرضَ فرشناها فنعم الماهدون » . .

معطوف على قوله تعالى : « والسماء بنيناها » . .

وقوله تعالى : « فنعم الماهدون » ـ هو ثناء من الله سبحانه وتعالى من ذاته على ذاته ، كما فى قوله تعالى : « فتبارك الله أحسن الخالقين » (١٤ : المؤمنون) وقوله سبحانه : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير » (١ : الملك) وقوله جل شأنه : « تبارك الذى نَزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » (١ : الفرقان) . .

وفَرْشُ الأرض : بَسْطها كما يُبسط الفراش للنوم ، والماهد : الذى يهيء الشيء ويَمْهَده كما تُمْهَد الأرض للزرع ، وكما يُمْهَد الفراش للنوم ، ومنه المَهد ، وهو مايهيأ من فراش لِنوم الوليد ..

والمخصوص بالمدح ، دَلّ عليه المقام ، أى فنعم الماهدون نحن ، أى الله سبحانه وتعالى ..

قوله تعالى :

* « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ..

هو معطوف على ما قبله ، أى وفرشنا الأرض ، وخلقنا من كل شيء زوجين ..

و « مِن » هنا للاستغراق..أى وكلّ شيء خلقناه متزاوجاً . أى أن الشيء الواحد ليس فى حقيقته شيئاً واحداً ، وإنما هو شيئان اجتمع بعضهما إلى بعض، فكان منهما هذا الشيء .. وهذا دليل على أن الخالق وحده ، هو الواحد الذى لاشريك له ..

فالخليّة التى هى أصل بناء الكائن الحىّ ، تنقسم على نفسها ، فى عملية أشبه بعملية التوالد ، وبهذا الانقسام ينمو الكائن الحىّ .. فالخلية تنقسم إلى خليتين ، وكل خلية منهما تنقسم إلى خليتين .. وهكذا ، إلى مالا يحصى من الخلايا التى يضمها كيان الكائن الحىّ من مولده إلى تمام نموه .. فإذا تم نمو الكائن الحىّ لم تتوقف عملية التوالد ، وإنما يقابلها من جهة أخرى عملية الهدم، فى نِسَب تأخذ فى ازدياد ما يُهدَم على ما يُبنَى ، كلما تقدم الكائن الحىّ نحو طريق الفناء .. فإذا توقفت عملية البناء ، مات الكائن الحىّ ..

هذا فى الخلية .. وكذلك الشأن فى النواة ، إنها تتكون من فِلقين يضمان

بينهما بَذرة الحياة ، التى لا تأخذ طريقها إلى الحيـــاة إلا إذا وجدت الظروف الملائمة التى تعمل على فَلْق النواة إلى شِقّيها ، وإخراج بذرة الحياة منهما . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعـالى : « إن الله فالق الحب والنوى » (٩٥ : الأنعام) . .

والإنسان خلية كبيرة مكونة من أعداد لاتعدّ بحسابنا ـ من الخلايا ، وكما يتم نموه الشخصىّ بالتوالد الذاتى بين خلاياه ، يتم نموه الجنسى بالتزاوج بين الذكر والأنثى ، وذلك بين خلية من الذكر وخلية من الأنثى عند التقاء الرجل بالمرأة .. وهكذا الحيوان ، والنبات .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وخلقناكم أزواجاً »

فإذا تجاوزنا عالم الأشياء التى تتوالد بالزواج ، وجدنا هذه المزاوجة قائمة فى عالم المعانى ، مثل الحق والباطل ، والخير والشر ، والإيمان والكفر ، والهدى والضلال ، والسعادة والشقاء .

وهكذا المزاوجة فى كل شىء ، حيث لا يوجد شىء إلا وله ما يقابله .. وذلك مما يشهد لله سبحانه وتعالى بالوحدانية والتفرد ، فهو الواحد الأحد ، الفرد ، الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . .

قوله تعالى :

* « ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين » . .

الفِرار إلى الله : الالتجاء إليه ، والاحتماء به ، والاستظلال بظله . .

وفى الدعوة بالفرار إلى الله ، إشارة إلى أن هناك خطراً يتهدد الإنسان ، إذا هو خرج عن أمر ربه ، وحاد عن الصراط المستقيم .. إنه حينئذ يقع تحت

يد الشيطان ، الذى يفترسه ، كما يفترس الذئب ضالّة الغنم ..

وقوله تعالى : « إنى لكم منه نذير مبين » هو بيان من الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه، يدعو الناس إلى الله،وأن يعجلوا بالفرار إليه ،وتلك الدعوة ليست من عنده ، وإنما هو رسول الله بها إليهم .. إنه نذير مبين من الله إليهم ، يبيّن لهم بما معه من كلمات ربه ، طريقَ الهدى ، وينذرهم من عذاب الله إذا هم خرجوا عن هذا الطريق ، وركبوا طريق الضلال ..

قوله تعالى :

* « ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنى لكم منه نذير مبين » ..

ومن مقتضى الفرار إلى الله ، الإيمانُ به ، والإقرار بوحدانيته ، واطراح كل معبود سواه ..

وجاء النهى هنا عن الشرك بالله ، وعن اتخاذ إله آخر معه ، تأكيداً لما تضمنه الأمر بالإيمان بالله الذى هو حبل النجاة ، فإذا أمسك به الإنسان كان فى الناجين ، على أى وجه كان عمله بعد ذلك ..

وفى قوله تعالى : « إنى لكم منه نذير مبين » ـ تأكيد لهذه الدعوة التى يدعو الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الناسَ إليها ، وهى الإيمان بالله وحده ..

وفى إعادة فاصلة الآية : « إنى لكم منه نذير مبين » ـ إعجاز من إعجاز القرآن ، حيث يجعل من الآيتين ـ الآمرة والناهية آية واحدة ، الأمر الذى يدعو إلى الجمع بينهما ، والأخذ بهما جميعاً ، وأن الأخذ بواحدة منهما لا يغنى عن الأخذ بالأخرى .. وكأن نظم الآيتين هكذا ..

« ففروا إلى الله .. ولا تجعلوا مع الله إلها آخر .. إنى لكم منه نذير مبين »

ولكن شتان بين هذا النظم ، وبين ما جاء عليه النظم القرآنى المعجز ..

فى النظم القرآنى ، يقوم على الأمر نذير مبين ، وعلى رأس النهى يقوم هذا النذير المبين أيضاً .. إن هذه دعوته ، وتلك دعوته وهو بهذا يأمر ، وبذلك ينهى ..

فإذا أخذ المأمور بما أمر به ، وانتهى المنهىّ بما نُهِىَ عنه ـ كانت نجاته ، وكانت سلامته ، وكان فوزه .. أما إذا أخذ بواحدة دون الأخرى، فهيهات أن يسلم ويبلغ مأمنه ..

فقد يفر المرء إلى الله ، وَمعه إله أو آلهة أخرى يحملها فى كيانه ، ويحتفظ لها بمكانها من قلبه ..

وقد لا يجعل الإنسان مع الله إلهاً آخر ، ولكن قد يكون ذلك كمجرد فكرة حبيسة فى عقله ، أو نظرية فلسفية تقيم بناء منطقه الفلسفى .. ثم لا يكون لهذه الفكرة أو تلك النظرية منطلق نزوعىّ أو سلوكى ، يرِدُ به موارد الهدى ، ويسلك به مسالك الخير ..

والفرار إلى الله يجعل من الإيمان به حركة دائبة إلى العمل الطيب القائم فى ظلّ هذا الإيمان ..

واستصحاب الإيمان بالله ، إيماناً خالصاً من الشرك فى حال الفرار إليه، يجعل هذا الفرار محمود العاقبة ، بالغاً بصاحبه مأمنه ..

قوله تعالى :

* « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون » ..

هو بيان لحال هؤلاء المشركين الذين يجعلون مع الله إلها آخر ، إنهم

لا يستجيبون لهذا النذير المبين ، الذى يدعوهم إلى الإيمان الخالص من الشرك بالله ، وينذرهم عاقبة هذا الضلال الذى هم فيه ، وهم يأبون إلا التكذيب به ، والبَهت له ، والسفاهة والتطاول عليه . . فيقولون فيما يقولون عن هذا النذير : ساحرٌ أو مجنون . .

وإن حالهم تلك شبيهة بحال أهل الضلال والشرك من قبلهم ، الذين لم يأتهم رسول من رسل الله يدعوهم إلى الإيمان بالله ، إلاّ تَلَقَّوْه بهذه المقولة الآثمة : « ساحر أو مجنون » . . وقد قالها من قبل فرعون ، إذ جاءه موسى بآيات من الله وسلطان مبين : « فتولىٰ بركنه وقال : ساحر أو مجنون » . .

وفى هذا عزاء للنبى ، ووعيد للمشركين بأن يلقوْا المصير الذى لقيه المكذبون برسل الله من قبلهم .

قوله تعالى :

* « أتواصوْا به ؟ بل هم قوم طاغون » . .

هو استفهام إنكارى يكشف عن هذه الطبيعة المنكرة المندسّة فى أهل الضلال . . ولكأنّ هذا الضلال داء خبيث معدٍ ، يرثه الأبناء عن الآباء ، جيلا بعد جيل . . أو لكأنه عند أهله عمل مبرور ، يتواصون به فيما بينهم ، ويتركونه ميراثًا لأبنائهم من بعدهم . .

وقوله تعالى : « بل هم قوم طاغون » — إضراب على هذا الاستفهام ، فإنه لم تكن هناك دعوة قائمة بالتواصى بين هؤلاء الضالين ، السابقين منهم واللاحقين ، ولكنها النفوس النكدة ، والطباع اللئيمة ، تُفرز من ذاتها هذا الضلال الذى يُغرقها ، ويُغرق من يأخذ طريقه معها . .

قوله تعالى :

* « فتوَلَّ عنهم فما أنت بملوم » . .

هو أمر للنبىّ الكريم بأن يعرض عن هؤلاء الأشقياء ، ويَدَعَهم للمصير المشئوم الذى هم صائرون إليه ، مع ضلالهم وكفرهم . . وإنه ليس على النبى لوم فيما سيلقاهم من بلاء ونكال ، بعد أن بلّغهم رسالةَ ربهم هذا البلاغ المبين الذى احتمل فى سبيله ما احتمل من سَفهِ السفهاء ، وجهل الجاهلين . .

قوله تعالى :

* « وذكِّر فإن الذكرى تَنفَعُ المؤمنين » .

هو معطوف على قوله تعالى : « فتولّ عنهم » أى فتولّ عن هؤلاء المعاندين الضالين ، ولا ترهق نفسك بالجرى وراءهم ، ولكن ذلك لا يمنعك من أن تقوم على دعوتك ، وأن تؤذّن بها فى الناس . . فذلك هو شأنك ، ودأبك ، وهو أسلوب رسالتك التى تدعو إليها . . « إنها تذكرة . . فمن شاء ذكره » (٥٥ : المدثر) . . « فذكر إنما أنت مذكّر لست عليهم بمسيطر » (٢١ ، ٢٢ الغاشية) . . « إن هو إلا ذِكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم » (٢٧ ، ٢٨ التكوير)

فعرض الدعوة على الناس ، وكشف معالم الهدى لهم ، بما يُتلى عليهم من آيات الله . . وإن لم يلتفت إليه كثير منهم ، ولم يأخذوا طريقهم إليه أمر مطلوب من النبى ، فإن كثيراً من الناس ينتفعون به ، ويقيمون وجوههم عليه ، كما أن المؤمنين الذين آمنوا بالله ، واستجابوا لدعوة الحق ، يزيدهم هذا التذكير إيمانا ، ويقع من قلوبهم موقع النفع ، فيقوّى يقينَهم ، ويثبت أقدامهم على طريق الحق . .

قوله تعالى :

* « وما خَلَقْتُ الجنّ والإنسَ إلاّ ليَعْبُدون » .

هو دعوة للناس إلى أن يستجيبوا لما يدعوهم الرسول إليه ، وأن يقوموا على الأمر الذى خلقهم الله سبحانه وتعالى له ، وهو عبادته . . فما خُلِق الإنسان إلا ليكون عبداً لله ، عابداً له ، مُظهراً بعبوديته وعبادته جلالَ المعبود ، وعظمتَه ، وسلطانه . .

وليس الجنّ والإنس وحدهما ، هما اللذان خُلقَا لعبادة الله ، بل إن كل مخلوق ، وكل موجود ، خلق لهذه الغاية ، حيث تتجلّى فى المخلوقات جميعها ألوهة الإله ، وقدرته ، وعظمته .. والله سبحانه وتعالى يقول : « إنْ كلُّ من فى السموات والأرض إلاّ آتِى الرحمنِ عبداً » (٩٣ : مريم) ويقول جل شأنه : « ولله يَسْجُد من فى السموات والأرض طوعاً وكَرهاً وظلالهم بالغدوّ والآصال » (١٥ : الرعد) .. ويقول سبحانه : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » (٤٤ : الإسراء) . .

فالكافر الذى لا يؤمن بالله ، ولا يسبح بحمده ، هو مؤمن بالله كَرهاً ومسبّح بحمده قسراً . . فكل ذرة فيه ، وكل جارحة من جوارحه ، تسبح بحمد الله ، وتؤدى وظيفتها على الوجه الذى أقامها الله سبحانه وتعالى فيه . . فالخلايا التى يُبنى منها الكيان الجسدى للإنسان تسبّح بحمد ربها فى عملها الذى تؤديه بناء أو هدماً فى الكيان الإنسانى ، والقلب بخفقاته ، والدم بجريانه فى العروق ، والعروق بحملها للدم ، وتغذيتها الجسم به ، والعين فى نقلها للمرئيات ، والأذن بتلقيها للمسموعات .. وهكذا كل ما فى الإنسان ـ ظاهراً أو باطناً ـ يسبح بحمد الله . وكذلك الشأن فى كل موجودات

الوجود ، ما نعلم منها وما لا نعلم ، تسبح بحمــد الله ، وتقوم بما خلقها الله له . .

وفى اختصاص الجن والإنس من بين المخلوقات ، بالذكر ، إشارة إلى أنهما هما المخلوقان اللذان لهما إرادة عاملة ، وهما بهـذه الإرادة يعملان ، فيؤمنان أو يكفران ، ويطيعان أو يعصيان ، ومن هنا وقـع عليهما التـكليف ، وحُقّ عليهما الحساب والجزاء ، بمقتضى ما يعملان من خير أو شر . .

وقد تـكون هناك مخلوقات أخرى لها إرادة ، وعليها تـكليف وحساب وجزاء ، ولـكن الذى يقع فى محيط الإدراك الإنسانى ، هو ما يعلمه الإنسان من نفسه ، وما بَلَغَــه من رسالات الرسل ، كما كان علمه بالجنّ ، وأنهم مكلفون ، ومنهم المؤمنون ، ومنهم القاسطون . . كما أخبر بذلك رسل الله . .

قوله تعالى :

* « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » . .

أى أن الله سبحانه وتعالى غنىّ عن عبادة عباده ، وعن إيمان المؤمنين به . . فما يريده سبحانه وتعالى من عبادة العابدين ومن إيمان المؤمنين ، هو لذات أنفسهم ! وللخير الذى يحصّلونه من العبادة والإيمان ، وللجزاء الحسن الذى ينالونه بطاعتهم لله ، وولائهم له . . فليست هذه العبادة ، وهذا الولاء مما ينتفع الله سبحانه وتعالى بشىء منه . إن الله غنى عن العالمين : « إن تـكفروا فإن الله غنىّ عنـكم ولا يرضى لعباده الـكفر وإن تشكروا يَرْضَهُ لـكم » (٧ : الزمر) .

قوله تعالى :

* « إن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين » ..

فالله هو الرزاق الذى يُفيض رزقه على عباده ، ويمنحهم من فضله مايمسك عليهم وجودهم ، ويقيم حياتهم ، وهو سبحانه ، ذو القوة القادرة المقتدرة ، بيده مقاليد السموات والأرض .. وإذ كان هذا شأنه سبحانه ، فإن أعمال خلقه من خيرٍ أو شرّ لاتجلب له خيراً أو ضرّا .. إنه سبحانه فوق المؤثرات، خيرها وشرّها ، لأن التأثر عارض يعرض المخلوقات التى تقبل بطبيعتها الزيادة والنقص .. والله سبحانه ، الـكامل الـكمالَ المطلق ، الذى لا يقبل زيادة أو نقصا، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيراً ..

قوله تعالى :

* « فإن للذين ظلموا ذَنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون » ..

هو وعيد للذين لم يستجيبوا لله ، ولم يؤمنوا به ، فأوقعوا بأنفسهم ظلما فادحا ، يتجرعون منه كئوس البلاء والعذاب ..

والذّنوب : الدلو، أو السَّجْل ، يُملأ ماء ، والمراد به هنا ذَنوب مملوء عذابا لهؤلاء الظالمين ، مثل ما يُملأ لأصحابهم الذين سبقوهم من أهل الضلال ، وذلك على عادة العرب فى الاستقاء من الآبار ، حيث يتساجلون ، فيملأ هذا دلواً ، والآخر دلواً ..

وقوله تعالى : «فلا يستعجلون» تهديد ووَعيد لهم ، بأن هذا الذى يستعجلونه من العذاب ، استخفافا به وتـكذيبا له ، هو واقع بهم ، ويومئذ لايجدون وليّا ولا نصيراً ..

قوله تعالى :

• « فويل للذين كفروا من يومهم الذى يُوعدون » ..

أى هلاك وبلاءٌ واقع بهؤلاء الظالمين الذين كفروا ، وذلك فى اليوم الموعود ، الذى أنذروا به ، وإنهم لملاقوه ، وملاقو العذاب الأليم فيه ..

وقوله تعالى : « من يومهم » متعلق بقوله تعالى : « ويلٌ » ـ أى أن هذا الويل ، سيردُ عليهم من يومهم الموعود هذا ، فهو يوم كله ويلٌ ،لايجيئهم منهم إلا مايسوؤهم ويُلبسهم ثياباً من نار جهنم ..

* * *

٥٢ - سورة الطور

نزولهـــا : مكية ..

عدد آياتها : تسع وأربعون .. آية

عدد كلماتها : ثلاثمائة واثنتا عشرة كلمة ..

عدد حروفها : ألف وخمسمائة حرف ..

مناسبتها لما قبلها

خُتمت سورة الذاريات التى سبقت هذه السورة بقوله تعالى : « وإن للذين ظلموا ذَنوباً مثلَ ذَنوب أصحابهم فلا يستعجلون * فويلٌ للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون » .. وفى هذا تهديد ووعيد لأهل الكفر والضلال ، بالعذاب الذى أُنذروا به ، والذى ينتظرهم يوم القيامة ..

وقد بدئت سورة « الطور » هذه ، بهذه الأقسام ، التى أقسم سبحانه وتعالى بها ، وأوقعها على وقوع العذاب بأهل الكفر والضلال يوم القيامة ، وأنه واقع لاشك فيه .. « إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع » ..

فالسورتان تتلاقيان ختاماً وبدءاً ، حتى لكأنهما سورة واحدة ..

وإن الذى ينظمهما فى التلاوة ، دون أن يفصل بينهما بالبسملة ، ليجد هذا الترابط الوثيق بينهما ، فلا يشعر بأن سورة قد انتهت وأخرى قد بدأت ..

وهذا ـ فى رأينا ـ دلالة قاطعة على أن ترتيب السور فى المصحف الكريم، هو توقيفٌ من عند الله ، وبعمل الرسول ، تماماً كترتيب الآيات فى سورها ،

وأن الخلاف الذى يدور حول ترتيب السور ، وأنه توقيفى ينبغى أن يرتفع ، مع قيام هذه الشواهد التى نراها فى تلاحم السور من أول فاتحة الكتاب إلى سورة الناس ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٦)

* « وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع » .

الطور : هو طور سينين ، أو سيناء ..

وكتاب مسطور : هو جنس ما يكتب من الكتب ، ولهذا جاء منكراً موصوفاً بأنه مكتوب فى رَق منشور ــ وهو ما يكتب عليه من جلد رقيق ..

وفى وصف الكتاب بأنه مسطور ، إشارة إلى أنه مكتوب كتابة فى أسطر على نحو مايكتب الكاتبون ..

وفى وصفه بأنه فى رَق منشور ـــ إشارة أخرى إلى أنه خفيف الحمل ، سهل التداول ، وأنه منشور ، أى مفتوح للقارئين ، غير مطوى عنهم ..

وفى هذا كله تنويه بالكتابة ورفع لقدرها ، وأنها باب واسع من أبواب العلم ، وطريق فسيح من طرق المعرفة ..

وليس هذا بالأمر المستغرب من رسالة افتُتحت بهذا الأمر من رب العالمين ، إلى النبىّ الأمىّ فى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم » (١ — ٥ : العلق) ثم تلا هذا الأمر قسم بالكتابة وأدواتها من حروف وأقلام، فقال تعالى : « ن * والقلم وما يسطرون » (١ — ٢ : القلم) .

فالكتابة نعمة من نعم الله العظمى على الإنسان ، تكمل بها نعمة الكلمة التى وضعها سبحانه وتعالى فى فم الإنسان ..

فلا عجب إذن أن يقسم الله سبحانه وتعالى بالكتاب ، من حيث هو جنس عام لكل ما يُكتب ، وأن ينظمه فى نَسَق واحد ، مع هذه المعالم المباركة ، التى أقامها الله سبحانه ، هُدًى ، ورحمة للناس . . كالطور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور ..

والبيت المعمور : هو البيت الحرام ، الذى عمره الله سبحانه وتعالى بالواردين عليه ، من المؤمنين ، وبما يذكرون الله فيه . .

والسقف المرفوع :هو السماء . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وجعلنا السماء

سقفاً محفوظاً » (٣٢ : الأنبياء) . . وقوله سبحانه : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » (٢ : الرعد) .

والبحر المسجور : هو البحر المحيط بهذا العالم الأرضى . . والمسجور : المربوط ، المحبوس عن مفارقة الأرض ، والانفلات منها ، وهو كائن مائع ، لا تمسكه إلا قدرة القادر . .

تمور السماء مورا : أى تضطرب اضطراباً ، وتموج موجاً . .

يُدَعُّون إلى نار جهنم دَعًّا : أى يدفعون إليها دفعاً شديداً . .

فالطور ، والكتاب المسطور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور ، أقسام خمسة ، أقسم الله سبحانه وتعالى بها ، وهى بهذا القسم من الله سبحانه تلبس ثوب التكريم ، والتعظيم ، وفى تكريمها وتعظيمها ، إشعار بعظمة الخالق ، وجلاله ، الذى أبدع هذه المخلوقات العظيمة ، وأقامها هذا المقام الكريم ، حتى لقد كانت أهلاً لأن يُقْسِم خالقُها بها ، ويعرضها فى هذا المعرض الكريم . .

هذا ، ويلاحظ أن سورة « الذاريات » قد بدئت بأربعة أقسام من الخالق جل وعلا على أربعة مخلوقات من مخلوقاته : الذاريات ذرواً . . فالحاملات وقراً . . فالجاريات يسراً . . فالمقسّمات أمراً . .

وقد أوقع الله سبحانه وتعالى هذه الأقسام الأربعة على وقوع الدينونة ، وحساب الناس وجزائهم يوم القيامة . .

ثم أتبع سبحانه وتعالى هذه الأقسام بقسم خامس ، هو قوله سبحانه والسماء ذات الحبك . . وأوقع سبحانه هذا القسم على اختلاف الناس ، وأنهم فريقان : مؤمن وكافر : « إنكم لفى قول مختلف » . .

وفى سورة الطور هنا ، بدأها الله سبحانه وتعالى بخمسة أقسام . . ثم أوقع هذه الأقسام على وقوع العذاب ، الذى هو وجه من وجهى الجزاء يوم القيامة . .

ووقوع العذاب يوم القيامة ، يعنى وقوعَ هذا اليوم ، ويعنى البعثَ ، والحساب . .

وعلى هذا — والله أعلم — يكون القَسَم الخامس هنا ؛ مراعًى فيه تلك الإضافة الجديدة على ماوقع عليه القسم فى سورة الذاريات، وهو وقوع العذاب بأهله الكافرين الضالين ، على حين تكون الأقسام الأربعة ، مؤكِّدة للأقسام الأربعة ، التى جاءت فى تلك السورة ، والتى وقعت على الإخبار بمجىء يوم القيامة . . أما القَسَم الخامس الذى جاء فى سورة الذاريات واقعاً على اختلاف الناس ، وافتراقهم إلى فرقتين : مؤمنين وكافرين ، فهو تمهيد للقَسَم الخامس الذى ورد فى سورة الطور واقعاً على ما يلقاه فريق من أحد الفريقين — وهو فريق الكافرين — من عذاب واقع فى هذا اليوم . .

وقوله تعالى : « يومَ تمور السماء موراً ، وتسير الجبال سيراً » هو بيان لما يقع فى هذا اليوم من أحداث تتغير بها معالم الوجود . « يوم تُبدّل الأرض غيرَ الأرض والسموات » (٤٨ : إبراهيم) . .

[هذا الانقلاب فى عوالم الوجود يوم القيامة . . ما تأويله؟]

وهذا الذى يَحدُث من تغيّرات فى معالم الوجود يوم القيامة ، هو — والله أعلم — نتيجة لتغير مدرَكات الناس ، فى هذا اليوم ، بانتقالهم من عالَم

للمادة إلى عالم الروح ، الأمر الذى يرى فيه الناس بأرواحهم المطلقة من قيد المادة ، ما لم يكونوا يرونه فى الحياة الدنيا . .

وهذا يعنى أن اختلاف الرؤية للأشياء من حيث مطالعها ، ومن حيث الحواسّ والمشاعر المتعاملة معها ، والمتلقّية لها — هو الذى يُرِى الإنسان هذه التغيُّرات التى يراها فى نظام الوجود . . تماماً ، كما يرى الإنسان الأشياء من خلال مِجْهر ، أو من خلال منشور زجاجى ، أو جسم شفاف ملون .. أو مرآة محدبة أو مقعرة .. ونحو هذا .. إنه يراها فى كل مرة على صورة مخالفة لما كان يراها عليه من قبل بعينيه المجردتين ، وعلى صورة مباينة أيضاً لما يراها عليه من خلال أى شىء من تلك الأشياء . . وهى هى لم تتغير ولم تتبدل ، وإن بدت أنها متغيرة متبدلة . .

والذى يقول به بعض الحكماء والفلاسفة ، من أن الموجودات لا وجود لها فى حقيقتها ، وإنما هى موجودة بفعل حواسنا ، وأنه لولا هذه الحواس ، لما كان لها وجود . . ويضربون لهذا أمثلة ، بأن فاقد البصر أصلا ينكر وجود النور ، كما أن فاقد حاسّة الشمّ يَغيب من عالمه عالم المشمومات .. وقلْ مثلَ هذا فى بقية الحواس ، من اللمس والذوق ، والسمع — نقول إن هذا الذى يقول به بعض الحكماء والفلاسفة ، يشير إلى شىء من هذا الذى نتحدث عنه من أن الاختلاف الذى يقع فى حواسنا للموجودات ، بين ما نراه منها فى الدنيا ، وما نراه منها فى الآخرة هو من عمل حواسنا ، وإن كنا نخالفهم فيما يذهبون إليه من إنكار الموجودات أصلا . فإن إنكار هذه الموجودات يستلزم — تبعاً لهذا — إنكارَ وجودهم هم أنفسهم ، وإنكار هذه المقررات التى يقررونها . . فإن فقدَ العضوِ أو فقدَ وظيفته لا يستتبع فقدَ

الوجود الخارجى للموجودات ، التى كان من شأن العضو أن يتعامل معها ، كما أن فَقْدَ الميتِ إحساسه بوجوده ، لا ينفى أنه موجود بجسمه الذى يراه الأحياء المحيطون به ..

وأحقّ من هذا ، وأقرب إلى الصواب ، أن يقال إن الأشياء هى التى تحقق للحواس والمدرَكات وجودها ، لا أن الحواس والمدركات هى التى توجد الموجودات التى تتعامل معها ..

ونعود إلى الحديث عما يقع يوم القيامة ، من انقلاب فى عالم الموجودات . .

أهذا الانقلاب واقع حقيقة ، أم هو من عمل الحواس الجديدة التى يعيش بها الإنسان فى العالم الآخر ؟ . .

يتحدث القرآن الكريم فى أكثر من موضع ، عن انفطار السماء ، وانتثار الكواكب ، وانطماس النجوم ، وانكدارها ، وتفجّر البحار ، ودكّ الأرض والجبال ، إلى غير ذلك مما يحدِّث عن هذا الانقلاب الشامل الهائل الذى يغير معالم الأرض والسماء جميعاً ..

فيقول سبحانه وتعالى . .

« إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت * وإذا البحار فُجرت * وإذا القبور بعثرت * علمت نفس ما قدمت وأخرت » (١ — ٥ : الانفطار) ويقول جل شأنه : « إذا الشمس كوّرت * وإذا النجوم انكدرت * وإذا الجبال سيرت » (١ — ٣ : التكوير) ويقول سبحانه : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش » (٤ — ٥ : القارعة) ويقول سبحانه : « يوم تكون السماء كالمهل * وتكون الجبال كالعهن »

(٨ — ٩ : المعارج) ويقول جل شأنه : « يوم يُنفخ فى الصور فتأتون أفواجاً * وفُتحت السماء فكانت أبواباً * وسيرت الجبال فكانت سراباً » (١٨ — ٢٠ : النبأ) .. ويقول سبحانه : « فإذا النجوم طُمِستْ * وإذا السماء فرجت * وإذا الجبال نسفت » (٨ — ١٠ : المرسلات) ويقول سبحانه : « فإذا بَرِق البصر * وخَسَفَ القمر * وجُمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين المفر » (٧ — ١٠ : القيامة) ويقول سبحانه : « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة * وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة * فيومئذ وقعت الواقعة * وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » (١٣ — ١٦ : الحاقة) ..

والذى ينظر فى هذه الآيات الكريمة ، يجد أنها تتحدث عن عوالم ثلاثة ، يقع عليها التغيير والتبديل من أحداث القيامة ..

العالم العلوىّ ، والعالم الأرضى ، والعالم الإنسانىّ ..

ففى العالم العلوىّ : تنفطر السماء ، وتنتثر الكواكب ، وتتكور الشمس ، وتنكدر النجوم ، وتنفرج السماء ، وتنشقق ، ويُخسف القمر ، ويجمع الشمس والقمر ..

وفى العالم الأرضى : تنفجّر البحار ، وتسيّر الجبال ، وتكون كالعهن المنفوش ، وتنسف نسفاً ، وتُدكّ دكاً ..

وفى عالم الإنسان : تُبعثر القبور ، ويكون الناس كالفراش المبثوث ، وتبرق أبصارهم ، ويتدافعون أفواجاً إلى المحشر ..

[البعث .. وعلى أية صورة يكون ؟]

فإذا أخذنا جانب الإنسان ، وهو الذى تقع لعينيه هذه الأحداث التى تكون يوم القيامة ، وجدنا أنه قد تغيّر فعلا ، تغيراً يتناول طبيعته ، كما يتناول الموقف الذى يرى الوجود منه ..

فهو من حيث طبيعته ، قد صار كائناً روحانياً ، محلقاً فوق هذا العالم الأرضى ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث » (٤ : القارعة) .. فالفراش حشرة طائرة ، لطيفة الهيئة ، دقيقة الجرم ، هشة الجسم ، تكاد تنخلع عن جسدها ، وهى طائرة ..

ومن إعجاز القرآن الكريم هنا أن الفراشة تمثّل الدوْرة الإنسانية كلها ، من مولده ، إلى مماته ، إلى مبعثه من قبره ، إلى طيرانه إلى محشره ..

فهى تكون بيضة .. على حين يكون الإنسان نطفة .

ثم تكون دودة .. على حين يكون الإنسان وليداً ، يتحرك فى الحياة ، أشبه بالدودة .

ثم تكون عذراء[1] داخل الشرنقة[2] .. على حين يكون الإنسان مقبوراً فى جدثه ..

---

(١) العذراء .. هى الدودة داخل الشرنقة .

(٢) الشرنقة . بيت تنسجه الدودة من لعابها ، ثم تدخل فيه الدودة وتسمى فى هذا الدور العذراء .

ثم تخرج من الشرنقة فراشة [١] على حين يكون الإنسان قد خرج من قبره ، كما تخرج الفراشة من الشرنقة ، وقد تخلقت لها أجنحة تسبح بها فى الفضاء !

ثم ماذا ؟ وماذا ؟ وماذا ؟

لا جواب الآن .. إن القلم يضطرب فى يدى ، لِمَا تملكنى من روعة هذا الجلال ، ولما أخذنى من وجد ونشوة حِيالَ هذا الإعجاز ، الذى ألمح سنا برقه من بعيد ، وأنا لا زلت على شاطىء هذا البحر الذى لا يَحُدّه البصر !

وإنّى لأبخس نفسى حظّها ، إن أنا انتزعتها الآن من هذه الحالِ التى لبستْها من غبطة وحبورٍ ، فى هذا المقام الكريم ، لأصوّر بالقلم بعض ما ترى من جلال وروعة ، ولأمسك ببعض ما وقع فى الخاطر من رُؤًى ومشاهد بين يدى هذه المعجزة الباهرة القاهرة ..

فلتأخذْ النفس إذن حظها من تلك النشوة ، وليرتشف القلب كأسَ هذه الخمر السماوية ، قطرة قطرة .. حتى يرتوى !!

فإذا كان لنا فى غدٍ صحوة من هذا الانتشاء ، وإذا كان لنا فى العمر غدٌ نعيش فيه ـ كان لنا عودة إلى هذا الموقف ، وكان لنا نظر مجدّد فى تلك المعجزة ، وكان لنا قول فيما يؤدّى إليه هذا النظر ..

فإلى غدٍ ـ إن شاء الله ـ وإلى ما يأذن الله لنا به ، من فضله وإحسانه ، حتى يستقيم القلم طريقَه ، ويجدَ اليدَ القادرة على الإمساك به ، والسيطرة على زمامه ..

---

(١) الفراشة : وهى العذراء تخرج من الشرنقة بعد أن تستكمل وجودها وتتخلق لها الأجنحة فى هذا الدور .

وكان صباح .... وكان مساء ..!

وجاء صباح يوم آخر .. وقد هدأت موجات الجلال التى غشيت النفسَ بالأمس ، وهأنذا أمسك بالقلم ، ولكن لا أجد شيئاً مما كان يملأ صدرى من خواطر وتصورات !! فأين ذهب كل هذا ؟ إنى لا أكاد أذكر شيئاً مما كنت فيه بالأمس ، بل لا أكاد أذكر فيم كنت .. وأحسب أن الأمر يحتاج إلى معاودة النظر فى الآية الكريمة ، نظراً مجدِّداً يستجيش المشاعر ، ويحرّك المدارك ، ويبعث من جديد هذه النشوة التى خمدت ، أو كادت ..

ومن النظر فى وجه الآية الكريمة : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث » نجد أن تشبيه الناس بالفراش المبثوث ـ كما أشرنا إلى ذلك من قبل ـ يمثل أكمل تمثيل وأدقه تلك الصورة التى يكون عليها الناس يوم القيامة ، وأن حياة الفراشة من بدئها إلى نهايتها تُمثّل حياة الإنسان من حال كونه نطفةً إلى أن يولد ، وينمو ، ويقطع مسيرته فى الحياة الدنيا ، ثم إلى أن يموت ، ثم يبعث فى هيئة فراشة ، كانت بيضة ، ثم دودة ، ثم عذراء ملففة فى أكفان من الشرنقة ، ثم تنشق عنها الشرنقة ، فإذا هى فراشة ! . .

هذا ما وقفنا عنده — على ما أذكر — من قبل . .

الناس إذن يكونون يوم القيامة كالفراش المبثوث — فحين يخرجون من الأجداث يطيرون فى خفّة كما يطير الفراش المنطلق نحو النور والنار ! . .

ولكن إلى أين يطير هذا الفراش الآدمى ؟

وإلى أين يطير الفراش الحشرى إذا رأى ناراً ، أو أحس ضوءاً ؟ إنه لا وجهة له حينئذ إلا هذه النار وهذا الضوء ! !

وكذلك الناس ، أو الفراش البشرى ، لا مورد لهم إلا هذه النار التى سُعِّرت وتأججت . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيًّا » (٧١ : مريم) .

وما مصير هـذا الفراش الحشرى المتـدافع إلى النار ؟ إنه يقتحمها ، ويُلقى بنفسه فيها ، وكأنّ يداً قوية تدفعه إليها دفعـاً ليـكون وقوداً لها . . وقليل قليل هو الذى ينجو بنفسه ، ويعدل بوجهه عن لهيبها . .

كذلك شأن الفراش البشرىّ الوارد على نار جهنم ، إنه وقود هذه النار إلا قليلا قليلا ممن أنجاهم الله منها ، وكتب لهم الفوز بجنات النعيم ، كما يقول سبحانه : « ثم نُنَجّى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيهـا جِثيًّا » (٧٢ : مريم) . .

فهذا القليل هو الذى يقف فى منطقة النور دون أن يقتحم النار . . وأما الـكثير الغالب ، فإنه يغشى فى هذا الضوء فيهوِى فى جهنم . . إنه أعمى لا يرى إلى أين مساقه ، لأنه حُشر على ما كان فى الدنيا من عمًى : « قال ربِّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنْسَى » . . فالهلـكىٰ فى الآخرة كثيرون ، والناجون قليل بل وأقل من القليل ! !

وأكاد أقول إن الناس سيـكونون يوم القيامة على صورة الفراش حقيقة لا تشبيهاً ، وذلك لهذا التوافق العجيب الدقيق بين الصورتين ، — صورة الفراش الحشرى ، وصورة الفراش البشرى — فى الملامح ، والألوان ، والظلال . .

ويتأكد هذا المفهوم ، إذ نجد القرآن الكريم يلتزم هذا التشبيه فى معرض آخر ، من معارض البعث والنشور ، فيقول سبحانه : « يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر * مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر » (٧ — ٨ : القمر) ..

فالجراد المنتشر ، والفراش المبثوث . . صورتان متماثلتان فى مرأى العين ، وفى أطوار الحياة التى يتنقل فيها كلٌّ من الفراش والجراد ! .

* * *

فالجراد يأخذ فى خَلْقه وتطوره نَفْسَ المراحل التى يقطعها الفراش فى مسيرة الحياة . .

البيضة ، فالدودة ، فالعذراء ، فالفراشة التى تطير ..

« والفراش » كائن لطيف ، رقيق ، يكاد يكون من عالم الروح أكثر منه من عالم المادة ..

وأما « الجراد » ـ وإن كان أكثر كثافة من الفراش ، فإن أجنحته ـ الكبيرة القويّة ، تغلب كثافة جسده ، فيطير بخفة أشبه بخفة الأرواح ..

وفى الجمع بين الفراش المبثوث ، والجراد المنتشر ، تصوير معجز للصورة التى يُبعث عليها الناس يوم القيامة ..

ففى الناس : فراش ، وجراد .. فى الدنيا وفى الآخرة . .

فالمؤمنون ، يمثلون الفراش .. فى لطفه ، ورقته ، ووداعته ، ومواقعه فى الحياة ، وتناوله من رحيق أزهارها ، وطيّب ثمارها .. حيث هم زينة

هذه الحياة الدنيا ، وحيث لا يقع منهم أذى على أحد ،أو عدوان على شىء ، بيد أو لسان ..

والكافرون ، والضالون ، يمثلون الجراد فى نَهَمه ، وشراسته ، وعدوانه على مواقع الخصب ، فيفسدها ، ويحيلها جدباً ..

وهكذا يُبعث الناس ، على ما كانوا عليه فى الدنيا ، من كان منهم على صورة الفراش ، فى اللطف ، والوداعة ، بُعث على صورة الفراش ، ومن كان منهم على هيئة الجراد ، فى الشراسة والنّهم ، بُعث على هيئة الجراد ..

وأكثر من هذا ، فإن الفراش قِلّة قليلة بالنسبة لأعداد الجراد الكثيرة التى تتكاثر مواليدها وتتضاعف بين ساعة وأخرى .. وكذلك المؤمنون هم قلة فى محيط الكافرين ، والمشركين .. وهذا ما نلمحه فى قوله تعالى فى وصف كل من الفراش والجراد .. فقد جاء وصف الفراش ، بالبثّ : « كالفراش المبثوث » .. والبث ، هو إذاعة الحديث الطيب فى رِفق ، وعلى هِينَةٍ ، ولطف .. وجاء وصف الجراد بالانتشار : « كأنهم جراد منتشر » والانتشار ، إنما يكون فى سرعة مجنونة ، كما ينتشر الوباء فى الناس ، وكما تنتشر النار فى الهشيم .. !

ويكاد يصرفنا هذا الموقف الرائع المعجز ، عن الموضوع الذى نعالجه ، بل إنه ليكاد يغنينا عن النظر إلى ماوراءه ، لما نالت النفس منه ، من شبع ورىّ !

ولكن وفاء بحق هذا البحث ، نعود فنقول :

إنه بالنظر فى حال للإنسان يوم القيامة ، نجد فى قوله تعالى عن هذا

الإنسان يوم القيامة : « فإذا بَرِق البصر » — نجد فى هذا إشارة إلى ما يقع لبصر الإنسان من تحول ، يزداد به قوة خارقة فى مجال الرؤية ، حيث يلمع كما يلمع البرق ، فيكشف بنوره المنبعث منه حقائق الأشياء ، وينفذ إلى الصميم منها ، وكأنه يراها لأول مرة ، رؤيةً جديدة ، تبدو فيها المفارقة بعيدة ، بين ما يراها عليه الآن ، وبين ما كان يراها عليه فى الحياة الدنيا .. وفى هذا يقول الله تعالى : « لقد كنتَ فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (٢٢ : ق) .

هذه صورة مجملة للإنسان يوم القيامة ، ولموقفه من الموجودات فى هذا اليوم ..

فهو كائن سابح فى عالم علوىّ ، قد يبلغ فى سَبْحه هذا ، مدارجَ الكواكب والنجوم ، ثم هو فى هذا العلو السحيق يملك بصراً حديداً كاشفاً لا يمكن تصوره ..

ومن هذا الأفق العالى ، وبهذا البصر الحديد النافذ ، ينظر الإنسان إلى هذه الأرض التى كان يعيش فيها .. فيرى الأرض غير الأرض ، والسماء غير السماء ..

« يوم تبدل الأرض غيرَ الأرض والسموات » (٤٨ : إبراهيم) إنه تبدل يقع فى إحساس الإنسان نفسه ، وفى معطيات بصره ..

إنه يرى البحار وكأنها قد فجّرت ، وفاضت مياهها .. إنه يرى البحر كله ، وقد اشتمل على الكرة الأرضية وأحاط بها ..

وإنه يرى الجبال وكأنها قد سُيّرت ، وهى فى حقيقتها سائرة لاتتوقف ،

فى دورتها مع دورة الأرض حول نفسها ، كما يقول الله تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب (٨٨ : النمل) .. ويراها وكأنها وقد نسفت ، وزايلت مواضعها من الأرض ، شأنُ من ينظر إلى الأرض من علو شاهق ، فتبدو له وكأنها سطح مستو لا أغوار فيه ، ولا نجود .. ويراها من هذا العلو وكأنها العهن المنفوش ، أشبه بذرات متطايرة فوق سطح الأرض . . ويراها ، ويرى الأرض معها كرة معلقة فى الفضاء ، قد اندمج بعضهما فى بعض ، فصارا كيانًا واحداً : « لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً »(١٠٧ : طه) . . (وحُملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة »(١٤ : الحاقة) . .

هكذا تبدو الجبال ، على صور شتى ، بين الصغر والكبر ، وبين الظهور والخفاء ، حسب الأفق الذى يشرف منه الإنسان عليها يومئذ .

ولقد أحسن الشاعر « شوقى » غاية الإحسان ، فى تصوير الطائرة ، وهى تنطلق مصعّدة فى السماء ، وكلما ارتفعت كان لها فى موقع البصر صورة ، على غير سابقتها أو لاحقتها .. يقول شوقى :

ثم تسامت فكانت أعْقُبــــا
فَنُسوراً . . فصقوراً . . فحماما

* * *

أمّا السماء وعوالمها ، فإنه يقع عليها من التبدل والتحول ، فى نظر الإنسان ، ما وقع له فى العالم الأرضى من تحول وتبدل ..

إنه يرى السماء ، التى — كانت تبدو له فى دنياه سقفاً صفيقاً مصمتاً — يراها ، وقد فتحت فكانت أبواباً ، وكانت فروجاً ، وإذا سقفها هذا قد بدا واهياً ، لا يحول بينه وبين اختراق أجوائها إلى غير حدود . .

« وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » . . « وفتحت السماء فكانت أبوابا » .. « إذا السماء انفطرت » ..

تلك هى السماء ، كما يراها الإنسان ، ويختبر تصعيده فيها .. أما هى فى حقيقتها فهى هى ، لم تتبدل ، ولم تتحول . . !

وحال أخرى من السماء ، يجدها الإنسان فى هذا اليوم ، وهى ما جاء فى قوله تعالى : « يوم تكون السماء كالمهل » . . فهذه حال من السماء يجدها الإنسان ، حين يرتفع إلى مواقع النجوم منها ، فيجد لذلك مس حرارة هذه النجوم ، ويشهد منها هذا الغليان والفوران المتأجج فى كيانها .. إذ النجوم فى حقيقتها عوالم من لظى يأكل بعضه بعضاً ..

أما النجوم والكواكب ، فإنه يراها — كذلك — فى أحوال شتى ، حسب موقعه منها . . فيرى النجوم وقد انكدرت وطمست ، واختفى ضوءها . . حيث أن هذا الضوء الذى نراه للنجوم ، إنما هو من أثر هذا الغلاف الهوائى المحيط بالأرض . . فإذا خرج الإنسان من محيط هذا الغلاف لم يقع على بصره هذا الضوء اللامع الذى نراه لها .. كذلك يرى الكواكب ، التى كان يراها فى العالم الأرضى على مستوى واحد ، متجاورة كما تتجاور حبات العقد — يراها متناثرة ، كل واحد منها عالم يدور فى فلك ، بينه وبين النجوم الأخرى آماد بعيدة ، تقدر مسافاتها بالألوف والملايين من السنين الضوئية ! .

والشمس — وهى نجم من تلك النجوم — تبدو كرة ملتهبة ، لاشعاع فيها ، لأن هذا الشعاع الذى نراه منها ، هو — كما قلنا — أثر من الغلاف الهوائى المحيط بالأرض . . فإذا خرج الإنسان من دائرة

هذا الغلاف لم يكن لهذه الأشعة وجود فى مرأى العين . .

أما قوله تعالى : « وجمع الشمس والقمر » ـ فهو أيضاً أثر من آثار خروج الإنسان يوم القيامة من عالم الأرض . . حيث يرى الشمس شمساً ، والقمر قمراً ، فى حال واحدة ، لا يحكم رؤيته لهما ، ليل أو نهار . .

* * *

هـذه وقفة قصيرة غاية القصر مع تلك المشاهد التى يراها الإنسان يوم القيامة ، من عوالم الوجود . . ولو أننـا ذهبنا نتقصّى وجوه النظر المختلفة ، لخرج بنا ذلك عن المنهج الذى التزمناه ، فى هـــــذا التفسير لـكتاب الله . .

بقيت كلمة لابد منها فى التعقيب على هذا البحث ، وهى ، الإجابة على هذا السؤال :

هل يكون البعث بالأجساد ، أو الأرواح ؟ .

وهذه قضية كثرت فيها الأقوال وتضاربت الآراء ، ولا نحسب أن إجابتنا على هذا السؤال بالذى يحسم الأمر ، ويرفع الخلاف فيها ، بل إنه ربما وسّع من شقة الخلاف ، وأضاف إلى المقولات المتخالفة مقولة !

ومع هذا ، فإن إمساكنا عن القول فى هذه القضية ، لا يخفف من حدة الخلاف فيهـا ، ولا يمسك ذوى الآراء عن الخوض فى تلك القضية ، التى هى وَسواس كل خاطر ، وامتدا كل نظر إلى الحياة ، وما وراء الحياة .

فنقول إننا نرجح الرأى القـــائل بأن البعث يـكون بالأرواح لا بالأجسام . .

ولنا فى قوله تعالى : «يوم يكون الناس كالفراش المبثوث »، وقوله سبحانه : « يخرجون من الأجداث كأنهم جَرَاد منتشر » — لنا فى هذا شاهد نلمح منه صورة الحياة التى يكون عليها الناس يوم القيامة ، وهى أنها حياة أشبه بحياة الطير ، حيث ينطلق الناس فى العوالم العليا ، إلى حيث الكواكب والنجوم ..

والأرواح الإنسانية التى نلمحها من الآيتين الكريمتين ، ليست أرواحاً مجردة ، بل هى أرواح ، تلبس أجساداً شفافة ، هى قوالب روحانية ، على هيئات بشرية يعيش فيها الناس . . وهى ما يسمى بالنفس ، التى هى وسط بين الروح ، والجسد[1] ..

* * *

قوله تعالى :

* « هذه النار التى كنتم بها تكذبون » . .

فى الإشارة إلى النار ، دعوة لأهلها إلى ورودها ، ونزولهم ضيوفاً عليها ، ليَطعموا مما تقدّمه لهم من زاد عتيد تلقاهم به ، وتغاديهم وتراوحهم بصنوفه وألوانه .. !!

وفى الدعوة إلى هذا المكروه ، مزيد من الاستهزاء والإيلام لهؤلاء الأشقياء ، الذين يساقون إلى هذا العذاب الأليم . . مثل قوله تعالى : « ذُقْ إنك أنت العزيز الكريم » ..

وقوله تعالى :

* « أفَسِحرٌ هذا ؟أم أنتم لا تبصرون » ؟

---

(١) انظر هذا البحث فى كتابنا قضية الألوهية الكتاب الثانى . . الله والإنسان

هو عرض على أسماع هؤلاء المجرمين المكذبين باليوم الآخر — لتلك المقولات المازئة الساخرة التى كانوا يقولونها عن البعث ، والحساب ، والجزاء .. وكان من مقولاتهم تلك، اتهامُ النبى بالكذب ، وبالسحر ، وأن مايحدثهم به عن اليوم الآخر ليس إلا من قبيل الشعوذة والخداع !.. فهم يُسألون هذا السؤال التقريعىّ ، الذى لا يجدون له جواباً إلا الإبلاسَ والوجوم ، وإلا الحسرة القاتلة ، والنّدم الأسود الكئيب ! ..

« أفسحر هذا ؟ » أى أهذا العذاب الذى، تُساقون إليه ، والذى كان يتلوه عليهم من آيات الله — أسحر هو ؟

وإنه لأسلوب من أساليب العقاب ، أن يوقف المجرم على جسم جريمته ، وأن يواجه بها ، وأن يذكر بها حالا بعد حال ، وخاصة إذا كان بين يدى السلطان القاهر الذى يأخذه بجريمته ويوقّع عليه الجزاء الذى يستحقه ، فإن جريمته هى التى ساقته إلى هذا البلاء الذى هو فيه ، وإنها لهى العدوّ الذى ألقاه فى التهلكة !.

وفى قوله تعالى : « أم أنتم لا تبصرون » هو زيادة فى إيلامهم بأن ينظروا فى هذا العذاب ، وأن يملأوا عيونهم منه ، قبل أن يذوقوه بأجسامهم ، ويلبسوه ثياباً تقطّع لهم من تلك النار الموقدة أمام أعينهم ..

قوله تعالى :

* « اصلوها فاصبروا أولاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون » ..

هو دعوة أخرى لهؤلاء المكذبين ، إلى تذوق مافى هذه النار التى دُعوا

إليها ، ونزلوا بساحتها ، وإنه لا شيء هناك إلا ناراً تشوى الوجوه ، وتهرى الأجسام ، وإلا مهلاً يغلى فى البطون كغلى الحميم . .

فليأخذوا ما تقدّم لهم النار من ضيافة نكدة ، وليصبروا على تجرّع هذه الغصص ، أوْلا يصبروا ، فإنه لا مفرّ لهم من أن يشربوا من هذه الكأس التى لا تنضب ، ولا مَعْدَل لهم عنها ، صبروا أولم يصبروا . . فالأمر بالنسبة إليهم سواء . . إنهم فى قيد العذاب : « فإن يصبروا فالنار مثوًى لهم ، وإن يستعتبوا فما هم من المعتَبين » (٢٤ : فصلت) . .

الآيات : (١٧ — ٢٨)

* « إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٢٥) قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ (٢٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إن المتقين فى جناتٍ ونعيمٍ * فاكِهين بما آتاهُم ربُّهم ووقاهم ربّهم عذاب الجحيم » ..

هو عرض لصورة من صور النعيم ، الذى حُرِمه أهلُ الضلال ، الذين تَلْفح وجوهَهم النار ، وهم فيها كالحون ..

فهذا النعيم الذى يراه أهل النار بأعينهم ، ويرونْ فيه أقواماً كانوا من قبلُ موضعَ استهزاء بهم وسخريةٍ منهم — هذا النعيم ، كان يمكن أن يكون لهم نصيب منه ، ولكنهم صَرَفوا وجوهَهم عنه فى الدنيا ، وسفّهوا الذين كانوا يَدْعونهم إليه ، فأبقى لهم ذلك حسرة دائمة ، وبلاء طويلاً ممتدا .. لا ينتهى أبدا ..

وفى هذا ما يضاعف من عقابهم ، ويَزيد فى شقائهم ، على حين أنّه يقدّم بين أيدى المؤمنين المتقين ، ويُرفع لأبصارهم فى تلك الجنّة التى وُعدوا بها ، فيرونْها دانية منهم ، يشوقهم لقاؤها ، والسعى الحثيث إليها ..

وقوله تعالى : « فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم »

هو حال من المتقين .. أى أنهم وهم فى جنتهم تلك ، يتفكهون بما فيها من طيبات تملأ نفوسهم رضاً وحبوراً ..

وأصل التفكّه : من الفكاهة ، وهو حديث فكِهٌ ، يؤنَس به .. وسميت الفاكهة فاكهة للذة طعمها فى الأفواه ، كلذّة الحديث الفِكه على الآذان .

وفى إظهار الاسم الكريم « ربهم » فى قوله تعالى : « ووقاهم ربهم عذاب الجحيم » بدلا من إضماره ـ فى هذا مزيدُ اعتناء بهم ، وتذكيرٌ لهم بربهم الذى منّ عليهم بالجنة ونعيمها ، وجنّبهم جهنم وسعيرها . .

قوله تعالى :

* « كلُوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون » .

هو التفاتة كريمة ودعوة مُسعدة للمتقين ، إلى أن يأخذوا بحظهم من رضوان الله ، الذى قدّمه لهم ربهم . . وعلى حين تَصُكّ آذان المكذبين الضالين الذين أخذوا أماكنهم فى نار جهنم ، بهذه الدعوة المزلزلة المهلكة : « اصْلَوْها » ، فإذا أخذهم لهيبها ، واشتمل عليهم سعيرها ، وصرخوا صرخة الويل والثبور ، قيل لهم : « فاصبروا أولا تصبروا .. سواء عليكم » ـ على حين يُفعل هذا بالمكذبينِ الضالين ، يقال للمؤمنين المتقين ، وقد أكلوا وشربوا من نعيم الجنة : « هنيئاً » أى هَنَأكم الطعام والشراب . . فكلٌ يأخذ من ثمر ما عمل ، ويطْعَم من جَنَى ما غرس ! « إنما تُجزون ما كنتم تعملون » . (٧١ : التحريم)

قوله تعالى :

* « متكئين على سُرُرٍ مصفوفةٍ وزوجناهم بحورٍ عين » .

أى أن المتقين يُلَقَّوْن هذا التكريم ، وتلك التحية ، فى حال قد أخذوا فيها أماكنهم على أرائك وسُرُر مصفوفة ، يقابل فيها بعضهم بعضاً ، ويأنس فيها بعضهم ببعض ، وقد زُوّجوا بحور عينٍ . .

والحور : جمع حَوْراء ، وهى التى فى سواد عينيها قليلٌ من البياض ، وهو من أمارات الحسن والجمال ، وقيل هو شدة بياض العين مع شدة

سوادها . . وهو من ملاحة المِلاح ، وحُسْن الحِسان . .

والعِين : جمع عيناء ، ويطلق على بقر الوحش لجمال عيونه . .

قوله تعالى :

* « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتُهم بإيمان ألحقنا بهم ذرّيتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين » . .

ومما يساق إلى أهل الجنة فى الجنة ، أن يكرم من أجلهم أبناؤهم وذرياتهم من المؤمنين ، وذلك إذا كانوا أنزل درجةً منهم فى الجنة — وفى الجنة درجات ، كما فى النار دَرَكات — وبذلك يجتمع شملهم فى الجنة ، كما اجتمع شملهم فى الدنيا ، وبهذا تقَرُّ أعينهم ، ويكمل سرورهم . .

وقوله تعالى : « واتبعتهم ذريتهم بإيمان » — إشارة إلى أن هذه الذرية التى لحقت بآبائها فى الجنة ، قد كانت على إيمان بالله ، كإيمان آبائهم ، وبهذا كانوا جميعاً من أهل الجنة ، وإن اختلفت فيها منازلهم ، فكان جَمْعهم ، وإلحاق الأدنى منهم بالأعلى — إحساناً من الله سبحانه وتعالى إليهم جميعاً .. الآباء ، والأبناء ..

وهنا سؤال :

لماذا تُلحق الأبناء بالآباء ، ولا يُلحق الآباء بالأبناء ، إذا كانوا أنزل درجة من أبنائهم ؟ . .

والجواب على هذا ، أن هؤلاء الآباء ، هم أبناء لآباء ، وهؤلاء الآباء أبناء لآباء ، وهكذا .. يتبع الأبناء آباءهم فى سلسلة تمتد من بدء الخليقة إلى نهايتها .. وهكذا يبدو أهلُ الجنة ، وكأنهم جميعاً أسرة واحدة .

وقد يُعترض على هذا ، بأنه مخالف لما هو معروف بأن الجنة ـ ليست جنّةً واحدة ، وإنما هى جنات ، وهى منازل ، ولكل جنة أصحابها ، ولكل منزلة أهلها . .

ويُدفع هذا الاعتراض :

أولاً : أن أهل الجنة ، أو الجنات ، ليس بينهم هذه العزلة الجامدة الباردة ، التى تُقيم كل طائفة فى معزل عن الآخرين ، بل إن أهل الجنة وإن اختلفت منازلهم ، وتباينت درجاتهم ، هم فى عالم واحد ، مطلق ، لا حدود فيه ولا قيود .. وهل تكون جنة ويكون نعيم ، ثم يقام على هذه الجنة وذلك النعيم حارس ؟ .

وثانياً : هذا الاختلاف الذى بين درجات أهل الجنة ومنازلهم عند الله ، هو اختلاف فى درجة التقبّل للنعيم ، وفى مَدَى القدرة على التناول من هذا النعيم الذى لا ينفد أبداً .. فهناك نفوس كبيرة تستوعب نعيم الجنة كله ، وتَلَذّ به ، على حين أن هناك نفوساً صغيرة تأخذ من هذا النعيم حَسْوًا كحسوِ الطير ، ثم تجد فى ذلك شِبَعَها وريّها . . إنها موائد ممدودة ، عليها ما لا يبلغه الوصف من طيبات النعيم .. وإنه لا يُرَدّ أحد عن أى لون من ألوان هذا النعيم ، بل إن كل ما يطلبه المرء منه يجده حاضراً بين يديه . . ولكن هنا يختلف أهل الجنة فى قدرتهم على الأخذ من هذا النعيم ، الذى بين أيديهم ، فبعضهم يأخذ القليل لأنه لا شهوة له إلى أكثر من هذا القليل ، على حين يكون هناك من يجدون القدرة والاشتهاء لكل مافى الجنة من ألوان النعيم فيذوقون من كل لون ، ويطعمون من كل صنف . . تماماً كما نرى ذلك فى الحياة الدنيا ، حيث يجلس المدعوّون إلى

مائدة حافلة بألوان الطعام . . ثم تختلف حظوظهم فيما ينالون منها . . دون أن يكون هناك حائل يحول بين أىٍّ منهم وبين ما يشتهى . .

قوله تعالى « وما ألتناهم من عملهم من شىء » أى وما أنقصنا شيئا من عمل هؤلاء الآباء الذى ألحقنا بهم ذريتهم ، بل وفاهم الله تعالى أجرهم غير منقوص . .

وكان إلحاق أبنائهم بهم ، فضلًا من فضل الله على الوالدين والمولودين جميعاً . .

والجملة : حال من الفاعل فى قوله تعالى « ألحقنا » وهو الله سبحانه وتعالى . .

قوله تعالى :

* « وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون » .

هو مما يُقَدَّم لأهل الجنة من طعام ، وليس هو كل طعام الجنة ، وإنما هناك من ألوان الطعام مالم تَرَه عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بشر . . وإنما اختُصَّ هذان الصنفان بالذِّكر ، لأنهما من أطيب ، وأشهى مايطعمه أهل الدنيا من طعام . . وكان من تمام النعمة فى الجنة ألاّ يُحرَم أهلها ما كان لهم من طعام مشتَهًى فى الدنيا ، وخاصة أولئك الذين حُرموا هذا الطعام فى دنياهم ، وكان من مشتهياتهم فيها . .

قوله تعالى :

* « يتنازعون فيها كأساً لالغوٌ فيها ولا تأثيم »

التنازع : هو المجاذبة للشىء بين قوتين . . وتنازع الكئوس ، تجاذبها بين الجالسين فى مجلس شرابها ، يتبادلونها فى شوق ورغبة ونزوع أنفسهم إليها . .

لا لغو فيها:أى لاتحمل هذه الكئوس فى كيانها، هذا الداء الذى يخامر العقول ، ويُفقدها الوعى ، فتخرج من وقارها إلى هذْر الكلام ولغوه .

ولا تأثيم : أى لا إثم على شاربها ، فهى خمر ، وهى مع ذلك حلالٌ لشاربها . .

ومن هنا ندرك السر فى تحريم الخمر ، والعلّة التى من أجلها كانت إثماً يسوق مرتكبه إلى ساحة الاتهام والعقاب . .

فالإسكار ، هو علة تحريم الخمر ، لا علّة له غيرها . . دون نظر إلى المادة التى يُصنع منها . .

وعلى هذا ، فإن الخلاف القائم بين أصحاب المذاهب الفقهية فى تلك المباحث التى تبحث عن جواب هذا السؤال : ماهى الخمر ؟ وما هى المادة التى تصنع منها ؟ — إن هذا الخلاف لامحصّل له ، ولا داعية للوقوف عنده ، فى تقرير الحكم الشرعى للخمر . . فكل مسكر خمر ، وكل مغيّب للعقل ، ذاهب بوقاره ، ، داعٍ له إلى اللغو ـ هو خمر ، وهو مُوقِعٌ على متعاطيه إثما ، هو إثم شارب الخمر . .

قوله تعالى :

* « ويطوفُ عليهم غِلمانٌ لهم كأنهم لؤلؤ مكنون »

أى ويطوف على أهل الجنة بتلك الكئوس المترعة بالخمر ، سُقاةٌ يقومون على خدمة شاربيها ، وهم غلمان كاللؤلؤ المكنون ، صفاءً ، وحسناً ، وبهاءً . . وهذا من تمام النعمة . . فإن الصورة التى يُقدّم عليها الطعام أو الشراب من آنية توضع فيها ، وأدوات تستعمل فى تناولها ، وخدم يقومون بتقديمها . . كل ذلك وأشباهه ، يجعل للطعام طعماً يضاف إلى طعمه الذاتى ، حسناً أو قبحاً حسب

حُسنِ أو قبح هذه الملحقات به . . ومن هنا نجد الصحاف التى يقدم فيها الطعام لأهل الجنة صحافا من ذهب ، والأكوابَ التى يقدم فيها الشراب قواريرَ من فضةٍ . . ولهذا أيضاً نجد لكئوس الخمر ، وسقاتها ، أوصافاً يتغنىّ بها الشعراء الذين يَغْشَوْن مجالس الخمر ، ويتساقون كئوسها ، تماماً كما يتغنّون بالخمر ، وأوصافها ، وما فيها من جودة وعِتق . . فيقول أبو نواس مثلاً فى وصف الكأس :

تُدَارُ علينا الرّاحُ فى عسجدية
حَبَتها بأنواع التصاوير فارسُ
قَرَارَتُها كسرى ، وفى جَنَبَاتِها
مَهًا تَدّريها بالقِسِىّ الفوارسُ
فللخمر ما زُرّتْ عليه جيوبُهم
وللماء مادَارت عليه القلانِسُ

قوله تعالى :

* « وأقبل بعضهم على بعضٍ يتساءلون * قالوا إنا كنّا قَبلُ فى أهلنا مشفقين * فمنّ الله علينا ووقانا عذابَ السّموم » .

أى ومن أحوال أهل الجنة ، أنهم يتفكهون بتلك الأحاديث المسعدة ، التى يذكرون بها فضل الله عليهم ، وإحسانَه إليهم ، بإنزالهم هذا المنزل الكريم ، بعد أن نجاهم من هذا البلاء ، وعافاهم من ذلك العذاب الذى يَصلاه أهل الجحيم من أهليهم ، وإخوانهم ، وأقوامهم ، الذين كفروا بالله ، وصدّوا عن سبيله . . .

وقوله تعالى : « إنا كنّا قبل فى أهلنا مشفقين » هو بعض المقولات التى تتردّد فى هذا الحديث المدار بين أهل الجنة ، وفيه يذكرون ما كان منهم فى الدنيا، من خشيةٍ وخوفٍ للقاء هذا اليوم العظيم ، الذى يؤمنون به ، ويعرفون مافيه من أهوال تَشِيب لها الولدان ، كما يقول سبحانه وتعالى فى وصف الحال التى كان عليها المؤمنون فى الدنيا : « والذين يُصدّقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غيرُ مأمون » (٢٦ - ٢٨ : المعارج) .

وقوله تعالى : « فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم » - هو تعقيب على قولهم : « إنا كنّا قبل فى أهلنا مشفقين » أى إنا كنا فى دنيانا مشفقين من عذاب ربنا فى هذا اليوم ، ولكنّ الله سبحانه وتعالى منّ علينا بالنجاة من هذا العذاب ووقانا شرّ ذلك اليوم ، كما يقول سبحانه وتعالى : « فوقاهم الله شرّ ذلك اليومِ ، ولقّاهم نضرةً وسروراً » (١١ : الإنسان)

* قوله تعالى :

« إنا كنّا من قبلُ ندْعوه .. إنه هو البَرُّ الرّحيم »

هو تعقيب بعد تعقيب على قولهم : « إنا كنا قبلُ فى أهلنا مشفقين »

أى وكنا ندعو الله ، ونطلب النجاة من شر هذا اليوم ، ومن العذاب الواقع بأهل الشقاء فيه ، وقد استجاب الله لنا بفضله ، وإحسانه .. « إنه هو البَرُّ » أى البارُّ بعباده المؤمنين المحسنين « الرحيم » الواسع الرحمة ، لمن يطلبون رحمته ، ويبتغون فضله .. فما أعظم برِّه ، وما أوسع رحمته ..

الآيات : (٢٩ — ٤٩)

* « فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُم بِهَـٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ ٱلْبَنَاتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لاَ يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٤٧) وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ (٤٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « فَذَكِّرْ فما أنت بنعمة ربّك بكاهنٍ ولا مجنون » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة ، عرَضت مشاهدَ القيامة وما يلقىَ المكذبون الضالّون هناك من عذاب وهوانٍ ، وما يتلقى المؤمنون المتقون من رضوان الله ، وجنات لهم فيها نعيم مقيم ..

وهنا تجىء الآية الكريمة ، والآيات التى بعدها ، لتواجه الناس جميعاً مرة أخرى ، بالدعوة الإسلامية ، وبرسولها الكريم الذى يدعو بها ، بعد أن نقلتهم فى لمحة خاطفة إلى الدار الآخرة وأرتهم منازلهم هناك ، وما يُجزَون به عن أعمالهم، من محسنين ومسيئين .

ولا شك أن مواجهة الناس هنا بالدعوة الإسلامية ، بعد هذه المشاهد التى شهدوها من يوم القيامة ـ لا شك أن هذه المواجهة ستَلْقىَ الناس على حال غيرِ الحال التى كانوا عليها من قبل ، وقد رأوا النار وسعيرها ، والجنة ونعيمها .

وقوله تعالى : « فذكّرْ » هو دعوة للنبى أن يواجه الناس بدعوته ، وأن يتلو عليهم آياتِ ربه ، وأن يؤذّن فيهم بقوله تعالى : « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمىّ الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » (١٥٨ : الأعراف) .. فهذا هو موقف النبى دائماً لا يتحول عنه ، ولا يعدل به عن مقامه فيه ، ما يلقى من أذى وضُرّ ، وما يسمع من سفاهة السفهاء ، وجهل الجاهلين . . « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » (٥٥ : الذاريات) .

وقوله سبحانه . « فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » أى فما أنت

بما أنعم الله به عليك بهذا الكتاب الذى بين يديك بكاهن ولا مجنون كما يتخرض بذلك المتخرصون ، ويفترى المفترون ، فيقولون فيك هذا القول الفاجر الآثم .. والكاهن : من يدعى التنبؤ بعلم الغيب ، وبما سيقع فى مستقبل الأيام

فالباء فى قوله تعالى : « بنعمة ربك » ـ للسببية ، كما فى قوله تعالى : « قال ربِّ بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين » (١٧ . القصص) .

قوله تعالى :

* « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » .

هو إضراب عن مقولات المشركين فى النبى ، بأنه شاعر ، أو كاهن ، وانتقال إلى مقولة أخرى يقولونها فى النبى ، وهو قولهم « شاعر » .. فهم يُلْقون بهذه الأباطيل من غير أن يقوم عندهم دليل عليها ، وإنما هى رَمَيات طائشة عمياء ، يُلْقون بها بلا حساب أو تقدير .. شأن من يحارب عدوًّا متوهماً ، فيرمى بكل ما يقع ليده إلى كل اتجاه ، فراراً من هذا الخطر المتوهم ، سواء أصابت هذه الرميات عدوًّا ، أم صديقا . .

وقوله تعالى : « نتربص به ريبَ المنون » هو أُمنية من تلك الأمانى التى يعيش بها المشركون مع النبى ، وتَعِلَّة يتعللون بها ، وهى أن ينتظروا به موتاً يختطفه من بينهم ، ويُريحهم منه .. فتلك أمنية يتمنونها ، ويعلقون آمالهم بها .

* وقوله تعالى : « قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين » ـ هو ردٌّ على ما ينتظرون فى النبى من موت يريحهم منه .. « تربصوا » أى انتظروا : « فإنى معكم من المتربصين » أى منتظر لما تأتى به الأيام فىَّ وفيكم . . فالأمر فى هذا على سواء بينهم وبينه ، إذ الموت حُكم واقع عليهم وعليه . والله سبحانه وتعالى يقول : « وما جعلنا لِبَشَرٍ من قبلك الخلد أفإن مِتّ فهم الخالدون ؟ » (٣٤ : الأنبياء) ويقول سبحانه « إنك ميت وإنهم ميتون » (٣٠ : الزمر) .

قوله تعالى :

* « أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون » .

هو استفهام يراد به تسفيه عقول هؤلاء الذين يقولون هذا القول الأحمق ، الذى لا يقبله عقل ، ولا ينطق به عاقل ، وهو التربص والانتظار للموت الذي يتمنونه للنبى .

وفى التعبير عن معطيات عقولهم ، بالأمر ، وبأنها تُملى عليهم هذا القول وتأمرهم به ـ إشارة إلى أنهم كيان منفصل عن تلك العقول ، التى تَفيض بالوساوس والأوهام ، وأن كل ما يطرقهم من أوهام هذه العقول ووساوسها ، لا يجد منهم إلا ألسنة تُردد هذه الأوهام وتلك الوساوس ، دون أن يكون لهم سلطان عليها ، أو تحكّم فيها ، وذلك على غير ما يفعل العقلاء الذين يتدبرون أمرهم بينهم ، وبين خطرات نفوسهم ، ووساوس عقولهم .

وقوله تعالى : «أم هم قوم طاغون » هو إضراب عليهم ، وعلى عقولهم جميعا ، وأنهم كيان من الطغيان ، يندفع كما تندفع الحُمُر المستنفرة ، فرّت من قسورة ، لا إرادة معها ، ولا اختيار لها فى الوجهة التى تأخذها فى فرارها .

قوله تعالى :

* « أم يقولون تقوّله .. بل لا يؤمنون » .

استفهام آخر ، يكشف عن جريمة أخرى من جرائمهم ، ويواجههم بضلالة من ضلالاتهم ، وهى قولهم فى النبى : إنه افترى هذا القول الذى يحدّثهم به ، ويقول لهم عنه إنه كلام الله !! .

وقوله تعالى : « بل لا يؤمنون » ـ حكم عليهم بأنهم لن ينتفعوا بهذا القرآن ، ولا يهتدون به ، ولا يكونون فى المؤمنين أبداً .. وهذا حكم واقع

على أولئك الذين أدركهم الإسلام من المشركين ، وماتوا على شركهم ، محادّين لله ورسوله .. ومنهم قَتلَى بدر ، الذين بلغوا سبعين قتيلا .. ! . وهذا من أنباء الغيب التي حملت آيات الله كثيراً منها .

قوله تعالى :

* « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » .

هو ردٌّ متحدٍّ لهؤلاء المشركين ، الذين يتهمون النبي بالكذب والتقوّل على الله ، وذلك بأن يأتوا بحديث مفترًى ، مثل هذا القرآن ، إن كانوا صادقين فى دعواهم تلك .. فإن يفعلوا ـ ولن يفعلوا ـ فذلك هو مقطع القول بينهم وبين النبى .

قوله تعالى :

* « أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » .

هو انتقال بالقضية التي تتصل بالقرآن ، وبمقولاتهم فيه ، بعد أن دعاهم إلى التحدّى فلم يقوموا له ـ انتقال إلى ميدان آخر من ميادين المحاجّة .. فْليَدَعوا هذا القرآن ، وليدَعوا ما يحدّثهم به النبيمنه .. ثم لينظروا فى أنفسهم ، وليجيبوا على هذا السؤال : أخُلقوا من غير شيء ؟ فن أين إذن جاءوا إلى هذه الدنيا ؟ ومن صوّرهم على تلك الصورة التي هم فيها ؟ أخَلَقوا هم أنفسهم ؟ أصوروا هذه النّطَف التي بدأت بها مسيرتهم فى الحياة فى أرحام أمهاتهم ؟ إنه لا جواب إلا الصمت المطبق ؛ والوجوم الحائر !

قوله تعالى :

* « ام خلقوا السموات والأرض .. بل لا يوقنون » .

وإذا لم يكن لهم أن يقولو إنهم خلقو أنفسَهم ، فهل لهم أن يقولوا إنهم

خَلَقوا السموات والأرض ؟ ذلك أبعد وأغرب .. !

وقوله تعالى : « بل لا يوقنون » ـ هو استدراك على سؤال يَرِدُ على قوله تعالى: « أم خلقوا السموات والأرض ؟ » وهذا السؤال هو : وهل ينكر المشركون أن الله هو الذى خلق السموات والأرض ؟ وكيف والله سبحانه وتعالى يقول عنهم : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُنّ خلقهن العزيز العليم » (٩ : الزخرف) فكيف يُسألون هنا هذا السؤال الذى فيه اتهام لهم بالقول بأن للسموات والأرض خالقاً غيرَ الله ؟ فكان قوله تعالى : « بل لا يوقنون » دافعاً لهذا الذى يقع فى الوهم من تعارض بين سؤالهم سؤال المتهَم ، فى قوله تعالى : « أم خلقوا السموات والأرض » وبين إقرارهم بما يدفع هذه التهمة عنهم فى قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » . (٢٥: لقمان) وذلك أن قوله تعالى : « بل لا يوقنون » يكشف عن حقيقة إقرارهم بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض .. فهو إقرار لا يقوم على استدلال وبحث ، ونظر .. ومن ثَمّ فلا يقع منهم موقع اليقين .. فلم يكن إقرارهم بما أقروا به ، إلاّ عن قهر واضطرار ، إذ لم يجدوا بدًّا من التسليم بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض ! أمّا هذا الخالق ، وقدرته ، وعلمه وحكمته وسلطانه ، فلم يكن له مفهوم واضح يقوم على إدراك سليم عندهم .. ولو كان هذا الإقرار قائماً على إدراك صحيح ، وفهم سليم ، لكانوا مؤمنين به ، مصدقين لرسوله ، مؤمنين بآيات الله التى بين يديه .. وهكذا كل قول لا يقوم على علم لا يبعث فى صاحبه يقيناً بمفهوم هذا القول ، ولا يُحدِث فى نفسه أثراً يثير وجدانه ، ويحرك مشاعره ، ويؤثر فى منازعه .. فهذا هو كلام الله ، يمسك بالحقائق من أطرافها جميعاً : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » (٨٢ : النساء) .

قوله تعالى :

* « أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون » .

سؤال آخر ، يُسأله المشركون ، وهم فى موقف الاتهام بالشرك بالله ، وضلالهم الطريقَ إليه . .

والسؤال هنا عمّا يمكن أن يكون لهم من دعوَى يدّعونها فيما بين يدى الله من خزائن ملكه ، ومن تصرّفه فيما تضم هذه الخزائن من مِنَنٍ وعطايا ، ومن رحمة وإحسان .

أعندهم مفاتح هذه الخزائن ؟ أم المسيطرون عليها ، المتصرفون فيها ؟ وإذا لم يكن لهم شىء من هذا ، فلم إذن ينكرون على الله أن يمنّ بفضله على من يشاء من عباده ؟ ولم إذن ينكرون أن يكون لله سبحانه الخِيَرَةُ فى اصطفاء من يصطفى من خلقه للسفارة بينه وبين الناس ؟ ولم يقولون هذا القول المنكر فى النبى.. « أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشِر » ؟ (٢٥ : القمر) وكيفَ تبلغ بهم الجرأة أن يقولوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ » وقد رد الله سبحانه قولهم هذا بقوله : « أهم يقسمون رحمة ربك ؟ » (٣١ ، ٣٢ الزخرف) .

قوله تعالى :

* « أم لهم سُلّم يستمعون فيه فليأت مستمِعهم بسلطان مبين » .

وسؤال اتهام أيضاً . . يقال لهم فيه : من أين جئتم بهذه المقولات الباطلة التى تقيمون منها دِينا تَدينون به ، فتجعلون من الملائكة ، والجنّ ، والنجوم ، والكواكب ـ آلهةً تعبدونها من دون الله ؟ أمعكم بهذا كتاب من عند الله ؟ أم كان لكم سلم وصل بينكم وبين الملأ الأعلى ، فتلقّيتم منه هذه المقولات التى

تقولونها ؟ إن يكن أحد منكم فعل هذا ، فليأت بحجة بين يدى دعواه تلك ، وإلا فهو الكاذب المفترى .. أما من يقول لكم هذا كلام الله أتلوه عليكم ، وهذه رسالته أبلغكم إياها ، ثم يقدم لكم مع قوله هذا، الدليلَ الناطق ، والحجةَ الدامغة ، فهو الصادق الأمين : « ومن يدع مع الله إلٰها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون » (١١٧ : المؤمنون) .

قوله تعالى :

* « أمْ له البنات ولكم البنون ؟ » .

وهذا سؤالُ اتّهام كذلك ، لهؤلاء المشركين :

إذا كان قد صحّ لديكم أن الملائكة بنات الله ، وأنكم إنما تعبدون بنات الله تقرباً إلى الله ، ليكونوا شفعاء لكم عنده ـ فهل نِسبتكم البنات إلى الله ، مما يتفق مع منطقكم الذى تعيشون به ، والذى تقيمون فيه البنات عندكم على ميزان شائل ، تخفّ به كفتهم إزاء كفة البنين ، بل إنه لا يكاد يقام لهم ميزان أصلا عند كثير منكم ؟ أفلا كان يقضى عليكم منطقكم هذا ـ إذا كنتم تريدون لله توقيراً ـ أن تجعلوا الملائكة ـ وقد نسبتموهم إلى الله نسبة بنوة ـ ذكوراً لا أناثاً ، وبنين ، لا بنات ؟ وفى هذا يقول سبحانه : « ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذبَ أن لهم الحسنى . لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرَطون » (٦٢ : النحل) .

قوله تعالى :

* « أم تسألهم أجراً فهم من مَغْرم مثقلون » ؟

وتهمة أخرى يُسألون جوابهم عنها :

ماذا يضيرهم من هذه الدعوة التى يدعوهم الرسول إليها ؟ وماذا

يضارّون به من هذه الرحمة المرسلة إليهم ؟ أيسألهم الرسول على ذلك أجراً يُثقل به كاهلهم ، ويجور على ما فى أيديهم من مال أو متاع ؟ إنه لاجواب .. فما سألهم الرسول شيئاً من حطام الدنيا ، ولا أقام نفسه سلطاناً عليهم ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلّفين * إن هو إلا ذكر للعالمين » (٨٦ ـ ٨٧ ص) ..

قوله تعالى :

* « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » ؟ .

أى أعندهم علم من الغيب ، فهم يخرجون منه هذه المقولات التى يقولونها، ويجعلون منها دِيناً يَرُدّون به دينَ الله الذى يدعوهم الرسول إليه ؟ ولا جواب أيضاً ..

« أفرأيتَ الذى كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالا وولداً * أطّلع الغيبَ أم اتخذ عند الرحمن عهداً ؟ * كلا سنكتب ما يقول ونَمُدّ له من العذاب مدًّا * ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً » (٧٧ ـ ٨٠ : مريم) .

قوله تعالى :

* « أم يريدون كيداً ؟ فالذين كفروا هم المكيدون » ..

أى أيريدون بهذا الخلاف على النبى ، والتولّى عنه ، والتصدى لدعوته — أيريدون بهذا كيداً للنبى ، وإساءة إليه ؟ إنهم بهذا إنما يكيدون لأنفسهم ، ويحرمونها هذا الخير الكثير الممدود إليهم ، وإنهم بهذا لهم الخاسرون فى الدنيا والآخرة جميعاً ..

قوله تعالى :

* « أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون » ..

وإنهم إذا انصرفوا عن دعوة هـذا النبي ، وعبدوا إلهـا غير الله الذي يدعوهم إلى عبادته — أهناك إله آخر غير الله يولّون وجوههم إليه ؟ سبحان الله ، وتعالى ، وتنزه ، عما يشركون به من آلهة . .

قوله تعالى :

* « وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم » . .

هو تهديد لهؤلاء المشركين ، ببلاء ينزل عليهم من السماء ، التي افتروا عليها ، وكذّبوا بآيات الله المنزلة عليهم منها . . فإن السماء التي تتنزل بالهدى والرحمة ، يمكن أن تتنزل كذلك بالرجوم والصواعق والمهلـكات . . وإنه كما ضل هؤلاء المشركون عن آيات الله ، فلم يتبينوا وجه الحق المبين فيها ، وحسبوا ما فيها من خير وهدى ، أنه شر وبلاء — كذلك اختلط عليهم الأمر فى هذا البلاء النازل عليهم من السماء ، فحسبوه خيراً وظنوه رحمة هاطلة ، وغيثاً مدراراً . . وهكذا تتحول الحقائق عندهم إلى نقائضها . . فالخير يرونه شراً ، والشر يحسبونه خيراً . . « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم » (٤١ : المائدة) . .

والـكِسْف : — كما يقول الراغب — جمع كِسفة ، وهى القطعة من السحاب أو القطن ، ونحو ذلك من الأجسام المتخلخلة .

والمركوم : أى المتراكم ، والركام ما يُلقىَ بعضُه على بعض . .

قوله تعالى :

* « فَذَرْهُمْ حتى يُلاَقُوا يَوْمَهم الذى فيه يُصْعقُون » . .

وماذا يفعل بأهل الضلال غير أن يتركوا لضلالهم ، ولما يؤدّى بهم إليه هذا الضلال من هلاك ، مبير وبلاء عظيم ، بعد أن جاءتهم النذر ، وعُرِضت عليهم المَثُلات ، وقامت بين أيديهم الحجج ؟ فليُتركوا وما تمليه عليهم عقولهم الفاسدة ، وأهواؤهم المهلكة ..

واليومُ الذى يصعقون فيه ، هو يوم القيامة ، حيث تأخذهم صواعقه ، وتغشاهم النار من فوقهم ومن تحت أرجلهم ..

قوله تعالى :

* « يَوْمَ لا يغنى عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون » .

أى فى هذا اليوم الذى ينتظرهم بالصواعق والعذاب الأليم — فى هذا اليوم ، لا يجدون من هذا الكيد الذى يكيدونه للنبى شيئا ينتفعون به ، بل إنه سيكون عليهم حسرة ووبالا ، حيث لا ناصر لهم ينصرهم من بأس الله ، ويدفع عنهم العذاب المحيط بهم .

قوله تعالى :

* « وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون » ..

هو وعيد لتلك الطُّغمة الظالمة الطاغية من هؤلاء المشركين ، والذين تولّوا كِبْرَ هذا الموقف ، الآثم ، الذى يقفه المشركون من النبى ، ومن آيات الله ، التى يتلوها عليهم — فهؤلاء الظالمون الطّاغون ، لهم — فوق العذاب الراصد لهم فى الآخرة — عذاب معجّل فى هذه الدنيا ، هو ما يلقاهم فى يوم بدر وغيره ، من قتل ، ومن خزى ، ومن حسرة تتقطع

لما أكبادهم ، حين يرون دينَ الله وقد علت رايتُه ، وعزّ سلطانه ..

وفى قوله تعالى : « ولـكن أكثرهم لا يعلمون » — إشارة إلى أن أكثر هؤلاء المشركين الظالمين الطاغين ، لا يعلمون هذا من أمر دين الله ، وأنه ذو سلطان غالب ، أمّا قليل منهم ، فقد كان يعلم هذه الحقيقة ، ويتوقع هزيمةَ الشرك ، وخزىَ المشركين ، ولـكنه كان يمسك بشركه ، أنفةً وحميّةً واستعلاء . .

قوله تعالى :

* « واصبر لحـكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم * ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » . .

بهذه الآية تختم السورة ، داعيةً النبى إلى أن يصبر على عناد قومه ، وما يسوقون من كيد له . . فهذا موقف أراده الله وقضى به ، ليبتلىَ به ما فى الصدور ، وليمحّص ما فى القـلوب ، وليجزى المؤمنين منه جزاء حسناً . .

واللام فى قوله تعالى : « لحـكم ربك » هى لام العاقبة ، أى اصبر إلى أن يحـكم الله بينك وبين قومك ، وإنه لحـكم ينتصر فيه الحق على الباطل ، وتعلو فيه كلمة المحقّين على المبطلين ..

وقوله تعـالى « فإنك بأعيننا » تطمين لقلب النبى الـكريم ، وأنه ملحوظ بعين الله سبحانه وتعالى ، محفوف بعنايته . . ترعاه عين الله وتحرسه .

وقوله تعالى : « وسبح بحمد ربك حين تقوم » دعوةٌ للنبى أن يذكر ربه ، ويسبح بحمـده على هـذه الرعاية الربانية التى يفيضها الله

سبحانه وتعالى عليه . . والمراد بقوله تعالى : « حين تقوم » أى حين تقوم مقامك بين الناس فى الحياة ، وذلك من أول النهار ـ إلى آخره . .

وبقوله تعالى : « ومن الليل فسبحه » أى ومن بعض الليل ، فسبح بحمد ربك . . وبقوله : « وإدبارَ النجوم » أى مطلع الفجر ، بعد أن يغلب ضوءه أضواء النجوم ، فتولى النجوم أدبارها ، منهزمة أمام هذا الضوء الذى يغزوها بجيشه الزاحف الذى لا يُهزم . .

هذا ، ويدخل فى هذا التسبيح بحمد الله فى تلك الأوقات ـ الصلوات الخمس المفروضة .. فيدخل فى قوله تعالى : « حين تقوم » صلاةُ النهار ، وهى الظهر والعصر ، وفى قوله تعالى : « ومن الليل فسبحه » ـ صلاةُ المغرب والعشاء وفى قوله تعالى : « وإدبار النجوم » صلاةُ الصبح . .



٥٣ - سورة النجم

نزولها : مكية باتفاق . .

عدد آياتها : اثنتان وستون آية ..

عدد كلماتها : ثلاثمائة وستون كلمة ..

عدد حروفها: ألف وأربعمائة وخمسون حرفاً .

مناسبتها لما قبلها

كانت سورة الطور مواجَهةً صريحة بالاتهام للمشركين ، بمفترياتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبمقولاتهم الآثمة فيه ، وبأنه شاعر يتربصون به ريبَ المنون ، وأنهم لهذا لا يقبلون ما يدعوهم إليه من هدى، يطالعهم به فى آيات الله التى يتلوها عليهم ، وأنهم لهـذا أيضـاً ، متمسكون بما معهم من أباطيل وضلالات يَدينون بها ، ويقيمون حياتهم الروحية عليها ..

وقد ووجهوا بهذه الضلالات ، وضُبطوا متلبسين بها ، وسئلوا عن المصدر الذى تلقوْها منه ـ فلم يكن لهم هناك جواب إلا الحيرة والوجوم ..

وجاءت سورة النجم تعقيباً على هذا الموقف الذى جمد فيه المشركون ، وخرسوا أمام هذه التهم التى تلبسوا بها ، وفى أعينهم نظرات زائغـة . . يرمون بها هنا وهناك ليجدوا مخرجاً من هذا المأزق الحرج الذى هم فيه .. وفى هذا التعقيب يُعرض على المشركين الوجهُ الذى ينبغى أن يسلـكوه ، إن هم أرادوا الخروج من هذه الحيرة التى لبستهم ..

ومن جهة أخرى ، فإن سورة الطور ، قد خُتمت بقوله تعالى : « ومن

الليل فسبحه وإدبارَ النجوم » على حين بدئت سورة النجم بالقسم بواحد من هذه النجوم، التى أدبرت مع ضوء الصبح الوليد .. فكان هناك أكثر من مناسبة جمعت بين السورتين ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٨)

* « وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَٰرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ (١٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « والنجم إذا هوى * ما ضلّ صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى » ..

الواو : للقسم ..

والنجم : مُقْسَم به من الله سبحانه وتعالى :

والواقع عليه القسم ، هو قوله تعالى : « ماضل صاحبكم وما غوى . . . الآيات » ..

وقد اختُلف فى المراد بالنجم ، فقيل هو ما ينزل من القرآن منجّما ، وقيل هو الرسول ، وقيل هو جنس النجم ، الشامل لجميع نجوم السماء ، وقيل هو الشعرى اليمانية ...

واختلف كذلك فى معنى « هوى » فقيل بمعنى سقط ، رجوماً للشياطين ، أو تناثر ، وذلك يوم القيامة ، وقيل « هوى » بمعنى غرب ، أو بمعنى طلع . . .

والذى نراه — والله أعلم — أن المراد بالنجم هو النجم القطبى ، الذى يهتدى به السائرون ليلاً فى البرّ ، وفى البحر ، وهو يأخذ دائما اتجاه الشمال . . وذلك ما يشير إليه قوله تعالى : « وبالنجم هم يهتدون (١٦ : النحل) . . فهذا النجم ـ والله أعلم ـ هو النجم الذى أقسم الله سبحانه وتعالى به . .

والذى نراه ـ والله أعلم ـ فى قوله تعالى : « هوى » أن معناه ، أفَل ، واختفى ، فى ضوء الصبح المشرق . . وهو المناسب لقوله تعالى فى آخر سورة « الطور » : « ومن الليل فسبحه ، وإدبار النجوم » .

واختصاص هذا النجم من بين نجوم السماء ، بالذكر ، لأنه من أضوأ نجوم السماء ، ومن أكثرها صلة بحياة الناس ، وهدايةً لهم فى السير ، فى ظلمات البر والبحر . .

وفى القسم بالنجم فى حال هُوِيّه ، وأفوله ، ووقوع هـذا القسم على النبي وأنه ماضلّ وما غوى ، كما يرى ذلك المشركون الضالون ـ فى هذا إشارة إلى أمور :

أولها : أن ظهور النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان فى ظلمة ليل بهيم ، أطبق على العالم كله ، وأناخ بكَلْكَلِه على الجزيرة العربية وأهلها ، وأن ظهوره هذا ، كان أشبه بالنجم القطبي ، الذى يرى منه المدلجون فى الليل هادياً ، إذا هم رفعوا رءوسهم إلى السماء ، ومدّوا أبصارهم إليه ..

وثانيها : أن هذا النجم السماوى البشرى ، الممثل فى النبي ، والنور الذى معه ـ لم يهتد به ، فى الدور المكىّ من الدعوة ، وإلى وقت نزول هذه السورة ـ إلا أعداد قليلة من الناس ، هم الذين رفعوا رءوسهم إليه ، وطلبوا الهدى منه .. أما الكثرة الكثيرة من المشركين، فقد كانوا فى نوم عميق ، تطرقهم فيه رؤى الأوهام ، وأضغاث الأحلام !! وأن هذا النجم الهادى يوشك أن يغرب عن أفقهم ، ويفوتهم الاهتداء به ، والتعرف على الوجه الصحيح الذى يسلكونه على درب الحياة .

وثالثها : أن هذا النجم القطبي — وإن غاب عن الأعين — فإنه فى حقيقته قائم فى مقامه العالى ، حيث هو .. هكذا يراه أهل العلم . . وكذلك الرسول صلوات الله وسلامه عليه — وإن غاب شخصه عن أعين الناس ، فإنه قائم فى مقامه المكين ، من قلوب المؤمنين أبدَ الدهر .

ورابعها : أن النبي الكريم ، وإن ظهر فى أول أمره نجماً ، لا تكتحل بضوئه إلا العيون التى تطلبه ، فإن أمره بعد هذا سيعظم ، ويتحول إلى صبح مشرق ، يملأ العيون ، ويُنعش النفوس ، ويوقظ الأحياء . . ثم لا يلبث هذا النبي أن يطلع شمساً ينفذ شعاعها إلى الكائنات ، فيلبس المؤمنون به ، المتعرضون

لضوئه، حللا من النور ، والجلال، على حين تنجحر من ضوئه الهوام والحشرات، وتقتل تحت ضربات أشعته « الفيروسات » والجراثيم . .

وخامسها : أن هؤلاء المشركين ، الذين لم يهتدوا بضوء النبي « نجماً » ثم لم ينتظموا فى ركبه «صبحاً» ثم لم يستقبلوا ضوءه «شمساً» — هؤلاء المشركون لن يكون مصيرهم إلا كمصير هذه الجراثيم ، تموت تحت ضربات الشمس ، أو كهذه الهوام والحشرات ، لا يرى لها وجه ما دام هذا الضوء قائماً . . وقد كان ، فإن كثيراً من المشركين الذين عاصروا النبوة ماتوا ميتة الجراثيم ، وكثير منهم انجحر بين أربعة جدران من بيته إلى أن مات حسرة وكمداً ، دون أن يشعر به أحد !

وقوله تعالى : « ما ضلّ صاحبكم وما غوى » — هو المقسم عليه من رب العزّة جلّ وعلا ، وهو تبرئة لمقام النبيّ الكريم أن يكون بمظنة سوء ، أو بموضع تهمة ، فهو صلوات الله وسلامه عليه ، كما شاء له ربه أن يكون ، وكما عرَف ذلك منه قومُه معرفةَ عِيان وابتلاء — هو الصادق الأمين ، الذى لم تجرب عليه كذبة قط ولم يعرف عنه — ولو على سبيل الكذب والافتراء عليه — أنه خان أمانة ، أو أخلف وعداً ، أو نقض عهداً ، ولهذا كان عند قومه يدعى الصادقَ الأمين . .

والضلال : ضد الهدى ، ويكون غالباً عن جهل . .

والغىّ ، ضد الرشاد ، ويكون غالباً عن اتباع الهوى . . وفى مخاطبة قريش بقوله تعالى : « صاحبكم » — إشارة إلى تلك الصحبة الطويلة التى صحب فيها النبىّ قومَه قبل البعثة ، وإلى ما عرفوا منه خلال تلك الصحبة من أمانة ، وصدق ، واستقامة ، ونبل ، وسداد رأى ، ورجاحة عقل ، حتى نزل من قلوبهم جميعاً منزلة الصاحب من قلب صاحبه . . فكيف تتبدل حالهم معه ، بعد أن جاوز الأربعين ؟ وكيف ينكرون عليه ما جاءهم به دون أن ينظروا فيه بعقولهم ،

ويقفوا طويلا عنده ، قبل المسارعة بهذا الاتهام من غير تدبر أو نظر ؟ ..

وقد كان يمكن أن يكون لهذا الإنكار الذى استقبلوا به دعوة النبي ـ وجه من العذر ، لو كان النبي طارئاً عليهم ، غير معروف لهم ، أو كان موضع تهمة عندهم من قبل.. وأمّا والنبي فيهم مقام كريم،ومعاشرة طويلة ،قائمة على الإكبار والإجلال والتعظيم ـ فإن المبادأة بهذا الاتهام مما لا يستقيم على منطق أبداً ، ولا يقوم له وجه من العذر بحال أبداً ..

* وقوله تعالى : « وما ينطق عن الهوى » ـ هو معطوف على المقسَم عليه ، وهوّ قوله تعالى : « ماضل صاحبكم وما غوى » ـأى وما ينطق بما نطق به ، عن هوى يترضّى به شهوة من شهوات النفس ، أو يتصيد به مطلباً من مطالب الحياة .

* وقوله تعالى : « إن هو إلا وحى يوحى » .. أى ماهذا الذى ينطق به صاحبكم هذا ، إلا وحى يوحى إليه من ربه ، وليس عن هوى متسلط عليه من أهواء النفس . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى :

« قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثتُ فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون » (١٦ : يونس) ..

* وقوله تعالى : « علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى ...»

الضمير فى « علمه » يعود إلى جبريل عليه السلام ـ أمين الوحى ، وسفير السماء إليه ، برسالة ربه ، وبكلماته .. وأنه هو الذى أوحى إلى الرسول بهذا العلم الذى تنكرون على« محمد » ما يتلوه عليكم منه ..

ومن صفات جبريل ـ عليه السلام ـ أنه « شديد القوى » أى قوىّ أمين

حافظ لما يحمل من رسالات الله سبحانه وتعالى إلى رسله ، كما يقول سبحانه :
« إنه لقول رسول كريم * ذى قوة عند ذى العرش مكين * مطاع ثَمّ أمين »
(١٩ — ٢١ : التكوير) ..

ومن صفات جبريل كذلك أنه « ذو مِرّة » أى جَلَد وصبر ، وقدرة على حمل هذه الأمانة التى كُلّف بحملها . . وإنها لأمانة ثقيلة أبت السماء والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها .

وقوله تعالى : « فاستوى » ـ الفاء هنا للتفريع .. أى أن جبريل بهذه الصفات التى أقام الله سبحانه وتعالى خَلْقه عليها ، قد « استوى » أى استوفى الصفات التى تؤهله لهذه الوظيفة ، والتى تمكنه من القيام بها على الوجه الأكمل ..

وقوله تعالى : « وهو بالأفق الأعلى » ـ هو معطوف على ما قبله ، وهو صفة من صفات جبريل ، عليه السلام ، تشير إلى العالم العلوى ، الذى يعيش فيه .. أى أنه ملك سماوى ، وليس من هذا العالم الأرضى ..

وهذا الذى ذَهَبنا إليه ، فى تأويل هذه الآيات الثلاث ، أولى ـ فى رأينا ـ مما ذهب إليه المفسرون من جعل قوله تعالى :

« وهو بالأفق الأعلى » جملة حالية ، من الفاعل فى قوله تعالى :

« فاستوى » بمعنى « فاستوى » أى جبريل حالة كونه « بالأفق الأعلى » أى أنه عرض نفسه وهو بالأفق الأعلى ، فى صورته التى خلقه الله عليها ، لا فى تلك الصور التى يمكن أن يتشكل فيها ، حسب مقتضيات الأحوال ، كأن يكون فى صورة بشرية ، من تلك الصور التى كان يلقى بها النبى فى بعض الأحيان .. ويذهب المفسرون فى هذا إلى أن تلك الصورة الذاتية لجبريل ، إنما كانت له عند ما جاء إلى النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى مفتتح الرسالة فى غار « ثور » الذى كان يتعبد فيه ، قبل البعثة وأن جبريل ـ عليه السلام ـ لقيه

يومئذ فى صورته الكاملة التى له ، والتى ظهر فيها ـ كما يقول المفسرون ـ بستمائة جناح له ، الأمر الذى كان داعية إلى هذا الفزع والاضطراب الذى ملأ كيان النبى يومئذ .. !

وهذا الذى ذهب إليه المفسرون ، على ما فيه من تكلف ظاهر فى التأويل ـ هو ـ من جهة أخرى ـ بعيد عن منطق الحكمة فى اتصال النبى بالسماء ، حيث يطلع عليه منها فى أول لقاء معها ، هذا الهولُ المفزع الذى لا يمكن أن يكون أبداً مدخلا حكيما إلى قيام صلة وثيقة بين السماء وبين النبى المتلقى لرسالة السماء منها .. فتعالت حكمة الله سبحانه وتعالى عن هذا ، علواً كبيراً ..

ولعل الأقرب والأوفق ، فى هذا المقام ، أن يجىء جبريل إلى النبى فى أول لقاء له معه ، فى صورة بشرية ، أو أقرب إلى البشرية .. فهكذا يقتضى المنهج الحكيم ،فى التربية والتعليم ، وذلك بالتدرج من السهل إلى الصعب . وهكذا جاءت ملائكة السماء إلى إبراهيم كما يقول سبحانه : « وهل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرَمين » فقد جاءوا إليه فى صورة بشرية كاملة .. كما جاءوا إلى لوط فى تلك الصورة البشرية نفسها ، إذ يقول عنهم مخاطباً قومه ..

« إن هؤلاء ضيفى .. فلا تفضحون » (٦٨ : الحجر) ..

وهكذا جاء رسول السماء إلى « مريم » كما يقول : « فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويّا » .. (١٧ : مريم)

وأحسِب أن الذى حمل المفسرين على هذا التأويل المتكلّف ، هو رأيهم فى فواصل الآيات القرآنية ، وأنها قد تجىء لمراعاة النظم ..

ولو أنهم ، نظروا إلى الإعجاز القرآنى ، الذى لا تحكمه ضرورة « القافية » التى قد تحكم الشعر ـ لو أنهم نظروا إلى هذا ، لجعلوا قوله تعالى : « فاستوى » ـ هو فاصلة الآية ، التى يقتضيها المعنى ويتم بها ، ولكان الوقوف عندها

مستوفياً المعنى المراد ، ولَمّا جعلوا الآية التي بعدها تتمة لها ، وإنما هى كلام مستأنف ، يُخبَرَ به عن المكان الذى يكون فيه جبريل ، وهو الأفق الأعلى .

قوله تعالى :

* « ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى » ..

الحديث هنا عن جبريل ـ عليه السلام ـ وهو يحمل كلمات الله ، إلى رسول الله .. إنه « دنا » أى قرب من النبى ، « فتدلّى » أى قرب أكثر فأكثر ، شيئاً فشيئاً ، فى لطف ، ورفق .. فهو إذ يأخذ طريقه إلى النبى ، ينطلق انطلاقا بكل قوته ، حتى إذا دنا من النبىّ ، خفّف من سرعته شيئاً فشيئاً ، حتى يلتقى به ، ويكون منه « قاب قوسين أو أدنى » .. فيصافحه فى رفق ولطف ، شأن الطائر حين يَهْوِى من الجو إلى الأرض فى سرعة خاطفة ، فإذا دنا من الأرض خفف من سرعته شيئاً فشيئاً حتى يلامس سطحها ..

وقاب القوس : المسافة ما بين مِقبض القوس ووتره ، وذلك حين يُشَدّ القوس لإطلاق السهام منه ، فيكون أشبه بنصف دائرة ..

وهذا — والله أعلم — هو السر فى تشبيه التقاء جبريل بالنبى ، حيث يكون كل منهما أشبه بقوس مشدود مهيَّأ للرماية ، يقف كل منهما فى مواجهة صاحبه ، مشدوداً إليه ، حتى يتماسا عند نهاية القاب ، الذى يبدأ من مركز الدائرة إلى محيطها .

ومن جهة أخرى . . فإن القوس ، فى حال شدّه ، يكون متوتّراً واقعاً تحت قوة مؤثرة ، تشده شداً عنيفاً .. وكذلك شأنُ كلٍّ من جبريل ،

والنبى فى حال التقائهما . . إنهما يتجاذبان جذباً قوياً . . فجبريل يجذب نفسه إلى حالٍ بشرية ، والنبى يجذب نفسه إلى جهة الملائكته .

وهكذا يظلان يتجاذبان ، وقتاً معاً ، حتى يتماسا ، كما يتماس وترا القوسين المشدودين ، المواجه كل منهما للآخر ، وهنا يتم اللقاء والتجاوب بينهما . .

والعطف بالحرف : « أو » فى قوله تعالى : « فكان قاب قوسين أو أدنى » — ليس للشكّ فى الحكم الواقع على ما بين القوسين من قرب وتلاحم ، وإنما هو لتأكيد هذا القرب ، وأنه بالنسبة لمن يرونه تختلف عليهم رؤيته ، فيراه بعضهم قاب قوسين ، ويراه بعضهم أدنى وأقرب من ذلك . .

وفى قوله تعالى : « فأوحى إلى عبده ما أوحى » إشارة إلى ما يقع فى هذا اللقاء بين جبريل والنبى ، وهو أن جبريل يوحِى إلى النبىّ ، ما أمره الله سبحانه وتعالى بوحيه إليه من آيات الله وكلماته . .

وفى قوله تعالى : « عبده » بإضافة النبى الكريم — بصفة العبودية إلى ربه — فى هذا تكريم للنبى الكريم ، وإضافة له إلى رب العالمين ، الذى ربّاه ، وأحسن إليه ، وعلمه مالم يكن يعلم . .

وفى قوله تعالى : « ما أوحى » بتجهيل هذا الذى أُوحى إلى النبى — تفخيم لهذا الموحَى به ، وأنه مما يجلّ عن الوصف ، ومما لا تحصره الأوصاف . . فقُلْ فيه ما تشاء من أوصاف الكمال والجلال ، فإنك لن تبالغ صفته . .

قوله تعالى :

* « ما كَذَبَ الفؤادُ ما رأى » .

أى ما كذب « الفؤاد » أى القلب ، فيما رأى وعاين ، مما يتلقى من آيات الله .. وفى التعبير عن العلم الذى وقع فى قلب النبى من هذا الذى ألقاه جبريل إليه ـ فى التعبير عن هذا العلم ، بالرؤية ـ إشارة إلى أنه علم « محقق » يراه القلب ، فى جلاء ووضوح ، أشبه بما ترى العين الباصرة من مبصرات .. وهذا التلقّى عن طريق « الفؤاد » أى القلب ـ هو ما يشير إليه قوله تعالى : « نَزَلَ به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين » (١٩٣ — ١٩٥ : الشعراء) .

والذى نزل به الروح الأمين « جبريل » على النبى ، هو كلمات الله ، وأنها نزلت بلسان عربى مبين ، ولم تنزل معانىَ مجردة ، صاغها النبى صياغة باللغة العربية كما يتخرص بذلك المتخرصون ، الذين يقولون إن القرآن قسمة مشتركة بين الوحى وبين النبى . . فالموحَى به إلى النبى هو المعنى الذى يقع فى قلب النبى ، وأما اللفظ الذى يتشكل فيه هذا المعنى ، فهى من النبى . . وهذا ما يكذّبه قوله تعالى : « نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين » فقوله تعالى : « بلسان عربى مبين » متعلق بقوله تعالى « نزل به الروح الأمين » ـ أى نزل به بلسان عربىّ مبين *

وقد عقدنا لذلك مبحثاً خاصاً فى هذا التفسير ، تحت عنوان : كلمات الله وكيف تلقاها النبى[1] .

قوله تعالى :

* « أفتمارونه على ما يرى » .

---

(١) انظر التفسير القرآنى للقرآن . . عند تفسير قوله تعالى « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » ص١٥٦ من الكتاب العاشر

المماراة ، المجادلة ، والبهت ، والتكذيب .

والآية تحمل استفهاماً إنكارياً ، ينكر على المشركين مماراتهم للنبى ، وجدلهم له ، فيما رأى من آيات ربه مما لم يروه .. إنه شاهد وهم غائبون ، وهو مبصر ، وهم لا يبصرون .. فكيف يجادل الغائب فيما يخبر به الشاهد ؟ وكيف يكون الأعمى حجة يحاجّ بها ما يراه المبصر ؟

[المعراج .. وما يقال فيه]

قوله تعالى :

* « ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى » .

هو تعقيب على مماراة المشركين للنبى وتكذيبهم له ، لما يتلوه عليهم ، ويقول لهم عنه ، إنه كلمات الله ، وآياته ، تلقاها وحيا من ربه ، على لسان أمين الوحى ، ورسول السماء ، جبريل ، عليه السلام .

وإنهم إذ يمارون فى أن تتدلىّ ملائكة السماء إلى الأرض ، وأن تخالط إنساناً من الناس ، وتُلقى إليه بكلمات الله ـ إنهم إذ يمارون فى هذا ويستكثرونه ، ألاَ فليَسْمعوا ما هو أغرب وأعجب !! إن هذا النبى الذى يستكثرون عليه أن يكون على صلة بالسماء ، وأن يتنزل عليه مَلَك من عند الله ـ هذا النبى هو الذى قد دُعِىَ إلى السماء ، وهو الذى أُصْعِدَ إلى الملأ الأعلى ، فى موكب عظيم ، تحفّ به الملائكة ، ويحدو ركبَه الأمينُ جبريل ، وأنه مازال يصعد بركبه المبارك الميمون المهيب ، حتى بلغ سدرة المنتهى ، وهو غاية ما تنتهى إليه الطاقة البشرية ، فى أعلى منازلها .

والسدرة ، واحدة السدر ، وهو شجر النبق ، وهو من أشجار البادية ، دائم الخضرة ، كثير الفروع ، ممتدّ الظلال .

واختيار شجرة السدر ، للدلالة على النهاية التى لا يتجاوزها مخلوق من العالم العلوى ـ لأن شجر السدر شجر صحراوىّ ، ينبت على حافة الصحراء ، بين البادية والحاضرة ، فهو بهذا أمارة من أمارات البادية التى تـكاد تماس الحياة الحضرية ، وتقف على عتبتها ، دون أن تتجاوزها إلى ما وراءها . . إنها أقوى ، وأقدر نبت أصيل من نبات البادية ، يستطيع أن يمتد فيصل إلى مشارف العالم الحضرى .

أما النخل ـ فإنه وإن كان من نبت الصحراء ، إلا أنه لا ظلّ له ، يجتمع الناس تحته . ، كما هو الشأن فى شجر السّدر .

وأما العنب والرمان ، ونحوها ، فإنها من نبات الحضارة أصلا ، ثم استجلبت إلى البادية .

وعلى هذا ، فإن شجرة السدر هنا تشير ـ والله أعلم ـ إلى نقطة التقاء بين عالمين عالم « البشر » الذى تتحرك فيه البشرية جميعها ، والتى تستطيع بما يمدها الله سبحانه وتعالى من فضله أن تصعد فى هذا العالم حتى تبلغ سدرة المنتهى ، ممثلة به فى خاتم النبيين ، محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعالم الملائـكة المقربين ، الذين جعل الله لهم وراء سدرة المنتهى مجالا آخر . ينطلقون فيه ، ومنهم جبريل عليه السلام .

والضمير فى قوله تعالى : « ولقد رآه » يراد به النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أى أن النبى رأى جبريل نزلة أخرى ، وهو فى المـــلأ الأعلى عند سدرة المنتهى .

وفى قوله تعالى : « نزلة أخرى » ـ إشارة إلى أن جبريل ـ عليه السلام ـ نزل نزلة أخرى فى العالم العلوى ، غير تلك النزلة التى ينزلها إلى العالم الأرضى . وإنه التقى برسول الله عند سدرة المنتهى ، التى عندها جنة المأوى .. وهذا يعنى أن جبريل عليه السلام نزل من العالم العلوى ، مما فوق سدرة المنتهى ، حتى

بلغ سدرة المنتهى .. حيث كان بينه وبين النبي لقاء فى هذا العالم العلوىّ ، الذى يفيض بجلال النور ، وبهائه ، مما لا تدرك العقول كنهه ، ولا يقع فى الخيال تصوره .

وقوله تعالى : « إذ يغشى السدرة ما يغشى » .

« إذ » ظرف يكشف عن الحال التى تم فيها لقاء النبي مع جبريل ، عليهما السلام ، عند سدرة المنتهى ، فقد غَشّى هذه السدرة ، ما غشاها ، ولبسها من الروعة والجلال مالبسها ، مما لا تدركه العقول ، ولا تناله الأفهام .

وقوله تعالى « ما زاغ البصر وما طغى » ـ المراد بالبصر هنا ، بصر النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وأن رؤيته للحقائق التى عَرَضت له فى هذا المقام العظيم ، كانت رؤية محققة ، موثّقة ، لم يدخل عليها زيغ أو انحراف ، عن القصد ، أو طغيان ، أى مجاوزة ، عن الحق ، فلم تختلط حقيقة بحقيقة ، بل وقع كل شيء موقعه فى عين الرسول الكريم ، وفى قلبه .

وقوله تعالى : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

الضمير فى « رأى » للرسول الكريم ، وأنه قد رأى فى تصعيده فى الملأ الأعلى آيات كبرى من آيات ربه ، مما لم يقع لبشر غيره .

ووصف الآيات بأنها كبرى ، منظور فيه إلى تقدير المخلوقات .. أما آيات الله سبحانه وتعالى ، فهى جميعها على وصف واحد ، وأن أيًّا منها هو الكمال كله ، والجلال جميعه ، ومثل هذا قوله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ « لنريك من آياتنا الكبرى » .

هذا ما نراه فى « المعراج » على ضوء آيات الله .. وفيها نرى أن معراج الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى الملأ الأعلى ، كان استكمالا لتلك الرحلة الروحية ، التى أرادها الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم ليلة الإسراء ، وأن النبى الكريم قطع المرحلة الأولى من الرحلة فى العالم الأرضى ، بين المسجد الحرام ،

والمسجد الأقصى ، وأن هذه الرحلة كانت أشبه بمقدّمة لما هو مُقدِم عليه ، صلوات الله وسلامه عليه ، من العروج إلى العالم العلوى ، حتى إذا أنست روحه ، واطمأن قلبه ، أخذ طريقه إلى الملأ الأعلى مصعّداً ، حتى بلغ سدرة المنتهى ! وهى غاية ما يمكن أن تحتمله البشرية فى الذروة العليا من مراتب كمالها . أما تلك الإضافات ، وهذه الذيول ، التى تتجاوز هذا المفهوم لآيات الله ، والتى تحكى عن تلك الرحلة الروحية ما تحكى من غرائب وأعاجيب ـ فهى فى رأينا ـ مما لا يعوّل عليه .

وقد عرضنا لهذا الموضوع فى بحث خاص ، عند تفسيرنا لقوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » . فلينظر هناك[1] .

الآيات : (١٩ — ٣٠)

* « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ (٢٥) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ

(١) انظر : التفسير القرآنى للقرآن ـ الكتاب الثامن ص٤٠٩ .

وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « أفرأيتمُ اللات والعُزّى ومنَاة الثالثة الأخرى »

مناسبة هذه الآية وما بعدها للآيات التى قبلها ، هى أنها تعقيب عليها ، وسؤال بعد سؤال ، للسخرية بالمشركين ، والاستخفاف بعقولهم التى تتجاوب مع هذه الدُّمَى التى يعبدونها من دون الله . .

فلقد كانت الآية السابقة على هذه الآيات ، معرضاً لِما لرسول الله من مقام كريم عند ربه ، وأنه إذ يتلقّى رحمات السّماء وآياتِ الله المنزّلة عليه ، على يد ملك كريم مرسل من عند الله ـ فإن ذلك ـ على جلاله وعظمته ـ ليس هو كلّ ماله عند ربّه من فضل وإحسان ، بل إن الله سبحانه قد دعاه إلى ملكوت السموات ، وأنزله فى ضيافة كرمه وإحسانه ، حيث يتناول بيده عطايا ربّه ، من حيث يتناولها جبريل عليه السلام . . وأنه قد رأى بعينه ما كان يلقيه جبريل فى قلبه من تلك الآيات . .

ثم عادت الآيات لتقول للمشركين ، فى سخرية واستهزاء : هذا مارأى محمد من آيات ربه الكبرى . . فماذا رأيتم أنتم أيها الضالون المكذبون ؟ « أفرأيتم اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ؟ » أفليس هذا هو كلّ مارأيتم ؟ أفليس هذا هو مبلغكم من العلم ؟ ثم ماهذا الذى رأيتموه ؟ أهو شىء يقف

عنده عاقل ، ويشغل به قلبه وعقله ؟ وماذا يجد العقل فى حَجَر من بين تلك الأحجار التى تَسُدّ الأفق من حولهم ؟ وماذا يجد العقل فى شجرة من تلك الأشجار النابتة فى صدر الصحراء ؟ والرؤية هنا رؤية بصرية ، لاقلبية علمية ، كما يرى ذلك أكثر المفسّرين ، الذين يطلبون للفعل مفعولا ثانياً محذوفا ، ويقدرونه هكذا :

أفرأيتم هذه المسميات بناتِ الله آلهةً تعبدونها من دونه ؟ وهذا تكلف يفسد المعنى . .

فإن سؤالهم هنا عما يرونه واقعاً تحت أبصارهم فى مواجهة مارأى النبى ببصره من آيات ربّه الكبرى . . فهذه هى مواقع أبصارهم وما تراه ، وهذا هو موقع بصر النبى وما رآه . . وشتان بين موقع وموقع ، وبين ما يُرى على تراب الأرض ، وما يُرى فى عالم الحقّ ، ومطالع النور . . ! !

واللات : صخرة كانت لثقيف . . اتخذت منها صنما تعبده .

والعزّى : معبود من معبودات قريش .

ومناة : معبود من معبودات قريش أيضاً . .

وفى وصف « مناة » بالأخرى تشنيع عليها ، وعلى ما عُطفت عليه من أصنام قبلها . . إنها شرٌّ يضاف إلى شر ، وبلاء يجتمع إلى بلاء ، وسَخَف يلتقى مع سَخَف . .

وليس قوله تعالى : « الأخرى » نعتاً للعزّى ، كما يقول بذلك أكثر المفسرين ، وأن هذا الوصف أخِّر رعايةً للفاصلة ، على تقدير : « أفرأيتم اللات والعزّى الأخرى ومناة الثالثة » . وذلك حسب تقدير المفسّرين ، أن الأخرى إنما تجىء وصفاً للثانية ، لا الثالثة من هذه الدُّمَى المعبودات .

وهذا تعليل مردود من وجوه :

فأولا : أن الفاصلة — كما قلنا — فى أكثر من مرة — لاينظر إليها فى القرآن الكريم من وراء المعنى ، فهى تبع للمعنى ، وليس المعنى تبعاً لها . .

وثانياً : أن « الأخرى » جاءت هنا وصفاً لمناة ، بعد وصفها بأنها الثالثة . . فهى وصف متعيّن لها دون غيرها ، وإحالته إلى غيرها تبديل لكلمات الله . .

وثالثاً : أن وصف مناة بالأخرى ، بعد وصفها بأنها الثالثة ، ليس مراداً به آخرُ المعبودات التى تقع تحت أبصار المشركين ، بل هناك غيرها كثير . . وإنما المراد بهذا الوصف استثقال هذه المسميات، وقطعُ الحديث عما لم يُذكر منهـا، وأن مناة هى آخر مايذكر من هذه الشناعات ، التى تتأذى بسماعها النفوس ! إنها ثالثة الأثافىّ ، أو ثالثة الهموم ، وإن النفس لتضيق بهمّ واحد ، فكيف بهمّ ، وثان ، وثالث ؟

ولو كان همًّا واحدًا لاحتملته ولكنه همٌّ وثانٍ وثالث !

قوله تعالى :

* « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وله الأنثى ؟ تلك إذاً قسمةٌ ضيزى ! »

هو استفهام إنكارى ، ينكر على المشركين ضلالهم فى أسماء هذه المسميات بعد أن أنكر عليهم المسميات ذاتها . . فهى ذاتها مسميات باطلة ، والأسماء التى ركبت عليها أسماء باطلة كذلك ، إذ أطلقوا عليها أسماء مؤنثة — ، وجعلوها من عالم الإناث . . وهى فى حقيقتها ليست ذكوراً ، ولا إناثا ، لأنها من عالم الجماد ، الذى يقبل من الأسماء ما كان على لفظ المذكر أو المؤنث . . فلماذا اختاروا لمعبوداتهم جميعها أسماء مؤنثة ؟ ولِمَ لَمْ يجعلوها مذكرة ؟ ولِمَ لَمْ يجعلوا بعضها مؤنثا وبعضها مذكرا ؟ إن ذلك كلّه لاَيغير من حقيقتها شيئاً . .

فالبيت من الوبر ، أو الشعر ، يسمّى خباء ، ويسمى خيمة . . وهو هو بيت من الوبر أو الشعر . . ! وهكذا كل جماد ، قابل لأن يوضع له لفظ مذكر أو مؤنث ، للدلالة عليه ، وهو فى كل حال ليس مذكراً ولا مؤنثاً !

وفى هذا تسفيه لأحلام هؤلاء المشركين ، وأنهم يتخذون من هذه الدُّمَى كائنات حية يُلبسونها ثوب الإناث ، ويناجونها مناجاة الأطفال لُعب التى يتخذونها من الخشب ونحوه ، ثم يطلقون عليها أسماء ذواتٍ حية ، يُنطقونها ، ويتناجوْن معها ، كما يتناجى الأطفال مع لعبهم من عرائس ، وخيل ونحوها !

ومن جهة أخرى ، فإن هذه الدُّمَى التى يتخذها المشركون آلهة يعبدونها من دون الله ، هى عندهم تماثيل لبعض الملائكة ، الذين هم فى اعتقادهم بنات الله ، وأنهم جميعاً أناس ليس فيهم ذكور أبداً . .

وقوله تعالى : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ » هو سؤال يكشف عن سَفَه هؤلاء المشركين وحمقهم ، حتى فى مجال هذا العبث الذى هم فيه . . إذ كيف يسوّغ لهم هذا العبث أن يتخذوا من الجماد صوراً الملائكة ؟ ثم يجعلون الملائكة بنات ينسبون بنوتها إلى الله ، ثم يعبدونها تقرباً إليه بها ؟ أمَا كان الأولى بهم ـ وهم فى مقام التقرب إلى الله ـ أن يجعلوا ماينسبون له من ذرية ـ أن يكون من الذكور ، الذين هم عندهم فى مقام الحب والإعزاز ، لا من الإناث الذين يسوءهم أن يولد منهن مولودة لأحد منهم ؟ . « ويجعلون لله ما يكرهون » سفهاً ، وضلالا . .

وقوله تعالى : « تلك إذاً قسمة ضيزى » ـ هو تعقيب على قوله تعالى : « ألكم الذكر وله الأنثى » .. وهو حكم واقع على فعلهم هذا فى نسبة البنات إلى الله ، على حين يجعلون الذكور مطلباً لهم ، ومبتغًى يبتغونه .. وهذا جوْر

فى القسمة بينهم وبين الله ، حتى فى حكم هذا المنطق الضالّ الذى يملى عليهم هذه التصورات الفاسدة . . أفلا يجعلون الله مساوياً لهم ، فيكون له من الذرية ـ حسب منطقهم ـ بنين وبنات ، كما أن لهم بنين وبنات ؟ والله سبحانه وتعالى يقول : « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا ؟ إنكم لتقولون قولا عظيما » (٤٠ : الإسراء) .

والقسمة الضيزى : هى القسمة الجائرة ، التى تنقلب فيها موازين العدل رأساً على عقب .

وكلمة « ضيزى » فى غنًى عن تفسير مدلولها ، فهى فى بنائها وتركيبها من هذه الحروف الثقيلة ، المتنافرة التى تجمع بين الضاد والزاى ـ تحكى عن صورة من الخلط والتخبط والجمع بين المتضادات ، والمتنافرات ، مما لا يقع إلا من المجانين والصرعَى .. !

قوله تعالى :

* « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

أى هذه المعبودات التى تُطلقون عليها هذه الأسماء ، ليست إلا مجردَ أسماء ليس وراءها شىء يمكن أن يُنتفع به ، وأن هذه الأسماء هى من ضلالات آبائكم ، وقد ورثتموها عنهم ، كما ورثتم جهلهم وسفههم .

قوله تعالى :

* « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » .

أى مايتبع هؤلاء المشركون إلا ماتفيض به ظنونهم الفاسدة ، وما تمليه عليهم أهواء أنفسهم المريضة .

وفى قوله تعالى : « ولقد جاءهم من ربهم الهدى » تسفيه ، وتنديد بهؤلاء المشركين

الذين يتبعون الظنون الباطلة ، والأهواء الفاسدة، ويتخبطون فى عمًى وضلال ، فى الحال التى يقوم فيها بين أيديهم آيات بينات من ربهم ، لو استقاموا عليها لاهتدوْا ورشَدوا .. إن الضالّ ، له عذره إذا ضل ، وليس بين يديه مَعلَم من معالم الهدى أما أن يضل ، وكل معالم الهدى بين يديه ، فهو الملوم المذموم بكل منطق وبكل لسان ! !

قوله تعالى :

* « أم للإنسان ما تمنّى ؟ . فلله الآخرة والأولى » .

المراد بالاستفهام هنا النفى . أى أنه ليس للإنسان أن ينال كل ما تمنّيه به نفسه ، ويدعوه إليه هواه .. وخاصة إذا كانت هذه الأمانى صادرة من عقول سقيمة ، ونفوس مريضة ، كتلك العقول ، وهذه النفوس ، التى يعيش بها هؤلاء المشركون .

فالمراد بالإنسان هنا ، هو ذلك الإنسان الذى يقيم حياته على أوهام ، وضلالات ، ثم ينتظر الخير من وراء هذه الأوهام وتلك الضلالات .

وقوله تعالى : « فلله الآخرة والأولى » ـ إشارة إلى أن الإنسان ـ أىّ إنسان ـ لا يملك لنفسه ضَرًّا ولا نفعاً ، فى الدنيا ، أو الآخرة .. فالله سبحانه وتعالى يملك الأمر كله ، لا شريك له .. وأن من أراد أن ينال الخير فى الدنيا والآخرة ، فليطلب ذلك من الله سبحانه وتعالى ، وليسع إلى مرضاته ، والقرب منه ، بما ينزل عليه من آياته ، وما يقدّم إليه بين يدى رسله من هدى ونور .. فذلك وحده ، هو السبيل إلى تحصيل الخير والفوز به .

وقُدمت الآخرة على الأولى ، لأنها هى الأوْلى ، بابتغاء الخير فيها ، والعمل لها ، وعقد الآمال عليها ، وتعليق الأمانىّ بها .

قوله تعالى :

* « وكم من مَلَك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » .

أى أنه إذا كان المشركون يتعلقون بالملائكة ، ويعبدونهم من دون الله ، ويرجون منهم الشفاعة لهم عند الله ، فإن ذلك لا يُغنيهم من الله من شىء .. إذ كان الملائكة أنفسهم هم تحت سلطان الله ، لا ينالون شيئاً إلا بما يأذن الله سبحانه وتعالى لهم به . إنهم ومن يعبدونهم سواء فى العجز عن التصرف فى شىء من مُلك الله .. وإنه لضلال بعيد أن يُطلب الخير ممن لا يملكه ، ولا يُطلب من مالك الملك ذى الجلال والإكرام .

« وكم » فى قوله تعالى : « وكم من ملك فى السموات » ـ خبرية ، يراد بها الكثير ..

والسؤال هنا ، هو : إذا كان قد انتفى عن كثير من الملائكة أن يشفعوا إلا لمن أذن له الرحمن منهم فى الشفاعة ، ورضى شفاعته فيمن شفع له ، فهل هذا يعنى أن بعضاً من الملائكة غير هذا الكثير ـ تغنى شفاعته من غير إذن من ربه ؟

والجواب على هذا ـ والله أعلم ـ أن المراد بالخبر هنا ، هو ردٌّ على معتقد المشركين ، فى شفاعة هذه المعبودات التى خلعوا عليها أسماء ، اخترعوها لها من أهوائهم ، وجعلوها بهذا بنات الله ، وأنها تشفع لهم عند الله ، كما يقول سبحانه وتعالى على لسانهم : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (٣ : الزمر) وكما يقول جل شأنه : « ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (١٨ يونس) .. فأخبر سبحانه فى هذه الآية ، بأن الملائكة الحقيقيين فى السماء ، لا هذه الدمَى التى يمثلون

بها الملائكة ـ هؤلاء الملائكة لا يملكون الشفاعة إلا بإذن من الله .. فكيف يكون لهذه الدعوى ـ التي تلبس زوراً صفة الملائكة ـ كيف يكون لها أن تشفع عند الله ؟

ومن جهة أخرى ، فإن هذا الاستثناء يعنى أن كثيراً من الملائكة لا يؤذن لهم بالشفاعة ، وأما الملائكة الذين تقبل شفاعتهم ، فهم الذين يأذن الله سبحانه وتعالى لهم بذلك ، ويقبل منهم قولهم فيمن شفعوا لهم .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « يوم يقوم الروح والملائكة صفًّا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » (٣٨ : النبأ) .

قوله تعالى :

* « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى » هو تشنيع على هؤلاء المشركين ، الذين يطلقون على الملائكة أسماء مؤنثة ، باعتبار أنهم أناث ، وأنهم بنات الله ! .

وفى قوله تعالى : « لا يؤمنون بالآخرة » ـ إشارة إلى أن آفة المشركين إنما هى فى إنكارهم للبعث ، ولما بعد البعث من الحياة الآخرة ، وهذا ما دعاهم إلى إنكار رسالة الرسول فيهم ، والتى من محاملها الإيمان باليوم الآخر ، بعد الإيمان بالله .. فهؤلاء المشركون مستعدون لأن يؤمنوا بالله ، ولكن على شريطة ألا يكون الإيمان بالله مستدعياً الإيمانَ باليوم الآخر .. والإيمان كلٌّ لا يتجزأ .. فمن آمن بالله ، وكفر باليوم الآخر ، وبرسل الله ، فهو على غير الإيمان الصحيح المقبول ..

قوله تعالى :

* « وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » .

أى مالهم بهذا القول الذى يقولونه فى الملائكة ، من علم قائم على الحق ، أو

وارد من موارده . . وإنمـا هو عن ظنون وأوهام ، وإن الظن إذا لم ينقه بصاحبه إلى اليقين ، هو ضلال مبين « لايغنى من الحق شيئاً » أى لايقوم مقام الحق فى أى موقع من مواقعه ، ولا يمسك المسك به إلا بقبضٍ من ريح ! .

قوله تعالى :

* « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يُرِدْ إلاّ الحياة الدنيا » .

هو استخفاف بهؤلاء المشركين المعاندين ، وأنهم ليسوا أهـلاً لأن يُحرص عليهم ، ويُبالغ فى الطلب لخلاصهم .. فليتركوا ليد الهلاك والضياع .. فذلك هو جزاء الظالمين .. إنهم أعرضوا عن ذكر الله ، وردّوا اليـد المبسوطة لهم بالهدى ، وأبوا أن يؤمنوا بالآخرة ، وأن يعملوا لها ، وجعلوا الحياة الدنيا هى كل حياتهم ، فأغرقوا أنفسهم فيها ، واستهلـكوا وجودهم فى السعى لها . .

قوله تعالى :

* « ذلك مبلغهم من العلم .. إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » .

أى ذلك الذى يعيش فيه المشركون ، من إعراض عن ذكر الله ، وعن الخشية من لقائه يوم القيامة ، واستفراغ وجودهم كله فى الحياة الدنيا — هو غاية علمهم الذى حصّلوه بعقولهم الفاسدة . . فهم إنما كان همّهم كله منصرفاً إلى الحياة الدنيا ، فوجهوا عقولهم إليها ، وحصلوا من العلم ما يصلهم بهذه الحياة ، ويمكّن لهم فيها . . وهو علم تافه ، يمسك بالقشور من حقائق الأشياء ، ولا ينفذ إلى صميمها ، ولبابها . . ولو أن علمهم بالحياة الدنيا ، كان علماً قائمـاً على فهم صحيح ، وإدراك سليم ، لـكان لهم من هـذا العلم سبيل إلى الإيمان بالله ، واليوم الآخر . . « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » (٧ : الروم) . .

وقوله تعالى : « إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » . .

هو تهديد للمشركين ، الذين يحسبون أنهم لن يُبعثوا ، ولن يحاسبوا ، وأنه ليس هناك معقب على ما تمليه عليهم أهواؤهم من ضلالات .. وكلاّ ، فإن الله يعلم ما فى السموات والأرض ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . . « وإن كلاًّ لمّا ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير »(١١١ : هود) . .

الآيات : (٣١ — ٥٥)

* « وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢) أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ (٣٤) أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ

وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) »

التفسير:

قوله تعالى :

* « ولله مافى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » . .

هو تأكيد لمعنى ما تضمنه قوله تعالى فى الآية السابقة ، : « إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » أى أن علم الله سبحانه وتعالى علم محيط بكل شىء ، وليس مقصوراً على علم مايقع من الناس، من ضلال أوهدًى ، بل إن له سبحانه ما فى السموات وما فى الأرض . . لا شريك له فيهما ، وإذ كان هذا شأنه سبحانه ، فهو عالم علماً محيطا بكل شىء : « ألاَ يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (١٤ : الملك)

وقوله تعالى : « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » ـ هو تعليل يكشف عن الحكمة فى علم الله سبحانه وتعالى بمن

ضلّ عن سبيله ، ومن اهتدى .. فليس هذا العلم لمجرد العلم ، بل هو علم وراءه عمل ، هو مجازاة كل عامل بما عمل ، وبما كشف هذا العلم عما عمل .. وهو مثل قوله تعالى : « ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما * ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار » (٤ ـ ٥ : الفتح) .

وفى اختلاف النظم بين قوله تعالى : « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا » ، وقوله تعالى : « ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » والذى كان من مقتضى ظاهر النظم أن يقال : ليجزى الذين أساءوا بالسوءى ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ـ فى هذا إشارة إلى أن مجازاة الذين أساءوا بالسوءى ، ليست حتما مقضيًّا فى كل حال ، بل إن رحمة الله سبحانه وتعالى قد تنال هؤلاء المسيئين ، فيعفو الله سبحانه وتعالى عن سيئاتهم كلها أو بعضها ، كما يقول سبحانه : « ويعفو عن كثير » (٣ : الشورى) . . وكما يقول جل شأنه : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » (٤٥ : فاطر) . .

فالمسيئون فى معرض رحمة الله ، إن شاء رحمهم وعفا عنهم ، وإن شاء أخذهم بذنوبهم ، أو ببعض ذنوبهم .

وأما فى مقام الإحسان ، فالأمر مختلف .. فإن المحسنين هم فى مواجهة رحمة الله وفى التعرض لها ، من باب أولى . . وهم لهذا مجزيون بإحسانهم ، بل وبمضاعفة هذا الإحسان . . فذلك مما تقضى به رحمة الله ، وبوجبه عدله ..

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين » (٥٦ : يوسف) . وقوله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » (٢٦ : يونس) . .

[اللَّممُ . . والمعفوّ منه]

قوله تعالى :

* « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة . . هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنّة فى بطون أمهاتكم فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » . .

هو بدل من قوله تعالى : « ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » . . وهذا هو أشبه بعطف البيان ، . إذ أنه لا يستحق الذين أحسنوا هذا الوصف بالإحسان ، إلا إذا كانوا ممن يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاّ اللمم ، وإلا فهم من الذين أساءوا ، وليس لهم مدخل إلى الذين أحسنوا ، إذ أنه لا يجتمع الإحسان مع مقارفة الكبائر ، وإتيان الفواحش . .

وكبائر الإثم ، أشنعها ، وأفظعها ، وعلى رأسها الكفر بالله ، والشرك به . .

والفواحش ، هى المنكرات ، وعلى رأسها الزنى ، فهو فاحشة الفواحش . .

واللمم : هو الإلمام بالفاحشة ، والطواف حولها ، دون الوقوع فيها . . فهذا الإلمام ، وإن كان من قبيل الفاحشة ، إلا أنه مما ترجى مغفرته من الله ، الواسع المغفرة . . وذلك أن الذى ألمّ بالفاحشة ، وحام حولها ، ثم ردّه عن الوقوع فيها خوفه من الله ، وخشيته له ، وحياؤه منه — جدير

بأن ينزع عن هذا اللمم ، مادام هـذا الشعور بالخوف من الله قائماً في قلبه ! . .

وإنه لمن التأويل الفاسد والفجور الآثم ، أن يقف المؤمن عند حدود الفاحشة ، فلا يأتيها ، ثم يستبيح لنفسه الحوْم حولها ، والإلمام بها ، وغشيان حماها ، متخذا من قوله تعالى : « إلاّ اللمم » مدخلاً يدخل به إلى مباءة الفاحشة ، دون تحرّج أو تأثم ، بهذا التأويل الفاسد الآثم ، الذى يتأول عليه بعض المتأولين .

وكلاًّ ، فإن اللمم بالفاحشة ذريعة إلى الفاحشة ، وطريقٌ ممهد إليها . . وأن من يحوم حول الحِمَى يوشك أن يواقعه ، كما يقول الرسول الكريم . . وإن سدّ الذرائع أمرٌ من أوامر الإسلام ، وشريعة من شرائعه . . فقد حرمت الشريعة قليل الخمر ، ولوْ قطرات ، كما حرمت كثيره ، لأن قليله يدعو إلى كثيره ، المفضِى إلى السكر الذى هو علة تحريم الخمر . .

فكذلك اللمم من الفاحشة ، كالنظرة الفاجرة ، أو الخلوة بغير المَحْرَم من النساء ، أو اللمس ، أو التقبيل . . فهذا وإن لم يكن الفاحشة التى هى الزنى ، فإنه الطريق إلى الزنى ، والمحرك للشهوة ، والمطلق لها من عقالها ، الأمر الذى إن حَدَث ، غَلَب الإنسان على أمرَه ، وأفلَتَ الزمام من يده ، فوقع فى المحذور الذى يتوقاه . .

فاستثناء اللمم ليس مبيحاً له فى الآية الكريمة ، أو رافعاً الإثم عنه ، بل هو مأثم ، إن لم يكن فى عِظم مأثم الفاحشة نفسها ، فهو بعض منها . .

وهذا الاستثناء ، إنما هو من باب الرحمة بالإنسان ، والتخفيف عن ضعفه البشرىّ ، فى حالٍ ـ وليس فى مطلق الأحوال ـ يغلبه فيه ضعفه ، فتندّ منه النظرة ، أو تفلت منه الهفوة ، ثم سَرْعان مايدركه إيمانه ويهتف به وازع الخشية من ربه ، فيرجع إلى ربّه من قريب ، فيجد رباً غفوراً ، رحيما ، يلقاه بالمغفرة

ويُلبسه لباس الإيمان الذى كاد يتعرّى منه . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجِلةٌ أنهم إلى ربّهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون * ولا نكلف نفساً إلا وُسْعها . . » (٦٠ — ٦٢ : المؤمنون) فهؤلاء هم الذين أحسنوا ، وهؤلاء هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وهؤلاء هم الذين يقعون تحت حكم قوله تعالى : « إلا اللمم » . . فإن اللمم الذى يجترحونه ، هو من جراحات معركة قد كانت حامية الوطيس ، بين أهواء النفس ، وبين وازع الإيمان بالله ، والخشية له ، والخوف منه . . وإن جراحات هذه المعركة ، التى أصيب فيها المؤمن المجاهد لأهواء نفسه وشهواتها ، لتجد لها عند الله ، من مَرْهَمَ الرحمة والمغفرة ، ما يعفّى عليها ، ويذهب بآثارها ، ويكتب العافية والشفاء ، للمصاب بها . .

أما الذين يتخذون من قوله تعالى : « إلا اللمم » رخصةً إلى تقحّم هذه المنكرات ، واستساغة مطعمها الخبيث ، واعتياد غشيان مواقعه ، والتردّد على موارده — فإنه مَهلكةٌ لانجاة منها ، وجراحات لاشفاء لها ، وإنه لهو الحرب السافرة لله ، ولشريعة الله ، إنه لهو العدوان المتعمد على حدود الله . . « ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه » (١ : الطلاق) .

وقوله تعالى : « إن ربّك واسع المغفرة » . . ليس بالذى يُغرى بالجرأة على الله ، وبمجاوزة الإلمام بالفاحشة إلى مقارفتها والوقوع فيها ، وإنما هو عند الذين فى قلوبهم إيمان بالله ، وحياء منه ، وخشية له — داعيةٌ إلى الإقبال على الله ، وإلى السعى حثيثاً إلى ساحة فضله ، وإحسانه ، ليلقى المؤمن ربه بقلب سليم ؛ وكيان نظيف ؛ يليق بهذه الساحة الكريمة التى يحلّ بها . .

* وقوله تعالى : « هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجِنّةٌ فى

بطون أمهاتِكم . . فلا تُزَكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » .

هو تعقيب على قوله تعالى : « إن ربّك واسع المغفرة » . . أى إنه ـ لعلم الله بكم أيّها الناس ، وبما فيكم من ضعف وعجز عن مغالبة بعض أهوائكم ، فإنه ـ سبحانه ـ قد أوسع لكم فى رحمته ، وتجاوز عن الصغائر واللمم من ذنوبكم ، فإنكم مهما اجتهدتم فى تحرّى الإحسان ، وفى الاحتفاظ بفطرتكم على نقائها وصفائها ؛ فلن تحققوا هذا ، وإن حققتم الكثير منه ، ولن تبلغوا الغاية ؛ وإن قاربتموها . . فالذين يدخلون منكم مدخل الإحسان ؛ ويُحسَبون فى المحسنين ، لم يكن ذلك لهم ؛ وإنما كان بإحسان الله سبحانه وتعالى إليهم ، وتجاوزه عن الكثير من ذنوبهم . .

وقوله تعالى : « إذ أنشأكم من الأرض » . . إشارة إلى مقتضى هذه المغفرة الواسعة ؛ التى شمل بها بنى الإنسان ؛ إذ هم من نبات هذه الأرض ، ومن معطيات ترابها ، وليسوا من عالم النور . . فهم ـ والحال كذلك ـ لن يتخلصوا أبداً من ظلام المادة ، ولن يتحوّلوا إلى عالم الرّوح ، وهم فى هذه الأجساد المخلّقة من الأرض ! وإنه لولا سَعة مغفرة الله ، لما كان لإنسان أن يكون من المحسنين ، الذين يرتفع بهم إحسانهم إلى عالم الحقّ ، ولما كانوا من أهله ، يوم يقومَ الناس لربّ العالمين . .

وقوله تعالى : « وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم » . . معطوف على قوله تعالى : « إذ أنشأكم من الأرض » . . فهذه حال أخرى من أحوال الإنسان ، تكشف عن ضعفه ، وأنه فى يد العجز ؛ وأن يد الله سبحانه وتعالى ، هى التى أخرجته من هذا الضعف إلى القوة ، كما أن مغفرته الواسعة ، هى التى أخرجته من عالم التراب ، وألحقته بعالم الحقّ والنور . .

فالظرفان : (إذْ ، وإذْ) فى قوله تعالى : « هو أعلم بكم إذ أنشأكم من

الأرض وإذ أنتم أجنّة فى بطون أمهاتكم » ليسا قيداً لعلم الله بالناس فى حالتى نشأتهم من الأرض ، ووجودهم فى بطون أمهاتهم ، وإنما هما ظرفان يشيران إلى هذين الوقتين اللذين يكون الإنسان فيهما ، فى حال أشبه بالعدم ، إذا هو نظر إلى نفسه فيهما ، وقد صار كائنا عاقلا رشيداً ، يخاطَب من الله ، ويتهيأ للدخول فى عالم الحق والنور . .

وقوله تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم »

النهى عن تزكية النفس هنا ، ليس مراداً به الكفّ عن طلب ما يزكى النفس ، ويطهرها ، فالعمل على تزكية النفس ، وتطهيرها مما يخالطها من ذنوب وآثام ، هو أمر مطلوب دائماً من كل إنسان يطلب الفلاح والنجاة ، كما يقول سبحانه : « قد أفلح من تزكّى ، وذكر اسم ربه فصلى » (١٤ ، ١٥ : الأعلى) وكما يقول جل شأنه : « ونفسٍ وما سوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دسّاها » (٧ — ١٠ الشمس)

فالمراد بالنهى عن التزكية فى قوله تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم » ــ هو النهى عن الاطمئنان إلى النفس ، وعدّها مُزَكّاة مطهرة ، لا تحتاج إلى تزكية وتطهير . . فإن النفس التى خالطت تراب الأرض ، ولبست هذا الجسد الترابى ، لن تكون أبداً على حال كاملة من النقاء والطهر ، بل هى دائماً فى حاجة إلى زكاة وتطهير . . فلا تحسبوا أنفسكم مزكاة مطهرة . . بل هى دائماً فى حاجة إلى تزكية وتطهير . .

فالنهى عن تزكية النفس هنا ، هو نهى عن إخلاء النفس من مشاعر الاتهام لها بالهوى ، والنظر إليها نظرةً لا ترفعها إلى درجة الكمال ، وهذا من خداع النفس ، الذى يزين المرء سوء عمله ، ويريه من ذاته ، أنه أوفى على غاية الإحسان . .

والله سبحانه وتعالى يقول : « أفمن زُين له سوء عمله فرآه حسناً » . . (٨ : فاطر) . .

وقوله تعالى : « هو أعلم بمن اتقى » أى أن الله سبحانه وتعالى ، هو أعلم بمن تزكى وتطهر منكم ، أما أنتم فلا تعلمون ما بلغت نفوسكم من تزكية وتطهير .. فقد يرى المرء منكم نفسه فى حال معجبة له من الطهر ، والزكاة ، وهو ملطخ بالآثام ، غارق فى المنكرات ، وقد يخيل لأحدكم أن أعماله مبرورة مقبولة ، وهى مردودة عليه .. فالذى يعلم حقيقة الإنسان ، وما هو فيه من خير وشر ، وما هو عليه من هدى وضلال ـ هو الله سبحانه وتعالى ، كما يقول جل شأنه : «والله يعلم المفسد من المصلح » (٢٢٠ : البقرة) وإذن ، فإن المطلوب من الإنسان أن يكون دائماً متهماً لنفسه ، طالباً السعى إلى غسلها من الأدران ، متعهداً لها بالنظافة فى كل وقت ، كما يتعهد جسده بالغَسْل والنظافة .

وفى التعبير عن التزكية والتطهير بالتقوى فى قوله تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » بدلا من أن يقال هو أعلم بمن تزكى ، الذى يقتضيه فى الظاهر سياق النظم ـ فى هذا إشارة إلى أن « التقوى » هى وسيلة التزكية والتطهر وأن من أراد أن يطهر نفسه ويزكيها ، فلا سبيل له إلا بالتقوى .. والتقوى ـ كما يقول بعض العارفين : « هى أن يراك الله حيث أمرك وأن يفتقدك حيث نهاك».

قوله تعالى :

* « أفرأيت الذى تولى * وأعطى قليلا وأكدى * أعنده علم الغيب فهو يرى » .

الاستفهام هنا تعجبى إنكارى ، من هذا الإنسان الضال ، الذى أعجب بنفسه ، فحمله هذا الإعجاب على أن يتمنّى هذه الأمانى الباطلة ، ويَعِدَها تلك الوعود الخادعة ، ويَحسِب بذلك أنه أربح الناس صفقة ، وأهداهم سبيلا ..

فالمناسبة ظاهرة بين هذه الآية والآيات التي قبلها ، والتي كان من دعوتها، ألاّ يحسن الإنسان الظن بنفسه ، وألا يزكيها ، ويملأها بتلك الأوهام الخادعة .. فجاءت هذه الآية عارضة لضحية من ضحايا الخداع النفسي ، الذي يورد صاحبه موارد الضلال والهلاك ..

وقوله تعالى : « تولّى » أي أعرض عن ذكرنا ، وكذّب برسولنا .

وقوله تعالى : « وأعطى قليلا وأكدى » .. الواو هنا واو الحال ، والجملة حال من فاعل « تولى » على تقدير الحرف « قد » بعدها ، أي تولى وقد أعطى قليلا وأكدى .

وإعطاء القليل ، هو ما أعطاه من نفسه من ميل قليل إلى الاستجابة للرسول والإيمان به .. ثم لم يلبث أن غلبته نفسه الأمارة بالسوء ، واستبدّ به طبعه النكد فنكص على عقبه ، وأبى على هذه الشرارات المضيئة أن تنطلق من نفسه، فتضيء له طريقه إلى الله .. فأمسك بها ، وأطفأ جذوتها .

وقوله تعالى : « وأكدى » أي شحّ وبخل ، وصار أشبه بالكدية ، وهي الأرض الصلبة ، التي لا تنبت نباتاً ، ولا تفجر ماء .

وقوله تعالى: « أعنده علم الغيب فهو يرى » استفهام إنكاري لهذا الاتجاه الذي أخذه هذا الضال، بعد أن أقام وجهه قليلا على مطلع الهدى والنور ثم عدل عنه.. فعلى أي أساس أقام وجهه على هذا الطريق الضال ؟ وبأية حجة أو برهان قدر لنفسه هذا الخير الذي يمنيها به على هذا الطريق ؟ أطّلع الغيب ، فرأى عاقبة أمره ، وما ينتظره على هذا الطريق ؟ أم أنه يضرب على غير هدى ، لا يصحبه على طريقه هذا إلا السراب الخادع الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الحسرة والندم ملء يديه ؟ .. ومثل هذا قوله تعالى : « أفرأيت

الذى كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالاً وولدا * أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً » (٧٧ ، ٧٨ : مريم) .

وقد اختُلف فى شخص هذا الشقى الذى تحدثت عنه هذه الآيات ، بما تمنيه به نفسه من كواذب الأمانى وأباطيلها .

والرأى ـ عندنا ـ أن هذا الحديث لم يُقصد به واحد بعينه من هؤلاء المخدوعين بأنفسهم ، والذين جذبتهم أنوار الإسلام إليه ، ثم لم يلبثوا أن ارتدوا على أدبارهم خاسرين .. فكثير من مشركى مكة كان لهم مثل هذا الموقف المتردّد بين الإقبال على الإسلام ، والإدبار عنه ، ثم لم يلبثوا إلا قليلا حتى تحددت مواقفهم ، فمضى بعضهم فى طريقه إلى الإسلام ، ونكص بعضهم على عقبه ، نافراً ، مستكبراً .

قوله تعالى :

* « أم لم ينبأ بما فى صحف موسى * وإبراهيم الذى وفىّ » .

أى : ألم يعلم هذا المتأبّى على الهدى ، ما فى صحف موسى ، وما فى صحف إبراهيم؟

والمراد بالاستفهام هنا طلب هذا العلم الغائب عنه ، وأنه إذا كان هذا الضال لم يعلم بما فى صحف موسى وإبراهيم ، فليطلب هذا العلم ، مما سنبينه له فى الآيات التالية .

ووصف إبراهيم عليه السلام ، بأنه وفّى ، إشارة إلى ما كان منه من الوفاء بالرؤيا التى رأى فيها أنه يذبح ولده ، فعرضه للذبح ، وهمّ بذبحه ، كما يقول سبحانه : « فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ! إنا كذلك نجزى المحسنين » (١٠٣ ـ ١٠٥ : الصافات) .. فهذا من إبراهيم هو غاية الوفاء ، بما لله سبحانه عليه من طاعة وولاء .

ولم يُقدّم موسى على إبراهيم هنا ، رعايةً للفاصلة ، كما يقول بذلك أكثر المفسرين ، ولكن كان ذلك ـ والله أعلم ـ لأن موسى أقرب عهداً بالمخاطبين بهذه الآيات من إبراهيم .. وذلك فى مقام البحث عن صحف هذين النبيين الكريمين ، وأخذ ما فيهما من أحكام .. ففى هذا المقام يمتدّ النظر إلى أقرب الصحف ، وهى صحف موسى ، ثم يتجاوزها إلى صحف إبراهيم .

أما فى المقام الذى يراد به الترتيب الزمنى لهذه الصحف ، فإن القرآن الكريم يضع هذا الترتيب موضع الاعتبار ، فيقول سبحانه وتعالى : « إن هذا لفى الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى » (١٨ ، ١٩ : الأعلى) . فالقرآن هنا يشير إلى الصحف الأولى ، التى حملت رسالات السماء .. فإذا ذكر من هذه الصحف صحف إبراهيم وموسى ، كانت صحف إبراهيم مقدمة فى الذكر على صحف موسى .. أما فى مقام الاتصال بها ، والإفادة منها ، فإن هذا يقضى بأن يُدَلّ أولاً على ما كان العهد به أقرب .. ثم الذى هو أقدم منه عهداً .

وهكذا نرى كلمات الله ، ناطقةً بالحق ، واضعة الأمور مواضعها ، فى أدق وضع وأحكمه .. « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » (٨٢ : النساء) .

قوله تعالى :

* « ألاّ تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يُرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى * وأنه هو أضحك وأبكى * وأنه هو أمات وأحيا * وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى * وأن عليه النشأة الأخرى * وأنه هو أغنى وأقنى * وأنه هو رب الشعرى * وأنه أهلك عادا الأولى * وثمود فما أبقى * وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى * والمؤتفكة أهوى * فغشاها ما غشى * فبأى آلاء ربك تتمارى » .

هذه الآيات ، هى بيان لما فى صحف موسى ، وإبراهيم ، مما جَهِله هذا الذى تولى وأعطى قليلا وأكدى ..

ففى هذه الصحف ، هذه الأحكام التى يدين الله بها عباده ، وهى : « ألا تزر وازرة وزر أخرى » أى لاتحمل نفسٌ ذنبَ نفسٍ أخرى، بل كل امرىء بما كسب رهين .. وأنه « ليس للإنسان إلا ما سعى » فلا يضاف إليه شىء من فعل غيره ، ولا يضاف من سعيه شىء إلى أحد ..

« وأن سعيه سوف يرى » أى يُنظر فيه ويحاسب عليه « ثم يُجزاه الجزاء الأوفى » دون أن ينقص من سعيه شىء ..

ومما فى هذه الصحف « أن إلى ربك المنتهى » أى منه تصدر الأمور ، وإليه منتهاها ، ومرجعها ، كما يقـــول سبحانه : « وإن إلى ربك الرجعى » (٨ : العلق) أى المعاد الذى يجتمع فيه الناس للحساب والجزاء .

ومما فى هذه الصحف أيضاً ، أن الله سبحانه وتعالى ، هو الذى بيده الأمر كله ، وإليه يُردّ كل ما يساق إلى الناس مما يسرهم أو يسوءهم ، فهو سبحانه الذى أضحك من أضحك ، وأبكى من أبكى ، وهو سبحانه الذى أمات من أمات، وأحيا من أحيا .. وأنه سبحانه هو الذى خلق الزوجين ـ الذكر والأنثى ـ من نطفة ، لا يدرى أحد ماذا تعطى من ذكور أو إناث .. فهى لاتعدو أن تـكون ماءً على طبيعة واحدة ، ولـكن بعضه يعطى ذكوراً ، وبعضه يخرج إناثاً .. حسب تدبير الله سبحانه وتقديره ..

وفى قوله تعالى : « من نطفة إذا تُمنى » .. إشارة إلى مبدأ الحيـاة فى الـكائنات الحية ، وأنها تبدأ فى هذه الجرثومة السابحة فى هذا المنىّ .. والمنىّ قبل أن يُمنى ويخرج من الرجل إلى المرأة، يكون فى حالة لم تنضج فيها جرثومة الـكائن الحىّ ، الذى تغرس بَذْرته فى الأنثى .. فإذا خرج المنىّ من الرجل فى

حالة اتصاله بالمرأة ، كان هذا المنىّ قد نضج واستوى ، وحمل فى كيانه جرثومة الحيـاة ..

ومما فى هذه الصحف .. أن الله سبحانه وتعالى ، سيبعث الموتى،ويخرجهم من الأرض مرة أخرى ، كما كانوا فيها قبل أن يُولدوا الولادة الأولى ..

ومما فى الصحف أيضاً ، أن الله سبحانه ، هو الذى أعطى من أعطى ، وحرم من حرم .. فـكان الغنىّ وكان الفقير « وأنه هو أغنى وأقنى » ..

فالإغناء يكون عن عطاء ، والإقناء يكون عن منع ..

والإقناء ، ليس من القنية ، كما يقول المفسرون ، الذين جعلوا الإقناء مرادفاً للإغناء .. أى أنه سبحانه أعطى ما يغنى الأغنياء ، ويمـكنهم من اقتناء الضياع ، والقصور ، والمتاع .. أى أغنى ، وأعطى ما فوق الغنى .

وهذا ـ والله أعلم ـ لايتفق مع نسق النظم الذى جاءت عليه الآيات ، مقابلةً بين الشىء وضده : الضحك والبـكاء ، والموت والحياة ، والذكر والأنثى ..

إنه لخروج على هذا النسق أن يكون الغنى ، مقابلا للاقتناء الذى هو بمعنى الغنى أيضاً ! وذلك من غير داعية تدعو للخروج على هذا النسق ..

فقوله تعالى : « أقنى » .. هو ـ والله أعلم ـ بمعنى منع ، وحرم .. وهو مأخوذ من قَنِيَ المرء الشىء ، إذا صانه ، وضن به كأقنى واقتنى ، ومنه قول الشاعر :

فاقنىْ حياءك لا أبالك إننى ... فى النائبات النازِلاتِ لفارسُ

أى صونى حياءك ، وضنى به ، ولا تقفى موقفاً يكشف هذا الحياء ويعريه ..

فالإقناء من الله سبحانه وتعالى بمعنى المنع ، أى أنه سبحانه أغنى أناساً ، ومنع المال عن أناس ، ولم يغنهم .

ويَبْقَى بعد هذا سؤال :

كيف يكون قوله تعالى : « أقنى » بمعنى صان وحفظ ، ثم يكون الحفظ والصون فى مقابل الغنى ، أى ضده ، مع أن الحفظ والصون يوازن الغنى قدْراً ، ويرجحه ؟

والجواب على هذا ـ والله أعلم ـ أن قوله تعالى : « أقنى » بمعنى صان وحفظ ، يدلّ بظاهره على الفقر ، الذى هو ضد الغنى ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى حين أغنى كثيراً من أهل الضلال والكفر ، قد أخلاهم لأنفسهم ، فأطغاهم هذا المال ، وزادهم ضلالا وكفراً ، على حين « أقنى » سبحانه أولياءه والصالحين من عباده ، وصانهم من فتنة المال وطغيانه ، فلم يسلّط عليهم الدنيا ، ولم يبلهم بحبها .. ثم هم مع ذلك أغنياء بقلوبهم المأنوسة بنور الإيمان بالله ، والطمع فى رحمته ..

وقوله تعالى : « وأنه هو رب الشعرى » ..

أى ومما فى صحف موسى وإبراهيم ، الإخبار عنه جل وعلا ، بأنه رب الشعرى وهى نجم فى السماء ، يسمى الشعرى العَبور ، يطلع من جهة الجنوب ..

وكانت بعض قبائل العرب تعبد هذا النجم باسم الشعرى ..

وقوله تعالى : « وأنه أهلك عادا الأولى * وثمود فما أبقى » ..ومما فى أخبار هذه الصحف أيضاً ، أن الله سبحانه أهلك عاداً الأولى ، ثم أهلك بعدها ثمود .. فلم يُبق منهم باقية ..

ووصفت عاد بالأولى ، لأنها متقدمة زمناً على الأمم التى حفظ التاريخ لها ذكراً .. فهى أول أمة بعد قوم نوح ..

وقوله تعالى : « وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى » ..

معطوف على قوله تعالى: «أهلك عادا الأولى . وثمود ...» أى وأهلك قوم نوح الذين كانوا قبل قوم عادٍ .. فليس هذا الهلاك الواقع بتلك الأمم المتتابعة إلا لظلمها، وطغيانها، فهى جميعها ظالمة طاغية، وإن كان بعضها أكثر من بعض ظلماً وطغياناً ..

قوله تعالى: «والمؤتفكة أهوى» .. معطوف على قوله تعالى: «وأنه أهلك عاداً الأولى» أى وأهوى المؤتفكة ..

والمؤتفكة، هى قرية قوم لوط، وقد ائتفكت بأهلها أى انقلبت رأساً على عقب، ومنه الإفك، لأنه قلبٌ للحق ..

قوله تعالى: «فغشاها ما غشى» .. أى ألبسها من ثياب العذاب والنكال .. ماألبس. وفى تجهيل «ماغشى» .. إشارة إلى أن هذا البلاء لايحيط أحد بوصفه، إذ كان على غير ما يعرف الناس، أو يتخيلون، من صور التدمير والهلاك ..

قوله تعالى: «فبأى آلاء ربك تتمارى» ـ هذا سؤال موجه إلى هذا الإنسان الذى يمثل كل إنسان والذى أوقفته الآيات السابقة موقف المحاكمة فى قوله تعالى: «أفرأيت الذى تولى * وأعطى قليلا وأكدى ... الآيات» وقد عُرضت عليه فى هذه الآيات صور من قدرة الله، وتدبيره فى خلقه، وأن ماتحدث به آيات القرآن الكريم من عرض لقدرة الله، ليس بِدعاً من القول، وإنما هو مما تحدثت به آيات الله كذلك فى صحف إبراهيم وموسى.. فالله سبحانه، واحد، لاشريك له، قديم لا أول له .. وأن الناس جميعاً فى كل زمان ومكان، هم عبيده، وفى قبضة سلطانه ..

والسؤال فى الآية الكريمة تقريرى .. أى هذه هى نعم الله، وتلك آلاؤه، فبأيها يكذب المكذب، ويمارى الممارى؟ وهل يستطيع مفترٍ أن يجرؤ

على أن يقول ، أنا أضحك وأبكى ، وأحيي وأميت ، وأغنى وأقنى .. ؟

ولقد قالها من قبل ذلك الذى حاجّ إبراهيم فى ربه : « إذ قال إبراهيم ربّىَ الذى يحيى ويميت . قال أنا أحيي وأميت » .. ولـكنها قولة ضالة ، سرعان ماماتت على شفة قائلها ، حين قال له إبراهيم : « فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب .. فبُهِت الذى كفر » .

والآلاء : النعم ..

وتمارى : من المراء ، وهو المجادلة بغير حق ..

وفى عدّ البكاء ، والموت ، والفقر ، والمهلـكات التى نزلت بالظالمين ـ فى عد هذه من الآلاء والنعم ، إشارة إلى أنها من عند الله ، وما كان من عنـد الله ، فهو نعمة ، وإن بدا فى ظاهره ، أو فى المواقع التى وقع بها ؛ أنه نقمـة ..

الآيات : (٥٦ — ٦٢)

* « هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ (٥٦) أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَـكُونَ وَلَا تَبْـكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ (٦١) فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا (٦٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « هذا نذير من النذر الأولى » ..

الإشارة إلى ما أخذ الله سبحانه وتعالى به أهلَ الشرك والضلال من الأمم السابقة ـ من بلاء ونكال..وأن فى هذا الذى ذكره الله سبحانه وتعالى عنهم، نذيراً يطلعُ عليهم من الأزمنة الغابرة، ليريهم ما حلّ بالضالين المكذبين برسل الله السابقين ..

قوله تعالى:

* «أزفت الآزفة * ليس لها من دون الله كاشفة» ..

أزِفت : أى قربت، وحان حينها، وأظلّ زمانها ..

والآزفة : القريبة، وهى يوم القيامة، وسميت آزفة لأنها قريبة، وإن ظن الناس أنها بعيدة، كما يقول سبحانه : «إنهم يرونه بعيداً * ونراه قريباً» .. وكما يقول سبحانه فى أول سورة القمر، التى تجىء بعد هذه السورة : «اقتربت الساعة وانشق القمر» ..

ويقول سبحانه فى آية أخرى : «كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها .»

ومعنى أزفت الآزفة، أى قربت القريبة، فهى قريبة بذاتها، ومع هذا فقد قربت أكثر وأكثر ..

وقوله تعالى : «ليس لها من دون الله كاشفة» ـ أى ليس لها من يكشفها، ويجلّيها ـ أى يظهرها ـ لوقتها، إلا الله سبحانه وتعالى ..

والتاء فى قوله تعالى: «كاشفة» للمبالغة، مثل راوية، ونابغة .. أى ليس للساعة عند أهل العلم والكشف عن الخفايا ضابط لها، مقدر لوقتها، مُظهر لوجودها، ولكن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى عنده علم الساعة، وهو سبحانه الذى يجلّيها لوقتها ..

قوله تعالى :

* « أفمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون ولا تبكون » ..

هذا الحديث ـ إشارة إلى قوله تعالى مخبراً عن الساعة : « أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة » .. فالمشركون إذا سمعوا هذا الحديث عن قربِ يوم الحساب والجزاء ، عجِبوا لهذا ، واستنكروه ، وجعلوه حديث سخرية واستهزاء بينهم ..

وفى قوله تعالى : « أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون » إنكار على هؤلاء المكذبين بالبعث والحساب، أن يتلقوا الحديث عن هذا اليوم، والنذر التى تنذرهم به ، وتحذرهم لقاءه ـ أن يتلقوا هذا غير مكترثين به ، ولا ملتفتين إليه ، ولو عرفوا ما يلقى الناسَ فى هذا اليوم من أهوال ، وما أعدّ للظالمين والضالين من عذاب ـ لو عرفوا هذا ، لكثر البكاء ،وقل الضحك، بل لما كان إلا البكاء المتصل ، والوجوم الدائم .. خوفاً من لقاء هذا اليوم العظيم ! ..

وقوله تعالى : « وأنتم سامدون » أى وأنتم غافلون فى صَلَف وكِبر .. والسامد . هو البعير الذى يرفع رأسه ، كأنه يبحث عن شىء فى السماء ، ولا شىء ! ..

وقوله تعالى : « فاسجدوا لله واعبدوا » ـ هو تعقيب على الاستفهام الإنكارى فى قوله تعالى : « أفمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون ولا تبكون ... » أى إنكم أيها المكذبون بهذا الحديث، المستهزئون الساخرون منه ، تُورِدون أنفسكم موارد الهلاك ، وإنكم إذا أردتم النجاة والخلاص ، « فاسجدوا لله واعبدوا » أى فاخضعوا لجلال الله ، واعبدوه، فهذا ماينبغى أن يكون موقف المخلوق من خالقه ، ولاء ، وطاعة ، وحمد ، وتسبيح ، وعبادة ..

٥٤ - سورة القمر

نزولها : مكية باتفاق

عدد آياتها : خمس وخمسون آية

عدد كلماتها : ثلاثمائة واثنتان وأربعون كلمة

عدد حروفها : ألف وأربعمائة وثلاثة وعشرون حرفاً .

مناسبتها لما قبلها

فى ختام سورة « ق » جاء قوله تعالى : « أزفت الآزفة » ـ منذراً بقرب يوم القيامة ، ثم فى بدء سورة القمر قوله : « اقتربت الساعة وانشق القمر » ـ مخبراً عن اقتراب الساعة ، منبئاً عن الأحداث التى تقع فى هذا اليوم العظيم ..
وبهذا تلاقى ختام « ق » وبدء « القمر » على موضوع واحد ، هو وقوع يوم القيامة ، واقتراب هذا الوقوع ، وأن ختام سورة « ق » يقرر هذه الحقيقة ، وبدء سورة « القمر » يؤكدها ، ويطلع بالإرهاصات التى تقوم بين يديها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٨)

● « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦)

خُشَّعًا أَبْصَـارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْـكَافِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « اقتربت الساعة وانشق القمر » .

هذا خبر ، عام ، مرسل من غير توكيد ، إشارة إلى أنه حقيقة مقررة ، لا تحتمل مكابرة ، ولا تقبل جدلا ..

وقوله تعالى : « اقتربت الساعة » هو مثل قوله تعالى : « أزفت الآزفة » وقوله سبحانه : « اقترب للناس حسابهم » (١ : الأنبياء) .

أما قوله تعالى : « وانشق القمر » ـ فهو أمارة من أمارات هذا اليوم ، يوم القيامة .. الذى تتبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات .

وفى عطف انشقاق القمر على اقتراب الساعة ـ إشارة إلى أن هذا الاقتراب قد أصبح لقربه كأنه واقع فعلا ، وأن انشقاق القمر هو أول بوادر الوقوع ، وكأن الواو هنا ، واو المعية أو المصاحبة .. ومعنى انشقاق القمر ظهوره فى ذلك اليوم على حقيقته فى أعين الناس .. فالناس يرونه فى هذه الدنيا صفحة بيضاء بلورية ، أشبه بالمرآة الصقيلة .. ولكنهم يوم القيامة يرونه جرما معتما ، شبيها بالأرض ، تختلف طبيعة سطحه بين سهول ، وأودية ، وأغوار ، ونجود ، وجبال .. هكذا القمر فى حقيقته .. كما يقرر ذلك العلم ، وكما أثبتته التجربة العملية ، حين صعد الإنسان إلى القمر فى هذا العام ـ عام ألف وثلاثمائة وتسع وثمانين من الهجرة ـ ومشى عليه كما يمشى على الأرض ! ! فلم يره إلا جرما معتما كالأرض تماما ، طبيعة ، وشكلا .

ويمكن أن يقوم هذا الحدث ، الذى مكن للإنسان أن يرى رأى العين انشقاقَ القمر ـ يمكن أن يقوم هذا شاهداً على أن يوم القيامة قد أظل ، وأن أشراط الساعة قد جاءت ، وأن الناس قد بدءوا يرون طلائع ما سيرونه يوم القيامة من حقائق الأشياء بعد أن ينكشف الغطاء عن العيون ! !

[النبي .. وانشقاق القمر]

ولابد من وقفة هنا عند قوله تعالى : « وانشق القمر » . فلقد كاد يُجمع المفسرون على أن انشقاق القمر كان فى عهد الرسول ـ صلوات الله ، وسلامه عليه ـ وأنه كان آية معجزة ، وقعت على يد النبي ، وهو فى مكة قبل الهجرة .

يقول القاضى عياض فى تفسير هذه الآية فى كتابه : « الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى » : « أخبر الله تعالى بوقوع انشقاق القمر بلفظ الماضى ، وإعراض الكفرة عن آياته ـ أى مافى انشقاقه من آيات ـ وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه » .

وروى البخارى عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ، قال : « انشقّ القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فِرقتين ، فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اشهدوا » .

وروى مسلم عن أنس ، قال : « سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يريهَم آية فأراهم انشقاق القمر فرقتين حتى رأوا حراء بينهما » .

وروى البخارى عن عبد الله بن مسعود ـ من رواية مسروق عنه ـ قال : « انشقّ القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت قريش : هذا سحر

ابن أبي كبشة[1] ، ثم قالوا : انظروا ما يأتيكم به السفّار ، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ، فجاء السفار ، فقالوا ذلك » .

وروى ابن جرير عن ابن عباس ، فى قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » قال : « قد مضى ذلك ، كان قبل الهجرة ، انشق القمر حتى رأوا شِقيه » ويعلق القاضى «عياض» على هذه الأحاديث المروية فى انشقاق القمر ، فيقول : « وأكثر طرق هذه الأحاديث صحيحة ، والآية مصرحة ، ولا يلتفت إلى اعتراض مخذول بأن لو كان هذا لم يخف على أهل الأرض ، إذ هو شىء ظاهر لجميعهم .

ويدفع القاضى « عياض » هذا الاعتراض بقوله : « لم يُنقل إلينا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة فلم يروه انشق ولو نقل إلينا ــ أى عدم انشقاقه ــ عمن لا يجوز تما لؤهم على الكذب لكثرتهم ــ لما كانت علينا به حجة ، إذ ليس القمر فى حد واحد لجميع أهل الأرض ، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين ، وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابليهم من أقطار الأرض ، أو يحول بين قوم وبينه سحاب أو جبال ، ولهذا نجد الكسوفات فى بعض البلاد دون بعض ، وفى بعضها جزئية ، وفى بعضها كلية .. ذلك تقدير العزيز العليم .

هذا هو مجمل ما عند المفسرين فى آية القمر ، قد لخصه القاضى عياض ، وأيّده وقال مع القائلين ، إن القمر قد انشق فى عهد النبى ، كمعجزة من معجزاته . !

---

(١) يقصد بهذا نسبة النبى إلى رجل كان فى الجاهلية الأولى ، وكان أول من دعا إلى عبادة «الشعرى» واعتبارها ابنة لله .. فلما جاء النبى يدعو قومه إلى الله ، نسبوه إلى هذا الرجل الذى أحدث فى قومه عبادة الكواكب .

ونحن إذ نخالف هذا الرأى لا نخالفه، استكثارا على النبى الكريم أن يضع الله سبحانه فى يده هذه المعجزة، فإن ما بيد الرسول من آيات الله وكلماته مالا يبلغ انشقاق القمر شيئاً إزاء حرف من كلمة من كلمات الله. ! كما لا نخالفه ونحن نعتقد بصحة هذه الأحاديث فى سندها إلى أن تصل إلى أصحاب رسول الله، فإننا من صحابة رسول الله فى مقام الأعمى بين يدى المبصر.. ولكنا إذ نخالف هذه الأخبار، فإنما نخالفها ونحن فى شك من صحة السند.. وإذا شككنا فى السند كان المتن مجرد قول يضاف إلى آخر راوٍ رُوى عنه.

وإننا نخالف هذا القول بانشقاق القمر فى عهد الرسول، لأمور:

فأولا: لم يكن للرسول الكريم معجزة متحدية، قائمة على الزمن، إلا القرآن الكريم الذى تحدّى به العرب، وأفحمهم، وأقام الحجة عليهم.

وثانياً: لو صحّ أن يكون للنبى معجزات أخرى متحدية غير القرآن، لما كان انشقاق القمر واحدة منها، لأن العرب لم يتحدوه بأن يأتيهم بمعجزة معلقة فى السماء، وإنما كان من تحدّيهم له ما حكاه القرآن عنهم فى قوله تعالى: «وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمتَ علينا كِسَفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا» (٩٠ — ٩٢ الإسراء).

وثالثاً: لو كان انشقاق القمر معجزة متحدية، لأنذرهم النبى صلى الله عليه وسلم بذلك، ولحدّد لهم الليلة، والساعة، حتى يشهدوا ذلك، ليكون حجة عليهم.. ولكن الذى ترويه الآحاديث لا يشير إلى شىء من هذا، ولا يدل على أن قريشاً قد رصدت هذه الظاهرة للتحدية. وإنما الذى يفهم من هذه الأحاديث، أن القمر قد انشق فى ليلة ما، وأن النبى وبعض الناس قد رأوه، فقال النبى عندئذ: «اشهدوا!».

ولا يعقل أن يقيم النبى من انشقاق القمر - إن كان قد انشق - شهادةً على صدق رسالته ، وعلى أن انشقاق القمر كان معجزة شاهدةً له ، إذا لم يكن قد آذن القوم بوقوع هذا الحدث العظيم قبل أن يقع .. أمّا أن يجىء بعد وقوع الحدث ويقيم منه شاهداً له ، فهذا قلب لأوضاع الأمور وقد عصم الله رسوله ، وجنبه الزلل والعثار . .

ورابعاً : خُسفت الشمس على عهد الرسول الكريم بالمدينة ، وصادف ذلك أن كان يوم موت ابنه إبراهيم ،فقال الناس خُسفت الشمس لموت إبراهيم !! فدعا الرسول الناس إليه ، ثم خطبهم فقال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يخسفان لموت أحد ،ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله ، وإلى الصلاة » .

هذا ، هو رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وذلك هو موقفه من الأحداث التى تقع فى الطبيعة .. إنه يصحح المفاهيم الخاطئة التى تقع للناس ، من ربط الأحداث التى تقع لهم بالكواكب والنجوم ، وأن ما يجرى على الشمس والقمر من خسوف وكسوف ، ليس إلا من العوارض التى تعرض لهما فى نظام دورتهما فى الفلك .

وخامساً : إذا كان النبىّ يريد أن يتحدى قومه بمعجزة مادية، يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يؤيده بها ، فلم يختار انشقاق القمر ،وتمزقه قطعاً فى السماء ؟ أليس الأولى من ذلك أن يريهم أثراً محسوساً بين أيديهم، كأن يفجّر لهم عين ماء ، أو أن يشير إلى جبل من الجبال المحيطة بهم فيتحول عن مكانه ؟

هذا ، وليس فى الإخبار فى القرآن عن انشقاق القمر بلفظ الماضى قرينة على وقوع الفعل ، فكما يدل الماضى على حدوث الفعل فعلا ، ويخبر عن وقوعه فى الماضى ؛ كذلك يعبر بالفعل الماضى عن الأمر الذى سيقع مستقبلا ، وذلك لغرض بلاغى ، وهو الدلالة على أن هذا الفعل محقق الوقوع لا محالة ، وأن

وقوعه فى المستقبل أشبه بوقوعه فى الماضى ، فإن لم يكن وقع ، فكأنه قد وقع ، لتحقق وقوعه .

والقرآن الكريم يستخدم هذا الأسلوب كثيراً فى الأمور ذات الخطر ، التى يقف كثير من الناس إزاءها موقف الشك والارتياب ، فى إصرار وعناد ، فلا يلقاهم القرآن حينئذ ، اللقاء الذى ينتظرونه فى شأن هذا الأمر الخطير ، ولا يجعل لقاءهم معه معلقاً بالمستقبل ، بل يجذبهم إليه جذباً قوياً ، فإذا هم فى مواجهة هذا الأمر ، وجهاً لوجه ، وقد أصبح خبراً بعد أن وقع !..

يقول سبحانه وتعالى فى شأن البعث : « ونُفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض » (٦٨ : الزمر) ويقول سبحانه عن يوم القيامة : « وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون * ووفيت كل نفس ما عملت »(٦٩— ٧٠ الزمر) ..

وأكثر ما ورد فى القرآن عن البعث ، والحساب والجزاء ، قد جاء فى صورة الماضى ، الذى وقع فعلا ، وعاش فى الناس ، وعاش الناس فيه .. وذلك لتحقق وقوع هذه الأحداث ..

وعلى هذا ، فإن الحديث عن انشقاق القمر بالفعل الماضى ، لاتقوم منه حجة على وقوع هذا الانشقاق ، بل إنه إذا نُظر إليه باعتبار أنه من أحداث يوم القيامة ، كان التعبير عنه بالماضى دليلا على أنه مراد به الإخبار عن المستقبل الذى لم يقع ..

فإذا نظرنا إلى انشقاق القمر ، مع قوله تعالى : « اقتربت الساعة » ومع مايقع يوم القيامة من تبدل وتحول فى العوالم السفلية والعلوية ، رأينا أن انشقاق القمر لايعدو أن يكون حَدَثا من الأحداث التى تقع يوم القيامة .. للقمر ، ولغيره من العوالم الأخرى .. كما يقول سبحانه عن القمر يوم القيامة

« فإذا بَرِق البصر * وخَسَفَ القمر * وجُمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين المفر » (٧ — ١٠ : القيامة)

ولا نريد أن نطيل الوقوف هنا ، ولا أن نجعل من هذا الأمر قضية الجدل والخلاف . . فإن الخطب هيّن ، وإنه لن يُنقص من قِدْر النبي الكريم ، وقد كمل قدراً ، وشرفاً ـ ألا ينشق القمر له ، كما أنه لن يزيد من قدره ـ وقد استوفى غاية الكمال والشرف ـ أن يضاف إليه انشقاق القمر ، أو عشرات ومئات من مثل هذا الانشقاق . .

وإنما الذى دعانا إلى هذه الوقفة ، هو مانجد من بُعد بعيد بين مفهوم الآية الكريمة ، واتساق هذا المفهوم مع موقع الآية فى النظم القرآنى ، ومع ماجاء من آيات الكتاب عن يوم القيامة ، وما يقع فيه من أحداث ـ وبين هذا التخريج الذى خُرّجت عليه الآية الكريمة ، وتوارد عليه المفسرون ، قولا واحداً ، بأن القمر قد انشق للنبى ، وهو فى مكة ، تحدّيا لتحدى قومه المكذبين به . . والله أعلم .

* * *

قوله تعالى :

* « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » .

هو معطوف على قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » أى وإن ير هؤلاء المشركون آية يعرضوا عنها ، ويقولوا سحر مستمر . .

فهذه كلها أخبار عن حال واقعة ، هى اقتراب الساعة ، وانشقاق القمر ، وإصرار المشركين على التكذيب برسول الله واتهامه بالسحر ، كلما جاءهم بآية من آيات الله . .

فقوله تعالى : « وإن يروا آية يُعرضوا ويقولوا سحر مستمر » هو أسلوب خبرى ، وإن جاء فى صورة الشرط .. فهو إخبار عن مستقبل كثير من هؤلاء المشركين مع الدعوة الإسلامية ، وأنهم سيظلون على ماهم عليه من كفر وعناد ، وأنه كلما تلا عليهم الرسول بعضَ آيات الله ، لم يجدوا إلا قولا واحداً فيها ، قد استقر عليه رأيهم ، وهو أن هذا الكلام من واردات السحر ، لِما فيه من قوّى خفية ، تكاد تملك وجودهم ، وتستولى على مشاعرهم ..

فقالوا : « إن هذا إلا سحر يؤثر » .. وقالوا : « سحر مستمر » أى متصل ، يشبه بعضه بعضاً ، ويلتقى لاحقه مع سابقه .. أو هو سحر مستمر ، من المِرّة وهى القوة ، أى قوى محكم .. كما قال فرعون عن موسى وعصاه : « إن هذا لساحر عليم » (١٠٩ : الأعراف) ..

فالآية إخبار عن المستقبل ، وأن كثيراً من هؤلاء المشركين ، لن يؤمنون بالله ، بل يموتون على كفرهم ، وأنهم كلما استمعوا إلى ما يتلو النبى من آيات الله ، قالوا سحر مستمر .

هذا هو موقف المعاندين الضالين من المشركين ، فى الوقت الذى تطرقهم فيه الأنباء بأن يوم القيامة قد قرب ، بل إن إرهاصاته قد أخذت تظهر فى الوجود .. والآية التى يرونها ، هى آيات الله التى تتلى عليهم ، وعبر عن سماعها بالرؤية ، إشارة إلى أنها من الوضوح ، والبيان ، بحيث تبدو كأنها حاضر شاخص يُرى ، لا حديث يُسمع .

ويجوز أن تكون الآية هنا آية محسوسة ، مما يقترحه المشركون على النبى ، وقد أبى الله سبحانه وتعالى أن يجيبهم إلى ما سألوا ، لأنهم لن يؤمنوا بأية آية

تأتيهم، بعد أن كذبوا بآيات الله المتلوّة عليهم ، والتى فيها الهدى لمن اهتدى ، وفيها النور لمن فتح عينيه للنور .. وفى هذا يقول الله تعالى : « ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا لا سحر مبين » (٧ : الأنعام) . ويقول سبحانه : «ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » (١٥ : الحجر) . فهذه آيات محسوسة ، لو طلعت عليهم ورأوها رأى العين ، لأعرضوا عنها ، وكذبوا بها ، وقالوا سحر مستمر .

قوله تعالى :

* « وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر » .

الواو للحال ، والجملة بعدها حال من الفاعل فى قوله تعالى « وإن يروا آية يعرضوا » . أى أنهم يقفون هذا الموقف من آيات الله إذا تليت عليهم ، والحال أنهم قد كذبوا بها من قبل واتبعوا أهواءهم . فهذا الذى هم فيه حالاً أو مستقبلا مع آيات الله ، ليس جديداً عليهم ، بل هو داء يعيش معهم إلى أن يجىء أجلهم.

وقوله تعالى : « وكل أمر مستقر » .. تهديد ووعيد لهؤلاء المشركين ، وأن هذا الذى هم فيه من كفر وضلال ، له نهاية ينتهى إليها، وقرار يستقر عنده .. وليس لما هم فيه من نهاية ، إلا العذاب الأليم فى نار جهنم ، وليس لأمرهم هذا من مستقر ، إلاّ سواء الجحيم . . وهذا مثل قوله تعالى : « لكل نبأ مستقر » (٦٧ : الأنعام) .

قوله تعالى :

* « ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مُزدَجر » .

أى أن هؤلاء المشركين ، قد كذبوا ، واتبعوا أهواءهم ، وقد جاءتهم النذر من بين أيديهم ومن خلفهم ، ولفتتهم آيات الله التى يتلوها الرسول عليهم ،

إلى ما أخذ الله به الظالمين قبلهم ، الذين كفروا بالله ، وعصوْا رسله ـ فما انتفع هؤلاء المشركون الضالون بتلك النذر ، ولم يكن لهم منها عبرة واعظة ، أو عظة زاجرة .

قوله تعالى :

* « حكمة بالغة فما تغن النذر » .

« حكمة بالغة » بدل من « ما » فى قوله تعالى : « ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر » .. فالذى فيه مزدجر ، هو حكمة بالغة ، يجدها ذوو العقول فى أخبار الماضين ، وما حل بأهل الكفر والضلال منهم .

وقوله تعالى : « فما تغنى النذر » .. « ما » نافية ، أى لا تغنى النذر ، ولا تنفع عند من هم فى غفلة ساهون .. وهذا مثل قوله تعالى : « وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » (١٠١ : يونس) ..

فهؤلاء الضالون المعاندون من المشركين ، لا ينتفعون بهذه النذر ، ولا يستيقظون من غفلاتهم على صوتها الجلجل المدوىّ ..

قوله تعالى :

* « فتولّ عنهم يوم يدع الداع إلى شىء نكر » ..

هو دعوة إلى النبى الكريم أن يدَع هؤلاء الضالين ، الذين لا تنفع معهم النذر ، ولا يزيدهم النور إلا عمى وضلالا .. فليدعهم النبى ، حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون ..

وقوله تعالى : « يوم يدع الداع إلى شىء نكر » .. الداعى ، هو نافخ النفخة الثانية فى الصور ، وهى نفخة البعث .. كما يقول سبحانه :

« ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » (٦٨ : الزمر) . .

والشىء النكر الذى يدعو إليه الداعى ، هو هذا البلاء الذى يساق إليه أهل الضلال . . « يوم يدعّون إلى نار جهنم دعًّا * هذه النار التى كنتم بها تكذبون » (١٣ ، ١٤ : الطور) . .

وفى قوله تعالى : « شىء نكر » مع تجهيل هذا الشىء وتنكيره ، ثم وصفه بهذا الوصف الذى يلقى عليه ظلالا كثيفة من السواد — فى هذا إشارة إلى شناعة هذا الشىء ، وما يخفى فى أطوائه من أهوال ، لا يحيط بها وصف . .

والظرف « يوم يدع الداع » متعلق بمحذوف دل عليه سياق النظم ، أى فتول عنهم ، وانتظر ما يحل بهم يومَ يدعو الداعى إلى الحساب والجزاء ، وهو يوم عسير على الكافرين غير يسير . .

قوله تعالى :

* « خُشَّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر » . .

أى فتول عنهم ، وانتظرهم يوم يدعوهم الداعى إلى شىء نكر ، فتراهم وقد خشعت أبصارهم ، ذلةً وانكساراً ، كما يقول سبحانه وتعالى : « وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى » (٤٥ : الشورى) . .

فقوله تعالى « خشعاً » حال من مفعول فعل محذوف ، وتقديره تراهم . . وقوله تعالى : « يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر » حال

أخرى من المفعول به للفعل المحذوف ، أى تراهم خشعاً أبصارهم ، وتراهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . .

والأجداث : جمع جَدَث ، وهو القبر الذى يُلحد فيه الميت . .

وقد أشرنا من قبل إلى دلالة هذا التشبيه ، الذى شُبِّه به الموتى فى خروجهم من أجداثهم يوم البعث(١) . .

قوله تعالى :

* « مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر » . .

هو حال ثالثة من أحوال الناس يوم البعث ، أى تراهم فى هذا اليوم مهطعين إلى الداعى ، أى مسرعين إليه ، مستجيبين لدعوته ، منقادين لأمره . وهو أمر الله ، الذى به يُبعث الموتى من القبور : كما يقول سبحانه . « ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون »

وقوله تعالى : « يقول الكافرون هذا يوم عسر » مقولة من مقولات الكافرين حين يلقاهم هذا اليوم . . إذ ما أكثر مقولات الندم والحسرة ، التى يتنادون بها فى هذا اليوم . . « ياويلنا هذا يوم الدين » . . « يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا » . .

الآيات : (٩ — ٤٢)

* « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ

(١) أنظر فى هذا الكتاب مبحث : « البعث . . على أية صورة يقع » (ص : ٥٤٩)

قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَآ آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوآ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَآءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢) كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ

يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠) وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) »

التفسير :

قوله تعالى :« كذبت قبلهم قوم نوح ... الآيات »

فى هذه الآيات أمور ، نود أن نقف عندها ، ولكن بعد أن نشرح بعض مفرداتها :

— ازدُجر : أى طرد من بين العقلاء ، لأنه ليس له إلا الزجر .

— أبواب السماء : مواقع المطر منها .. حيث يبدو المطر المنهمر أيام الطوفان ، وكأنه متدفق من فتحات أبواب سدّ عظيم قد احتجز وراءه قدراً كبيراً من الماء . .

— والمنهمر : المتدفق فى كثرة . .

— فالتقى الماء على أمر قد قدر : أى فالتقى ماء السماء المتدفق من أبوابها ، مع ماء الأرض المتفجر من عيونها ، فى ميقات معلوم ، وبقدر مقدور ، لا يزيد ، ولا ينقص ..

— ذات الألواح : هى السفينة . . والألواح ، هى قطع الخشب التى بنيت منها . .

— والدسر : ما يمسك هذه الألواح ، ويشدّ بعضها إلى بعض . .

— لمن كان كفر : أى لمن كان قد كُفر به ، وكُذب فى رسالته . . وهو نوح عليه السلام . .

— فهل من مدّكر : أى هل من متذكر ، ومتعظ بهذه الأحداث ؟ .

— ريحا صَرْصرا : أى ريحا عاصفة ، شديدة البرد ، ذات صرير وزمجرة .

— أعجاز نخل منقعر : أعجاز النخل ، قاعدتها التى تقوم عليها ، وهى ما بين الساق ، والجذر مما على الأرض من النخلة .. والمنقعر : المنقلع من أصوله .

— كذاب أشِر : أى كذاب مفضوح الكذب ظاهره ، كذاب يريد بكذبه البطر والتعالى على قومه .

— كل شِرب محتضَر : أى كل شرب لهم ، أو للناقة ، يحضره صاحبه ، من غير عدوان .. كما يقول سبحانه : « لها شرب ولكم شربُ يومٍ معلوم » (١٥٥ : الشعراء) ..

— فنادوْا صاحبهم : أى نادى القوم صاحبهم ، أى رجلهم الذى أعدوه للعدوان على الناقة . فتعاطى : أى تداول الحديث معهم ، فأخذ ، وأعطى ..

— هشيم المحتظر : أى الحطب الذى يضمه جامعه فى حظيرة ، فيشتد يُبسه ، مع الزمن ، ثم يتحول إلى هشيم ، هشّ ، لاوزن له ..

صبحهم بكرةً عذاب مستقر : أى وقع بهم العذاب فى بكور الصبح ، أى مع مطلع الفجر ..

* * *

أما هذه الأمور التى نودّ أن نقف عندها من هذه الآيات ، فهى :

أولا : مناسبة هذه الآيات لما قبلها ..

وهى أن الآيات السابقة ، عرضت موقف المشركين من النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وأنهم إن رأوا آية واجهوها بالبَهت والتكذيب ، وقالوا إنها من واردات السحر ، وقد انتهى هذا العرض بدعوة النبى الكريم إلى أن يدَع هؤلاء المعاندين وشأنَهم ، فإنهم فى هذا هم الخاسرون ، حيث يورِدون أنفسهم موارد الهلاك يوم القيامة ، الذى يكذبون به ..

وفى هذه الآيات ، عرض لأحوال جماعات من المكذبين المعاندين فى الأمم السابقة ، وقد جاءتهم رسل الله بالبينات ، فبهتوهم ، وكذبوهم ، وتهددوهم بالمساءة والأذى ..

فكان أن أخذهم الله بالبلاء فى الدنيا ، والعذاب الأليم فى الآخرة ..

وفى هذا تهديد للمشركين ، وأنهم سيَسلكون فى سِلك الذين كذبوا رسل الله من قبلهم .. قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وفرعون ..

وثانياً : فى أعقاب كل قصة ، يجىء قوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » .. ولقد تكرر هذا فى قصص قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط .. فما سرُّ هذا؟ ولماذا لم يجىء هذا التعقيب ، فى قصة فرعون ؟

السرُّ فى هذا ـ والله أعلم ـ أن هذا التعقيب على كل قصة من تلك القصص ، هو دعوة إلى هؤلاء المشركين أن يتدبروا هذه الآيات التى بين أيديهم من كتاب الله .. فهذه الآيات تكشف للناظر فيها ، أو المستمع إليها ـ فى يُسرٍ وعن قرب ـ الدلائلَ الواضحة الهادية إلى الحق .. ولكن هل من مدّكر من هؤلاء الضالين المعاندين ؟ ستكشف الأيام عن جواب هذا السؤال ..

أما السرّ فى أنه لم يُذكر مع قصة فرعون هذا التعقيب الذى لازم القصص الأربع السابقة ، فذلك ـ والله أعلم ـ ليصل مشركى قريش بفرعون ، وليجعل

منهم ومنه كياناً واحداً ، وكأنهم هم المكذبون بآيات الله كلها ، الوارثون لفرعون فى ضلاله ، وكبره وعناده .. والقرآن الكريم ، يقرن فى مناسبات كثيرة بين مشركى قريش ، وبين فرعون .. إذ كانوا أقرب الناس شبهاً به ، فى التعالى والتشامخ ، والتصامّ عن كلمة الحق ، والتعامى عن آيات الله ..

وثالثاً : تكرر فى هذه الآيات قوله تعالى : « فكيف كان عذابى ونُذُرِ » أربع مرات ، كما تكرر قوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » أربع مرات كذلك ..

وداعية هذا التكرار ، هو التعقيب على هذه الأحداث ، بإشارتين ؟

الإشارة الأولى ، إلى مواقع نقمة الله ، وما أخذ به المكذبين برسله من بلاء « فكيف كان عذابى ونذر » ..

والإشارة الثانية ، هى دعوة إلى طريق الخلاص والنجاة من نقمة الله وبلائه : « ولقد يسرنا القرآن للذكر » .. فهذا هو طريق النجاة ، وهو الاستماع إلى القرآن الكريم ، وإلى الإيمان به ، والعمل بما يدعو إليه .. فهل من مدّكر ؟ .

الآيات : (٤٣ — ٥٥)

* « أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِى الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ

بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) »

التفسير:

قوله تعالى :

* « أكفاركم خيرٌ من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر » ..

كان المتوقع بعد ذكر فرعون ، وما أخذه الله به من نكال ، أن يجىء هذان التعقيبان : « فكيف كان عذابى ونذر » .. « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » .. وذلك على نَسَق النظم الذى جاءت عليه الآيات التى سبقت الحديث عن فرعون، بالحديث عن قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط ـ كان هذا هو المتوقع ، ولكن جاء قوله تعالى : « أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر » ـ ليصل ـ كما قلنا ـ مشركى قريش ، بفرعون ، ويجعلهم هذا التعقيب المباشر لقصته ؛ امتداداً له ، حتى إنهم ليأخذون المكان الذى كان من المتوقع أن يأخذه قولُه تعالى : « فكيف كان عذابى ونذر » ..

فقوله تعالى : « أكفاركم خير من أولئكم » خطاب لمشركى قريش ، فى صورة استفهام إنكارى ، ينكر عليهم هذه المشاعر الخاطئة التى يعيشون فيها، وهى أنهم لن يؤخذوا بما أُخذ به الكافرون المكذبون من قبلهم .. « أكفاركم خير من أولئكم » ؟ أى فلا تحل بهم النقم كما حلت بأشياعهم من قبل ؟ ..

وقوله تعالى : « أم لكم براءة فى الزبر » .. استفهام إنكارى آخر ، ينكر على المشركين أن يكون لهم عهد عند الله ، فى كتاب بين أيديهم ، بأنهم بمنجاة من أن ينالهم ما نال إخوانهم الضالين من قبل ، من عذاب وبلاء ؟

والزبر : جمع زبور ، وهو القطعة من الشىء ، والمراد به هنا الكتاب ، والمراد بالزبر : كتب الله المنزلة على رسله ، إذ كان كلٌّ منها قطعة من الكتاب الأم .. وهو أم الكتاب ، أو القرآن الكريم ، الذى جمع ما تفرق فى الكتب السماوية ، والذى به كمُل دين الله

قوله تعالى :

« أم يقولون نحن جميع منتصر » ..

* أم هنا حرف عطف ، حيث يجمع هذا السؤالَ الموجه المشركين ، إلى السؤالين السابقين :

« أكفاركم خير من أولئكم ؟ أم لكم براءة فى الزبر ؟ » .

وعُدل عن الخطاب إلى الغيبة ، استخفافاً بشأن هذا الجمع المتحدّى ، الذى ملأه العُجب والغرور ، فلم ير أية قوة تقف له ، وتأخذ النصر منه ..

والجميع ، بمعنى الجمع ، وعُبر عن الجمع بالجميع ، إشارة إلى استطالتهم فى الغرور ، وإدلالهم بكثرة جمعهم ..

قوله تعالى :

* « سيهزم الجمع ويولّون الدبر » .

أى إن هذا الجمع المفتون بكثرته ، المغرور بقوته ، سيهزم ويولى الدبر .. تلك هى آخرة مطافه ..

وعُدل عن لفظ « الجميع » الذى هو من مقول قول المشركين ، إلى لفظ « الجمع » استصغاراً لهم ، وأنهم جَمْع لا جميع ..

وهذا من أنباء الغيب التي حمل القرآن الكريم قدراً كبيراً منها .. فهذه الآية مكية، في سورة مكية، وما كان المؤمنون يومئذ يتوقعون في أي حال أن يهزم هذا الجمع الذي توعده الله سبحانه وتعالى بالهزيمة وتولية الأدبار .. حتى إن عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان فيما يروى عنه ـ يقول حين نزلت هذه الآية : ما كنت أدري : « من هذا الجمع الذي سيهزم » ، حتى كان يومُ بدر فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع وهو يتلو قوله تعالى : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعلمت تأويلَها . .

قوله تعالى :

* « بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » ..

إضراب على الهزيمة التي ستحل بهؤلاء المشركين، واعتبارها كأن لم تكن، لأنها لا تُعدّ شيئا إلى ما ينتظر المشركين من عذاب الله يوم القيامة . . إن هزيمتهم في الحرب ، وإن كانت خزياً يَلْبسهم ، وعاراً يتجللهم ، وحسرةً تملأُ قلوبهم — فإنها إلى ما يلقاهم من عذاب الله في الآخرة ، تُعدّ عافية ، وتُحسب رحمة ..!!

قوله تعالى :

* « إن المجرمين في ضلال وسُعُر * يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسّ سقر » .

هو تعقيب على قوله تعالى : « بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » . . أي إن ما يلقى هؤلاء المشركين من عذاب يوم القيامة ، هو مما أعد للمجرمين ، وهؤلاء المشركون هم رأس من رءوس المجرمين ، يَرِدون

موردهم ، ويلقون مصيرهم . . إنهم مجرمون ، وإن المجرمين فى ضلال وسعر ، أى جنون ، وسُعار ، كسعار الكلاب ، فلايكون منهم إلا النباح . . إذ يسحبون على وجوههم فى النار ، ويُدَعّون إلى جهنم دعًّا ـ يشيعون من الزبانية الموكلين بسوقهم إلى النار ، بتلك الكلمات القاتلة : « ذوقوا مس سقر » .. اى انعموا بهذا النعيم ، واهنئوا به . .

والمس : اللفح ، والعذاب الوارد عليهم من جهنم ، ومنه قوله تعالى : « واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنُصب وعذاب » (٤١ : ص) .

وسقر : واد من أودية جهنم ، ومنزل من منازلها ، نعوذ بالله منها ، ومن عذاب الله وسَخَطه . .

قوله تعالى :

* « إنا كلّ شيء خلقناه بقدر » أى إنا خلقنا كل شىء بقدر . . أى بحساب وتقدير . .

فما من ذرة فى السماء أو فى الأرض، إلا وهى فى علم الله ، وفى تصريف قدرته ، وإلا هى آخذة مكانها فى هذا الوجود ، كما يأخذ كل عضو فى الجسد مكانَه منه . .

قوله تعالى :

* « ومآ أمرنا إلا واحدة كلمحٍ بالبصر » .

أى ما أمرنا لشىء إذا أردناه، إلا أن نقول له كن فيكون . . فبكلمة واحدة ، يُدعى أى أمر ، فيجيب فى لمحة كلمح البصر . . وفى هذا إشارة إلى أن الموجودات كلها واقعة فى علم الله ، فى كل حال من أحوالها ،

وفى كل صورة من صورها ، وأنها إذ تدعى إنما تدعى من حضور هى فيه .. فعلا ..

قوله تعالى :

* « ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدّكر » .

هو عودة بهؤلاء المشركين من مشاهد القيامة ، وما سيلقاهم هناك من بلاء وضنك — عودة بهم إلى حيث هم فى هذه الدنيا .. فإن تلك هى فرصتهم ، إن أرادوا أن يصلحوا ما أفسدوا ، وأن يتجنبوا هذا الطريق الذى ينتهى بهم إلى جهنم ..

فليعيدوا النظر فى موقفهم هذا ، وليتدبروا ما حل بأشياعهم ، ومَن هم على شاكلتهم من الأمم السابقة ، الذين كفروا بآيات الله ، وكذبوا رسله ، وكيف أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . ولكن أين من يتدبر ، ويتذكر ؟ ..

والأشياع : جمع شيعة ، وشيعة المرء أنصاره ، ومن هم على طريقته .. وأهل الضلال جميعاً شيعة ، وإن لم يجمعهم زمان أو مكان .. لأنهم جميعاً على طريق الغواية ، والبوار ..

ومدّكر : بمعنى متذكر ، وفعله ادّكر ، الذى أصله اذ دكر ، فقُلبت الذال دالا وأدغمت فى الدال ..

قوله تعالى :

* « وكل شىء فعلوه فى الزبر » .

أى كل شىء فعله هؤلاء الضالون وأشياعهم ، مسجل عليهم فى الزبر ، أى الكتب التى تكتب فيها أعمالهم .. فكل إنسان له كتابه الذى

سطّر فيه كل ما عمل من خير أو شر .. « وكلَّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » (١٣ : الإسراء) .

قوله تعالى :

* « وكلُّ صغير وكبير مُستَطَر » .

أى وكل صغير من أعمال الناس وكبيرها مستطر ، أى مكتوب فى أسطر ، على صفحات هذا الكتاب الذى يعطاه كل إنسان يوم القيامة .

قوله تعالى :

* « إن المتقين فى جنات ونَهَر * فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

وإذا كانت تلك هى حال الضالين والمكذبين ، فى الآخرة ، وهى حال تشيب لها الولدان ، فإن هناك حالا أخرى ، هى حال أهل الإيمان والتقوى ، حيث النعيم المقيم ، والرضوان العظيم .. إن أهل التقوى فى جنات وأنهار تجرى من تحت هذه الجنات ، وإنهم فى منزل كريم عند مليك مقتدر ، بيده كل شىء .

وفى وصف المقعد بالصدق ، إشارة إلى أنه منزل شريف كريم ، شرفَ الصدق وكرامته ، وأنه دائم باق دوام الصدق وبقاءه . .

وفى وصف مقعد الصدق بأنه « عند مليك مقتدر » أى عند الله المالك لكل شىء ، المقتدر على كل شىء — فى هذا الوصف إشارة إلى قرب هؤلاء المتقين من ربهم ، وأنهم فى ساحة فضله وإحسانه ، فهو قرب رضاً ورضوان ، وإدناء فضل وإحسان . . جعلنا الله سبحانه من عباده المقربين المكرمين . .

* * *

٥٥ - سورة الرحمن

عروس القرآن

نزولها : مدنية

عدد آياتها : ثمان وسبعون آية

مناسبتها لما قبلها

بين سورة « الرحمن » هذه ، والسورة التى قبلها « القمر » — أكثر من مناسبة :

فأولا : ختمت سورة « القمر » بهذه الآية : « إن المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .. ومن صفات المليك المقتدر، الرحمة ، لا الجبروت ، شأنُ المالكين المقتدرين ، وبهذه الرحمة التى وسعت كل شىء أرسل الرسل يدعون عباده إليه ، ويَطبّون الآفات والعلل التى أوردتهم موارد الضلال .. فاستجاب كثير منهم ، ووجد السلامة والعافية فى هذه الرحمة المرسلة من الله سبحانه على يد رسله .. فكان بدء سورة« الرحمن » بهـذا الاسم الكريم ؛ موصولا بختام سورة « القمر » ، جاعلا منهما سورة واحدة ..

وثانياً : النظم الذى جاءت عليه سورة « القمر » ، يشابه النظم الذى جاءت عليه سورة «الرحمن »، من حيث تَكرار بعض المقاطع مرات متعددة .. فقد كُرر فى سورة « القمر » قوله تعالى : « فكيف كان عذابى ونذر » أربع مرات ، وكذلك قوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » .. كرر أربع مرات أيضاً ..

وفى سورة « الرحمن » كرر قوله تعالى « فبأى آلاء ربكما تكذبان » إحدى وثلاثين مرة !

فنى هذه المتتاليات : « فكيف كان عذابى ونُذُر » ثم « ولقد يسّرْنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » ثم « فبأى آلاء ربكما تكذبّان » ـ فى هذه المتتاليات، تدرّج من الإنذار والتخويف من عذاب الله ، إلى عرض وسيلة النجاة من عذاب الله وتيسير الاتصال بها والوصول إليها ، وهى القرآن الكريم . إلى مساءلة هؤلاء المدعوّين إلى كتاب الله ، كيف يكذبون بآلاء الله ونعمه التى من أعظمها وأجلّها هذا الكتاب الذى يُدْعَوْن إليه ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٣)

* « ٱلرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ (٤) ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ (٩) وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ (١١) وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَىِّ آلَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) »

التفسير :

قوله تعالى : « الرحمن . . . . »

[سورة الرحمن .. ونظمها]

فى سورة الرحمن ظاهرة ملفتة للأنظار ، داعية إلى التساؤل عنها والبحث عما وراءها من أسرار . . تلك هى التكرار الملتزَم فى قوله تعالى :

« فبأى آلاء ربكما تكذبان » فقد تكررت هذه الآية إحدى وثلاثين مرة، خلالَ آيات السورة البالغ عددها ثمانيا وسبعين آية ..

وقد كان هذا التكرار مدخلا من مداخل الطعن على القرآن، عند كثيرين من مرضى العقول والقلوب، من المستشرقين والمتتلمذين عليهم .. إذ عدّوا هذا التكرار مُخِلاً ببلاغة الكلام، جائراً على فصاحته، ثم يجاوزون هذا إلى القول بأن هذا التكرار الذى جاء خارجاً على الأسلوب العام للقرآن، إنما يمثل حالاً من أحوال الصَّرَع الذى كان يعرض للنبىّ! « كَبُرَتْ كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً » ..

ولا نعرض لدحض هذه المفتريات، إذ كانت تحمل فى كيانها أكثرَ من شاهد يشهد عليها بالكذب والافتراء .. وحسبنا أن نقف بين يدى هذا الإعجاز المبين من آيات الله ..

فهذا المقطع الذى بدأت به السورة الكريمة، هو مقدمة موسيقية علويّة اللحن، قدسية النغم، لاتكاد تتحرك بها الشفاه، وتتصل بها الآذان، حتى يتفتق من أكمامها هذا الجلال المهيب، الذى يملأُ القلوب مهابة وخشية، وحتى يُشيع فى النفوس رَوْحاً وانتشاءً .. سواء فى ذلك من وقف عند تناغم الألفاظ، وتجاوب جرسها، أم من جمع إلى هذا ما يفتح الله له من علم يرى فى أضوائه جلال المعنى، وصدقه المصفّى من شوائب الباطل والضلال ..

فالنظم الذى جاءت عليه هذه الآيات، مستغنٍ بنفسه عن أن يحمل كلماته ما تحمل اللغة من دِلالات ومفاهيم، متعارفة بين أهلها، وحسبه أن يفعل بنغمه الموسيقى، مالا تفعل أروع ألحان الموسيقى من رَوْح وانتشاء! فكيف إذا حمل هذا النغم مع ذلك أدق وأصدق وأحكم ما تحمل الكلمات من معنى؟..

انظر كيف يطلع هذا المطلع على تلك الصورة الرائعة الفريدة من النظم ..

فأنت بين يدى خمس آيات تلاحمت ، وتماسكت دون أن يقوم بينها حرف عطف :

« الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان * الشمس والقمر بحسبان » . .

إن ما بينها من تجاوب وتآلف ، يجعلها فى غنًى عن أن يقوم بينها عاطف يعطف بعضها على بعض ، ويجمع بعضها إلى بعض ..!

ثم انظر كيف كانت كلمة « الرحمن » التى بدئت بها السورة ، هى الميزان الذى تجرى أحكامُه على آيات السورة كلها ، وتنضبط عليه أنغامها ، وتتآلف منه وَحدة اللحن كله .. فيكون أشبه « بالرتم » الذى يمسك باللحن الموسيقى من مطلعه إلى نهايته ! ..

« الرحمن » .. إنه الذى يمسك بأجزاء السورة كلها ، لفظاً ومعنى ..

فالرحمن ، تتدفق من رحمته هذه النِّعم ، التى تعرضها السورة فى كل آية من آياتها ، وقد تصدر القرآن ـ ومعناه القراءة الواعية فى صحف الوجود وفى كتب العلم وأجلها القرآن الكريم ـ تصدّر كلَّ هذه النعم ..

فإنه بغير هذه القراءة لايهتدى الإنسان إلى الله سبحانه ، ولا يتعرف على خالقه ، ولا تقوم قَدَماه على طريق الحق والخير .. ثم يجىء الإنسان على رأس المخلوقات جميعها ، إذ هو وحده الذى حمل الأمانة ، أى العقل والتكليف ، من بينها جميعاً ، فيكون هو المتلقى لجتمع كلمات الله ، القارىء المستبصر ، الذى يكشف بقراءته دلائل القدرة الإلهية .. فيؤمن بالله ، ويقوم على خلافته فى الأرض ، ويقيم موازين العدل فيها . .

ثم انظر مرة أخرى إلى هذا التدبير الحكيم الذى تطلع به عليك هذه

المقدمة من الفواصل المتتابعة ، المتماثلة ، مع فاصلة الآية المكررة ..

الرحمن .. القرآن .. الإنسان .. البيان .. بحسبان .. يسجدان .. الميزان .. الميزان .. الميزان .. للأنام .. الأكمام .. الريحان ..

فهذه اثنتا عشرة فاصلة ، سبقت المقطع الذى سيتكرر فى السورة فى قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » فيكون أشبه بمقدمة لهذا التكرار ، إذ يكون من شأنه أن يقيم الأذن على هذا النغم ، ويربطها به ، فإذا تكررت هذه الآية بعد ذلك ، لم تجد الطريق إلى الأذن مسدوداً عليها ، أو مستوحشاً منها ، بل إن الأذن لتتفتح لها ، وتدعوها إليها ، وتجذبها نحوها ..

وانظر مرة ثالثة ..

فلقد سبق هذا التكرارَ المنتظَر ، تكرار آخر ، يمهد له ، ويهيىء السمع واللسان لاستقباله . .

وذلك بأن تكررت كلمة « الميزان » ثلاث مرات فى ثلاث فواصل متتابعة ، دون أن يفصل بينها فاصل آخر .. ولاشك أن هذا تمهيدٌ بليغ للتكرار الذى سيبدأ بعد هذه الفواصل مباشرة بقوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان » والذى سيتكرر إحدى وثلاثين مرة . .

ثم انظر مرة رابعة فى هذا المطلع .. تجد السورة قد بدئت بآية ، هى كلمة واحدة ، ثم بثلاث آيات ، كل آية فيها من كلمتين ..

* الرحمن ..

* علم القرآن ..

* خلق الإنسان ..

* علمه البيان ..

ثم تجىء بعد هذا آيتان من ثلاث كلمات :

* الشمس والقمر بحُسبان ..

* والنجم والشجر يسجدان ..

ثم تتلوها آيتان من أربع كلمات :

* والسماء رفعها ووضع الميزان ..

* ألاّ تطغوْا فى الميزان ..

تعقبها آية من ست كلمات :

* وأقيموا الوزن بالقسط ولا تُخسروا الميزان ..

ثم تتلوها آية من ثلاث كلمات :

* والأرضَ وضعها للأنام ..

تجىء بعدها آية من خمس كلمات :

* فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ..

ثم آية من أربع :

* والحبُّ ذو العصف والريحان ..

ثم تجىء بعد هذا الآية :

* فبأى آلاء ربكما تكذبان ..

فتكون هى القرار الذى ينتهى إليه النغم ، والذى يتردد بعد كل آية أو آيتين من السورة ..

إن لعلماء الموسيقى مجالاً فسيحاً للدراسة والإفادة من هذا النظم ، الذى تمثل كلُّ آية منه جملة موسيقية ، تختلف طولاً وقِصراً ، وتأتلف مطلعا ـ قَراراً ..

أما عند الموسيقىّ ، فإنه يجد نفسه ، وهو يتلو هذه الآيات إنما يتلقى درساً علوياً من ينابيع الموسيقى السماوية ، فيستفتح اللحن بكلمة «الرحمن» فيعطيها كل ما يمتلىء به صدره من أنفاس الحياة . . ثم يعود فيوزع أنفاسه بين كلمتين ، كلمتين ، ثم بين ثلاث ثلاث ، ثم بين أربع أربع ، ثم بين ست كلمات ، هى آخر ما يمكن أن يمتد إليه النفس غالباً . ثم يعود ليلتقط أنفاسه ، فيوزّعها بين ثلاث كلمات .. ثم يأخذ نفسه مرة أخرى ليوزعه على خمس كمات ..

وهنا يكون النفس قد توازن ، وانضبط على حدود معينة ، بين ثلاث كلمات ، وخمس كلمات ، فتلقاه الآية التى ستكرر على امتداد السورة ، « فبأى آلاء ربكما تكذبان » . . وهى من أربع كلمات ، هى وسط بين الثلاث ، والخمس ! !

* * *

هذا قليل من كثير لانهاية له ، مما يجده الناظر فى نظم هذا المقطع ، الذى بدئت به السورة ، والذى جاءت عليه السورة كلها ..

أما المعنى الذى وراء هذا النظم ، فهو أروع وأعجب . . إنه جامعة معارف ، وبحارُ لآلىْ ودُرر ، لا تزال أبدَ الدهر تغرى الطالبين لها ، الغواصين فى بحارها ، ليملئوا أيديهم منها ، ويزينوا جيدَ الزمن بما ينظمون من جواهرها ..وها نحن أولاء نَمدّ أيدينا إلى ما يفضُل به الله تعالى علينا من فيض كرمه وإحسانه . .

قوله تعالى:

* « الرحْمٰن »

هو الله سبحانه وتعالى ، المتجلّى بتلك الصفة من صفاته الكريمة ،

وهى الرحمة ، التى هى اللطف السارى فى هذا الوجود ، والنور المادى لكل موجود ..

وقد سميت السورة سورة « الرحمن » . . فهى بهذا مَجْلَىً من مجالى رحمة الله ، وكل آية من آياتها رحمة راحمة ، ونعمة سابغة ، حتى تلك الآيات التى تحمل العذاب إلى الكافرين والضالين .. فإنهم - مع هذا العذاب الذى هم فيه — واقعون تحت رحمة الله ، ولولا هذه الرحمة لتضاعف لهم هذا العذاب أضعافاً كثيرة ، لا تنتهى ..

وإن هذا العذاب الذى هم فيه ، هو رحمة واسعة بالإضافة إلى مافى قدرة الله من عذاب ، يتعذب به هذا العذاب نفسه !!

وقوله تعالى :

* « علم القرآن * خلق الإنسان * علّمه البيان » ..

هو أول تجليات رحمة الرحمن ، وأعظمها شأناً ، فيما يتصل بالإنسان . .

ولهذا قُدِّم تعليم القرآن ، أى القراءة ، على خلق الإنسان ذاته ، الذى هو موضع هذه الرحمة ، ومتلقى فيوضها . .

فالقرآن — كما أشرنا من قبل — معناه هنا القراءة والدرس ، والتعلم . . ومن أجل هذه القراءة ، وهذا الدرس والتعلم خُلق الإنسان ، ليعرف الله ، ويتعبد له ، كما يقول سبحانه : « وما خَلَقْتُ الجن والإنس إلا ليعبدون » . . (٥٦ : الذاريات)

فبهذه القراءة الواعية ، يكون لقراءة القرآن ثمراتها ، التى يحصل بها الخير كله ، الذى ملاكه معرفة الله ، والإيمان به ، والولاء له . .

وقد كان سياق المعنى ، يقضى — فى ظاهر الأمر — بأن يقدم خلق الإنسان على تعلمه القراءة ، مطلقا ، أو قراءة القرآن بصفة خاصة .. ولكن النظم القرآنى لا يوزن بميزان نظم البشر لكلامهم . . فهذا كلام الله . . وكلامه صفة من صفاته ، والفرق بين كلام الله وكلام البشر كالفرق بين صفات الله ، وصفات عباد الله . . ولا تصح المقايسة بحال أبداً بين الخالق ، والمخلوق . .

نقول — كان سياق النظم يقضى — فى ظاهر الأمر — بأن يُقَدَّم خلقُ الإنسان على تعلم القرآن ، فيقال : الرحمن ، خلق الإنسان ، علم القرآن ..

فماذا إذن وراء هذا النظم الذى جاء عليه القرآن ؟

والجواب ، أن وراء هذا النظم كثيرا من الأسرار ، لا يحصيها العدّ ، ولا يحيط بها العقل . .

وإنما هى أسرار تتكشف حالا بعد حال ، على مسرح العقول ، وعلى امتداد الأزمان والآباد . .

والذى يبدو لنا من هذا النظم — والله أعلم — أن القراءة ، وهى — كما قلنا — قراءة عامة فى صحف الوجود ، وفى الكتب — هى التى تكشف للإنسان الطريق إلى الله ، وتدله على مالله سبحانه من كمال وجلال ، ومن تفرد بالخلق والأمر . .

والتعرف على الله ، هو الغاية من خلق الإنسان على تلك الصورة الفريدة ، التى امتاز بها عن عالم المخلوقات كلها ، والتى استقل بها وحده بحمل الأمانة التى عُرضت على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، والتى بها أيضاً استحق أن يكون أولى من الملائكة بخلافة الله على هذه الأرض . .

فلمعرفة الله تلك المعرفة القائمة على وعى ، وإدراك ، وعلى حساب وتقدير — كان خَلْقُ الإنسان . .

فمعرفة الله ، هى العلة ، وخلق الإنسان ليقوم بوظيفة هذه المعرفة هو معلول لهذه العلة ، والعلة مقدمة على معلولها . . ولهذا قدم قوله تعالى : « علم القرآن » على قوله تعالى : « خلق الإنسان » وقد « علمه البيان » . . أى خلقه ذا عقل وإدراك . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (٥٦ : الذاريات) أى ليعرفونى ، ويعبدونى . . وما يشير إليه قوله سبحانه : « وعلم آدم الأسماء كلها . . ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » (٣١ — ٣٣ : البقرة) . . فالله سبحانه وتعالى ، قد علم آدم : « خلق الإنسان علمه البيان » أى خلقه قادراً على البيان والإفصاح عن حقائق الأشياء ، والتمييز بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والهدى والضلال . .

ولم يعلِّم سبحانه وتعالى الملائكة هذا العلم ، ولم يخلقهم على طبيعة

ترى هذا التزاوج فى الموجودات ، وإنما هم على طبيعة هى من عالم الحق ، والخير ، والنور ، فلا ترى من الأشياء إلا ما هو حق ، وخير ، ونور ..

وهنا يبدو لنا بعضُ السر فى هـذا الجمع بين الجن والإنس فى قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .. فالجن فى هذا المقام كالإنس ، فى أن كلا منهما على طبيعة يرى بها الأشياء فى هذا الازدواج : الخير والشر ، والحق والباطل .. وكما جمعت هذه الطبيعة بين الجن والإنس فى رؤية الأشياء على الازدواج — جمعت بينهما فى الخطيئة ، وفى عصيان أمر الله .. فعصى إبليس أمر ربه بالسجود لآدم ، وعصى آدم ربه فى الأكل من الشجرة التى نهاه الله عن الأكل منها .. فالشيطان عصى فى أمر ، وآدم عصى فى نهى .. وعصيان الأمر — فى ميزان التحدّى والمخالفة — أثقل وأشنع منه ، فى حال النهى .. إذ كان الأمر إيجاباً ، والنهى سلباً .. فالأمر فعل ، والنهى ترك .. وإتيان المأمورات ، مقدم على ترك المنهيات ، ولهذا التزم القرآن تقديم الأمر على النهى فى كل مقام اجتمعا فيه ، فقال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للنـاس تأمرون بالمعروف وتنهوْن عن المنـكر » (١١٠ : آل عمران) وقال سبحانه: « يابنىّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنـكر » (١٧ : لقمان) .

وذلك أن فعل الأمر ، يحمل فى طياته الانتهاء عن منـكر يقع فيه من لا يمتثل الأمر ..

ومخالفة الأمر يحمل مع تضييع الأمر ، الوقوعَ فى محذور النهى .. وليس الشأن كذلك فى النهى ، الذى يقف بصاحبه عند محذور النهى ، إذا هو فعل المنهى عنه ..

ومن هنا كان إتيان المأمورات مُثاباً عليه ، بخلاف اجتناب المنهيّات، فإنه بحسب المرء باجتنابها أن يسلم من شرها ، ويخرجُ معافًى ؛ لا عليه ، ولا له . .

ومع هذا ، فإن الشيطان خالف أمر ربه بامتناعه عن السجود لآدم.. وآدم عصى ربه كذلك بإتيان ما نهاه عنه ، فأكل من الشجرة — ولهذا كان لكل منهما حسابهُ وعقابه . . وقد أظهر آدم الندم ، وأقبل على ربه تائباً مستغفراً ، فتقبّل الله سبحانه وتعالى توبته وغفر له . . وأما الشيطان فقد أحاطت به خطيئته ، وأعمته عن طريق الرجوع إلى الله سبحانه ، فمضى فى غَيّه وضلاله ، تصحبه لعنة الله إلى يوم الدين ..

وقد تحدّى إبليس — لعنه الله — ربه ، ورأى فى نفسه فى انه خير من آدم ، وأنه قادر على إفساده ، وجعله ولياً له ، محارباً لله الذى كرمه وأمر الملائكة بالسجود له !! وكان من حِلم الله ، على هذا اللعين ، أن أفسح له فى مجال التحدى ، وأن يجلب بخيله ورجله على بنى آدم ، وسيرى أنه مقهور مخذول ، فإنه لن ينال من عباد الله منالا ، وإنما هو دعوة يستجيب لها من أبناء آدم من سبقت عليه كلمة الله ، فكان من أهل النار ، كما يقول سبحانه : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتّبعك من الغاوين » . . وكما يقول سبحانه : « إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » (٦ : فاطر) . .

ماذا هناك ؟؟

ونحن بين يدى سورة « الرحمن » وفى أُنس ورَوْح من رحمة الرحمن ، تهب علينا ، وعلى غير انتظار ، ريح سموم من رياح هذه الدنيا ، تلفح وجوهنا ، وتـكوى مشاعرنا ، وتثير بلبلة واضطراباً فى خواطرنا .. حتى ليكاد ذلك يفسد علينا هذا الجو المعطر بأنفاس الرحمة ، ويقطع عنا — فى غفلة من إيماننا بالله ، وثقتنا فى رحمته — هـذا الأنس برحمة الرحمن ..

ثم .. ثم ماذا ؟؟

ثم نجد رحمة الرحمن الرحيم تحفّ بنا ، وتعيدنا مرة أخرى إلى رحاب هذه السورة الـكريمة ـ بعد أن انقطعنا عنهـا أياماً ، جرياً وراء لقمة عيش نحصّلها من حديث فى صحيفة ، أو إذاعة ـ وإذا بنا نجد أنفسنا وقد أظلّتها السكينة ، وعاد إليها الأمن والسلام ..

أما هذه الريح السموم ، فإننا نَدَعُها لرحمة الرحمن ، لتحيل نارها برداً وسلاماً .. فذلك هو إيماننا بالله ، وثقتنا فى رحمته ..

(مساء الأربعاء ٤/٢/١٩٧٠م)

ونعود إلى نظم الآيات مرة أخرى ..

« الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علّمه البيان * الشمس والقمر بحُسبان * والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع الميزان * ألاّ تطغوْا فى الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان * والأرض وضعها للأنام * فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والحبُّ ذو العصف والريحان * فبأى آلاء ربكما تكذبان » ..

فماذا نرى فى هذا النظم ، من حيث المعنى ، بعد أن كانت نظرتنا مقصورة على حدود النغم والجرْس ؟

هنا نجد — وهذا فى حدود نظرنا المحدود القاصر — أن الآيات الكريمات يأخذ بعضها بأعناق بعض ، فى تعاطف ، وتآلف ، من غير أن يدخل بينها عاطف صناعى يشِى بهذا السر الذى بينها ، ويتسمع إلى هذه المناجاة الوَدود ، بين الأحباء والأصفياء ..

هذه واحدة !!

ثم ماذا ؟

* « الرحمن »

ما شأنه ؟ وما مظاهر رحمته ؟ .. ذاك سؤال !

* « علّم القرآن » ..

وهذا جواب .. يقوم من ورائه سؤال :

كيف علم القرآن ؟

* « خلق الإنسان » ..

وهذا جواب .. يثير سؤالا :

وماذا بين خَلْق الإنسان ، وتعليم القرآن ؟

* « علمه البيان »

وهذا هو الجواب .. فبالبيان الذى علمه الله الإنسان ، تعلم القرآن ..

ومن وراء هذا الجواب سؤال ؟

وأى شىء يقرؤه هذا الإنسان الذى خلقه الله مستعداً للقراءة والبيان لمِا يقرأ؟ ..

* «الشمس والقمر بحسبان ».. .

* « والنجم والشجر يسجدان»..

* « والسماء رفعها ووضع الميزان » ..

هذا هو جواب السؤال .. فتلك هى الصحف المنشورة ، التى يقرأ فيها هذا الإنسان المهيأ للقراءة ، المجهز بأدوات البيان والكشف ، بما أودع فيه الخالق من عقل ، وقلب ، وسمع ، وبصر ، ولسان يصور به ما رأى ببصره ، وما سمع بأذنه ، وما وقر فى قلبه ، وما تشكل فى عقله — يصور ذلك كله بكلمات واضحة مبينة ، يهتدى بهديها ، ويمشى فى حياته على ضوئها ..!

فالشمس والقمر .. يجريان بحساب مقدور .. كل فى فَلَكه ..

« لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار .. وكل فى فلك يسبحون » . (٤٠ : يس)

وهذا كتاب يضم من العلوم والمعارف مالا يقع تحت حصر ، ولا ينتهى

عند حد ، إذ كان موضوعه العالم العلوى وما فيه من أفلاك ، وما يدور فى هذه الأفلاك من نجوم وكواكب ..

والشمس والقمر ، هما أظهر ما فى العالم العلوى المنظور لنا من نجوم وكواكب .. بحيث يقعان فى نظر كل إنسان ، ويدنوان من مفهوم كل ذى نظر ، فلا يكاد يوجد إنسان على ظهر هذا الكوكب الأرضى إلا وعنده علم عن الشمس والقمر ، على اختلافٍ فى درجة هذا العلم ، وعلى تفاوت بعيد بين القدْر الذى يقع لكل إنسان منه ، إذ بينما يكون هذا العلم عند بعض الناس مجرد نظر جامد بارد ، لايحرك شعوراً ، ولا يثير إحساسا ، إذ هو عند آخرين مَثَارُ خيال ، ومبعث وجدان ، ومنطلق إدراك ، وجامعة علم وفن وفلسفة ..!

فإذا نظر الإنسان إلى الشمس والقمر ، نظراً قائماً على الدرس والحساب ، أسلمه هذا النظر إلى ما وراء الشمس والقمر ، مما حواه العالم العلوى من أجرام ظاهرة يراها رأى العين ، أو خفية يلتمس لها الوسائل التى يراها من خلالها .. وبهذا النظر المستند إلى الحسبان أو الحساب ، عرف الإنسان كثيراً من أسرار هذا العالم ، ورأى أن الشمس والقمر اللذين يبدوان وكأنهما سيّدا الأجرام السماوية ، ليسا إلا إشارتين باهتتين تُطلاّن من هذا العالم على الأرض ، وأنهما بالنسبة لهذا العالم أشبه بحصاتين فى سفح جبل الهملايا بالهند ؛ مثلاً..!

فإذا بلغ الإنسان اليوم من العلم بحيث يضع قدميه على القمر ، فليس ذلك إلا خطوة قصيرة من مسيرة طويلة للعلم ، فى مسابح هذا العالم الذى لاحدود له ..

وإذا قَصُر نظر الإنسان عن أن يرى ما وراء الشمس والقمر فى العالم العلوى ،

فليقم نظره على ما بين يديه من العالم الأرضى .. حيث يجد وجه الأرض وقد نجّمَتْ فيه نجوم أشبه بنجوم السماء وكواكبها ..

* « و النجم والشجر يسجدان » ..

ففى الأرض نجم ، وشجر ..

والنجم ، هو النبات الذى لاساق له ، مما يظهر على وجه الأرض ، كالحشائش، ونحوها ..

والشجر هو ما قام على سُوق وما اتصل بهذه السوق من فروع ، وأغصان وأوراق ، وأزهار ، وثمار . .

والنجم من نبات الأرض ، يمثّل الكواكب والنجوم المنثورة فى السماء ، والتى تبدو فى مرأى العين صغيرة باهتة ..

والشجر ، يمثل الشمس والقمر فى ظهورهما ، وكبر حجمهما ..

وإذا كان جريان الشمس والقمر بحسبان ، فإن قيام النجم والشجر من النبات ، بحسبان أيضاً ، إذ أن كلاًّ منهما فى يد القدرة الإلهية ، قائم فى محراب الولاء ، والخضوع ، والسجود ، لله رب العالمين .. وأنه كما فى العالم العلوى مجال فسيح للنظر والكشف عن علوم لا حدود لها ، فكذلك فى عالم النبات، نجمه ، وشجره ــ علم لاينتهى أبدا .. « وفى الأرض آيات للموقنين . . »

ثم ، إنه إذا كان فى الناس من لا يرى هذا التفصيل فى العالم العلوى أو الأرضى ، فإنه لن يكون فى الناس أبدا من لايرى السماء جملة ، أو الأرض جملة ..

* « والسماء رفعها ووضع الميزان * ألاّ تطغوا فى الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان * والأرض وضعها للأنام * فيها فاكهة

والنخـل ذات الأكمام * والحبّ ذو العصف والريحان » ..

فالسماء مرفوعة كالمظلة فوق الناس ، بلا عمد تقوم عليها ، وإنما يد القدرة هى التى تمسك بها، وتقيمها على ميزان دقيق لا ينحرف قيد أنملة : « والسماء رفعها ووضع الميزان » .. أى أقامها ، ووضع لها حساباً دقيقاً ، وميزانا مضبوطا تجرى عليه أمورها ..

وقوله تعالى : « ألاّ تطغوا فى الميزان ..وأقيموا الوزن بالقسط ولا تُخسِروا الميزان .. »

هو دعوة إلى أن يقيم الناس أمرهم فى التعامل مع هذه العوالم على العـدل والإحسان ، فلا ينحرف بهم النظر عن مواقع الحق منها ،فذلك ضلال وخسران للميزان الذى وضعه الله سبحانه وتعالى فى أيديهم ، وهو عقولهم التى من شأنها أن تضبط مسيرتهم فى الحياة ، كما تضبط السماء دعائمها بهذا الميزان الذى وضعه الله سبحانه وتعالى لها ..

وفى قوله تعالى : « والأرض وضعها للأنام » ـ إشارة إلى أن هذه الأرض ، هى فى خلافة الأنام ، وهم الناس ، وأن معهم الميزان الذى يضبطون به أمور الأرض ، أشبه بذلك الميزان الذى وضعه الله سبحانه لضبط السماء وعوالمها .. وفى هذا تـكريم للإنسان ، ورفع لقدره ، وإعطاؤه حكم هذه الأرض بالميزان الذى معه ، وهو العقل .. وهو بهذا الميزان استحق أن يكون خليفة الله فى الأرض .. فإذا لم يقم أمرها على ميزان الحق والعدل والإحسان ، اضطرب أمره، وفسد حاله ، وساء مصيره ..

* « فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام » أى أن هذه الأرض التى وضعها الله

للأنام ، وأقامها على هذا الوضع ـ قد هيأها الله سبحانه لتكون مأوًى صالحا لحياة الإنسان ، فأخرج منها فاكهة ونخلا ذات أكمام ..

والأكمام : جمع كِمّ ، وهو الجراب الذى يضمّ طلع النخل ، الذى يتكون منه الثمر ..

* « والحبّ ذو العصف والريحان » ..

معطوف على قوله تعالى : « فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام » ـ أى وفيها الحبّ ذو العصف والريحان ..

« والحبّ ذو العصف » هو الحبّ الذى يؤكل كالحنطة وغيرها .. والعصف ، هو أوعية هذا الحب التى تنفصل عنه عند نضجه ، فتكون حطاماً وهشيا ، كما فى قوله تعالى : « فجعلهم كعصف مأكول » ..

أما الريحان ، فهو ذلك النبت الطيب الريح .. وهو إشارة إلى كل نبتٍ طيب ريحُه .. وفى هذا إشارة إلى أن الإنسان ليس مجرد حيوان يطلب حاجة الجسد من طعام وشراب وحسب ، وإنما هو كائن أسمى من عالم الحيوان ، لا يقف عند مطالب الجسد ، بل إن لروحه مطالب لاتقل عن مطالب الجسد ، وحاجته إلى مايقيم وجوده ..

فالريح الطيب ينعش النفوس ، ويغذّى الأرواح ..

وفى التعبير القرآنى بكلمة : « والريحان » عن النبت الطيب الريح ، إشارة إلى أن اتجاه هذا النبت إنما هو إلى الروح .. فالريحان والروح من مادة واحدة لفظا ، ومعنى !!

وبعد هذا العرض الكاشف لرحمة الرحمن ، وقدرته ، وقيومته على هذا الوجود ، علوه ، وسفله ، وخلقه الإنسان ، وقد علمه البيان ، ووضع بين يديه

الميزان الذى يزن به الأمور ، ويفرق به بين خيرها وشرها ـ بعد هذا يجىء قوله تعالى مخاطباً الكائنين اللذين لهما وجود ظاهر على هذه الأرض ، ولهما مجال فسيح فيها ، وصراع محتدم بينهما على الخير والشر اللذين فى كيانهما .. فيقول سبحانه :

* « فبأى ءالاء ربكما تكذبان » ..

فالخطاب هنا من الحق سبحانه وتعالى ، إلى عالمى الجن والإنس ، إذ هما ـ كما قلنا ـ الكائنان المكلّفان ، بما لهما من عقل وإدراك . وهما اللذان يحاسبان ، ويثابان ، أو يعاقبان .

والآلاء : جمع إلّى ، على وزن مِعًى ،وألَى على وزن عَلَىَ وهى النعم ..

والاستفهام هنا تقريرى ، إذ كانت نعم الله ظاهرة ، تلبس كل ذرة فى هذا الوجود .. حيث أن الوجود نفسه ، هو نعمة بالنسبة للعدم ..

عن ابن عمر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا ، فقال : « مالى أراكم سكوتاً ؟ لَلْجِنّ أحسنُ جواباً لربها منكم » ..

قالوا : وما ذاك يارسول الله ؟ قال : « ما أتيتُ على قوله تعالى : « فبأى ءالاء ربكما تكذبان » إلا قالت الجن : ولا بشىء من نعم ربنا نكذب » ..

وعن جابر بن عبد الله ، قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، فقرأ سورة الرحمن من أولها إلى آخرها ، فسكتوا ، فقال : « لقد قرأتها على الجن ، ليلة الجن ، فكانوا أحسن ردوداً منكم . . كنت

كلما أتيت على قوله تعالى : « فبأى ءالاء ربكما تكذبان » قالوا : ولا بشىء من نعمك ربنا نكذب .. فلك الحمد » ..

وقد استُدل بهذا الحديث على أن السورة مكية ، لأن ليلة الجن التى يشير إليها النبى صلى الله عليه وسلم كانت قبل الهجرة ، وذلك كان بوادى نخلة حيث بات النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو فى طريق عودته من الطائف إلى مكة ، بعد أن عرض دعوته على ثقيف بالطائف ، فردوه ، ولم يقبلوا منه ..

الآيات : (١٤ — ٣٢)

* « خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَٱلْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ (٢٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » (٣٢)

التفسير :

قوله تعالى :

* « خلق الإنسان من صلصال كالفخار * وخلق الجانّ من مارج من نار * فبأى ءالآء ربكما تكذبان » . .

الصلصال : الطين الجاف ، الذى له صلصلة وجرس عند احتكاك بعضه ببعض . . وهذا من طبيعة الطين اللازب ، أى اللزج إذا جف . . ولهذا شبه بالفخار ، وهو الطين الذى وضع فى النار حتى احترق ، وصار فخاراً . .

والمارج من النار ، هو المضطرب من لهيبها ، المختلط بالدخان . .

وفى الجمع بين خلق الإنسان ، وخلق الجان ــ جواب على سؤال يَرِدُ عند ذكر قوله تعالى فى الآية السابقة على هاتين الآيتين ، وهو قوله تعالى : « فبأى ءالآء ربكما تكذبان » حيث لم يُذكر فى السورة قبل هذه الآية ما يدل على هذا المثنىّ الذى يتجه إليه الخطاب . . فكان ذكر خلق الإنس والجن ، والجمع بينهما ، جواباً على هذا السؤال : من المخاطب هنا بقوله تعالى : « فبأى ءالاء ربكما تكذبان » ؟ . . إنهما هذان المخلوقان ، الإنس والجن . .

وقُدّم خلق الإنس على خلق الجن ، مع أن الجن أسبق فى الخلق

من الإنس ـ تشريفاً للإنسان ، وتكريماً له في رتبة الخلق ، حيث أمر الله الملائكة ـ ومنهم الجنّ ـ أن يسجدوا له ، احتفاء بمولده ..

قوله تعالى :

* « رب المشرقين ورب المغربين * فبأى ءالاء ربكما تكذبان » . .

أى هو سبحانه رب المشرقين ، ورب المغربين ، أى مشرق الشمس ، ومغربيها ، صيفاً وشتاء . .

وهذه الربوبية ، هى نعمة عظيمة جليلة للموجودات كلها ، إذ كان كل موجود هو صنعة هذه الربوبية ، وغَذِىُّ فضلِها وإحسانها . . فهل من مكذّب بهذه الآلاء ، منكر لها ؟

قوله تعالى :

* « مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأى ءالاء ربكما تكذبان » . .

مرج البحرين : أى أثار بينهما تماوجاً ، وتدافعاً واضطراباً ، عند التقاء أحدهما بالآخر .. فقوله تعالى : « يلتقيان » حال يكشف عما وراء هذا الالتقاء من تماوج ، وتدافع بينهما ، بما يحدثه هذا الالتقاء .

والمراد بالبحرين : المالح ، والعذب ..

والبرزخ : الحاجز الذى يحجز بين شيئين ..

فمن رحمة الرحمن الرحيم ، أنه جمع بين البحرين : هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ، وهما على طبيعة واحدة ، وفى مرأى العين ماء ، لا فرق بين الملح والعذب إلا فى المذاق . . ومع هذا فقد جعلت القدرة

الإلهية بينهما حاجزاً، فلا يبغى أحدهما على الآخر، ولا يجاوز حدوده ..
كما يقول سبحانه: «وجعل بينهما برزخاً وحِجراً محجوراً» (٥٣ : الفرقان) ..
فمن ينكر هذا؟ ومن يكذب بآلاء الله ونعمه على عباده، فلا يستقبل
هذه النعم بالحمد والشكران؟ .. فالتكذيب بالنعم، هو كفر بها، وجحود
لفضل المتفضل بمنحها ..

قوله تعالى:

* «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأى آلاء ربكما تكذبان».

أى يخرج من البحرين - الحلو والملح - اللؤلؤ والمرجان ..

واللؤلؤ: إفراز حيوان بحرى، داخلَ بيت صَدَفٍ، لونه أبيض،
وتتخذ منه الحلى الثمينة، من قلائد، وقُرُط، وخواتم .. ولونه أبيض،
مشرب بصفرة.

والمرجان: خرز أحمر، صغار، وهو نباتى أقرب إلى عالم الحيوان ..

واللؤلؤ يخرج من التقاء الماء العذب بالماء الملح، أو حيث خلجان
البحار الساكنة؛ التى ينزل عليها ماء المطر، فيكون الماء العذب،
سواء من الأنهار، أو الأمطار، أشبهَ باللقاح للماء الذى يتخلق منه
حيوان اللؤلؤ، ولهذا أضيف إخراج اللؤلؤ إلى البحرين معاً .. الملح
والعذب ..

ومن كلٍّ من البحار والأنهار، يستخرج اللؤلؤ والمرجان .. ولكن
لا بد من التقاء الملح بالعذب، والعذب بالملح، على أية صورة من الصور
حتى يتخلق منهما اللؤلؤ والمرجان .. فتارة يكون البحر هو محتواهما،

وتارة يكون النهر هو مستخرَجَهما ، حسب الظروف التى يتم بها التقاء أحدهما بالآخر .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : «وما يستوى البحران .. هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كلٍّ تأكلون لحما طريًّا وتستخرجون حلية تلبسونها » (١٢ : فاطر) . .

قوله تعالى :

* « وله الجوار المنشئات فى البحر كالأعلام * فبأى ءالاء ربكما تكذبان » . .

الجوارِ : السفن ، جمع جارية ، لأنها تجرى طافيةً على وجه الماء ..

والمنشآت : أى المصنوعات ، بأيدى الناس ..

والأعلام : الجبال .. جمع عَلَم ، وسُمّى الجبل علماً لظهوره ، وإشرافه على الأرض ، كعلم من معالمها ، وسميت الراية علماً ، وسمى الرجل العظيم البارز علماً ، لهذا المعنى .

قوله تعالى :

* « كل من عليها فانٍ * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام * فبأى ءالاء ربكما تكذبان » . .

الضمير فى « عليها » : يعود على الأرض التى يعيش عليها الناس ، وتجرى فيها الأنهار ، وتتلاحم بالبحار ، ويتخذ الناس من ظهور البحار والأنهار مطايا ذُللا يسرجونها بالسفن ، وينتقلون عليها ، ويحملون أمتعتهم ، وتجاراتهم من بلد إلى بلد ..

فهذا الذى يعيش فيه الناس ، ويُشغلون به ، ينبغى ألا يَشغلهم عن الإعداد

ليوم القيامة ، والعمل للحياة الأخرى ، التى هى الحياة حقا . . كما يقول سبحانه : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون (٦٤ العنكبوت) » أما هذه الحياة الدنيا ، وأما ما يتقلب فيه الناس منها ، فهو فانٍ لا بقاء له ..

وقوله تعالى : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » هو إلفات إلى الله سبحانه وتعالى ، وأنه الحىّ الباقى ، الذى ينبغى أن تتجه إلى وجهه الوجوه ، وتتعلق برضاه وكرمه الآمال ، ويُرجى عنده الخير كله .. فهو صاحب الملك ، وبيده الخير ، والفضل ، والإكرام ، لمن يقصدون وجهه ، ويبتغون فضله وكرمه . .

ويلاحظ أن صفة الجلال والكرم هنا ، إنما كانت لوجه الله سبحانه ، وذلك إشارة إلى أن الاتجاه إلى الله والإقبال عليه ، من شأنه أن يفسح الطريق للعبد إلى رضاء الله ، والإقبال عليه بوجهه سبحانه وتعالى ، وهذا ما يشير إليه سبحانه وتعالى : « وما لأحدٍ عنده من نعمة تُجزَى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى » (١٩ — ٢١ الليل) .

والسؤال هنا هو : هل هذا الفناء المسلط على الحياة الدنيا وما فيها — هل هو نعمة من النعم ، حتى يُدعى الإنس والجن إلى الإقرار بها وشكرانها ؟ . .

ونعم ، فإن هذا الفناء للدنيا ، هو نعمة من أجلّ النعم ، إذ كان مَدخلا إلى حياة باقية خالدة .. ولو أن أمر الناس كان إلى تلك الحياة الدنيا وحدها ، وليس لهم حياة أخرى بعدها ، لكان فى ذلك الخسران المبين للناس جميعاً ، . إذ أن أسعد الناس حظاً فى هذه الدنيا هو مبخوس الحظ ،

إذا كانت حياته محدودة بهذه الحياة ، وكان وجوده منتهياً عندها إلى الفناء الأبدىّ ، بعد أن عانى الإنسان فى الحياة الدنيا ماعانى من آلام ، وأحزان ، وأمراض وشيخوخة ، ونقصٍ من الثمرات والأنفس !

فالحياة على أية حال ، وعلى أية صورة خير من العـــدم ، إنها نعمة تستوجب الحمد والشكران لله رب العالمين ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » (٢٨ : البقرة).

ففناء الناس وموتهم نعمة ، إذ أن هذا الموت ـ كما قلنا ـ هو مدخل إلى عالم الخلود ، وبقاء الله سبحانه وتعالى ، هو مجتمع النعم كلها ، إذ أن بقاءه ضمان لوجود هذا الوجود ..

فبأى هذه النعم يكذّب الثقلان .. الجن والإنس ؟

قوله تعالى :

* « يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن * فبأى آلاء ربكما تكذبان » ..

أى أن كل من فى السموات والأرض يسأل الله من فضله وإحسانه ، سؤالَ الفقير إلى الغنىّ ، والضعيف إلى القوى ، ومن لا يملك أى شىء ، لمن يملك كل شىء .

فكل من فى السموات والأرض مستمد من فضل الله ، سأل أولم يسأل .. فإن لم يسأل بلسانه ، فإن علم الله بحاله يغنى عن سؤاله .. وهذه المنن والعطايا التى تعيش فيها المخلوقات ، وتحفظ عليها وجودَها ، هى من عند الله ، ومن واسع رحمته ، يجود بها عليها ، سألت أو لم تسأل .. فالسؤال هنا كناية عن الحاجة ، وكل مخلوق فى حاجة أبداً إلى عون الله ، و إلى أمداد إنعامه وإحسانه ..

وقوله تعالى : « كلّ يوم هو فى شأن » ..

الشأن : الأمر ، والحال ..

أى إن الله سبحانه وتعالى ، فى تصريفٍ ، وتدبير للخلق ، فى كل يوم بل فى كل لحظة . . فذلك شأن المالك فيما ملك ، والخالق لما خلق ، لا يغفل أبداً عن ملكه، ولا يفتر أبداً عن تدبير شئون خلقه . . « إن الله يمسك السموات والأرضَ أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهمامن أحد من بعده » (٤١.فاطر) . . وليس ذلك بالأمر الذى يتكلّف الله سبحانه له جَهداً ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً . . « وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلىّ العظيم » .. (٢٥٥ : البقرة) ..

فليس الوجود مجردَ آلة تدور على وجه واحد ، لا يتغير أبداً ، بل هو فى كل آنةٍ من آنات الزمن ، بل فى كل فراغ بين الآنة والآنة - إن كان هنا فراغ - هو فى صورة غير الصورة التى كان عليها .. إنه فى تجدّد دائم ، وفى حركة دائبة .. يتبدل أثوابا بأثواب ، وأحوالا بأحوال . . دون أن يقع فى نظامه خلل أو اضطراب .. وهذا برهان على قدرة الخالق جلّ وعلا ، وعلى أن على هذا الوجود إلٰها قادراً ، عالما ، حكيما ، يغيّر فيه ويبدل كيف يشاء ، مع احتفاظه بهذا النظام المحكم البديع .. ولو كان الوجود وجها واحداً لمَا قام منه شاهد أبداً على أن له مدبِّراً يدبره ، ويُحكم أمره ..

وننظر إلى الهرم الأكبر فى مصر مثلاً ، وهو أعجوبة من عجائب الدنيا ، ومعجزة من معجزات الإنسان .. إن بقاءه على تلك الحال فى علوّه وشموخه منذ آلاف السنين ، وإن شهد لبانيه بالقدرة ، والبراعة ، فإن هذا البقاء نفسه على تلك الحال التى قام عليها من أول يومه ،هو ذاته شهادةوفاة لهذا البانى البارع ،

وإلاّ لأحدث فيه شيئا يدلّ على أنه حى يعيش فى عالم الأحياء ..

إن من شأن الكائن الحىّ أن يتحرك ، ويعمل ، ويؤثر ، وأن يُبلى قديماً ويلبس جديداً ، وأن يأخذ كل يوم وضعاً جديداً فى الحياة .. فهذا الذى يشهد بأنه حىّ ، له وجود مؤثر فى الحياة ..

والله سبحانه حى حياة أبدية سرمدية ، بدليل هذا التحول المستمر فى عوالم الوجود ، القائم عليه بسلطانه ، خلقاً وتدبيراً ..

وفى معنى قوله تعالى : « كل يوم هو فى شأن » يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فيما يُروى عن أبى ذرّ : « إن من شأنه ـ سبحانه ـ أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين وليس هذا التبدل والتحول فى أحوال الناس ، وفى صور الموجودات ، هو مما يُحدثه الله سبحانه حين يَحْدُث ، وإنما هى أمور واقعة فى علم الله القديم ، مسطورة فى كتابه المكنون ، فيُظهر منها ما يُظهر فى الوقت المقدور له ، وعلى الصورة التى أرادها سبحانه وتعالى أزلا .. إنهـا أمور يُبديها ولا يبتديها ..

قوله تعالى :

* « سنفرغ لكم أيه الثقلان * فبأى ءالاء ربكما تكذبان » ..

الثقلان : الإنس والجن ، وسميا بالثقلين ، لأنهما ثِقلا الأرض ، كلٌ يأخذ جانباً من كفتى ميزانها .. الإنس فى كفة والجن فى كفة .. عالم الظهور فى جانب ، وعالم الخفاء فى جانب .. ومثل هذا « المَلَوَان » وهما الليل والنهار ، لأنهما يملآن الزمان كله ، ويستوعبان كل آناته ، ولحظاته .

وقوله تعالى: «سنفرغ لكم أيه الثقلان» كناية عن رقابة الله سبحانه وتعالى للجن والإنس، رقابة محكمة، بحيث لا يفلت أحد منهما من قبضته.. أمّا الله سبحانه وتعالى، فإنه لا يشغله شأن عن شأن، ولا يعوقه أمر عن أمر.. ولكن فى قوله تعالى: «سنفرغ لكم» ما يؤكد للجن والإنس أنهما تحت رقابة خاصة، على غير تلك الرقابة العامة القائمة من الله سبحانه وتعالى على الوجود كله، إذ هما ـ كما قلنا ـ المخلوقان اللذان يُناط بهما التكليف، ويقعان تحت حكم المساءلة والحساب والثواب، وإذ كان الله سبحانه لا يحاسب غيرهما ـ فيما نعلم ـ فكأن رقابة الله سبحانه وتعالى متجهة كلّها إليهم.. وهذا كله على التمثيل والتشبيه، وتعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا..

وهذا فضل من فضل الله تعالى، على الجن والإنس، إذ هما من بين المخلوقات على تلك الصفة التى تجعل لهما هذا الامتياز عن المخلوقات جميعها، والتى تجعلهما فى مقام الحضور بين يدى الله للمساءلة والحساب.. وهذا الحساب، وتلك المساءلة ـ على أى حال يكونان عليها، وإلى أية نهاية ينتهيان بمن يحاسب ويسأل ـ دليل على أهلية المحاسَب المسئول، وعلى أنه له إرادة عاملة.. أما من لا يحاسب ولا يسأل، فلا تكاد تتضح ملامح شخصيته، ولا تبين له ذاتية ذات شأن وأثر..

وهذا الوجود على تلك الحال التى عليها الجن والإنس هو ـ كما قلنا ـ نعم جليلة من نعم الله.. فمن يكذب بهذه النعم، وهى تشكل وجوده، وتقيم كيانه، وترفع قدْره فى العالمين؟

هذا، ويلاحظ أن ألف هاء التنبيه قد حذفت من قوله تعالى: «أيه الثقلان» فى خط المصحف العثمانى.. فما حكمة هذا الحذف؟.

نقول ـ والله أعلم ـ إن ذلك الحذف هنا ـ مقصود من كتّاب المصحف ، من صحابة رسول الله رضى الله عنهم ، وهو ـ والله أعلم ـ إشارة إلى فهم خاص لهم ، اقتبسوه من أضواء النبوة . . وهذا الفهم ، هو أن خطاب الله سبحانه وتعالى للجن والإنس ، وأنه قد فرغ لهم ، وأقبل على حسابهم ومساءلتهم ـ يشير إلى أنهم هنا فى مقام حضور من الله سبحانه ، وأنه سبحانه قريب من كل فرد منهم ، قربا لا يدع لأحد فرصة للغفلة عن مراقبة الله تعالى له . . فهو فى حالِ حضور دائم ، وإن كان غافلا ، ومن ثَمّ فلا يحتاج إلى تنبيه ! !

الآيات : (٣٣ — ٦١)

* « يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَاصِى وَٱلْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ (٤٤) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) »

التفسير:

قوله تعالى:

* « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان * فبأى ءالاء ربكما تكذبان » .

نداء إلى الجنّ والإنس، بأن يختبرا قوتهما وسلطانهما أمام قوة الله وسلطانه . . إنهما محاسبون ومسئولون بين يدى الله، كما جاء فى قوله تعالى : « سنفرغ لكم أيه الثقلان » . . وإنه ليس لهما ملجأ من الله إلا إليه .. فإن استطاعوا أن ينفذوا من أقطار السموات والأرض فلينفذوا . .

ولكن إلى أين؟ إنهم لا ينفذون إلى أى قطر من أقطار السموات والأرض، إلاّ وهم واقعون تحت سلطان الله، مسيّرون به ..

فالباء فى قوله تعالى : « بسلطان » باء المصاحبة مثل قوله تعـالى : « وبالأسحار هم يستغفرون » أو باء الاستعانة ، مثل قوله تعالى : « وبالنجم هم يهتدون » ..

وأقطار السموات والأرض : جوانبهما ، والقُطر هو الخط الذى يصل بين طرف الدائرة مارًّا بمركزها ..

وعلى هذا ، فيـكون معنى النفوذ من أقطار السموات والأرض ، هو الانتقال من فلك إلى فَلَك ، ومن كوكب إلى كوكب ..

وفى التعبير بلفظ أقطار ، عن نهاية كل فلك أو كوكب - إشارة إلى كروية الأفلاك والـكواكب ..

وهذا ما أثبته العلم الحديث من كروية الفلك ، والنجوم ، والـكواكب ، وأنّ الوجود كلّه دائرىّ . .

وفى التعبير عن السموات بصيغة الجمع ، وعن الأرض بلفظ المفرد — إشارة إلى أن السموات عوالم وأكوان بعضها فوق بعض ، أو محيط بعضها ببعض ، وأن الأرض عالم واحد ، له قطر واحد .. وأما قوله تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلَهن » (١٤ : الطلاق) فليست المِثلية هنا فى العدد ، وإنما هى من حيث اختلاف طبقات الأرض ، التى تبدأ من وجه الأرض وقشرتها ، إلى وسط المركز منها .. فقشرة الأرض تراب ، وطين ، ورمال وأحجار .. ثم تلى ذلك طبقات ، كل طبقة ذات طبيعة خاصة ، وعلى درجة حرارة خاصة ، تتـكون منها المعادن ، والجواهر .. من الحديد والنحاس ، والذهب ، والفضة ، والألماس ، وهكذا . .

فالأرض واحدة فى كيانها وجرمها ، وهى سبع فى طبقاتها ، واختلاف

طبيعة كل طبقة ، ولهذا جاء التعبير القرآنى المعجز : « ومن الأرض مثلهن » ولم يجىء : ومن الأرضين مثلهن . . حيث تدل المثلية هنا فى التعبير غير القرآنى على مثلية العدد نصاً أما التعبير القرآنى فالمثليّة فيه مثلية فى تنوع العوالم واختلاف المنازل .

قوله تعالى :

* « يرسَل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران * فبأى ءالاء ربكما تكذبان » . .

أى إذا استطعتم أن تنفذوا ـ معشرَ الجن والإنس ـ من أقطار السموات والأرض ، بما مكّن الله سبحانه وتعالى لكم من سلطان ـ استطعتم به أن تخرجوا من فلك إلى فلك ، وأن تنتقلوا من كوكب إلى كوكب ـ فإنكم لن تجدوا الحياة مهيأة لكم فى الفلك الجديد ، أو الكوكب الذى انتقلتم إليه ، إذ لا حياة لكم إلا على هذا الكوكب الأرضى . . أما الكواكب ، والأفلاك الأخرى ، فإنها ترسل عليكم شواظاً من نارها ، ورجوماً ملتهبة من نحاسها . . « فلا تنتصران » أى فلا تحققان غاية النصر الذى طلبتموه من انتقالكم من عالمكم الأرضى إلى العالم العلوىّ . . إنكم أبناء هذه الأرض ، مادمتم فيها . .

والشواظ من النار : ألسنة اللهب المختلطة بالدخان . . وهذا يعنى أن بعض الكواكب نار ملتهبة ، لا تزال فى دور الاحتراق ، وبعضها فى دور الانصهار ، فيقطر منها هذا السائل النارى من النحاس وبعضها فى دور الغليان لهذه المعادن المنصهرة . . وهكذا . .

هذا ، وقد نفذ الإنسان فى هذه الأيام من قطر الأرض ، وخرج من سلطان جاذبيتها إلى القمر ، ونزل على سطحه ومشى بقدميه

فوق أديمه ، مصطنعاً لذلك الوسائل التى تحميه من لهيب القمر ، فى النهار القمرى ، ومن برده القاتل فى ليله .. وإنه بغير هذه الوسائل لن يستطيع أن يمكث لحظة واحدة ..

ومع هذا ، فإن القمر أقرب كوكب إلى الأرض ، والرحلة إليه لا تعدو أن تكون خطوة نملة على الأرض ، فى محيط هذا الكون الرحيب ! .

ومع هذا أيضاً ، فإنه — وهذا مقطوع به ـ لن تطيب حياة للإنسان على هذا الكوكب ، ولن يعمُر به أبداً ! !

أما عالم الجن ، فإن له محاولاته لاختراق أقطار السموات ، ولكنه لا يكاد يبلغ مدًى معيناً حتى يجد المهلكات تنتظره ، وترده خاسئاً إلى الأرض .. وفى هذا يقول الله تعالى : « وحفظناها من كل شيطان رجيم إلاّ من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » .. (١٧ ، ١٨ : الحجر) ويقول سبحانه وتعالى على لسان الجن : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشُهبا * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شِهاباً رصداً » (٨ ، ٩ : الجن) .

والسؤال هنا :

كيف يكون إرسال الشواظ من النار ، والقذائف من النحاس الملتهب ـ كيف يكون إرسال هذه الرجوم على الجن والإنس آلاء ونعماً ، يدعوان إلى الإقرار بها ، والشكر عليها ؟ .

والجواب : أن هذه الرجوم تحدّث عن تلك الحياة الميسرة التى يحياها الإنس والجن على الأرض ، وأنه مما فى قدرة الله أن يحيل هذه الأرض إلى نار مثل هذه الكواكب التى ترمى بالشرر .. ولكنه سبحانه ـ جعل

هذه الأرض بحيث تطيب فيها الحياة لساكنيها من الإنس والجن . . وهذا رحمة منه سبحانه ، وإحسان ، يقتضى الحمد والشكر لله رب العالمين ..

قوله تعالى :

« فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان * فبأى ءالاء ربكما تكذبان * فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولاجان * فبأىّ ءالاء ربكما تكذبان » .

انشقت السماء : أى فتحت أبوابها . وذلك عند انتقال الثقلين ـ الجن والإنس ـ إلى العالم الآخر .. فعندئذ تتبدل حقائق الأشياء ، فى نظر الجن والإنس ، وتبدو السماء التى كانت مغلقة عليهم ، وقد أمكنهم النفوذ إلى أقطارها ، وهنا تُرى الأشياء على حقيقتها لهم . . وهذه السماء التى تبدو فى لونها الأزرق ، تأخذ عندهم لوناً وردياً ، أى أحمر داكناً ، كالدهان ، وهو الشحم حين يصهر ، فيأخذ هذا اللون الوردى الداكن . . ذلك أن هذا اللون الأزرق الذى نراه فى جو السماء ، ليس إلا انعكاساً لأشعة الشمس على الأرض .. فإذا صعد الإنسان فى الجو تغير هذا اللون فى مرأى العين ، وأخذ صوراً من الألوان التى يغلب عليها السواد .. فإذا خرج عن فلك الأرض لم ير إلا هذا اللون الأحمر ، وهو اللون الذى يعلو جميع الألوان التى تبدو من تحليل الضوء خلال منشور زجاجى ..

وهنا سؤال أيضاً :

أين الآلاء التى تحدث عنها الآية الكريمة هنا ؟ وإذا كان ما تحدث عنه آلاء ، هى فى حيز الشرط الذى لم يأت جوابه بعد ـ فكيف يكون لها مفهوم بغير الجواب الذى يحكم الشرط ، ويكشف عن مضمونه ؟ .

والجواب على هذا ـ والله أعلم ـ أن مجرد انشقاق السماء ، على أية حال ، ولأية غاية ، هو وحده دليل على قدرة الله ، وعلى تمكن سلطانه فى هذا الوجود ، وهـذا ـ كما قلنا ـ نعمة من أجل النعم على المخلوقات ؛ إذ كانت قيومة الله على الوجود ضمانة وثيقة للمخلوقات جميعها ، بأنها فى يد صانعها ، ومدبر أمرها ، وأنها بهذا لن يُجار عليها ، ولن تؤخذ بغير الحكمة والعدل ، ولن تتلقى غير الفضل والإحسان ..

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن انشقاق السماء إيذان بالبعث ، والحساب والجزاء . . وهـذا أيضاً نعمة من النعم الجليلة ، إذ أنها أعادت المخلوقات ـ من إنس وجن ـ إلى الحياة مرة أخرى ، بعد أن ردها الموت إلى حال من العدم أو ما يشبه العـدم . . والوجود ـ كما قلنا أكثر من مرة ـ هو فى ذاته خير من العدم ، على أية صورة يكون عليها الموجود ، وفى أى وضع يأخذه فى سُلّم الموجودات ..

* « فإذا انشقت السماء فـكانت وردة كالدهان . .

* « فبأى آلاء ربكما تـكذبان .

هذه هى الآلاء الجليلة ، التى يشير إليها انشقاق السماء .. لمجرد الانشقاق.. فإذا كان وراء هـذا الانشقاق غاية ، كانت تلك الغاية آلاء أخرى جليلة مستغنية بذاتها ، فإذا اتصلت بانشقاق السماء ، كان ذلك آلاء إلى آلاء . . وذلك ما يشير إليه قوله تعالى :

* « فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان * فبأى آلاء ربكما تـكذبان » ..

أى فإذا كان هذا اليوم الذى تنشق فيه السماء ، وهو يوم القيامة ، كما يقول سبحانه : « وفُتِحت السماء فكانت أبوابا * وسيرت الجبال فكانت سرابا » (١٩ ، ٢٠ : النبأ) ـ إذا كان هذا اليوم ، انقطعت الأعمال ، وطويت الصحف على ما كان لأصحابها من عمل فى هذه الدنيا ، فلا يحاسب مخلوق من الجن أو الإنس على ما يكون منه فى اليوم الآخر من قول أو فعل . . لقد انتهى زمن الامتحان والابتلاء . . فما يقوله أو يعمله المرء فى موقف الحساب لا يحسب له ، أو عليه ، حتى الذين يقع منهم فى هذا الموقف ، مما يكون موضع ذم وعقاب فى الدنيا ـ كما يتلاعن المتلاعنون من أهل الضلال فى هذا اليوم ـ هو مما لا يُنظر إليه فى الآخرة ..

وفى الآية ، إشارة إلى أن الجن يبعثون ، ويحاسبون ، كما يبعث الناس ويحاسبون ..

واختصاص جانب الذنوب بالذكر هنا ، دون جانب الإحسان — إذ كانت الذنوب فى هذا اليوم مما يتحاشاه أهل الموقف ، ويفرون منه .. إنهم يطلبون السلامة ، ويعضون أصابع الندم على ما فرط منهم فى الدنيا ، فكيف يطوف بأحدهم طائف يدعوه إلى أن يرتكب ذنبا فى هذا المقام ؟ ولكنه لو فرض — مع هذا ـ أن يقع من مذنب ذنب ـ وهو محال ـ فلن يحاسب عليه . . فقد طويت صحف الأعمال على ما كان فى عالم الامتحان والابتلاء ..

هذا ، ويجوز أن يكون معنى قوله تعالى : « فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان » ـ يجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون أنه لا يسأل المذنبون عن ذنوبهم فى هذا اليوم سؤالَ مراجعة وعتاب ، إذ لا نفع لهم من وراء هذه المراجعة ، وهذا العتاب ، حيث لا سبيل لهم إلى إصلاح

ما أفسدوا ، كما يقول سبحانه : « فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذِرَتُهم ولا هم يُستعتبون » . . (٥٧ : الروم) .

ويجوز كذلك - والله أعلم - أن يكون المعنى ، أنه فى هذا اليوم ، لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ، سؤالَ تعرّف على حاله ، ولا على جنايته التى جناها ، إذ كانت جنايتُه معلقة برقبته ، يراها أهل الموقف جميعاً ، فلا يُسأل من سائل : ما حاله فى هذا اليوم ؟ إذ كانت سِمَتُه الموسوم بها دالةّ عليه ، ناطقة بالمصير الذى هو صائر إليه ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى فى الآية التالية . .

* « يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام * فبأى آلاء ربكما تكذبان » .

فعلى هذا المعنى الأخير ، تكون هذه الآيات تعليلا لقوله تعالى : « فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان » . . إذ لا فائدة من وراء هذه المساءلة والمراجعة. أما على المعنيين الأول والثانى ، فتكون الآيات مستأنفة . .

والنواصى ، جمع ناصية ، وهى الرأس . .

والمعنى ، أنه إذ يُعرف المجرمون بسيماهم ، تتولى زبانية جهنم أمرهم ، فتأخذ بنواصيهم وأقدامهم ، أخذاً عزيزاً متمكنا ، لا يدع لأحدهم أن يتحرك ، فهو فى هذا الوضع أشبه بحجر ، أو حصاة فى اليد ، فيلقَى به حيث يريد القابض عليه . .

وإقامة موازين العدل بين المخلوقات ، وأخذ المسىء بإساءته ، هو من النعم التى تستوجب الحمد والشكر ، من المحسنين والمسيئين على السواء . . إذ لم يؤخذ المحسنون بإساءة من أساءوا ، وإذ كان فى عقاب المسيئين إحسان إليهم بتطهيرهم من هذا الرجس الذى علق بهم ، وتصفية لجوهرهم من هذا الخبَث الذى أفسد طبيعتهم .

قوله تعالى :

* « هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حميم آنٍ * فبأى ءالاء ربكما تكذبان » . .

الإشارة إلى جهنم هنا ، هى استحضار لهـا فى هذه الدنيا بين يدى المكذبين بها ، وبالحساب وبالجزاء ، حيث يشهدون أنفسهم وهم يطوفون بينها وبين حميمها . .

والحميم الآن : ما ينبعث من النار من سَمُوم ، يشوى الوجوه . . فأهل النار إذا تحركوا فى جهنم ، كانت حركتهم فيها على بحار من الحميم ، وهو القيح والصديد الذى يسيل منهم ، كما يسيل الماء من القدور أثناء غليانها . .

وقوله تعالى : « فبأى ءالاء ربكما تكذبان » — إشارة إلى هذه النعم التى يحدِّث عنها هذا العذاب ، الذى من شأنه أن يبعث فى النفوس الخشية من الله ، والخوف من الوقوع فى هـذا العذاب ، فيستعدّ أصحابُ العقول للقاء هذا اليوم ، بالعمل الصالح الذى ينجيهم من الوقوع فى هذا البلاء . . على خلاف ما لو طلع هذا العذاب على الناس من غير أن يُنذَروا به ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى لبيان الحكمة من إرسال الرسل ، وما يحملون إلى أقوامهم من النذر ، إذ يقول سبحانه : « أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين * بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين (٥٦ ـ ٥٩ الزمر) وما يشير إليه قوله تعالى : « وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً » (٥٩ : الإسراء) . .

قوله تعالى :

« ولمن خاف مقام ربه جنتان * فبأى آلاء ربكما تكذبان » . .

وهذا من ثمرة الخوف من الله ، ومن الوقوف بين يديه يوم القيامة ، ذلك الخوف الذى يَدْخل على الإنسان من هذه النار التى أعدّت لأهل الشرك والضلال .. فمن عرف أن هناك حساباً وجزاء يوم القيامة ، وأن هناك ناراً أعدّت للكافرين والضالين ، وخاف حساب الله وعقابه ــ نجا من هذا البلاء ، بإيمانه بالله ، وتجنبه ما يغضبه ، واستقامته على سبيله المستقيم ، وكان له الجزاء الحسن عند ربه ، فأوسع له من فضله وإحسانه ، وأدخله الجنة يتبوأ منها حيث يشاء .. فهى جنة فسيحة لاحدود لها ، عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ..

والتعبير عن الجنة بالجنتين ، إشارة إلى اتساعها ، وقد جاء فى القرآن الكريم لفظ الجنة ، والجنتين ، والجنات ، كما يقول سبحانه : « ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » (٣٢ : النحل) وكما يقول سبحانه : « وأُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار » (٢٣ : إبراهيم) .. فالجنة ، جنات فى اتساعها وامتدادها . . والجنات ، جنة فى طيب ثمارها ، ووفرة النعيم فيها . .

ويجوز أن تكون الجنتان ، جنة للإنس ، وجنة للجن .. أى ولمن خاف مقام ربه من عالم الإنس وعالم الجن ثواب حسن ، ثم بين هذا الجزاء بأنه جنتان ، ينزل كل محسن من الفريقين فى جنته منهما . .

وقوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » إلفات إلى هذه النعم التى

يجدها من يدخل هذه الجنة ، على أية صورة تكون عليها . . فكيف ، وهى على هذه الصفات التى وصفها الله سبحانه وتعالى بها ؟ إن كل وصف لهذه الجنة الرحيبة الفسيحة ، هو نعم مجددة ، تضاف إليها ، وتستدعى واجب الحمد والشكر لله رب العالمين ..

قوله تعالى :

* « ذواتا أفنان * فبأى ءا لاء ربكما تكذبان » .

فهاتان الجنتان ذواتا أفنان ، والأفنان ، جمع فَنَنَ ، وهو الغصن المورق .

فالجنتان ذواتا أغصان مورقة ، وهذا يعنى أن لأشجارها ظِلاً ممدوداً . .

فالظل نعيم من نعيم الجنة ، حيث يطيب الهواء ، ويعتدل الجو . . كما يقول سبحانه :

« وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين * فى سدر مخضود ، وطلح منضود * وظل ممدود * » (٢٧ ـ ٣٠ : الواقعة) . .

قوله تعالى :

* « فيهما عينان تجريان * فبأى ءا لاء ربكما تكذبان » .

ومن صفات هاتين الجنتين أن فيهما عينان تجريان ، بالماء العذب الرقراق.. وهذا الماء السلسبيل المتدفق من العيون الجارية ، هو نفسه نعمة ، إلى جانب نعمة الجنة ، وإلى ظلها الممدود . . فمن يكذب بهذه النعم المتظاهرة ، ويجحد فضل الله وإحسانه بها ؟ .

قوله تعالى :

* « فيهما من كل فاكهة زوجان * فبأى ءالاء ربكما تكذبان » ..

وبما فى هاتين الجنتين كذلك ، هذا الثمر الطيب الجَنِىّ ، . وهو ثمر متزاوج ، أى مؤتلف ، يشبه بعضه بعضاً فى حسنه ، وطيبه ، وإن اختلفت طعومه ، وتعددت مذاقاته ، وهذا ما يشير إليه قوله سبحانه : « كلما رُزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً » (٢٥ : البقرة) .. وقيل إن معنى : « من كل فاكهةزوجان » .. أى كل صنف من أصناف الفاكهة يَرِدُ على أهل الجنة ، يجيئهم فى صورتين ، صورة لما كانوا يعرفونه فى الدنيا ، وصورة لما هومن حقيقة ثمار الجنة ، وبهذا يظهر لهم ما بين الفاكهتين من بَوْن شاسع ، وفرق بعيد ، وهذا مما يحدّث عن فضل الله عليهم ، وإحسانه إليهم ، فى هذا المنزل الكريم الذى أحلهم الله سبحانه وتعالى فيه ..

قوله تعالى :

« متكئين على فُرُشٍ بطائنها من إستبرق وَجَنَى الجنتين دان * فبأى ءالاء ربكما تكذبان » ..

وفى هاتين الجنتين ، وتحت أفنانهما المورقة ، وظلالهما الممتدة ، وفاكتهما التى تجمع بين فاكهة الدنيا وفاكهة الآخرة ـ فرش بطائنها أى حشوها من إستبرق ، أى حرير ، مهيأة ليتكىء عليها أهل الجنة ، اتكاءاسترواح ، واسترخاء ، واطمئنان ..

والإستبرق : الديباج ..

وفى قوله تعالى : « وجَنَى الجنتين دان » ـ استدراك لما قد يقع فى الوهم من أنّ اتكاءهم على هذه الفرش ، مما يباعد بينهم وبين ثمر هذه الجنة التى يتكئون تحت ظلالها ، فإذا أراد أحدهم أن ينال من هذا الثمر شيئاً ، اضطر إلى أن يتحول عن هذا الوضع المريح له ، وجلس ، أو وقف ، لينال الثمر الذى يريده .. وكلاً ، فإن الثمر دان بحيث لا يتكلف له المتكىء شيئاً ، بل هو حاضر بين يديه ، يتخير منه مايشاء ، متكئاً ، أو مضطجعاً ، أو نائماً .. !

والجنَى : الثمر الناضج ، وهو ما يُجنى من شجره ، ومنه الجنين ، وهو ثمرة الحيوان ، ويسمى بَيْض الطير جَنًى لهذا المعنى ..

قوله تعالى :

* « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جانٌّ * فبأى ءالاء ربكما تكذبان » ..

وفى هاتين الجنتين كذلك ، حور قاصرات الطرف ، أى قصرن أعينهن عن النظر إلى غير ما أحل الله لهن ، تُقًى وحياء وعفّة .. « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » أى لم يقربهن ، ولم يغش حماهنّ أحد من الإنس أو الجنّ ، قبل أزواجهن الذين زففن إليهم فى الجنة ، كما يقول سبحانه : « إنا أنشأناهن إنشاءً * فجعلناهن أبكاراً * عرباً أتراباً * لأصحاب اليمين » (٣٥ ـ ٣٨ : الواقعة) .

وفى إعادة الضمير جمعاً على الجنتين فى قوله تعالى . « فيهن » بدلا من « فيهما » إشارة إلى أن هاتين الجنتين ، جنات فى سعتهما ، وامتدادهما .. فهما ـ كما قلنا من قبل ـ جنة ، وجنتان ، وجناتٌ ..

والطمث : دم الحيض ، والطامث : الحائض ، ويسمى افتضاض البكر طمثاً ..

قوله تعالى :

* « كأنهن الياقوت والمرجان * فبأى آلاء ربكما تكذبان » ..

هو وصف لهؤلاء الحور ، بالنقاء والصفاء ، بعد وصفهن بالعفة والحياء ..
والياقوت والمرجان ، حجران كريمان ، صافيان صفاء البلور ، ولكنهما مع هذا الصفاء مشربان بحمرة ، ليست فى البلور ، ولهذا كان تشبيه الحور بهن أبلغ وأصدق ، لما يجرى فى بشرتهن من دم الشباب ، الذى يشرق منه هذا الشعاع الشفقى على وجوههن !

هذا ويلاحظ أن الجنتين اللتين وعدهما الله الذين يخافون مقام ربهم ، قد عُرضتا فى هذا العرض المفصل ، الذى يحدِّث فى كل مقطع من مقاطعه عن نعم الله وآلائه ، التى يحملها هذا المقطع ، والتى تدعو الثقلين ـ الإنس والجن ـ إلى الوقوف بين يديها ، وإنعام النظر فيها ، ثم تحديد موقفهم منها ..وهل يشكرون أم يكفرون ؟ ..

وفى هذا التفصيل ، إشارة إلى أن أىّ نعمة من نعم الله ، وإن بدت فى العين صغيرة ، لا يكاد يلتفت إليها الناس ، ولا يقدرونها قدرها ـ هى فى حقيقتها نعمة جليلة ، تضم فى كيانها نعماً جليلة أيضاً .. وهذا هو بعض السرّ فى هذا التعقيب عقب كلّ نعمة بقوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ..

قوله تعالى :

* « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان * فبأى آلاء ربكما تكذبان » ..

أى أن هذا النعيم الذى يفاض من الله سبحانه وتعالى على المؤمنين فى الجنة ـ هو جزاء إحسانهم فى الدنيا ، وخوفهم مقام ربهم ، كما يقول سبحانه عنهم :

« إن المتقين فى جنات وعيون * آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلا من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون * وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » (١٥ ـ ١٩: الذاريات) ..

وإذا كان هؤلاء المحسنون قد أحسنوا العمل ، فإن هذا النعيم الذى هم فيه لا يعدله إحسان المحسنين ، مهما بالغوا فى الإحسان ، وإنما هو فضل من الله عليهم ، ومضاعفة للجزاء الحسن ، الذى كانت أعمالهم الحسنة مدخلاً إليه ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » (٢٦ : يونس) ..

الآيات : (٦٢ — ٧٨)

* « وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَىِّ ءالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَىِّ ءالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَىِّ ءالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَىِّ ءالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَىِّ ءالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَىِّ آلَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٧٤) فَبِأَىِّ ءالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَىِّ ءالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ومن دونهما جنتان * فبأى ءالاء ربكما تكذبان » ..

أى ومن دون هاتين الجنتين اللتين ذكرهما الله سبحانه وتعالى فى قوله جلّ شأنه : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » ـ أى ومن دون هاتين الجنتين جنتان أخريان ، أنزل منهما درجة ، وأدنى منزلة ، وإن كان ما فيهما من النعيم ممّا لا يحيط به وصف ، وإن القطرة منه لتوازى ما عرف الناس جميعاً من نعيم الدنيا ..

وهذا يعنى أن أهل الجنة ليسوا على درجة واحدة .. وهذا طبيعى ، إذ لم يكن المحسنون على درجة سواء فى الإحسان .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « هم درجات عند الله » (١٦٣ : آل عمران) وقد جاء بيان ذلك فى سورة « الواقعة » التالية لهذه السورة ، وفيها يقول سبحانه : « وكنتم أزواجاً ثلاثة * فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة * والسابقون السابقون * أولئك المقربون » (٧ ـ ١١ : الواقعة) .. فالناس فى الآخرة ، على ثلاثة أحوال : أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، والسابقون من أصحاب اليمين وكل حال من تلك الأحوال الثلاثة درجات كثيرة ، يختلف بعضها عن بعض ، صعوداً ونزولا ..

وقوله تعالى: « فبأى ءالاء ربكما تكذبان » ـ إشارة إلى أن هاتين الجنتين ، مجردتين من أى وصف ، هما نعم جليلة من نعم الله ، لمن ظفر بدخولهما .. « فمن زُحْزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » (١٨٥ : آل عمران) .. وأى فوز أعظم من النجاة من النار ، ولو كان فى الحياة بالعراء ؟ فكيف بالنجاة من

النار ، ثم دخول الجنة ، والفوز بنعيمها ؟

قوله تعالى :

* « مُدْهَامَّتان * فبأى ءالاء ربكما تكذبان » ..

هذا وصف لما فى هاتين الجنتين من أشجار ، وهى أشجار متشابكة الأفنان ، وإن لم يكن فى ظلها هذا الصفاء البلورى . وإنما فى ظلها شىء من الكثافة التى تجعل الظل ذا لون أدهم ، كلون الشفق عند الغروب .. وهذا الظل هو نعمة ، بل نعم تضاف إلى هاتين الجنتين ، وتستوجب الحمد والشكران لله رب العالمين ..

قوله تعالى :

* « فيهما عينان نضاختان * فبأى ءالاء ربكما تكذبان » ..

النضخ ، والنضح ، بمعنًى ، إلا أن النضخ أكثر إعطاءً للماء من النضح .. كما يشعر بذلك ثقل الخاء ، وخفة الحاء ، فعلى مقدار وزن كل منهما يكون قدرُ كلٍّ من النضخ والنضح من الماء ..

أى أن فى هاتين الجنتين عينى ماء تضخان الماء ضخا ، فى دفعات متتالية ، ولا ترسلانه متدفقا كهاتين العينين اللتين فى الجنتين السابقتين ، كما يقول سبحانه : « فيهما عينان تجريان » ..

وليس هذا عن ضنٍّ من الله سبحانه وتعالى ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ، وإنما هو عطاء يفرّق فيه بين أهل الإحسان ، حيث ينزل كل منهما منزله الذى هو أهلٌ له ، وذلك هو عدل الله ، الذى يجرى مع إحسانه ، ويضبط موازينه ..

قوله تعالى :

* « فيهما فاكهة ونخل ورمان * فبأى آلاء ربكما تكذبان » ..

وهذا فرق آخر بين الجنتين العاليتين، وبين الجنتين اللتين دونهما، وذلك فى ثمار الجنتين، هنا وهناك .. فالجنتان العاليتان « فيهما من كل فاكهة زوجان » .. فهما يحويان كل فاكهة معروفة وغير معروفة، مما لم تره عين، ولم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر « من كل فاكهة » .. وهاتان الجنتان الأخريان « فيهما فاكهة.. ونخل ورمان » إن فيهما فاكهة، ولكن لا على سبيل الشمول، كما فى وصف الجنتين العاليتين فى قوله تعالى : « فيهما من كل فاكهة » .. ومن فاكهتهما النخل والرمان..ومع أن ثمر النخل والرمان ليس أكرم الثمر ولا أطيبه، ولكنه إذا كان من ثمر الجنة، فهو من الطّيب والكرم، بحيث تعدل الثمرة منه فواكه الدنيا وثمرها جميعاً ..

قوله تعالى :

* « فيهن خيرات حسان * فبأى آلاء ربكما تكذبان » ..

أى فى هاتين الجنتين خيرات، ومع أن الخيرات مستغنية عن الوصف بذاتها، لأنها خيرات لايجىء منها إلا كل ما هو خير، فقد وصفت بأنها حسان، تحقيقاً لكمال الخيرية فيها، ومحضها للخير الخالص، وعزلها عن الخير الذى يشوبه شىء مما يكدّر صفوه، إذ كثيراً ما يشوب الخيرَ ما ليس منه .. ولهذا كانت هذه الخيرات الحسان التى تطلع على أصحاب هاتين الجنتين ـ آلاء تحمد وتشكر، على أية صورة كانت عليها، وعلى أى وجه تجىء به، وحسبها أنها خيرات، وخيرات حسان !! يكرِم الله سبحانه بها، المكرَمين من عباده ..

قوله تعالى :

* « حور مقصورات فى الخيام * فبأى ءالاء ربكما تكذبان » ..

فإذا انكشف وجه هذه الخيرات الحسان ، كنّ حوراً مقصورات فى الخيام .. يقابلن هؤلاء الحور اللائى فى الجنتين العاليتين واللاتى ذكرهن الله سبحانه وتعالى فى قوله :

« فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » .. وإنه لفرق بين هؤلاء وأولئك ، وإن كن جميعاً على صورة من الحسن والجمال لم تقع العين على مثلها ..

ففى قوله تعالى : فى حور الجنتين العاليتين « قاصرات الطرف » إشارة إلى ما فى هؤلاء الحوريات من خَفَر ، وحياء ، وعفة ، وأن ذلك فى أصل خِلقتهن .. وفى قوله تعالى : فى حور الجنتين الأخريين : « حور مقصورات فى الخيام » ـ إشارة إلى أن هؤلاء الحوريات قد قصرتهن الخيام وحجبتهن عن العيون ، وحجبت العيون عنهن .. وهذا لايمنع من أن يكون لهن ما لأخواتهن من الخفر والحياء ..

ولكن شتان بين خفر وحياء مطلقين ، وخفر وحياء مقصورين ، مقيدين . . ذاك قد امتُحن وجرب ، فظل ثابتاً ، لم تنل منه التجربة والامتحان ، وهذا لم يُمتحن ولم يجرب بعد ! .

وقوله تعالى : « حور مقصورات فى الخيام » هو بدل مبيّن لقوله تعالى : « خيرات حسان » فالخيرات الحسان ، هن أولئك الحور المقصورات فى الخيام . .

والحور : جمع حَوْراء ، وهى ما طاف بمقلتيها طائف من السواد

الطبيعى ، أشبه بالكحل ، يزيد العيون حسنا ، ويلقى عليها فتنة وسحراً . .
يقول جرير :

إن العيون التى فى طرفها حَوَرٌ قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرَعْن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعفَ خلق الله إنسانا!

قوله تعالى :

* « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان * فبأى آلاء ربكما تكذبان » .
مضى تفسير هذه الآية فيما سبق ..

قوله تعالى :

* « متكئين على رفرف خضر وعبقرىٍّ حسان * فبأى آلاء ربكما تكذبان » . .

هو مقابل لقوله تعالى فى وصف حال أهل الجنتين العاليتين : « متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان » . .

الرفرف : المسند ، ووصف بلفظ الجمع « خضر » — إشارة إلى أن لكل من أهل الجنة مسندا خاصا يتكىء عليه . . والمساند جميعها ذات لون واحد .. فهى مفردة فى صفوفها ، جمع فى لونها ..

والعبقرىّ : الجيد من البُسُط : الخارق للعادة فى دقة صنعه . . والعبقرى : نسبة إلى « عبقر » — وهو واد كانت العرب تعتقد فى جاهليتها أنه موطن الجن ، وإلى الجن تنسب الأعمال الخارقة التى تتجاوز حدود الطاقة البشرية ، ومنه سمى « العبقرى » وهو الذى يجىء فى أفعاله بالخارق والمعجز لغيره .

وهنا فرق آخر يظهر فى متكأ أصحاب كلٍّ من الجنتين العاليتين ، والجنتين الواقعتين تحتهما ..

فعلى حين يتكىء أصحاب الجنتين الأولَيين على فرش بطائنها من ديباج، وحشوها من حرير، وعلى حين أن هذا الاتكاء لا يباعد بينهم وبين ثمر الجنة الذى يكون بين أيديهم فى أى وضع يكونون عليه، كما يقول سبحانه: «متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان» — يكون متكأ أصحاب الجنتين الأخريين على رفارف أى مساند خضر، لم تعرف المادة المشكلة منها.. أهى حرير أم غير حرير، وإن عرف أن هذه المساند مبثوثة على بسط حسان، كما لم يعرف إن كان هذا الاتكاء يباعد بين المتكئين وبين ثمر الجنة، فلا تناله أيديهم إلا إذا غيروا من وضعهم، واعتدلوا فى جلستهم.. أم أنهم ينالونه من قريب؟.

ونعود مرة أخرى فنقول، إن هذه التفرقة بين حال أصحاب الجنة، هى أمر لازم، يقضى به عدل الله، فكما فرق هذا العدل بين المحسنين والمسيئين، فأنزل هؤلاء الجنة، وأنزل أولئك النار — كذلك فرق هذا العدل بين المحسنين أنفسهم، فأخذ كلٌّ منهم منزلته حسب إحسانه.. وبهذا يعمل المحسنون على أن يزدادوا إحساناً. حتى لا يقصِّر بهم سعيهم، ويسبقهم السابقون إلى الدرجات العلا.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «ولكلٍّ درجات مما عملوا» (١٣٢: الأنعام).

قوله تعالى:

* «تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام».

وبهذه الآية الكريمة، تختم السورة الكريمة، حيث يلتقى ختامها مع بدئها هذا اللقاء المبارك الميمون الذى يزاوج بين رحمة الرحمن، وكرم الكريم.. فلقد بدئت السورة بالاسم الجليل «الرحمن».. وختمت بالتبريك لهذا الاسم العظيم، الذى يتجلى على عباده بجلاله، وعظمته وكرمه!.

فالاسم المشار إليه فى قوله تعالى : « تبارك اسم ربك » هو هذا الاسم الكريم « الرحمن » الذى بدئت به السورة ، والذى عَرَضَتْ فيه آياتُها آلاءَ الله ونعمه التى أفاضها على عباده ، وكان من حق كل نعمة منها أن يلقاها الثقلان بالحمد والشكر ، وإن كان حمدهما وشكرهما لا يقوم بحق نعمة منها ..

ولهذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى بارك نفسه ، وحمِد ذاته ، ليجبر تقصيرَ العباد ، وليؤدى عنهم هذا الدّيْن الذى عجزوا عن أدائه ، حتى لا يقطع عنهم أمداد هذه النعم ، ولا يأخذهم بعجزهم وتقصيرهم عن أداء حق شكرها وحمدها .. فسبحانه ، سبحانه ، من رب رحمن ، رحيم ، كريم .. يوالى النعم على عباده ، ثم يقوم عنهم بأداء الشكر عليها ، والحمد لها ..

يقول الإمام النسفى : كررت هذه الآية — أى « فبأى آلاء ربكما تكذبان » إحدى وثلاثين مرة ، ذُكِر ثمانية منها عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صُنعه ، ومبدأ الخلق ومعادهم ، ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذِكر النار وشدائدها ، على عدد أبواب جهنم ، وبعد هذه السبعة ، ثمانية فى وصف الجنتين وأهلهما على عدد أبواب الجنة ، وثمانية أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما ،، فمن اعتقد الثمانية الأولى (أى المذكورات فى أول السورة) وعمل بموجبها فتحت له أبواب الجنة ، وأغلقت عنه أبواب جهنم ، نعوذ بالله منها ..

* * *

٥٦ - سورة الواقعة

نزولها : مكيّة

عدد آياتها : ست وتسعون آية

مناسبتها لما قبلها

كانت سورة « الرحمن » السابقة على هذه السورة مَعْرِضًا جامعًا لآلاء الله سبحانه وتعالى على عباده ، من جنٍّ وإنس ، ابتداء من خلقهم ، وعلى امتداد مسيرتهم فى الحياة الدنيا ، وتقلبهم فى شئونها ، إلى موتهم ، وبعثهم ، وحسابهم ، وإنزالهم منازلهم — حسب أعمالهم — فى الجنّة أو النار . .

وقد تضمنت السورة — سورة « الرحمن » — عرضًا مبسوطًا ، مفصّلا لنعيم الجنّة ، ومنازل أهلها من هذا النعيم ، حسب أعمالهم كذلك — فجاءت سورة الواقعة ، مبتدئة بالكشف عن وجه يوم الجزاء ، وأنه واقع لا شك فيه . . ثم جاءت بعد هذا لتؤكّد ما تقرر فى سورة « الرحمن » من اختلاف أحوال الناس ، فى هذا اليوم ، وتباين درجاتهم . . فى الجنة ، ودركاتهم فى النار .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٢٦)

* إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ

ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَابُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٩) وَٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) »

التفسير

قوله تعالى :

* « إذا وقعت الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة »

جملة شرطية وجوابها ..

ووقوع الواقعة ، مجيئها ، وحدوثها ، والواقعة ، القيامة ، وسميت وسميت واقعة لأنها تقع فجأة على غير انتظار .. وكلّ شىء يحمل نذر الشرّ يعبّر عن مجيئه بالوقوع ، كأنه يسقط على الناس من فوق ، فلا يملكون له دفعا ، كقوله تعالى : « ووقع القول عليهم بما ظلموا » (٨٥ : النمل) وقوله سبحانه : « ولمّا وقع عليهم الرجز » (١٣٤ : الأعراف) وقوله جل شأنه : « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابّة من الأرض تكلّمهم » (٨٢ : النمل) . .

ووقوع يوم القيامة إيذان بدخول الناس فى تجربة قاسية . وفى امتحان

عسر . . كما يقول سبحانه : « إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شيء عظيم * يوم تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وتَرَى الناسَ سُكَارَى وماهم بِسُكارى ولكن عذاب الله شديدٌ » (٢ : الحج) .

وقوله تعالى : « ليس لوقعتها كاذبةٌ » — هو جواب الشرط : « إذا وقعت الواقعة » أى أنه إذا وقعت الواقعة ، فليس هناك من يكذِّب بها من هؤلاء الذين كانوا ينكرون البعث والقيامة ويكذبون مَن يحدثهم عنه ، لأنهم يكونون حينئذٍ أمام واقع مشهود ، لا سبيل إلى إنكاره والمكابرة فيه ..

قوله تعالى :

* « خافضة رافعة » ..أى هى خافضة ورافعة لأقدار الناس ومنازلهم ، حيث ينزل كل إنسان منزله فى هذا اليوم .. فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير .

قوله تعالى :

* « إذا رُجَّت الأرضُ رجًّا * وبُسَّتِ الجبال بسًّا * فكانت هباءً منبثًّا * وكنتم أزواجاً ثلاثة » .

هذه الآيات ، هى بيان لما يقع فى هذا اليوم من أحداث ، وكأنها جواب عن سؤال هو : متى تقع الواقعة ؟ فجاء الجواب لا لبيان وقتها ، وإنما لبيان الأهوال التى تطلع على الناس منها ، فذلك هو المهمّ فى هذا الأمر ، وهو الذى ينبغى الالتفات إليه ، والإعداد له ، والعمل على النجاة منه . . أما الوقت الذى تقع فيه الواقعة ، فليس بالأمر المهمّ ، بعد أن تأكد أن وقوعها آتٍ لا شكّ فيه . وإنما المهم هو الاستعداد للقاء هذا اليوم ، الذى لا مفر منه .

فى هذا اليوم ترجُّ الأرض رجًّا ، أى تضطرب اضطراباً شديداً لما يجرى عليها من أحداث ، حيث تندكُّ الجبال ، وتخر متداعية ، متناثرة ، فلا يبقى

منها حجر على حجر ، بل إن هذه الأحجار تتحول إلى ذرات تذروها الرياح كأنها العهن المنفوش .

فقوله تعالى : « وبُسَّت الجبال بسًّا » أى طحنت طحناً .

وقوله تعالى « فكانت هباءً منبثًّا » أى صارت ذراتٍ منتثرة فى الفضاء ، كالغبار المتطاير مع الرياح . .

هذا ، وقد قلنا فى أكثر من موضع إن هذا التبدل الذى يبدو من عوالم الوجود وكائناته ، إنما هو لتبدّل موقف الإنسان من هذه العوالم ، ولما تَحدُث من اختلاف بعيد بين مُعطيات جوارحه فى الدنيا ، ومعطياتها فى الآخرة ، حيث تنكشف له حقائق الموجودات .. إنّ الإنسان فى هذه الدنيا يرى من الأمور ظواهرها ، وظلالها ، ولكنه فى الآخرة يرى صميمها وحقيقتها . .

فَرَجُّ الأرض رجًّا ، هو ما تراه العين يوم القيامة ، من وضع الأرض ، حيث تبدو على حقيقتها ، كرةً معلقة فى الفضاء ، تجرى فى سرعة عظيمة ، أشبه « بالبالونة » بين يدى الريح .

وبثّ الجبال بثًّا ، حتى تكون كالهباء المنبث ، المنتشر ، هو ما تراه العين من الجبال . على مدًى بعيد منها ، حيث تبدو الجبال ، وكأنها فى صغرها الهباء المبثوث .

وقوله تعالى : « وكنتم أزواجاً ثلاثة » إشارة إلى ما يكون عليه الناس يومئذ ، وهو أنهم يتناثرون ، ويتفرقون فرقاً ثلاثاً ، كل فرقة تجتمع إلى بعضها أزواجا ، جنٌّ وإنسٌ ، أو ذكر وأنثى .

قوله تعالى :

* « فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة * والسابقون السابقون » .

هو بيان للأزواج الثلاثة التي يضمها الحشر يومئذ من عالمى الجن والإنس ، أو من ذكور الناس وإناثهم .

فأصحاب اليمين فى جانب ، وأصحاب الشمال فى جانب ، والسابقون فى مكان فوق هؤلاء وأولئك جميعاً .

وفى قوله تعالى : « ما أصحاب الميمنة » .. استفهام يراد به إلفات الأبصار إلى أصحاب الميمنة ، والإشارة إلى مكانهم الذى ينعمون هم فيه ،وما يظلهم هناك من أمن وسكينة .

وفى قوله تعالى : « ما أصحاب المشئمة » — استفهام يراد به كذلك إلفات الأبصار إلى أصحاب المشئمة ، والإشارة إلى مكان هؤلاء المناكيد ، وما يغشاهم فيه من همّ وبلاء .

والميمنة ، من اليُمْن ، والبركة ..

والمشئمة ، من الشؤم ، وسوء الحال .

والسابقون ، هم أهل السابقة إلى الإيمان فى كل أمة ، ممن سبقوا إلى الإيمان بالله ، والاستجابة لرسل الله .. فهؤلاء فى مكان مكين عند الله ، لا يكاد يلحقهم فيه أحد ممن يجىء بعدهم ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلاًّ وعد الله الحسنى » ! (١٠ : الحديد)

وفى تكرار السابقين فى قوله تعالى : « والسابقون السابقون » . إشارة إلى هذا المقام المكين الذى لهم عند ربهم ، وأنهم فى هذا المقام ، لا يتحولون عنه ، وهو مقام السبق أبداً .

فالسابقون الأولى مبتدأ ، والسابقون الثانية خبر ، أى السابقون هم السابقون دائماً أبداً .

وفى تعريف طرفى الجملة — المبتدأ والخبر — مايفيد القصر .. أى قصر السبق عليهم وحدهم ، وأنهم كما سبقوا إلى الإيمان بالله فى الدنيا ، سبقوا إلى الله سبحانه فى الآخرة ، وكانوا أول من ينزل ساحة فضله ورضوانه .

قوله تعالى :

* « أولئك المقربون »

إشارة إلى هؤلاء السابقين ، وإلى هذا المقام الكريم الذى أحلهم الله سبحانه وتعالى فيه يوم القيامة ، وأنهم هم أهل القرب من الله سبحانه .

وقوله تعالى :

* « فى جنات النعيم * ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين * على سرر موضونة * متكئين عليها متقابلين »

هو بيان للحال التى يكون عليها هؤلاء السابقون المقربون .. فهم فى جنات النعيم ، على سرر « موضونة » أى مطرزة ، ومكللة .

وهم على هذه السرر فى حال من الطمأنينة ، والأمن ، والرضوان ، حيث يتكئون على هذه والسُّرُر اتكاء استرواح واسترخاء ، يقابل بعضهم بعضاً ، وينظر بعضهم إلى بعض ، فيرى كل منهم فى وجه أصحابه نضرة النعيم ، فيزداد نعيما ورضوانا ، بهذا النعيم ، وذلك الرضوان ، الذى يراه وقد فاض على كل من حوله .

وقوله تعالى : « ثلة من الأوّلين * وقليل من الآخرين » ـ إشارة إلى أن أهل السبق هؤلاء ، الذين ينعمون بهذا النعيم ، هم « ثلة من الأولين » .. والثلة : الجماعة الكثيرة من الناس ، وهم أولئك الذين سبقوا إلى الإيمان من كل أمة ، فكانوا بهذا أشبه بالأعلام المنصوبة ، يقتدى الناس بهم ، ويأخذون

طريقهم .. فهم الذين ارتادوا لأقوامهم الطريق إلى الإيمان ، واحتملوا مع الرسل سَفَه السفهاء ، وجهل الجاهلين من أقوامهم . . فكان لهم بهذا فضل لا يشاركهم فيه . إلا أفراد قليلون ممن جاءوا بعدهم .. ولهذا جاء قوله تعالى : « وقليل من الآخرين » ـ مبينا أن من يلحق بهم من بعدهم هم قلة بالنسبة إليهم . . إذ كان ذلك المقام لا يُنال إلا فى صحبة الرسل . أو من تبلُغ به تقواه ، ومجاهدته أن يكون مجدّداً لدعوة الرسول ، متابعا لشريعته ، خطوة خطوة ..

قوله تعالى :

* « يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريقَ وكأس من معين »

أى يمر عليهم ، وهم فى متكئهم هذا ـ « ولدان » ، أى غلمان « مخلدون » أى خالدون فى هذا الشباب الدائم ، الذى لا يتحول أبدا . . فهم مخلدون فى حالهم تلك ، كما يخلد أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار . . أو أنهم مخلدون ، أى تزين آذانهم بقروط من كريم المعادن ، ونفيس الجواهر .

والأكواب : جمع كوب ، وهو ما كان من الآنية بغير عُروة .

والأباريق : جمع إبريق ، وهو ما كان ذا عروة يُمسك به منها .

والكأس : الإناء الذى يُشرب فيه الخمر ، ولا يسمى كأسا إلا إذا كان فيه الشراب . .

والمعنى أن هؤلاء الولدان المخلدين الذين يلبسون ثوب الصبا أبدا ، والذين تُزين آذانهم بالقروط ، دلالا وتنعما ـ يطوفون على هؤلاء المقربين بأكواب ، وأباريق ، وكئوس من معين ، أى من عيون جارية من الخمر . .

وفى جمع الأكواب ، والأباريق ، وإفراد الكئوس ـ إشارة إلى أن الأكواب والأباريق ، هى التى تحمل الشراب لأهل المجلس ، فإذا انتهى الولدان

إليهم ملئوا لكل كأسه الذى يشرب منه ، ولم يجيئوا إليهم بها مملوءة جميعها مرة واحدة .. ومثل هذا قوله تعالى : « ويُسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا » (١٧ : الإنسان) وقوله سبحانه : « يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم » (٢٣ : الطور) .

قوله تعالى :

* « لايُصدَّعون عنها ولايُنزِفون »

أى لا يصيبهم من شرب هذه الخمر ما يصيب شاربى خمر الدنيا من صداع ، إذا جاوز الشارب قدْراً معيناً منها . . فهذه الخمر التى تقدّم لهؤلاء السابقين المقربين، لايصيبهم منها هذا الصداع مهما شربوا منها ، ومهما علُّوا ونهلوا .

وقد ضُمِّن « يُصدَّعون » معنى الفعل « يصْرفون » من غير أن يزايله المعنى الأصلى الذى له ، وهو الصداع . . والمعنى أنهم لايصرفون عن هذه الخمر بسبب صداع يصيبهم منها .. وهذا إعجاز من إعجاز النظم القرآنى .

وقوله تعالى : « ولا يُنزِفون » أى لا يستهلكون لذتهم فيها بشرب ما يشربون منها ، كما يحدث ذلك لشارب خمر الدنيا .. حيث تذهب لذة مدمنها بعد قدر محدود منها ، بل إن لذتهم باقية أبداً ، وإن ظلوا فى شرب دائم لا ينقطع . وهذا هو بعض الفرق بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة. فإن نعيم الدنيا ــ أو ما يسمى نعيما ــ إذا ناله المرء وأخذ منه حاجته ، زهد فيه ، وأصبح أىُّ قدر يناله منه بعد هذا ، مبعثاً للألم ، بل وضرباً من العذاب .. أما نعيم الجنة ، فإن لذته لاتنفد أبداً ، ولا تنقطع شهوة المتصل به على امتداد الأزمان والآباد .. بل إنه كلما ازداد تناولا للشىء تجددت له لذات جديدة معه ..

قوله تعالى :

* « وفاكهة مما يتخيرون » ..

أى ويطوف عليهم الولدان المخلدون كذلك بفاكهة كثيرة مختلفة، يتخيرون منها ما يشاءون ..

قوله تعالى :

* « ولحم طير مما يشتهون » ..

أى ويطوف عليهم الولدان بأنواع من لحوم الطير ، مما تشتهيه أنفسهم وتطلبه ..

قوله تعالى :

* « وحور عين * كأمثال اللؤلؤ المكنون » ..

أى وتُقبل عليهم، وتدعوهم إليهن « حور عين » ..

والحور جمع حوراء ، وهى التى فى عينيها حور ، وهو سواد فى جفن العين يزيدها جمالاً وفتنة ..

والعِين : جمع عيناء ، وهى واسعة العينين ، فى جمال باهر ، وسحر آسر ..

وقوله تعالى : « كأمثال اللؤلؤ المكنون » .. أى متشابهات فى حسنهن ، وكمالهن ، حتى لكأنهن حبات اللؤلؤ المصون ، الذى لم يتغير لونه بالتعرض للشمس أو الهواء ..

قوله تعالى :

* « جزاء بما كانوا يعملون » ..

أى أن كل هذا النعيم الذى يساق إلى هؤلاء المقربين ، إنما هو جزاء لما كانوا يعملون فى دنياهم من أعمال قائمة على ميزان الحق ، والعدل ، والإحسان ..

قوله تعالى :

* « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً * إلا قيلاً سلاماً سلاما » ..

أى وفى هذا المجلس الكريم ، الذى يضم أهلَ السبق والإحسان،والذى لا ينظرون فيه إلا وجوهاً مشرقة بنضرة النعيم ، ولا يَرِدُ عليهم فيها إلا ولدان مخلدون يقومون على خدمتهم ، وإلا حور عين مهيئين لهم ـ فى هذا المجلس الكريم ، لا يسمع أهله لاغية ، ولا سخفا من لغو القول وهزله ، وإنما يسمعون قولاً كريماً ، هو « سلام » ، سلام ، من ربهم ، أو من الملائكة الذين « يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم » أو مما يَلْقَى به بعضهم بعضاً من تحية كلها سلام فى سلام ..

فالاستثناء فى قوله تعالى : « إلاّ قيلا سلاماً سلاماً » ـ هو استثناء منقطع .. أو هو استثناء متصل يحمل معنى بلاغياً ، هو تأكيد المدح بما يشبه الذم .. أى أنه إذا كان هناك من لغو أو تأثيم يسمعه أهل هذا المجلس الكريم ، فهو هذا القول الذى يقال لهم فى هذا المقام ، وهو : سلام ، سلام .. فإذا كان هذا هو اللغو والتأثيم ، فكيف بما لا لغو فيه ولا تأثيم ؟ وهذا غاية فى تنزيه مجلسهم ، وحفظ أسماعهم من أن يطوف بها شىء من اللغو أبداً ..

الآيات : (٢٧ — ٤٠)

* « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠)

التفسير :

فى هذه الآيات عرض لحال الفريق الثانى ، من أهل المحشر ، وهم أصحاب اليمين ، الذين ينزلون الدرجة الثانية من الجنة ، بعد أن ظفر السابقون بالمنزلة الأولى منها ..

وسُمّوا أصحابَ اليمين ، لأنهم أوتوا كتبهم بأيمانهم ، وكان هذا من أول البشريات لهم فى الآخرة ، كما يقول سبحانه : « فأما من أوتى كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حسابا يسيراً * وينقلب إلى أهله مسروراً » (٧ ـ ٩ : الانشقاق) ..

فهؤلاء ، يحاسبون حسابا يسيراً .. أما السابقون المقربون ، فيدخلون الجنة بغير حساب .. ومن هنا كان هذا التفاوت بين الفريقين فى منازلهم من الجنة ..

وهؤلاء ـ أى أصحاب اليمين ـ « فى سدر مخضود » .. والسدر ، هو شجر النبق ، والمخضود الذى لاشوك فيه .. « وطلح منضود » .. والطلح ، هو الموز ، والمنضود : المنتظم فى حبات ، أشبه بالعقود .. « وماء مسكوب » أى ماء يجرى بلا حواجز ولا أودية ، بل يسيح متحرراً من كل قيد..ومن هذا المعنى سميت بعض الخيل باسم : « سَـكابِ »..« وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة » أى أنهم يجدون بين أيديهم فاكهة كثيرة ، لاتنقطع فى أى زمن ، ولا تمنع عنهم عند أى طلب واستدعاء .. « وفرش مرفوعة » أى عالية ..

قوله تعالى :

* « إنا أنشأناهن إنشاء * فجعلناهن أبـكاراً * عُرُباً أتراباً * لأصحاب اليمين » ..

أى ومما يجده أهل اليمين بين أيديهم ـ هؤلاء الحوريات ، اللائى أنشأهن الله إنشاء ، من غير ولادة ، فجعلهن أبكاراً ، لا يلدن ، ولا يَحِضْنَ ، حتى لكأنهن فتيات لم يبلغن مبلغ النساء ، وإن كن ناضجات ، مكتملات الخلْق . .

وقوله تعالى : « عرباً » أى راغبات فى أزواجهن ، محببات إليهن . . وفى هذا احتراز من أن يقع فى التصور أنهن صغيرات ، غير ناضجات لا يستجبن للرجال ، مما يمكن أن يوحى به قوله تعالى : « فجعلنا هن أبكاراً » . .والعرب : جمع عروب . .

وقوله تعالى : « أتراباً » — جمع تِرْب — وهن المتماثلات حسناً ، وجمالا ، وشباباً . .

وقوله تعالى : « لأصحاب اليمين » متعلق بقوله تعالى : إنا أنشأناهن إنشاء . . الآيات » أى أنشأناهن على تلك الصفة لأصحاب اليمين ، ينعمون بهن ، ويأنسون إليهن ..

والضمير فى قوله تعالى : أنشأناهن » يعود إلى ملحظ مفهوم من قوله تعالى : « وفرش مرفوعة » — حيث أنه مما يكمل به نعيم هذه الفرش المرفوعة أن يكون فيها ما يرضى حاجة الرجال من النساء . . فهذه الفرش المرفوعة ، ليست فُرشاً خالية موحشة ، وإنما هى مأنوسة بالنساء . . أما هؤلاء النساء فقد أنشأهن الله إنشاء من غير ولادة ، فجعلهن أبكاراً ، عرباً أتراباً . .

* وقوله تعالى : « ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين » ..

أى أن أصحاب اليمين هؤلاء ، هم جماعة من الأولين ، وجماعة من الآخرين .. وهذا يعنى أنه ليس كل الأولين الذى آمنوا بالرسل ، وشهدوا

الحيـاة معهم ، على سواء فى منزلتهم . . بل منهم السابقون ، ومنهم أصحاب اليمين .

هذا ، ويلاحظ أن هذه الجنة ، ليست على تلك الصفة التى عليها جنة السابقين ، فهناك ، سرر موضونة ، مطرزة ، وهنا فرش مرفوعة ..

وهناك اتـكاء واسترخاء على هذه السرر من غـير تـكلف وطلب ، وهنا لا اتـكاء ولا استرخاء على تلك الفرش وإن كان اتـكاء واسترخاء فهو بطلب واستدعاء ..

وهناك ، ولدان مخلدون يطوفون على أهل المجلس بأكواب وأباريق وكأس من معين . .

وهنا ماء مسكوب !

وهناك خمر تدار فى كئوس ، لا يصدع شاربوها ، ولا تنفد لذتهم منها .. وهنا .. لا أكواب ولا أباريق ، ولا كئوس ، ولا خمر ! وإن كان ذلك كله يجىء عند طلبه ، واستدعائه ..

وهناك فاكهة عتيدة حاضرة يتخيرون منها ما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون . .

وهنا سدر مخضود ، وطلح منضود ، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفتيات أبكار ، عرب أتراب ! .

ويسأل سائل : أهذه جنة ينعم فيها أهلها ؟ وكيف يحجز عن أصحاب الجنـة شىء من النعيم . ثم تـكون مع هذا دارَ نعيم ، ولم تسد فيهـا مطالب النفس ؟ .

والجواب على هذا ما أشرنا إليه من قبل فى سورة « الرحمن » ونقول هنا ، إن كلا من أهل النعيم وأهــل الجحيم ، ينزل منزله من النعيم أو الجحيم ..

وأنه كما انقسم أهل النعيم إلى فريقين .. هما السابقون ، وأصحاب اليمين ، كذلك ينقسم أصحاب الجحيم إلى منازل ، وكل منزلة إلى فرق ..

ولا شك أن فى كل منزل من منازل النعيم ألوانا ، وصوراً من النعيم ليست فى غيره ، وأن أهل كل منزلة لهم نعيمهم ، كما أن لـكل واحد فى كل منزل له نعيمه ، دون أن يشعر أىٌّ من أصحاب النعيم فى أية منزلة ينزلها أنه فى حاجة إلى نعيم فوق النعيم الذى هو فيه ، إذ كانت طاقته لِتَقَبّل النعيم ، مقدورة بقدر منزلته عند الله ..

فالسابقون مثلا ، قد جعل الله لهم من الطاقات على تقبّل ألوانٍ وصور من النعيم ليست لغيرهم من أهل الجنة .. كما أن هؤلاء السابقين ليسوا على درجة واحدة فى تقبّلهم لصور هذا النعيم وألوانه ..

ولنضرب لهذا مثلا من الحياة الدنيا ..

هناك مائدة حافلة بألوان الطعام ، قد حُشد فيها كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وقد دعى إليها عشرات من الناس ، يتناولون منها ما يشاءون .. هنا تختلف أحوالهم على هذه المائدة ، فمن بين هؤلاء من فُتحت شهيته لـكل ما على المائدة ، من ألوان الطعام ، يظل يغدو ويروح ، بين قديد وشواء، وحامض وحلو ، لا يرفع يده عن طعام إلا ليمدها إلى طعام .. وهكذا يظل فى خَضم وقضم ساعات وساعات .. هذا على حين أن هناك كثيرين

منهم من يجتزىء من هذه المائدة بلقمة هنا ، ولقمة هناك ، ثم إذا به وقد رفع يده عن كل ما على المائدة ، وقَطَع شهوته عن كل ما يشتهى منها . .

وكلا الرجلين ، قد أخذ حاجته ، واستوفى حظه ، ولم يبق له شىء يطلبه من هذه المائدة .. ومع هذا ، فإن استمتاع الأول بهـذا الطعام هو أضعاف لذة صاحبه ، حجماً ، وعمقـاً . . دون أن يشعر أىٌّ منهما أنه فى حاجة إلى مزيد ! .

هذا ، فى لذات الدنيا ، ونعيمها ، وهى — كما قلنا — لذات تنقطع عند أخذ المرء حاجته منها ، ثم تتحول إلى آلام إذا هو جاوز بها هذا الحد .. أما لذات النعيم فى الآخرة ، فهى لذات لا تنقطـع أبداً ، ولا يملها المتصل بها مادام آخذا منها . . ولـكن كلٌّ يأخذ بقدر ما تتسع له طاقته التى تتناسب مع منزلته . .

وعلى هذا ، فإن أهل الجنة جميعاً فى نعيم مقيم ، وفى لذة دائمة مع هذا النعيم .. ولـكن كلٌّ له من النعيم ما يشتهيه ، وله من الاشتهاء ما يناسبه ..! فهم فى جنة واحدة ، ولـكل منهم فى هذه الجنة جنته ، وما يشتهيه .. أشبه شىء بما فى الغابة من مختلف الأحياء التى تعيش فيها .. بعضها يأكل من ورقها ، وبعضها يأكل من ثمرها ، وبعضها يقتات من أعشابها . . وبعضها يتنقل بين أفنانها ، وبعضها يأوى إلى أجحارها .. وكلها هانىء بحياته ، سعيد بعيشه مع الطبيعة التى لبسته ..

وكذلك الشأن فى أصحاب النار . . تتسـع آلامهم وتضيق ، كل حسب طبيعته التى يكون عليها ، والتى هى صورة من عمله ! .

الآيات : (٤١ — ٥٦)

* « وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِن يَحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) »

التفسير :

قوله تعالى « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال »

فى هذه الآيات بيان لحال أصحاب المشئمة ، وهم الزوج الثالث من أزواج الناس يوم القيامة ..

وأصحاب الشمال — هؤلاء — هم الذين أوتوا كتبهم بشمائلهم ، إذ كانت هذه الكتب تحمل إليهم الشؤم ، وسوء المصير ، فلا يجدون لأيمانهم التى اعتادوا أن يأخذوا ويعطوا بها ، محلا للعمل هنا ، وتناول هذا المكروه بها .. !

أما منزلهم الذى ينزلونه ـ عافانا الله منه ـ فهو هذا المنزل الجهنمىّ ، الذى يساق إليهم فيه العذاب ألوانا وطعوما ، كما يساق النعيم إلى أصحاب الجنة ألوانا وطعومًا . .

إنهم « فى سموم » أى فى هَبوب ملتهب ، ترمى به النار إليهم ، وتلفح به وجوههم وأبدانهم ، وفى « حميم » ـ وهو مايسيل من عَرَقهم وصديدهم ، فيجرى من تحتهم ، كما تجرى الأنهار تحت أصحاب الجنة . .

وهم فى « ظلٍّ من يحموم * لابارد ولا كريم » أى هم يدخلون تحت ظلّ من سحاب هذا السموم ، الذى ينعقد فوق رءوسهم . . وأنه إذا كان ظلّ أهل الجنة باردًا كريمًا ، لطيفًا . . فإن هذا الظلّ ليس باردًا ، ولا كريمًا ، وإنما هو لهيب يشوى الوجوه، ويَهْرأُ الأجسام .

أما الذى أنزلهم هذا المنزل المشئوم ، وألقى بهم فى هذا البلاء العظيم ، فهو ضلالهم عن الحق ، وبُعدُهم عن الله ، وكفرهم بلقائه ، وتكذيبهم رسُلَه . .

* « إنهم كانوا قبل ذلك مُترَفين » أى منعَّمين فى دنياهم ، مما أفاض الله سبحانه وتعالى عليهم من نِعم ، وكان من حق هذه النعم أن تفتح لهم طريقا إلى الله ، فيحمدوا له ويشكروه ، ولكنهم بطروا ، وأشِرُوا واستكبروا فى الأرض ، وعتوْا عن أمر ربهم ، وصدّوا عن سبيله .

• « وكانوا يُصرُّون على الحِنث العظيم »

الحِنْثُ العظيم : الذنب الكبير ، أو اليمين الفاجرة .

أى أنهم كانوا مصرين ومقيمين على مايأتون من كبائر الإثم والفواحش ، فلا يراجعون أنفسهم ، ولا ينظرون إلى مايفيض بين أيديهم من منكرات وآثام .

أو أنهم كانوا مقيمين على معتقدهم الفاسد فى إنكار البعث ، وتوكيد هذا الإنكار بالحلف عليه ، كما يقول سبحانه وتعالى عنهم : « وأقسموا بالله جهْدَ أيْمانهم لا يبعث الله من يموت » (٣٨ : النحل)

* « وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أئنا لمبعوثون » .

أى كانوا ينكرون البعث بهذا الأسلوب الإنكارى الساخر . . فيلْقَى بعضهم بهذا الاستفهامِ المنكِرِ المستهزىء . . « أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟ »

أيصدق هذا ؟ ذلك محال !

* « أو آباؤنا الأولون ؟ »

وإذا صح جدلا – أن نبعث نحن بعد الموت ، لقرب عهدنا ، ولأن الأرض تحتفظ ببقية منا ـ فهل يُبعث آباؤنا الأولون الذين لا أثر لهم ، حتى إن عظامهم قد أبلاها البلى وأكلها التراب ؟ ذلك بعيد بعيد !

* « قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم »

هذا هو الجواب الذى يلقَى تساؤلاتِهم المنكرة تلك : « إن الأولين والآخرين ، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم » . .

وقد جاء الخبر مؤكداً ، بمؤكدين . . « إنّ » و « لام » الابتداء فى قوله تعالى « لمجموعون » .

فآباؤهم الأولون ، وآباؤهم الآخرون ، هم معهم ، سيجمعون جميعاً فى مكان معلوم ، وفى يوم معلوم . .

وقد ضُمِّن اسم المفعول « مجموعون » معنى السوق، الذى يدل على الدفع ، والقهر ، وذلك دون أن يتخلى عن معناه الأصلى ، وهو « الجمع » .. فهم

مَسُوقون جميعاً ، ومجتمعون جميعاً .. فى مكان واحد ، دون أن يشذّ ، أو يَحْزِن أحد منهم ..

* — « ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون من شجر من زقوم * فمالئون منها البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم » .

هو التفات إلى هؤلاء المكذبين الضالين ، وهم فى موقف التكذيب والضلال — التفات إليهم ، ومواجهة لهم بكل مايسوؤهم ، ويُلبسهم الشقاء الأبدى . .

« إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون من شجر من زقوم » .. وهو شجر ينبت فى أصل الجحيم ، طلعه كأنه رءوس الشياطين ، كما يقول الله تعالى فى وصف هذه الشجرة : « إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعُها كأنه رءوس الشياطين » . (٦٥ : الصافات)

والشياطين خلْق نارىّ ، جهنمى ، وأبشع مافى الشياطين رءوسها تلك النارية الجهنمية ، التى يرى الرائى منها كل مافى الشيطان من هذه الصورة المنكرة التى هى له .

وإن هذه الرءوس ، النارية الجهنمية ، أومايشبهها ، هى قطوف هذا الشجر الذى يطعم هؤلاء المكذبون الضالون ، من ثمره ! إن لهم مايتفكهون به فى دارهم تلك ، كما أن لأصحاب الجنة — مايتفكهون به من ثمار الجنة !

وإنهم ليأكلون من هذا الثمر الزقّومى حتى تمتلىء بطونهم — كُرها ورغماً — إذ لابد للبطون أن تمتلىء وتشبع !

وفى عود الضمير مؤنثا على الشجر ، مع أنه مذكر لفظا ، إشارة إلى أنه أشبه بشجرة واحدة فى طبيعتها ، وفى شؤم الثمر الذى يخرج منها .. فكأنهم يأكلون جميعاً من شجرة واحدة . .

* « فشاربون عليه من الحميم » ..

ومع كل طعام شراب !! وشراب هذا الطعام الجهنمى ، جهنمى مثله ، هو هذا الحميم ، وهو القيح والصديد الذى يسيل من أجسامهم التى تُشْوَى فى نار جهنم ، فيسيل منها هذا السائل فائراً يغلى .

فالضمير فى « عليه » يعود إلى هذا الطعام ، أو هذا الأكل ، الذى دلّ عليه قوله تعالى : « لآكلون » .

* « فشاربون شربَ الهيم » .

أى إن هذا الشراب الجهنمى ، يُقبل عليه الذين أكلوا من هـذا الطعام الزقومى ، يقبلون عليه فى سُعار مجنون ، أشبه بالإبل الهِيم ، أى أى العِطاش ، التى حبست عن الماء أياماً ، فإذا وردت عليه عَبّت منه فى نَهَم شديد ، لتنقع غُلّتها ، وترُوى ظمأها ..

وفى إقبال أهل هذا الطعام على هذا الشراب — إشارة إلى أن مافى بطونهم من لهيب ، أشد من هذا الحميم ، فهم يستشفون من داء بداء ، ويستجيرون من بلاء ببلاء ، ويطفئون النار بالنار ! .

* « هذا نُزُلهم يومَ الدين » ..

أى هذا هو المنزل الذى ينزله يوم القيامة هؤلاء المكذبون الضالون ، أصحاب الشِّمال ، وهـذا ما يطعمون وما يشربون من ، طعام وشراب ، فى هذا المنزل ..

وفى العدول عن خطابهم إلى ضمير الغائب — إشارة إلى أنهم فى حال من الهول ، والبلاء ، لا يعقلون معها حديثاً ، ولا يسمعون قولا .. فكان

أن اتجه الحديثُ إلى من يشهدون هـذا المشهد ، ليـكون لهم فيـه عبرة ومزدَجر . .

الآيات : (٥٧ — ٧٤)

* « نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) »

التفسير :

قوله تعالى : « نحن خلقناكم . . . . . . »

فى هـذه الآيات عرض كاشف لقدرة الله سبحانه وتعالى ، وقيّومة

سلطانه على كل شىء فى هـذا الوجود . . وغاية هذا العرض ، هو إقامة الأدلة ، ونصب البراهين بين يدى هؤلاء المنكرين البعث ، على أن هذا البعث الذى ينكره المنكرون ، ويستبعدون وقوعه ،هو أمر داخل فى دائرة الأحداث التى تقع فى محيطهم . . فليست الحياة بعد الموت؛ إلاّ إعادة لبناء هذا الكيان الذى تهدم ، وإقامته من جديد على الصورة التى كان عليها ، وأنه إذا كان مما يمكن أن ينكر أو يستبعد هو الإيجاد ابتداء ، فإن إنكار إعادة الموجود لا يكون إلا من مكابرة وعناد ، أو جهل وضلال ..

وقوله تعالى : « نحن خلقناكم فلولا تصدقون » — هو إعلان بهذا الخبر ، وتقرير له ، وإرساله هكذا قضيةً مسلمة ، من غير مقدمات : « نحن خلقناكم » .. فهذه قضية لا تحتاج إلى برهان ، وحكم لا يقبل جدلا .. فليس هناك من مخلوق ينكر هذه الحقيقة أو يجادل فيها . . إنه لم يَخْلُقْ نفسَه . . وإذن فلا بد له من خالق خلقه .. وهذا الخالق يناديه ، ويُلقِى إلى سمعه : أنه هو الذى خلقه .. فإن أنكر هذا الخالق ، فليبحث عن الخالق الذى خلقه ، إذ كان لابد من خالق . . وهذا الخالق لا بد أن يكون واحداً يبسط سلطانه على هذا الوجود كله ، وعلى الموجودات جميعها .. وذلك هو الله رب العالمين . .

وقوله تعالى : « فلولا تصدقون » .. هو تعقيب على هذا الخبر ، أو الحكم .. « نحن خلقناكم » .. أفلا تصدقون هذا الخبر ؟ أوَلا تقبلون هذا الحكم ؟ إنه خير لكم أن تصدقوا هذا الخبر ، وتقيموا وجودكم على الإيمان به ! . .

فإذا صدّقتم هذا ، أفلا تصدقون أننا قادرون على إعادتكم بعد موتكم ؟ « أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم » (٨١ : يس) ..

ولو ، هنا ، بمعنى « هلاَّ » للحثّ ، والحضّ على التصديق .

قوله تعالى :

*« أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » ؟

هو حيثيّات تُقام لهذا الحكم ، وبراهين تقدم لهذا الخبر .. وقُدِّم الحكم فى هذه القضية ـ قضية إضافة الخلق إلى الله سبحانه وتعالى — قدم على حيثياته ، وأدلته ، لأنه — كما قلنا — أمر ظاهر ، مستغن عن كل برهان يقوم بين يديه ، ولأن كثيراً من العقول تتقبله هكذا من غير برهان ، لأنه أمر بَدَهىّ ، ومن الإزراء بالعقل تقديم البدهيات له ، فى صورة المعضلات التى تحتاج إلى أدلة وبراهين ..

أما هذه البراهين التى تقدم بعد النطق بهذا الحكم ، فهى منصوبة لمن أعماهم الضلال ، فلم يروْا ما بين أيديهم فى وجه الصبح المشرق ، فكانت هذه البراهين أشبه بأيدٍ تمتد إلى هؤلاء العُمْى لتقودهم إلى مرفأ الأمن والسلامة .. ومع هذا فإن كثيراً من هؤلاء العمى ، يمنعهم العناد والكبر عن أن يمدوا أيديهم إلى تلك الأيدى الممدودة لهم ، ويؤثرون أن يتخبطوا فى مسيرتهم ، وأن يتردّوْا فى مهاوِى الهلاك ، على أن يستجيبوا لهادٍ يهديهم ، أو منقذ ينقذهم ..

والمنىّ ، هو النطفة التى يتخلق منها الكائن الحى ، وإن هذه النطفة لا تكون بذرة صالحة ليتخلق منها الجنين ، حتى تنضج فى صلب الرجل ، ثم تتحرك فيه إلى حيث يلقى بها فى رحم المرأة .. أما قبل هذا النضج ، فلا

تكون صالحة لأن يتخلق منها الكائن الحى . . بمعنى أنه لو انتزعت هذه النطفة انتزاعاً من صلب الرجل ، ثم نقلت إلى رحم المرأة ، كانت أشبه بحبة غير ناضجة ألقى بها فى الأرض ، فلا يكون منها أن تنبت نباتاً أو تطلع زهراً أو ثمراً ..

وهذا هو السرّ فى التعبير القرآنى بلفظ « تمنون » الذى يدل على تلك العملية الطبيعية التى يقذف بها المنىّ فى رحم المرأة ، عند التقاء الرجل والمرأة .. ومثل هذا ما جاء فى قوله تعالى : « ألم يك نطفة من منى يمنى » (٣٧ : القيامة)

فهو ليس مجرد منىّ ، ولكنه منىّ يمنى ، أى يقذف به فى حال نضجه ، من صلب الرجل ، إلى رحم المرأة ..

فهذا المنىّ ، الذى لايعدو أن يكون نطفة من ماء — مَن يخلق منه هذا الكائن الحىّ ، أو من يقيم منه هذا الإنسان السميع البصير ؟

قوله تعالى :

* « نحن قدّرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين »

أى وكما خلقناكم ابتداء ، من هذه النطف ، وشكلنا صوركم ، من هذا المنىّ — نحن الذين قدرنا بينكم الموت ، وحددنا لكل منكم الأجل الذى له فى هذه الدنيا . . فإلينا وحدنا تقدير أعماركم ، وموتكم . . لم يسبقنا إلى ذلك سابق ، ولم يشاركنا فى هذا شريك . .

قوله تعالى :

* « على أن نبدّل أمثالكم وننشئكم فى ما لاتعلمون »

هو متعلق بمحذوف ، يفهم من قوله تعالى : « وما نحن بمسبوقين » أى أننا إذا كنا لم نُسبق فى هذا الخلق الذى خلقناكم عليه ، ولم نُسبق فى تقدير للموت الذى قدرنا * عليكم ، وجعلناه حكماً واقعاً على كل حىّ - إذا كان

هذا شأننا فيكم ، أفلسنا بقادرين « على أن نبدّل أمثالكم » ونغير صوركم ، ونخلقكم على صور غير تلك الصور التى أنتم عليها ؟ أو لسنا بقادرين على أن نجعلكم فى صورة مخلوقات أخرى من تلك المخلوقات الكثيرة التى ترونها فى عالم الجماد ، أو النبات أو الحيوان ، أو فى صور أخرى مما لا تعلمونه من صور مخلوقاتنا فى الأرض أو فى السماء ؟ فإن هذه النطف التى تتخلق منها الكائنات ، الحية فى عالم الحيوان ، هى ماء يشبه بعضه بعضاً ، ولكن الخالق المبدع يصوّر هذه النطف كيف يشاء . . « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء . . » (٦ : آل عمران)

قوله تعالى :

* « ولقد علمتم النشأة الأخرى فلولا تذكرون ؟ »

أى وإذا كنتم لا تعلمون النشأة التى كان من الممكن أن ننشئكم عليها ، فقد علمتم نشأتكم هذه التى أوجدناكم فيها . . أفلا يكون لكم من هذا العلم ما يحدث لكم ذكراً ، ويبعث فيكم طمأنينة إلى التسليم بالبعث بعد الموت ؟

قوله تعالى :

* « أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ »

وهذه صورة أخرى ، من صور الخلق ، وأنه إذا كانت عملية خلق الإنسان مما تحتجب رؤيتها عن كثير من العقول المريضة ، فهذه عملية إنبات النبات ، وإخراج الحبّ من الأرض ، على هذه الصور المختلفة من النبات والشجر . . إنها عملية مشهورة ، ظاهرة ، وتجربة تجرى من أولها إلى آخرها بين أيدى الناس ، حيث يُلقون الحب فى الأرض ، ثم يجدونه بعد ذلك نباتاً زاهيا ، وشجراً باسقا . .

فمن يخلق هذا الزرع ؟ ومن يخرج من هذا الحب هذ الجنات ، وتلك الحدائق ذات البهجة ؟ أأنتم أيها الناس ؟ إنكم لستم إلا أدوات تلقى الحب فى الأرض ، كما تقذفون المنىّ فى الأرحام ، فيصور الخالق جل وعلا من هذا وذاك مايصوّر من كائنات !

قوله تعالى :

* « لو نشاءُ لجعلناه حطاماً فَظَلْتم تفكهون * إنا لمغرمون * بل نحن محرومون » .

أى لو نشاء ، لمَا أطلعنا هذا الزرع ، ولو نشاء لأطلعناه ، ثم لجعلناه عقيما لا يطلع زهراً ، ولا يثمر ثمراً ، فَظَلْتم تفكهون ، أى ترقبون الفاكهة ، وتبحثون عنها ، ثم لاتجدون شيئاً منها ، بل تعودون وملء أيديكم خيبة وحسرة ، تتنادون بأنكم مغرمون بما أضعتم من جهد فى الحرث والزرع ، ثم لم يكن لكم من هذا العناء إلا الحرمان من الثمر الذى كنتم ترجونه .

قوله تعالى :

* « أفرأيتم الماء الذى تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون »

وهذا الماء الذى تشربون . . ألا تفكرون من أين جاء ؟ ألا تنظرون فيه وفى هذا الماء الملح الذى يملأ وجه الأرض ؟ من فصل بينهما ؟ ومن أخرج لكم من هذا الماء الملح ، هذا الماء العذب الفرات ؟ أأنتم الذين صنع هذا الصنيع ، وأنشأ من هذا الماء الملح سحاباً يحمل الماء العذب ، وينشىء منه الأنهار ، ويفجر العيون ؟ أأنتم أنزلتموه من المزن ، أى السحب ، أم نحن المنزلون ؟ ! أجيبوا ! !

ولا جواب إلا التسليم والإقرار ، بأن الله سبحانه هو الذى صنع لكم هذا الذى صنع ! ولو شاء الله سبحانه وتعالى ، لجعل هذا الماء العذب على حاله التى كان عليها من قبل أن يخرج من رحم البحار ، كما خرجتم أنتم من أرحام أمهاتكم ، وكما خرج النبات من رحم الأرض ..

« فلولا تشكرون » أى فهلا شكرتم الله على هذه النعم الجليلة التى هى مِلاك حياتكم وحياة زروعكم ، وحيوانكم ؟

قوله تعالى :

* « أفرأيتم النار التى تورون * أأنتم أنشأتم شجرتَها أم نحن المنشئون ؟ » ..

وهذه النار التى توقدونها ، وتستدفئون بها ، وتُنضجون عليها طعامكم ..

من أنشأ لكم الشجر الذى توقدونه ؟ ألا ترون هذا الحطب الذى يعلق به الشرر ، فيحول إلى لهب وجمر ؟ ألا ترون هذه القدرة التى تخرج النار من الشجر الأخضر الذى يجرى الماء فى عروقه ؟ « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون » (٨٠ : يس)

قوله تعالى :

* « نحن جعلناها تذكرةً ومتاعاً للمقوين » ..

أى هذه النار التى توقدون من الشجر الأخضر ، هى تذكرة وموعظة ، لمن كان له عقل يتذكر ، ويتعظ ، فيرى قدرة الله .. وهى متاع وزاد « للمقوين » أى لكم أيها الناس ، الذين لايملكون شيئاً .. فكل ما فى أيديكم ، هو فضل من فضل الله عليكم ، ورحمة من رحمته بكم » ..

والمقوى ، هو الخاوى ، الفارغ ، الذى لاشىء معه .. ومنه أقوت الدار أى خلت من أهلها ، وأقوت الأرض ، أى أجدبت . .

قوله تعالى :

« فسبح باسم ربك العظيم » .. هو تعقيب على هذه النعم العظيمة التى أنعم الله بها على عباده ، والتى مِن شكرها ، التسبيحُ بحمد الله ، وتنزيهه ، وتمجيده ، وذكره ذكراً دائماً بالحمد والثناء ..

هذا ، ويلاحظ أن الآيات التى عَرَضت هذه النعم ، عرضتها كل نعمة فى آية مستقلة ، ثم عقّبت على كل آية بالسؤال المطلوب من كلٍّ مَن وقف بين يدى نعمة منها ، أن يسأله نفسه ، وأن يتولى الإجابة عليه ..

* « أفرأيتم ما تمنون ؟ » ..
* « أفرأيتم ماتحرثون ؟ ..
* « أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ »
* « أفرأيتم النار التى تورون ؟ » ..

إنها نعم ظاهرة ، من شأنها إذا ذُكرت أن تُدير الأنظار إليها ، وأن توجه العقول نحوها ، من غير داع يدعو الأنظار إلى النظر ، أو يلفت العقول إلى التفكير والتدبير ..

هذا إذا صادفت تلك النعم أبصاراً تبصر ، وعقولا تعقل .. ولكن ما أكثر الأبصار التى لا تبصر ، والعقول التى لاتعقل .. فكان من رحمة الله ، أن أقام بين يدى كل نعمة داعياً يدعو إليها ، ويهتف بالأبصار الزائغة أن تنظر فيها ، وبالعقول الغافلة أن تنتبه لها ، فكانت هذه الأسئلة الواردة عليها . . فمن كانت له أذنان

فليسمع ، ومن كانت له عينان فليبصر .. «إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »(٣٧ : ق)

الآيات : (٧٥ — ٩٦)

* « فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٨٧) فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٩٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » ..

[الأقسام المنفية فى القرآن .. ودِلالاتها]

أكثرُ المفسرين على أن « لا » فى قوله تعالى : « فلا أقسم » زائدة ، وأن التقدير : أقسم بمواقع النجوم .. ولم يذكروا لهذه الزيادة وجهاً مقبولا ، حتى لكأنها زيادة مقحمة لضرورة كضرورة الشعر ..

ويرى الزمخشرى ـ مثلا ـ أن زيادة « لا » تقتضى أن يكون النظم هكذا :

« فلأنا أقسم بمواقع النجوم » .. وعلى هذا يكون أصل النظم جملة من مبتدأ وخبر ، وأن لام الابتداء دخلت على المبتد ، وهو وإن كان نادراً ، إلا أن ذلك ورد ، فى لسان العرب ، كقول الشاعر :

خالى لأنت ومن جرير خاله

ينل العلاء ويكرم الأخوالا

وهذا تكلف بعيد ، وركوب ضرورات كثيرة لايُلجأ إليها إلا عند العجز وضيق مجال الكلام .. وهذا مايتنزه عنه كلام الله .

ثم إن الموجود هنا « لا » لا ، لام الابتداء ، التى تحولت بهذه الصناعة المتكلفة إلى « لأنا » ثم حذفت أنا ، وبقيت منها الهمزة التى اصقت بلام الابتداء ، فأعطتها هذه الصورة الزائفة ! !

وكلام الله تعالى منزه عن النقص ، متعال عن الوقوع تحت حكم الضرورة ، وإن كل حرف منه ليرجح الوجود كله ؛ كمالا ، وجلالا ..

فما هى « لا » هذه ؟ وما مفهومها ؟ .

هى ــ والله أعلم ــ « لا » النافية .. وهى تجىء غالباً فى معرض

القسم تنزيهاً للمقسَم به ، وإجلالا لقدره ، أن يُقْسَم به على أمور واضحة بينة ، لا تحتاج إلى سند يسندها من قسم أو نحوه ..

فالقسم — عادة — إنما يَرِد لإثبات أمر من الأمور التى يَستبعد المخاطَب وقوعَها أو لتقرير حقيقة من الحقائق ، وتوكيدها ، وإزالة الشبهة عنها عند المقسم له ، حتى يقبلها ويطمئن إليها ..

وإنه — والأمر كذلك — من الاستخفاف بقدر المقسم به ، بل والامتهان له ، أن يُستدعى عند كل أمر وإن صغر ، وأن يبرر به كل شأن وإن حقر أو ظهر ، فذلك من شأنه أن يرخص هذا المقسَم به ، وأن يذهب بجلاله ، ويُنزل من قدره ، فلا يكون له وقعه على النفوس ، إذا هو استُدعى للقسم به فى حال تحتاج الى تبرير وتوكيد ! وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : «ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس » . (٢٢٤ : البقرة) فتعريض اسم الله سبحانه وتعالى للقسم به ، حتى فى مقام البرّ بهذا القسم ، ورعاية حقه ، وحتى فى مقام الصلح بين الناس ـ هو مما ينبغى للمؤمن أن يتحاشاه ، وألا يجىء إليه إلا فى قصد ، عندما تدعو الضرورة إليه !

فقوله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » ـ هو تعريض وتلويح بالقسم بمواقع النجوم ، دون القسم بها ، لأنها ذات شأن عظيم ، فلا يقسم بها إلا لتقرير الحقائق المشكوك فيها ، والمرتاب فى أمرها . . أما جليّات الأمور وبَدَهياتها فلا يُقسم لها ، لأن القسم لها ، هو تشكيك فيها ، ووضعها موضع ما يكون من شأنه أن يثير المماراة ، والخلاف . .

وقد كثر فى القرآن الكريم هذا الضرب من التلويح بالقسم عن طريق

النفى ، وذلك حين يكون المقسِم هو الله سبحانه وتعالى ، والمقسِم به ، ذات من ذوات المخلوقات العظيمة المكرمة عند الله ، وحين يكون المقسم عليه أمراً جليًّا ، بيناً لا يحتاج إلى بيان ..

ومن ذلك قوله تعالى : « فلا أقسم بالشّفق ، والليل وما وَسَق ، والقمر إذا اتّسَق ، لتركَبُنّ طبقاً عن طبق» (١٦-١٩ الانشقاق) وقوله سبحانه : «لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ، أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نُسَوِّى بنانه » (١ - ٤ : القيامة) وقوله جلّ شأنه : « فلا أقسم بالخُنّس . الجوار الكُنّس ، والليل إذا عسعس ، والصُّبح إذا تنفس ، إنّه لقول رسول كريم، ذى قوة عند ذى العرش مكين» (١٥ - ٢٠ التكوير)

فهذه الأقسام واقعة على أمور عظيمة ، محققةِ الوقوعِ على الصورة المعروضة فيها ، وعلى الصفة الموصوفة بها ، بحيث لايصح أن تقع موقع الإنكار ، من ذى مَسكةٍ من عقل أو فهم .. فإذا كان هناك من يشك أو يرتاب ، فإنه لا معتبر لشكّه أو ارتيابه ، ولا جدوى من وراء القسم له بأى مقسَم به ، إذ كان لايجدى معه — فى هذا الصبح المشرق بين يديه — أن تضاء له المصابيح ، وتقام له الحجج والبراهين . « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » (٤٠ : النور) ..

فالأقسام هنا — كما ترى — واقعة على أحوال الإنسان ،وتنقله من حال إلى حال ، ومن وجود إلى وجود ، أوعلى قدرة الله سبحانه وتعالى ، على بعث الموتى من القبور ، وعلى إعادة هذه العظام البالية ، وإلباسها لباس الحياة من جديد ، أو على قول الله سبحانه ، وما تحمل كلماته من أخبار صادقة ، محققة الوقوع .. وهذه كلها أمور لا تحتاج إلى قسم ، وفى القسم لها — كما قلنا — تشكيك فيها، وفتح لباب الجدل والمماراة فى شأنها ..

أما هذا التلويح بتلك الأقسام ، فيما يبدو من نفى القسم — فهو وضعُ

الأمر المقسم عليه فى ضمانة حقيقة من الحقائق الكبرى ، حيث يعتدل ميزانه مع ميزانها فى مقام الإعظام والإجلال ، بمعنى أنه لو احتاج هذا الأمر إلى قسم لما أقسم له إلا بهذه الحقائق العظيمة الجليلة ، المناسبة لعظمته وجلاله . . فإن العظائم كفؤها العظماء ، كما يقولون .

ومواقع النجوم ، التى يلوّح بالقسم بها ،قد تكون أفلاكها التى تدور فيها، وقد تكون منازلها التى تأخذها من النظام العام للفلك .. وعلى أى فإن النجوم حيث تكون هى كائنات عظيمة ، وأن أى نجم منها — على مايبدو من صغره — هو أكبر من شمسنا التى هى أقرب النجوم إلينا ، والتى يبلغ حجمها مليونا وربع مليون من حجم الأرض !

ولم يقع التلويح بالقسم على النجوم ، بل على مواقعها ، لأن مواقعها تشير إلى أكثر من أمر .. تشير إلى هذا البعد الشاسع الذى بيننا وبينها ، والذى تبلغ المسافة فيه بيننا وبين بعضها ملايين السنين الضوئية ! ! وتشير هذه المواقع إلى المسافات التى بين هذه النجوم التى يبدو لنا بعضها مجاورا البعض . . فهذه المسافات التى تبدو متقاربة، هى فى الواقع ملايين من السنين الضوئية كذلك.. كما تشير هذه المواقع إلى أن النجوم ليست على علو واحد كما يبدو ، وإنما هى فى أفلاك بعضها فوق بعض . .

وعلى هذا ، فإن النظر إلى مواقع النجوم يكشف عن النجوم نفسها ، كما يكشف عن هذه العوالم الرحيبة التى تسبح فيها ، تلك العوالم التى إن أمكن ضبطها بالأرقام العددية ، وبالصور الحسابية ، فإن الخيال لا يتسع لتصور أفق واحد من آفاق تلك العوالم التى تسبح فيها النجوم .

قوله تعالى :

* « إنه لقرآن كريم * فى كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون » .

هذا هو الأمر الذى لا يحتاج إلى قسم ، وتلك هى الحقيقة التى لا تحتاج إلى تبرير وتوكيد . .

فهذا الذى يتلوه النبى على الناس ، هو قرآن كريم ، فى كتاب مكنون أى محفوظ ، عند الله سبحانه ، وإنه ـ لمقامه العظيم ـ لا يدنو منه ، ولا يطوف بحماه ، إلا المطهرون من عباد الله ، من ملائكة ، أو بشر . وفى وصف القرآن بالكرم ، إشارة إلى ما ينال الذين يمدون أيديهم إليه من عطايا ومنن به .

ومعنى المس القرآن الكريم هنا ـ والله أعلم ـ هو التلبّس به ، والمباشرة له ، والإفادة منه . . فمن مسّ هذا القرآن الكريم وطاف بحماه ملتمساً الهدى منه ـ وجب أن يكون على صفة تناسب هذا القرآن ، من الطهارة ، والكرم ، والنقاء . فمن كان طاهراً ، لم يجد معاناة فى الامتزاج والتجاوب معه ، سواء كان طاهراً بالقوة والفعل كالملائكة ، أم كان طاهراً بالقوة ، كمن كان فى الناس سليم الفطرة ، مُعافىً من الآفات التى تعرض لهذه الفطرة ، فتفسدها ، وتحول بينها وبين تقبّل الخير ، والتجاوب معه ، فمن كان من الناس ذا فطرة سليمة ، قَرُب من هذا القرآن ، واتصل به ، وأصاب من خيره ، فطَهُر من دنس الشرك ، والكفر . . وكان من المؤمنين الطاهرين ..

فالمسّ هنا ، ليس لمس المصحف باليد ، كما يذهب إلى ذلك كثير من المفسرين ، الذين اشتد خلافهم حول الحال التى يكون عليها من يمس المصحف ، وهل ينبغى أن يكون على طهارة مطلقة من الحدَثَيْن الأصغر والأكبر ، وهل ذلك على سبيل الاستحباب والندب ، أم أنه على سبيل الوجوب والحتم . !!

وإنما المسّ الذى تشير إليه الآية الكريمة ـــ والله أعلم ـــ مسّ كلمات الله ومخالطتها القلوب والعقول ، ذلك المس الذى يتأثر به الماسّ ، فيجد من أثر هذا المسّ فى كيانه ، ما يجد ـــ على بعد ما بين المشبه والمشبه به ـــ مَن مسّ طيباً أو نحوه ،

مما تطيب به النفوس ، وتستروح الأرواح .. وكما أن كثيراً من النفوس تختنق بالريح الطيب ، أو تنفر منه ، فكذلك كثير من النفوس ما تتأذى بكلمات الله ، وتنفر من سماعها ، فلا تسمح لها بأن تنفذ إلى مشاعرها ووجداناتها ، بل تجعل أصابعها فى آذانها ، كما يجعل من يتأذى بالطيب أصبعيه على أنفه ! !.

ويرى « ابن قيّم الجوزيّة » أن المراد بالكتاب المكنون ، هو الصحف التى بأيدى الملائكة .. ويعلل لذلك بوجوه :

منها : أنه وصفه — أى الله ـ بأنه مكنون ، والمكنون : المستور عن العيون ، وهذا إنما فى الصحف التى بأيدى الملائكة ..

ومنها : أنه قال : « لا يمسّه إلا المطّهرون » وهم الملائكة ، ولو أراد المؤمنين المتوضئين لقال : لا يمسه إلا المتطهرون ... فالملائكة مطهّرون ، والمؤمنون المتوضئون متطهرون .

ومنها : أن هذا إخبار ، ولو كان نهياً لقال : لا يمْسَسْه ، بالجزم ...

ومنها : أن هـذا رد على من قال إن الشيطان جاء بهـذا القرآن ، فأخبر تعالى أنه فى كتاب مكنون لا تناله الشياطين ، ولا وصول لها إليه ، كما قال فى « آية الشعراء » : « وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغى لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون » (٢١٠ — ٢١٢) وإنما تناله الأرواح المطهرة ، وهم الملائكة . .

ومنها : أن هذا نظير قوله تعالى : « فمن شاء ذكره * فى صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة ، بأيدى سفرة ، كرام بررة » (١٢ — ١٦ : عبس) .

ومنها : أن الآية مكية ، فى سورة مكية ، تتضمن تقرير التوحيد ، والنبوة والمعاد ، وإثبات الصانع ، والردّ على الكفار ، وهذا المعنى أليق بالمقصود ، من فرع عملىّ ، وهو حكم مس المحدَث المصحف[1] » .

هذا ، ويتسع معنى « المطهّرين » للتطهر عند لمس المصحف ، وعند التلاوة منه ، فهذا ـ وإن لم يكن على سبيل الإلزام ـ أدب مع كتاب الله ، وتوفير لكل ما يتصل به .

قوله تعالى :

* « أفبهذا الحديث أنتم مدهنون * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » .

الإشارة هنا ، إلى القرآن الكريم ، وما تحدث به آياته عن قدرة الله سبحانه ، وعن سلطانه القائم على هذا الوجود ، وعن البعث والحساب والجزاء . .

والاستفهام تقريرى ، يراد به إقرار الكافرين بما عندهم من هذا الحديث الذى سمعوه ، مما يتلى عليهم من آيات الله ، وهل هم مصغون إليه ، واقفون منه موقف الجد ، وطلب العلم والفهم ، أم أنهم مستمعون استماع الجاهل الذى لا يعنيه شىء من مضامين هذا الحديث ومفاهيمه ؟ .

والمُدْهِن ، هو المداهن ، الذى يصانع فى الأمور ، ويلقاها بغير رأيه فيها ، طلباً للسلامة ، وتجنباً لما قد تجره إليه المكاشفة من متاعب ومكاره . .

وهذا ضرب من النفاق ، ووجه من وجوهه . .

وقوله تعالى : « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » — هو بيان لما ينتهى إليه هذا الموقف المداهن ، وهو التكذيب بما يُلقَى إليه من هذا الحديث ، الذى لا يعطيه أذناً ، ولا يفتح له قلباً ولا عقلا . .

---

(١) التفسير القيم لابن القيم ص ٤١٢ بتحقيق المرحوم الشيخ محمد حامد الفقى :

والتكذيب هو حظّ هؤلاء المداهنين المراوغين ، وهو رزقهم الذى يُرزَقونه من هذا الخير المبسوط لهم .. فإذا عاد الناس بمغانم كثيرة وبرزق موفور من هـذا الحديث حين يستمعون إليه ، فإن هؤلاء المداهنين المراوغين ، يعودون برزق أيضاً ، ولـكنه رزق مشئوم ، ملطّخ بالتكذيب بآيات الله ، وبالـكفر بها ، وبما تحمل من حقّ وخير ..

وفى تسمية هذا التـكذيب الذى حمله المداهنون من آيات الله — فى تسميته رزقاً ، إشارة إلى هذا الخسران الذى عادوا به من هذا الموقف مع آيات الله ، وأنهم بدلا من أن يحملوا رزقاً ، حملوا وزراً .. لقد أرادوا أن يَخدعوا فخُدِعوا . . « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » (٩ : البقرة) ..

فهذا هو رزقهم الذى رُزقوه من استماعهم لآيات الله ، وهو — كما قلنا — وزر ، لارزق .

قوله تعالى :

« فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولـكن لا تبصررن » .

الحلقوم ، مجرى الطعام من الفم إلى المعدة ..

والضمير فى بلغت ، يعود إلى الروح ، وهى وإن لم يجر لها ذكر ، فإنها مذكورة فى هذا المفهوم العام الذى تشير إليه الآيات ، وهو البعث ، الذى يدور حوله هذا الحديث ، وما يقع للناس فيه من حساب وجزاء ، ونعيم وعذاب ..

فلولا ، حرف تحضيض ، بمعنى هلاّ ..

والآية وما بعدها ، استدعاء لهؤلاء المنكرين للبعث ، المداهنين فى هذا الحديث الذى استمعوا إليه ما استمعوا من أمره — استدعاء لهم أن يتحدوا قوام كلها ، وأن يجيئوا بكل ما يملكون من حول وحيلة ، وهم بين عزيز كريم لديهم ممن قد حضره الموت ، وحشرجت روحه حتى بلغت الحلقوم ، وهم ينظرون إليه فى حزن قاتل ، وحسرة محرقة — فهل يستطيعون رد هذه الروح إلى مكانها من الجسد ؟ فليجربوا هذا وليحاولوه ، إن كان الأمر يتسع لتجربة ، أو يقبل حيلة ! إن الله سبحانه هو أقرب إلى هذا المحتضَر منهم ، ولكنهم لجهلهم وكفرهم ، لا يدركون هذه الحقيقة ، ولا يتصورونها . .

قوله تعالى :

* « فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين » .

« فلولا » هنا توكيد لما قبلها فى قوله تعالى : « فلولا إذا بلغت الحلقوم .. »

وقوله تعالى : « ترجعونها » هو جواب « فلولا » الأولى .. أى فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم ترجعونها ؟

و « ترجعونها » أى تردونها إلى مكانها الذى خرجت منه ..

يقال رجع الشىء ، يرجِعه ، وأرجع الشىء يُرجعه ، أى أعاده ..

فالفعل يتعدّى بنفسه ، ويتعدى بالهمزة . .

ومن تعدى الفعلِ بنفسه قوله تعالى : « فإن رَجَعَكَ الله إلى طائفة

منهم » (٨٣ : التوبة) . . ويأتى لازماً مثل قوله تعالى : « يقولون لئن رجعنا إلى المدينة » (٨ : المنافقون) .

وقوله تعالى : « إن كنتم غير مدينين » جملة اعتراضية ، تكشف عن حال هؤلاء الذين شهدوا محضر هذا المحتضر ، وهو يجود بنفسه ، والمدين ، هو العاجز المقهور ، ومنه المدين : المثقل بالدين ..

وقوله تعالى : « إن كنتم صادقين » ـ هو تكذيب لتكذيبهم بآيات الله ، وبالحديث الذى حدثتهم به . . فقد كان رزقهم من هذا الحديث هو التكذيب به . . فهل هم بعد هذا الامتحان متمسكون بهذا التكذيب ، مصدقون به ؟

قوله تعالى :

* « فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنةُ نعيم » .

وهذا المحتضر ، قد نفذ فيه قضاء الله ، وأصبح فى عالم الموتى . .

ولكنه لا يترك كهذا ليد الفناء — كما يظنون — ، بل إنه سينقل إلى العالم الآخر ، وتلبسه الحياة هناك مرة أخرى ، ويأخذ منزله فى هذا العالم ، حسب عمله فى الدنيا . .

فإن كان من المقربين إلى الله ، ومن أولياء الله فى الدنيا ، فالله سبحانه هو وليّه فى الآخرة ، يلقاه لقاء الأولياء الأحباب بالروْح والريحان وجنة النعيم ..

والروْح : ما تستروحه النفوس ، وتطيب به ، وتسعد فيه .. وقرىء : « فرُوح » أى حياة جديدة تلبسه ..

قوله تعالى :

* « وأما إن كان من أصحاب اليمين ، فسلام لك من أصحاب اليمين »
وأصحاب اليمين ، هم ممن أرادهم الله « سبحانه » ليكونوا من أصحاب الجنة ، فيسّر لهم العمل بعمل أهل الجنة . .

وقوله تعالى : « فسلام لك من أصحاب اليمين » ، أى أنهم فى سلام وأنهم يتهادون التحية والسلام فيما بينهم ، ويبعثون بتحاياهم إلى إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم ممن لايزالون فى هذه الدنيا . .
فالضمير فى « لك» يراد به كل مؤمن بالله ، طامع فى أن يكون من أصحاب اليمين ! . . وهى تحية من أهل اليمين فى العالم الآخر ، ينقلها الله سبحانه وتعالى ، إلى المؤمنين فى الدنيا ، حتى يلقوا إخوانهم فى العالم الآخر ، ويردوا هذه التحية الطيبة بأحسن منها أو مثلها .

قوله تعالى :

* « وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصليةُ جحيم »
أى وأما إن كان هذا الميت من هؤلاء المدهنين المكذبين ، فنزله الحميم ، الذى تختنق النفوس بسَمومه ، وداره الجحيم التى يشوى على جمرها . .

وهكذا الناس بعد الموت ، حيث ينقلون إلى الدار الآخرة ، فيكونون أزواجاً ثلاثة . .

السابقون ، وهم المقربون . .

وأصحاب اليمين . .

وأصحاب الشمال . .

ولكلٍّ منزله الذى ينزله فى هذه الدار ، وجزاؤه الذى يُجزاه فيها . .

قوله تعالى :

* « إن هذا لهو حق اليقين • فسبح باسم ربك العظيم » .

بهذا الحكم تُختم السورة الكريمة ، وبهذا التنزيه لله سبحانه ، والحمد لله ، يعقَّب على هذا الحكم ، ويلفت إلى ما ينبغى أن يُستقبل به من النبى ، ومن المؤمنين . .

وحق اليقين ، أى الحق المطلق ، الذى لا يعلق به شىء من دخان الباطل وسحبه ..

فهو الحق الذى ينبغى أن ينزل من القلوب والعقول منزلة اليقين ، فتطمئن به القلوب ، وتسكن إليه العقول ..

واليقين المشار إليه ، هو اليقين الوارد من تلك الآيات ، التى تحدث عن قدرة الله ، وعن البعث ، والحساب ، والجزاء .. فهذا الحديث هو حديث حق مستيقَن ، لاشك فيه ..

وفى إضافة الحق إلى اليقين ، إشارة إلى أن هذا الحق ، هو الحق الذى يقيم اليقين فى النفوس ، لأنه حق خالص من كل شائبة .. أما غيره فقد يكون حقًا ، ولكنه قد يتلبس به مايحجبه عن الأبصار ، فيثير حوله سحباً من ضباب الشك والارتياب .. أما هذا الحق ، فهو حق صُراح ، ونور مبين .. لايحجبه شىء .

وقوله تعالى « فسبح باسم ربك العظيم » — هو كما قلنا — تعقيب على هذا الحكم ، واستقبال لهذا الحق المشرق ، الذى يملأ القلوب طمأنينة وأمنا — استقبالٌ له ، بتنزيه الله سبحانه والتسبيح بحمده ، شكراً له على هذا الهدى الذى يهدى به من يشاء من عباده ..

والمراد بالتسبيح باسم الله ، تسبيح لذات الله ، وحمد لذات الله ، ولهذا إذا

سبّح المؤمن ربه قال : سبحان ربى العظيم ، سبحان ربى الأعلى .. ولم يقل سبحان اسم ربى العظيم ، أو سبحان اسم ربى الأعلى ..

يقول ابن تيمية فى معنى : « فسبح باسم ربك العظيم » أى سبح ناطقاً باسم ربك ، متكلما به .

ويعلق ابن القيم على هذا الذى يقول به شيخه ابن تيمية : هذه فائدة تساوى « رحلة » ! ! .

وهذا هو قدر العلم ، وتقدير العلماء له .. فرضى الله عن الأستاذ وعن التلميذ .

إنه من أجل هذه الكلمة التى تفيد علماً ، وتشعّ هدى ، ليس بالقليل عليها أن تشد لها الرحال ، وتُقطع فى سبيل الوصول إليها الفياف والقفار ! ولكم احتمل سلفنا الصالح ، رضوان الله عليهم ، من أعباء الجهاد فى طلب العلم ، فكان الواحد منهم يقطع مابين الشرق والغرب — على قلة الزاد ، وخشونة المركب ، حيوانا ، أو قدماً — فى سبيل أن يلقى رجلا من أهل العلم بَلَغَه عنه أنه يحفظ حديثاً لرسول الله ، أو قراءة لآية من آيات الله ..

إنهم قَدَرُوا العلم قدْرَه ، وبذلوا له المهر الذى يستحقه ..

وإنه على قدر المشقة كان الثواب والجزاء من الله سبحانه ، فوقع هذا العلم من قلوبهم موقع الغيث من الأرض الطيبة ، فأزهر ، وأثمر ، وأخرج من كل زوج بهيج ..

٥٧ - سورة الحديد

نزولها : مدنية ..

عدد آياتها : تسع وعشرون آية ..

عدد كلماتها : خمسمائة وأربع وأربعون .. كلمة ..

عدد حروفها : ألفان وأربعمائة وستة وسبعون ، حرفاً ..

مناسبتها لما قبلها

سورة « الواقعة » مكية وسورة « الحديد » هذه مدنية ، ومع هذا فقد انتظمت السورتان فى سلك واحد، فكان ختام سورة « الواقعة » مصافحاً لبدء سورة « الحديد » وكان بدء « الحديد » جواباً وتلبية لهذا الأمر الذى كان ختام سورة « الرحمن » .

وتقرأ خاتمة « الواقعة » : « فسبح باسم ربك العظيم » ومفتتح « الحديد » « سبَّحَ لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » فترى الوجود كله فى سمواته وفى أرضه ، فى محراب التسبيح لله ، وفى موقف الولاء له ، والقنوت لعزته وجلاله وحكمته . .

وهذا التجاوب بين السورتين ، شاهد من الشواهد الكثيرة ، التى تشهد بأن ترتيب السور كما هى عليه فى المصحف ، هو ترتيب توفيق ، كترتيب الآيات فى سورها ، وأن ترتيب الآيات فى سورها كترتيب الكلمات فى آياتها ، وأن ترتيب الكلمات فى آياتها كترتيب الحروف فى كلماتها .. ولا يكون القرآن قرآناً إلا بهذا الترتيب الآيات الذى هو عليه فى اللوح المحفوظ : « إنه لقرآن كريم .. فى كتاب مكنون . . لا يمسه إلا المطهرون .. تنزيل من رب العالمين . . »

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٦)

* « سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) »

التفسير :

قوله تعالى .

* « سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ..

هو ـ كما قلنا ـ خبر يحدّث عن أثر هذا الأمر الذى خُتمت به سورة « الواقعة » فى قوله تعالى : « فسبح باسم ربك العظيم » .. وكأن هذا الخبر جواب يجاب به عن سؤال يَرِدُ على هذا الأمر بالتسبيح ، وهو : ما وقع هذا الأمر على الوجود ؟ فكان الجواب : « سبّح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ..

فهذا التسبيح والولاء لله ، إنما هو شأن الوجود كله ، فهو قائم على التسبيح

والولاء لله ، فى كل لحظة ، وفى كل آن ، لأنه فى قبضة عزيز ذى سلطان متمكن ، ومع هذه العزة المتمكنة لله ، فهو حكيم فى تدبيره ، وتقديره ، لا يعتسف الأمور اعتسافاً ، ولا يقضى فيما يقضى به عن هوًى وتسلط .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ..

ويجوز أن يكون هذا الخبر بالتسبيح إغراء بهذا الأمر الذى أمر الله به الإنسان أن يسبح باسم ربه العظيم ... وكان النظم هكذا : فسبح باسم ربك العظيم ، الذى سبح له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم» .. فهيا أيها الإنسان لتأخذ مكانك بين موكب الوجود المتجه إلى الله ، المسبح بحمده « وإن من شىء إلاّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم» (٤٤ : الإسراء)

قوله تعالى :

* « له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير » .

هو بيان لقدرة الله ، وعرض لسلطانه المطلق فى هذا الوجود .. فهو سبحانه ، المالك لما فى السموات والأرض جميعاً ، وهو سبحانه ، الذى يحيى ويميت ، وهو سبحانه ، القادر على كل شىء .. لا يعجزه شىء مما يظن أولئك المشركون أنه فى قائمة المستحيلات ..

قوله تعالى :

* « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم » ..

ومن صفاته سبحانه أنه الأول بلا ابتداء ، والآخر بلا انتهاء .. فلا أول قبله ، ولا آخر بعده .. وإذا كان الأول ، فكل ما سواه صنعة يده ، وإذا كان الآخر ، فكل شىء هالك إلا وجهه ..

وهو سبحانه « الظاهر » فى آياته وفى كل ما بثّ فى هذا الوجود من

موجودات ،حيث تتجلى فى هذا الوجود آيات قدرته ، وعلمه ، وحكمته ..

وهو سبحانه « الباطن » الذى «لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » (١٠٣ : الأنعام) ..

وهو سبحانه « بكل شىء عليم » .. لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .. « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (١٤ : الملك) ..

قوله تعالى :

* « هو الذى خلق السموات والأرضَ فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير » .

ومن صفاته سبحانه ، أنه هو الذى خلق السموات والأرض ، وأنه أقام سلطانه عليهما ..

وأنه « يعلم مايلج فى الأرض » أى مايغوص فى باطنها ، من حَبّ وماء ، ومعادن ، وغيرها.. ويعلم : « مايخرج منها » من نبات ، وما يتفجر من عيون ، وما يستخرج منها من معادن . .

ويعلم سبحانه : « ماينزل من السماء » من ماء ، ومن ملائكة ، ومن وحيٍ يوحى به إلى عباده ، ويعلم « مايعرج فيها » أى مايصعد إلى السماء من ملائكة ، ودعوات ، وصلوات، يرفعها عباده المؤمنون إليه .

وفى التعبير عن الصعود إلى السماء « بالعروج » إشارة إلى صورة الفلك ، وأنه دائرى ، وأن العروج إليه ، والنفوذ من أقطاره لا يكون إلا فى خطوطٍ متعرجة منحنية .

وقوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم » — إشارة إلى أنه سبحانه — مع سعة هذا الملك — هو موجود بعلمه وقدرته وتدبيره ،فى كل مكان منه ، وفى كل ذرة فيه . .

وقوله تعالى : « والله بما تعملون بصير » — إشارة أخرى إلى نفوذ علم الله إلى كل مايجرى فى ملكه . . وأن هؤلاء الذين يستبعدون أن يكون الله سبحانه أقرب إليهم من حبل الوريد ، لاينبغى لهم أن يستبعدوا أنه يراهم ، ويرى كلّ مايعملون . . فمن كان يظن أن الله ليس معه ، فهو يراه !

قوله تعالى :

* « له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور »

هو توكيد لما قررته الآيات السابقة ، من بسطة سلطان الله ، وشهوده لكل شىء فى هذا الوجود ، فهو سبحانه له ملك السموات والأرض ، وأنه لايملك الشىء ملكا متمكنا إلا إذا كان هذا الشىء طوع أمره ، وتحت سمعه وبصره ..

وقوله تعالى : « وإلى الله ترجع الأمور » أى إليه يرجع كل أمر ، فلا يقع فى ملكه شىء إلا بأمره وتقديره . .

قوله تعالى :

* « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات الصدور »

أى ومن قدرة الله سبحانه أنه « يولج الليل فى النهار » أى يُدخل النهار فى الليل ، فيختفى الليل ، ويظهر النهار ، « ويولج النهار فى الليل » أى يُدخل الليل فى النهار ، فيختفى النهار ، ويظهر الليل .. ففى الليل نهار مطوىّ ، وفى النهار ليل مخفىّ .. « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » (٣٧ : يس) ..

فهذا ظلام يخرج من أحشاء النور .. « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » (١٢ : الإسراء) وهذا نور يتفجر من

باطن الظلام .. وهذا من بعض مظاهر القدرة القادرة التي تُلبس المتناقضين ثوباً واحداً .. «يخرج الحيّ من الميت ومخرج الميت من الحيّ »(٩٥ : الأنعام)

وقوله تعالى : « وهو عليم بذات الصدور » تقرير لهذه الحقيقة التي تحدث عن نفوذ علم الله ، إلى ما في الصدور ، من وساوس وخواطر .. وهذه شواهد قدرته سبحانه ، فيما بين الليل والنهار من امتزاج وافتراق في وقت معاً ..

الآيات : (٧ — ١١)

* « آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجرٌ كبيرٌ »

بعد هذا البيان المبين الذى عَرَضت فيه الآيات السابقة بعضَ مالله سبحانه وتعالى من قدرة ، وتصريف فى هذا الوجود ، وماله من علم يحيط بكل شىء ، وينفذ إلى خفايا الصدور ، وخوالج النفوس — بعد هذا جاءت دعوة الله إلى عباده أن يستجيبوا لله ، وأن يؤمنوا به وبرسوله ، وأن ينفقوا مما أعطاهم من فضله ، وجعلهم خلفاءه فيه ووكلاءه عليه .. وأنه ليس للخليفة ، أو الوكيل أن يخالف أمر من استخلفه أو وكله ..

فالإيمان بالله ، والولاء له ، والتصديق برسوله ، هو حق الخالق على المخلوق .. والإنفاق من عطاء الله فى سبيل الله ، هو حق هذا العطاء، ومطلوبُ الشكرِ عليه ..

ومع أن الإيمان بالله ، والإنفاق من مال الله فى سبيل الله ، هو حق مطلوب أداؤه ، وأداء الحقوق، هو إبراء الذمة ، لا يستوجب جزاء.. ومع هذا ، فقد أوجب الله سبحانه على نفسه ــ فضلا وإحسانا ــ أن يجزى على أداء تلك الحقوق جزاء كريما ، وأجراً كبيرا .. « فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير »

قوله تعالى

* « وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين »

بعد أن جاءت تلك الدعوة الآمرة الهاتفة بالإيمان بالله والإنفاق فى سبيله فى قوله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلَفين فيه » ، وبعد أن أعقب هذه الدعوة هذا الوعد الكريم من الله سبحانه وتعالى بالجزاء العظيم ، والأجر الكبير لمن يستجيب لها ــ جاءت الآيات بعدها لتناقش هذه الدعوة ، ولتلقى أولئك المترددين فى قبولها ، لقاء المنكر عليهم موقفهم هذا ، المطالب لهم ببيان العلة أو العلل التى تحول بينهم وبين إجابة داعى الله الذى

دعام . . « وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ؟ »

أى أىّ شىء يحول بينكم وبين الإيمان بالله . . وهذا رسول الله إليكم ، يدعوكم لتؤمنوا بربكم ؟ لماذا لا تجيبون دعوة الله وتؤمنون به ؟

إن دعوتكم إلى الإيمان بالله ، وبعث رسول من عندالله إليكم بها ، هو فضل من فضل الله عليكم ، وإحسان من إحسانه إليكم ، إذ كان من شأنكم أن تكونوا مؤمنين ، من غير دعوة مجدّدة إليكم . . فلقد دعاكم الله سبحانه وتعالى إلى الإيمان من قبل ، وأخذ ميثاقكم وأنتم فى ظهور آبائكم ، فأجبتم ولبيتم . . فما لكم لا تذكرون هذا الميثاق ، ولا توفّون به ؟ ثم مالكم إذ قد نقضتم الميثاق ، أن تجددوه على يد الرسول الذى بعثه الله إليكم ليذكركم به ، ويقيمكم عليه ؟ .

وقوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » . أى إن كنتم مازلتم على إيمانكم بالله الذى وثّقه معكم وأنتم فى ظهور آبائكم ـ فما لكم لا تؤمنون بما يدعوكم إليه الرسول من إيمان ، وهو إنما يدعوكم إلى هذا الإيمان الذى آمنتم به من قبل ؟ وعلى هذا يكون مفهوم نظم الآية هكذا : « ومالكم لا تؤمنون بالله إن كنتم مؤمنين »

وأما قوله تعالى : « والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم » فهما جملتان حاليتان تكشفان عن حال المخاطبين وهم يدعون إلى الإيمان ولا يجيبون دعوة الداعى . .

وهذا يعنى أن دعوة الإسلام ، هى دعوة تلتقى مع الفطرة التى فُطر الناس عليها ، وأن من يرفض هذه الدعوة أو يُنكرها ، فهو منحرف عن الفطرة ، حائد عن طريقها . .

والميثاق الذى أخذه الله سبحانه على الناس ، هو فطرتهم التى أودعها فيهم ، والتى يولد عليها كل مولود ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى ! » (١٧٢ : الأعراف) . .

فكل مولود يولد سليما معافًى من داء الشرك والضلال ، أشبه باللبن يخرج من الضرع .. وقد يتعرض هذا اللبن للعطب والفساد بما يعلق به من أقذار ، وما يتخلّق من هذه الأقذار من جراثيم . .

وفى الحديث الشريف : « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . .

ودعوة الإسلام ، هى دعوة إلى الفطرة ، وإلى تطهيرها مما يكون قد عَلِق بها من آفات . . « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرةَ الله التى فطر الناسَ عليها .. لاتبديل لخلق الله . . ذلك الدين القيم . . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٣٠ : الروم) . .

قوله تعالى :

* « هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم » . .

هو بيان لفضل الله على عباده ، إذ يجدّد دعوته إليهم ، ويدعوهم إلى توثيق الميثاق الذى نقضوه ، بما ينزل على عبده محمد صلوات الله وسلامه عليه ، من آيات بينات ، ليخرجهم بها من الظلمات إلى النور ، وليعيد إليهم فطرتهم التى أفسدوها .. وهذا من رأفة الله سبحانه بعباده ، ورحمته

بهم .. « وإن الله بكم لرءوف رحيم » .. فسبحانه، سبحانه، من رب كريم، برّ رحيم !! وألاّ خسر وخاب من أعرض عن ربه، وأسلم زمامه ليد شيطانه !.

وفى قوله تعالى: « ينزل » إشارة إلى أن القرآن لم يكن قد تمّ نزوله بعد، وأنه مازال يتنزل حالا بعد حال ..

وفى قوله تعالى: « على عبده » دون أن يذكر اسم هذا العبد - إشارة إلى أنه هو عبد الله، الذى تتحقق فيه صفة العبودية الكاملة لله، حتى أنه إذا أضيف إليه هذا العبد من غير ذكر اسمه، لم يكن المقصود إلا هو، وهو محمد صلوات الله وسلامه عليه .. وهذا مقام جليل لا يبلغه أحد من عباد الله .. فصلى الله عليك يارسول الله، وعلى آلك، والمهتدين بهديك، وسلم تسليما كثيراً كثيراً ..

قوله تعالى:

* « وما لكم ألاّ تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراثُ السموات والأرض؟ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل .. أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا .. وكلاًّ وعد الله الحسنى .. والله بما تعملون خبير » ..

والشقّ الآخر من شقّى الدعوة التى يدعو الله سبحانه عباده إليها، بعد الإيمان به، هو الإنفاق فى سبيله ..

فإذا استجاب العبد لدعوة الله، وآمن به، فلِمَ لا ينفق فى سبيله؟ ولم يمسك هذا المال الذى آتاه الله؟ ولم يضنّ به على الإنفاق فيما يدعوه

إليه ؟ أله شىء من هـذا المال ؟ أليس هـذا المال من مال الله ؟ وهل يملك أحد شيئاً ، مع الله سبحانه الذى له ملك السموات والأرض ؟ وهل يبقى هذا المال فى يد ممسكيه إلى الأبد ؟ وكيف .. ولله ميراث السموات والأرض ؟ فمن أمسك هذا المال الذى فى يده ، فهو صائر يوماً إلى غيره .. ثم هو صائر آخر الأمر إلى الله سبحانه وتعالى : « إنا نحن نرث الأرض ومَن عليها وإلينا يرجعون » (٤٠ : مريم) ..

وقوله تعـالى : « لا يستوى منـكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » — هو خطاب للمنفقين فى سبيل الله ، وأنهم ليسوا على درجة واحدة فى الثواب والجزاء على ما أنفقوا ..

فالذين أنفقوا ــ ولو قليلا ــ فى ساعة العُسرة ، وفى حال كان الإسلام فيها فى دور الامتحان والابتلاء ، لم تَثبُت قدمه بعد ، ولم يتمكن سلطانه ــ الذين أنفقوا فى هذه الحـال ، وقاتلوا ، هم أعظم درجة من الذين أنفقوا وقاتلوا بعد الفتح ، وبعد أن علت راية الإسلام ، وانجحر الشرك ، ودالت دولة المشركين ..

فالذين أنفقوا وقاتلوا قبل الفتح — وهو فتـح مـكة ، أو صلح الحديبية — إنما كانوا ينفقون ويقاتلون ابتغاء وجه الله ، من غـير أن ينظروا إلى مغانم تقع لأيديهم ، ومن غير أن يكون لسلطان الإسلام قوة قاهرة تدعوهم إليه ، أو سلطان ظاهر يغريهم به ، وإنما أنفقوا ما أنفقوا من أموال ونفوس ، لِمَا وقع فى نفوسهم من إيمان بالله ، وطمع فى رضوانه .. وهؤلاء هم الذين أشار إليهم سبحانه وتعالى بقوله :

« والسابقون السابقون * أولئك المقربون » (١٠ ـ ١١ الواقعة) ..

كما أشار إليهم سبحانه بقوله : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه » (١٠٠ : التوبة) ..

أما الذين أنفقوا بعدَ الفتح ، وقاتلوا فى سبيل الله ، فإنما ينفقون ويقاتلون ، وقد أنفق الناس جميعاً وقاتلوا ، سواء منهم من نظر إلى سلطان الإسلام ، أو لم ينظر .. وشتان بين منفق ومنفق ، ومقاتل ومقاتل .. فتلك حال وهذه حال ، ولكلٍّ من الحالين حساب وتقدير ..!

وقوله تعالى : « وكلاًّ وعد الله الحسنى » أى أن كلا من الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ، والذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا ـ هؤلاء وهؤلاء قد وعدهم الله الحسنى ، أى المنزلة الحسنى ، أو العاقبة الحسنى .. فهم جميعاً فى رضوان الله . . وإن اختلفت حظوظهم ومنازلهم من هذا الرضوان . .

وقوله تعالى : « والله بما تعملون خبير » — إشارة إلى ما يصحب هذه الأعمال من نيّات . . فقد يتلبس العمل السابق بنية تحبطه ، لأنه لم يكن خالصاً لوجه الله .. وقد يجىء العمل المتأخر مصحوباً بنية خالصة لوجه الله ، فيسبق المتأخرُ المتقدمَ . . « وإنما لكل امرىء مانوى » ..

وهذا مما يعلمه الله سبحانه وتعالى من عباده ، وما انعقدت عليه نياتهم . .

وفى قوله تعالى : « أنفق وقاتل » وفى الجمع بين الانفاق والقتال فى

سبيل الله ـ فى هذا إشارة إلى أن الإنفاق ليس مقصوراً على المال وحده ، وإنما هو إنفاق من النفوس ، وبذلها فى سبيل الله . . فمن لم يكن ذا مال لم يُحرَم اللّحاق بالمنفقين من أموالهم ، وذلك بالإنفاق من ذات نفسه ، ومن كان ذا مال لم يمنعه الإنفاق من ماله أن ينفق من ذات نفسه ، فيجمع إحساناً إلى إحسان ، وقد يكون الإنفاق إلى جانب النفس والمال ، إنفاقاً من حصافة الرأى ، وحسن التدبير ، والنّصح للمؤمنين . .

قوله تعالى :

* « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم » هو دعوة كريمة من رب كريم، إلى أن يقرضه المؤمنون مما أعطاهم ، فيضاعف لهم هذا القرض ، ويجزيهم عليه الجزاء الأوفى . .

وإنه ليس بعد هذا عذر لمعتذر ممن يؤمنون بالله واليوم الآخر فى ألاّ يجيبوا دعوة الله سبحانه وتعالى ، وألاّ ينفقوا مما خولهم إياه ، وجعله ملكا خالصاً لهم ، فيأخذ منهم ما أنفقوا أخذَ المقترض ، الذى يشكر لمقرضه ، ويحمد صنيعه معه . . فسبحانه سبحانه من رب بر رحيم ! ! !

والقرض الحسن ، هو أن يكون من مال مكتسب من حلال ، وأن يكون من أكرم مال المنفق وآثره عنده ، وأن يخرجه من يده عن طيب خاطر ، ورضا نفس ، وأن يكون الإنفاق والنفس راغبة فى الحياة ، مقبلة عليها ، لا بعد أن يهرم المرء ويذهب شبابه ، وتنطفىء حدة رغباته ، وشهواته . .

الآيات : (١٢ — ١٥)

* « يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ

آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) »

التفسير

قوله تعالى :

* « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم » .

الظرف هنا متعلق بقوله تعالى فى الآية السابقة : « فيضاعفه له وله أجر كريم » أى أن الذى يقرض الله قرضاً ، فيضاعفه الله سبحانه وتعالى له ، ويعطيه الأجر الكبير عليه ـ إنما يجد ذلك يومَ القيامة ، يوم ترى ـ أيها الرائى فى ذلك اليوم ـ المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . .

والمراد بالنور ــ والله أعلم ــ هو الإيمان ، وما يتبعه من الأعمال الصالحة ، حيث يكون هذا الإيمان نوراً هادياً لأصحابه إلى الجنة . . كما يقول سبحانه : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم » . (٩ : يونس)

والنور الذى فى أيمان المؤمنين والمؤمنات يومئذ ، هو صحف أعمالهم التى يتناولونها بأيمانهم . فتكون أمارة من أمارات السلامة والنجاة ، كما تكون نوراً هادياً يتجه بهم إلى طريق الجنة .

وقوله تعالى : « بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم » . هو النداء الذى ينادَى به المؤمنون والمؤمنات من الملائكة يوم القيامة ، حيث يلقونهم مرحبين بهم ، مسرعين إليهم بزفّ هذه البشرى المسعدة ، مهنئين لهم بما ظفروا به من رحمة الله ورضوانه فى هذا اليوم العظيم . .

وقوله تعالى :

* « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبسْ من نوركم . . قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ».

هو وصف لموقف من تلك المواقف التى تجرى يوم القيامة بين أهل المحشر ، من خصام ، وملاحاة ، وترامٍ بالتُّهم ، وقذف بالشناعات . .

وهنا موقف بين المنافقين والمنافقات ، وبينَ المؤمنين والمؤمنات . . ذلك أنه حين يرى المنافقون والمنافقات أن المؤمنين والمؤمنات قد زايلوا موقف الحشر ، وساحة القضاء ، إلى دار الخلد والنعيم ، يسعى بهم نورهم إلى دارهم تلك ـ حين يرى المنافقون والمنافقات ذلك ، يركبهم الكرب ، ويستبدّ بهم الفزع ، بعد أن انطلق المؤمنون والمؤمنات من بينهم ، وأخذوا طريقهم إلى الجنة . . وهنا يحاول المنافقون والمنافقات أن يتعلقوا بأذيالهم ، وأن يلحقوا بهم . فينادونهم : « انظرونا » أى انتظرونا وأمهلونا قليلا

« نقتبس من نوركم » أى نمشى على نوركم ، ونتعرف على طريق السلامة بالجرى على آثاركم .

وقوله تعالى : « قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً » هو الجواب الذى يُجاب به على ماسأل المنافقون والمنافقات بقولهم : « انظرونا نقتبس من نوركم » . .

وقد يكون هذا الجواب من المؤمنين والمؤمنات ، وقد يكون من الملائكة . . ولهذا بنى الفعل للمجهول ، ذلك لأن هذا الجواب هو الجواب الذى لا جواب غيره ، وإن لم ينطق به أحد . . فهو جواب الحال ، قبل أن يكون جواب المقال . . وهو ردع للمنافقين والمنافقات ، وحبس لهم فى أماكنهم التى هم فيها لا يبرحونها ، حتى يقضى الحق فيهم قضاءه .

وقوله تعالى : « فضُرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب » .

ضرب بينهم : أى أقيم ، ورفع بين المنافقين والمنافقات ، والمؤمنين والمؤمنات ، هذا الحجاز ، وهو « سور » أى حائط ، له باب ، هو الباب الذى دخل منه المؤمنون والمؤمنات إلى ساحة الرحمة والمغفرة ، وقد أغلق بعد أن دخل المؤمنون والمؤمنات إلى رضوان الله ، وبقى فى الخارج المنافقون والمنافقات ينتظرون قضاء الله سبحانه وتعالى فيهم ، وإنه لقضاء عدل ، حيث ينال المنافقون والمنافقات جزاء ما كانوا يعملون . .

ويلاحظ هنا فى هذا الموقف ، أن المؤمنين والمؤمنات ، والمنافقين والمنافقات ، كانوا فى موقف الحساب والمساءلة ، وأن المؤمنين والمؤمنات

قد فُصل فى أمرهم ، وبرئت ساحتهم ، وسِيقوا إلى الجنة زمراً ، وأن المنافقين والمنافقات قد همّوا ليلحقوا بهم ، فضرب بينهم بهذا السد ، وهو سد يحول بين المنافقين والمنافقات وبين الخروج من مكانهم الذى هم فيه . . وفى التعبير عن إقامة هذا الحاجز أو هذا السور بين أهل الجنة وأهل النار ـ فى الإشارة إلى هذا بالضرب ، مايدل على أن هذا السور قد أقيم مرة واحدة ، فى لحظة خاطفة ، ولم يبن لبنة لبنة ، وجزءاً جزءاً . . وشبيه بهذا ما يقام من خيام ، فإنه يسمّى فى حال إقامته بالضرب . . كما يقول الشاعر :

إن السماحة والمروءة والنـــدى
فى قبــة ضُربت على ابن الحشْرجِ

كما أن الضرب للشىء يستعمل لما يلزم ويدوم منه ، كما فى قوله تعالى « وضربت عليهم الذلة والمسكنة » (٦١ : البقرة) أى لزمتهم الذلة والمسكنة لزوماً دائماً لايزول .

أما الباب الذى لهـذا السور ، فهو معدٌّ لمن بقى من أهل السلامة فى الموقف ، ولم يدخل الجنة بعد ، ولم يلحق بالذين سبقوا من المؤمنين ، حيث أبطأ به عمله . . ولـكنه مع هذا سائر على طريق النجاة . . فإذا بلغ أول هذا الطريق ، دخل من هذا الباب ، فوجد أرواح الرحمة ، والرضوان . .

وقوله تعالى : «باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » ـ إشارة إلى أن الذين يجوزون هذا السور من المؤمنين والمؤمنات ، يجدون ريح الجنة ، وراء هذا الباب القائم على السور ، أما الذين ظلوا فى موقف الحشر ، خارج هذا السور ، فإنه لايطلع عليهم فى موقفهم هذا إلا نذر الشر ، والعذاب . .

قوله تعالى :

* « ينادونهم ألم نكن معكم ؟ . قالوا بلى ! ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانىّ حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغَرور » .

أى أن المنافقين والمنافقات ، وقد وجدوا المؤمنين والمؤمنات ، أخذوا طريقهم إلى الجنة ، ولم يستجيبوا لندائهم أن:« انظرونا نقتبس من نوركم » ـ حين رأوا ذلك مجبوا لهم ، وجعلوا يسائلونهم : « ألم نكن معكم ؟ » . . أى : ألم نكن نحسب من المؤمنين ، بينكم ؟ ألم تعاملونا معاملة أهل الإيمان؟ فلماذا تتبرءون منا الآن ، وتأخذون طريقاً وحدكم ، لاحساب لنا فيه معكم؟ ويأتيهم الجواب من المؤمنين : « بلى !! » أى لقد كنتم حقًّا معنا ، ولكن بألسنتكم ـ أيها المنافقون والمنافقات ، لا بقلوبكم ـ كان إيمانكم ، وبهذا دخلتم مدخل المؤمنين فى الدنيا ، بهذه الثياب الزائفة من النفاق ، التى اتخذتموها زيًّا لكم ، لتدخلوا به فى زمرة المؤمنين .. أما قلوبكم فهى على ما هى عليه من ضلال ، وشرك ، وكفر .. وأنتم هنا فى هذا الموقف — موقف القيامة — إنما تحاسبون على مافى قلوبكم ، وقد كشف الله سبحانه وتعالى ما بها من نفاق ! ! لقد كنتم معنا ، وكنتم فى حساب المؤمنين ، لأننا لا نعلم مافى قلوبكم من نفاق وخداع . . ولكنكم كنتم فى حقيقة الأمر ، على غير سبيل المؤمنين . . فلقد « فتنتم أنفسكم » ، وأوردتموها موارد الضلال ، « وتربصتم » أى كنتم تتربصون بالمؤمنين ، وتنتظرون ما يحلّ بهم من هزيمة وخذلان ، فتنفضون أيديكم منهم ، وتجدون لكم طريقاً إلى عـــدوهم .. « وارتبتم » أى كنتم فى ريبة وشك من دين الله ، فلم تؤمنوا به عن صدق ويقين ، « وغرتكم الأمانى » أى وظللتم فى خداع أنفسكم بتلك الأمانى

الباطلة ، التى كنتم تمنونها بها « حتى جاء أمر الله » .. أى حتى جاءكم الموت ، وأنتم فى هذا الموقف من التربص والريبة والغرور .. « وغركم بالله الغرور » أى أنكم كنتم فى هذا كلّه منقادين للشيطان الذى دعاكم إليه ، وزين لكم طريق الضلال ، فاستجبتم له ، وغررتم بخداعه وضلاله .

والغَرور ، هو الشيطان ، لأن التغرير بالناس ، هو وظيفته التى خلق لها ..

قوله تعالى :

* « فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا .. مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير » ..

هو مما يَردّ به على المنافقين والمنافقات ، يوم القيامة ، بعد أن سمعوا ما يسوؤهم ، جواباً على قولهم للمؤمنين : « ألم نكن معكم ؟ » .. إنهم لم يكونوا من المؤمنين ، بل كانوا على نفاق خفىّ انكشف أمره يوم القيامة، ولهذا فهم يساقون إلى النار ، مع الكافرين ، لأنهم فى الحقيقة كانوا كافرين ، وإن حُسبوا فى ظاهر أمرهم من المؤمنين ..

وإنه لن يقبل منهم فدية يفتدون بها أنفسهم من هذا العذاب .. تماماً كما لا يقبل من الكافرين فدية .. إنهم على سواء فى الكفر والضلال .

وقوله تعالى : « مأواكم النار » تأكيد لقوله تعالى : « لا يؤخذ منكم فدية » .. فالفدية إنما هى فدية من النار ، وإذا لم تقبل الفدية فليس إلا النار ..

وقوله تعالى : « هى مولاكم » .. هى الولىّ الذى يضمكم إليه ،

وتقوم بينكم وبينه المودّة والتآخى . . إنه لابد لكم من ولىّ ، وقد انقطعت بينكم وبين المؤمنين والمؤمنات حبال الولاء ، وليس بعد ولاية المؤمنين إلا ولاية الكافرين . . والكافرون فى النار ، فخذوا مكانكم معهم فيها . .

الآيات : (١٦ — ٢٠)

* « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلُ فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » ..

فَهِمَ جمهورُ المفسرين هذه الآية على أنها خطاب للمؤمنين جميعاً ، وأن الله سبحانه وتعالى وجه هذا العتاب التهديدى للمؤمنين ، ولمّا يمض عليهم زمن وهم فى صحبة هذا الدين الذى دانوا به ، وبين يدى الرسول الكريم ، وفى مشهد من آيات الله التى تتنزل عليه ! !

وهــذا الاستفهام ، فيه إنــكار وتهــديد ، أكثر مما يحمل من إغراء وتحضيض !!

والذى ينظر فى الآية الكريمة ، وفى سياقها مع ما سبقها من آيات ، يجد أنها خطاب تهديدىّ لهؤلاء المنافقين الذين كانو يعيشون فى مجتمع المؤمنين ويُحسبون منهم .. وقد جاء هذا الخطاب التهديدى إليهم، بعد أن رأوا مصيرهم فى الآخرة، وما انكشف من شركهم وكفرهم، وأنهم حين أرادوا أن يكونوا فى زمرة المؤمنين، وبين جماعاتهم كما كانوا فى الدنيا، وحين هتفوا بالمؤمنين « ألم نكن معكم ؟ » — حين فعلوا ذلك ، تحت ثوب النفاق الذى لبسوه فى الدنيا ، قيل لهم : « بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله » ..

وإنه إذ يلقاهم هذا الخطاب التهديدى ، بعد أن رأوا — وهم فى الدنيا —

أن نفاقهم سينكشف يومَ القيامة ، وأنهم سيُحشرون مع الكافرين — إذ يلقاهم هـذا التهديد ، فإنه إنما يوقظهم من غفلتهم تلك عن أنفسهم ، وعن خداعهم لها ، وأنه قد آن لهم أن يكونوا فى المؤمنين ظاهراً وباطناً ، وإلاّ فقد عرفوا أين يكون مكانهم يوم القيامة ، إذا هم ظلوا قائمين فى هذا الموقف الذى هم فيه ، وأنه ليس لهم مأوى إلا النار ..

فقوله تعالى : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟ » ..

هو دعوة مجدّدة إلى أولئك المؤمنين الذين فى قلوبهم مرض ، من المنافقين وأشباه المنافقين ، الذين يعيشون بين المؤمنين ، ويُحسبون فى جماعتهم ، ويشهدون مشاهدهم فى الحرب والسلم ، كعبد الله بن أبىّ بن سلول ، وغيره من الذين لم تطمئن بالإيمان قلوبهم ، ولم تخشع لذكر الله وما نزل من آياته . .

* « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟» ..

أى : ألم يحن الوقت الذى تخشع فيه لذكر الله ، ولما نزل من الحق — قلوبُ هؤلاء المؤمنين الشاكّين المترددين ؟ وماذا ينتظرون بعد هـذا وقد عاشوا فى الإسلام وقتاً كافياً ، اطّلعوا فيه على سيرة الرسول فيهم ، واستمعوا إلى آيات الله التى يتلوها عليهم ؟ .

وفى تسميتهم مؤمنين ، إغراء لهم بتصحيح إيمانهم ، وبإخلاء قلوبهم من النفاق ، وإخلاص نياتهم لهذا الدين الذى لبسوه ظاهراً ، بأن يلبسوه باطناً . .

إنه أسلوب من التربية الحكيمة العالية ، التى ليس من همّها قتل المرضى ، بل همّها الأول هو الطّبُّ لدائهم ، وتقديم الدواء الناجع لعللهم ..

وقوله تعالى : « ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فَقَست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » .

هو معطوف على قوله تعالى : « أن تخشع قلوبهم لذكر الله » ـ أى ألم يجىء الوقت الذى تخشع فيه قلوب هؤلاء المؤمنين المنحرفين ، لذكر الله ، وما نزل من الحق ، وألا يكونوا كهؤلاء الذين أوتوا الكتاب من اليهود ، الذين قست قلوبهم ، فخانوا دينهم ، وعبثوا بشريعتهم ، وخرج كثير منهم جملةً عن دينه وأحكام شريعته ؟

وفى تشبيه هؤلاء المؤمنين المرتابين فى دينهم بأهل الكتاب من اليهود ـ إشارة إلى ما كان بين هؤلاء المؤمنين المنافقين ، وبين هؤلاء اليهود من اجتماع على الكيد للإسلام ، والتربص بالمسلمين . . وفى هذا ما يكشف هؤلاء المرضى من المؤمنين ، وأنّ من ينضوى منهم إلى هؤلاء اليهود ، أو يلقاهم بالمودة ، وهم على هذا الكيد للمؤمنين ، فهو من المنافقين ، وإلا كان عليه أن يعتزل مجالس هؤلاء اليهود ، وأن يقطع حبال الود التى بينه وبينهم ، والله سبحانه وتعالى يقول : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً » (١١ : الحشر) فهذا وجه بارز من وجوه النفاق ، لا يجتمع مع الإيمان فى قلب مؤمن أبداً . .

وليس القيد الوارد على حال أهل الكتاب فى قوله تعالى : « فطال عليهم الأمد » ـ ليس قيداً مشتركا بينهم وبين المنافقين وأشباه المنافقين من المؤمنين المخاطبين بهذه الآية ، وإنما هو قيد خاص بأهل الكتاب الذين صاروا إلى تلك الحال من قسوة القلوب والفسوق عن دينهم ، بعد أن تراخى الزمن بينهم

وبين نبيهم الذى جاءهم بالشريعة التى يدينون بها ، وبعد أن توارثوا هذا الداء ، فقست قلوبهم ، ولم تعد تقبل خيراً . .

وقد جعل المفسرون هذا القيد : « فطال عليهم الأمد » ـ قيداً جامعاً للمؤمنين وأهل الكتاب . . وهذا هو الذى جعلهم يجعلون قوله تعالى : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق » ـ خطاباً عامًّا للمسلمين جميعاً ، يدخل فيه صَحابة رسول الله ، كما يدخل فيه مَن فى قلوبهم مرض من المؤمنين ، وهذا لايتفق أبداً مع الحال التى كان عليها صَحابة رسول الله ، الذين أعطوْا كل وجودهم لله ، ولرسول الله ، وللدين لله ، وإنه ليس وراء ماأعطوا بقية من مشاعر الخشوع والولاء تُعطَى فى هذا المقام !

قوله تعالى :

* « اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » .

هو خطاب لهؤلاء المؤمنين المنافقين الذين لم يملأ الإيمان قلوبَهم خشية وجلالا وولاء لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين . . فهؤلاء إنما هم فى شك من البعث وأن هذا الشك هو الذى أقامهم من الدين هذا المقام المنحرف ، ولهذا كان من تمام دعوتهم إلى تصحيح إيمانهم ، أن يكون إيمانهم بالبعث واقعاً موقع اليقين من قلوبهم وعقولهم ، وأنهم إذا كانوا فى شك من هذا ، فليعلموا أن أمر البعث لا يختلف عما يرونه بأعينهم من إلباس الأرض الميتة ثوبَ الحياة .. فالله سبحانه الذى يحيي الأرض بعد موتها ، لايعجزه أن يحيي الأجسام بعد موتها ، فهذا من ذاك .سواء بسواء .

وقوله تعالى « قد بينا الآيات لقوم يعقلون » استدعاء لهؤلاء المخاطَبين ، المنحرفين ، أن يستدعوا عقولهم — إن كانت لهم عقول — وليتدبروا موقفهم من البعث ، بالنظر إلى ماتفعله قدرة الله سبحانه بالأرض الميتة !

قوله تعالى :

* « إن المصَّدِّقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم » .

هو دعوة مجدَّدة أيضا إلى هؤلاء المؤمنين المنحرفين ، أن ينفقوا فى سبيل الله ، بعد أن يصححوا إيمانهم ، وأن يدخلوا دخولا كاملا فى دين الله ، وأن يُصبحوا من المؤمنين الذين خاطبهم الله سبحانه فى الآيات السابقة بقوله : « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفَه له وله أجر كريم » . . فليلحقوا بهؤلاء المؤمنين ، الذين دُعوا إلى الإنفاق فى سبيل الله واستجابوا لما دعوا إليه . . إنهم إن فعلوا كان لهم ما لإخوانهم الذين سبقوهم من مضاعفة الجزاء ، ومن الأجر الكريم ، الذى أعدّ لهم . . وهذا هو السر — والله أعلم — فى هذا التشابه الذى جاء عليه نظم الآيتين :

* « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفَه له وله أجر كريم » .

* « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم » .

والمصَّدّق : أصله المتصدق ، قلبت التاء صاداً ، وأدغمت الصاد فى الصاد .

قوله تعالى :

* « والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ، أولئك أصحاب الجحيم » .

هو معطوف على قوله تعالى : « إن المصدقين والمصدقات » .

أى أنه إذا كان الإنفاق فى سبيل الله مما يُردّ إلى المنفق ،مضاعفَ القدر ، كريم الأجر — إذا كان ذلك كذلك ، فإن هذا الإنفاق لايزكو ، ولايطيب ، ولايعطى هذاالأجر الكريم — إلا إذا كان عن إيمان وثيق بالله ، وبرسوله . .

فالإيمان بالله ورسوله ، إيماناً خالصاً من كل شائبة ، هو الذى يزكّى كل عمل يعمله المؤمن ، قلّ هذا العمل أو كثُر ، وهو الذى يرفع العبد عند ربه إلى درجه الصديقين والشهداء . .

والصدّيق ، هو كثير الصدق ، أى من كان مصدقاً بكل مانزل من آيات الله ، وبكل ماسمع من رسول الله ، لايرتاب فى شىء ، ولايتوقف عند شىء . . سواء عقله أو لم يعقله ، وسواء وافق هواه أو خالفه . . فهذا هو الإيمان فى صميمه . . إنه ولاء ، وطاعة ، وإسلام ، واستسلام . . ومن هنا كان «أبوبكر» رضى الله عنه « الصدّيق» الأول ، و « الصديق » الأكبر ، لأنه بعد أن آمن بالله وبرسوله ، جعل عقله وراء كل ما يعرض له من أمر الله ورسوله . . وفى حادث صلح الحديبية ، شاهد لهذا ، فقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، قد سار بالمسلمين عام الحديبية ، على أن يدخل هو والمسلمون المسجد الحرام ، وذلك لرؤيا رآها النبى الكريم ، وأعلم المسلمين بها . . فلما وقفت قريش فى وجه الرسول وأصحابه ، وهم على مشارف مكة ، وانتهى الأمر بينه وبين قريش إلى أن يعود النبى بأصحابه هذا العام ، وألا يدخلوا على قريش مكة فى عامهم هذا ، على أن يعودوا حاجّين فى العام القادم ، بعد أن تُخلىَ قريش مكة لهم — وإنه لما انتهى الأمر إلىهذا الموقف ، اضطرب المسلمون ، وكثُرت تساؤلاتهم عن هذا الوعد الذى وعدهم النبى إياه من دخول المسجد الحرام — كان أبو بكر رضى الله عنه ، هو الذى لم يقع فى قلبه شىء من

هذا الذى وقع فى نفوس المسلمين ، حتى إنه جاءه عمر متسائلا ، قال له تلك القولة القاطعة الحازمة : « الزم غرزه » أى قف عند حدّك ، ولا تراجعْ فى أمر فعله النبى ! وهذا ما جاء به قوله تعالى بعد ذلك ، فى القرآن المدنىّ : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم » (٣٦ : الأحزاب) .

فمن آمن مثل هذا الإيمان أو قريباً منه ، فهو من الصديقين . . فصحابة رسول الله ، أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وأبو عبيدة ، وعبد الرحمن بنِ عوف ، وكثير من وجوه الصحابة هم من الصديقين ، وإن اختلفت منازلهم ، فى مقام الصدّيقيّة

والشهداء : جمع شهيد وشاهد ، وهم الذين آمنوا بالله ورسله ، فهم صديقون وهم شهداء عند ربهم ، وتلك صفة أمة محمد صلوات الله وسلامه عليه ، التى يشير إليها سبحانه وتعالى بقوله : « وكذلك جعلنا كم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » (١٤٣ : البقرة)

كما يصحّ أن يكون معنى الشهداء ، هم الذين شهدوا بصدق الرسول ، وأسلموا له ، حين دعاهم إلى الله ، وتلا عليهم آيات الله . .

وهذا التأويل للشهداء ، هو أولى عندنا من القول بأنهم هم الذين يُقتلون فى سبيل الله . . وذلك أن القرآن الكريم لم يغلّب إطلاق لفظ « شهيد » أو شهداء على الذين يقتلون فى سبيل الله ، بل غلّب على ذلك لفظَ القتل. كما فى قوله تعالى : « ومن يقاتل فى سبيل الله فيُقتلْ أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » (٧٤ : النساء) وكما فى قوله سبحانه : « ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون » (١٥٧ آل عمران) .. وفى استعمال لفظ القتل فى مقام الجهاد فى سبيل الله ، ما يكشف للمجاهد عن الموقف الذى يُدعى إليه ، وأن مما قد يكون

فى هذا الموقف ، القتلُ ، فليوطن نفسه على هذا ، فإذا خرج على تلك النّية ، كان قوة عاملة من قوى الحق ، فلا يحجم عن الإقدام ، ولا يفرّ عند اشتداد البأس ، ولا يهاب القتل الذى أعدّ نفسَه له . . وهذا خير مما لو صور له الموت فى موقف القتال فى صورة مجازيّة ، يبدو فيها الموت فى صورة غير صورته التى يلقاه الناس عليها ، ثم إذا استقبله المجاهد فى موقف القتال على حقيقته ، أنكر ما عرف منه فى تلك الصورة المجازية ، والتمس لنفسه السبيل أو السبل التى تباعد بينه وبينه ! !

ومن جهة أخرى ، فإن الذين يُقتلون فى سبيل الله ، قد كان لهم فى القرآن الكريم ذِكر خاص بهم ، يشير إلى مقامهم عند الله ، وما أعد الله لهم من حياة طيبة فى الدار الآخرة . . وفى هذا يقول سبحانه : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١٧٠ : آل عمران) . . وعن هذا المعنى جاء الوصف لمن يقتلون فى سبيل الله بأنهم شهداء . . إذ كان موتهم لم يقطع الحياة عنهم ، فهم أحياء يُرزقون عند ربهم ، وهم فى مقام عالٍ يشهدون منه ما يجرى فى العالم الدنيوى . . !

وعلى هذا يكون قوله تعالى : « والشهداء » معطوفا على الصديقين ، أى : « والذين آمنوا بالله ورسله » أولئك هم الصديقون ، وهم الشهداء عند ربهم

وقوله تعالى : « عند ربهم » متعلق بالصديقين والشهداء ، وقع موقع الحال . .

وقوله تعالى : « لهم أجرهم ونورهم » ـ خبر ثان عن الذين آمنوا بالله ورسله .

قوله تعالى :

* « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم »

هو وعيد لهؤلاء المنافقين المكذبين بآيات الله ، فهم فى زمرة الكافرين ، وليس للكافرين من مصير إلا عذاب الجحيم . .

[الحياة الدنيا . . ما نأخذ منها وما ندع]

قوله تعالى :

* « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخرٌ بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفارَ نباته ثم يَهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً ، وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . »

هو خطاب عام للناس جميعاً ، مؤمنهم ، ومنافقهم ، وكافرهم . . وفى هذا الخطاب كشف مبين عن حقيقة الحياة الدنيا ، حتى يراها الناس فى وضعها الصحيح ،فلا يغتروا بظاهرها ، ولا يفتتنوا بما تبدى لهم من صور الفتنة والإغراء . . فإن أكثر ما يضل الناس عن طريق الحق ، ويعمّى عليهم سبل الخير ، هو افتتانهم بزخارف الدنيا ، وانخداعهم بهذا السراب الذى تلوّح لهم به ، فى معرض الأمانىّ الخادعة ، والآمال الكاذبة . .

فالحياة الدنيا ـ فى حقيقتها ـ « لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد »

إن كل ما فى هذه الحياة الدنيا ،هو تافه قليل الغَناء ،إذا ووزن بما فى الآخرة . . من نعيم ، وعذاب . . فما ينعم به الذين يَحسبون أو يحسبه غيرهم ـ أنه نعيم فى الدنيا ، هو لَمة من سراب ، أو قطرة من محيط مما أعد الله سبحانه لعباده المكرمين ، من نعيم خالد لا يزول، كامل ، لا يُنقص منه شىء . . وما يشقى به

الذين يحسبون أو يحسبهم الناس أنهم أشقياء فى الدنيا ، هو نعيم ، بالنسبة لعذاب الآخرة وأهوالها . .

فكل مافى هذه الحياة الدنيا ، من نعيم أو شقاء ، هو بالنسبة لنعيم الآخرة وشقائها ، لعب ولهو . . وإذ كان ذلك هو كل مافى الدنيا ، فإن من شأن الراشدين العقلاء ألاّ يقفوا طويلا عند هذا اللهو واللعب ، بل إن عليهم أن يتجاوزوا هذا إلى ما وراء هذه الحياة ، وأن يجعلوا من الدنيا مَعْبراً إلى الحياة الآخرة ، وأن يكون حظهم من دنياهم هو التزود ليوم القيامة ، بالأعمال الطيبة بعد الإيمان بالله واليوم الآخر وملائكته ، وكتبه ، ورسله ..

وقوله تعالى : « وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد » ..

هو معطوف على قوله تعالى : « لعب ولهو » : أى أن الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بين الناس وتكاثر فى الأموال والأولاد ..

وفى قوله تعالى : « زينة » إشارة إلى أن الحياة الدنيا ، وإن كانت للعب واللهو ، فإنها كذلك معرض من معارض الزينة ، حيث يجد فيها الإنسان ما يتحلى به ظاهراً وباطناً . . فيتحلى ظاهراً بالثياب الجميلة النظيفة ، التى تبدو فيها صورته جميلةً مقبولة ، ويتحلى باطناً ، بحلية الإيمان بالله ، وبما يدعو إليه هذا الإيمان من مكارم الأخلاق . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: « يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير » (٢٦ : الأعراف) فهذه هى الزينة التى تجمّل الإنسان ظاهراً وباطناً .. زينة الجسد ، وزينة القلب والروح ..

وفى قوله تعالى : « وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد » — إشارة إلى مايجرى بين الناس من تنافس فى الاستكثار من متاع الحياة الدنيا ،

وزينتها من أموال وأولاد ، لا لسدّ الحاجة ، وإنما لإشباع رغبة التعالى والتفاخر، تلك الرغبة التى كلما أُلقى إليها ما تشتهيه ، اشتد جوعها ، وازداد نَهمها ، فلا تشبع أبداً ..

هذا ، ويلاحظ أن الآية الكريمة جمعت بين خمسة أمور ، من أمور الدنيا ، هى موطن الفتنة بها ، ومصدر الداء لكل من كان من صرعاها .. وهى اللعب ، واللهو ، والتزين ، والتفاخر ، والتكاثر فى الأموال والأولاد ..

ويلاحظ كذلك ، أن هذه الأمور ليست على سواء فيما يصيب الناسَ منها من ضرر ..

فاللعب ، وهو شغل الجسد ، والعقل ، بما يلعب به اللاعبون — هو أكبر هذه الأمور ضرراً ، وأشدها بلاء على الإنسان ، حيث يستهلك وجوده كله ، حسّاً ، ومعنى ، فيما لا طائل تحته .. إنه لعب كلعب الأطفال . .

واللهو ، وإن كان ضرباً من اللعب ، إلا أنه قد يكون فى جانب من جانبى الإنسان ، ظاهره ، أو باطنه .. فهو بهذا فى المرتبة الثانية من السوء والبلاء ..

ثم تجىء الزينة ، لتأخذ مكاناً وسطاً بين اللعب واللهو ، وبين التفاخر والتكاثر . .

فلو وقف المرء بالزينة عند الحد الذى لا يجاوز به المطلوب ، من التجمل ، إلى طلب التفاخر والتكاثر — لكان ذلك محموداً غير مذموم ..

ومن هذا ندرك أن الدنيا ليست شيئاً بغيضاً ينفر منه الإنسان ، ويفرّ من

وجهه ، إذا هو أراد النجاة والسلامة ، وإنما هى مَراد فسيح ، ومجال متسع للسعى والعمل ، ولابتغاء كثير من وجوه الخير والنفع منها ، إذا عرف المرء كيف يسوس حياته فيها ، ويقيمها على طلب الطيّب النافع منها ، على أن يكون ذلك فى قصد واعتدال ، وبمعزل عن طلب التفاخر والتعالى ، فإن من شأن التعالى والتفاخر أن يجور على حياة الإنسان نفسه ، كما أن من شأن هذا أن يحمله على الجور على حقوق الناس ، ابتغاء الوصول إلى الغاية التى يبلغ فيها حدّ التعالى الذى يملؤه فخراً وتيهاً . .

فعَرْض الدنيا فى هذا المعرض الذى جاءت به الآية الكريمة ، ليس دعوة إلى الزهد فى الدنيا ، زهداً يقيم الإنسان فيها مقام الضائع المستكين ، الذى لا يمسك فى يده بشىء منها — كما فهم ذلك بعض الذين لا يعرفون حقيقة هذا الدين ، ولا يدركون مراميه البعيدة ، فانسحبوا من معركة الحياة ، وأخلوا مكانهم من ميادينها العاملة ، فكانوا أشبه بالمنافقين الذين اندسوا فى جيش المجاهدين ، فلما التحم القتال ، أعطوا العدوّ ظهورهم ، وولوا مدبرين . .

إن الإسلام . إذ يعرض الدنيا فى هذا العرض الذى يهوّن منها ، ويخفف من موازينها ، إنما يواجه بهذا العرض النفس البشرية ، التى من طبيعتها الإقبال على الدنيا ، والتكالب على شهواتها . . وتلك حال تحتاج إلى دعوة تكسِر من حدة هذا التكالب ؛ وتقيمه على صراط مستقيم . .

فالناس — كل الناس — ليسوا فى حاجة أبداً إلى من يدعوهم إلى الإقبال على الدنيا ، وإلى أخذ حظوظهم منها ، إذ هم مقبلون بطبعهم عليها ، مدعوون بحكم غريزتهم إلى الاندفاع فى هذا الإقبال إلى مالا نهاية له . .

وإنما الناس — كل الناس — محتاجون إلى من يُمسك زمامهم ويروّض غرائزهم ، فى تعاملهم مع الدنيـا ، وفى تنافسهم المهلك على ما فيها من مال ومتاع ..

فـكل معرِض يعَرض فيه القرآن الـكريم ، الحياةَ الدنيا ، مستخفًّا بها ، مهونًا من شأنها ، إنما هو دواء ملطف لهذا السُّعار الذى يدفع الناس دفعاً فى غير وعى ، إلى أن يُلقُوا بأنفسهم إلى مواطن التهلـكة ، دون أن يأخذوا حِذرهم مما يلقاهم على هذا الطريق المحفوف بالمخاطر . .

وقوله تعالى : « كمثل غيث أعجب الـكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً » — هو تشبيه لحال الدنيا ، وما يبدو للناس منها من مفاتن ومغريات ، ينخدع بها من يلهيهم ظاهر الأمور عن حقائقها ..

فالحياة الدنيا — فى ظاهرها — أشبه بغيث وقع على الأرض ، فبعث الحياة فى مَواتها ، وأخرج منها زروعاً ناضرة ، وَحدائق ذات بهجة ، ثم لا تلبث هذه الزروع وتلك الجنات أن تهيج ، وتبلغ غايتها ، ثم لا تلبث كذلك أن تأخذ فى الذبول والضمور ، ثُم تجفّ ، وتصبح هشيما تذروه الرياح ..

هذه هىَ الدنيا ؛ زرع ، يملأُ الأرض بهجة وجمالا ، ثُم إذا هذا الزرع النضر البهيج ، قد زال عن وجه الأرض ، وصار حطاما ، وصارت الأرض خَواء خلاء ..

فمن أقام وجوده فى هذه الدنيا على أنها زرع لايذبل ، ولا يجفّ ، ولا يتحول عن حاله ، فهو مخطىء ، ومن أقام وجوده فيها ، على أنها جدب وقفر ، فهو مخطىء كذلك . . وإنما هى زرع وحصاد ، وخصب وجدب ، وحياة وموت ! . .

وفى قوله تعالى : « كمثل غيث » — إشارة إلى أن الناس هم غيث هذه الأرض ، وأنهم هم الذين يعمرونها ، ويُلبسونها حللا من العمران .. ولكن هذا العمران مهما امتد وعظم فهو إلى خراب ، وزوال ! .

وقوله تعالى : « أعجب الكفار نباته » — الكفار ، جمع كافر ،والكافر يطلَق على الزارع ،لأنه يكفر البذر فى الأرض ؛ أى يُغطيه ، والكفر ستر الشىء ، ووصف الليل بأنه كافر لأنه يخفى الأشياء بظلامه ، وكفر النعمة ، وكفرانها ، سترها بترك أداء شكرها .. والكافر على إطلاقه : هو من يجحد الوحدانية ، أو النبوة ، أو الشريعة .

والمعنى يمكن أن يكون على أن المراد بالكفار الزراع ، كما يمكن أن يكون على أن المراد به الذين لا يؤمنون بالله ، فهم الذين يُعجبون بزهرة الحياة الدنيا ، ويفتنون بها ..

وقوله تعالى : « وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » ..

هو تعقيب على تلك الأوصاف التى وصفت بها الدنيا ،من أنها لعب ولهو، وذلك بعرض ما يقابلها ، وهو الآخرة ، التى لا لعب فيها ولا لهو ، بل كل أمرها جِدٌّ فى جدّ .. ففيها عذاب شديد ، وفيها مغفرة من الله ورضوان ..

وقدّم العذاب على المغفرة ، لأن الآية فى مواجهة الذين خُدعوا بالحياة الدنيا وأذهبوا طيباتهم فيها .. ولهذا جاءت فاصلة الآية مؤكدة لما بدئت به : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » ..

* * *

الآيات : (٢١ — ٢٤)

* « سَابِقُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٢١) مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَاكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » ..

بعد أن كشفت الآيات السابقة عن الوجه الصحيح للدنيا ، وأنها لعب ولهو وزينة وتفاخر ، وتكاثر فى الأموال والأولاد ، وأنها فى حقيقتها أشبه بالزرع يبدو ناضراً جميلا معجباً ، ثم لايلبث أن يذبل ويصير حطاماً — كان من تمام الحكمة أن يلفت الناسَ إلى الوجه الذى يتجهون إليه ، إذا هم عرفوا من أمر الدنيا ما كشفت لهم عنه آيات الله — فكان قوله تعالى : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله » —

كان ذلك بياناً للاتجاه الصحيح الذى ينبغى أن يتجه إليه الناس ، ويتنافسوا فى طلب المزيد منه ، وهو العمل للدار الآخرة ، وابتغاء مرضاة الله ، والفوز بمغفرته ، وبما أعد من نعيم فى جنات عرضها السموات والأرض ، للذين يؤمنون بالله ورسله ..

فقوله تعالى : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم » هو فى مقابل قوله سبحانه :

« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد .. »

فمن كان يطلب التفاخر والتكاثر ، فليكن ذلك فى مجال الاتجاه إلى الله سبحانه ، وابتغاء مغفرته ورضوانه بالعمل الصالح الطيب ، الذى يقوم فى ظل الإيمان بالله واتقاء محارمه ، ففى هذا المجال يُحمد التنافس والتسابق ، وفى هذا الميدان يَطيب الجمع ، والاستكثار ، حيث يُدّخر ليوم عظيم « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » (٣٠ : آل عمران) ..

يقول السيد المسيح عليه السلام فى بعض عظاته:

« لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض ، حيث يُفسد السوس والصدأ ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون ، بل اكنزوا لكم كنوزاً فى السماء ، حيث لا يفسد سوس ولا صدأ ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون ، لأنه حيث يكون كنزك هناك ، يكون قلبك أيضاً » ..

وفى وصف الجنة بأنها عرض السموات والأرض ، إشارة إلى سعتها التى لاحدود لها ، والتى لا يزاحم فيها أحد أحداً ، حيث يتبوأ أهلها حيث

يشاءون منها .. فما أوسع هذه الجنة التى عرضها كعرض السماء والأرض .. فكيف يكون طولها ؟.

وقوله تعالى : « أعدت للذين آمنوا بالله ورسله » - إشارة إلى أن هذه الجنة لا يدخلها إلا من كان مؤمناً بالله ، وبرسل الله .. فالإيمان بالله ورسله ، شرط أولُ لدخول هذه الجنة .. فمن كان مؤمناً بالله ورسله ، فهو من أهل الجنة ، وإن عُذّب بالنار ، جزاء ما ارتكب - مع الإيمان - من آثام ، وما اقترف من ذنوبا . . وفى الأثر : « أنه لا يبقى فى النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » . .

وفى جمع الرسل إشارة إلى أن الإيمان برسل الله جميعاً هو الإيمان الحق ، إذ كان الرسل جميعاً على دين واحد .. هو الإسلام . . كما يقول سبحانه : « إن الدين عند الله الإسلام »

وقوله تعالى : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » . .

الإشارة هنا قد تكون للجنة ، أى أن هذه الجنة ، التى أعدها الله سبحانه للذين آمنوا بالله ورسله ، هى من فضل الله عليهم .. وقد تكون الإشارة للإيمان بالله ورسله ، فهو من فضل الله على المؤمنين ، إذ هداهم للإيمان ، وفتح قلوبهم وعقولهم له ، وهذا ما يشير إليه سبحانه على لسان المؤمنين فى الجنة :

« وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدىَ لولا أن هدانا الله » (٤٣ : الأعراف) .

قوله تعالى :

* « مَا أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من

قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » .

أى أنه ماحَدَث حَدَث فى الأرض ، أو لإنسان من الناس ، إلا كان ذلك أمراً مقدوراً فى كتاب الله ، من قبل أن يقع هذا الأمر ، ويأخذ مكانه فى الأرض ، أو فى حياة الناس . . وقوله تعلى : « نبرأها » أى نخرجها من عالم الخفاء إلى عالم الظهور . . ومن أسمائه سبحانه « البارىء » الذى برأ الوجود أى أوجده . .

وفى التعبير عن وقائع الأمور وأحداثها بأنها « مصيبة » — إشارة إلى أن المكاره هى التى تُلفت الناس أكثر من غيرها ، وأنها هى التى تثير تساؤلاتهم ، وتشغل أفكارهم . . أما مواقع النعم والإحسان فقلّ أن يلتفت الناس اليها ، وإن التفتوا اليها أضافوها إلى أنفسهم ، واعتبروها من كسب أيديهم وأن كثيراً منهم من يقول ـ بلسان الحال أو لسان المقال ـ قولة قارون: « إنما أوتيته على علم عندى » (٧٨ : القصص)

والمخاطَبون بهذا ، هم أولئك الذين دُعوا إلى المبادرة إلى الإيمان ، والسعى حثيثا إلى الله ، وإلى ابتغاء مرضاته وهم عاكفون على متاع الحياة الدنيا ، وشهواتها ـ فهؤلاء يقفون من الإيمان بالله ، موقف فتور ، وتخاذل . . ففى إيمانهم دَخَل ، ومن هنا فإنهم يرون مايقع بهم من مكروه ، هو من المصائب التى تملأ نفوسهم سخطا ، فلايستسلمون لأمر الله ، ولايرضون بما حكم به فيهم . .

فقوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها » — هو خطاب الناس عامة ، والمؤمنين بالله خاصة ، ولهؤلاء الذين فى قلوبهم مرض على وجه أخص ..

قوله تعالى :

* « لـكيلا تأسوا على ما فاتـكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » . .

الأسى : الحزن على فائت ، والأسف . أشد من الحزن .

والتعليل هنا هو معلول لمحذوف ، يُفهم من سياق الآية السابقة ، وتقديره أننا قد بينا لـكم حقيقة ما يصيبكم ، وأنه قَدَر مقدور عليـكم فى كتاب ـ الله بيّنّا لـكم هذا لـكيلا تأسوا على ما فاتـكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ، إذ كان ذلك كله ، من عند الله ، الذى يملك كل شىء .. وهو سبحانه المتصرف فى ملـكه كيف يشاء ، لا معقب لحـكمه . .

وإذ كان ذلك كذلك ، فإن من شأن المؤمن بالله أن يرضى الرضا المطلق بكل ما يصيبه من محبوب أو مكروه .. فالإيمان ، ولاء ، ورضًى ، وتسليم ، وإنه لا يجتمع إيمان واعتراض على حكم أحكم الحاكمين ، رب العالمين .. وذلك هو عزاء المؤمن عند كل مصيبة ، ورَوْح نفسِه عند كل كرب . . وهو لطف من لطف الله بعباده المؤمنين ، الذين تخفّ عنـدهم المصـائب ، ويستساغ لديهم طعم المـكاره .

أما غير المؤمنين ، أو من فى قلوبهم مرض من المؤمنين ، فإن وقع المصائب عليهم أليم ، ونزول المـكاره بهم بلاء لا يُحتمل .. وهذا من العقاب المعجّل فى الدنيا لمن لا يؤمنون بالله .. فإن أى مكروه يصيبهم فى الدنيا — وهيهات أن يَسلم أحد من مكارهها — يقطع نفوسهم حسرة ، ويملأ قلوبهم كمداً .

هذا فى مقام المـكروه ، أما فى مقام المحبوب ، فإن المؤمن إذا أصابه خير ، ولبسته نعمة ، لم يحمله ذلك على الزهو والاختيال ، ولم ينظر إلى ما أصابه من

فضل ـ إلاّ على أنه ابتلاء من الله ، وأنه مطالب بحقّ الشكر على ما أنعم به عليه ، كما يقول سبحانه على لسان سليمان عليه السلام : « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر » (٤٠ : النمل) وأما غير المؤمن ، أو المؤمن الذى فى قلبه مرض ، فإن النعمة التى تقع ليده من عند الله ، تفتح له طرقاً إلى الاستعلاء والزهو ، فيخيل إليه أن ذلك لمزيّة فيه ، ولتفرده بصفات ليست لغيره ، وأنه بهذا مالك أمر نفسه ، قادر على أن يملك أكثر مما ملك ، ويبلغ من الحياة والسلطان أكثر مما بلغ . . فلا يرضى بما أصاب ، ولا يقنع بما حصّل ، ولو ملك الدنيا جميعاً . .

وقوله تعالى : « والله لا يحب كل مختال فخور » — إشارة إلى أن هذا الذى لا يضيف وجودَه إلى الله ، ولا يقف بالنعم التى يسوقها الله إليه فى محراب الحمد والولاء لله — هو فى معرض التعرض لسَخَط الله وغضبه ، وحسبه بهذا شقاء وبلاء .

قوله تعالى :

* « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتولّ فإن الله هو الغنىّ الحميد » .

هو بدل من قوله تعالى : « والله لا يحب كل مختال فخور » . فإن من شأن المختال المعجب بنفسه ، الفخور بما فى يده ، أن يضن بماله الذى لا يرى لأحد فيه حقًّا ، لأنه ـ كما يعتقد باطلا — يرى أن ذلك من كسبه ، ومن معطيات تدبيره وحوله ، ثم إنه لا يقف عند هذا ، بل سرعان ما يتحول إلى داعية من دعاة الإمساك عن الإنفاق فى سبيل الله ، ليقوّى بذلك موقفه ، ويدعَم جبهته ، فإن أهل الضلال إنما يأنسون بإخوانهم ، ويتقوّون بالإكثار من أمثالهم ، مَثَلُهم فى هذا كمثل الشيطان إذ ضل وغوى ، فكان دعوة للغواية والضلال .

قوله تعالى : « ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » — أى ومن يعرض عن الاستجابة لدعوة الله ، والإنفاق فى سبيل الله ، فقد ظلم نفسه ، وأوردها موارد السوء ، وأغلق بيديه هذا الباب الذى فتحه الله له ، ليدخل فى رحمته ، وينزل منازل رضوانه .. أما الله سبحانه وتعالى ، فهو الغنى الذى بيده خزائن السموات والأرض ، وما دعوته سبحانه وتعالى ، لعباده أن ينفقوا مما أعطاهم ، إلا فضلا من فضله عليهم ، وإحسانا من إحسانه إليهم . إذ أفسح لهم المجال للإنفاق على الفقراء والمساكين ، الذين لو شاء الله سبحانه لأغناهم ، ولسدّ الطريقَ على المنفقين عليهم ، ولحرمهم ثواب هذا العمل المبرور .

وفى وصفه سبحانه بأنه « الحميد » بعد وصفه جل شأنه بأنه « الغنى » — فى هذا إشارة إلى أنه سبحانه هو المستحق للحمد وحده . على السراء والضراء ، وعلى الغنى والفقر ، وأنه سبحانه — هو الغنى الذى لا تنفد خزائنه — لم يُفقر الفقراء ويحرم المحرومين إلا لحكمة وتقدير ، وما كان من حكمة الله وتقديره فلا يستقبله المؤمن إلا بالحمد والرضا .

الآيات : (٢٥ — ٢٩)

* « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً

وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز » .

البينات : المعجزات التى يضعها الله سبحانه فى يد رسله ، لتقوم بين الناس شهادةً على أنهم مبعوثون من عند الله ، إلى عباده .

والكتاب : هو ماينزل الله سبحانه وتعالى على رسله من كتب، كالتوراة والزبور ، والإنجيل،والقرآن ..وسمى ما أنزل على الرسل من كتب ، بالكتاب، إشارة إلى أن جميع الكتب السماوية كتاب واحد ، فى دعوتها إلى الحق ، وإلى الخير .

والميزان ، هو شريعة الله التى يدعو إليها رسلُ الله ، بكتاب الله الذى فى أيديهم .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الله سبحانه : قد وصف ذاته بأنه « الحميد » المستحق للحمد على ما أنعم على عباده ، ولما كان من أجلّ هذه النعم

نعمةُ الهداية إليه ، فقد ناسب أن تُذكرهنا هذه النعمة الجليلة،نعمة إرسال الرسل، وما معهم من كتب الشرائع ، وما في أيديهم من معجزات ، تشهد لهم بأنهم رسل الله ، وأن دعوتهم التي يحملونها إلى الناس هي دعوة الله .

وقوله تعالى : « ليقوم الناس بالقسط» هو بيان الحكمة من إرسال الرسل، وما يحملون إلى الناس من آيات الله وكلماته ، وما تحمل هذه الآيات والكلمات من أحكام وشرائع — فالحكمة من هذا ، هي هداية الناس ، وإقامتهم على طريق الحق والخير ، لتطيب لهم الحياة ، ولتقوم بينهم روابط الأخوّة والمحبة والتعاون على البر والتقوى . هذا هو المقصد الأول لما يبشر به الرسل في الناس، من الدعوة إلى الله ، وإلى دين الله .. ولكن دعوة الخير شيء ، والمدعوون إليها شيء آخر .. إنها أشبه بريح محملة بالطيب ، فتنتعش بها نفوس وتختنق بها نفوس.. أوهي أشبه بالشمس ،تشرق فتكتحل بنورها كثير من الكائنات، ويحيا بحرارتها كثير من المخلوقات ،على حين يعمى في ضوئها كثير من العيون ، ويموت تحت أشعتها كثير من الجراثيم ، والهوامّ !

وقوله تعالى :

* « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » .

نَظَرَ أكثر المفسرين إلى « الحديد » هنا ، على أنه إنما ذُكر في معرض التعداد لنعم الله على عباده ، وأنه إذا كان بَعْثُ الرسل نعمة من أجلّ النعم ، فإن الحديد كذلك نعمة من النعم العظيمة ، التي يدفع به الناس عدوان بعضهم على بعض ، كما يتخذون منه أدواتٍ كثيرةً غير أدوات الحرب والقتال .

عند هذه النظرة وقف المفسرون . . ولم نرأحداً — فيما بين أيدينا من كتب التفاسير — قد جاوز هذه النظرة ، وجعل للحديد شأناً غير هذا الشأن الذى له في حياة الناس ، كمعدن من المعادن التي بين أيديهم . .

وأول ما يُلفت النظر من أمر الحديد هنا ، هو أنه خُصّ بالذكر من بين المعادن كلها ، وهو ليس أكثرها فائدة ، ولا أعظمها نفعاً .

ثم إنه مع الاختصاص بهذا الذكر من بين المعادن ، قد ازداد شرفا وعظم قدراً بأن سميت سورة كريمة من سور القرآن الكريم به ..

وإذا كان الأمر كذلك ، فإنه لا بد أن يكون للحديد هنا شأن غيرُ شأنه المعروف ، بمعنى أن ذكره فى مواجهة ذكر بعثة الرسل ، وما يحملون من آيات الله وكلماته ، لا بد أن يكون مقصوداً لأكثر من معنى غير المعنى المعروف له . .

والذى وقع لمفهومنا من ذكر الحديد هنا — والله أعلم — هو أنه يشير إلى ما يحمل الرسل إلى الناس من وعد ، ووعيد ، ومن يد تمتد بالخير والنجاح، والسلامة لمن يستجيبون لهم ، وينضوون تحت أجنحتهم ، ويد تمتد بالبلاء ، والهلاك لمن يلقونهم بالعناد ، ويرجمونهم بالسفاهات والضلالات . .

فمع كل رسالة كل رسول من رسل الله ، بشريات ومهلكات ، بشريات للمؤمنين ، ومهلكات للمكذبين ، وفى أعقاب كل دعوة من دعوات الرسل حصاد كثير ، بعضه للصون والحفظ ، وبعضه للضياع والانحلال ..

فالناس قبل بعثة الرسول إليهم يتركون لما هم فيه ، من خير وشر ، ومن هدًى وضلال ، فإذا جاءهم رسول من رسل الله ، وبلغهم رسالة ربه ، قامت عليهم الحجة ، وأخذوا بما أنذروا به ، كما يقول سبحانه : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (١٥ : الإسراء) .

فآيات الله التى ينزلها للناس على يد رسله هى أشبه بالحديد ، فيه بأس شديد ومنافع للناس .. ولهذا أشير إلى الحديد هنا بقوله تعالى: «وأنزلنا الحديد» فالحديد هنا هو البأس الذى ينزل مع آيات الله ، وهو الزواجر التى تحلّ بالمكذبين

المحاربين لله ولرسله .. والحديد أيضاً هو هذا الخير الكثير الذى تتلقاه النفوس المهيأة للإيمان من آيات الله وكلماته المنزلة على الرسل . . وهذا لا يمنع من أن تبقى للحديد صفته المادية التى يُعرف بها ، فيتخذ منه فيما يتخذ أدواتُ الحرب للجهاد فى سبيل الله ، وأنه كما يجاهد الرسل والمؤمنون معهم ، أعداء الله بألسنتهم ، فإنهم يجاهدون بأيديهم ، ويدفعون بغيهم وعدوانهم بسيوفهم .

وقُدّم ما فى الحديد من بأس شديد على ما فيه من منافع ، لأن أكثر ما تنجلى عنه دعوة رسل الله ، هو هلاك الأكثرين ، ونجاة القليلين . كما يقول سبحانه عن دعوة نوح عليه السلام : « وما آمن معه إلا قليل » (٤٠ : هود) وكما يقول سبحانه مخاطباً النبى الكريم . « وما أكثرُ الناس ولو حرصت بمؤمنين » (١٠٣ : يوسف) .

قوله تعالى : « وليعلم الله من ينصره ورسلَه بالغيب » — هو معطوف على قوله تعالى « ليقوم الناس بالقسط » .. فهو تعليل آخر يكشف عن وجه ثان من وجوه الحكمة فى بعثة الرسل ، وما يضع الله سبحانه وتعالى فى أيديهم من معجزات ، وما ينزل عليهم من آياته وكلماته ..

والحكمة الأولى من بعثة الرسل هى هداية الناس ، وإقامتهم على طريق الحق والعدل ..

والحكمة الثانية ، هى أن تنكشف بدعوة الرسل أحوالُ الناس ، وما يكونون عليه من إيمان وكفر .. فيحاسَب كل بما انكشف منه ، وإنه لا حساب ولا جزاء إلا عن ابتلاء واختبار ..

فقوله تعالى « وليعلم الله من ينصره ورسلَه ، بالغيب » — بيان لما ينكشف عنه أمر الناس من دعوة رسل الله إليهم ، فعلى ضوء هذه الدعوة يُعرف مَن هم

أعداء الله ، ومن هم أولياؤه ، ومن يحارب دعـــوة الله ، ومن ينتصر لهـا ، ويدافع عنها .

وفى اختصاص الذين يؤمنون بالله ،وينصرون دعوته، ويؤازرون رسله — فى اختصاص هؤلاء بالذكر — إشارة إلى أنهم هم أصحاب هذه الدعوة ، وأنها فى حقيقتها إنما جاءت لتقودهم إلى الله ، وقد انقادوا فعلا..أما أولئك الذين كذبوا بآيات الله ، وأبوا أن يستجيبوا لدعوته ، فإنهم إنما كانوا شيئا عارضاً فى طريق الدعوة الموجهة إلى من هم أهل لإجابتها ، وإن كانت قد وجهت إليهم الدعوة ضمناً .. إن ذلك أشبه بمن يبذر بذراً ، ثم يسوق إليه الماء ، فإذا ظهر الزرع على وجه الأرض، ظهرت معه بعض الحشائش الضارة ، التى لا يجد الزارع بدّاً من اقتلاعها حتى يسلم ما زرع .. !

وعلم الله سبحانه علم قديم أزلىّ ، وهو غيب عن الناس ، فإذا وقع من هذا العلم شىء فى الحياة وعلمه الناس، كان علماً للناس، وهو فى الوقت نفسه من علم الله ، وعلم الله تعالى حينئذ ، عِلم لما وقع ، وهو فى علم الله قبل أن يقع . . فعلم الله سبحانه واقع على الأمور فى كل حال من أحوالهـا ، وفى كل زمان من أزمانها .

وقوله تعالى « بالغيب » متعلق بالفعل فى قوله تعالى: « من ينصره ورسله بالغيب » أى وليعلم الله من ينصره ورسله فى غير مشهد من الناس ، أى عن إيمان قد استقر فى القلب ، واستولى على المشاعر ..

وخُص النصر لله ولرسله بالذكر فى تلك الحال — حال الغيب — لأنه هو النصر الذى يصدر عن صدق،وعن يقين ، وهو النصر الذى لا ينقطع أبداً فى سر أو جهر ، وفى قول أو عمل..أما النصر الذى يكون بمشهد من الناس فقد يكون

عن إيمان ، وقد يكون عن نفاق ، ورياء ، ومصادفة .. ولهذا فإن المعوّل عليه، هو ما فى القلوب من إيمان ، وما انعقدت عليه النيات من إخلاص . . فإذا صدقت القلوب وأخلصت النيات، صحت الأعمال ، ووقعت موقع الرضا والقبول عند الله.

وقوله تعالى : « إن الله قوى عزيز » — إشارة إلى أن نصر المؤمنين لله ، ولرسل الله ، ليس لحاجة الله سبحانه إلى من ينصره وينصر رسله ، فهو سبحانه القوى الذى لا يملك معه أحد قوة ، وهو العزيز الذى يملك العزة جميعاً ، فلا يدخل على عزته — جل شأنه — ضيم أو جور ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .. وأن ما يطلبه سبحانه من المؤمنين من نصره ونصر رسله ، هو فضل من فضل الله على المؤمنين ، إذ ندبهم لأمر هو فى غنًى عنه ، وذلك لينالوا أجراً، وليكسبوا خيراً .. وهذا مثل قوله تعالى فى دعوته إلى الإنفاق فى سبيل الله ، وفى التعقيب على هذا بقوله :

* «ومن يتولّ فإن الله هو الغنى الحميد» .

قوله تعالى :

* « ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون» .

هو معطوف على قوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات » .. وهو تفصيل لهذا الإجمال . .

فمن أرسل الله من رسل بالبينات ، نوح وإبراهيم عليهما السلام .. وخُصّا بالذكر لأنهما الأبوان لجميع أنبياء الله ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى « وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب » .

وقوله تعالى : « فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون » أى أن من ذرية هذين النبيين الكريمين الأنبياء والمؤمنين ، كما أن من ذريتهما الأشقياء والفاسقين،

وأن القليل من هذه الذرية من اهتدى وآمن ، وكثير منهم من ضل وكفر .

وفى إفراد المهتدين وجمع الفاسقين — إشارة إلى أن أهل الهداية ذوات لها شخصية متميزة ، بوزن الواحد منهم بميزان الذهب ، ويُحسب بحساب الجواهر الكريمة ، جوهرة . . جوهرة

أما أهل الضلال ، فهم غُثاء كغثاء السيل ، يُحسبون حساب الحطب ، ويعدّون عدّ الحصا . .

[المسيحية رأفة ورحمة .. ثم ماذا ؟]

أمريكا والمسيح

قوله تعالى :

« ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوْها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون » .

قفّينا : أى أتبعنا ، وعقّبنا ، والتقفيه الشىء إتباعه لغيره ، ومجيئه على أثر ما قبله ، كأنه يقفوه ، ويتبع أثره . . والأنبياء والرسل هم على هذا الأسلوب ، اللاحق منهم يقفو أثر السابق ، ويسير على طريقه ، إذ كانوا جميعاً على طريق الله ، يحملون مِشعل الهــــدى ، فيتسلمه اللاحق من السابق . .

والرهبانيــة : ضرب من العبادة والتبتل ، قائم على الرهبة والخشوع لله ، والخشية لجلاله . .

قوله تعالى : « وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة » أى بما حملت

رسالة السيد المسيح من دعوة كريمة إلى الإخاء والبر والتسامح ، فمن آمن بالمسيح واتبعه وأخذ بتعاليمه كان على تلك الصفات من الرأفة والرحمة .

وقوله تعالى : « ورهبانيةً ابتدعوها » أى وجعلوا هم رهبانية ابتدعوها . .

وفى وصف الرهبانية بأنها مبتدعة ، إشارة إلى أنها مما فرضه أتباع المسيح على أنفسهم ، وألزموها إياها ، وأنها لم تكن مما فرضه الله عليهم .. فهم الذين ابتدعوا هذه الرهبنة تقربا إلى الله بالزهد فى متاع الحياة الدنيا، والاستخفاف بمطالب النفس، من هذا المتاع الزائل ..

وقوله تعالى : « ما كتبناها عليهم » هو وصف آخر لهذه الرهبانية ، وأنها لم تكن مما كتب الله على أتباع المسيح ، وما شرع لهم من شريعة ..

وقوله تعالى : « إلا ابتغاء رضوان الله » .. إلا هنا ملغاة ، بمعنى لكن أى ولكن ابتدعوها هم ابتغاء رضوان الله ، وطلباً لمزيد من الثواب عنده .

ويجوز أن تكون « إلا » استثناء عاملا ، بمعنى أننا «ما كتبناها عليهم» أى ماقبلناها منهم ، وما رضيناها لهم ، بعد أن جعلوها قربة لله ، ونذراً ألزموا أنفسهم به ، إلا لتكون خالصة لوجه الله ، قائمة على طريق العدل والإحسان.. فهذا هو الوصف الذى يقبلها الله عليه منهم ، فإن هم أقاموها على هذا الوجه كانت عملا مبروراً ، يقبله الله منهم ، ويجزيهم عليه أحسن الجزاء ..

وقوله تعالى : « فما رعوها حق رعايتها» — أى فما رعى القوم هذه القُربة حق رعايتها ، وما أقاموها على وجهها المرضى منها . وذلك فى الأعم الأغلب منهم ، وإن كان بعضهم قد وفّاها حقها ، ورعاها حق رعايتها ، كما يشير إلى

ذلك قوله تعالى: « فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون».. أى فآتينا الذين رعوا هذه الرهبانية حق رعايتها — آتيناهم أجرهم كاملا، وهم قليل..

أما أكثرهم فقد خرج عن هذا الطريق القويم، ولم يرع حق هذا العمل المبرور، الذى كانت غايتهم بإلزام أنفسهم إياه، ابتغاء فضل الله، وطلب المزيد من إحسانه..

وهذا يشير إلى أن الرهبانية أكثر من أن تحتملها النفوس البشرية، ولهذا فإنها لم تكن من شريعة الله، فلما شرعها الناس لأنفسهم، وعقدوا مع الله تعالى عهداً على مراسم خاصة بها — لم يطيقوا الوفاء بهذه المراسم، مع اتخاذهم الرهبنة زيًّا .. فكان ذلك نقضاً لعهد الله، وخيانة للأمانة التى ألزموا أنفسهم إياها، رياء وخداعاً للناس.

والمعنى، أن الله سبحانه قفّى أى أرسل، وبعث، بعد هذين النبيين الكريمين — نوح وإبراهيم — برسل كثيرين، ثم أرسل بعد هؤلاء الرسل عيسى ابن مريم، وآتاه الإنجيل، وجعل فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة، إذ كانت دعوته عليه السلام، قائمة على الموادعة والمحبة والسلام.

فالرأفة والرحمة التى جعلها الله سبحانه فى قلوب المستجيبين لدعوة السيد المسيح، إنما هى أثر من آثار هذه الدعوة التى أرسله الله سبحانه وتعالى بها، فمن لم تسكن قلبَه الرأفةُ والرحمة، فليس من أتباع المسيح فى شىء.. إنها دعوة أرادها الله سبحانه وتعالى ليكون من أتباعها جنودُ فداء وتضحية فى مقام البذل والعطاء من ذات أنفسهم لهذا المجتمع الإنسانى الذى تَغْلى فيه مراجل الأنانية والأثرة، ويتقاتل فيه الناس بالمخالب والأنياب، كما تتقاتل الحيوانات المفترسة

فى الغابات .. إنها دعوة لا تحتملها إلا نفوس كبيرة تستطيع أن تجد هـذه المعانى النبيلة مكانا فيها ..

وإذن فليس كل من آمن بالمسيح أهلا للوفاء برسالته ، وإلاّ لـكان أتباع المسيح الذين يُعدون اليوم بمئات الملايين فى الشرق والغرب — لـكانوا رسل سلام ، ودعاة مودة ورحمة ، ولاعتدل بهم ميزان الإنسانية المضطرب ، واسكنت دواعى الشقاق والخصام ، ولخمدت نيران الحروب المشبوبة فى كل ركن من أركان الدنيا ، والتى هى فى حقيقتها من صنع هؤلاء الأتباع الذين يُنسبون إلى المسيح ، والذين لا تـكف أيديهم أبداً عن العدوان على الناس ، وعلى البغى والتسلط .. وحسبنا شاهداً على هذا هذا الاستعمار الغربى الذى تسلط على الناس ، واستبد بالشعوب فى كل صقع من أصقاع العالم .. فأتباع المسيح ، أو من ينتسبون بغير حق إليه ، هم الذين استعمروا الأمم ، وأذلّوا الشعوب ، وامتصّوا دماء الإنسانية ، فى الماضى وفى الحاضر ، وإن فى أمريكا لمثلا صارخا لأبشع صورة من صور الإنسانية ، حين يـنزع الإنسان عنه كل مشاعر المودة والإخاء ، ويلبس جلد الأفعى ، فينفث سمومه فى كل من مرّ به ، لا لسبب إلا أرضاء لغريزة التسلط والبغى والعدوان .. ويشهد العالم فى هذه الأيام تلك الحرب الوحشية التى يشنها الأمريكان على شعب فيتنام الفقير الأعزل ، الذى يَلْقَى بإيمانه القذائفَ المدمرة التى تهلك الحرث والنسل ..

ومن قبل هذا العدوان الآثم على شعب فيتنام ، قام الأمريكان بأبشـع جريمة عرفت فى تاريخ البشرية ، حين ولد على أيديهم أشأم مولود فى الوجود ، هو القنبـلة الذرية ، فألقوا بقنبلتين كل منهما كحجم بيض الحمام ، على مدينتين من مدن اليابان ، هما « هورشيما » و « نجازاكى » ..

وفى ثوان معدودة تحولت المدينتان اللتان كانتا زاخرتين بالحياة والحركة ، إلى كومتين من رماد ..

وبهذه الفعلة الآثمة فتحت أمريكا المنتسبة إلى المسيح باب شر لا ينسدّ أبداً ؛ حتى إذا كان صباح يوم أو مساؤه، انفلتت هذه القنابل من مرابطها ، وإذا وجه الأرض قد انقلب لظهرها ، وإذا كل حىّ فيها قد تحول إلى فحم أو رماد . . وهذا كله مما تصدّر أمريكا — التى تنتسب كذباً وزوراً إلى المسيح — من شرور ومهلكات . .

ولأمريكا هذه دور نذل خسيس مع الأمة العربية الإسلامية . . إنها تبيع دينَها ، وشرفها اليهود ، وعلى مائدة من موائد القمار ، فتغريهم بالأمة العربية ، وتمدهم بالسلاح والعتاد ، وتعمل على ترسيخ أقدامهم فى الأرض المقدسة ، التى دنسوها بآثامهم ، وخضبوا أرضها بدم الحواريين من أتباع المسيح ، بل وبدم المسيح نفسه كما يعتقد الأمريكان ، أتباع المسيح ، بأن المسيح قتل بيد اليهود ! .

إن أتباع السيد المسيح عليه السلام ، لهم سمات معروفة تتمثل فيها المثل الإنسانية الكريمة فى أرفع منازلها ، وأكرم وجوهها . . فمن كان على تلك الصفة فهو المسيحى حقاً ، الذى يباركه المسيح حوارياً من حوارييه ، وتلميذاً من تلاميذه ، أيا كان لونه ، وجنسه ومذهبه ..

فالمسيح عليه السلام دعوة خير ، ورحمة ، ومحبة ، وسلام .. وأتباع المسيح دعاة خير ، ورحمة ، ومحبة ، وسلام ..

والمسيح ـ عليه السلام ـ قولته المشهورة : « من ثمارهم تعرفونهم » وتلك القولة الكريمة ، هى الميزان الذى يوزن به أتباعه .. وإنه بقدر ما يحمل المسيحى من ثمار هذه الدعوة المباركة يكون قربه أو بعده من المسيح ، ومن رسالة المسيح ..

وقد جاء القرآن الكريم كاشفاً عن حقيقة رسالة السيد المسيح ، وعن آثارها فيمن يستقيمون ، فيقول الله تعالى : « لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون * وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين .. » (٨٢ ، ٨٣ : المائدة)

فمن هذه الرحمة والرأفة التى أثمرتها دعوة المسيح فى أتباع المسيح المؤمنين حقًّا ـ كان هذا الدمع الذى يفيض من تلك القلوب الرقيقة التى تذوب حناناً ، ورحمة ، كلما استقبلت نسمة من أنسام الحق ، وكلما طاف بها طائف من آياته ..

فكيف إذن يكون للأمريكان وأمثالهم ممن ينتحلون نسبتهم إلى المسيح ـ كيف يكون لهم وجه يَلْقَوْن المسيح به ، وقد قبلوا مَن رفضهم المسيح ، واحتضنوا من ألبسهم ثوب اللعنة إلى يوم الدين ..؟

ثم كيف يكون للأمريكان وأمثالهم ممن ينتسبون إلى المسيح كذباً ـ كيف يكون لهم يد تصافح يد المسيح ، وقد صافحوا بأيديهم تلك الأيدى الملطخة بدم حواريى المسيح وتلاميذه ، بل وبدم المسيح نفسه ، كما يعتقدون عن يقين أن اليهود قد صلبوه ، وعلقوا دمه عليهم وعلى أبنائهم إلى يوم الدين ؟

لقد كان « بيلاطس » الرومانى الوثنى أبرّ بالمسيح وأعرفَ لقدره من

هؤلاء الأتباع من الأمريكان وأمثالهم ، الذين يطلقون البخور اليهود ، فى كل مكان ، ويعطونهم من ذات أنفسهم الولاء والخضوع بغير حساب ، وكأنهم بهذا إنما يباركون ما صنعوا بالمسيح ، ويزكّون مواقفهم اللئيمة معه ، ومع حوارييه وأتباعه ، على حين لم يغفر الحاكم الرومانى ولا الحكام الرومانيون الذين جاءوا بعده ـ لهؤلاء الآثمين القتلة جنايتَهم على المسيح وأتباعه ، بل لقد ظلت فى قلوب الرومان الذين قاموا على حكم اليهود ،بغضة ونقمة، إلى أن ضربوا اليهود تلك الضربات المتتالية المنهكة التى لوت أعناقهم ، وأضرعت للأرض خدودهم ..

* * *

إن « بيلاطس » الحاكم الرومانى الوثنى ، لم يستبح دم المسيح ، ولم يقبل من اليهود الذين حاكموا المسيح إليه ، أن يأخذه بالتهم الكاذبة الملفقة التى قدموه للمحاكمة بها ، وطلبوا صَلْبه من أجلها ، بل إن الرجل رأى بين يديه إنسانا بريئا تنبحه الكلاب ، وتتعاوى حوله الذئاب ، لتأكل لحمه وتلغ فى دمه ، فأبى عليه ضميره أن يشارك فى هذا الفعل الآثم ، وأن يلطّخ يده بهذا الدم البرىء . . وأنه حين أعيته الحيل مع هذه الذئاب العاوية التى لا ترضى بغير دم هذا الإنسان ، أو تثيرها فتنة ، تصل إلى مسامع قيصر ، فلا يأمن الحاكم الرومانى أن يكون هو الضحية ـ حين وصل الحاكم الرومانى إلى هذا الموقف ، دعا بإناء ، مملوء ماء ، وغسل فيه يديه على أعين اليهود ، ثم ألقى إليهم بقولته الخالدة : « إنى برىء من دم هذا البار .. فشأنكم أنتم معه » فتعاووا جميعا : « بل دمه علينا وعلى أبنائنا .. إلى يوم الدين ! »

هذا هو « بيلاطس » الوثنى ، وموقفه من قتلة المسيح ، الذين لم يشف

ما بهم منه ، حتى وقع فى يقينهم أنهم قتلوه ، وصلبوه !!

أما الأمريكان ، وأما كثير غيرهم ممن ينتسبون إلى المسيح ، فإنهم يضعون أيديهم فى أيدى قاتلى المسيح وصالبيه ، ويزودونهم بأسلحة الهلاك والدمار ، ليقتلوا بها كل معنى من معانى الرحمة ، والحب ، والمودة ، التى بشّر بها المسيح .. وليصلبوا المسيح ويقتلوه كل يوم عشرات المرات ومئاتها ، فيمن يقتلون ويصلبون ، من أبرياء أبرار ، من أطفال وشيوخ ونساء .. فى براءة المسيح وبره ، على أرض مشت عليها أقدام المسيح ، وأشرقت فيها أنوار حكمته ، ورحمته ..

فيالثارات المسيح ، من أتباع المسيح ..!!

ونحن هنا لا نرجم بالغيب إذا قلنا إن الأمريكان وقد خلطوا أنفسهم باليهود ، ودخلوا معهم فى هذا الحلف الشيطانى الذى يقوده اليهود لهدم معالم الإنسانية ، وإشاعة الخراب والفساد فى كل أفق من آفاق العالم ـ لا نرجم بالغيب إذا قلنا إن الأمريكان ـ وهذا موقفهم اليوم ـ سيلقون نفس المصير الذى لقيه اليهود فى هذه الحياة ، وسيأخذون نصيبهم من تلك اللعنة التى أنزلها المسيح عليهم ، وألبسهم بها ثوب المذلة والمهانة والخزى إلى يوم القيامة !

فلينتظر الأمريكان قريباً هذا المصير المشئوم ، الذى لن يعصمهم منه ما بين أيديهم من قوى الشر والبغى ، فإن هذه القوى نفسها هى التى سترتد إليهم ، وتأتى على كل ما جمعوا وما استكثروا من مال وعتاد ، والله سبحانه وتعالى يقول : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » .. (٢٤ : يونس) ..

* * *

قوله تعالى :

* « يـأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتـكم كفلين من رحمته ويجعل لـكم نوراً تمشون به ويغفر لـكم والله غفور رحيم » ..

الـكفل . النصيب ، والجزاء المقدور لما يأتى الإنسان من قول أو عمل . . وكفالة الشيء ، رعايته ، والقوامة عليه ، سواء أكان شخصاً ، أو قولا ، أو عملا ، ومنه قوله تعالى : « وكفلها زكريا » (٣٧ : آل عمران) ..

والخطاب هنا للمؤمنين من أهل الـكتاب ، الذين ذكرهم الله سبحانه فى الآية السابقة بقوله : « فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم » .

وهذا الخطاب ، هو دعوة لهؤلاء المؤمنين من أهل الـكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام .. أما الذين آمنوا بموسى ، ولم يؤمنوا بعيسى فهم غير مؤمنين ، وكذلك من آمنوا بعيسى ولم يؤمنوا بموسى ، فهم غير مؤمنين أيضاً ، إذ كانت دعوة عيسى عليه السلام مكملة لدعوة موسى . كما يقول المسيح : « ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمل » ..

والدعوة الموجهة للمؤمنين من أهل الـكتاب هنا ، هى دعوة إلى أن يتقوا الله ، فى أنفسهم ، وفى دينهم ، وألا يهلـكوا أنفسهم ، ويفسدوا إيمانهم .. وأنهم إذا ألزموا أنفسهم التقوى كان عليهم أن يؤمنوا برسول الله وهو محمد صلوات الله وسلامه عليه .. فإن ما يدعوهم إليه ، هو الإيمان الذى يؤمنون به ، إن كانوا مؤمنين حقًّا . ولهذا ناداهم الله سبحانه بقوله : « يـأيها الذين آمنوا » .. فمن كان مؤمناً حقاً من أهل الـكتاب ، فإنه لا يجد فى الإيمان برسول الله ، محمد — صلوات الله وسلامه عليه — إلا دعوةً مجددة للإيمان الذى تحمله دعوة موسى وعيسى ، عليهما السلام ..

وقوله تعالى : « يؤتكم كفلين من رحمته » هو جواب وجزاء للاستجابة لهذا الطلب الذى طُلب إليهم فى قوله تعالى : « اتقوا الله وآمنوا برسوله » — أى إنكم إن اتقيتم الله وآمنتم برسوله يؤتكم الله كفلين من رحمته ، أى جزاء مضاعفاً من رحمته .. جزاء على إيمانكم الصادق بموسى وعيسى — عليهما السلام — وجزاء على إيمانكم بمحمد عليه الصلاة والسلام ..

وقوله تعالى : « ويجعل لكم نوراً تمشون به » معطوف على قوله تعالى : « يؤتكم كفلين من رحمته » أى إن اتقيتم الله وآمنتم برسوله ، آتاكم الله أجراً مضاعفاً ، وجعل لكم مع هذا الأجر المضاعف نوراً تمشون به يوم القيامة..

وفى قوله تعالى : « ويجعل لكم نوراً تمشون به » — إشارة إلى أن هذا النور ، هو خاص بالذين يؤمنون بمحمد — صلوات الله وسلامه عليه — وأن هذا النور لا يتحقق لأهل الكتاب إلا إذا آمنوا بمحمد ..

وهذا النور الذى يجعله الله سبحانه لمن يؤمنون برسول الله من مؤمنى أهل الكتاب ، هو نور فى الدنيا ، يكشفون به معالم الطريق إلى الحق ، كما يقول سبحانه : « يٰأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » (١٥ ، ١٦ المائدة) .

ثم هو نور فى الآخرة ، يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، كما يقول سبحانه : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » (١٢: الحديد).

وقوله تعالى : « ويغفر لكم » معطوف على جواب الطلب، وبهذا يتحقق لمن يؤمن برسول الله من مؤمنى أهل الكتاب ثلاثة أمور :

أولها : مضاعفة الجزاء لهم ، وإيتاؤهم أجرهم مرتين ، لأنهم آمنوا مرتين، مرة قبل مبعث محمد ، ومرة بعد مبعثه ..

وثانيها : أن يجعل الله لهم بهذا الإيمان نوراً يمشون به فى الدنيا والآخرة

وثالثها : أن يغفر الله لهم ما وقع منهم من أخطاء ، أو آثام ، قبل إيمانهم بمحمد صلوات الله وسلامه عليه — شأنهم فى هذا شأن الجاهليين الذين دخلوا فى الإسلام .

قوله تعالى :

* « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

(الحروف التى يقال إنها زائد .. ما تأويلها ؟)

يكاد المفسرون يجمعون على أن « لا » فى قوله تعالى : « لئلا يعلم أهل الكتاب » — زائدة ، وأن المعنى إنما يستقيم بحذفها .. وقد سوّغ عندهم القول بهذه الزيادة ، واحتمالَ وجودها فى القرآن الكريم، ما وجدوه من بعض الشواهد لهذا فى اللغة العربية ..

وهذه الشواهد ، إن صح أصلها ، فإنها لا تقوم حجة على القرآن الكريم ، ولا ينبغى أن يؤخذ كلام الله سبحانه وتعالى بعيارها ..

فالزيادة ، لغير غرض بلاغى ، هى حشو ، يدعو إليه الاضطرار ، الذى لا يكون إلا عن عجز متحكم ، لا يستطيع المرء مجاوزته ، والاستعلاء عليه .. وتعالى الله سبحانه ، وتعالت كلماته عن هذا علوّاً كبيراً .

ونحن مع « لا » هذه بين أمرين لا ثالث لهما :

فإما أن تكون من كلام الله سبحانه .. وإذن فلا بد أن تكون من بِنْية

هذا الكلام ، لا يستقيم المعنى إلا بها ، وأن عدم اعتبارها ، عدوان على المعنى ، وإفساد له .. وإما أن تكون دخيلة على كلام الله ، لا يستقيم المعنى إلا بحذفها ، وتجريد بنية الكلمة منها ..

وهذا الفرض الثانى غير وارد أبداً فى هذا المقام ، مقام الحديث عن كتاب الله ، وآياته ، وكلماته .. فقد تولى الله سبحانه وتعالى حفظ كتابه الكريم ، من أى تحريف ، أو تبديل فى كلمة من كلماته ، أو حرف من حروفه . كما يقول سبحانه : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٩ : الحجر) .

وإذن فنحن على يقين لا شك معه ، ولا ريب فيه ، بأن « لا » هذه من بنية الكلمة ، شأنها فى هذا شأن بقية حروف الكلمة «لئلا» ذات المقاطع الثلاثة : اللام (لام التعليل) و«أن » (المصدرية » و« لا » النافية .

هذا ما ينبغى أن يقوم عليه إيماننا مع تلك الكلمة ، ومع جميع كلمات الله ، سواء انكشف لنا وجه الحق فى هذه الكلمة أو لم ينكشف ، وسواء وقعت من مدركاتنا موقع المحكم أو المتشابه من آيات الله . كما يقول سبحانه : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب » (٧ : آل عمران)[١] .

ولو وقفنا عند هذا الحد من الآية الكريمة ، وقلنا إنها من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم — لو وقفنا عند هذا ، لكان أولى وأحمد من القول بزيادة حرف من حروفها . حتى نطوّعها بهذا القول لمفهومنا ، وإدراكنا ..

---

(١) انظر تفسيرنا لهذه الآية (٧ : آل عمران) فى الكتاب الثانى من التفسير القرآنى للقرآن ص ٣٩ .

ومع هذا ، فإن الآية الكريمة ليست من المتشابه ، بل هى من المحكم الذى يمكن أن يكون لنا نظر فيه ، وفهم له ، وإن كنا لا ندّعى أننا من الراسخين فى العلم .

ونقرأ الآية الكريمة

« لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

وإنه لكى يقوم لنا فهم صحيح للآية الكريمة ، ينبغى أن نصلها بما قبلها من آيات الله، وأن يكون نظرنا إليها قائماً على مراعاة هذا الجوار المرعىّ بين آيات الله وكلماته ، وإلا كان هذا قطعاً منّا لما أمر الله به أن يوصل .

والآية التى تسبق هذه الآية وتجاورها، هى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم » . . وهذه الآية ـ كما أشرنا إلى ذلك من قبل ـ هى دعوة إلى المؤمنين من أهل الكتاب أن يؤمنوا برسول الله ، وأنّ إيمانهم هذا هو الذى سيُلحقهم بالمؤمنين ، وينزلهم منازلهم ، ويجعل لهم النور الذى جعله الله للمؤمنين يوم القيامة ، وقد فتح الله سبحانه هذا المدخل الذى يدخل منه أهل الكتاب إلى هذا المنزل الكريم ، لئلاّ يعلموا أنهم لا يقدرون على شىء من فضل الله ، ولئلا يقع فى تصورهم أنهم محجوبون عن هذا الفضل ، لا يستطيعون بلوغه بحال أبداً ، إذ كان ـ كما خيّل إليهم ـ أنه فضل خاص بالعرب وحدهم .. وكلاّ فإنه فضل الله ، يناله كل مستجيب لله ، مؤمن برسول الله . . وألاّ فليعلم أهل الكتاب أنهم قادرون على أن ينالوا هذا الفضل ، إذا هم دخلوا فيما دخل فيه العرب . . فإن الفضل بيد الله وحده ، لا بيد العرب ، ولا بيد نبىّ العرب ، بل هو بيد الله وحده يؤتيه الله من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم الذى يسع فضلُه الناسَ جميعاً ، دون أن ينقص منه شىء !

فمعنى القدرة فى الآية الكريمة ليس معناه القدرة المتحكمة ، المتمكنة ، وإنما معناه الاستطاعة التى تمكن صاحبها من بلوغ مابلغه غيره من الناس ، فى السبق إلى منازل الفضل والإحسان .

ومعنى القدرة على فضل الله ، إمكان التعرّض له ، والنيل منه ، على حسب مايعمل الإنسان ، فى سبيل مرضاة ربه ، وابتغاء رضوانه .

وفى اقتصار فضل الله على شىء منه فى قوله تعالى « ألاّ يقدرون على شىء من فضل الله » ـ فى الاقتصار على هذا ليس من باب التحدى بالقدرة على هذا الشىء من الفضل ، فضلا عن الفضل كله ، وإنما هو إشارة إلى أن هذا الشىء من فضل الله ، هو من الكثرة بحيث يسع الوجود كله، وأنه إذ أخذ العرب من هذا الشىء ما أخذوا ، فإن ما أخذوه ليس إلا قطرة من بحر يمدّه من بعده سبعة أبحر . .

والآية الكريمة إنما تخاطب بهذا أهلَ الكتاب ، الذين غلب على تفكيرهم ـ وخاصة اليهود منهم ـ أنهم شعب الله المختار ، وأن الله سبحانه إذا اختار شعباً ـ كما يزعمون ـ فإن فضله كلَّه يتجه إلى هذا الشعب ، فلاتكون منه بعد هذا بقية ينالها أحد ! وهذا من سوء ظنهم بالله ، وتصورهم القاصر المحدود ، لجلاله وعظمته ، وكماله . . ولهذا كان الحديث إليهم عن شىء من فضل الله ، وأن هذا الشىء من فضل الله ، يسع الوجود كله . . وإذن فلا يحجبهم عن الإيمان برسول الله هذا الشعور الخاطىء الذين يعيشون به ، والذى يخيِّل إليهم منه أن العرب إذ سبقوا إلى فضل الله ، فلن يكون لأحد من بعدهم نصيب فى هذا الفضل . .

ورتّل بعد هذا الآيتين الكريمتين معاً :

« يٰأَيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم * لئلا يعلم أهل

الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

رتلهما ، وأقم فهمك للآيتين على أنهما فى مواجهة أهل الكتاب ، وفى دعوتهم إلى الإيمان برسول الله ، وبالدّين الذى جاء به ، وعلى أن ذكر أهل الكتاب فى الآية الثانية هو إشارة إلى أن المدعوّين إلى الإيمان برسول الله فى الآية الأولى ، هم أهل الكتاب هؤلاء ، سواء فى هذا من استجاب منهم الدعوة ، أو مَنْ أبَى أن يستجيب لها . .

وإنك إذ تفعل هذا ستجد أن المعنى يقضى بأن تكون « لا » هنا مطلوبة لتكون أداة نفى ، لا أن تكون حرفاً زائداً معطّلا عن أداء وظيفته فى بِنْيـة الكلمة . .

هذا ، والله أعلم .

* * *

(٥٨) سورة المجادلة

نزولها : مدنية باتفاق .

عدد آياتها : اثنتان وعشرون آية . .

عدد كلماتها : أربعمائة وثلاث وسبعون كلمة .

عدد حروفها : ألف وسبعمائة واثنان وتسعون حرفاً .

مناسبتها لما قبلها

خُتمت سورة الحديد بقوله تعالى : « وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

وبدأت سورة المجادلة بعدها بقوله تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله » ... الآيات .

وفى هذا البدء فضل من هذا الفضل العظيم الذى بيد الله ، إذ قد سمع قول هذه المرأة ، التى تشتكى إليه فى مجادلتها مع النبىّ فى هذا الظِّهار الذى أوقعه زوجُها عليها ، والذى من شأنه أنه لو مضى إلى غايته لبدّد شملها ، وأفسد عليها حياتها ، وأخرجها من هذا العُشّ الذى يضمها ويضم صغارها .

استجاب الله سبحانه وتعالى لشكاة هذه المرأة ، وسفّه زوجها الذى أتى هذا الأمر المنكر معها ، وأمسك بالمرأة وصغارها فى هذا العش الذى كانوا مهددين بالطرد منه . كما سنرى ذلك فى تفسير هذه الآيات .



بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٦)

* « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » .

هكذا تبدأ السورة الكريمة ، بهذه اللفتة الكريمة ، من رب كريم ، إلى امرأة من عامة النساء ، لا يكاد يلتفت إليها أحد من قومها ، بل لا يكاد يكون لها مكان ظاهر بين جيرانها الفقراء المغمورين من نساء ورجال . .

فلقد سمع الله سبحانه قول هذه المرأة ، التي جاءت تعرض على النبي شأناً من شئونها مع زوجها ، وتشتكى إلى الله بين يدى النبي الكريم ماورد عليها من زوجها من أذى . . والنبي لا يجد سبيلا لإزالة ماتشكو منه .

والإخبار بسماع الله سبحانه وتعالى لشكاة هذه المرأة ليس مراداً به مجرَّدَ العلم بمضمونه ، فالله سبحانه وتعالى يسمع كل ماتنطق به الألسنة ، وما تهمس به الخواطر ، وما توسوس به النفوس . بل المراد بهذا الخبر — والله أعلم — هو التنويه بشأن هذه المرأة ، وردّ اعتبارها إليها عندنفسها كإنسان كرّمه الله ، وبعث إليه رسله بآياته وكلماته ، وذلك بعد أن وجدت وجودها يكاد يضيع بيد زوجها الذى استخفَّ بها ، وعرّضها لهذا الضياع ، ثم لم تجد عند رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الحمايةَ الكافية لردّ هذه اليد الباغية عليها ، إذ لم يكن بين يدى الرسول الكريم حكم من الله ، فى شأن الظِّهار

والآية الكريمة ، والآيات التى بعدها تشير إلى حَدَث وقع بين امرأة بعينها وزوج بعينه ، وإن كان لم يُذكر لهما اسم .. لأن ذكر الاسم هنا لا ضرورة له ، إذ كان هذا الحدث وإن تعلق بهذين الزوجين ، ينسحب إلى كل زوجين ، وإلى المبادى التى تحكم الصلة بين الزوج و لزوجة ، أو الرجل والمرأة .

ومع هذا فقد احتفظ تاريخ النزول القرآنى باسم كل من المرأة والرجل ، كما احتفظ القرآن الكريم بالحدث الذى وقع بينهما .

يقول المفسرون : نزلت هذه الآيات فى امرأة من الأنصار ، من الخزرج ،

واسمها خولة بنت مالك بن ثعلبة ، وزوجها أوس بن الصامت ، أخو عبادة ابن الصامت الصحابي المعروف .. قالوا وكان منه غضبة على امرأته هذه ، فقال لها مغاضباً : أنت عليّ كظهر أمي . . وكان الظهار من طلاق أهل الجاهلية ، وقد ندم زوجها على ما قال ، وقال لها ما أظنك إلاّ حُرمت عليّ ، فقالت لا تقل ذلك وائت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال إني أجدني أستحي منه أن أسأله عن هذا ، قالت : فدعني أسأله . قالوا : فأتت النبي صلى الله عليه وسلم ، وقالت : يارسول الله ، إن أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة ذات مال وأهل ، حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلي ، وكبرت سني ـ ظاهر مني ، وقد ندم ، فهل من شيء يجمعني وإياه ، فتُنعشني به ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « ما أراك إلاّ حرمت عليه » ! قالت يارسول الله ، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً ، وإنّه أبو ولدي وأحب الناس إليّ ، وإني إذا فارقته وضم الأولاد إليه ضاعوا ، وإن وأنا ضممتهم جاعوا ! فقال « ما أراك إلا حرمت عليه ، ولم أومر في شأنك بشيء » . . قالوا فجعلت تراجع رسول الله ، وكلما قال لها رسول الله حرمت عليه ، هتفت وقالت : أشكو إلى الله فاقتي ، وحاجتي ، وسوء حالي . . قالوا فما برحتْ مكانها ، حتى أخذ رسولَ الله ما يأخذه من الوحي ، فلما قضى الوحي قال : ادعي زوجك ، فدعته ، فتلا عليه الرسول الكريم الآيات الأولى من أول السورة . . وقال له : اعتق رقبة ، فقال لا أجد ، فقال : فصم شهرين متتابعين ، فقال : لا أستطيع ، إني إذا جعت كلّ بصري ، وخشيت أن تغشى عيناي ، فقال : فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكيناً ؟ فقال لا والله ، إلاّ أن تعينني على ذلك ، فأعانه الرسول صلوات الله وسلامه عليه بخمسة عشر صاعاً . .

هذا هو موجز القصة من بين الروايات الكثيرة المختلفة الأقوال في اسم المرأة ، واسم زوجها ، وإن كان هذا كما قلنا لا يؤثر في الحكم الواقع على الحدَث نفسه ، وهو الظهار .

وفى قوله تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ». فى هذا — كما قلنا — لفتة كريمة من رب كريم إلى تلك المرأة الضائعة فى معترك الحياة ، وتطييب لخاطرها ، وأنه إذا كان الرسول الكريم قد استمع لشكاتها ، ولم يجد لها عنده جوابا شافيا - إذ كان الظهار أمرا معترفا به فى الجاهلية ، ولم يكن الإسلام قد عرّض له بشىء حين قرر أحكام الطلاق ، حتى وقعت هذه الحادثة - نقول ، إذا كان النبى قد استمع لشكاتها، ولم يجد لها عنده جوابا شافيا ، فإن الله سبحانه ، قد سمع هذه الشكاة ، واستجاب لها ، وطيب خاطرها ، ورد لها اعتبارها ، وأنزل العقوبة الرادعة بمن جار عليها ..

ونلمح فى الآية الكريمة شيئا من العتاب الودود من الله سبحانه وتعالى للنبى الكريم . وأنه إذا كان لم يكن بين يديه حكم الله فيما تشتكى منه المرأة مما فعل بها زوجها بهذا الظهار الذى أوقعه عليها ، فإنه كان عليه — صلوات الله وسلامه عليه — ألاّ يقطع فى شأنها بهذا الحكم الذى يقضى بالفرقة بينها وبين زوجها — وأن عليه — صلوات الله وسلامه عليه — أن يُنظرها مدة حتى يقضى الله فى شأنها ، فإذا مضى زمن ولم ينزل فى شأن هذا الأمر قرآن ، أجراه على ما هو جار عليه .. فهذا الأمر — أمر الظهار — منكر وزور من القول — كما وصفه القرآن بهذا فيما بعد ، وأمر هذا شأنه ، كان على النبى أن يتوقف فيه إلى أن يتلقى أمر ربّه فى شأنه .

وقوله تعالى : « تجادلك فى زوجها » أى تحاورك ، وتحاجك فيما وقع بينها وبين زوجها .. وفى هذه المجادلة ما يكشف عن أن المرأة تنكر هذا الظهار فى شريعة هذا الدين الذى آمنت به ، وأنها لو كانت على جاهليتها لما أنكرته ، ولاستسلمت لهذا الأمر الواقع . . وهذا يعنى أن الإسلام فتح على الذين دخلوا فيه آفاقا رحيبة مشرقة من التفكير السليم ، والمنطق الحكيم ، الذى يرفض

الزور من القول ، والمنكر من العمل . . فقد رأت المرأة على ضوء الشريعة الإسلامية ، أن أمراً كهذا لا يتفق مع ما جاءت به هذه الشريعة من الرحمة والعدل ،والسماحة واليسر .

ونعوذ بالله أن نفهم أو يفهم مسلم ، أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ـ قد غاب عنه ما فى هذا الأمر من منكر غليظ ، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه ـ كان فى مجلس الفصل والقضاء بحكم منصبه النبوى ، وهو لا يقضى بعلمه هو ، وإنما يقضى بما أوحى إليه من ربه وبما أراه الله من آياته وكلماته ، كما يقول سبحانه : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » (١٠٥ : النساء) .

فالرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وإن كان ينكر هذا الذى حدث من الرجل لزوجه ، إلا أنه لم يكن قد جاءه من عندالله حكمٌ فى الظهار الذى كانت تتعامل به الجاهلية ، وتعدّه ضرباً من ضروب الطلاق ، تحرم به المرأة على زوجها .

وفى قوله تعالى : «تجادلك» إشارة أخرى إلى احترام الشريعة الإسلامية للإنسان ، وإعطائه حقه كاملا فى استعمال عقله ، ومراجعة غيره ، فيما يعرض له من قضايا الحياة .. ونرى هذا واضحاً فى موقف المرأة من النبي ومراجعتها رسولَ الله فيما رآه فى الموقف الذى بينها وبين زوجها ،حتى أنها لم تُسلِّم للنبى بما رآه ، وكان هذا الرأى عن اجتهاد فى أمر لم ينزل فيه على النبى ، حكم سماوى ، كما أخبرها الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى قوله : « ما أراك إلاّ حرمت عليه ولم أومر فى شأنك بشىء » ! ! ولهذا سمّى القرآن موقفها هذا مجادلة ، ولم ينكر عليها ذلك ، بل جاءها بالرحمة الراحمة والفضل العظيم .

وفى إضافة المرأة إلى زوجها فى قوله تعالى : « تجادلك فى زوجها » ـ إشارة إلى أن المرأة لا زالت زوجاً لزوجها، لم تحرم عليه حرمة مؤبدة ، بل ما زال

هناك سبيل إلى وصل هذه العلاقة التى توشك أن تنقطع ، وفى هذا إرهاص بأن الخبر المقبل من السماء ـ وراء هذا الاستفتاح ـ هو خبر يحمل استجابة من الله سبحانه وتعالى اشكاة هذه المرأة ومجادلتها فى أمر زوجها

وفى قوله تعالى : « والله يسمع تحاوركما » إشارة ثالثة إلى هذا الحوار الذى جرى فى الحديث الذى كان بين المرأة وبين النبى . . فهى تتجه اتجاها ، والنبى يتجه اتجاهاً آخر . . هى تريد ألا يكون الظهار طلاقاً تَحرُم به على زوجها ، والنبى يراه طلاقاً تقع به الحرمة بينها وبين زوجها . .

وفى الجمع بين النبى الكريم ، والمرأة الشاكية ، وفى التسوية بينها وبين النبى الكريم فى إصغاء الله سبحانه ، إلى هذا الحوار فى قوله تعالى : « والله يسمع تحاوركما » ـ فى هذا ما يرفع من خسيسة المرأة ، بل ومن خسيسة الإنسانية كلها ، دون أن يُنزل ذلك من قدر النبى ، ومن مكانه المكين عند ربه . . وهذا من فضل الله على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وسمعُ الله سبحانه وتعالى لهذا الحوار ، ليس سمعاً مطلقاً ، إذ أن الله سبحانه يسمع كل شىء ، فى السماء والأرض .. ولكن السماع هنا سماع استجابة ، وفصلٌ فى هذا الحوار .

وعُبِّر بلفظ السمع ، دون الاستماع ، لأن السمع يكون من غير طلب ، على حين لا يكون الاستماع إلا بطلب ، والله سبحانه يسمع كل شىء من غير طلب لما يُسمع ، سواء أكان هذا المسموع سراً أو جهراً ، وقريباً أو بعيداً .

وقوله تعالى : « إن الله سميع بصير » إشارة إلى أن سمع الله يحتوى كل شىء يقع فى هذا الوجود ، وأن هذه المسموعات جميعها واقعة فى علم الله موقع المبصَرات ، حيث تنكشف المسموعات لعلم الله ، حقائقَ مشاهدة ، فيقضى

سبحانه فيها عن علم لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، كما يقول سبحانه لموسى وهرون : « إننى معكما أسمع وأرى » (٤٦ : طه) .

قوله تعالى :

* « الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتِهم إنْ أمهاتُهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور » .

هذا هو بيان لحقيقة الظهار ، وإنه منكر من القول، وزور من الكلام ، لأنه يجعل من الزوجة أمّا ، الأمر الذى لا يمكن تصوره ، ولا تحتمل اللغة مدلولا له على هذا الوجه الذى تتعامل به الجاهلية . .

وقوله تعالى · « ماهن أمهاتهم » جملة اسمية ، هى خبر المبتدأ : « الذين يظاهرون منكم من نسائهم » . .

و « ما » هنا نافية ، تعمل عمل إن فى لغة الحجاز ، وتسمى « ما الحجازية » للتفرقة بينها وبين « ما » التميمية التى تفيد النفى ، ولا تعمل عمل إن فى لغة تميم .

و « أمهاتهم » خبر ما منصوب بالكسرة . .

وقوله تعالى : « إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم » ـ هو توكيد لقوله تعالى : « ماهن أمهاتهم » . . و « إن » هنا نافية بمعنى « ما » .

وقوله تعالى : « وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً » ـ هو حكم على هذا القول الذى يقوله المظاهرون ، وهو قولهم للزوجة : « أنت علىّ كظهر أمى » . . فهو قول منكر ، لأنه يضع الأمّ فى صورة الزوجة ، وفى هذا استخفاف بحرمة الأمومة ، وامتهان لقداسة هذه الحرمة ، ووضعها مع الزوجة على كفتى ميزان . فى الحرمة ، وفى الحِلّ على السواء . . وهو مع ما فيه من منكر

غليظ ، هو زور من القول : فالزوج لا تكون أمّا أبداً ، والأم لا تكون زوجاً بحال . .

وقوله تعالى : « وإن الله لعفوّ غفور » ـ إشارة إلى أن الله سبحانه قد وسع بعفوه ومغفرته ، مايقع من عباده من منكر وزور ، إذا هم رجعوا إليه ، وطلبوا عفوه ومغفرته : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » (١٣٥ : آل عمران)

قوله تعالى :

* « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم » .

بعد أن بينت الآية السابقة حقيقةَ الظهار ، وكشفت عن زيفه وبهتانه ، جاءت هاتان الآيتان لتبينا حكمه إذا وقع ، وهذا من تمام الحكمة والتشريع ، حيث يُعرف وجه الأمر أولاً ، ثم يلحق به الحكم المناسب له ، فيكون للحكم موقعَه من المعقول ، وأثره فى الأخذ به ، والامتثال له ، فعلاً ، أو تركا .

وقد اختلف المفسرون فى تأويل قوله تعالى : « ثم يعودون لما قالوا » . . وهل معنى العود الرجوع عما قالوا والعدول عنه ، أو العود إليه مرة أخرى ، بمعنى أن يظاهروا مرة أخرى بعد المرة الأولى . . وبهذا القول يقول أهل الظاهر ، وعلى هذا تكون كفارة الظهار عن المرة الثانية ، أما الأولى ، فلا كفارة عليها فى مذهبهم . .

والرأى المعول عليه ، هو أن معنى العود لما قالوا ، هو نقض ماقالوه ، والرجوع عنه . . هذا مايكاد يجمع عليه المفسرون .

ولكن يبقى بعد هذا مايقال من أن اللغة لاتساعد على هذا المعنى ، إذ يقال عاد إلى كذا أى رجع إليه ، بعد أن فارقه ، ومنه قوله تعالى : « ولو رُدّوا لعادوا لما نهوا عنه » (٢٨ : الأنعام) وقد جاء فى سورة المجادلة نفسها قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين نُهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه » (٨ : المجادلة) . . فالعود إلى الشيء ، معناه الرجوع إليه ، لا الرجوع عنه .

ونقول – والله أعلم – إن العود هنا هو بمعناه اللغوى ، وهو الرجوع إلى الشيء . . والشيء المرجوع إليه هنا هو ما قالوه ، وهو قولهم : « أنت علىّ كظهر أمى » ورجوعهم إلى هذا القول ، هو رجوعهم إليه رجوعاً متلبساً بنسائهم اللائى وقع عليهن هذا القول ، حيث لا يكون لهذا القول وجه يرى عليه إلاّ مع مَن وقع عليهن الظهار من النساء . .

فالظهار ، المعروف فى الجاهلية كان يحرّم المرأة على الرجل ، ويقطع العلاقة الزوجية بينهما ، فإذا ظاهر الرجل من امرأته فلا سبيل إلى الرجوع إليها . .

وقد واجه الإسلام هذا الظهار ، ولم يَعْجَل بالتعرض له ، حتى يقع ، فيلقاه بالحكم المناسب . . فلما وقع أول ظهار فى الإسلام ، وجاءت المرأة تعرض أمرها على النبي ، تنزلت هذه الآيات ، فى شأن الظهار ، وأنه لا يقطع العلاقة الزوجية قطعاً باتًّا ، وأن على من يريد أن يعيد الحياة إلى حالها الأولى ، أن يكفّر عن هذا القول المنكر ، بما بينه الله سبحانه وتعالى فى آياته البينات . .

فقوله تعالى : « ثم يعودون لما قالوا » معناه — والله أعلم — ثم يعودون إلى الموضع الذى قالوا فيه هذا القول ، حيث يجدون نساءهم

اللائى ظاهروا منهن ، ولكن على ألا يمسوهن إلا بعد أن يقدموا كفارةَ هذا الفعل الآثم .

والسؤال هنا : إذا كان المعنى على أن يعود المظاهرون إلى نسائهم اللائى ظاهروا منهن — إذا كان المعنى على هذا ، فلم لا يجىء النظم القرآنى هكذا مثلا :

« والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون إليهن » ؟ . .

ونقول : وكيف يكون القرآن معجزاً إذا جاء على هذا المستوى البشرى من النظم ؟ وهل يوزن كلام الله بهذا الميزان الذى يوزن به كلام الناس ؟

ندع هذه التساؤلات التى لا محل لها ، فما من مسلم إلا وهو على يقين بأن وراء كل كلمة من آيات الله أكثر من معجزة ، وإن خفيت عليه .

وننظر فى قوله تعالى : « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا » ، على معنى « ثم يعودون إلى نسائهم » .. فنجد أن إيقاع فعل العود على القول — لا على النساء المظاهر منهن — فيه مواجهة للمظاهِرين بهذا القول المنكر الذى قالوه ، حيث حين يعودون إليه ، فيجدونه حائلا بينهم وبين نسائهم ، ثم إنهم إذا أرادوا أن يدفعوا يده التى أمكنته من نسائهم ، وحالت بينهم وبينهن — لم يكن ذلك إلا بعد أن يقدموا الثمن غالياً لدفعه . .

وبهذا يتمثل هذا القول لمن يعود إليه — وهو فى حاله تلك — ليدفعه

عن زوجه — يتمثل له فى صورة منكرة أشد الإنكار ، حيث يراه وقد أخذ مكانه من زوجه ، وحال بينه وبينها ، وأنه حين أراد رفع يده عن زوجه ، بذل فى سبيل ذلك عتقَ رقبة ، أو صيام شهرين متتابعين ، أو إطعام ستين مسكيناً .. على ما سنبين ذلك بعد قليل ..

ولو وقع الفعل « يعودون » ، على النساء ، لاختفى وجه هذا القول ، ولم يُحسب له حساب فى هذا المقام ، الأمر الذى يفوّت الحكمة العالية من التشنيع على هذا المنكر من القول ..

وقوله تعالى : « فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا » — هو خبر لقوله تعالى : « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا » ..

واقتران الخبر بالفاء ، لِما فى المبتدأ من معنى الشرط ، فكأن المعنى قائم على جملة شرطية وجوابها ، والتقدير : ومن ظاهروا منكم من نسائهم فعليهم تحرير رقبة من قبل أن يتماسا ..

فتحرير الرقبة - أى عتقها من الرق - هو الكفارة التى تلزم المظاهِر ، حتى تحل له زوجه التى ظاهر منها ..

وقوله تعالى : « من قبل أن يتماسا » هو قيد متمم للخبر ، أى أن تحرير الرقبة يجب أن يسبق مسّ الزوج زوجه ، إذ أنها قبل تحرير الرقبة تكون محرمة عليه ، ولن يعيدها إلى الحِل إلا تحرير الرقبة ، إن كان المظاهر قادراً على ذلك .

والمراد بالمسّ ، مس الشهوة ، سواء أكان ذلك بمجرد اللمس ، أو بالمباشرة ، التى تكون بين الرجل والمرأة ..

هذا ، ويذهب بعض المفسرين إلى أن الحرمة إنما تقع على الرجل لا على المرأة ، حيث أنه هو الذى ظاهر ، وهذا يعنى أن المرأة لو مسّت الرجل بشهوة ، فإنه لا حرمة عليها . .

وهذا خلاف ما يشير إليه قوله تعالى : « من قبل أن يتماسا » حيث أسند الفعل إليهما معاً .. ولو كانت الحرمة بالظهار واقعة على الرجل وحده ، لجاء النظم هكذا :

« من قبل المس » مثلا ، أو « من قبل أن تمسوهن » ! . .

وقوله تعالى : « ذلكم توعظون به » أى هذا الحكم الذى أخذتم به فى كفارة الظهار ، إنما ليكون لكم منه عظة وعبرة ، فلا تعودوا إليه مرة أخرى ، كما أن فيه زاجرا لغير المظاهرين ، فلا يقع منهم ظهار ، وقد عرفوا ماوراءه من بلاء . .

وفى قوله تعالى : « والله بما تعملون خبير » تنبيه إلى أن الله سبحانه وتعالى مطلع على ما يكون من المظاهرين الذين يخونون أنفسهم ، فيعودون إلى نسائهم من غير كفارة ، وأنهم مؤاخذون بالتعدى على حدود الله . .

وقوله تعالى : « فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا » . . أى فمن لم يجد فى يده رقبة يعتقها ، فعليه صيام شهرين متتابعين ، أى ستين يوماً متصلة ، لا يقطعها بفطر يوم أو أكثر ، فإن قطعها ، بدأ صيام الشهرين من جديد .. فمن لم يستطع صوم شهرين متتابعين ، كان عليه إطعام ستين مسكيناً . .

فكفارة الظهار ، مرتبة بهذا الترتيب : عتق رقبة ، فمن لم يجد ،

فصيام شهرين متتابعين، فمن لم يستطع الصوم فإطعام ستين مسكينا .. ولا يصح الإتيان بالثانى إلا إذا عجز عن الأول ، ولا الصيرورة إلى الثالث إلا إذا لم يستطع الثانى ..

وجاء النظم القرآنى فى مواجهة تحرير الرقبة بقوله تعالى : « فمن لم يجد » على حين جاء فى صيام الشهرين المتتابعين بقوله تعالى : « فمن لم يستطع » ... لأن تحرير الرقبة لا يكون إلا عن وِجد ومقدرة ، وملك الرقبة .. أما الصيام فلا يكون إلا عن استطاعة وقدرة على احتماله ..

وقوله تعالى : « ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله » .. أى هذه الأحكام التى حُكم عليكم بها ، إنما هى لتصحح إيمانكم بالله ورسوله ، ولتقيمكم على دينه القويم ..

وقوله تعالى : « وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم » ..
أى هذه حدود الله ، فالزموها ، وخذوا أنفسكم بها ، فإنّ تعدِّىَ هذه الحدود ، والاستخفاف بها ، هو مدخل إلى الكفر بالله ، وللكافرين عذاب أليم . .

قوله تعالى :

* « إن الذين يحادون الله ورسوله كُبِتوا كما كُبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين » .

الذين يحادّون الله : أى يخرجون على حدوده ، ويستخفون بحرماته . .

كبتوا : أى ذَلّوا ، وأهينوا .

والمعنى : أن الذين لا يمتثلون أمر الله،ولا يحرمون ما حرم الله ، ولا يُحلّون ما أحل ـ لن تكون عاقبتهم إلاّ الخزى والهوان ، والخسران . . هكذا

شأن الخارجين على حدود الله ، فى كل زمان ومكان . . « ومن يُهن اللهُ فما له من مكرِم » (١٨ : الحج)

وقوله تعالى : « وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين » « أى أن الله سبحانه قد بين للناس على يد رسله ، مواقعَ حدوده ، وأوضح لهم الطريق المستقيم ، وأنه لا عذر لهم بعد هذا البيان المبين . . فمن كفر بآيات الله ، واعتدى على حدوده ، فله عذاب مهين . .

وقد وصف العذاب فى الآية السابقة ، بأنه عذاب أليم ، لأنه فى حق المؤمنين الذين يعصون الله ثم لا يصالحونه سبحانه، بالتوبة إليه والعمل الصالح الذى يرضيه . . فهذا العذاب تأديب لهم ، وإصلاح لاعوجاجهم . . أما ما جاء فى الآية التالية من وصف العذاب بأنه عذاب مهين ، فهو فى حق الكافرين الذين يحادون الله ورسوله ، وهؤلاء إنما يعذبون عذاباً لا يراد به إصلاحهم وتأديبهم ، وإنما يراد به إذلالهم وإهانتهم وكبتهم ، لأنهم بكفرهم بالله ومحادتهم له ، استوجبوا هذا الهوان من الله « ومن يهن الله فما له من مكرم » . . وقد وضع المؤمنون العصاة المصرون على العصيان ، موضعَ الكافرين ، لأنهم بعصيانهم وإصرارهم على العصيان أقرب للكفر منهم إلى الإيمان . . ومع هذا فإن إيمانهم بإله واحد ، هو ضمان لهم آخر الأمر ، بالخروج من النار .

قوله تعـــالى :

* « يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا . . أحصاه الله ونسوه والله على كل شىء شهيد »

يوم : ظرف متعلق بقوله تعالى : « وللكافرين عذاب مهين » أى أن

لـلكافرين عذاباً مهيناً يومَ يبعثهم الله جميعاً .. « فينبئهم بما عملوا » أى فيكشف لهم عن أعمالهم السيئة ، ويُدِينهم بها . .

وقوله تعالى : « أحصاه الله ونسوه » . . الضمير فى أحصاه، يعود إلى العمل المفهوم من قوله تعالى : « بما عملوا » أى ينبئهم الله بعملهم الذى أحصاه سبحانه وجمع ما تفرق منه ، على حين أنهم نسوا كثيراً مما عملوا ، ولم يعودوا يذكرونه « والله على كل شىء شهيد » أى والله عالم كل شىء عملوه علمَ شهادة وحضور . . لا تخفى على الله خافية فى الأرض ولا فى السماء . .

الآيات : (٧ — ١٠)

* « أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٠) »

التفسير

قوله تعالى :

* « ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم »

النجوى : المناجاة التى تكون بين اثنين أو أكثر ، فى تخافت ، وتهامس بعيداً عن أسماع الناس . وأصل النجوى من النجوة ، وهى المكان المرتفع ، حيث ينجو به الإنسان عادة من أن تناله الأعين ، أو الأسماع ، أو الأيدى . .

والخطاب هنا للنبى صلى الله عليه وسلم ، ولكل من هو أهل لتلقى الخطاب والإفادة منه . . والاستفهام ، يراد به فضح هؤلاء المتناجين ، وضبطهم وهم متلبسون بهذا الإثم الذى يتعاطونه بينهم . .

ومناسبة الآية لما قبلها ، هى أن الله سبحانه قد ذكر فى الآيات السابقة أنه يتوعد الكافرين الذين يعتدون على حرماته ، بالعذاب الأليم المهين ، وذلك فى الآخرة ، يوم يبعثهم الله جميعاً ، فينبئهم بما عملوا ، وقد أحصى كل أعمالهم التى نسوها ـ فجاءت هذه الآية تحدث عن علم الله سبحانه وتعالى ، وأنه علم وسع كل ما فى السموات وما فى الأرض ، وأنه ما يكون من مناجاة بين ثلاثة إلا كان الله سبحانه وتعالى ، مشاهداً هذه المناجاة التى بينهم حتى لكأنهم أربعة وليسوا ثلاثة . . وهذا يعنى أن ما يحسبونه سراً بين ثلاثتهم ، ليس بسرّ ، فقد حضره الله سبحانه وتعالى . . وكذلك ما يجتمع خمسة للمسارة إلا كان الله سبحانه سادسهم ، يشهد الحديث الذى يُديرونه بينهم ، ويريدون إخفاءه عن غيرهم . .

وفى قوله تعالى : « ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم » ـ هو استيفاء لجميع أعداد المجتمعين للنجوى .. من واحد يناجى نفسه ، إلى ما لا نهاية له من الذين يتناجون فيما بينهم ..

وعلى هذا ، فلا محلّ للتساؤل عن الحكمة فى ذكر هذين العددين : ثلاثة وخمسة ، إذ لو ذُكر أى عدد غيرهما لكان هذا التساؤل وارداً عليه أيضاً .. ولا يقطع هذا التساؤل إلا إذا ذكرت الأعداد جميعها ، ابتداء من الواحد ، إلى مالا نهاية ،وهذا ما لا يكون فى كتاب غايته تقويم الأخلاق ، وتهذيب النفوس ، لا تربية الملكات الذهنية ، وتدريب العقول الرياضية ..

وقوله تعالى : « ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة » ـ تهديد ووعيد لهؤلاء الذين يتناجون بما لا يحل من القول .. فالله سبحانه مطلع على ما يتناجون به ، وسيحاسبهم عليه .

قوله تعالى :

* « ألم تر إلى الذين نُهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاءوك حيّوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول .. حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير »

الذين نُهوا عن النجوى : هم المنافقون ، من الذين أظهروا الإسلام ، واستبطنوا الكفر ، من اليهود وغيرهم ..

وقد وردت آيات كثيرة تفضح المنافقين ، وما يدبّرون من كيد للنبى والمؤمنين ، كما حملت هذه الآيات نذرا إليهم بالويل والبلاء فى الدنيا والآخرة ، إن هم لم يستقيموا على طريق الإيمان ، ولم يُخلصوا دينهم لله .. ومن ذلك قوله تعالى : « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ

يبيتون مالا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا »
(١٠٨ : النساء) . .

وهذه الآية تشنيع على المنافقين ، ونذير من النذر إليهم ، يفضح هذا النفاق الذى يعيشون فيه بين المؤمنين . إنهم مازالوا على نفاقهم ، لم يخرجوا منه ، ولم ينتهوا عما نهوا عنه ، فهم ـ حيث ضمهم مكان لا يكون لهم حديث إلا هذا الحديث الآثم ، الذى يدبّرون فيه السوء ، والمكروه للنبى وللمسلمين .. « ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول » . . هذا هو ما يتساررون به من أحاديث ، وما يجرى على ألسنتهم من قول . . هو إثم ، وعدوان ، ومعصية للرسول .

وقوله تعالى : « وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله » . . هو فضح لأسلوب من أساليبهم الخبيثة التى دبروها فيما بينهم ، وهو أنهم إذا جاءوا إلى الرسول حيّوه بتحية منافقة ، يبدو ظاهرها سليما مقبولا ، ولكنها تلُفّ فى باطنها إثما غليظا ، ومنكرا شنيعا ، حيث يقولون : — قاتلهم الله — « السام عليكم » يقولون ذلك بألسنة معوجة ، تُدْغَم فيها حروف الكلمة ، فلا يستبين وجهها ، فلا هى السام ، ولا هى السلام . . إنها كلمة منافقة لاوجه لها ، من أفواه منافقة مداهنة ، لا يُعرف وجه أصحابها . . والسام : الموت ، والهلاك . . فهذه تحية المنافقين للنبى . . تحية بالدعاء عليه ، لا بالدعاء له ، وهى غير ماحياه الله به ـ فى قوله تعالى : « إن الله وملائكته يصلون على النبى » (٥٦ : الأحزاب) وهى غير ما أمر الله المؤمنين أن يُحيّوا النبى به . . فى قوله سبحانه : « يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » (٥٦ : الأحزاب) .

وفى قوله تعالى : « بما لم يحيك به الله » تنويه بقدر النبى الكريم ، ومنزلته

عبد ربه ، وأنه سبحانه إذ يحييه تلك التحية المباركة الطيبة ، فلا عليه إذا حياه المنافقون تلك التحية الآثمة المنكرة . .

وقوله تعالى : « ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول » — أى ومن مقولاتهم المنكرة التى يقولونها فيما بينهم وبين أنفسهم : « لولا يعذبنا الله بما نقول ؟ » أى هلاّ يعذبنا الله بما نقول من سوء فى محمد ؟ إنه لو كان محمد على صلة بالله كما يدّعى لما خلّى الله بيننا وبينه ، نرميه بالمنكر من القول ، ثم لا يعاقبنا على ذلك ؟ ! بل إنهم ليذهبون فى الضلال إلى أبعد من هذا ، فيستدعون العذاب من الله ، إن كان لله غيرةٌ على محمد ، ورعاية له ! .

وقوله تعالى : « حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير » . . هذا هو جواب ماسألوه من العذاب ، وهو عذاب الآخرة ، حيث يصلوْن نار جهنم ، وذلك هو مصيرهم الذى يصيرون إليه وهم سائرون فى طريق الضلال ، وإنه لبئس المصير . . أفليس ذلك حسبهم من العذاب ؟ ألا يكفيهم مايلقوْن فى جهنم من عذاب ؟ أيريدون بعد هذا مزيداً منه ؟ .

قوله تعالى :

• « يٰأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوْا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون » .

هو دعوة إلى هؤلاء المنافقين ، الذين أظهروا الإيمان واستبطنوا النفاق ، أن تكون مناجاتهم إذا تناجوا فيما بينهم ، بعيدة عن مواطن الضلال والريَب ، وخالصة من الإثم والعدوان ، ومعصية الرسول ، محملة بالبر والتقوى ، حيث يتبادلون الكلمات الطيبة ، ويتناجون بها ، فتكون رسلَ هدى ، وخير ، تسعى بينهم بالأمن والسلام ، وتفتح لهم الطريق إلى البر والتقوى . .

وقد جاء الخطاب إلى هؤلاء المنافقين بقوله تعالى : « يـٰأيها الذين آمنوا » وذلك لإلفاتهم إلى هذا الإيمان الذى دخلوا به فى جماعة المؤمنين ، وأخذوا به مكانهم بينهم ، ثم هم فى الوقت نفسه حرب على المؤمنين ، يضمرون العداوة لهم ، ويبيّتون السوء والضرّ بهم . . وهذه حال منكرة ، ينبغى أن ينكروها هم على أنفسهم قبل أن ينكرها الناس عليهم . . فإما أن يكونوا مؤمنين ، فلا يصل إلى المؤمنين منهم مايسوء ، وإما أن يكونوا على غير الإيمان ، فيكون لهم أن يكيدوا للمؤمنين كما يكيد لهم الكفار والمشركون . . فالناس : إما مؤمنون ، وإما كافرون . . وهؤلاء ليسوا مؤمنين ، وليسوا كافرين . . إنهم مذبذبون بين ذلك . . لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء . . وتلك أسوأ حال يكون عليها إنسان ، حيث لا وجه له يُعرف به فى الناس . . إنه الوجه المنافق الذى يلبس أكثر من وجه !.

وقوله تعالى : للمنافقين « يـٰأيها الذين آمنوا » يحقق أمرين :

أولهما : فضح هؤلاء المنافقين عند أنفسهم ، وضبطهم متلبسين بالكيد للمؤمنين ، وهم فى زىّ الإيمان . . وهذا من شأنه أن يُخزيهم عند أنفسهم ، وأن يحقر بعضهم بعضاً ، حين ينظر أحدهم إلى وجه صاحبه ، فيراه مؤمناً يكيد للمؤمنين .

وثانيهما : أن نداءهم بالمؤمنين دعوة مجددة لهم إلى أن يكونوا مؤمنين حقًّا ، فهم إلى هذه اللحظة محسوبون فى المؤمنين ، لم يفضحهم الله بعد ، ولم يُطْلع النبىّ والمؤمنين على خبيئة أنفسهم ، بل ستر الله عليهم ماهم عليه من نفاق ، وإن هذا الأمر لن يطول بهم ، فإن لم يبادروا إلى الخروج من هذا النفاق المضروب عليهم ، فضحهم الله ، فلم يكن لهم بين المؤمنين مكان !.

قوله تعالى :

* « إنما النجوى من الشيطان ليحزُن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

النجوى ، هنا ، هى النجوى المعهودة من المنافقين ، وليست مطلقَ النجوى ، فالحرف « ال » هنا للعهد ، حيث النجوى التى أشار إليها سبحانه بقوله : « ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى . . الآية » أى أن هذه النجوى التى يتناجى بها المنافقون ، هى من تدبير الشيطان وكيده للمؤمنين ، إذ يتخذ من هؤلاء المنافقين سلاحاً يحارب به المؤمنين ، حيث يجمع المنافقين على هذه المجالس الآثمة ، فيتناجون فيما بينهم ، ويتهامسون ويتغامزون على ملأ من المؤمنين ، فيخيل للمؤمنين أن القوم يدبرون لهم كيداً ، أو يظهرون بهم شماتة لأحداث يخيّلون للمؤمنين بهذه المناجاة أنها وقعت ، ولم يعلمها المؤمنون بعد، أو لأحداث ستقع لم يكن عند المؤمنين حساب لها . . وهكذا تُحدِث هذه النجوى بلبلة واضطراباً فى نفوس المؤمنين ، فتذهب بهم الظنون كل مذهب ، وتتداعى عليهم دواعى الضيق والحزن ، ويشتمل عليهم ضباب كثيف ، مما تتلفظ به هذه الشفاه الآثمة . من منكرات ، وما تتغامز به العيون الزائغة من نظرات وإشارات . .

وقوله تعالى : « وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله » أى أن الشيطان لن يضر المؤمنين بهذا الكيد الذى يكيده لهم ، وأن ما قد يقع للمؤمنين من ضر فهو مما قدره الله لهم ، وشاءه فيهم . وقد يجىء هذا الضرر عن طريق الشيطان أو غيره ، ولكن لا الشيطان ولا غيره يستطيع أن يضر أحدا إلا من شاء الله له هذا الضر . .

وقوله تعالى : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ـ هو دعوة المؤمنين ألا يحفلوا بما يتناجى به هؤلاء المنافقون ، وألا يعملوا له حساباً ، فإن ذلك لن يأتيهم شر منه ، إلا ما كان قد قدره الله عليهم .. وإذن فليتوكلوا على الله ، وهو حسبهم ونعم الوكيل . .

الآيات : (١١ — ١٣)

* « يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا فَٱنشُزُوا يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « يـأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير »

التفسح فى المجالس : التوسعة فيها ، حيث يسع بعضهم بعضاً ، وحيث يجد الطارىء عليهم ، مكاناً بينهم .

انشزوا : النشز ، المكان المرتفع من الأرض ، والخارج على المنبسط منها . . والمراد بالنشوز هنا ، الخروج من المجلس . . ومنه الناشز ، وهى المرأة الخارجة عن طاعة زوجها ، والنشاز من كل شىء : الخارج على الوضع العام له . . ومنه قوله تعالى : « وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً » (٢٥٩ : البقرة)

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة ، أشارت إلى مجالسَ يتناجى فيها أهل المجلس ، ويُفضى بعضهم إلى بعض بسره . . أما المنافقون فلا يتناجى بعضهم إلى بعض إلا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وأما المؤمنون فيتناجون بالبر والتقوى .. فناسب ذلك أن يُذكر ما ينبغى أن يأخذ به المؤمنون أنفسهم ، من آداب فى مجالسهم العامة التى لا مناجاة فيها والتى يباح لأىٍّ منهم أن يأخذ مكانه فيها ، وذلك ، حتى لا يقع فى مجلسهم ما يثير ضغينة ، أو يُوقع عداوة . .

ومما ألزم الله سبحانه وتعالى به المؤمنين من آداب المجلس ، أن يُوسع بعضهم لبعضهم ، وأن يفسحوا للقادم عليهم مكاناً بينهم ، فهو أشبه بالضيف ، ومن حق الضيف الترحيب به ، وإنزاله منزل الإكرام .. وإكرام الوافد على المجلس ، هو أن يجد له مكاناً بين أهل المجلس ، وأن ينزل المنزل المناسب له بينهم ، حسب دينه ، وعلمه . . فلا يتصدر المجلسَ جاهل وفى المجلس عالم ، ولا يتصدره من رقّ دينُه وفى أهل المجلس من كان ذا دين وتقوى . . وفى المأثور : « أنزلوا الناس منازلهم »

ويذكر المفسرون لهذه الآية سبباً للنزول ، فيقولون : إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، كان فى مجلس وحوله بعض أصحابه ، فجاء بعض وفود العرب إلى النبى ، فسلموا ؛ فرد النبى والمسلمون عليهم السلام ، ولم

يُفسح لهم أحد مكاناً فى المجلس ، فلما رأى النبى ذلك ، قال : قم يا فلان وقم يافلان ويافلان . . ثم دعا الوفدَ إلى الجلوس . . قالوا ، فساء ذلك المسلمين الذين دُعوا إلى القيام من مجلسهم ، وشنع المنافقون واليهود على المسلمين بهذا ، وقالوا لهم فيما قالوا : كيف يقول نبيكم إنما المؤمنون إخوة ، ثم يكون منه هذه التفرقة فى المعاملة بين أصحابه ، فيخرج بعضاً من المجلس دون بعض ؟

وهذه المقولات التى تُروى عن سبب نزول الآية الكريمة تبدو ـ على إطلاقها ـ واهية ، لا معقول لها . وذلك :

أولا : أنه ليس من أخلاق العرب أن يفد عليهم وافد ثم لايلقونه بالترحيب والاحتفاء ، عدوًّا كان أو صديقاً . . فكيف بمن يفد على النبى ؟ أفيُعقل أن يفد على النبى وافد وهو بين أصحابه ، ثم لا يلقاه أصحابه بالحفاوة والتكريم ، ولا يفسحون له مكاناً بينهم ؟ .. ذلك محال .

وثانياً : أيكون من أدب صحابة رسول الله ، الذين يجلسون إليه أن يجمد مشاعرهم هذا الجمود ، فلا يتحركون لوافد يفد على الرسول ، حتى يدعوهم الرسول هذه الدعوة التى يخرجهم بها من مجلسه ؟

وثالثاً : أيكون من أدب النبوة أن يجرح الرسولُ بعض صحابته هذا الجرح الغائر ، فيخرجهم عن أماكنهم ، ويلقى بهم خارج المجلس ؟ إنه لو اضطر الرسول الكريم إلى مثل هذا الموقف ، لكان من تدبيره ـ صلوات الله وسلامه عليه — أن يتحول بأهل المجلس جميعاً إلى مكان متّسع غير هذا المكان ، ثم لأخذ بيد ضيفه الوافدين عليه ، ولأنزلهم منزلهم فى المجلس الجديد . .

أما قوله تعالى : « إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا » فإن

القول هنا ليس بلسان المقال ، وإنما هو بلسان الحال . ومعنى هذا أنه إذا وُجد المسلمون فى مجلس ، ثم دعت الحال إلى أن يدخل عليهم غيرهم ، كان واجباً عليهم أن يفسحوا لهذا الغير، وأن يسعوه فى مجلسهم ، دون أن يقال لهم افسحوا . . فإن الانتظار إلى أن يقال لهم هذا القول لا يليق بالمؤمنين ، فذلك أمر لا يكون إلا عن طباع بليدة ، ونفوس جفّت مشاعر الإنسانية فيها . .

وكذلك الشأن إذا دعت الحال إلى أن ينصرف أهل المجلس ، وأن يغادروا مجلسهم بعد أن يأخذوا حاجتهم منه ، فإن الجلوس بعد هذا مضيعة للوقت ، داعية إلى طرق أحاديث من اللغو ، والعبث بعد أن فرغ حديث الجد والنفع . . فليس هناك فى تلك الحال قول يقال لأهل المجلس : أن انشزوا وانفضوا ، وإنما الحال نفسها هى التى تدعو إلى انفضاض المجلس . . وهذا من شأنه أن يقيم المؤمن على حال من الوعى واليقظة ، والالتفات الدائم إلى نفسه ، والتنبه إلى ما حوله من الناس والأحداث ، فلا يكون أبداً فى حال من الذهول والتبلد ، بحيث لا يتحرك إلا بمهماز ، كما تتحرك الدواب البليدة بالسياط تنهال عليها . .

وإذا أردنا أن نلتمس لهذا الخبر متأوّلاً ـ على فرض صحته ـ فهو أن النبىّ صلوات الله وسلامه عليه ، لم يقل هذا القول إلا لجماعة من المنافقين ، كانوا يحضرون مجلس النبىّ ، ممن أشار إليهم سبحانه وتعالى بقوله : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً . . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » (١٦ : محمد) ـ فكان قوله صلوات الله وسلامه عليه ، قم يافلان ، وقم يافلان ـ هو إشارة إلى هؤلاء المنافقين ، وفضحهم عند أنفسهم ، وخزيهم بين جماعة المسلمين التى دخلوا فيها متلصصين ، متربصين

وقوله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . . هو إشارة إلى هذه المشاعر اليقظى ، وتلك الأحاسيس المرهفة ، التى ينبغى أن يكون عليها المؤمن ، فإنه بقدر ما يكون عليه المؤمن من هذه المشاعر وتلك الأحاسيس ، بقدر ما تكون منزلته فى الإنسانية . .

والإيمان من شأنه أن يربى هذه المشاعر ، وينمّى هذه الأحاسيس ، وبمقياس الإيمان ، تقاس هذه المشاعر وتلك الأحاسيس . .

والعلم ، شأنه فى هذا شأنُ الإيمان ، فى رفع إنسانية الإنسان ، وإعلاء منزلته . . فالإيمان ، هو فى حقيقته علم ، والعلم فى حقيقته إيمان . . وإن إيمانا لا يقوم على علم ، هو إيمان هزيل باهت ، لا يؤثر أثرا ، ولا يطلع زهراً ولا ثمراً . . وإن علماً لا يفتح للعقل والقلب طريقاً إلى الإيمان ، ولا تنقدح منه شرارات مضيئة ، تضىء للإنسان طريقه إلى الله ، هو نار تحرق ، أو دخان يعمى العيون ، ويزكم الأنوف ، ويخنق الصدور . .

وقد جمعت الآية الكريمة بين الإيمان والعلم ، وجعلت كلاًّ منهما صفة لموصوف ، كما يقول سبحانه : « يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم » ولم يجىء النظم هكذا : يرفع الله الذى آمنوا منكم وأوتوا العلم » . . وذلك أن من الناس من يبدأ الطريق بالعلم ، ثم يقوده هذا العلم إلى الإيمان . . ومنهم من يبدأ الطريق بالإيمان ثم ، يقوده الإيمان إلى العلم .

فالمؤمن حقّ الإيمان . . عالم . .

والعالم حقّ العلم . . مؤمن . .

قوله تعالى :

* « يـأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم » .

دعا الله سبحانه وتعالى المؤمنين فى آية سابقة ، إلى أن تـكون مناجاتهم بالبر والتقوى ، حيث يقول سبحانه : « يـأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون » . (٩ : المجادلة)

فمناجاة المؤمنين بعضهم بعضاً ينبغى أن تقوم على البر والتقوى . . فكيف إذن تـكون مناجاتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ؟ إنها حينئذ ينبغى أن تـكون المناجاةَ الخالصة للبر والتقوى . .

ولهذا جاء قوله تعالى :

« يـأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة » والمراد بتقديم الصدقة هنا قبلَ مناجاة الرسول ، هو أن يَلقى المؤمنُ رسولَ الله على طهارة وتزكية بهذه الصدقة التى يقدمها . . فالصدقة مرضاة للرب ، مَطْهرة للقلب ، كما يقول سبحانه : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (١٠٣ : التوبة) . .

وليس المراد بتقديم الصدقة هنا ، أن توضع بين يدى النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وإنما المراد بها أن توضع فى يد من يستحقها من الفقراء والمساكين وابن السبيل . .

وهذه الصدقة التى يقدمها المؤمن الذى يَغْشَى مجلس الرسول ، هى ــ كما قلنا ــ مَطْهرة لهذا المؤمن ، وإعداد له كى يلتقى بالنبى الكريم ، وينتفع بهديه ، حيث يكون فى تلك الحال على قرب نفسىّ وروحى منه . . إن ذلك أشبه بالطهارة قبل الصلاة . . فالصلاة مناجاة لله سبحانه وتعالى ، ودخول إلى ساحة مغفرته ورضوانه ، والطهارة قبل الدخول فى الصلاة ، هى التى تهيىء المؤمن

نفسيًا وروحيًا للاتصال بالله سبحانه ، والقرب منه جل وعلا . . إنها أشبه بالاستئذان قبل الدخول .. فكما أنه لا يجوز المؤمن أن يدخل بيتاً غيرَ بيته من قبل أن يستأذن ، رعايةً لحرمة المسكن وأهله ـ فكذلك ينبغى على المؤمن ألا يقتحم مقام الرسول ، ويغشى حماه الطهور ، من غير أن يقف بين يدى هذا الحى ، وأن يقدّم صدقة، يُدخل منها على مشاعره أنه لن يؤذَن له بالدخول إلى هذا الحى ، من غير استئذان !

وقوله تعالى : « ذلك خير لكم وأطهر » أى هذا الفعل الذى تفعلونه بتقديم الصدقة قبل مناجاتكم الرسول — هو خير لكم ، وأطهر ، حيث يَرْضَى الله سبحانه وتعالى عنكم ، ويطهركم من ذنوبكم ، فيكون لقاؤكم الرسول على صفاء نفس ، وشفافية روح ، فتصيبون كثيراً من الخير الذى بين يديه . .

قوله تعالى : « فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم » فإن لم تجدوا صدقة تقدمونها ، فلا حرج عليكم ، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، والله سبحانه يغفر لكم ذنوبكم ، ويطهركم ، حتى إذا ناجيتم الرسول كنتم على حال من الطهر كحال الذين قدموا صدقات بين يدى نجواهم ، فالله سبحانه غفور ، أى كثير المغفرة ، تسع مغفرته الخلق جميعاً ، وهو رحيم بكم ، فلا يحرمكم مغفرته التى قَصُرت أيديكم عن أن تنالوها بالصدقة . .

وقوله تعالى :

* « أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ، فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون » .

المفسرون يكادون يكونون على إجماع بأن هـذه الآية ناسخة للآية التى قبلها . . بمعنى أن تقديم الصدقة من المؤمن الذى يودّ مناجاة الرسول ، قبل أن يدخل فى مناجاته ، والذى دعت إليه الآية السابقة ـ قد جاءت هذه الآية ناسخاً له ، تخفيفاً على الذين يودون مناجاة النبى .

ويقولون لتعليل هـذا النسخ ، إنه لمـا نزل قوله تعالى : « يـأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجوا كم صدقة » . . شقّ ذلك على كثير من المؤمنين ، وضنّ كثير من الأغنياء بأموالهم أن يخرجوا منها صدقة عند مناجاة الرسول ، وبهذا قلّت تلك الأعداد الـكثيرة التى كانت تسعى إلى مناجاة النبى ، فنزلت الآية : « أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجوا كم صدقات » فنَسخت الآيةَ التى قبلها ، وأبيح للمؤمنين مناجاة الرسول من غير صدقة يقدمونها بين يدى نجواهم ! !

ونحن على رأينا من أنه لا نسخ فى القرآن ، وأنه لانسخ فى هـذه الآية بالذات . . وذلك من وجوه .

أولا : أن الصدقة التى دُعى المؤمنون إلى تقـديمها بين يدى نجواهم غيرُ محددة المقدار ، ومن هنا كانت أىُّ صدقة يقدمها المؤمن فى هذا المقام مُجْزية له ، ولو كانت شِقّ تمرة . . وإذن فليس فى هذه الصدقة مايشق على المؤمنين ، حتى يجىء الأمر بنسخ تقديم هذه الصدقة .

وثانياً : ليس ما جاءت به الآية من الأمر بتقديم الصدقة — والله أعلم — أمراً ملزماً ، يقع موقع الوجوب ؛ بل هو أمر للندب والاستحباب ، ولذلك عُلّل له بقوله تعالى : « ذلك خير لـكم وأطهر » . . ثم جاءت المجاوزة عنه عند عدم وجود الصدقة : « فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم » .

وثالثاً : قوله تعالى فى الآية التى يقال إنها ناسخة : « أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات » ـ ليس معنى كلمة الإشفاق هنا الضنّ بالمال الذى يُنْفَق فى هذا الوجه ، وإنمـا هو الخوف من ألا يجد المؤمنون ما يتصدقون به فى كل وقت يَلْقَوْن فيه رسولَ الله صلوات الله وسلامه عليه . . وكثير منهم كان يَلْقى النبى كل يوم مرات كثيرة . . وخاصة صحابتـه الذين كانوا على اتصال دائم به ، كأبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وعبدالرحمن بن عوف ، وأبى عبيدة ، وطلحة ، والزبير ، وأبى هريرة وغيرهم . . فهؤلاء الصحابة الـكرام وأمثالهم ، يشق عليهم أن يحجبهم عن الرسول حجاب فى نهـار أو ليـل ، وكثيراً ماتـكون الصدقة غير ممـكنة لهم فى كل حال . . فهم — والأمر كذلك — بين حالين : إما ، ألاّ يلتقوا بالرسول حتى يقدموا بين يدى لقائهم صدقة . . وفى هذا إعنات شديد لهم ، وخاصة أن لقاءهم للنبى يتـكرر مرات فى اليوم . . وقد لا يكون بين يدى أحدهم مايقدمه من صدقة . . وإنه ليس بالذى يُرضِى نفسَ هؤلاء الصحابة الـكرام أن يكون لقاؤهم للنبى من غير تقديم صدقة ، حيث يدخلون فى حكم قوله تعالى : «فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم» . . فإن ذلك — وإن كان يبيح لهم لقاء النبى ومناجاته من غير صدقة — إلا أنه يضعهم فى موضع لايحبونه ، ولا يرضَوْنه لأنفسهم ، إنهم يطلبون أن يكونوا على أحسن أحوالهم فى لقائهم للنبى ، وإنهم ليَعدّون أنفسهم مقصّرين ، إذا هم التقوا بالرسول من غير تقديم الصدقة ، وإن كان ذلك متجاوزاً لهم عنه !.

وإنه لـكى يزول هـذا الحرج من صدور الصحابة الذين لايجدون الصدقة التى يقدمونها بين يدى مناجاتهم الرسول — جاء قوله تعالى : « أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات » . . وجاء لفظ الصدقات جمعاً ، لامفرداً ،

وفى ذلك دليل على أن المراد بهذا، هم الصحابة الذين كانوا على لقاء دائم بالنبى، ذلك اللقاء الذى يدعوهم إلى تقديم صدقات كلّ يوم، لا صدقة واحدة . .

ومن جهة أخرى، فإنه من المحال أن يضنّ واحد من صحابة رسول الله بماله كله، ويُمسك به، إذا كان هـذا المال وسيلة إلى لقاء النبى . . فكيف والصدقة المطلوبة هى بعض من هذا المـال ؟ .

ورابعاً : قوله تعالى فى هذه الآية أيضاً : « فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم » يشير إلى أن الذين لم يفعلوا، أى لم يستطيعوا تقديم الصدقة ـ لا ضنًّا بها، ولكن عجزاً عنها ـ هؤلاء قد تاب الله عليهم، أى رحمهم، ورفع عنهم الحرج، وأفسح لهم الطريق إلى مناجاة النبى من غير تقديم الصدقة التى عجزوا عنها .

فالتوبة هنا، معناها الرحمة، والقبول، والرضا، فهى توبة من الله سبحانه وتعالى عليهم، أى عود عليهم منه سبحانه وتعالى بفضله ورحمته . ومثل هـذه التوبة ما جاء فى قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة » (١١٧ : التوبة) فالتوبة هنا توْبةُ رضًى وإحسان. أما التوبة من العبد، فهى رجوع إلى الله بالندم، والانخلاع من المعصية ..

وقوله تعالى « وتاب الله عليكم » جملة حالية من الفاعل فى قوله تعالى : « فإذ لم تفعلوا » أى إذ لم تقدموا الصدقة فى حال قـد قبلكم الله عليها، ورحمكم فيها .

وقوله تعالى « فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون » — هو جواب « إذ » التى تفيد مع الظرف معنى الشرط . . أى فإذ قد رحِمكم الله، وعاد بفضله عليكم، ورفع عنكم الحرج فى لقاء النبى من غير

تقديم صدقة — فأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطيعوا الله ورسوله، فذلك هو شكركم لله سبحانه وتعالى على ما فضّل به عليكم..

ففي إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله، ما يقربكم من الرسول، ويقيمكم أبداً على طهارة دائمة، أشبه بمن يمدّ يده بصدقات لا تنقطع أبداً..

وعلى هذا فإنه ليس بين الآيتين تناسخ، بل إن كِلاَ الآيتين من المحكم، وأنهما يتناولان أمراً واحداً، ويعالجان قضية واحدة، لا تتم أركانها إلا بالآيتين معاً.. والله أعلم.

الآيات: (١٤ — ٢٢)

* « أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ (١٨) ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون »

هو استفهام إنكارى ، يفضح أولئك المنافقين من الذين دخلوا فى الإسلام .. فهؤلاء المنافقون قد تولوا ، أى صاروا أولياء ومناصرين « قوماً غضب الله عليهم » وهم اليهود .. فاليهود ، هم المغضوب عليهم من الله ، فحيث وقع غضب الله فى القرآن الكريم ، كان اليهود هم الواقعَ عليهم هذا الغضب .. نعوذ الله من غضب الله .

وقوله تعالى : « ما هم منكم ولا منهم » أى أن هؤلاء المنافقين ليسوا منكم أيها المؤمنون ، ولا من اليهود أهل الكتاب .. أما أنهم ليسوا من المؤمنين فقد بَعُد بهم نفاقهم عن دائرة المؤمنين ، وأما أنهم ليسوا من اليهود ، فلأنهم من مشركى العرب الذين دخلوا فى الإسلام بألسنتهم ، كعبد الله بن أبىّ وغيره ، ممن انحاز إلى جانب اليهود فى كيدهم لرسول الله وللمؤمنين ..

وقوله تعالى : « ويحلفون على الكذب وهم يعلمون » أى أن هؤلاء المنافقين لا دين لهم ، ولا مروءة عندهم حتى إنهم ليحلفون على الكذب ،

وهم يعلمون أنه الكذب . . وهذا الحلف هو الحلف الفاجر ، واليمين الغَمُوس . .

وقوله تعالى :

* « أعدّ الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون »

أى أن الله سبحانه قد أعد لهؤلاء المنافقين عذاباً شديداً ، جزاء بما اقترفت أيديهم وألسنتهم من سيئات ومنكرات

وفى قوله تعالى : « أعد الله لهم عذاباً شديداً » — إشارة إلى سوء هذا العذاب الذى ينتظر هؤلاء المنافقين ، وأنهم قد أُعد لهم العذاب ، قبل أن يلتقوا به ، فهو عذاب خاص بهم ، يتناسب مع مكانتهم فى أهل الضلال . .

قوله تعالى :

* « اتخذوا أيمانهم جُنّة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين »

الجنة : الوقاية ، ومنه المِجَن ، وهو الترس ، والدرع ، مما تتقى به الضربات فى الحرب .. فهؤلاء المنافقون ، قد اتخذوا من الأيمان الفاجرة الكاذبة جُنة ، يتقون بها النظرات التى ينظر بها المؤمنون إليهم ، فيرون خزى النفاق ظاهراً على وجوههم ، فلا يجد المنافقون سبيلا لستر نفاقهم إلا الحلف الكاذب ، الذى يبرّرون بهم مواقفهم المنحرفة الضالة . . وإنهم تحت ستار هذه الأيمان الكاذبة استطاعوا أن يداروا نفاقهم ، وأن يمضوا فى طريقهم الضال المنحرف عن سبيل الله : « فلهم عذاب مهين » هو جزاء من يضل عن سبيل الله ، ويتبع غير سبيل المؤمنين .

قوله تعالى :

* « لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

أى أنهم لن يجدوا مفرّاً من العذاب المهين المعدّ لهم ، وأن ما جمعوا من أموال ، وما استكثروا من أولاد ، لن يغنى عنهم أى غناء فى هذا المقام ، ولن يدفع عنهم عذاب الله الواقع بهم ، والذى هم خالدون فيه أبداً ..

قوله تعالى :

* « يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون » .

أى أنهم لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً يوم يبعثهم الله جميعاً ، ويُعرضون بين يديه للحساب ، فيحلفون له كذباً ، كما كانوا يحلفون فى الدنيا للمؤمنين كذباً .. فلقد صحبهم نفاقهم الذى عاشوا به فى الدنيا ، إلى الآخرة ، وكأنه طبيعة ملازمة لهم ، متمكنة فيهم . إنهم ليكذبون حتى على أنفسهم ويخادعونها بهذا الضلال الذى يزينونه لها .. وفى هذا يقول الله تعالى : « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين * انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » (٢٣ — ٢٤ : الأنعام) .

وقوله تعالى : « ويحسبون أنهم على شىء » أى أنه يخيل إليهم من كثرة إلفهم لهذا الكذب، أنه حق ، وأن ما يقولونه من مفتريات هو من الحق الذى ينفعهم فى هذا اليوم ، كما كانوا يجدون لكذبهم فى الدنيا مدخلا إلى الناس ، بالأيمان الفاجرة التى يدارونه بها .. ولكن كذبهم هذا الذى يحلفون له بين يدى الله ، سيرونه بأعينهم بلاء ووبالا عليهم ، حيث ينكشف زَيْفه . ويتعرّى وجهه الكئيب ، فيروْن على صفحته المخازى والضلالات التى تدفع بهم إلى عذاب الجحيم ..

قوله تعالى :

* « استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذِكْرَ الله أولئك حزب الشيطان ألآ إن حزب الشيطان هم الخاسرون » .

الاستحواذ على الشيء . الغلبة عليه ، والتملك له ، والاستبداد به

وما زالت الآيات تتحدث عن هؤلاء المنافقين ، وتفضح أساليب نفاقهم ، والدوافع التى تدفع بهم إليه .. وأنهم قد أصبحوا ليد الشيطان الذى استحوذ عليهم ، وملك أمرهم ، وضمهم إلى حوزته ، فأنساهم ذكر الله ،وصرفهم عن النظر إلى ما وراء هذه الحياة الدنيا من حساب وجزاء . فهم أولياء الشيطان، وحزبه.، وحيث كان الشيطان فهم معه .. وليس للشيطان إلا الخزى والخسران .. فهم آخذون نصيبهم كاملاً من هذا الخزى ، وذلك الخسران .

قوله تعالى :

* « إن الذين يحآدون الله ورسوله أولئك فى الأذلين » .

المحادّة لله ورسوله : التحدى لأمر الله ورسوله ، والخروج عن طاعتهما .

والمنافقون ، يقودهم الشيطان إلى محادة الله ورسوله ،والخروج عن طاعتهما ، وإنه لن يكون لمن يحاد الله ورسوله إلا الذلة والهوان ، وإلاّ أن يدخل فى زمرة الذين أذلهم الله ، وأنزلهم منازل الهون .. .

قوله تعالى :

* « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » .

كتب الله : أى قضى ، وحكم .. وفى التعبير عن القضاء والحكم ، بالكتابة ، إشارة إلى أن ذلك قضاء نافذ ، وحكم قاطع .. أو أن ما قضى الله سبحانه وتعالى به ، مكتوب فى أم الكتاب .. وهو اللوح المحفوظ ..

أى ومما قضى الله به أن الغلبة له سبحانه ، ولرسله على أهل الباطل، والضلال، وأن الخزى والهوان على الذين يحادّون الله ورسوله .. وهذا وعد من الله سبحانه وتعالى بنصرة الحق ، والانتصار لأهله الذين يدافعون عنه . . فإن العاقبة دائماً للحق ، والمدافعين عن الحق، وإن ضاقت بالحق وأهله المسالك، وتراكمت الغيوم، فذلك الضيق إلى سعة ، وهذه الغيوم إلى صحو وإشراق .

قوله تعالى :

* « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألآ إن حزب الله هم المفلحون » .

بهذه الآية الكريمة تختم سورة « المجادلة » فتضع الميزان الذى يوزن به الناس ، فى مقام الإيمان والكفر .. فحيث كان الإنسان بولائه ، وبمودته ، كان الوجه الذى يُعرف به ، ويحاسب بين الناس عليه .. فمن وَالَى قوماً ، ووادّهم ، عُدّ منهم ، وحُسب فيهم . .

وإذن فلا يكون مؤمناً بالله واليوم الآخر من كان على مودة لمن حاد الله ورسوله .. إذ لا يتفق أن يجمع المرء فى قلبه بين ولائه لله ، وولائه لأعداء الله .

وإذن فلا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . . ففى سبيل الولاء لله ولرسوله ، ينقطع كل ولاء مع من حاد الله ورسوله ، ولو كان ذلك بين الأب وابنه ، أو الابن وأبيه ، والأخ وأخيه ، والعشير وعشيره . .

وقوله تعالى : « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان » أى أولئك الذين يخلصون ولاءهم لله من المؤمنين بالله ورسوله ، ويقطعون فى سبيل ذلك كل ولاء لهم مع

أعداء الله من أهل وعشير ـ « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان » أى ثبته الله ومكنه فى قلوبهم ، فلا تعصف به عواصف الفتن ، ولا تغلبهم عليه الأهواء . .

« وأيدهم بروح منه » أى أعانهم الله سبحانه وتعالى بروح منه ، تقيهم عوادى الفتن ، وتعصمهم من نزعات الشيطان .. « ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » فهذا هو جزاؤهم عند الله .. فقد « رضى الله عنهم » وتقبل منهم أعمالهم ، فكان جزاؤهم عنده هذا الرضوان ، وذلك النعيم المقيم ، وقد أرضاهم هذا النعيم ، فحمدوا ربهم وشكروا له ..

وفى قوله تعالى : « ورضوا عنه » ما يكشف عن بعض لطف الله بعباده وإكرامه لأهل وده ، وإغداق الإحسان عليهم ، حتى تطيب نفوسهم وتمتلىء غبطة ورضى .. وهذا مايشير إليه سبحانه وتعالى فى خطابه لنبيه الكريم : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » ..

وماذا يملك العبد حتى يكون لرضاه عن ربه أو سخطه ، وزن أو قدر ؟.. إنه لا شىء . .

ولكن هكذا فضل الله على عباده ، وإحسانه على أوليائه .. إنهم أرضوا الله بإيمانهم ، وإحسانهم ، فكان جزاؤهم عند الله أن يعطيهم حتى يرضوا عنه.. إنه رضًى متبادل بين الله وأوليائه . حيث يطلب العبد رِضَى سيده ومولاه ، فإن رِضَى عنه سيده ، فعل به ما يرضيه عنه .. وكما يكون الرضا المتبادل بين الله وأوليائه ، يكون الحب المتبادل بين الله وأحبابه .. « يحبهم ويحبونه » (٥٤ : المائدة) ..

« أولئك حزب الله » .. أولئك الذين جعلوا ولاءهم لله ولرسول الله ، هم حزب الله وأنصاره ، وجنده ، « ألا إن حزب الله هم المفلحون » ومن كان فى حزب الله ، ومع الله ، فهو من الفائزين المفلحين ..

* * *

٥٩ : سورة الحشر

نزولها : مدنية باتفاق ..

عدد آياتها : أربع وعشرون آية ..

عدد كلماتها : أربعمائة وخمس وأربعون كلمة ..

عدد حروفها : ألف وتسعمائة وثلاثة عشر حرفاً ..

مناسبتها لما قبلها

كان مما تحدثت عنه سورة المجادلة فضحُ وجوه المنافقين ، الذين يتناجون مع اليهود الذين يكيدون للإسلام ، ويدبرون معهم مايكيدون به المؤمنين ..وقد توعد الله هؤلاء المنافقين بالخزى فى الدنيا ، والمذلة والخسران والعذاب الأليم فى الآخرة ..

وهنا فى سورة الحشر ، يُعرض على المنافقين بعضُ ما لقى أحلافهم وأولياؤهم من اليهود ، من خزى،وذلة ، ونكال ، فى هذه الدنيا .. وإن هذا الخزى والذلة والنكال ، ليتربص بهؤلاء المنافقين، إن هم ظلوا على نفاقهم ،وسيلحقهم بإخوانهم الذين رأوا بأعينهم ما حلّ بهم ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٥)

«سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)»

التفسير :

قوله تعالى :

* « سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم » ..

تبدأ السورة بهذا النشيد القدسى الذى ينتظم الوجود كله ، فى سمواته وأرضه ، مسبّحا بحمد الله ، فى ولاء لعزته ، وانقياد لسلطانه .

وهذا النشيد ، هو تقدمة حمد وشكر لله على ما أخذ به أهل الضلال والفساد من عقاب ، فأنزلهم منازل الهون ، وضرب على أيديهم الآثمة ، التى طالما تطاولت

على أولياء الله ، وتصافحت على الكيد لهم ، وإلحاق الضرر بهم ..

فهذه نعمة عظمى تستحق من المؤمنين التسبيح بحمد الله ، والشكر له ..

وليس المؤمنون وحدهم هم الذين يحمدون الله ويسبحونه ، ويذكرون آلاءه على ما أنزل بالمنافقين والكافرين من خزى ، وهوان ، وعلى ما كتب للمؤمنين من إعزاز وتأييد ونصر — بل إن كل ما فى السموات والأرض يسبح بحمد الله، أن أحق الحق وأزهق الباطل ، وأزاح هذه العلة ، التى كانت قذًى فى عين الوجود ، وسحابة سوداء فى سمائه الصافية ..

هذا ، وقد ورد التسبيح لله فى القرآن الكريم بالصيغ الثلاث ، الدالة على أزمنة الحدث ، ماضياً ، وحاضراً ، ومستقبلا ..

فجاء بصيغة الماضى فى قوله تعالى: « سبح لله مافى السموات وما فى الأرض، وهو العزيز الحكيم » (الحشر) ..

وجاء بصيغة المضارع فى قوله تعالى : « يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم » .. (١ : الجمعة)

وجاء بصيغة الأمر فى قوله تعالى : « سبح اسم ربك الأعلى » .. (١ : الأعلى) .

وفى هذا ما يشير إلى أن جميع آنات الزمن ولحظاته مملوءة بذكر الله ، والتسبيح بحمده .. من عوالم الوجود فى السموات والأرض جميعاً .

فمن لم يسبح اختياراً ، سبّح اضطراراً .. « وإن من شىء إلاّ يسبّح بحمده » .

قوله تعالى :

* « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم

الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يُخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار » ..

أى أن الله سبحانه بعزته وحكمته ، هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم ، ومكّن المسلمين منهم ، ومن ديارهم ..

والذين كفروا من أهل الكتاب هنا ، هم جماعة من جماعات اليهود ، التى كانت تسكن المدينة ، وهم بنو النضير : الذين كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قدم المدينة ، عقد معهم عقداً ، على أن يقفوا موقفاً حيادياً منه ومن أصحابه ، فلا يقاتلوه ، ولا يقاتلوا معه .. وقد كانوا من هذا العقد على دَخَل وخيانة .. وكانوا يتربصون بالنبى والمسلمين الدوائر .. حتى إذا كانت وقعة أُحد ، ورأوا فيها هزيمة المسلمين ، تحركت نوازع الغدر فى صدورهم ، فسعى كبيرهم كعب بن الأشرف إلى عقد حلف مع قريش ، ضد النبى وأصحابه ، وجاء إلى مكة ومعه أشراف قومه ، يعرض على قريش أن يدخل معها هو وقومه بنو النضير فى حلف لحرب النبى ، وأنه إذا جاءت قريش إلى المدينة ، وخرج النبى وأصحابه لحربهم ، كان بنو النضير جيشاً محارباً مع قريش ، يضرب فى ظهور المسلمين ، على حين تضرب قريش فى وجوههم ..

وقد علم النبى بهذا الذى أحدثه بنو النضير ، من نقض العهد ، فأمر النبى بقتل كعب بن الأشرف بأمر من الله سبحانه ، جاءه به جبريل ، عملاً بقوله تعالى : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض .. ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » .. (٣٣ : المائدة) ..

وكما كان جزاء كعب بن الأشرف ـ رأس الفتنة ـ القتلَ ، كان جزاء قومه النفيَ من الأرض . .

والذى تولى قتلَ كعب بن الأشرف ، بأمرٍ من رسول الله ، هو محمد بن مَسْلمة الأنصارى . .

وقوله تعالى : « لأول الحشر » إشارة إلى أن هذا أول إخراجٍ لليهود من ديارهم ، وأنه سيكون بعده إخراج لجماعات أخرى منهم .. وقد حدث هذا فعلا ، فأُخرج بنو قريظة بعد غزوة الأحزاب ، وقُتل كل من بلغ الحلم منهم ، وسُبِىَ النساء ، والأطفال والشيوخ ، ثم أُخرج اليهود جميعاً من الجزيرة العربية فى عهد عمر بن الخطاب ، حيث أجلى البقيةَ الباقية منهم ، والتى كانت تعيش فى خيبر . .

وسُمّى هذا الإجلاء حشراً ، لأنه أشبه بالحشر الموعود يوم القيامة ، حيث وقع عن قهر ، ولم يقع عن رغبة منهم . . ثم إنه كان إجلاء عامًّا ، لم يدع أحداً منهم ، كما لم يدع حشرُ القيامة أحداً ممن فى القبور . . ثم إنه من جهة ثالثة كان جماعيًّا فوريًّا ، وليس جماعةً جماعة ، وزمنا بعد زمن . .

فالحشر : يشير إلى القوة الضاغطة الحاشرة ، التى تسوق المحشورين سوْقاً عنيفاً ، وتجمع أشتاتهم فى دائرة واحدة ، وتقيمهم على وجه واحد . . فهو والحشد بمعنًى ، ومنه قوله تعالى : « فأرسلَ فرعون فى المدائن حاشرين » (٥٣ : الشعراء)

وقوله تعالى : « فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا » . . أى فطلع عليهم قَدَرُ الله فيهم من حيث لم يقدّروا ، فقد كانوا يحسبون أنهم من حصونهم فى أمن من كل يد تنالهم ، وخاصة يدَ النبى والمسلمين الذين كانوا يرون أنهم لن ينالوا

منهم منالا أبداً ، وهم فى داخل هذه الحصون التى لا تُنال . . فكان من تقدير الحكيم العليم أن يبَطل حسابُ هؤلاء الأشقياء، ويفَسد تدبيرهم ، ويختل تقديرهم ، فيكون النبى وأصحابه هم الذين تتداعى بين أيديهم هذه الحصون ، ويخرج منها القوم كما تخرج الفئران من أجحارها ، وقد أغرقها السيل الجارف ! !

وقوله تعالى : « وقذف فى قلوبهم الرعب » إشارة إلى ما كان من تدبير الله سبحانه وتعالى، لإبطال عمل هذه الحصون ، فقد قذف الله سبحانه الرعب والفزع الشديد فى قلوب المتحصنين بها، فبدت لهم هذه الحصون الحصينة وكأنها بيوت من زجاج أو ورق ، فلم يكن منهم حين رأوا المؤمنين يحاصرونهم إلّا أن يستسلموا من غير قتال ، أو اعتداد بتلك الحصون . .

وقوله تعالى : « يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين » ـ أى أن هذه الحصون التى كانت بمكان الإعزاز والإعجاب من نفوسهم ، قد هانت عليهم ، وخفت موازينها فى أعينهم ، بعد أن رأوا ـ بما امتلأت به قلوبهم من رعب ـ أنها لا تردّ عنهم عدوا ، ولا تدفع مغيراً ، فأخذوا يخربونها بأيديهم ، ويفتحون معاقلها للمسلمين ، كما تركوا المسلمين أن يدخلوها عليهم ، وأن يفتحوا مغالقها ، ويطلعوا على مسالكها . . وهذا هو معنى خرابها ، الذى يبدو فى تعطيلها ، وتعطيل وظيفتها التى أعدت لها . . ومنه قوله تعالى : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها » (١١٤ : البقرة)

وقوله تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » ـ هو إلفات إلى هذا الحدَث ، وما فيه من دلالات على قدرة الله سبحانه ، وعلى تدبيره المحكم الذى لا يغالب ، وهذا ما لا يراه إلا أصحاب الأبصار النافذة إلى حقائق الأمور ، وإلى مواقع العبرة والعظة منها . .

قوله تعالى :

* « ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار »

أى أن هؤلاء القوم الذى كتب الله عليهم الجلاء ، وقضى عليهم به ـ لو نظروا إلى المستقبل القريب ، ورأوا ما سوف يحلّ بإخوانهم من بنى قريظة ، من قتل ، إذن لحمدوا الله وشكروا له ، أن كان الجلاء هو الجزاء الذى أُخذوا به ، فأجلوا عن المدينة ، فكان بعضهم فى خيبر ، وبعضهم فى الشام .

وهذا يعنى أن اليهود فى الجزيرة العربية كانوا يومئذ بين أمرين من أمر الله : إما الجلاء ، وإما القتل والسبى . . وأن أحسنهم حظًّا من كُتب عليهم الجلاء . . وفى هذا إرهاص بالبقية الباقية من اليهود فى المدينة ، وأنهم إذا لم يجلوا عنها ، عُذّبوا فى الدنيا بالقتل وبالسبى . . أما فى الآخرة فلهم جميعاً عذاب النار . .

وهذا العذاب الأخروى ليهود الجزيرة العربية ، إنما هو لكفرهم برسول الله ، بعد علمهم بدعوته ، والوقوف على معطيات رسالته ، وشهودهم شواهد الإعجاز منها . . ولهذا ، كان أهل الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ الذين بلغتهم الرسالة النبوية ـ كانوا يخاطَبون فى القرآن الكريم على أنهم كافرون ، كما يقول سبحانه : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة * رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة * فيها كتب قيمة » (١ : ٣ البينة) ومن هذا قوله تعالى : « يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون » (٧٠ : آل عمران)

قوله تعالى :

* « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب »

هو بيان للسبب الذى من أجله أنزل الله سبحانه ما أنزل من بلاء فى الدنيا ، وما أعد من عذاب فى الآخرة ـ لهؤلاء القوم من بنى النضير ، ومَن على شاكلتهم . . إنهم شاقّوا الله ورسوله ، أى كانوا على شقاق وخلاف لله ولرسوله . . وإنه ليس لمن يشاقّ الله ، ويحيد عن صراطه المستقيم ؛ إلا أن يلقى العذاب الشديد من الله . .

« فإن الله شديد العقاب » لمن يشاقه ، ويشاق رسوله .

هذا ، وقد جاء التعليل للعذاب جامعاً بين مشاقة الله ومشاقة رسوله فى قوله تعالى : « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله » . .

ثم جاء الشرط المُوجِب للعذاب ، بمشاقة الله وحـــده ، دون رسوله فى قوله تعالى :

* « ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب » . وذلك للإشارة إلى أن مشاقة الرسول ، هى مشاقة لله ، سواء بسواء ، إذ كان الرسول هو رسول الله ، وكلماته التى يتلوها على الناس ، هى كلماتِ الله .. فذِكر الرسول مع الله ، أولاً ، ثم الاكتفاء بذكر الله وحده ثانيا — هو تأكيد لهذا المعنى ، وإقامته على التسوية بين مخالفة الله ومخالفـة رسوله . . وكما يكون هـذا فى المعصية والخلاف ، يكون فى الطاعة والولاء . . كما يقول سبحانه : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (٨٠ : النساء) ..

قوله تعالى :

* « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمـة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين » .

اللينة : النخلة ، وهى من اللِّين ، الذى يدل على الرخاء والنعمة ، ولين العيش ، إذ كانت النخلة نعمة طيبة ، ورزقا كريماً لأهل البادية ، فأطلقوا عليها هذا الاسم ، احتفاء بها ، وإشادة بفضلها ، كما سموا الخيل خيراً ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام .. « فقال إنى أحببت حبَّ الخير عن ذكر ربى » (٣٢ : ص) .. يريد الخيل .

والخطاب هنا للمسلمين الذين حاصروا بنى النضير ، الذين تحصنوا بحصونهم وأبوْا أن يستسلموا ، فاتجه المسلمون إلى قطع نخيلهم التى كانت تحيط بديارهم .. فلما استسلموا للمسلمين بعد هذا ، وقع فى نفوس بعض المسلمين ندم على أنهم قطعوا هذا النخل الذى صار إلى أيديهم ، فجاء قوله تعالى هنا ، مُسرّيا عن المسلمين ومعزيا لهم فى هـذا الخير الذى فاتهم .. فما قُطع من النخيل ، أو بقى منه ، فهو بما قضى به الله سبحانه وتعالى ؛ وإذن فلا يأسَ المسلمون على مافاتهم .. إذ كان ذلك عن إرادة الله سبحانه ، وعن إذن منه ..

ثم إنه لـكى يَرْضَى المسلمون بهذا القضاء ، وليروا وجه الحـكمة منه ، فليعلموا أن ذلك إنما كان ليخزى الله به هؤلاء الفاسقين ، وليذلّهم ، وليريهم أن ما غرسوه بأيديهم ، وبذلوا له جهدهم وأموالهم ، قد استبدّت به يد المسلمين ، وحصدته يد المنايا كما يحصد الموت أبناءهم بين أيديهم ، دون أن يملـكوا لذلك دفعاً ..

وفى هذا ما فيه من إذلال لهم ، ومضاعفة للحسرة فى قلوبهم .. فإذا كان المسلمون قد خسروا شيئاً من هذا الرزق الطيب ، فهو إنمـا هو الثمن الذى أدّوه لخزى أعدائهم وكبتهم ، تماماً كما يؤدّون مثلَ هذا الثمن بمن يُقتل منهم فى ميدان القتال ، لِقاء النصر على العدو !.

الآيات : (٦ — ١٠)

* « وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٧) لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ (٨) وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٩) وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل

ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير » . .

الفىء لغة : ما نسخته الشمس من الظل . . والأصل فيه الرجوع إلى الشىء المتروك ، ومنه قوله تعالى : « فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم » (٢٢٦ : البقرة) . .

والفىء : شرعاً ما أفاء الله على المجاهدين من أموال الكافرين من غير قتال . . وفى هذا إشارة إلى أن ما فى أيدى الكافرين من أموال ، هى فى حقيقتها أموال المؤمنين ، إذ كانوا هم أولى بها ، وأعرف بحق الله والعباد فيها . . فلما أخذها المؤمنون من أيدى الكافرين ، أصبحت وكأنها فاءت ، أى عادت إلى أهلها الذين هم أحق بها . .

وقوله تعالى : « وما أفاء الله على رسوله منهم . . فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب » أى والذى أفاءه الله على رسوله من أموال بنى النضير ، فإنكم - أيها المؤمنون - لم تسيّروا إليه خيلا ولا إبلا ، ولم تقاتلوا عليه ، إذ كان القوم قريباً منكم فمشيتم إليهم بأقدامكم من غير خيل أو إبل ، وقد استسلموا لكم من غير قتال . .

والوجيف : ضرب من السير السريع ، فيه اضطراب للراكب من حركة عَدْوِ الحيوان الذى يركبه . . ومنه وجيف القلوب ، أى اضطرابها ، ومثل هذا ما يشير إليه قوله تعالى : « قلوب يومئذ واجفة » . (٨ : النازعات) . .

وهذا الخبر يشير إلى أمرين :

أولهما : أنه ليس للمؤمنين أن يحزنوا على ما قطعوا من نخل . فإن

ما بقى ، فيه رضًى لهم ، كما أن فيما ترك القوم من ديار ومتاع ، عوضاً من هذا النخل الذى قُطع .. وخاصة أن ماوقع لأيديهم قد جاءهم صفواً عفواً لم يُوجفوا عليه بخيل ولا إبل ، ولم يقاتلوا فى سبيله.

وثانيهما : أن هذا المال ، الذى لم يقاتل عليه المسلمون ، لا ينطبق عليه حكم الغنائم ، التى يكون لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، خمسُ ما غنموا ، ويكون للمقاتلين أربعةُ الأخماس الباقية ـ فهذا المال الذى لم يقاتل عليه المسلمون ، لا يقع تحت هذا الحكم ، وإنما هو كله لله وللرسول ، ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . أى أنه يكون فى يد الرسول ، أو يد ولىّ الأمر القائم على المسلمين ، ينفقه فى هذه الوجوه .

قوله تعالى : « ولكن الله يسلط رسله على من يشاء » أى أن هذا النصر الذى وضعه الله بين أيديكم ، هو من عند الله ، لم تعملوا له بخيل ولا إبل ، ولم تنالوه بقوة السلاح ، ولكنه أتاكم بتأييد من الله سبحانه لرسوله ، وتمكين لكم من السلطان والغلب على من يشاء من عباده . . فهكذا يؤيد الله سبحانه وتعالى رسله ، وينصرهم ، ويجعل لهم سلطاناً على الناس ، بما يضع فى أيديهم من معجزات ، وبما يمدهم به من جنود لا يعلمها إلا هو ، تحارب معهم ، وتُلقى الرعب فى قلوب أعدائهم ..

فقوله تعالى : « يسلط رسله » أى يجعل لهم سلطانا . . فالتسلط هنا من السلطان ، ومن هذا قوله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين » (٩٦ : هود) . . أى تسلط على فرعون ، وقهر له .

قوله تعالى :

« ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب »

هذه الآية معطوفة على الآية السابقة ، ومقررة للحكم الضمنى ، الذى أشار إليه قوله تعالى : « فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب » .. كما أنها تشير إلى إلحاق قُرًى أخرى بهذه القرية ، كما سيحدُث ذلك لبنى قريظة ..

فهذا الفيء الذى يفيئه الله على رسوله من أهل قرى اليهود ، لا يقع تحت حكم الغنائم ، وإنما هو كله فى يد الرسول ، يضعه فى هذه المصارف التى أشارت إليها الآية الكريمة ، والتى ستشير إليها الآيات التالية بعد ذلك ..

وقوله تعالى : « كى لا يكون دُولة بين الأغنياء منكم » هو تعليل لحكم التصرف فى الفيء ، وأنه إنما جرى عليه هذا الحكم حتى ينال الفقراء والمساكين حظهم منه ، وحتى لا ينتقل من يد الذين يملكون إلى يد الذين يملكون ، فيصبح دولة بينهم ، أى متداولا بين الأغنياء ، على حين يظل الفقراء على فقرهم ، ويقيم المحرومون على حرمانهم !!

قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » هو إلفات للمؤمنين إلى ماينبغى لهم من ولاء وطاعة للرسول، وتقبّل ورضًى ، بكل مايقضِى به النبىّ فى المؤمنين ، وخاصة وهم فى مواجهة هذه الفتنة المطلة عليهم من المال الذى وضعه الله فى يد الرسول .. فهناك كثير من الأعيُن ترنو إلى هذا المال ، وكثير من القلوب تتلفت إليه ، وإنه لن يعصم المسلم ـ من هذه الفتنة ، إلا الإيمانُ الوثيق، والرضا المطلق، بكل ما يقضى به الرسول : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم

عنه فانتهوا » .. فهذا هو حقّ الرسول على المؤمنين : الامتثال والطاعة من غير مراجعة ، ولا توقف ، أو ريبة . .

وقوله تعالى : « واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . . وعيد لمن تحدثه نفسه من المؤمنين بالخروج عن أمر الرسول ، أو الضّيق به ، فإن ذلك معناه الكفر ، والانسلاخ من الإيمان . . وليس للكافرين إلا النار ، هى حسبهم ، وبئس المصير . .

قوله تعالى .

* « للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون »

هو معطوف عطف بيان على قوله تعالى : « فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » أى أن هذا الذى أفاءه الله على رسوله من أهل القرى ، هو لله ولرسوله ، ولذى القربى للرسول ، ولليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل، وللفقراء المهاجرين،الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم،يبتغون فضلا من الله ورضوانا ويتصرون الله ورسوله .. فكأنّ ما لله ولرسوله ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، هم هؤلاء المهاجرون الفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وكأن هذا الفىء الذى أفاءه الله على الرسول هو من أجل هؤلاء المهاجرين الفقراء ، ليكون مواساة لهم فى هذه الغُربة ، التى اختاروها ابتغاء مرضاة الله ، وآثروا بها دينهم على أهليهم وأموالهم . .

وقوله تعالى : « يبتغون فضلا من الله ورضوانا » جملة حالية ، تكشف عن الحال التى تلبّس بها هؤلاء المهاجرون ، حين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وأنهم حين أخرجوا كانوا على حال يبتغون بها فضلَ الله ورضوانه ، وينصرون الله ورسوله ، ولم يكن إخراجهم عن حال أخرى تدعوا قومهم إلى إخراجهم

من بينهم .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلاّ أن يقولوا ربنا الله » (٤٠ : الحج)

ويجوز أن يكون قوله تعالى : « للفقراء المهاجرين » .. جواباً عن سؤال يتردد فى خاطر النبى الكريم ، بعد أن وضع الله سبحانه هذا الفىء بين يديه ، وجعل ينظر فيما حوله إلى الفقراء الذين دعاه الله سبحانه إلى إعطائهم نصيباً من هذا الفىء .. فالفقراء كثيرون ، فإلى مَن من هؤلاء الفقراء يمدّ يده بالعطاء ؟ فكان جواب الله سبحانه وتعالى : « للفقراء المهاجرين ... الآية »

وفى إسناد فعل الخروج « أُخرجوا » إلى غير الفاعل ، إشارة إلى أنهم لم يخرجوا عن رغبة منهم فى الخروج ، وإنما أخرجوا إخراجاً بيد القهر والعدوان..

وقوله تعالى : « أولئك هم الصادقون » هو تنويه بشأن هؤلاء المهاجرين الأولين ، وأنهم إنما كانت هجرتهم لله ولرسوله ، لا لابتغاء مغنم من مغانم الدنيا، أو متاع من متاعها !

قوله تعالى :

« والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »

« الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم » : هم الأنصار الذين استقبلوا المهاجرين فى مدينتهم ، وهم الذين تبوءوا دار الهجرة ، أى كانوا أهلها وسكانها قبلَ المهاجرين ، وهم الذين تبوءوا الإيمان أى دخلوا فيه ، وسكنوا إليه ، واستظلوا بظله ، قبل كثير من المهاجرين ، لا كلٍّ المهاجرين .. وإنما عبر عن هذه الكثرة بما يفيد العموم فى قوله تعالى : « تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم » ـ تنويهاً بفضل الأنصار ، وتغليباً لكثرة المؤمنين منهم على كثرة مَن آمن من أهل

مكة قبل الهجرة . . « ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا » أى ولا يجد الأنصار فى صدورهم شيئاً من الضيق ، أو الألم ، أو الغيرة ، لما أخذ المهاجرون من غنائم بنى النضير .. فقد جعل الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ماأفاءه الله عليه من تلك الغنائم ـ جعلها فى فقراء المهاجرين ، ولم يعط الأنصار منها شيئاً ، إلا ثلاثةَ نفر منهم كانوا على حال ظاهرة من الفقر . . وبهذا العطاء الذى ناله المهاجرون خفّ العبء عن الأنصار الذين كانوا يقاسمون إخوانهم المهاجرين ديارهم وأموالهم . .

« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »

الإيثار : هو تقديم حاجة الغير على حاجة النفس ، سخاء وتفضلا .. وهذا لا يكون إلا من نفوس مهيأة للتضحية .. والإيثار : ضد الأَثَرَة ، وهى حب النفس حبًّا يُعميها عن كل شىء ، فلا يرى المرء إلا ذاتَه ، ولا يعمل إلا من خلال هذه الذات ، وما يحقق لها من نفع ذاتى لا يشاركها فيه أحد ..

والخصاصة : الحاجة ، والفقر الذى يُعجز الإنسان عن إدراك الضرورى من مطالب الحياة ..

أى أن هؤلاء الأنصار ، من طبيعتهم السماحة والبذل ، وإيثار إخوانهم المهاجرين على أنفسهم ، والنزول لهم عن الطيب الأكثر مما فى أيديهم ، مع حاجتهم إليه . . وهذا هو الفضل على تمامه وكماله ، حيث يجىء عن حاجة ، ولا يجىء عن غنًى وسعة . . وإذن فهم لا يجدون فى صدورهم حاجة من الحسد لما أصاب إخوانُهم من خير ، بل إنهم ليجدون فى هذا سعادة ورضى لهم .. فإن النفوس الطيبة الكريمة ليسعدها أن تجد الخير يغمر الحياة ، ويعمر البيوت ، ويُشيع فى الناس الغبطة والرضا.. أما النفوس اللئيمة الخبيثة، فإنه يزعجها ويسوءها أن ترى خيراً يصيب أى أحد من الناس ، ولو كان من أقرب المقربين إليها . .

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »

« يوق » : أى يحفظ ، ويحمى

وشح النفس ، بخلها ، وحرصها .

وفى التعبير عن السلامة من شح النفس وبخلها وحرصها ، بلفظ الوقاية منه ـ للإشارة إلى أن الشح عدو راصد ، يتربص بالنفس الإنسانية فى أية لحظة يغفل فيها الإنسان عن حراسة نفسه منه ، فإذا غفل الإنسان عن هذا العدو دخل على نفسه ، واستولى عليها . .

قوله تعالى :

* « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم »

الذين جاءوا من بعدهم ، هم المؤمنون الذين يجيئون من بعد المهاجرين والأنصار ، فى مختلف الأزمان والأوطان .. فالمؤمنون جميعاً كيان واحد ، وأنه إذا كان للمهاجرين والأنصار وضعٌ خاص فى الإسلام ، ومنزلة عالية فى المسلمين ـ فليس ذلك بالذى يعزلهم عن المؤمنين فى أى زمان ومكان ، وليس ذلك بالذى يعزل أى مؤمن عنهم . . فالمؤمنون جميعاً إخوة فى الله ، ومجتمع واحد فى دين الله . . على امتداد الأزمان والأوطان .

والآية معطوفة على الآية السابقة : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم » والتى هى معطوفة على قوله تعالى : « أولئك هم الصادقون » أى كما أن المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله ـ هم الصادقون فى إيمانهم ، فكذلك مثلهم فى صدق الإيمان ، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، وهم الأنصار . وكذلك مثل هؤلاء وأولئك ،

الذين جاءوا من بعدهم من المؤمنين ، وسلكوا سبيلهم ، وامتلأت قلوبهم بهذه العواطف والمشاعر من الحب والإخاء والمودة للمؤمنين جميعاً .. وأنه إذا كانت هجرة المهاجرين إلى الأنصار قد جمعت بين المهاجرين والأنصار على الحب والمودة والإخاء ، فجعلت منهم تلك الهجرة أسرةً واحدة ، يقتسم أفرادُها السراء والضراء فيما بينهم ـ إذا كانت الهجرة قد عقدت بين المؤمنين هذا العقد الموثّق ـ فإنه ليس من الضرورى أن تكون هناك هجرة كتلك الهجرة ، حتى ينتظم المؤمن فى هذا العقد ، ويأخذ مكانه فيه ، بل إنه من الممكن دائماً وفى أى زمان ومكان ، أن يهاجر المؤمن بقلبه ومشاعره إلى إخوانه المؤمنين ، وإنه لمن الممكن دائماً وفى كل زمان ومكان ، أن يجعل المؤمن قلبه ومشاعره مهاجراً إلى المؤمنين ، فإذا هـ ر إليهم ، وجد فى ظلهم الحب والرحمة والإخاء ، وإذا هاجروا إليه نزلوا من قلبه ، ومشاعره منزل الإعزاز والإكرام ..

وبهذا يستطيع المؤمن أن يجمع بين الهجرة والنُّصرة ، فيكون من المهاجرين ، ويكون من الأنصار .. وذلك إنما يكون حين يفتح قلبه ، لكل مؤمن ، ويخالط مشاعره بكل مؤمن .. فإن كان فقيراً ، وجد لفقره عندهم غنًى وإن كان ضعيفاً وجد لضعفه فيهم قوة .. وإن كان غنيًّا ، وجد فقيرُهم من غناه، غنًى ، وإن كان قويًّا وجد ضعيفهم من قوته قوة ..

فهذا هو المؤمن ، الذى يدخل مع المؤمنين الداخلين فى قوله تعالى : « أولئك هم الصادقون » ..

وفى قوله تعالى : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » إشارة إلى تلك الوسيلة التى يتوسل بها المؤمنون اللاحقون ، إلى أن ينتظموا فى سلك المؤمنين من المهاجرين والأنصار ..

ذلك أنه إذ لم تكن هناك هجرة بعد الفتح ، كما يقول الرسول الكريم : « لا هجرةَ بعد الفتح ولكن نيّة وجهاد » ـ فإنه بهذه المشاعر التى يرتبط بها المسلم بالمسلمين جميعاً ، وبهذا الدعاء الذى يدعو به، لإخوانه الذين سبقوه بالايمان ـ بهذه المشاعر ، وبهذا الدعاء ، يكون قد بذل من ذاته شيئاً ، وقدّم لإخوانه خيراً ، واقتسم معهم ما يدعو اللهَ به من رحمة ومغفرة ، وبهذا أيضاً يكون أشبه بالأنصار الذين آووا المهاجرين ، واقتسموا معهم أموالهم وديارهم ..

وفى قوله تعالى : « ولا تجعل فى قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا » ـ إشارة أخرى إلى أنه إذا لم يكن من المؤمن وصلة من مال أو دعاء بخير، يصل به إخوانَه المؤمنين، فلا أقلّ من أن يخلى قلبه من الغلّ ، والحسد، والحقد والبغضة ، لإخوانه المؤمنين.. فإذا لم يستطع أن يوصّل إليهم شيئاً من الخير ، فليمسك يده ولسانه ، عن أى شر أو أذًى ، يَلحق بمسلم من جهته ! .

وهذا ما يشير إليه الحديث الشريف : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » . .

وفى جعل الغلّ فى القلوب ، إشارة إلى أن القلوب هى مستودع المشاعر ، من حب أو بغض ، ومن مودة أو جفاء .. وأن هذه المشاعر هى التى تتولد منها الأقوال والأفعال ، ولهذا كان على المرء أن يحرُس نفسه من الوساوس والخواطر السيئة ، ولا يدع لها فرصة كى تتمكن منه ، وتستقر فى وجدانه ، فإنها إن تمكنت منه ، واستقرت فى كيانه ، كانت قوة عاملة فى توجيه سلوكه ، وتشكيل أعماله . .

وأصل الغِلّ ، من الغُلّة والغليل ، وهو مايجده الإنسان فى داخله من حرارة العطش ، ومعناه هنا : العداوة والحقد ، حيث تغلى الصدور ، وتحترق القلوب بنار الحقد والعداوة .

وفى قوله تعالى : « ربنا إنك رءوف رحيم » استدعاء لهاتين الصفتين الكريمتين من صفات الله سبحانه وتعالى ، وهما الرأفة والرحمة ليستشعر بهما المؤمن مشاعر الرأفة والرحمة بإخوانه المؤمنين ، فيؤثرهم ببعض ما عنده من خير ، رأفة ورحمة بهم ..

الآيات : (١١ — ١٧)

* « أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلظَّالِمِينَ (١٧) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل

الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون » ..

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة كانت عرضاً لإيمان المؤمنين وولاء بعضهم لبعض ، وإيثار بعضهم بعضاً ، فى مشهد ومَغِيب ، وفى حاضر ، وماض ، وآت .. إنهم جميعاً أمة واحدة ، وكيان واحد، يجمعه الإيمان، ويوحد بينه التوحيد ـ فجاءت هذه الآية وما بعدها لتكشف عن وجه أهل الضلال والنفاق ، وعن الروابط الزائفة الواهية التى تربط بعضهم ببعض ..

ففى قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم » .. فضح لهذا العهد الكاذب الذى قطعه المنافقون ، للذين كفروا من أهل الكتاب ، وهم اليهود الذين ما زالوا فى المدينة كبنى قريظة ، وبنى قينقاع ، وبنى النضير الذى أجلاهم النبى عن المدينة ، كما أشارت إلى ذلك الآيات فى أول السورة ..

والمنافقون ، هم جماعة عبد الله بن أبى بن سلول ، ومن انضوى إليه من أهل الضلال ..

وهؤلاء المنافقون ، كانوا قد بعثوا إلى اليهود بعد جلاء بنى النضير ألا يستسلموا أبداً للنبى ، وألا يخرجوا من ديارهم ، وأنهم ، ـ أى المنافقين ـ يد واحدة معهم على النبى والمسلمين ، وأنه إذا اضطر هؤلاء اليهود يوماً إلى الخروج ، خرج هؤلاء المنافقون معهم ، وأبوا أن يسمعوا لقومهم إذا دعوهم إلى البقاء معهم .. وهذا يعنى أنهم معهم أينما كانوا ، فإذا كان خروج من المدينة خرجوا معهم منها ، وإن كان قتال قاتلوا معهم .

وقُدّم الإخراج على القتال ، مع أن القتال هو الذى ينبغى أن يكون أولاً ، حتى إذا غُلبوا على أمرهم أُخرجوا — وذلك ليكشف عما فى عهد هؤلاء المنافقين من كذب ونفاق .. فهم لو كانوا على ولاء حقاً مع إخوانهم هؤلاء ، لحرضوهم على القتال ، ولقالوا لهم : ها نحن أولاء معكم بأسلحتنا إذا وقع بينكم وبين محمدا قتال ..

ولكنهم جاءوا إليهم أولاً بالأمر الذى لا يكلفهم شيئاً أكثر من مجرد الكلام ، وما أكثر الكلام ، وما أرخصه فى سوق المنافقين !! فبذلوا لهم القول فى سخاء ، وبلا حساب ، قائلين : « لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ! ! » .. ثم رأوا أن هذا القول الذى ألقوا به إلى أسماع إخوانهم الذين كفروا ، هو مجرد كلمة عزاء ، إذ ماذا يغنى القوم إن أخرجوا من ديارهم وأموالهم أن يخرج معهم المنافقون أو لا يخرجوا ؟ وهنا يتنبه المنافقون حين نظروا فى وجه هذا الكلام الذى ألقوا به إلى القوم ، وحين رأوا أن القوم لم يمسكوا بشىء منه ، وأنهم قد أُخرجوا من ديارهم ، أو هم على طريق الإخراج من الديار ..

حين رأى المنافقون ذلك ألقوا إليهم بهذه القولة الزائفة المنافقة أيضا : « وإن قوتلتم لننصرنكم ! » .. ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان ، وبعد أن فُضح كذبهم ونفاقهم بقولهم أول الأمر : « لئن أخرجتم لنخرجن معكم » ..

ولهذا جاء قوله تعالى : « والله يشهد إنهم لكاذبون » تعقيباً على هذه الوعود الكاذبة التى يبذلها المنافقون لإخوانهم من بنى النضير ..

وهو معطوف على محذوف تقديره إن هذا القولَ يشهد بكذب المنافقين

وينادى عليهم بأنهم كاذبون ، والله يصدق هـذه الشهادة ، ويشهد بأنهم لـكاذبون . .

وفى قوله تعالى : « يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الـكتاب » ـ إشارة إلى هذه الأخوة التى يجمعهم عليها هذا النسب ، من الـكفر ، والضلال.. وهذه جملة حالية ، تمثل الحال التى عليها هؤلاء المنافقون ، وقد دعى النبى إلى النظر إليهم وهم على تلك الحال التى يقولون فيها لإخوانهم الذين كفروا من أهل الـكتاب ما يقولون . . أى انظر إليهم وهم فى تلك الحـال التى يقولون فيها هذا القول الـكاذب المنافق ..

وقوله تعالى :

« لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثم لا ينصرون » ..

هو بيان لما أشار إليه قوله تعالى : « والله يشهد إنهم لـكاذبون » ..

ومن كذبهم أنهم لن يكون منهم وفاء بهذا العهد الذى عاهـدوا عليه القوم ..

فلو أخرج حلفاؤهم ماخرجوا معهم ، ولو قوتلوا ما قاتلوا إلى جانبهم ؛ ولو قاتلوا إلى جانبهم لما صبروا على القتال ، ولما ثبتوا فى ميدان المعركة ، لأنهم إنما يقاتلون بأجسامهم ، لا بقلوبهم .. فإذا اشتد البأس ولوا الأدبار ، وكانت الدائرة عليهم وعلى حلفائهم ..

وقد جاء هذا الخبر مؤكداً بالقسم من الله سبحانه وتعالى ، وما يخبر به الله سبحانه ، لا يحتاج فى الدلالة على صدقه ، إلى توكيد ، ولـكن هذا

الخبر بواجه المنافقين الذين لا يقدرون الله حق قدره ، فكان توكيده إشارة إلى ما فى قلوبهم من مرض ، وأن أخبار الله سبحانه تقع من نفوسهم موقع الشك والارتياب .

وهذه الآيات من أنباء الغيب ، التى كشفت الأيام فيما بعد عن تأويلها على الوجه الذى أخبرت به ، والتى سجل بها التاريخ معجزة ناطقة بأن هذا القرآن من لدن عليم خبير ..

فلقد نزلت هذه الآيات عقب إجلاء بنى النضير ، ولم يكن هناك ما يشير إلى أن شيئاً ما سيحدث بين النبى وبين من بقى من اليهود فى المدينة، وأنه إن حدث شىء فلم يكن أحد يتصور الصورة التى سيكون عليها ..

وقد قلنا إن فى قوله تعالى فى أول السورة : « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر » — إرهاصاً بأن هذا الحشر الذى بدىء به بإخراج بنى النضير ، سيتبعه مثله من الحشر ، لغيرهم من إخوانهم اليهود ..

ولكن ما فى هذه الآيات لم يكن مجردَ إرهاص ، وإنما كان عرضاً لأحداث تجرى ، وإخباراً مسبّقة بما ستتمخض عنه هذه الأحداث من وقائع محددة ، كأنها قد وقعت فعلا ..

ففى الوقت الذى نزلت فيه هذه الآيات ، كان المنافقون — وعلى رأسهم عبد الله بن أبى بن سلول — قد مشوا إلى بنى قريظة وغيرهم من يهود المدينة ، وأنذروهم بما يمكن أن يفعل بهم محمد ، كما فعل ببنى النضير ، وأعطوهم هذا العهد بأنهم لن يقفوا معهم هذا الموقف الذى وقفوه من بنى النضير ، والذى أخذوا فيه على غِرّة ، دون أن تكون هناك فسحة من

الوقت ، يدبرون فيها أمرهم ، ويأخذون له العدة . .

أما الآن ، فإن فى الوقت متسعاً ، وإن عليهم جميعاً أن يأخذوا حِذرهم ، وأن يستعدوا لما يمكن أن تأتى به الأيام بينهم وبين محمد ..

ولقد جاءت الأيام بما ينطق بصدق آيات الله ، وبما يُخزى اليهود ويُذلّهم ويفضح نفاق المنافقين وكذبهم . فلقد أُخرج بنو قريظة وما خرج المنافقون معهم ، وما قام أحد من هؤلاء المنافقين لينصرهم ، وليدفع يد النبي والمسلمين عنهم ، وقد قتل رجالهم ، وسبَى نساءهم وأطفالهم . .

قوله تعالى :

* « لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » .

أى إنكم أيها المؤمنون أشد رهبة ، وخشية فى صدور هؤلاء المنافقين، وإخوانهم اليهود — أشد رهبة وتخويفاً لهم من الله .. إنهم جميعاً يخافونكم ويخشون بأسكم ، ولا يخافون الله ، ولا يخشون بأسه . . وذلك لأنهم قوم لا يفقهون ، أى فى غباء وجهل ، ولو فقهوا لعلموا أن الله سبحانه هو أولى بأن يُخاف منه ، ويُخشى من الاعتداء على حرماته ..

إنهم لا يؤمنون بالله ، ولا يعلمون ماله سبحانه من علم وقدرة ، فهم لهذا ، لا يستحضرون عظمة الله ، ولا يشهدون وجوده ، وإنما الذى يشهدونه هو الذى يرونه رأى العين ، والذى تتمثل لهم شخوصه .. فهم لهذا يخشون الناس ، ولا يخشون الله ! .

قوله تعالى :

* « لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جُدُر بأسهم

بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » ..

هو بيان لقوله تعالى : « لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله » .. أى أن هؤلاء اليهود لِمَا ركبهم من جهلٍ ، قد نزلوا إلى مرتبة الحيوان الذى لا يخاف إلا اليد التى تمسك بالسوط يُلهب ظهره .. فهم لهذا أجبن الناس ، وأحرصهم على الحياة. لا يواجهون الأخطار ، ولا يقدمون على لقاء عدوهم إلا مخالسة ، وقد تحصنوا فى أجحارهم ، واختفوا وراء الجدران ، شأنهم فى هذا شأن الحيات التى تتحصن فى أجحارها ، ترصد أعداءها من داخلها ، فإذا رأت فرصة سانحة فى عدو لها أطلت برأسها ، ثم نفثت فيه سمومها ، وعادت سريعاً تدفن نفسها فى جحرها ..

والصورة تمثل حال اليهود فى كل زمان . .

إنهم لا يقاتلون أبداً فى ميدان حرب ، إلا إذا كانوا متحصنين فى حصون يضمنون معها ألا ينال العدوّ منهم شيئاً .. ولهذا قامت قراهم قديماً وحديثاً على نظام الحصون ، بحيث إذا دهمهم عدوّ دخلوا هذه الحصون ، واحتموا بها ، وعاشوا فيها زمناً ، بما جلبوا إليها من سلاح ومتاع .. حتى ييئس العدوّ منهم ، إذا طال الحصار ، أو يجدوا سبيلا إلى إيقاع الفتنة فى صفوفه .. فإن لم يكن هذا أو ذاك ، كانت أمامهم فرصة لشراء أنفسهم من عدوهم ، بالمال أو بأى ثمن يطلبه منهم ..

هكذا اليهود قديماً وحديثاً .. ونحن نشهد اليوم فى حربهم معنا ، أنهم لم يخرجوا للقتال إلا وقد اتخذوا من عُدد الحرب حصوناً تحميهم من القتل ، وتُدخل فى قلوبهم الطمأنينة إلى أنهم فى مأمن من أن ينال العدوّ منهم ا..

إنهم لا يحاربون ، ولكن الأسلحة التى مكنهم الأمريكان منها ، هى التى تحارب ..

ولهذا جاء قوله تعالى : « لا يقاتلونكم جميعاً » جامعاً بين اليهود جميعاً ، فى كل زمان ومكان ، على تلك الصفة التى وصفهم الله سبحانه بها ، وأنهم لا يقاتلون إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر .. كذلك كان سلفهم ، وكذلك يكون خلفهم ..

قوله تعالى : « بأسهم بينهم شديد » ـ إشارة إلى حال اليهود فيما بينهم ، وأنهم أشد الناس شراسة ، وأقساهم قلباً ، وأقدرهم على الفتك ، حيث يقاتل بعضهم بعضاً ، ويفتك بعضهم ببعض .. إنهم حينئذ يكونون أشبه بالحيات ينهش بعضها بعضاً ، ويفتك بعضها ببعض ، فهى أعلم بمواطن الضعف فى أبناء جنسها ، وهى لهذا أشد جسارة ، وأكثر إقداماً من غيرها على هذا نَفْث السم الكامن فيها ..

وقوله تعالى: «تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى» .. أى تبدو حال هؤلاء اليهود فى ظاهرها ، أنهم جمع واحد ، ويد واحدة ..

هكذا هم فيما يضمهم من مكان .. أما قلوبهم فهى أشتات موزعة ، تذهب فى أودية مختلفة ، كل قلب منها يذهب فى واد غير الذى يذهب فيه صاحبه .. وهذا يعنى أن كل واحد منهم إنما ينظر إلى نفسه ، ويهتم بسلامتها قبل كل شىء .. لا يعنيه أن يسلم أصحابه أو يعطبوا .. إنهم فى ساعة الخطر أشبه بالغنم يهجم عليها ذئب ، فتتطاير هنا وهناك كما يتطاير الشرر ..

وقوله تعالى : « ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .. أى لا عقل لهم ، ولو عقلوا لعلموا أن السلامة فى اجتماعهم عند الخطر ، وفى لقائهم له كياناً واحداً ، وأن تفرقهم هو الذى يجعل يد الخطر مبسوطة عليهم متمكنة منهم جميعاً .. فهم فى هذا الفرار الذى يطلب به كل واحد منهم السلامة لنفسه ، إنما يرِدُون به موارد الهلكة جميعاً ..

ولهذا جاء وصفهم هنا « بأنهم قوم لايعقلون » على حين جاء وصفهم فى مقام خوفهم من الناس أشد من خوفهم من الله : « بأنهم قوم لا يفقهون » .. إذ كان العقل ـ مجرد العقل ـ كافٍ فى تقدير السلامة من الخطر ، وأن السلامة رهن بالاجتماع لا بالتفرق ، حتى إن بعض الحيوانات لتهتدى إلى هذا بغريزتها ، فإذا واجهها خطر واجهته جبهة واحدة ، لم يفر منها أحد .. أما فى مقام الخشية لله ، فإنها لا تكون عن عقل ـ مجرد عقل ـ بل لابد من عقل ، معه فقه وعلم ..

قوله تعالى :

* « كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم » ..

أى سيكون مثل هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب — وهم بنو قريظة — سيكون مثلهم مثل الذين من قبلهم قريباً ، وهم بنو النضير ؛ الذين لم يمض زمن بعيد على ما وقع لهم ، وأن بنى قريظة سيذوقون مثل ما ذاق بنو النضير من خزى وهوان ، بل ولهم فوق هذا « عذاب أليم » وهو القتل والسبى ، اللذان نجا منهما بنو النضير الذين كان حكم الله فيهم هو الجلاء ، كما يقول سبحانه .« ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار » .

وفى قوله تعالى : « قريباً » إشارة إلى قرب الزمن بين إجلاء بنى النضير وبين ما سينزل ببنى قريظة .. وذلك أن ما حل ببنى قريظة من قتل وسبى كان بعد غزوة الأحزاب ، حيث إنه ما كاد الحصار الذى ضربه المشركون على المدينة حول الخندق — ما كاد هذا الحصار ينتهى ، وينقلب المشركون مدحورين خائبين — حتى دعا النبى — صلوات الله وسلامه عليه — أصحابه إلى حرب

بنى قريظة ، قائلا : «من كان سامعاً مطيعاً فلايصلّيَنّ العصر إلاّ ببنى قريظة» ، الذين ما إن علموا بهذا حتى دخلوا فى حصونهم ، وأغلقوها دون المسلمين ، فحاصرهم النبى وأصحابه أياماً ، حتى رهقهم الحصار ، وبعثوا إلى النبى يطلبون إليه أن يُرْضوه بما شاء منهم ، فلم يقبل منهم إلا أن ينزلوا على حكمه أو حكم أحد أصحابه ، فرضوا بأن ينزلوا على حكم « سعد بن معاذ الأنصارى » الذى كان حكمه فيهم أن يقتل كل قادر على حمل السلاح من ذكورهم ، وأن يُسبَى النساء والأطفال . . وأن تُقسم الأموال . . فأمضى الرسول هذا الحكم فيهم . .

قوله تعالى :

* « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين » .

أى أن مثل المنافقين مع إخوانهم هؤلاء من اليهود ، كمثل الشيطان، الذى يدعو الإنسان إلى الكفر ، فيستجيب له ، ويتقبل دعوته ، ويأخذ بنصيحته ، حتى إذا كفر هذا الإنسان ، ولبس الكفر ظاهراً وباطناً، وأحاطت به خطيئته ، وحلّت به النقمة — تركه الشيطان لمصيره ، ونفض يديه منه ، وتبرأ من الجناية التى جناها عليه ، وتنكر له ، بل ورماه بالجهل والغفلة، ليزيد فى آلامه وحسرته، وقال له : « إنى أخاف الله رب العالمين » . وبهذا يريه أنه قد أضله ، وخدعه ، وصرفه عن الله ، وعن الخوف منه ، على حين أنه هو لم يُصرف عن الله ، وعن خشيته والخوف منه . . ! !

والسؤال هنا : ماذا يريد الشيطان بقوله : « إنى أخاف الله رب العالمين» ؟ وهل هو صادق فيما يقول ؟ وإذا كان صادقاً فكيف يتفق هذا مع دعوة غيره إلى الكفر بالله والمحادة لله ؟

والجواب على هذا — والله أعلم — أن الشيطان يعلم ما لله سبحانه وتعالى

من جلال وقدرة ، وأنه على خوف من جلال الله وقدرته ، ولكنه — وقد غلبت عليه شِقوته ، وأعماه حسده لأبناء آدم وعداوته لهم — ذُهل عن هذا ، فى سبيل الانتقام لنفسه ، وما يحمل للإنسان من عداوة وحسد، لما كان من تكريم الله لآدم ، وأمر الملائكة بالسجود له ، واستعلاء إبليس واستكباره عن أن يكون من الساجدين ، فلعنه الله وطرده من عالم الملائكة . . فخرج بهذه اللعنة، وهو على عزيمة بأن ينتقم من آدم ومن ذريته ، ولو كان فى ذلك هلاكه !! وكم من الناس مَن يعلم الحق ويأخذ نفسه بخلافه ، ويعرف الطريق القويم ، ويسلك المعوج ؟ . وهل كان موقف المشركين من النبى إلا عن حسد وكبر واستعلاء ؟ إنهم كانوا يعرفون صدق النبى ، ومع هذا فقد بَهَتُوه ، وكذبوه ، وأبوا أن يقبلوا هذا النور الذى بين يديه ، وآثروا أن يعيشوا بما هم فيه من عمًى وضلال .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » . (٣٣ : الأنعام)

وفى هذا التشبيه ، يمثل المنافقون دورَ الشيطان ، فهم يعرفون طريق الحق ويتجنبونه ، وهم يزينون الشر لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ، ويدعونهم إلى المحادة لله ولرسوله ، ويشدون ظهرهم فى كيدهم للنبى وخلافهم له .. حتى إذا وقعت الواقعة بهم ، نظر إليهم هؤلاء المنافقون نظرَ الشيطان إلى صاحبه الذى استجاب له ، وأروهم أنهم لا يستطيعون أن يَخِفّوا إلى نجدتهم ، وأنهم يخافون النبى والمسلمين ، كما يخاف الشيطانُ اللهَ رب العالمين . . وهنا نذكر قول الله للمؤمنين عن المنافقين : « لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله » .

ففى هذا التشبيه ثلاثة أطراف .. الشيطان ، والإنسان الذى أضله الشيطان ، والله ، الذى يخافه الشيطان . .

وفى مقابل هذه الأطراف : المنافقون ، وإخوانهم اليهود ، والنبى وأصحابه الذين يخافهم المنافقون . .

قوله تعالى :

* « فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين » . .

تلك هى عاقبة الشيطان وصاحبه .. لقد هلك الشيطان ، وهلك معه من استجاب له .. وتلك هى عاقبة المنافقين ، وإخوانهم من اليهود .. إنهم جميعاً إلى النار خالدين فيها .. وذلك جزاء الظالمين .. لا جزاء لهم إلا جهنم وبئس المصير . .

الآيات : (١٨ — ٢٤)

* « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « يـٰأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغدٍ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » ..

تجيء هذه الآية بعد ما عرضت الآيات السابقة موقفَ جماعات المنافقين واليهود ، من النبي والمسلمين ، وكيف ينتهى بهم هذا الموقف إلى خسران الدنيا والآخرة جميعاً ـ فتحمل الآية إلى المؤمنين دعوة مجددة إلى تقوى الله ، وإلى إخلاص العبودية له وحده ، وإلى أن يخلى المؤمن نفسه من كل واردة من واردات النفاق ، الذى إن تمكن من صاحبه قتله شر قِتلة ، وصار به إلى أسوأ مصير . . وذلك يكون بأن ينظر المؤمن فى أعماله ، وما يقدمه لغده من خير يجده عند الله ، وألا يكون حاضره ، وعاجل أمره ، هو الذى يحكم أعماله ، ويوجه تصرفاته ، كما هو الشأن عند المنافقين والضالين ، والكافرين .

وتقوى الله ، هى خوفه ، واتقاء محارمه . .

وفى قوله تعالى : « يـٰأيها الذين آمنوا اتقوا الله » دعوة عامة إلى تقوى الله ومخافته ، وملء النفس خشيةً من بأسه ، ونقمته . .

ومن تقوى الله ،محاسبةُ المرء نفسه،ومراجعتها ، فى نوازعها ورغباتها .. وأن هذه المحاسبة ، وتلك المراجعة ، لا تعطيان ثمراً طيباً إلا إذا وقف المرء من نفسه موقفاً حذراً ، حازماً ، حتى يقهر هواها ، ولا تغلبه على أمره ، وذلك لا يكون إلا باستحضار تقوى الله ، والخوف من عقابه . . ولهذا جاء قوله تعالى بعد ذلك « واتقوا الله » تلك التقوى التى تشهد محاسبة المرء نفسَه ومراجعتها بين يدى جلال الله ، وعظمة الله وسلطان الله ، حتى لا يميل مع نفسه ، ولا يغلبه هواها على تقوى الله .

فقوله تعالى : « يـأيها الذين آمنوا اتقوا الله » . . هو استحضار للتقوى التى تدعو الإنسان إلى مراقبة نفسه ومحاسبتها . . وذلك ما أشار إليه قوله تعالى « ولتنظر نفس ما قدمت لغد » وأما قوله تعالى بعد ذلك : « واتقوا الله » فهو استحضار لتقوى الله ، فى كل حال يقف المرء فيها مع نفسه موقف المحاسب والمراجع ، حتى لا يميل مع هواه . ولا تغلبه نفسه على ما تشتهى . . فالمراد بالأمر بتقوى الله هنا ، هو تقواه فى تلك الحال ، أى واتقوا الله وأنتم تحاسبون أنفسكم ، فلا تميلوا معها ، ولا تتبعوا أهواءها . .

قوله تعالى :

* « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون »

الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، هم أهل الضلال من المنافقين ، واليهود ، الذين خلت قلوبهم من تقوى الله ، وخشيته ، فلم ينظروا فيما يقدمون لغد ، بل شُغلوا بما هم فيه من متاع الحياة الدنيا ، ونسوا الله ، ولم يذكروا عقابه ، ولم يستحضروا جلاله وعظمته ، فكان هذا النسيان لله ، ولجلاله ، وعظمته ، سبباً فى نسيانهم لأنفسهم ، فلم ينظروا إلى المصير الذى هم صائرون إليه ، ولم يروا البلاء المحدق بهم من هذا الضلال الذى هم فيه . . ولو أنهم ذكروا الله ، وذكروا حسابه وعقابه ، لذكروا وجودهم هذا الذى يسبح فى بحار الضلال ، ولعملوا جاهدين على إنقاذ أنفسهم مما هم فيه ، فكان نسيانهم لله ، هو الداء الذى ران على قلوبهم ، وأعمى أبصارهم ، فلم يروا حقاً ، ولم تقبل قلوبهم ما هو حق .

وعلى هذا يكون فاعل الفعل أنساهم ضميراً عائداً على المصدر المفهوم من الفعل «نسوا الله» أى : فأنساهم هذا النسيان أنفسهم . . ويجوز أن يكون الفاعل ضمير لفظ الجلالة العائد على قوله تعالى : « نسوا الله » . . بمعنى : نسوا الله فعاقبهم الله بأن أنساهم أنفسهم .

والفاسقون : هم الخارجون عن طريق الحق ، الذى قام عليه الوجود كله ، وهم الخارجون على فطرتهم التى فطر الله الناس عليها . .

قوله تعالى :

* « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون »

فمن اتقى الله ونظر إلى ما قدم لغد ، وحاسب نفسه على ما يعمل ، حساباً قائماً على تقوى الله وخشيته ، فقد أعد نفسه ليكون من أصحاب الجنة ، وذلك هو الفوز العظيم . . « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » (١٨٥ : آل عمران) وشتان بين من يعذب فى النار ، ومن ينعم بنعيم الجنة . .

[القرآن . . وما يتجلى على الوجود]

قوله تعالى :

* « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون »

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة دعت إلى تقوى الله ، وذلك إنما يكون بذكر الله ، واستحضار جلاله وعظمته ، وحذرت من نسيان الله ، والغفلة عن ذكره ، فذلك النسيان يُخلى قلب الإنسان من كل أثر لتقوى ـ الله ـ فجاءت هذه الآية لتقدم بين يدى تلك الدعوة إلى ذكر الله ، وإلى تقواه خير ـ هاد يهدى إلى الله ، وخير مذكّر يذكّر به ، وهو القرآن الكريم ، الذى يقول الله سبحانه وتعالى عنه : « ولقد يسرنا القرآن للذكر . . فهل من مدكر » (١٧ : القمر) ويقول فيه سبحانه أيضاً : « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين » (٨٢ : الإسراء) ويصفه سبحانه بأنه ذو الذكر فى قوله : « ص . والقرآن ذى الذكر » . .

فهذا القرآن لو أنزل على جبلٍ ، لخشع وتصدع من خشية الله . . ولكن

هذا القرآن لم يتجه إلى الجبل، وإنما اتجه إلى الإنسان.. ومع هذا فإن كثيراً من الناس لم يقع هذا القرآن منهم موقعه من الجبل الأصم لو نزل عليه.. فلم يَخْشَعُوا له، ولم تلِن قلوبهم به.. فهناك فى الناس قلوب قاسية، أشد قسوةً من حجارة هذا الجبل، كما يقول سبحانه: «ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشّقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله» (٧٤: البقرة) وكما أن من الحجارة ما يتفجر منه الأنهار، وما يشقق فيخرج منه الماء، وما يهبط من خشية الله ـ فكذلك فى القلوب ما يفيض بالخير، فيكون أشبه بالنهر العظيم أو النبع الصافى يعيش فى خيره الناس، وكذلك فى القلوب ما يلين ويخشع لذكر الله. «الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون» (٢: الأنفال)

فمن قرأ القرآن، أو استمع إليه، ولم يخشع قلبه له، ولم ينضح بقطرات من الخير والإحسان، ولم تبرق فى سمائه بروق الهدى والإيمان ـ فليعلم ـ إن كان منه أن يعلم ـ أنه دون بعض الأحجار، قبولا للخير، وتأثراً به..

قوله تعالى: «وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون» أى وهذه الأمثال التى يسوقها القرآن للناس، إنما هى لتقريب الحقائق إلى عقولهم، ليروا على مرآتها أحوالهم، وما فى تلك الأحوال من انحراف أوعوج، حتى يقوموا منها ما انحرف، ويصلحوا ما اعوج.. هذا إذا كانت لديهم عقول يعقلون بها.. فهذه الأمثال، إنما هى لمن يعقل، ويتفكر فيما عقل..

قوله تعالى:

* «هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمٰن الرحيم»

هذا مما نزل به القرآن الكريم من ذكر الله ، وهو مما لو نزل على جبل لخشع وتصدّع من خشية الله . .

فهذه الآية والآيات التي بعدها إلى آخر السورة ، قد خَلَصت لذكر بعض أسماء الله سبحانه وتعالى ، وصفاته . . لم يُذكر مع أسماء الله وصفاته غيرهما . . وهذا يعنى أن القرآن كله ، هو دعوة إلى الله سبحانه ، وإلى تجلى أسمائه وصفاته على عباده . .

فالقرآن الكريم كلام الله ، وكلامه — سبحانه — صفة من صفاته . .

ففى كلمات الله تتجلّى صفاته على القلوب المؤمنة ، التي من شأنها أن تخشع لذكر الله . .

والتفرد بالألوهية ، هو أول صفة لله سبحانه ، ولهذا كانت هذه الحقيقة أولَ ما بُدِىء به من صفات الله تعالى . .

« هو الله . . الذى لا إله إلا هو . . عالم الغيب والشهادة » . .

فهذا التفرد هو الذى يجعل الكمال المطلق لصفات الله . . فإذا تفرد — سبحانه — بالألوهية ، تفرد بالكمال المطلق فى كل شىء . . وكان من أول مراتب الكمال بعد التفرد بالألوهية « العلم » الذى يحيط بكل مافى الوجود من غائب أو حاضر ، وباطن ، أو ظاهر . .

فمن كمال الذات ، كمالُ العلم الذى تتصف به ، وبهذا العلم الكامل تقوم الربوبية على كل ذرة فى هذا الوجود ، ما ظهر منه ، وما بطن . .

ومن صفات الإله الواحد المتفرد بالألوهية وبالعلم — الرحمة ، التي بها وجد

ولهذا جاء قوله تعالى : « لا يقاتلونكم جميعاً » جامعاً بين اليهود جميعاً ، فى كل زمان ومكان ، على تلك الصفة التى وصفهم الله سبحانه بها ، وأنهم لا يقاتلون إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر .. كذلك كان سلفهم ، وكذلك يكون خلفهم ..

قوله تعالى : « بأسهم بينهم شديد » - إشارة إلى حال اليهود فيما بينهم ، وأنهم أشد الناس شراسة ، وأقساهم قلباً ، وأقدرهم على الفتك ، حيث يقاتل بعضهم بعضاً ، ويفتك بعضهم ببعض .. إنهم حينئذ يكونون أشبه بالحيات ينهش بعضها بعضاً ، ويفتك بعضها ببعض ، فهى أعلم بمواطن الضعف فى أبناء جنسها ، وهى لهذا أشد جسارة ، وأكثر إقداماً من غيرها على هذا نفث السم الكامن فيها ..

وقوله تعالى: « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » .. أى تبدو حال هؤلاء اليهود فى ظاهرها ، أنهم جمع واحد ، ويد واحدة ..

هكذا هم فيما يضمهم من مكان .. أما قلوبهم فهى أشتات موزعة ، تذهب فى أودية مختلفة ، كل قلب منها يذهب فى واد غير الذى يذهب فيه صاحبه .. وهذا يعنى أن كل واحد منهم إنما ينظر إلى نفسه ، ويهتم بسلامتها قبل كل شىء .. لا يعنيه أن يسلم أصحابه أو يعطبوا .. إنهم فى ساعة الخطر أشبه بالغنم يهجم عليها ذئب ، فتتطاير هنا وهناك كما يتطاير الشرر ..

وقوله تعالى : « ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .. أى لا عقل لهم ، ولو عقلوا لعلموا أن السلامة فى اجتماعهم عند الخطر ، وفى لقائهم له كياناً واحداً ، وأن تفرقهم هو الذى يجعل يد الخطر مبسوطة عليهم متمكنة منهم جميعاً .. فهم فى هذا الفرار الذى يطلب به كل واحد منهم السلامة لنفسه ، إنما يَرِدُون به موارد الهَلَكة جميعاً ..

المعتقد هو فيصل ما بين الإيمان والكفر .. وإنه لا يضرّ مع الإيمان شيء، كما لا ينفع مع الكفر شيء!.

و « الملك » هو المالك المطلق لكل شيء .. لا ينازعه أحد فى ملك شيء من هذا الوجود، إذ أن أى موجود لا يملك وجود نفسه، فكيف يكون له مع الله ملك فى ملكه الذى هو — أى هذا الموجود — بعض منه؟

و « القدوس » .. هو المنزه عن كل نقص، المبرأ من كل عيب.

و « السلام » .. هو من سلمت ذاته، وصفاته، وأفعاله، من أى عارض من عوارض النقص ..

و « المؤمن » هو الطاهر الذى لا تعلق به شائبة. ومنه سمى المؤمن مؤمنا ..

و « المهيمن » هو القائم على الوجود، المسيطر على كل ذرة فيه ..

و « العزيز » هو المتفرد بالعزة، والسلطان ..

و « الجبار » هو القوىّ، الذى يخضع لجبروته كل جبار.

و « المتكبر » هو المتعالى الذى لا يطاول ..

فهذه ثمان صفات، جاءت متتابعة من غير حرف عطف، لأنها جميعها صفة واحدة، لموصوف واحد .. فكما أن الله سبحانه واحد فى ذاته، هو واحد فى صفته، وهى الألوهية .. وليس هذا التعدد فى الصفات إلا من حيث نظرنا نحن إلى الذات، وما ينبغى أن نراه فيها من صفات الكمال.. فنحن بعقولنا البشرية هذه، لا يمكن أن نعرف الذات الإلهية، ولا أن نخشع لجلالها وسلطانها، إلاّ بقدر ما نتمثل لها من صفات الكمال، وإنه

بغير هـذه الصفات التى نتمثلها ، لا يمـكن أن تقوم بيننا وبين الخالق جلّ وعلا علاقةٌ ذات أثر وتأثير فينا ..

* « سبحان الله عما يشركون » أى تنزه الله سبحانه ، وتعالى عما يشرك به المشركون ، بما يعبدون من دونه من معبودات .

قوله تعالى :

* « هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ..

— « هو الله » . . توكيد بعد توكيد ، لذات الله الواحد الذى لا إله إلا هو ..

— « الخالق » . . أى الذى تفرد بالخلق . . فـكل ما فى الوجود مخلوق له .. « ألا له الخلق والأمر » (٥٤ : الأعراف) ..

فـكل ما فى الوجود مخلوق لله ، والمخلوق لا يُخلق ، وما يبدو من المخلوقين أنه خَلْق ، وابتـكار ، وابتداع ـ هو عمل فيما خَلَق الله ، بالحلّ والتركيب فى عالم المادة ، وفيما أودع الخالق سبحانه فيها من قوى وما أخضعها له من قوانين . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » (٧٣ : الحج) ..

— « البارىء » . . أى الذى خلق ما خلق ابتـداء على غـير مثال سبق ..

— « المصور » .. أى الذى يبدع فى خلقه ، ويصور كيف يشاء . .

— « له الأسماء الحسنى » .. أى أنه سبحانه ، مسمّى بكل اسم حسن ، يليق به ، لأن حُسْن الاسم من حُسن المسمّى ، حيث يسمى الشيء عادة بالاسم الذى يدل على أوضح صفة فيه .. وفى قاموس اللغة فى أى لسان ، نجد تشابها كثيراً بين اللغات المختلفة فى اختيار الأسماء للأشياء التى بين أيدى الناس ، هذا الاختيار الذى يقوم على أن يُعطى الاسمُ دلالة واضحة على أبرز صفة فى هذا الشيء ، من حيث الشكل ، أو اللون ، أو الطعم ، أو الوظيفة التى يقوم بها .. إلى غير هذا مما يميز بين الشيء والشيء .. ولعل هذا ما يفهم من قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » بمعنى أن الله تعالى أقدر آدم على أن يتعرف على الأشياء ، وأن يجعل لكل شيء مفهوماً ، وأن يتخذ من هذا المفهوم اسما يجعله شارة لهذا الشيء يذكره به غائبا ، وحاضراً ..

وهذا هو ما كان من الإنسان ، فإنه لم يدع شيئاً يقع تحت حواسه ، إلا استدعاه إليه باسم خاص به ، مهما بلغت هذه الأشياء من الكثرة والتعدد .. بل إن الإنسان لم يقف عند هذا ، بل وضع لكل جزء من أجزاء الشيء الواحد اسما يدل عليه ، كما نرى ذلك فى الإنسان ، والأسماء التى لا تُحصى لأعضائه الظاهرة والباطنة .. وهكذا صنع الإنسان بأدوات طعامه ، وشرابه ، ولباسه ، ونومه وصيده ، وحربه ، إلى غير ذلك مما تلده الحياة كل يوم من مواليد فنونه ومخترعاته ..

فإذا تعامل الإنسان ، مع الله — سبحانه — وتعالى — بأسماء يدعوه بها ، وجب أن تكون هذه الأسماء دالة على ما لله سبحانه وتعالى ، من كمال ، وعظمة ، وجلال ، وسلطان قائم على هذا الوجود .. كما يقول سبحانه : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » .. ففى أسماء الله الحسنى التى ندعوه بها

تتجلى لنا صفات الكمال التى له سبحانه .. ولهذ ، فإن أسماء الله سبحانه ، هى صفاته .. وقد ذكر القرآن الكريم كثيرا من هذه الأسماء المباركة لله وصفاته وهى متفرقة فى آيات الكتاب الكريم ، وقد جمعها الحديث الشريف فى تسعة وتسعين اسما .. فيجب علينا أن نقف عندها ، لا نتجاوزها ، ولا نعدل عنها إلى غيرها ، إذ كانت هى أكمل الأسماء ، وأكمل الصفات التى تليق به سبحانه . . فى قاموس اللغة العربية . .

(أسماء الله الحسنى)

روى البخارى ، ومسلم ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه قال : « إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وِتر يحب الوتر » .

والأسماء الحسنى كما أحصاها العلماء هى : الله لا إله إلا هو .. الرحمن .. الرحيم .. الملك .. القدوس .. السلام .. المؤمن .. المهيمن .. العزيز .. الجبار .. المتكبر .. الخالق .. البارىء .. المصور .. الغفار .. القهار .. الوهاب .. الرزاق .. الفتاح .. العليم .. القابض .. الباسط .. الخافض .. الرافع .. المعز .. المذل .. السميع .. البصير .. الحكم .. العدل .. اللطيف .. الخبير .. الحليم .. العظيم .. الغفور .. الشكور .. العلى .. الكبير .. الحفيظ .. المقيت .. الحسيب .. الجليل .. الكريم .. الرقيب .. المجيب .. الواسع .. الحكيم .. الودود .. المجيد .. الباعث .. الشهيد .. الحق .. الوكيل .. القوى .. المتين .. الولى .. الحميد .. المحصى .. المبدىء .. المعيد .. المحيى .. المميت .. الحى .. القيوم .. الواجد .. الماجد .. الواحد .. الصمد .. القادر .. المقتدر .. المقدم .. المؤخر .. الأول .. الآخر .. الظاهر .. الباطن .. الوالى .. المتعال .. البر .. التواب .. المنتقم .. العفو ..

الرءوف .. مالك الملك ذو الجلال والإكرام .. المقسط .. الجامع .. الغنى .. المغنى .. المعطى .. المانع .. الضار .. النافع .. النور .. الهادى .. البديع .. الباقى .. الوارث .. الرشيد .. الصبور .

قوله تعالى : « يسبح له مافى السموات والأرض » أى أن كل مافى السموات والأرض من عوالم ، يسبح لله ، ويحمد له ، ويتعبد لذاته ، كما يقول سبحانه : « وإن من شىء إلاّ يسبح بحمده ، ولكن لاتفقهون تسبيحهم » (٤٤ : الإسراء) .

وقوله تعالى : « وهو العزيز الحكيم » — إشارة إلى مالله سبحانه وتعالى من عزة يخضع لها كل مافى هذا الوجود .. « فلله العزة جميعا » (١٠ : فاطر) فإن من كمال الإله الواحد ، المتفرد بالسلطان ـ أن يخضع لسلطانه كل شىء « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً ، وظلالهم بالغدوّ والآصال » .. وهذه العزة القاهرة لله ، هى عزة الحكيم الذى يقيم كل شىء بعزته وسلطانه على ميزان الحكمة والعدل والإحسان ، لا على الهوى ، والجور ، والإذلال ، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا ..

هذا ويلاحظ أن الآيات الثلاث التى عرضت هذه الأسماء الكريمة لله سبحانه وتعالى ، قد جاءت متلاحمة ، من غير أن يصل بعضَها ببعض حرفُ عطف ، أو أن يُتوسل إلى وصل بعضها ببعض بعاطف يجمع بينها ، إذ أنها فى حقيقتها اسم واحد ، أو صفة واحدة للإله الواحد .. وكما أنه قد استغنت الآيات فيما بينها عن رابط غير رباط الوحدة التى تجمعها جميعاً فى مضمون واحد ، هو وحدة الله سبحانه ، وتفرده ذاتاً ، وصفة ـ كذلك استغنت كل آية عن أن يدخل بين مفرداتها عاطف يصل بين أفراد المتآخيه ..

واتل أيها المؤمن الآيات الكريمات :

« هو الله الذى لا إله هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

وانظر فى وجهها الكريم ، فإنك لا تجد فيها حرف عطف واحداً ، إذ كانت مستغنيةً بما بينها من تلك الوحدة الجامعة لها جميعاً من الكمال والجلالَ عن أن يدخل عليها ماليس منها .. إنها نور إلى نور ، وما كان للنور أن يحتاج إلى شىء يمزج شعاعاته بعضها ببعض ، أو يصل بعضها ببعض . .

فهذه الصفات الكريمة هى صفة واحدة فى تفرقها واجتماعها .. وكل صفة منها تجمع جميع الصفات .. فهى صفة فى صفات ، وصفات فى صفة ، وما هذا التعدد إلا من وجهة نظرنا نحن البشر ، حسب مايبدو لعقولنا من تجليات الله سبحانه وتعالى علينا ، وذلك أشبه — من غير تشبيه — بما يقع لأبصارنا من الضوء يمر خلال منشور زجاجى ، فتنعكس لأبصارنا عليه ألوان الطيف ، وليس ثمة - فى الحقيقة - إلا هذا الضوء المشعّ الذى يفيض من عالم النور .

* * *

٦٠ - سورة الممتحنة

نزولها : مدنية .

عدد آياتها : ثلاث عشرة آية .

عدد كلماتها : ثلاثمائة وأربعون كلمة .

عدد حروفها : ألف وخمسمائة وعشرة .

مناسبتها لما قبلها

كان مما تحدثت به السورة السابقة (الحشر) هذا الحديث الذى يكشف عن وجوه المنافقين ، الذى جعلوا بينهم وبين الذين كفروا من أهل الكتاب مودةً قائمة على العداوة والكيد ، للنبي وللمؤمنين ، وأن هذه المودة قد كانت شؤماً وبلاء على أهلها من هؤلاء وأولئك جميعاً . .

وتبدأ سورة الممتحنة بهذا التحذير للمؤمنين ، أن يأخذوا هذا الاتجاه المهلك الذى اتخذه الذين نافقوا ممن كانوا فى المؤمنين . . فهذا التحذير الذى يجىء عقب هذا البلاء الذى حلّ بأحلاف الضلال — هو أشبه بالضرب على الحديد وهو ساخن — كما يقولون — حيث يظهر أثر هذا الضرب عليه ، ويستجيب للصورة التى يراد تشكيله عليها . . فإنه ما إن ينتهى الذى يتلو سورة (الحشر) من تلاوتها ، حتى تلقاه سورة (الممتحنة) لتعيده مرة أخرى إلى هذه الصورة التى تمثلت له مما حل بالمنافقين وأحلافهم من اليهود ، ولتقيم بين يديه منها ، هاويةً يهوى إليها كل من يأخذ هذا الطريق الضال ، فيجعل بينه وبين أعداء الله ورسوله ألفة ومودة . فإنه إن يفعل تردّى فى هذه الهاوية السحيقة التى تردّى فيها المنافقون الذين وقف على مصارعهم منذ قليل .. فلينظر من كان له نظر . . وليختر الطريق الذى يحلو له . . !!

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٣)

* « يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « يـٰأيها الذين آمنو لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » .

النداء للمؤمنين جميعاً ، الذين كانوا فى مواجهة المشركين من قريش وأحلافهم ، حيث كانوا يتربصون بالنبى وبالمؤمنين ، ويكيدون لهم ، ويستمدون ضعاف الإيمان عليهم ، ويجذبونهم إليهم بالوعد وبالوعيد . .

وقد كشف الله سبحانه المؤمنين عن وجه هؤلاء المشركين ، وأنهم أعداء الله وأعداء الذين آمنوا . . فمن كان مؤمناً بالله حقًّا كان على ولاء لله والمؤمنين به ، الأمر الذى لا يتفق معه الولاء والمودة لأعداء الله وأعداء المؤمنين . . « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء »فإن من يتصف بالإيمان، لا تَبْقَى له هذه الصفة ، إذا هو كان على ولاء ومودة ، لمن كان عدوًّا لله وعدواً للمؤمنين ، أولياء الله . .

وقوله تعالى : « تلقون إليهم بالمودة » هو جملة حال من فاعل الفعل: « لا تتخذوا » أو هو صفة لأولياء . .

والإلقاء بالمودة ، بَذْلها فى صورة رسائل، أو هدايا ، أو عواطف من الحب والود ، مع بعد الشقة النفسية ، التى ينبغى أن تكون بين المؤمنين بالله والكافرين به ، أو بعد الشقة المكانية حيث المؤمنون فى المدينة ، والمشركون فى مكة . . ولهذا عُدّى الفعل بالباء ، لتضمنه معنى تبعثون إليهم بالمودة، مع إفادته معنى السر والخفاء حيث تُلقى إليهم المودة فى كلا الحالين فيتلقفونها من غير أن يراها أحد .

وقوله تعالى: « وقد كفروا بما جاءكم من الحق » أى أنكم تلقون إلى عدو الله وعدوكم بالمودة، فى حالٍ قد كفر فيها هذا العدو بما جاءكم من الحق ، الذى نزل به القرآن الكريم ، وتلاه عليكم رسول الله . . بل ليس هذا فحسب ، إنهم « يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم » أى مع كفرهم بالحق الذى آمنتم به ــ وهذا وحده كاف لقطع كل ولاء بينكم وبينهم ، فإنهم ــ مع هذا ــ يخرجون الرسول ، ويخرجونكم من دياركم وأهليكم ؛ لا لجناية جناها الرسول أو جنيتموها أنتم عليهم ، إلا أنكم آمنتم بالله ربكم . . فتلك هى جنايتكم عند القوم . . إنهم يعادونكم لإيمانكم بالله . . فقوله تعالى : « وإياكم » معطوف على « الرسول » أى يخرجون الرسول ويخرجونكم .

قوله تعالى : « إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى » — هو تعقيب على قوله تعالى : « أن تؤمنوا بالله ربكم » — أى إن كان إيمانكم هذا صادقا ، وكانت هجرتكم خالصة لوجه الله ، تريدون بها جهاداً فى سبيله وابتغاء مرضاته .. وفى هذا إلفات للمسلمين إلى هذا الإيمان الذى فى قلوبهم ، وإلى تمحيصه من شوائب النفاق ، حتى يكون إيمانا حقًّا .. فهذا الإيمان الحق من شأنه ألا يقيم بينكم وبين أعداء الله وأعداء المؤمنين مودة .. أما إذا كان إيمانكم على غير تلك الصفة ، فهو ليس الإيمانَ الذى خرج به النبى والمؤمنون من ديارهم ، وليس هو الإيمان الذى يجعل من المشركين عدواً للمؤمنين .. فهل أنتم مؤمنون حقاً ؟ فإن كنتم مؤمنين حقاً ، فلا تتخذوا عدو الله وعدو المؤمنين أولياء .

وفى التعبير عن إخرج المشركين للنبى والمؤمنين ، بالفعل المضارع الذى يفيد تجدّد الزمن حالا بعد حال ، للإشارة إلى أن المشركين مازالوا على موقفهم من النبى والمؤمنين ، وأنه لو عاد النبى والمؤمنون إلى ديارهم بمكة لأخرجهم المشركون منها ، بما يلاحقونهم به من أذى وضر .. كما أن المشركين لم يزل هذا موقفهم من المؤمنين الذين كانوا فى مكة ، ولم تُتَح لهم فرصة الهجرة لسبب أو لآخر ..

ويجوز أن يكون قوله تعالى : « إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى » .

يجوز أن يكون متصلا بقوله تعالى : « لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » .. ويكون مابينهما اعتراض يراد به الكشف عن وجه أعداء الله وأعداء المؤمنين ، وما يرمون به النبى والمؤمنين من أذًى متلاحق ..

وقوله تعالى : « تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم »

هو استفهام إنكارى ، أى أبعد هذا الذى علمتم أو تعلمون من أمر القوم — أبعد هذا تُسرون إليهم بالمودة ؟ أى تبادلونهم المودة فى ستر وخفاء « وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم » . . فإنه لا يخفى على الله خافية فى الأرض ولا فى السماء: « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخفٍ بالليل وسارب بالنهار » (١٠ : الرعد) وإن إسراركم هذه المودة لدليل على أنها أمر تنكرونه أنتم ، ويُنكره المؤمنون عليكم ، وإنه لو كان غير منكر لأعلنتموه .. فإخفاء هذه المودة التى بين بعض المؤمنين وبين المشركين شاهد على أنها مما يعاب على المؤمن ، ومما ينبغى ستره وإخفاؤه، وحسب الأمر شناعة ألا يكون له وجه يظهر به فى الناس ، فإن ظهر كان فضيحة لصاحبه ! !

وقوله تعالى : « ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل »

الضمير فى « يفعله » يعود إلى هذا الإسرار المودة . . أى ومن يفعل هذا الإسرار بالمودة ، فقد ضل سواء السبيل ، لأن الإسرار بها ـ كما قلنا ـ دليل على نُكرها وبشاعتها .. وإذا امتنع الإسرار بها ، فقد أصبح من المستبعد إعلانها إلاّ إذا كان ذلك عن كفر صريح ، ورِدَّة عن الإيمان . . فهذا شأن آخر غير شأن المؤمنين .

قوله تعالى :

* « إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديَهم وألسنتهم بالسوء وودّوا لو تكفرون »

« إن يثقفوكم » : أى يظفروا بكم ، وينتصروا عليكم ،ومنه قوله تعالى : « فإما تثقفنهم فى الحرب فشرِّد بهم مَن خلفهم لعلهم يذكرون » (٥٧ الأنفال)

والثِّقَاف : ما يُثَقَّف به الرمح ، أى يُعدّل ويقوّم ، والمراد بثقف القوم هنا التمكن منهم ، كما يتمكن الثقاف من الرمح . والخطاب هنا المؤمنين الذين بينهم وبين المشركين مودة . . أى أن هؤلاء المشركين الذين توادّونهم أيها الموادون لهم من المؤمنين ـ إن يظفروا بكم فى حرب بين المؤمنين وبينهم ، لن يبقوا على هذا الود الذى تحسبونه قائماً بينكم وبينهم ، بل إنهم سيكونون لكم فى تلك الحال أعداء ، يبسطون إليكم أيديهم بالأذى ، وألسنتهم بالسوء ، بل إنهم ليفعلون بكم أكثر من هذا ، وهو حملكم على أن تعودوا إليهم كفاراً . . فهذا هو الذى يقطع عداوتهم لكم . .

وفى قوله تعالى : « يكونوا لكم أعداء » ـ إشارة إلى أن هذه المودة التى بين بعض المؤمنين والمشركين ، هى التى تُخفى هذه العداوة التى فى صدور المشركين لهم ـ فإذا أمكنت الفرصة المشركين منهم ، ظهرت هذه العداوة الكامنة . .

وفى قوله تعالى : « ووَدّوا لو تكفرون » ـ بعطف الفعل الماضى على فعل المستقبل « يبسطوا » ـ فى هذا إشارة إلى أن هذه الرغبة ، أى رغبة المشركين فى أن يكفر المؤمنون ـ هى رغبة قديمة ، من يوم أن آمن هؤلاء المؤمنون . . إنها رغبة لم تنقطع بالهجرة ، ولا بالمودّة التى تجرى بينهم وبين هؤلاء المؤمنين ، بل هى قائمة فى صدور المشركين ، لن تموت أبداً إلا بعودة المؤمنين كفاراً . .

قوله تعالى :

* « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير »

أى أنه ـ أيها المؤمنون ـ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم الذين أمسكوا بشركهم ، فقد أصبحتم فى حزب الله ، وظلّوا هم فى حزب الشيطان ، ولن يجتمع حزب الله وحزب الشيطان ، ولن يتبادلوا المنافع بينهم .. فليس فى جانب المشركين إلا السوء والضلال . . وكما فرق الإيمان بينكم وبين أرحامكم وأولادكم المشركين فى الدنيا ، كذلك يفرق بينكم وبينهم يوم القيامة .. فأنتم فى رحمة الله ورضوانه ، وهم فى سخط الله وعذابه . .

قيل إن هذه الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة ـ وهو صحابىّ ممن شهد بدراً ـ وكان ذلك بعد صلح الحديبية ، وبعد أن نقضت قريش شروط الصلح التى صالحها عليها النبى يومئذ . . وكان النبىّ يُعدّ العدّة لفتح مكة ، ويتجهز لهذا فى سر وخفاء ، حتى لا تعلم قريش ، وتستعد للحرب . .

وكان حاطب بن أبى بلتعة حين هاجر من مكة قد خلّف بعضَ أهله بها ، ولم يكن له فى مكة عصبية تحمى أهله المخلفين هناك ، من أذى قريش ، فأراد أن يصطنع عند قريش يداً ينتفع بها أهله عندهم ، فبعث إليهم برسالة مع امرأة من مكة كانت قد وفدت إلى المدينة ، فلما قفلت راجعة إلى مكة ، أعطاها « حاطب » رسالة إلى قريش ، يعلمهم فيها أن النبى يعد العدة لحربهم ، وأوصى المرأة أن تخفى الرسالة ، وأن تكتم أمرها ، لقاء مال أعطاها إياه . . فلما أخذت المرأة طريقها إلى مكة ، جاء خبر السماء إلى النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بما كان من هذا الحدَث ، فبعث النبى بجماعة من أصحابه فيهم على بن أبى طالب رضى الله عنه ، يتبعون المرأة ، ويأخذون الرسالة التى معها . . فلما جىء بالرسالة إلى النبى ، دعا إليه حاطباً ، وسأله عن أمر هذه الرسالة ، فاعترف بها ، واعتذر للنبى صادقاً ، بأنه لم يرد بهذا كيداً للمسلمين ، ولا ممالأة للمشركين ، وإنه ليعلم أن الله سيؤيد النبى بنصره ، وأنه لن يُغْنِىَ عن قريش أى تدبير يدبرونه

فصدقه النبى ، وقبل ما اعتذر به ، وردّ عمرَ بن الخطاب حين قال : ألا أضرب عنقه يارسول الله ، بقوله ـ صلوات الله وسلامه عليه : « وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد عفوت عنكم »

وهكذا أعفا النبى عن هذا الصحابى الذى شهد بدراً ، ثم تنزلت آيات الله فى مواجهة هذه الحادثة ، فكان منها هذا الدرس الخالد للمسلمين ، يقيم لهم دستوراً حكيما ، يحرس إيمانهم من أن تفسده مشاعر المودة بينهم وبين أعداء الله وأعداء المؤمنين بالله .

الآيات : (٤ — ٩)

* « قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ (٦) * عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا بُرءآؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك وما أملك لك من الله من شىء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » ..

الأسوة : القدوة ، وهى من التأسىّ بمن هو فى مقام الفضل والإحسان ، فى الأمر الذى يُتأسى به فيه . . وقد غلب على الأسوة أن تكون فى الأمور الحسنة ، وفى وصفها بالحسنة هنا ، تأكيد لتلك الصفة الغالبة عليها ، فقد يتأسّى المرء بما هو غير حسن ، وهو فى ظنه أنه حسن . .

وفى تأسّى المؤمنين بإبراهيم عليه السلام ، وبالمؤمنين معه وهم الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين ، الذين جاءوا بعد إبراهيم ـ وسُمّوا هؤلاء مع إبراهيم ، لأنهم كانوا جميعاً على دين الله الذى آمن به ، كما كان معظم الأنبياء من ذريته ـ وفى أخذهم الموقفَ الذى وقفه إبراهيم ومن معه من الأنبياء والمؤمنين — من قومهم ، إذ تبرءوا من أقوامهم ، ومما يعبدون من دون الله ، وكفروا بهم وبمعبوداتهم ؛ وأظهروا لهم العداوة ، وجاهروهم بها ، وأنها عداوة دائمة حتى يؤمن هؤلاء الكافرون بالله وحده لا شريك له ، فإن آمنوا انقطعت هذه العداوة ، وقام مقامها الحب الذى بين المؤمنين والمؤمنين ـ فى هذا التأسّى توجيه للمؤمنين إلى ما ينبغى أن يكون عليه إيمانهم .

فهذا هو الإيمان ، الذى يُخلى قلبَ المؤمن من كل مشاعر الودّ والمحبة

لمن حادّ الله وكفر به . . « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادون من حادّ الله ورسولَه ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » (٢٢ : المجادلة) . .

وقوله تعالى : « إلاّ قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء » — هو استثناء من التأسّي بإبراهيم عليه السلام ، في هذا الموقف الذي وقفه من أبيه ، والذي كان موضعَ عتاب من الله سبحانه وتعالى لخليله إبراهيم عليه السلام .. ومع هذا ، فقد كان استغفار إبراهيم لأبيه عن مَوْعِدَة وعدها إياه ، إذ قال لأبيه : « سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيًّا » (٤٧ : مريم) . . وقد كان إبراهيم بهذا الاستغفار يطمع فى أن يهدى الله أباه إلى الإيمان ، ولكن أباه كان عند الله من الكافرين . .

فلما تبين لإبراهيم هذا من أبيه ، تبرأ منه ؛ كما تبرأ من قومه الكافرين ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن مَوْعِدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدوٌّ لله تبرأ منه » (١١٤ : التوبة) . .

وقوله تعالى : « وما أملك لك من الله من شيء » هو حال من فاعل مقول القول : « لأستغفرن لك » . . أى والحال أنى لا أملك لك من الله من شيء .

وقوله تعالى : « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » . .

هو من قول إبراهيم والذين معه ، فى مواجهة أقوامهم ، إذ قالوا لهم : « إنا برءاؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده » ويكون قوله تعالى :

« إلا قول إبراهيم لأبيه » — كلام معترض ، خاص بمقولة إبراهيم لأبيه ، والتي لم يشاركه فيها الذين آمنوا معه ..

قوله تعالى :

* « ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم » ..

هو من مقول قول إبراهيم والذين معه . . وهو دعاء يتجهون به إلى الله سبحانه وتعالى ألا يجعلهم فتنة للذين كفروا ؛ بمعنى ألا يغرى بهم الذين كفروا ، فتشتد عداوتهم لله ، وتغلظ فتنتهم ، وضلالهم ، بسبب العناد الذي يحملهم على ألا ينظروا إلى مافى أيدى المؤمنين من هدًى وإيمان .. وبهذا يشتد غضب الله عليهم ، وتنزل نقمته بهم ، وكأنّ المؤمنين بهذا هم الذين ساقوهم إلى هذا الكفر الغليظ ، وهذا من شأنه أن يُدخل فى شعور المؤمنين بأنهم بإيمانهم قد حَملوا الكافرين على أخذ طريق غير طريق المؤمنين .. وفى هذا يقول الله تعالى على لسان قوم نوح : « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » (١١١ : الشعراء) ويقول سبحانه على لسانهم أيضاً : « فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نرك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتّبعك إلا الذين هم أراذلنا بادىَ الرأى » (٢٧ : هود) .. ويقول سبحانه على لسان المشركين الذين كذبوا رسول الله : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه » (١١ : الأحقاف) .

واليهود ، كانوا قبل مبعث النبي — صلوات الله وسلامه عليه — ينتظرون بعثته ، فلما سبقهم الأنصار إلى الإيمان به ، حملهم الحسد على أن يكذّبوا برسول الله ، بل ويكيدوا له ، ويؤلبوا المشركين على حربه..

وفى هذا يقول الله تعالى فيهم : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » (٨٩ : البقرة)

ويجوز أن يكون المعنى على طلب المؤمنين الحماية من الله سبحانه وتعالى لهم ، من أن يُفتَنوا فى دينهم ، بما يرميهم به الذين كفروا من مكاره ، وما يسوقون إليهم من أذًى . .

ويجوز كذلك أن يكون المعنى متضمناً الوجهين معاً ، وهو ألا يكون المؤمنون فتنةً للكافرين ، وألا يكون الكافرون فتنةً للمؤمنين .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وجعلنا بعضَكم لبعضٍ فتنةً » (٢٠ : الفرقان)

وفى قوله تعالى : « إنك أنت العزيز الحكيم » — إشارة إلى قدرة الله وعزّته التى يُعزّ بها المؤمنين ، ويحميهم من أذى الكافرين ، حتى لا يُفتنوا فى دينهم .. وعزّة الله عزّة قائمة على الحكمة ، فكل مايصدر عن قوة الله ، وعزته ، هو عن حكمة محكمة ، لا عن هوًى ، وتسلط ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ..

قوله تعالى :

* « لقد كان لكم فيهم أسوة حَسَنَةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخِر ومن يتولّ فإن الله هو الغنىّ الحميدُ »

هو توكيد للدعوة التى دُعى إليها المؤمنون ليتأسّوا بإبراهيم والذين معه ، بعد أن تبين لهم موقف إبراهيم ، ومن معه ، من أقوامهم .. فقد دُعى المؤمنون أولاً إلى التأسى بإبراهيم ومن معه قبل أن يعرفوا الوجه الذى يتأسّون به منهم ، فلما تبيّن لهم هذا الوجه ، وهو موقفهم المجانب لقومهم ، المتبرىء منهم ومن كفرهم — حَسُن أن يُدْعى المؤمنون بعد هذا دعوةً مجدّدة إلى ما دُعوا إليه أولاً ، حيث عرفوا موضع الأسوة فى إبراهيم ومن معه . . ولهذا جاءت الدعوة

الثانية مؤكدة بمؤكدين .. اللام ، و قد .. « لقد » . على حين جاءت الدعوة لأولى مؤكدة بمؤكد واحد : « قد » . .

والجملة الخبرية هنا ، وهناك ، مراد بها الطلب ، أى الأمر بالتأسى ، لا مجرد الخبر .. أى تأسّوا أيها المؤمنون بإبراهيم والذين معه ، وقفوا من قومكم موقفهم من أقوامهم .. فذلك التأسى هو شأن من كان يرجو الله واليوم الآخر ، حيث يكون ولاؤه لله وللمؤمنين ، ذلك الولاء الذى يقضى بأن يقطع كلّ ولاء مع المشركين والكافرين ، ولو كانوا آباء ، أو أبناء . .

قوله تعالى : « ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » أى ومن يُعرض عن موالاة الله والمؤمنين ، ويؤثر موالاة أهله ، وعشيرته من المشركين ـ « فإن الله هو الغنىّ » — الذى لا ينفعه ولاء من والاه ، ولا يضره عداوة من عاداه . . إنه سبحانه هو الغنى غِنًى مطلقاً عن كل ما فى هذا الوجود ، لأنه موجود بكمالاته كلها قبل أن يوجِد هذا الوجود . . وهو سبحانه « الحميد » الذى يحمد لعباده المؤمنين إقبالهم عليه ، وموالاتهم له ، وإن كان فى غنى عن هذا الإيمان ، وهذا الولاء .. فذلك الحمد ، هو فضل ، وإحسان منه ، إلى عباده المؤمنين المحسنين . .

قوله تعالى :

* « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفورٌ رحيمٌ »

فى الآية الكريمة عزاء للمؤمنين عن هذه القطيعة التى تقع بينهم وبين ذوى قراباتهم وأصدقائهم من المشركين ، وإنه لكيلا تبلغ هذه القطيعة مداها ، وتأخذ مكاناً متمكناً فى النفوس ، وتنبت فى صحرائها أشواك الضغينة والحقد التى لا يمكن اقتلاعها — جاءت الآية الكريمة ، لتقيم المسلمين على قطيعة موقوتة مع أهليهم ، وعلى جفاء يُرتقب له اليوم الذى ينتهى فيه ، وذلك أن كثيراً

من هؤلاء المشركين لم يقع اليأس بعد من دخولهم فى الإسلام ، وأن كثيراً منهم سيدخل فى دين الله ، ويجاهد مع المجاهدين فى سبيل الله . . ويومئذ يلتقى الأهل جميعاً على الأخوة فى الله ، كما التقوا من قبل على الأخوة فى القرابة والنسب . .

وقوله تعالى : « عسى » الذى يدل على الرجاء ، هو منظور فيه إلى المؤمنين ، وما ينبغى أن يُساق إلى قلوبهم من مشاعر الرجاء والأمل ، حيث يقيمهم هذا الشعور من أهلهم المشركين ، فى مقام بين اليأس والرجاء ، فى أن تجمعهم يوماً جامعة تؤلف بينهم . . وبهذا الشعور يقتصد المبالغون فى العداوة لأهليهم ، كما يقتصد المتراخون فى قطع حبال الود معهم .

وقوله تعالى : « والله قدير » — إشارة إلى ما لله سبحانه وتعالى من قدرة على أن يفتح قلوب هؤلاء المشركين للإيمان ، وأنه سبحانه قادر على أن يجعل من العداوة القائمة بين المؤمنين وهؤلاء المشركين ، رحمةً ومودة . .

وقوله تعالى : « والله غفور رحيم » — إشارة إلى ما عند الله سبحانه من مغفرة ورحمة لمن جاوز الحدّ فى العداوة ، أو غلبته حال من الولاء لأهله ، فإن أبواب المغفرة والرحمة مفتحة لكل من يتجه إلى الله طالباً مغفرته ورحمته . . كما أن مغفرة الله ورحمته تنال هؤلاء المشركين ، إذا هم دخلوا فى دين الله ، وعندئذ يغفر لهم ما كان منهم من أذى وضرٍّ للنبى والمؤمنين ، ويُلحقهم بركب المؤمنين الذين سبقوهم إلى الإيمان . .

قوله تعالى :

* « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين »

القسط : العدل ، والقسطاس : الميزان الذى يوزن به . .

والمقسط : العادل ، الذى يقيم ميزان العدل .. والقاسط : الظالم ، الجائر .. يقال : أقسط ، أى عدل ، وقسط : أى جار وظلم ..

والآية الكريمة تدعو إلى هذا المبدأ العام الذى قامت عليه الشريعة السمحاء ، من الإخاء الإنسانى ، القائم على العدل والإحسان .. وأن هذه القطيعة التى فرضها الإسلام على المسلمين فيما بينهم و بين أهلهم من المشركين - إنما هى قطيعة لقوم قطعوا أرحام قومهم ، وقاتلوهم ، وأخرجوهم من ديارهم .. إنهم فى حال حرب ، معهم لم تنته بعد ، وأن المشركين ما زالوا ينتظرون الفرصة التى تمكنهم من المؤمنين .. وفى موالاة المؤمنين لهم توهين للمؤمنين ، وتمكين للمشركين من مَقَاتِلهم ..

فإذا لم يكن من قوم عداوة بادية للمؤمنين ، أو قتال لهم ، أو مساندة لمن قاتلهم - فإن موقف المؤمنين من هؤلاء القوم ، ينبغى أن يقوم على السماحة ، وعلى العدل والإحسان .. « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » ..

وفى قوله تعالى : « وتقسطوا إليهم » تضمين للفعل معنى الإحسان ، بمعنى وتحسنوا إليهم ، بالعدل الذى تقيمون ميزانه بينكم وبينهم . هذا ، ويرى كثير من المفسرين أن هذه الآية منسوخة بآية السيف .. وإنه لامعتبر لهذا الرأى الذى يعمِّى ويشوش على سماحة هذه الشريعة ، وإنسانيتها .. وممن سفّه هذا الرأى الإمام الطبرى فى تفسيره ، فرضى الله عنه .

قوله تعالى :

« إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولَّوْهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون »

أما هؤلاء الذين قاتلوا المؤمنين فى الدين ، أى من أجل الدين ، وأخرجوهم من ديارهم ، وظاهروا ، أى أعانوا على إخراجهم — أما هؤلاء ، فهم الذين ينهى الله المؤمنين عن توليهم لهم ، أى موالاتهم وبرّهم ، والإحسان إليهم ، ووصل حبال المودة بهم .

« ومن يتولهم » أى يقيم ولاء معهم ، ويبقى على صلة بهم «فأولئك هم الظالمون» أى الذين اعتدوا على حق الله ، وظلموا أنفسهم بما حملوها من أوزار .

الآيات : (١٠ — ١٣)

*« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (١١) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ (١٣) »

التفسير

* « يـأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجراتٍ فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم » .

هذه الآية والآيات التى بعدها ، تبيّن حكمَ ما يقع بين المسلمين والمشركين من أمور تتصل بتنفيذ صلح الحديبية الذى عقده النبى معهم . . فهذا الصلح قد قَضَى بأنه إذا جاء إلى المسلمين مَن أسلم من المشركين ، ردّه المسلمون إليهم ، ومن جاء إلى المشركين مَن عاد إلى الشرك لم يرده المشركون إليهم .. وقد قبِل النبى هذا الشرط ، لأن من دخل فى الإسلام ، إنما دخل بعد ابتلاء وتمحيص ، فهو حيث كان ، فى حصانة من أن تغيره الأحوال والأحداث . وأما من كان مؤمناً، ثم عاد إلى الكفر ، فإن الإمساك به فى مجتمع المؤمنين بعد هذا ، إنما هو تمسك بعضو فاسد فى جسد سليم ..

وهذا الشرط خاص بالرجال دون النساء .

وقد كان من مقتضى هذا ، أن تكون بين المؤمنين والمشركين شبه صلة فى حدود تنفيذ أحكام هذا الصلح ، بعد أن دعا الإسلام المؤمنين إلى قطع كل ولاء بينهم وبين هؤلاء المشركين .

وفى هذه الآية الكريمة ، بيان لحكم من جاء من مجتمع المشركين من النساء، مؤمناتٍ مهاجرات . . فهذا الحكم يقضى بأن يَمتحن المؤمنون هؤلاء المؤمنات فى إيمانهن ، حتى يتبين لهم صدق إيمانهن، وأنهن إنما هاجرن فِراراً بدينهن من أن

يفتَن فيه ، لا فراراً من زوج ، ولا رغبة فى زواج ،ولا طمعاً فى مأرب من مآرب الحياة .. فإذا تبين أنهن على الإيمان .. كان على المؤمنين أن يؤوهن إليهم ، وأن يُمسكوا بهن فى مجتمع المؤمنين ، وألاّ يرجعوهن إلى الكفار . . وذلك لأمرين :

أولهما . أن النساء لم يدخلن فى الشرط الذى اشترط فيه المشركون على المسلمين أن يردوا إليهم من أتاهم مؤمناً من المشركين . . فهذا شرط خاص بالرجال ، دون النساء . .

وثانيهما : أن النساء لا يصبرن طويلا على موقع الفتنة من المشركين ، ولا يحتملن ما يحتمل الرجال من بلاء فى سبيل العقيدة التى يعتقدنها ، إنهن أسرع تحولا ، وأقل ثباتاً وصبراً من الرجال ، وإن كان فى بعض النساء ما لأقوى الرجال من عزيمة وثبات ، إلا أن النساء فى مجموعهن دون الرجال فى هذا المقام..

وفى قوله تعالى : « الله أعلم بإيمانهن » — إشارة إلى أن الامتحان الذى يَمتحن به المؤمنون المؤمنات المهاجرات إليهن ـ هو امتحان لا يكشف إلا عن ظاهر الحال منهن .. أما مافى القلوب وماتكنّ الصدور ، فعلمه عند الله سبحانه وتعالى . . وأنه يكفى فى هذا الامتحان أن تشهد ظواهر الأحوال ما يدل على إيمان هؤلاء المؤمنات ، أما ما فى القلوب فأمره إلى الله . .

وقوله تعالى : « وآتوهم ما أنفقوا » أى وردّوا إلى الكفار أيها المؤمنون ما أنفقوا على هؤلاء المؤمنات من مهور .. بمعنى أن المؤمنة التى كانت متزوجة من مشرك ثم جاءت مهاجرة إلى المؤمنين ، يجب على المؤمنين ، بعد امتحان إيمانها أن يمسكوها عندهم ، وأن يردّوا إلى زوجها المشرك ، ما كان قد أمهرها إياه ، فذلك المهر هو مايمسك به زوجها المشرك منها ، وقد فرق الإسلام بينها وبينه ، فأصبحت بإسلامها محرمة عليه .

وهذه الفرقة بين المؤمنة وزوجها المشرك ، قد جاءت من جهة المرأة ، وكأنها بهذا هى التى رغبت فى المفارقة ، فكان عليها — والأمر كذلك — أن تردّ إليه ما أخذت منه من صَدَاق . .

رُوى أن جميلة امرأة ثابت بن قيس ، جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ، لا أجد فى ثابت بن قيس عيباً من خُلُق أو إيمان ، ولكنى لا أجد فى طوق مجاراته . . فسألها الرسول الكريم : هل تعيد إليه حائطه (أى بستانه) الذى جعله صداقاً لها ، إذا هو طلقها ؟ فقالت نعم ، فأمر النبى بردّ الحائط إلى ثابت ، وتطليقها »

فهذا أشبه بالفرقة الواقعة من المرأة ، تخرج من عصمة زوجها المشرك ، بدخولها فى دين الله . .

وفرق واحد هنا ، وهو أنها لا تحمل بدخولها فى دين الله غُرماً ، فلا تَرُدّ ما أمهرها به زوجها المشرك من مالها هى ، بل يتحمل ذلك عنها المسلمون الذين هاجرت إليهم ، وحلّت بينهم . .

وقوله تعالى : « ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن » أى أن هذه الفرقة بين المرأة المؤمنة وزوجها المشرك ، تعتبر طلاقاً بائناً ، يحلّ للمسلم بعد هذا ، زواجُها ، بعد انقضاء عدتها ، وبعد إيتائها المهر المناسب لها . .

وقوله تعالى : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر »

العِصَم : جمع عصمة ، وهى ما يعتصم به ، وهى كناية عن رباط الزوجية ، الذى يربط كلاً من الزوجين بصاحبه ، ويعتصم به .

والكوافر : جمع الكافرة . وقد جُمعت جمع تكسير ، ولم تجمع جمع المؤنث السالم « الكافرات » استخفافاً بهن ، وعزلا لهن عن مجتمع العقلاء ،

إذقد اغتال الكفر الذى لبسهنّ،معالمَ الإنسانية فيهن ..وهذا من شأنه أن يهوّن على الأزواج المؤمنين فراقَ مثل هؤلاء الكوافر .

ولهذا جاء النهى للمؤمنين أن يمسكوا بما فى أيديهم من روابط الزوجية بينهم وبين نسائهم المشركات ، بل إن عليهم أن يقطعوا حبل الزوجية معهن ، كما يقول سبحانه : « ولا تَنكحوا المشركات حتى يؤمنّ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم » (٢٢١ : البقرة)

قوله تعالى : «واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا» أى اطلبوا أيها المؤمنون من المشركين مهور نسائكم المشركات اللائى فرّق الإسلام بينكم وبينهن ، كما يطلب منكم المشركون مهورَ نسائهم اللائى هاجرن إليكم مؤمنات ، « ذلكم حكم الله يحكم بينكم » — هذا ما قضى به الله سبحانه من التفرقة بين المؤمنات المهاجرات وأزواجهن المشركين ، وبين المؤمنين ، وزوجاتهم المشركات ، ومن ردّ ما أنفق المشركون على زوجاتهم المؤمنات ، وما أنفق المؤمنون على زوجاتهم المشركات — هذا كله هو حكم الله يحكم به بينكم « وهو العليم » بما يقضى به ، وبما فيه الخير لكم ، «الحكيم» الذى يضع الأمور بحكمة فى أعدل موضع وأحكمه .

قوله تعالى :

* « وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون »

أى وإن فاتكم أيها المؤمنون شىء من مهور أزواجكم المائلات إلى الكفار ، المنحازات إلى جبهتهن ، بمعنى أنه إذا طلقتم أزواجكم المضافات إلى المشركين ، ولم يردّ المشركون عليكم ما أنفقتم من مهورهن ، ثم كانت منكم معاقبة للمشركين ، ومقابلتهم بالمثل ، فلم تردوا عليهم ما أنفقوا على زوجاتهم المهاجرات إليكم — إذا كان ذلك، فآتوا — أيها المؤمنون — الذين ذهبت أزواجهم منكم

بالطلاق من أجل شركهن ـ آتوهم مثل ما أنفقوا ، أى مثل ما قدموا لهن من مهور . .

وفى التعبير عن فرقة المشركات لأزواجهن المؤمنين بالذهاب فى قوله تعالى : « ذهبت أزواجهم » ـ إشارة إلى أن هؤلاء الزوجات إنما هن شىء قد ضلّ ، وذهب فى متاهات الحياة ، فلا تأس عليه نفس ، ولا يحزن له قلب .

وقوله تعالى : « واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » ـ هو تعقيب على هذه الأحكام ، وأنها يجب أن تقوم عند المؤمن فى ظل من تقوى الله ، حتى لا يقع فيها جور ، أو انحراف عن ميزان العدل والإحسان . .

وفى قوله تعالى : « الذى أنتم به مؤمنون » ـ إلفات المؤمنين إلى أنهم فى هذا المقام ، إنما يقيمون أمورهم على ميزان الإيمان ، الذى فرق بينهم وبين المشركين، وهم لهذا مطالبون بأن يُحضروا إيمانَهم هذا كلّ تصرف يكون بينهم وبين المشركين، من أخذ أو إعطاء . .

قوله تعالى :

* « يٰأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم »

هذا بيان لما يقوم عليه إيمان المؤمنات ، سواء بايعن الرسول بيعة حضور ، أو غيبة ، بمعنى أن هذه البيعة هى بيعة الإسلام للنساء ، وما يفترض عليهن من فرائض . . وذلك :

— « ألاّ يشركن بالله شيئاً » . أى يُخلصن إيمانهن لله ، ويخلين قلوبهن من كل معبود سواه .

— « ولا يسرقن . .

— « ولا يزنين . .

— « ولا يقتلن أولادهن . . خشية الفقر

— « ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن »

والبهتان ، هو الباطل ، الفاسد من العمل ، كالزور من الكلام . . والمراد به هنا ، هو ولادة الأبناء منهن من غير آبائهن . .

وفى تصوير المولود من غير أبيه ، بأنه « بهتان » ـ تنفير من هذا المولود ، وإثارة لمشاعر الخوف منه ، والكراهية له

وفى وضع هذا « البهتان » بين يدى المرأة ورجليها ـ إزعاج لها ، وإقلاق لمشاعرها أن تسكن إلى هذه الجريمة البشعة التى تعيش معها ، كما يعيش القتيل بين يدى قاتله . .

وما بين يدى المرأة ورجليها ، هو بطنها الذى يحمل هذا البهتان ، ويعيش فيه تسعة أشهر ملتصقا بالمرأة ، هاتفاً بها فى كل لحظة ، إنى هنا ! إن ذلك ـ إذا علمت المرأة المؤمنة أنه بهتان ـ لا يَدَع لها لحظة من الاستقرار والسكون ، فى يقظة أو منام ، الأمر الذى يدعوها إلى التفكير الطويل قبل أن تضم فى كيانها هذا البهتان ! وأن تنسبه كذبا وافتراء إلى فراش الزوجية .

وقوله تعالى : « ولا يعصينك فى معروف » ـ المعروف ما يقوم عليه إيمان المؤمن ـ ذَكراً ، أو أنثى ـ فيما قَدَر عليه ، ووسعته نفسه . . من طاعة الرسول ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه . .

والعصيان يقع على الأمر والنهى معاً . .

فعصيان الأمر عدم امتثاله . . كما يشير إلى ذلك قوله تعالى على لسان موسى

لأخيه هرون : « أفعصيت أمرى ؟ » (٩٣ : طه) وعصيان النهى ؛ إتيان المنهىّ عنه . . كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وعصى آدم ربه فغوى » . . وعصيان آدم ، هو أكله من الشجرة التى نهاه الله تعالى عن الأكل منها فى قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » (١٩ : الأعراف)

وفى قوله تعالى : « فى معروف » وفى تقييد عدم العصيان بما هو معروف — إشارة إلى أن العصيان لا يكون عصياناً إلا فيما عُرف لهنّ من أمر أو نهى، وهذا يعنى أن غير المعروف لهن من أحكام الشريعة ، من أوامر ونواه ، هو معفوّ عنه ، وهذا يعنى أن على الرسول أن يبلغ رسالة ربه كاملة إليهن .

وقوله تعالى : « فبايعهن » أى اقبل إيمانهن ، واعتبرهن فى جماعة المؤمنين ، لهن ما للمؤمنين ، وعليهن ما عليهم . .

وقوله تعالى : « واستغفر لهن الله . . إن الله غفور رحيم » أى ادع الله لهن بالمغفرة لما سلف منهن من ذنوب قبل الإسلام . . من شرك ، أو سرقة ، أو زنًى ، أو إتيان ببهتان افترينه بين أيديهن وأرجلهن . . «إن الله غفور رحيم » أى واسع الرحمة والمغفرة ، فيغفر لهن ذنوبهن جميعا التى كانت منهن قبل الإسلام ، مهما عظمت أو كثرت . . وبهذه المغفرة العامة الشاملة يدخلن الإسلامَ طاهراتٍ من كل ذنب ، مبرآت من كل إثم ، وبهذا العفو العام يبدأن صفحة جديدة نقية ، مع الحياة الجديدة التى ولدن بها فى الإسلام . . وهذا من شأنه أن يقوّى من عزائمهن على الاحتفاظ ببقاء هذه الصفحة وصفائها .

قوله تعالى :

* « يـأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور »

الذين غضب الله عليهم ، هم اليهود ، وإنه حيث ذُكر غضب الله فى القرآن على قوم ، أو جماعة ـ فالمقصود به اليهود

والتولى : من الولاء ، والموالاة . .

وبهذه الآية الكريمة تختم السورة ، وبهذا الختام يلتقى ختامها مع بدئها حيث بدئت بنهى المؤمنين عن موالاة أعداء المؤمنين من الكفار والمشركين . . ثم كان ختامها دعوةً من الله إلى مجانبة الذين غضب الله عليهم ، وهم اليهود . . وبهذا لا يكون للمؤمنين ولاء مع جميع أهل العداوة لله وللمؤمنين .

وفى قوله تعالى : « قوماً » بالتنكير ، إشارة إلى ازدراء هؤلاء القوم ، وهوانهم ، وأنهم — حيث كانوا — هم فى صَغار وذلة وهوان.. وحسبهم صغاراً وذلة وهواناً ، أن يصحبهم غضب الله فى كل زمان ومكان . .

ثم إن فى هذا التنكير دلالة على أن وصف القوم بغضب الله عليهم ، يكشف عن وجه هؤلاء القوم ، ويقوم شاهداً عليهم ، إذ ليس هناك من وقعت عليه لعنة الله غيرهم .. فالصفة قرينة دالة على الموصوف ، إذ كانت مقصورة عليه ..

قوله تعالى :

« قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور » ـ إشارة إلى موقف اليهود من الحياة الآخرة ، وأنهم فى شكٍّ منها وفى يأس من لقائها ، فهم ـ مع إيمانهم بالله ـ على عقيدة بأن لا بعثَ بعد الموت ، وأن الناس إنما يُوَفَّوْن جزاءهم فى هذه الحياة الدنيا .. ولهذا فإنهم يستنفدون كلّ جهدهم فى العمل لما يبنى حياتهم الدنيوية ، دون أن تكون منهم لفتة إلى ما وراء هذه الحياة . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لاريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة إن نظنّ إلا ظنًّا وما نحن بمستيقنين » .. (٣٢ : الجاثية) . . هذا هو المعتقَد الغالب على اليهود ، فيما يتصل بالبعث ، وبالحياة الآخرة ، وإن كانت شريعتهم التى جاءهم بها موسى ، تدعو إلى الإيمان بالحياة الآخرة ، وإلى العمل لها ، ولكن القوم يتأولون نصوص الشريعة ، ويَلْوونها مع أهوائهم ، حتى كانت الحياة الآخرة عندهم أقربَ إلى الخيال منها إلى الحقيقة .

وقوله تعالى : « يئسوا من الآخرة » بدلا من أن يقال كفروا بالآخرة ، أو كذبوا بها ، للإشارة إلى ما عندهم من علم بالآخرة ، وبما يكون فيها من حساب وجزاء ، وأنه علم نظرىّ ، ميئوس من وقوع المعلوم منه ، وتحققه .. وهذا إعجاز من إعجاز القرآن ، فى تصوير هذا المفهوم الذى يقوم عند اليهود للبعث والحياة الآخرة .. إنه انتظار لغائب لا يُرجَى له إياب ، فوقع اليأس من لقائه . .

وفى قوله تعالى : « كما يئس الكفار من أصحاب القبور » أى أن يأس اليهود من لقاء الآخرة ، هو أشبه بيأس الكفار من أن يلتقوا يوماً بموتاهم الذين أودعوهم القبور . .

فاليهود ينظرون إلى الآخرة ، نظرةَ الكفار إلى الأموات فى القبور.. إن كلاًّ منهم ينظر إلى شىء .. ولكن هذا الشىء ــ فى زعمهم ــ لن يلتقوا به أبداً .. الآخرة فى زعم اليهود ، والأموات فى زعم الكفار . . وكِلاَ الزعمين باطل ، فاليهود سيلتقون بالآخرة ، وإن كرهوا ، والكفار سيلتقون بموتاهم وإن يئسوا ..

* * *

٦١ : سورة الصّف

نزولها : مدنية .

عدد آياتها : أربع عشرة آية .

عدد كلماتها : ما ئتان وإحدى وعشرون كلمة .

عدد حروفها : تسعمائة حرف .

مناسبتها لما قبلها

كانت السورة السابقة « الممتحنة » حديثاً متصلا إلى المؤمنين ، وما ينبغى أن يكون عليه موقفهم من المشركين ، والذين يكيدون للإسلام والمسلمين ، وأن هـذا الموقف يقتضيهم أن يقطعوا ما بينهم وبين هؤلاء وهؤلاء من صلات القربى والمودة ، وأن يجعلوا ولاءهم خالصاً لدين الله والمؤمنين بالله ـ وهذه حال من شأنها أن تـكشف عن ضعف بعض النفوس التى لاتحتمل هذه التجربة ، ولا تصبر على هذا الامتحان ، وهنا تـكثر الأقوال التى يدّعى أصحابها دعاوَى تحدّث عن موقفهم من المشركين ، والمنافقين ، على حين أن حالةَ أفعالهم أوما فى قلوبهم ، تخالف هذه الأقوال .. فـكان أن بدأت سورة (الصف) بالتسبيح بحمد الله الذى هَدَى المؤمنين إلى الإيمان ، ثم ببيان المنهج الذى ينهجه المؤمنون ، كى يَبْقى هذا الإيمان سليما قويّاً فى صـدورهم . . وأساس هذا المنهج هو الأفعال لا الأقوال . . الأفعال التى تصدر عن قلب مؤمن ، وعن مشاعر مستجيبة لهذا الإيمان ، لا الأقوال التى لا يصدّقها العمل ، ولا يزكيها الإيمان . . « يـأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » . .

وهكذا تبدأ سورة « الصفّ » فتتصل هذا الاتصال الوثيق بسورة « الممتحنة » قبلها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٦)

* « سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١) يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم » ..

هو خبر يراد به تمجيد الله وتعظيمه ، لذاته سبحانه وتعالى . . فهو — سبحانه — ممجد ومعظم ، وإن لم يستجب المشركون والكافرون للإيمان به . ولتمجيده وتعظيمه . .

قوله تعالى :

* « يـأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كَبُر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » .

هو إنكار من الله سبحانه وتعالى على المؤمنين أن يَلبسوا ثوبَ الإيمان ظاهراً ، ثم يكون هذا الظاهر على خلافٍ مع الباطن . . أو أن تقول ألسنتهم ماليس فى قلوبهم .. فهذا وجه من وجوه النفاق . . لا يليق بالمؤمن أن يُلِمّ به ، أو يدخل على إيمانه شىء منه ..

فالأقوال التى لا يصدّقها العمل ، لا تخلو من أحد وصفين : إما أن تكون لغواً من القول .. وهذا مما ينبغى للمؤمن أن ينزه نفسه عنه . . فإن الكلمة على لسان المؤمن يجب أن تكون عقداً بين المؤمن ونفسه ، لا تبرأ ذمته حتى يَفِيَ بهذا العقد ، ويحققه .. فإنه عن الكلمة تلقّى المؤمنُ رسالة السماء ، وعرف شريعة الله .. فليكن للكلمة عنده ـ سواء نطق بها هو ، أو استمع إليها — حساب وتقدير .. وإما أن تكون الكلمة التى ينطق بها اللسان ، ولا يصدقها العمل ، كلمةً كاذبة أو منافقة .. ولا يجتمع الإيمان مع النفاق .

ومن أجل هذا جاء قوله تعالى : « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » تعقيباً على هذا الإنكار ، وتجريحاً لهذا القول الذى لا يصدّقه العمل ، وأنه قول ممقوت عند الله ، يُبغضه ، ويُبغض أهله ..

قوله تعالى :

* « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أنها تبين الصورة الكريمة التى ينبغى

أن يكون عليها إيمان المؤمن ، بعد أن كشفت الآيتان السابقتان عن الصورة المهزوزة ، المنكرة ، التي تكون للمؤمن حين يقول ، ولا يفعل ما يقول ..

ولما كان الجهاد في سبيل الله أعظمَ الأفعال ، وأكرمها ، وأصدقَها ، حيث موقف المجاهد ، وثباته في ميدان القتال ، والتحامه في صفوف المجاهدين ، وجَعْل كيانه بعضاً من كيانهم ، وحيث يكون هذا الموقف دليلا عملياً قاطعاً على صدق الإيمان ووثاقته ـ لمّا كان هذا شأن الجهاد ، فقد جعله الله سبحانه وتعالى هو المحكّ الذي يظهر عليه إيمان المؤمن ، والشهادة التي تشهد له عند الله وعند الناس أن فعله يصدّق قولَه على أتم صورة وأكملها ..

وعلى هذا ، فإن من أراد أن يكون مؤمناً حقًّا ، وأن يبرىء نفسه من الكذب والنفاق ـ عليه أن يشهد مواقف القتال ، وأن يأخذ مكانه في صف المجاهدين ، وأن يعطى الجهاد حقه ، وأن يقاتل حتى يكتب الله النصر للمؤمنين ، أو يُقتل وهو في مواجهة العدو ، لا مولياً دبره ، ولا محتمياً بظهر غيره من المجاهدين .. فذلك هو الإيمان ، بل هو أعلى درجات الإيمان وأكرمها ، وأصدقها .. فأى قول يقوله المؤمن المجاهد بعد هذا ، هو قادر على الوفاء به .. فإن من قدّم نفسه للاستشهاد في سبيل الله ، لهو أقوى من أن يضعف عن الوفاء بكلمة يقولها ..

وقوله تعالى :

* « وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين »

في هذه الآية عزاء للنبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عما يرى في بعض المؤمنين من ضعفِ إيمان ، أو انحراف عن غير الطريق القويم ، أو انحياز إلى المشركين ، أو ممالأة الكافرين .. فهذا كله مما يمكن أن يقع في الإنسانية ، حيث

لا يخلو أى مجتمع من المجتمعات البشرية من هذا الضعف الإنسانى ، وحيث لم تسلم دعوة من دعوات الرسل من أن يقع فى محيطها مثل ما يَرَى النبى فى محيط دعوته ، من منافقين ، ومنحرفين . .

فهذا موسى ـ عليه السلام ـ قد لقى من قومه اليهود ، الذين يرى النبى أبناءهم يكيدون له ، ويكيدون لدعوته ـ قد لقى منهم نبيهم موسى ألوانا من الكيد ، وصنوفا من الأذى . . وإذن فليوطن النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ نفسه على أنه سيستقبل صوراً من الأذى الذى لا ينقطع أبداً ، ما دام قائماً فى مواجهة الناس بتلك الدعوة ، سواء فى هذا ما يكون من المشركين والكافرين والمنافقين ، أو من المؤمنين الذين لم تطمئن قلوبهم بالإيمان . . فتلك هى الحياة ، وهؤلاء هم الناس . . !!

والأذى الذى لقيه موسى من قومه ، هو ما كان يأتيه منهم من مكر بآيات الله ، وشرود عن الطريق الذى أقامهم عليه . . فقد كانوا أبداً فى لجاج وعناد ، وفى تحدٍّ وتكذيب لآيات الله التى بين أيديهم . .

وفى القرآن الكريم مواقف كثيرة لإعنات اليهود لموسى ، وشرودهم ، وجماحهم عن طريق الهدى . .

لقد أنجاهم الله على يد موسى من فرعون ، ومما كان يسومهم ، من سوء العذاب ، وبين أيديهم ، وأمام أعينهم ضرب موسى البحرَ بعصاه ، فأقام من هذه الضربة طريقاً فى البحر يَبَساً ، سلكوه ، وعبروا به الجانب الآخر من البحر ، على حين أنه أطبق على فرعون وجنوده حين اتخذوا هذا الطريق مركباً فكانوا من المغرقين . .

ومع هذه المعجزة القاهرة ، فإن بنى إسرائيل ما كادت تستقر أقدامهم فى

المكان الجديد، حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فقالوا لموسى ، اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة ..

وفى مكانهم الجديد يُنزل الله عليهم المنّ والسلوى ، ثم لا تلبث طباعهم النكدة أن تنفر من هذا الطعام، كما نفرت قلوبهم المظلمة من الإيمان بالإله الواحد ، فقالوا لموسى : « ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها» (٦١ : البقرة) .. وإنهم وهم يطلبون ما يرضى طباعهم الخبيثة، لا يقولون لموسى : ادع لنا ربنا ، بل يقولون « ادع لنا ربك» فكأنهم لا يعترفون برب موسى ربّا لهم . !

ويذهب موسى لميقات ربه ، ثم يعود إليهم ، فيجدهم قد اتخذوا من حُليّهم عجلا جعلوه إلٰها يعبدونه ، كما يقول سبحانه: « واتخذ قوم موسى من بعده من حُليّهم عجلا جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا . اتخذوه وكانوا ظالمين.. »(١٤٨ الأعراف) .

فهذه المواقف الضالة ، المسرفة فى الضلال ، هى التى كانت تؤذى موسى ، وتزعجه ، إذ كانت تهدم كل بناء يقيمه ، وتفسد كل طريق يصلحه .

وفى قوله تعالى : « وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم » أى لم تؤذوننى بهذا الخلاف علىّ ، والخروج عن السبيل الذى أقيمكم عليه ، وأنتم تعلمون أنى رسول الله إليكم ، بما أقمت أمام أعينكم من آيات ومعجزات ، هى شهادة قائمة بأنى رسول من عند الله . ؟

فالواو هنا ، واو الحال ، و(قد) حرف تحقيق ، يفيد التوكيد ، والجملة حالية، وقد جىء بالفعل المضارع بدل الماضى ، للدلالة على أن هذا العلم قائم بينهم ، وأن الآيات والمعجزات لا تزال تتنزل عليهم ، وفى هذا ما يشير إلى ما فى طبائع القوم من عناد وجماح عن الانقياد للحق ، والاستقامة على طريق الهدى .

وقوله تعالى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » أى فلما انحرفوا ، ومالوا عن طريق الحق ، أمال الله قلوبهم نحو هذا الضلال ، وأغرقهم فيه ، لأنهم فسقوا « والله لايهدى القوم الفاسقين » الذين يلبسون ثوبَ الحق ثم ينزعونه عنهم ، ويخرجون منه .. فقد هداهم الله إلى الحق ، ثم خرجوا من هذا الهدى ، وآثروا الظلام والضلال .. فهم بهذا يخالفون الله عن عمد ، وعن علم .. ومن كان هذا شأنه ، فهو على عداوة متحدية لله ، والله لا يهدى من يعاديه ..

وفى ذكر كلمة القوم فى قوله تعالى : « والله لا يهدى القوم الفاسقين » بدلا من أن يقال « والله لايهدى الفاسقين » — فى هذا إشارة إلى أن المراد بهذا ، هم قوم مخصوصون ، وهم هؤلاء القوم ، أى اليهود ..

قوله تعالى :

* « وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدِّقاً لمـا بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد .. فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » . .

نُسب السيد المسيح إلى أمه ، لأنه هو النسب الذى له فى الناس ، إذ لا أب له من بنى الإنسان ، وإنمـا هو نفحة من روح الله . .

ونادى المسيح بنى إسرائيل بقوله « يابنى إسرائيل » ولم يقل ياقوم كما هو حديث الأنبياء إلى أقوامهم ، لأنه — وإن ولد فيهم — ليس ابناً لرجل منهم .. واليهود لا ينسبون أحداً إليهم إلا إذا كان مولوداً من أبوين يهوديين ، أو من أب يهودى على الأقل . .

ومع أن اليهود ، كانوا يَنْسُبون السيد المسيح — عليه السلام — نسبة غير شرعية — إلى يهودىّ منهم ، هو يوسف النجار ، وإنه بهذا لامانع عندهم من أن ينسب

السيد المسيح إليهم ، إلا أنه عليه السلام ، رفض هذا النسب المدَّعَى له ، محتفظاً بنسبه السماوى ، الذى كرمه الله به ، متحدِّيا بَهْتَ اليهود ، ضارباً فى وجوههم بهذا الافتراء الذى افتروه عليه ، وعلى أمه البتول .. لأنه لا يقول غير الحق ، ولا يقبل إلا ما هو حق !

وفى قوله : « إنى رسول الله إليكم » — إشارة إلى أنه رسول الله إليهم خاصة ، كما كان موسى — عليه السلام — رسولا من عندالله إليهم . .

وقوله : « مصدقاً لما بين يدىّ من التوراة » .. أى مؤمناً بالتوراة التى بين يدىّ ، والتى هى كتابكم الذى تؤمنون به . . فأنا لم أجئكم بما تنكرونه علىّ ، بل جئتكم مجدداً هذه الرسالة التى جاءكم بها موسى ، لأقيمكم على تعاليمها . . فلمَ تنكرون ما أدعوكم إليه !

وفى هذا يقول السيد المسيح فى الإنجيل : « ما جئتُ لأنقض الناموس ، وإنما جئت لأكمّل » أى لأقيم ما هدمتم من تلك الشريعة، وما نقضتم من ناموسها..

وقوله : «ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد» ـ هو إشارة إلى نبىّ يأتى من بعده اسمه أحمد ، وهو رسول الله «محمد» صلى الله عليه وسلم . .

وقد صَدَقت كلمة المسيح — عليه السلام — فما جاء بعده رسول — ولو على سبيل الادّعاء — حتى كانت رسالة محمد صلوات الله وسلامه عليه . .

قوله تعالى :

« فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » أى فلما جاءهم المسيح بالمعجزات التى وضعها الله سبحانه بين يديه ، بَهتوه ، وكذبوه ، واتهموه بالسحر والشعوذة ، وتعقبوه بالأذى ، وأخذوه بالبأساء والضراء ، ولم يمسكوا عن مساءته حتى ساقوه إلى ساحة الاتهام ، وحكموا عليه بالموت صلباً : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » (١٥٧ : النساء) .

ويجوز أن يكون الضمير عائداً إلى النبي — صلوات الله وسلامه عليه — وقد بشر به المسيح فى قوله تعالى : « ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » .. بمعنى فلما جاءهم النبي الذى بشرهم به المسيح ، ومعه آيات الله البينات ، كفروا به وقالوا هذا سحر مبين ..

والذين كفروا هنا هم اليهود والنصارى . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به .. فلعنة الله على الكافرين » (٨٩ : البقرة) . .

[المسيح . . وتبشيره بالنبي]

جاء فى هذه السورة — سورة الحشر — قوله تعالى على لسان المسيح : « وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل . . إنى رسول الله إليكم . . مصدقاً لما بين يدىّ من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد .. »

هذا ماجاء به القرآن ، على لسان المسيح ، إلى بنى إسرائيل ، مبشرا إياهم ، برسول يأتى من بعده اسمه « أحمد » ، وهو اسم « محمد » رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن كِلاَ الاسمين مشتق من الحمد ، فهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ، أحمد ، ومحمود ، ومحمد ..

وإذا كانت الأناجيل الأربعة المتداولة اليوم ، قد خلت من هذه البشرى على وجه صريح ، فإن ذلك لا ينْقض ما جاء به القرآن الكريم ، فى الآية السابقة ، إذ القرآن ، هو الحجة القائمة على ما سبقه من الكتب السماوية ، لأنه آخرها ، وضابط مُحكَمها ، والمهيمن عليها ، كما يقول سبحانه

وتعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه (٤٨ : المائدة) .

والإنجيل الذى يتحدث عنه القرآن ، هو كتاب واحد ، ولكنّ الذى فى أيدى الناس اليوم ليس إنجيلا واحداً ، وإنما هو أربعة أناجيل ، وقد كان فى وقت ما خمسة وسبعين إنجيلا ، وقد وقع خلاف فيما بينها .. لأنها لا تعتمد على أصل واحد ، ولا ترجع إلى الإنجيل الذى أنزل على المسيح عليه السلام ، وإنما هى مرويات تتحدث عن السيد المسيح ، وعن سيرته وأخباره ، فيما يَرويه عنه بعض حوارييه ، أو من اتصل بحوارييه ، وسمع منهم ، وتتلمذ عليهم ، وفى هذه السيرة عبارات من عظات السيد المسيح ووصاياه ، وقد يكون فيها بعض آيات من الإنجيل السماوى ، كان السيد المسيح يضمّنها عظاته ووصاياه ..

وإذن فالأناجيل التى ذَكرت سيرةَ السيد المسيح ، تختلف فى تشخيص شخصية السيد المسيح ، وفى تناول مواقفه ، وفى نقل عباراته وكلماته ، باختلاف الكتّاب الذين كتبوا هذه السيرة ، ونفضوا عليها من عواطفهم ومشاعرهم ، ومن ألوان ثقافاتهم ماجعل الأناجيل تختلف هذا الاختلاف ، كما يختلف إنسان عن إنسان ، فى تفكيره ، وفى تصوره للأُحداث .

وليس من همّنا هنا دراسةُ الأناجيل دراسة تاريخية ، محققة ، للإنجيل السماوى ، أو الأناجيل التى جاءت محدِّثة عنه ..

وإنما الذى نقف عنده منها ، هو أن القرآن الكريم قد ذَكر آية صريحة تَذكر على لسان السيد المسيح ، تلك البشرى التى أعلنها فى بنى إسرائيل ، مبشراً برسول يأتى من بعده اسمه « أحمد » .. ثم نبحث فى

الأناجيل الأربعة فلا نجد هذه البشرى صريحة تلك الصراحة التى تقطع بأن نبيًّا اسمه أحمد سيجىء بعد المسيح ! وإنما الذى جاء فى بعض الأناجيل التى اعتمدتها المسيحية ـ إشارات ، يمكن أن تؤوّل إلى مايُفهم منه ظهور نبى عربى ، يأتى من بعد المسيح موصوفاً بصفات الحمد . . وهو كلمة « بار قليط » الذى وعد المسيح بأنه سيأتى من بعده . .

وإنه لكى نفهم هذه الإشارة التى جاءت على لسان المسيح ، كما رواها « يوحنا » فى إنجيله ، ينبغى أن نقف وقفة قصيرة مع السيد المسيح ، ومع الظروف التى وُلد فيها ، وما كان بينه وبين اليهود من مواقف . . فذلك من شأنه أن يحل لنا كثيرا من رموز هذه الكلمات التى رويت عن السيد المسيح ، عليه السلام . .

فى حياة المسيح ـ عليه السلام ـ أكثر من حدث أثار تضارب الآراء فيه ، واختلاف الناس عليه . .

(فأولا) ميلاده من عذراء . .

كان هذا الميلاد مشكلة ضخمة . . إذ أن هذا الميلاد غير طبيعى ، وغير جارٍ على مألوف الحياة . . وذلك مما يدير الرءوس نحوه ، ويُلفت العقول إليه ، ويفتح للناس طرائق شتى للقول فيه ، أو التقول عليه .

فاليهود ـ مثلا ـ لم يعترفوا بهذا الميلاد ، ولم يقبلوه . . بل اعتبروه ولادة غير شرعية ، جاءت على غير رِشدة . . من اتصال محرّم ، بين مريم ، ويوسف النجار .

وبهذا وضعوا المسيح وأمه فى هذا الموضع الذى يَصِمهما بالدنس . . والعارا .

(وثانياً) صَلْبه .. ووقوعه بهذا الصلب تحت حكم الناموس الذى يقضى بلعن كل من عُلق على خشبة ! كما تقول التوراة .

(وثالثاً) ألوهيته .. وخروجه بهذه الألوهية عن وجوده البشرى الذى رآه الناس عليه والقضاء على شخصيته ، وإفنائها ..

فهذه ثلاث شُبه ، أوتهم ، تحوم حول شخص المسيح ، وتفسد الرأى فيه ، وتجعل منه شخصية أسطورية أكثر منها شخصية حقيقية . .

والقرآن الكريم ، هو وحده الذى تولّى « الدفاع » عن المسيح ، وكشف الشُّبَه عن شخصه الكريم ، ووضعه بالمقام المحمود الجدير به كإنسان ، يأخذ مكان القدورة بين الناس ! ..

يقول الله تعالى « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه » : (١٧١ : النساء) ويقول سبحانه : « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ، وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل » (٥٩ الزخرف) . . ويقول جل شأنه : « ما المسيح ابن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صدّيقة . . كانا يأكلان الطعام » (٧٥ : المائدة) .

إن الأخذ بما يقول القرآن فى المسيح ، هو الذى يرفع هذه الشبه ، التى كانت ولا تزال داعية لسوء القالة فيه عند أعدائه اليهود ، أو باعثة للاضطراب ، والقلق النفسى ، والروحى ، والعقلى ، عند أتباعه ، إذ يرونه إنسانا فى شخص إله ، أو إلٰها فى جسد إنسان ! .

كان المسيح قد تنبأ لهذا الخلاف ، الذى يكون فى شأنه ، ولهذه المقولات المنحرفة التى قيلت ، أو تقال فيه . . وقد أشفق على نفسه منها ، إذ كان بعضها يطعنه فى شرف مولده ، وفى طهارة أمه وعفافها ، على حين كان بعضها الآخر يسلخه من بشريته ، ويخرجه من إنسانيته إلى صورة مختلطة ، تجمع الإله والإنسان فى ذات واحدة ، وفى جسد واحد . .

كان المسيح قد تنبأ لهذا ، وأشفق منه ، بل وتألم له !

ولكن الله طمأنه وأذهب مخاوفه ، إذ أوحى إليه أن هناك من سيتولى الدفاع عنه ، ودفعَ الشبهات التي ستدخل على الناس من أمره .. في حال حياته ، وبعد أن فارق الحياة . .

يقول السيد المسيح فيما روت الأناجيل المعتمدة اليوم ، على لسانه ، مخاطبا تلاميذه ، وحوارييه :

« لكنى أقول لكم : الحق إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّى، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ، ومتى جاء ذاك يبكّت العالم على خطّية ، وعلى بِرّ ، وعلى دينونه.. أما على خطية، فإنهم لا يؤمنون بى .. وأما على برّ فإنى ذاهب إلى أبى ، ولا تروننى أيضاً .. وأما على دينونة ، فلأن رئيس هذا العالم قد أدين !

« إن لى أمورا كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء بروح الحق ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية . . ذاك يمجّدنى ، لأنه يأخذ مما لى ويخبركم ، كل ما للأب هو لى ، لهذا قلت إنه يأخذ مما لى ، ويخبركم . . بعد قليل لا تبصروننى ، ثم بعد قليل أيضاً تروننى لأنى ذاهب إلى الآب » [1]

يتحدث المسيح إلى أتباعه هنا عن شخص ، سيجىء بعده ، إذا هو ترك مقامه فيهم ، وفارق هذه الدنيا .

وصفات هذا الشخص كما يحددها السيد المسيح هى :

أولا : أنه المعزّى الذى يجىء مواسيا ومعزيا ، فيما أصيب به المسيح فى شخصه

(١) انجيل يوحنا ١٦ : ٨ — ١٦ .

وما رُمى به من تُهم . . وكلمة المعزّى ، هى إحدى المعانى التى فُسرت بها كلمة « بارقليت » اليونانية ، والتى فسرت أيضاً بمعنى المحامى ، أو مستشار الدفاع .

ثانياً : أنه سيبكّت العالم على أمور ثلاثة :

ا — على خطية . . هى أنهم لم يؤمنوا بالمسيح على الوجه الذى جاء عليه.

ب — وعلى برّ . . وهو أنه ذاهب إلى الله ، لينزل المنزل الكريم الذى أعده له ، ولكن الناس أنزلوه فى غير هذه المنزلة ، حيث رفعه أتباعه إلى مقام الإله ذاته ، على حين أنزله اليهود منازل الضالين .

حـ — وعلى دينونة . . وهى هذا الحكم الظالم الذى حكم به اليهود على المسيح .

وثالثاً : أن المعزّى هذا ، سيرشد أتباع المسيح إلى الحقيقة كلها ، ومعنى هذا أن هناك أشياء لم يكشف عنها المسيح ، ومعنى هذا ، أيضاً أن هذه الأشياء هى مما جدّ بعد المسيح من أمور ، اختلط على الناس وجه الحق فيها ، وهذا هو موضوع القضية الذى سيكون من عمل المحامى ، الدفاعُ عنه ، ودفع الشبه التى ألقيت عليه .

ورابعاً : أن هذا المحامى لا يتكلم من عند نفسه ، بل بما قد سمع . . ومعنى هذا أنه إنما يأخذ دفاعه تلقياً من جهة غير جهته ، هى التى تلقنه المقولات والحجج التى يلقيها على الشبه المتلبسة بتلك القضية .

وخامساً : أن هذا المحامى سيمجد المسيح .

وسادساً : أن هذا التمجيد الذى يقدمه المحامى فى شأن المسيح ليس مديحاً ، تُستجلب به صفات لم يكن متصفاً بها ، وإنما هو تمجيد يكشف حقيقته للناس

وإزالة ما علق بذاته من شبه وضلالات .

هذا ما تنطق به كلمات الإنجيل على لسان السيد المسيح ، فى أوصاف المحامى أو المعزى الذى سيجىء بعده ، ولكن أتباع السيد المسيح خرّجوا هذه الكلمات تخريجاً على غير هذا الوجه ، على ما سنرى :

يقول صاحب المسيحية الأصلية :

« وقد بلغ الأمر بيسوع ، من حيث ثقته واقتناعه من مكانه الرئيسى فى قصد الله ـ بلغ به حدّاً جعله يأخذ على عاتقه أن يرسل شخصاً ، ليحلّ محله ، بعد صعوده إلى السماء ، ألاَ وهو الروح القدس ، وقد دعاه « المعزى » (بارا كليت) وهى تسمية مشروعة ، ومعناها المحامى ، أو مستشار الدفاع .

« وبذلك يكون عمل (الروح القدس) هو الدفاع عن قضية يسوع أمام العالم ، وقال عنه يسوع : « هو يشهد لى » (يوحنا ١٥ : ٢٦) ثم قال : « ذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم » (يوحنا ١٦ : ١٤) [1] .

ومفهوم هذا القول أن الشخص الذى سيرسله المسيح هو « روح القدس » لا محمد ، ولا غيره من البشر ... !!

وإذا علمنا أن معتقد المسيحية هو أن المسيح هو « الله » وأن « روح القدس » هو الله ، بمعنى أن كلاً منهما هو فى أقنوم من أقانيمه الثلاثة ـ إذا علمنا ذلك كان عجباً أن يكون « المعزّى » شخصاً ، وأن يكون هذا الشخص هو الله ، ثم أن يكون المسيح ـ وهو الله ـ يرسل « روح القدس » وهو الله !! .

الله يذهب فى صورة المسيح « الابن » ويجىء فى صورة روح القدس !

(١) المسيحية الأصلية ص ٢٧ ــ ٢٨

ثم من جهة أخرى . . ما معنى أن المحامى ـ إذا كان هو « روح القدس » ، الذى هو الله ذاته ـ ما معنى أنه لا يتكلم من عند نفسه . . « بل يتكلم بما يكون قد سمع ، ويخبركم؟ » أروح القدس ، أو الله ، ينتظر من يلقنه ما يقول ، ويأذن له به . فيتكلم بما يكون قد سمع ؟

وهذا من حيث الشكل ـ كما يقال فى لغة القضاء ـ أما من حيث الموضوع ، فإذ ننظر نجد :

(أولا) : أن « روح القدس » الذى يقال إن المسيح وَعَد بإرساله بعد أن يمضى ـ لم يَرَ له أحد وجها ، لا من أتباع المسيح ، ولا من غيرهم .

(وثانيا) أن روح القدس هذا ، وهو المحامى أو مستشار الدفاع ـ لم يَعرف له أحد موقفا ، ولم يكن له قول مأثور فى شأن المسيح ، وفى تمجيده . .

فأين إذن هو روح القدس ؟ وأين أعماله ، وأقواله ، التى واجه بها الناس لتمجيد المسيح ؟ ولسنا نجد جوابا لهذا إلا إذا نظرنا فى القرآن الكريم ، ووقفنا عندما جاء فيه من دفاع مشرق مفحم ، عن السيد المسيح . . هذا الدفاع المشرق المفحم ، هو تمجيد وتعزية للسيد المسيح ، لما أصابه فى شخصه ، وفى شخص أمه ، من ضرّ وأذى !

جاءت ـ بعثة « محمد » صلوات الله وسلامه عليه ـ وقد مضى على الدعوة المسيحية نحو ستة قرون ، وكان هذا الزمن الممتد كافيا لأن يُفسح للدعوة مجال الحركة فى الحياة ، وأن يَبْلغُ بها أقصى ما تبلغه فى عقول الناس وقلوبهم . . من أولياء الدعوة وأعدائها على السواء .. إذ قد استنفد أعداؤها كلّ ما لديهم من مقولات يقولونها فى المسيح ودعوته ، كما استنفد أولياؤها كلّ ما عندهم من مقولات ، فى تصويرها ، وتقرير حقائقها والاحتجاج لها . . ومن هذا الشد والجذب ،

والهجوم والدفاع ، تشكلت للمسيح « قضية » من أشد ما عرف الناس من قضايا ، غموضا وتعقيدا . . والمسيح هو « الضحية » التى تنوشها رَمَيات المتنازعين فيه ، والمختلفين عليه . . من أعدائه ، وأوليائه جميعاً ! . .

وهنا تبرز الحكمة فى الحاجة إلى محام ، أو مستشار الدفاع ، ليقول فى هذه القضية ، شيئاً . . لا شيئا من عند نفسه ، بل بما يكون قد سمع ، ويخبر به !

وليس ثمة شك فى أن هذا المحامى ، أو مستشار الدفاع أو المعزّى ، هو « محمد » عليه الصلاة والسلام .

فهو كما تنطق كلمات السيد المسيح :

(أولا) : هو المحامى ، الذى كان له دور معروف فى قضية المسيح ، وكان بمشهد ، أو بمسمع من الناس جميعا . .

(وثانيا) هو الذى دافع فى هذه القضية دفاعه المعروف عن شخص المسيح ، وعن أمه ، وكان دفاعه هذا تمجيداً لهما ، وعزاء مما أصابهما من رميات وطعنات .

(وثالثا) : لم يقُل هذا المحامى كلمة من عند نفسه ، بل كل ما قاله هو مما تلقاه وحياً من ربه . . « لأنه لا يتكلم من عند نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به » . .

(ورابعا) أن هذا الذى سمعه وحياً من ربه ، لم يحتفظ به لنفسه ، بل أخبر به ، وبلغه الناس ، كما أمره ربه بقوله : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل

إليك من ربك ، وإن لم تفعلْ فما بلّغت رسالته » . . وفى هذا يقول السيد المسيح : « بل يتكلم بما يكون قد سمع ، ويخبركم » .

لقد كان « محمد » بما تلقى من كلمات الله ، هو المحامى الذى ردّ المسيح ولأمه اعتبارهما ، وهو الذى مجدهما ورفع قدرهما فى العالمين ، وكان فى ذلك العزاء الجميلُ لهما ، والمواساة الكريمة ، لما أصابهما من بلاء عظيم . !

وننظر فى كلمات المسيح مرة أخرى . .

ونقف من كلمات السيد المسيح عند هذه الكلمات :

١ — « إن فى انطلاقى لخيرا لكم » . . فهذا الخير هو ما ينكشف لهم من أمر المسيح على لسان « المحامى » الذى يتولى الدفاع عن قضيته ، ويعرضه لهم فى المعرض الذى يجلّى حقيقته ، ويكشف عن شخصه الكريم .

٢ — « فإنى أرسله إليكم » . . وهذه المقولة توحى بأن المسيح هو الذى يرسل هذا المحامى ، أو بمعنى آخر ، هو الذى يملك إرسال الرسل ، أو بمعنى ثالث ، هو الإله المتصرف فى هذا الوجود .

وهى مقولة إن حُملت على ظاهرها هذا ، كانت إقرارا من الله ـ الذى هو المسيح ـ بالعجز عن الدفاع عن نفسه ، فيقيم محامياً يتولّى الدفاع عنه ! !

وعلى هذا ، فإن هذه المقولة إما أن تكون قد حرّفت ليستقيم عليها الفهم الذى وقع لأتباع المسيح من أنه هو الله ! وإما أن تُحمل على غير ظاهرها ، ويكون قول المسيح : « إنى أرسله إليكم » محمولاً على المجاز السببى ، إذ لمّا كان وجود المسيح ما نعاً من وجود المحامى الذى يتولى الدفاع فى قضيته ، إذ القضية لا تتشكل بصورتها الكاملة إلا بعد أن يذهب المسيح ، وتكثر المقولات فيه ـ فإن ذهاب المسيح هو الذى يهيىء المحامى سبيلا إلى الظهور . . وبهذا يمكن

القول بأن المسيح هو الذى أرسله ، بمعنى أنه كان سببا من أسباب إرساله !

٣ ــ فى قوله : « يخبركم بما يأتى » فيه إشارة إلى تلك المقولات التى ستقال فى المسيح بعد ذهابه ، والتى ستشكّل منها تلك القضية التى تولّى القرآن الكريم الكشفَ عن وجه الحق فيها .

٤ ــ فى قوله : « يأخذ ممّا لى ويخبركم » إشارة إلى أن ما يقوله المحامى الذى يتولى الدفاع عن المسيح ، ليس شيئاً غريباً عن المسيح ، بل هو ممّا له ، أى مما اشتملت عليه ذاته ، سواء أكان ذلك عن مولده ، أو عن بشريته . كما نطق بذلك القرآن الكريم .

وإذا كان القرآن الكريم ، قد قال على لسان المسيح : « يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدىّ من التوراة ومبشراً برسولٍ يأتى من بعدى اسمه أحمد » ــ نقول إذا كان القرآن قد قال هذا على لسان السيد المسيح ، فإن هذا القول يوافق تماماً ما سجلته الأناجيل عنه ، من قوله الذى أشرنا إليه من قبل ، والذى يقول فيه مخاطبا أتباعه : « إنه خيرٌ لكم أن أنطلق ، لأنه إذا لم أنطلق لا يأتيكم المعزّى » . . وكلمة « المعزّى » هى إحدى المعانى التى فُسرت بها كلمة « باركليت » اليونانية ، والتى فسّرت أيضاً بمعنى : المحامى ، أو مستشار الدفاع .

والقرآن يصرّح بأن المسيح بشّر فى الإنجيل باسم هذا الذى سيجىء من بعده ، لا بصفته ، إذ يقول : « ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد . . »
وأحمد صفة من الحمد ، يُشتقّ منها محمد ، ومحمود ، وحامد ، وحمّاد . .

وقد أخذ الرسول الكريم أعدل صفات الحمدِ ، وأقومَها ، وأجمعها للمحامد كلّها ، فهو « محمد » أى هو موضع الحمد له ، والثناء عليه ، من كلّ حامدٍ

للخير ، ومن كل مُثنٍ على الحق والعدل والإحسان . وإنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ما استحق أن يكون « محمدا » حتى كان أحمد ، وحامداً ، وحمّاداً ، ومحموداً .. فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى إخوانه من أنبياء الله ورسله أجمعين..

الآيات : (٧ — ١٤)

* « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى ٱلْإِسْلَامِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ (٨) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ (٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوٓا أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يُدْعى إلى الإسلام والله لايهدى القوم الظالمين .. »

الاستفهام هنا ، مراد به النفى ، أى لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب.. إنه أظلم الظالمين ، لأنه يفترى على الله ، فى حالٍ يُدْعى فيها إلى الإسلام ، وتقوم بين يديه أمارات الحق، وشواهد الهدى ، فيفترى الكذب،أى يختلقه اختلاقاً، ثم يَرْمِي بهذا الكذب المفترَى فى وجه الحق ، بلا حياء ..

وقوله تعالى : « والله لايهدى القوم الظالمين » هو تعقيب على هذه الجريمة التى يقترفها هؤلاء المجرمون ، الذين يَبْهتون الحق ، ويكابرون فى إنكاره .. إنهم أظلم الظالمين ، لأنهم ضلّوا عن الحق الذين كان من شأنهم أن يهتدوا إليه بعقولهم ، ثم إنهم حين دُعوا إلى هذا الحق لم يقبلوه ، ثم إنهم إذ لم يقبلوا هذا الحق الذى دعوا إليه ـ رجموه بالزور والبهتان.. فهم ظالمون ، ظالمون..« والله لايهدى القوم الظالمين » الذين تأبى طبائعهم أن تستجيب للهدى ، وتسكن إليه ..

والقوم الظالمون هنا ، هم« اليهود»،الذين رفضوا دعوة السيد المسيح، والذين لم يقفوا عند حدّ الرفض ، بل بهتوه ، وكذبوه .. وأنه كما دعا المسيح آباء هؤلاء اليهود إلى الإسلام الذى هو دين الله فكذبوه ، وأنكروا عليه دعوته ـ كذلك فعل أبناؤهم هؤلاء ، الذين دعاهم « محمد » ـ عليه السلام ـ إلى الإسلام ، فافتروا الكذب ، وأنكروا أنه رسول الله .. وكما ضَلّ الآباء ، كذلك ضل الأبناء .. « والله لا يهدى القوم الظالمين » ..

قوله تعالى :

* « يريدون ليُطفئوا نور الله بأفواههم والله مُتم نوره ولو كره الكافرون ».

نور الله ، هو الحق الذى يحمله رسل الله ، ويبشرون به فى الناس ..

أى أن هؤلاء القوم الظالمين يريدون بافترائهم الكذب ، وتعمدهم له ـ إطفاء نور الله ، وهو القرآن الكريم ، وما يدعو إليه . .

واللام فى قوله تعالى : « ليطفئوا » هى لام العاقبة ، أى يريدون الافتراء ويحملون أنفسهم عليه ، ليطفئوا نور الله بأفواههم .. فافتراؤهم الكذب لغاية يريدونها ، هى لإطفاء نور الله .. وعلى هذا المعنى جاء قول قيس بن الملوح (مجنون ليلى) :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تَمثّلُ لى ليلى بكل سبيل

أى أريد البعد عنها ، والانفراد بنفسى فى الخلوات ، لكى أنسى ذكرها ، ولكن وجودها يصحبنى حيثما أكون ..

وفى قوله تعالى : « بأفواههم » ـ إشارة إلى الكذب والافتراء الذى تتفوه به أفواههم ، فكأن هذه الكلمات الآثمة التى تخرج من أفواههم ـ هى نَفَثات تخرج من صدور مغيظة محنقة ، ينفخون بها فى هذا المصباح الهادى ، ليطفئوا نوره ..

قوله تعالى : « والله مُتمُّ نوره ولو كره الكافرون » .. هو تعقيب على موقف هؤلاء المفترين من نور الله ، ومن دينه الذى يدعو إليه رسول الله .. فهذا النور سوف يبسط سلطانه على الآفاق كلها ، وسيبلغ به الله سبحانه وتعالى تمامَ كماله ، وإن كره الكافرون هذا ، وإن احترقت أكبادهم حسرة وكمداً ، لما

سيبلغه هذا الدِّينُ من قوة وسلطان.. وتمام نور الله إنما يكون حين يطلع على آفاق الأرض جميعها، ويبسط سلطانه على كل صُقع من أصقاعها . وهذا يعنى أن الإسلام سيكون يوماً، هو دين الله على هذه الأرض . فذلك هو تمام نور الله الذى وَعَد الله سبحانه وتعالى به .

قوله تعالى :

* « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » ..

أى أن الله سبحانه وتعالى، هو الذى أرسل رسوله « محمداً » بالهدى، ودين الحق، ليظهر هذا الدين، ويُعليه على الدين كله، وهو ما سبقه من أديان، ولو كره المشركون هذا الظهور لدين الله ..

وفى هذه الآية وعد من الله سبحانه وتعالى بنصر هذا الدين، وبسط سلطانه على كل دين، لأنه الحق، الذى بلغ بالدين غايةَ كماله وتمامه .. إنه نور الله، والله متم نوره ..

قوله تعالى :

* « يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » .

هو نداء من الله سبحانه وتعالى إلى هؤلاء المؤمنين، الذين استجابوا لله ولرسوله، ودانوا بهذا الدين، وهو دعوة لهم إلى تجارة تنجيهم من عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ..

قوله تعالى :

* « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » ..

هو بيان لهذه التجارة التي دعا الله سبحانه وتعالى المؤمنين إليها ، وأمرهم بالاتجار فيها .. وهى الإيمان بالله وبرسول الله ، والجهاد فى سبيل الله بالأموال والأنفس ..

فى هذه التجارة الربح العظيم ، والخير العميم ، الذى يقع لأيدى المتجرين بها ، لو كانوا يعلمون ما يكون لهم من ورائها ، من خير ..

ودعوة المؤمنين إلى الإيمان بالله ورسوله ، هو دعوة إلى إيمان خالص من الريب ، مبرأ من الشرك .. فليس كل من دخل فى الإيمان كان مؤمناً حقًّا ..

وسُمّى هذا الإيمان ، وهذا الجهاد ، تجارة ، لأن التجارة عطاء وأخذ ، وأعيان تُقَدّم للبيع ، وثمن يؤخذ فى مقابل هذه الأعيان .. والمؤمنون بالله ورسوله ، يقدمون أموالا وأنفساً ، ويأخذون فى مقابل ما يقدمون مايجزيهم الله سبحانه وتعالى عليه ، من رضوان ، وجنات لهم فيها نعيم مقيم .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقْتلُون ويُقْتَلون وعداً عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله .. فاستبشروا ببيعكم الله بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » (١١١ : التوبة) ..

وقوله تعالى :

* « يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكنَ طيبةً فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم » ..

هو جواب لشرط مقدّر دلّ عليه مافى الآية السابقة من الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله ، والجهاد فى سبيله .. أى إن استجبتم لهذه الدعوة التى دُعيتم إليها ـ أيها المؤمنون ـ يغفر الله لكم ذنوبكم . ويسترها عليكم ، فلا ترونها بعد أن محاها الله ، وطهّركم منها بمغفرته ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ،

ويُنزلكم فيها مساكنَ طيبة ، تَطيب لكم الحياة فيها ، فلا تتحولون عنها أبداً .. وذَلك هو الفوزُ العظيم ، الذى لايَعْدِلُه فوزٌ ، فيما عرفتم فى الحياة الدنيا . .

قوله تعالى :

* « وأخرى تحبّونها نصر من الله وفتحٌ قريب وبشر المؤمنين »

أى ولكم مع هذا الفوز العظيم بجنات النعيم فى الآخرة ـ رغيبة أخرى تحبونها ، وتتطلعون إليها ، تلك هى ما ستلقَوْن من نصر من الله ، ومن فتح قريب ، بما يفتح الله لكم فى هذه الدنيا من فتوح ، وما يمكّن لكم من نصر على أعدائكم .. وقد حقق الله للمؤمنين ما وعدهم به من نصر وفتح ، فقد انتصروا على أعدائهم من المشركين والكافرين ، وفتحوا معاقل الشرك ، ودانت لهم مواطن المشركين ، فيما وقع لهؤلاء المؤمنين من فتح خيبر ، ومن إجلاء اليهود من المدينة ، ومن فتح مكة .. ثم ما تلا ذلك من فتوح لمملكتى الفرس والروم .

وقوله تعالى : « وبشر المؤمنين » .. هو أمر سماوى من الله سبحانه وتعالى للنبى الكريم أن يبشر المؤمنين بهذا الوعد الذى وعدهم الله إياه ، وأن يكشف لهم عن مواقع هذا النصر والفتح القريب . . وقد بَشّر النبى الكريم أصحابه بما سيلقاهم على طريق الإسلام من نصر وفتح . . وفى هذا ما يُدخل الطمأنينة والرضاء على قلوب المؤمنين ، ويُمدّهم بأمداد السكينة والصبر على ما كانوا يعانون من شدة وضيق ، وما كانوا يلقون من كيد وبلاء . .

قوله تعالى :

* « يـأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرآئيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » .

هو دعوة أخرى إلى المؤمنين أن يكونوا أنصارَ الله ، بأن يُخلصوا وجودَهم كلَّه لله . . والصورة المُثْلى لهذا الإيمان ، هو إيمان الحواريين ، الذين كانوا أولَ المؤمنين بالمسيح ، وهم اثنا عشر حواريًا . . فقد سبقوا إلى الإيمان ، واحتملوا الصدمة الأولى التى صَدَم بها اليهودُ دعوة المسيح .. ومطلوب من هؤلاء المؤمنين السابقين من أتباع محمد ، أن يكونوا فى إيمانهم على هذا الإيمان ، يحتملون فيه ما احتمل الحواريون من ألوان الكيد والمكر ، ومن صنوف البلاء والشدة ..

وأنصار الله ، هم الذين ينصرون دين الله ، ويبذلون أنفسهم وأموالهم فى سبيله . .

وقوله تعالى . « فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » . . أى أنه بهؤلاء الحواريين الذين قاموا لنصر دين الله ، وبجهادهم فى سبيله ـ قد آمنت طائفة من بنى إسرائيل ، وكفرت طائفة ، كما كان الحال فى مبدأ الدعوة الإسلامية ، حيث آمن بإيمان الذين سبقوا إلى الإيمان ، وجاهدوا فى سبيل الله ـ آمن بعضُ المشركين ، وكفر بعض . . ثم كانت الخاتمة أن اندحر الذين كفروا بالمسيح ، وأصبحت للمؤمنين به الغلبة عليهم ، إلى يوم القيامة ، كما يقول الله تعالى : « يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » (٥٥: آل عمران) . . وهكذا ظل اليهود الذين كفروا بالمسيح تحت يد المؤمنين منذ المسيح إلى اليوم ، وإلى ما بعد اليوم .. سواء منهم المؤمنون بالمسيح الذين آمنوا به إلى ظهور النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أو المؤمنون الذين آمنوا برسول الله ، فهم مؤمنون كذلك بالمسيح . . وهكذا ينتصر الذين آمنوا برسول الله على الذين كفروا به ، وتكون لهم اليد العليا عليهم أبدَ الدهر .. إلى يوم القيامة .

* * *

٦٢ - سورة الجمعة

نزولها : مدنية . .

عدد آياتها : إحدى عشرة . . آية . .

عدد كلماتها : مائة وثمانون . . كلمة .

عدد حروفها : سبعمائة وعشرون . . حرفا .

مناسبتها لما قبلها

جاء فى سورة « الصف » السابقة على هذه السورة ، قوله تعالى : « وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدىّ من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » . . ثم جاء فى سورة « الجمعة » : هذه قوله تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » . . فكان ذلك تصديقاً لهذه البشرى ، وتحقيقاً لما أخبر به المسيح ، من مجىء رسول من بعده اسمه أحمد . . فهذا الرسول ، هو هذا النبى الذى بعثه الله فى الأميين ، وهو محمد صلوات الله وسلامه عليه ـ فناسب ذلك أن تجىء سورة « الجمعة » على هذا الترتيب فى المصحف ، آخذةً مكانَها بعد سورة « الصف » . . وفى هذا شاهد من شواهدَ كثيرة ، تقطع بأن ترتيب السور فى المصحف ، توقيفى من عند الله ، أشبه بترتيب الآيات فى السور . .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٤)

* « يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) »

التفسير

قوله تعالى :

* « يسبح لله مافى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ».

أى يسجد لله — تعظيما ، وولاء ، وتمجيداً — كل من فى السموات والأرض ، وإن أبى هؤلاء الكافرون والمشركون أن يكونوا فى الساجدين . . فإنهم — إن ظنوا أنهم يملكون من أنفسهم أن يخرجوا عن هذا المقام الذى ينتظم الوجود كله فى محراب التسبيح بحمد الله — فهم واهمون ، لأنهم فى قبضة الله ، وفى محيط سلطانه ، وهم بهذا خاضعون لله كرها ، وإن لم يخضعوا له طوعاً . .

« ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها » (١٥ : الرعد) .

والمَلِك : هو صاحب الملك ، المتصرف فيه كيف يشاء .

والقدوس : الطاهر ، المبرأ من كل نقص .

قوله تعالى :

* « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

هذا التسبيح الذى تسبح به السموات والأرض لله رب العالمين ، هو وإن كان دائماً لا ينقطع ، إلا أنه هنا تسبيح خاص فى مواجهة هذه النعمة العظيمة التى أنعم الله بها على أهل الأرض ، وهى بَعثة الرسول عليه الصلاة والسلام بالهدى ودين الحق .

والأميون هم العرب ، وسُمّوا أميين ، لأنه لم يكن لهم كتاب سماوى ، وكان اليهود يُطلقون على جميع الأمم لفظَ الأميين بالإضافة إليهم هم .. يريدون بهذا أن يمتازوا على الناس ، بأنهم هم الذين خاطبتهم السماء ، وبُعثت فيهم الرسل ، وأنزلت عليهم الكتب .. أماغيرهم من سائر الأمم فلم يكونوا أهلاً لأن يُخاطبوا من الله ، وأن يتلقوا رسالاته .. وبهذا صحّ فى زعمهم أن يدّعوا هذه الدعوة الضالة ، وهى أنهم شعب الله المختار .. فلقد كانت هذه الدعوى شؤماً وبلاء عليهم ، إذ عزلتهم عن المجتمع الإنسانى ، وأقامتهم فى الحياة الإنسانية مقاماً مضطرباً ، لا يلقاهم الناس ، ولا يلقوْن هم الناس ، إلاّ على عداوة وجفاء .

ففى قوله تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم » امتِنَانٌ على الأمة العربية ، بهذا الفضل الذى ساقه الله سبحانه وتعالى إليهم ، وردٌّ على اليهود ، و إبطال لدعواهم بأن الله اختارهم على العالمين .. واختصهم بفضله وإحسانه . .

فالأمية التى وُصف بها العرب هنا هى أمية من نوع خاص ، وهى أميةُ مَن لا كتاب لهم من عندالله . وإن كان هذا لا يمنع من تفشّى الأمية فيهم ، وهى أميةُ الجهل بالكتابة والقراءة .. وذلك أن الدِّين كان هو الباعثَ الأول على العلم ، وعلى تعلم القراءة والكتابة ، وأن أصحاب الكتب السماوية هم الذين كانوا

يُقبلون على العلم ، وعلى مدارسة الكتب السماوية وما يتصل بها ..

وفى قوله تعالى : « رسولاً منهم » — إشارة إلى أن هذا الرسول الذى بعثه الله سبحانه وتعالى إلى العرب ، كان واحداً منهم ، أى من هؤلاء الأميين ، وليس من أهل الكتاب .. وهذا يعنى أن هؤلاء الأميين هم أهلٌ لأن تُختار منهم رسل الله ، كما هم أهلٌ لأن يتلقوا رسالات الله ، وتنزل إليهم كتب الله ..

وقوله تعالى : « يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة — » هو صفة للرسول صلوات الله وسلامه عليه ، تبيّن محاملَ رسالته إلى العرب ، ومنهجَ دعوته لهم .. فهو يتلو عليهم آيات الله ، أى يُسمعهم إياها ، ويلقيها على أسماعهم مشافهةً منه . . إنه هو الذى يتولى تبليغ رسالة ربه بنفسه ، لا بوساطة كتب ، أو رسل .. فما دام هو بين قومه ، فهو الذى يلقى الناسَ برسالة ربه ، وينقلها إليهم كما تلقاها وحياً من السماء ، وهو بهذه التلاوة لآيات الله ، إنما يريد أن يزكّى قومه ، أى يطهرهم من الشرك ، ومن ضلالات الجاهلية وأرجاسها .

وهو — صلوات الله وسلامه عليه — « يعلمهم الكتاب والحكمة » أى أى يبين لهم ما فى كتاب الله من شرائع وأحكام ، كما يقول الله سبحانه : «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ويعلمهم كذلك « الحكمة » وهى السنّة التى يبين بها الرسول ما فى كتاب الله . . وسميت السُّنة حكمة ، لأنها مستفادة من كتاب الله ، ومن النظر الملهم فى آياته وكلماته . . فليس كل ناظر فى كتاب الله قادراً على أن يتلقى الحكمة عنه .. وإنما رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هو الذى أخذ الحكمة كلّها من كتاب الله ، بما أراه الله . .

وفى هذا دعوة للعرب والمؤمنين بهذا الدين ، أن يتعلموا الكتاب والحكمة ، وذلك بمدارسة كتاب الله ، إذ كان هو الكتاب الجامع لكل ما فى الكتب ، من سماوية وغير سماوية ، فمن جعل همّه له ، ووجه عقله وقلبه إليه ، أصاب العلم

الجامع ، والحكمة المشرقة ، وهذا من شأنه أن يجعل من أمة الإسلام ـ لو أنهم استجابوا لدعوة الله هذه ـ موطنَ العلم ، ومعدِنَ الحكمة ، وأن تكون لهم أستاذية الإنسانية فى العلم وفى الحكمة .

وقوله تعالى : « وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » ـ هو بيان لحال العرب، حين جاءهم الرسول الكريم، يعلمهم الكتاب والحكمة. فقد كانوا قبله فى ضلال غليظ ، وفى عمًى مطبِق ، ومع ذلك استطاع هذا النور السماوى الذى حمله الرسول إليهم ـ أن يفتح به عيونا عمياً ، وآذاناً صما ، وقلوباً غلفاً ، فأبصروا من عمًى ، وسمعوا من صمم ، وفقِهوا من جهل ، وأصبحوا علماء حكماء .. وهذا يعنى أن الاتصال بكتاب الله ، من شأنه أن يفيد منه كل إنسان ، ولو كان أبعدَ الناس عن العلم والحكمة ، شأنه فى هذا شأن الغيث ، يبعث الحياة حيث كان موقعه ، فى خصب أو جدب.

قوله تعالى :

* « وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم » .

هو معطوف على « الأميين » أى هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، أى من العرب، وفى آخرين من الأميين ، من غير العرب ، وهم سائر الأمم الأخرى .

وهذا يعنى أن رسالة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ـ وإن كانت للعرب أولا ، فإن لغيرهم فيها نصيبهم منها ،فهى رسالة عامة شاملة لكل الناس . . ثم إن هذا يشير من جهة أخرى إلى أن اليهود لا نصيب لهم فى هذه الرسالة لأنهم ليسوا من الأميين .. وهذا ما كشفت عنه الأيام ،فقد دخل الناس الإسلامَ من كل أمة وجنس،وأما اليهود فلم يدخله منهم إلا نفر قليل .. على نفاق ، وعلى كيد للإسلام . . فما آمن أحد منهم بالإسلام ـ مذ كان إلى اليوم ـ إيمانا خالصاً من هوًى ، أو مبرّأ من غرض .

وفى قوله تعالى : « لمّا يلحقوا بهم » . . إشارة بظهر الغيب إلى هؤلاء الآخرين الذين سيُلحقون بالعرب فى الدخول فى الإسلام ، والذين لم يكونوا قد دخلوا بعدُ ، عند نزول هذه الآية . .

وقد رُوى أن بعض صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سألوه عن هؤلاء الآخرين ، وكان فيهم سلمان الفارسىّ ، فوضع صلوات الله وسلامه عليه ، يدَه على سلمان ، ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريّا لتناوله رجال من هؤلاء » . . والإشارة هنا هى للفرس، قوم سلمان الفارسى ، والمراد بكون الإيمان عند الثريّا وتناول الفرس له ، أن الإسلام سيدخل فيه مَن كان بعيداً عن موطن الدعوة بُعدَ الثريّا ، وهذا يعنى امتدادَ رقعة الإسلام، وامتداد سلطانه فى أطراف الدنيا . . وهذا من أنباء الغيب ، التى أوحاها الله إلى النبىّ ، فقد دخلت فى الإسلام طوائف وجماعات من جميع الأمم .

وقوله تعالى : « وهو العزيز الحكيم » . . إشارة إلى سلطان الله الغالب، وأنه سينصر هذا الدين ، ويُعزّه ، باجتماع الناس إليه من جميع الأمم والأجناس ، وأن ذلك إنما يكون عن حكمة الحكيم العليم، فيدخل فى هذا الدين من شاء له الهُدَى والنجاة . .

قوله تعالى :

* « ذلك فَضْلُ الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

« ذلك » إشارة إلى بعث الرسول الكريم إلى الأميين من العرب، وهذا من فضل الله ، الذى يؤتيه من يشاء من عباده ، والله ذو الفضل العظيم ، الذى يسع فضلُه الناس جميعاً ، وأنه إذا أصاب فضلُه قوماً ، فليس بالمحجوز عن غيرهم . .

الآيات : (٥ — ٨)

* « مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « مَثَل الذين حُمِّلوا التوراةَ ثمَّ لم يَحْملوها كمثل الحمارِ يحمل أسفاراً بئس مَثَلُ القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة أشارت إلى الأميين الذين يتعالى عليهم اليهود ، الذين رأوا فيما أنزل الله عليهم من كتب ، وبما بعث فيهم من رسل — أنهم قد اختُصّوا بفضل الله، من دون الناس جميعاً، وقد جاءت الآيات لتُبطل زعمهم هذا ، فقد بعث الله فى الأميين رسولاً ، وأنزل عليه كتاباً يتلوه عليهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ثم إنه سبحانه ، لم يجعل هذا الفضل ، وتلك الرحمة إلى العرب وحدهم ، بل جعل ذلك للأميين جميعاً من العرب وغير العرب — ثم جاء قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة »

الآية » ـ جاء مخزياً اليهودَ ، ومبطلاً ادعاءهم ، بأنهم قد استأثروا بفضل الله . .

ونعم ، إن الله قد ساق إليهم فضلاً ، وأنزل إليهم التوراة فيها هدًى ونور . . ولكن ليس كلُّ مَن كانت بين يديه نعمة ، مستفيداً منها ، بل إنه كثيراً ما تكون النعمة نقمه حين لا تجد من يحفظها ، ويرعاها حقَّ رعايتها . . إنها تكون حينئذ أشبه بالغيث يقع على الأرض السبخة فلا تستجيب له ، ولا تتفاعل معه ، وسَرْعان ما يفسد ، ويتحول إلى ماء آسنٍ ، ينبث فى أحشائه الهوامّ والديدان . .

وهؤلاء اليهود ، قد حُمّلوا التوراة ، وكلّفوا العمل بها ، ولكنهم لم يحسنوا العمل ، بل اختلفوا فيها ، وتأولوها تأويلاً فاسداً . . فكان مثلهم فى هذا كمثل الحمار ، يحمل كتباً ، تُثقل ظهره ، وتصبح علةً ملتصقة به ، دون أن يفيد منها شيئاً . .

وفى تشبيه اليهود ـ حملة التوراة ـ بالحمار الذى يحمل أسفاراً ، ما يكشف عن طباع هؤلاء القوم ، وعن بلادة حسّهم ، وعن قبولهم الهوان والذّلة ، وأنهم فى هذه الدنيا أشبه بالحمُر ، يسخرها الناس للحمل والركوب . . فالحمار من بين حيوانات الركوب جميعاً ، أكثرها هواناً على الناس ، وأخسّها مطيةً للركوب . . لا يتخذه كِرام الناس مركباً لهم . . وفى هذا يقول الشاعر :

ولا يقيم على ضيمٍ يرادُ به ... إلاّ الأذلاّنِ عَيْرُ الحىّ والوتَدُ

هذا الخسف مربوطٌ برُمّته ... وذا يُشجّ فلا يَرثى له أحدُ

ولا يغترنّ أحدٌ بما يبدو فى ظاهر الأمر من أحوال اليهود ، ومن ظهور بعض العلماء فيهم ، ومن تمكنهم من كثير من المرافق العاملة فى الحياة ؛ فهذا كله ثمن للهوان الذى استساغوا طعامه ، تماماً كما يُزيّن بعضُ الحمير أحياناً

بألوان من الزينة ، بما يُصطنع له من سُرُج القطيفة ، ولُجُمُ الفضة ، فلا يرفع ذلك من قدره ، ولا يخرجه من بنى جنسه . . فهو « الحمار » أيًّا كانت الحِلية التى يتحلّى بها . .

وإنه لو وَضع أعلم اليهود ،علمَهُ تحت نظر فاحصٍ دارِس ، لما رأى منه الناظر إليه إلاّ غباء وجهلاً ، وإن هذا العلم مهما بلغ لا يعدو أن يكون ثوبًا اختطفه ،أو سَرَقه ، أو ألقى به عليه غيره ، ممن لا يريد أن يظهر فى الناس بهذا العلم ، الذى كثيراً ما يكون منحرفاً ، مصادماً للعقائد ، والأخلاق .

وقوله تعالى : « بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله » ـ أى بئس هذا المثل ، وهو الحمارُ ، مثلاً لهؤلاء القوم الذين كذبوا بآيات الله .

وقد وقع الذمّ على المَثَل ، ولم يقع على الماثِل ، وفى هذا مبالغة فى الذمّ الماثِل ، لأن الذى وقع عليه الذم إنما استحق الذّم فى هذا المقام بسبب من مُثّل به . . فكأن هذا الشىء المذموم لم يكن مذموماً حتى اقترن بهذا الممثّل به ، فأصابه منه هذا البلاء الذى استوجب ذمّه .

وقوله تعالى : «والله لا يهدى القوم الظالمين »ـ إشارة إلى أن هؤلاء القوم إنما تخبطوا فى الضلال ، وعَمُوا عن الانتفاع بما فى التوراة التى يحملونها ، لأنهم كانوا ظالمين ، معتدّين حدود الله ، فتركهم الله فى ظلمات يعمهون .

قوله تعالى :

* « قل يـأيها الذين هادوا إن زعمتم أنـكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموتَ إن كنتم صادقين » ..

الذين هادوا ، هم اليهود ، وأصله من الهَوْد ، وهو الرجوع برفق ، وسمى

اليهود يهوداً ، لأنهم رجعوا إلى الله تائبين ، بعد أن عبدوا العجل ، كما جاء فى فى قوله تعالى على لسان موسى « واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنةً وفى الآخرة إنّا هُدْنا إليك » (١٥٦ : الأعراف) ..

ثم لزمهم هذا الاسم ، ولعنهم الله وهم معروفون به ..

فالخطاب فى الآية الكريمة موجّه من النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى اليهود ، بأمر ربه ، ليقول لهم : إن صحّ مازعمتموه ، من أنكم أولياء لله من دون الناس ، وأن الله سبحانه وتعالى قد اختصكم بالفضل والإحسان ، حتى لقد قلتم إنكم أبناء الله وأحباؤه - إن صحّ زعمكم هذا ، فتمنّوا الموت واطلبوه ، إن كنتم صادقين فيما تزعمون .. فإن هذا الموت سيصير بكم إلى الله الذى تزعمون أنكم أولياؤه وأبناؤه وأحباؤه .. والولىّ إنما يشتاق إلى لقاء وليّه ، والابن إنما يسعى إلى لقاء أبيه ، والحبيب إنما يشوقه لقاء من أحب .. فلِمَ لا تتمنوْن الموت ، ولا تطلبونه ، وهو السبب الذى يصلكم اتصالا مباشراً بالله ، الذى تزعمون أنكم أولياؤه وأحباؤه من دون الناس !

إن هذا ادعاء كاذب منكم ، ونفاق تنافقون به أنفسكم ، إذ لو كنتم مؤمنين بما تزعمون ، لما فزعتم من الموت ، ولما حرصتم على الحياة هذا الحرص الذى جعل منكم أجبنَ الناس ، وأشدهم فراراً من لقاء العدو ..

وفى هذا يقول الله تعالى : « ولتجدنّهم أحرصَ الناس على حياة ومن الذين أشركوا يودّ أحدُهم لو يعمّر ألفَ سنة » (٩٦ : البقرة) ..

وهذا لايكون إلا من إنسان يرى الموت نهايةً لوجوده ، أو يرى أن وراء الموت أهوالا تنتظره ، بما قدمت يداه من آثام ..

قوله تعالى :

* « ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » ..

هو بيان للعلة التي من أجلها يحرص اليهود على الحياة ، ويفزعون من الموت ، وأنهم لايتمنون الموت أبداً ، لما يعلمون من أنفسهم أنهم على ضلال، وأنهم لن يجدوا فى الآخرة إلا البلاء والهوان . . شأنهم فى هذا شأن إبليس الذى يعلم أن مصيره إلى عذاب الله ، وأنه إنما سأل الله أن ينظره ، وأن يؤخر عنه العذاب الذى توعده به، فراراً من هذا العذاب ، ودفعاً له من يومه إلى غده .

قوله تعالى :

* « قل إن الموت الذى تفرّون منه فإنه ملاقيكم ثم تُرَدّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

أى أن هذا الموت الذى تحذرونه ، وتفرون من ملاقاته ، هو ملاقيكم حتما ، ولن تفروا منه أبداً .. ثم إنّ وراء هذا الموت رجعةً إلى الله ، وحساباً ، وعقاباً ، وسترون أعمالكم المنكرة حاضرةً بين أيديكم ، وسينزل بكم العذاب الذى أنتم أهلٌ له . .

الآيات : (٩ — ١١)

* « يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا

أَنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَارَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ (١١) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « يـأيها الذين آمنوا إذا نُودِى للصلاة من يوم الجمعة فاسْعَوْا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلـكم خير لـكم إن كنتم تعلمون » .

مناسبة هذة الآية لما قبلها ، هى أن السورة قد بدأت بذكر هذه النعمة العظيمة التى أنعم الله بها على المؤمنين ، إذ بعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آيات الله ، ويزكيهم ، ويعلمهم الـكتاب والحـكمة . . وهـذه النعمة العظيمة لا تثمر الثمر الطيب الذى تحمله إلا اذا صادفت من يرعاها ، ويعرف قدرها ، وإلاّ انقلبت هذه النعمة نقمة على أهلهـــا ، فحوسبوا على تضييعها ، ووقعوا تحت طائلة العقاب الأليم ، كما وقع ذلك لليهود الذى حمّلوا التوراة ، ثم لم يحملوها ، فـكان مثلهم مثل الحمار يحمل أسفاراً ، وقد أوعدهم الله سبحانه بما توّعد به الظالمين ـ فناسب أن يجىء بعد هذا ، أن يُنَبِّه المسلمون إلى ما ينبغى أن يكون منهم لرعاية هذه النعمة التى أنعم الله بها عليهم ، وكان أولَ ما نُبِّهوا إليه ، هو الصّلاة ، إذ كانت الصلاة عمادَ الدين ، وكانت الركنَ الأول من أركانه ، بعد الإيمان بالله . . وإذ كانت صلاة الجمعة أظهر صلاة فى أيام الأسبوع، لأنها الصلاة الجامعة ، التى لا تصحّ إلا فى جماعة ـ فقد كان الإلفـاتُ إليها إلفاتاً إلى الصلوات المفروضة كلّها .

وقوله تعالى : « إذا نودى للصّلاة » أى إذا جاء وقتها ، وأذّن المؤذن بها.

وقوله تعالى : « فاسعوا إلى ذكر الله » أى بادروا وأسرعوا إلى ذكر الله ، أى الصلاة ، لأنها تذكّر بالله ، وتصل العبد بربه . . ومِن ذكر الله فى صلاة الجمعة ، « الخطبةُ » وما فيها من عظات تذكر بالله .

وقوله تعالى : « وذروا البيع » أى اتركوا البيع ، والشراء ، وكلّ ما يَشْغلكم من عمل . . حتى تفرُغوا للصلاة ، جسداً ، وروحاً .

وقوله تعالى : « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » الإشارة إلى السعى للصلاة ، وترك كل ما بين يدى الإنسان من عمل . . فذلك السعى خيرٌ من كلّ ما كان يحصّله الإنسان من عمله الذى بين يديه ، وذلك مما لا يعلمه ، ويعلم قدرَه إلا أهلُ العلم ، من المؤمنين ، المستيقنين من واسع الفضل ، وعظيم الإحسان ، عند الله .

قوله تعالى .

* « فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » .

هو دعوة إلى العمل ، وإلى السعى إليه ، كما سَعَى المؤمنون إلى الصلاة . . فالسعى إلى العمل ، أداء لحقّ النفس ، وحقّ الأهل والولد ، كما أن السعى إلى الصلاة أداء لحق الله سبحانه وتعالى ، وكِلا الحقّين واجب الأداء ، فمن قصّر فى أحدهما ، حُوسب عليه حسابَ المقصّرين .

وفى قوله تعالى : « فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » دعوة إلى أن يملأ المسلمون وجوه الأرض ، سعياً وعملاً ، وأن يأخذوا بكلّ ما يمكن لهم منها ، ويقيم لهم فيها المقامَ الكريم ، وألا يقْصرُوا جُهْدهم على جانب منها ،

أو فى ميدان من ميادينها ، بل ينبغى أن يكون لهم فى كل ميدان مجال ، وفى كل موقع عمل . .

وفى الدعوة إلى الانتشار فى الأرض بعد الاجتماع بين يدى الله فى الصلاة ـ فى هذا جمعٌ بين العبادة والعمل ، وبين ذكر الله والسعى فى الأرض . . فقد جاءت الدعوة من الله سبحانه لصلاة الجمعة ، موجهةً إلى مَن هم مشغولون بالعمل ، ساعون لطلب الرزق ، وإن كانت الدعوة عامة إلى كل من تجب عليه صلاة الجمعة .. ثم جاء الأمر إلى هؤلاء الذين حضروا الصلاة ـ أن ينتشروا فى الأرض ، ويبتغوا من فضل الله ، بعد أن تزودوا بهذا الزاد الطيب من ذكر الله ، وبذلك يستقيم لهم الطريق ، وتُفتح لهم أبواب الرزق الطيب المبارك .

وفى قوله تعالى : « واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » — إشارة إلى هؤلاء المنطلقين للعمل ، الساعين إلى الابتغاء من فضل الله ، أن يذكروا الله دائماً ، وأن يستحضروا جلاله وعظمته ، فى كل حال ، لا فى وقت الصلاة .. ففى ذلك فلاح أى فلاح ، حيث يجد الذاكر لله سبحانه وتعالى ، حارساً يحرسه من وساوس الشيطان ، وأهواء النفس ، فلا يتعثر ، ولا ينحرف ، ولا يَزِلّ .

قوله تعالى :

* « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضّوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين » .

اللهو : ما يَشغل الإنسان من هزل الأمور عن جِدّها . . والانفضاض : التفرّق فى عجلة ، وفى غير نظام .

٦٣ - سورة «المنافقون»

نزولها : مدنية

عدد آياتها : إحدى عشرة . آية

عدد كلماتها : مائة وثمانون . . كلمة

عدد حروفها : سبعمائة وستة وسبعون . . حرفا

مناسبتها لما قبلها

كان ختام سورة «الجمعة» كاشفاً عن وجه من وجوه المنافقين ، الذين كانوا يشهدون صلاة الجمعة مع النبيّ ، حتى إذا سمعوا لهواً ، أو أحسّوا قدوم تجارة ، أسرعوا إلى هذا اللهو ، أو تلك التجارة ، دون أن يشعروا بأنهم بين يدي النبيّ ، وفي مقام ذِكر الله .. لأن قلوبهم خالية من هذه المشاعر التي تصلهم بالله ، وبرسول الله .. إنهم ما جاءوا رغبةً في مرضاة الله ، ولا شهوداً لذكر الله ، وإنما جاءوا حتى يراهم المؤمنون أنهم على الإيمان بالله ، مداراةً لنفاقهم ، وستراً لكفرهم .. ثم إنهم ما إنْ تَهُبّ عليهم سحابةُ ريح من أي اتجاه ، حتى تُعرّيهم من هذا الثوب الزائف الذي لبسوه ، ودخلوا به في زمرة المؤمنين ـ وقد ناسب ذلك أن تجيء سورة المنافقين ، في أعقاب سورة الجمعة لتكشف عن أكثر من وجه من وجوه النفاق .. كما سنرى ذلك ، فيما حدّثت به السورة عن النفاق والمنافقين .

هذا ، ويلاحظ أن ما جاء في ختام سورة « الجمعة » عن المنافقين قد جاء تلميحاً .. وأن ما جاءت به سورة « المنافقين » عنهم ـ كان تصريحاً يكشف عن هذا التلميح .. وهذا من أروع وأعجب ما يُرى من إعجاز القرآن ، حيث يمسك ختام سورة« الجمعة» ، وبدء سورة« المنافقين» بالصورة الكاملة للمنافقين ، في ظاهرهم وباطنهم جميعاً .. فهم في الظاهر مؤمنون ، يشهدون مشاهد المؤمنين في الصلاة وغيرها ، وهم في الباطن منافقون ، كاذبون !

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٦)

* « إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ (٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » ..

أى أن المنافقين ، إذا جاءوا إلى النبي ، وحضروا مجلسه ، نَطَقَتْ ألسنتُهم بغير ما فى قلوبهم ، وقالوا للنبي من غير أن يُطلب منهم قول ، وشهدوا من غير

أن يُسْتَدْعوا للشهادة ــ « إنك لرسول الله » ــ مؤكدين هذا القول بأكثر من مؤكِّد. وفى هذا كله ما ينطق عن أنهم كاذبون منافقون .. فالمؤمن إيمانا حقّا، لا يجد فى نفسه ما يحمله على أن يُعلن فى كل وقت، عن إيمانه. فهو منذ آمن عُرِف فى الناس بأنه من المؤمنين، فلا يحتاج بعد هذا إلى أن يُردّد على الأسماع، مبادئا كلّ من يلقاه، بأنه مؤمن .. ثم إن الصادق فى قوله لا يحتاج إلى أن يبرر صدقه بالحلف، أو توكيد ما يخبر به، وإنما يفعل ذلك مَن هو متهم ــ فيما يخبِر به ــ عند نفسه، متّهمَ عند الناس، وأنهم يرون منه حقيقة ما يراه فى نفسه.

والمنافقون، لا يؤمنون بأن الرسول هو رسول الله، ولو كانوا على الإيمان بأنه رسول الله لما وقع النفاق فى قلوبهم .. ولهذا ــ فهم لكى يبرئوا أنفسهم من تهمة النفاق ــ التى يتهمون بها أنفسهم قبل أن يتهمهم أحد ــ يبادرون إلى لقاء النبى، مؤكدين له بأنهم يشهدون أنه رسول الله: « إنك لرسول الله » !!

وقد رَدّ الله سبحانه عليهم شهادتَهم تلك ــ وإن كانت تقول الصدق ــ لأنها خرجت من أفواه لا تقول إلا الزور من القول، وأن كلّ قول تقوله، إذا كشف عن حقيقته، وأزيل عنه هذا الطلاء الزائف ــ كان سرابا خادعا .. ولهذا جاء قوله تعالى: « والله يعلم إنك لرسوله » ليقيم مكان قولهم الزائف قولة الحق، من الحق سبحانه وتعالى فى رسوله .. ولهذا أيضا وقع التطابق اللفظى بين قولهم: « إنك لرسول الله » وقوله تعالى: « إنك لرسوله » .. « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » ..

وقوله تعالى: « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » ــ هو فى مقابل قولهم: « نشهد إنك لرسول الله » .. فقد شهد الله عليهم بأنهم كاذبون فى

حقيقة ما يقولون ، إذ كان ما يقولونه على خلاف ما يعتقدون ، وكان ما يجرى على ألسنتهم مكذِّباً لما فى قلوبهم ..

قوله تعالى :

* « اتخذوا أيْمانهم جُنّة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون » ..

الجنة : السِّتر الذى يَجُنّ ، أى يَسْتُر من يَستجنّ به .. وبه سمى الدرع مِجَنًّا ، لأنه يحمى لابسه من أن تناله الطعنات فى الحرب .. ومنه الجنون ، لأنه يستر عقلَ صاحبه من أن يرى حقائق الأمور ..

أى أن المنافقين ـ لِمَا يشعرون به من أنهم كاذبون فيما يقولون ـ يحاولون دائماً أن يبرروا أقوالهم ويزكوها بالحلِف، كى تقع من النفوس موقعاً ، ولو أنهم كانوا صادقين فيما يقولون ، لما لزمهم أن يحلفوا ، لأن الصدق مستغنٍ بذاته عن أى مبرر يبرره ، ويُنزله منزلته من العقول والقلوب ..

وقوله تعالى : « فصدوا عن سبيل الله » ـ هو تعقيب على قوله تعالى : « اتخذوا أيمانهم جُنة » والفاء للسببية ، أى أنهم بسبب ما نسجوا للكذب من أيْمان فاجرة ، بَدَا لهم أن هذا النسيج يستر نفاقهم ، ولهذا صَدّوا عن سبيل الله ، واتخذوا سبيلاً غير سبيل المؤمنين ، وهم على ظنٍّ بأن أحداً لن يراهم ، على غير طريق الإيمان، وهم مستجنّون بهذه الأيْمان التى بذلوها بسخاء، فى معرض الإخبار عن أنهم مؤمنون بالله ورسوله ..

وقوله تعالى : « إنهم ساء ما كانوا يعملون » — هو حكم من الله سبحانه وتعالى على أعمالهم ، بأنها أعمال سيئة ، لا تُعقب إلا سوءاً ، ولا تجرّ على أصحابها إلا الحسرة والندامة ..

وقد وقع الوصف بالسوء على الأعمال ، لأن الأعمال هى التى تَظْهر على محكّها الأقوال .. أما الأقوال ، فما أكثر ما تخالفها الأعمال .. فقد يكون القول فى ظاهره حسناً جميلا ، على حين يكون العمل من ورائه سيئاً خبيثاً .. وإنه لن يكون عمل طيب ، إلا وكان معه القول الطيب ! لأن القول أخفّ مئونة من العمل ، ولهذا كانت الأعمال ، هى مناط الحساب والجزاء ..

قوله تعالى :

* « ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » .

أى ذلك النفاق الذى فيه هؤلاء المنافقون ، هو بسبب أنهم آمنوا ، ودخلوا فى تجربةٍ مع الإيمان ، فلم يجد له مكاناً فى قلوبهم ، فلفظوه كما تلفظ المعدة المريضة الطعامَ الطيب ، وبهذا رجعوا إلى الكفر الذى لم تبعد الشُّقة بينهم وبينه .

وقوله تعالى : « فطُبع على قلوبهم » أى خُتم على قلوبهم بأنها لا تقبل الإيمان ، ولا تستجيب له ، فقد امتُحنت من قبل بالإيمان امتحاناً كشف عن معدنها ، وأنها لا تلتقى بالإيمان ، ولا تسكن إليه ..

إن من يلتقى بالإيمان يوماً ، ويعيش معه زمناً ، ثم يفارقه ـ لن يكون بينه وبين الإيمان لقاء على مودة أبداً . . ذلك أن القلب الذى يدخله الإيمان ، ثم يخرج منه ـ لن يعود إليه بحال ، إنه فراق إلى غير لقاء .. وهذا يعنى أن الإيمان سهل المورد لمن هو من أهله ، أما من لم يكن من أهل الإيمان فلن يقبله ، وإن قبله فإنه سَرْعان ما يرفضه ، لأنهما على طبيعتين مختلفتين . وهيهات أن يقع ائتلاف بين ما اختلف من الطبائع أصلا . .

وأما ما جاء فى قوله تعالى : « إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديَهم سبيلا » (١٣٧: النساء) — فإنه يشير إلى هذا التردّد بين الإيمان والكفر من بعض النفوس ، التى تكون على طبيعة ليست على الإيمان ، ولا على الكفر ، وإنما هى خليط منهما ، يتنازعها الإيمان مرة ، والكفر مرة ، حتى تستقر على أىّ منهما .. وهؤلاء الذى آمنوا ، ثم كفروا ، ثم آمنوا ، ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفراً ــ إنما هم الذين غَلَبَ جانبُ الكفر فيهم جانبَ الإيمان ، ورجحت فيهم كفته ، فانتهى أمرهم إلى كفر غليظ ، بعد هذه المعاناة ، وتلك التجربة المتعددة .. وأما من ينتهى بهم هذا التردد إلى الإيمان ، فإنهم ينتهون إلى إيمان ثابت راسخ ، كما انتهى المترددون قبلهم إلى كفر غليظ .

وقوله تعالى : « فهم لا يفقهون » أى أنهم بسبب هذا الطبع الذى طبع به على قلوبهم بعد خروج الإيمان منها بعد أن دخلها — إنهم بسبب هذا الطبع ، لا يفقهون حقيقةَ الإيمان بعد هذا ، ولا تنفتح له مغالق قلوبهم . .

قوله تعالى :

* « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خُشُب مسنّدة يحسبون كل صيحة عليهم .. هم العدو فاحذرهم .. قاتلهم الله أنى يؤفكون » .

هذه صورة المنافق تمثل ظاهره ، وباطنه جميعاً ..

فالمنافق متجمل فى ظاهره ، مجتهد فى تزويق هذا الظاهر ، وفى طلائه بالألوان الزاهية ، حتى يخدع الناس عن باطنه الذى يعلم هو فساده أكثرَ مما يعلم الناس منه .. ولهذا فهو يبالغ فى تسوية مظهره ، وفى تجميله حتى يستر بهذا الزيف ما يخفى باطنُه ، وحتى يغطّى بهذا البخور الذى يطلقه على هذا العفَنَ الذى يفوح منه ..

فقوله تعالى : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم » .. بيان لما تقع عليه العين

من ظاهر المنافقين، فيما يبدو من تسوية هندامهم، وحُسن زِيِّهم..

وقوله تعالى: «وإن يقولوا تَسمعْ لقولهم» — بيان لما يتجمّل به حديثُهم، من طَلاَوة الأسلوب، وتأنق العبارة، ورقة اللفظ.. وهذا ضرب من الخداع والتزييف، حيث يُدَسّ السمُّ فى العسل، وحيث تروج العملة الزائفة بلمعانها وبريقها..

وقوله تعالى: «كأنهم خُشُب مسندة» — إشارة إلى أن هذا الذى يبدو من المنافقين من حسن المظهر، ورقة الكلام، ونعومة اللفظ ـ لا يعدو هذا الظاهرَ من القوم.. إنهم أشبه بالخشب المسندة، لا حياة فيها، ولا وزن لها، وإن زينت بالحلى، وكسيت بالحرير.. ثم إن المنافقين، وإن بدَوْا فى ظاهرهم على صورة واحدة، فإنهم فى حقيقتهم، أشتات متفرقون، لا تجمعهم مشاعر الودّ، ولا تؤلف بينهم صلات هذا المعتقد الفاسد الذى يَدِينون به.. تماماً كالخشب المسندة، كل كتلة منها قائمة إلى جوار غيرها، لا تشعر بها، ولا تحس بوجودها.

وقوله تعالى: «يحسبون كل صيحة عليهم» — هو وصف كاشف لما يموج به باطن المنافقين من وساوس، وتصورات، لا تقيمهم أبداً إلا على فزع، وتخوف، لأنهم دائماً متلبسون بجرائمَ من الكذب والبهتان، فهم لهذا مطاردون من أنفسهم، يريدون الإفلات من قبضة هذه المشاعر المستولية عليهم، ولهذا أيضاً تراهم على حَذَر، وتوقّع لتلك الأيدى الكثيرة الممتدة إليهم، تحاول أن تدهمهم فى أية لحظة.. «يحسبون كل صيحة عليهم».. سواء اتجهت إليهم أو لم تتجه، وسواء أكانوا هم المقصودين بها أم غيرهم.. وهكذا المجرم، لا يفارقه أبداً وجه جريمته، فى يقظة أو منام..

كأن فجاج الأرض وهى عريضة
على الخائف المكروب كِفّةُ حابل

وقوله تعالى : « هم العدوُّ » خبر كاشف عن حقيقة هؤلاء المنافقين ، وأنهم على ما يبدو منهم، من ظاهر مغلّف بالتلطف والتودّد ـ هم العدوّ ، الذى تتجسم فيه العداوة كلها ، حتى لكأنهم العدوّ وحدهم للنبىّ ، دون الناس جميعاً . .

وقوله تعالى : « فاحذرهم » هو تعقيب على هذا الخبر عن المنافقين ، وأنه إذ عُلم أنهم هم العدوّ الذى يخفى وراء ظاهره ، كيداً ، ويضمر فى باطنه سوءا ـ فيجب الحذر منهم ، والحيطة من الأمان لهم ، والاتهام لكل قول يقولونه ، أو ودّ يظهرونه . .

وقوله تعالى :« قاتلهم الله » .. هو دعاء عليهم ، يحمل التهديد لهم من الله سبحانه وتعالى ، بأنهم فى معرض النقمة من الله ، وأن حرْباً من الله أعلنت عليهم ، وأنه ليس وراء حرب الله لهم إلاّ الهلاك المبير ، والخسران المبين . .

وقوله تعالى : « أنّى يؤفكون » استفهام يراد به الإنكار عليهم لهذا الطريق الذى أخذوه إلى مواقع الضلال . . أى كيف يُصرفون عن الحق إلى الباطل ، وعن الهدى إلى الضلال .

قوله تعالى :

* « وإذا قيلَ لهم تعالَوْا يَسْتَغْفر لكم رسولُ الله لوّوْا رءوسهم ورأيتهم يَصُدُّون وهم مستكبرون » .

أى أن من أمارات هؤلاء المنافقين ، أنهم إذا دُعوا إلى طريق الحقّ نفروا، وإذا نصَح لهم ناصح بأن يعرضوا أنفسهم على رسول الله ليستغفر لهم ـ « لوّوْا رءوسهم » . . أى أداروا رءوسهم ، يميناً وشمالا ، فى حركة مجنونة ، حتى

لكأنهم إنما يتعاطون شرابا مرا لا يجدون له مساغا . . ثم إنهم لا يقفون عند هذا الذى كان من لَىِّ رءوسهم عند سماعهم لدعوة من يدعوهم إلى رسول الله ليستغفر لهم . . بل إنهم بعد أن تذهب عنهم آثار هذه الصدمة ، يأخذون طريقا غير الطريق المتجه إلى الرسول ، ويُمعنون فى الصدود والخلاف ، عنادا واستكبارا .

وقد يبدو من العجب أن يجتمع الكبر ، والجبن ، فى كيان المنافقين . . ولكن مع قليل من النظر ، يتضح أن هذا هو التركيب الطبيعى للمنافق ، الذى لا يكون محققا لصفة النفاق حتى يجمع بين المتضادات . . الإيمان ، والكفر . . الصدق باللسان ، والكذب بالقلب . . الظاهر الحسن ، والباطن الخبيث . . وهكذا . . فالمنافق شخصان ، يعيش أحدهما مع الناس ، ويعيش الآخر فى كيان صاحبه . . أو هو شخصية مزدوجة ، يكاد ينفصل ظاهرها عن باطنها . .

قوله تعالى :

* « سواء عليهم أستغفرتَ لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم . . إن الله لا يهدى القوم الفاسقين » . .

هو تيئيس للمنافقين من أن ينالوا مغفرة الله ، سواء أجاءوا إلى النبىّ يطلبون أن يستغفر لهم ، فاستغفر لهم ، أو لم يستغفر لهم . فإن الله سبحانه لا يغفر لهم ، لأنهم لم يجيئوا إلى النبىّ إلا على طريق من نفاق ، ولم يتحدثوا إليه إلا بألسنة منافقة ، ومن هنا لم يُقبل استغفار رسول الله لهم ، كما لم تقبل توبتهم . . إنهم تابوا إلى الله بألسنتهم دون قلوبهم . . إنهم فاسقون ، قد خرجوا من الإيمان بعد أن دخلوا فيه . . « والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

الآيات : (٧ — ١١)

* « هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولـكن المنافقين لا يفقهون » .

الضمير « هم » يعود إلى هؤلاء المنافقين ، الذى تحدثت عنهم الآيات السابقة ، من أول السورة ، والذين سُمِّيت هذه السورة باسمهم . فهى كلها حديث متصل عنهم ، يفضح مخـــازيهم ، ويكشف سوءاتهم على أعين الناس . .

وإذا كانت الآيات السابقة ، قد تحدثت عن المنافقين فى عمومهم ، وعن الصفات النفسية والجسدية التى يُستدل بها عليهم ، دون أن تشير إلى معيّن منهم بالذات ، أو الاسم ـ فقد جاءت هـذه الآية والآية التى بعدها لتواجه وجهاً منـكراً من وجوه المنافقين ، ولتقرع رأساً عَفِنـاً من رءوسهم ، هو عبد الله بن أبىّ بن سلول ..

فلقد نزلت هاتان الآيتان فى أعقاب حادثة استعلن فيها نفاق هذا المنافق على الملأ ، ولم يبق إلا أن تجىء آيات الله لتسجل عليه هذا النفاق ، وتدمغه به إلى يوم الدين . .

قالوا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،قد بلغه أن بنى المصطلق (من اليهود) كانوا يجمعون لحرب المسلمين ، فخرج إليهم رسول الله فى أصحابه ، ولقيهم على ماء يقال له المرَيْسيع من ناحية قَدِيد إلى ساحل البحر ، وهَزَم الله أعداء الله ، ونَفَل أبناءهم ، ونساءهم وأموالهم .. قالوا : وبينما الناس على الماء ، وقع شجار بين غلام لعمر بن الخطاب يقال له الجهجاه بن سعيد ، ورجل من الأنصار يقـال له سنان الجهنى ، فصرخ الجهنى يامعشر الأنصار ، وهتف الجهجاه : يامعشر المهاجرين .. وكادت تـكون فتنة ، وجعل عبد الله بن أبى يقول لمن يلقاه من الأنصار : قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا . . والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . . هـذا يامعشر الأنصار ما فعلتم بأنفسـكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالـكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم فضلَ الطعام لم يركبوا رقابكم ، ولأوشكوا أن يتحولوا من بلادكم ، ويلحقوا بعشائرهم ومواليهم ..!! »

فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يُحدّث به عبد الله بن أبىّ فى

الناس ، أمرَ الناسَ بالرحيل ، وسار بالناس يومَهم حتى أمسى ، وليلَتَهم حتى أصبح ، وصَدْرَ يومهم حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يكن إلا أن وجدوا مسَّ الأرض حتى وقعوا نياما . . وإنما فعل الرسول ذلك ، ليشغل الناسَ عن الحديث ، الذى كان يحدّث به عبد الله بن أبىّ !

قالوا : وتحدث كثير من المسلمين إلى رسول الله يستأذنون فى قتل عبد الله بن أبىّ . . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يردهم قائلا :

« فكيف إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ، لا تقتلوه ! . .

وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبى إلى رسول الله ، فقال يارسول الله : قد بلغنى أنك تريد قتل أبى ، فإن كنت لابدّ فاعلا فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، وإنى أخشى أن تأمر بهذا غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر ، فأدخل النار ..!!

فقال صلى الله عليه وسلم : بل ترفق به ، وتحسن صحبة ، ما بقى معنا . .

وهكذا ، أطفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الفتنة ، بحكمته ورِفقه ، وبُعد نظره .

قوله تعالى :

* « يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون * وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين » . .

هو لقاء لآيات الله مع المؤمنين ، بعد أن استمعوا إلى ما تنزّل فى المنافقين من آيات ..

وكان من حكمة الحكيم العليم ، أن يُلفِت المؤمنين إلى أنفسهم ، بعد أن أراهم الصورة المنكرة للإنسان الضال المنحرف ، ليكون لهم فيه عبرة وعظة .. وحتى لا يُشْغَلَ المؤمن كثيرا بأمر هؤلاء المنافقين ، وحتى لا يقف كثير من المؤمنين عند حد النظر إلى هذه الصور المتحركة بين عينيه ، للتلهى والتسلية .. جاءت هذه اللفتة السماوية إليهم ، ليخرجوا بمشاعرهم وتصوراتهم عن هذا الموقف ، ولينظروا فى أنفسهم هم ، وليراجعوا حسابهم مع ذواتهم ، فقد يكون فيهم من هو على صورة هؤلاء المنافقين ، أو على شَبَه قريب منها ، وهذا يقتضيه أن يصحح وضعه ، إن أراد أن يكون فى المؤمنين.. أما كيف يقيم ميزانه السليم على طريق الإيمان ، فهو أن يكون كما دعا الله المؤمنين إليه فى هاتين الآيتين : وهو ألا يُشْغَلَ عن ذكر الله بالأموال والأولاد ، وألا يكون ذلك همه فى الحياة الدنيا ، فيستغرقه متاع هذه الحياة ، ويقطعه عن ذكر الله ، وعن النظر إلى الآخرة ، وما فيها من حساب وجزاء . . فإن من يفعل ذلك فقد خسر نفسه ، وأوردها موارد الهلاك فى الدنيا ، والعذاب الأليم فى الآخرة ..

فإذا انخلع الإنسان عن سلطان الاشتغال بالأهل والولد ، وعن الغفلة عن ذكر الله ـ كان طلبُ البذل منه للإنفاق فى وجوه الخير ، أمراً مقبولا ، يمكن أن يمتثله ويستجيب له ، حيث خرج من هذا السلطان المتحكم فيه ، الآخذ على يده ، وهذا هو السر — والله أعلم — فى تقديم النهى على الأمر . . فإن الانتهاء عن المنكر والقبيح ، مدخل إلى إتيان المعروف والحسن من الأمور . . إن الانتهاء عن القبيح أشبه بالشفاء من داء يغتال عافية الجسد ، فإذا عُوفِىَ

الجسد من هذا الداء ، كان من الطبيعى بعد ذلك ، أن تقوم ملكات الإنسان وحواسه بوظائفها كاملة .. فكما لا يُدعى إلى حمل التكاليف والأعباء مريض، كذلك لا يدعى إلى القربات والحسنات من هو مقيم على المعاصى، ملازم للمنكرات . . وإن التربية الحكيمة لمثل هذا ، هو أن يُطَبَّ له من هذا الداء المتمكن منه ، فإن هو أقلع عنه ، كان من الممكن الانتقال به من جانب المعاصى إلى حيث البر والإحسان . . ولهذا كان من مقررات الشريعة : أن دفع المضار مقدّم على جلب المصالح ! !

وقوله تعالى : « من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق » ـ هو حثّ على المبادرة بطاعة الله ، والإعداد لليوم الآخر ، قبل فوات الأوان ، حين يهجم الموت على غرة أو دون إنذار سابق ، فيجد المرء نفسه وقد حضره الموت ، وفاته ما كان يراود به نفسه من طاعة الله ، ومن فعل الخير ، وعندئذ يود أن لو استأنى به الموت قليلا ، وترك له فرصة من الوقت ، يتدارك فيه ما فات ، ويصلح ما أفسد . . ولكن هيهات ، هيهات ! « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » (٣٤ :الأعراف)

وقوله تعالى : « فأصدق » منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية ، الواقعة بعد الطلب ،وهو الرجاء المفهوم من قوله تعالى : «لولا أخرتنى إلى أجل قريب؟ فأصدقَ » . . فلولا هنا بمعنى « هلا » . وأصدق : أصله أتصدق ، قلبت التاء صادا ، وأدغمت فى الصاد . .

وأما قوله تعالى : « وأكن من الصالحين » فهو مجزوم ، لأنه واقعٌ فى حيّز جواب الشرط ، المفهوم كذلك من قوله تعالى « لولا أخرتنى إلى أجل قريب » فهو بمعنى « لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصّدّقَ ، وإن أصدق أكن من الصالحين » ! . .

وهذا الأسلوب من النظم لا يكون فى غير القرآن ، ونظمه المعجز ، الذى يملك بسلطانه التصريف فى الكلمات ، كما يملك سبحانه وتعالى بقدرته التصريف فى كل شىء . . فلقد تسلط أسلوب الطلب : « لولا أخرتنى إلى أجل قريب » تسلط على الفعلين : أصدق ، وأكون .. جاعلا الفعل الأولَ مسبباً عنه ، وجاعلا الفعل الثانى جواباً له . .

والسؤال هنا : ما الحكمة من مجىء النظم فى الآية على هذا الأسلوب ؟ ولماذا لم يجىء الفعلان الواقعان فى حيز الطلب ، منصوبين معاً ، أو مجزومين معاً؟ وما سر هذه التفرقة بين الفعلين ، فيكون أحدهما مسبَّباً ، على حين يكون الآخر جواباً ؟

نقول ـ والله أعلم ـ : إن هذا الاختلاف بين الفعلين ، هو اختلاف فى أحوال النفس ، وتنقلها من حال إلى حال ، فى هذا الموقف المشحون بالانفعالات والأزمات . .

فالموت حين يَحضُر هذا الإنسان الذى يدافع الأيامَ بالتسويف والمماطلة فى الرجوع إلى الله ، وعمل الصالحات ـ هذا الموت المطل على هذا الإنسان ، يَرُدّه إلى صوابه ، ويوقظه من غفلته ، ولكن ذلك يكون بعد فوات الأوان ، وقد بلغت الروح الحلقوم ، فلا يجد هذا الإنسان بين يديه إلا الأمانىّ ، وإلا الرجاء فيقول : « رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدقَ » . . إن ذلك هو أقصى أمانيه ، وهو غاية مطلوبه . . ثم يخيل إليه من لهفته ، وشدة حرصه على هذا المطلوب ، أنه ـ وقد تمنّاه ـ أصبح دانياً قريباً ، وأنه قد استُجيب له فعلا ، وأن يد الموت قد تراخت عنه قليلا إلى أجل . وهنا ينطلق مع هذا الأمل فرِحاً مستبشراً . . إنه الآن يستطيع أن يتصدق . . وإنه إن يتصدق يكن من الصالحين ، الذين يفوزون برضا الله ورضوانه . . ولهذا يخرج من باب الأمانىّ ، ليدخل فى باب

للعرض والطلب.. إن تؤخرنى إلى أجل قريب أكن من الصالحين . . ولكن هذه الفرحة سرعان ما تختفى ، وتغرب شمسها من نفسه ، إذ يجىء قوله تعالى :

* « ولن يؤخر الله نفساً إذجاء أجلها » فيردّه هذا إلى مواجهة الموت، الذى خُيّل إليه أنه فرّ من بين يديه ! إنه حلم لحظة ، فى صحوة الموت أو غيبوبته ، سرعان ما يذهب كما تذهب الأحلام . .

وتحرير معنى الآية ـ على هذا المفهوم الذى فهمناها عليه ، هو : هلاّ أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق . . وإن أصدق أكن من الصالحين ، الناجين ، من هذا الهول العظيم . الذى يطلّ بوجهه من قريب .

* * *

٦٤ – سورة التغابن

نزولها : مدنية

عدد آياتها : ثمانى عشرة آية .

عدد كلماتها : مائتان وإحدى وأربعون كلمة .

عدد حروفها : ألف وسبعون حرفا .

مناسبتها لما قبلها

كانت سورة المنافقين حديثا متصلا عن النفاق وأهله ، وأن هذا الفريق من الناس لن يقبل خيراً ، ولن يهتدى من ضلال ، أو يستقيم على هدًى . . هكذا المنافقون ، هم على هذه الطبيعة النكدة ، التى لا يُصلح من اعوجاجها شىء أبداً . .

وقد كان من بد ، سورة التغابن هذه ، قوله تعالى : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » ـ ليقرر هذه الحقيقة العاملة فى الناس ، والمفرقة بينهم فى مقام الكفر والإيمان ، والضلال والهدى . فهكذا خلقهم الله . . كافرين ، ومؤمنين . فالله سبحانه يخلق ما يشاء ، كما يشاء .. « ألا له الخلق والأمر » (٥٤ : الأعراف) فكما فرق سبحانه بين عوالم المخلوقات ، من حيوان ، ونبات ، وجماد ـ فرّق سبحانه كذلك فى صور هذه العوالم ، فجعل من كل عالم أنواعاً ، وأشكالا لاحصر لها .. « والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شىء قدير (٤٥ : النور) . . « وفى الأرض قِطَع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونُفضل بعضَها على بعض فى الأُكُل »

(٤ : الرعد) . . « ومن الجبال جُدَدٌ بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك » (٢٧ ، ٢٨ : فاطر)

فهذا الاختلاف والتنوع بين المخلوقات ، هو من دلائل قدرة الله ، وإنه ليس لمخلوق أن يعترض على الخلق الذى أقامه الله سبحانه وتعالى فيه: «لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون » : (٢٣ : الأنبياء)

فهذا البدء الذى بُدئت به سورة « التغابن » هو إلفات للمؤمنين الذين رأوا فى صور المنافقين مايُنكره ويُذَمّ . . إلفات لهم إلى فضل الله عليهم ، وأنه سبحانه . . خلقهم للإيمان ، وهداهم إليه ، ولو شاء سبحانه لجعلهم فى هؤلاء المنافقين ، وألبسهم ثوب النفاق وهم فى عالم الخلق والتكوين .

وإنه لمطلوب من المؤمنين إزاء هذا الإحسان ، أن يستجيبوا لما دعاهم الله سبحانه وتعالى إليه ، من الإنفاق مما رزقهم الله ، بعد أن يتخففوا من سلطان الأثرة والشح الذى يمسك الأيدى عن الإنفاق ، وهو الحب الشديد المال والولد ذلك الحب الذى يلهى عن ذكر الله ، ويَشغل عن طاعته .

وإنه لمطلوب منهم كذلك أن يسبّحوا بحمد الله ، وأن ينتظموا فى موكب الوجود كله فى هذه الصلوات الخاشعة الضارعة لله سبحانه ، وفى هذا الولاء لجلاله وعظمته .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٤)

* « يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « يُسبّح لله مافى السموات ومافى الأرض له الملك وله الحمدُ وهو على كلّ شىء قدير » .

هذا هو دَأب الوجود كلّه فى السموات والأرض ، إنه فى صلاة دائمة مستغرقة ، وعلى وجه واحدٍ ، قائم بين يدى الله فى ولاء وخشوع .

وتسبيح هذه العوالم التى يضمها الوجود ، هو فى خضوعها لسلطان الله سبحانه ، وفى جريانها على ما أقامها عليه خالقها ، دون أن يكون من أىّ ذرّةٍ منها خروج على الحدود التى ألزمها الله إياها وأجراها فيها : « لا الشمس ينبغى لها أن تُدرك القمر ، ولا الليل سابقُ النهارِ وكلّ فى فلك يسبحون » : (٤٠ : يس) .

وفى قوله تعالى : « له الملك » إشارة إلى هذا السلطان القائم على الوجود

من قدرة الله . . فهو المالك لكلّ شيء ، لا شريك له . . وإذ كان هذا شأنه فهو ـ سبحانه ـ الذي يصرف مخلوقاته كيف يشاء ، ويُقيمها حيث أراد . .

وفى قوله تعالى : « وله الحمد » إشارة أخرى ، إلى أنه سبحانه وحده ، هو المستحق للحمد من كلّ مخلوق ، فى أية صورة كان خَلقه ، وعلى أى حال كان وضعه . . فالخلق إيجاد ، ووجود للكائن المخلوق ، والوجود نعمة ، بالإضافة إلى العدم ، الذي هو ضلال فى عالم التيه والضياع .

قوله تعالى :

* « هو الذى خَلَقَكم فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمنٌ والله بما تعملون بصير » . .

وهذا هو تدبير الله فى خلقه ، وحكمه فى عباده . . وهكذا خلقهم . . منهم الكافر ومنهم المؤمن . . كما أن منهم الذكر والأنثى ، والذكىّ والغبىّ ، والغنىّ والفقير . . إلى غير ذلك من أنماط الناس ، وأشكالهم . .

ثم هو سبحانه « بصير » أى عالم علماً متمكناً ، من كل ما يعمل العاملون ، من مؤمنين ، وكافرين .

وقُدّم الكافرون هنا على المؤمنين ، لأن الكافرين كثرة فى العدد ، حتى لكأنهم يُشبهون الجسد الإنسانىّ ، على حين يمثل المؤمنون الرأسَ فى هذا الجسد . .

وقيل إن المعنى : « هو الذى خلقكم » كلام تام ، ثم كان بعد هذا الخلق أن ظهر فى الناس ما هم عليه من كفر وإيمان ، كما يقول سبحانه بعد هذا : « فمنكم كافر ومنكم مؤمن » . . وهذا مثل قوله تعالى : « والله خلق كل

دابّة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين، ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء » (٤٥ : النور) .

وهذا المعنى ، لا ينفى أن الله سبحانه خلق المؤمن مهيأً للإيمان مستعدّا له، وخلق الكافر مهيأً للكفر ومتقبّلا له ، كما خلق الدواب ، فكان لكل نوع ، الخلقُ الذى هو عليه بين المخلوقات ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى ، « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » . . أى أعطى كل مخلوق ما قدّر له ، ثم هداه إلى هذا الذى قدّره له .

وليس ببعيد عن هذا مايقول به جمهور علماء السنةمنأن الله خلق الكافر، وكفرُه فعل له وكسب ، مع أن الله خالق الكفر ، وخلق المؤمن ، وإيمانُه فعلٌ له وكسب ، مع أن الله خالق الإيمان . .

قوله تعالى :

* « خَلق السموات والأرض بالحقّ وصوّركم فأحسن صُوَرَكم وإليه المصير » . .

أى أنه سبحانه خلق هذا الوجود ـ فى أرضه وسمائه ـ بالحقّ ، الذى عدل بين المخلوقات ، وأقام كل مخلوق بالمكان المناسب له فى هذا الوجود . . « وما خلقنا السماء والأرضَ وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلا بالحق » . . « أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون »(١١٥ : المؤمنون) .. « لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناهُ من لدنّا إن كنا فاعلين » (١٧ :الأنبياء) .

وقوله تعالى : « وصوركم فأحسن صوركم » ــ هو خطاب للناس جميعاً، حيث كان وضعهم بين المخلوقات أحسنَ وضع ، وكانت صورتهم أحسنَ صورة . . « يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم * الذى خلقك فسوّاك

فَعَدَلَكَ * فى أى صورة ماشاء ركبك » .. (٦ — ٨ : الانفطار) .. « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » (٤ : التين) . .

فهذا الخلْق السوىّ الذى أقام الله عليه الإنسان ، هو نعمة جليلة تستحق من كل إنسان أن يقوم فيها بحمد الله ، والشكر له ..

والسؤال هنا : أيحسب الكافرون ، والمشركون ، وأهل الضلال ، ممن هم من أصحاب النار — أيحسبون من هـذا الخلق الذى صوره الله فأحسن صوره ؟..

والجوابَ — بلا تردد — نعم !!

فـكل مخلوق خلقه الله ، هو مخلوق فى أحسن صورة وأعدلها ، إذا هو أخذ مكانه فى الوجود العام ، ولم يخرج على وضعه الذى هو فيه ..

فأىّ مخلوق أيًا كان قدْرُه من الضآلة ، والضمور ، هو بعض من الصورة العامة للوجود ، وحيث كان من هذه الصورة ، هو ذو شأن فيها ، لاتـكمل إلا به ..إنهأشبه بالنغم فى اللحن الموسيقى الـكبير ، أو ما يعرف « بالسمفونية» . . والصوت الذى يخرج عن هذا اللحن، ولا يتّسق معه، هو صوت ضائع ، لاحساب له ، ومن الخير للحن ألا يكون فيه لهذا الصوت وجود أصلا . .

والـكافرون ، والمشركون ، وأهل الضلال ، هم أصوات ضالة فى هذا اللحن الـكبير ، الذى يسبّح به الوجود لله ، وينشد على أنغامه نشيد الولاء لله رب العالمين . .

ومع هذا ، فإن هؤلاء الضالين ، كانوا قبل أن يفسدوا ويضلوا — كانوا على فطرة سليمة ، وخَلْق سوىّ .. ولـكنهم أفسدوا هذه الفطرة ، وغيّروا

هذا الخلق ، إذ أسلموا أمرهم للشيطان ، الذى قادهم إلى الضلال فانقادوا ، ودعاهم إلى الخروج عن أمر الله فأجابوا .. « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » (٤ — ٦ التين) ..

وفى قوله تعالى : « وإليه المصير » إنذار باليوم الآخر ، وتحذير منه ، حيث يصير الناس جميعاً إلى الله يوم القيامة ، ويُحاسبون على ما قدموا من خير ، أو سوء ..

قوله تعالىَ :

* « يعلم مافى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون .. والله عليم بذات الصدور » ..

هو تعقيب على قوله تعالى : « وإليه المصير » .. أى أن مصيركم أيها الناس ، إلى مَن يعلم مافى السموات والأرض ، ويعلم سركم وجهركم ، بل إنه يعلم ما يدور فى الصدر من خلجات ومشاعر ، قبل أن تتخلق هذه الخلجات وتلك المشاعر فى صورة كلمات لها مدلول ومفهوم عندكم .. فعلم الله علم شامل ، قديم ، يعلم ما كان قبل أن يكون ، ويعلم ما سيكون على ما يكون ..

الآيات : (٥ — ١٠)

* « أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ فَقَالُوٓا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ

حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٩) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

« ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليمٌ » . .

الخطاب هنا للناس جميعاً ، مؤمنين ، وكافرين . . فهو للمؤمنين عبرة ، وعظة ، وتثبيت على الإيمان . . وهو للكافرين ، وعيد ، وزجر ، وتهديد . .

وقوله تعالى : « فذاقوا وبال أمرهم ».. الفاء للسببية ، أى أن كفر الذين كفروا ، كان سبباً فى هذا البلاء الذى حلّ بهم فى الدنيا ، بما أخذهم الله به من نكال ، وما أرسل عليهم من مهلكات ، كما أنه سيكون سبباً فى العذاب الأليم الذى سيلقونه يوم القيامة . .

والوبال : أصله من الوبْل ، والوابل ، وهو المطر الشديد الثقيل ، ولهذا قيل للأمر الثقيل الذى يُخاف ضرره : وبال ، ووبيل .

قوله تعالى :

* « ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشرٌ يهدوننا فكفروا وتولوْا واستغنى الله والله غنى حميد » ..

الإشارة هنا إلى كُفر الكافرين ، وإلى المنزَلق الذى دَفع بهم إلى الكفر ..

فلقد جاءتهم رسلهم بالبينات ، أى بالآيات البينة الواضحة ، والمعجزات الناطقة التى تشهد بأنهم رسل الله .. ومع هذا فقد أبى القوم إلا ركوبَ رءوسهم ، ثم نظروا إلى تلك الآيات فرأوها وهم فى هذا الوضع المنكوس .. رأوْا حقها باطلا ، ونورها ظلاماً ، وهداها ضلالاً .. ثم عجبوا أن يكون بشرٌ مثلهم ، ورجل منهم ، هو الذى يدلّهم على الخير ، ويقودهم إلى الحق !! فكفروا به ، وبالآيات التى معه ، وبالله الذى أرسله ..

وقوله تعالى : « فكفروا وتولوا » أى أنهم لم يكفروا ويكذبوا بالرسول وحسب ، بل تولوا معرضين عن الحق ، الذى كان من شأنه — لو تمهلوا قليلاً ولم يستبد بهم العناد — أن يهتدُوا إليه بأنفسهم ، ولرأوا أن ما يدعوهم الرسول إليه ، هو دعوة موجهة إليهم من عقولهم ، قبل أن يوجهها الرسول إليهم ..

وقوله تعالى : « واستغنى الله » أى أنهم بكفرهم وتولّيهم هذا كأنهم قد استغنوْا عن الله ، وقطعوا كل صلة تصلهم به ، سواء أكان ذلك عن دعوة رسول من عند الله ، أو عن دعوة من عقولهم ، ولهذا فإن الله قد استغنى عنهم ، وطردهم من مواقع الإيمان به ..

وفى التعبير عن إعراض الله عنهم ، وطرده إياهم — بالاستغناء ، إنما هو من باب الردّ عليهم بمثل منطقهم . وأنهم إذ قد استغنوا عن الله ، فالله قد استغنى عنهم ..

وهذا يعنى أن الله سبحانه لا يَخْذُل من عباده ، إلا من يخذل نفسه ؛ ولا يطرد من رحمته إلا من يعمل على طرد نفسه ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » (١٩ : الحشر) . . وكما يكون هذا فى حال الردع والعقاب ، يكون فى مقام الفضل والإحسان ، كما يقول سبحانه : « فاذكرونى أذكركم » (١٥٢ : البقرة) . . ومنه قوله تعالى : « ادعونى أستجب لكم » (٦٠ : غافر) . .

وقوله تعالى : « والله غنى حميد » أى أنه سبحانه غنىّ غنى مطلقاً ، لا حاجة به إلى شىء من خلقه : « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يُطعمون » (٥٧ : الذاريات) . . وهو سبحانه « حميد » أى المستحق للحمد وحده ، المحمود من جميع خلقه ، لأنه هو الخالق الرازق المنعم ، المتفضل ، من غير سابقة إحسان من مخلوق ، أو ابتغاء نفع يُرْجى منه .

قوله تعالى :

* « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير » . .

الزعم هنا ، بمعنى الادعاء الكاذب ، الذى يقع من صاحبه موقع اليقين . .

أى ادعى الذين كفروا ـ افتراءً وكذباً ـ أنهم لن يُبعثوا . . وعلى هذا الزعم الباطل ، والادعاء الكاذب ، قطعوا كل ما يصلهم بالحياة الآخرة ، وما يذكّرهم بها . .

وقد كذّب الله سبحانه هذا الزعم ، وردّه على زاعميه بقوله سبحانه : « قل بلى وربى لتبعثن » . . والأمر « قلْ » هنا متوجه إلى النبى صلوات الله وسلامه

عليه ، لينذر به الكافرين ، وليوقظهم به من غفلتهم ، وليزعج به اطمئنانهم إلى هذا الزعم الذى زعموه !!

وقوله تعالى: « ثم لتنبؤنّ بما عملتم » أى ليس الأمر مجردَ بعث ونشور ، وإنما وراء هذا البعث والنشور ، حساب وجزاء ، حيث تُعرض عليه ـ جلّ شأنه ـ أعمالَكم ، وتلقوْن الجزاء عليها .. « وذلك على الله يسير » لا يحتاج إلى معاناة ومراجعة .. كما أن بعثكم لا يحتاج إلى جَهد ونَصَب ..

قوله تعالى :

* « فآمِنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير » ..

هو تعقيب على قوله تعالى : « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا .. الآية » ..

أى أنه إذا كان البعث أمراً لا مفرّ منه ، والحسابُ والجزاء لا معدَّى عنه ـ فبادروا إلى الإيمان بالله ، وأسرعوا بالخروج مما أنتم فيه أيها الكافرون ، من أوهام وضلالات . . والإيمان بالله لا يتم ، إلا بالإيمان برسوله . . والإيمان برسوله ، لا يقع إلا مع الإيمان بالنور الذى أنزله الله إليه ..

والنور الذى أنزله الله إلى النبى، هو القرآن الكريم ، لأنه من نور الله ، الذى يجلو عَمَى البصائر ، ويبدد ظلام العقول ..

وقوله تعالى : « والله بما تعملون خبير » ـ هو تعقيب على الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله ، والقرآن الذى بين يديه ، وأن حصيلة هذا الإيمان واقعة فى علم الله . . ذلك العلم المحيط بكل شىء ، الخبير بالحسن والسيىء من الأعمال

وسيجزى المؤمنين على حسب إيمانهم ، وعلى حسب ماعملوا بمقتضى هذا الإيمان .

قوله تعالى :

* « يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يُؤْمِنْ بالله ويَعْمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جَنَّاتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم » .

هو جواب لسؤال يتردد على الخاطر ممن سمع قولَه تعالى : « والله بما تعملون خبير » — وهو : ماوراء هذا العلم الذى يعلمه الله من أعمالنا ؟

فكان الجواب : ستعلمون ماوراء هذا العلم يَوْمَ تُردّون إلى الله ، يومَ يجمعكم ليوم الجمع ، وهو يوم القيامة ، حيث يُجزَى المحسنون الجزاء الحسن ، ويَلقَى المسيئون مايسوءهم ومايُخزيهم من عذاب وهوان ..

وسُمّى يوم القيامة يوم الجمع ، لأن الناس جميعاً يَحْضرونه ، ويُحشرون إليه من قبورهم ، لايغيب عنه أحد منهم .

وسُمّى يوم القيامة كذلك يومَ التغابن ، لأنه اليوم الذى يرى الناسُ فيه أنهم غُبِنوا من جهة أنفسهم ، وأن غبناً أصابهم فى حياتهم الدنيا ، فلم يأخذوا حقهم كاملا فيها ، ولم يستوفوا المطلوب منهم للحياة الآخرة ..

فالغبن ،هو الظلم الذى يجىء من وراء عدوان على حق .. ومنه الغبن الذى يقع فى البيع ، بين البائع والمشترى ، حيث يخرج الشىء المبيع عن الحدود المِثلية له ، زيادةً أو نقصاً ، فإذا زاد الثمن زيادة فاحشة ،كان الغبن واقعاً على المشترى، وإذا نقص الثمن نقصاناً فاحشاً ، كان الغبن واقعاً على البائع . . ومنه الغبن فى الرأى ، حيث يجىء الرأى فى الأمر بعيداً عن مرمى الإصابة لموقع الحق فيه ، فيقال : فلان غَبِين الرأى ، أى فاسده..

وكل إنسان يبدو له يوم القيامة أنه قد غُبن فى حياته الدنيا ، سواء أكان فى المحسنين أم فى المسيئين .. أما المحسن ، فلأنه لم يزدد فى إحسانه ، وهو يرى فى هذا الموقف ـ موقفَ الحساب والجزاء ـ أن كل ماعمله من أعمال حسنة هو قليل ـ وإن كَثُر ـ بالنسبة لما يطلبه ، ويتمناه فى هذا الموقف ، الذى يحتاج فيه الإنسان إلى رصيد عظيم من الأعمال الصالحة ، حتى يلحق بالسابقين الذين سبقوا إلى الجنة ، ولم يقفوا موقف الحساب ، بل طاروا إليها طيرانا .

وأما المسىء فإنه يرى أنّه ظلم نفسه ظلماً مبيناً ، إذ أطلق العنان لشهواته وأهوائه ، وأنه باع نجاته وسلامته بثمن بخس ، لا يعدو أن يكون ساعات من اللهو واللعب .

وهكذا يرى كل إنسان يومئذٍ ، أنه على حال غير محمودة عنده ، وأن أموراً كثيرة كان يمكن أن يأخذ فيها وضعاً آخر غير الوضع الذى أخذه فى الدنيا .. إنه يوم تَكثُرُ فيه الحسرات ، وزفرات الندم ، وصرير الأسنان !

قوله تعالى : « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفّر عنه سيئاته ويُدْخله جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم » .

هو تعقيب على هذا الوصف الذى وُصف به يومُ القيامة ، بأنه يوم التغابن ، ويُراد بهذا التعقيب دفعُ مايقع من وهمٍ يجعل من هذا اليوم يومَ سوء للناس جميعاً ، وأنهم جميعاً واقعون تحت مشاعر الغبن ، التى من شأنها أن تملأُ النفس حسرةً وألماً . فجاء قوله تعالى : « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار » ـ جاء هذا ، ليقيم نفوس المؤمنين الذين عملوا الصالحات على الرضا ، والحمد، لِما هداهم الله إليه من الإيمان، ولِما وفّقهم إليه من أعمال صالحة ، وأنه لابأس عليهم من هذه الأعمال السيئة التى عملوها إلى جانب الأعمال الصالحة ، التى يسوؤهم أن يروْها فى يومهم هذا ،

فقد كفّرها الله عنهم ، ومحاها من صُحفهم ، حتى يبدوَ لهم كتابهم أبيض ناصعاً ، وحتى لايدخلَ معهم من أعمالهم إلا ما كان صالحاً ، يسعى بين أيديهم وبأيْمانهم ، نوراً يضيء لهم الطريق إلى الجنة . « وذلك هو الفوز العظيم » فلتقرَّ أعينُهم به ، وليهنئوا بما آتاهم الله ، ولا عليهم مما كان لهم من أعمال سيئة في الدنيا .. وإذن فلا غبنَ ، ولا آثارَ غبن ، إلا لأهل الكفر والضلال .

قوله تعالى :

* « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير » .

هو بيـــان للغبن الملازم للكافرين ، وللآثار المترتبة عليه .. إنهم هم المغبونون حقًّا ، وهم المتجرّعون لغصص هذا الغبن ، بما فاتهم في الدنيا من إيمان بالله ، ومن أعمال صالحة في ظل هذا الإيمان .. إنهم - مع هذا العذاب الأليم الذي يلقونه في الجحيم - هم في حسرة دائمة على أن لم يكونوا من المؤمنين .. فما أكثر ماتجيش به صدورهم من حسرات ، وما تنطق به ألسنتهم من عبارات الندم واللوم ! ! ومن ذلك ماجاء به القرآن على ألسنتهم ، مثل قولهم : « ياليتنا نردّ ولا نكذّبَ بآيات ربنا ونكونَ من المؤمنين » (٢٧ : الأنعام) وقول قائلهم : « ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا * ياويلَتىٰ ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً » (٢٧ — ٢٨ : الفرقان) . وقولهم : « فلو أنَّ لنا كرة فنكون من المؤمنين » (١٠٢ : الشعراء) ..

الآيات : (١١ — ١٨)

« مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللَّهِ

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

« ما أصاب من مصيبةٍ إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يَهدِ قلبه والله بكل شيء عليم » .

المصيبة : الحَدَث الذى ينجُم عن فعل . . ويغلب استعمال المصيبة فيما يقع من سوء . . وفاعل أصاب ، هو : «مصيبة» وحرف الجر «مِن» زائد . . أى ما أصابكم من مصيبة إلا بإذن الله ، وعن تقدير الله وإرادته ، وإن كفر الذين كفروا ، وما حاربوا الله به منكرات ، هو بإذن الله ، وتقديره ، وأنهم إذ فعلوا ما فعلوا ، لم يكونوا خارجين عن سلطان الله ، بل إنهم مقهورون لله أبداً ، وإنهم على ما يبدو لهم من أنهم آلهة فى الأرض ، مقتدرون على أن يفعلوا ما يشاءون ـ هم فى واقع الأمر أدوات مسخرة لقدرة الله ، وأنهم أدواتُ شرٍّ وأذًى ، شأنهم فى هذا شأن ما خلق الله من حيوانات مؤذية ، كالعقارب والأفاعى ، وغيرها . .

أما لماذا وضعهم الله بهذا الموضع ، وسلك بهم هذا المسلك ، وأرادهم للشر ، وعاقبهم عليه ، فهذا شأن آخر ، وتلك قضية أخرى ، ومقطع القول فيها ، هو قوله تعالى : « لا يُسأل عما يفعل .. وهم يُسألون » (٢٣ : الانبياء) . .

وقوله تعالى : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » هو دعوة إلى الإيمان ، يستجيب لها كل من يَسّره الله للإيمان ، وهداه إليه ، وشرح صدره له ، بإرادة من الله سابقة ، وقضاء قضاه ..

فالمطلوب من الإنسان ، هو أن يستجيب للهدى ، وأن يتجه نحو الخير ، غير ناظرٍ إلى قضاء الله فى شأنه .. فإن كان ممن أرادهم الله للإيمان ، أُخذ بيده إلى طريق الإيمان ، بعد أن يتجه هو إليه ، ويضع قدمه على أول الطريق إليه . . وأما إن كان من أهل الكفر ، فلن تنطلق من نفسه تلك الشرارة التى تنقدح من زناد الرغبة والإرادة . . فى الاتجاه نحو الإيمان .

إن على الإنسان أن يأخذ بالأسباب ، وأن يعمل جاهداً بما اجتمع بين يديه منها ، فإذا أخذ بالأسباب المتصلة بأمر من الأمور ، فقد أعذَرَ لنفسه .. كالزارع ، يمهد الأرض ، ويبذر الحب ، ويسوق الماء إلى ما زرع ، ثم لا يخرج زرع ، أو يخرج ، ثم تغتاله آفة ! إنه معذور عند نفسه ، لا يكثر ندمُه عندما يرى غيره يحصد ما زرع .. أما الذى لم يزرع أصلاً ، فإن الحسرة تملأ قلبه ، حين يرى الذين زرعوا يحصدون !

وقوله تعالى : « والله بكل شىء عليم » — هو دعوة إلى إخلاص النيات ، فى الاتجاه إلى الله ، والإيمان به . . فإن لهذه النيات السليمة المخلصة وزنَها ، وقدرَها ، وإن لم تبلغ بصاحبها ما يريد . . أما من يتجه إلى الله اتجاهاً فاتراً ملتوياً ، يقدّم رجلا ، ويؤخر أخرى ، فإن النية القائمة وراء

هذا الاتجاه، لا تُحسب له إذا هو أخفق، ولم يبلغ موقعَ الإيمان، ولم يملأ به قلبَه، ولم تتشرب به مشاعره!..

قوله تعالى:

* «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين»..

هو تعقيب على الخبر الوارد فى قوله تعالى: «ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله»..

أى مع أنه من المقرر أن ما قدّره الله هو كائن، وأن أحداً لا يفعل خيراً أو يصيب شرّاً، إلا ما كان فى صفحة القدر المكتوب له - مع هذا فإن الدعوة قائمة على الناس جميعاً، بأن يطيعوا الله ورسوله، وأن يستجيبوا لما يدعون إليه، من الإيمان بالله ورسوله، ومن العمل الصالح الذى يدعو إليه الله ورسوله..

وإنه لمطلوب من الإنسان أن يعمل ما يأمر الله به، وأن ينتهى عما نهاه الله عنه، غيرَ ملتفت إلى قدر الله فيه، فإن الالتفات إلى هذا مَضِلّة، لأنه لا يدرى ماذا قَدَر الله له.. إنه يعمل فى قَدَر الله، ويجرى على حدود هذا القَدَر، دون أن يعلم شيئاً مما قُدّر له.. فإذا وقع العمل منه، كان ذلك العمل هو قَدَرَه المقدور له.. فإن كان حسناً حمد الله وشكر له، وإن كان سيئاً، كان حريًّا به أن يجدّ فى الاتجاه إلى الله، وأن يسأله الهداية والتوفيق..

وقوله تعالى: «فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين» — هو

قطع لحجة من يحتجّ بالقدر ، حين يُعرِض عن الله ، ويأبى أن يستجيب لله ورسوله ، ولسان حاله يقول ما قال المشركون : « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء » (١٤٨ : الأنعام) فهذا ضلال مبين ، وسفاهة حمقاء ، لا تقوم على منطق ، ولا تستند إلى حق . . وإنه ليس من شأن الرسول أن يقهر الناسَ على الإيمان ، وأن يكرههم على الاستجابة لدعوته . . فالرسول مهمته البلاغ المبين ، وأداء رسالة الله كاملة واضحة إلى الناس . . « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٢٩ : الكهف) . .

قوله تعالى .

* « الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون » — هو بيان للإله الذى يُدعى الناسُ إلى طاعته ، وإلى طاعة رسله ، وهو أنه إله واحد ، لا إله سواه ، وأنه إلى هذا الإله المتفرد بالألوهة ، يولّى المؤمنون وجوههم ، ويفوّضون إليه أمورهم ، راضين بما يقع لهم من خير أو شر . .

قوله تعالى :

* « يٰأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم » . .

هو دعوة للذين استجابوا لله ولرسوله ، فآمنوا ، أن يُعطوا هذا الإيمان حقّه . . فإنه لا يكفى أن يؤمنوا دون أن يحرسوا هذا الإيمان من الآفات الكثيرة التى تَعرِض له ، وتفسده ، أو تذهب به جُملة . .

ومن هذه الآفات ، الفتنة بالزوج والولد . . حيث هما اللذان يملآن

عواطف الإنسان ، ويستوليان على مشاعره ، وبهذا يكون لهما تأثير بالغ عليه ، فى مجال الصلاح والفساد جميعاً .. إن الزوج والولد ، أشبه بالأعضاء العاملة فى الجسد ، فإن كانا صالحين ، سلم الجسد ، واقتدر على أداء وظيفته كاملة ، وإن كانا فاسدين ، عجز الجسد عن أن يقوم بما هو مطلوب منه ، بقدْر ما فيهما من فساد ..

وفى القرآن الكريم ، أمثلة وشواهد كثيرة لهذا ..

فامرأة نوح وابنه ، كانا على خلافِ معتقدِه فى الله .. هو رسول الله ، مؤمن به ، داع إليه ، وامرأته وولده كافران بالله ، يقفان من نوح موقف عداوة ومنابذة ..

وإنه ليس أشقّ على الإنسان من أن يكون أعداؤه بعضاً من كيانه .. إن عداوة الغرباء تخفّ وتهون ، إزاء عداوة ذوى القربى .. وإن أقسى العداوات وأمرّها لهى عداوة أقرب الأقربين ، وألصقهم بالإنسان جسداً ، وروحاً ، ومشاعر ..

وفى هذا يقول الشاعر الجاهلى (طرفة بن العبد) :

وظلمُ ذوى القربى أشــدّ مضاضةً

على النفس من وقع الحسام المهند

فقوله تعالى : « إن من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم » — هو إلفات إلى ما قد يكون من خلاف بين المؤمن وبين زوجه وولده فى مجال العقيدة .. ذلك الخلاف الذى كثيراً ما تغطى عليه مشاعر الحب ، والعطف ، فلا يكاد يشعر المؤمن بما يدخل على إيمانه من ضيْم وجوْر ،

إذا هو استسلم لزوجه أو ولده ، وأصغى إلى ما يلقيان إليه من زور وبهتان .. ولهذا جاء قوله تعالى : « فاحذروهم » حتى يكون المؤمن دائما ، على حذر ، وانتباه من هـــذه الرياح المسمومة التى تهب عليه من أقرب الناس إليه ..

والعداوة التى تَرِدُ على الإنسان من جهـة الزوجـة أو الولد ، ليست عداوة ذاتية له ، وإنما هى عداوة متولدة عن فعل يجىء من قِبل الزوجة أو الولد ... فإذا فعلت الزوجة فعلَ العدو فهى عدوّ ، وإذا فعل الولد فعل العدو ، فهو عدو ..

وإنه لا عدوّ أبلغ فى عداوته ، وأشد فى كيده ، وأعظم فى ضرره ـ ممن يحول بين المرء وبين طاعة ربه . .

روى البخارى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الشيطان قعد لابن آدم فى طريق الإيمان ، فقال له : أتؤمن وتَذَرُ دينك ودين آبائك ؟ فخالفه ، فآمن . . ثم قعد له على طريق الهجرة ، فقال له : أتهـاجر ، وتترك مالك وأهلك ؟ فخالفه فهاجر . . ثم قعـــد له على طريق الجهاد ، فقـال له : أتجـاهد ، فتقتـل نفسَك ، فتُنـكح نساؤك ويُقسم مالك ؟ . . فخالفـه ، فجاهد ، فَحقّ على الله أن يُدخله الجنة » . .

وقوله تعالى : « وإن تَعفوا و تَصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم » . . هو دعوة إلى الرّفق فى الحذر ، والتلطف فى اتقاء المكروه الذى يجىء إلى المؤمن من زوجه أو ولده . . فإذا كان من واجب المؤمن أن يَحذر هذا العدوّ الكامن

فى أقرب الناس إليه وآثرهم عنده ، فإن هذا العدوّ يجب أن يُنظر إليه من جانب آخر على أنه صديق ، وأن هذه العداوة طارئة ، وأنه يمكن أن تعالج هذه العداوة بالحكمة ، والحسنى ، على ألا يكون ذلك على حساب الدين . . وبهذا يمكن أن يُبقىَ المؤمن على هذين العضوين الفاسدين فى جسده ، وأن يَطِبّ لهما ، وأن يعمل على إصلاحهما ما استطاع ، وألا يعجّل بقطعهما إلا بعد أن يستنفد جميع وسائل العلاج ، شأنهما فى هذا شأن أعزّ الأعضاء والجوارح فى الجسد . .

فالعفو، والصفح ، والمغفرة .. من المؤمن ، لزوجه وولده ، الواقعين فى موقع الفتنة له فى دينه — إنما هو صبر على الأذى ، واحتمال للضرّ ، فى سبيل الإبقاء على علائق الودّ ، ووشائج القربى التى هى من أمر الدين ، ومن طبيعة الحياة . . شريطةَ ألا يكون ذلك — كما قلنا — على حساب الدين . . كما يقول سبحانه فيما بين الولد ، والوالدين : « أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير * وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » (١٤ ، ١٥ لقمان) .

قوله تعالى :

* « إنما أموالكم وأولادكم فتنةٌ والله عنده أجرٌ عظيم » .

ومن الفتن التى تَعرض المؤمن ، فتنة المال ، والأولاد ، حيث يطغى حبهما على قلبه ، ويأخذ على سمعه وبصره ، فلا يرى شيئاً غيرهما ، ولا يستمع لنداء غير نداء المال والولد ، فيصرفه ذلك عن ذكر الله ، ويلهيه عن العمل الصالح ، ابتغاء مرضاة الله . . وبهذا يَضْمُر إيمانُه ، وقد يذهب إلى غير عودة ! يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه . « تَعِس عبد الدّينار ، تَعِسَ

عبد الدرهم ، تعَس عبد الخميصة . تعس عبد القطيفة ، تعَس وانتكس ، وإذا شِيك فلا انتُقش » .

[تعس : أى هلك : والخميصة : كساء أسود له أعلام وخطوط . . والقطيفة ، ثوب مزركش ذو أهداب . . وانتكس : أى عاوده المرض . . وشيك : أصابته شوكة . . فلا انتقش ، أى فلا خرجت شوكته بالمنقاش ؛ وهو المِلقط] .

إن الفتنة التى تهب على المؤمن هنا ، هى فتنة مهبّها ذاته هو ، وما يفيض به قلبه من مشاعر الحبّ المال ، والولد . .

وأما الفتنة الواردة على المؤمن فى قوله : « يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم » فهى فتنة متسلطة على الإنسان من خارج ذاته ، فيما تسوقه إليه زوجه أو ولده من صور الشحناء معه ، والخلاف عليه ، فى الدين الذى يَدين به ، والذى يباعد الشقة بينه وبينهما .

وقوله تعالى : « والله عنده أجر عظيم » هو تعويض عن التخفف من من هذا الحبّ الذى يحمله الإنسان فى قلبه المال والولد ، وإيثارهما على حبّ الله والعمل فى طاعته . . فالذى عند الله من ثواب ، هو خير من الدنيا كلّها . .

وفى قوله تعالى : « إن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم » . . إشارة إلى أن هذا الحكم ليس على إطلاقه . . لأنه ليس كل الازواج ولا كل الأولاد تجىء منهم العداوة ، وإنما يقع ذلك من بعضهم ، ولهذا جىء بمن التى تفيد التبعيض ، على حين جاء قوله تعالى : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » بدون « مِن » التبعيضية ، لأن الأموال والأولاد فتنة مطلقة ، فحيث يكون المال ، وحيث يكون الأولاد ، فالفتنة بهم قائمة . .

يقول الإمام علىّ ــ كرم الله وجهه ــ : « لا يقولَنّ أحدكم : « اللهم إنى أعوذ بك من الفتنة ، لأنه ليس أحد ، إلا وهو مشتمل على فتنة ، ولكن

من استعاذ فليستعذ بمضلات الفتن . . فالله سبحانه وتعالى يقول : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » .

قوله تعالى :

* « فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون » .

قوله تعالى :

[« فاتقوا الله ما استطعتم » . . ما تأويله ؟]

هو رحمة من رحمة الله بعباده ، وهم فى متلاطم هذه الفتن التى تطلع عليهم من أنفسهم ، ومن أهليهم وأقرب الناس إليهم ، إنها حرب مشبوبة الأوار دائماً ، لا يستطيع الإنسان أن يدفعها عن نفسه ، أو أن يدفع هو نفسه عنها ، إلا إذا اعتصم بمعتصم يعصمه منها . . إذ كيف له بالتخلص من ذاته ، ومن نزعات نفسه ، ودفعات أهوائه ؟ ونفرض أنه استطاع ذلك بعد مشقة وعناء ، فكيف له بأن ينخلع عن زوجه وولده ؟ إن ذلك لا يكون إلا بالانخلاع عن الحياة الدنيا جملةَ ! !

والإسلام دينٌ واقع ، ودينُ رحمةٍ وعدلٍ وإحسان . . لا يرى الناسَ إلا أنهم بشر تتحكم فيه نوازع ، وعواطف ، وتعرض لهم عوارض الضعف . . ويلحقهم ما يلحق الكائن الحىّ من جهد وضعف . . ولهذا قامت هذه الشريعة على اليسر ، وعلى رفع الحرج ، كما يقول سبحانه : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » (٧٨ : الحج) . . ويقول الرسول الكريم : « إن هذا الدين يسر فأوغِلْ فيه برفق ، وإنه لن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه » . . ويقول الرسول الكريم أيضاً . . « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

فقوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » . . هو الميزان الذى يقيم عليه المؤمن أمرَ دينه كله . . وأن يتقى هذه الفتن التى تهب عليه من كل جهة ــ أن يتقيها

بقدر ما يملك من قوة ، وما يحتمل من جهد . . والله سبحانه وتعالى يقول : « لا يكلّف الله نفساً إلا وسْعَهَا . . لها ما كسبت وعليها ما اكتَسَبَت » .

فكل نفس لها طاقة من الاحتمال ، ولها قَدْرٌ من القوة ، وإنه على قدر طاقتها وقوتها ، تُحاسب ، فتجزَى بما كسبت ، وعلى ما اكتسبت . .

ومن أجل هذا كانت شريعة الإسلام ـ مع عمومها ـ تنظر إلى ما فى الناس ـ كأفراد ـ وإلى ما فيهم من قوة وضعف ، فتكلف القوىّ بما لا تكلف به الضعيف . .

ونجد مثلا لهذا فى نساء النبى ، وما لهن من خصوصية ، وما عندهن من استعداد لقبول الخير ، بما كان لحياتهن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أثر فى مدّهنّ بأمداد عظيمة من الإيمان والتقوى .. ولهذا قام حسابهن عند الله على غير حساب عموم النساء .. ففى مقام الإحسان يضاعف الله لهن الإحسان ، فيُؤْجَرْن بالحسنة ضعف أجر الحسنة من غيرهن .. فيقول سبحانه : « ومن يَقْنُتْ منكنّ لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً » (٣١ : الأحزاب) . . وكذلك الشأن فى مقام الإساءة ـ لو فُرض أن تقع منهن سيئة ـ فيقول جل شأنه :

« يا نساء النبىّ من يأت منكن بفاحشة مبينة يُضاعفْ لها العذاب ضعفين، وكان ذلك على الله يسيراً » (٣٠ : الأحزاب) . .

وليس هذا فى نساء النبىّ وحدهن ، بل إنه فى المؤمنين عامة ، فقد كلف الله المؤمنين فى أول الإسلام ، بأن يَلْقَى المسلمُ منهم فى ميدان القتال عشرة من العدوّ ، وأن يغلبهم ، دون أن ينكُل عن لقائهم ، أو يفر منهم إذا التقى بهم .. وذلك لما كان فى قلوب هؤلاء السابقين إلى الإيمان ، من قوة إيمان ، ووثاقة دين ، بما لم يكن لأحد أن يبلغ هذا المستوى العظيم بعد . . فلما دخل الناس فى دين الله أفواجاً ،وكان كثير من الذين آمنوا دونَ هذا المستوى،وعلى بُعد بعيد منه ـ

لمّا كان هذا، كان أمرُ الله للمسلمين فى القتال، أن يكون المقاتل منهم فى مقابل اثنين من أعدائهم..

ومن هذا نُدرك السرّ فى تلك التوجيهات التى كان يوجه بها النبى أصحابه حين يسألونه مثلا: أى الأعمال أفضل؟ فيقول لهذا قولاً، ولذاك قولاً، ولثالث قولاً آخر.. وهكذا، حسب ما يرى الرسول الكريم فيهم من قدرة واستعداد، فيوجه كلّ واحد منهم الوجهةَ التى يصلح لها، ويقدر على السير فيها..

على أن هذا ينبغى ألاّ يفهم على غير وجهه السليم، وإلاّ يُتأول تأويلا فاسداً، فيجعل المرء هذه الاستطاعة تُكأة يتحلل بها من تكاليف الشريعة، ويتخفف من أوامرها ونواهيها، محتكما فى ذلك إلى هواه فى تقدير الحدّ الذى تبلغه استطاعته، فيترك الصوم مثلا، لأن الجوع يؤذيه، والعطش يشقّ عليه، أو لأن ترك بعض العادات المتمكنة منه، يفسد تفكيره، ويُعلّ جسده.. وقُلْ مثلَ هذا فى كثير من أوامر الدين ونواهيه، حيث يبحث المرء عن مخرج يخرج به منها، وعن علة يتعلل بها، للتحلل من هذا القيد، والفكاك من هذا الالتزام.. إن هذا من شأنه أن يفسد على المرء دينه، ويغتال كل صالحة فيه.

وإن فى الشرّ خياراً.. وإنه لخير للمرء فى هذا المقام أن يترك فريضة من فرائض الله، أو يقصر فى أدائها، عن فتور، أو عدم مبالاة — إن ذلك لخير له من أن يكون تركه للفريضة، أو تقصيره فى أدائها، ناجما عن فتوى كاذبة خادعة، يفتى بها نفسه، ليتحلل من عَقْد لله الذى لزمه، من فرائض الشريعة وأحكامها..

إن التكاليف الشرعية لها أعباؤها، ولها مشقاتها، وإنها بغير هذا لا يكون لها ميزان فى فعل الطاعات، واجتناب المنهيات، فمن أطاع أمراً، فإنما تكون طاعته عن مغالبة أهواء، ودفع شهوات، ومن انتهى عن منهىّ عنه، كان

انتهاؤه عن استعلاء على نزعات، وكبْتٍ لرغبات .. وعن هذا الجهد يكون الجزاء .. ولهذا قيل « على قدر المشقة يكون الثواب » ..

ثم إن الدين أمانة بين العبد وربه، وإن الوفاء بهذه الأمانة إنما يكون حيث يبذل المرء غاية جهده، ويعطى كل ما عنده، دون إفراط، أو تفريط ..

والاحتكام فى هذا، إنما هو إلى ضمير المؤمن، وإلى ما يفتيه به قلبه، كما يشير إلى هذا الرسول الكريم فى قوله : « استفت قلبك .. وإن أفتاك الناس وأفتوك » !!

فإذا أعفَى الدين ـ مثلا ـ أصحابَ الأعذار من الجهاد فى سبيل الله، كما يقول سبحانه .. « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله » (٩١ : التوبة) ـ إذا بيّن الإسلام هذه الأعذار التى تُعفى المسلم من الجهاد، فإن بيان حدود هذه الأعذار من الضعف، والمرض، وضيق ذات اليد فى النفقة ـ إن بيان هذه الحدود، إنما يرجع إلى ضمير المسلم ذاته، إن كان مرضه أو ضعفه يعفيانه من الجهاد أو لا، أو إن كان بين يديه مالٌ خفى أو ظاهر، أو لا .!. فتلك أمور لا يعلمها إلاّ الله سبحانه، وإلا أصحابها المتصفون بهذه الصفات . .

وقوله تعالى :

« واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم » ..

هو من تمام التقوى التى أمر الله سبحانه وتعالى بها فى قوله جلّ شأنه : « فاتقوا الله ما استطعتم » فإن التقوى فى حدود الاستطاعة، مرجعها إلى القلب، وما انعقد عليه من إيمان بالله، ومراقبة لأوامره ونواهيه . .

فهذا جانب يمثل الصلة بين العبد وربه .. وحسابه فى هذا على الله .

وهناك جانب آخر من الإنسان فيما يتصل بأوامر الله ونواهيه ، وهو الجانب الذى يمسّ المجتمع الذى يعيش فيه ، والذى تحكمه أوامر هذا الدين الذى يَدين به ، وهو الجانب الظاهر ، الذى يتمثل فى الاستماع لأولى الأمر والطاعة لهم ، وتقديم المال المطلوب منه فيما يبدو من ظاهر حاله لولىّ الأمر ..

وهذا يَعنى ألا يقف المسلم عند قوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » وأن يجعل تقديره لاستطاعته ، حُكما ملزِماً لولىّ الأمر .

فإذا دُعِىَ من ولى الأمر إلى الجهاد مَثَلا ، فلا يتعلل بأنه مريض ، أو ضعيف ، وإن كان فى الواقع مريضاً أو ضعيفاً ، بل يجب أن يسمع ويطيع ، على مابه من مرض أو ضعف .. فإن سَمْعه وطَاعته فى تلك الحال شاهدان يُظاهران ماهو عليه من مرض أو ضعف ، وهذا من شأنه أن يجعل ولىّ الأمر هو الذى يعفيه من الجهاد ، ويعزله عن ركب المجاهدين .. أما إذا أبى أن يسمع أو يجيب ، كان ذلك مَثار فتنة لغيره ، ثم كان موضع تهمةٍ له بأنه يتصنع المرض أو الضعف ، حتى يتحلل من الاستجابة للجهاد الذى يدعوه إليه ولى الأمر ..

وكذلك الشأن فى الإنفاق فى سبيل الله ، وهو أنه من الواجب أن ينفق المرء فى سبيل الله من غير دعوةٍ ، فإذا دُعِى من ولىّ الأمر كان عليه أن يجيب ، وأن يقدم المطلوب منه ، من زكاة أو نحوها ..

وقوله تعالى : « خيراً لأنفسكم » .. يجوز أن يكون مفعولا به للفعل « أنفقوا » أى أنفقوا مالا ، أو نحوه ، مما هو خير ، ونافع ، ويكون الجار والمجرور « لأنفسكم » متعلقاً بقوله تعالى « خيراً » أى أنفقوا خيراً لأجل أنفسكم .. وعبّر عما يُنفق بلفظ الخير ، لأنه خير فى ذاته ، وهو خير لمن يُنفَق من أجله ، وهو خير لمن يُنفقه ..

ويجوز أن يكون « خيراً » منصوباً بفعل مضمر ، تقديره أنفقوا وقدموا خيراً لأنفسكم من أموالكم .

وقوله تعالى : « ومن يُوقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون » .

هو تحريض على البذل والإنفاق فى سبيل الله ، وتحذير من الشحّ ، والضنّ بالبذل والسخاء فى وجوه الخير .. فإن من وَقَى نفسه شرَّ هذا الداء ، داء الشحّ ، كان من المفلحين، حيث إن البخل، لايكون إلاّ من نفس استهلكها حبُّ المال ، فضنت به عن الإنفاق فى قضاء الحقوق ، وفى أداء الواجبات لذوى القربى ، والفقراء والمساكين . . ثم ذهب بها هذا الحرص ، إلى اكتساب المال من كلّ وجه ، فى غير تحرّج أو تأثم ، فإن حبّ المال يُعمِى ويُصم !

فأقرب الناس إلى السلامة ، وأدناهم إلى الفلاح من خَلَصَ بنفسه من رِبقة العبوديّة للمال ، ومن حبائل فتنته .. كما يقول سبحانه : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » .. فإذا تحرر الإنسان من هذا الداء ، واستعلى على هذه الفتنة ، استقام له طريقه فى الحياة ، فكان من المفلحين فى الدنيا والآخرة جميعاً .

قوله تعالى :

* « إن تُقْرِضوا الله قرضاً حسناً يُضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكورٌ حليمٌ » .

هو إغراء بالإنفاق فى سبيل الله ، وإعلاء لشأن المنفق ، ورفع لقدره ، حتى إنه ليقف بين يدى خالقه والمنعم عليه موقف المقرِض ، الدائن.. فما أعظم فضلَ الله ، وما أوسع إحسانه . . إنه يعطى ، ثم يستقرض مما أعطى !! والله سبحانه غنىٌّ غِنًى مطلقاً عن هذا القرض الذى يقترضه ، لأن هذا الذى يقترضه ، هو ملك له ، وفضل من فضله ، ولو كان فى حاجة إلى أن يقترض ، لأمسك

هذا الذى يقترضه .. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .. ولكن هذا العطاء، ثم الاقتراض منه، هو تكريم للإنسان، وإحسان إليه، حتى ينال بما ينفق من مال الله ثوابَ الله فى الآخرة وحسن الجزاء فى الدنيا، بما يضاعف للمنفق ما أنفق، كما يقول سبحانه: «يمحق الله الرِّبا ويُرْبِى الصدقات» (٢٧٦ : البقرة) وكما يقول جل شأنه: «من ذا الذى يُقرض الله قرضاً حسناً فيُضاعفَه له أضعافاً كثيرة والله يقبضُ ويَبْسط» (٢٤٥ : البقرة).

والقرض الحسن: هو الذى يُنفَق فى سبيل الله عن رِضاَ نفسٍ، وانشراح صدر، والذى لايتبعه منٌّ ولا أذًى.

قوله تعالى: «والله شكور حليم» .. أى أنه سبحانه عظيم الشكر لمن يُقرضه، ويُنفق فى سبيله، فيجزيه الجزاء الحسن على ما أنفق، وهو سبحانه «حليم» لايَعْجَل بعقاب الذين يضنون ويبخلون بما آتاهم الله من فضله، فلا يقطع عنهم أمداد نعمه وإحسانه، فى هذه الدنيا، بل يمدّ لهم فى العطاء، ولا يعجّل لهم الموت حتى يستوفوا آجالهم، وحتى تكون بين أيديهم فرصة المراجعة، والمصالحة مع الله .. فإن هم لم يُصلحوا أمرهم، وماتوا على ماهم عليه من الشحّ والبخل، والضنّ بحقوق الله ـ كان إلى الله حسابهم، فإن شاء عفا ورحم، وإن شاء عاقب وانتقم.

قوله تعالى:

«عالم الغيب والشهادة العزيزُ الحكيم».

هو معطوفٌ عطفَ بيان على قوله تعالى: «والله شكور حليم» .. أى هو سبحانه شكور حليم، وهو عالم الغيب والشهادة، وهو العزيز الحكيم .. فهذه صفات الله سبحانه التى يتعامل بها مع عباده الذين يُقرضونه .. إنه سبحانه

يشكر للمنفقين ما أنفقوا ويضاعف للمقرضين ما أقرضوا ، ولا يعاجل المقصرين منهم فى الإنفاق ، العذاب ، بل يمهلهم ، ويدع لهم فسحة من الوقت حتى تنتهى أعمارهم فى هذه الدنيا ، ليكون لهم فى هذه الفسحة مجال لتصحيح موقفهم ، واللّحاق بالمنفقين الذين سبقوهم إلى رضوان الله .. وهو سبحانه مطلع على سرهم وجهرهم ، عالم بما أنفقوه ، وما بخلوا به .. وهو سبحانه « العزيز » الذى هو مستغنٍ بعزته عن إنفاق المنفقين ، وعَوْن المعينين ، وهو « الحكيم » الذى يقيم موازين الناس بالحكمة والعدل ، ويضع كل إنسان بمكانه الذى هو أهلٌ له ..

* * *

٦٥ - سورة الطلاق

نزولها : مدنية .

عدد آياتها : اثنتا عشرة آية .

عدد كلماتها : مائتان وأربعون كلمة .

عدد حروفها : ألف وستون حرفاً .

مناسبتها لما قبلها

كان مما تضمنته السورة السابقة : « التغابن » ـ قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم » .. وفى هذا ـ كما قلنا ـ تحذيرٌ من فتنة الأزواج ، والأولاد ، وأن هذه الفتنة قد تعظم ويشتد خطرها ، فلا يمكن مدافعتُها والنجاة منها إلا بالفرقة ، وقطع علائق الصلة ..

ولما كانت الفرقة بين الرجل وزوجه لا تكون إلا بالطلاق ، فقد كان من المناسب فى هذا المقام أن تُبيِّن بعد ذلك أحكامُ الطلاق، والصورة التى يكون عليها، حتى لا يؤدّى ذلك إلى جوْر وعدوان ، بل ينبغى أن يكون الرفق ، والحكمة ، من الأدوات العاملة فى حلّ عُرا الزوجية بين الزوجين ، إذا لم يكن بدٌّ من حلّها ، امتثالا لقوله تعالى : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » (٢٢٩ : البقرة) .

هذا ، وفى مجىء سورة الطلاق عقب الحديث عن فتنة الأزواج والأولاد ـ فى هذا ما يشير ، فى إعجاز مبين ، إلى أن الطلاق لا يكون إلا فى حال يتحكم فيها الخلاف بين الرجل والمرأة ، حتى يكاد يكون فتنة ، لا يمكن الخلاص منها إلا بهذا الدواء المرّ ، وإلا بهذا الداء الذى يذهب به داء أشد منه .. وإن فى الشر خياراً ..

وبعض السمّ ترِياق لبعض وقد يشفى العُضال من العضال

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٧)

* « يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « يأيها النبيّ إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهنّ من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشةٍ مبينةٍ وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لاتدرى لعل الله يُحدث بعد ذلك أمراً » .

الخطاب هنا للنبيّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ والمراد به المسلمون جميعاً .. فالمسلمون مخاطَبون من الله سبحانه وتعالى فى شخص النبيّ ، الذى يتلقّى خطابَ الله عنهم ، لأنه إمامهم وهاديهم ، وحامل الدعوة من الله إليهم . .

وقد خُوطب النبيّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من ربّه ، بقوله تعالى : « يأيها النبيّ » . وبقوله سبحانه : « يأيها الرسول » ولم يخاطب باسمه ، تكريماً له من ربّه ، بهذه الملاطفة التى تشير إلى المحبة والقرب من ربّه ، الذى يخلع عليه مايخلع من أوصافِ التكريم ، ويناديه بها ، حتى لكأنها عَلَمٌ عليه وحده .

وقوله تعالى : « إذا طلقتم النساء » أى إذا لزم الأمر ، ولم يكن بدٌّ من وقوع الفرقة منكم ، بين الرجل والمرأة .

وقوله تعالى : « فطلقوهن لعدتهن » أى فليكن الطلاق فى مواجهة الحساب لعدتهن . . أى ليكن هذا الطلاق منظوراً فيه للعدة . . وذلك بتخيّر الوقت المناسب للطلاق . .

فاللام فى قوله تعالى « لعدتهن » للتوقيت ، أى لوقت استقبال العدة ، مثل قولك : انتهيت من هذا الأمر لليلة بقيت من المحرم ، أى مستقبلا لهذه الليلة . .

وهذا يعنى أن تطلّق المرأة فى طهر لم تُمس من الرجل فيه ، فإذا طُلقت فى الطهر المتقدم للقرء الأول من أقرائها فقد طلقت مستقبلةً لِعدتها . . وهذا — كما يقول الزمخشرى — « أحسنُ الطلاق ، وأدخله فى السنة ، وأبعده من الندم » . . لأن الرجل إذا طلق المرأة وهى فى طهرها ، دون أن تدعوه نفسه إليها ، كان من المستبعد أن يتوق إليها بعد طلاقها ، وبهذا لا يكثر ندمه على فراقها . .

وعن إبراهيم النَّخَعى ، أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون ألاّ يطلقوا أزواجهم للسنة — أى طلاق السنة ، وهو أن يكون فى طهر لم تمس فيه — كانوا لا يطلقونهن إلا واحدة ، ثم لا يطلقون غير ذلك ، حتى تنقضى العدة . . وكان ذلك أحسنَ عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثاً فى ثلاثة أطهار . .

وقال مالك بن أنس : « لا أعُدّ طلاق السُّنة إلا واحدة » . . وكان يكره الثلاث ، مجموعةً أو متفرقة .

وأما أبو حنيفة وأصحابه ، فقد كرهوا ما زاد على واحدة فى طهر واحد ، فأمّا مُفرقاً فى الأطهار ، فلا .

وعند الشافعى — رضى الله عنه — لا بأس بإرسال الثلاث ، وقال : لا أعرف فى عدد الطلاق سنّة ، ولا بدعة ، وهو — أى الجمع ، والتفريق — مباح .

يقول الزمخشرى تعقيباً على هذا :

« فمالك ، يُراعى فى طلاق السُّنة ، الوَحدة والوقت .. وأبو حنيفة ، يراعى التفريق والوقت .. والشافعى ، يراعى الوقت وحده » .

قوله تعالى : « وأحْصُوا العدة » أى اضبطوا حسابها ، وهى أن تكون

مستوفيةً الزمن الذى بينه الله سبحانه وتعالى ، كما ستبين الآيات بعد ذلك ، وذلك فى شأن الزوج المدخول بها ، وله أن يراجعها قبل انقضاء العدة إذا لم يكن قد طلقها ثلاثاً .. ويكون بعد انقضاء العدة فى هذه الحال ، كأحد الخطّاب ، فإن كانْ قد طلقها ثلاثاً ، فلا تحل له إلا بعدزواج من غيره وطلاق وانقضاء عدة..

قوله تعالى : «واتقوا الله ربكم» ـ هو دعوة للرجال خاصة ، إلى تقوى الله فى هذا الموقف ، وألا يكون الطلاق عن عدوان ، أو انتقام ، أو اتباع لشهوة عارضة ، أو نزوة طارئة ، فإن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يقول : « إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

وقوله تعالى : « لاتُخرجوهن من بيوتهن » . . هو نهى للرجال عن أن يخرجوا مطلقاتهم قبل انقضاء العدة ، بل ينبغى أن يُمسكوهن فى بيت الزوجية ، فإنهن زوجات إلى أن تنقضى العدة .

وفى إضافة بيوت الأزواج إلى الزوجات — ما يُدخل فى شعور كلّ من الرجل والمرأة ، أن الزوجية لا تزال قائمة بينهما فى أثناء العدة ، وأن الزوجة مازالت فى بيتها ، بيت الزوجية ، وهذا من شأنه أن يجعل المسافة النفسية قريبة بينهما ، وأن يكون ذلك داعية إلى إصلاح ذات البين ، وإزالة أسباب الفرقة . .

فالمرأة فى أثناء العدة لا تزال فى بيتها ، بيت الزوجية ، وليست غريبة عنه ، وهى بهـذا الشعور تتصرف كما كانت تتصرف قبل إيقاع الطلاق عليها .. وهذا مدخل واسع إلى المصافاة ، وإصلاح ما بالنفوس . .

قوله تعالى : « ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » ..

قيل فى معنى الفاحشة المبينة هنا أقوال . . منها :

أن يثبت عليها الزنا ، فتخرج من بيت الزوجية ، لإقامة الحدّ عليها .. أو أنها تمتنع عن زوجها إذا دعاها إلى نفسه ، فتعتبر ناشزاً ، وبهذا يسقط حقها فى السكنى والنفقة أثناء العدة .

أو أن تخرج هى من تلقاء نفسها مراغِمة لزوجها ، فيعتبر هذا خروجاً منها عن أمر الله ، الذى ألزمها فيه الإقامةَ فى بيت الزوجية . .

وهذا القول الأخير ، هو أقرب الآراء إلى المعنى المراد ..

وقوله تعـالى : « وتلك حدود الله . . ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه » . .

أى هذه أحكام الله وحدوده التى أقامها لشريعته ، ومن يتعد هذه الحدود ويخرج عنها ، فقد ظلم نفسه ، لأنه تعرّض لسخط الله ، وعقابه ..

وقوله تعالى : « لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » .. أى لاتدرى أيها المطلِّق ماذا سيكون فى التزامك لحدود الله ، وإمساكك زوجَك فى بيت الزوجية ، فقد يحدث الله أمراً ، يجىء على غير ما تتوقع من فراق بينك وبين زوجك ، فيصلح الله ما بينـكما ، ويعيد الحياة الزوجية ، التى كانت آخذة طريقَها إلى الزوال ..

قوله تعالى :

* « فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله . . ذلـكم يوعظ به من كان يؤمن واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » . .

أى فإذا بلغت المطلقة أجلها ، ووافت مشارف العدة ، ولم تَبق إلا لحظة ،

ينتهى عندها الأمر ، إلى مراجعة ، أو طلاق — كان الرجل بالخيار ، إما أن يُمسك مطلقته بمعروف ، أو يفارقها بمعروف ،فلايكون إمساكه لها للضرار والنكاية ، ولا يكون فراقها للانتقام والتشفى . . وإنما الذى يقضى به شرع الله ،أن يكون كلٌ من الإمساك ،أو الفراق ، قائماً على العدل ، والإحسان، وتجنب البغى والعدوان.. ثم أن يكون هذا ، وذاك ، بمحضر من شاهدى عدل يشهدان المراجعة ، أو الفراق . . وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبى حنيفة ، أمّا عند الشافعى ، فهو واجب فى الرجعة ، مندوب إليه فى الفرقة ..

وفائدة هذا الإشهاد ، هو ألا يقع بينهما التجاحد ، ولئلا يموت أحدهما فيدّعى الآخر ثبوتَ الزوجية ليرث ، فى حال أنّ الفراق قد تم بينهما .

وقوله تعالى : « ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر » أى ذلك التدبير الذى دبره الله سبحانه وتعالى ، وتلك الحدود التى رسمها لهذا الأمر ، إنما يوعظ به ، ويستقيم عليه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فيحُول هذا الإيمان بينه وبين التعدّى على حدود الله . .

وقوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » أى ومن يلتزم حدود الله ، ويراقب ربه ويخش سلطانه ـ يجعل له مخرجاً عما هو فيه ، من معاناة وضيق ، وهو فى مواجهة هـذا الموقف ، الذى تتغير فيه حياته . . فإذا اتقى الله ، ولزم حدوده ، اختار له الله سبحانه وتعالى الطريق المستقيم ، الذى يتبدل فيه حاله من ضيق إلى سعة ، ومن همّ إلى فرج ، سواء أكان ذلك بإمساك الزوجة أو فراقها ، أو فى أى أمر من أمور الحياة يَعرض له ، فإن تقوى الله فى هذا الأمر ، كفيلة بأن تبلغ به مرفأ الأمن والسلام .

قوله تعالى :

* « ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغُ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً » ..

هو معطوف على قوله تعالى : « يجعل له مخرجاً » .. وهو واقع فى جواب الشرط : « ومن يتق الله » ..

وقد جاء أحد جوابى الشرط فاصلة للآية . . ثم جاء الجواب الثانى بدءاً لآية أخرى ..

وهذا الفصل بقوله تعالى : « مخرجاً » ليس لرعاية الفاصلة ، كما يذهب إلى ذلك علماء البلاغة وأكثر المفسرين . فإن كلام الله تعالى منزه عن أن تحكمه الضرورات التى تحكم أعمال البشر ، من شعر ونثر ..

وإن هذا الفصل لهو إعجاز من إعجاز القرآن . . هذا ما ينبغى أن نستيقنه ، سواء اهتدينا إلى مواقع هذا الإعجاز ، أو لم نهتد إليها . .

والذى نقوله ــ والله أعلم ــ إن قوله تعالى : « ومن يتق » هو شرط يواجَه به كل من الزوج والزوجة . . وأما الجوابان ، وهما : « يجعل له مخرجا » ثم « ويرزقه من حيث لا يحتسب » فأولهما للزوج ، الذى وعده الله سبحانه بأن يجعل له مخرجاً ، إذا هو اتقى الله . وأما الجواب الآخر ، فهو للزوجة ، التى وعدها الله سبحانه ، بأن يرزقها من حيث لا تحتسب ، ولا تقدّر ، إذا هى اتقت الله ، فى موقفها من زوجها فى فترة العدة . .

وهذا لا يمنع من أن يكون ذلك الشرط ، وجواباه ، للعموم ، بمعنى أن كلّ من اتقى الله ، يجعل الله له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب .. ولكن لمّا كان ذلك فى مواجهة الزوجين ، المزمعين على الفراق ، جاءت الجملة الشرطية ضابطة لحالهما فأعطت كلاًّ منهما ما يناسبه . ثم كان منها هذا الشمول الذى يسع الناس جميعاً .

وقوله تعالى : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » : شرط وجواب ، يَدخل فيه كلٌّ من الزوج والزوجة ، كما يدخل فى حيّزه الناس جميعاً . . فمن يتوكل على الله ، ويُسْلِم أمره إليه ، فالله حَسبه ، وكافيه ، ومدبّر أمره . . يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « من انقطع إلى الله كفاه الله كلّ مؤونة ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وَكَلَه الله إليها » .

وقوله تعالى : « إن الله بالغُ أمره » . . أى أنه سبحانه هو المالك المتصرف فى هذا الوجود ، وأن كلّ شىء بيده ، خاضع لمشيئته ، مستجيب لإرادته ، وما يريده سبحانه فهو واقع لا محالة ، دون أن يعوّقه معوّق ، أو يغيره أحد . .

وقوله تعالى : « قد جعل الله لـكل شىء قدْراً » .

أى أن كل شىء فى هذا الوجود ، هو بتدبير وتقدير من الله سبحانه، وليس هناك من شىء يجىء عفواً ، أو يقع مصادفة واتفاقاً . . كما يقول سبحانه : « وكلُّ شىء عنده بمقدار » (٨ : الرعد) .

قوله تعالى :

* « واللائى يئسن من المحيض من نسائـكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حَملهنّ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً » .

فى هذه الآية بيان للعـدة التى تعتدها المطلقات من النساء ، وهى تختلف باختلاف أحوالهن.

فذوات الحيض ، عدتهن ثلاثة قروء ، كما يقول سبحانه : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » (٢٢٨ : البقرة) والقرء : يُطلق على الطهر والحيض . . فتعتد ذات الحيض ثلاث حيضات ، تطهر فيهن ثلاث مرات .

وأما اللائى يئسن من المحيض ، وهنّ اللائى بلغن سنّ اليأس، حتى انقطع الحيض عنهن . . فهؤلاء عدتّهن ثلاثة أشهر . .

وأما اللاتى لم يحضن أصلا ، لصغرهن، أو لأنهن من الممتدات الطهر أبدا ، فلا يحضن ـ هؤلاء عدتهن ثلاثة أشهر كذلك . . وأما ذوات الحمل ، فعدتّهن وضع حملهنّ . .

وأمّا قوله تعالى : « إن ارتبتم »فهو اعتراض بين المبتدأ والخبر ، للإشارة إلى الحال الداعية إلى هذا الحكم الذى تضمنته الجملة ، وهو أن يكون ذلك عن شك وارتياب ، فى حال المرأة التى بلغت السنّ الميئوس فيها من الحيض ، ثم ترى الدم ، لا تدرى إن كان دمَ حيض ، أو استحاضة . . فهذه عدتها ثلاثة أشهر ، أى أنها تعتد بالأشهر ، ولا تعتد بالقروء . .

قوله تعالى : «ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً». .أى من يلتزم حدود الله ، فيما أمر ونهى ، جعل الله له يسراً فى كل أمر يعالجه ، فإنه من هُدَى الله على نور من ربه ، « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » . (٤٠ : النور)

قوله تعالى : « ذلك أمر الله أنزله إليكم » أى هذه الأحكام التى بيّنها الله سبحانه فى هذه الآيات ، هى أمر من الله سبحانه وتعالى ، يجبُ الوفاء به ، حيث يحاسَب المقصّر ، ويجازَى المطيع . .

وقوله تعالى : « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ، ويُعظِمْ له أجراً » . . هو دعوة عامة إلى تقوى الله والتزام حدوده . . وأن من يتق الله يكفر الله عنه سيئاته ، بما فعل من إحسان كما يقول سبحانه : « إن الحسنات يذهبن السيئات» « ويعظم له أجراً » أى ويضاعف له الثواب .

قوله تعالى :

* « أسكنوهن من حيث سكنتم من وُجدكم ولا تضارّوهن لتضيقوا

عليهن وإن كنّ أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن .. فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى » . .

هذا في حكم للمطلقات طلاقاً بائناً ، أما من طلقن طلاقاً رجعياً ، فقد جاء حكمهن في قوله تعالى : « لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » .

فالمطلقة طلاقاً بائناً ، لها ـ إلى أن تنقضى عدتها ـ السكنى ، خارج بيت الزوجية ، ولا نفقة لها ولا كسوة ، ولا يتوارثان . . وأما إن كانت حاملا فلها النفقة والكسوة والمسكن ، حتى تضع حملها ، وبذلك تنقضى عدتها . . . كما يفهم من قوله تعالى : « وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن » فدل ذلك على أن النفقة واجبة للمطلقة طلاقاًبائناً ، إذا كانت حاملا ، أما غير الحامل فقد جاء الأمر بسكناها دون النفقة عليها .

هذا ، وقد اختُلف في النفقة للمطلقة ثلاثا قبل انقضاء عدتها ، فقال أكثر العلماء ، لها السكنى ولا نفقة لها ، وقال آخرون ، لها السكنى والنفقة ، لأنها محبوسة على الرجل لحقه عليها ، حتى تنقضى عدتها ، فاستحقت النفقة كالزوجة . . وهذا رأى أبي حنيفة ، استناداً إلى قوله تعالى : « ولا تضـارّ وهنّ لتضيقوا عليهن » ، وترك النفقة من أكبر الأضرار . .

ونحن نميل إلى هذا الرأى القائل بوجوب النفقة للمطلقة طلاقاً بائناً ، وذلك :

أولا : أن الأمر بإسكانهن ، من غير نفقة عليهن ، أشبه بالحبس ، بل إن الحبس خير منه ، لأن المحبوس في جريمة ، يقدم له الطعام والشراب !

وثانياً : لا يتفق مع روح الشريعة السمحاء أن تُلقِيَ بالمرأة بعد الطلاق ، في

هذا السكن المهجور ، الذى لايصحبها فيه إلا ماتحمل من هموم وأحزان ، وإلا ماتمضغ من مرارة هذه المصيبة التى حلت بها ، وقد أخرجتها من بيتها ، ثم تضنّ عليها هذه الشريعة بشيء من العزاء ، وهو مايقدم لها من نفقة ، فى فترة هذا السجن الانفرادى ؟!

وثالثاً : ماجاء فى قوله تعالى : « وإن كنّ أولاتِ حَمْل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن » .. ليس فيه مايحجب عن غير الحامل حقّها فى الإنفاق عليها ، وإنما جاء ذلك ليرفع عن أولات الحمل ماقد يُوهم بأن لا نفقة لهن إلا فى حدود مايُنفق على غير ذوات الحمل ، زمناً ، وقدراً ، بمعنى أن يُنفق على ذوات الحمل فى حدود ثلاثة أشهر ، أى بمقدار ماينفق على غير الحامل .. فجاء قوله تعالى : « وأولات الأحمال أجلُهنّ أن يضعن حملهن » ـ جاء رافعاً لهذا الوهم من جانبيه جميعاً .. فينفق على ذات الحمل حتى تضع حملها ، ثم ينفق عليها قدْراً مراعًى فيه حالة الحمل الذى تحمله ، بحيث يكفل لها الغذاء المناسب لحالها وحال الطفل الذى يغتذى منها .. فالنفقة على ذات الحمل تختلف عن النفقة على غير الحامل

وقوله تعالى : « من وُجد كم » أى مما تجدون بين أيديكم ، أى مما هو موجود ومتاح لكم ..

وقوله تعالى : « ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن » ـ هو خطاب للأزواج بأن يلتزموا حدود الله ، مع مطلقاتهن ، اللاتى أمسكوا بهن فى بيوتهم ، وألا يسلطوا عليهن من الكيد والضر ما يحملهن على ترك ما لهن من حقوق على أزواجهن ..

وقوله تعالى : « فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف » ـ هو أمر للأزواج بأن يقوموا بأداء النفقة المناسبة لمطلقاتهم ، إذا هن قمن بإرضاع ما ولدنَ لهم من أولاد .. ؟

وسُمّى ما يقدم للمطلقة من نفقة على الرضيع أجراً ، إشارة إلى أن الأب هو المتكفل بالإنفاق على الولد دون الأم ، وأن الأم - مع وجود الأب - تعتبر كالأجنبية فى حال طلاقها ، ومن هنا كان استحقاقها للأجر ، لأنه فى مقابل عمل للأب ، تستوفى عليه الأجر منه ..

والائتمار بالمعروف ، هو مداولة الأمر بين الرجل ومطلقته ، بالمعروف ، واللطف ، وذلك للاتفاق على ما فيه مصلحة الرضيع . . فليذكر كل منهما أن الأمر الذى يتداولانه بينهما ، هو خاص بولدهما معاً ، وأن من مصلحة الوليد أن تجتمع عليه عواطف الأبوة والأمومة معاً ، وألا يكون انفصال الأبوين سبباً فى حرمانه من هذه العاطفة ، من أحدهما ، أو كليهما ..

إذ لا ذنب له فيما حدث بينهما من خلاف أدى إلى هذه الفُرقة . . فليذكر الأبوان هذا ، وليذكرا أيضاً أنهما إذا فاتهما أن يعملا بقوله تعالى : « أو تسريح بإحسان » أو قوله سبحانه : « ولا تنسوا الفضل بينكم » - فلا يفوتهما أن يستقيما على حدودِ قوله سبحانه : « وأتمروا بينكم بمعروف » وأنه إذا كان قد وقع من أحدهما أو كليهما خروج على حدود الله فى الفرقة التى وقعت بينهما ، فإنه ينبغى ألا يضاعَف هذا العدوان بعدوان آخر على حدود الله ، بظلم هذا الوليد ، الوافد من عند الله ، ضيفاً عليهما ..

وقوله تعالى : « وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى » أى أنه إذا لم يقع بين الرجل ومطلقته اتفاق على أن تقوم الأم بإرضاع الولد ، سواء أكان ذلك التعاسر والتشاد من جهة الأب ، أو من جهة الأم ، فإن الوليد يجب أن يُكفل له حقه ، وأن تحفظ عليه حياته ، وذلك بأن يجد له الأب مرضعاً أخرى غير أمه .. فإن لم يكن ذلك ميسوراً ، أو لم يقبل الطفل ثدياً غير ثدى أمه ، ألزمت الأم بإرضاع طفلها ، وألزم الأب بأداء النفقة ، أو الأجر ، المناسب للأم ..

وفى إسناد التعاسر إلى الأبوين ، وإن كان ذلك من أحد الطرفين، للإشارة إلى أن هذا التعاسر الذى وقع ، هو محسوب عليهما معاً .. لأنه إذا كان التعنت والتشدد من أحدهما ، فإنه كان من الممكن ـ لو تلطف الطرف الآخر ، وحاسَنَ ولم يلق التعنت بالتعنت ـ كان من الممكن أن يتم الاتفاق ويقع التياسر بينهما .. ولهذا فهما شريكان فى التعاسر الذى يقع بينهما .

قوله تعالى :

« لينفق ذو سعة من سعته ومن قُدِرَ عليه رزقُه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا » ..

هو أمر بالنفقة الواجبة على الوالد لزوجه وولده ، وأنها إنما تكون فى حدود طاقته ، فى حال يسره ، أو عسره ، غير منظور فى هذه النفقة إلى حال الأم ، فى يسر أو عسر ..

وقوله تعالى: « ومن قُدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » أى ومن ضُيّق عليه فى رزقه ، فإنه لا يعفى من النفقة على طفله ، وإنما عليه أن ينفق مما هو متاح له ، وإن كان قليلاً .. فإنه هو المسئول عن أمر هذا الطفل ، ولن يُرفع عنه عبء هذه المسئولية بحال أبداً .. فكما هو عاملٌ بكل وسعه على الإنفاق على نفسه وحفظ حياته من التلف ، كذلك يجب أن يعمل بما فى وسعه على الإنفاق على هذا الوليد الذى هو بعضٌ منه ..

وقوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها » ـ هو رفع للحرج ، ودفع المشقة التى قد يُحمل عليها الأب فى سبيل الإبقاء على ولده ، وأنه إذا كان المطلوب من الأب شرعاً وطبعاً أن ينفق على ولده ، فإن ذلك إنما يكون فى حدود الطاقة، وعلى قدر الإمكان .. « لا تُضارّ والدة بولدها ، ولا مولود له بولده » ..

فالولد نعمة ، لاينبغى أن تكون نقمة يشقى بها أىٌّ من الأب أو الأم ..

وقوله تعالى : « سيجعل الله بعد عسر يسرا .. » هو وعد من الله سبحانه للمضيَّق عليهم فى الرزق ، بأن هذا الضيق إلى سعة ، وإن هذا العسر إلى يسر ، فليتحمل الأب هذا الضيق ، وألا يضيق به ، ثم ألا يحمله الضيق على أن يلتوى فى سلوكه إزاء الإنفاق على ولده الرضيع ، أو يتحلل من هذا الواجب المفروض عليه ..

الآيات : (٨ — ١٢)

* « وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ١٢ »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وكأين من قريةٍ عَتَتْ عن أمر ربّها ورُسله فحاسبناها حساباً شديداً وعَذبناها عذاباً نكراً » .

مناسبة هذه الآية وما بعدها للآيات التى قبلها ، هى أن الآيات السابقة قد رسمت حدوداً أقامها الله سبحانه وتعالى للعلاقة بين الزوجين ، وما قد يَعرض لهذه العلاقة من عوارض تنتهى إلى الفرقة بينهما ، وقد توعّد الله سبحانه الذى يتعدّى هذه الحدود من الزوجين ..

وهنا فى قوله تعالى : « وكأيّن من قريةٍ عتت عن أمر ربها .. الآية » ـ عرض لمن يتعدّون حدود الله عامة ، وما يأخذهم الله به من بلاء ونكالٍ فى الدنيا ، ومن عذاب شديد منكر فى الآخرة . .

وفى هذا العرض ، يرى كلٌّ من الزوجين أنهما إذا خرجا عن حدود الله ، فلن يُفلتا من سلطانه ، ولن يَنْجُوا من حسابه وعقابه ، لأن أيًّا منهما مهما بلغ من جاهه وسلطانه ، فلن يكون أقوى من أية قرية من تلك القرى التى اغترت بقوتها ، وبسطة الرزق لها ، فعتت عن أمر ربها ورسله ، فحاسبها الله حساباً شديداً ، وعذبها عذاباً نكراً ..

وكأين : بمعنى « كم » الخبرية التى تُفيد التكثير ، أى وكم من القرى التى عتت عن أمر ربها ورسله ، فحاسبها الله حساباً شديداً ، وعذبها عذاباً نُكراً ؟ فما أكثر هذه القرى التى وقعت تحت هذا الحكم ..

وعتت : من العتو ، وهو التطاول بالبغى والعدوان ، والتمرد والعصيان ، عن استعلاء وتكبر . . والنكر : الشديد الأليم .

قوله تعـالى :

* « فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خُسراً » .

أى أن هذه القرية ـ ومثلها كـثير من القرى الظالمة العاتية ـ قد ذاقت عاقبة أمرها الوبيل ، وتجرعت كئوس العذاب ، فـكانت نهايتها الخسران المبين فى الدنيا حيث دمر الله عليها وعلى أهلها ..

قوله تعـالى :

* « أعد الله لهم عذاباً شديداً .. فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً » .

أى ، وإذا كان مصير هذه القرى العاتية الظالمة ، هو الخراب والدمار فى الدنيا ،فإن ذلكِ ليس هو نهاية مطافها ، وإنما هناك عذاب الآخرة الذى أعده الله لأهلها ، وهو عذاب شديدٌ ، لايقاس به ماحلّ بهم من عذابٍ فى الدنيا .

وفى الحديث عن القرية فى قوله تعالى : « فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرِها خُسراً » ثم الحديث عن أهلها فى قوله تعالى : « أعدّ الله لهم عـذاباً شديداً فاتقوا الله يا أولى الألباب . . »

فى هذا تفرقة بين حالين: فالحال الأولى فى الدنيا ، حيث تشهد القرية مصارع أهلها ، وحيث يشملها من الخراب والدمار مايجعلها بعضاً من هؤلاء القوم الذين وقع بهم عذاب الله . ولهذا جاء الحديث عن القرية .

أما الحال الثانية ، التى تتحدث فيها الآيات عن القوم ، فهى عن حالهم فى الآخرة ، حيث لاقُرى لهم ، وحيث يلقوْن العذاب ولا شىء معهم مما كان لهم فى الدنيا من مال ، ومتاع ، وديار ، ولهذا جاء الحديث عن أهل هذه القرية .

وقوله تعالى: « فاتقوا الله يا أولى الألباب » . . هو إلفات لأهل العقول ،

وأصحاب البصائر ، أن يكون لهم مزدَجَر ، من هذا الذى حلّ بالظالمين ، المعتدين، من نِقم الله ، فى الدنيا ، ومن العذاب الشديد فى الآخرة ، وأن يتقوا الله ، ويلتزموا حدوده ، حتى لا يحلّ بهم ما حلّ بالظالمين من قبلهم .

وإنما خوطب أولو الألباب ، لأنهم هم الذين يمكن أن ينتفعوا بهـذا الخطاب ، وأن يكون لهم من عقولهم داع يدعوهم إلى الاعتبار ، وإلى تلقّى العظة مما وقع لغيرهم ، قبل أن ينزل بهم . . فالعاقل من اتعظ بغيره ، قبل أن يكون هو عظة لغيره . .

وقوله تعالى : « الذين آمنوا » هو بدل من قوله تعالى: « يا أولى الألباب » أو صفة لأولى الألباب ،أى فاتقوا الله أيها العقلاء المؤمنون . . فإن الذين آمنوا ، إنما آمنوا بما معهم من عقول دلتهم على مواقع الهُدى ، وأرتهم ما فى الإيمان من خير فآمنوا . .أما الذين أمسكوا بكفرهم وضلالهم،فإنهم ليسوا من أصحاب العقول . . « إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلا » (٤٤ : الفرقان) . . ومن تمام الإيمان أن يسلك بصاحبه مسالك الهُدى ، وأن يقيمه على التقوى . . أما الإيمان ــ مجرد الإيمان ــ فإنه إن لم يتحول إلى طاقة من القوى الدافعة إلى السلوك الحميد ، والعمل الطيب ، كان زرعاً بلا ثمر .

وقوله تعالى : « قد أنزل الله إليكم ذكراً » أى قد أنزل الله إليكم مافيه تذكرة لعقولكم ، وهو القرآن الكريم ، فانظروا فيه ، وتدبروا آياته ، وستجدون منه الهدى ، والنور . .

وقوله تعالى : « رسولا يتلو عليكم آياتِ الله مبينات » . .

رسولا ، بدل من « ذكرا » فى قوله تعالى : « قد أنزل الله إليكم ذِكراً » فهذا الذكر الذى أنزله الله إليكم ، يتمثل فى هذا الرسول الذى يتلو عليكم آياتِ الله البينات الكاشفات لطريق الحق ، والهدى . .

وفى تسليط الفعل « أنزل » على الذكر، الذى هو القرآن ، ثم على الرسول الذى يتلو آيات الله ـ فى هذا إشارة إلى مقام الرسول الكريم ، وأنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أشبه بآية من آيات الله المنزلة من السماء ، وأنه منزل إليهم من عند الله ، كما تتنزل عليهم آياته .. وهذا يعنى أن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هو فى ذاته مصدر هدى ، ومطلع رحمة ونور ، وأنّ من عَجَزَ عن أن يدرك مافى آياتِ الله من حق وخير ، يستطيع أن يرى تأويل آيات الله فى رسول الله .. فهو صلوات الله وسلامه عليه ـ كتاب الله المنظور ، على حين أن القرآن هو كتاب الله المسموع .. والله سبحانه وتعالى يقول :

« يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً * وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيراً » (٤٥ ، ٤٦ الأحزاب) .. فهو صلوات الله وسلامه عليه — سراج منير مرسل من عند الله ، كما أن القرآن الكريم « كتاب مبين » منزل من عند الله ..

وقوله تعالى : « ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور » ..

هو بيان لمطَالع الهدى من رسول الله ، ومن كتاب الله الذى بين يديه ، وأن هذه المطَالع إنما تطلُع على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأنهم هم الذين يستضيئون بهذا الهدى ، فيَخرجون من دائرة الظلام إلى حيث يكون النور .. أما الذين كفروا ، فهم فى عمًى ، وفى ضلال، كما يقول سبحانه : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لايؤمنون ، فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد » (٤٤ : فصلت) ..

قوله تعالى : « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً .. قد أحسن الله له رزقاً » .

هذا وعد من الله سبحانه وتعالى لمن آمن بالله وعمل صالحاً ، وانتفع بهذا النور الذى أنزله الله — بأن يدخله الله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالداً فيها ، لا يتحول عنها أبداً ، حيث يُرزق رزقاً حسناً من فضل الله وإحسانه ، فى هذه الجنات التى ينعم فيها بما شاء من نعيم لا يحيط به وصف . .

وفى إسناد الإيمان والعمل الصالح ودخول الجنة ، والرزق الحسن فيها — فى إسناد هذه الأفعال إلى ضمير المفرد : « يؤمنْ بالله . . ويعملْ صالحاً . . يدخلهُ جنات تجرى من تحتها الأنهار . . . قد أحسن الله له رزقاً » — فى هذا إشارة إلى أن هذه الأفعال ، إنما هى من شأن الإنسان نفسه ، وجزاؤها واقع عليه وحده . .

فالإيمان ، والعمل الصالح ، مطلوبان من الإنسان ، كإنسان له وجود ذاتى ، يُناط به التكاليف ، وتقع عليه آثار أعماله من حسن أو سيء . .

ودخول الجنة ، والرزق الحسن فيها ، هو الجزاء الذى يتلقاه المؤمن جزاء إيمانه وعمله الصالح.

أما إسناد الخلود فى الجنة إلى جماعة المؤمنين الذين أدخلهم الله الجنة مع هذا المؤمن ، فذلك لأنهم جميعاً شركاء فى هذا الخلود .. فكلهم خالد فى هذه الجنات ، وإن اختلفت منازلهم فيها بحسب أعمالهم .. فهم فى المنازل على أحوال مختلفة ، كلٌّ فى منزلته ، وإن كانوا فى الخلود على سواء . .

ثم إن الخلود فى الجنة يوحى بِثِقَل هذا الزمن الذى لا ينتهى ، وخاصة إذا كان المرء وحده ، فى عزلة داخل زمن لا حدود له . . فإذا كان هذا الخلود مع مشاركة لأعداد من الناس لا حصر لها ، كان ذلك الخلود سائغاً ، بل ومطلوباً ، حيث يأنس الناس بالناس — وفى هذا يقول المعرى :

ولو أنّى حُبيتُ الخلدَ وحدى لما أحببت فى الخلد انفراداً

قوله تعالى :

* « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً » . .

هو عرض لقدرة الله ، وبسطة سلطانه ، على هذا الوجود ، وأنه سبحانه خلق سبع سموات ، وخلق من الأرض سبع أرضين . .

وليست المِثلية التى بين السموات ، والأرض مثليّة فى القدْر ، والحجم ، وإنما هى مثلية فى التنوع والاختلاف ، فكما أن لكل سماء نظاماً ، مختلفاً عن الأخريات ، كمًّا وكيفاً ، كذلك لكل إقليم من أقاليم الأرض ، أو كل طبقة من طبقاتها ، نظام ، يختلف عما سواه ، قَدْراً ، وكيفاً . .

ومن النظر فى خلق السموات والأرض ، يتبين ما لله سبحانه وتعالى من قدرة ، وماله سبحانه ، من علم قائم على هذه العوالم ، يضبطها ، ويدبّر أمرها . .

ومن عَلِمَ هذا ، علم أنه — كإنسان مخلوق لله — لا يخرج عن سلطان الله ، ولا يغيب عن علم الله شىء مما عمل ، وأنه محاسب على ما يعمل من خير أو شر ، فليتق الله ، وليعمل صالحاً ، حتى لا يقع تحت غضب الله ، وينزل منازل الهلكَى، من الضالين المكذبين بآيات الله ، ورسل الله . .

* * *

٦٦ - سورة التحريم

نزولها : مدنية .

عدد آياتها : اثنتا عشرة آية ..

عدد كلماتها : مائتان وأربعون كلمة ..

عدد حروفها : ألف وستون حرفاً ..

مناسبتها لما قبلها

كانت سورة « الطلاق » ـ قبل هذه السورة ـ وقد بينت المؤمنين الحدودَ التى ينبغى المؤمنين أن يلزموها فى العلاقات التى بين رجالهم ونسائهم ، فى حال ينتهى الأمر فيها إلى الطلاق ، وحلّ عُرا الزوجية القائمة بين الرجل والمرأة . .

ولما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كبشر ـ علاقات زوجية ، كالعلاقات التى بين رجال المؤمنين ونسائهم ، وأن هذه العلاقات ، قد يَعرِض لها مايعرض للعلاقات بين المرء وزوجه ، فكان من المناسب أن تجىء سورة « التحريم » عقب سورة « الطلاق » لما كان فيها من حديث عن النبىّ خاصة ، وعمّا يقع فى محيط حياته الزوجية .. وفى هذا التخصيص تكريم للنبى الكريم ، ورفع لقدره عند ربّه .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٥)

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

« يأيها النبىّ لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفورٌ رحيمٌ » ..

نداء كريم ، من رب كريم ، إلى نبى كريم ، يؤثر على نفسه ، حتى ليحرم ما أحل الله له ، فى سبيل مرضاة أزواجه اللائى تظاهرن عليه ، وكِدْن له هذا الكيد الذى توعدهن الله عليه ، ودعاهن إلى التوبة منه .. فى هذا الاستفهام

دعوة للنبي من ربه أن يَرفُق بنفسه ، وألا يحملها على ما يكره ، فى سبيل إرضاء غيره .. وهذا من لطف الله سبحانه برسوله الكريم ، وليس عتاباً ، ولا لوماً ، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين .

ويذكر المفسرون لهذه الآية وما بعدها أسباباً لنزولها .. ومن الأسباب التى يذكرونها ، والتى نراها أقربَ إلى مفهوم الآيات من غيرها — ما يُروى من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين أُهديت له مارية القبطية ، أدخلها ذات مرة حجرة زوجه ، حفصة بنت عمر ، وكانت حفصة غائبة ، فلما جاءت ، ووجدت النبي ، ومارية فى حجرتها ، غضبت ، وقالت فيما قالت للنبيّ: إنه ما اتخذ حجرتها مأوى لمارية ، دون حجرات غيرها من نسائه ، إلا لهوانها عليه .. فأرضاها النبيّ الكريم ، وحَلَف لها ألا يقرب مارية بعد هذا ، وأوصاها ألا تتحدث بما كان إلى أحد من نسائه ، حتى لا تثير غَيْرتهن فى أمر قد قضى النبي قضاءه فيه ، وهو تحريم مارية ..

قالوا ، ولكن الذى حَدَث ، هو أن حفصة أذاعت هذا السر ، وأفضت به إلى عائشة — رضى الله عنها وعن أزواج رسول الله جميعاً — وكان من هذا حديث متصل يدور بين أزواج النبي تألّم منه النبى ، وضاق به صدره فآلى[1] من نسائه جميعاً ، ألا يقربهن شهراً .

وفى هذا نزلت الآية : « يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك » والآيات التى بعدها ..

---

(٢) الإيلاء : الحلف بيمين غير الطلاق ؛ وهو أن يحلف المرء على زوجه ألا يقربها مدة معينة ، لاتتعدى أربعة أشهر .

وقوله تعالى : « يـأيها النبي لم تحرم ماأحلّ اللهلك » — ليس عتاباً ، كمايبدو. وإنما هو دعوة من الله سبحانه وتعالى — فى لطف ورفق — إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه ألا يحرم ما أحل الله له ، وألا يشق على نفسه بالأخذ باليمين الذى حلف بها ، وقد جعله الله سبحانه وتعـالى فى سَعَة من أمره ، بالتحلّه من هـذه اليمين ، وذلك بالـكفارة عنها .

وقوله تعالى : « تبتغى مرضاة أزواجك » حال من فاعل الفعل «تحرم» وهو النبي صلوات الله وسلامه عليه ، أى لم تحرم ماأحل الله لك ، مبتغياً بهذا التحريم مرضاة أزواجك .

قوله تعالى : « والله غفور » — هو دعوة للنبي الـكريم إلى أن يتحلل من يمينه التى حلفها بألا يقرب (مارية) . . فالله سبحانه يغفرله هذه اليمين بالـكفارة عنها ، والله ـ سبحانه ـ غفور ، وهو سبحانه « رحيم » وإن أولى الناس برحمة الله ، هو رسول الله ، فليرحم الرسول الـكريم نفسَه ، ولا يشقّ عليها بهـــذا التحريم لِـَا أحل الله له ، فى سبيل مرضاة أزواجه ، إذ كانت مرضاتهن عدوانا على حق النبي ، فى التمتع بما أحل الله له .

وقوله تعـالى :

* « قد فرض الله لـكم تحلّة أيمانـكم والله مولاكم وهو العليم الحـكيم »

هو بيان لبعض آثار مغفرة الله ورحمته ، وهو مافرضه سبحانه ، وقضى به ، من التحلل من الأيمان بالـكفارة عنها ، إذا كان التحلل من اليمين خيراً من إمضائهـا . .

وفى هذا يقول الرسول الـكريم : «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها ، فليكفّر عن يمينه ، ثم ليفعل الذى هو خير » .

وقوله تعالى : « والله مولاكم » — إشارة إلى لطف الله سبحانه ، ورعايته لمواليه ، فالخلق كلهم عبيد الله ، والله سبحانه سيدهم ، ومولاهم . .

فى هذا إشارة إلى — مارية — التى كانت مولاةً ومِلكَ يمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم تكن زوجاً له بعد .. وأن مارية ، وغيرها من نساء النبى على سواء عند الله ، لأنهن جميعاً من موالى الله سبحانه وتعالى . . فلِمَ ينظرن إلى « مارية » هذه النظرة التى يرينْها فيها أبعد من أن تأخذ مكانها معهن فى بيت رسول الله ؟

وقوله تعالى :

« وهو العليم الحكيم » أى أن الله سبحانه — وهو مولاكم — هو العليم بكن وبمن هو أولى عنده بالفضل والإحسان . . « فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » (٣٢ : النجم) .. وهو سبحانه الحكيم فى تقديره وتدبيره ،وفى وضع كل مخلوق بموضعه المناسب له .

قوله تعالى :

* « وإذ أسرّ النبى إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبّأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنىَ العليم الخبير »

تعرض هذه الآية للحديث الذى أسرّه النبى إلى بعض أزواجه ، وهو — كما أشرنا من قبل — الحديثُ الذى أسرّ به النبىّ إلى « حفصة » وطلب إليها ألاتخبر أحدا من نسائه ، وأنه التقى « بمارية » فى حجرتها . .

وقوله تعالى : « فلما نبأت به » أى أخبرت به غيرها ، وأعلنته بعد أن كان مستوراً ، وأظهرته بعد أن كان خافياً . .

وفى التعبير عن كشف هذا السرّ بقوله تعالى: « نبأت به » إشارة إلى ما كان لهذا الحديث عند إظهاره من أثر فى بيت النبىّ، وأنه أحدث هزّة، كشأن كل نبأ.. لأن النبأ هو الخبر المثير، الذى يغطى على غيره من الأخبار..

وقوله تعالى: « وأظهره الله عليه » أى أعلم الله النبىّ بهذا الخبر الذى أذاعته حفصة، على ما كان يجرى بين نسائه من حديث بشأنه.

وقوله تعالى: « عرّف بعضه وأعرض عن بعض » — هو جواب « لمّا » أى لما أذاعت « حفصة » هذا السرّ، وأعلم الله النبىّ بما حدث: « عرّف بعضه وأعرض عن بعض » أى كشف النبى عن بعض هذا الحديث الذى أذاعته حفصة، ولم يذكر لها كل مادار بينها وبين من أفضت لها به، وما اتفقتا عليه من كيد فيما بينهما. وذلك حتى لايجرح شعورها، ولا يخدش حياءها، فلم يصرح لها بكل ماعرف، بل أخبرها بهذا فى إشارة دالة غير فاضحة.. فإن الكريم لايستقصى.. ومَن أكرمُ من سيد الكرماء عليه الصلاة والسلام؟

وقوله تعالى: « فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير » أى حين علمت حفصة من النبى أنه يعلم كثيراً مما دبرت هى وصاحبتها من كيد، سألت النبى عمن أنبأه بهذا الحديث الذى كان بينها وبين صاحبتها، والذى لم يكن معهما من شهد ماتحدث به، فقال لها النبى — صلوات الله وسلامه عليه — « نبأنى العليم الخبير » أى الذى أخبرنى بما أسررتما، هو الله سبحانه، وهو العليم بكل شىء، الخبير بما فى السرائر من خير أو شر.

قوله تعالى:

* « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير »..

هو دعوة إلى اللتين دبرتا هذا الكيد للنبيّ ،سواء أكانتا حفصة وعائشة، أم غيرهما ، من أزواجه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هو دعوة إليهما من الله سبحانه وتعالى ، أن يتوبا إليه جل شأنه ، مما كان منهما فى حق النبيّ ، وفيما وقع فى نفسه الشريفة من أذى من فعلهما ، وإن كانتا لم تقصدا النبيّ بأذى ، وإنما كان ذلك عن تنافس فى حبه ، وحرص على أن تنال كل واحدة من نسائه أكبر قدر من القرب منه ، والاستظلال بظل جلال النبوة وعظمتها ..

وقوله تعالى : « فقد صغت قلوبكما » هو سبب متصل بالشرط : « إن تتوبا إلى الله » أى إن تبتما إلى الله ، إذ قد صغت قلوبكما ، أى مالت عن قصد السبيل .. ويكون الشرط دعوة آمرة بالتقوى ، أى توبا إلى الله فقد صغت قلوبكما .. فإن تبتما إلى الله غفر الله لكما .. فجواب الشرط محذوف ..

وفى جمع القلوب ، مع أن المخاطب مثنى إشارة إلى أن القلبين قد أصبحا قلوباً ، لما وقع فيهما من خواطر مختلفة ، ذهب كل خاطر بشطر منها .. فكان كل قلب مجموعة من القلوب . .

وقوله تعالى :

« وإن تظاهرا عليه.. فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » ..

أى وإن لم تتوبا إلى الله ، وتمضيا فيما أنتما فيه من كيد للنبيّ ومن تظاهر بينكما وتساند فى الكيد له ـ فإن الله هو مولاه الذى يدفع عنه هذا الكيد وجبريل ، ظهير له،وناصر ، بما ينزل عليه من آيات ربه ، وكذلك كل صالح من المؤمنين ..هو ظهير للنبيّ ، ومدافع عنه .. ثم الملائكة جميعاً ، هم عون النبيّ فى

كل موقف من مواقفه . . فجبريل والصالح من المؤمنين ، والملائكة ، هم جميعاً جند الله . . وإذا كان الله سبحانه هو مولًى لرسول الله ، فإن هؤلاء الجند هم فى نصرة من يتولاه الله . .

وفى إفراد صالح المؤمنين ، إشارة إلى أن الذى يكون فى هذا الركب الكريم الذى ينتظم الملائكة ، لابد أن يكون على درجة عالية من الإيمان، يكاد يرتفع بها إلى عالم الملائكة .. وهذا نفَرر قليل من المؤمنين ، يُعدّون فرداً فرداً . .

وقوله تعالى : «وجبريل» مبتدأ ، وقوله تعالى : «وصالح المؤمنين والملائكة» معطوف عليه . .

وقوله تعالى : « بعد ذلك ظهير » ـ خبر المبتدأ .. أى أن هؤلاء جميعاً ، هم بعد أن يدخل النبىّ فى ولاية الله سبحانه وتعالى له ، يكونون سنداً وعوناً للنبىّ . .

قوله تعالى :

* « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلماتٍ مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً » ..

هو تهديد لأزواج النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إن لم يستقم أمرهن معه ، وقد دعاهن الله سبحانه إلى التوبة ، ثم تهددهن إن هن تظاهرن على النبىّ أن الله سبحانه هو مولاه ، ولن يتخلى عنه ، وقد جعل له من جبريل ومن صالح المؤمنين ، ومن الملائكة أعواناً وجنداً يسندونه ، ويشدون ظهره . .

والتهديد هنا بطلاقهن ، وخروجهن من بيت النبوة ، ثم باختيار الله سبحانه وتعالى ، للنبىّ من النساء ، مَن هنّ أهل للسكن فى بيت النبىّ ، والاستظلال بظل النبوة ..

والأوصاف التى ذكرها الله سبحانه وتعالى فى الآية للنساء اللاتى يختارهن الله سبحانه للنبىّ ـ هى أوصاف ، وسِمات ، قائمة فعلا فى أزواج النبىّ، وأن كل واحدة منهن تتميز بصفة ظاهرة من هذه الصفات ، هى الغالبة على أحوالها .. فمنهن من غلَبَت عليها صفة الإسلام ، الذى هو سمة للسلام،والموادعة واللطف، ومنهن من غلبت عليها صفة الإيمان، ومنهن من غلبت عليها صفة القنوت وهكذا.. وهذا يعنى أن زوجات النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد تخيرهن الله سبحانه من أهل الإيمان والكمال ، كما يقول سبحانه : « والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات » (٢٦ : النور) . . أما الاستبدال بخير منهن ، فإن هذا إنما يكون فى حالِ هنّ فيها خارجَ بيت النبوة ، وذلك إذا لم يتبن إلى الله ، ولم يُصلحن ما أفسدن من علاقة بينهن و بين النبىّ ، بعد هذا الغبار الذى أثاره هذا الحديث الذى ذاع بينهن .. أمّا وهنّ فى بيت النبوة لم يخرجن من هذا الحمى الطهور ، فإنهن خير نساء خارج بيت النبوة ..

هذا ، وفى العطف بالواو بعد ذكر تلك الصفات السبع الأولى من غير عطف ـ يشير إلى أمرين :

أولهما : قطع هذه الرتابة التى امتدت وطالت ، بذكر تلك الصفات على نغم واحد .. « مسلمات .. مؤمنات . . قانتاتٍ . . تائبات » عابدات .. سائحات ثيبات ..

ذلك أن من إعجاز النظم القرآنى ، أنه يوقظ المشاعر والمدارك ، بهذه الطَّرقة الخفيفة ، التى تجىء بعد هذا التوقيع التمالى ، المتشابه من النغم ، الذى من شأنه

أن يبعث شيئاً من الحذر والفتور بتلك المتتاليات الواقعة على الأذن .. فإذا جاءت هذه « الواو » أحدثت تغييراً فى مجرى النغم ، فيتنبه السامع ، ويستيقظ من إغفاءته ..

وثانياً : أن هذه الصفات السبع التى سبقت حرف العطف ، يمكن أن تكون فى مجموعها مما تتصف به المرأة الواحدة ، فتجمع بين الإسلام ، والإيمان ، والقنوت ، والتوبة ، والتعبد ، والسياحة ، أى الصوم ، والثيوبة .. أو البكورة .. أما أن تكون ثيباً وبكراً فهذا محال .. ولهذا جاء العطف هنا ، فكانت الثيوبة مع ماسبقها من صفات ، مما يمكن أن تكون عليه حال بعض النساء .. وكانت البكورة مع ماسبقها أن تكون لبعض آخر منهن ..

وقد جاء على هذا الأسلوب من النظم قوله تعالى : فى سورة التوبة : « التائبون .. العابدون .. الحامدون .. السائحون .. الراكعون .. الساجدون .. الآمرون بالمعروف .. والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين » (الآية :١١٢) .. فقد جاء العطف بعد سبع صفات ،فى سَرْدٍ لم يتوسطه حرف عطف ، كما أن المعطوف لم يكن آخر مايُعطف ، بل عطفت عليه صفة أخرى ..

وهذا يقوّى من الرأى القائل بأن رتابة السرد ، هى التى تقضى بهذا العطف عند بلوغ حد معين من المسرودات ، لايتجاوز سبع كلمات ..

الآيات : (٦ — ٩)

* « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا ٱلْيَوْمَ

إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودُها الناس والحجارةُ عليها ملائكة غِلاظٌ شدادٌ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة ، قد عَرَضت لهذا الحدَث الذى وقع فى بيت النبىّ ، حيث هناك أطهر النفوس وأكرمها ، ومع هذا فإن النفس البشرية ، لم تسلم من العوارض التى تظهر فى سمائها الصافية حيناً بعد حين ، فتحتاج إلى محاسبة ومراجعة ، حتى تنقشع هذه السحب عن سمائها ، ويعود إليها صفاؤها ، وإشراقها ..

فإذا كان هذا فى بيت النبوة ، فما ظنك بما يقع فى آفاق النفوس خارج هذا البيت الكريم ، من زلات ، وهزات ، تتصدع لها النفوس ، وتضلّ معها العقول ؟

وإذن ، فالأمر يحتاج إلى مراقبة دائمة من الإنسان لنفسه ، وحراسة واعية من الآفات التى تتهدد إيمانه ، وترعى مواطن الخير فيه ..

قوله تعالى : « يـٰأيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ». هو تنبيه للإنسان من غفلته عن الأعداء المتربصة به ، وبأهله ، والتى إن لم يأخذ حذره منها أوردته موارد الهلاك ، هو وأهله ..

ووقاية الإنسان نفسَه ، من النار ، هى فى أن يستقيم على شريعة الله ، ويقف عند حدود أوامرها ونواهيها .. ففى ذلك سلامته من عذاب السعير ..

أما وقاية أهله ، فتكون بنُصحه لهم ، وإرشادهم إذا ضلّوا ، وتنبيههم إذا غفلوا .. ثم قبل هذا كله ، يجب أن يكون هو القدوةَ الحسنةَ لهم ، فى طاعة الله ، وفى اتقاء حرماته .. لأن الخطاب هنا إنما هو لرأس الجماعة ، فى الأسرة ، ونحوها ، كالأب ، والأخ الأكبر ، والعالم ، وذوى الوجاهة والمكانة فى هذا المجتمع الصغير .. فهو هنـا مسئول مسئوليةَ الراعى عن رعيته ، كما يقول الرسول الكريم : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » .

وفى قوله تعالى : « وقودها النـاس والحجارة » ـ إشارة إلى قوة الطاقة الحرارية لهذه النّار ، التى تجعل الحجارة وقوداً لها ، كما توقد نار الدنيا بالحطب ..

وقوله تعالى : « عليها ملائكة غِلاظ شـداد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون » ـ هو عرض لخزنة جهنم وحرّاسها ، وماهم عليه من غلظة وشدّة .. فهم بهذه الغلظة وتلك الشدة يتعاملون مع أعتى المجرمين ، وأضل الضالين .. وهم بما يَطّلع على أهل النار من غلظتهم وشدتهم ـ هم عـذاب إلى عذاب !

قوله تعالى :

* « يـٰأيها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم .. إنما تُجزون ما كنتم تعملون »

هو خطاب للكافرين الذين سيردُون هذه النـار ، وسيكونون حطباً ووقوداً لها ـ خطاب لهم بألا يعتذروا فى هذا اليوم ، يوم القيامة ، فإنه لايُقبل منهم عذر ، فهذا وقت الجزاء بما عمل العاملون ، وقد عملوا هم السوء ، فكان

جزاؤهم هذا العذاب الذى هم فيه . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « فيؤمئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يُستَعتَون » (٥٧ : الروم) .

قوله تعالى :

* « يٰأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورُهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنآ إنك على كل شىء قدير » .

هو دعوة إلى المؤمنين عامة ، أن يتوبوا إلى الله ، وأن يرجعوا إليه كلّما بعدوا قليلا أو كثيراً عنه ، بما اقترفوا من آثام ، وما اجترحوا من سيئات . . فإن التوبة تغسل الحوْبة ، وهى الأسلوب الذى يُصالح به العبد ربّه ، ويفتح به أبواب رحمته ورضوانه .

والتوبة النصوح ، هى التوبة الصادرة عن قلبٍ مُفعَم بالندم ، وعن ضمير مُثقَل بما خالطه من إثم ، ومن وراء ذلك عزيمة صادقة ، ونيّة منعقدة على عدم العودة لما كان منه التوبة . .

وقوله تعالى : «عسى ربّكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار » .

عسى ، وإن كانت أسلوباً يفيد الرجاء ، فإن هذا الأسلوب إذا تعلق بالله سبحانه وتعالى ، كان معناه الوجوب ، والوقوع .. لأن الرجاء إنما يكون فى حقّ من لايقدر ، والله سبحانه قادر على كل شىء .. أما استعمال أسلوب الترجّى فى جانب الله سبحانه وتعالى ، فهو منظور فيه إلينا ، وإلى أنه ينبغى أن نقيم أمرنا مع الله على رجاء ، فلايأس من رحمته ، ولا قَطْعَ بالنجاة من عذابه ، وبهذا يكون العبد المؤمن على صلة دائمة بالله ، يرجو رحمته ، ويخشى عذابه . .

كما يقول سبحانه : « أولئـك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه .. إن عذاب ربك كان محذورا » (٥٧ : الإسراء) .

وقوله تعالى : « يوم لا يخزى الله النبىّ والذين آمنوا معه » ظرف متعلق بقوله تعالى « ويدخلـكم جنات تجرى من تحتها الأنهار » أى يدخلـكم الجنات يوم لا يخزى الله النبيّ والذين آمنوا معه ..

ونفى الخزى عن النبيّ والذين آمنوا معه ، هو إدخالهم الجنة ، وعرضهم يوم القيامة فى معرض التشريف والتـكريم ، حيث يُعرض الـكافرون معرض الخزى والهوان ..

ولقدكان من دعاء المؤمنين ما أشار إليه سبحانه وتعالى فى قوله : « ربنا وآتنا من ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد » (١٩٤ : آل عمران) وهو الدعاء الذى دعا به إبراهيم ربّه .. فى قوله تعالى على لسانه : « ولا تُخزنى يوم يبعثون * يوم لاينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم » (٨٧ ــ ٨٩ : الشعراء) ..

وقوله تعالى : « نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير » — هو حال من أحوال المؤمنين فى هذا اليوم ، وذلك أنهم وهم سائرون إلى الجنة ، يتقدمهم نورٌ يسعى بـين أيديهم ، ونور يشع فى أيمانهم ، وهو الـكتاب الذى سُجلت فيه أعمالهم ، فـكانت تلك الأعمال ـ لحسنها ـ نوراً يسعى بين أيديهم .. ثم إنهم وهم فى طريقهم إلى الجنة ، مع هذا النور الذى يسعى بين أيديهم كما يسعى الخدم بين يدى الضيوف القادمين على مُضيف كريم ـ إنهم وهم فى الطريق إلى الجنة ، يكونون على إشفاق من أن ينقطع عنهم النور المادى ، فيسألون ربهم قائلين :

« ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا ما نجد فى صحف أعمالنا من سيئات ، فإنك على كل شىء قدير ، وإن من شأن القادر العفوَ والصفح ، والمغفرة .. وقد غفر الله لهم ، وأتم لهم نورهم ، فمضى معهم نورهم إلى أن دخلوا جنات النعيم .. جعلنا الله منهم ، وألحقنا بهم ..

قوله تعالى :

* « يٰأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلُظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » ..

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة قد توعدت الكافرين بالنار التى وقودها الناس والحجارة ، وأنهم إذا اعتذروا وهم على طريق النار فلن يقبل منهم عذر ، لأن الله إنما أخذهم بهذا العذاب الغليظ لما ارتكبوا من منكر غليظ هو الكفر ..

وإذ كان الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — هو دعوة الحق إلى الإيمان بالله ، وإذ كان الكافرون هم الذين يقفون فى وجه هذه الدعوة ، ويصدون الناس عن سبيل الله ، فقد ناسب أن يقوم النبى فى هذه الحياة الدنيا بما يملك من وسائل الردع والكبت ، للكافرين .. فهو — صلوات الله وسلامه عليه .. سلطان الله ، وبهـذا السلطان يؤدّب العصاة ، ويأخذ المجرمين ..

ولهذا ناسب أن تأخذ الآية الكريمة مكانها هنا ..

الآيات : (١٠ — ١٢)

* « ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ

ءامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَانِتِينَ (١٢) »

التفسير:

قوله تعالى:

* « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين » ..

مناسبة هذه الآية وما بعدها، لما سبقها من آيات، هي أن السورة قد عرضت لمواقف كانت من أزواج النبي، عليه الصلاة والسلام، وقد كادت هذه المواقف تخرجهن من بيت النبوة، وتحرمهن هذا المكانَ الكريم اللائى هن فيه، محفوفاتٍ برحمة الله ورضوانه — فناسب ذلك أن تجيء هنا تلك الآيات التي تعرض أحوالا مختلفة لبعض النساء .. حيث كان بعضهن في بيت النبوة، فلما لم يستقمن على طريق الحق والخير، أخذهن الله ببأسه، والتي بهن خارج بيت النبوة، يتخبطن في ظلمات الضلال والكفر، وكانت عاقبتهن الخسران، والوبال، والعذاب في نار جهنم، ولم يُغْنِ عنهن حَرَم النبوة اللائى تحصنّ فيه ظاهراً، وهتكْنَ ستره باطنا ..

والمَثَلُ البارز هنا، ما كان من امرأة النبيين الكريمين: نوح ولوط، « كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما » أي أخذتا طريقاً غير

طريقهما ، ووقفتا منهما موقفَ العدوّ الحادّ لهما . . « فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً » أى لم يكن لهما من النبيين الكريمين شافع يردّ عنهما بأس الله ، فأهلكهما الله فى الدنيا مع القوم الظالمين ، إحداهن بالغرق ، والأخرى برجوم السماء .. أما فى الآخرة ، فالنار مثواهما مع أهل الكفر والضلال : « وقيل ادخلا النار مع الداخلين » ..

وعلى عكس هذا ، ما كان من امرأة فرعون .. حيث ضمّها إليه رجل كان من أشد عباد الله كفراً ، وأبعدهم فى الضلال مذهباً . . ومع هذا فقد استنارت بصيرتها بنور الهدى ، فآمنت بالله ، وأبصرت طريقها إليه وسْطَ هذا الظلام الكثيف المتراكم . . وبهذا نجَت بنفسها من هذا المصير الذى صار إليه فرعون والملأ الذين معه . . : « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأةَ فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين » . . وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لها ، وأدخلها فى عباده المؤمنين ، وأبقى لها ذكراً خالداً فى المُكرَمين من عباده . .

وهذه مريم ابنة عمران ، التى نذرتها أمها لخدمة فى بيت الله ، والعمل فى طاعته . . إنها نَبتْة طيبة ، فى منبت طيب . . قد قام أمرُها على الطريق المستقيم ، وهى فى بطن أمها ، فلما استقبلت الحياة احتواها بيت الله ، وضمها إليه نبى من أنبياء الله ، هو زكريا عليه السلام .. وهكذا كانت عناية الله تحفّ بها ، وألطافه تتوالى عليها . . حتى كانت الصلاحَ ، والتقوى ، والطهر ، وبهذا كانت الأنثى التى استخلصتها الإنسانية كلها ، لتلقىّ كلمة الله ، ولتلد بنفخة من روح القدس ، مولوداً يتخلق فى كيانها من غير أن يشاركها فيه رجل . . وفى هذا يقول سبحانه : « ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » (١٢ : التحريم)

فهذه ثلاثة أمثال ، تحتوى النساء جميعاً ، فى ثلاث مجموعات . .

المجموعة الأولى : المرأة التى فسدت طبيعتُها . . تكون فى بيئة طيبة ، صالحة، فيغلب فسادُها ، وخبث ريحها ، هذا الطيبَ الذى يهب عليها من بيئتها ، فلا تتأثر به ، ولا تتقبله طبيعتها التى ألفت هذا العفن الذى ينضح منها . .

والمجموعة الثانية ، هى المرأة التى طابت طبيعتها ، وسلمت فطرتها . . تكون فى بيئة فاسدة عفنة ، فلا تتقبل هذا الفساد ، ولا تتأثر به ، بل تظل محتفظة بفطرتها السليمة ،وبينابيع الخير التى تجرى فى كيانها ، فترتوى منها،وتعيش عليها .

والمجموعة الثالثة : المرأة التى طابت طبيعتها ، وسلمت فطرتها . . تنشأ فى بيئة طيبة صالحة ، فيزداد طيبها طيباً ، وصلاحها صلاحاً . .

وبقى من هذا التفصيل وجه رابع ، لم يذكره القرآن ، وهو المرأة الفاسدة طبيعةً . . تنشأ فى البيئة الفاسدة .. والسبب فى عدم ذكر هذا الوجه ظاهر ، لأن النتيجة اللازمة له ، لا تخرج عن حكم واحد ، هو ازدياد الفساد فساداً ، حين يجتمع الفساد إلى الفساد . . تماماً ، كما يزداد الصلاح صلاحاً باجتماع الصلاح إلى الصلاح .

وهذا يعنى أموراً :

أولا : أن الذاتىّ من الأمور ، يَغْلب العَرَضىّ ، ويقهره . . بمعنى أن ما فى كيان الإنسان من استعداد فطرى ، هو القوة العاملة فى الإنسان ، وأن ظروف البيئة ــ مع تأثيرها القوى فى الكائن الحى ، وفى الإنسان بالذات ، خُلقيًّا ، وعقليًّا ، وروحيًّا ــ هذه الظروف مهما تكن ، فإنها لا تقوَى على طمس معالم الاستعداد الفطرى المهيأ له الإنسان ، سواء أكان ذلك الاستعداد طيباً أو خبيثاً . . وهذا ما فهمنا عليه قوله تعالى : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر

ومنكم مؤمن » (٢ : التغابن) أى خلقكم فمنكم من كانت خِلقته مهيأةً للإيمان مستعدةً له ، ومنكم من كانت خِلقته لا تقبل الإيمان أبداً . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرحْ صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حَرَجا كأنما يصّعّد فى السماء »(١٢٥ : الأنعام)

وثانياً : أن احتكاك الشر بالخير ، كثيراً ما تتولد عنه دوافع قوية ، تغرى الخير بالتشبث بموقفه ، وإطلاق جميع القوى الكامنة فيه ، لدفع هذا الخطر الذى يتهدده . . وإنه لولا هذا الاحتكاك ، بين الشر والخير ،لظلّت كثير من قوى الخير كامنة ، ساكنة أشبه بالطيب فى العُود ، لا يفوح طيبه إلا عند حكّه أو عرضه على النار . . كما يبدو ذلك فى امرأة فرعون .

وهذا يعنى أن ما يُبتلى به المؤمنون ، الذين صدق إيمانهم ، هو تثبيت لهذا الإيمان ، وإظهار لكرم جوهره ، وصفاء عنصره . .

وثالثاً : أن الخير وإن كان قليلا فى كَمّه ، فإنه كثير فى كَيْفه وأن قوى الشر كلها مجتمعة ، لا تستطيع أن تطفىء شعلة الإيمان التى احتواها قلب مؤمن ، وإن استطاعت أن تخمد أنفاس هذا المؤمن ، وتزهق روحه . . وهذه امرأة فرعون ، تقهر بإيمانها جبروتَ هذا الجبار ، وتُذلّ كبرياءه ، وتلفظُه زوجاً ، وتَلفظ سلطانها ، ملكةً غير آسفة عليه ،أو على سلطانها، أو حياتها ، فى سبيل الاحتفاظ بهذه الشعلة المقدسة من نور الإيمان ، مضيئة فى قلبها . .

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

تم الجزءان ، السابع والعشرون والثامن والعشرون ، ويليهما الجزء التاسع والعشرون . إن شاء الله والله الموفق والمعين .

عبد الكريم الخطيب

التفسير القرآني للقرآن

الكتاب الخامس عشر
الجزء التاسع والعشرون

تبارك

من مباحث هذا الكتاب

- الموت .. والحياة ..
- بين أصحاب الجنة .. ومشركي قريش
- النبي .. وصاحب الحوت
- الإسلام .. وشهوة الجنس
- مخاطبات القرآن ..
  ما سر حكايتها كما هي ؟
- وحي القرآن .. ووحي السنة .

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

مطبعة السنة المحمدية
١٧ شارع شريف باشا الكبير ـ عابدين
ت ٩٠٦٠١٧

رقم إيداع دار الكتب
٥٤٤٤ لسنة ١٩٧٠

٦٧ - سورة الملك

نزولها : مكية ، نزلت بعد سورة الطور .

عدد آياتها : ثلاثون آية .

عدد كلماتها : ثلاثمائة وثلاثون كلمة .

عدد حروفها : ألف وثلاثمائة وثلاثة عشر حرفا .

مناسبتها لما قبلها

كانت الآيات التى خُتمت بها سورة «التحريم» السابقة على هذه السورة، معرضاً للصراع بين الخير والشر ، والحرب بين الإيمان ، والكفر - فيما كان من امرأة نوح وامرأة لوط ، وخروجهما من المعركة خاسرتين كافرتين . . ثم ما كان من امرأة فرعون ، وصراعها مع قوى الشر المحدقة بها من كل جهة ، ثم انتصارها ، وخروجها من وسط هذا الظلام المطبق ، إلى حيث النور والهدى . .

ثم كان مما بدئت به سورة « الملك » قوله تعالى : « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » ليقرر أن نتيجة هــذا الصراع بين المحقّين والمبطلين ، والمحسنين والمسيئين — إنما تظهر على حقيقتها كاملة يوم القيامة ، ولهذا كان مما قضت به حكمة الله سبحانه وتعالى أن يكون موت ، ثم تكون حياة بعد هذا الموت ، ليحاسَب الناسُ على ما عملوا فى الدنيا ، من خير أو شر . .

فكان من المناسب أن تلتقى هذه الحقيقة التى قررتها سورة « الملك » مع تلك الحقيقة التى خُتمت بها سورة «التحريم».. وبذلك يتأكد المراد منهما معاً .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

ج ٢٩

الآيات : (١ — ١١)

* « تَبَارَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ (٢) ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُوماً لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٦) إِذَآ أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (١٠) فَٱعْتَرَفُوا بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (١١) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير » .

معنى « تبارك » أى تمجّد ، وتعظم ، وكثُر خيره وبركته على مخلوقاته.. فهو . . خَبَر يُراد به إظهار ما أفاض الله سبحانه على هذا الوجود من خير وبركة ، فالله سبحانه ، بيده الملك كله ، لا يملك أحد معه شيئاً ، وهو سبحانه القادر على كل شىء . .

وإنه ليس بكثير على من لا ينفد خيره ، وعلى من يملك كل شىء ، ويقدر على كل شىء ـ أن يفيض هذا الخيرَ على الوجود ، حتى لينال منه البَرّ والفاجر ، وحتى ليكون من الفجار من يملك من متاع الدنيا ما يقيم به سلطاناً قاهراً على الناس ، مثل فرعون الذى حشر ، فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى . .

وإنه إذ كانت هنا دُنيا يتقلّب فيها الناس ، فإن هناك وراء هذه الدنيا حياةً أخرى ، أخلد وأبقى ، وهى الحياة التى خُلق الناس فعلا لها ، وأنهم لم يُخلقوا لهذه الدنيا ، إلا لتكون مَعْبراً لهم إلى الآخرة ، كما يقول سبحانه :

« وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » (٦٤ : العنكبوت) .

ولكن كثيراً من الناس جعلوا هذه الحياة الدنيا هى حياتَهم ، التى لا حياة لهم بعدها ، ولهذا فإنهم لم يلتفتوا إلى الحياة الآخرة ، ولم يعملوا لها حساباً . .

[الموت .. والحياة]

وفى قوله تعالى :

* « الذى خلق الموت والحياة ليبلوَكم أيكم أحسنُ عملا وهو العزيز الغفور » ..

— فى هذا تنبيه لهؤلاء الغافلين عن الحياة الآخرة ، وذلك إذا نظروا فرأوا أن هناك عمليتين تجريان عليهما ، وهما الموت والحياة .. فهاتان صورتان تتداولان الإنسان ، كما تتداولان عالم الأحياء كله .. فالكائن الحىّ ، كان ميتاً ، أى عدماً ، ثم أخرجته قدرة الله سبحانه إلى الحياة ، ثم تعيده تلك القدرة إلى الموت مرة أخرى .. ثم تردّه إلى الحياة للحساب والجزاء .

فإذا جاء من عند الله مَن يُخبر بأن بعد هذا الموت حياةً أخرى ، وأن الموت ليس نهايةَ الإنسان ـ فهل يقع هذا عند العقلاء موقع الإنكار؟ وكيف والشواهد كلها تشهد بإمكانيته ؟ بل وتقطع بأنه أمر لابد منه ، من حيث أن هذه الحياة التى لبسها الإنسان بعد العدم ، إنما كانت ليقوم بها على خلافة الله فى الأرض ، حيث بسط سلطانَه ـ بعقله ـ على كل ما فى هذا الوجود الأرضى .. ومخلوقٌ هذا شأنه ، لابد أن يرقى صُعُداً إلى أفق أعلى من هذا الأفق الأرضى ..

وإن هذه الخلافة التى للإنسان على الأرض ليست خلافة جماعية ، تحمل فيها الجماعة الإنسانية كلها تبِعتَها ، وإنما هى خلافة يحمل فيها كل فرد مسئوليته ، ويحاسب على ما كان منه ، فيجزَى بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً .. وذلك يقضى بأن يُردّ الإنسان إلى الحياة مرة أخرى ، ليحاسب ، وليثاب أو يعاقب ..

والسؤال هنا ، هو :

إذا كان ذلك كذلك ، وكان لابد من الحساب والجزاء على ما كان من

الإنسان ـ فلم لا يُحاسب فى الحياة الدنيا ؟ ولِمَ الموت ثم الحياة ؟ وما حكمة الموت ثم الحياة ؟ أليست هذه الحياة الجديدة هى عودة بالإنسان ـ نفساً وذاتاً ـ إلى حياته الأولى ، ووصلٌ لما انقطع منه بالموت ؟ وهل يُضيف الموت شيئاً جديداً إلى الإنسان حتى يكون لموته مَساغاً ..

ونقول : إن هذه التصورات هى نتيجة لهذا الفهم الخاطىء للموت الذى يقع على الإنسان بعد الحياة ، حيث يبدو منه أنه انقطاع لمجرَى حياة الإنسان ، ثم إنه بعد زمن ما ـ قد يطول أو يقصر ـ يعود إلى الحياة مرة أخرى ، يوم القيامة !!

ولو فُهم الموت على حقيقته ، وأنه ليس إلا تحوّلاً من مَنزل إلى منزل ، وانتقالاً من حال إلى حال ـ لو فُهم الموت على هذا ، لما كان لمثل هذه التصورات أن تجد لها مكاناً فى تفكير الإنسان ، يُوقع فى نفسه هذه العُزْلةَ الموحشة بين الموت والحياة ..

فالموت ـ فى حقيقته ـ هو حياة جديدة تلبس الإنسانَ خارج هذا الجسد الذى تركه الموت جثّة هامدة . . وتلك الجثة الهامدة التى يخلّفها الموت وراءه ، هى التى تُعطى الموت تلك الصورة المخيفة المفزعة ..

ذلك أننا نرى الإنسان فى ثوب الحياة ، يموج بالنشاط والحركة.. ثم يطرقه الموت ، فإذا هو هامد هُمودَ الجمادات التى بين أيدينا ، ثم هو فى لحظة يُغيَّب فى الثرى ، ثم إذا فُتِّش عنه بعد زمن ، رُؤى وقد تحول إلى أنقاض ، ثم إذا أعيد إليه النظر بعد زمن آخر لم يُرَ لهذه الأنقاض أثر !!

وعن هذا التصور ، يقول المشركون الذين لا يؤمنون بالحياة الآخرة ـ يقولون ما يقوله سبحانه وتعالى على لسانهم : « وقالوا أئذا ضَلَلْنا فى الأرض

أئنا لفى خلق جديد ؟ .. » (١٠ : السجدة)

ولكن لو جاوزنا هذا الجسد ، لوجدنا أن الحياة التى كانت تلبسه ، قد اكتسبت بخلاصها منه بالموت ، قوةً لاحدود لها ، حيث خرجتْ من هذا الحيز الضيق الذى كان يحتويها ، وانطلقت فى هذا العالم الرحيب ، تحلق فيه بقدر ما احتفظت به من خصائصها الروحية حالَ تلبسها بالجسد .. وفى هـذا يقول الرسول الكريم : « الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا » .. وهو شرح لمعنى قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموتَ ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى » (٤٢ : الزمر) ..

أما أن الميت يبقى بعد موته فى حال همود، وجمود ، إلى أن يجىء يوم البعث والنشور ، فهذا فهم خاطىء أيضاً ..

فالإنسان إذ يموت ، فإن الموت ـ كما قلنا ـ لايقع إلا على جسده ، أما روحه ، فإنها تجد فى موت الجسد فُرْصتَها للخلاص من القيد الذى قيدها به ..

وعلى هذا ، فإن الإنسان إذا مات ، فإنما يموت موتاً ظاهريًّا يُرَى فى هذا الجسد ، وأما هو فى حقيقته ، فهو حىّ فى هذا الروح الذى انطلق من الجسد محمّلا بكل ما ترك الجسد فيه من آثار طيبة ، أو سيئة . وفى هذا يقول الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : « من مات فقد قامت قيامته » ..

وهذا يعنى أن الميت إذ يموت ، يُبعث فى الحال بعثاً جديداً ، بمعنى أنه يقوم من عالم النوم الذى كان فيه ، كما يشير إلى ذلك الحديث الذى ذكرناه من قبل ، وهو : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » ..

وهذا يعنى أيضاً أن هناك قيامتين : قيامة خاصة بكل إنسان ، وهى

قيامته ساعةَ موته ، وهى ـ كما قلنا ـ قيامة من عالم النِّيام ، عالم الحياة الدنيا ـ ثم قيامة عامة ، وهى التى يُبعث فيها النـاس جميعاً من عالم القبور ، حيث تلتقى الأرواح بأجسادها مرة أخرى ، على صورة يعلمها الله سبحانه وتعالى ..

أما هذه الحياة التى عاشها الإنسان على هذه الأرض ، فهى اختبار وابتلاء له ، تتكشف فيه حقيقة طبيعته التى أوجده الله عليها ..

إنه فى هذه الحياة أشبهُ بحبة بُذرت فى الأرض مع ما بذر من حبوب ، ثم لا تلبث كل حبة أن تكشف عن حقيقتها ، وعن الثمر الذى تثمره ، من جيِّد أو ردىء .. فإذا آن وقت الحصاد ، جُمع كل زرع مع ما يشاكله ..

وقد يسأل سائل : ولماذا هذا البذر والغرس ؟ أليس صاحب البذر والزرع ، هو الله سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه عالم بما كمن فى هذا البذر من ثمر ؟

والجواب على هذا ، أن عِلْم الله سبحانه بالمخلوقات قبل أن تُخلَق ، هو علم مكنون . . وخلق المخلوقات فى صورها ، وأشكالها ، وأزمنتها ، وأمكنتها هو إظهار لهذا العلم المكنون ، وأنه لولا هذا لما قام الخلق ، ولما اتصف سبحانه بصفة « الخالق » ولظلّ الوجود فى حال كُمون . . يقول سبحانه : « هو الله الخالق البارىء المصور » (٢٤ : الحشر) .

ويقول سبحانه أيضاً : « اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من عَلَق » (١ — ٢ : العلق) ويقول جل شأنه : « الله خالق كل شىء ، وهو على كل شىء وكيل (٦٢ : الزمر) . فكان مما اقتضته إرادة الله سبحانه أن يَخْلُقَ هذا الذى خَلَق من موجودات وعوالم . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « الذى أعطى كُلَّ شَىْء خَلْقَهُ ثمَّ هَدَى » (٥٠ : طه) . . وبهذا صار لكل مخلوق ذاتيته ومكانه فى هذا الوجود .

فالحياة حكمة ، والموت حكمة ، والبعث بعد الموت حكمة . . « كيف تكفرون بالله ، وكنتم أمواتا فأحيا كم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » (٢٨ . البقرة) . . « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون (١١٥ : المؤمنون)

وقضية الحياة بعد الموت هى مضلة الضالين ، وهى الغشاوة التى تحجبهم عن الله سبحانه وتعالى ، فلا يرون ماالله سبحانه وتعالى من قدرة،وأنه سبحانه قادر على كل شيء ، وأن بعث الحياة فى تلك الأجساد الهامدة ، والعظام البالية ، ليس بأبعد فى مجال المنطق الإنسانى ، من خلقها أول مرة ، من تراب ، أو من نطفة من ماء مهين . . ولكن هل يكون المنطق مكان عند من ختم الله على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة ؟ « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » (٤١ : المائدة)

قوله تعالى :

* « الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » .

أى أنه سبحانه كما خلق الموت والحياة ، خلق سبع سموات طباقا . . أى بعضها ينطبق على بعض ، وقائم عليه قيام اشتمال واحتواء ، وهذا يعنى أن الوجود دائرىّ الشكل ، وأنه دوائر ،بعضُها داخلَ بعض ، يجمعها مركز واحد ، أشبه بتلك الدوائر التى يُحدثها حجر يُلقى به فى الماء الساكن ، فتنداح من موقع الحجر دوائر ، بعضها أكبر من بعض . . وهكذا إلى مالا نهاية . •

وقوله تعالى : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت »أى ما ترى من اختلال أو نقص فى نظام الوجود ، وما أبدع الخالق من مخلوقات . فكل ماخلق الله يحمل شارةً دالّة على قدرة الخالق ، وعلمه ، وحكمته ، وإبداعه فيما خلق —

وفى هذا إلفات إلى قدرة الله سبحانه ، وإلى إحكام ما خلق .. وأن كل مخلوق مهما صغُر شأنه ، وضؤل شخصُه ، هو صنعة الحكيم العليم ، فيه من روعة الصنعة ، وقدرة الصانع ، ما فى أعظم المخلوقات وأروعها . . فليس فيما صنع الله سبحانه — حَسَن وأحسن ، بل كل ما خلق الله على صفة واحدة ، هى الحُسن فى أكمل كماله ، وأبدع آياته .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنعَ الله الذى أتقن كل شىء »(٨٨ : النمل) وفى إضافة الخلق إلى «الرحمن » ـ إشارة أخرى إلى أن المخلوقات إنما خُلقت جميعها بيد الرحمة التى مستها جميعاً . . كما يشير إلى ذلك قوله تعالى :« ورحمتى وسعت كل شىء » (١٥٦ : الأعراف).

وقولى تعالى : « فارجع البصر هل ترى من فطور » هو دعوة إلى الإنسان أن ينظر بعقله ليرى مصداق قوله تعالى :« ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » .. أى أن مَن شَكّ فى هذه الحقيقة ، أو من لم يقع له بعدُ علم بها ، فليُلقِ بصرَه على هذا الوجود ، وليقف بين يديه وقفة المتأمل الدارس . ، ثم ليسأل نفسه : هل يرى من فطور ؟ أى هل يرى خللا ، أو اضطراباً ، أو تفاوتاً ؟

والفطور : هو التشقق ، والتصدع ، الذى من شأنه أن يصيب الشىء الذى أُصيب به .. والفطور إنما يكون فى المواد الجامدة لا السائلة .

وقوله تعالى :

* « ثم ارجع البصر كرتين ، ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » أى إذا انكشف لنظرتك التى ألقيتها على هذا الوجود ، أنه ليس فى خلق الله من تفاوت ، أو من فطور ، فلا تقف عند حدود هذه النظرة ، التى أعطتك علماً يقينيًا بأن ليس فى خلق الله الرحمن من تفاوت أو فطور . فهذا الذى وقع لك من علم ، هو خير كثير ، فاحرص عليه ، واجعل منه زاداً تتزود به فى طريقك إلى الإيمان بالله ..

ثم اطلب مزيداً من هذا العلم ، وذلك بمعاودة النظر بعد النظر ، فى ملكوت الله ، الذى لا حدود له .. فإنك إن فعلت سلك بك ذلك طريقاً لا نهاية له ، من العلم اليقينىّ ، بقدرة الله ، وعظمته ، وجلاله . وإن بصرك إذ يعود إليك بعد هذه الرحلة الطويلة السابحة فى ملكوت الله ، سيعود إليك « خاسئاً » أى مدزجراً، مرتداً فى استخزاء ، أمام هذا الجلال الذى يبهر الأبصار ، ويخلب العقول ، بعد أن يبلغ به التعب والإعياء غايته ، وبعد أن يرى الإنسان الذى حصّل ما حصل من علم الدارسين المتفحصين ، أنه ما زال على شاطىء بحر لا نهاية له ! !

والحسير : المتعب الكليل ، الذى أعيا من طول النظر . ويجوز أن يكون المعنى على صورة أخرى ، وهى أنه مهما عاود الناظر النظر والبحث وراء الوقوع على تفاوت فى خلق الرحمن ، فإنه لن يجد شيئاً من هذا، ولو أجهده السير ، وطال به المطاف ، حتى يسقط إعياء .. وهذا يعنى أن العلم وحده لا يقيم الإنسان على إيمان يقينىّ ، إلا إذا التقى هذا العلم بقلب سليم ، تنقدح فيه شرارة العلم ، فيضىء بنور الحق والهدى .

وفى هذا ما يشير إلى أن العقل ، وإن كان من المطلوب منه أن ينظر فى ملكوت الله ، وأن يقرأ فى صحف الوجود ما شاء من آيات الله — فإن عليه أن يعلم أنه على ساحل محيط لا نهاية له ، وأنه إذا أراد أن يحتوى كلّ ما فى هذا الوجود ، فإن ذلك لن يقع له ، ولن يجد آخر المطاف إلا العجز والإعياء .. فليرضَ إذن بما يقع له من علم ، وليتخذ من هذا العلم ، الشاهدَ الذى يقيم فى قلبه إيماناً وثيقاً بالله ، وبما له من قدرة ، وعلم ، وحكمة ، وجلال .. فذلك حسبه من العلم الذى يبلغ به شاطىء الأمان ..

قوله تعالى :

* « ولقد زيّنّا السماء الدنيا بمصابيحَ وجعلناها رجوما للشياطين » هو إشارة

إلى صفحة من صُحف الوجود، التي يمكن أن يرتادها النظر، وأن يقرأ فيها العقل آياتٍ من قدرة الله وإحكام صنعته..

فالسماء الدنيا، هى أقرب سماء إلينا، وهى المطلّة على الأرض التى نعيش عليها.. وإن العين - أى عين - لترى فيها مصابيح تزينها، وتنتثر على صفحتها كأنها اللآلىء.. ومن هذه السماء الدنيا تنطلق رجوم وشهب تُرمَى بها الشياطين، التى تتطاول إلى هذه السماء، وتحاول الاتصال بالملأ الأعلى.. فالضمير فى قوله تعالى: « وجعلناها » يعود إلى السماء. أى وجعلنا من عالمها رجوما للشياطين.. ويجوز أن يعود الضمير إلى المصابيح، وفى هذا يقول سبحانه: « إنّا زينّا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظا من كل شيطان مارد * لا يسّمّعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحوراً ولهم عذاب واصب * إلا من خطِف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » (٦ — ١٠ الصافات).

وفى هذا إشارة إلى أن للعقل حدوداً، ينبغى أن يقف عندها؛ فإن تجاوز حدوده، رُمى بشهب من الشكوك، فاحترق بنارها، كما يحترق الشيطان الذى يصّعّد فى السماء، ويجاوز الحدود التى تحتملها طاقته.. وليس فى هذا حَجْر على العقل فى الانطلاق إلى أبعد مدى، ولكن ليكن على حذر من أن يضلّ، ويتوه، أو يغرق فى عباب هذا المحيط العظيم.

قوله تعالى:

* « وأعتدنا لهم عذاب السعير » - هو وعيد للشياطين، وأنه إذا لم يُرْجم بعضهم بتلك الرجوم القاتلة فى الدنيا، فإنهم جميعاً على موعد مع عذاب السعير، الذى أعده الله سبحانه وتعالى لهم، فى الآخرة.

فقوله تعالى: « وأعتدنا لهم » — إشارة إلى أن هذا العذاب حاضر

معدٌّ لهم منذ الأزل . . ومنه قوله تعالى : « هذا مالدىّ عتيد » (٢٣ : ق) أى حاضر . .

وقوله تعـالى :

* « والذين كفروا بربهم عـذاب جهنم وبئس المصـير » — هو معطوف على قوله تعالى . . « وأعتدنا لهم عذاب السعير » . أى أعتدنا الشياطين عذاب السعير ، والذين كفروا بربهم أعتدنا لهم كذلك عذاب جهنم ، وبئس المصير الذى يصيرون إليه . . فالشياطين من الجنّ ، والـكافرون من الإنس ، لهم جميعاً عذاب أليم ، معدّ لهم ، وهو فى انتظار ورودهم عليه يوم القيامة .

قوله تعـالى :

* « إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهى تفور » . . أى أن جهنم هذه التى أعدها الله سبحانه للـكافرين ، ستلقاهم لقاء يسوءهم ، كما يسوءهم عذابها .. إنهم سيجدون منها عدوّاً راصداً لهم ، كأنّ بينها وبينهم ثارات قديمة ، فإذا أمكنتها الفرصة فيهم ، أخذتهم أخذَ العدوّ عدوّه ، حين تمـكنه الفرصة منه . . إنه لا يشفى غيظَها منهم ، إلاّ أن تضربهم بكل ما فيها من قوة . فهى تشهق شهيق من وجد فرصته فى عـدوه بين يديه ، وقد طال انتظاره لها لتلك الفرصة . .

إن هؤلاء الـكافرين ، هم أعداء الله ، والنار جند من جند الله المسلط على أعدائه . . فهم لهذا فى موقف العدوّ من هذه النار ، المسلطة عليهم من الله سبحانه .

قوله تعالى :

* « تكاد تَمَيّز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتُها ألم يأتكم نذير » .

أى أن جهنم حين يَرِدُ عليها هؤلاء الواردون من أهلها ، تلقاهم ، مغيظةً محنقة ، تكاد تميز من الغيظ ، أى تتقطع وتتمزق من الغيظ ، والحنق عليهم ، لا يشفى غليلَها ، إلا أن تحتويهم ، وتجعلهم وقوداً لها ..

وقوله تعالى : « كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير » — أى كلما ألقى فى جهنم « فوج » أى جماعة ممن قَضَى اللهُ فيهم أنهم من أصحاب النار — كلما ألقى فوج من هذه الأفواج المتتابعة ، سألهم خزنة جهنم وزبانيتها هذا السؤال : « ألم يأتكم نذير ؟ » .

وهذا السؤال تقريعى وتوبيخى للواردين على جهنم . لأنهم ما وردوا جهنم إلا لمخالفتهم النذير ، أى الرسول الذى أرسله الله تعالى إليهم ، لينذرهم عذاب هذا اليوم ، فكذبوا الرسول ، ولم يؤمنوا بما جاءهم به من عند الله .. ولو أنهم اتبعوا هذا النذير ما وردوا جهنم .. وهذا يعنى أنه لا يعذّب إلا من بلغتهم رسالة رسل الله ، ثم خالفوها ، ولم يقبلوا ما دُعوا إليه منها .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (١٥ : الإسراء) ..

وفى قوله تعالى : « كلما ألقى فيها فوج » وفى التعبير عن سَوْق الكافرين إلى جهنم بالإلقاء — فى هذا ما يشير إلى هوان هؤلاء المجرمين ، وعدم احترام آدميتهم ، وأنهم إنما يعاملون معاملة الأشياء المستغنَى عنها ،

من النفايات والفضلات ، حيث تُطرح بعيداً بغير حساب ، فتقع حيث تقع ، غيرَ ملتفَتٍ إليها .

قوله تعالى :

* « قالوا بلى قد جآءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزّل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير » — هو جواب الواردين على النار ، لما سُئلوا عنه من زبانية جهنم بقولهم : « ألم يأتكم نذير » ؟ فكان جوابهم : بلى أى قد جاءنا نذير ، ولكن كذبنا بهذا النذير ، وقلنا ما نزل الله من شىء ، أى من كتب ، وما أرسل من رسل . .

وقوله تعالى : « إن أنتم إلا فى ضلال كبير » يجوز أن يكون من جواب أهل النار ، ومن مقولاتهم للمنذِرين الذين جاءوهم ، حيث كذبوهم ، ثم رموهم بالضلال الكبير ، الذى لا يخفى أمره على أحد . .

ويجوز أن يكون هذا تعقيباً من زبانية جهنم على ما سمعوه من جواب أهل النار . .

و « إنْ » نافية بمعنى « ما » ، أى ما أنتم إلا فى ضلال كبير . .

قوله تعالى :

* « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » . . هذا من حديث النفس لأصحاب النار ، حيث يرجعون بالملامة على أنفسهم ، ويتهمون أنفسهم بأنهم كانوا فى غفلة من أمرهم ، وأنهم لم يكونوا أصحابَ سمع أو عقل ، إذ لو كانوا أصحاب سمع وعقل ما كذبوا رسل الله ، ولَمَا وردوا هذا المورد الوبيل . .

وقدّم السمع على العقل ، لأنهم إنما أدينوا فى الآخرة من جهة سمعهم ، وما جاءهم عن طريقه من آيات الله ، على لسان رسله .. فلم يحسنوا الاستماع إلى ما أنذرهم به الرسل ، ولم يقبلوا ما دُعوا إليه من الإيمان بالله واليوم الآخر ، ولم يَعرضوا ما سمعوا على عقولهم .

ثم إنهم إذ لم يأخذوا بهذا البلاغ السمعى ، ولم يكن لهم من عقولهم بلاغ عقلىّ ، يقيم لهم طريقاً إلى الإيمان بالله، ويدعوهم إليه فقد ضلّوا ، وهلكوا ..

قوله تعالى :

* « فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » ..

أى أن هؤلاء المعذَّبين بنار جهنم ، قد شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا ظالمين ، وأنهم أهل لهذا العذاب الذى هم فيه ..

وقوله تعالى : « فسحقاً لأصحاب السعير » — دعاء عليهم بالبعد من رحمة الله ورضوانه ، يرميهم به كل لسان . . ناطق أو صامت ، فى هذا الوجود . .

الآيات : (١٢ — ١٥)

* « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ (١٤) هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ (١٥) »

قوله تعالى :

* « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير » ..

هو بيان للطرف المقابل للذين كفروا بربهم، والذين عرضتهم الآيات السابقة وعرضت أحوالهم ، وما يلقون من هوان وعذاب يوم القيامة ..

وكما أن فى الآخرة عذاباً ، فإن فيها رحمة ورضواناً ، كما يقول سبحانه : « وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان » (٢٠ : الحديد) ..

وإذا كان للذين كفروا بربهم ، عذابُ جهنم وبئس المصير ، فإن للذين آمنوا، مغفرة وأجراً عظيما . .

والذين يخشون ربهم بالغيب ، هم الذين خافوا عذاب يوم القيامة ، وخافوا لقاء ربهم، قبلَ هذا اليوم الغائب عنهم.. ثم إنهم هم الذين يخشون ربهم فى سرهم، كما يخشونه فى علانيتهم ، حيث يشهدون سلطان الله قائماً عليهم فى كل حال من أحوالهم. فهم لشهودهم هذا السلطان،لا يعصون الله،ولا يفعلون مالا يرضاه، وهم لهذا مجزيّون من الله تعالى، بمغفرةِ ذنوبهم التى تقع منهم ، وهم على خشية من الله ، كما يقول سبحانه : «والذين يُؤْتون ما ءاتوْا وقلوبهم وجِلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون » (٦٠ : المؤمنون) .. وإلى جانب غفران ذنوبهم يكون مضاعفة أجرهم لما يعملون من حسنات.. « لهم مغفرة وأجر كبير » ..

قوله تعالى :

* وأسِرّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور » ـ هو بيان شارح ، ودعوة إلى الإيمان بالغيب ، الذى أشار إليه قوله تعالى : « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير » .. أى أن سبحانه وتعالى ، عالم بما نُخفى وما نعلن ، مطلع على ما نعمل فى سر أو جهر .. وإذن فليكن سلطانُ

الله مشهوداً لنا في كل حال ..وأنه إذا كنا لا نجاهر بالمنكر أمام الناس،فكيف نجاهر بالمعاصي أمام الله ؟ فليس فيما نفعل أو نقول ، سرٌّ بالنسبة إلى الله سبحانه ، بل كل أعمالنا وأقوالنا،هي جهر منّا بين يديه ، على أية حال لنا .. « سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخفٍ بالليل وسارب بالنهار » (١٠ : الرعد) .. فمن ترك المعاصي جهراً ، ولم يتركها سرّا ، فهو إنما يفعل ذلك خوفاً من الناس ، لا من خشية الله ، وفي ذلك استخفاف بجلال الله ، وسوء أدب مع الله ..

قوله تعالى :

* « ألاَ يعلم مَن خلق وهو اللطيف الخبير » ..

هو تقرير لما جاء في قوله تعالى : « وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور » .. فإن علم الله سبحانه وتعالى بما نسرّ وما نجهر به من قول ـ أمر لايصحّ أن ينكره أو يشك فيه عاقل.. فنحن صنعة الله . . من التراب، إلى النطفة ، إلى العلقة ، إلى المضغة ، إلى أن نصبح بشراً سويًّا .. وإذا كان ذلك شأنَ الله فينا ـ أفيخفى على الله بعد ذلك شيء من ظاهرنا ، أو باطننا ؟ أفيخفى على الصانع شيء من أسرار ما صنع ؟ أيخفى على صانع آلةٍ من الآلات البخارية ، أو الكهربية ، أيّ جزء من أجزائها.. دقّ ، أو عظُم ؟ ألايعلم السرّ في كل حركة من حركاتها ، أو سكنة من سكناتها ؟ ألا يعلم لمَ تتحرك ، ولم تسكن ؟ ..

فإذا كان ذلك كذلك فيما يخلق المخلوقون ، فكيف لا يكون هذا لربّ العالمين ، وخالق المخلوقين ؟ ..

فالاستفهام في قوله تعالى : « ألا يعلم من خلق » استفهام تقريري ..

وقوله تعالى : « وهو اللطيف الخبير » صفتان من صفات الله تعالى ،

تكشفان عن سعة علمه ، ونفوذ هذا العلم إلى أعمق أعماق الوجود .. فهو علم « اللطيف » الذى لا يُحجب عنه شىء « الخبير » الذى لا تخفى عليه حقيقة أى شىء ..

قوله تعالى :

* « هو الذى جعل لكم الأرض ذَلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » ..

هو خطاب للناس جميعاً ، وإلفات لهم إلى فضل الله عليهم ، وإحسانه إليهم ، إذ خَلَقهم ، وأقامهم على خلافة الأرض ، وجعل الحياة فيها ذلولا لهم ، أى مذللة ، ميسرة لهم ، بما أوجد فيها من أسباب الحياة ، وأدوات العمل للعاملين فيها ..

وقوله تعالى : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » ـ هو دعوة إلى العمل فى هذه الحياة ، وإلى السعى فى الأرض، والضرب فى وجوهها المختلفة .. فالله سبحانه قد وضع بين أيدى الناس خيرات كثيرةً ممدودة على بساط هذه الأرض ، وعليهم هم أن يتحركوا فى كل وجه على هذا البساط ، وأن يمدّوا أيديهم إلى كل شىء يقدرون عليه من هذا الخير ، فإن هم لم يفعلوا ، فقد بَخَسُوا أنفسهم حقها من الحياة الكريمة على هذه الأرض ، ونزلوا إلى درجة الحيوانات التى تأكل من حشائشها ، وخسيس ثمارها ..

ومناكب الأرض ، هى أجزاؤها العليا فيها ، أشبه بمنكبى الإنسان ، وهما جانبا الكتفين .. وهذا يعنى أن يستدعى الإنسان قواه كلها ، وأن يعمل فى الحياة عملا جاداً ، يحشد له طاقاته الجسدية والعقلية ، حتى يأخذ مكاناً متمكناً من الأرض، يستطيع به أن يقهر قوى الطبيعة فيها ، وأن يقودها بقوته ، وأن يتحكم فيها بسلطانه .. فهذا هو مكان الإنسان الذى يعرف قدرَ إنسانيته ، ويحترم وجوده بين المخلوقات فيها .. لأنه الخليفة على هذه الأرض ، ومقام الخلافة يقتضيه

أن يأخذ مكان الصدارة فيها ، وأن يجلس مجلس السلطان من رعيته ..

وفى تعدية الفعل «امشوا» بحرف الجر «فى» بدلا من «على» - إشارة إلى أن ينفذ الإنسان فى أعماق هذه المناكب ، وإلى أن يعمل على كشف أسرارها ، لا مجرد اتخاذها طريقاً يمشى عليه ..

وقوله تعالى : «وإليه النشور» هو خاتمة مطاف الإنسان ، بعد انتهاء رحلته فى الأرض .. فهو بعد هذه الرحلة ، تُطوى صفحة وجوده على الأرض ، ثم تُنشر حياته من جديد ، بين يدى الله فى الحياة الآخرة ..

الآيات : (١٦ — ٢٧)

«ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ» (٢٧)

التفسير :

قوله تعالى :

« أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرضَ فإذا هى تمور » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآية السابقة كانت دعوةً موجهة من الله سبحانه وتعالى إلى الناس جميعاً ، أن يأخذوا أماكنهم من الأرض، وأن يُعملوا قواهم كلها فيما أودع الله لهم فيها من خير ، ليقطفوا من ثمارها، ويأكلوا من طيباتهـا . . وذلك فى قوله تعالى : « هو الذى جعل لـكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » . . وهذه الأرض التى مكّن الله سبحانه للناس من السعى فيها — مَن يمسكها أن أن تميد بهم ؟ ومن يحفظ وجودهم عليها ، فلا تفتح فاها لتبتلعهم ؟ أليس ذلك من تدبير الحـكيم العليم ؟ ومن رحمة الرحمن الرحيم ؟! . .

فما بال هؤلاء المشركين لا يؤمنون بالله ، وقـد جاءهم رسول كريم يدعوهم إلى الله ، ويحمل بين يديه كتاباً منيراً ، تنطق كل آية من آياته بمعجزة قاهرة متحدّية ؟ .

أأمنوا أن يخسف الله بهم الأرض ، فإذا هى « تمور » أى تضطرب وترتجف بما يحدثه هـذا الخسف من انقلاب ، تفقد به توازنها ، وتلقى بهم من فوق ظهرها ؟ أأمنوا عـذاب الله أن ينزل بهم وهم على هـذه الأرض ، وقد حادّوا الله وحاربوه .. ؟

والمَوْر : الاضطراب الشديد ، المنبعث من رجّة عظيمة ، ومنه قوله تعالى: « يوم تمور السماء مَوْراً » (٩ : الطور) . .

وفى قوله تعالى : « مَن فى السماء » — إشارة إلى علوّ سلطان الله ، وإلى تمكّنه منهم .. وليس فى هذه المكانية تحديد لوجود الله ، وإنما هى إشارة إلى علوّ سلطانه ، وتمكن قدرته .

وقوله تعالى :

* « أأمنتم من السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير » ..

الحاصب : ما يُحصَب به ، أى يُقذف به من حصاً ونحوه .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى للكافرين والمشركين : « إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم » (٩٨ : الأنبياء) ..

أى أنهم يُلقون فيها كما يُلقى الحصا .. ومنه الحصباء ، وهى دِقاق الحصا ..

وفى الآية ، تهديد للمشركين بأن يُرْمَوْا من بالسماء بالصواعق والرجوم ، إن لم تأخذهم الأرض بالزلازل والخسف .. فهم واقعون تحت البلاء ، يأخذهم من السماء ، أو يأتيهم من الأرض ، أو من السماء والأرض معاً ..

فكيف يبيتون على أمن من هذا البلاء ، وهم على عداوة ظاهرة لله ، وفى حرب سافرة معه ، ومع رسوله ، ومع أوليائه المؤمنين به .. ؟

وفى قوله تعالى : « فستعلمون كيف نذير » تهديد بعد تهديد ، بأنهم إن أمهلهم الله سبحانه ، فلم يعجّل لهم العقاب ، فإن عقاب الله راصد لهم ، إن لم يلقهم اليوم فغداً ، وإن لم يأخذهم به فى الدنيا ، أخذهم به فى الآخرة ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ..

قوله تعالى :

* « ولقد كذّب الذين من قبلهم فكيف كان نكير » . .

وفى هذا إلفات للمشركين إلى ما كان لله سبحانه من نِقَم ، ومن مهلكات أرسلها على الذين كفروا من قبلهم .. فلينظروا فى آثار هؤلاء الذين كفروا من قبلهم ، وليشهدوا كيف كان أخْذُ الله لهم ، بعد أن أتوا ما أنكره الله تعالى عليهم من منكَرات . . إذ ليس وراء هذا الإنكار من الله ، إلا الانتقام والعذاب .

قوله تعالى :

* « أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافّات ويقبضن . . ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير » . .

هو دعوة مجدّدة إلى هؤلاء المشركين ، أن يُعيدوا النظر فى موقفهم الضال عن طريق الهدى ، بعد أن طالت مسيرتهم فى هذا الطريق المنحرف ، وبعد أن أصبحوا فى معرض سخط الله ، ونقمته .. فتلك هى فرصتهم الأخيرة ، إن أفلتت منهم ، ولم يستقيموا على الطريق المستقيم ، فليس لهم بعد هذا إلا أن يَرِدُوا موارد الهالكين . .

والدعوة التى يُدعى إليها المشركون هنا ، للإيمان بالله ، والاستقامة على طريق الحق ـ هى دعوة موجهة إلى عقولهم التى غطّى عليها الجهل والضلال ، وذلك بأن يوقظوا هذه العقول ، وأن ينظروا بها إلى آيات الله التى بين أيديهم من صحف الوجود ، بعد أن أصمّوا آذانهم عن آيات الله التى تُتلى عليهم ..

وآيات الله التى بين أيديهم كثيرة لا يحصرها عَدّ ..

ثم إنه لكيلا تزيغ أبصارهم ، ولا تضطرب عقولهم أمام هذه الآيات الكثيرة ـ فهاهى ذى آية وضعها الله تعالى بين أيديهم ، ودعاهم إلى النظر فيها ، وتقليبها على جميع وجوهها ..

فلينظروا إلى الطير ، وقد صَفّت أجنحتها ـ أى بسطتها فى جو السماء ـ ثم لينظروا إليها ، وقد قبضت هذه الأجنحة ، أو ضمتها ، وهى فى حالتيها تلك ، محلقة فى الجو ، سابحة فى السماء ، لا تسقط ، كما تسقط الأجسام من أعلى إلى أسفل ..

لينظروا إلى الطير فى حاليها تلك .. فماذا يقع فى عقولهم من هذا النظر ، إن كان لهم نظر ، وكانت لهم عقول ؟..

من يمسك هذه الطير ؟ ومن منحها تلك القدرة على أن تسبح فى السماء . ومن يمسكها أن تسقط من الجو ؟ « مايمسكهن إلا الرحمٰن إنه بكل شىء بصير » .. فأين أبصارهم ؟ وأين ما تعطيه هذه الأبصار من شواهد على وجودها .. ؟

قوله تعالى :

* « أمّن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمٰن إن الكافرون إلا فى غرور » ..

وإذا لم يستجب المشركون لهذه الدعوة التى يُدْعَوْن فيها إلى آيات الله وإلى الإيمان به ـ فعلى أى شىء يعوّلون فى الخلاص من نقمة الله وعذابه . ألهم جند ينصرونهم من دون الله ، ويدفعون عنهم بأسه إذا وقع بهم ؟

إنهم لمخدعون مغرورون ، إن كان ذلك من أمانيّهم ، ومن متعلقاتهم ظنونهم ، كما يقول الله سبحانه وتعالى عنهم : « ويعبدون من دون مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (١٨ : يونس) .

و « إنْ » فى قوله تعالى : « إن الكافرون إلا فى غرور » حرف يفيد النفى ، بمعنى « ما » أى ما الكافرون إلا فى غرور ، يحتويهم ، ويشتمل عليهم . .

قوله تعالى :

* « أمّن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه . بل لجّوا فى عتوّ ونفور » . .

وهذا سؤال آخر ، مطلوب من المشركين أن يجدوا له جواباً :

من يرزقهم إن أمسك الله الرزق عنهم ؟ هل من رازق لهم غير الله ؟

إن هذه الوقفات مع المشركين ، وهذه المراجعة التى يُراد بها الكشف عن آفات الضلال المسلطة عليهم ، لا تزيدهم إلا بعداً عن الحقّ ، وإلا عتوّاً وعناداً ، ولجاجا فى العناد والكفر .

واللجاج فى الشىء : الإغراق فيه . ومجـاوزة الحدّ . . والعتو : العناد الشديد .

قوله تعالى :

* « أفمن يمشى مكبًّا على وجهه أهدى أم من يمشى سويًّا على صراط مستقيم » ؟

وهذه بديهة من البَدَهيّات ، تُوضع موضع القضايا المطلوب من المشركين

النظرُ فيها ، والوصولُ إلى حكم لها . . وذلك بعد أن عجزت عقولهم عن أن تنظر فيما ينظر فيه العقلاء !.

والقضية هى :

أىٌّ أهدى سبيلا ، وأسلم عاقبة . . مَن يمشى مكبًّا على وجهه ، لا يرى ما بين يديه ، ولو كان هاويةً يهوى إليها ، أو وَحَلا يغوص فيه — أم الذى يمشى مُفَتّح العينين ، رافع الرأس ، مستقيم الخطا ؟ . .

وفى هـذا استخفاف بعقولهم ، وإنزالهم منزلة الأطفال الذين يلقّنون المعلومات تلقيناً . . ولهذا جاء قوله تعالى بعد ذلك :

* « قلْ هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشـكرون * قل هو الذى ذراكم فى الأرض وإليه تحشرون » — جاء تلقيناً لهم ، وإلزاماً إياهم بتلك الحقائق ، سواء عقلوها أو لم يعقلوها . .

فالإله الذى حدثتهم الآيات السابقة عنه ، ودعتهم إلى النظر فى آياته ، وإلى الإجابة على عـدد من الأسئلة التى من شأن العقـلاء أن يسألوها أنفسَهم ، وأن يتولّوا الإجابة عليها ، فى سبيل التعرف على الله — هذا الإله ، هو الذى جعل لهم السمع ، والأبصار ، والعقول .. ولـكن كثيراً من الناس لا يشـكرون الله تعالى على هذه النعم بل ولا يعترفون به ربًّا ، وفى هذا يقول سبحانه : « وقليل من عبادىَ الشكور » (١٣ : سبأ) .

وهذا الإله ، هو الذى ذرأ الناس ، أى خلقهم ، وأقامهم على هذه الأرض وبثّهم فيها ، وهو الذى سيحشرهم إليه بعد موتهم . .

والذرء : الخلق ، وذَرَأ الشىء : كثّره وبثه .

هذه حقائق ، مطلوب من الرسول أن يبلغها الناسَ جميعاً . فمن صَدّق وآمن ، فقد اهتدى ، وسَلِم . . ومن أعرض وكفر ، فقد ضلّ وخسر .

قوله تعالى :

* « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » . .

هو بيان لما انتهى إليه أمر هؤلاء المشركين ، بعد هذه الوقفة الطويلة معهم ، وبعد هذه المراجعة لحسابهم المغلوط ، الذى اطمأنوا إليه . . إنّ كل هـذا لم يزحزحهم عن موقف الضـلال الذى هم فيه . . وإنهم مازالوا على تـكذيبهم بالبعث ، والحساب والجزاء ، فَيسألون هذا السؤال ، الذى يدل على رفضهم لـكل ما قدم إليهم من أدلة ، وما عُرض عليهم من آيات .: « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » .. يقولون هذا فى استهزاء وسخرية.. وكأنهم يقولون للنبى ، وللمؤمنين : دَعُونا من كل هذا الذى تخوضون فيه ، وقولوا لنا : متى هذا الوعد ؟ أى متى يوم القيامة الذى تقولون عنه وتجعلونه موعـداً للحساب والجزاء ؟ متى يومُه ؟ إن كنتم صادقين فى هـذا الزعم ، فحددوا له موعداً لهذا اليوم ، طال هـــذا الموعد أم قَصُر . .

أما إطلاق هذا اليوم ضالاً فى غياهب الغيب ، فهذا دليل على أن الحديث عن هذا اليوم ، هو حديث مكذوب ، وقول مفترى . .

إذ لو أنه كان حديثـاً قائمـاً على واقع من الحق ، لعلم المتحدِّث به ، الموعدَ الذى يقـع فيه . . أما أن يتحدث متحدث عن أمر سيقع ، ثم لا يربط هذا الحديث عنه بزمن معلوم ، فذلك رجم بالغيب ، أشبه بأخبار الـكهان والمنجّمين . .

هكذا كانوا يفكّرون ويقدِّرون . .

وقد جاءهم الرد المفحم فى قوله تعالى :

* « قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين » . .

إن الرسول لم يقل لهم يوماً إنه يعلم الغيب ، أو أنه إله مع الله ، وإنما باداهم من أول الأمر ، بما أمره الله سبحانه أن يلقاهم به فى قوله تعالى : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحَى إلىّ » (١١٠ : الكهف) . وقوله سبحانه : « إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ » (١٥ : يونس) . .

وإذ كان هذا شأنه ، فإنه لا يعلم من أمر الساعة شيئاً : « قل إنما علمها عند ربى » (١٨٧ : الأعراف) .

إن موعد الساعة فرع من أصل ، وجزئية من أمر كلىّ ، هو الساعة ذاتها ، أى القيامة والبعث ، والحساب والجزاء .. هذه هى القضية . . فإن آمنوا بها إيمانَ غيب ، فإن من تمام هـذا الإيمان أن يؤمنوا بكل ماجاء فى القرآن عنها . . وإن لم يؤمنوا بها أصلا ، فلا معنى إذن لأن يسألوا عن متعلقاتها . .

قوله تعالى :

* « فلما رأوه زلفـة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدّعون » .

إنه يوم آت لاريب فيه ، ولـكن اقتضت حكمة الله أن يُخفَى ميقاته ، كما يقول سبحانه : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتُجزَى كل نفس بما تسعى » (١٥ : طه) [1] . . فلو كُشف هذا اليوم للناس لفسد نظامهم ،

(١) انظر تفسيرنا لهذه الآية فى سورة طه (الـكتاب الثامن ص : ٧٨٥) .

واضطربت حياتهم ، ولو كان بينهم وبينه مئات السنين أو ألوفها ، تماماً كما لو عرف الإنسان اليومَ الذى يموت فيه . . إنه بهذا الكشف ، يموت كل يوم مئات المرات ، ولو كان بينه وبين الموت عشرات السنين . .

وفى الحديث عن رؤية المشركين لهذا اليوم بصيغة الماضى « رأوه » ، وهم مازالوا فى هذه الدنيا ، وفى إنكار ، وتكذيب له — فى هذا إهمال لإنكارهم ، وعدم اعتداد بمعتقدهم الفاسد فى أمر البعث ، ثم سَوْقهم إليهم سوقاً فى الدنيا وهم متلبسون بهـــذا الإنكار ، فإذا هم بين يدى ما ينكرون . .

وقوله تعالى : « زلفة » أى دانياً ، وقريباً منهم ، بحيث يعاينونه ، ويقعون تحت سلطانه . . ومنه قوله تعالى : « وأزلفت الجنة للمتقين » (٩٠ ـ الشعراء) أىَ دنت وقربت لهم ، لتكون بين أيديهم .

وقوله تعالى : « سيئت وجوه الذين كفروا » —أى حلّ بها السوء ، ونزل بها الكرب . .

وإسناد السوء إلى الوجوه ، لأنها هى التى تتجلّى على صفحتها آثار المشاعر ، والأحاسيس ، والأفكار التى تدور فى كيان الإنسان ، من فرح أو حزن ، ومن لذة أو ألم . .

وفى إقامة « الذين كفروا » بدلا من ضميرهم ، ليكون فى ذلك مواجهة لهم بهذا الذى يسؤوهم ، وليبين السبب الذى من أجله حلت بهم المساءة .. وهو أنهم كانوا كافرين . .

وقوله تعالى : « وقيل هذا الذى كنتم به تدّعون » أى أنه حين

بلقاء هذا اليوم ، ويقع عليهم منه ما يقع من فزع وكرب ، يلقاهم مَن يقول لهم : « هذا الذى كنتم به تدّعون » أى هذا الذى كنتم تطلبونه ، وتُلحّون فى الكشف عن وجهه ... فها هو ذا قد جاءكم .. فلمَ تنكرونه؟ ولم تفزعون منه ؟ وهل يفزع المرء من أمر كان شديدَ اللهف على لقائه ؟

و« تدعون » معناه تطلبون ، وتتمنون .. ومنه قوله تعالى عن أصحاب الجنة : « ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون »(٣١ : فصلت) .

وفى تعدية الفعل تدعون بحرف الجر « الباء » .. « به تدعون » وهو متعدّ بنفسه ـ لتضمّنه معنى الفعل ، « تهتفون » أو « تستعجلون » .. ونحوها ، مما يدل على شدة الرغبة للشىء ، والطلب له .

الآيات : (٢٨ — ٣٠)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠) »

التفسير

قوله تعالى :

* « قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم » .

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآية السابقة قد طلعت على المشركين

المكذبين بيوم القيامة — طلعت عليهم بهذا اليوم ، وكشفت عما وقع عليهم من ملاقاته ، من هَلَع وفزع ..!

وإنه ليس هذا ، وحسب ، هو الذى يلقاه الكافرون من هذا اليوم ، بل إن هناك عذاباً أليماً فى نار جهنم التى أعدت لهم .. وهذا ما جاءت الآية الكريمة لتقريره ، فى أبلغ صورة ، وذلك أن هذا العذاب الواقع بالكافرين لا يَصرفه عنهم أحد ، من صديق أو قريب ، وأن ما يقع لغيرهم من إساءة أو مسرة ، لا أثر له فى العذاب الواقع بهم .. فاذا أهلك الله النبى ومن معه أو رحمهم فى هذه الحياة الدنيا ، فليس فى هذا ما يخلّص الذين كفروا ، من عذاب الآخرة ، أو يدفعه عنهم .. إنه واقع بهم ، فلا محيد لهم عنه ، ولا منقذ له منه ..

إنهم كانوا يتمنون هلاك النبى ، ويتوقعون أن يصبحوا يوماً فلا يرون له مكاناً فيهم ، وهذا ما ذكره الله تعالى عنهم فى قوله سبحانه: « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » (٣٠ الطور) وفى هذا — على ما قدّروا — راحة لهم من عناء ، وعافية من بلاء .

وإنهم لواهمون فى تقديرهم هذا ، مخدوعون فيما يتمنون ، إذ ماذا يعود عليهم من موت النبى ؟ إنه صلوات الله وسلامه عليه — لا يملك لنفسه ، ولا لمن معه نفعاً ولا ضراً ، بل الأمر كله بيد الله ، وأن النبى — صلى الله عليه وسلم — ليس هو الذى يتولّى حسابَ هؤلاء الكافرين ، ويأخذهم بالعذاب الذى أعدّ لهم ، حتى إنه لو مات لرفع عنهم العذاب — وكلا .. إنه ليس هو الذى يتولى هذا ، بل الذى يتولاه ، هو الله سبحانه ، وليس للكافرين من مجير من هذا العذاب .

قوله تعالى :

« قل هو الرحمن . . آمنّا به . . وعليه توكلنا . . فستعلمون من هو فى ضلال مبين »

أى إن النبى ومن معه ، هم فى مقام العبودية لله ، كسائر الناس جميعا .. إن آمنوا بالله ، وأحسنوا العمل ، غفر الله لهم ، وأنزلهم منازل المكرمين . ولهذا جاء قوله تعالى إلى النبي الكريم ، بإعلان هذا الايمان بالله فى وجه الكافرين ، ليكون لهم من ذلك علم بأن النبي ليس خارجاً عن هذه الدعوة التى يدعوهم إليها ، وأنه عبد الله مؤمن به ، متوكل عليه .. وتلك هى سبيل المؤمنين معه .. فهل يؤمن الكافرون بالله؟ وهل يأخذون الطريق الذى أخذه النبى وأصحابه؟ : « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوْا وإن تولّوْا فإنما هم فى شقاق » (١٣٧ : البقرة) .

قوله تعالى :

* « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين »

هو تهديد للكافرين بأن يسلط الله تعالى عليهم البلاء فى الدنيا ، وأن يرميهم بالمكاره ، وأن ينزع عنهم نعمه التى يعيشون فيها .

فلو أن الله سبحانه ذهب بهذا الماء الذى هو قوام حياتهم ، وحياة حيوانهم ونباتهم ، فمن يأتيهم بجرعة ماء منه ؟

وغور الماء : هو ذهابه غائراً فى الأرض ، أى منسرباً فيها ، ضائعاً فى بطنها . والماء المعين ، هو الماء الذى يفيض من العيون . .

وفى الآية الكريمة إشارة إلى النبى الكريم ، وإلى القرآن الذى بين يديه ، أنه هو الحياة التى منها حياة القلوب والنفوس ، وأنه لو ذهب هذا النبى — كما يتمنون — لكان فى هذا هلاكهم ، وضياعهم ، بذهاب مصدر الهدى والنور لهم . إنه لن يأتيهم نبى بعده ، ولن ينزل عليهم من الله كتاب بعد هذا الكتاب ، الذى إن فاتهم حظهم منه ، فقد فاتهم ماء الحياة ، وغذاء الأرواح .

* * *

٦٨ - سورة القلم

نزولها : مكية . . نزلت بعد العلق . .

عدد آياتها : اثنتان وخمسون آية . .

عدد كلماتها : ثلاثمائة كلمة . .

عدد حروفها : ألف ومائتان وستة وخمسون حرفاً . .

مناسبتها لما قبلها

بين هذه السورة ، وسورة الملك قبلها ، أكثرُ من مناسبة . .

فأولا :

خُتمت سورة « الملك » بقوله تعالى : « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين » . . وفى هذا ـ كما قلنا ـ تهديد للمشركين بذهاب هذا النور الذى يرفعه النبى صلى الله عليه وسلم لأبصارهم ، من آيات الله ، وكلماته . .

وبُدئت سورة القلم بقوله تعالى : « ن . والقلم وما يسطرون » . . لتلفت المشركين إلى هذا النور القرآنىّ الذى يكتبه الكاتبون ، بعد أن يتلقاه النبىّ من ربّه ، وأنهم إن لم يبادروا إلى الإمساك به فى قلوبهم ، وحفظه فى صدورهم ، يوشك أن يُفلت من بين أيديهم ، فلا يلقوه أبداً . .

كما أن فى ذكر القلم وما يسطر به الكاتبون ، إلفاتاً عامًّا إلى شأن الكتابة والكاتبين ، الذين هم أهل العلم والمعرفة ، وأن هؤلاء المشركين أمّيون لم ينالوا حظًّا من العلم عن طريق الكتابة والكِتاب ، وهاهم أولاء وقد جاءهم رسول كريم ، كان مفتتح دعوته دعوةً آمرةً بالقراءة ، ثم تلاها بعد ذلك هذا

القَسَم بحروف الكتابة ، وأدواتها ـ وذلك ليخرجوا من ظلام هذا الجهل الذى غطّى على أعينهم ، وحال بينهم وبين أن يهتدوا إلى هذا النور الذى يدعوهم الرسول الكريم إليه . . فالجهل هو الآفة التى أفسدت على هؤلاء المشركين رأيهم فى دعوة السماء لهم إلى الإيمان ، ولو أنهم أخذوا حظًّا من العلم ، لاستقام طريقهم على الحق ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مُبين » (٢ : الجمعة) .

وثانياً : جاء فى ختام سورة « الملك » قوله تعالى : « قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معىَ أو رحمنا » ـ وفى هذا مايشير إلى نظرة الكراهية والاستثقال التى ينظر بها المشركون إلى النبى ، وإلى مُقامه فيهم ، حتى إنهم ليتمنون زواله من بينهم .. وجاء فى مفتتح سورة « القلم » مايُضفى على النبىّ الكريم حلَلَ التكريم والتمجيد التى خلعها عليه ربّه ، فوصفه سبحانه بهذا الوصف الربّانىّ ، الذى لو قُسِّم فى الخلق جميعاً لأرضاهم ، وأغناهم ، وأسعدهم ، فيقول الله سبحانه «وإنك لعلى خلق عظيم » .. وفى هذا ما يَكبِت المشركين ، ويملأ قلوبهم حسرة وكمداً .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٦)

« نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ن والقلم وما يسطرون » .

اختلف المفسرون فى تأويل كلمة « ن » فأضافوا إليها مفهوماً جديداً غير تلك المفاهيم الكثيرة التى تشارك فيها غيرها من الحروف التى بدئت بها أوائل السور . . فهى بهذه المفاهيم . . حرف من تلك الحروف ، يقع عليها الخلاف الذى وقع فى هذه الحروف وكثرت المقولات فيها[1] . .

---

(١) انظر المبحث الخاص بهذا تحت عنوان: « مفهوم جديد للحروف فى أوائل السور » من التفسير القرآنى للقرآن ، الكتاب الثالث عشر صفحة : ٨٩ .

أما المفهوم الخاص الذى جُعل لهذه « الكلمة » ، أو هذا الحرف ، فهو أن يُراد به ما يقال عن « الحوت » العظيم الذى تقوم عليه الأرض، كما يزعم الزاعمون .. وكأنّ المفسرين قد نظروا فى هذا إلى قوله تعالى : «وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه » (٨٧ : الأنبياء) ثم إلى ما جاء فى قوله سبحانه فى هذه السورة : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » (الآية : ٤٨) . . فالسورة تبدأ بالحرف « ن » وفى خاتمتها يذكر « صاحب الحوت » . . وصاحب الحوت هو « ذو النون » . . أى يونس عليه السلام . وإذن فهذه قرائن على أن حرف «ن» هو اسم للحوت! ..هذا ما نحسب أن المفسِّرين الذين قالوا إن « ن » هى الحوت ، قد نظروا إليه ، وأخذوا قولهم هذا عنه .

ولكن أى حوت هو ؟ أهو الحوت الذى ابتلع يونس عليه السلام ؟ وكلاّ فإن الحوت الذى يقسم الله سبحانه وتعالى به ، يجب أن يكون ظاهرة فريدة من ظاهرات الوجود . . ليكن إذن هو الحوت الذى تتحدث عنه قصة أو قصص خَلْق العالم ، التى كانت تعيش فى خيال كثير من الأمم والشعوب ! !

إن هذا الحوت الذى يقال إنه يحمل الأرض ، أو بمعنى أدقّ ، يحمل الثور الذى يحمل الأرض بقرنه ــ هو من مواليد الخرافات والأساطير ، وما يُروى عنه من مقولات تضاف إلى الصحابة أو التابعين ، هو أحاديث مكذوبة على هؤلاء السادة الأعلام ، الذين يرفعهم قدْرهم ودينهم عن أن يقولوا بغير علم ، والذين لو ثبت لهم قول، لكان هذا القول من الحق المتلقَّى من نور النبوة ،ولما اصطدم أبداً مع واقع الحياة ، وما يكشف عنه العلم من حقائق .

فالحرف ، أو الكلمة « ن » هى من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم ، الذين يعرفونه بإحالة المتشابه على المحكم ، والذين هم على الإيمان به إيمانَهم بالمحكم . . إذ « كلٌّ من عند ربنا » ..

هذا من حيث المعنى . . أما من حيث اللفظ ، فإن لهذا الحرف أثره فى صورة النظم الذى جاءت عليه السورة . . حيث كانت فواصلها تنتهى بمقطع أشبه بلفظ « نون » . . أى أنه مقطع مكون من ثلاثة أحرف ، أولها متحرك ، وثانيها حرف مدّ ساكن يتبع هذه الحركة ، وثالثها حرف ساكن بالوقف عليه .

وهذا المقطع الذى يمثله حرف « ن » الذى ينُطق هكذا : « نون » هو لازمةُ النغم الموسيقى الذى تضبط عليه فواصل الآيات فى السورة كلها . . مثل : يسطرون . . مجنون . . عظيم . . مفتون . . إلى خاتمة السورة .

وقوله تعالى : « والقلم وما يسطرون » هو معطوف على « ن » المقسَم به . أى أُقسم بنون ، والقلم وما يسطرون . .

والمراد بالقلم ، هو أداة الكتابة ، التى يكتب بها العلماء ، العلومَ والمعارف . . فهو نعمة من نعم الله الجليلة ، التى تخطّ على الصحف ثمرات العقول ، ونِتاج الأفهام .

وقد نوه سبحانه وتعالى بالقلم ، ورفع قدره ، فكان أولَ ما وضع بين يدى النبى الكريم فى أول آيات افتُتحت بها رسالته : « اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم » (١ — ٥ : العلق)

وفى القسم بما يسطر الكاتبون بالقلم — إشارة إلى أن هذه الأداة المكرمة ينبغى ألا يُكتب بها إلا ما كان من الحق والخير ، وإلا ما كان دعوة إلى هدى وتوجيهاً إلى خير . . إنه أداةُ تسجيل العلوم والمعارف وحفظها ، وهو ينقل عن الإنسان نتاج تفكيره ، وثمرات عقله ، ويقيم له بهذا ذكراً خالداً فى الحياة ، بقدر ما يحمل القلم عنه من خير ، وما ينشر من نفع ، فكان لهذا جديراً بأن يصان من أن يَخُطّ باطلا ، أو يسجل لغواً . .

وقوله تعالى :

* « ما أنت بنعمة ربك بمجنون »

هو جواب القسم . . وهو تكذيب لهذه التهمة الحمقاء التي كان المشركون يرمون بها النبي ، حين جاءهم يقول لهم : إنه رسول الله ، وإنه يتلقى آيات الله التي يحملها إليه رسول الوحي جبريل عليه السلام . . فلقد هالهم هذا الأمر ، واستعظموه ، ورأوا أن القول به لا يكون من عاقل ، لأنه لا يقع في تصورهم أن يكون إنسان على اتصال بعالم السماء ، وبرب السماء !

إن اتصال الرسول بالله ، ومخاطبة المَلَكَ له ، يعني عندهم أمراً مستحيلا ، أشبه بمن يقول لهم : إنى أنا الذى أرسيت هذه الجبال بيدى، فلا يرون فى قائل هذا القول إلا أنه يهذى هذيان المخمور ، أو المحموم ، أو المجنون . .

والباء فى قوله تعالى : « بمجنون » حرف جر ، ومجنون خبر المبتدأ « أنت » أى : ما أنت بذى جنة، وفائدة حرف الجر هنا، أنه يقوم حِجازاً فاصلا بين النبى ، وبين إسناد الجنون إليه . .

فهذا الجنون ، وإن كان واقعا تحت حكم النفى المسلط على المبتدأ « أنت » إلاّ أنه هو حقيقة ثابتة ، لم يتناولها النفى الذى وقع على المبتدأ : « ما أنت » .

فالمنفىّ عنه الجنون هنا ، هو شخص النبى . . أما الجنون ذاته فإن نفيه عن النبى ، إنما جاء تابعاً للنفى الواقع على ذات النبى فى هذا المقام : « ما أنت » . . أى لست أنت الذى يوصف بهذا الوصف ، بل غيرك هو المجنون ، من هؤلاء الذين باعوا عقولهم فى سوق الغَواية والضلال . .

وهذا المعنى وإن كان يتحقق مع عدم ذكر حرف الجر ، بأن يجىء النظم هكذا « ما أنت مجنون » فإن فيه مواجهة للنبى بهذه الصفة ، التى هى أبعدُ

الصفات منه صلوات الله وسلامه عليه ، إنها داء خطير يتناول وجود الإنسان ، ويذهب بكل معالم إنسانيته . . ولهذا جاء مع نفى تلك الصفة عن النبى ـ هذه المباعدة المادية بينه وبينها ، فقام حجاز بينه وبينها بقوله تعالى : « بنعمة ربك » .. ثم قام حجاز آخر بحرف الجر « الباء » .. « ما أنت — بنعمة ربك بمجنون » .

وفى هذا كله مايؤكد تلك الحقيقة التى جاءت الآية الكريمة لتقريرها ، وهى بعد النبى — بُعداً معنويا ، وحسيًّا — عن أن يُلم بحماه الكريم شىء يَمَسّ عقله فى سلامته ، وكماله .. ومثل هذا قوله تعالى : « وماأنت عليهم بجبار » وقوله سبحانه : « لست عليهم بمسيطر » .. ففى هذين المقامين توكيد لنفى هاتين الصفتين المذمومتين عن النبى : التجبر ، والتسيطر .. وهذا آكد وأبلغ فى نفى هاتين الصفتين عن النبى ، من أن لوجاء النظم هكذا : « ما أنت جبار » . « ما أنت مسيطر » ، برفع هذه الحواجز المادية التى تحجز السوء عن أن يواجَه به النبى ، حتى ولو كان هذا السوء واقعاً فى قيد النفى ..

وقوله تعالى : « بنعمة ربك » — إما أن يكون جملة معترضة بين المبتدأ والخبر ، يراد بها الإشارة إلى أن الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — فى نعمة سابغة من ربه ، وهو بهذه النعمة مُعافًى من كل عارض سوء يعرض له فى عقله ، أو روحه ، أو قلبه . فهذا أشبه بمن يقال له : أنت ـ بحمد الله ـ فى عافية ، أو أنت ـ ولله الحمد ـ فى أمان . .

وإما أن يكون قوله تعالى : « بنعمة ربك » ، متعلقاً بمحذوف ، حال من الضمير المستكنّ فى قوله تعالى : « بمجنون » .. أى ماأنت بمجنون ، والحال أنك محفوف بنعمة ربك . . !

قوله تعالى :

* « وإن لك لأجراً غيرَ ممنون » معطوف على جواب القسم : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » ، وهو وعد من الله سبحانه للنبي الكريم ، بالأجر العظيم المتصل ، غير الممنون ، أي غير المقطع عنه أبداً ، وذلك جزاء جهاده ، وصبره على ما يلقى من أذى قومه ، وسفاهتهم عليه . .

والأجر غير الممنون ، هو غير المقطوع ، أي الدائم المتصل .

ويجوز أن يكون معنى الأجر غير الممنون هنا ، هو الأجر الذى لا مِنّة عليك فيه من أحد ، أي لا فضل لمخلوق عليك فيه . . فهو فضل خالص من عند الله لك ، وإنك لأهلٌ له ، بما احتملت من أذى فى سبيل دعوة الحق التى تدعو إليها . . وفى هذا تنويه بقدر النبي ، ورفع لمقامه عند ربه ، وأن هذه المنزلة التى بلغها هى — وإن كانت من فضل الله — محسوبة من كسب النبى ، ومن سعيه المحمود المبرور ، عند ربه .

قوله تعالى :

* « وإنك لعلى خلق عظيم » .

هو تقرير لما تضمنه قوله تعالى : « وإن لك لأجراً غير ممنون » — فهذا الأجر غير الممنون ، هو ثمرة لهذا الخلق العظيم ، الذى كان عليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم . . وحسب رسول الله بهذا الوصف الكريم ، من الله سبحانه وتعالى — حسبه بهذا شرفاً وعزّاً ، حيث توّجه ربه — جلّ وعلا — بتاج الكمال كله ، إذ ليس بعد حسن الخلق حِلية تتحلى بها النفوس ، أو تاج تُتوّج به الرءوس . . ففى مغارس الخلق الحسن ، كانت رسالات المرسلين ، ومن أجل حماية هذه المغارس ، وإطلاع ثمرها ، كانت دعوة الرسل ، وكان جهادهم ، الذى تُوّج بدعوة سيد

الرسل ، وجهاد خاتم النبيين . . وفى هذا يقول صلوات الله وسلامه عليه : « إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . .

قوله تعالى :

* « فستبصر ويبصرون * بأيّكم المفتون » . .

هو وعيد للمشركين،وفضح لما هم فيه من ضلال ، وأنه سيأتى يوم تنكشف فيه حالهم ، ويرون فيه سوء أعمالهم ، كما سيرون ما كان عليه ضلالُهم فى رسول الله ، وفى مقولاتهم الباطلة فيه . .

وقوله تعالى : « بأيكم المفتون » متعلق بالفعلين : « فستبصر ويبصرون » فالفعلان يتنازعان العمل فيه ، إذ هما مسلطان عليه . . فالنبى سيبصر ، وهم — أى المشركون — سيبصرون ، بأىّ — منه أو منهم — المفتون . .

والمفتون ، هو ، الذى فُتن بنفسه ، وغرّه الغَرور ، فركب مركب الفتن والضلال ، وهو على ظنّ أو يقين بأنه أهدى سبيلا ، وأقومُ طريقاً . . ويكون قوله تعالى : « بأيكم » متعلقاً بفعل محذوف دلّ عليه المقام . . » أى ستبصر ويبصرون بأيكم تتعلق الفتنة ، وبأيكم يتحقق وصف المفتون ، أو يتمثل شخصه . .

أى فستبصر أيها النبى ، وسيبصر المشركون ، بأيكم كان الشيطان متلبّساً به ، مستولياً عليه ، مالكاً زمامه ؟ . .

والجواب واضح لا يحتاج إلى بيان ، والنبى على يقين منه ، وإن كان المشركون عن هذا فى غفلة وضلال ، وفى ادعاء وغرور . . وهذا مثل قوله

تعالى : « وإنا أو إياكم لعلى هدًى أو فى ضلال مبين » (٢٤ : سبأ) .

قوله تعالى :

* « إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » ..

أى إنكم إذا لم تعلموا أيها المشركون وأنتم فى هذه الدنيا ، أنكم مفتونون ضالون ، قد أغواكم الشيطان وفتنكم — فإن ربك — أيها النبى — هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله ، وانقاد لشيطانه ، وبمن هو على طريق الهدى ودين الحق ، فيجازِى كلاًّ بما عمل .

قوله تعالى :

* « فلا تطع المكذبين * ودّوا لو تدهن فيدهنون » . .

هو نهى للنبى الكريم ، عن أن يستمع للمكذبين ، الذين يكذبون بآيات الله ، ويقفون منه هذا الموقف الضال الآثم ..

وفى هذا النهى جواب على قوله تعالى : « بأيكم المفتون » — حيث يحذَّر النبى من أن يتبع سبيل هؤلاء الضالين ، أو يستمع لهم .. فهو على هدى ، وهم على ضلال .

وفى قوله تعالى : « ودّوا لو تدهن فيدهنون » — هو بيان للمدخل الخبيث ، الذى يريد المشركون أن يدخلوا على النبى منه ، وأن يخادعوه به . . فهم — وقد أبوْا أن يستجيبوا للنبى ، وأعياهم الوعد والوعيد معه أن يحوّلوه عن موقفه — هم يجيئون إليه بتلك الدعوة الخبيثة الماكرة ، وهو أن يُدْهن أى يدارى أمره عنهم ، فلا يذكر آلهتهم بسوء ، ولا يظهر دعوته فى الناس ، وبذلك يتركونه وشأنه ، فلا يعرضون له بسوء ، ولا يلقونه بأذًى !!

فقد جاء المشركون إلى النبي أكثر من مرة ، يعرضون عليه ، المال والجاه ، على أن يدَع ما يدعو إليه ، فلما أعياهم الأمر ، ولم يجدوا من النبي أذناً صاغية إليهم — جاءوا يدعونه إلى أن يعبدوا الإله الذى يعبده ، مع آلهتهم التى يعبدونها ، وأن يعبد هو آلهتهم التى يعبدونها مع إلهه الذى يعبده، وبهذا يُرْضونه فى إلهه ، ويرضيهم هو فى آلهتهم ، فنزل قوله تعالى : « قل يٰأيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون ... » إلى آخر السورة ..

وأصل الإدهان : المداراة ، والملاطفة ، وطلاء الأمر بطلاء زائف ، حتى يُقبل تحت هذا الزيف ..

وقوله تعالى : « فيدهنون » خبر لمبتدأ محذوف ، تقديره : فهم ، أى فهم يدهنون ..

والمعنى ، فلا تطع المكذبين ، فهم يدهنون ، وودوا لو تدهن .. وهذا يعنى أن المشركين المكذبين هم على حال من الخديعة والغش فيما يقولون .. فهم يُدهنون مع أنفسهم ، فيخادعونها بهذا الباطل الذى يزينونه لها ، وهم يدهنون مع الناس فيما يحدثونهم به ، وهم يدهنون مع النبى فيما يعرضون عليه من أمور ..

وهذا شأن كل من يُمسك بالباطل .. إنه غير مطمئن إليه ، فهو يحاول دائما أن يُلبسه أثوابا بعد أثواب ، من التمويه والخداع ، حتى يُدارىَ ما به من علل ..

وفى مجىء النهى عن طاعة المكذبين بدلا من النهى عن تصديقهم — إشارة إلى ما هو أبعد من مجرد عدم التصديق ، وهو لازمُه ، إذ يلزم من عدم التصديق للحديث ، عدمُ إجابته والأخذ بمضمونه .. وهذا أبلغ من مجرد

النهى عن التصديق ، فقد لا يصدّق المرء محدّثَة فيما يدعوه إليه ، ثم تغلبه نفسه على متابعته ، والاستجابة له فيما يفعل .

ولهذا اتجه النهى مباشرة إلى المطلوب منه ، وهو عدم الاستجابة لتلك الدعوة التى يدعو إليها المكذبون .. إنهم لا يدعون إلى خير أبداً ..

قوله تعالى :

* « ولا تطع كل حلاّف مَهين * همّاز مشّاء بنميم * منّاعٍ للخير معتد أثيم * عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم » .

هذه ملامح ، وصفات ، تشين من يتصف بها ، وتَحُطّ من قدره فى الناس ، فلا يوزن بميزان الإنسان السوىّ ، الذى يطمئن إليه الناس ، ويتعاملون معه فى ثقة واطمئنان . . إنه لا يتصف بهذه الصفات إنسان له على ميزان الإنسانية وزن.. وهى صفات تجتمع وتتفرق فى هؤلاء المشركين الضالين . .

وسواء اجتمعت هذه الصفات كلها فى شخص واحد ، أو ظهرت عليه أعراض بعضها . فإن أية صفة منها تدعو إلى غيرها ، إذ هى جميعها لاتصدر إلا من طبع لئيم ، ولا تنضح إلا من نفس خبيثة فاسدة . .

فكثيرُ الحلِف : كذوب ، منافق . . يدارى كذبه ونفاقه بهذا الستار الأسود ، من كثرة الأيمان الكاذبة الفاجرة .. ولهذا وُصف بأنه « مهين » أى حقير دنىء ، لأنه لا يحترم نفسه،ولا يرتفع بها عن أن يبيعها بهذا الثمن البخس ، حيث يعرضها فى سوق النفاق والكذب ، سلعةً رخيصة ، لا تجد من ينظر إليها إلا إذا جلجلت من حولها صيحات الأيمان الكاذبة ..

والهماز المشاء بالنميم ، هو وجه قبيح من وجوه أهل الكذب والنفاق ..

حيث يهمز الناس أى يعيبهم ، وينالهم بالسوء ، فى غيبتهم ، ومن وراء ظهورهم .. فهو جبان ، مهين ، لا يجرؤ على أن يلقى الناسَ مواجهة . . وهو إذ يرمى الناس بالمساءات من وراء ظهورهم ، يمشى كذلك بينهم بالنميمة، فينقل إليهم من المقولات ما يُوقع العداوة والبغضاء بينهم ، سواء أكان ما ينقله حقًّا أو باطلا . .

والمنّاع الخير : شخص مهين ذليل ، ممسك بما فى يده، ضنين به ، لأنه يرى أنه فى وجه الهلاك والضياع ، إن هو لم يحصّن نفسه بالمال ، ولم يقم عليها حارساً منه.. إن ذاتيته أضعف من أن تحمى ذاتَها ، ومن ثَمّ كان لا بدّ لها من شىء آخر تحتمى به ، وهو المال ، وكل ما يمكن أن يكون مصدرَ نفع مادىّ . . وهذا شأن النفوس الضعيفة المهينة ، كما هو شأن ضعاف الحيوان ، كالنمل والذرّ . . إنها تختزن طعامها لأيام وشهور ، وربما لسنين ، كما أنها تجر كل ما يصادفها إلى بيتها ، سواء أكانت فى حاجة إليه أم لم يكن لها به حاجة . . وفى هذا يقول الشاعر :

وهل يدخر الضرغام قوتاً ليومه

إذا ادخر النمل الطعام لعامه ؟

إن الضن بالخير الذى يكون بين يدى الإنسان ، لا يكون إلا من نفس ضعيفة مهينة ، ليس فى قدرتها العطاء ، والإثمار ، وإنما هى أشبه بالنباتات المتسلقة ، لا تُطلع زهراً ، ولا تخرج ثمراً ، ولا تنشىء طيباً ، ولا تنشر ظلاً .

والمعتدى الأثيم ، هو هذا المكذوب ، المنافق ، الهماز ، المشاء بالنميم ، الضنين بالخير ، لأنه فى كل هذه الصفات يحمل عدواناً ، ويقترف إثما .. عدواناً على الناس بالكذب عليهم ، ونهش أعراضهم من وراء ظهورهم ، والسعى بالنميمة بينهم ، وبالضنّ بما لهم من حق فيما بين يديه من خير . . وإثماً على نفسه ، بما حمل من أوزار بهذا العدوان على الناس . . والعُتلّ : هو الجافى ، الغليظ الطبع ،

الوحشىّ الطبيعة ، الذى ينهش فى أعراض الناس ، ويقطّع أواصر الأخوة بينهم ، دون أن تتأثر لذلك مشاعره ، أو تألمَ لذلك نفسه ، شأنه فى هذا شأن الحيوان المفترس .

والزنيم : هو الدعِىّ فى نسبه ، المنسوب إلى غير أبيه . أى وَلَد الزنا . .

وفى قوله تعالى : « بعد ذلك زنيم » — إشارة إلى أن هذه الصفة ، وهى الزنامة ، هى صفة تفوق فى شناعتها تلك الصفات المذكورة كلها . . أى ومع الصفات الشنيعة كلها ، فإنه قد جمع إليها الزنامة ، التى هى وحدها مجمع المساءات كلها . .

ويَنْسُب المفسرون هذه الصفات إلى الوليد بن المغيرة ، تارة ، وإلى الأخنس ابن شُريق تارة أخرى .. ويقولون : ، إن الوليد لم يكن ابن المغيرة ، وإنما ادعاه المغيرة ونسبه إليه ، وهو فى الثامنة عشرة من عمره . .

والرأى عندنا ، أن هذه الصفات تجمع مجتمع أهل الضلال جميعاً ، من منافقين ومشركين . . وهى صفات لا يمكن أن تحتملها طبيعة بشرية ، باعتبارها صفات ذاتية ، ثم يكون لهذا الإنسان المتصف بها وجود بين الناس ، وإن غاية ما يمكن أن تحتمل النفس البشرية من طبائع السوء ، هو أن تكون على صفة من تلك الصفات اللئيمة ، ثم ينضح عليها من تلك الصفة كثير أو قليل من القبائح والمنكرات . . بمعنى أن تكون تلك الصفة الذميمة هى الأمّ التى تتجمع حولها صفات أخرى ذميمة ، تكون أشبه بالأعراض لهذه الصفة . . أما أن تكون كل صفة منها ذات وجود ذاتى فى إنسان ، فهذا ما يخرج الإنسانَ جملةً من عالم الإنسانية ، ويجعله زنيماً ، أى دعيًّا فى نسبه إلى الإنسانية . .

ولهذا جاء لفظ « كلّ » فى قوله تعالى : « ولا تطع كل حلاف مهين »

ليشير إلى أن هذه الصفات ليست مقصورة على شخص بعينه ، وإنما هى صفات يدخل فى دائرتها كل اتصف بها على أى وجه من الوجوه .. وهذا مثل قوله تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذِكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطا » (٢٨ : الكهف) . .

وعلى هذا فإنه يمكن أن يكون الزنيم هنا معنًى أعم من مَعنى أن يكون الإنسان دَعِيًّا فى نسبه إلى أبٍ ، أو قبيلة ، وذلك بأن يُحمل على أنه دعىّ فى نَسَبه إلى المجتمع الإنسانى كله ، فإن من تستولى عليه صفة من هذه الصفات ، جدير بها أن تجعله مستنبتاً للخبائث كلها ، فتغتال فيه كل معنى من معانى الإنسانية ، وبهذا يصبح وجوده فى الناس ، وجوداً غير شرعى ، ويكون انتماؤه إليهم انتماء الأدعياء إلى غير آبائهم . . فهو لصيق فى الناس ، كما أن المنتسب إلى غير أبيه لصيق بمن انتسب إليه . . فكيف بمن جمع هذه الرذائل جميعها ، واحتواها فى كيانه ؟

هذا ، وإذا كانت هذه الآيات قد واجهت حالا من أحوال الوليد أو غيره ممن يقال إنها نزلت فيهم ، فإن هذا لا يعنى أكثر من أن هذا الشخص ، كان الصورةَ التى تجتمع فيها تلك الصفات ، وتحمل أكبر قدر منها، ولهذا كان أصلح من يُضربُ به المثل فى هذا المقام ، ليكون شارة للإنسان الذى خرج من عالم البشر . .

قوله تعالى :

* « أن كان ذا مالٍ وبنين * إذا تُتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ؟ »

أى ألِأن كان هذا الصنف من الناس ذا مالٍ وبنين ، يركبه الغرور ، ويستبد به الضلال ، حتى إذا تُليت عليه آياتنا ، لَوَى وجهه عنها ، ووصفها هذا الوصف المشين ، وأضافها إلى الكذب والافتراء ، وقال عنها إنها من أساطير الأولين ، وخرافاتهم ؟ . والاستفهام يراد به الوعيد والتهديد .

والذين قالوا إن الوليد بن المغيرة ، هو الذى نزلت فيه الآيات ، يجدون لهذا شاهداً من قوله تعالى : «ذَرْنى ومن خَلَقْت وحيداً* وجعلت له مالا ممدوداً* وبنين شهوداً * ومهدت له تمهيداً * ثم يطمع أن أزيد * كلاّ إنه كان لآياتنا عنيداً * سأرهقه صَعوداً * إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قُتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عَبَس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إنْ هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر * سأصليه سقر » (١١ ـ ٢٦ : المدثر) .

فهذه الآيات ، قد تواترت الأخبار على أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة . . وبين هذه الآيات ، والآيات التى فى سورة « القلم » شبه كبير ، كما هو ظاهر ..

قوله تعالى :

* « سَنَسِمه على الخرطوم » . . هذا تحقيق للوعيد الذى حمله الاستفهام فى قوله تعالى : « أن كان ذا مالٍ وبنين* إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ؟ »

والوسم ، أشبه بالوشم ، وهو علامة يعلّم بها الحيوان ، بالكىّ فى موضع بارز من جسمه ، فيكون أثر الكى علامةً مميزة له ، دالة على مالِكه ..

والخرطوم : الأنف ، ولا يقال إلا للأنف الطويل ، كخرطوم الفيل مثلاً..

وفى هذا وعيد وتهديد لهذا الإنسان الذى ركب رأسه وشمخ متطاولا بأنفه ، وهام فى أودية الضلال على وجهه ، كما تهيم السائمة فى البرارى والقفار ..

وفى وسم هذا الضال على أنفه الذى تشامخ به ، ونفخه بالغرور ، حتى طال وتورم وصار كالخرطوم ـ فى هذا ـ إذلال له . وإهدار لآدميته ، ودمغه بهذا الوشم كما يدمغ الحيوان .. إنه ليس من عالم الناس !

ثم ليس هذا وحسب ، بل إن الوسم سيكون فى أعزّ مكان منه ، وهو

الأنف ، الذى هو موضع الأنفة والعزة . . فما أهونه ، وأضيعه ، وأذله ، هذا الحلاف المهين ! ! . .

الآيات : (١٧ — ٣٣)

* « إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ ٱغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَٱنطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا إِنَّا لَضَآلُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) »

[بين أصحاب الجنة ومشركى قريش]

التفسير :

قوله تعالى :

* « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين * ولا يستثنون » .

الضمير فى « بلوناهم » يعود إلى مشركى قريش ، الذين تحدثت عنهم الآيات السابقة فى قوله تعـــالى : « فلا تطع المـكذبين * ودّوا لو تدهن فيدهنون .. الآيات » . .

والبلاء ، والابتلاء : الاختبار ، والامتحان .. بالخير ، وبالشر .

والآية تشير ـ كما يذهب إلى ذلك أكثر المفسرين ـ إلى ما كان من ابتلاء الله سبحانه المشركين من مُضر ، إذا أخذهم الله بالقحط والجدب ، استجابة لدعوة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، إذ دعا عليهم الرسول بقوله ، فيما يُروى عنه : « اللهم اشدُد وطأتك على مُضر ، واجعلها عليهم سنين كسنين يوسف » ..

وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخانٍ مبين * يغشى الناس هذا عذابٌ أليم * ربنا اكشف عنا العـــذاب إنا مؤمنون » (١٠ ـ ١٢ : الدخان) .. وقد مضى تفسير هذه الآيات فى سورة الدخان . .

والرأى عندنا ـ والله أعلم ـ أن هذا الابتلاء الذى ابتُلى به المشركون ، هو هذا القرآن الـكريم ، الذى جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يتلوه عليهم ، ويدعوهم إلى الحياة فى ظله ، والقطف من ثماره . . فهو الجنة التى تؤتى ثمارَها كل حين بإذن ربها ، وأنهم لو جاءوا إلى هذه الجنة بقلوب سليمة ، ونفوس مطمئنة لـكان لهم منها زاد عتيد لا ينفد أبداً . . أمّا وقد جاءوها فى تلصص ومخالسة ، وفى ستار من ظلمة الليل ، يريدون أن يصبح الناس فلا يرونَ لثمرها أثراً ـ فقد فوت الله سبحانه عليهم مايريدون ، وحال بينهم وبين مايشتهون ..!!

وسنعرض لوجه الشبه بين المشركين ، وأصحاب الجنة ، بعد أن نلتقى مع هذه الآيات التى عرضت لهذه الجنة وأصحابها ..

أما أصحاب الجنة هؤلاء ، فلم يذكر القرآن عنهم إلا أنهم جماعة من الناس . قد يكونون إخوة أو شركاء ، يملكون جنةً ، فيها زرع ، ونخيل ، وأعناب ، ونحو هذا مما يطلق عليه اسم « جنة » . . أما مكان هذه الجنة ، وزمانها ، وأعيان أصحابها ، فلم يلتفت القرآن إلى شيء منه ، إذ لم يكن لشيء من هذا متعلّق بالَحدَث ، ولا بموقع العبرة الماثلة منه . . ومع هذا فقد كثُرت المقولات، وتعددت الروايات ، التي تحدد مكان هذه الجنة وزمانها ، وعدد أصحابها ، الأمر الذي يخرج بالحدث عن مضمونه ، ويكاد يقطع النظر عن موضع العبرة منه ، بما يزدحم بين يديه من ألوان وظلال ، وحركات ، وصور . . للزمان ، والمكان والأشخاص . .

ومن جهة أخرى ، فإن هذه القيود التي يُشَدّ بها الحدث إلى زمان بذاته ، أو مكان بعينه ، أو أشخاص بسماتهم ـ هذه القيود تجمّد الحدث،وتُفقده الحياة والحركة ، عَبْرَ الأزمان والأماكن ، على خلاف ما لو أطلق من هذه القيود، حيث يراه الناس فى كل مكان ، وزمان ، ويشهدونه فى كل مجتمع ، صغير ، أو كبير . .

وابتلاء أصحاب الجنة هؤلاء ، الذين ابتَلى الله سبحانه مشركى قريش ، كما ابتلاهم ـ هو فيما كان منهم من تدبير سيء ، ومكر بنعم الله عليهم ، فكان أن انتزع الله سبحانه هذه النعمة من بين أيديهم ، وقتلهم بالسلاح الذى كانوا يحاربونه به . . كما سنرى ذلك فيما تحدث به الآيات من قصتهم . .

وقوله تعالى: « إذ أقسموا ليصرمنّها مصبحين » . . أى أن الابتلاء لأصحاب الجنة كان منذ وقع منهم هذا القسم الذى أقسموه على جَنْىِ ثمر الجنة وقطعها « مصبحين » أى فى أول مطلع الصباح ، وعند استقبالهم له . .

وصَرْم ، الشىء : قطعه ، وانصرم حبل الودّ بين فلان وفلان ، أى انقطع ، وانصرم معظم الليل ، أى مضى ، كأنه انقطع من الليل . .

وقوله تعالى : « ولا يستثنون » هو حال من فاعل : « ليصرمنّها » أى أقسموا ليقطعنّ ثمر الجنة مستقبلين الصبح ، غير مستثنين شيئاً منها أو مُبقين على شىء من ثمر هذه الجنة من غير حصاد أو جنى ، حتى لا يبقى لأحد من الفقراء ، نظر يتعلق بشىء من ثمرها . .

فهذا ما أقسموا عليه ، وقد جاء به القرآن على لسانهم . .

ويُجمع المفسرون على أن قوله تعالى : « ولا يستثنون » هو بمعنى أنهم حين أقسموا على صَرْم الجنة صباحاً ، ولم يستثنوا فى هذا القسم ، أى لم يقولوا : إن شاء الله ! !

وهذا المعنى غير مقبول من وجوه :

فأولا : من جهة نظم الكلام ، لأن ما ذكره القرآن عنهم هو حكاية لقول قالوه فى زمن مضى ، ولهذا جاء به النظم القرآنى بلفظ الماضى : « إذ أقسموا » .. فهم قد أقسموا فى الماضى ، أما ما أقسموا عليه ، فهو قطع ثمار الحديقة صباح الغد ، أى فى زمن مستقبل ، وهو : « ليصرِمنّها مصبحين » .. أما قوله تعالى : « ولا يستثنون » فهو من منطوقهم الذى نطقوا به ، وهو من جملة ما أقسموا عليه .. فلو أن هذا القَسَم كان على معنى أنهم أقسموا على أن يقطعوا ثمار الجنة ، وجعلوا هذا القسم مطلقاً ، دون أن يقيدوه بالمشيئة ـ لو كان المعنى على هذا ، لـكان مقتضى النظم أن يجىء هكذا : « أقسموا ليصرمنّها مصبحين ولم يستثنوا » !!

ولـكن النظـــــم القرآنى جاء كما يقول سبحانه : « أقسموا ليصرمنّها

مصبحين ولا يستثنون » . . فالاستثناء هنا معنًى مرتبط بقوله تعالى : « ليصرمنها » كما تعلق به لفظ « مصبحين » وكلاهما حال من أصحاب الجنة .. بمعنى أنهم أقسموا ليصرمنّها كلها ، غير تاركين شيئاً من ثمرها ، وذلك فى مطلع الصبح ..

وثانياً : من جهة المعنى . . فإن فى حمل قوله تعالى : « ولا يستثنون » على أنه استثناء مشيئة ، بمعنى أنهم أطلقوا القسم من غير أن يقولوا إلا أن يشاء الله ــ فى هذا الحمل إفساد للمعنى ، وخروج به عن الغاية المرادة من الاستثناء فى هذا المقام ، لو أُريد . .

ذلك أن قرن القَسَم بالمشيئة ، هو ضمان لتحققه ، كما أن عدم الاستثناء قد يفوّت الأمر المقسَم عليه.. وهذا يعنى أن القوم حين أقسموا ولم يستثنوا، لم يتحقق لهم ما أقسموا عليه ، وهو جنى ثمار جنتهم ، كما يعنى أنهم لو قرنوا القسم بالمشيئة ، لتحقق لهم ما أقسموا عليه ، ولكن الأمر على خلاف ذلك ، فهم أقسموا ،ولم يقرنوا القسم بالمشيئة ـ كما يقول المفسرون ـ ولم يتحقق لهم ما أقسموا عليه .. فكيف يتفق هذا مع ما يريد المفسرون تحقيقه بالمشيئة ؟ فهل كان هذا عملا مبروراً منهم يُراد له أن يتحقق ، وذلك بأن يُعزّز بمشيئة الله ؟ ذلك إفساد المعنى أىّ إفساد ! ..

ثم أكان ربط القسم بالمشيئة يدفع عنهم ابتلاء الله لهم ، وأخذهم بما مكروا ؟ ..

وهل القسم على أمر منكر كهذا الأمر الذى أقسموا عليه يُطلب له تزكية بالمشيئة ، حتى يكون فى ذلك ضمان لتحققه ؟ وهل من المحمود إذا أقسم الإنسان على فعل منكر أن يقدّم مشيئة الله بين يديه ، فيقول مثلا : والله لأقتلن فلاناً

إن شاء الله ؟ إن تقديم المشيئة المطلوبة من المؤمن ، هو أن يكون مع الأعمال المبرورة ، كأن يقول مثلا : والله لأحجّنّ هذا العام إن شاء الله ، أو يقول من غير قسم ـ سأقوم غداً بزيارة فلان المريض . . إن شاء الله . . وهكذا فى كل أمر ليس فيه ما يُـكره أو ينكر . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «ولا تقولنّ لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » (٢٣ ـ ٢٤ : الـكهف) .

أمّا إذا كان الأمر مكروها أو منـكراً ، فإن المطلوب هو عدم قَرْنه بالمشيئة، حتى يُحرَم صاحبُه التوفيق فى إصابة هذا الأمر ، وتحقيقه . . بل إن المرء لو أقسم على مكروه ، أو منكر ، كان عليه أن يتحلل من يمينه ، وأن يكفّر عنها ، كما يقول الرسول الـكريم كما رواه مسلم : « من حلف على يمين فرأى غيرَها خيراً منها ، فليكفّرْ عن يمينه ، ثم ليفعلْ الذى هو خير » .

وعلى هذا ، فإن قوله تعالى : « ولا يستثنون » هو من جملة ما أقسم عليه المقسِمون ، أى أنهم أقسموا ليصرمن جنتهم مصبحين على ألا يَدَعوا شيئاً من ثمرها مستثنًى لوقت آخر . . وهذا ما يتفق والغاية التى قصدوا إليها من تدبيرهم الذى دبروه ، وهو ألا يعطوا الفرصة للفقراء والمساكين فيما كان لهم طمع فيه ، وتعلق به . .

وقوله تعالى :

* « فطاف عليها طآئف من ربك وهم نآئمون * فأصبحت كالصريم »

الفاء هنا للتعقيب ، وهى فاء الجزاء أيضاً . . أى أنهم بعد أن دبروا هذا التدبير السيء ، وأكّـدوه بالقسم ، أوقع الله بهم العقاب الذى استحقوه بتدبيرهم السيء هذا . . فطاف على جنتهم طائف من الله سبحانه ، وهم نائمون ، أى مرّ عليها نذير من نُذُر الله ، وهم نائمون ، يحلمون بلقاء جنتهم مصبحين ، يقطفون كل ثمارها غير مبقين على شىء ، و إذا هى وقد عَرِيتْ من كل ثمر ! !

وفى قوله تعالى من « فطاف عليها طائف من ربك » — إشارة إلى أن هذا الطائف المرسل إليها من عند الله ، قد وضع يده عليها شجرةً شجرة ، وثمرة ثمرة ، فلم يُبق مما مرت عليه يده من ثمارها شيئاً ..

والطائف : من يطوف ليلا ، فلا يكاد يُرى ، ومنه الطيف ، الذى يطرق النائم ، من حبيب ، أو صديق .

وقوله تعالى : « فأصبحت كالصريم » — أى أصبحت هذه الجنة بعد أن طاف عليها الطائف المسلط عليها من عند الله — أصبحت كالصريم ، أى كالجنة الصريم ، التى قُطفت ثمارها .. أى أن هذا الطائف ، قد سبق القوم إلى ما كانوا يريدون ، فإذا هو قد جنى كل ثمرها ، وكأنه بهذا قد تولى الأمرَ عنهم ، وأراد أن يريحهم من هذا العناء الذى يكابدونه فى حصاد ثمرها ، وأنه قد فعل هذا دون أن يراه فقير أو مسكين ! أليس هذا هو الذى أرادوه ؟ لقد تحقق لهم على أكمل وجه !! ولكن أين ذهب الثمر ؟ إنهم لو وجدوه مقطوفاً ، حاضراً بين أيديهم ، لعدّوا ذلك من فضل الله عليهم ، وإحسانه إليهم . . فأين هو الثمر ؟

ليس ببعيد أن يكون الآن بين أيدى الفقراء والمساكين ، الذين أرادوا حرمانهم منه ، وقد وصل إلى أيديهم على أية صورة من الصور .. فإنه ليس ببعيد — وقد بان لهم أن ما حدث لجنتهم كان عقوبة من الله لهم — ليس ببعيد بعد هذا أن تضاعَف لهم العقوبة ، فيُحرموا مما أرادوا أن يَحرموا منه غيرهم ، ثم يساق هذا الذى حُرموه إلى من أرادوا حرمانهم ، ومن يدرى ، فقد يكون هؤلاء المساكين قد سبقوهم إلى هذا التدبير ، فدبروا لهم هذا التدبير ، كما أرادوا هم بالمساكين !! وإنه غير بعيد أن تدور مثل هذه الخواطر فى رءوس أصحاب الجنة ؛ فتزداد حسرتهم ، ويتضاعف ألمهم .. « ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » (٣٠ : الأنفال) .

قوله تعالى :

* « فتنادَوْا مصبحين * أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين » .

أى نادى بعضهم بعضاً ، فى بُـكرة الصباح ، أن أسرعوا إلى زرعكم ، إن كنتم منفذين لِمـا عقدتم العزم عليه بالأمس . .

وقوله تعالى : « إن كنتم صارمين » هذا من قول بعضهم لبعض ، وفيه تحريض لأنفسهم على المبادرة والإسراع بتنفيذ ما اتفقوا عليه .. وكأن كلاًّ منهم يقول لصاحبه : هيا أسرع !! ماذا جرى ؟ ألا تريد أن نمضى فيما عزمنا عليه ؟ فلِمَ هذا التباطؤ إذن ؟

قوله تعالى :

* « فانطلقوا وهم يتخافتون * ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » .

أى أنهم سَرعان ما اجتمع أمرهم ، فانطلقوا مسرعين ، يتحدث بعضهم إلى بعض ، فى صوت خفيض هامس ، حتى لا يحسّ بهم أحد ، ولا يستيقظ على خطْوِهم أو صوتهم مَن يشهد ما يفعلون ، وهم يجنون ثمر جنتهم ! .

وقوله تعالى : « ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » هو بيان لمـا كانوا يتخافتون به ، ويوصِى به بعضهم بعضاً ، وهو ألا يدخل الجنة عليهم أحـد فى يومهم هذا .. وهذا الحديث المتخافت بينهم ، هو توكيد لمـا كانوا قد اتفقوا عليه من قبل .. وهو مفهوم من قوله تعالى : « إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين * ولا يستثنون » .. فهذا القسم ، يخفى وراءه أمراً يريدون توكيده بهذا القسم ، وعقد العزم عليه . فإن مجرد رغبتهم فى جنى ثمار جنتهم لا يحتاج إلى قسم ، إذ كان ذلك الأمر إليهم ، يفعلونه كما يشاءون ، وفى أى وقت يريدون . . أما القسم ، فهو لغاية أكثر من مجرد قطف ثمار الجنة وحصاد زرعها . .

ثم إن فى قوله تعالى : « مصبحين » — إشارة أخرى تشير إلى أن وراءه

هذا الأمر أمراً آخر ، إذ نُظر إليه على ضوء القسم الذى سبقه . . فإن التبكير بقطع الثمار وحصاد الزرع ، وإن كان أمراً مألوفاً ، فإنه فى صحبة القسم، يصبح ذا دلالة خاصة ،غير تلك الدلالة العامة ، وهو أنهم يريدون بهذا التبكير، المبادرةَ إلى إنجاز الأمر قبل أن يفضحهم النهار ، وتأخذهم أعين الفقراء والمساكين.

قوله تعالى :

* « وغدَوْا على حرد قادرين » ..

أى أنهم أحكموا أمرهم ، وأخذوا طريقهم إلى تنفيذه ، واجتمعت بين أيديهم الوسائل الممكّنة لهم منه .

فهاهم أولاء قد استيقظوا مبكّرين ، وما زال الناس نياماً ، وهاهم أولاء قد أوشكوا أن يبلغوا جنتهم دون أن ينتبه إليهم أحد،أو يتبعهم مسكين ..

والحرد : القصد ، والوجهة التى يأخذها الإنسان لغايته . . ومنه قول الشاعر .

سَيْلٌ جاء من عندِالله يَحْرِدُ حردَ الجنة المغلهْ

والمعنى أنهم ، وقد أخذوا طريقهم إلى جنتهم ، خيل إليهم أنهم قادرون على القصد الذى قصدوا إليه ، وإنجاز الأمر الذى دبروه ، دون أن يحول بينهم وبينه حائل . . وما دَرَوْا أن يد الله قد سبقتهم إليه ، وأنه قد حيل بينهم وبين ما يشتهون . .

قوله تعالى :

* « فلما رأوها قالوا إنا لضالون * بل نحن محرومون »

أى أنهم حين انتهى بهم الطريق إلى حيث كانت جنتهم ، طلع عليهم هناك منها ما جعلهم ينكرونها ، وينكرون أنفسهم حيالَها . . إنها ليست جنتهم ! !

وإلا فأين ثمارها اليانعة ، وزروعها الناضجة ؟ كلا إنهم ضلوا الطريق إليها ، وهم يركبون بقيةً من ظلام الليل نحوها ! ! وإذن فأين الطريق إلى الجنة ؟ وهنا يكثر تلفت القوم ، ويطول وقوفهم ، ثم تستبين لهم الحقيقة ، وأنهم لم يضلوا الطريق إلى جنتهم . . إنهم يقفون إزاءها ، كما يقف المسافرون على رسوم الديار ، وأطلال المنازل . .

وقوله تعالى : « بل نحن محرومون » هو إضراب على قولهم : « إنا لضالون » . . فهم — وقد عرفوا الحقيقة — ليسوا ضالين عن الطريق إلى جنتهم . . إنها هى هى ، وإن تبدلت أحوالُها ، وتغيرت معالمها ، وذهب كل خير كان فيها . . فهم ليسوا ضالين عنها إذن ، وإنما هم محرومون من ثمرها ، الذى لا يدرون إلى أين ذهب !

قوله تعالى

* « قال أوسطهم ألم أقل لكم ؟ لولا تُسَبِّحون »

وهنا يأخذ القوم فى مراجعة أمرهم على ضوء هذه الحقيقة التى تكشفت لهم ، ويكثر بينهم الأخذ والرد . . ويمسك القرآن من حديثهم بالّلباب منه ، ضاربا صفحاً عما لا غَناء فيه ، فى هذا الموقف . .

ومما رآه القرآن مستحقًّا للذكر من أحاديثهم ، هو قول أوسطهم ، وهو أقربهم إلى الخير والحق . . ففى كل جماعة ـ أيًّا كانوا من الضلال والسفه ـ بعضُ النفوس التى لا تخلو من خير ، وبعض العقول التى لا تُحرم الرؤيةَ السليمة للأمور ، فى وسط هذا الضلال المنعقد حولها . .

ففى بيئة فرعون ـ على ما كان بها من إغراق فى الضلال ـ كانت امرأة فرعون ، وكان مؤمن آل فرعون ، وقد جعل القرآن لهما ذكراً طيباً فى المذكورين من

عباد الله المكرمين . . والوسط من كل شيء خياره ، وأعدله ، ولُبابه ، ومنه قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » (١٤٣ : البقرة) وفي الأثر : « خير الأمور أوساطها » . . وقد وصف الله سبحانه الشجرة المباركة الزيتونة بأخذها مكاناً وسطا بين الشرق والغرب، فقال تعالى : « يُوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية » (٣٥ : النور) . . ووسط القوم أدناهم إلى الحق والخير . .

وفي هذه الجماعة من أصحاب الجنة ، كان فيهم من لم يرض في قرارة وجدانه عن هذا التدبير السيء الذي دبره أصحابه ، وربما كان له موقف معارض لما أرادوا . . ولكن أصحابه غلبوه على أمره ، لأن إيمانه بما كان يدعوهم إليه لم يكن متمكناً من قلبه ؛ ولو أن هذا الإيمان كان قويًّا متمكناً ، لما تحول عنه ، ولكان بالحق الذي معه ، قادراً على أن يقهر الباطل الذي معهم .. ولهذا أخذه الله بما أخذ به أصحابه ، من ابتلاء . .

لقد كان في كيانه شرارةٌ من خير ، ولكنه لم يقدح هذه الشرارة بعزيمة صادقة ، وإرادة عاقلة ، فانطفأت جذوتها ، وأصبحت رماداً لا يرجَى منه خير . . وهكذا كل من يجد في نفسه نازعة من نوازع الخير ثم يغفل عنها ، إنها تموت كما تموت النبتة البازغة على وجه الأرض ، إن لم تجد من يرعاها ، ويسقيها . .

وفي قوله تعالى : « قال أوسطهم ألم أقل لكم ؟ » ـ بيان لموقف هذا الإنسان المقتصد في عدوانه ، وأنه هنا يذكّر أصحابه بموقفه الذي كان منه معهم . . «ألم أقل لكم ؟ » أي ألم أقل لكم ، قولا لو أخذتم به لما حدث لنا هذا الذي حدث ؟ . وقد حُذف مقول القول ، لدلالة الحال عليه . . وهذا أولى عندنا من أن يكون مقول القول هو قوله : « لولا تسبحون » كما يذهب إلى ذلك أكثر المفسرين . .

وأما قوله تعالى : « لولا تُسبحون » . . فهو كلام مستأنف ، يعقّب به على قوله : « ألم أقل لكم ؟ » . . وفى هذا التعقيب ، يدعوهم دعوة جديدة ، يواجهون بها هذه الحال التى هم فيها ، وهى أنهم وقد أخطئوا حين لم يأخذوا برأيه أولاً ، فإن هذا لا يمنعهم من أن يرجعوا الآن إلى الله ، ويستغفروا لذنبهم ؛ بعد أن رأوا ما أخذهم الله به .

فقوله تعالى : « لولا تسبحون » — هو من مقول أوسطهم ، وهو تحضيض لهم على الإنابة إلى الله ، واستغفاره على ما كان منهم . . أى هلا تسبحون الله ؟ . . أى بادروا بذكر الله ، فهذا الذكر هو عزاؤنا فى هذا المصاب الذى بين أيدينا . . ويكون النظم على هذا هكذا : ألم أقل لكم ، ما علمتم ولم تأخذوا به ؟ وهأنذا أقول لكم الآن قولا أرجو أن تأخذوا به : ألاَ تسبحون الله ، وتستغفرون لذنبكم ؟

قوله تعالى :

* « قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين » .

هو استجابة من الجماعة لِما دعاهم إليه أوسطهم ، من تسبيح الله ، فقالوا سبحان ربنا . . إنا كنا ظالمين . .

لقد اعترفوا بذنبهم ، واستغفروا ربّهم . . وهم بين يدى رحمته . . إن شاء — سبحانه — رحمهم ، وقبِل توبتهم . . والله سبحانه وتعالى يقول : « واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » . (١٩٩ : البقرة)

قوله تعالى :

* « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » . .

أى أنه كان منهم وهم على بساط التوبة والندم — كان منهم حديث يلوم

فيه كلٌّ منهم نفسَه ، كما يلوم أصحابه . . فإن الجريمة مشتركة بينهم جميعاً ، ولكل منهم نصيبُه منها .

قوله تعالى :

* « قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين » . .

هذا ما انتهى إليه تلاومهم ، ومراجعتهم لما كان منهم . . فلقد استبان لهم أنهم كانوا معتدين حقًّا ، قد ركبوا طريق الطغيان ، والاعتداء على حقوق المساكين فيما خوّلهم الله سبحانه من نعم . . وهذا الاعتراف بالذنب ، هو الطريق الصحيح إلى التوبة ، إن صدقته النية ، وانعقد عليه العزم . .

قوله تعالى :

* « عسى ربّنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون » — هو من مقول القوم فى رجوعهم إلى الله سبحانه ، بعد أن اعترفوا بذنبهم ، وطلبوا المغفرة من ربهم ، فكان هذا مدخلا لهم إلى أن يطمعوا فى فضل الله ، وأن يرغبوا إليه فى أن يبدّلهم خيراً من جنتهم تلك التى ذهبت . .

قوله تعالى :

* « كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » . .

أى بمثل هذا العذاب الدنيوى نُوقع عذابَنا بأهل الضلال . . فهو عذاب قد ينالهم فى أموالهم ، أو أنفسهم . . ولكنه ليس كلّ العذاب . . بل هناك عذاب أقوى وأشد وأكبر . . هو عذاب الآخرة . .

وهذه التفرقة بين عذاب الدنيا ، وعذاب الآخرة ، لا يعرفها إلا أهل العلم

الذين يؤمنون بالله ، وباليوم الآخر ، وما فيه من أهوال ، وما أعد فيه للظالمين ، والمجرمين ، من عذاب عظيم . .

والسؤال هنا :

ما وجه الشبه بين هذا البلاء الذى ابتُلى به أصحاب الجنة ، وما ابتلى الله المشركين به ؟ .

الذى ينظر فى الآيات التى عرضت لقصة اصحاب الجنة ، يرى أنها تمثل تمثيلا دقيقاً صادقاً موقفَ المشركين من رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ومن الخير الذى يبسط به يده الكريمة إليهم ، وأنهم كانوا بين يدى هذا الخير ، بين مغالين ومقتصدين فى التدبير السيء له ، وأن المغالين منهم قد غَلَبوا على المقتصدين ، فكانوا جميعاً فى هذا الموقف المنحرف من الخير الذى يُدعَون إليه ، والذى يريدون حرمان الفقراء والمستضعفين من الاتصال به ، والإفادة منه . . وهكذا تجرى أحداث قصة أصحاب الجنة خطوة خطوة ، مع مسيرة المشركين ، وموقفهم من تلك الجنة السماوية التى بين أيديهم . . لقد ضلوا عنها أولَ الأمر ، وحُرموا زمناً من ثمرها الطيب المبارك ، ثم رجعوا إلى الله نادمين مستغفرين ، بعد أن مسّهم بعض العذاب فى الدنيا ، بما أصيبوا به فى بدر وغيرها ، وبمن مات منهم على شركه وكفره ، فعاد الله سبحانه وتعالى عليهم بالتوبة والمغفرة .

الآيات : (٣٤ — ٤٧)

* « إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ

فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » .

هو فى مقابل التهديد ، الذى هُدد به المشركون ، الذى ابتلاهم الله سبحانه ، كما ابتلى أصحاب الجنة ، بما أخذهم به من عذاب قبل يوم الفتح، ثم إن وراء هذا عذاباً شديداً فى الآخرة ، لمن لم يَعْدِل عن طريق الضلال ، ويأخذ طريق الحق ، والهدى ، ويلتقى مع ربه على توبة وإيمان ..

فالآخرة ليست دارَ عذاب وحسب ، وإنما هى دار نعيم كذلك . . فهى دار عذاب للكافرين وأشياع الكافرين ، وهى دار نعيم للذين آمنوا وعملوا الصالحات .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : «وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان » (٢٠ : الحديد) . .

قوله تعالى :

* « أفنجعل المسلمين كالمجرمين » ؟

هو استفهام يراد به النفى .. أى أننا لا نجعل المسلمين كالمجرمين ، فلا نسوّى بين هؤلاء وأولئك فى الجزاء .. فإذا كانت النار هى مثوى المجرمين ، فإن الجنة هى دار المسلمين ..

وفى التعبير عن المسلمين بدلا من المتقين ، الذين جاء هذا الاستفهام تقريراً وتوكيداً لما وُعدوا به فى قوله تعالى : « إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » — فى هذا التعبير إشـارة إلى أن ذلك كان فى أول الدعوة الإسلامية ، إذ الدعوة فى أساسها دعوة إلى الإسلام ، والذين استجابوا لهـا كانوا يُسمّون المسلمين ..

فكلمة الإسلام حينئذ كانت الكلمةَ الجامعة للإسلام ، والإيمان ، والتقوى ، جميعاً ، إذ لم يدخل فى الإسلام إلا من أشرق قلبه بنور الحق واليقين ، فلم يكن إسلام من أسلم فى أول الدعوة ، عن رهبة ، أو طمع فى شىء من متاع الدنيا ..

إن كل مسلم استجاب لدعوة الإسلام فى هذا الدور من الدعوة الإسلامية ، كان مسلماً ، وكان مؤمناً ، وكان تقيًّا ، أى آخذا الإسلام كلَّه ، ظاهراً ، وباطناً ، إذ كان الذين استجابوا للإسلام ، إنما استجابوا عن فطرة سليمة ، ونفس مطهرة من رجس الجاهلية ، وقلوب متفتحة للحق ، متشوقة إلى الهـدى ، وحيث وطنوا أنفسهم على احتمال البلاء ، وتلقى ضربات المشركين ، بثبات ويقين .. فلم يكن — والأمر كذلك — شىء يدخل على إسلامهم من نفاق أو طمع فى جاه أو مال .. بل هى التضحية والفداء ، فى سبيل الحق الذى آمنوا به ..

فالمسلمون هنا فى قوله تعالى : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين » يحققون بإسلامهم معنى التقوى فى أصدق مقاماتها ، وأعلى منازلها .. وحسبهم أن يكونوا مسلمين ليُضفى عليهم هذا الاسم صفةَ المؤمنين المتقين ..

ومن جهة أخرى ، فإن كلمة « المسلمين » فيها معنى السلام ، والسلامة ، وخلوّ الإنسان مما يؤاخذ عليه . .

فإذا وقعت المقابلة بين المسلمين والمجرمين ، وطلب إلى المشركين أن يجيبوا على هذا السؤال : أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ لم يكن لهم أن يَشْغَبوا ، وأن يجدوا مهرباً من الجواب الذى يقهرهم الواقع على النطق به .. فإنهم لو قالوا : نعم، نُسوى بين المسلمين والمجرمين ، فإن المسلمين الذين استجابوا لمحمد ، هم فى نظرنا مجرمون — إنهم لو قالوا هذا لوجدوا من يسفّه رأيهم . . لأنهم حكموا فى قضية غير القضية التى دُعوا إلى قولهم فيها . . إن القضية ليست بين الإسلام والشرك، وإنما هى بين أهل السلام ، وبين المجرمين . . فهل يسوّى بين البرىء والمجرم ؟ ولهذا جاء قوله تعالى : « مالكم كيف تحكمون » مُنكِراً عليهم أن يقولوا بهذه التسوية بين المسلمين والمجرمين .

ولو أنه لم يكن لكلمة المسلمين ، هنا ، منصَرَف إلى معنى آخر غير معناها الدينى الذى هو عَلَمَ على أتباع محمد — لو أن ذلك كان كذلك ، لما كان هناك وجه للاعتراض على المشركين فى تسويتهم بين المسلمين والمجرمين ، لأن ذلك — على ما فيه من ضلال وسفه — هو رأى المشركين فى المسلمين .

وعلى هذا فلا يكون لقوله تعالى : « مالكم ؟ كيف تحكمون؟ » متوجه إليهم ، لأنهم حكموا بما يعتقدون . . فلا يطلب منهم ـ والأمر كذلك ـ أن يقولوا غير ماقالوه ـ وإن كان ضلالا ، وزيْغا ! !

أمّا لو كان لكلمة المسلمين ، مَصْرف إلى معنى آخر غير معناها الديني ، كالسلامة ، والبراءة ، ونحوها ـ فإن التسوية بين البرىء والمجرم لايقول بها أحد، ولو قال بذلك لتوجه إليه اللوم ، والإنكار ، والتسفيه . . وهذا مايتحقق بكلمة « المسلمين » التى تشير إلى أناس بأعيانهم ، هم أصحاب محمد ، ثم إلى صفة بارزة فى هؤلاء الأصحاب ، وهى أنهم أهل سـلام ، لم يعتدوا على أحد ، ولم يعترضوا طريق أحد ، بل إنهم هم الذين كانوا يتعرضون للأذى والضرّ من هؤلاء المجرمين، الذين يلقونْهم بالمساءة ابتداء من غير سبب !

وأما التعبير عن « المجرمين » بدلا من المشركين ، الذين يواجَهون بهذا الحديث ، فهو وصف يُلبسهم مع الشرك ، لباسَ المجرمين، الذين يساقون إلى المحاكمة ، متلبسين بجرمهم .

فقد يكون المشرك ، ولا سلطان لأحد عليه ، يأخذه بشركه ، ويعاقبه عليه ، ولكنّ هؤلاء المشركين ، هم واقعون تحت سلطان قاهر ، لا يفلتون من عقابه الذى حق عليهم بعد أن بلّغهم الرسول رسالة ربه . . فهم قبل بَعثة الرسول إليهم ، كانوا مشركين ، واقعين تحت قوله تعالى : « وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولا » (١٥ : الإسراء) . . أما الآن ، وقد جاءهم الرسول ، وبلّغهم ما أرسل به إليهم ، ولم يقبلوا منه مادعاهم إليه من الإيمان بالله وحده — أما الآن ، فهم مشركون ، مجرمون ، يساقون إلى الحساب ، والجزاء .. وإنه لاجزاء للمشركين المجرمين إلا النّار ..

قوله تعالى :

* « مالكم ؟ كيف تحكمون؟ »

هو تعقيب على قوله تعالى : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين » .. وفى هذا تخسّ المشركين ، وإيقاظ لهم من غفلتهم ، وكشف لهم عن ضلالهم ..

إذ كيف يُسوّى بين المسلمين والمجرمين ؟ بين أهل السلامة والاستقامة ، وبين أصحاب الآثام ، وأرباب الجرائم .. ؟ إن هذا لايقول به عاقل ، ولا يقبله منطق العقلاء !

قوله تعالى :

« أم لكم كتاب فيه تدْرسُون * إن لكم فيه لَمَا تخيّرون »

هو إضراب على إجابتهم الباطلة ،التى أجابوا بها فيما بينهم وبين أنفسهم ، على ماسُئلوا عنه فى قوله تعالى : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ » والتى أنكرت عليهم ، وسُفهت أحلامهم من أجلها . . فإذا كان لهم مايدفعون به عن أحلامهم تلك السفاهة ، وأن يضيفوا ما أجابوا به إلى كتاب درسوه وتلقوا عنه هذا الجواب، فليأتوا بهذا الكتاب، إن كانوا صادقين ، وليأخذوا من هذا الكتاب مايختارون، مما يقيم لهم حجة على مايقولون ، فإن أى قول يقولونه من هذا الكتاب سيقبل منهم أيًّا كان منطقه ، وأيًّا كان موقعه من الحق . . إنهم أميوّن ، لا كتاب معهم ، وإتيانهم بكتاب أمر غير ممكن لهم .

وفى هذا تحدٍّ للمشركين ، ونفى قاطع أن يكون لهم كتاب ..إنهم لم يكونوا أبداً أهل كتاب ، ولو أنهم أرادوا أن يكونوا أصحاب كتاب لَمَا كان لهم غير هذا الكتاب الذى يتلوه عليهم رسول الله . .

فقوله تعالى : « إن لكم فيه لما تخيرون » هو احتكام إلى هذا الكتاب ، وهو القرآن الكريم ، وإلى مقولاته ، وهو كتاب لا وجود له بين أيدى المشركين الذين أبَوْا أن يقبلوه ، وأن يُضيفوا أنفسهم إليه .

قوله تعالى :

* « أم لكم أيْمان علينا بالغة إلى يوم القيامة ؟ إن لكم لما تحكمون » ..

وإذا لم يكن ثمة كتاب بين أيدى المشركين ، يحتكمون إليه ، ويأخذون مقولاتهم منه .. فهل لهم على مقولاتهم تلك ، عهد موثّق بالحلف عليه مع الله سبحانه وتعالى ، لاينقطع إلى يوم القيامة ؟ إن يكن هذا ، فإن لهم ما يحكمون ، دون أن يُرَدّ حكمهم ! والحقّ أنه لا عهد لهم من الله !

وإذا لم يكن بينهم وبين الله عهد ، وإذا لم يكن فى أيديهم كتاب ، فلمْ يبق إذن معهم إلا عقولهم تلك التى غشيها الضلال ، واستبد بها السفه ، والتى خرجت منها تلك المقولات الفاسدة ، وهذه الأحكام الباطلة ، التى يؤخذون بها ، ويحاسبون عليها ، دون أن يكون لهم شفيع من كتاب درسوه ، أو عهد مع الله وثقوه ..

قوله تعالى :

* « سلهم أيهم بذلك زعيم » .

هو أمر للنبى الكريم أن يَلْقىَ المشركين بهذا السؤال ، وهو أن يُخرجوا من بينهم الزعيم الذى يتولى عنهم القول بأن لهم كتاباً، أو أن لهم مع الله عهداً، ثم يكون هذا الزعيم ضامناً وكفيلا بتقديم الحجة على هذا أو ذاك ، ساعةَ الحساب ، ويومَ الجزاء !

فأين منهم من يتولّى هذا الأمرَ عنهم ، ويحمل مسئوليتّه دونهم ؟

قوله تعالى :

* « أم لهم شركاء ؟ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين » ..

وإذا لم يكن للمشركين شيء من هذا كله ، فلا كتاب معهم ، ولا عهد من الله لهم ، ولا زعيم منهم يزعم أن لهم شيئاً من هذا ـ فهل لهم شركاء

مع الله ، قد اتخذوهم من دون الله ،يدفعون عنهم عذاب يوم القيامة ، الذى ساقتهم إليه عقولهم الضالة ؟ فإن يكن لهم شركاء ينصرونهم من دون الله ، فليأتوا بهؤلاء الشركاء إن كانوا صادقين .. وقد أخذ القرآن الكريم فى هذا كل مسلك يمكن أن يسلكه المشركون للإفلات من تلك الجريمة ، جريمة الشرك والكفر ، وسدّ عليهم منافذ الخلاص من بين يديه منها ، ومن العقاب الراصد لهم عليها . . لقد سقطت من أيديهم كل حجة تسند ضلالهم وكفرهم .

وقوله تعالى :

* « يوم يُكشف عن ساق ويُدْعَون إلى السجود فلا يستطيعون » .

هو جواب على سؤال من المشركين يواجِهون به هذا التهديد الذى سيق إليهم من قوله تعالى : « أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين » .
وكأنهم إذ يسمعون هذا التهديد المتحدّى يقولون : « متى نأتى بهؤلاء الشركاء »؟
إنهم حاضرون معنا .. إنهم آلهتنا تلك التى نعبدها .. فيجيئهم الجواب : « يومَ يُكشف عن ساق ويُدْعون إلى السجود فلا يستطيعون » ..

وقوله تعالى : « يومَ يكشف عن ساق » هو كناية عن يوم القيامة ، وما فيه من شدائد وأهوال . . فإن العادة قد جرت أنه حين يشتد الأمر يشمّر الإنسان عن ساقه ، حتى لا تعوقه ملابسه عن الحركة ، والجرى ، فى مواجهة الشدائد ، أو الفرار منها .. وفى هذا يقول الشاعر :

قد شمّرت عن ساقها فشُدّوا .. وجدّت الحرب بكم فجدوا

وقوله تعالى : « ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون » أى فى هذا اليوم يوم القيامة « يدعى المشركون إلى السجود » أى تدعوهم داعية حالهم إلى أن يستجيبوا لله ، وأن يؤمنوا به ، ليلحقوا بالمؤمنين ، ويخلصوا من عذاب النار

التي يساقون إليها ، ولـكن لا يستطيعون ذلك ، أي لا يمكّنون من هذا ، ولا يفعلونه ، لأن الآخرة دار جزاء وحساب ، وليست دارَ عمل وكسب . .

لقد مضى زمن السجود ، فلا سبيل لهم إليه ..

قوله تعالى:

* « خاشعةً أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يُدْعون إلى السجود وهم سالمون » . .

هو بيان لحال المشركين يومئذ، حين حاولوا السجود لله ، وتدارك ما فاتهم، فلم يفلحوا ، وقد ابستهم حال من اللغو ، والـكمد ، فخشعت لذلك أبصارهم ذلةً وانـكساراً ..

وقوله تعالى : « وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » . . هو جواب لسؤال مقدر ، وهو : ما ذنب هؤلاء المشركين إذا دُعوا إلى السجود ولم يستطيعوا ؟ وهل يكلَّف الإنسان ما لا يستطيع ؟ وهل يحاسب على ما يجاوز استطاعته ؟ فـكان الجواب : إنهم لم يحاسبوا على عجزهم عن السجود يوم القيامة ، لأنّهم في حالٍ لا يمكّنون فيها من هذا السجود ، وإنما هم يحاسبون على امتناعهم عن السجود ، حين دُعوا إليه وهم سالمون ، أي وهم في الدنيا ، حيث تصحّ العبادة ، وتُقبل الأعمال . . فالمراد بالسلامة هنا ، هو سلامة الوقت الذي تصحّ فيه الأعمال ، وتقع موقع القبول .

قوله تعالى :

* « فذرني ومن يكذبُ بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » ذرني ، أي دَعْني ، واتركني .

وهذا الفعل من الله سبحانه ، هو تهديد مزلزل لهؤلاء المشركين ، الذين يكذبون بآيات الله ، ولا ينتفعون بوعد أو وعيد منها . .

إنها حرب يعلنها الله سبحانه وتعالى على المكذبين بآيات الله ، وحسب المكذبين بآيات الله ، ضياعاً وهَلاَكا ، أن يحاربهم الله ..

والواو فى قوله تعالى : « ومن يكذب بهذا الحديث » ـ واو المعيّة ، أى بمعنى مع . .

وقوله تعالى : « سنستدرجهم من حيث لايعلمون » أى سنسوقهم إلى الهلاك رويداً رويداً ، وندفع بهم إلى جهنم خطوةً خطوةً ، دون أن يشعروا أنهم سائرون إلى هذا البـــلاء العظيم ، بل إنهم ليحسبون أنهم على هدى ، وأنهم على موعد مع الخير العظيم الذى يَلُوح لهم من وراء هذا السراب الخادع الذى يتراءى لهم ، فإذا انتهى بهم المطاف إلى غايته ، وتكشف لهم أنهم كانوا مخدوعين بهذا السراب ، تضاعفت حسرتهم ، وعظمت مصيبتهم .

وفى قوله تعالى : « فذرنى » ـ مع أن الله سبحانه وتعالى لايُعجِزه أحد عما يريد ـ إشارة إلى إطلاق يد الله فيهم بالعذاب والنكال ، فهو مثل قوله تعالى : « سنفرغ لكم أيها الثقلان » . . والمراد بالحديث هنا فى قوله تعالى: « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث » — هو القرآن الكريم ، وما يسوق إلى المشركين من نذر بالبلاء والعذاب .

والاستدراج : هو فتح منافذ الإغراء إلى الشىء . واستدراج الله سبحانه وتعالى لأهل الضلال ، هو أن يُخلى الله سبحانه وتعالى بينهم وبين أنفسهم ، وما زينت لهم من أباطيل ، فينتقلون من ضلال إلى ضلال ، خطوة خطوة ، حتى يقعوا فى الهاوية ..

قوله تعالى :

* « وأملى لهم . . إن كيدى متين » . .

أى ومن هذا الاستدراج الذى يستدرج به الله سبحانه ، المشركين ، أنه

يمهلهم ، ويُملى لهم ، فلا يعجّل لهم العذاب فى الدنيا ، حتى تمتلىء كأسهم من الآثام والمنكرات ..

وقوله تعالى : « إن كيدى متين » أى إن تدبيرى محكم ، فإذا أمليت لظالم فإنما أملى له ، لأضاعف له العذاب ، لمضاعفته هو المنكرات والسيئات ، حين امتدّ عمره ، وكثر المال فى يده ، ليحارب به الله ، ويسلك به كل سبيل من سبل الفساد والضلال .

قوله تعالى :

* « أم تسألهم أجراً فهم من مَغرمٍ مثقلون » .

هو مواجهة للمشركين بهذا السؤال التهكمى ، بعد أن ووجهوا بالوعيد والتهديد فى قوله تعالى : « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لايعلمون * وأملى لهم إن كيدى متين » .. إذ ماذا يحجزهم عن الاستجابة لهذا الخير المدعوّين إليه ؟ وما لهم لايمدون أيديهم إليه ؟ أأنت أيها النبى تطلب إليهم ثمناً لهذا الخير الذى تقدمه لهم ، حتى إن هذا الثمن يثقلهم ، ويحول بينهم وبين الوصول إلى هذا الخير ؟ إن أحداً لم يطلب منهم شيئاً فى مقابل هذا الرزق الكريم المبسوط للناس جميعاً .. ولكن هى نفوسهم الخبيثة التى عافت هذا الطعام السماوى ، ووقفت إزاءه نافرة منه ، وهو يقدّم إليها بلا ثمن ..

قوله تعالى :

* « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » .. أى أم عندهم علم الغيب ، فهم يستملون منه أنباء المستقبل ، ويرون على ضوئه ماينتظرهم على طريق الحياة ؟

إنهم لايلتفتون إلى هذا النور الذى بين يدى النبىّ ، الذى لايسألهم أجراً عليه . فهل معهم نور يهتدون به ؟ وهل عندهم علم من الغيب يكشف لهم معالم الطريق الذى هم سائرون فيه ؟ إنهم يسيرون فى ثقة واطمئنان ، ولا يدرون

أنهم محجوبون عن رؤية المصير المشئوم الذى هم صائرون إليه .. إنهم أشبه بالماشية التى تجترّ فى هدوء واطمئنان ، وهى فى طريقها إلى المذبح !

الآيات : (٤٨ — ٥٢)

* « فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَٱجْتَبَاهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢) »

[النبي .. وصاحب الحوت]

التفسير :

قوله تعالى :

* « فاصبر لحكم ربِّك ولا تكن كصاحبِ الحوت إذ نادى وهو مكظوم »

بهذه الآية ، والآيات التى بعدها تختم سورة « القلم » التى كانت معرضاً لضلال المشركين ، وسفههم ، وتطاولهم على رسول الله ، كما كانت معرضا للدفاع عن القرآن الكريم ، وعن الرسول ، وتتويجه بهذا التاج الربانى الذى زينه به الله سبحانه وتعالى ، بثنائه عليه ، فى قوله سبحانه : « وإنك لعلى خلق عظيم » .. ثم تتابعت آيات السورة ، تتوعد المشركين ، وتهددهم بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، إذاهم لم يستجيبوا للرسول ، ولم يتلقوا ما تمتد به إليهم يده ، من رزق الله الذى لا يسألهم عليه أجراً ..

ثم يجىء هذا الختام الذى يتلقّى فيه النبى من ربه سبحانه دعوةً إلى الصبر على

مايلقى من سفاهة السفهاء ، وحماقة الحمقين من قومه . . فهذا هو حكم الله ، الذى يدعوه إلى امتثاله : إنه الصبر ، ولا شىء غير الصبْر . .

وقوله تعالى : « ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » — هو شدٌّ من عزم النبىّ على الصبر ، وتوكيد لالتزامه ، والتمسك به ، وألا يُزايل موقفه الذى هو فيه ، كما فعل صاحب الحوت — وهو يونس عليه السلام — حين أخلى مكانه بين قومه ، وتركهم مغاضباً لهم ، بعد أن دعاهم إلى الله ، وتوقفوا عن إجابة دعوته . . ولو أنه صبر على عنـــادهم ، وعاود نصحهم يوماً بعد يوم ، لاستجابوا له ، فقد كان فيهم — مع هذا العناد — بقيّة من خير ، يمكن أن تكون شرارةً يتوهج منها نور الإيمان ، لو وجدت من ينفخ فيها برفق ، وأناة ، ويتلطف فى الإمساك بها من غير تعجل . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى عن موقف يونس عليه السلام : « وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنتُ من الظالمين » (٨٧ : الأنبياء) . . فيونس عليه السلام — هو الذى ذهب مغاضباً لقومه ، أى محدِثاً الغضبَ من قبل أن تجتمع لديه أسبابه القويّة الداعية إليه . .

وقوله تعالى : « إذ نادى وهو مكظوم » بيان لحال يونس عليه السلام ، وهو فى بطن الحوت ، ثم بيان لحاله ، وهو يُنادى فى جوف الحوت . .

فالله سبحانه وتعالى ينهى النبى — صلوات الله وسلامه عليه — عن أن يكون فى موقف كموقف يونس — عليه السلام — حين نادى ربه فى حالٍ هو فيها مكظوم ، أى مغيظ ، محنَق ، مختنق من الغيظ ، والضيق . .

والكظم : مَخْرَج النفس من الصدر ، وكظم فلان : أى حبس نفسه . . وكظْم الغيظ : حبسه ، ومنه قوله تعالى : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » .

ومن هنا يتبين أن المكظوم ، غيرُ الكاظم . . فالكاظم ، هو الذى غَلَبَ غيظَه وقهره ، وأما المكظوم ، فهو الذى ملكه الغيظُ ، وقهره ، وغلبه على أمره . .

وعلى هذا ، فإن الذى يُحذِّر النبي منه ، هو ألا يغلبه الغيظ ، كما غلب يونس عليه السلام ، بل المطلوب منه ، هو أن يَكظم غيظه ، وأن يقهره ، وألا يجعل لهذا الغيظ سلطاناً عليه ، يحمله على مفارقة قومه ، وإخلاء مكانه فيهم ، كما فعل يونس . .

وفى هذا يقول الحق تبارك وتعالى : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس . . والله يحب المحسنين » (١٣٤ : آل عمران)

فقوله تعالى : « ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » أى لا تكن كيونس إذ نادى ربه ، وقد غلبه الغيظ ، وحمله على أن يترك قومه ، وينزل فى هذا المكان الضيق ، وهو بطن الحوت .

فالذى يحذَّر منه النبي ، ليس هو مناداة ربه ، وإنما مناداتُه فى حال يكون قد غلبه فيها غيظه . . فإن دعاء الله ، والتجأ إليه — وإن كان محموداً على كل حال وفى كل حال — إنما يكون فى أحمد أحواله ، وأعلى مقاماته ، حين يكون صاحبُه متجملا بالصبر على ما أصابه ، ممسكا بزمام نفسه ، ثقةً بالله ، واطمئناناً إليه ، فى أشد الأهوال ، وأعظم المحن ، فلا يضيق بمحنة ، ولا يُكظم بشدة ، لأنه مسلم أمرَه إلى الله ، لاجىء إلى حمى سلطانه . .

قوله تعالى :

﴿ « لولا أن تداركه نعمة من ربه لنُبِذ بالعَراء وهو مذموم ﴿ فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » أى أن يونس — عليه السلام — لولا أن أدركته نعمة

ربه ، وإحسانه إليه « لنبذ بالعراء وهو مذموم » أى لخرج من بطن الحوت وهو مذموم مَلومٌ من ربّه . . ولـكن الله سبحانه وتعالى ، استجاب له ، حين دعاه من بطن الحوت . . ثم اختاره ربّه من بعد أن خرج من بطن الحوت ، فخلع عليه لباس النبوة ، الذى عُرّى منه أو كاد ، حين فارق قومه . .

فخروج يونس من بطن الحوت ، هو رحمة من رحمة الله به ، وإعادته إلى وضعه الأول فى مقام النبوة ، هو نعمة مجددة أنعم الله بها عليه ، إذ جعله بها من الصالحين ، الذين سلموا من الذم ، ونجوا من الملامة والعيب . . إنه بعثٌ جديد له .

ففى قوله تعالى : « فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » — إشارة إلى حال جديدة ، أعقبت الحال التى خرج عليها يونس من بطن الحوت ، فهو — عليه السلام — خرج كما يخرج السجين من سجنه ، يحمل معه آثار الذنب الذى كان منه . . ولـكن الله سبحانه تدارك عبدَه ، فأزال عنه هذا الأثر ، وخلع عليه خِلعة النبوة التى كانت تنتظره ، على باب السجن الذى خرج منه ، وبهذا رَدّ إليه اعتباره ، بعد هذا البلاء العظيم . .

والسؤال هنا : ماذا كان من النبى — عليه الصلاة والسلام — من موقف مشابه لموقف يونس — عليه السلام — حتى يُنَبّه إلى الحذر من أن يأخذ الطريق الذى أخذه صاحب الحوت ؟

نقول — والله أعلم — : كان النبى صلوات الله وسلامه عليه — قد بلغ به الحال بينه وبين قومه ، ماملأ صدره ضيقاً بهم ، وحيرةً فى أمرهم ، بعد أن لقيهم بكل طريق ، وجاءهم بكل حجة ، فلم يكن منهم إلا السفاهة ، والتطاول ، والإمعان فى الجافاة له ، والأذى لأصحابه الذين آمنوا به ، وإن الموقف ليبلغ غايته من التأزم والضيق ، حين يخرج النبى — صلوات الله وسلامه عليه —

إلى « ثقيف » بالطائف، ويعرض عليهم دينَ الله، ويبلّغهم ما أُرسل به إلى الناس، ثم لا يلقى منهم إلا استهزاء وسخرية، وإلا تطاولا بالألسنة، ورجماً بالأحجار، فيتركهم وقد أيئسوه من أن يجد لدعوته أذنا تسمع، أو عقلا يعى وهنا تنزل تلك الآيات على الرسول الكريم، داعية إياه إلى الصبر، محذرة إياه من أن يأخذ موقفاً كموقف أخ له من أنبياء الله قبلَه، هو يونس عليه السلام . .

وهذا على أن هذه الآيات مكية، فى سورتها المكية . .

أما على الرأى الذى يقول إنها آيات مدنية فى السورة المكية، فإنه يجعل نزولَ هذه الآيات فى أعقاب غزوة أحد، بعد أن أصاب المشركون ما أصابوا من صحابة رسول الله، ومنهم عمه حمزة . رضى الله عنه، وبعد أن أصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، من سهام المشركين حتى شُجّ رأسه، وكسرت رباعيته وسال دمه .

وعلى أىّ، فإن نزول هذه الآيات، كان فى حال اشتد فيها ضيق النبى، وكاد يقع اليأس فى قلبه من إيمان هؤلاء المشركين، الذين ركبوا رءوسهم، وأسلموا للشيطان قيادهم . .

هذا، وفى تلك الآيات إشارة إلى أن عاقبة هؤلاء المشركين، هى الإيمان بالله، والاستجابة للرسول، كما آمن قوم يونس، بعد أن عاد إليهم، وجدّد دعوتهم إلى الإيمان بالله . . كما يقول سبحانه : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » (٩٨ : يونس) — وفى هذا إشارة من أنباء الغيب إلى مستقبل هذه القرية، وهى مكة، وأن أهلها سيؤمنون، كما آمن قوم يونس .

فهؤلاء المشركون الذين يقفون هذا الموقف العنادىّ الضالّ من رسول الله ، سوف يدخلون فى دين الله ، وسوف يرى فيهم النبىّ القومَ المؤمنين الذين تقوم بأيديهم دولة الإسلام . . وغاية ما هناك أن يصبر النبىّ ، وأن يحتمل هذا الموقف المتأزم بينه وبين قومه ، فإن الضيق إلى فرج ، وإن العسر إلى يسر . وهكذا كانت الآية من البشريات المسعدة ، التى بُشِّر بها النبىّ فى قومه، الذين كان شديدَ الحرص على هدايتهم ونجاتهم من الهلاك الذى يتدافعون إليه . .

وفى قوله تعالى :

* « وإن يكاد الذين كفروا لَيُزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون » .

هو حال ؛ من فاعل الفعل فى قوله تعالى : « واصبر لحكم ربك » . . والفاعل هو ضمير يعود إلى النبىّ — صلوات الله وسلامه عليه ، المتلقِّى لخطاب ربّه . . أى فاصبر لحكم ربك ، وإن كان قومك يرمونك بنظراتهم القاتلة .

فالله سبحانه وتعالى ، إذ يدعو النبىّ إلى الصبر على المكاره التى يحملها من قومه ، يدعوه إلى هذا فى حال بلغت فيه عداوة قومه غايتها ، حتى إنهم ليكادون يزلقونه أى يسقطونه فزعاً من نظراتهم المصوّبة إليه بسهام الحَنَق والغيظ والانتقام . . فهم حين يستمعون إلى الذكر — وهو القرآن الكريم — تَغلى مراجل غيظهم ، فتنطلق من أعينهم نظرات ملتهبة كأنها السهام ، فإذا رأى النبىّ صلى الله عليه وسلم هذه النظرات تنوشه من كل جانب ، فزع ، وكرب ؛ وكاد يسقط من هول ما يطلع عليه من عداوة القوم ! !

والعين قُدرتُها الخارقة على إظهار مكنون الإنسان ، من حبّ أو بغض ، ومن وعد أو وعيد ، فهى المرآة التى تنعكس عليها مشاعر الإنسان ، ويتجلى

على صفحتها ما يعتمل فى كيانه من رضاً أو سخط ، ومن سكينة أو فزع ، حتى ليبلغ الأمر أن تكون العين سلاحاً قاتلا ، يصيب مقاتل من يُرْمَى بها . . وفى هذا يقول الشاعر ، فى أعداء التقوا بنظراتهم المتوعدة بالشر ، قبل أن يلتقوا بسيوفهم المسلولة للقتال . . يقول :

يتقارضون[1] إذا التقوْا فى موطن نظراً يُزيل مواقع الأقدام

وفى النظرة الحاسدة شىء من هذا ، فإنها ترمى المحسود ، فى غفلة منه ، فتصيب منه مقتلا . . لأنها نظرة منطلقة من قلب يغلى كمداً ، وحسرة ، على ما بيد المحسود من نعمة الله .

وليس هذا ما لقدرة العين وسلطانها فى الإنسان وحده ، بل إنها عند كثير من الحيوانات تكون سلاحاً عاملا فى الصراع الدائر بينها . .

فالحيّة ، كثيرا ما تجد فى نفسها القدرة على إصابة عدوّها بنظرة منها ، فإذا أرسلت إلى عدوها نظرة ؛ والتقت عينه بعينها ، شلت حركته ؛ وجمد فى مكانه ، وربّما مات قبل أن تصل إليه . . !

فالصبر الذى يُدعى إليه النبى من ربه ، هو فى تلك الحال ، التى بلغت فيه عداوة القوم له غايتها ، بما يرمونه به من نظرات ملتهبة ، حين يسمعون آيات الله تتلى عليهم . . وليس هذا النظر المشحون بسموم العداوة وحسب ، بل إنهم يرمونه مع هذا بسهام أخرى من أفواههم ، كقولهم : مجنون ، وساحر . .

(١) يتقارضون : أى يتبادلون ، كأنما يقرض أحدهما الآخر شيئاً ، فيرد المقترض ما اقترض .

وقوله تعالى :

* « وما هو إلا ذكر للعالمين » . .

هو رد على هذه التهمة الفاجرة الظالمة التى تنطلق بها أفواه هؤلاء المشركين، وهو تثبيت للنبى فى موقفه، وإلفات له إلى ما بين يديه من آيات القرآن الكريم، الذى هو ذكر للعالمين، وحياة مجددة للناس، جيلا بعد جيل، وإنه لا ذِكر، ولا قدْر لمن فاته الاتصال بهذا الكتاب، وتلقّى عنه، وقطع مسيرة الحياة فى ظله، وهذا مثل قوله سبحانه وتعالى : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون » (٤٤ : الزخرف) .

* * *

٦٩ - سورة الحاقة

نزولها : مكية ، نزلت بعد سورة الملك .

عدد آياتها : اثنتان وخمسون آية . .

عدد كلماتها : مائتان وخمس وخمسون كلمة . .

عدد حروفها : ألف وأربعمائة وثمانون حرفا . .

مناسبتها لما قبلها

كان ختام سورة « القلم » دعوة من الله سبحانه وتعالى ، إلى النبي الكريم أن يصبر على موقفه من قومه ، وألا يتحول عنه ، كما تحول صاحب الحوت ، وإن لقى من قومه أشدّ العداوة ، والشنآن ، وأن يمضى فى طريقه معهم منتظرا حكم الله بينه وبينهم ، كما حكم الله بين إخوانه النبيين وأقوامهم . .

وتجىء سورة « الحاقة » مفتتحة بهذه المعارض التى يتجلى فيها ما حكم الله سبحانه به بين بعض أنبيائه وأقوامهم ، وما لقى المكذبون المعاندون منهم من مرسلات الهلاك عليهم فى الدنيا ، التى أخذتهم مرة واحدة ، فما أبقت منهم باقية . .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٢)

* « ٱلْحَاقَّةُ (١) مَا ٱلْحَاقَّةُ (٢) وَمَآ أَدْرَاكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِٱلْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٨) وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَٱلْمُؤْتَفِكَاتُ بِٱلْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « الحاقة ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة » .

هكذا تبدأ السورة الكريمة ، بهذه الكلمة : « الحاقة » التى تقع على الأسماع موقع الصيحة الراعدة المزلزلة فى هدأة الليل ؛ تغشى الناسَ بالفزع المذعور ، الذى تدهش له العقول ، وتزيغ به الأبصار ، وتخرس معه الألسنة ، وقد امتلأ الجو بهـذا التساؤل الكبير الذى يُطلّ من كل عين : ما هذا ؟ ما هذا ؟.

* « ما الحاقة ؟ » .

إنها مع صوتها الراعد المزلزل ، ملففة فى أطواء المجهول .. لا يُعرف لها وجه ، ولا تَبين لها حقيقة ، حتى لكأنها القَدَر ، ترى الناس بما فى يديها من نذر ، من حيث لا يحتسبون ، ولا يقدّرون . . وهذا مما يضاعف فى فزع الناس منها ، وفى الكرب المشتمل عليهم إزاءها ..

* « وما أدراك ما الحاقة ؟ » .

ومن يستطيع أن يجيب على هذا السؤال : « ما الحاقة ؟ » إن أحداً لا يستطيع أن يتصور حقيقتها ، أو يبلغ إدراكه الإحاطة بها . . وفى هذا التجهيل فى الجواب الذى يجاب به عنها ، مضاعفة للفزع والكرب المستوليين على الناس منها .

وكأنّ المعنى هو :

* « الحاقة » . . وهذا إخبار من الله سبحانه وتعالى بها ، وإعلان للناس بوقوعها حيث يشتمل عليهم الفزع ، ويستبدّ بهم الخوف من مجرد التلفظ بها . .

* « ما الحاقة ؟ » وهذا سؤال من الناس عن هذا الكائن العجيب ، الذى يُشيع ذكرُه الرعبَ والفزع . . وكأنهم يتجهون بهذا السؤال إلى النبىّ الذى ألقى بهذا الاسم على أسماعهم !!

* «وما أدراك ما الحاقة ؟» وهذا جواب من الله سبحانه على تساؤل السائلين للنبىّ عن الحاقة . . إن النبىّ الذى يسألونه ، ويرجون الجواب عنده ، لايدرى ما هى الحاقة ؟ إنها شىء من وراء تصورات العقول ، واحتمال المدارك . .

أما معنى الحاقة من حيث اللغة ، فهو اسم فاعل من الحقّ . . وحقّ

الشيء : وجب .. ووقع ، فالحاقة لغة ، بمعنى الواجبة ، والواقعة . . أى الواجبة الوقوع . . وهذا يعنى أنها شيء سيقع حتما . . أما ما صفة هذا الشيء الذى سيقع ، وما صورته فى العقول ـ فهذا شيء لا يمكن أحداً أن يدرك وصفه ، أو يتمثل صورته . . إنه شيء مهول لم يقع للناس شيء مثله ، فكيف يستقيم له تصور فى أفهامهم ؟

وجواب السؤال عن الحاقة فى قوله تعالى : « ما الحاقة » يمكن أن يكون هو قوله تعالى « كذبت ثمود وعاد بالقارعة » . . كما سنتعرض لهذا بعد قليل ، ويمكن أن يكون السكوت عن الجواب هو الجواب ، لأن الذين كفروا لا يستمعون إلى هذا الجواب ، ولا يؤمنون به ، كما فعلت ذلك عاد وثمود . . وإذن ، فخيرُ جواب على هؤلاء السائلين المتعنتين ، هو عدم الردّ عليهم ، وتركهم فى بَلبال وحيرة .

قوله تعالى :

* « كذبت ثمود وعاد بالقارعة » .

يمكن أن يكون هذا ـ كما قلنا ـ جوابا للتساؤل عن « الحاقة » . . وهو جواب من الله سبحانه وتعالى ، بعد أن نفى عن النبيّ إمكانَ الإجابة عليه . . كما يمكن أن يكون استئنافاً يراد به التعقيب على هذه التساؤلات عن الحاقة . .

وفى هذا الجواب تشنيع على فَعلة ثمود وعاد ، وتكذيبهم بالقارعة .. فكأن التكذيب بالقارعة ، يضاهى الحاقة نفسها ، فى هولها الذى لا تتصوره العقول ، وكأنّ الجواب هو : كذبت ثمود وعاد بالحاقة التى هذا شأنها .. و «القارعة» كائن مجهول أيضاً ، كالحاقة . .

فالقارعة ، والحاقة ، كلمتان مترادفتان . . وقد سُميت بكل منهما سورة من سور القرآن الكريم .. وبدئت سورة القارعة بلفظ « القارعة » كما بدئت سورة الحاقة بلفظ « الحاقة » . وكما جاء نظم الآيات الثلاث الأولى من الحاقة ، جاء نظم الآيات الثلاث الأولى من القارعة . . هكذا : « القارعة ، ما القارعة؟ وما أدراك ما القارعة ؟ » . .

وقد كشفت سورة « الحاقة » عن وجه من وجوه هذه « الحاقة » ومابين يديها من نذر البلاء ، فيما أخذ الله المكذبين بها ، من بلاء ونكال ، هو أشبه في هوله بما يكون من أحداث الساعة ، أو موقف الحساب والجزاء يوم القيامة ، وذلك فيما يقول سبحانه وتعالى ، عن مَهلِك ثمود وعاد . . يقول سبحانه :

« فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية * وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً * فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية » .

فهذا ما أخذ الله به المكذبين « بالقارعة » من ثمود ، وعاد .

فأما ثمود ، فقد أهلكهم الله بالطاغية ، وهى الصاعقة المزلزلة العاتية ، التى جاوزت كلّ حدّ معروف لها فى ظواهر الطبيعة ، ولهذا سميت طاغية ، ولهذا كان عقاب ثمود بها ، لأنها طغت ، واعتدت على صالح رسول الله ، وعلى ناقة الله ، كما يقول سبحانه : « كذبت ثمود بطغواها * إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقةَ الله وسقياها * فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها » (١١ - ١٥ الشمس) وكما يقول جل شأنه : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهُونَ بما كانوا يكسبون » (١٧ : فصلت) .

وأما عاد ، فقد أهلكهم الله بريح صرصر عاتية ..

والريح الصرصر ، هى الريح العاصفة الباردة ، القاتلة ببردها .

وفى قوله تعالى : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً » — إشارة إلى اشتمال العذاب عليهم هذا الزمن الذى تجرعوا فيه غصص الموت ، قطرة قطرة ..

وحصر عدد الليالى بسبع ، وعدد الأيام بثمانية — إشارة إلى أن الأيام تسبق الليالى ، وأن النهار يسبق الليل ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار » (٤٠ : يس)[1] .. فهذا هو كتاب الله الذى يصدّق بعضه بعضاً ، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » (٨٢ : النساء) .

كما يشير هذا إلى أن العذاب وقع بالقوم نهاراً ، وجاءهم عياناً ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « فلما رأوه عارضاً مستقبلَ أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم » (٢٤ : الأحقاف) .

وقوله تعالى : « حسوماً » صفة للأيام ، التى تحتوى فى كيانها الليالى أيضاً لأن الأيام ثمانية ، والليالى سبع .. فهو فى حقيقته صفة للأيام والليالى معاً .

والحسوم ، من الحسم ، وهو القطع .. يقال حسم فلان الأمر : أى قطعه .. ومنه الحسام ، وهو السيف ، إذ أن من أفعاله أنه يحسم حياة من يُضرب به .

وأعجاز النخل : أصولها ، الممسكة بها على الأرض ..

والخاوية : الجوفاء ، التى فرغ جوفها ، بعد موتها وجفافها .

وفى تشبيه القوم بأعجاز النخل — إشارة إلى ما كان عليه القوم من فراهة الأجسام ، وضخامة الأبدان ، وقوة الكيان ، كما وصفهم الله سبحانه على لسان

---

(١) انظر فى هذا تفسيرنا لتلك الآية فى سورة « يس »

نبيهم هود ، عليه السلام : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة » (٦٩ : الأعراف) ويقول سبحانه : « وإذا بطشتم بطشتم جبارين » (١٣٠ : الشعراء) .

وكما كشفت سورة « الحاقة » عن هذا الهول الذى حلّ بالمكذبين بالقارعة ، والذى تتمثل فيه بعض مشاهد القيامة — كشفت سورة « القارعة » عن أحداث القارعة نفسها ، وهى القيامة ، كما يقول سبحانه : « القارعة * ماالقارعة * وما أدراك ما القارعة * يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش »

وهكذا تلتقى السورتان : « الحاقة » و« القارعة » فى تصوير أحداث هذا اليوم العظيم ، يوم القيامة ، الذى يكذب به المشركون ، ويُلحّون فى التساؤل عنه ، وعن اليوم الذى يقع فيه ، تحدياً لما ينذرهم به الرسول من أهواله ، وإمعاناً فى تكذيبه ، حيث يلقاهم العذاب فى الدنيا والآخرة جميعاً .

قوله تعالى :

* « وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة * فعصوْا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية » .

هو معطوف على قوله تعالى : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة » .

والمؤتفكات : هى قرى قوم لوط ، التى ائتفكها الله ، أى قَلَبها على أهلها ، وجعل عاليها سافلها . . وقد جاء فى آية أخرى أنها مؤتفكة ، وذلك فى قوله تعالى : « والمؤتفكةَ أهوى »(٥٣ : النجم) . . كذلك ورد فى أكثر من موضع من القرآن أنها قرية . كما فى قوله تعالى : « إنا مهلكوا أهلِ هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين» (٣١ : العنكبوت) . . فما تأويل هذا ؟

تأويل هذا — والله أعلم — أن هذه القرية كانت رأسَ القرى التى حولها ، فهى أشبه بالأمّ لها . . ومن هنا كان الحديث عنها ، وعن أهلها ، لأنهم هم

الذين يمثلون غالبية القوم ، ووجوههم ، كما تحدث القرآن الكريم عن مكة ووصفها أنها أمّ القرى، فقال تعالى : « ولتنذر أم القرى ومن حولها » ا(٩٢ : الأنعام) .

« والخاطئة » أى الفعلة الخاطئة ،التى بيّنها الله سبحانه وتعالى بقوله :«فعصوا رسول ربهم»

ومجيئهم بالخاطئة : أى ارتكابهم الخطيئة ، وحملهم إياها يوم القيامة .

وفى الجمع بين فرعون ، وقوم لوط ،مع اختلافهمازمانا،ومكانا، وخطيئة — إشارة بليغة محكمة ، إلى ما بين القوم من نسب قريب فى الضلال ، لا من حيث صورته ، ولكن من حيث واقعه ومضمونه ..

فقوم لوط ، قد أتوا منكراً ابدعاً ، لم يأته أحد فى العالمين من قبلهم ، كما يقول سبحانه وتعالى على لسان نبيهم لوط عليه السلام : « أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » (٨٠ : الأعراف)

وأما فرعون فقد كان أمة وحده فى الضلال والاستعلاء . . ولهذا ذُكر وحده ، دون أن يكون معه قومه،فهو كيان الضلال كله ، الذى نضح منه على قومه رذاذ من هذا الضلال، فكانوا من المجرمين .. ففرعون صورة فريدة فى الجبارين ، وقوم لوط صورة فريدة فى المجرمين .

وفى الجمع بين فرعون وقوم لوط فى مقام العصيان لرسول الله ، مع أن كلاً منهما كان له موقف مع رسول من رسل الله — إشارة إلى أن رسل الله جميعا ، هم رسول واحد ، من حيث الرسالة التى يحملها الرسول من الله إلى الناس ، والدعوة التى يدعوهم إليها ، وهى الإيمان بالله .. فمن كذب برسول من رسل الله فهو مكذب برسل الله جميعاً . .

وقوله تعالى : « فأخذهم أخذة رابية » أى أخذهم الله أخذة متمكنة منهم بحيث تنالهم جميعاً ، وتشتمل على كل شىء منهم ولهم .

والرابية ، المكان العالى المرتفع عما حوله ، كالربوة .

وقد ابتلع البحر فرعونَ ومن معه ، كما ابتلعت الأرض قوم لوط ، واحتوتهم ومنازلهم فى بطنها . . إنهم هوَوْا جميعا إلى القاع .

قوله تعالى :

* « إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية ـ »

مناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيات السابقة ، ذكرت مصارع القوم الظالمين ، وقطع دابرهم جميعاً ، بحيث لم يترك الخراب من دار ولا ديار . .

ومع هذا،فإن هؤلاء المشركين من قريش ،مازالوا أحياء،يعيشون فى الناس ، لم يأخذهم الله سبحانه،بما أخذ به الضالين من قبل .. وهؤلاء المشركون،هم بقية من ذرية القوم الذين نجوا من الهلاك ، وهم الذين آمنوا بالله ، من بين المكذبين والضالين . . وإنه لجدير بهؤلاء المشركين أن يأخذوا طريق النجاة من عذاب الله ، كما أخذه آباؤهم الأولون من المؤمنين الذين نجوا من عذاب الله . .

هذا وإذا كانت الآية تشير من قريب إلى أظهر صورة من صور النجاة للمؤمنين ، وهلاك الكافرين ، وهو ما كان من نوح ، وقومه ، وسفينته ، وطوفانه . . حيث غرق الكافرون فى الطوفان ، ونجا نوح ومن معه من المؤمنين بالسفينة ـ إذا كانت الآية تشير من قريب إلى هذا ، فإنها تشير من بعيد إلى نجاة الذين آمنوا بالله من كل بلاء ساقه الله إلى الكافرين المكذبين برسل الله ، فى كل زمان ومكان .

وقوله تعالى :

* « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أُذُنٌ واعيةٌ »

أى لنجعل هذه الإشارة إلى نجاتكم فى أصلاب آبائكم الأولين ، الذين

آمنوا ونجوا من الطوفان ـ لنجعل هذه الإشارة تذكرة لكم أيها المشركون، تذكرون بها أنكم من أصلاب آباء كانوا مؤمنين، فكونوا مثلهم، إذا كنتم حقًّا تحرصون على التمسك بما كان عليه آباؤكم، إذ تقولون: «حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا» (١٠٤ : المائدة).. فإن فى آبائكم مهتدين، وضالين.. فتخيروا من ترونه أهلاً للاتباع من هؤلاء الآباء.

وقوله تعالى: «وتعيها أذن واعية» معطوف على قوله تعالى: «لنجعلها لكم تذكرة» أى ولتعيها أذن واعية.. فهذه التذكرة، لاتعيها، ولا تعقلها وتحتفظ بها، وتحفظها، إلا أذن عاقلة، بينها وبين العقل صلة وثيقة.. أما الأذن التى تسمع، ولا تورد ماتسمع على العقل، فهى أذن حيوانية، لاينال منها صاحبها خيراً أبداً..

الآيات: (١٣ — ١٨)

* «فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١٥) وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)»

التفسير:

قوله تعالى:

* «فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة * وحُملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة».

تعرض الآيتان الكريمتان هنا مشهداً من مشاهد القيامة ، وما يقع فيهـا من انقلاب شامل فى صورة العالم التى ألفها الإنسان ، وعاش فيهـا بحواسه المحدودة . .

وقد تحدثنا فى سورة « الواقعة » عن هذه التغيرات التى ذكرها القرآن الكريم عن يوم القيامة ، وقلنا إن هذه التغيرات ليست واقعة على الموجودات من أرض وجبال ، وبحار ، ومن سماء ونجوم ، وشمس وقمر ، وإنما التغير الذى يحدث ، هو فى الإنسان المتلقى لهذه الموجودات ، حيث تغيرت طبيعته بعد البعث ، وأصبح له من القوى فى حواسه ومدركاته أضعاف أضعاف ما كان له فى حياته الأولى ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (٢٢ : ق) . . فلقد كُشف للإنسان الغطاء فى هذا اليوم ، عن كثير من عوالم الوجود ، مما لم يكن من الممكن أن يراه ، أو يعلمه ، وهو فى الحياة الدنيا . .

فقوله تعالى : « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة »

يشير إلى أنه إذا نفخ فى الصور ، بُعث الموتى من القبور بتلك النفخة الواحدة ، لأن هذه النفخة هى أمر من أمر الله ، فإذا أمر الله أمراً وقع كما أمر ، كما يقول سبحانه : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » (٨٢ : يس)

وكما يقول سبحانه : « ونُفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون » (٥١ : يس)

وقوله تعالى :

* « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » . . أى رفعت الأرض والجبال ، فكانتا كِياناً واحداً . .

وحمل الأرض وجبالها ، هو ظهورها معلقة فى الفضاء ، كما هى عليه فى حقيقتها ، التى هى أشبه بكرة معلقة فى فلك الكون . . هكذا يراها الإنسان يوم القيامة بما عليها من جبال ، وبحار ، حين يكون محلقا فى سموات عالية فوق هذه الأرض . .

ودَكّ الأرض مع الجبال ، هو اندماجهما فى كيان واحد ، وذلك فى مرأى العين ، التى تنظر إليهما من بعيد ، كما ننظر نحن من عالمنا الأرضى إلى القمر ، فنراه سطحاً مستوياً ، لا جبال فيه ، ولا وهاد .. وهذا يعنى أن الناس إذ يُبعثون يوم القيامة ، يخرجون من العالم الأرضى ، إلى عالم آخر .. فالأرض هى عالم الناس الدنيوى ، ولا شك أن للناس فى الآخرة عالماً غير هذا العالم . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة » (٤٧ : الكهف) فبروز الأرض لايبدو إلا لمن خرج منها ، ونظر إليها من مكان خارج عن فلكها .. كما يشير إلى ذلك أيضاً ، تلك الحالة التى سيبعث الناس عليها فى قوله تعالى : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث » (٤ : القارعة) وفى قوله سبحانه : « يخرجون من الأجداث كأنهم جرادٌ منتشر » (٧ : القمر) .

قوله تعالى :

* « فيومئذ وقعت الواقعة » ـ هو جواب إذا الشرطية الظرفية ، فى قوله تعالى : « فإذا نفخ فى الصور . . » . . أى إذا كان هذا النفخ فى الصور ، وحمل الأرض والجبال ودكهما ـ إذا كان هذا،فهو يوم وقوع الواقعة ، وهى القيامة . .

ووقوع الأمر : مجيئه من علٍ ، فى قوة وتمكن ، بحيث لا يمكن ردّه . . ومنه قوله تعالى : « فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون » . . وقوله سبحانه : « قال قد وقع عليكم من ربكم رجسٌ وغضب » (٧١ : الأعراف) .. فهو وقوع لامردّ له .

وفى مجىء جواب الشرط فعلا ماضياً فى قوله تعالى : « فيومئذ وقعت الواقعة » ، مع أن مقتضى سياق النظم أن يكون فعلا مضارعاً هكذا : « فيومئذ تقع الواقعة » ـ فى هذا إشارة إلى أن وقوعها أمر محقق لذاته ، غير متوقف على شرط .. فهى واقعة لامحالة ، سواء وقع شرطها أم لم يقع ، وشرطها واقع لوقوعها ، لا أنها هى التى تقع لوقوع شرطها ..

وقوله تعالى :

* « وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » .

معطوف على قوله تعالى : « فيومئذ وقعت الواقعة » . . أى وانشقت السماء . .

ومعنى انشقاق السماء ، ظهور هذا السقف الذى يُظلنا ، والذى يبدو وكأنه سقف منعقد ، محبوك ، لا يمكن النفوذ منه ـ ظهوره يومئذ لنا على حقيقته ، وهو أنه ليس إلا فضاء لانهاية له ،وأنه مهما صعّد المصعدون فيه ، لايلقــــام إلا الفضاء الرحيب الذى لاينتهى . . وهذا مثل قوله تعالى : « وفتحت السماء فكانت أبوابا » (١٩ : النبأ) .

وقوله تعالى : « فهى يومئذ واهية » ـ إشارة إلى مايبدو عليه هذا السقف من وهْيٍ وضعف ، فلا تردّ السماء من يخترق طبقاتها ، أو ينفذ من أقطارها . .

قوله تعــالى :

* « والملَك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » .

أى ويُرى الملائــكة فى هذا اليوم على جنبات السماء ، فى أحوال شتى . . بين ساجد ، وقائم ، وغاد ، ورائح .. هــكذا يراهم الناس يومئذٍ . . فالملائكة المحجوبون عن أنظارنا اليوم، نراهم يوم القيامة ، كما يرى بعضنا بعضاً ، سواء

فى هذا من كان من أهل الجنة ، أو من أهل النار .. وقد ذكر القرآن الكريم لقاءات كثيرة للناس مع الملائكة ، فى موقف الحساب ، وفى الجنة ، وفى النار ..

والضمير فى « فوقهم » فى قوله تعالى : « ويحمل عرش ربك فوقَهم يومئذٍ ثمانية » يعود إلى « الملك » بمعنى الملائكة .. فهو مفرد لفظا، جمع معنى ، كما فى قوله تعالى : « وجاء ربُّك والملك صفًّا صفًّا » .. أى ويحمل عرش ربك فوق هؤلاء الملائكة « ثمانية » .

وقد اختُلف فى الثمانية : أهم ملائكة ، عددهم ثمانية ؟ أم هم ثمانية صفوف من الملائكة ؟ أم ثمانية أفلاك ، هى أطباق السموات ، التى فيها الجنات الثمانى ؟ وهذا يعنى أن عرش الله ، أى سلطانه ، قائم على هذا الوجود العلوى ، مستوٍ عليه . .

والعرش ، وحَمَلة العرش ، والملائكة ، والكرسى ، والقلم ، واللوح ، ونحوها ، هو مما يلزمنا التصديق به كما تحدث القرآن الكريم عنه ، دون البحث عن الصورة التى تكون عليها هذه المُبدَعات التى استأثر الله سبحانه وتعالى وحده بعلمها .

والسؤال عن هذه الغيبيات ، بدعة ، والتصدّى لتكييفها تكلّف ، وقد يجر إلى الافتراء على الله . .

وتفويض العلم بها إلى الله ، والإيمان بها على ما أخبر به القرآن عنها ، هو الإيمان السليم ، القائم على التسليم لله ، والتصديق بما نزل على رسول الله ، من آيات الله .. وهو الإيمان بالغيب ، الذى أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بمآ أُنزل إليك ومآ أُنزل من قبلك وبالآخرة

هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » (٢ — ٥ : البقرة) . .

قوله تعالى :

* « يومئذ تعرضون .. لاتخفى منكم خافية » .

أى فى هذا اليوم الذى تقع فيه الواقعة ، أى تقوم القيامة ـ فى هذا اليوم يعرض الناس على رب العالمين . . أى يقدمون للحساب والجزاء ، حيث لايخفى على الله من أعمالهم صغيرة ولا كبيرة . .

وقوله تعالى : « لاتخفى منكم خافية » جملة حالية من نائب الفاعل ، وهو الضمير فى « تعرضون » .. أى تعرضون فى حالٍ قد تكشفت فيها أحوال الناس وظهر مافى سرائرهم ، وحُصّل مافى صدورهم ، فكان باطنهم كظاهرهم ، يرونه هم ، ويراه بعضهم من بعض

الآيات : (١٩ — ٣٧)

* « فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ

عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧) »

التفسير:

بعد أن أنذرت الآيات السابقة الناسَ بالنفخ فى الصور ، والبعث من القبور ، ثم ساقتهم للعرض على الله ، للحساب والجزاء ـ جاءت تلك الآيات بعدها لتضع الناس مواضعهم ، وتُنزلهم منازلهم يوم القيامة . . فهم سعداء وأشقياء . . أصحاب الجنة ، وأصحاب النار . .

وقوله تعالى :

* « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه * إنى ظننتُ أنى مُلاقٍ حسابيه * فهو فى عيشة راضيةٍ فى جنةٍ عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية . . »

هو بيان لأحوال أهل السلامة فى هذا اليوم ، يوم القيامة . . حيث تسير خطواتهم إلى الجنة ، على هدى ونور من ربهم ، وحيث تلقاهم البُشريات على كل مرحلة من مراحل مسيرتهم إلى رضوان الله .

فمنذ يخرج المؤمن من هذه الدنيا ، وتفارق روحه الجسد ، وهو يرى مشاهد النجاة ، ويَنْشَق أرواح الجنة ، ويَشم أريجها العطر . . كما يشير إلى هذا قوله تعالى : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » (٣٢ : النحل) فهذه أولى بشريات المؤمن ، وهو على أول الطريق إلى الله ، والدار الآخرة . .

فإذا كان يوم القيامة ، ووقع النفخ فى الصور ، وبُعث الموتى من القبور ـ

لم يحزن هؤلاء المؤمنون ولم يجزعوا ، من فَزَع هذا اليوم، بل تتلقاهم الملائكة ، تخفف عنهم من وقع الصدمة ، وتخبرهم بأن هذا هو اليوم الذى وعدوا به ، وعملوا له ، وانتظروه . . وفى هذا يقول الله سبحانه : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون * لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون » (١٠١ ـ ١٠٣ : الأنبياء) .

فإذا سِيق الناس إلى المحشر ، وعُرِضوا للحساب ، وجد كل إنسان كتاب أعماله فى يده ، فمن كان من أصحاب الجنة ، أخذ كتابه بيمينه ، ومن كان من أهل النار ، أخذ كتابه بشماله ، وهنا يعرف الناس ـ فى صورة مجملة ـ المصيرَ الذى سيصير إليه كل منهم ، وهنا تعلو أهل المحشر أحوال شتى ، تختلط فيها صيحات الفوز ، وزغاريد الفرح ، بأنات الحسرة ، وزفرات اليأس ..

فمن أخذ كتابه بيمينه ، تراه وقد استطاره الفرح ، واستخفّه الظفر ، فجعل يلوّح بكتابه ، وينادى به فى الناس : أن اقرءوا كتابيه ! ! إنه يريد أن يَشهد الناسُ معه هذه الحال التى هو فيها ، وليشاركوه هذه الفرحة الكبيرة التى لا تحتملها نفسه ! .

وقوله تعالى : « إنى ظننت أنى ملاق حسابيه » هو من مقولة صاحب الكتاب المأخوذ باليمين ، لمن يلقى من أهل المحشر .. فهو إذ يأخذ كتابه بيمينه ، يطير فرحاً ، فيحدّث كل من يلقاه من أهل المحشر ، ويدعوهم إلى أن يقرءوا كتابه ، وأن يروا ما فى وثيقة النجاح التى فى يده ، من أعمال طيبة ، وأن هذه الأعمال الطيبات ، إنما هى التى أعدّها لهذه اليوم ، وعملها فى دنياه ، لأنه كان على يقين من أنه سيبعث وسيحاسب ! !

أرأيت إلى الناس فى ساحة القضاء ، وقد نطق القاضى ببراءة بعض الناس ، وإدانة البعض ؟ إنه صورة مصغرة إلى أبعد حدود الصِّغَر ، لحال الناس يوم القيامة ، فى موقف الحساب والجزاء .

والظن هنا ، ظن يقين ، وليس ظنّ شك وتردد .

وفى التعبير عن الإيمان بالآخرة بلفظ « الظن » ، الذى يغلب على معناه التوقع والاحتمال ، لا اليقين — فى هذا ما يشير إلى أن الإيمان بالغيب — وإن وقع فى قلب المؤمن موقع اليقين ، فإنه يظل فى منطقة الظن من عقله ، حيث لا يسلم العقل السليم إلا بما يقع فى دائرة إدراكه ، وتلك الدائرة لا يدخل فى محيطها ما كان من الغيبيات ، وإنما يقع ذلك الغيب فى محيط القلب ، وبقدر ما يكون فى القلب من اطمئنان ، بقدرما يقع فى العقل من إدراك ، والعكس صحيح أيضاً . .

وليس الظن الغالب فى مقام الإيمان بالشىء ، بالذى يُنقص من قيمة هذا الإيمان ، والعمل بمقتضاه ، فإن أغلب معارفنا ومدركاتنا مبنى على الظن الغالب ، لا اليقين المحقق ، ومع هذا فإننا نقيم وجودنا على هذه المعارف ، وتلك المدركات ..

ومثل هذا الظن ماجاء فى قوله تعالى : « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين » (١٢ : النور). فهذا الظن الحسن الذى يُدعى المؤمنون إليه ، فى نظرتهم إلى ما يقع من إخوانهم المؤمنين ، مما قد يكون موضع ريبة واتهام — هو كافٍ فى إمساك الألسنة عن قول السوء ، والمسارعة إلى الاتهام . . فهو ظن عامل موجّه ، لا ظن توقف وارتياب .

قوله تعالى :

* « فهو فى عيشة راضية * فى جنة عالية * قطوفها دانية » .

هو بيان لحال من أوتى كتابه بيمينه ، وللجزاء الحسن الذى يلقاه يوم القيامة . .

إنه سيكون فى عيشة راضية ، أى فى حياة طيبة ، يجد فيها الرضا كله ، فى جميع أحواله . .

وفى وصف العيشة بأنها هى الراضية ، إشارة إلى أن حقيقة هذه المعيشة هى الرضا نفسُه، الذى يسع النفوس جميعاً ، على اختلاف مقاماتها ومنازعها . . وهذا أبلغ — فى مقام الرضا — من أن يكون الوصف بالرضا لمن يعيش فى المعيشة .. فقد يرضى الإنسان بلون من المعيشة ، هى فى حقيقتها معيشة تافهة حقيرة ، تأباها كثير من النفوس الكبيرة ، وتراها شقاء وَبلاء إذا هى حُمِلت عليها ..

فمن الناس من تكفيه اللقمة يُشبع بها بطنه ، ويراها أملا مرجوًّا ، إذا تحقق له ، سعد به ، ورضى عنه ، وإن كان ذلك من فتات موائد القهار ، والدهر ، أو من شباك النصب والاحتيال ، أو من صدقات المتصدقين ، وإحسان المحسنين .. على حين أن كثيراً من الناس لا يُرضيهم من العيش إلا أن يكونوا فى مقام الصدارة والسيادة ، وإلا أن يضعوا فى أيديهم كل أسباب الملك والسلطان .

وهكذا تبدو المسافة بعيدة غاية البعد ، بين ما يحقق الرضا لبعض النفوس ، وما يحققه لبعضٍ آخر منها . .

وقد تداول هذا المعنى كثير من الشعراء ..

فمن النفوس النازلة ، التى يرضيهـا التافه الحقير من نفايات الحياة ، يقول المتنبي :

وفى الناس من يرضى بميسور عيشه

ومركوبه رجـلاه والنعل جلده ! !

وعن النفس العالية الـكبيرة التى لا يرضيها إلا أن تأخذ مكانها مع مطالع النجوم ومسارات الـكواكب ، يقول المتنبي أيضاً — ويعنى نفسه :ـ

وشرّ ما قنصته راحتى قَنَصٌ شهب البزاة سواء فيه والرخم

فوصف المعيشة بأنها عيشة راضية ، كما جاء بها النظم القرآنى ، فى قوله تعالى: « فى عيشة راضية » — وصفها بأنها هى المعيشة الراضية — هو الوصف الذى يحقق الرضا لجميع النفوس ، صغيرها وكبيرها ، فلا يجد الإنسان — أى إنسان — حيث تقلّب فى هذه المعيشة ، إلا الرضا المطلق ، الذى لا يتـكلف له جهداً ، وهى معيشة تُنزل الناس جميعاً منزلة عالية، وترتفع بنفوسهم عن كل ما هو دونٌ محتقَر . .

أما مايذهب إليه علماء البلاغة : من تخريج هذا المعنى ، على ما يخرّجون عليه من قولهم : إن اسم الفاعـل : « راضية » هو معدول به عن اسم المفعول « مرضىّ » أى مرضى عنها — ففيه إفساد للمعنى الذى تحمله المعجزة القرآنية فى كلمة « راضية » وحجبٌ لوجهها المعجز الذى رأيناها عليه ، فقد تـكون المعيشة مرضية ، وهى فى حقيقتها تافهة لا تتعلق بها إلا النفوس الصغيرة ..

وقوله تعالى : « فى جنة عالية * قطوفها دانية » ـ هو بيان لتلك

المعيشة الراضية ، وكشف عن وجهها الكريم .

وأين يجدها الذين وعدهم الله بها ؟ إنها فى جنة عالية ، علوّا حسيا ، ومعنويا ، وإن قطوفها — أى ثمارها — دانية لمن يعيشون فيها ، فليس علوّها هذا بالذى يُبعد ثمرها عنهم .. بل إن ثمرها دانٍ قريب ، يجده طالبه حاضراً عتيداً بين يديه فى أى وقت يشاء .. كما يقول سبحانه : « ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا » (١٤ : الإنسان) .

فهذه هى المعيشة الكريمة الراضية ، التى تتعلق بها النفوس الكبيرة ، وتتطلع إليها الهمم العالية . .

قوله تعالى :

* « كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية » .

الخطاب هنا لأصحاب اليمين جميعاً ، وقد استقر بهم المقام الكريم فى الجنة ، واجتمع بعضهم إلى بعض ، وسَعِد بعضهم بلقاء بعض ، ونازع بعضهم بعضاً طيباتِها وثمراتِها . . ففى هذه المشاركة رضاً إلى رضاً ، وسعادة إلى سعادة ..

وقوله تعالى : « بما أسلفتم فى الأيام الخالية » — إشارة إلى ما كان من المؤمنين من أعمال طيبة صالحة فى الأيام الخالية ، أى الحياة الدنيا ، التى خلّفوها وراءهم ..

فالباء فى قوله تعالى : « بما أسلفتم » باء السببية .. أى « كلوا واشربوا هنيئاً » أى طيباً ، لا ينالكم مما تأكلون أو تشربون تخمة أو سوء هضم ، أو نحو هذا ، مما يقع للآكلين والشاربين فى الدنيا ، وذلك بسبب ما قدمتم

فى أيام حياتكم الدنيا ، من صالح الأعمال .. « إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً » . (٢٢ : الإنسان)

قوله تعالى :

* « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * ياليتها كانت القاضية » ..

هذا هو الوجه المقابل لأصحاب اليمين ، وهم أصحاب الشمال ..

وقد جاء بهم النظم القرآنى أفراداً لا جماعات ، كما جاء بأصحاب اليمين أفراداً كذلك ، لأن الحساب يوم القيامة ، إنما يقوم على هذا الوجه ، وهو أن يحاسب كل إنسان بما عمل ، كما يقول سبحانه : « وكلهم آتيهِ يوم القيامة فرداً » (٩٥ : مريم) ..

فكل من أوتى كتابه بشماله ، يلقاه هذا الكتاب بالحكم المحكوم به عليه ، وهو أنه من أصحاب النار ، فلا يكاد يقع ليده حتى يستبد به الهلع والفزع ، ويركبه جنون الهول ، فيظل يهذى ، ويعوى ، حتى تتقطع أنفاسه . . « ياليتنى لم أوت كتابيه • ولم أدر ما حسابيه » .. فلقد كان الأمر مستوراً عنه قبل هذا الكتاب ، فلما جاء الكتاب طلع عليه بهذا البلاء المبين . . فلقد عرف حسابَه ، وإنه لحساب خاسر ، يهوى به إلى عذاب السعير . . ! ! وأين المفر ؟ إنه لا مفر إلا بالموت . . « ياليتها كانت القاضية » . . ولكنها أمنية لن تتحقق أبداً . . فما أقسى الصبر على هذا البلاء ، وما أشد الوقوع فى هذه المحنة التى يُشتهى الموت فراراً منها ! !

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

قوله تعالى :

* « ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه » .

هو من هَذَيان هذا الشقىّ ، الذى أحاطت به خطيئته . . إنه طلب الموت فما وجده . . وطلب ماله ليفتدى به نفسه من هذا العذاب ، فما رآه . . واستنجد بكل ما كان له من قوة ، وجاه ، وسلطان ، فلم يسعفه شىء . . « هلك عنّى سلطانيه » . . !

وفى التعبير بقوله : « هلك » بدلا من ذهب . . إشارة إلى أن هذا السلطان لن يلقاه أبداً ، ولن يعود إليه بحال . . لقد هلك ، وما كان لهالك أن يتعلق به أمل . .

قوله تعالى :

* « خذوه فغلّوه * ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » .

إنه بعد أن تُرِك هذا الشقىّ الأثيم ، يهذى ويعوى ، ويلهث ، باحثاً فى كل وجه ، متطلعاً إلى كل أفق ، يطلب وجهاً للخلاص من هذا البلاء ـ إنه بعد أن ترك هكذا حتى تقطعت أنفاسه ، وسقط إعياء ـ لم يترك لشأنه هذا ، وما هو فيه من بلاء ، بل قَرَع أذنَه هذا الصوت الآمر ، بِأخذه ، ووضع القيد فى عنقه ، ثم سحبه إلى جهنم ، وربطه هناك فى سلسلة طولها سبعون ذراعاً ! !

وهل بقى مع هذا الشقىّ قوة ، حتى يُخشى من أن يفرّ من هذا المصير المساق إليه ؟ إنه لا يقوى على الحركة ، فكيف يفرّ ؟ وإن فرّ ، فإلى أين ؟

ولكن هذا القيد الذى أحاط بعنقه ، وهذه السلسلة الطويلة التى يسحب منها ، إنما هو إذلال له ، وامتهان لكرامته بين الناس ، ومعاملته معاملة الحيوان الذى يقاد من مِقوده ، ويربط فى حظيرته . .

ولا نتجاوز بالحديث عن هذه الأدوات الجهنمية ، من قيود ، وسلاسل ، ومقامع ، وغيرها من أدوات النكال والتعذيب ـ لا نتجاوز بها الحدود التى يتسع لها اللفظ القرآنى . . فهناك ـ يقيناً ـ أدوات عذاب ـ وقانا الله شرها ـ من سلاسل ، وأغلال ، ومقامع ، وطعام من زقوم ، وشراب من حميم ، وغير ذلك مما ورد ذكره فى القرآن الكريم . . ولكن ما صفة هذا ؟ ولم كان طول السلسلة سبعين ذراعاً ؟ . هذا مالا نتكلف البحث عنه ، وطلب الجواب له . . ! وحسبنا أن نقول كما علمنا الله أن نقول فى مثل هذا المقام : « آمنّا به كل من عند ربنا » (٧ : آل عمران) .

قوله تعالى :

* « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحضّ على طعام المسكين » .

هو بيان السبب الذى من أجله صار هذا الشقىّ إلى هذا المصير المشئوم . .

« إنه كان لا يؤمن بالله العظيم » الذى مَلَكَ بعظمته وسلطانه أمر هذا الوجود ، والتصرف فيه كما يشاء ، دون أن يكون لأحد سلطان معه .

وفى وصف الله سبحانه وتعالى بالعظمة هنا ، إشارة إلى أن هذا اليوم ـ يوم القيامة ـ يتعرّى فيه كل ذى سلطان من سلطانه . . فقد كان الناس فى الدنيا، شىء من الإرادة ، والتصرف ، والملك والسلطان ، ولكنهم فى هذا اليوم سُلبوا كل شىء ، وتعرّوا من كلّ شىء . . ولهذا يقول الحق سبحانه فى هذا اليوم : « لمن الملك اليوم ؟ » فيجيب الوجود كله : « لله الواحد القهار » .

وفى قوله تعالى . . « ولا يَحضّ على طعام المسكين » . . إشارة إلى ما لرعاية المساكين والعطف عليهم من تقدير واعتبار ، فى مقام الإيمان ، حيث جاء ذلك بعد الإيمان بالله ، معطوفاً عليه ، وموازناً له . . وهذا يعنى أن من الإيمان بالله العطفَ والإحسان إلى عباد الله ، إذ كان هؤلاء المساكين هم ضيوف الله ، فمن أكرمهم لله ، أكرمه الله ، ومن أهانهم ، وأمسك يده عنهم ، أهانه الله ، وأمسك رحمته عنه .

والحضّ على الشيء : الحثّ عليه ، وإغراء الغير به . .

وفى التعبير عن الدعوة إلى إطعام المسكين ، بلفظ « الحضّ » .. إشارة إلى ما فى الطبيعة الإنسانية من شحّ وبخل ، وحبّ للذات .. وأن الإحسان إلى الفقراء لا يكون إلا عن مغالبة هذه الطبيعة ، وحمل النفس على ما يخالف هواها.. وهذا إنما يكون عن مراودة بين الإنسان ونفسه ، وحثها على البذل والسخاء.

ثم إن فى بذل الإنسان ، وسخائه فى وجوه البر والمعروف ، حضّا صامتا على إشاعة الإحسان بين الناس ، حيث يرى فيه الناس قدوةً حسنة فى هذا المقام .

قوله تعالى :

« فليس له اليوم ههنا حميم * ولا طعام إلا من غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون » .

فهذا هو جزاء من لم يؤمن بالله العظيم ، ولم يحضّ على طعام المسكين . . إنه لا صديق له يدفع عنه هذا العذاب ، لأنه لم يكن له من عباد الله صديق ينال من خيره وبرّه . فإذا ضاقت به الحال فى هذا اليوم ، فإنه لا يجد المعين الذى يعينه ، لأنه لم يقدم لأحد عوناً فى حياته الدنيا . .

ثم لأنه لم يطعم المسكين ، وتركه بمضغ الجوع ، والحرمان ـ فليس له فى هذا اليوم طعام إلا من غِسلين ، أى من صديد ، مما يفرزه المعذّبون بنار جهنم . فهو يتغذّى من هذه الإفرازات الذاتية التى تُفرز من جسده المحترق ، كما ترك هو الجائعَ المسكين يتغذّى من داخل جسده ، ويأكل بعض أعضائه بعضا ..

وقوله تعالى : « لا يأكله إلا الخاطئون » هو وصف لهذا الطعام الجهنمىّ . . إنه طعام أصحاب الخطايا والآثام ، طعام المجرمين ، لا طعام لهم إلا هذا الطعام ، وما أشبهه !

هذا ، وفى خطاب أصحاب اليمين بلفظ الجمع فى قوله تعالى : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية » .. مضاعفة لنعيمهم ، وزيادة فى تكريمهم ، إذ يجمعهم الله على بساط هذا النعيم ، حيث يأنس بعضهم ببعض ، وحيث يتنازعون كئوس الخمر التى يطوف عليهم بها الولدان المخلدون . . « على سرر موضونه متكئين عليها متقابلين » .

وعلى عكس هذا ، قد أفرد أصحاب الشمال فى عـذاب الجحيم ، وحتى لكأنما كل واحدمنهم قد اشتمل عليه العذاب وحده ، لا يشاركه فيه أحد ، مما قد يكون مصدر عزاء له .. وفى هذا مضاعفة لعذابه ، وبلائه . . « خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » . . إن هـذا أشبه بالحبس الانفرادى ، الذى يعانى فيه أهله ، تلك الوحشة القاتلة ، التى تجمع هموم الدنيا كلها فى قلوبهم ، غيرَ مشارِك لهم فيها أحد . .

الآيات : (٣٨ — ٥٢)

* « فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ

رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون » .

القسم هنا منفى بلا النافية فى قوله تعالى « فلا أقسم » وليست « لا » زائدة كما يذهب إلى ذلك كثير من المفسرين.. فنحن على رأى واحد فى أن لا زيادةَ فى حرف أو كلمة فى نظم القرآن !

وهذا القسم المنفى . إما أن يكون نفيه لأن المقسَم عليه ، وهو القرآن الكريم ، وبأنه قول رسول كريم ـ حقيقة ثابتة ، ظاهرة ، لا تحتاج إلى قسم . .

وإما أن يكون المقسَم لهم ـ وهم هؤلاء ـ المشركون ، لا يصدّقون بهذا الحديث ، سواء حُلف لهم عليه أم لم يُحلف .. وإذن فالأوْلى أن يكون الحديث إليهم مرسَلا من غير قسم ، لأن من لا يُصدق المتحدِّث إليه ، بغير قسم ،

لا يصدقه إذا هو أقسم ، بل إن القسم ربما زاد من شكوكه فى صدق من يحدّثه.

والذى نبصره ، هو ما يقع تحت حواسنا ومدركاتنا من هذا الوجود ؛ والذى لانبصره ، هو ما لا يقع تحت الحسّ والإدراك ، وهوهذا الوجودالعظيم ، الذى مبلغ علمنا به لا يتجاوز قطرة من محيطات . .

وقوله تعالى :

* « إنه لقول رسول كريم » .

هو المقسَم عليه . . وهو القرآن الكريم ، وأنه قول رسول كريم .

والرسول الكريم ، هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى يحدّث القومَ بآيات الله التى يتلوها عليهم . .

ونسبة قول القرآن الكريم إلى الرسول ، لأنه هو الذى يتحدث به ، ويبلغه إلى الناس ، على أنه كلام الله ، ومن عند الله . .

فمعنى القول هنا « البلاغ » . . أى هذا القرآن هو بلاغ من رسول كريم ، لا أنه من كلامه هو ، ولهذا جاءقوله تعالى بعد ذلك :« تنزيل من رب العالمين» ليقرر هذه الحقيقة ، كما جاء بعد هذا قوله سبحانه : « ولو تقوّل علينا بعضَ الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين » ليؤكد هذه الحقيقة ، ويقطع كل شبهة بأن لرسول الله شيئاً من هذا القرآن الذى يتلوه على الناس ، وإنما هو من كلام ربّ العالمين . .

وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بقوله تعالى : « إنه لقول رسول كريم » جبريل عليه السلام ، أمين الوحى . .

وهذا ـ والله أعلم ـ مما يحتمله النظم القرآنى ، وإن كان الأولى عندنا أن يكون المراد بالرسول الكريم ، هو رسول الله ، إذ كان الموقف هنا موقف دفاع عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وردّا على اتهام المشركين له بأنه كاهن ، وبأنه شاعر . فكان المقام يقضى بأن يوضع الرسول بوضعه الصحيح ، وهو أنه رسول كريم ، وأن ما ينطق به ليس من منطق الكهانة ولا الشعر ، وإنما هو منطق مبعوث كريم من ربّ العالمين ، يبلّغ ما أرسل به إلى عباد الله .

وفى وصف الرسول بأنه « كريم » ـ إشارة إلى أنه يقدّم هذا الخير العظيم للناس ، فى سخاء ، ويبذله ، فى غير منّ ، لا يطلب عليه أجراً . .

قوله تعالى :

* « وماهو بقول شاعر . . قليلا ما تؤمنون » .

هو نفى لتهمة الشعر التى يُلصقها المشركون بالقرآن . . فالرسول ليس بشاعر ، وما ينطق به ليس من باب الشعر ، ولا من واردات الشعراء أبداً . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » (٦٩ : يس)

وقوله تعالى : « قليلا ما تؤمنون » . . أى أنه مع وضوح هذه الحقيقة وضوحاً لا يحتاج إلى طول بحث ، ومعاناة نظر ، فإنكم أيها المشركون تمارون فى هذه الحقيقة ، وترفضون الإيمان بها ، وإن وقع لكم شىء من الإيمان بأن هذا الكلام ليس من أودية الشعر ، فإنه سَرعان ما يغلبكم الهوى ، ويطغَى عليكم الضلال ، فتركبون الحماقة ، وتردّدون هذا القول الذى يكذبكم به الواقع المحسوس ، إذ كان إيمانكم إيماناً قليلا . . فى كيْفِه وكمّه . .

قوله تعالى :

* « ولا هو بقول كاهن . . قليلا ما تَذَكرون » . .

أى وليس هذا القرآن من قول كاهن ، لأن لغة الكهانة لغة غامضة ، مُعَمّاة بالألغاز ..وهذا كلام عربىّ مبين . .

وقوله تعالى : « قليلا ما تذكرون » استبعاد لهم من أن يرجعوا إلى عقولهم ، وأن يعرضوا عليها هذا الذى يسمعونه من آيات الله ، وهذا الذى يحفظونه من مقولات الكهان ليروا بُعدَ ما بينهما ، وأنه إن كان لهم من هذا ذكر ، فهو أشبه بأطياف الأحلام ، لا يلبث أن تم فريسة للجهل والغفلة . .

قوله تعالى :

* « تنزيل من رب العالمين » .

هو قولة الحقّ فى القرآن الكريم ، وأنه منزل من رب العالمين ، ليس من كلام بشر ، أيًّا كان ، شاعراً ، أو كاهناً ، أو حكيما ، أو عالمًا . .

قوله تعالى :

* « ولو تقول علينا بعض الأقاويل • لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين » .

هو استبعاد لأن يكون من رسول الله فى هذا القرآن كلمة من عنده ، أضافها إليه ، ثم أسندها إلى الله .. فإنه لو فعل ذلك ـ ومحال أن يفعله ـ لكان عقابه أشد العقاب من الله .. « لأخذنا منه باليمين » أى لأمسكنا به من يمينه . . « ثم لقطعنا منه الوتين » أى لذبحناه ، وقطعنا وريده ، الذى هو ينبوع الحياة . ثم لم يكن لأحد منكم أن يمنع عنه هذا العقاب الذى تأخذه به ، ويحجز بينه وبين الجزاء الذى نوقعه عليه . « فما منكم من أحد عنه حاجزين »

وإذن ، فلم يَكذِب محمد ؟ ولم يقول على الله مالم يقله الله ؟

ألأجل نفسه يفعل هذا ؟ إنه لم يطلب أجراً ، ولم ينل منكم كثيراً أو قليلا . . بل كل ما كان له منكم هو هذا الأذى المتصل ، وتلك السفاهة الحمقاء .. أم لأجلكم أنتم كان هذا الافتراء ؟ ولم يُعرّض نفسه لانتقامنا ، وأنتم لن تدفعوا عنه ما نأخذه به من عقاب ؟

إن الذى يغامر هذه المغامرة ، إما إن تكون لحساب نفسه ، ومن أجل هذا يحتمل مايحتمل فى سبيلها . . وإما أن يكون لحساب غيره الذى يجد منه الحماية ساعة الخطر . .

فإذا لم يكن هذا أو ذاك ، فإنه يصبح من المحال أن تقع منه تلك المغامرة بالافتراء على الله ، لغير سبب معقول ، أو حكمة ظاهرة .

قوله تعالى :

* « وإنه لتذكرة للمتقين » ..

هذا هو القرآن الكريم .. إنه ليس بقول شاعر ، ولا بقول كاهن ، ولا متقوّل من رسول الله على الله ، وإنما هو تنزيل من رب العالمين . . وهو تذكرة للمتقين ، يذكرهم بما فى فطرتهم السليمة ، من إيمان بالله ، وتقبّل للحق والخير .. فهل بقى لكم من فطرتكم — أيها المشركون — شىء تلتقى به مع الحق ، وتؤمن به ؟

قوله تعالى :

* « وإنا لنعلم أن منكم مكذبين » .

هو تهديد لهؤلاء المشركين ، الذين يكذبون بآيات الله ، وأن الله سبحانه وتعالى يعلم المكذبين بهذا الحديث ، والمتهمين للرسول ، وإن وراء هذا العلم

حساباً، وجزاء، وعذاباً أليماً .. وفى خطاب المشركين بأن منهم مكذبين .. إشارة إلى أن كثيراً منهم كان يعلم صدق النبى، ولكن الكبر والعناد يحولان بينهم وبين الخضوع للحق، والولاء له، كما يقول سبحانه: «فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون» (٣٣: الأنعام).

قوله تعالى:

* «وإنه لحسرةٌ على الكافرين» ..

وأى وإن هذا القرآن لحسرة على الكافرين، يومَ ينكشف لهم أنهم بتكذيبهم له، وكفرهم به، قد وردوا النار، وألقوا فى العذاب المهين .. فتمتلىء لذلك قلوبهم حسرةً وكمداً، لأنهم لم يؤمنوا به، ولم يأخذوا طريق النجاة على هُداه .. لقد كان مركب نجاة أقلعت، ولن يلحقوا بها ..

قوله تعالى:

* «وإنه لحقُّ اليقين» ..

أى هذا القرآن هو حق من حق .. وأنه الحق المستيقَن، الذى لايأتيه باطل من بين يديه ولا من خلفه .. وفى إضافة الحق إلى اليقين، إشارة إلى أنه من موارد اليقين، وأنه حق هذا اليقين، وخلاصة مافيه .. فهو حق مصفًّى من حق، إن كان الحق فى حاجة إلى تصفية!!

قوله تعالى:

* «فسبح باسم ربك العظيم».

هو دعوة للرسول الكريم أن يلقى هذه المِنّة العظيمة بنزول القرآن عليه، بتسبيح ربه العظيم، وبحمده، وتنزيهه، والولاء له .. فهذا هو بعض ماينبغى فى مواجهة نعم الله، وفى مقام الشكر عليها ..

وإذا كان القرآن الكريم هو مأدُبة الله التي يَطعم منها المؤمنون ، وينالون منها الشِّبَع لقلوبهم ، والريّ لأرواحهم ـ فإن التسبيح باسم الله العظيم مطلوب منهم ، بعد هذا الشبع ،وذلك الرى ، للقلوب والأرواح .. فلينتظموا صفوفاً وراء إمامهم الكريم ، رسول الله ، وليسبحوا معه باسم ربهم العظيم . .

والتسبيح باسم الله ، هو تسبيح لذات الله سبحانه وتعالى ،في اسمه الكريم ، أما ذاته سبحانه فلا يعرف لها كنه ، ولا يقع لها في العقل تصور ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

* * *

٧٠ – سورة المعارج

نزولها : مكية .. نزلت بعد سورة الحاقة ..

عدد آياتها : أربع وأربعون آية ..

عدد كلماتها : مائتان وثلاث عشرة كلمة . .

عدد حروفها : سبعمائة وسبعة وخمسون حرفاً ..

مناسبتها لما قبلها

كان مما تحدثت عنه آيات سورة « الحاقة » مايلقى الكافرين من عذاب ونكال يوم القيامة .. وأنهم يُسحبون فى سلاسل إلى النار ، ويُسجرون فيها ، ثم يطعمون غسلينها وزقومها ..

وهذا الحديث عن النار ، وما يلقى فيها المكذبون بآيات الله وبرسل الله ، من عذاب وهوان ــ هذا الحديث لايلقى من المشركين إلا الهزء والسخرية ، والتحدّى ، لأنهم لايؤمنون بالبعث ..ومن ثَم فلا يصدقون بما وراء البعث من من حساب وجزاء . . وإنه لتبلغ بهم الجرأة فى التكذيب أن يقول قائلهم : « اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » (٣٢ : الأنفال) .

ولهذا جاءت سورة « المعارج » مفتتحة بهذا الوعيد ، لتواجه به المكذبين بيوم القيامة ، ولتلقاهم بالعذاب الذى أنذروا به ، والذى يستعجلونه ، هزؤاً به ، وسخرية منه .

وبهذا نجد التلاحم بين السورتين ، أكثر من أن يكون تلاحم جوار ، وإنما هو تلاحم نسب وقرابة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٨)

* « سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ ٱلْمَلَآئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ (٩) وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ (١٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « سأل سائل بعذاب واقع » ..

لم تذكر الآية الكريمة اسم هذا السائل ، بل جاءت به منكّراً هكذا : « سائل » ـ لأنه لايعدو أن يكون واحداً من هؤلاء السفهاء ، الرقعاء ، الذين ركبهم الجهل ، والغرور ، حتى لقد خيل إليهم أنهم أوتاد هذه الأرض ، وأنهم

لو أخلوْا مكانهم منها لفسد نظام الـكون ، واضطرب أمر الناس !!

والسؤال من السائل هنا ، هو سؤاله عن هذا العذاب : متى هو ؟ وهو المنـكِر لما يَسأل عنه ، وكأنه بهذا الإنكار ، إنما يهتف به أن يأتيه الآن ، وأن يقع به فى الحال .. إنه على استعداد لاستقبال هذا العذاب ، لأنه على يقين من أنه شىء لا وجود له ! ..

وفى تعدية الفعل «سأل» بحرف الباء ، مع أنه يتعدى بالحرف « عن » ـ إشارة إلى تضمن الفعل معنى المطالبة بهذا العذاب ، والهتاف به ، كما يقول الله سبحانه وتعالى على لسان هؤلاء المشركين : « فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » (٣٢ : الأنفال) فـكأنّ المعنى: طلب طالب ، ودعا داع بالعذاب الواقع .

وقوله تعالى :

* « للـكافرين ليس له دافع » هو ردٌّ على هذا السؤال المتحدِّى ، المنكر .. أى أن هذا العذاب هو معدّ للـكافرين ، مقبل إليهم ، لا يدفعه عنهم دافع ..

وقوله تعالى

* « من الله ذى المعارج » متعلق بمحذوف ، تقديره : مرسل عليهم من الله ذى المعارج ..

والمعارج الأماكن المرتفعة ، التى يكون الصعود إليها دائريًّا ، كالصعود إلى المئذنة ونحوها ، ومنه قوله تعالى : « ومعـارجَ عليها يظهرون » (٣٣ : الزخرف) ..

وفى الآية الكريمة إشارة إلى أن العروج إلى السماء ، لا يكون فى خط عمودى ، وإنما فى خطوط مقوسة ، داخل قبة الفلك ، التى تمثل دائرة عظيمة لا نهاية لها ..

وفى جمع « المعارج » إشارة أخرى إلى أن هناك أكثر من مَعْرج ، وأن لكل سماء معرجها الذى يُعرج إليها منه ، أشبه بالمبنى ذى الطوابق العديدة ، لكل طابق معرج يُعرج فيه إليه ..

ووصف الله سبحانه وتعالى بأنه ذو المعارج ، إشارة ثالثة إلى علو سلطانه، وأن العذاب المرسل منه إلى الكافرين ، عذاب يسقط عليهم من سموات عالية ، فلا يمكن لقوة أن تحول بينه وبين أن يهوى على رءوس الكافرين .. إنه أشبه بالأحجار التى تهوى من السماء على رءوس من هم فى دائرة سقوطها ..

قوله تعالى :

* « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة .. »

هو إشارة إلى مدى هذا العلو الذى لتلك المعارج ، التى يقوم عليها سلطان الله ، وأن الملائكة والروح ، تصعد هذه المعارج فى يوم .. ولكن أى يوم هو ؟ إنه يعدل خمسين ألف سنة من أزمان الدنيا .. أى أن ما يقطعه المَلَك فى عروجه إلى السماء فى يوم واحد ، يقطعه الإنسان فى خمسين ألف سنة بأقوى ما يمكن أن يتوسل به من وسائل ، من صواريخ ، ومركبات كوكبية وغيرها ..

والمراد بالروح ، إما أن يكون جبريل عليه السلام ، أو أرواح البشر ، أو مخلوقات من عالم الروح غير الملائكة . والمراد بهذا أنها مخلوقات ذات سرعة مطلقة من غير قيد المادة ومعوقاتها .. إنها أرواح ، لا أجساد لها ..

وقوله تعالى :

* « فاصبر صبراً جميلا » ..

هو تطمين للنبيّ ، وتسرية عنه ، لمـَا يلقى من عناد قومه ، واستهزائهم به ، تحديهم للعذاب الذى ينذرهم به .. إن عليه أن يوطن نفسه على الصبر ، والصبر الجميل ، الذى لا يصحبه ضجر أو ملل ..

ثم إن هذا الخطاب للنبي الكريم ، فيه تهديد المشركين المكذبين ، بما سيقع بهم وراء هذا الصبر الذى يلقاهم النبيّ به ، محتملا لسفاهتهم ، وسخريتهم .. فهو كقوله تعالى : « فمهل الكافرين أمهلهم رويدا » (١٧ : الطارق)

قوله تعالى :

* « إنهم يرونه بعيداً * ونراه قريباً * »

الضمير فى « يرونه » يعود إلى العذاب الواقع بالكافرين ، المرسل عليهم من الله ذى المعارج ..

فالمشركون المكذبون باليوم الآخر ، يرون العذاب بعيدا ، أى بعيد الوقوع ، بُعداً يبلغ حد الاستحالة ، أو يرونه بعيدا ، لأنه إذا جاء فإنما يجىء يومَ القيامة ، التى لا يدرى أحد متى تكون على فرض وقوعها .. فهذا الزمن المجهول ، يبدو بعيدا بحيث يكون من العبث أن يرجو منه المرء خيرا ، أو يخشى منه شرا .. هكذا يقوم حساب هذا اليوم عند اللاهين والغافلين ، الذين لا يعيشون إلا ليومهم .. « يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام .. والنار مثوًى لهم » . (١٢ : محمد)

وقوله تعالى : « ونراه قريباً » أى أنه وإن بدا هذا اليوم بعيداً فى نظر المشركين والمكذبين ـ هو فى حقيقته قريب ، وأنه إذا طلع عليهم بعد آلاف السنين ، بدا لهم أنه ابن يومهم هذا الذى هم فيه .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاّ عشيةً أو ضحاها » (٤٦ : النازعات) .

قوله تعالى :

* « يوم تـكون السماء كالمهل * وتـكون الجبال كالعهن » .

هو بيان للأحداث التى تقع يوم القيامة ، يوم العذاب الذى ينتظر أهلَ الشرك الضلال .

فى هذا اليوم ، تـكون السماء « كالمهل » وهو خُثارة الزيت ، بعد غليانه ، وتـكون الجبال « كالعهن » وهو الصوف المصبوغ بلون الحمرة ، بعد أن ينفش وتنحلّ أجزاء بعضه عن بعض . .

وفى تشبيه السماء بالمهل ، والجبال بالعهن ، وما يغلب على التشبيهين من لون الحمرة ـ فى هذا إشارة إلى تغير طبيعة لون الجوّ ، فى مرأى العين ، وذلك حين يكون موقع النظر من خارج الغـلاف الجوى للأرض ، حيث تبدو السماء ، والأرض ، مكسوّتين بلون أشبه بلون الأفق الداكن بعد الغروب ، أو قبل الشروق . .

هذا ، وقد عرضنا الحديث فى أكثر من موضع عن هذه التغيرات التى تحدث يوم القيامة ، فى العالم الأرضى ، وما يتصل به من عوالم السماء ، وقلنا إن هذه التغيرات إنما هى واقعة بالنسبة لإحساس الإنسان يومئذ بها ، نتيجة لتغيّر موقفه من الأرض ، وتغير طبيعته بعد البعث . . أما عوالم الوجود فى الأرض وفى السماء ، فإنها تجرى على ما أقامها الله سبحانه وتعالى عليه . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « يوم تُبدّل الأرض غيرَ الأرض والسموات » (٤٨ : إبراهيم) .

فهذا التبدّل هو تبدّل فى مدارك الإنسان لهذه العوالم ، لتبدّل موقفه منها ، ورفع الغطاء الـكثيف الذى كان على بصره وبصيرته فى الحياة الدنيا .

وقوله تعالى :

* « ولا يَسأل حميم حميا » ..

أى فى هذا اليوم ، لا يسأل صديق عن صديق ، ولا يلتفت قريب إلى قريب ، لما يواجه الناس يومئذ من أهوال ، وما يحيط بهم من كروب .

قوله تعالى :

* « يبصرونهم . . يودّ المجرم لو يفتـدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تُؤْويه * ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه . » .

هو بيان للحال التى يكون عليها الناس يوم القيامة ، وأن كلّ إنسان مشغول بنفسه ، لا يسأل عن أحد ، ولا يسأل عنه أحد . . إن كان من الناجين مضى إلى مرفأ النجاة ، ناجياً بنفسه ، دون أن يلتفت إلى وراء ، أو عن يمين أو شمال . . وحسبه أنه نجا . . وإن كان من الهالـكين فحسبه ما يعانى من شدّة وبلاء . . « لـكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » . . (٣٧ : عبس)

وقوله تعالى : « يبصرونهم » . . أى يرونهم رؤية كاشفة لأحوالهم وماهم فيه من كرب وبلاء . . وضمير الرفع « الواو » وضمير النصب « الهاء » فى « يبصرونهم »، يعودان إلى « حميم » و « حميا » ، لأن كلاًّ منهما فى معنى الجمع ، وإن كان مفرداً ، لأنه نـكرة تفيـد الاستغراق فى حال النفى . . والتقدير أنه لا يسأل الأصدقاء أصدقاءهم ، لأن كلاًّ من طرفى التساؤل ، على حال واحدة ، من الوجوم ، والاشتغال بالنفس عن الغير ، فالجميع فى هذا اليوم على سواء فيما يذهلهم من هموم ، فلا سائلَ ، ولا مسئول . وفى الفعل «يُبصرونهم » ما ليس فى الفعل « يُبْصِرُونهم » وذلك :

أولا : أن يبصّرونهم يفيد أن أهل الموقف ـ لما هم فيه من بلاء ـ لا يكادون يبصرون شيئاً . . ولكن كأن قوة خارجة عنهم تحملهم حملا على أن يفتحوا أعينهم على هذا المكروه الذى يحيط بهم ، ويهجم عليهم . .

وثانياً : أن يبصّرونهم ، تجعل المُبصِرين والمبصَرين على سواء ، فكل منهم يبصِر ، ويبصَر ، فى حال من الفزع والهلع ، لاتدع لأىّ سبيلا إلى الاختيار فيما ينظر إليه . .

وقوله تعالى : « يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه . . . » هو حال من ضميرى الرفع والنصب فى يبصرونهم . . أى أنه يبصر بعضهم بعضاً ، ويكشف بعضهم حال بعض ، فى حال يود فيها المجرم لو يفتدى من عذاب هذا اليوم ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعاً . .

[من الإعجاز النفسىّ . . فى القرآن]

ولابد من وقفة هنا بين يدى قوله تعالى :يودّ المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التى « تؤويه ، ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه » . . حيث نجد صورة من صور الفرار من الخطر ، يتخفف فيها الإنسان مما بين يديه من كل عزيز عليه ، غال عنده ، ولكنه محمول على هذا تحت وطأة البلاء المحيط به . . ولهذا فهو لا يُلقى بكل مدخراته جملة واحدة ، وإنما يُخلى يدَه من بعض ، ويشدّ يده على بعض ، حتى إذا لم يجد فيما فعل ما يخفف عنه البلاء ، ألقى بكل مامعه جميعاً ، لعله يجد فى هذا طريقاً للإفلات من يد هذا الخطر المطلّ عليه . .

والفِرار من الخطر ، وطلب النجاة من مواطن الهلاك ، غريزة مركوزة

فى الكائن الحىّ ، يقوم عليها بقاؤه وحفظ نوعه . . وإنه حين يفقد الكائن الحىّ فَعالية هذه الغريزة ، يفقد الحياة فى أولى خطواته على طريقها .. سواء فى ذلك الإنسان ، أو الحيوان ، وحتى النبات . . وأكاد أقول والجماد أيضاً ! ! . .

والإنسان بما فيه من عقل وذكاء ، قد مكّن لهذه الغريزة فى كيانه ، وأقام منها حارساً يقظاً عليه ، ووضع بين يدى هذا الحارس أكثر من سلاح يدفع به أى خطر يقع ، أو يتوقع أن يقع . .

وفى الآخرة أهوال تأخذ الناس بالنواصى والأقدام .. (إن زلزلة الساعة شىء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سُكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) (١ — ٢ : الحج) .

فى هذا الموقف الرهيب ، يُساق المجرمون ، والعصاة ، إلى ساحة القِصاص ، حيث يرون رأى العين مصيرهم الذى هم صائرون إليه ، والمنزل الذى سينزلونه من جهنم ، التى إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيراً . .

إن القلوب لتنخلع من هذا الهول ، إن كان هناك قلوب لم تذهب بها مطالع الأهوال ، ولم تفتتها الآلام والحسرات ..إنها حال لا يمكن أن تتصورها العقول ، ولا أن يحيط بها وصف ، لأنها مما لن يقع إلا فى هذا اليوم .

هناك صراخ وعويل، وزفرات وأنين، ولهفات وحسرات ، يختلط بعضها ببعض ، فتملأ أسماع العالمين بهذه المناحة المروّعة ، التى تزيد فى الآلام، وتضاعف من العذاب !.

وأين المفر ؟

إنه لا مفر من النار إلا إلى النار ، ولا مفزع من البلاء إلا إلى البلاء ! .

ومع هذا اليأس القاتل ، فإن قسوة العذاب ، وشدة البلاء ، تحمل المجرمين على أن يفزعوا إلى أى مفزع ، ويتجهوا إلى أى متجه .. إنها محاولات لا بدّ منها ، وحركات تجرى فى النفس ، ولا تتخذ لها طريقاً عمايا ، حيث اليأس المطلق ، الذى لا يلوح فى سمائه المتجهمة بصيص من أمل ، ولا أثر لرجاء ..

وننظر فى هذه الصورة المعجزة ، التى صورها القرآن الكريم لمسارب النفوس ومجرى الخواطر ، فى زحمة هـذا المعترك الضنك الذى تبلغ فيه القلوب الحناجر ..

إنه لو قُدر لآلات التصوير السينمائى أن تدخل إلى عالم النفس ، فترصد حركاتها ، وتكشف عن خفاياها ، لمَا أمكنها أن تأتى بما يقرب من هذه الصورة القرآنية فى إحكامها ، ودقتها ، وصدقها ، وإحاطتها الشاملة بما تكنّ الضمائر ، وما تخفى الصدور ..

وننظر فى الصورة القرآنية ، التى عرضتها الآيات الكريمة .

(يودّ المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه . كلا .. إنها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى) . .

إن الإنسان هنا فى فم الهلاك ، وفى دائرة العذاب المطبق عليه . . و إن لذعة العذاب لتُخرج الإنسان عن نفسه ، وتجعل أعضاءه — فى متدافع هذا العذاب ـ يرمى بعضها بعضاً ، ويتّقى بعضها ببعض .. إنه لاشىء يحرص عليه

الإنسان هنا .. إن أقرب شىء إليه ، وأعزّه إلى نفسه ، ليقدّمه فى غير وعى ، ليدفع به هذا العذاب الذى يأكله ، كما تأكل النار الحطب ! إنه لا يملك غير نفسه ، وقد احتواها العذاب ! فهل يحرص بعد هذا على شىء ؟ .

إنه يود أن لو كان بين يديه أبناؤه .. إذن لا تقى بهم هذا العذاب ، ولجعلهم دريئةً له ، يتلقون عنه ألسنة اللهب ، ووهج السعير ..

ولكنه إذ يرمى بأبنائه فى جهنم ثم لا يجد فيهم غَناء ، يمد يده إلى من هم أبعد إليه منهم .. إنها صاحبته ، أى زوجه ، وأم بنيه ، ثم هى زوج وصاحبة معاً ، قد سَكَن إليها ، وتعلق قلبه بها ، وليست مجرد زوجة ! .

ثم ماذا ؟ إنها لم تغن عنه شيئاً .. وها هو ذا يمدّ يده إلى من هم أبعد من بنيه ، وصاحبته .. إلى أخيه .. ثم إلى أهله وعشيرته .. ثم إلى كل من تَطُوله يده من قريب أو بعيد .. ثم لا يزال هكذا حتى يأتى على كل ما فى الأرض ، من أنفس ، ومتاع ..

إن هذا الترتيب المتتابع فى تقديم ضحايا الفداء ، لا يمكن أن يقع على هذا الوجه إلا بحساب دقيق محكم لاتجاهات النفس ، وإلا بتقدير واقعى لارتباطها الشعورى بكل ضحية يضحّى بها فى هذا المقام .

وقد يبدو غريباً — فى ظاهر الأمر — أن يقدِّم الإنسانُ أولَ ما يقدم للفداء والتضحية ، أعزّ شىء لديه ، وهم أبناؤه ، وقد كان المتوقع أن يضنّ بهم ، أو أن يجعلهم آخر سهم يرمى به فى وجه هذا الهلاك الذى يحتويه !!

وهذا الحساب إنما يجرى على هذا الوجه ، حين تكون الأمور على ما ألف الناس ، وحين يكون فى الأمر شىء من السّعة ، ولو كان بمقدار سَمّ الخياط ..

أمّا والعـذاب هو عذاب جهنم ، فإن المعايير تختلّ والموازين تضطرب ..

وهل يُنتظر من الإنسان فى مزدحم هذا الهول أن يعرف ضوابط ومعايير؟ وهل يدع هذا العذاب لإنسان سبيلا الاختيار ، أو فرصة للموازنة ؟ .

إن أقرب شىء للإنسان فى هذا الموقف ، هو درعه التى يتقى بها لفح العذاب ، ولو كان هذا الشىء عضواً من أعضائه ! !

ولكن انظر حين يكون فى الأمر شىء من السعة ، وحين يكون الإنسان خارج دائرة العـــــــذاب ، لم يقع فيه بعد ، ولم تُغلق عليه أبواب جهنم .

إنه هنا يملك شيئاً من الاختيار .. ولهذا فإنه فى ابتداء منطلقه من وجه الخطر ، يتخفف من المهم فالأهم ، ويتخلى عن العزيز فالأعزّ . . إنه لا يقدم فِدية ، ولكنه يحلّ نفسه من الروابط التى تربطه بالولد ، والصاحبة ، والأب والأم ، والأخ .تلك الروابط التى تجعل منه ومن هؤلاء الأقربين كياناً واحداً، أشبه بالجسد وأعضائه . .

فهو إذ يحلّ عُقَد الروابط بينه وبين هذه الأعضاء ، يبدأ بأبعدها عنه ، فيحلها عقدة عقدة ، حتى ينتهى إلى أقرب عضو إليه ، ولا عضو أقرب منه بعد هذا إلا نفسه ذاتها ..

وشاهد هذا فى القرآن الكريم . . فى قوله تعالى :

« يوم يفرّ المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » (٣٤ — ٣٥ : عبس) .

فهنا حركة فرار من خطر داهم . . أو شر مقبل ، أو حية مهاجمة ، أو نار علقت بالدار والمتاع ،أو نحو هذا..وهنا لا يلتفت الإنسان إلا إلى نفسه، لينجو بها

فإن راوده الأمل ، ونازعته نفسه إلى حمل شيء معه ، كان نظره إلى أعزّ شيء عنده ، يحمله معه ، ويمنّى نفسه بالنجاة به ، فإن هو قد وجد فرصة النجاة ضيقة تخفف مما حمل ، ورمى بالعزيز ، دون الأعزّ . . ثم إذا ضاقت الدائرة بحيث لا تتسع إلا لنفسه ، رمى بكل شيء ، وطلب السلامة لنفسه ، والفرار بجلده .

إن هذه الدقة البالغة غايةَ الأحكام ، فى تصوير الحقائق ، وانتزاعها من أغوار النفس ، ومسارب الفكر ، لا تكون فى غير القرآن الكريم ، ولا تجىء إلا من تلقائه ، حيث القدرة المعجزة ، والبيان المفحم . .

ولو ذهب كاتب أو شاعر ، يصور هذه الأحوال، لما أمكن أن يقارب هذا التصوير القرآنى ، ولا أن يقع فى ظلاله . .

وهب شاعراً أو كاتباً وقع فى نفسه هذا الترتيب ، أفتظن أنه كان يستطيع أن يجد له هذا البيان الواضح السمح ، الذى يتدفق تدفق النور من وجه الصباح الوليد ؟ ثم أ كان يفرّق فى هذا المقام بين زوجة وزوجة بهذه اللفظة المعجزة : « صاحبته » التى تضمن لهذا الترتيب بين أهل الإنسان وعشيرته ، الصدقَ والواقعية ؟

ثم ماذا ؟

ثم هذا العطف بالواو فى الآيتين :

* « يودّ المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه . » .

* « يوم يفرُّ المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه » . (٣٤ — ٣٦ : عبس) .

هذا العطف بالواو . . ماذا تقول فيه ؟

إن علماء البلاغة يقولون : إن الواو لا تفيد ترتيباً ولا تعقيباً ، وأنها لمطلق الجمع . .وربما كان هذا حقًّا . . وهو حق فعلا ، ولكنه فى مجال الكلام الذى يكال كيل التمر ، ولا يوزن وزن الدّر ،والذهب .أما حين يرتفع مستوى الكلام إلى أعلى منازل البلاغة ، ثم يجاوزها فيكون من كلام الله سبحانه فى كتابه الكريم ،فإن الأمر يختلف ، حيث يكون لكل حركة معنى ، ولكل وضع من النظم مقصداً ،لا يتحقق إلاّ به .

فالواو فى القرآن الكريم ، صالحة فى أغلب الأحيان ، لأن تفيد الترتيب والتعقيب ، فتجعل للمتقدم وضعاًغير وضع المتأخر ، ومع اشتراكهما فى الحكم ، فإنهما على درجات فى هذا الحكم ، وتلك خاصة من خصائص البيان القرآنى ، وسر من أسراره ، لا يشاركه فيه غيره من شعر أو نثر . .

وهكذا فرّق أصحاب البصر بكتاب الله بين المتعاطفين بالواو ، وجعلا لكل منهما مكاناً خاصاً من المشاركة فى الحكم الذى اشتركا فيه . .

فأبو بكر رضى الله عنه ، يقيم حجته على الأنصار ،بتقديم المهاجرين عليهم من قوله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » ـ فيقول لهم : « أسلمنا قبلكم ، وقدّمنا فى القرآن عليكم » . . وقد سلّم الأنصار له بهذه الحجة ولم ينازعوه فيها . .

وإذن ، فهذا الترتيب الذى جاءت عليه الآيات الكريمة فى الموضعين السابقين هو ترتيب لازم ، وإن كانت الواو هى أداة العطف فى هذا الترتيب !

ثم لعلّ سائلا يسأل : إذا كان هذا الترتيب لازماً ، فلماذا لم يجىء العطف بالفاء ليكون ذلك أدلّ على المراد ، وأبلغ فى بيان المطلوب ؟

وأكاد أوثر ألاّ أجيب على هذا التساؤل ، وأدع السرّ الإعجازى للعطف

بالواو محجّباً فى جلاله ؛ لا يغشى حماه إلا من يسعى إليه ، ويقف على مشارف حماه ، يُخالس النظر إليه ، ويرشف من رحيقه قطرة قطرة . . ولأنى على يقين من أن أى جواب أجيب به عن هـذا التساؤل ، لا يمكن أن يقطع النظر عن البحث وراء أسرار هذا العطف ؛ تلك الأسرار التى لا تنفد أبداً ، على كثرة ما يقع منها لأنظار الناظرين فيها .

ولهذا ، فإنى لا أرى داعية إلى الإمساك عن الإجابة على هذا التساؤل ، بما وقع لى . . ثم إن لغيرى أن يقبل هذه الإجابة ، أو يعدّلها ، أو يبحث عن جديد غيرها . . وإنه لواجد جديداً ، وجديداً . .

فأقول :

لعل أول ما يبدو من إيثار النظم القرآنى العطفَ بالواو ، هو أن هـذا العطف بالواو فى هذا المقام ، يتسع لتحقيق المعنى الذى تتحقق به الموافقة للواقع . ذلك أن هذا الترتيب فى التخلّى عن الأعزاء ، أو سَوْقهم إلى ساحة التضحية والفداء ، لا يقع بهذا التحديد على تلك الصورة المعروفة ، التى تقع فى الحياة ، حين يكون للمرء فرصة الاختيار ، فيقدم ويؤخر ، فيما يتخلى عنه ، أو يقذف به فى وجه العذاب ، واحداً ، بعد واحد . . وكلاّ ، فإن شدّة الهول ، ووقدة السعير ، لا يكون المرء معها فرصة للتفكير والاختيار ، وإنما هو يتخلى عنها جميعاً مرة واحدة ، ويقذف بها كلها دفعة واحدة ! ! ولـكنها ــ مع هذا الحشد لها ــ تأخذ هذا الوضع فى الترتيب الذى جاء بها عليه النظم القرآنى . .

والعطف بالواو ، وبالواو وحدها ، هو الذى يحقق هذه الصورة المجتمعة المتفرقة فى آن واحد . . وذلك لأن الواو لمطلق الجمع من جهة ، وللترتيب بين المتعاطفين من جهة أخرى ، ثم إنه ليس بين متعاطفيها إمهال ملتزَم ، كما يكون ذلك بين المتعاطفين بالفاء ، أو ثم . .

تقول الآيات الكريمة فى هذه السورة : « يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التى تؤويه ؛ ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه » ـ فتضع هؤلاء الضحايا جميعاً على مذبح الفداء مرة واحدة ، ثم هى ـ مع هذا ـ تضعهم بهذا الترتيب ، فيما يشبه الزّمن القدَمى ! !

وتقول الآيات الكريمة فى سورة أخرى : « يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . »(عبس : ٣٤ ـ ٣٦) فتفرض على المجرم الفارّ من وجه العذاب ـ أن يرمى بكل هؤلاء جميعاً دفعة واحدة ؛ كما يرمى بحصيات من يده ، مرة واحدة ؛ ولكن ـ وبتدبير معجز ـ تخرج تلك الحصَيات من يده على هذا الترتيب الذى جاءت به الآيات .. فهو يفر من أهله جملة واحدة ، لا يفصل بين أفرادها زمن ، ولكنها جملة مفصلة ، تمر فى أسرع من آنات الزمن !

ولو أن العطف وقع بالفاء ، أو ثم فى الموقفين ، لكان فى هذا الترتيب فواصل زمنية لازمة ، لا يحتملها الموقف ، ولا يحكيها واقع الحال !

هذه واحدة . .

وأخرى . .

وهى أن الطبيعة البشرية فى مجموعها ، وإن كانت تجرى على هذا الترتيب الذى جاءت عليه الآيات فى الموقفين ، فى مقام المفاضلة بين الأهل والولد.. الابن ، فالصاحبة (الزوج) ، فالأب ، فالأم ، فالإخوة ، فالأهل والعشير . ! ولكن هناك حالات خاصة تقضى بأن يكون لبعض الناس موقف خاص من هذا الترتيب ، فيقدِّم صنفاً على صنف ، لانحراف فى التفكير ، أو لفساد فى الطبيعة ، أو فتور فى العلاقة ، أو غير هذا مما يغيّر فى وضع العلاقة الطبيعية بين المرء وأقاربه ..

وإنه لو جاء العطف بالفاء أو ثم ، لـكان هذا الترتيب حكما ملزِما للناس جميعاً أن يجروا عليه فى هذه المواقف ، ولـكان هذا الحـكم غير صادق كل الصدق ، ولوجد من الناس من ينقضه ، ويخرج عليه .. أما العطف بالواو فإنه يتسع لقبول مثل هذه الحالات العارضة على الطبيعة البشرية ، حيث أن العطف بها لا يفيد هذا الترتيب الملزم .. فهى — أى الواو — تفيـد الترتيب المطلق من جهة ، وبذلك تحقق الحـكم العام الذى يجرى عليه معظم الناس ، ثم هى من جهة أخرى ، لا تجعل هذا الترتيب أمراً ملزماً — لأن الترتيب ليس من طبيعتها ، ولـكنه شىء عارض فى مقام الإعجاز — وبذلك تتناول الأطراف المنحرفة من مجموع الإنسانية ، وتجعل لها مدخـلا فى الحـكم ، ومكانا فى الصورة .

ثم ماذا بعد هذا ؟ ثم كثير وكثير لا ينتهى أبداً . . « قل لو كان البحر مدادا لـكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً . . »

قوله تعـالى :

* « كلا إنها لظى * نزّاعة للشوى * تدعو من أدبر وتولى * وجمع فأوعى . . »

« كلا » رَدْع ، وزجر ، ونفى . . فإنه لانجاة من هذا العذاب ، ولا مفر من أن يقع بأهله ، فلا يدفعه دافع من جاه أو سلطان ، أو فدية من مال وبنين .

« إنها لظى » — تعليل لنفى النجاة عن أصحاب النار ، وردّ أى فدية لو كان يملك أحد شيئاً يقدّمه فى هذا اليوم . إنها لظى ! فهل يملك أحد أن يفرّ منها ؟

وفى قوله تعالى : « إنها لظى » تلويح بهذه النار الجهنمية فى وجه المجرمين . .

« إنها لظى ! » وكفى . . ! فهل يستطيع أحد أن يفلت من « لظى » إذا أوقعه شؤمه ، وضلاله فى طريقها ؟ ذلك محال .

وهذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه ، وقد عَرَض نفسه ليبارز عمرو بن وُدّ يوم الخندق ، وقد تهيبه المسلمون يومئذ . . فقال صلوات الله وسلامه عليه — لعلىّ كرم الله وجهه — : « إنه عمرو ! ! » فقال علىّ : « وأنا علىّ ! ! » .

وسميت « لظى » لتلظِّى لهيبها ، وتأججه ، وزفيره وشهيقه .

« نزاعةً للشوى » حال من أحوال « لظى » . . وصاحب الحال « لظى » ، وهى معرفة ، لأنها واحدة فى بابها ، وعَلَمٌ مفرد فى صفاتها وأفعالها . .

والشوى : الأصراف ، كاليدين ، والرجلين .

وفى قوله تعالى : « نزاعة للشوى » إشارة إلى أن أول ماتحدثه النار فى الكائن الحىّ الذى يُشوى بها ، هو انخلاع أطرافه . . وهذا يعنى أن يفقد المعذّب بالنار القدرةَ على الحركة ، إذا انفصلت عنه رجلاه اللتان يتحرك بهما ، كما يفقد القدرة على الدفاع عن نفسه بيديه بعد أن عجز عن الفرار ، إذ قد انخلعت عن جسده هاتان اليدان . . وهكذا يصبح كتلة مستسلمة للعذاب ، مقيدةً بقيد العجز المطلق . .

وقوله تعالى :

* « تدعو من أدبر وتولى » . . حال أخرى من أحوال لظى ، وأنها تدعو إليها من أعرض عن الإيمان بالله ، وأعطى ظهره لدعوة الحق . . فكأنها بدعوتها تلك إنما تستقبل من أقبل عليها ، وولى وجهه نحوها ، حين أعرض عن الإيمان بالله ، وكما تستقبل من أعرض عن الإيمان — تستقبل من جمع المال وأوعاه أى وضعه فى وعاء ، وضن به عن الإنفاق فى وجوه الخير ، والإحسان . .

وفى الجمع بين الإعراض عن الإيمان بالله ، والإمساك عن الإنفاق فى سبيل

الله – إشارة إلى شناعة البخل ، وأنه يعدل الكفر ، وهذا مثل قوله تعالى : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين » (٣٣ – ٣٤ : الحاقة) .

الآيات : (١٩ — ٣٥)

* « إِنَّ ٱلْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ (٢٢) ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ (٢٣) وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ (٢٥) وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٢٦) وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٣١) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَآئِمُونَ (٣٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰٓئِكَ فِى جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

« إن الإنسان خُلق هلوعاً » .

الإنسان هنا ، هو الإنسان الذى ضلّ عن سبيل الله ، وكفر به ، وبرسله وباليوم الآخر .

وجاء الحكم على الإنسان مطلقاً ، على التغليب ، لأن أكثر الناس هم هذا

الإنسان الهلوع ، كما يقول سبحانه : « وما أكثرُ الناس ولو حَرَصتَ بمؤمنين » (١٠٣ : يوسف)

وفى قوله تعالى : « خُلِقَ » — إشارة إلى أن هذا الذى عليه الإنسان من كفر وضلال ، هو مما سبق به قضاء الله فيه ، واقتضته مشيئته ، كما يقول سبحانه : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » (٢ : التغابن)

ومع هذا القضاء السابق ، والمشيئة الغالبة ، فإن الإنسان مكلّف بأن يأخذ طريق الخير ، ويتجه إلى جانب الأمن والسلامة من عذاب الله ، لأنه لايدرى ماقضاه الله فيه ، ومشيئته له . . ولكن الذى يدريه ويقطع به ، هو أن النجاة طريقاً ، ينبغى أن يسلكه ، والهلاك طرقاً يجب أن يتجنبها . . إنه يفرّق حتما بين النور والظلام .. وفى النور الهدى والسلامة ، ومع الظلام الضلال والضياع . فإذا آثر الظلام على النور ، والضلال على الهدى ، ولم يتحرك بإرادته للخلاص مما هو فيه ، فقد لزمته الحجة ، وحق عليه العقاب .

والهلوع : من الهلع ، وهو الجزع الشديد .

وقوله تعالى :

* « إذا مسه الشر جَزوعا * وإذا مسه الخير منوعاً »

هو بيان للهلع الذى هو طبيعة غالبة فى الإنسان .. فإن من شأن هذه الطبيعة التى تملّكها الهلع ، أنه إذا مس الإنسانَ شر لم يصبر عليه ، واستبد به الجزع ، واستولى عليه اليأس .. لأنه لا يستند إلى قوة القوىّ العزيز ، ولا يستعين بعون الرحمٰن الرحيم .. إنه فى دائرة مغلقة عليه مع هذا البلاء الذى نزل به ، لا يرى لهذا البلاء دافعاً ، ولا يتوقع من وراء هذا الضيق فرجاً . . أما المؤمن بالله ، فإنه إذا مسّه الشر ، وأصابه الضر ، نظر إلى وجه ربه الكريم ، وبسط يد الرجاء إليه ،

يطمع فى رحمته ، ويرجو كشفَ الضر عنه ، فيجد فى هذا الرجاء متنفساً لـكربه ، وكشفاً لضره .

هكذا المؤمنون بالله ، لا يَحْزُنهم همٌّ نازل ، ولا يـكْرِبهم بلاء مطبق ، لأنهم فى ضمان من رحمة الله ، وعلى رجاء من فضله . . « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنىَ الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فـكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » (٨٣: ٨٤ : الأنبياء)

إن المؤمن على يقين من أن له ربًّا يشكو إليه ، وأن ربه سميع الدعاء، واسع الرحمة : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يَرْشُدون» (١٨٦ : البقرة) .

إن المؤمن لا يأسىَ على شىء فاته من أمور الدنيا ، ولا يجزع لشىء أصابه من همومها ، إذ هو على يقين من أن ذلك بقضاء وقدر ، وأنه بتقدير العزيز الحـكيم ، وأن ما قدره الله سبحانه ، هو الخير ، وإن رآه الإنسان شراً ، كما يقول سبحانه : « وعسى أن تـكرهوا شيئاً وهو خير لـكم » (٢١٦ : البقرة) ويقول جل شأنه : « فعسى أن تـكرهوا شيئاً ويجعلَ الله فيه خيراً كثيراً » (١٩ : النساء) .. وفى هذا كله عزاء المؤمن عند كل مصيبة ، ومواساة عند كل كرب .. وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى : « وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون» (١٥٥ : ١٥٧ : البقرة) .

أما الذى لا يؤمن بالله ، ولا باليوم الآخر ، فإنه قد خُلِّىَ بينه وبين مصيبته ، يتجرع غصصها ، ويمضغ جمرها ، ويبيت على أشواكها ، دون أن يجد للصبر طريقًا ، أو يرى للعزاء وجهاً ..

هذا الإنسان الذى لا يؤمن بالله فى مواجهة الرزايا ، وفى لقاء المصائب ، هو طعام الجزع ، ووقود اليأس والحسرة !

أما فى حال العافية ، والرخاء ، وسعة الرزق ، وفيض المال ، فهو متسلط جبار ، لا يرى لأحد شيئاً مما ملك ، بل إن هذا المُلك الذى فى يده ، يغريه بإذلال الناس ، واستعبادهم ، حتى يزداد علواً ، ويزداد غيره نزولا ، ففى ذلك متعة له ، ورضا لنفسه ، وهناءة لقلبه .. كما يقول سبحانه : « وإذا مسه الخير منوعاً » .

إنه لا يرى أبداً أن هذا الذى بين يديه ، هو وديعة عنده ، يمكن أن تُسترد يوما ممن أودعها إياه ... وإنما يقوم تقديره على أن هذا الذى وقع له ، هو من تدبيره ، أو هو أمر لازم لذاتيته ، ولِما فيه من مزايا خاصة ، أثمرت له هذا الثمر .. إنه يتصور أنه من عنصر كريم ، لا يثمر إلا هذا الخير ، الذى هو فيه ، كما أن غيره من الفقراء والمساكين والضعفاء ، هم من عنصر لا يجىء منه غير الفقر ، والمسكنة والضعف .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى الكشف عن تفكير هذا الإنسان الضال المغرور بنفسه ، إذ يقول سبحانه على لسانه : « ولئن أذقناه رحمة منّا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى » (٥٠ : فصلت) أى هذا من طبيعة ذاتى ، وخِصّيصة وجودى . . أما الفقراء ، وذوو الحاجة ، فإنهم ليسوا أهلا لغير الفقر والحاجة ، ولو كانوا يستحقون غيرَ ما هم فيه ، لما بخل الله عليهم به . « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » (٤٧ : يس)

وقوله تعالى :

* « إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم .. » .

هو استثناء من قوله تعالى : « إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً » .

فالحكم العام على الإنسان ، هو أنه هلوع جزوع ،إذا مسه الشر . . مَنوع بخيل ، إذا مسّه الخير . . ويُستثنى من هذا الحكم العام أولئك الذين آمنوا بالله من بنى الإنسان ، ثم امتثلوا شريعة هذا الإيمان ، فأتوا ما أمرهم الله به،واجتنبوا ما نهاهم عنه ..

والصلاة ، هى الركن الأول من الأركان التى قام عليها الإيمان ، ولهذا كانت أولَ صفة يتصف بها المؤمنون ، لأنها هى الطريق الذى يَصِلُهم بالله ، فإذا تركها المؤمن ، انقطعت صلته بربه ، إلى أن يعود إليها ، وفى هذا يقول الله تعالى : (إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) (١٤ : طه) فالصلاة هى التى تذكّر بالله ، وتصل العبد بربه ، وتملأ قلبه خشية منه ، وولاء له .

ثم تأتى الصفة الثانية التى يتصف بها المؤمن بعد الصلاة ، وهى الزكاة ، فيقول سبحانه :« والذين فى أموالهم حق معلوم• للسائل والمحروم » .. فإن من شأن من يؤمن بالله ، ويداوم على الصلاة ـ من شأنه أن يذْكُر ربه ، ويذكر أن ما فى يده ، هو من رزق الله له ، ومن إحسانه إليه ، وهو بهذا لا يبخل بهذا المال، ولا يضن به على الإنفاق فى وجوه البرّ ، لأن ما ينفقه هو مدّخَر عند الله له ، ثم هو فى الوقت نفسه ، لا يُنقِص شيئاً من رزقه المقدر له .. فما أنفقه فى وجوه الخير ، هو صدقة زائدة،تصدّق الله سبحانه وتعالى بها عليه ، لتكون طُهرة له . . وما أمسكه فى يده ، هو الرزق المقدر له . .

والحق المعلوم فى أموال المؤمنين ، هو الزكاة المفروضة عليهم ..

والسائل : هو الذى يسأل عند الحاجة ، والمحروم : هو المحتاج الذى لا يَسأل ، حياء وتعففا ..

هذا وقد جمع الله سبحانه وتعالى بين الصلاة والزكاة فى سبعة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم ، كما التزم القرآن الكريم تقديمَ الصلاة على الزكاة فى كل موضع اجتمعتا فيه ..

وفى هذا الجمع بين الصلاة والزكاة ـ إشارة إلى أنهما من باب واحد ، فى باب الإيمان والإحسان ! ..

ثم إن فى تقديم الصلاة على الزكاة ، إشارة إلى أن الصلاة هى التى تَخْلُق فى الإنسان العواطف والمشاعر التى تدعو إلى الرحمة ، والعطف ، والإحسان ، فالزكاة ثمرة من ثمرات الصلاة .. والثمرة فرع من أصل ، هو الشجرة !

وقوله تعالى :

* « والذين يصدِّقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون* إن عذاب ربهم غيرُ مأمون » ..

أى ومن صفات المؤمنين بالله ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، أنهم يصدقون بيوم الدّين ، ويؤمنون بالبعث ، والحساب والجزاء ، فإنه بغير هذا التصديق بيوم الدين ، لا يكمُل إيمانهم بالله ، ولا يقوم عندهم شعور واضح بهذا الإيمان ، إذ أن الإيمان بالحساب والجزاء هو الذى يعطى الإيمانَ بالله ، الواقعَ العملى لهذا الإيمان ، بما يقدِّم الإنسانُ من أعمال صالحة ، وبما يتجنب من أعمال سيئة ، إعداداً ليوم الحساب ، واستعداداً للقاء الله فى هذا اليوم ..

ولو أُخلى الإيمان بالله ، من الإيمان باليوم الآخر ، لكان الإيمان بالله ـ إن وُجد ـ مجردَ فكرة ذهنية ، لا يكاد يكون لها أثر فى سلوك الإنسان ، ولا

حسابٌ فيما يأتى وما يذر من الأعمال ..

وسُمّى يوم القيامة « يوم الدين » لأنه يوم الديونة ، ويوم الحساب ، حيث يُدان الإنسان ، ويجازى بما عمل ..

وأصله من الدّين ، لأن لله سبحانه وتعالى دْيناً على كل مخلوق ، بخلقه من عدم ، ثم بما أودع فيه من قوى ، ثم بما أفاء عليه من فضله وإحسانه .. ولهذا كان كل موجود مسبّحاً بحمد الله ، قضاء لبعض هذا الدّين .. وقد وفّ كل مخلوق دينَه لخالقه ، إذ لم ينحرف عن الطريق الذى أقامه الله سبحانه وتعالى عليه ، ما عدا الإنسان : فإن أى إنسان مهما اجتهد فى طاعة الله ، وتحرّى مواقع مرضاته ، فإنه لا يسلم أبداً من عوارض التقصير .. ولهذا كان الناس جميعاً واقعين تحت الديونة ..

والديان ، صفة من صفات الحق جلّ وعلا ، لأنه صاحب الفضل والإحسان على هذا الوجود .. يقول الشاعر :

لاهِ ابنُ عمّك لا أفضلتَ فى حسبٍ

عنّى ولا أنت ديّانى فتخزونى

وقوله تعالى : « والذين هم من عذاب ربهم مشفقون » — إشارة إلى أن الخشية من عذاب الله ، هى القوة العاملة فى توجيه الإنسان إلى الخير ، وتجنبه للشر ، أكثر من الطمع فى الجنة والرغبة فى نعيمها .. فمن طبيعة الإنسان أنه يحرص على أن يتوقّ الشر ، ويعمل له حساباً ، أكثر من حرصه على تحصيل الخير والجدّ فيه .. ومن هنا كان من المبادىء العامة فى الشريعة الإسلامية : « أنّ دفع المضار مقدم على جلب المنافع » فإن دفع الضرر ، هو فى الوقت نفسه جلب لمنفعة ، هى السلامة من هذا الضرر ، والعافية من بلائه .. فدفع المضار

مقترن دائماً بجلب المصالح والمنافع .. على خلاف ما يكون من جلب المنافع ، فإنه قد تُجلب المنفعة ، ولا يكون معها دفع مضرة . . مثل جلب المال إلى المال بعد سدّ حاجة الإنسان . فإن جلب المال لدفع الحاجة ، هو دفع لضرر وجلب لمصلحة معاً ، وجلب المال لغير سدّ حاجة ، هو جلب لمنفعة ، لايصحبه دفع ضرر .. وشتان بين الأمرين .. وفى هذا يقول الله تعالى :

« فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » (١٨٥ : آل عمران) ..

فالزحزحة عن النار دفع لضرر ، جَلب معه مصلحة ، وهو دخول الجنة . .
أما من دخل الجنة ابتداء من غير أن يتحقق أنه زحزح عن النار ، فإن شبح النار لا يزال مُطلاً عليه ، لأنه لم يعلم حقيقة أمره مع النار . .

ولعل هذا هو السر فى قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيًّا ، ثم نَنجّى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثيًّا» (٧١ ـ ٧٢ : مريم) .

وقوله تعالى : « إن عذاب ربهم غير مأمون » . .

أى أن المؤمن ـ مع إيمانه بالله ، وإقامته الصلاة . وإيتائه الزكاة ، وتصديقه باليوم الآخر — كل ذلك لا يُخلى نفسَه من الشعور بالخوف من الله ، والوقوع تحت طائلة عذابه . . فما أحد يدرى ما الله صانع به ، وما أحد يدرى أهو من أهل الجنة أم من أهل النار ، وإن كان ـ مع هذا ـ طريق قائم على الجنة ، وأعمال تبلغ بالعاملين على هذا الطريق ، إلى الجنة . . وطريق قائم على النار ، وأعمال تسوق العاملين على هذا الطريق ، إلى النار . .

ثم الحكم بعد هذا كله إلى الله وحده ، « يُدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليما » .. (٣١ : الإنسان)

[الإسلام . . وشهوة الجنس]

قوله تعالى :

* « والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانُهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » .

أى وكذلك من صفات المؤمنين ـ مع إيمانهم بالله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والتصديق باليوم الآخر ، والخشية من عذاب الله ـ هم أنهم لفروجهم حافظون ، أى حافظون لها من الوقوع فى الحرام .

وقوله تعالى : « إلا على أزواجهم » . . « إلاّ » هنا بمعنى لكن ، التى تفيد الابتداء لا الاستثناء .. فما بعدها منقطع عما قبلها .. وهذا يعنى أن الحفظ للفروج هنا ، هو حفظ مطلَق، لا استثناء فيه .. فإمّا حِفظ ، أو غيرُ حفظ .. لأن غير الحفظ يكون عُدواناً ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى فى موضع آخر : * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون[1] * (٥ ـ ٧ : المؤمنون) فعدم حفظ الفروج يكون عدواناً على حُرمات الناس ..

وعلى هذا يكون المعنى ، أن من شأن المؤمنين أن يحفظوا فروجهم ، وألا يكون منهم عدوان على حرمة الناس ، أما عدوانهم على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم من إماء ، فإنهم غير ملومين فيه ..

ففى قوله تعالى : « فإنهم غير ملومين » ـ إشارة خفيّة إلى أن هذه الإباحة للأزواج ، وما ملكت الأيمان ، ليست على إطلاقها ، وإنما هى محفوفة بسياج متين ، ومحاطة بحراسة قوية ، لايُؤذن بالدخول إليها إلا بحساب ، وتحت مراقبة !.

(١) انظر تفسير هذه الآية فى سورة (المؤمنون) من التفسير القرآنى للقرآن .

وهذا يعنى أن للفروج حرمةً حتى فى مواقع الحلال ، فلا تُبتذل ، ولا تمتهن ، ولا تُسترخص ، ولا تستباح ، كما تستباح فروج البهائم فى غير سِتر من الحياء والتصون .. إنها أكرم وأعز من أن يُنظر إليها كما ينظر إلى المتاع .. إنها شرف الإنسان وعِرضه وكرامته ، فإذا أحل الله للإنسان أن يَستبيح شرفه ، وعرضه وكرامته لحساب نفسه ، فليكن ذلك فى حدود نفسه ، بحيث لا يطلع عليه أحد .. وهذا هو بعض السرّ فى قوله تعالى : « أُحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هنّ لباسٌ لكم وأنتم لباس لهنّ » (١٨٧ : البقرة) ـ فقوله تعالى : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » يجعل من كلٍّ من الزوج وزوجه كياناً واحداً ، يُجمّل كلٌّ منهما صاحبَه بلباسٍ ضافٍ من الستر والحياء ، والتصوّن ..!

هذا هو أدب الإسلام ، وتلك هى تربيته العالية للإنسان ، والارتفاع بإنسانيته إلى هذا المستوى الكريم من التعفف والتصوّن ، والتسامى على شهوات الحيوان الكامن فيه.. فلو أن إنساناً يكون مَلَاكاً يمشى على الأرض لكانه هذا الإنسان المسلم الذى يُنَشَّأ فى حجر الإسلام ، ويُربى على تعاليمه ، ويتأدب بآدابه.

ودع ما يتخرص به أعداء الإسلام وحاسدوه ، من أن الشريعة الإسلامية تقوم أساساً على استرضاء الغرائز البهيمية فى الإنسان ، وخاصة ما يتصل بالعلاقة بين الرجل والمرأة ، التى وقف بها الإسلام ـ كما يقولون كذباً وافتراء ـ عند حدّ إشباع الشهوة الجنسية ، وإطلاق العنان لها ، بلا حدود ولا قيود ، بحيث يستطيع الرجل دائماً أن يضم فى بيت الزوجية أربع نساء ، يتبدل بهن كل يوم ـ إن شاء ـ أربعاً !!

وهكذا يستطيع المسلم أن يتزوج مئات النساء ، وأن يلتقى كل يوم بوجوه جديدة منهن .. هذا إلى الإماء والجوارى ـ إن كان هناك إماء وجوارٍ !

وحتى الجنة التى وَعَد الإسلام بها أتباعه ، هى جنةُ حورٍ وولدان ، يجد للمرء منهما بين يديه مئات ، وألوفاً ، دون وقوف عند حدّ . !

هكذا يشنّع أعداء الإسلام على الإسلام ، ويرمونه بهذه التهم الظالمة متخذين من ظاهر بعض النصوص القرآنية، حججاً يقيمونها على مفهوم خاطىء، ويتأولونها تأويلا قائماً على الهوى ، يُعينهم على ذلك ماوصل إليه حال المجتمع الإسلامى فى بعض بيئاته الجاهلة التى لاتعرف من الإسلام إلا اسمه ، ولا تأخذ منه غير ظاهر الأشكال والرسوم ، دون أن يكون لها حظ من صميم هذا الدين الذى جاءت رسالته لتسوية خُلق الإنسان ، والبلوغ به إلى غاية كمالاته ، كما يقول الرسول الكريم : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . . فما جاء الرسول الكريم داعياً إلى جديد فى بناء الحياة العقلية ، والروحية ، والنفسية ، والعاطفية للإنسان ، وإنما جاء ليزين هذا البناء ، ويجمله ، ويكمله . .

وبعد ، أفلا يخجل أولئك الذين يتزيّوْن بزىّ الإسلام ، ثم تخرج من أفواههم كلمات العُهر والفجور ، ينهقون بها كما تنهق الحمر ؟ وألا يستحى أولئك الذين يتسمون بأسماء إسلامية ثم يظهرون على أعين الناس فى تلك الأثواب الفضفاضة من الخلاعة والمجون ؟ إن هؤلاء الخلماء الرقعاء ، هم شهود زور يُدينون الإسلام أمام محكمة الرأى العام ، وينفّرون الناس منه ، ويَصدّونهم عن سبيله . . وإنه لخير للإسلام أن يتحول عنه هؤلاء الذين يرمونه بسهام قاتلة ، إلى صفوف أعدائه ، حتى لاينخدع بهم الناس ، ولا يسودّ بهم وجه الإسلام للمسلمين فى أعين الناظرين إلى الإسلام وأهله ! .

قوله تعالى :

* « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

هو بيان لصفة أخرى من صفات المؤمنين ، وهى رعاية الأمانات التى أؤتمن عليها المؤمن ، سواء أكانت هذه الأمانات لله ، فيما افترض سبحانه على المؤمن ، من صلاة ، وزكاة ، وصوم ، وحج ـ وجهاد ، أو كانت من أمانات الإنسان لنفسه ، كفرجه . . أو أمانات للغير ، كالودائع ونحوها . .

والعهود ، هى المواثيق التى بين العبد وربه ، وبينه وبين نفسه ، وبينه وبين الناس ، وهى من قَبيل الأمانات . .

ورعاية هذه الأمانات ، هى أداؤها على الوجه الذى أمر الله به . . وفى نقض العهود خيانة للأمانة ، وفى خيانة الأمانة نقض العهد المأخوذ على المؤمن بحفظها .

قوله تعالى :

* « والذين هم بشهاداتهم قائمون » . .

وقيام الشهادات ، صفة من صفات المؤمنين ، وهو أداء الشهادة على وجهها الذى يُحقّ الحق ، ويُبطل الباطل . . « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » (٢٨٣ : البقرة) . .

وفى التعبير عن أداء الشهادة على وجهها ، بلفظ القيام بها ، إشارة إلى أن الذى يؤديها ، إنما يقيم بها ميزان العدل ، كما يقول سبحانه : « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » (٩ : الرحمن) وكما يقول جل شأنه : « وأقيموا الشهادة لله » (٤ : الطلاق) . .

كما أنه يشير إلى أن أداءها أمر له شأنه وخطره ، وأنه مطلوب من الإنسان أن يقوم لها بكيانه كلّه ، وأن يظل هكذا قائماً حتى يؤديها . .

وهذا مثل قوله تعالى : « وقوموا لله قانتين » (٢٣٨ : البقرة) . .

قوله تعالى :

* « والذين هم على صلاتهم يحافظون » . .

وحِفْظ الصلاة ، هو أداؤها على وجهها الصحيح ، بما يسبقها من طهارة الجسد ، والثوب ، والمكان ، وبما يقوم بين يديها من انشراح صدر ، ورَوْح نفس ، واستحضار ذهن ، واجتماع فكر ، وبما يصحبها من خشية وجلال ، فى مناجاة ذى العظمة والجلال . .

فمن صفات المؤمنين أنهم على صلاتهم دائمون ، أى يؤدونها فى أوقاتها ، وأنهم إذ يؤدونها إنما يؤدونها على تلك الصفة ، من الجلال ، والرهبة ، والخشوع . .

وقد فُصل بين أداء الصلاة فى قوله تعالى : « الذين هم على صلاتهم دائمون » وبين الصفة التى تؤدّى بها فى قوله تعالى : « والذين هم على صلاتهم يحافظون » — فصل بينهما بتلك الآيات التى تدعو إلى أداء الزكاة ، وإلى التصديق بيوم الدين ، والخشية من عذاب الله ، وإلى حفظ الفروج ، وأداء الأمانات ، والقيام بالشهادات — لأن أداء الصلاة مطلوب على أية حال ، لا يقوم للمؤمن عذر أبداً يُحِلّه من أدائها فى أوقاتها . أما أداؤها على تلك الصفة الخاصة من الخشوع ، والخضوع ، والرهبة ، والجلال ، فهو أداء للأمانة ، وأنه لا تبرأ ذمة الإنسان منها إلا بأدائها على تلك الصفة ، فإذا لم يؤدها على تلك الصفة ، فهى لا تزال أمانة فى يده ، ومطلوب منه أن يؤديها على وجهها ، أما إذا لم يؤدّ الصلاةَ أصلا ، فهو تضييع لتلك الأمانة ، يحاسب

عليها حسابَ للضيِّمين للأمانات، وإنه حينئذ ليعز عليه أن يجدها ، إذا هو أراد أن يؤديها ، لأنها أفلتت من يده !

وهذا يعنى أن دوام الصلاة ، والمواظبة عليها فى أوقاتها ، من شأنه أن يَبلُغ بالإنسان يوماً ، القدرةَ على أدائها كاملة، وأنه إذا فاته فى مرحلة من مراحل أدائها أن يمتلىء قلبه بالخشوع والرهبة معها ، فإنه — مع المواظبة — سيجىء اليوم الذى يجد فيه لصلاته ما يجد المصلون الخاشعون . . وهذا ما يشير إليه الرسول الكريم فى قوله لمن جاء يقول له : إن فلاناً يصلِّى ، ولا ينتهى عن المنكر ، فيقول — صلوات الله وسلامه عليه — : « إن صلاته ستنهاه » . . أى ستنهاه عن المنكر يوما ما ، إذا هو واظب عليها ، فإن المواظبة عليها من شأنها أن تَعْلَقَ الصلاةُ بقلبه ، ثم يكون لها بعد ذلك سلطان عليه ، ثم يكون لهذا السلطان وازع ، بما يُشيع فى قلبه من رهبة وخشية لله ! .

ومن جهة أخرى ، فإن التنويه بالصلاة بدءاً وختاماً ، يجعل هذه الفضائل ـ التى بين أداء الصلاة ، والصفة التى تؤدَّى عليها ـ فى ضمان هذا الحارس القوى الأمين ، وهو الصلاة ، فإذا لم يكن بين يدى هذه الفضائل صلاة ، وإذا لم يكن خلفها صلاة ، جاءت هذه الفضائل فى صورة باهتة هزيلة ، لا تلبث أن تجف ، وتموت ، ولا يبقى لها فى كيان الإنسان داع يدعو إليها ، أو هاتف يهتف بها . . ومن هنا كانت الصلاة عمادَ الدين ، كما يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

قوله تعالى:

* «أولئك فى جنات مكرَمون » .

فهذا هو جزاء المؤمنين الذين يكونون على تلك الصفات ، التى بينتها

الآيات السابقة .. إنهم مكرمون عند الله ، فى جنات ، يتقلبون فى نعيمها ، حيث يكونون فى ضيافة أكرم الأكرمين ، رب العالمين ..

الآيات : (٣٦ — ٤٤)

* « فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَارِقِ وَٱلْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) »

التفسير :

كانت الآيات السابقة على هذه الآيات ، حديثاً متصلا عن المؤمنين ، وما ينبغى أن يكونوا عليه من صفات كريمة عالية ، حتى ينالوا رضوان الله ، ويدخلوا فى جنات النعيم ، يتلقون فيها من ربهم فواضلَ الإكرام والإحسان . .

وهذه الآيات، تواجه المشركين، الذين أبوا أن يستجيبوا لدعوة الإيمان، وأن يكونوا من المؤمنين ..

وفى قوله تعالى:

* « فمال الذين كفروا قبلك مهطعين • عن اليمين وعن الشمال عزين» ؟

المراد بالذين كفروا هنا، هم المشركون، الذين دخلوا فى الحكم الذى أشار إليه قوله تعالى فى الآيات السابقة: « إن الإنسان خلق هلوعاً • إذا مسّه الشر جَزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً » .

وقد استُثنى من هذا الحكم العام على الإنسان ـ المؤمنون، الذين هم على صلاتهم دائمون، والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم .. إلى آخر ما وصفهم الله سبحانه وتعالى به من صفات تُدنيهم من التقوى، وتقربهم من الله .. وقد وعد الله هؤلاء المؤمنين بمقام كريم فى جنات نعيم ..

وإنه إذ تنتهى آيات الله بالمؤمنين إلى هذا الموقف، وتُنزلهم منازل الرضوان فى جنات النعيم ـ تلتفت إلى هؤلاء المشركين، فتسأل النبى الكريم عنهم، سؤال المنكِر لهذا الموقف الذى هم فيه من النبىّ: « فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ؟ » أى ما بالهم يتحركون بين يديك يميناً وشمالا، مسرعين إلى شئون شتى، من جدٍّ أو هزل، دون أن يلتفتوا إليك، أو يستجيبوا لدعوتك ؟ .

وقِبَل النبى: تجاهه، وقبالته ..

ومهطعين، أى مسرعين . كما فى قوله تعالى: « مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر » (٨ : القمر) .

وقوله تعالى: « عن اليمين وعن الشمال عِزين » بيان لحال المشركين،

وهم يهطعون جماعات جماعات ، عن يمين النبي وعن شماله ، ينطلقون فى كل وجه ، كما تنطلق الماشية فى المرعى ، على حين يرون النبى والمؤمنين ، فى شُغُل بعبادة الله ، وسعيٍ إلى الصلاة ، فلا يكون منهم إلى النبى وأصحابه إلا نظرات تائهة بلهاء ، أو عيون متغامزة فى سخرية واستهزاء . .

والعِزون . الجماعة ، ومنه العزّة ، وهى تكون غالباً من لوازم الكثرة.

قوله تعالى :

* « أيطمع كلّ امرىء منهم أن يُدخل جنة نعيم ؟ » .

الاستفهام إنكارى ، وقد جاء الجواب عنه بالنفى فى قوله تعالى :

* « كلا .. إنا خلقناهم مما يعلمون » .

أى كلا . . إنهم لن يدخلوا مداخل المؤمنين أبداً ، ولن يكون لهم إلى جنة النعيم سبيل .

وقوله تعالى : « إنا خلقناهم مما يعلمون » . . هو بيان لقدرة الله سبحانه وتعالى ، وأن أمر البعث الذى ينكرونه ، وهو الذى يفسد عليهم رأيهم فيما يسمعون من آيات الله ـ هو هيّن بالنسبة لخلقهم من هذه النطفة ، التى لا تعدو أن تكون نِفايةً من تلك النفايات التى تلفظها أجسامهم ، كالمخاط ، أو اللعاب ونحوها . . ومع هذا فإن هذه النطفة يقوم منها إنسان سوىّ الخلق ، خصيم مبين ! ! .

فهذه النطفة التى يتخلق منها الإنسان، هى مما يعلم هؤلاء المشركون علماً مستيقناً ، بالتجربة الواقعة ، التى لا تغيب عن أشدّ الناس غباء وجهلا .

قوله تعالى :

* « فلا أقسم بربّ المشارق والمغارب إنا لقادرون ، على أن نبدّل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين » .

« لا » فى قوله تعالى : « فلا أقسم » للنفى . . أى نفى القسم برب المشارق والمغارب ، تنزيهاً لله سبحانه وتعالى ، أن يقسم به على أمر لا يحتاج إلى قسم ، لظهوره ، ظهوراً يكاد فى عداد البدهيات . . وهو أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يذهب بهؤلاء المشركين ، ويقطع دابرهم ، ثم يأتى بمن هم خير منهم وعياً ، وإدراكا ، واستقامة على طريق الهدى . . كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز » . (١٩ : إبراهيم) .

وقوله تعالى : « وما نحن بمسبوقين » أى أننا حين نطلب من نريد إهلاكه ، لا يفوتنا ، ولا يُعجزنا ، كما فى قوله تعالى : « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ؟ ساء ما يحكمون » (٤ : العنكبوت) وكما يقول سبحانه على لسان الجن : « وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا » (١٢ : الجن)

قوله تعالى :

* « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون » ..

هو تهديد لهؤلاء المشركين ، وذلك بأن يَدَعهم النبى وماهم فيه من خوض فى الباطل ، ولعبٍ فى مواقع الضلال ، حتى يلاقوا اليوم الذى يوعدون ، وهو يوم القيامة ، وما توعّدهم الله به من عذاب ..

قوله تعالى :.

* « يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نُصُبٍ يوفضون » .

« يوم يخرجون » ـ هو بدل من « يومهم الذى يوعدون » .. ففى هذا اليوم الموعود ، يخرجون من الأجداث ، أى القبور ، سراعاً ، حيث يساقون سوقاً إلى موقف الحساب ، والجزاء ، وكأنهم فى سرعتهم ذاهبون إلى نصب

يجتمعون عنده، ليشهدوا مجلساً من مجالس عبادتهم، يمنّون فيه أنفسهم بالرجح العظيم من عبادته.

والنُّصب: واحد الأنصاب، وهو الصنم، وكل مانُصب ليعبد من دون الله ويُوفضون: أى ينتهون إلى هذا النصب.. وأوفض إلى كذا، وأفضى إليه.. أى تتبعه، وانتهى إليه سراعاً..

قوله تعالى:

* «خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون».

«خاشعة أبصارهم» حال من أحوال هؤلاء المشركين، بعد خروجهم من قبورهم وسوْقهم إلى الموقف إوالحشر.. إنهم يُسرعون مَسُوقين إلى هنالك، وقد خشعت أبصارهم ذلة، وهواناً.

وقوله تعالى: «ترهقهم ذلة» حال أخرى من أحوالهم.. أى قد أرهقتهم ذلة، وأنهكتهم، واشتدت عليهم وطأتها، وآدهم حملُها..

وقوله تعالى: «ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون» إلفات المشركين إلى هذا اليوم، وما يطلع عليهم فيه من بلاء عظيم، وكرب يقصم الظهور! إنه هو ذلك اليوم الذين كانوا يوعدون به فى الحياة الدنيا، ولا يصدقون به، ولا يعملون حساباً له.. وهاهوذا قد جاءهم بالعذاب، فماذا هم فاعلون؟ لاشىء إلا الصراخ والعويل، وتقطيع القلوب حسرة وندامة..

* * *

٧١ – سورة نوح

نزولها : مكية .. نزلت بعد سورة النحل ..

عدد آياتها : ثمانٍ وعشرون آية ..

عدد كلماتها : مائتان وأربع وعشرون .. كلمة ..

عدد حروفها : تسعمائة وتسعة وخمسون .. حرفاً ..

مناسبتها لما قبلها

خُتمت سورة « المعارج » بعرض هذا الموقف الذى يقفه المشركون من النبىّ ، وبدعوة النبى من الله سبحانه ، أن يتركهم فيما هم فيه ، ليخوضوا ، ويلعبوا ، حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ..

وبدئت سورة « نوح » بذكر موقف قوم نوح منه ، وتأبّيهم عليه ، وأنه لبث فيهم عمراً طويلا امتد ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يغدو ويروح بينهم بدعوته ، يعرضها عليهم فى كل معرض ، ويلقاهم بها على كل وجه ، فما استجابوا له .. ثم كانت عاقبتهم هذا العذاب الذى أخذهم الله به فى الدنيا ، وإن لهم فى الآخرة لعذاباً أشد وأنكى ..

فالمناسبة بين السورتين قريبة ، تجعل منهما سورة واحدة ، لموقف واحد ..

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٤)

* « إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) »

التفسير :

قوله تعالى : « إنا أرسلنا نوحاً . . . »

قصة نوح هنا مع قومه ـ كما يذكرها القرآن الكريم ـ تمثل الموقف الأول لرسل الله ، فى مواجهة أقوامهم ، ومايلقون منهم من سفاهة ، وضلال ، وعناد . .

فالضلال ، والسفه ، والعناد ، طبيعة ، غالبة فى الإنسان ، متمكنة فى بنى آدم ، وإن هذه الآفات ليست أمراً عارضاً فى قوم من الأقوام ، أو أمة من الأمم .

ولعل هذا من بعض الأسرار التى جاءت من أجلها سورة نوح ، فى أعقاب سورة « المعارج » التى جاء فيها قوله تعالى : « إن الإنسان خُلق هَلوعاً * إذا مسه الشر جَزُوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً » .. فهذا الإنسان يُرى على صفته تلك ، فى آبائه الأولين ، قوم نوح ..

وفى قوله تعالى : « أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذابٌ أليمٌ » إشارة إلى أن القوم كانوا على مشارف الهاوية التى تهوى بهم إلى الهلاك ، وأن نوحاً إنما بُعث إليهم ليحذرهم بهذا الخطر الذى يتهددهم ، ويوشك أن يشتمل عليهم . .

وفى قوله تعالى : « قال ياقوم إنى لكم نذير مبين » ـ بعد الأمر الذى أمر به من ربه ، دون توانٍ أو تردد ـ فى هذا مايشير أيضاً إلى أن الأمر يقتضى المبادرة بإنذار القوم ، قبل أن تقع بهم الواقعة التى هى وشيكة الوقوع !

وفى كلمات قليلة ، ألقى نوح إلى القوم بهذا الإنذار : « إنى لكم نذير مبين » .. إنه لا وقت للحديث ، والنار تشتمل على القوم ، وتكاد تعلق بهم .. إنها كلمة واحدة : أن اطلبوا وجهاً للنجاة من هذا البلاء ! !

ثم يقدم إليهم نوح بعد هذا التنبيه إلى الخطر ، مركبَ النجاة ، الذى إن أسرعوا إليه ، ودخلوا فيه ، سلموا من الخطر المحدق بهم .. وهو الإيمان بالله ، والاستقامة على طريق تقواه : « أن اعبدوا الله واتقوه » فإنهم إن آمنوا بالله ، وعبدوه ، واتقوا حرماته ، يدفع عنهم يد الهلاك المطلة عليهم ، ويؤخرهم إلى الأجل المسمى لهم ، حتى يستوفوا أعمارهم ، فلا يبادرهم العذاب ، وهم على طريق الحياة .. « يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى » ..

وقوله تعالى : « إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون » - إشارة إلى أن الآجال المقدرة لا تؤخر أبداً ، وأنه إذا انتهى الأجل الذى قدره الله ، للإنسان ، أو الجماعة ، فلن يؤخره الله سبحانه أبداً ..

وفى هذا احتراس لما يقع فى الأفهام ، من أن القوم إذا استجابوا لله امتدت أعمارهم ، إلى ما وراء الأجل المقدور لها عند الله .. وإنما هذا الامتداد للآجال الذى وُعدوا به ، هو فى ظاهر الأمر البادى لهم ، وهم فى يد الهلاك ، الذى سيأخذهم جميعاً .. وأنهم إذا استمعوا لما يدعوهم إليه نوح ، ونجوا من هذا الهلاك - كانت هذه النجاة قَدَراً من أقدارهم ، وكان الانتظار بهم هو الأجل المقدور .. كما أنهم لو عصوا نوحاً، ولم يقبلوا ما يدعوهم إليه ، ووقع بهم الهلاك - كان هذا الهلاك قَدَراً من أقدارهم ، وكان الموت المعجل لهم ، هو نهاية الآجال التى قدرها الله لهم ..

إن هذا التحذير ، هو أمر مطلوب ، وإن الفرار من وجه الخطر هو أمر مطلوب أيضاً ، فإذا نجا الناجى ، فإنما نجا لأنه لم يستوف أجله بعد ، وإذا هلك الهالك ، فإنما هلك لأن أجله المقدور له قد انتهى ..

ولقد دعا نوح قومه ، فلم يسمعوا له ، ولم يحفِلوا به ، فجاء إلى ربه شاكياً ..

* « قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً * فلم يزدهم دعائى إلا فراراً * وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا .. »

تلك هى حال القوم مع هذا النذير الذى جاء يدعوهم إلى النجاة من هذا البلاء المطل عليهم ، وتلك قصته معهم ، يعرضها على ربه ، شاكياً عنادهم ،طالباً من الله أخْذَهم بالعذاب الذى هم أهل له ..

وإن القوم ليبلغون فى السفاهة غايتها ، ويركبون من الجهل أشرس مطاياه والأمها . . إنهم كلما سمعوا صريخ النذير ، ازدادوا فراراً منه ، وقرباً من موقع الخطر الذى يحذرهم منه .. وإنهم كلما سمعوا صريخ هذا النذير ، جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، كأنما يسمعون منكرا ، يسدون عليه المنافذ أن يصل إلى آذانهم ، وإنهم لم يقفوا عند هذا ، بل غطوا وجوههم : « واستغشوا ثيابهم » أى جعلوها غاشية تحجبهم عن أن ينظروا فى وجه هذا النذير ، حتى لا يروا منه أية إشارة تشير إليهم ، وتحذرهم من الخطر الزاحف عليهم .. ! !

وفى قوله تعالى : « واستغشوا ثيابهم » إشارة إلى ما وقع فى نفوسهم من جفاء لهذا النذير ، وإلى ما أضمروا من عداوة له .. إنهم يتقونه كما يتقى الأطفال شبحاً مخيفاً يطلع عليهم فى أحلام اليقظة ، فلا يجدون سبيلا إلى الهرب منه ، إلا بحجز حواسهم عنه ، وإغلاق كل المنافذ التى بينهم وبينه ، من بصر أو سمع !

إنهم يُغَطّون وجوههم بثيابهم ، ويُدخلون رءوسهم فى جيوبهم ، خوفاً وهلعاً من هذا النور الذى يطلع فى سماء ليلهم المظلم البهيم . .

وقوله تعالى :

* « ثم إنى دعوتهم جهاراً * ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً » ..

هو بيان للأساليب المختلفة التى اتخذها نوح ، لينفذ بدعوته من هذه الحجب الصّفيقة التى أقامها القوم على أسماعهم ، وأبصارهم .. فهو تارة يدعوهم جهاراً ، صارخاً صراخ من يتحدث إلى أصمّ لا يسمع ، حتى يخترق بصراخه العاصف ، هذا السد الذى أقاموه على آذانهم . . فلما لم تنفع هذه الوسيلة ، معهم ، أمسك لسانه ، وزمّ شفتيه ، حتى إذا اطمأن القوم إلى أنه قد كف

عن الحديث إليهم ، همس إليهم همساً خافتاً ، لا يكاد يُسمع ، لعل كلمة عابرة تصل إلى أسماعهم من هذه النذر التى ينذرهم بها .. فهـذا إعلان فى إسرار ..

وفى العطف بثم فى قوله تعالى : « ثم إنى دعوتهم جهارا * ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا » .. فى هذا ما يشير إلى أن كل حال من تلك الأحوال كانت تستغرق وقتا طويلا ، يقف فيه نوح ، حتى يملّ الوقوف ، وحتى يستيئس من أن أحداً يسمعه .. إنه ينادى أمواتاً ، ويهتف بعوالم من الجماد ..

وقوله تعالى :

* « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفَّاراً * يرسل السّماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لـكم جنات ويجعل لـكم أنهاراً » .

هذا بيان لما كان يدعو نوح قومه إليه ، ويهتف فيهم به . . إنه يناديهم، ويُسرّ إليهم القول أن يستغفروا ربهم، إنه كان غفاراً ، يغفر لمن يستغفره ، ويرجع إليه تائباً نادماً . . وإنهم إن فعلوا هذا رزقهم الله رزقاً حسناً ، وأرسل السماء عليهم مدراراً ، أى بالمطر الـكثير ، حيث تخصب الأرض ، وتـكثر الثمرات والخيرات ، فحيث كان الماء ، كان الخصب والخير الـكثير فى الأموال والأنفس .. ومن هذا الماء يجعل الله لهم جنات ، ويجعل لهم أنهاراً دائمة الجريان ، تسقى هذه الجنات ، وتضمن لها حياة دائمة ، وخضرة مجددة ، وثمراً موفوراً .

والاستغفار الذى دعا نوح قومَه إليه ، هو دُعاء ، ولجأ إلى الله ، واستكانة إليه ، والدعاء مخّ العبادة ، لأنه لا يكون إلا عن إيمان بالله ، وثقة فيه ، وطمع

فى رحمته .. ولهذا كان دعاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند الاستسقاء فى سِنِى الجدب ، هو الاستغفار .. فقيل له إنك لم تدع بشىء ، أى لم تطلب شيئاً فى استسقائك ؟ فقال : « لقد استسقيت بمجاديح السماء [1] . التى بها يُستنزل المطر » يعنى أنه طلب السُّقيا من أوسع أبواب السماء ، بالاستغفار

قوله تعالى :

* « مالكم لاترجون لله وقاراً * وقد خلقكم أطواراً »

هو من دعوة نوح قومه ، إلى الإيمان بالله .. وهو فى هذا الاستفهام ينكر عليهم ماهم فيه من غفلة عن الله ، واستخفاف بجلاله وعظمته .. إنهم لايوقّرون له ، ولا ينظرون إليه نظر من يرجو ثوابَه ، ويخشى عقابه .. إنهم لا يعرفون الله ، ولا يَقْدُرونه قدره !

وقوله : « وقد خلقكم أطواراً » جملة حال ، من لفظ الجلالة .. أى مالكم لاتوقرون الله ، والحال والشأن أنه قد خلقكم أطواراً .. أى خلقاً من بعد خلق .. إذ كنتم نطفة فى بطون أمهاتكم ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظامًا ، ثم كُسيت هذه العظام لحمًا .. ثم خرجتم من بطون أمهاتكم أطفالا .. ثم لبستم خارج أرحام أمهاتكم أطواراً من الحياة ، فتنقلتم من الطفولة إلى الصبا ، إلى الشباب ، إلى الكهولة ، إلى الشيخوخة .. وهكذا كانت يد القدرة القادرة تنتقل بكم من طورٍ إلى طورٍ ، وبين الطور الأول والأخير مرَاد فسيح لذوى الأبصار ، يرون فيه قدرة الخالق ، وعظمته وحكمته، فتخشع الأبصار لجلاله ، وتعنوا الجباه لقدرته ..

---

(١) المجاديح : جمع مجدح ، وهو النوء الذى ينزل معه المطر ، على حسب تقدير العرب فى الجاهلية .

الآيات : (١٥ — ٢٥)

* « أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً »

هو من دعوة نوح إلى قومه ، ومن نصحه لهم ، وإلفاتهم إلى ما لله سبحانه وتعالى من قدرة قادرة ، وحكمة بالغة ، وإحسان عظيم .

وفى هذا الاستفهام ، دعوة إلى إيقاظ هذه العقول النائمة ، وفتح تلك العيون المغلقة ، التى لا ترى شيئاً فيما حولها من هذا الوجود ، وما فيه من آيات شاهدة على قدرة الله وحكمته .

وقوله تعالى: «وجعل القمر فيهن نوراً، وجعل الشمس سراجاً» أى وجعل فى هذه السموات التى يعلو بعضها بعضاً، ويُطبق بعضها على بعض - جعل فى هذه السموات: القمر، مبعثاً للنور، وجعل الشمس سراجاً، يبعث الضوء والحرارة معاً..

فالنور الذى يصدر عن القمر، هو نور لا حرارة فيه، لأنه من انعكاس ضوء الشمس على جسمه المعتم، فإذا انعكس الضوء على هذا الجِرم، شعّ منه هذا النور الذى يبدد ظلمة الليل، ويملأ العيون بهجة، والقلوب أنساً..

أما الشمس، فهى سراج يتوقد، كما يتوقد السراج، فترسل الضوء والحرارة.. وهى سرّ حياة الكائنات الحية، وسر حركة الهواء، ونزول الأمطار، ونور القمر.. وغير ذلك كثير، مما كشف عنه العلم.

قوله تعالى:

* «والله أنبتكم من الأرض نباتاً، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً»

هو من حديث نوح إلى قومه أيضاً.. إنه يكشف لهم فى هذا الحديث عن تطورهم فى الخلق، وأنهم نبتوا من الأرض، كما ينبت النبات.. فمن تراب هذه الأرض تخلقت الكائنات الحية، ومن ترابها تخلق الإنسان.. وإن أقرب صورة وأظهرها لتخلقه من الأرض: أن هذه النطفة التى تخلّق منها، هى من نبات الأرض، أى من الغذاء الذى مصدره هذا النبات.. فإذا امتد النظر إلى آفاق بعيدة وراء هذه النظرة المحدودة القريبة، أمكن أن يُرى على الأفق البعيد: أن الإنسان فرع من شجرة الحياة التى تضرب جذورها فى أعماق بعيدة من الأرض[1]..

---

(١) انظر فى هذا المبحث الخاص فى سورة البقرة: «آدم، ومادة خلقه».

قوله تعالى :

* « ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً » .. أى كما أنبتكم الله تعالى من الأرض ، يعيدكم إلى الأرض ، كما يعود إليها النبات ، بعد أن يستوفىَ حياته فوقها .. ولكن لن تظلوا هكذا فى التراب ، كما يظل النبات الذى عاد إليها ، بل تخرجون منها مرةً أخرى ، إلى حياة غير حياتكم الأولى .. إلى الحياة الآخرة ، وإلى الحسابِ والجزاء ..

قوله تعالى :

* « والله جعل لكم الأرض بساطاً * لتسلكوا منها سبلا فجاجاً » .

أى أن الله سبحانه قد جعل لكم هذه الأرض بساطاً ، أى مقاماً ممهداً ، كالبساط ، تستقرون عليه ، وتتحركون فوقه ، من غير أن يحجزكم حاجز ، أو يعوقكم عائق .. وبهذا تستطيعون أن تتحركوا على الأرض كما تشاءون ، وأن تنطلقوا إلى أى اتجاه تريدون ، حيث تتسع أمامكم وجوه الحياة ، والتقلب فى وجوه الرزق ..

والفجاج : جمع فجّ ، وهو الطريق المتسع بين جبلين ..

وهذا يعنى أن هذه السهول الممتدة بين الجبال ، هى طرق ، ومسالك للعمل فى الحياة ، والتقلب فى وجوه الأرض ..

قوله تعالى :

* « قال نوح ربِّ إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً »

شَكاة ضارعة من نوح إلى ربه ، يشكو فيها قومه ، الذى أصمّوا آذانهم عنه ، وأعرضوا عن الاستجابة له ، على حين أنهم استجابوا لمن يدعونهم إلى الغواية والضلال ، من أولئك الذين لا يزيدهم ما يمدهم الله به من نعمه ، وما يزدادون

به أموالا ، وأولادًا، إلا خسرانًا ، وضلالا ، وبعدًا عن طريق الهدى ،ومحادّة لله ، ولأولياء الله . .

قوله تعالى :

* « ومكروا مكرًا كُبّارًا » . .

معطوف على قوله تعالى : « واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا » أى أنهم قد ولّوا وجوههم إلى حيث يدعوهم رؤساؤهم ، وأصحاب المال والقوة فيهم ، إلى مايدعونهم إليه من ضلال ، وفجور - بل ولم يقفوا عند هذا بل أخذوا يدبرون السوء والمكروه لنوح ، ولدعوته ، ويبيتون له الشر الذى يلقونه به هو ومن آمن معه .

والمكر الكبار : هو المكر البالغ غاية السوء . . وهو مبالغة من المكر الكبير . .

قوله تعالى :

* « وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن وَدًّا ولا سُواعًا ، ولا يغوثَ ويعوقَ ونَسرًا » .

هذا بيان لبعض ما كان من مكرهم وتدبيرهم فيما بينهم . . فقد تواصوا فيما بينهم ، على التمسك بآلهتهم تلك ، وألا يصرفهم عنها مايدعوهم إليه نوح ، من الإيمان بالله . . إنها دعوة منهم إلى أنفسهم يردّون بها دعوة نوح إليهم ، حتى يبطلوا مفعولها ويفسدوا آثارها . .

ودّ ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، هى بعض آلهتهم ، ذوات الشأن ، والمقام فيهم ، هذا إلى آلهة كثيرة لهم ، ولكنهم اختصّوا هذه الآلهة بالذكر ، وعينوها بالاسم ، لما لها من مكانة خاصة فى نفوسهم . .

وقد ورث مشركو العرب هذه الآلهة ، فبعثوها من مرقدها ، بعد أن

غرقت فيما غرق بالطوفان ، وجعلوها آلهة يعبدونها من دون الله ، كما كان يعبدها قوم نوح .. ولهذا كان من الأسماء المعروفة عند مشركى الجاهلية التى يسمون بها أبناءهم : عبد يغوث ، وعبد وُدّ .. فما أشبه هؤلاء المشركين بقوم نوح ، وما أجدرهم بأن يلقوا المصير الذى صار إليه القوم .. ومع هذا فإنهم وإن لم يغرقوا بالطوفان ، فقد غرقوا فعلا فى طوفان ضلالهم وكفرهم بآيات الله . .

قوله تعالى:

* « وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالا » ..

أى وأنهم ضلوا أنفسهم ضلالا كثيراً ، لا يرجى لهم معه رجعة إلى الله ..

أو أنهم أضلوا كثيراً غيرهم ، واستمالوهم إلى موقفهم الضالى ، ليكون لهم منهم قوة ، ودولة ..

وهذا من كلام نوح عليه السلام ، ومن شكاته إلى ربه ، . وهو حال من أحوال قومه . .

وقوله تعالى : « ولا تزد الظالمين إلا ضلالا » — هو دعاء من نوح إلى ربه ، يدعو به على قومه أن يزيدهم الله ضلالا إلى ضلالهم ، بعد أن وقفوا منه هذا الموقف المعرق فى العناد والسفه ، وبعد أن ضلوا هذا الضلال البعيد ..

قوله تعالى:

• «مما خطيئاتهم أُغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدُوا لهم من دون الله أنصارا» .

هو تعقيب على دعاء نوح ، بلسان الوجود ، الذى شهد عاقبةَ أمر القوم ، وما أخذهم الله به من هلاك فى الدنيا ، وما وراء هـذا الهلاك من عذاب أليم فى الآخرة . .

وقوله تعالى : « مما خطيئاتهم أغرقوا » أى من خطيئاتهم أغرقوا ، أى من جهة هذه الخطيئات كان غرقهم ، ومن هذه الخطيئات طلع عليهم الهلاك . . فـكأنّ خطاياهم هى هذا الطوفان الذى أغرقهم . .

و « مما » هى : من ، وما ، « ومن » هى حرف الجر المسلط على « ما » و « ما » نـكرة ، بمعنى شىء ، مهول ، ومخيف . . ففى تجهيل هذا الشىء ، وصف له بكل ما يخيف ويفزع ، ولهذا صح أن تجىء « خطيئاتهم » — وهى معرفة — بدلا منه .

الآيات : (٢٦ — ٢٨)

« وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْـكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الـكافرين دياراً » .

الواو هنا للاستئناف ، وعطف موقف على موقف . . فالعطف هنا يشعر بأن نوحاً فى موقف آخر ، غير الموقف الذى كان يقفه بين يدى ربه ، ويشكو إليه قومه وما صنعوا معه . .

وهو هنا فى هذا الموقف الذى بلغ به غاية المطاف مع قومه ، يُنهى موقفه معهم ، ويقطع صلته بهم ، ويطوى صفحة رسالته فيهم ، بهذا الدعاء الذى يدعو به عليهم .. « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » أى ساكن دار ، وهو كناية عن القضاء على كل كافر ، وما يضم بيته من مال ومتاع . . والمراد بالأرض هنا ليس مطلق الأرض ، بل الأرض التى كان يسكنها قومه .. فإن نوحاً أرسل إلى قوم ، ولم يرسل إلى الناس جميعاً .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى أول السورة : « إنا أرسلنا نوحًا إلى قومه » ولو كان مرسلا إلى أهل الأرض جميعاً ، لجاء النظم هكذا : إنا أرسلنا نوحًا إلى بنى آدم .. مثلا ..

قوله تعالى :

* « إنك إن تذرهم يُضلّوا عبادَك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » .

وفى هذا ما يشير إلى مالقى نوح من قومه ، وإلى ما تحمل نفسه من بغضة لهم ، بعد أن تكشفت له أحوالهم ، وعرف الداء الخبيث المتمكن منهم ، والذى لا شفاء لهم منه أبداً ، بل إنه سيكون مصدر عدوى ، تذيع الكفر والضلال ، وتنشره فى الأرض ، بما يخرج من ظهورهم من أبناء يحملون جرثومة هذا الداء الخبيث الذى يعيش فى كيانهم .

والفاجر : هو الذى جاوز الحد فى ارتكاب الآثام ، ومقارفة الشرور ، فى غير تحرج أو تأثم . .

والكَفّار : صيغة مبالغة من الكفر ، وهو الذى بلغ كفره غايةً ليس بعدها كفر .

قوله تعالى :

* « رب اغفر لى ولوالدىّ ولمن دخل بيتى مؤمنا والمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا » .

وفى مقابل نقمة نوح على الكافرين والضالين ، تتفتّح عواطف الرحمة والحنان كلها فى قلبه ، فيحيلها دعوات ضارعة إلى الله بالمغفرة له ، ولوالديه ، ولمن دخل بيته مؤمنا والمؤمنين والمؤمنات ..

ومن دخل بيت نوح مؤمنا ، هم أهله ، إلا امرأته ، وابنه ، أو هم الذين دخلوا معه دين الله ، أو دخلوا معه السفينة .. ويكون دعاؤه للمؤمنين والمؤمنات — على هذا المعنى — متجهاً إلى أهل الإيمان جميعاً ، فى كل زمان ومكان ..

وقوله تعالى : « ولا تزد الظالمين إلا تبارا » .. هو بقية من المرارة والألم الذى كان يجده من قومه ، والذى لم يذهب به كل ما دعا عليهم به من مهلكات ، فلم ينس وهو يطلب لنفسه ولوالديه ، وأهله ، والمؤمنين والمؤمنات الرحمة والمغفرة من الله — لم ينس أن يجعل خاتمه دعائه ، أن يرمىَ القوم الكافرين بآخر سهم معه ، حتى بعد أن صاروا جثثا هامدة ..

والتباب : البوار ، والهلاك ، والبعد عن كل خير .. ومنه قوله تعالى : « تبت يدا أبى لهب وتب » ..

هذا ، وقد يبدو أن هذا الموقف الذى وقفه نوح من قومه ، فيه جفاء لهم ، وغلظة عليهم ، وأنه لم يأسَ على هلاكهم ، ولم تعطفه عليهم عاطفة

رحمة أو إشفاق ، فرماهم بكل مهلكة ، وصبّ عليهم المثلات صبًّا . .

هذا ، ما يبدو فى ظاهر الأمر ..

ولكن ، الذى يراجع حياة نوح مع قومه ، وهذا الأمد الطويل الذى قضاه بينهم ، وهو كما يقول القرآن الكريم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، لم يدعْ فيها نوح لحظة إلا واجه فيها قومه ، ولا طريقاً إلا سلكه إليهم — ومع هذا فإن القوم لم يزدادوا إلا سفهاً وضلالا ، وإلا مبالغة فى الكيد له ، والعدوان عليه ، حتى لقد فتنوا فيما فتنوا امرأتَه ، وولده ، وهذه أعظم بلية يُبتلى بها صاحب دعوة فى محاربة دعوته ، إذ يقوم منها أبلغ شاهد على خذلانه وإبطال حجته على الناس لما يدعوهم إليه ..

إن الذى يراجع هذا الموقف بين نوح وقومه ، يجد أن نوحاً عليه السلام ، كان أكثر أنبياء الله صبراً وحلماً ، واحتمالا . . فما من نبى ظل فى موقف الدعوة ، يحارب أهل الضلال مثل هذا الأمد الطويل الذى وقفه نوح عليه السلام .. ولهذا كان عليه السلام واحداً من أولى العزم من رسل الله ، عليهم صلوات الله ، ورحمته ، وبركاته .

* * *

٧٢ - سورة الجن

نزولها : مكية .. نزلت بعد الأعراف

عدد آياتها : ثمان وعشرون آية

عدد كلماتها : مئتان وخمس وثمانون كلمة

عدد حروفها : تسعمائة وتسع وخمسون .. حرفا .

مناسبتها لما قبلها

تكشف سورة الجن فى صورة عملية ، عما فى الإنسان من جانبى الخير والشر ، وأنه حين تنتكس طبيعته ، ويغتال جانبُ الشر فيه جانبَ الخير ، يتحول إلى شيطان رجيم ، تعوذ منه الشياطين ، أو تتلمذ عليه !

وهذا الإنسان الشيطانى يبدو على أتم صورته المنكوسة تلك ، فى قوم « نوح » كما يبدو هذا الإنسان على صورة مجسدة فى كثير من مشركى قريش ، كأبى جهل ، والوليد بن عقبة ، وعقبة بن أبى معيط ، وغيرهم من شياطين قريش ، الذين تصدوا للدعوة الإسلامية ، وكادوا لرسول الله والمسلمين أعظم الكيد ، فلم يَدَعوا وسيلة يتوسلون بها إلى أذى النبى وأصحابه إلا تواصوْا بها ، واجتمعوا عليها .

وفى سورة الجن صورة للخير ينبت فى منابت الشر ، ويطلع ثمره الطيب ، من بين وسط هذا اللهب المتضرم .

فمن عالم الجن العاصف بالشرور المحرقة ، تهب تلك الأنسام الرقيقة المنعشة ، فى صورة جماعة مؤمنة منهم ، لم تكد تستمع إلى آيات الله ، يتلوها رسول الله فى ليلة من لياليه مع ربه — وكل لياليه لربه ، ومع ربه — حتى أنصتوا إليه ، وآمنوا به ، ثم انقلبوا إلى قومهم منذرين !

فبين سورة « نوح » وسورة « الجن » مقابلة بين عالمين : عالم الإنس ، وعالم الجن ، وفى عالم الإنس شرّ كان حريًّا أن يكون خيرا ، وفى عالم الجن خير ، كان متوقعا أن يكون شرا . . وفى هذا عبرة ، وذكرى لأولى الألباب .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٥)

« قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا (١) يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ

ءَامَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

« قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » .

جاء فى سورة الأحقاف قوله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولّوْا إلى قومهم منذرين * قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم * ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين » (٢٩ — ٣٢ : الأحقاف) — وهذا يعنى أن الجن عقلاء ، مكلفون من الله سبحانه وتعالى ، ومدعوون إلى الإيمان بالله على يد رسل منهم ، أو من البشر ، فقد كان منهم المؤمنون بشريعة موسى عليه السلام ، كما كان منهم الذين آمنوا بشريعة الإسلام .

وهذه الآيات ، هى إخبار خاص للنبى — صلوات الله وسلامه عليه — بما كان من توجيه الله سبحانه وتعالى نفرا من الجن إلى مجلس النبى، يستمعون إليه ، وهو يتلو آيات الله ، ليلةَ مبيته بموضع يقال له نخلة ، وهو فى طريق عودته من ثقيف ، بعد أن جاءهم يعرض عليهم الإيمان برسالته ، فجبهوه بالبهْت ، وردوه فى غلظة وجفاء .

وقد سعد النبي الكريم بهذا الخبر الذي تلقاه من ربه ، وأن مالقيه من ثقيف لم يكن إلا حَدَثا عارضا ، وأن أمداد الله سبحانه وتعالى إليه لا تنقطع أبدا ، وأنه إذا كان الإنس قد أبوْ أن يقبلوا هذا الخير الذي يدعوهم إليه ، كما أبوا على آذانهم أن تستمع إلى آيات الله يتلوها عليهم — فإن لله جندا فى عالم الظلام والضلال — عالم الجن — قد خرجوا من هذا الظلام إلى النور ، وجاءوا إلى حيث يتلو النبي آيات ربه ، فاستمعوا إليه ، وآمنوا به ، وأصبحوا دعاةً لدعوته ، وجندا يدافعون عنها ، ويقاتلون فى سبيلها . .

لقد كان هذا الخبر زاداً طيباً للنبي الكريم ، يتزود منه على مسيرة دعوته ، التي توشك أن تنتهي المرحلة الأولى منها ، فيتحول بعدها النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من مكة إلى المدينة ، بعد أن يلتقى بأهل السابقة من الأنصار ، الذين جاءوا ليبايعوه على الإسلام ، والنصرة ، فى بيعتى العقبة الأولى والثانية(١)

وهنا فى سورة « الجن » أمر من الله تعالى للنبي بأن يتحدث إلى قريش ، وإلى الناس عامة ، بأنه قد تلقّى وحياً من ربه ، بأن نفرا من الجن ، قداستمعوا إليه ، وآمنوا به ، وتحدثوا عن القرآن الذى استمعوا إليه ، هذا الحديث الذى يصفُ القرآنَ ببعض ماله من صفات المجادة والعظمة والجلال . .

وقد يقول قائل : ماالفرق بين الخبر الذى تلقاه النبي فى سورة الأحقاف ، وهذا الأمر الذى تلقاه فى سورة « الجن » وهو يحمل فى كيانه محتوى هذا الخبر الذى تلقاه فى سورة الأحقاف ؟ وما الفرق بين أن يجىء الخبر غير مصدّر بالأمر بالقول ، وبين الخبر الذى يجىء مطلقا ، إذا كان القرآن كله فى معرض العرض على الناس ، دون أن يختص النبي بشىء منه يحتجزه لنفسه ، ولا يذيعه فى الناس ؟

(١) انظر فى هذا المبحث الخاص تحت عنوان : بيعة العقبة وليلة الجن « التفسير القرآنى للقرآن » ــ الكتاب الثالث عشر ـ سورة الأحقاف

ونقول - والله أعلم - إن الخبر الذى تصدَّر إلى النبى بهذا الأمر من الله سبحانه بلفظ « قل » إنما يراد به مواجهة المشركين خاصة ، والاستعداد لتلقى ما يثيره هذا الخبر فيهم من ثائرات البهت والتكذيب ، وما يفتح لهم من أبواب التشنيع على الرسول والسخرية منه ، وأن على النبىّ ألا يلتفت إلى تخرصات هؤلاء المشركين ، ولا يحفل بما يهرفون به من لغو وهذر ، إزاء هذه الحقيقة التى استيقنها النبىّ ، بعد أن أخبره الله سبحانه وتعالى بها ، فى الآيات التى تلقاها من سورة الأحقاف . .

فالخبر الذى تلقاه النبىّ - صلوات الله وسلامه عليه - فى سورة الأحقاف : « وإذا صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن . . . » هو أشبه بالسرّ بينه وبين الله سبحانه وتعالى ، وإن كان هذا السرّ لا يلبث أن يذاع بعد أن تلقاه النبىّ قرآناً يتلوه على الناس . .

أما الخبر الذى تلقاه - صلوات الله وسلامه عليه . . فى سورة الجنّ ، فهو أمر بالمبادرة بإذاعة هذا السرّ ، الذى كان من شأنه أن يذاع ، إن لم يكن اليوم فغداً ، أو بعد غد . . إنه حثّ على المبادرة بإذاعة هذا الخبر ، وتلاوته جهراً على الناس حتى يقرع أسماع المشركين ، وليكن منهم ما يكون !!

وسؤال آخر .. هو :

(مخاطبات القرآن وحكاياتها كما هى .. ما سرّها ؟)

هذا الخبر ، أو هذه الأخبار ، التى يتلقاها النبىّ - صلوات الله وسلامه عليه - مصدّرةً بلفظ « قل » أو « يا أيها النبىّ » أو « يا أيها الرسول » لماذا يلتزم النبىّ أن ينقلها كما تلقاها ، دون أن يتصرف فيها ، فيأخذ منها ماله ،

ويَدَع ماليس له ، بمعنى أن يقطع مقول القول، عن القول ، أو أداة النداء والمنادى، عن الخاطب به ، فيقول ماأُمر بقوله ، دون أن يصدره بلفظ : قل، أو يا أيها النبيّ ؟ إن المألوف فى لغة التخاطب أن يقال للإنسان مثلا : قل : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . . فيقول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ولا يقول : « قل لا إله إلا الله محمد رسول الله » : إنه لو قال هذا لما كان ممتثلا للأمر . بل مردّداً لصدى الكلام الذى سمعه . . أفهذا كان شأن رسول الله حين لم ينقل الصورة اللفظية التى سمعها ، قولا ، ومقولا ؟

والجواب ــ والله أعلم ــ من وجوه :

فأولا : هذا الأمر الموجه إلى النبيّ ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ والمصدّر بلفظ « قل » هو أمر صادر إليه من الله سبحانه وتعالى ، وأن هذا الذى يوحَى من الحق جل وعلا ، يملأ الوجود كله، ويسرى فى كل ذرّة من ذرّاته ، فهو ليس مجرد قول من شخص إلى شخص ، وإنما هو من كلام ربّ العزّة ، الذى تبلغ كلماته أسماع الكون ، وتنفذ إلى أعماق كل ذرة موجودة فيه .

وثانياً : وتأسيساً على هذا . . أن النبيّ صلوات الله وسلامه عليه . . حين تبلغه كلمات ربّه ، يمتلىء بها كيانه ، وتفيض بها مشاعره ، وتلبسه هــذه الكلمات كما تلبس الروحُ الجسد . . ومن هنا فإنه لا يستطيع أن يفصل بعضاً منها عن كيانه ، كما لا يستطيع الإنسان أن يقطع بعض روحه ، لأنها سر مضمر فيه ، يجده ملء وجوده ، ولكن لا يعرف لها ذاتاً ، ولا كنهاً ، ولعلّ هذا من بعض ما يشير إليه قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا »

فإذا كان ما يتلقاه النبيّ - صلوات الله وسلامه عليه - من كلمات ربّه ، هو روح منه ، فهل يستطيع أن يغيّر من حقيقة الرّوح ؟ : « قل الرّوح من أمر ربّى » (٨٥ : الإسراء) . . فهو سبحانه وحده ، الذى يملك أمرها ، ويملك أن يغير أو يبدّل فيها كما يشاء . . ولعل هذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى : « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا . . لا مبدّل لكلماته » (١١٥ : الأنعام) .

وثالثاً : أن اتصال الأمر بالمأمور به فى كتاب الله ، يجعل المأمور به دائماً حيًّا فى حياة الناس جميعاً ، ويجعل المؤمنين به فى حال حضور مع النبى ، وهو يتلقى أمرَ ربه .. فكلما تلا المؤمنون آية من آيات الله ، فيها خطاب من الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم - تمثّل لهم منها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلقى هذا الخطاب من ربه ، ويصدع ، بما يحمل هذا الخطابُ إليه من أمر ، أو نهى .. وهذا من شأنه أن يحرك مشاعرهم إلى متابعة النبى والتأسّى به ، كلما تلوا آيات الله ، وطلع عليهم هذا المشهد الذى يرون فيه رسول الله فى مجلس التأديب والتعليم من ربه .. وهذا هو بعض السر فى أن كانت تلاوة القرآن ، من عبادة المؤمنين التى تعبّدهم الله تعالى بها . . كما يقول سبحانه « فاقرءوا ما تيسر من القرآن »(٢٠ : المزمل) .

ورابعاً : فى خطاب الله سبحانه وتعالى للنبىّ ، وفى خطابه سبحانه للمؤمنين ، فى القرآن الكريم ، شاهد يشهد بأن هذا القرآن هو من عند الله سبحانه وتعالى ، لفظاً ومعنى ، وأنه ليس للنبى فيه كلمة واحدة ، وأنه كلام الله سبحانه وتعالى ، وأن النبى هو اللسان الذى أنطقه الله بكلماته التى أوحاها إليه ، فسمعها الناس منه دون أن يبدل حرفاً منه . . فإن الذى يتلقاه النبىّ من كلمات ربّه ، هو روح تستولى عليه وتشيع فى كيانه كله .

ويمكن أن نشبه هذا ـ مع الفارق البعيد فى صورتى التشبيه ـ بما يكون من مسجِّلة الصوت ، حين تلتقط صوتاً ما ، ثم تعيده كما تلقته ، دون أن يقع فيه أى تبديل ، أو تحريف . .

فالنبى صلوات الله وسلامه عليه ، إذ يسمع قوله تعالى له : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب الأسباط . . الآية : (٨٤:آل عمران) ـ لايملك أن يبدل حرفا مما سمع ، ولا يستطيع إلا أن يقول كما سمع : « قل آمنا بالله ، وما أنزل علينا . . الآية »

والنبى إذ يسمع قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ». (١٩٩ : الأعراف) ـ لا يستطيع إلا أن يقول : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ..

وهكذا يحكى النبىّ ماسمع ، دون أن يبدل كلمة ، أو يغير حرفاً . . والله سبحانه وتعالى يقول له : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » (٦٧ : المائدة)

فالأمر بالتبليغ ، هو أمر بتبليغ ما أنزل إليه ، كما هو ، كلمة كلمة ، وحرفاً حرفاً . . فإن بدل حرفاً ، أو غير كلمة ـ وحاشاه — فما بلّغ ما أنزل إليه من ربه .. إنه المطلوب من النبى فى مقام التبليغ أن يقول مايقال له من ربه ، لأن ما أنزل إليه ، سواء أكان خطاباً خاصاً ، أو خطاباً عاماً للناس — هو منزل للناس أيضاً ، كما يقول سبحانه : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم » (٤٤ : النحل)

فهو — صلوات الله وسلامه عليه — مطالب أولاً بأن يبلّغ الناس مانزّل

إليهم ، وهو مانَزّل عليه من كلمات الله . . ثم هو مطالب ثانيا ، بعد هذا التبليغ أن يبين للناس ماخفى عليهم فهمه مما نزل عليهم من آيات الله . . فالتبليغ شأن ، وبيان مايبلّغه شأن آخر . .

وبهذا التدبير الحكيم فى نظم القرآن ، يظل النبى صلوات الله وسلامه عليه ، قائما فى مقام الخطاب من ربه ، وفى الحضور بين يديه ، كلما تلا آية من آيات الله ، أو سمع تاليا يتلوها عليه ، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم ، كان يطلب إلى بعض أصحابه أن يقرءوا عليه ماتيسر من كلام الله ، فيقول قائلهم له: أأتلوه عليك وعليك أُنزل ؟ فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « نعم إنى أحب أن أسمعه من غيرى .. ففى البخارى عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأ علىّ » فقلت يارسول الله : أقرأ عليك وعليك أُنزل ؟ قال : « نعم .. إنى أحب أن أسمعه من غيرى » فقرأت سورةَ النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) فقال : « حسبك الآن » . . فإذا عيناه تذرفان » .

وهذا الأسلوب الذى جاء عليه نظم القرآن ، والذى يجعل النبى فى مقام الحضور ، والخطاب من الله بكلمات الله — هذا الأسلوب من شأن القرآن وحده ، ومما اختص به من بين الكتب السماوية المنزلة . .

فالتوراة ليس فى نظمها موقف واحد لأى نبى من الأنبياء مع الله سبحانه وتعالى ، يمثله فى موقف حضور وخطاب من الله سبحانه ، حتى موسى عليه السلام الذى كلمه الله تكليما من غير وساطة مَلَك الوحى ، جاءت كل كلمات الله سبحانه وتعالى إليه فى التوراة على سبيل الحكاية . . هكذا : « وكلم الرب موسى قائلا : « فى الشهر السابع ، فى أول الشهر يكون لكم عطلة ، تذكارُ هتاف البوق محفل مقدس .. عملا ما من الشغل لا تعملوا ، ولكن تقدمون وقوداً للرب . .

وكلم الرب موسى قائلا : « أما العاشر من هذا الشهر السابع فهو يوم الكفارة.. محفلا مقدساً يكون لكم ، تذللون نفوسكم ، وتقدمون وقوداً للرب» (لاويين الإصحاح : ٢٣) ..

وتقول التوراة أيضاً : « فقال الرب لموسى : قل لهرون مُدَّ يدك بعصاك على الأنهار والسواقي والآجام ، وأَصْعِدْ الضفادع على أرض مصر .. فمدّ هارون يده على مياه مصر ، فصعدت الضفادع ، وغطت أرض مصر ، وفعل كذلك العرافون بسحرهم وأصعدوا الضفادع على أرض مصر » (خروج : الإصحاح : ٨) ..

وتقول التوراة : « فقال الرب لموسى : انظر .. أنا جعلتك إلهاً لفرعون وهرون أخوك يكون نبيك .. أنت تتكلم بكل ما آمرك ، وهرون أخوك يكلم فرعون ليطلق بنى إسرائيل من أرضه » (خروج : الأصحاح : ٧) ..

وهكذا تمضى كل مخاطبات التوراة ، فيما يتلقى موسى من ربه ، وفيما يتلقى بنو إسرائيل من موسى ..

وهذا يعنى أن موسى عليه السلام ، كان بعد أن يتلقى كلمات الله سبحانه وتعالى إليه ـ كان يلْقِىَ قومه بما أمره به فيهم ، فيقول لهم : قال الله لى كذا ، وكذا ، فيكتبون هم : قال الله لموسى كذا ، وكذا .. دون أن يتقيدوا بالنص الحرفى لما سمعوه من موسى ، فبدلا من أن يكتبوا : قال الله لى كذا ، يكتبون : قال الله لموسى كذا وكذا ، كما أن موسى عليه السلام ، لم يتقيد بالنص الحرفى لما استمع من ربه ، فبدلا من أن يقول ، كما قال الله سبحانه وتعالى له : ياموسى افعل كذا ، أو قل لقومك كذا » ـ بدلا من أن يقول هذا ، يقول : قال الله لى افعل كذا ، أو افعلوا كذا ..

وهذا الخروج على النص الحرفى ، وإن بدا أنه مما يقتضيه الحال ، حيث ينتقل موسى من حال المخاطَب (بفتح الطاء) إلى حال المخاطِب (بكسر الطاء) وحيث ينتقل قومه من حال المواجهة له ، إلى حال الغيبة فى نقل ما سمعوا منه ـ هذا ، وإن بدا أنه لازم لمراعاة مقتضى الحال ـ إلا أنه يشير إلى أمور :

أولها : أن كلمات الله التى استمع إليها موسى ، ظلت مرتسمة فى كيانه ، مضمرة فى فؤاده ، وأن ما ينشره على قومه منها إنما هو صورة هذه الكلمات وظلالها ، والأنوار المشعة منها .. أما ما تلقاه محمد من كلمات ربه ، فإنه عرضها كما سمعها ، حرفاً حرفاً ، وكلمة كلمة .. كما يقول له سبحانه له . « اتل ما أوحى إليك من الكتاب » (٤٥ : العنكبوت) . .

وذلك أنه ليس المطلوب من كلمات الله إلى موسى أن يقيم منها معجزة متحدّية ، على خلاف ما أوحى الله به إلى محمد من كلماته ، فإنه سبحانه جعل على فمه معجزاتٍ متحدية .. وإن المعجزة لاتتم حتى تُعْرَضَ كما تلقاها من ربه ، دون أن يغير من وضعها ، أو يبدل من صورتها . .

وثانياً : أن ما أوحى الله سبحانه وتعالى به إلى موسى ، يجوز روايته بالمعنى ، دون التقيد بالنص اللفظى ، على خلاف القرآن الكريم ، فإنه لا يجوز روايته أو تلاوته بالمعنى ، كما يجوز ذلك فى الحديث القدسىّ ، الذى يشبه وحى التوراة .

وثالثاً : أن القرآن الكريم ، هو الكتاب الذى تأخذ آياته ، وكلماته ، الوصفَ بأنها آيات الله ، وكلمات الله ، وأن التوراة وغيرها من الكتب السماوية ، تأخذ الوصف بأنها وصايا الله ، أو أوامر الله ، أو شريعة الله ..

وأما تكليم الله سبحانه وتعالى لموسى فهو خاص بموسى وهو أوامر الله سبحانه وتعالى إليه هو ، فى خاصة نفسه .. أما الشريعة التى حملها موسى إلى قومه ،

فهى ماتضمنته الألواح التى تلقاها موسى من ربه ، فهى أشبه بالأحاديث القدسية التى تلقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى لموسى عليه السلام :

« ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ، وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء » (١٤٤ ـ ١٤٥ : الأعراف)

فالله سبحانه وتعالى — كما تشير الآيات ـ قد اصطفى موسى بهذه الرسالات التى تلقاها لتكون شريعة لقومه ، كما اصطفاه بتكليمه . فالرسالات التى تلقاها موسى شىء ، وتكليم الله له شىء آخر .. كلام الله صفة من صفاته ، والرسالات خلق من خلقه .

وعلى هذا ، فالقرآن الكريم خطاب مباشر من الله سبحانه وتعالى للنبى والمؤمنين ، أما التوراة ، فهى حكاية خطاب الله تعالى لموسى ، ثم هى حكاية لخطاب موسى لقومه الذين تلقوها منه .

ونعود بعد هذا إلى موقفنا بين يدى قوله تعالى :

« قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجنّ فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً » .

النفر : الجماعة بين الثلاثة والعشرة . .

والاستماع : الإصغاء والالتفات إلى المسموع . .

وهذا يعنى أن جماعة الجنّ التى توافدت على مجلس القرآن بين يدى النبىّ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد أعطت سمعها للقرآن ، والتفتت بمشاعرها كلها إليه . . ذلك أنّ « استمع » غير « سمع » من حيث المعنى الاشتقاقى الذى يدل عليه كلّ منهما لما يُسمع ، فالاستماع يدل على التطلع إلى سماع الحديث

والإقبال عليه ، أما « السمع » فيدلّ على مجرّد وقوع المسموع إلى أذن السامع ، سواء أكان ذلك عن قصد ، أو غير قصد ، وسواء أكان مقبلا أو معرضاً !

ولهذا جاء الأمر إلى المؤمنين وهم فى مجلس القرآن أن يستمعوا ، كما يقول سبحانه وتعالى : « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم تُرحمون » (٢٠٤ : الأعراف) ولم يجىء الأمر بلفظ « اسمعوا » . . فإن الاستماع هو الذى يحقق معنى الإصغاء والإنصات الذى جاء تالياً للأمر بالاستماع . وإنه بغير الاستماع لا يتحقق الإصغاء . . وهذا ما كان من الجنّ فى مجلس القرآن ، ودعوة بعضهم بعضاً إلى الإنصات إليه ، كما يقول سبحانه ، عنهم : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا » (٢٩ : الأحقاف) .

فالله سبحانه ، قد وجههم إلى النبى مستمعين ، لا سامعين . .

وهذا يعنى أيضاً أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يعلم بأمر هؤلاء الجن الذين استمعوا إليه فى تلك الليلة ، حتى أنبأه الله سبحانه وتعالى بذلك ، ولم تكن منه فى تلك الليلة دعوة إليهم ، وإنما هم الذين دَعَوْا أنفسهم إلى الإيمان ، بعد أن استمعوا إلى ما استمعوا إليه من آيات الله التى كان يتلوها النبى ، قائماً بين يدى ربه ، متعبدا بتلاوتها . .

وفى هذا إشارة إلى تلك المفارقة البعيدة بين المشركين الذين يُدْعَون إلى آيات الله ، فلا يستمعون إليها ، ولا يؤمنون بها ، وبين الجن الذين يُضرب بهم المثل فى العتوّ ، والعناد ، والضلال ، حيث ورد واردهم على النبى ، وحضر مجلس تلاوته ، من غير أن يُدْعَوْا إلى هذا . . فاستمعوا ، وأصغوا ، ثم اهتدَوْا

وآمنوا . فمالِ هؤلاء المشركين لا يؤمنون ؟ وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون؟ .

وأما ما يروى من أن النبي صلى الله عليه وسلم قد التقى بالجن ، ودعاهم إلى الله سبحانه ، فيما تلا عليهم من آيات الله ، فقد يكون ذلك في ليلة بعد تلك الليلة ، وبعد أن حمل هؤلاء النفر إلى قومهم نبأ النبي الذي نزل عليه هذا القرآن الذي استمعوا إلى بعضٍ منه .. فجاءوا يطلبون مزيداً ، ويلقَوْن النبي لقاء مواجهاً ، بعد أن عرفوا مابين يديه من هدًى ونور .

وعلى أيٍّ فإنه ليس مما يدخل في عقيدتنا ، أو يلزمنا التصديقُ به ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بُعث إلى الجن ، كما بعث إلى الإنس ، وحسبنا أن نؤمن بأنه رسول الله إلينا نحن البشر ، وأن الرسالة الإسلامية ، وكتابها الكريم ، موجهان إلينا نحن البشر ، أما أن تستفيد من ذلك عوالم أخرى فذلك مالا يدخل في عقيدتنا ، ولا يلزمنا البحث عنه . والله أعلم .

وقوله تعالى : « فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً » — هو بيان الأثر الذي كان للقرآن من استماع الجن إليه ، وأنهم عجبوا لِمَا سمعوا ، لأنهم لم يسمعوا كلاماً مثله ، فكان ذلك مَثَار عجبهم ، ودهشهم . . إنهم يسمعون كلاماً ، ولكنه كلام عجب ، فيما له من سلطان على النفوس ، وتمكن من القلوب . .

وقولهم «سمعنا» بدلا من « استمعنا » لأنهم خرجوا من مجلس الاستماع ، وقد أصبح الذي استمعوا إليه مسموعاً لهم سَمَاعاً متمكنا ، واعياً .. ولو قالوا « استمعنا » لدلّ ذلك على أنهم تكلفوا جهداً لِمَا سمعوا ، وأنهم حَمَلُوا أنفسهم على ذلك حملا طوال مجلس الاستماع ، والواقع غير هذا ، فإنهم ما إن

جلسوا بين يدى ما يُتلى من آيات الله ، حتى ملك القرآن زمامهم ، وأحال وجودهم كله آذانا صاغية ، وقلوباً خاشعة ، من غير معالجة أو معاناة ، من داخل أنفسهم أو خارجها . .

وقوله تعالى : « يهدى إلى الرشد » هو صفة أخرى للقرآن ، على لسان الجن ، بعد الصفة الأولى التى وصفوه بها . .

فالصفة الأولى ، وصفٌ لنظمه ، وأنه كلام عَجَب لم يسمعوا مثله . .

والصفة الأخرى ، وصفٌ لمعانيه ، ولما اشتمل عليه نظمه العجيب من معان كريمة ، مضيئة بنور الحق ، تهدى إلى الرشد ، والفلاح . .

وقوله تعالى : « فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً » — هو المسبب عن هذه الأوصاف ، التى رآها الجن فى القرآن ، والتى وقعت فى نفوسهم منه ، ولهذا فهم يؤمنون بهذا القرآن ، وبأنه كلام الله ، ونورُه المرسل هدى ورحمة للعالمين .. وهم لهذا لن يشركوا بالله ، ولن يعبدوا إلٰها معه ، كما كانوا يفعلون من قبل فِعلَ الضالين والمشركين من الإنس . .

وقوله تعالى :

* « وأنه تعالى جَدُّ رَبِّنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً » . .

جدّ ربنا : مُلكه ، وسلطانه ، ومجده . . وأصل الجَد : الحظ ، والنصيب الذى يصيبه الإنسان فى حياته من حظوظ الدنيا . . فجَدُّه هو كل ماله من مال ، ومتاع ، وبنين ، وعلم ، وجاه وسلطان . .

وقوله تعالى : «وأنه تعالى جد ربنا» هو معمول لفعل محذوف ، معطوف على قوله تعالى :

«إنّا سمعنا قرآنًا عجبًا» أى «سمعنا قرآنًا عجبًا» وعلمنا مما سمعنا أنه «تعالى جدُّ ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً» . .

وهكذا كل ماجاء على لسان الجن بعد هذا ، هو معمول لفعل مترتب على استماعهم لما استمعوا من آيات الله وما كشفت لهم من حق وهدى .

وقولهم : «تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً» أى عَظُم مجده ، وتعالى سلطانه ، وتنزهت عزته عن أن يتخذ صاحبة أو ولداً . . فإن اتخاذ الصاحبة أو الولد ، إنما يكون عن حاجة إليهما ، بحيث لو افتقد الإنسان وجودهما بين يديه تطلعت إليهما نفسه ، وشغل بهما قلبه ، والله — سبحانه — فى غنى عن كل شىء . . فكل شىء هو منه ، وله ، وإليه . .

قوله تعالى :

* «وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً» . .

أى وعلمنا مما استمعنا إليه من هذا القرآن العجب أن ما كان يقوله السفهاء منّا عن الله ، وعن اتخاذه الصاحبة والولد — هو قول بعيد عن الحق ، مشتط عن الصواب ، فى حق الله سبحانه ، وفيما ينبغى أن يكون لذاته من كمال ، وجلال ، وأن هؤلاء الذين جعلوا لله أنداداً ، واتخذوا من دونه أولياء ، ونسبوا إليه الزوج والولد — هؤلاء ضالون مشركون . .

والشطط ، والاشتطاط ، الخروج عن القصد والاعتدال ، ومجاوزة الحد فى القول ، أو العمل . . وهذا مثل قوله تعالى على لسان أصحاب الكهف : «لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا» (١٣ : الكهف) . .

قوله تعـالى :

* « وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً » ..

أى وكان مما علمنا من استماعنا لهذا القرآن المعجب ـ أننا كنا على ظن خاطىء فيما ظنناه من أن الإنس والجن لن تقول على الله كذباً ، وأن تقوم فيهم تلك الدعوات المضلة ، وهذه العقائد الباطلة ، مع مافيهم من عقول ، وما بين أيديهم من الشواهد الناطقة ، التى تشهد بوحدانية الله تعالى ، وتفرده بالملك والعزة والسلطان ..

ولقد بان لنـا أن الإنس والجن قالوا على الله كذباً ، فيما نسبوه إليه من الزوج والولد ، وفيما جعلوا له من أندادٍ ، وشركاء ..

وذلك بعد أن استمعنا إلى آيات الله ، وعرفنا طريق الحق الذى أضلّنا عنه المضلون ، وأغوانا بالانصراف عنه المغوون ، لقد كنا مخدوعين بهذا الظن الذى ظنناه فى الجن والإنس من أنهم لن يفتروا على الله ، ولن ينسبوا إليه مالا يليق به .. !

قوله تعالى :

* « وأنه كان رجال من الإنس يعـــوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً » ..

الرهق : الإعياء ، والضعف ، والـكلال ، مما يعترى الإنسان من معاناة أمر صعب يحاوله ، ثم لا يبلغ منه شيئاً ، لأنه يحاول أمراً محالا ، أو قريباً من المحال .. ومنه قوله تعالى : « سأرهقـــــه صَعُوداً » (١٧ : المدثر) ..

والمعنى : أنه قد اتضح لنا مما سمعناه من هذا القرآن العجب ، أن ما كان من استعانة بعض شياطين الإنس ، بشياطين الجن ، فى اختلاق الأكاذيب ، وتلفيق المفتريات على الله — اتضح لنا أن ذلك لم يزد العائذين بالجن ، إلا ارتكاساً ، وعجزاً ، عن الوصول إلى طريق الحق ، وأن كل ما اختلقوا من أكاذيب ، وما لفقوا من مفتريات ، لم يمس جوهر الحقيقة ، ولم يعمّ سبيل الحق عن طلابه ، والساعين إليه ، وأن هذه الأكاذيب ، وتلك المفتريات إذا طلعت عليها شمس الحقيقة فرت من بين يديها ، كما يفر ظلام الليل بين يدى أضواء الصبح !

قوله تعالى :

* « وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً » .

أى وأننا علمنا مما استمعنا إليه من هذا القرآن العجب ، أن الإنس ظنوا كما ظننا نحن الجن ، أن لن يبعث الله أحداً من رسله بعد موسى ، وعيسى ، عليهما السلام . . وهذا ظن باطل ، فها هوذا رسول من عند الله ، يتلو هذا القرآن العجب ، فيبلّغ به رسالة الله .

وفى هذا الذى ينطق به الجن بعد أن آمنوا ، تبكيت المشركين ، واستخفاف بعقولهم ، واستخفاف لأحلامهم ، وأنهم عَمُوا عن هذا الهدى الذى طلعت شمسه فى سمائهم ، فلم يهتدوا به ، وقد سبقهم إليه أبعد الخلق عنه ، وهم الجن .

قوله تعالى :

* « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً »

ومن دلائل هذا الرسول الذى بعثه الله ، ليس هذا القرآن وحسب . . بل

إننا قبل أن نلتقى به فى مجلس القرآن ، شاهدنا إرهاصات عجيبة ، تنبىء بأن حدثا عظيما قد حدث فى هذا الوجود ، وأن آثار هذا الحدث لابد أن يكون لها شأن بهذا العالم الأرضى ، ومايعيش فيه من جن وإنس . . وذلك أننا لمسنا السماء ، كما اعتدنا أن نلم بها من قبل ، ونستطلع أنباءها ، فوجدناها قد ملئت حرسا شديدا من الملائكة ، وشهبا راصدة يرمون بها كل من يدنو من مشارف السماء . . وهذا أمر لابد أن يكون له مابعده !! وها نحن أولاء قد عاينا مابعد هذا الأمر ، فى هذا الرسول ، وفيما بين يديه من آيات الله . .

قوله تعالى :

* « وأنا كنا نقعد منها مقاعدَ للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » .

أى وأننا كنا نصعّد فى السماء ، ونتخذ هناك مقاعد نستمع فيها إلى مايجرى فى الملأ الأعلى ، وذلك قبل مبعث هذا النبى . . أمّا الآن فإن من يحاول أن يستمع منا ، يجد شهابا رصدا يُرمى به قبل أن يبلغ المجلس الذى اعتاد أن يتخذه من قبل . .

قوله تعالى :

* « وأنا لا ندرى أشرٌّ أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا »

أى ولقد حِرْنا فى تأويل هذا الحَدَث ، وعجزنا عن أن نجد التعليل الصحيح له ، وللأحداث التى تنجم عنه ، وهل هذا شرٌّ يُراد بمن فى الأرض من جِنٍّ وإنس ، أم هو خير لهم .؟ . إن الأيام هى التى ستأتى بتأويل هذا . .

وها نحن أولاء نشهد عناد المشركين ، وتصدِّيهم لدعوة رسول الله ، وتكذيبهم لما جاءهم به من عند الله ، فهل سيمضون فى طريقهم هذا ، فتكون عاقبتهم أن يدمر الله عليهم كما دمر على المكذبين برسل الله قبلهم ، أم أنهم سيراجعون أنفسهم ، ويرجعون إلى عقولهم ، فيؤمنون بالله ، ويهتدون بهذا

النور الذى يحمله رسول الله إليهم ؟ لاندرى أشر أراد الله بالناس من هذه الرسالة ، بإلزامهم الحجة ، ثم إهلاكهم ، أم أنه أراد لهم الهداية والرشاد ، فيهتدوا ويَرْشدوا ؟إن الأمر لم ينته إلى نهايته بعد . . وسنرى ما يكون ؟

قوله تعالى :

* « وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك . . كنّا طرائق قِددا »

وهنا يلتفت هؤلاء النفر من الجن إلى قومهم ، وهل يتقبلون هذا الهدى الذى اهتدوا هم إليه، بعد استماعهم إلى آيات الله ، التى تلاها عليهم رسول الله ، أمأنهم يرفضونه كما رفضه هؤلاء المشركون من قريش ؟ إنهم يتساءلون هذه التساؤلات قبل أن يبرحوا مجلس النبى ، وفى قلوبهم الإيمان ، وبين أيديهم الهدى . . ثم يحدّث بعضهم بعضاً ، بأن حال قومهم هى حال الناس من أبناء آدم ، فيهم الصالحون ، وفيهم الفاسدون ، وفيهم من هم بين الصالحين ، والفاسدين . . إنهم طرائق مختلفة . . لكل منهم طريقة كما أن للناس طرقهم . .

والطرائق : جمع طريقة ، وهى المتجه الذى يأخذه المرء فى حياته ، من استقامة أو عوج . .

والقدد : جمع قدة ، وهى القطعة من الشىء ، أىّ قطعة ، ومنه قوله تعالى : « وقدّت قميصه من دبر» (٢٥ : يوسف) أى قطعته . .

وقوله تعالى :

* « وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هرباً »

أى وأننا بعد تطوافنا فى الأرض وفى السماء ، قد أيقنّا أننا بين يدى الله حيث كُنا ، وأننا تحت قهر سلطانه القائم على الوجود كله . . وأننا لن

نخرج من سلطان الله ، ولن نفر من القَـدَر المقدور لنـا ، سواء انطلقنا فى وجوه الأرض ، أو صعدنا فى أجواء السماء . . والظن هنا بمعنى اليقين .

قوله تعالى :

* « وأنا لمـا سمعنا الهدى آمنا به . . فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً » .

أى وهذا شأننا نحن من بين قومنا ، وذلك أننا لمـا سمعنا الهدى — أى القرآن — آمنا به . . ومن يؤمن بربه فإنه لا يخاف بخسا ، بنقص حسناته ، ولا رهقاً بمضاعفة سيئاته ، بل سيُجزى الجزاء الذى يقوم على ميزان العدل المطلق . .

ومعنى نفى الخوف من البخس والرهق ، هو أن المؤمن يلقى الله وبين يديه بشريات إيمانه ، التى تملأ قلبه سكينة وأمنا ، أما غير المؤمن فإنه يتوقع أن يسام سوء العذاب ، وأن يلقى الهوان والنكال من كل وجه ، فهو فى مهب عواصف الخوف دائما . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « أفمن يُلْقَى فى النـار خيرٌ أم من يأتى آمنا يوم القيامة » (٤٠ : فصلت) .

وقوله تعالى : « فلا يخاف بخسا ولا رهقا » — هو جواب الشرط ، وقد اقترن بالفاء لوقوعه منفيًّا .

قوله تعالى :

* « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشداً * وأما القاسطون فـكانوا لجهنم حطباً » ـ هنا يعود الجن إلى أنفسهم مرة أخرى ، فينطقون بما تنطق به حالهم ، من أن منهم مسلمين ، أى مستقيمين على طريق الإسلام ، والسلامة ، ومنهم القاسطون ، أى الظالمون ، المنحرفون عن طريق الحق والهدى . .

وقَسَط ، فهو قاسط : أى ظلم ، واعتدى . .

وأقسط ، فهو مقسط : أى عدل ، واستقام . . ومنه قوله تعالى : « وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » (٩ : الحجرات)

وقوله تعالى : « فمن أسلم فأولئك تحرّوْا رشداً » هو تعقيب من الجن ، أو من المؤمنين ، أو من الوجود كله .. على هذا الخبر الذى أخبر به الجن عن أحوالهم .. وأن الذين أسلموا وجوههم لله ، وآمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى أنزل على رسوله — قد تحروا رشداً ، أى اختاروا طريق الهداية والرشاد، وأنهم تعرفوا إليه بعد نظر الاستدلال .

فالمسلمون قد تخيروا طريق الأمن والسلامة ، وان تكون خاتمتهم إلا الأمن والسلامة . .

وأما الحائدون عن طريق الإسلام ، الذين ركبوا طرق الضلال ، فهم حصبُ جهنم وحطبها . .

وقد فرق النظم القرآنى بين الحالين ، فجاء على غير أسلوب المقابلة التى يقتضيها نظم كلامنا نحن البشر . . ولو جاء النظم على أسلوب المقابلة ، لكان هكذا :

« فمن أسلم فأولئك لهم الجنة ، وأما من كفر فأولئك هم أصحاب النار » أو جاء فى صورة أخرى هكذا :

« فمن أسلموا فقد اهتدوا ورشدوا ، وأما من كفروا فقد ضلوا وخسروا .. »

ولكن هذا كلام الله المعجز ، المتحدى للإنس والجن أن يأتوا بمثله !

فالذين أسلموا قد اختاروا طريق السلامة بعد بحث ونظر . . وقد يؤدى بهم هذا الطريق إلى الجنة أو لا يؤدى ، لأن دخول الجنة أمر لا يملكه أحد ،

ولا يناله مخلوق ، بعمله ، وإنما هو بتوفيق الله ، ومن فضله ، وإحسانه . .
ولكنهم أى (المسلمون) قد اختاروا الطريق الذى ينبغى أن يختاره كل عاقل ،
وهم على رجاء وطمع من رحمة الله ، ومغفرته ، ورضوانه . . إنه طريق الأمن
والسلامة ، وقد اهتدوا إليه بعقولهم ، ووجب عليهم أن يسلكوه . . أما خاتمة
هذا الطريق ، فهى فى علم الله ، وليس من شأننا أن نقطع بها ، وإن كان لنا أن
نحسن الظن بفضل ربنا وإحسانه . .

وأما الذين كفروا ، فالنار موعدهم ، لامحيص لهم عنها ، لأنهم ركبوا
طريقاً مهلكة ، لايقيم سالكها إلا على متن الهلاك ، ولا يبيت إلا على موعد
معه . . وهذا مايحكم به العقلاء على كل من يركب مهلكة من المهالك ، إنهم
لايتوقعون له إلا أن يهلك على يديها . . تماماً ، كمن يدخل على الأسد عرينه ،
أو يمد إلى الحية يده فى جحرها . . إنه لامحالة هالك . .

الآيات : (١٦ — ٢٨)

* « وَأَلَّوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّ ٱلْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ

رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

« وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا * لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً » هو دعوة من الله سبحانه وتعالى إلى هؤلاء القاسطين الذين يسرعون إلى الهلاك بخطى حثيثة ، حيث يكونون حطباً لجهنم — أنه دعوة إليهم بالرجوع إلى الله والاستقامة على طريق الحق ، والإيمان بالله ورسوله ، واليوم الآخر . .

وقوله تعالى : « لأسقيناهم ماء غدقاً » — هو وعد منه سبحانه لأهل الإيمان بأنه لا يفوّت عليهم مايطلبون فى الدنيا من خير ، فإن الإيمان بالله ، والعمل للآخرة ، لا يعوّق من سعى الإنسان ولا يعطل من جهده فى تحصيل الرزق . . فالرزق بيد الله ، وأنه سبحانه لا يعاقب المؤمنين بالتضييق عليهم فى الرزق ، وإنما هو يرزقهم بما هو أصلح لهم وأنفع ، وأنه إذا كان من المؤمنين من يُرى أنه مضيق عليه فى رزقه ، فذلك ابتلاء من الله سبحانه وتعالى له ، وأن هؤلاء الذين لا يرضون من الإيمان إلا أن يكون معه سعة فى الرزق وكثرة فى الأموال والأولاد — هؤلاء لو آمنوا لأفاض الله سبحانه عليهم من الرزق ، ولأرسل السماء مدراراً عليهم ، حيث يكون من وراء ذلك الخصب والنماء ، ووفرة المال

والمتاع ، ولكن هذا الرزق هو فتنة لهم ، أى امتحان وابتلاء . . فإن هذا الرزق عبء ، قد يؤودهم حمله ، وقد يقصم ظهورهم ، إذا هم لم يحسنوا سياسته ، ولم يحفظوا أنفسهم من إغرائه ، ويؤدوا حقّ الله فيه . . وهذا مثل قوله تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (٩٦ : الأعراف) .

هذا ، وقد قَرَن الله سبحانه الإيمان بالتقوى ، وذلك ليكون للإيمان هذه الثمرة الطيبة التى يبارك الله بها الرزق ، وينمّيه ، ويملأ قلوب المتقين أمناً وسكينة ورضاً . .

فالتقوى، إذا خالطت قلبَ إنسان، رفرفت عليه أعلام السلام، وازدهرت فيه مغارس الخير ، فوجد القليل كثيراً ، والشرّ خيراً ، والفقر غنى . . إنه فى رضاً دائم ، وفى حبور لا ينقطع . . فمن استقام على طريق الحقّ ، فهو فى عيشة راضية ، وفى سعادة غامرة ، وإن لم يكن بين يديه من حطام الدنيا إلا لقيمات ، يتبلّغ بها . . إنه يجد من نور الإيمان ، ومن ثمرات التقوى، أنه قد حاز الخير كله ، وحصّل من الحياة أكرم جواهرها ، وأغلى ما يعرض فى سوقها .

وقوله تعالى : « ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً » إشارة إلى أن من يبتعد عن الله ، ويأخذ طريقاً غير طريق الهُدى ، فإنه لن يجد الأمن والسلام أبداً ، ولو اجتمع بين يديه مايشاء من مالٍ وبنين . . بل إنه سيتقلب فى أحوال شتّى من القلق والهمّ ، وينتقل من سيء إلى أسوأ ، حيث تنمو هذه العلل ، وتتضاعف هذه الآلام ، مع الزمن ، حتى تبلغ غايتها ، حين يذهب كل شىء كان فى يده ، من قوة ، وشباب ، ومال ، وأصحاب ، ثم يقطع الموت فى نهاية الأمر ، مابينه وبين كل مامعه من أسباب ، وإذا هو فى موقف الحساب

والجزاء ، فيساق إلى مصيره المشئوم ، ثم يُلقَى به فى نار جهنم ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشةً ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » (١٢٤ : طه) .

وفى التعبير عن أخذ المُعرض عن ذكر ربه بالعذاب ، وتدرجه فيه صُعُدا ـ فى التعبير عن هذا بقوله تعالى : « يسلكه » ـ إشارة إلى اتصال هذا العذاب ، وأنه فى اتصاله وتعدده أشبه بحبات العِقد ، ينتظمها سلك واحد .. فهو ـ أى المعرض عن ذكر ربه ـ فى دائرة مغلقة من العذاب ، يظل يدور فيها ، دون أن يستطيع الإفلات منها ، أو الخروج عنها ، مع تدرجه فى العذاب ، وتنقله فيه من سيء إلى ماهو أسوأ ، حتى يُلْقَى به فى العذاب الأليم .. وفى هذا مايشير إلى أن المعرض عن ذكر ربه ، هو فى عذاب دائم متصل ، فى الدنيـــا والآخرة ، وأنه ينتقل من عذاب الدنيا ، إلى عذاب الآخرة : « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » (٣٣ : القلم) . .

قوله تعالى :

* « وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدًا » ..

المراد بالمساجد ـ والله أعلم ـ هو مواطن السجود فى الأرض .. فحيث كان مكان فى هذه الأرض ، يصلح للسجود ، ووضع الجباه عليه ، فهو لله سبحانه وتعالى ، أى هو ملك لله ، الذى خلق السموات والأرض .. فالسجود فى مِلك الله لغير الله ، كفر مبين ، وضلال عظيم .. إنه عدوان على الله ، ومحادّة له ..

ويجوز أن تكون المســاجد ، جمع « مسجد » اسم آلة ، وهو العضو المشارك فى عملية السجود .. ويكون المراد بالمساجد هنا ، أعضاء السجود ، وهى عظام الكفّين ، وأطراف القدمين ، وعظما الركبتين ، وعظم الجبهة ، وهى سبعة عظام ، كما يشير إلى ذلك قول الرسول الكريم : « أمرت أن أسجد على

سبعة أعظم » .. فهذه الأعضاء ـ أعضاء السجود ، هى لله ، وهو سبحانه الذى خلقها ، فلا ينبغي أن يُسجد بها لغير خالقها ..

قوله تعالى :

* « وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبداً » .

عبد الله ، هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى إضافته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى الله سبحانه وتعالى بصفة العبودية ، تكريم وتشريف له ، ورفع لمقامه الكريم عند ربه ، وأنه عبد الله ، الخالصُ العبوديةِ لله ، والمثل الكامل لهذه العبودية ، التى تحققت فيه وحده ، فانفرد بها فى هذا المقام ، لحيث أضيف عبدٌ إلى الله من غير ذكر اسمه ، فالمقصود هو محمدٌ صلوات الله وسلامه عليه ..

وقد أضاف الله سبحانه وتعالى كثيراً من عباده المكرَمين إليه بلفظ العبودية ، ولكنها لم تكن إضافة مطلقة ، بل كانت مقيدة بذكر اسم هذا العبد المضاف إلى الله ، كما يقول سبحانه : « ذِكْرُ رحمة ربك عبدَه زكريا » (٢ : مريم) وكما يقول تبارك اسمه : « واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربّه أنى مسنى الشيطان بنُصبٍ وعذابٍ » (٤١ : ص) ويقول جل شأنه : « واذكر عبادنا إبرهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار » (٤٥ : ص)

وفرقٌ كبير فى مقام التكريم والتشريف بين إضافة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعبودية إلى ربه إضافة مطلقة ، وبين قيد هذه الإضافة بالاسم الدال على صاحبها ، وإن كانت تلك الإضافة مما يُلبس صاحبها تاج الكمال وينزله أعلى منازل الرضوان .. ولكن فوق هذا المقام الكريم العظيم مقام ، ينفرد به رسول الله محمد وحده ..

وقد أضيف رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عبداً لربه ، إضافة مطلقة ، على صور متعددة ، فتارة يضاف إلى ضمير الذات العلية فى مقام الغيبة ، كما فى قوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » (١ : الإسراء) وتارة يضاف إلى ضمير الذات فى مقـام الحضور ، كما فى قوله تعالى : « إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » (٤١ : الأنفال) وتارة يضاف إلى اسم الذات كما فى قوله تعالى : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه » . (١٩ : الجن)

ولاشك أن فى تنوع هذه الإضافات زيادةَ تشريف وتـكريم ، فوق هذا التشريف والتـكريم ، حيث يضيف الحق سبحانه وتعالى عبده ، متجلياً عليه بذاته ظاهراً ، وباطناً . .

وبهذا المقام العظيم استحق الرسول الـكريم ، أن يصلّى عليه ربه ، وأن تصلى عليه ملائـكة ربه ، وأن يُدعى كل مؤمن ومؤمنة بالله ، للصلاة عليه : « إن الله وملائـكته يصلون على النبى .. يـأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » (٥٦ : الأحزاب) . .فصلى الله عليك يارسول الله وعلى آلك وصحبك ، وسلم تسليما . .

وقوله تعالى « يدعوه » أى يدعو ربه ، وهو حالٌ من الفاعل فى قوله تعالى : « وأنه لما قام عبد الله » وقوله تعالى : « كادوا يكونون عليه لِبداً » أى كاد المشركون أن يكونوا لبداً على النبىّ ، أى جمعاً واحداً عليه ، يجتمع بعضهم إلى بعض فى مساندة وتلاحم ، كما يجتمع اللَّبد ، وهو الشعر الـكثيف ، حيث يكون كتلة واحدة مثل لبد الأسد المجتمع على صدره ، وحول عنقه ، ومنه قوله تعالى : « يقول أهلـكت مالا لُبدا » (٦ : البلد) أى كثيراً مجتمعاً بعضه إلى بعض . .

وفى هذا التصوير لاجتماع المشركين ، وتكتلهم على الوقوف فى وجه النبىّ ـ فى هذا مايشير إلى أمور :

أولها : أن هذا المجتمع الذى يضم المشركين بعضهم إلى بعض فى مواجهة النبىّ ـ ليس له من داعية معقولة ، وإنما هو صادر عن كائنات ميتة ، لاحسّ ولا إدراك لها ، إنها تجتمع وتتفرق ، بيد من يجمعها أو يفرقها ، كما يجتمع الشعر ويتفرق فى يد من يجمعه ، أو يفرقه .. والشيطان هنا هو اليد التى تجمع هؤلاء المشركين ، أو تفرقهم حسب مشيئته فيهم ..

وثانيها : أن هذه الجموع الكثيفة المحيطة بالنبىّ من المشركين ، إنما هى على كثرتها غُثَاء كغثاء السيل ، وأنها لاتلبث أن تمر من وجه الحق إذا طلع عليها وضربها الضربة القاضية . إنها كائنات من مخلفات الحياة ، ليس لها جذور تمدها بالغذاء ، وتمسك عليها الحياة .. وإنه سرعان ، ماتجف وتتطاير ، فتذهب بها الريح ، وترمى بها فى كل وجه . .

وثالثها : أن هذا اللبد المجتمع حول النبىّ ، هو أشبه باللبد المجتمع حول رقبة الأسد ، فهو شىء عارض ، لايؤثر فى ذاتية الأسد ، وأنه يتطاير فى كل لحظة ليُخلى مكانه لغيره .

ورابعها : أن هذا اللّبد المجتمع حول النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وإن كان فى هذا الوقت لَبداً يشوكه ، ويؤذيه ، فإنه سيتحول عما قريب إلى لبد يَحْميه ، ويدفع عنه كل أذًى . . وهكذا فإنه بعد سنوات قليلة اجتمع للنبىّ من هؤلاء المشركين جند الله ، المدافعون عن دينه ، والمجاهدون فى سبيله ، وهم المهاجرون ، الذين كانوا مع إخوانهم الأنصار الكتيبةَ الأولى حملت راية الإسلام . وركزتها فى أعزّ ، وأمكن مكان ، ودافعت عنها بالأرواح والأموال ، وفدّتها بالأبناء والآباء . .

قوله تعالى :

* « قل إنما أدعو ربّى ولا أشرك به أحداً » . .

هو توجيه من الله سبحانه للنبىّ الكريم ، بما يلقى به قومه الذين كادوا يكونون عليه لبداً . . فهو إذ يراهم وقد صاروا عُصَباً عليه ، قد اجتمعوا على عداوته والكيد له — إذ يراهم على تلك الحال ، يقول لهم : « إنما أدعو ربى ولا أشرك بربّى أحدا » . . فهذه هى دعوتى . . فماذا تنكرون منها ؟ وماذا تنكرون من الذين يعبدون ما أعبد ؟ إنها دعوة لا إكراه فيها ، فمن قَبِلها ، فذلك من شأنه هو ، ومن أعرض عنها ، واتخذ سبيلا غيرها ، فذلك من شأنه أيضاً . . فلمَ إذن تصدّون الناس عن سبيل الله ؟ ولم لا تتركون الناس وما اختاروا ، كاتُركتم أنتم وما اخترتم ؟

قوله تعالى :

* « قل إنى لا أملك لكم ضرّاً ولا رشداً * قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً » .

هو من قول النبى المشركين ، فهو إذ يعبد ربّه ، ويوجه إليه وجهه ، وحده ، لا شريك له ، فإنه لا يملك للمشركين ضرّا ، ولا رشداً . . وإنما ذلك إلى الله وحده . « فمن يرد الله أن يهديه يشرحْ صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حَرَجاً كأنما يصعّد فى السماء » (١٢٥ : الأنعام) .

وفى مقابلة الضرِّ بالرشد ، إشارة إلى أن الضر لا يكون إلا عن متابعة الهوى ، واتباع أهل الضلال ، كما أن الخير ، لا يكون إلا من ثمرات الهدى ، والاستقامة والتقوى . . وهكذا تقع المقابلة بين الضرّ والرشد ، وقوعاً يشمل الظاهر والباطن جميعاً . .

فالضرّ ، ظاهر ، يُخفى وراءه الهوى ، والضلال ، والشرك .. والرشد باطن ، يفوح منه طيب الخير ، وتَهْمِى من سمائه غيوث الرحمة والإحسان ..

أو بعبارة أوضح نقول : إن الضرّ فرع غاب أصله ، والرشد أصل غاب فرعه . فالضرّ ثمر كريه مرّ حاضر ، لا تكاد تقع العين عليه حتى تعرف الشجرة التى أثمرته ..

والرّشد ، شجرة طيبة مباركة .. يكفى أن تقع العين عليها فتعرف الثمر الطيب الكريم ، الذى تجود به .. أو نقول : إن المقابلة هنا بين المسبب ، وهو الضرّ ، وبين السبب لما يقابله وهو الرشد الذى مسبّبُه الخير ..

وهكذا فى كلمتين ، يتجلى وجه من وجوه إعجاز القرآن .. ففى المقابلة بين هاتين الكلمتين : الضرّ ، والرشد ، تتحرك المعانى المولدة منهما ، ويقابل بعضها بعضاً ، فتتآلف منها صورة معجزة ، للكلمة القرآنية ، التى لا ينفد لها عطاء .

فعلى وجه الضرّ تلوح معالم الشرك ، والكفر ، والضلال ، وتتراقص شياطين الغواية ، والإثم ..

وعلى وجه الرّشد ، تتألق عرائس الخير ، وتتهادى حور الجنان وولدانها.

وهنا سؤال ، وهو : لماذا آثر النظم القرآنى ، المقابلة بين الضرّ والرشد ، على المقابلة بين الكفر ، والخير ، أى المقابلة بين مُسبب وسبب ، دون المقابلة بين مسبّب ومسبب ، أو بين سبب وسبب ؟

ونقول ـ والله أعلم ـ إنه فى جانب الضرّ أغفل السبب الوارد منه هذا الضرّ ، وهو الكفر والشرك ، وأقيم المسبّب ـ وهو الضرّ ـ مقامه ، ليرى الشرك والكفر فى ثمرتهما المرّة النكدة التى أثمراها .

وأما فى جانب الرَّشد ، فقد أغفل المسبب عنه ، وهو الخير ، والنعمة والسلامة والعافية ، وما أشبه هـذا مما يسعد به الإنسان فى الدنيا والآخرة ، وأقام السبب مقامه ، وذلك للتنويه بالرّشد فى ذاته ، وأنه وحده خير ، وخير كثير ، وأنه يجب أن يكون مطلوباً لذاته ، غير منظور إلى الخير الذى يجىء منه . . إنه فى ذاته خير ، فلا حاجة إلى النظر فيما وراءه .

والنبىّ ـ وهو رسول الله ، والحامل لرسالته ، والداعى إليها ـ هو فى قبضة الله ، وتحت سلطان مشيئته . . وأنه لو أراد الله ضُرّه ، فليس هناك من يدفع عنه هذا الضرّ ، وليس له من ملتحد ، أى ملجأ يلجأ إليه ، فراراً من هذا الضرّ الذى هو رهن بمشيئة الله . .

إنه لا محاباة عند الله ، حتى ولو لرسول الله ـ وإنما الناس عند الله بأعمالهم ، وما هم عليه من إيمان وكفر ، ومن تقوى وفجور . . والله سبحانه وتعالى يقول : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١٣ : الحجرات) أى أشدكم خوفاً من الله ، ومراقبة له ، واتقاء لحرماته . . ولما كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، هو أتقى الأتقياء ، كانت منزلته عند الله أعلى المنازل وأكرمها ، فهو مطمئن إلى ماله عند الله من مقام كريم ، وأجر عظيم . .

قوله تعالى :

* « إلاّ بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين أبداً »

هو مستثنى من قوله تعالى : « قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشداً » فهو بمعنى لا أملك لكم من الله شيئاً ، إلا هذا البلاغ الذى أبلغكم به من الله ، وإلا هذه الرسالات التى أحملها إليكم فى آيات الله . . فهذا هو

الذى أملكه من الله لكم ، بعد أن ملّكنى إياه . . وها هوذا أعرضه عليكم ، وأبلغكم ما أرسلت به إليكم . . أما ما وراء هذا ، فلا أملك لكم من الله شيئاً منه ، فلا أملك هدايةً لمن أضله الله ، أو إضلالا لمن هداه الله . .

وفى جمع « الرسالات » مع أن رسالة الرسول واحدة ، لا جمعاً — فى هذا إشارة إلى أن كل آية من آيات الله ، هى رسالة من رسالات الله ، إلى عباد الله ، يرون فى أنوارها ، مواقع الهدى والرشاد ، وإنه بِحَسْب الإنسان العاقل أن يتلو آية من آيات الله ، أو يستمع إليها ، فيجد طريقه إلى الإيمان والهدى . . ولقد استمع الجن إلى آيات من القرآن الكريم فكان فيها هداهم ورشدهم . .

وقوله تعالى : « ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً » .

هو تعقيب على قوله تعالى: إلا بلاغاً من الله ورسالاته ، فهذا البلاغ من الله ، وتلك الرسالات المنزلة فى آياته ـ هو مما بلغه الرسول إياهم ، ودعاهم إلى تصديقه ، والإيمان به ، وأن من يعص الله ، فلم يؤمن بآياته ، ويعص الرسول ، فلم يستجب له ـ فإن له نار جهنم خالداً فيها أبداً . . فذلك هو جزاء من يعصى الله ورسوله . .

وفى عود الضمير مفرداً على اسم الشرط « من » فى قوله تعالى : « فإن له نار جهنم » ثم عوده عليه جمعاً فى قوله تعالى : « خالدين فيها أبداً » ـ فى هذا إشارة إلى أن العصيان لأمر الله ورسوله ، هو عن استجابة لهوى الإنسان وحده ، وأنه هو المسئول عن ركوبه هذا الطريق المهلك . .

أما المصير الذى يصير إليه هذا الإنسان ، فهو مصير عام يلتقى عنده أهل الضلال جميعاً ، وهو النار . .

قوله تعالى :

* « حتى إذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً »

هو تهديد للمشركين ، وأنهم إذا كانوا فى يومهم هذا ، يعتزون بقوتهم ، وكثرة عددهم ، ويتسلطون على تلك القلة المستضعفة المؤمنة ، ببغيهم وعدوانهم ، ويجتمعون لبدأ عليهم — فإنه سيأتى اليوم الذى يوعدون فيه بهذا العذاب ، حيث يرون أنه قد تخلّى عنهم كل ما كان موضع قوة وعزة لهم ، وأنهم قد صاروا حطباً لنار جهنم .

ويجوز أن يكون مما يوعدون به ، هو ما تهددهم الله به من الهزيمة والخذلان فى الدنيا ، فى قوله تعالى : « سيهزم الجمع ويولّون الدبر » (٤٥ : القمر) وفى قوله تعالى : لنبيه الكريم : « وإما نرينّك بعضَ الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجِعهم » (٤٦ : يونس) . . وغير ذلك من الآيات التى أشارت إلى نهاية هذا الصراع القائم بين المشركين ، والمؤمنين . . وأن النصر ، والغلب والعزة ستكون لله ، ولرسوله ، والمؤمنين . .

ولقد رأى المشركون مصداق قوله تعالى : « فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً » ـ لقد رأوا ذلك رأىَ العين ، يومَ الفتح ، حيث دخل النبى مكة على المشركين فى عشرة آلاف من أصحابه ، فانقمع المشركون ، وزُلزلت الأرض بهم ، ثم جاءوا إلى النبى مقيدين بقيد المهانة والذلة ، حتى أطلقهم الرسول الكريم بقولته الخالدة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » !

قوله تعالى:

* « قل إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمداً »

« إن » هنا نافية ، بمعنى « ما » . .

أى قل أيها النبى لهؤلاء المشركين ، إن هذا اليوم الذى توعدون به ، والذى ستعلمون فيه أنكم أضعف ناصراً وأقل عدداً — هذا اليوم لا أدرى متى هو ؟ . . أهو قريب ، قد أظلكم ، وأطلّ عليكم بوجهه ، أم هو ممتد إلى ما يعلم الله سبحانه ويجعل له أمداً ينتهى عنده . .

وفى قوله تعالى : « يجعل » بمعنى يقدّر ، وفى التعبير عن التقدير بفعل المستقبل ، إشارة إلى إخراج هذا التقدير من حيز العلم المكنون عند الله ، إلى حيز الواقع والمشاهد ، حيث يبدو للناس ما وُعدوا به يوم ينتهى الأمد المعلوم عند الله لهذا اليوم .

قوله تعالى :

* « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً » ـ أى أن ربى هو عالم الغيب ، فلا يعلم الغيب إلا هو ، ولا يظهر ، أى يطلع على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول .

فقوله تعالى : « إلا من ارتضى من رسول الله » هو استثناء من قوله تعالى : « فلا يظهر على غيبه أحداً » . . أى أنه سبحانه قد استأثر وحده بعلم الغيب ، وأنه سبحانه لا يطلع أحداً على هذا الغيب إلا من ارتضى أى اختار من بعض رسله . .

و «من» فى قوله تعالى : « من رسول » للتبعيض ، للإشارة إلى أنه ليس كل رسل الله يطلعهم الله على الغيب — وإنما يختار الله سبحانه من يشاء منهم ، فيطلعه على ما يأذن لهم به من الغيب . . فإن الذى يوحيه الله سبحانه وتعالى إلى بعض رسله ، هو من بعض هذا الغيب ، حيث لا يعلم هذا الموحى به إلا الرسول .. كما أوحى الله سبحانه إلى نوح بغرق قومه ، وكما أوحَى إلى إبراهيم بهلاك قوم لوط . وكما أوحى إلى صالح بهلاك قومه بعد ثلاثة أيام من عقر الناقة . . فهذا من الغيب الذى أطلع الله سبحانه بعضَ رسله عليه .

والرسول — صلوات الله وسلامه عليه — كان يعلَم مما علّمه الله ، كثيراً من الأحداث التى تقع على مسيرة دعوته ، سواء أكان ذلك عن طريق الفهم الخاص لرسول الله بما ضُمت عليه آيات القرآن من أسرار ، أو كان هـذا عن وحيٍ خاص من الله سبحانه إلى النبى صلوات الله وسلامه عليه . .

وقوله تعالى : « فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً » . .

أى أن الله سبحانه لا يطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يطلعه على بعض الغيب ، وذلك بمـا يقصّ عليه من أخبار إخوانه السابقين من الرسل ، وما ووجهوا به من أقوامهم من سفاهات ، وضلالات ، وما احتملوا فى سبيل تبليغ رسالة الله ، من ضر وأذى . . فهذا هو الرصد الذى يسلكه الله من خلف الرسول ، أماما يسلكه بين يديه ، فهو إخباره بما سيقع له من بعض الأحداث ذات الشأن العظيم ، على طريق مسيرته هو بدعوته . .

والرصد هو ، الاستعداد ، والترقب للأمر ، والرصد يقال للواحد الراصد ، والجماعة الراصدين ، والشيء المرصود ، أى المعد . .

والمراد بالرصد فى الآية الكريمة — والله أعلم — هو المعالم المنصوبة بين يدى الرسول ، ومن خلفه ، مما يقصّه الله سبحانه وتعالى على الرسول من قصص الرسل السابقين ، والمعاصرين لهذا الرسول ، وبما يطلعه عليه من بعض أنباء الغيب مما سيقع له على طريق دعوته . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى مخاطباً النبي الكريم ، بعد أن قص عليه قصة يوسف : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » (١٠٢ يوسف) . .

وقوله تعالى : « وكلاًّ نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » (١٢٠ : هود) . .

وعلى هذا يكون الضمير فى قوله تعالى : « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » — عائداً إلى الرسول ، الذى أطلعه الله سبحانه على بعض الغيب ، وأن هذا الرسول بما علم من أنباء الرسل من قبله ، قد علم أنهم أبلغوا رسالات ربهم ، وأنهم أدوا أمانة التبليغ على وجهها ، غير عابئين بما يلقاهم فى هذه السبيل من عَنَت وبلاء . . وفى هذا تثبيت للرسول فى موقفه المواجه لقومه ، وما يرمون به من منكر القول ، وسفيه العمل . . لما يرى من إخوانه الرسل ، وما أصابهم من أقوامهم .

وقوله تعالى : « وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عدداً » معطوف على قوله تعالى « أبلغوا رسالات ربهم » . .

أى ويعلم الرسول أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأن الله قد

أحاط بما كان لدى الرسل من طاقة صبر ، وقوة واحتمال ، على مواجهة السفهاء والضالين من أقوامهم ، وأنه سبحانه قد علم كل شيء ، وأحصاه عدداً ، لا يعزب عنه مثقالُ ذرة فى الأرض ولا فى السماء ..

هذا وجه من وجوه التأويل لقوله تعالى : « إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً » ..

وقيل ، إن الرصد الذى يسلكه الله سبحانه وتعالى من بين يدى الرسول ومن خلفه ، هو الحفظة من الملائكة ، القائمين على الوحى المبلغ إلى الرسول، حتى يحفظوه من استراق سمع الشياطين له . .

وعلى هذا يكون الضمير فى قوله تعالى : « ليعلم » عائداً إلى الله سبحانه وتعالى ، أى ليعلم الله أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم على الوجه الذى أوحى إليهم به . .

وعلم الله هنا ليس مقيّداً ، ولا معلولا بهذا الرصد الذى يسلكه الله بين يدى ما يوحيِ به إلى رسله ومن خلفهم . . فعلم الله سبحانه وتعالى ، علم ذاتى ، لا يتعلق بأسباب ، ولا يتولد عن علل .. وإنما المراد بالعلم هنا ، العلم بما وقع من الرسل ، فعلا ، بعد أن كان هذا العلم واقعاً على الأحداث قبل أن تقع .

وعلى هذا يكون قوله تعالى: « وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً » حالان من فاعل : « ليعلم » وهو ضمير عائد على الله سبحانه وتعالى : أى ليعلم الله سبحانه أن الرسل قد أبلغوا رسالاته ، والحال أنه سبحانه قد أحاط بما لديهم قبل أن يعملوه ، وأحصى كل شيء عدداً ، قبل أن يوجد . . والله أعلم . .

* * *

٧٣ - سورة : المزمل

نزولها : مكية .. نزلت بعد سورة القلم .

عدد آياتها : عشرون آية .

عدد كلماتها : مائتان وخمس وثمانون .. كلمة .

عدد حروفها : ثمانمائة وستة وثلاثون حرفا ..

مناسبتها لما قبلها

ختمت سورة « الجن » بهذا العرض الذى يكشف عن مقام رسل الله عند ربهم ، وأنهم وحدهم من بين البشر ، هم الذين اختارهم لرسالته إلى عباده ، ولما يطلعهم عليه من الغيب المتصل برسالاتهم ، وببعض الأحداث التي تقع لهم على طريق هذه الرسالات ..

والنبي صلوات الله وسلامه عليه ، واحد من هؤلاء الرسل الكرام ، الذين اختارهم الله سبحانه لتبليغ رسالاته إلى الناس ، ولما يوحى إليهم به من آياته التي لا يعلمها إلا هو ..

فناسب ذلك أن تجيء سورة «المزمل» تالية سورة «الجن» وفيها هذا النداء الكريم من الله سبحانه وتعالى إلى رسوله ، وقد آذنه بأنه قد اختير من الله سبحانه ليكون رسولا ، وليتلقى آيات الله الموحى بها إليه من ربه ، وأنها من الغيب الذى سيطلعه الله عليه ..

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٤)

* « يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « يأيها المزمل » .

النداء هو من الحق جلّ وعلا ، إلى رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، وكان ذلك فى أول الدعوة ، حيث تلقى الرسول الكريم أمر ربه بأنه رسول لله ، وذلك فى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق

الإنسان من علق. » وقد استقبل الرسول هذه الدعوة ، استقبال الإنسان لأمر غريب يقع له ، مما لم تألفه الحياة ، ومما لم يقع له أو لغيره المعاصرين له .. فوقع فى نفسه شىء من الخوف ، والفزع لهذا الحدَث ، ولما له من عواقب لا يدرى ما يأتيه منها . . ويروى فى هذا أن النبىّ صلوات الله وسلامه عليه ، كان فى أول أيام رسالته كلما عرض له جبريل ، وناداه من قريب أو بعيد فزع ، وكرب وعاد إلى أهله يَرْجُف فؤادُه ، ويقول زمّلونى ، دثرونى . .

والمزّمل : أصله المتزمّل ، وهو المتلفف فى بُرد ، أو نحوه . .

والمزّمل : الحامل للثقال من الأمور ، ومنه : الزّاملة ، وهى الراحلة التى تحمل الزاد والمتاع ، ونحوه . .

ونداء النبىّ الكريم ، بهذه الصفة التى كان عليها . . وهى المزمل . . هو غاية اللطف ، والتكريم والإحسان ، من الله سبحانه وتعالى .. حيث لا يكون هذا النوع من الخطاب إلا بين متحابين متصافيين ، قد زالت حواجز الكلفة بينهما . . وهذا جائز من الله سبحانه وتعالى ، لأنه هو المالك للأمر كله ، يدنى من يشاء ، ويبعد من يشاء ، ويخاطب أحبابه وأولياءه ، كما يخاطب الحبيب حبيبه ، والخليل خليله . . أما النبىّ ، والملائكة ، وغيرهم من عباد الله المقربين فإنه لا يجوز لهم أن يخاطبوا الله سبحانه إلا من مقام العبودية المطلقة لجلال الله وعظمته . .

* « يأيها المزّمل » ! !

كم وجد الرسول الكريم من سعادة ، وغبطة ، ورضاً .. بهذا الوصف الذى أصبح علَماً هو آثر الأسماء عنده ، وأحب الصفات إليه ؟ وهذا يعنى أن جميع أحوال النبىّ ، هى غير أحوال الناس ، وأن كلّ حال منها هى علم على النبى

وحده ، حتى ما كان منها فى ظاهره مما لا يتمدّح به ، هى بالنسبة إليه صفات كمال لا يتصف بها غيره .

وللرسول الكريم وصفٌ وَصفَ به الإمامَ عليًّا ـ كرم الله وجهه ـ حين رآه نائماً فى المسجد وقد علا جبينَه بعض التراب ، وكان مغاضبا للسيدة فاطمة رضى الله عنها ، فقال له الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « قم يا أبا تراب » يقول الإمام علىّ : فكان هذا الوصف هو أحبّ ما أنادَى به ! !

وقوله تعالى :

* « قم الليل إلاّ قليلا » . . هذا هو المنادى به النبىّ من قبل الله سبحانه وتعالى ، بعد أن أوقظ من نومه بهذه المسة الرفيقة الحانيـة ، من يد اللطف والرحمة ، من ربّ لطيف رحيم . . « يـٰأيها المزمّل »

وفى هذه الدعوة ، انتقال بالنبىّ الكريم من حال التزمل ، والنوم ، إلى اليقظة الكاملة ، والتشمر للعمل ، والقيام له . . « قم الليل إلا قليلا » .

والمراد بقيام الليل، هو اليقظة فيه ، يقظة كاملة ، واعية عاملة ، حتى لكأنه فى حال قيام دائم ، وإن كان جالساً . .

قوله تعالى :

* « نصفَه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا »

نصفَه ، بدل من « قليلا » فى قوله تعالى : « قم الليل إلا قليلا » وهو بيان لمقدار قيام الليل إلا قليلا منه.. فنصف الليل ، إذا قامه النبى ، يُعدّ منه قياماً لليل ، إلا قليلا منه ، وأقل قليلا من نصف الليل ، يُعدّ كذلك من النبى قياماً لليل إلا قليلا منه ، وكذلك إذا هو زاد فى قيامه على نصف الليل . .

وهذا يعنى أن أمر النبى — صلوات الله وسلامه عليه — بقيام الليل

إلا قليلا ، هو أمر قائم على اليسر ، حَسْبَ أحوال النبى ، وعلى قدر استعداده فى كل حال من أحواله . . ففى ليلة، يقوم الليل كله إلا قليلا ، وفى ليلة أخرى ، يقوم نصف الليل ، وفى ثالثة ، يقوم أقل من نصف الليل، وفى رابعة يقوم أكثر من نصفه . . وفى كل هذا ، هو — صلوات الله وسلامه عليه — قد أدى غاية المطلوب منه ، وهو قيام الليل إلا قليلا منه . .

وقوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » — معطوف على قوله تعالى ، « قم الليل إلا قليلا » . . إذ ليس المطلوب هو قيام الليل فى ذاته ، وإنما المراد هو الذى يصحب هذا القيام ، من ترتيل القرآن ترتيلا . . فالواو هنا بمعنى المعية والمصاحبة . . ويجوز أن تكون واو الحال ، والجملة بعدها حالية ، أى قم الليل مرتلا القرآن ترتيلا . .

وترتيل القرآن ، هو قراءته فى تمهل وتتابع ، بحيث تتابع الحروف والكلمات ، فيأخذ كل حرف مكانه على الفم من كل كلمة ، كما تأخذ الكلمة مكانها من كل آية ، حتى ينتظم منها جميعها موكب متحرك فى نظام أشبه بنظام حبات الدر فى عِقدها . . وهكذا كانت قراءة رسول الله للقرآن . . عن أم سلمة — رضى الله عنها— قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطّع قراءته آية آية » وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : « كان يَمدّ صوته مدّاً » وعن ابن عمر رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقال لصاحب القرآن [1] : اقرأ وارِقَ ، ورتّل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها »

ولفظ الترتيل ، يحتمل هذه المعانى كلها . . وهو من ترتُّل الأسنان ، إذا

(١) أى فى الآخرة

استوت وحسن نظامها ، ويقال ثغر رَتَلٌ إذا كانت أسنانه مستوية لا تفاوت فيها . .

قوله تعالى:

* « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » ـ هو بيان للسبب الذى من أجله دُعى النبى إلى قيام الليل ، وإلى نزع ثوب الدّعة والسكون . . إنه صلوات الله وسلامه عليه — سيواجه — بعد اصطفائه للرسالة ـ أمراً عظيما ، وإنه سيكلف أداء مهمة شاقة ، تحتاج إلى أن يبذل لها كل جهده ، وأن يقوم عليها فى كل لحظة من حياته ، ليلا ونهاراً . . فهذا القول الذى سيلقى عليه ، وهو القرآن الكريم ، هو قول ثقيل بما يحمل من تكاليف ، هى عبء ثقيل عند كثير من الناس ، كما أنها حمل ثقيل على النبى فى حملها إلى الناس ، ودعوتهم إليها . .

إنّ عهد النوم بالليل قد انتهى ! فليوطّن النبى نفسه منذ الآن على الجهاد ، وحمل هذا العبء ، وليأخذ للموقف عدته ، وإلاّ ضَعُف عن حمل الرسالة ، وأداء أمانة تبليغها ، وقد علم أن إخوانه من الرسل ، قد أبلغوا رسالات ربهم ، وما كان له أن يقصر عنهم ، وهو خاتمهم ، وسيدهم .

وهذا التنبيه من الله سبحانه لنبيه الكريم ، بما سيلقاه على طريق رسالته ، من صعاب ، وما يحمله فى سبيلها من أعباء ـ هو الذى يهيء النبى جسميًّا ونفسيًّا للمهمة الخطيرة التى نِيطت به ، وألقيت عليه . .

وقوله تعالى :

* « إن ناشئة الليل هى أشدّ وطئاً وأقوم قيلا » .

اختلف فى معنى « ناشئة الليل » . أهى أول الليل ، أو آخره ، أو وسطه ، أم هى اليقظة بعد النوم . .

والذى نميل إليه أن ناشئة الليل هى أوله ، حيث يبدأ فيها نشوء الليل ، وحيث هى التى يتحقق بها مادعى إليه النبىّ من قيام الليل إلا قليلا منه ، فإنه لو نام الإنسان أولَ الليلَ فهيهات أن يضبط الوقت الذى يستيقظ فيه ، ومن ثَمَّ فقد لا يقوم شيئاً من الليل ، فضلا عن أن يقوم الليل كله إلا قليلا منه . .

وقوله تعالى : « هى أشد وطئاً » أى أثقل على النفس وأشق ، لأن الإنسان يصل بها تعب النهار ، الذى يحمل الإنسانَ على أن يُلقى بهذا التعب عند أول الليل ، كما يلقى المسافر مشقة السفر عند أول منزل ينزله . . وفى هذه المشقة ، مضاعفة الثواب ، ودُربة على تعوّد المتاعب ، ومغالبة منازع النفس وأهوائها . .

وقوله تعالى : « وأقومُ قيلا » أى أن قيام ناشئة الليل ، أكثر فائدة ، وأطيب ثمراً . . حيث يكون الإنسان مغالباً لهواه ، قاهراً سلطان نفسه ، مستعلياً على حاجة جسده ، وتلك أحسن أحوال الإنسان لتقبل الخير ، والإفادة منه . .

والقِيل الذى مع الرسول الكريم ، هو القرآن الكريم ، وهو أقوم قول وأعدله ، وأ كله ، فى جميع الأحوال،والأزمان. .لا تتغير ذاتيته ، ولا تتعرض صفاته لزيادة أو نقص . . لأنه كامل فى ذاته ، لا يقبل كما له زيادة ، كما أنه لا يقبل نقصاً . . لأن الكامل كمالا مطلقاً ، لا يكون على هذا الوصف إلا إذا تنزه كماله عن التعرض للزيادة أو النقص . .

أمّا وصف القِيل المراد به القرآن هنا ، بأنه أقوم قيلا ، أى أسدّ قولا وأنفعه ـ أما هذا الوصف ، فليس لذاتية القول ، وإنما هو للأثر الذى يُحدثه

هذا القول فيمن يتلقاه ، ويرتله . . فإن هذا الأثر يختلف باختلاف المتلقّين له ، وباستعدادهم العقلى ، والنفسىّ والروحى ، للفهم عنه ، والتجاوب معه . . كما أن هذا الأثر يختلف باختلاف أحوال المتلقىّ الواحد ، وبتأثر هذه الأحوال بظروف الزمان ، والمكان . . فبعض الأزمنة تفعل فيها الكلمة ما لا تفعله فى أزمنة أخرى ، وبعض الأمكنة ، تجعل للكلمة وقعاً على نفس متلقيها ، لا يجده منها فى مكان آخر . . تماماً كشأن النبات من الحب والفاكهة ، فإن لكل فاكهة ولكل حب مكاناً لا يجود إلا فيه ، وزماناً لا تنطلق فيه طاقاته وقواه كاملة إلا إذا احتواه هذا الظرف من الزمان . .

وأول ما أُلقى على النبي من قول ثقيل ، هو هذا الأمر التكليفى الذى كلف به من ربه ، وهو أن يقوم من نومه ، وأن يرفع هذا الغطاء المتزمل به ، وأن يقوم الليل كله إلا قليلا منه ، ذاكراً الله بتلاوة القرآن وترتيله . .

ويجوز أن يكون هذا القول الثقيل، هو ما يَحمل إليه هذا القول من حِمل أمانة تلك الرسالة العظيمة التى يقوم عليها ، ويواجه الناس بها ، وقد حمل النبى أعباء هذه الرسالة نحواً من ثلاث وعشرين سنة ، احتمل فيها ما تنوء الجبال الراسيات بحمله .. ويجوز أن يكون هذا القول الثقيل ، هو الوحى نفسه ، وما كان يجد النبي من جَهد فى تلقى كلمات الله منه ..

هذا ، والذين ذهبوا إلى أن ناشئة الليل ، هى آخر الليل إنما نظروا فى قول الله سبحانه : « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآنَ الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً » ــ وفى هذا تنويه بهذا الوقت ــ وقت الفجر ــ وأنه وقت مبارك ، تتفتح فيه النفس لتقبل الخير ، وتشرق فيه بنور الحق ، كما يشرق وجه النهار ، ويسفر ، حين يطلع الفجر . .

وعلى هذا يكون قوله تعالى : « إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلا » هى دعوة إلى النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى أن يَمُدَّ فى قيام الليل، حتى يبلغ الفجر ، ليلتقى مع هذا الوقت المبارك المشهود ، وإن كان فى السهر ، ومغالبة النوم ما تشتد وطأته عليه .. ولهذا جاء بعد ذلك قوله تعالى : « وأقوم قيلا » ليكون خيراً مرصوداً ينتظر النبىَّ على نهاية الليل الذى قطعه قياماً ، وترتيلا ، وبهذا يشتد عزمه ، وتشتد رغبته فى السهر ليلتقى مع هذا الخير الذى هو على موعد معه هناك .. مع الفجر !

وعلى هذا التأويل ، يكون القول بأن ناشئة الليل ، هى آخر الليل ، أولى عندنا مما قلناه من أنها أول الليل .. والله أعلم ..

وقيل إن ناشئة ، الليل ، هو ما يتجدد فيها من ساعات ، ينشأ بعضها إثر بعض ، وعلى هذا تكون شاملة لليل كله باعتبار ظرفاً طيباً للعبادات والطاعات ، وذلك لخلو النفس فيه من الشواغل التى تشغلها بالنهار . .

قوله تعالى :

* « إن لك فى النهار سبحاً طويلا » ..

السبح : الحركة ، المطلقة ، المتحررة من القيود .. ومنه يقال للفرس السريع الجرى : سابح ، وقد أقسم الله سبحانه بالسابحات ، فقال سبحانه :

« والنازعات غرقاً * والناشطات نشطاً * والسابحات سبحاً » (١ — ٣ : النازعات) ..

ومنه التسبيح ، وهو إطلاق اللسان بذكر الله ..

وهذه الآية بيان لسبب آخر من أسباب دعوة النبىِّ مجاهدة نفسه أولاً ، وتدريبها على ركوب الصعاب من الأمور ، حتى يستقل بحمل القول

الثقيل الذى سيُيلقى عليه . فإن قيام الليل مع شدّة وطأته لا يكفى وحده لمواجهة الرسالة المكلّف بحملها ، وتبليغها إلى الناس ، وإنما يقتضيه هذا أن يقوم النهار كلَّه ، يطوف على الناس ، ويلقاهم بها فى كل مكان ، ويسبّح بها إلى كل أفق كما تسبح الطير فى السماء .. وأنه إذا كان النبىُّ قد جعل الليلَ لمناجاة ربه ، فليجعلِ النهارَ لمواجهة الناس .. إنه بمناجاة ربه بالليل يتزود بالزاد الطيب الذى يُعينه على رحلة النهار مع الناس ودعوتهم إلى الله ، فإذا أقبل الليل عاد إلى تلك المناجاة يستروح أرواح الطمأنينة والرضا ، ويتخفف من أعباء يومه الثقيل ، وما لقى فيه من خلاف عليه ، واستخفاف به من أهل السفاهة والجهالة ، ليستقبل يوماً آخر .. وهكذا ..

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فلا تطع الكافرين وجاهدْهم به جهاداً كبيراً » (٥٢ : الفرقان) . .

فهذا السبح الطويل الذى يَسبحه النبىُّ الكريم فى النهار ـ هو جهاده للكافرين بآيات الله التى يتلوها عليهم ، ويحاجّهم بها ، ويتلقى ما يرمونه من بهت وتكذيب ..

يروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد نصح له بعض أصحابه بأن يرَفُق بنفسه ، وأن يأخذ لها حظها من الراحة والنوم بالليل أو النهار ، فأجابه عمر بقوله : « إنى إن نمت الليل ضيّعت حق الله ، وإن نمت النهار ضيعت حق الرعية . . فكيف بالنوم مع هذا أو ذاك ؟ » ..

فإذا كان هذا شأن عمر ، فرع شجرة الإسلام الطيبة المباركة ، فكيف بالشجرة ذاتها ؟ ..

وكيف برسول الله ، وبالأمر العظيم الذى ندبته السماء له ، وأناطت به حمله؟ ذلك أمر لا نوم معه فى ليل أو نهار ..

قوله تعالى :

* « واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا » ..

هو دعوة إلى الرسول الكريم أن يكون دائماً مع ذكر الله ، فى الليل أو فى النهار ، مع نفسه ، أو مع الناس ، فلا يقطعه هذا السبح الطويل فى النهار مع الناس ، عن ذكر الله أبداً .. إن رسالته كلها هى ذكر الله ، والتذكير به ، فهو حيث كان فى ذكر الله ، وفى تلاوة آياته ..

وفى التعبير عن ذكر الله بذكر اسمه تعالى ، إشارة إلى أن ذكر اسم الله ، هو الذى يذكّر بالله ، وهو الذى يُستحضر به ماله سبحانه من صفات الكمال والجلال التى تشعّ من أسمائه وصفاته.. وفى هذا يقول سبحانه : «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » (١٨٠ : الأعراف) ..

ويقول جل شأنه : « قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى » (١٤ ـ ١٥ : الأعلى) ..

ويقول سبحانه : « ولذكر الله أكبر » (٤٥ : العنكبوت) ..

ويقول سبحانه : « وأقم الصلاة لذكرى » (١٤ : طه) ..

* وقوله تعالى : « وتبتل إليه تبتيلا » ..

التبتل : الانقطاع ، والبتْل القطع .. ومنه البتول ، وهى التى انقطعت عن الدنيا وشواغلها بعبادة الله ..

ومعنى التبتل إلى الله ، الانقطاع إليه ، وتوجيه العقل ، والقلب إليه جميعاً ، دون التفات إلى غيره ..

وهذا هو شأنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فكل وجوده لله .. كلامه وخطوه ، وقيامه ، وقعوده ، ونومه ، ويقظته .

وليس التبتل هنا معناه الرهبنة، والانقطاع عن الحياة، وإنما هو العمل لله وحده في معترك الحياة، بمعنى أن تكون أعمال النبي، وجهاده بالقول، وبالسيف، مراداً بها وجهَ الله وحده، معزولا عن كل مطالب من مطالب الحياة الدنيا، ومجانباً لكل حظ من حظوظ النفس، إلا ما يمسك الأوَد، ويحفظ الحياة..

قوله تعالى:

* «ربّ المشرق والمغرب لآ إله إلا هو فاتخذه وكيلا»

أي هو رب المشرق والمغرب، أي هو رب هذا الوجود كله.. فإذا ذَكر المؤمن اسم ربه، ذكَر بذلك مالله سبحانه من سلطان، وأنه مالك الملك، وحافظه، ومدبر كل أموره وأحواله، وهذا هو الذي يعطى الذاكر ثمرة طيبة، إذا هو ذكر ربه بهذه المشاعر الخالصة له سبحانه وتعالى.

وفي التعبير بالمشرق والمغرب، عن الوجود كله، وحصره في هاتين الجهتين، مع أن الجهات أربعة، هي المشرق والمغرب، والشمال، والجنوب ـ في هذا أمور، منها:

أولا: أن التعبير القرآني، جاء بلفظ مشرق، ومغرب، ولم يجيء بلفظ شرق وغرب..

وهذا يعنى أنه يشير إلى مشرق الشمس، والقمر، والكواكب، والنجوم، ومغربها.. فهذه العوالم، لها مشرق، ومغرب، وليس لها شمال، وجنوب..

وثانيا: أن المشرق، والمغرب، يشملان ـ ضمنا ـ الشمال والجنوب.. حيث أن المشرق يشير إلى جهة الشروق، التي تمتد من أقصى الشمال، إلى نهاية الجنوب.. وكذلك المغرب، فإنه يمتد من طرف الشمال، إلى طرف الجنوب.

وثالثاً : أن دورة الأرض ، وهى الكوكب الذى نعيش عليه ، هى دورة من الغرب إلى الشرق ، وليست من الشمال إلى الجنوب ، أو من الجنوب إلى الشمال .. ولذا فإن فى حركتها تلك لايظهر إلا وجه المشرق ، ووجه المغرب ، جامعين كلّ شمال وكل جنوب يقع فى محيطهما ..

وقوله تعالى : « لاَ إِلَه إلا هو فاتخذه وكيلا » .. أى أنه سبحانه هو المتفرد بالسلطان على الوجود ، لايشاركه أحدٌ ، ولهذا كان التعلق به وحده ، والتوكل عليه وحده ، هو الطريق إلى السلامة ، والنجاة . .

وفى قوله تعالى : « فاتخذه وكيلا » إشارة إلى تفويض الأمر لله وحده ، وجعــله سبحانه هو الوكيل الذى يَـكِل إليه الإنسان أموره ، ويفوّض له التصرف فيها ..

ووكالة الله سبحانه وتعالى للإنسان ، هنا ، هى وكالة عن اختيار وطواعية ، وعن ثقة فى الله ، وإقرار بالعجز من العبد عن أن يكون له تصريف فى أى شىء إلا بما قضى الله سبحانه وتعالى له به ، وقدّره .. وهذا هو الإيمان فى حقيقته ، وفى أكمل صوره ، وتلك حال المؤمنين حقًّا فى صلتهم بالله ، وفى تعاملهم مع الله . .

أما غير المؤمنين بالله ، الذين لايتوكلون عليه ، ولا يفوضون أمورهم إليه ـ فإنهم مقهورون تحت سلطان الله ، وفى إجراء مقاديره عليهم .. ويستوى فى هذا المؤمنون ، وغير المؤمنين .. ولـكن الفرق بين المؤمنين وغير المؤمنين ، هو فى أن المؤمنين قد امتلأت قلوبُهم طمأنينة ورضا بهذا العَقد الذى عقدوه مع ربهم، فى تفويض أمورهم إليه ، وإلقائها بين يديه ، وهذا من شأنه أن يقيمهم على رضا دائم بما يقع لهم ، فلا يرَوْن فيما صَنَعه الوكيل لهم إلا الخير ، والإحسان، سواء أكان ذلك مما يَسُرّ الناس أو يسخطهم ، ومما يرونه خيراً أو شراً . .

إن المؤمن الذى فوض لله أموره ، لايرى عاقبة هذه الأمور إلا أنها الخيرُ ، والخير كله . .

أما غير المؤمن بالله ، فإنه يحمل وحده هموم نفسه ، ويتولى تصريفها ، غير ملتفت إلى أن يداً قوية قادرة حكيمة ، رحيمة ، هى التى تتصرف فيها بسلطان غالب ، ومشيئة سابقة ، وقَدَر مقدور ـ فهو لهذا فى معاناة دائمة ، وفى مخاوف ووساوس لا تنقطع ، من عواقب أموره . . فإذا جاءه من أمرٍ مايسره ، لم تنطلق من نفسه رنة الفرح ، لأن هناك أموراً أخرى أصدرها ، وينتظر مواردها عليه ولا يدرى مايجيئه منها ، فلا تقع الفرحة خالصة بما وقع ليده مما يسره . . وإن أصابه مايسوءه ، قتل نفسه حسرةً وندماً ، لأنه فعل كذا ، ولم يفعل كذا ، وأنه لوسلك بأمره هذا الذى ورد عليه بهذا السوء مسلكا آخر ـ لما حدث له هذا الذى حَدَث . . وهكذا يظل يمضغ الحسرة والأسى ، حتى آخر لحظة من حياته . . فلا هو لما يسرُّ مطمئن ، ولا هو لما يسوء واجدٌ عزاء وسلوانا .

قوله تعالى :

* « واصبر على مايقولون واهجرهم هجراً جميلا » . .

هو معطوف على قوله تعالى : « فاتخذه وكيلا » . . أى اتخذ ربك الذى لا إله إلا هو ، وكيلا ، تستند إليه فى جميع أمورك ، بعد أن انقطعتَ إليه ، ووضعت وجودك كله فى سبيل مرضاته . . واصبر على ما يأتيك من المشركين من أقوال ضـــالة مفتراة ، ومايرمونك به من تُهم باطلة كاذبة . . اصبر على سفاهتهم تلك وقولهم إنك مجنون ، وإنك شاعر ، أو كاهن ، أو مفترٍ متقوّل على الله . . اصبر على كل هذا ، فذلك هو من آثار هذا القول الثقيـــل الذى ألقيناه عليك ، وتلك هى المهمة الثقيلة التى انتدبناك لحملها . . وإنه لايعينك على حمل هذا العبء الثقيل إلا توكلك على الله ، واعتصامك بالصبر : « يأيها الذين

آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين » (١٥٣ : البقرة).

وقوله تعالى : « واهجرهم هجرا جميلا » .. أى واهجر المشركين إذا انقطع بينك وبينهم ما ترجو لهم من خير ـ اهجرهم هجراً جميلا .. أى كن رفيقاً بهم، متودداً إليهم، ولا يحملنّك ما يرمونك به من سفاهة وجهل، على بغضتهم، والدعاء عليهم .. بل ارفق بهم، والتمس العذر لهم، فهذا هو شأن العالم مع الجاهل، والطبيب مع المريض .. فإذا انتهى بك الأمر معهم إلى القطيعة، فليكن ذلك بحكمة وبرفق من جهتك، كأن تقول : سلامٌ عليكم .. لى عملى ولكم عملكم .. إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا .. إلى غير ذلك مما علمك الله، من الدعوة إليه، بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتى هى أحسن.

وقوله تعالى :

* « وذرنى والمكذبين أولى النّعمة ومهلهم قليلا ».

النعمة : التنعم، والرّفه .. ومنه النعمة، وهى كل ما يُنعم به، جسدياً، أو نفسيًّا، أو روحيًّا ..

وقوله تعالى : « وذرنى والمكذبين أولى النعمة » تهديد مزلزل مفزع لهؤلاء السادة المتنعمين، من مشركى القوم، فإنهم هم الرءوس الفاسدة، العفنة، التى تقود تلك الحلقة الضالة التى تؤذى النبى، وتقف لدعوته بالمرصاد ..

وأولو النعمة : هم المترفون من أصحاب المال.

والخطاب للنبىّ صلوات الله وسلامه عليه، وهو دعوة إليه من ربه ألا يستشفع عند الله لهؤلاء الضالين، وما سيأخذهم الله سبحانه وتعالى به من عذاب، فى هذه الدنيا، وما أعد لهم فى الآخرة من نار جهنم، وعذاب السعير ..

وفى هذا التهديد من الله سبحانه وتعالى للمشركين ، بعد دعوة النبى بأن يهجرهم هجرا جميلا ، وأن يزايل موقفه من بينهم فى رفق ـ فى هذا إشارة إلى أن يترك النبى الأمر لله ، فهو الذى سيتولى حسابَ هؤلاء المشركين .. فليدع الأمر لله ، ولا يقطع مابينه وبين قومه من أواصر النسب والقرابة .. فهم قومه ، وأولى الناس بعطفه ، ومودته ..

وهذا أسلوب من أساليب التهديد ، التى تبدو فى صورة من أمسك بيده سيفاً ، أو رمحاً ، ثم رفعه فى وجه عدوه ، الذى يحتمى فى ظل صديق أو شفيع ، فهو يقول لهذا الصديق أو الشفيع : ذرنى ، أى اتركنى ، وهذا الشقى ، أضربه الضربة القاضية .. !

ومن هذا الأسلوب يبدو أن النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هو الدّرع الواقية لهؤلاء الضالين من أن ينزل عليهم غضب الله ، وأن هذا الغضب واقع بهم ، إذاهم غاضبوا النبى ، وحملوه حملا على أن يخلى مكانه فيهم ..

وقد كان ! فإنه ما إن بلغ الكتاب أجله لموقف النبى من هؤلاء المشركين ، وخروجه من بينهم مهاجراً ـ حتى تتساقط عليهم سحب العذاب ، فيكون لهم فى بدر يوم ، تُقطع فيه رءوسٌ كثيرة من هؤلاء المكذبين أولى النعمة ، ثم يكون لهم فى يوم الفتح ، يوم تُذل فيه رقابهم ، وتخضع فيه أعناقهم ، فلا يرتفع لمشرك بعد هذا اليوم رأس ، ولا يشمخ أنف .. !!

وفى قوله تعالى : « ومهلهم قليلا » — إشارة إلى أن العذاب الذى يتهدد هؤلاء المشركين ، هو مطلّ عليهم ، لايلبث إلا قليلا حتى يقع عليهم .. وقد كان !! ويجوز أن يكون المراد بالإمهال القليل ، هو إشارة إلى إعطاء هؤلاء المشركين فرصة يراجعون أنفسهم ، ويرقبون مسيرة الدعوة الإسلامية ، وأثرها فى القلوب والعقول ، فلربما كان لهم من ذلك عبرة وعظة .. وقد كان..

فإن أكثر هؤلاء المشركين قد دخل فى الإسلام ، وأصبح من القوى العاملة على نصره ، والتمكين له . .

قوله تعالى :

* « إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما * يوم ترجُف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا » .

هذا هو ماسيلقى المشركون يوم القيامة ، إذا هم ماتوا على ماهم عليه من شرك . . إنهم سيردون إلى الله ، وإنه ليس لهم عند الله إلا أنكال ، وجحيم، وطعام ذو غصة وعذاب أليم . .

فهذه صورة من صور العذاب التى يتجرع أهلُ الضلال كئوسها قطرة قطرة يوم القيامة .. فهل يريد أصحاب الترف والنعيم أن يذوقوا هذا البلاء ؟ إنه موجود عندنا ، لانتكلف له جهدا ، وإنه ينتظر الضالين المكذبين .

والأنكال ، جمع نكل ، وهى ضروب من المساءات ، التى تساق إلى أهل الضلال يوم القيامة ، قبل أن يُلقى بهم فى نار جهنم ، ومنها هذا السوق العنيف الذى يساقون فيه إلى المحشر ، وهذا الفضح لهم على رءوس الأشهاد ، بما كان منهم من مخاز ، وضلالات ، ومنها تلك السلاسل التى يقادون بها من أعناقهم ، ويسحبون بها إلى النار على وجوههم . .

ثم هذا الجحيم أى النار المستعرة ، التى يتأجج ، ويتسعر وقودها .. ثم هذا الطعام ذو الغصة ، وهو الطعام الكريه ، الذى لايجد الطاعم مساغاً له ، فيزورّ به ، ويضيق حلقه عن ابتلاعه ، فيصاب بغصة منه . . كل هذا ، هو مما أعده الله لأهل الشرك والضلال . .

وقوله تعالى : « يوم ترجف الأرض والجبال » هو بيان الظرف الذى

يلقى فيه المشركون هذا النكال ، والعذاب الأليم فى نار جهنم .

وفى قوله تعالى : « ترجف الأرض والجبال » — إشارة إلى مايحدث للأرض فى هذا اليوم من اضطراب ، حيث تشقق القبور ، وتُخرج ما فيها ، وحيث تموج بهذه الأمواج المتدافعة من الخلق الذين يساقون إلى المحشر! ورجفة الأرض والجبال، هى من رجفة الخلائق يوم البعث ، من فزعهم من أحوال هذا اليوم العظيم ، كما يقول سبحانه : « ويوم ينفخ فى الصور ، ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله » (٨٧ : النمل) .

وقوله تعالى : « وكانت الجبال كثيبا مهيلا » — إشارة أخرى إلى ما يصيب الجبال من أحداث هذا اليوم وشدته ، وأنها تتفتت ، وتنهار ، وتبدو مثل كثيب من الرمل ، المهيل ، أى غير المتماسك .

الآيات : (١٥ — ١٩)

* « إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا »

هو عودة إلى هؤلاء المشركين ، بعد تهديدهم بالعذاب فى الدنيا ، والنكال وعذاب جهنم فى الآخرة — عودة إليهم بعرض دعوة الإسلام عليهم من جديد ، ليراجعوا أنفسهم ، وليطلبوا السلامة من العذاب ، القريب ، والبعيد ، الذى ينتظرهم . .

ويكثر فى القرآن الكريم ، مواجهة المشركين بفرعون ، وما كان منه من كفر وضلال ، وما أخذه الله به من بلاء ونكال . .

وقد قلنا فى غير موضع ، إن هذا الجمع بين المشركين وبين فرعون يشير فيما يشير إليه ، إلى ما بين هؤلاء المشركين وبين فرعون من مشابه كثيرة ، فى العناد ، والجهل ، والضلال ، والاستعلاء على سماع كلمة الحق ، والنفور منها . .

وقوله تعالى : « رسولا شاهداً عليكم » — إشارة إلى أن مهمة الرسول هو تبليغهم ، وأداء الشهادة عند الله فيهم ، بما كان منهم من هدى أو ضلال ، ومن استجابة له ، أو إعراض عنه . . كما يقول سبحانه : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » (٤١ : النساء) .

قوله تعالى : «فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلا » — هو بيان للمشركين ، يرون فيه ما كان من فرعون ، وما حل به . . لقد عصى فرعون الرسول ، وهو موسى ، فأخذه الله تعالى أخذاً وبيلا ، أى أخذاً مخزيا ، مُهيناً ، مهلكا . . فهل يعصى هؤلاء المشركون الرسول الذى أرسله الله إليهم ؟ إنهم إن يفعلوا فعل فرعون ، فسوف يلقون مالقى فرعون . . إنهم ليسوا أشدّ من فرعون بأساً ، ولا أقوى منه قوة ، ولا أعز نفراً ، ولا أكثر قبيلا . .

قوله تعالى :

* «فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا * السماء منفطر به كان وعده مفعولا » .

هو تعقيب على قوله تعالى: « فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلا » — أى فكيف تدفعون عن أنفسكم عذاب هذا اليوم الذى يجعل الولدان شيبا، إن كفرتم ولم تؤمنوا بالله، ولم تستجيبوا لما يدعوكم إليه الرسول؟ كيف تدفعون عن أنفسكم هذا العذاب؟ أأنتم أقوى من فرعون قوة وأشد بأساً وأكثر نفرا؟ لقد أخذ فرعون بكفره، وستؤخذون أنتم بكفركم، إن كفرتم، وأمسكتم بهذا الكفر..

وفى قوله تعالى: « إن كفرتم » — احتراس، يراد به قيد هذا العذاب الذى يتهددهم، وأنه رهن بما ينكشف عنه موقفهم من النبى.. فهم إلى هذه اللحظة فى سَعة من أمرهم، مادام النبى فيهم، وما داموا فى الحياة، لم تُطوَ صحفُ أعمالهم بعد بالموت..

وفى هذا إغراء لهؤلاء المشركين بالإيمان، وإفساح الطريق لهم إليه.. وقد دخل كثير منهم فى دين الله، وأصبحوا مؤمنين،. وهذا هو بعض الحكمة فى قوله تعالى: « ومهلهم قليلا ». وقوله تعالى قبل ذلك: « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا ».

* وقوله تعالى: « السماء منفطر به » هو وصف لهذا اليوم الذى تشيب من هوله الولدان.. وكما أن الأرض ترجف منه، والجبال تنهال، وتصبح كثبانا مهيلة من الرمال — كذلك السماء تنفطر به، أى تنشق به، أى بسببه. فالباء فى « به ».. للسببية

وجاء الخبر عن السماء مذكرا « منفطر » ولم يقل « منفطرة » للإشارة إلى بنائها، أو سقفها، الذى يقع عليه التشقق والانفطار.. أى منفطر به بناؤها..

وقوله تعالى : « كان وعده مفعولا » أى كان وعد الله تعالى واقعاً لا محالة .. أى أن هذا الوعد ليس مجرد قول ، بل هو قول ، يتحول إلى فعل واقع ، ومشاهد محسوس . .

وقوله تعالى :

* « إن هذه تذكرة .. فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » . .

هذه الآيات التى تحمل النذر ، والبشريات معاً ، هى تذكرة ، يجد فيها أولو العقول السليمة ، تجاوباً مع الفطرة ، فيذكرون بها الميثاق الذى أخذه الله عليهم وهم فى ظهور آبائهم ، من الإيمان به ، والإقرار بربوبيته ووحدانيته ، كما يقول سبحانه : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ! ! » (١٧٤ : الأعراف) .

وقوله تعالى : « فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » — إشارة إلى أن الطريق إلى الله مفتوح لكل من يريد الاتجاه إليه ، فليس هناك من يحول بين الإنسان وبين اتصاله بربه ، كما أنه ليس هناك من يَحمِل الإنسان حملا على أخذ هذا الطريق . . « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٢٩ : الكهف) . .

الآية : (٢٠)

* « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠) »

التفسير :

قوله تعالى : « إن ربك يعلم . . . » الآية

بهذه الآية المباركة تختم السورة الكريمة ، فيلتقى ختامها مع بدئها ، الذى كان دعوة من الله سبحانه وتعالى إلى النبي الكريم بقيام الليل إلا قليلا ، أو نصفه ، أو أقل أو أزيد من النصف ، وقد امتثل النبى أمر ربه ، فقام من الليل ماشاء الله أن يقوم ، فى إطار هذه الحدود التى حددها الله سبحانه وتعالى له ، فقام أحيانا الليل كله ، وقام أحيانا الليل كله إلا قليلا منه ، وقام أحيانا أخرى نصفه ، أو أقل أو أزيد من النصف . .

وفى هذا الختام ، يتلقى النبى الكريم من ربه سبحانه وتعالى ، هذا الخبر المسعد له ، وذلك بأن الله سبحانه قد تقبل منه قيامه ، وأنه سبحانه سيجزيه على طاعته ، وامتثاله أمر ربه — بأن يخفف عنه هذا التكليف الشاق عليه ، وعلى تلك الجماعة من المؤمنين ، التى تأسّتْ بالنبى ، وقامت الليل مثله . .

فقوله تعالى : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل » ليس المراد منه الإخبار بعلم الله ، وإنما المراد بهذا الخبر ما يترتب على وقوعه ، وهو الجزاء الذى يستحقه المخبَرَ عنه ، بسبب وقوع ما أخبر به عنه . .

وقوله تعالى : « أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه » هو بيان شارح لما

أمره الله سبحانه وتعالى به من قيام الليل فى قوله تعالى : « يأيها المزمل * قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أوزد عليه » — فقوله تعالى : « أدنى من ثلثى الليل » أى أقرب إلى ثلثى الليل — يدخل فيه الليل كله إلا قليلا ., كما يدخل فيه مازاد على النصف .. فإن أدنى من ثلثى الليل ، يحتمل طرفى الزيادة والنقص من الثلثين ، فما زاد عن الثلثين قليلا ، يُعتبر أدنى منهما من جهة ، كما أن ما نقص عنهما قليلا ، يُعد أدنى منهما من جهة أخرى ..

وأما قوله تعالى « ونصفه » فهو يقابل ما جاء فى قوله : « نصفه » المذكور فى أول السورة . .

وأما قوله تعالى: « وثلثه » فهو يقابل قوله تعالى : « نصفه أو انقص منه قليلا » أى انقص من النصف قليلا . .

وقوله تعالى : « وطائفة من الذين معك » هو معطوف على فاعل : « تقوم » أى تقوم أنت ، ويقوم طائفة من الذين معك ، أى من الذين آمنوا وأصبحوا معك ، لا عليك . .

وفى هذا ما يشير إلى أن قيام الليل لم يكن فرضاً على المؤمنين ، ولا واجباً ، وإنما كان الذين قاموا الليل مع النبى جماعة من المؤمنين ، لا كل المؤمنين ، تأسّوا بالنبى ، دون أن يُدْعَوا إلى هذا القيام ، وإلا لو كان فرضا للزم المسلمين جميعاً ، ولكان الذين لم يقوموا الليل ، آثمين ، غير مؤمنين ، الأمر الذى لم تُشر إليه الآيات ، من قريب أو بعيد . .

أما النبى — صلوات الله وسلامه عليه — فقد كان قيام الليل فى أول رسالته — فرضاً عليه وحده ، دون المؤمنين ، لأنه مكلف بمهمة لم يكلَّف بها

أحد غيره، وإن هذه المهمة شاقة ثقيلة تحتاج إلى دُربة ومِران على احتمال الصعاب والمشقات، كما أنها تحتاج إلى رصيد كبير من الزاد الذى يتزود به من قيامه الليل، وترتيله القرآن.

ثم إنه بعد أن بدأت الدعوة الإسلامية، تأخذ طريقها العملى، ويواجه بها النبى قومه — رَفع الله سبحانه وتعالى عن النبى عبء قيام الليل، فجعل ذلك أمرا على سبيل الندب والاستحباب، وفى أى وقت وقدْر من الليل، كما يقول سبحانه: « ومن الليل فتهجد به نافلةً لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محمودا » (٧٩: الإسراء)..

قيل إنه كان بين نزول أول المزمل وما حملت إلى النبى من أمر بقيام الليل، وبين هذه الآية الأخيرة من السورة، التى جاء فيها حكم التخفيف بقراءة ما تيسر من القرآن — كان بين نزول أول السورة وآخرها عشرة أشهر، وقيل سنة، كما يروى ذلك عن السيدة عائشة رضى الله عنها، وقيل إنه كان بينهما عشر سنين!!.

ونحن نميل إلى الرأى الثانى وهو القول بعشر سنين.. وذلك لأمور:

أولها: أن مدة عشرة أشهر أو سنَة، غير كافية فى التدريب على حمل هذا العبء الثقيل الذى سيحمله النبى، فى تبليغ الدعوة الإسلامية، وأن ما ينتظر النبى فى الدور المدنى من اتصال الحرب بينه وبين المشركين واليهود، لاتدع له فرصة لسهر الليل الطويل.. على خلاف ما كان عليه الأمر فى مكة، حيث كان لقاء النبى مع آيات ربه بالليل، هو الزاد الذى يعيش عليه خلال تلك المدة.

وثانيها : أن المواجهة بين النبى — صلوات الله وسلامه عليه — وبين المشركين فى مكة ، كانت مواجهة كلامية لم تخرج إلى حد القتال . . فالدور المكى من الدعوة كان كله حرباً من جانب واحد ، هو جانب قريش ، لم يؤذَن للمسلمين بعد فيه بالقتال ، لأنهم لم يكونوا يملكون فى مكة القدرة على التجمع ، والتحرك ، كما كانوا لا يملكون وسائل القتال وعدده . .

وثالثها : فى قوله تعالى : « وآخرون يقاتلون فى سبيل الله » — فى هذا إشارة إلى أن هذه الآية نزلت والمسلمون كانوا قد أوشكوا أن يكونوا قوة مقاتلة تلتقى مع المشركين فى ميادين القتال . . وأن هؤلاء الذين كانوا يقومون الليل تأسياً بالنبى ، كانوا يشاركون فى هذه المعارك ، الأمر الذى يجعل من قيام الليل عبئا آخر إلى أعباء الحرب ، فكان التخفيف عن النبى ، وعن المتأسِّين به فى قيام الليل ، أمراً مطلوباً فى تلك الحال — أى حال التحام المسلمين مع المشركين واليهود فى القتال ، وذلك فى العهد المدنى

قوله تعالى : « والله يقدّر الليل والنهار » — أى يضبط زمن كل منهما ، فى تكوير أحدهما على الآخر ، فيطُول هذا ، ويقصُر ذاك . . « قد جعل الله لكل شىء قدراً » (٣ : الطلاق) أى حسابا وتقديراً . .

قوله تعالى : « علم أن لن تحصوه » أى علم الله سبحانه وتعالى أنكم لن تحصوا أوصاف الثناء عليه سبحانه وتعالى مهما طال قيامكم بالليل . . وهذا ما يشير إليه الرسول الكريم فى قوله ، مناجيًا ربّه : « سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »

وهذا الذى ذهبنا إليه ، هو المعنى الذى نستريح له . . ولم نجد أحداً من المفسرين قد ذهب إلى هذا الرأى ، وإنما كانت آراؤهم كلها تدور حول

معنى واحد ، هو أن الله سبحانه علم أنكم لن تقدِروا على إحصاء الليل وتحديد مواقيته ، ومعرفة متى يكون ثلث الليل أو نصفه ، أو ثلثاه ؟. أما النهار فإنه من الممكن ضبط أجزائه ، ولهذا عاد الضمير فى « تحصوه » على الليل وحده دون أن يعود عليه هو والنهار . . هكذا يقولون ! !

وهذا المعنى الذى يذهب إلى معنى العجز عن إحصاء أجزاء الليل — وإن كان له مفهوم وقت نزول القرآن ، حيث لم تكن هناك المقاييس الزمنية المعروفة اليوم ، كالساعة ونحوها ، فإن هذا المفهوم الآن غير واقع . . والقرآن الكريم حكم قاض بالحق المطلَق ، وشاهد ناطق بالصدق المصفّى ، أبدَ الدهر . . « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » . . ثم إن إحصاء الليل ، وتقدير وقته ، من الممكن أن يتحقق حتى فى زمن نزول هذه الآية ، وذلك برصد النجوم ، وتحديد منازلها ، وقد كان العرب على علم بهذا ، وأنّ نظرةً من أحدهم إلى مواقع النجوم فى السماء ، كان يعرف بها أين هو من الليل ؟ وماذا ذهب منه ؟ وماذا بقى . . ؟

ومن إعجاز القرآن الكريم أنه يتسع لمفاهيم الحياة كلها فى كل زمان ومكان . . وعلى هذا يمكن أن يتوارد على قوله تعالى : « علم أن لن تحصوه » أكثر من مفهوم ، وكل مفهوم ، منها يسدّ حاجة الناس فى عصرهم ، وما بلغته مداركهم من العلم .

وعلى هذا يكون قوله تعالى : « والله يقدر الليل والنهار » خبراً عن الله سبحانه وتعالى ، ويكون قوله تعالى : « علم أن لن تحصوه » خبراً ثانيا أى والله يقدر الليل والنهار ، والله علم أن لن تحصوه أى تبلغوا حق الثناء عليه . . ويجوز أن يكون قوله تعالى : « والله يقدر الليل والنهار » صلة لموصول محذوف ، هو

صفة لله ، بمعنى والله المقدر لليل والنهار . . ويكون قوله تعالى : « علم أن لن تحصوه » خبراً للفظ الجلالة .. بمعنى : والله المقدر لليل والنهار علم أن لن تحصوا الثناء عليه ، مهما امتد الزمن بكم ، وطال الليل أم قصر . .

وقوله تعالى : « فتاب عليكم » . . الفاء للسببية ، أو التفريع . . أى علم الله أنكم لن تحصوا الثناء عليه « فتاب عليكم » أى فقبل منكم هذا التقصير ، قبولَ التائب من ذنبه ، فيرفع عنه وزره ، ويغسل ذنوبه كما يُغسل الثوب مما علق به .

وفى التعبير عن رفع الحرج عن المؤمنين فى قيام الليل ، على ما جاء فى قوله تعالى : « قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا ٠ أو زد عليه » ــ فى التعبير عن هذا بالتوبة ، مع أن هؤلاء المؤمنين لم يأتوا ذنباً ، إن كان منهم تقصير فى قيام الليل ، لأن قيام الليل لم يكن فرضاً عليهم ، وإنما كان مندوباً ومستحبًّا ، اقتداء بالنبى ، وتأسيًّا به ، وترسماً لخطاه ــ فى التعبير عن هذا بالتوبة ، إشارة إلى لطف الله بالمؤمنين ، وإكرامه لهم ، وأنهم ــ وإن كانوا يأتون أمراً لهم فيه سعة ــ فإن إلزام أنفسهم به ، يقتضيهم أن يؤدوه كاملا على الوجه المرسوم له . . تماماً كأفعال التطوع ، فى العبادات من صوم ، وزكاة وكالنذر ونحوه . فإن المؤمن إذا ألزم نفسه شيئاً من هذا ، وجب عليه أن يؤديه كاملا ، مستوفياً جميع أركانه ، آخذاً كل صفاته . . إنه عَقْد عقده الإنسان مع ربه ، وأن أى خلل فى أركان هذا العقد ، هو نقض له . . والله سبحانه وتعالى يقول : « يـٰأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » (١ ــ المائدة)

ومن جهة أخرى . . فإن التهاون ، والاستخفاف بما يأتيه المؤمن ــ

متطوعاً — من عبادات ، وإخلاء نفسه من شعور الجدّ فيها ، والاحتفاء بها ، بوصف أنه إنما يأتى ما يأتى به متطوعاً ، وأنه لا حرج عليه فى أن يؤديه على أية صورة — إن هذا من شأنه أن يذهب بجلال العبادة وقدسيتها ، ويجعلها أشبه باللهو واللعب .. وأنه إذا كان للمؤمن شأن فى أداء فرائض الله ، فليكن هذا شأنه فى جميع ما يتعبد لله سبحانه وتعالى به ، من فرائض وواجبات ونوافل ..

فهو فى جميع أحواله ، فى مقام التعبد لله ، يستوى فى هـذا ما كان فرضاً ، أو واجباً ، أو تطوعاً .. فإن العبادة هى العبادة ، والمعبود هو المعبود ، والعابد هو العابد ..

فالفرائض ، والواجبات ، والنوافل ، كلها فى مقام التعبد لله ، على درجة واحدة ، فيما ينبغى لها من جلال وتوقير ، لأنها جميعها موجهـة إلى الله سبحانه وتعالى .. والله سبحانه وتعالى طيّب لا يقبل إلا طيباً ..

ففى قوله تعالى : « فتاب عليـكم » — إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى، قد أعفى المؤمنين من هذا الإلزام الذى ألزموه أنفسهم ، وقد أعنَتَهم الوفاء به ؛ ورهقهم الاستمرار عليه .. فتاب الله عليهم ، وأحلّهم من هذا الإلزام ، وتجاوز عن تقصيرهم ، وخرج بهم من الضيق إلى السعة ، لطفاً منه ورحمة ، وإحساناً ..

وقوله تعالى : « فاقرءوا ما تيسر من القرآن » . . هو تفريع على قوله تعالى : « فتاب عليـكم » .. أى ولأن الله قد تاب عليـكم ، فاقرءوا ما تيسر من القرآن ، دون أن يكون ذلك مقيداً بقدر محدود من الليل ، أو النهار، حتى تؤدوا ذلك القدر اليسير من التلاوة على الوجه الأكمل ، وفى حال حضور جسدى ، ونفسى وعقلى ..

قيل إن قراءة ماتيسر من القرآن ، يُجزئ فيها قراءةُ مائة آية ، وقيل أقل من هذا ، إلى عشر آيات . . وفى هذا اليسر ، ما يمكّن المؤمنين ـ كما قلنا ـ من لقاء الله سبحانه وتعالى على ذكره ، لقاء واعياً ، يقظاً ، تنشط له أعضاء الإنسان كلها ، ويحضره وجوده جميعه ، فى غير تكاسل ، أو فتور ، أو غفلة . . وهذا يعنى أن العبادة ليست كَيْلا يُـكال بكمّه ، ويقدّر بكثرته..وإنما هى صلة روحية بالله ، تـكفى فى تحقيقها شرارة منطلقة من قلب سليم ، فيتوهج بنور الحق ، ويتصل بنور الله ، الذى هو نور السموات والأرض . .

وقوله تعالى : « علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله » . .

هذا بيان للسبب الذى من أجله أحلّ الله المؤمنين من هذا الإلزام الذى ألزموا به أنفسهم ، وهو أنهم لن يستطيعوا أن يفُوا بهذا الالتزام على وجهه ، لأنه سيكون منهم من يمرض ، ويكون منهم من يضرب فى الأرض ابتغاء الرزق ، ويكون منهم من يقاتل فى سبيل الله .. وهذه كلّها معوقات تعوق عن أداء هذا الإلزام على وجهه .. وهذا من شأنه أن يُوقع المقصّر منهم ـ بعذر من هذه الأعذار ـفى حَرَج ، ويقيمه مقاماً قلقاً مضطرباً ، ويوقع فى نفسه كثيراً من مشاعر الأسى والحسرة ..

وهنا سؤال ، هو :

إذا كان قيام الليل بالنسبة لمن قاموه من جماعة المؤمنين ، هو على سبيل التطوع ،فـكيف يجد المؤمن حرجاً فى أنه لم يَقُم الليل ،لمرض ، مثلا ؟ أليس هذا عذراً ،قد يُسقط عنه بعض الفرائض ، والواجبات، فـكيف بالتطوع ، والنافلة ؟

ونقول ـ والله أعلم ـ إن ذلك وإن كان صحيحاً ، فإنه لا يُخلى نفسَ المؤمن الحريص على دينه من الحسرة والألم أن فاته هذا الخير ، وأقعده المرض عن اللحاق بإخوانه الذين حصّلوا هذا الخير .. تماماً كمن يفطر رمضان لمرض ، أو شيخوخة ، وكمن يقعده العجز عن الجهاد فى سبيل الله .. إنه وإن كان قد خرج من باب الحرج ، فإنه لم يدخل فى باب العابدين المجاهدين .. !

ولهذا كان من رحمة الله ، ولطفه ، وإحسانه بالمؤمنين ـ أن يدعوهم جميعاً إلى ساحة رضاه ، وأن يمد لهم موائد الخير ليصيبوا منها جميعاً ، وليأخذ كلٌّ قدر طاقته ، سواءَ أكان مريضاً ، أو ضارباً فى الأرض ابتغاء الرزق ، أو مجاهداً فى سبيل الله . فهذا القدر اليسير من تلاوة القرآن ، يُدخل المسلمين جميعاً فى مقام الإحسان ، ويتيح لهم جميعاً أن يشاركوا فى التأسّى بالنبى فى قيام الليل .. وبهذا لا ينفرد ذوو الهمم العالية من المؤمنين الذين أشار إليهم الله سبحانه وتعالى بقوله : « وطائفة من الذين معك » ـ لا ينفرد هؤلاء وحدهم بالتأسى بالنبى فى هذا المقام ، وإن انفردوا بالمنزلة العليا ، وأخذوا مكان الصف الأول فيه ..

ومن جهة أخرى ، فإن المخاطبين فى قوله تعالى : « علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله » ـ المخاطبون هنا ـ والله أعلم ـ هم جماعة من المؤمنين بأعيانهم ، وهم أولئك الذين قاموا مع النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ماقام من الليل ، أدنى من ثلثيه ، أو نصفه ، أو ثلثه ..

فهذه الجماعة ، هى التى جاءت الآية الكريمة هنا لتحلّها من هذا الالتزام الذى ألزمت به نفسها ، حتى لقد تورمت أقدام كثير منهم ، وكاد يؤدى بهم ذلك إلى التلف ، وهم على إصرار بأن يمضوا فى طريقهم إلى غايته ، مهما يصيبهم من عَنَاء وَرَهق ..

فهؤلاء الجماعة من المؤمنين ، ان يظلوا على تلك الحال التى هم عليها .. بل إنه ستعرض لهم أحوال أخرى ، تلجئهم إلجاء إلى عدم الوفاء بهذا الالتزام ، كالمرض ، أو السفر فى تجارة ونحوها ، أو القتال فى سبيل الله ، الذى سيشهده بعضهم إن لم يكونوا شهدوه فعلا .. ثم كان هذا التخفيف عاماً لجميع المؤمنين ، حيث يتاح لهم جميعاً أن يأخذوا بحظهم من قيام الليل ، ولو لحظات منه ..

وفى ذكر القتال فى سبيل الله هنا ، نبأ من أنباء الغيب ، بما سيلقى المؤمنون على طريق الإيمان من جهاد فى سبيل الله ، ومن قتال بينهم وبين المحادّين لله ، والصادّين عن سبيل الله .. وذلك على أن الآية مكية ، كما يقول بذلك بعض العلماء ..

وقوله تعالى : « فاقرءوا ماتيسر منه » هو توكيد لقوله تعالى : « فاقرءوا ماتيسر من القرآن » وفى هذا تطمين لقلوب المؤمنين الذين دعتهم الآية الكريمة إلى التحول عن هذا الموقف الذى ألزموه أنفسهم ، من قيام الليل .. فهو أمر يكاد يكون ملزِماً بالتخفيف .. فما أبرّ الله بعباده ، وما أوسع رحمته لهم ، فسبحانه ، سبحانه ، من ربّ برّ رحيم .. ! !

قوله تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً » . أى وحسبكم مع قراءة ماتيسر من القرآن ، وقيام ماتيسر لكم من الليل ـ حسبكم ـ مع هذا ـ أداء ما افترض الله عليكم من إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ..

وقوله تعالى : « وأقرضوا الله قرضاً حسناً » هو دعوة إلى التصدق والإنفاق تطوعاً ، دون أن يقدّر ذلك بقدْر معين ، فهو أمر موكول إلى الإنسان ، وما تسمح به نفسه .. إنه أشبه بقراءة ماتيسر من القرآن ، الذى يتسع لآيات معدودات ، كما يتسع للقرآن كله .. فمن تصدق بالقليل ، فقد أقرض

الله قرضاً حسنا .. « ماعلى المحسنين من سبيل » ـ وإن كان لـكل محسن جزاء ماقدم من إحسان ، كلٌ على قدر ما أعطى . .

والقرض الحسن ، هو الذى لا منّ فيه ولا أذًى ، والذى يكون من طيبات ما كسب الإنسان ، كما يقول سبحانه : « يـٰأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم » (٢٦٧ : البقرة) وكما يقول سبحانه : « ولا تيَمّموا الخبيثَ منه تنفقون » (٢٦٧ : البقرة) .

وقوله تعالى : « وما تقدّموا لأنفسكم من خيرٍ تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً » ـ هو تعقيب على الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وإقراض الله قرضا حسنا .. فهذه كلّها طاعات ، وقُربات يُتقرب بها إلى الله ، وهى كلّها خير مدخر لصاحبه عند الله ، يجده عند الحاجة إليه يوم الحساب والجزاء ـ خيراً من هذا الخير ، قدراً ، وأعظم أجراً . .

قوله تعالى : « واستغفروا الله إن الله غفورٌ رحيم » .. أى ومع إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وإقراض الله قرضا حسنًا ، فإن العبد لايزال مقصراً فى حق ربه ، مهمابلغ من طاعة ، ومهما قدم من خير ـ فإن ذلك كله لايفى ببعض نعم الله على الإنسان .. فليستشعر المؤمن هذا أبداً ، وليكن على علم بأنه مقصر فى حق ربه ، وأنه لاملجأ له لتلافى هذا النقص ، إلا طلب المغفرة ، والرحمة من ربه ..والله سبحانه « غفور رحيم » يغفر المستغفر ، لأنه رحيم يرحم من طلب الرحمة لنفسه ، وسعى إلى إقالتها من عثراتها . .

* * *

٧٤ - سورة المدثر

نزولهـــا : مكية . . نزلت بعد سورة المزمل .

عدد آياتهـا : ست وخمسون آية .

عدد كلماتها : مائتان وخمس وخمسون . . كلمة

عدد حروفها : ألف حرف ، وعشرة حروف .

مناسبتها لما قبلهـــا

كانت سورة « المزمل » دعوةً لإيقاظ النبي ، وتنبيهه إلى الحياة الجديدة التي سيبدأ رحلتها منذ اليوم الذى التقى فيه برسول الوحى فى غار « حراء » مستفتحاً رسالة السماء إليه بقوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * ، علم الإنسان ما لم يعلم »

وقد أخذ النبيّ من هذا اللقاء ما أخذه ، من قلق وجزع ، . حتى لقد لزم بيته ، وأرخى ستاراً بينه وبين الحياة ، لا يدرى ماذا ينتظره فى غده !

وجاء الوحى الذى لقيه فى الغار ، ليشرح له الموقف ، وليبين له ، أن الأمر الذى تلقّاه ، ليس هو أن يقرأ ما يسمع منه وحسب ، وإنما ذلك هو بدء قراءة دائمة متصلة بينهما ، ثم هو بدء قراءة بين « محمد » وبين الناس جميعاً . . إنه منذ اليوم ، هو رسول الله إلى الناس جميعاً ، وأنه محمّل برسالة من عند الله يؤديها إليهم . . وأداء هذه الرسالة يقتضيه بأن يرفع هذا الغطاء عنه ، وأن يستيقظ استيقاظاً كاملا ، وأن يصحوَ صحوة لا يخالطها فتور ، حتى يستطيع أن يحمل هذه الرسالة الكبرى ، ويواجه الناس بها : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا »

ولقد استيقظ « المزمل » ورفع الغطاء عنه ، وقام الليل إلا قليلا ، يرتل ما نزل عليه من آيات ربه ، ويعيش معها بوجوده كله ، حتى يتمثل هذه الآيات حرفاً حرفاً ، وكلمة كلمة ، وحتى يكون هو نفسه على مستوى هذه الآيات ، كمالا ، وروعة ، وجلالا . . إنه الوعاء الحامل لآيات الله إلى الناس ، وإن للوعاء وزنه ، وقدره ، وأثره ، فى المادة الحامل لها ، وفيما يرى الناظرون إليها منه ، وما يقع فى نفوسهم منها . .

وإذ قد استيقظ « المزمل » وأخذ أهبته المهمة الجديدة التى كلف بها ، وتزود لها بالزاد الذى يعينه عليها ، ولم يبق إلا أن يؤذَن له ببدء المسيرة إلى حيث يلتقى بالناس ، ويؤذّن فيهم برسالة الله المرسل بها إليهم — إذ يصل الأمر إلى هذا الحدّ ، فها هو ذا رسول الوحى ، يطرق الباب على النبى ، ثم يدخل عليه ، فيجده متدثراً فى ثيابه ، قائما فى محراب ذكره لله ، وترتيله آيات الله ، فيهتف به بقوله تعالى :

* « يأيها المدثر ، قم فأنذر »

إنها دعوة إلى قيامٍ غير القيام الأول الذى دُعى إليه فى قوله تعالى : « يأيها المزمل ،قم الليل إلا قليلا » وإن المزمل غير المدثر . . فالمزمل نائم ، متعَب ، مجهد . . والمدثر ، متلفف فى ثيابه ، فى حالِ قيام،أو قعود ، وإن لم يكن مشمراً للعمل .. وأصل المدثر : المتدثر ، فأدغمت التاء فى الدال ، وكذلك الأصل الاشتقاقى المزمل . .

وإن المدثر ليقوم الآن لينذر ، ويبلغ رسالة ربه إلى الناس ،وليخلع الأردية المتدثر بها ، وليلبس ثوب العمل .

لقد بدأت إذاً الرحلة الجديدة . . فليقم النبى ، وليشدّ رحاله ، والله سبحانه وتعالى معه ، يعُينه ، ويثبت أقدامه . .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٧)

* « يَـٰأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ (٧) »

التفسير :

قوله تعالى: « يـٰأيها المدثر .... »

هذه هى الوصايا التى يُوصى بها ربُّ السماء رسولَ الله ، عند أول خطوة يخطوها برسالته إلى الناس . .

إنه مدعوٌّ إلى أن يقوم بكل قواه ، ليلقَى الناسَ منذراً ، غير ملتفت إلى عناد المعاندين ، ولا متهيب كِبرْ المتكبرين . . فالله ـ سبحانه ـ الذى يدعو الناسَ باسمه ، هو أكبر من كل كبير . . فليذكر هذا دائماً ، فإنه إذا ذكر كبرياء الله ، تضاءلت أمام عينيه كبرياء كل كبير . . وأن ينفض عن ثيابه غبار الدّعة والراحة ، وأن يطهرها من غبار الزمن الذى عاشه بها قبل النبوة . . إنه منذ اليوم يلبس ثياب النبوة ، إنها ثياب الجهاد ، فى سبيل الله ، ولَبوس الحرب والقتال لأعداء الله . . وإنّ من شأن المحارب إذا أخذ لبوس حربه أن ينظر فيه ، وأن يصلح منه ما يحتاج إلى إصلاح ، حتى يكون صالحاً للعمل ، دفاعاً أوهجوماً . . وهذا هو تطهير الثياب .

ومما ينبغى أن يأخذ به النبى نفسه فى ثياب النبوة ، أن يهجر الرجز ، وهو كل ما يمسّ طهارة هذا الثوب ، سواء أكان ذلك ناجماً من الاحتكاك بالحياة ،

والمجادلة مع المشركين ، أو كان ذلك مما يعرض للنفس من ضجر ، وقلق ومعاناة ، من تلقاءهذا العبء العبء لذى تنوء بحمله الجبال . . وهذا هو هَجْر الرجز

والفاءات فى قوله تعالى : « وربك فـكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر » يرى كثير من النحاة وتابعهم فى هذا كثير من المفسرين ، أن هذه الفاءات زائدة . .

ونحن على رأينا من أنه ليس هناك حرف زائد فى كتاب الله الـكريم ، وأن كل حرف أو كلمة ، لها دِلالتها التى لا يتم المعنى المراد فى القرآن إلا بها . .

وهذه الفاءات ، هى من نوع الفاء فى قوله تعالى : « يأيها المدثر * قم فأنذر » فالفاء فى قوله تعالى : « فأنذر » واقعة فى جواب الأمر . .

وكذلك الفاءات فى قوله تعالى : « وربك فـكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر » — هى واقعة فى جواب أمر مقدر ، معطوف على قوله تعالى فى أول السورة : « قم » . .

وعلى هذا يكون المعنى فى ابتدائه على هذا الوجه : .

يـأيها المدثر قم فأنذر الناس ، وقم فـكبر ربك ، وقم فطهر ثيابك ، وقم فاهجر الرجز . .

ثم للاهتمام بالمفعول به ، وقَصْر فعل الفاعل عليه ، قُدم هذا المفعول على الفعل ، فى قوله تعالى : « وربك فـكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر» وحذف فعل الأمر « قم» المـكرر فى الآيات الثلاث ، اكتفاء بتقديره وراء حرف العطف « الواو » الذى يأخذ نصيبه معنًى لا لفظاً من الفعل « قم » فى قوله تعالى : « قم فأنذر »

وفى الحق أن هذا التخريج النحوى لا ينبغى أن ندخل به على آيات الله، فذلك مما لا يتفق ومقام الإعجاز القرآنى، الذى يزرى بقدره، أن يُوزن بميزان الكلام البشرى، الذى يخضع للضرورات، ويقبل الخطأ والانحراف.. تماماً كما يُزرى بقدر الذهب أن يوزن بميزان الحصى، إن كان للحصى ميزان..

وحسبنا فى هذا المقام أن نقف بين يدى مثل هذه الآيات ـ التى يجد فيها النحاة مجالا للقول — فنضرب صفحاً عن النحو ومقولاته، ونفتح قلوبنا، وعقولنا إلى هذا النور الذى يتدفق من آيات الله وكلماته، فيكشف لنا معالم الطريق إلى مواقع الهدى، والخير والفلاح.

ونعود إلى موقفنا بين يدى آيات الله فنقول:

كذلك ينبغى أن يعلم النبى من أول الأمر، أنه رحمة مهداة من عند الله إلى عباد الله، كضوء الشمس، ونور القمر، وماء السحب.. وإنه مما يكدر هذه النعمة، أن يرى الناس منه استعلاء، أو تطاولا بتلك المنن التى سيقت إليهم على يده.. فإن النفوس تكره ممن يحسن إليها أن يَمُنَّ عليها بإحسانه، ويذكّرها به، وكأنه يريد لذلك ثمناً، أىَّ ثمن، من ولاء وخضوع، أو من جاه وسلطان «ولا تمنن تستكثر»

والأولى من هذا، أن يبذل المحسن إحسانه، من غير التفات إلى مواقعه ممن أحسن إليهم بالنسبة إليه، وما أحدثه ذلك فى نفوسهم من تصاغر أمامه، أو تسبيح بحمده والثناء عليه..

والإحسان من النبى ـ كما قلنا ـ هو إحسان منظور إليه على أنه من الله مباشرة إلى الناس، وأن النبىّ هو حاملُ هذا الفضل، وموصّل هذا الإحسان إليهم..

وبهذه النظرة إلى رسالة النبي ، من جهته هو ، ومن جهة المرسَل إليهم ، تقوم الرسالة على ميزان صحيح ، مستقيم . .

فالرسول يرى فى ضوء هذه النظرة ، أن حسابه فى هذه الرسالة مع ربه ، وأن جزاءه عليها، هو من الله سبحانه وتعالى .. وهذا يجعل من شأنه ألا ينظر إلى الناس نظرة المحسِن المتفضل ..

والمرسَل إليهم يرون أن الذى يدعوهم إليه ، هو ربهم ، وليس بشراً مثلهم ، وأنهم إذ يستجيبون الرسول ، فإنما يستجيبون لله . . وهذا من شأنه أن يخفف كثيرا من مشاعر الغيْرة والحسد عندهم ، ويذهب بكثير من دوافع الحمِّية والأنفة والاستعلاء التى تملأ صدورهم ، والتى كثيراً ما تقوم حِجازاً بين الناس والناس ، فى تبادل المنافع ، وتقبل النصح والإرشاد . .

وفى قوله تعالى : « تستكثر » — حال من فاعل « ولا تمنن » أى لا تمنن مستكثراً من المنّ . . وهذا يعنى أن بعض المنّ مسموح به فى هذا المقام ، على أن يكون ذلك من أجل خدمة الدعوة ولحسابها ، كأن يقول النبي لقومه : « لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » (٢٣:الشورى) « ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » (٨٦ : ص) ونحو هذا مما علمه الله سبحانه وتعالى النبي أن يقوله المشركين فى موقف الاحتجاج عليهم ، ودفع التهم التى يتهمونه بها . . فهذا وإن كان فيه شىء من المنّ ، إلا أن له ما يبرره من تصحيح أخطاء ، وتلبيسات ، وقعت فى نفوس المشركين ، من مقام الرسول فيهم هذا المقام ، وأنه فى نظرهم إنما يبغى من وراء هذا شيئاً ما ، وإلا فماذا يحمله على ركوب هذا المركب الصعب إليهم ؟

ثم يكون ختام ما يوصَى به النبي فى هذا المقام أن يتجمل بالصبر ، وأن يوطن

نفسه على احتمال الضر والأذى ، فإن طريقه إلى قومه ملىء بألوان من المساءات والسفاهات التى يرصدونها له . .

ولِمَنْ هذا الصبر على المكاره ؟ إنه لله ، وفى سبيل الله . . « ولربك فاصبر »

هذا ، ويلاحظ أن الإنذار فى قوله تعالى : « قم فأنذر » — قد جاء مطلقاً من قيد الزمان ، والمكان ، والإنسان . . فحيث كان النبى فى أى مكان وأى زمان ، فهو قائم بالإنذار ، وحيث التقى بإنسان من أية أمة ، وأى قبيل كان مطلوباً منه أن ينذره . . إنه رحمة عامة ، تملأ الزمان والمكان ، وتستوعب الناس جميعاً فى كل زمان ، وكل مكان .

الآيات : (٨ — ٣٠)

* « فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى ٱلْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٌ (١٠) ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) »

قوله تعالى :

« فإذا نقر فى الناقور » فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير »

التفسير :

الفاء فى قوله تعالى : « فإذا نقر فى الناقور » هى فاء الفصيح ، ويراد بها بعدها الإفصاحُ عما تضمنه الكلام قبلها ، من إشارات وتلميحات . .

وهنا نجد أن قوله تعالى : « يـأيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرّجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر » ـ نجد فى هذه الآيات دعوةً آمرة من الله سبحانه وتعالى إلى النبىّ بأن يقوم فى الناس منذراً ، ولم تبين له الآيات ما ينذر به ، فجاء قوله تعالى : « فإذا نقر فى الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير » . . جاء مفصحاً عما ينذِر به ، وهو يوم القيامة ، وما يَلقَى أهلُ الضلال فيه من شدائد وأهوال . .

وقد يسأل سائل :

أبهذا النذير يبدأ الرسول رسالته ، ولا يبدؤها بالدعوة إلى الإيمان بالله ، الذى هو رأس الأمر كله ، ومقطع الفصل فيما بين المؤمن والكافر ؟

والجواب على هذا ـ والله أعلم ـ هو ـ كما قلنا فى أكثر من موضع ـ أن الإيمان بالحياة الآخرة ، وبالحساب والجزاء ، هو مَضلّة الكافرين جميعا ، إذ يبدو لهم أن بعث الموتى من قبورهم بعد أن يصبحوا رفاتا وترابا ـ أمر لا يمكن أن يقع ، ولا تستطيع عقولهم تصوّره ، وأن كثيراً من مشركى العرب كانوا يؤمنون بالله إيمانا مشوباً بالضلال ، وباتخاذ معبودات يعبدونها من دون الله تقرباً إليه بعبادتها ، وأنهم كانوا ـ مع هذا ـ مستعدّين أن يقبلوا الإيمان بالله ، وعبادته وحده ، ولم يكونوا مستعدين أبدا ، أن يقبلوا هذا الإيمان ، وفى مقرّراته البعثُ والحساب والجزاء . .

ولهذا نجد أكثرَ مواقف القرآن الكريم مع المشركين ، هو فى الردّ على مقولاتهم فى البعث ، وفى إنكارهم له ، واستبعادهم لوقوعه . . فما أكثر ما ذكر القرآن الكريم من مقولاتهم فى هذه القضية ، وما أكثر ما عرض عليهم من الأدلة والحجج ، التى تبطل معها مدّعَيَاتهم ، وتسقط بها حججهم . .

أما فى مقام وحدانية الله ، فلم يكن للمشركين موقف كهذا الموقف من قضية البعث ، ولم يكن لهم جدل طويل يُديرونه مع النبىّ ، كما كان ذلك شأنهم فى أمر البعث ، وإن كلّ ما ذكره القرآن عنهم من حجة فى أمر الوحدانية،لايعدو أن يكون دفاعاً عن وجود آلهتهم واعتبارها ممثلة لله فى الأرض.. كل إله منها يَصِلهم بالله عن طريق خاص به . . ولم تتسع عقولهم القاصرة أن ترى الله غير مجسد فى هذه الدّمى ، وتلك النُّصب . . فكان مما ذكره القرآن عنهم قوله تعالى: « أجعل الآلهة إلٰها واحدا إن هذا لشىءعُجاب.. » (٥:ص) وقوله تعالى فيما يقولونه عن آلهتهم ، وصلتها بالله : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله» (١٨ : يونس) . « ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى » (٣ : الزمر) .

من أجل هذا بدأت رسالة النبىّ بالإنذار بهذا اليوم ، يوم القيامة ، وما فيه من عذاب أليم للمشركين والكافرين ، وأهل الضلال جميعاً . .

وهذا ما كان من الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فإنه ما إن تلقى هذا الأمر من ربّه،حتى دعا قومه إليه ـ كما تقول كتب السيرة الموثقة ـ وخطب فيهم قائلا : يامعشر قريش : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا[1] بسفح هذا الجبل أكنتم تصدّقونى ؟ » قالوا نعم : أنت عندنا غير متّهم ، وما جرّبنا عليك كذبا قط . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » فقال أبو لهب ـ لعنه الله ـ : تبًّا لك سائر اليوم . . ألهذا دعوتنا ؟ » فنزلت سورة اللهب .

(١) أى عدوا مغيرا بخيله .

فهذا أول ما أنذر به النبي قومه . . وهو يوم القيامة . .

وقوله تعالى : « فإذا نُقِرَ في الناقور » أي نفخ في الصور ، وسمى الصور ناقورا ، لأنه يُنقر فيه حتى يحدث صوتا . . فهو اسم آلة ، مثل ساطور ، وقادوم . .

وقوله تعالى : « فذلك يومئذ يوم عسير » هو جواب « فإذا » ، أى فإذا نفخ فى الصور ، فعندئذ يطلع هذا اليوم العسير على الكافرين .

وقوله تعالى : « على الكافرين غير يسير » . . هو توكيد لقوله تعالى : « فذلك يومئذ يوم عسير » وهذا مايشير إليه قوله تعالى فى آية أخرى : « يقول الكافرون هذا يوم عَسِر » « ٨ : القمر »

قوله تعالى :

* « ذرنى ومن خلقت وحيدا * وجعلت له مالا ممدودا * وبنين شهودا * ومهدت له تمهيدا * ثم يطمع أن أزيد » .

هذا عرض لصورة من صور المنذَرين ؛ الذين أنذرهم الرسول ؛ فسخروا منه ؛ ووقفوا جبهة متحدية له ؛ آخذة الطريق عليه إلى الناس ؛ وإلى تبليغهم رسالة ربه .

ويقال إن الموجَّه إليه هذا التهديد ، هو الوليد بن المغيرة . . وبهذا القول ـ إن صحّ ـ يكون الوليد هو الصورة التى يرى فيها كلّ مشرك معاند ، ذاته ؛ ويشهد المصير الذى هو صائر إليه . .

وقوله تعالى : « ذرنى » هو تهديد بالنكال والبلاء ؛ وباتجاه عذاب الله كله إلى هذا الإنسان الشقى الموجه إليه هذا الإنذار . . وقد أشرنا إلى معنى هذا عند تفسير قوله تعالى : « وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا » . . فى سورة المزمل . (١١)

وقوله تعالى : « وحيدا » هو حال من فاعل : « خلقت » وهو الله سبحانه

وتعالى، أو هو حال من المفعول المحذوف؛ وتقديره الهاء المحذوفة فى «خلقت» ويجوز أن يكون حال من المفعول به فى «ذرنى» أى ذرنى وحيدا مع من خلقته.

وقوله تعالى: «وجعلت له مالا ممدوداً» أى مالا كثيراً، متصلا، لا ينقطع..

وقوله تعالى: «وبنين شهوداً» أى وجعلت له بنين حاضرين بين يديه، أى لم يموتوا، كما يموت كثير من البنين، بعد أن يوهبوا لآبائهم.

فهذا المال الذى أعطيته إياه، لا يزال بين يديه ممدوداً متصلا، وهؤلاء الأبناء الذين بين يديه، حاضرون شهود لم يغيبوا عنه.. وفى هذا تهديد له بذهاب هذا المال، وفقد هؤلاء الأبناء، كما ذهبت أموال كثيرين، ومات أبناء كثيرين..

وقوله تعالى: «ومهدت له تمهيداً» — أى هيأت له حياة رخيّة، بالمال، والبنين، اللذين هما زينة الحياة الدنيا..

وقوله تعالى: «ثم يطمع أن أزيد» ثم إن هـذا الضال العنيد، على طمع أن أزيده مالا وبنين، وذلك بما زين له ضلاله بأنه إنما أوتى ماأوتى لفضيلة اختُصّ بها، ولصفات استأثر بها دون الناس، وأن مابين يديه قليل إلى ما يمّنى به نفسه الملوءة غروراً..

وقوله تعالى: «كلا.. إنه كان لآياتنا عنيداً» — هو رد على أمنيات هذا الضال، وتوقعاته بأن يزداد مالا وبنين.. وكلا.. بل إن ماممه سيأخذ منذُ اليوم فى النقصان، حالا بعد حال، حتى يموت، ونفسه تتقطع حسرة على ما ذهب من ماله وولده.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «سأرهقه صعودا» أى سآخذه بالرهق والشدة حالا بعد حال، مصعِّدا به من شدة إلى أشد منها..

وهكذا حتى يذهب كل ماله، وجميع بنيه، وهو يرى ذلك فيتقطـع قلبه حسرة وكمداً..

قوله تعالى :

* « إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هـذا إلا سحر يؤثر » . .

فى هذه الآيات صورة معجزة من صور البيان القرآنى ، الذى تعجز أدق ألوان البيان مجتمعة أن تتعلق بأذياله . .

فبالكلمة ، شعرا ونثرا ، وبالصورة المتحركة والساكنة ، والناطقة والصامتة ، وبالموسيقى ، ألحانا مفردة ومجتمعة .. وبكل ماعرفت الإنسانية من ألوان الإبانة والتعبير — لا يمكن أن تجىء — ولو من بعيد — بمثل هذه الصورة القرآنية التى صوّر بها هذا الإنسان الشقىّ العنيد ، ظاهراً وباطناً ، فلم تدع الصورة خلجة من خلجات ضميره ، أو مَسْرباً من مسارب تفكيره ، أو همسة من همسات خاطره ، إلا ألقت بها على قسمات وجهه ، ونظرات عينيه ، وحركات شفتيه ، فكانت شُخوصاً ماثلة للعيان . .

وانظر كيف كانت مسيرة هذا الضال العنيد ، مع آيات الله ، التى تليت عليه من رسول الله .. فلقد رُوى أن الوليد بن المغيرة — وكان ذا مكانة بارزة فى قريش ، وأشدهم عداوة لرسول الله ، وكان موسم الحج قد حضر — دعا سادة القوم إليه ، فقال لهم : يامعشر قريش ، إنه حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستفد عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هـذا (يعنى رسول الله) فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيه ، فيكذّب بعضُكم بعضا .. قالوا فأنت يا أبا عبد شمس ، فقلْ ، وأقم لنا رأياً نقول به ، قال : بل أنتم ، فقولوا أسمع !

قالوا : نقول : كاهن !! قال : لا ، والله ماهو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو - أى النبى - بزمزمة الكاهن ولا سجعه . .

قالوا : فنقول مجنون ؟ قال : ما هو بمجنون . . لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخَنَقه ، ولا تخالجه ، ولا وسوسته !! قالوا . . فنقول شاعر ! قال : ما هو بشاعر . . لقد عرفنا الشعر كله ، رَجَزَه ، وقريضه ، ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر . . قالوا فنقول : ساحر !! قال : ماهو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو - أى النبى - بنفثه ، ولا عَقْده ! قالوا : فما تقول ياأبا عبد شمس ؟ ، قال : « والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعِذقٌ وإن أعلاه لجَنَاة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً ، إلا عُرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا : إنه ساحر . جاء بقول هو سحر ، يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه . . فتفرقوا عنه بذلك الرأى ، وجعلوا يَلْقَوْن أهلَ الموسم على كل طريق ، ويقولون لهم : احذروا ساحرَنا !

ويُروى عن ابن عباس ، أن الوليد بن المغيرة هذا ، جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، يدعوه إلى أن يرجع عن دعوته ، وألا يُشيع الفُرقة والخلاف بين أهله وعشيرته ، فتلا عليه النبى آيات من آيات الله ، فرقّ لها قلب الوليد ، وخرج من بين يدى النبى ،وكأنه يحدث نفسه بأمر غير الذى جاء به . فبلغ ذلك أبا جهل ،فأتاه ، فقال : ياعمّ . إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا ! قال : لماذا؟ قال : ليعطوكه ، فإنك أتيت محمداً لتعرض لِما قِبَلَه (أى لتنال مما عنده من طعام أو نحوه) فقال : لقد علمت قريش أنى من أكثرها مالا ! قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له ، كاره لما يقول ! فقال : وماذا أقول ؟

فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منى . . . والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، وإن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مُغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعلَى ، وإنه ليحطم ما تحته !! قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . . قال : فدَعْنى حتى أفكّر فيه ، فلما فكر قال : هذا سحرٌ يؤثر !! أى يأثُره ، ويقتفى فيه أثر غيره ، فنزل قوله تعالى : « ذرنى ومن خلقت وحيداً . . . الآيات »

وننظر فى سيرة هذا الضالّ العنيد مع آيات الله التى تلاها عليه رسول الله ، وكيف كان يلقاها بتلك المشاعر المتضاربة المضطربة ، التى تتأرجح به بين التصديق والتكذيب ، والإيمان والكفر .. ثم تغلب عليه شِقوته آخر الأمر ، فإذا هو على رأس المكذّبين الضالين . .

* « إنه فكر » فيما تُلى عليه من آيات الله . . فقد كان من شأن هذه الآيات أن تهزّ الجماد ، وتذيب الصخر ! .

* « وقدّر » أى جعل يَزِن ويقدّر كلّ ما كان يطرقه من أفكار .

* « فقتل . . كيف قدّر » دعاء عليه بالقتل ، لهذا التقدير العجيب الذى قدّره . . إذ كيف يسوغ لمن فكر ، أن يقيم ميزاناً لأى كلام ، مع كلمات الله ؟ . .

* « ثم قتل كيف قدّر » توكيد للدعاء عليه بالقتل ، وتوكيد للتعجب من توقفه بعد تفكيره ، عن أن يقول قولة الحقّ فى آيات الله .

* « ثم نظر » أى نظر فيما اجتمع له ، من آراء مختلفة فى القرآن . .

أهو شعر ؟ لا ليس بشعر ؟

أهو كهانة ؟ لا ليس من الكهانة فى شىء . .

أهو قولُ مجنون ؟ كلاّ فما قائله بمجنون ، ولا فيما يقوله إلاّ أحكم المنطق وأصوب القول . .

وهكذا ، تدور الخواطر فى نفسه ، وتصطرع الآراء فى عقله ، وهو عاجز عن أن يخرج من هذه العاصفة المزمجرة التى احتوته .

* « ثم عبس » . . هذه انطباعة من أثر هذا الصراع الدائر فى كيانه .. لقد طرقه خاطر مخيف فردّه بهذا العبوس ، والتجهم .. ولعل هذا الخاطر كان يدعوه إلى أن يستسلم للحق ، ويخرج على قريش معلنا إيمـانه بآيات الله ، وتصديقه برسول الله ! !

ولـكن هذا العبوس قد ردّ هذا الخاطر ، وألقى به فى عُباب الخواطر التى تموج فى صدره .

* « وبسر » أى زاد على العبوس تقطيباً ، وزمًّا لفمه ، وتـكشيرا عن أنيابه . .

وهذه كلها تـكشف عن حركات نفسية ، تغدو وتروح ، وتقبل وتدبر ، فى صدر هذا الشقى العنيد ، الذى يموج بهذه المشاعر المتضاربة .

* « ثم أدبر واستـكبر » هذه هى الجولة الأخيرة فى هذا الصراع الذى كان محتدماً فى نفسه . . لقد انهزم العقل ، وانتصر الهوى ، وغابت الحـكمة ، وحضر الطيش والنزق . . وانتهى الأمر بأن أعطى هذا الشقى العنيد ظهره الحقّ ، وأخذته العزّة بالإثم ، فأبى أن يتبع سبيل المؤمنين .

* « فقال إن هذا إلا سحر يؤثر » !!

وبدلا من أن يقول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . . قال « إن هذا إلا سحر يؤثر » أى ما هذا الذى يتلوه محمد علينا ـ ما هو إلا سحر ،

عجيب ، لابد أن يكون قد تلقاه عن خبير بالسحر وفنونه ، واقتفى أثره فيه . .

* « إنْ هذا إلا قول البشر » . .

ثم لقد ازداد الشقىّ العنيد جرأة على الحقّ ، فبعد أن كان يلقاه خائفا لا يكاد يواجهه ، فيقول عن القرآن : « إن هذا إلا سحر يؤثر » رافعاً قدره عن أن يكون من كلام البشر ـ إذا هو بعد هذه القولة الآثمة ، يخطو خطوة أخرى نحو الضلال ، فيقول : « إن هذا إلا قول البشر ! » . . إنه مجرد كلام، لا يصل إلى أن يكون سحراً ! وهكذا الحق بسطوته وقوته ، يكشف عن جبن أعدائه ، حتى وهم ـ فى ظاهر الأمر ـ غالبون منتصرون . .

هذا ، ومن الملاحظ أن العطف بين أحوال هذا الشقى الأثيم ، قد جاء بالحرف « ثمّ » الذى يفيد التراخى . .

« ثم نظر . . ثم عبس وبسر . . ثم أدبر واستكبر » .

ففى كل حال من تلك الأحوال ، عاش هذا الشقى زمناً، مقدّراً ، ومفكراً، ثم إنه ما إن انتهى من هذا الصراع الذى يدور فى كيانه ، وما إن أمسك بالكلمة التى يطلع بها على القوم ، حتى بادر بإلقائها إليهم قبل أن تُفلت منه ، ويغلبه عليها ما يدور فى خاطره من كلام لا يقبلونه منه . . ولهذا جاء العطف بالفاء التى تفيد التعقيب دون تراخٍ ، أو إمهال . . « فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر» وكما أسرع الشقىّ بكلمة الكفر يجهر بها ، قبل أن تفلت منه ـ كذلك أسرع إليه العقاب الذى يستحقه بسبب هذه القولة الفاجرة التى صدرت عنه .. فيجىء فى أعقابها قوله تعالى :

* « سأصليه سقر » .

يجىء هذا الوعيد ، الذى يحمل « سقر » إلى هذا الشقىّ ، أو يحمله هو إليها ، من غير حرف عطف أصلا ، يفصل بينه وبين قوله الآثم ، وكأنّ هذه النار التى سيصلاها ، هى بعض هذا القول الخارج من فمه . . وإذا هذه النار مشتملة عليه . . تأكله ، كما تأكل الحطب !

و « سقر » هى جهنم ، وقيل اسم من أسمائها ، أو دَرَك من دركاتها . .

إنه لم يكن بين قول هذا الشقىّ ، وبين الآية التى حملت إليه هذا الوعيد ـ لم يكن ثمة فاصل ، لفظىّ أو تقديرىّ . . وهذا يعنى أن هذه الجريمة تحمل معها عقابها دائماً ، فلا ينفصل عنها بحال أبداً . .

* « وما أدراك ما سقر » . . استفهام يراد به الإشارة إلى أن المستفهم عنه شىء مهول ، لا يمكن وصفه . . لأنه مما لم يقع فى حياة الناس أبداً . .

* « لا تبقى ولا تذَر » .

إنه وصف لسقر ، بأفعالها ، وما تترك من آثار . . أما ذاتها فلا يمكن تصورها . .

ومن صفاتها ، أنها لاتُبقى شيئاً إلا التهمته ، وجعلته وقوداً لها ، كما لاتذر أحداً من أهل الضلال إلا ضمته إليها ، وأذاقته بأسها ، لاتدع منه ظاهراً أو باطناً إلا ذاق عذابها ..

* « لواحةٌ للبشر » ..

أى أنها مغيّرة لألوان البشر ، إلى لون الفحم ، بما تلفح به وجوههم من لهيبها . .

* « عليها تسعة عشر » ..

أى على هذه النار ، التى هى سقر ، تسعةَ عشرَ من الزبانية ، يقومون على

حراستها ، وتقليب الحطب المقدّم إليها من المكذبين والضالين ، الذين يُلقى بهم فيها ، ليكونوا وقوداً لها . .

الآيات : (٣١ — ٥٦)

* « وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَآئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَافِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَٱلْقَمَرِ (٣٢) وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّآ أَصْحَابَ ٱلْيَمِينِ (٣٩) فِى جَنَّاتٍ يَتَسَآءَلُونَ (٤٠) عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰٓ أَتَانَا ٱلْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢)

كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ (٥٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدّتهم إلا فتنةً للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرضٌ والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وماهى إلا ذكرى للبشر » .

فى هذه الآية بيان لما أحدثه قوله تعالى فى الآية السابقة على هذه الآية ، وهى قوله تعالى : « عليها تسعة عشر » ـ من تعليقات هازئة ساخرة من المشركين . . فكان من سَمَرهم الذى يسمُرون به ، هو الحديث عن هؤلاء التسعة عشر الذين يقومون على حراسة جهنم ، وكيف يمكنهم أن يمسكوا الناسَ فيها ، والناس أعداد لاحصر لها ؟ إن قريشاً وحدها كفيلة بأن تكفّ بأسَ هؤلاء الجند ، أيًّا كان بأسهم وقوتهم . . بل إن بعض هؤلاء الساخرين منهم ليقول : أنا أكفيكم سبعة عشر ، واكفونى أنتم الاثنين ! !

فجاء قوله تعالى : « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة » ليردّ على سخرية هؤلاء الساخرين ، ويكبتهم بها . إن هؤلاء التسعة عشر ليسوا مجرد عدد ، وإنما هم ملائكة . . وإنهم ليعرفون الملائكة ، ويتخذون منهم أرباباً يعبدونهم من دون الله . . فهل لهم بهذا الجند من جند الله يدَان ؟

وقوله تعالى : « وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا » أى ماذكر الله عدة هؤلاء الجند ، وحصرهم فى تسعة عشر ، دون أن يبلغوا العشرين ، مثلا ، ليكونوا عدداً كاملا ـ ماذكرهم الله،وحصر عددهم فى هذا العدد ، إلا ليمتحن بذلك إيمان المؤمنين ، وضلال الضالين ، وقد كشف هذا الامتحان عن فتنة المشركين الذين اتخذوا من هذا العدد سبيلا إلى التفكه ، والتندر ، والاستهزاء ..

وقوله تعالى : « ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا »

إشارة إلى أن أهل الكتاب قد وجدوا أن ما أخبر به القرآن عن عدة أصحاب النار ، من الملائكة مطابق لما عندهم من كتب الله . كما أن المؤمنين سيزدادون إيماناً بما جاءهم من عند الله مصدقاً لما فى الكتب السابقة . .

وفى التعبير بالاستيقان فى جانب أهل الكتاب ، وبازدياد الإيمان فى جانب المؤمنين ، مراعاةٌ لمقتضى الحال فى كلٍّ من الفريقين ..فأهل الكتاب ـ والمقصود به من أهل الكتاب هنا ، هم أولو العلم منهم ، الذين سلموا من الهوى المضل ، الذى أفسد على كثير من علمائهم دينهم ـ فأهل الكتاب هؤلاء ، يبعث فيهم هذا الخبر الجديد الذى جاء به القرآن ـ يقيناً بأن مايتلقاه محمد ، هو وحىٌ من عند الله . . هذا إلى ما كان عندهم من علم ، بهذا النبى ، المبشر به فى كتبهم ، والمبينة صفاته فيها ..

وأما المؤمنون ، فهم مؤمنون بصدق الرسول ، من قبل نزول هذه الآيات ، ومن بعد نزولها .. ولكنهم يزدادون إيمانا كلما تلقوْا من آيات الله جديداً ، يثبّت إيمانهم ويزيدهم قوةَ استبصار لمعالم الحق .. وهؤلاء المؤمنون ، هم الذين آمنوا إيماناً خالصاً من شوائب الشك والارتياب . .

وقوله تعالى : « ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون » .

والذين أوتوا الكتاب هنا ، هم مطلق اليهود والنصارى ، وليس الذين

ذُكروا من قبل ، والذين هم خاصّةُ علماء أهل الكتاب . . وكذلك المؤمنون هنا ، هم الذين لم يقع الإيمان بعد موقعاً متمكناً من قلوبهم . . فهؤلاء وأولئك ليس من شأنهم أن يرتابوا بعد هذا الذى جاء فى آيات الله من أنباء الغيب عن عدة أصحاب النار ، بعد أن تطابق هذا مع مافى التوراة . .

وقوله تعالى : « وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا » ـ الذين فى قلوبهم مرض هم المنحرفون من علماء أهل الكتاب ، الذين غلبهم الهوى على كلمة الحق أن ينطقوا بها ، والكافرون ، هم المشركون الذين مازالوا على شركهم .. فهؤلاء ، وهؤلاء ، يتخذون من قوله تعالى : « عليها تسعة عشر » ـ مادة للاستهزاء ، والسخرية .. كأن يقولوا مثلا : ماهذه التسعة عشر ؟ ولماذا لم تكن عشرين ؟« ماذا أراد الله بهذا مثلا »

وقد ردّ الله على تساؤلهم هذا بقوله سبحانه :

* « كذلك يُضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر » .

أى هذه الأمثال التى يضربها الله للناس ، هى مَضَلة لبعض الناس ، كما أنها هداية لبعضهم .. فمن نظر إليها بقلب مريض ، وبصر زائغ ، لم يرَ وجهَ الخير والحق فيها ، وارتد إلى الوراء مرتكساً فى متاهات الغواية والضلال . . ومن جاء إليها بقلب سليم ، وعقل محرّر من الهوى ـ رأى الطريق القويم إلى الله ، فسلكه ، واستقام عليه . . وهذا مثل قوله تعالى : « إن الله لايستحيى أن يضرب مثلا مابعوضةً فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين » (٢٦ : البقرة) .

وقوله تعالى : « وما يعلم جنود ربك إلاّ هو » هو ردّ على المستهزئين الساخرين ، الذى اتخذوا من عدد التسعة عشر مادّة للاستهزاء والسخرية ، حتى لقد بلغ بهم القولُ بأن الله لا يملك من الجند إلا هؤلاء التسعةَ عشرَ ، ولو كان يملك أكثر منهم لجعلهم عشرين لا تسعة عشر . وكذّبوا وضلوا ، فإن جنود الله لا حصر لها ، ولا يعلم عددها إلاّ هو سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى : « وما هى إلا ذكرى للبشر » الضمير « هى » يعود إلى « عدّة » فى قوله تعالى : « وما جعلنا عدّتهم إلا فتنة للذين كفروا » . . أى أن هذه العدة ، هى موضع ذكرى ، وعبرة للناس . . كما علم منها أهل الكتاب مطابقةَ ما جاء فى القرآن لما فى كتبهم ، والتزام هذه الكتب جميعها هذا العدد ، دون تبديل فيه ، أو تحريف له ، فيما حرّف أهل الكتاب وبدلوا ، لأنه لا مصلحة لهم فى هذا التبديل ، والتحريف . . ويجوز أن يكون هذا الضمير عائداً إلى « سقر » فى قوله تعالى : « سأصليه سقر » ، ومع سقر الجنود القائمون عليها ، وعدتهم تسعة عشر . . فسقر ، والجنود القائمون عليها ، هى ذِكرى للبشر .

قوله تعالى :

* « كلاّ والقمر * والليل إذ أدبر * والصبح إذا أسفر » .

« كلاّ » هنا ، نفى يحمل الرّدع والزجر ، لأولئك الذين لم يجدوا فى تلك الآيات التى تحذرهم من النار ، وتخوفهم من جنودها ــ لم يجدوا فى ذلك ذكرى وموعظة لهم . .

وكلا ، إنها ليست ذكرى للبشر ، أى لمعظم البشر ، إذ كان أكثر الناس على الضلال ، وقليل منهم المهتدون ، المؤمنون .

وقوله تعالى : « والقمرِ » قسم بالقمر .

وقوله تعالى : « والليل إذ أدبر * والصبح إذا أسفر » معطوفان على القمر ، ومقسَم بهما معه . . فهى ثلاثة أقسام ، تجمع : القمر ، والليل ، والصبح .

وقد جاء القسم بالقمر مطلقاً ، دون ذِكر حال من أحواله ، أو صفة من صفاته . . إنه القمر ، والقمر لا يسمى قمراً إلا مع تمامه وكماله . .

وجاء القسم بالليل مقيّداً بظرف خاص ، وهو إدباره ، وتوليه .. على حين جاء القسم بالصبح حال إسفاره ، وظهوره . .

وقد فرّق النظام القرآنى المعجز بين الحالين، حال إدبار الليل ، وحال إسفار الصبح . . إنها لحظة واحدة ، يلتقى عندها إدبار الليل ، وإسفار الصبح ، وقد وَزّع النظم القرآنى هذه اللحظة ، فجعل بعضاً منها يذهب مع الليل الذاهب ، وبعضاً منها ، يتراءى خلف الصبح المقبل . . ولهذا جاء لفظ « إذ » مع إدبار الليل « والليل إذ أدبر » . . وهذا يعنى الزمن الماضى من تلك اللحظة . . فلقد أدبر الليل ، ومضى ، وذهب سلطانه الذى كان قائماً على تلك الرقعة المبسوط عليها من هذا العالم . . أما الصبح ، فهو وليد جديد ، يخطو خطواته نحو المستقبل ، فهو زمن ممتدّ ، ولهذا جاء الظرف المتلبس به بلفظ « إذا » التى تدل على الزمن المستقبل . . « والصبح إذا أسفر » !!

ولعل سائلا يسأل هنا:

وماذا وراء الجمع بين هذه الأقسام الثلاثة : القمر، والليل المدبر ، والصبح المسفر ؟ إن القرآن الكريم لا يجمع بين هذه العوالم إلاّ وهو يشير من هذا الجمع إلى ملحظ ، فيه عبرة ، وعظة ــ فماذا يكون هذا الملحظ ؟!

نقول ـ والله أعلم ـ إن القسم بالقمر ، والليل المدبر، والصبح المسفر ، هو إشارة إلى مبعث النبىّ صلوات الله وسلامه عليه ، وإلى ما بين يدى مبعثه وما خلفه ، من مجريات الأحداث ، التى تطل على الناس . .

فالقمر ـ والله أعلم ـ هو إشارة إلى الرسالات السماوية التى سبقت عصر النبوّة . . فقد كانت تلك الرسالات هى النور ، الذى يَشعّ فى وسط هذا الظلام المخيم على العالم ، وأن نور هذا القمر لا يتيح الناس رؤية كاشفة ، وإن أراهم مواقع أقدامهم . وألقى فى قلوبهم شيئاً من الطمأنينة والأنس ، ثم إنه لا يلبث أن يختفى ، ويتحول عن الناس . .

وإسفار الصبح هو إيذان ببعث النبى ، وأنه الشمس التى ستشرق على هذا الوجود ، وأن أضواء شمس النبوة قد أزاحت ظلمة الليل عن هذا الوجود، وأنه سَرعان ما تطلع الشمس فتملأ الوجود ضياء ، وتكسو العالم حلّة من بهاء وجلال ، حيث تنكشف حقائق الأشياء ، وتسفر عن وجهها لكل ذى بصر يبصر ، ومن شمس النبوة المحمدية استمدّت الرسالات السابقة نورها من ضوء هذه الشمس ، قبل أن يستقبل الوجود مطلع هذه الشمس ، فلما طلعت محت بضوئها آية القمر ، وكان على من يريدون أن يسيروا على هُدًى ونور أن يستقبلوا هذا النور ، وأن يملئوا أعينهم به .

قوله تعالى :

* « إنها لإحدى الكُبَر * نذيراً للبشر » .

الضمير فى إنها يعود إلى « سقر » . . وهى إحدى منازل الكافرين والضالين يوم القيامة .. فإن جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ لها سبعة أبواب ، ولكل باب أهله الذين يدخلون منه إلى النار المعدة لهم .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبوابٍ لكلّ باب منهم جُزْءٌ مقسوم » (٤٣ ـ ٤٤ : الحجر) .

وقوله تعالى: « نذيراً للبشر » تمييز لإحدى الكبر ، أى أن سقر هى إحدى الكبر من جهة الإنذار والتخويف بها .. أى أنها من الآيات الكبرى ، التى من شأنها أن تهز النفوس من أقطارها ، وأن تبعث فى القلوب الخشية والفزع من لقاء هذه الأهوال التى تطلع بها جهنم على أهلها ، وفى هذا أبلغ نذير لمن يبصر النذر وينتفع بها ..

قوله تعالى:

* « لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » ..

هذا بدل من قوله تعالى« للبشر » أى أن سَقَرَ هى نَذيرٌ لمن شاء أن يتقدم فيؤمن بالله ، ويَمضى على طريق الحق والهدى ، كما أنها نذير لمن شاء أن يتأخر فيرتد على عقبه ، ويغيب فى متاهات الكفر والضلال ..

قوله تعالى :

* « كل نفسٍ بما كسبت رهينة » ..

أى كل نفسٍ مرتهنةٌ بما كسبت ، مأخوذة بما عملت ، مجزية بالخير خيراً ، وبالسوء سوءاً ..

قوله تعالى :

* « إلا أصحابَ اليمين فى جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم فى سقر »

هو مستثنى من قوله تعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة » . . فهذا حكم عام على الناس جميعا، مؤمنين وغير مؤمنين ، حيث ترتهن كل نفس بما عملت ، ثم يعود الله سبحانه وتعالى بفضله على المؤمنين، أصحاب اليمين، فيدخلهم الجنة . . ولو أن دخول الجنة كان مرتهناً بالأعمال ، لما دخل أحد الجنة

ولكن الإيمان بالله، والأعمال الطيبة فى ظلّ الإيمان ، من شأنه أن يجعل المؤمن أهلا لإحسان الله إليه ، ودعوته إلى الجنة ، يتبوأ منها حيث يشاء .. وفى الحديث :« لا يدخل أحد الجنة بعمله ، قيل ولا أنت يارسول الله ؟ . قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » ..

وقوله تعالى : « فى جنات » خبر لمبتدأ محذوف ، تقديره ، هم فى جنات .

وقوله تعالى : « يتساءلون » حال من أحوال المؤمنين فى الجنة .

وقوله تعالى : « عن المجرمين » تتعلق بقوله تعالى : « يتساءلون » أى أن تساؤلهم فى تلك الحال هو تساؤل عن المجرمين ، أهل النار .

وقوله تعالى : « ما سلككم فى سقر » هو مما تساءل به أهل الجنة ، عن أهل النار ، حيث اطلعوا عليهم ، فسألوهم : « ما سلككم فى سقر » ؟ أى ما نَظَم جمعكم فيها ، وشدكم إليها ، كما يُشَد الخرَزُ فى سلكه ؟ .

وأهل النار ، وأهل الجنة ، يرى بعضهم بعضاً ، ويحادث بعضهم بعضاً .. أصحاب النار .. يصرخون ، ويصرخون ، وأصحاب الجنة يحمدون الله أن عافاهم من هذا البلاء الذى يرون كثيراً من أهلهم ، وعشيرهم ، وصديقهم ، يتقلبون على جمره ..

وهذا ما يشير إليه سبحانه وتعالى فى قوله جل شأنه :

« ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين » (٥٠: الأعراف) .

قوله تعالى:

* « قالوا لم نَكُ من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين » .

هذا هو الجواب الذى أجاب به أصحاب النار أصحابَ الجنة عن تساؤلهم عنهم : « ما سلككم فى سقر » ؟

إن الذى سلكهم فى سقر ، هو أنهم لم يكونوا من المصلين ، أى لم يكونوا مؤمنين ، لأنهم لو كانوا مؤمنين ، لكانوا من المصلين . . وأنهم لم يكونوا يؤدون حق عباد الله فيما خولهم الله من نعم ، فلم يطعموا المساكين ، ولم يخرجوا زكاة أموالهم ، التى منها يُطعم المسكين . . وأنهم يخوضون مع الخائضين ، فلم يتأثموا من منكر ، ولم يتحرجوا من فاحشة . . بل كانوا مع كل جماعة ضالة ، وعلى كل مورد آثم . . وأنهم كانوا يكذبون بيوم الدين ، أى يوم القيامة ، فلم يؤمنوا بالبعث ، والحساب ، والجزاء . .

هذا ، وليس من اللازم أن تكون هذه المآثم جميعها مجتمعة فى كل واحد منهم .. فقد يكون فى أهل النار من تجتمع فيه هذه المآثم كلها ، وقد يكون فيهم من تلبسّ بمأثم منها ، فيدخل النار . . وعلى هذا يمكن أن تكون إجاباتهم تلك مشاعة فيما بينهم ، كما يمكن أن يكون لكل أهل مأثم جوابهم الذى كشفوا به عن دخولهم النار بسببه ..

وعلى أىّ فإن أىّ مأثم من تلك المآثم يخرج صاحبه من عداد المؤمنين ، ويضيفه إلى جماعة المجرمين .. والمجرم ، هو الكافر ، كما يقول سبحانه :

« إنه مَن يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا » (٧٤ : طه) . .

قوله تعالى:

* « حتى أتانا اليقين » — إشارة إلى أنهم ظلوا متلبسين فى حياتهم بهذه المآثم حتى أتاهم اليقين، وهو الموت ، فماتوا على ماهم عليه من ضلال.. فلم نُختم أعمالهم بالتوبة والعمل الصالح . .

وسُمّى الموت يقيناً ، لأنه عند الموت يعاين المحتضَر حقيقةَ ما كان يكذب به ، من أمور الحياةالآخرة.. ومنه قوله تعالى : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » (٩٩ : الحجر) . .

رُوى أن أم العلاء الأنصارية ، قالت : « لمّا قدم المهاجرون المدينة ، اقترعت الأنصار على سكناهم ، فصار لنا من المهاجرين ، « عثمان بن مظعون» فى السكنى ، فمرض ، ثم تُوفّى ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل ، فقلت : « رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتى أن قد أكرمك الله ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك أن الله قد أكرمه ؟ » فقلت : لا ، والله ماأدرى ! ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم . :« أما هو فقد أتاه اليقين من ربه ، وإنى لأرجو له الخير ، والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يُفعل بى ولا بكم » !

فقول الرسول الكريم :« أما هو فقد أتاه اليقين من ربه » يشير إلى أن عثمان بن مظعون ، هو الذى يعرف المصير الذى صار إليه ، بعد أن مات ، وكُشف عن عينيه الغطاء . . فالموت هو الذى جاء بالخبر اليقين ، ولهـذا

سُمى الموت باليقين ، لأنه يَرِدُ بالإنسان مورد الحق . .

قوله تعالى :

* « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » .. هو تعقيب على ما ذَكر المجرمون من جرائمهم التى ألقت بهم فى جهنم . . وهذا التعقيب هو من أصحاب الجنة الذين سألوهم ، وتلقوا منهم جواب ما سألوا عنه ، فكان تعقيبهم على هذا بقولهم :

« فما تنفعهم شفاعة الشافعين » .. فتكون الفاء هنا واقعة فى جواب شرط محذوف تقديره : « وإذن فهم كافرون ، وإذن « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » .. لأن الكافرين لا شفيع لهم ، على حين أن عصاة المؤمنين يُشفع لهم من الملائكة ، والنبيين ، والصديقين ، والشهداء والصالحين ، ممن رضى الله عنهم ، وارتضى شفاعتهم فيمن يشفعون لهم .

قوله تعالى :

* « فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ » .

استفهام إنكارى ، ينكر على هؤلاء المشركين إعراضهم عن التذكرة ، وهو القرآن الكريم ، الذى يذكرهم بالله ، ويكشف لهم الطريق إليه .

وقوله تعالى : « معرضين » حال من الضمير فى « لهم » . .

وهذا الاستفهام فى مقام غير المقام الذى كان فيه هؤلاء الكافرون فى جهنم . .

إنهم هنا فى الدنيا — بعد أن عُرضوا على جهنم ، وجاءهم الخبر

اليقين هناك بأن لا شفيع لهم من عذابها . . فإذا أعيدوا إلى الدنيا بعد هذه الرحلة الجهنمية لقيهم هذا السؤال : « فما لهم عن التذكرة معرضين » ؟ أى إذا كان هذا هو مصير الكافرين . . فما لهم — وهم الآن فى فسحة من أمرهم — يَعرضون عن آيات الله التى تفتح له باب النجاة من هـذا الكرب العظيم ؟ .

* « كأنهم حمر مستنفرة * فرت من قسورة » .

حال من أحوالهم فى إعراضهم عن القرآن ، ونفورهم منه .. إنهم ما إن يسمعون آيات الله تتلى ، حتى يفزعوا وينفروا كما تنفر الحُمُر ، وقد اشتمل عليها الذعر ، حين رأت قسورة ، أى أسداً ، مقبلا عليها . . وسمى الأسد قسورة ، أخذاً من القسر ، والقسوة ..

وفى تشبيههم بالحمر المستنفرة من بين سائر الحيوانات التى إذا رأت الأسد فرت من وجهه ـ لأن الحمار يمثل الغباء والبلادة من بين سائر الحيوان ، وبه يضرب المثل فى هذا ، كما يقول سبحانه : « كمثل الحمار يحمل أسفاراً » (٥ :الجمعة) .

وفى إسناد الاستنفار إلى تلك الحمر فى قوله تعالى : « مستنفِرة » بدلا من أن يسند الاستنفار إلى من استنفرها، فيقال : « مستنفَرة » ـ فى هذا إشارة إلى أن ذلك طبيعة غالبة عليها ، وأن من شأنها النفور دائماً ، دون أن يكون هناك سبب لنفارها .. إنها ذات طبيعة وحشية ، لاتأنس فى ظلّ من سكينة أبداً ..

وفى وصف الحمر بأنها « مستنفِرة » بدلا من « نافرة » ـ إشارة أخرى إلى أنها تستدعى هذه الطبيعة الكامنة منها ، وتهيجها وتحركها من غير سبب يدعو إليها ، كما أن بعض هذه الحمر يستدعى بعضاً إلى هذا النفور ، فتمضى فى طريقها عليه ، من غير دافع إلا هذا التقليد الأعمى .

وهذه حال تمثل أهلَ الضلال أصدق تمثيل ، إنهم وهذه الحمر المستنفِرة على سواء .. ففى طبيعتهم نفور ملازم كل دعوة إلى خير ، وهم دائماً يتبعون أول ناعق يدعوهم إلى النفور من وجه الحق ..

وشُبه القرآن بالقسورة ، لما للقسورة من هيبة ، تملأ القلوب ، وتملك المشاعر .. ثم هو إلى مهابته وسطوته ، بعيد عن الدنايا ، عفٌ عن القذَر لا يأكل الميتة ، ولو مات جوعاً .. !

ولمْ يسمِّ القرآن الأسد أسداً ، وإنما سماه « قسورة » ، ليكسوه بهذا الاسم ذى الجرس الوسيق القوى هيبةً إلى هيبة ، وعظمة إلى عظمة ، الأمر الذى لايحققه لفظ أسد ، الضامر ، المبتذل على الأفواه لكثرة ترداده .

قوله تعالى :

* « بل يُريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً مُنَشَّرة » ..

هو إضراب عن دعوتهم إلى ترك الإعراض عن القرآن ، حتى يكون لهم منه ذكر وموعظة ..

وكلاَّ فإنهم لايستجيبون لهذه الدعوة ، لأن كلاًّ منهم يريد أن يكون له كتاب من عند الله ، كهذا الكتاب الذى يدعوهم إليه رسول الله ..

وهذا مايشير إليه سبحانه فى قوله على لسانهم : « وقالوا لن نؤمن حتى نُؤْتَى مثلَ ما أوتى رسل الله » (١٢٤ : الأنعام) .. وهذا جهل وغباء لايستقيم إلا على منطق الحمر !

قوله تعالى :

* « كلا بل لايخافون الآخرة » .

أى أنهم لن يُؤْتَوا هذه الصحف أبداً .. وأنهم لا يؤمنون بالآخرة أبداً ،

ولا يخافون عذابها ، ولا يعملون على توقّ هذا العذاب ..

وهؤلاء هم المشركون الذين ماتوا على الشرك ، ولم يَقْبلوا دعوة الإسلام ، وهذا هو حكم الله عليهم ، وقضاؤه فيهم .

قوله تعالى :

* « كلا إنه تذكرة » ..

الضمير فى « إنه » للقرآن الكريم ، الذى أشارت إليه الآية السابقة : « فما لهم عن التذكرة معرضين » .. وإنه ليس عن شأن هذه التذكرة أن تحمل هؤلاء المشركين حملا على الخوف من عذاب الآخرة .. وليس القرآن إلا تذكرة ، للغافلين ، وتنبيهاً للشاردين ..

قوله تعالى :

* « فمن شاء ذَكره » أى فمن شاء ذكر ربه بهذا القرآن .. إنه أمرٌ مردّه إلى الإنسان نفسه ، وإلى إقباله على ذكر الله ، أو إعراضه عنه .. ولو كان الأمر على سبيل القهر والإلزام لما كان ثمّة امتحان وابتلاء تنكشف به أحوال الناس ، وتختلف فيه منازلهم ، ولكانوا جميعاً على منزلة سواء .

قوله تعالى :

* « وما يَذْكرون إلاّ أن يشاء الله .. هو أهل التقوى وأهل المغفرة » .

هو دفع لما قد يقع من مفهوم خاطىء لقوله تعالى : « فمن شاء ذكره » حيث أطلق مشيئة الإنسان .. ومشيئة الإنسان ليست مطلقة ، بل هى مقيدة بمشيئة الله ..

ونعم .. الإنسان له مشيئة يجدها فى كيانه ، وفيما يأخذ أو يدع من أمور ، وفيما يَقبل أو يرفض من أعمال .. ومع هذا ، فإن تلك المشيئة مُرتَهنة بمشيئة الله ،

مقيدة بها ، جارية مع القدر الذى أرادته مشيئة الله .. فهى مشيئة مطلقة فى داخل الإنسان ، مقيدة من خارج بالمشيئة الإلهية العامة الشاملة . .

وقوله تعالى : « هو أهل التقوى وأهل المغفرة » ـ أى هو سبحانه أهلٌ لأن تُتّقَى محارمه ، ويُخشى عقـــابه ، وهو سبحانه أهل المغفرة ، يرجَى عنده غفران الذنوب ، لمن أناب إليه ، وطلب الغفران منه .. وفى هذا إشارة إلى أن مشيئة الله العامة المطلقة، عادلة ، رحيمة، منزهة عن الجور والتسلط ..إنها مشيئة الخالق فى خلقه . فالخلق فى ضمان هذه المشيئة ، فى رحمة الله ، أيًّا كانت مشيئة الله فيهم . . والله سبحانه وتعالى يقول : « ولـكن الله ذو فضل على العالمين » (٢٥١ : البقرة) . ويقول سبحانه : « إن الله بالناس لرءوف رحيم » (١٤٣ : البقرة) وفى الحديث : « لَلّه أرحم بعباده من الوالدة بولدها » .

* * *

٧٥ - سورة القيامة

نزولها : مكية .. نزلت بعد سورة القارعة .

عدد آياتها : أربعون آية .

عدد كلماتها : مائة وتسع وتسعون . كلمة .

عدد حروفها : ثلاثمائة واثنان وخمسون حرفا .

مناسبتها لما قبلها

جاء فى ختام سورة « المدثر » قوله تعالى : « كلا بل لايخافون الآخرة » جاء كاشفاً عن العلة التى نجم عنها شرك المشركين ، وكفرهم بآيات الله ، وتكذيبهم لرسول الله . . وتلك العلة هى أنهم لا يؤمنون بالبعث ، ولا يتصورون إمكان الحياة بعد الموت ، ومن ثَم فإنهم لا يعملون حساباً لما وراء حياتهم الدنيا ، ولهذا أطلقوا عنان أهوائهم ، وأسلموا زمامهم للشيطان ، يعيشون كما تعيش السائمة .. والله سبحانه وتعالى يقول : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوًى لهم » (١٢ : محمد) .

ولو كان هؤلاء المشركون يؤمنون بالآخرة ، ويتصورون إمكانَ الحياة ، بعد الموت ، لكان لهم نظرة إلى ما بعد هذه الحياة الدنيا ، ولعملوا حساباً ليوم يلقَوْن فيه ربهم ، ويُجزون فيه على أعمالهم .

وقد جاءت سورة القيامة ، تعرض وقوع هذا اليوم ، يوم القيامة ، فى صورة واقع مشهود ، له ذاتية معترف بها ، فيقسم به الله سبحانه وتعالى ، كما يقسم بالشمس ، والقمر ، والليل ، والضحى ، والعصر .. وغير ذلك من آياته المشهودة للعالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٥)

* « لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ (١) وَلَآ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ (٩) يَقُولُ ٱلْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ ٱلْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « لا أقسم بيوم القيامة » .

قلنا فى تفسير هذه الأقسام المنفيّة ، إن المراد بها هو التلويح بالقسم ، دون إمضائه ، إذا كان الأمر المقسم عليه أوضحَ من أن يُدَل عليه ، وأن يؤكد فى الدلالة عليه بقسم .. إنه ينزل منزلة البَدَهيات ، وتوكيد البدهيات لا يزيدها عند الذين لا يؤمنون بها إلا إنكاراً ، واستبعاداً ..

والتلويح بالقسم ، إشارة إلى أنه لو كان الأمر يحتاج إلى قسم لمضى القسم إلى غايته ، ولما سُلط عليه النفى الذى حال بينه وبين أن يقع على المقسَم عليه ..

ففائدة هذا القسم المنفى أنه يقرر حقيقة ، لايرى لها وجه ، لو جاء الأمر ابتداء من غير هذا القسم المنفىّ . . فالقسم المنفى هنا يكشف عن حال المواجَهين بالقسم ، وأنهم يكذبون بالبدَهِيات ، ويعاندون فى المسلّمات ، وأنه لو كان فى التوكيد بالقسم مقنع لهم ، لوقع القسم ، ولـكن يستوى عندهم الأمران ، التوكيد وغير التوكيد . . إنهم على أى الحالين لايؤمنون بما يُلقى إليهم من أخبار على لسان النبى ، بما يوحى إليه من ربه .

قوله تعـالى:

* « ولا أقسم بالنفس اللوامة »

معطوف على يوم القيامة . .

والنفس اللوامة ، هى النفس التى ترجع على صاحبها باللائمة لما يقع منه من إثم ، وما يقترف من ذنب . . وهذا التلويم من شأنه أن يغيّر من وضع الإنسان القائم على الإثم ، والمتجه إلى المنـكر .. إنه قوة معارضة لهذا التيار الذى يدفع به إلى المنكر ، وقد يتحول هذا التيار إلى الجهة المضادة لطريق الغواية المتجه إليه . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون » (٦٠ ـ ٦١ : المؤمنون) فمع وجَل القلوب ، يقع فى النفس ما يقع من لوم على مافرط منها .

وقُرنت النفس اللوامة بيوم القيامة ، لأن ثمرة هذا التلويم ، إنما تظهر آثاره يوم القيامة . . فالنفس اللوامة إنما يحملها على التلوم ، الخوفُ من الآخرة ، ومن لقاء الله ، والوقوف بين يديه . . ولولا الإيمان بيوم القيامة لما راجع المرء نفسه فيما أحدث من آثام ، ولما قامت فى كيانه تلك النفس اللوامة ، التى تقف منه موقف المحاسِب قبل يوم الحساب !

قوله تعالى :

* « أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه » ؟

أى أيظن الإنسان أننا لن نجمع عظامه ؟ أيستكثر على قدرتنا أن نقيم من هذا التراب بشراً سويًّا ؟ « أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ » (٨١ : يس) . . « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » (٧٨ ـ ٧٩ : يس)

قوله تعالى :

* « بلى قادرين على أن نسوى بنانه »

أى بلى إننا نجمع عظامه ، مع قدرتنا على تسوية بنانه . . فليس جمع هذه العظام التى أكلها التراب ، وأبلاها البِلى ، هو الذى تقف عنده قدرتنا ، بل إن هذه القدرة ستعيد هذه العظام إلى وضعها الأول ، وستسوى أدقَّ ما فى الإنسان من عظام ، وهى عظام البنان ، أى الأصابع . .

وقوله تعالى « قادرين » حال من فاعل فعل محذوف ، تقديره : بلى نجمعها ، ونحن قادرون على تسوية بنانه،التى هى أدق هذه العظام ، وأصغرها . .

قوله تعالى :

* « بل يريد الإنسان ليفجر أمامه »

هو إضراب على هذا الخطاب الموجه إلى الإنسان الذى ينكر البعث ، ويأبى أن يصدق به . . فإن نَصْبَ الأدلة له ، وإقامة الحجج بين يديه ـ كل ذلك لا يكشف عمى بصيرته ، ولا يوقع فى نفسه إيماناً بالبعث ، وإعداداً لليوم الآخر . .

إنه لا يريد أن يلتفت إلى ما وراء هذه الحياة الدنيا ، ولا يريد أن يقيّد نفسَه بعالم آخر غير هذا العالم ، الذى يعيش فيه مطلقاً من كل قيد ، مرسِلا حبلَه على غاربه . .

وقوله تعالى : « ليفجر أمامه » أى ليقيم حفرة بينه وبين الحياة الآخرة التى يقال له عنها . . إنه يضع أمام نفسه العقبات التى تصرفه عن الحياة الآخرة، بما يقيم على طريق هذه الحياة من معوقات ، هى تَعِلّات وتصورات مريضة ، توقع عنده الشك فى البعث ، وما وراء البعث ، حتى يُحلّ نفسه من ملاقاة هذا اليوم ، وما يحدَّث به إليه ، عن هذا اليوم وأهواله . . إن ذلك اليوم يقطعه عن الحياة البهيمية التى رضى بها واطمأن إليها ، فهو إذا سمع حديثاً عن يوم القيامة ، حاول جاهداً أن يفسد هذا الحديث ، وأن يخرج به من مجال العقل والجد ، إلى حيث المهاترة والهزل . .

وأصل الفَجْر ، والفجور ، من فوران الشىء ، وتفجره فى قوة وعنف ، ومنه قوله تعالى : « وفجرنا الأرض عيوناً » ومنه الفجور ، وهو التهتك والتبذل ، وخلع قناع الحياء . .

وفى تعديه الفعل « يريد » باللام التى تفيد التعليل ـ مع أن الفعل يتعدى إلى مفعوله بغير حرف ـ فى هذا إشارة إلى أن هذه الإرادة إرادة عاملة ، وأنها ليست مجرد أمنية ، أو رغبة ، أو خاطرة ، تطرق الإنسان ، ثم لا تلبث أن تذهب غيرَ مخلفة أثراً ..

فالإرادة هنا إرادة مشدودة إلى عزم ، وتصميم ، على التنفيذ . . وفى طريق التنفيذ تقوم عقبات ، فيعمل صاحب هذه الإرادة على تذليلها ، ويحتال لإمضائها . . ولهذا ضُمِّن الفعل « يريد » معنى الفعل « يحتال » . . وهذا يعنى

أن الإنسان يغالب قوة متحدية لإرادته وهي الفطرة المودعة فيه ، فلا يملك لها دفعاً إلا بالمراوغة والاحتيال وهذا المعنى هو الذى قصد إليه مجنون ليلى بقوله :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لى ليلى بكل سبيل

وقوله تعالى :

* « يسأل أيان يومُ القيامة »

هو أثر من آثار إرادة هذا الإنسان، الذى يقيم العلل ، والمعاذير ، بينه وبين اليوم الآخر . . فهو يسأل سؤال المنكر ، المستهزىء : أيان يوم القيامة ؟ أى متى يكون يومُ القيامة هذا ؟ وهو سؤال اتهام لهذا اليوم ، وتكذيب لمن يتحدث به ، أو عنه .

قوله تعالى :

* « فإذا بَرِق البصر * وخَسَف القمر * وجمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين المفر »

هو الجواب على هذا السؤال المستهزىء ، الذى سأله هذا الشقى ، منكراً ليوم البعث ، مستهزئاً به !

وقد جاء الرد عليه بيوم القيامة كله ، وبما يطلع به على الناس، من شدائد وأهوال . . إن الجواب لم يحدد الوقت الذى يجىء فى هذا اليوم . . إذ ليس المهم متى يجىء ؟ وإنما المهم هو ماذا أعد الإنسان له يوم مجيئه ؟ وماذا يلقى المكذبون والضالون فيه من هذه الأهوال التى تطلع عليهم فى هذا اليوم ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « فإذا برق البصر » أى جمد فلم يطرِف ، للهول الذى يراه من أحداث هذا اليوم . .

وقوله تعالى : « وخَسَفَ القمر » أى ذهب نوره

وقوله تعالى : « وجُمع الشمس والقمر » أى أصبحا جِرْمين ، لا يرى لهما الإنسان يومئذ ضوءاً . . حيث تكون الشمس أشبه بالقمر ، فى أنها جسم معتم مثله ، فإن ضوء الشمس إنما يرى فى كوكبنا الأرضى ، بعد أن يخترق الطبقة الجوية المحيطة بالأرض ، فإذا خرج الإنسان عن جو الأرض لم ير للشمس ضوءاً ، ورأى النجوم فى رائعة النهار الذى يكسو وجه الأرض حلّة من ضيائه .

وهذا يعنى أن الإنسان سيخرج يوم القيامة من عالمه الأرضى ، إلى عالم آخر ، تتبدل فيه أحواله ، وتتغير فى نظره حقائق الأشياء على هذه الأرض ، فيرى الشمس والقمر معلقَيْن فى هذا الفضاء ، كل على هيئته ، فلا غروب للشمس ، ولا نقصان للقمر . .

قوله تعالى :

* « يقول الإنسان يومئذ أين المفر ؟ »

أى فى هذا اليوم ، يقول الإنسان — كل إنسان — أين المفر ؟ أى أين الملجأ الذى يلجأ إليه الإنسان ، فِراراً من لقاء هذا اليوم العظيم ؟

قوله تعالى :

* « كلاّ لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر »

الوزر : الملجأ ، والحمى الذى يحتمى فيه الإنسان . . ومنه الإزار الذى يأتزر به الإنسان ، ويستر جسده .

إنه لا ملجأ فى هذا اليوم . . فالكلّ مسوق إلى الله تعالى ، حيث المستقر هناك فى المحشر ، فى موقف الحساب والجزاء . . فلا ملجأ من الله إلا إليه سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى :

* « ينبأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر »

أى فى هذا اليوم يخبر الإنسان ، بكل ما عمل ، فى حياته كلها ، من أولها إلى آخرها . . ما تقدم منها وما تأخر . . كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر »(٢ : الفتح)

قوله تعالى :

* « بل الإنسان على نفسه بصيرة »

هو إضراب على ما سبق ، وأن الإنسان ليس فى حاجة إلى من ينبئه بما قدّم وأخر ، بل إن كل إنسان يقوم عليه شاهد من نفسه ومن جوارحه ، فهو — والحال كذلك — إنما ينبأ بأعماله من ذات نفسه ، كما يقول سبحانه : « كفى بنفسك اليومَ عليك حسيباً » .

وأنث لفظ بصيرة ، على تقدير مضاف أى ، ذو بصيرة ، وذلك حين ينكشف له يوم القيامة كل شىء ، فيرى الأمور على حقائقها ، ويبصر كل ما قدمته يداه ، كما يقول سبحانه : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (٢٢ : ق)

قوله تعالى :

* « ولو ألقى معاذيره »

أى أن هذه البصيرة التى تكون للإنسان يوم القيامة ، والتى يقوم منها شاهد عليه من ذاته — هذه البصيرة ، لا تلتفت إلى معاذيره التى يُوردها ، عليها كما يقول سبحانه . « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء »(٢١ : فصلت) فلا يقبل من الإنسان عذر فى هذا

اليوم . . كما يقول سبحانه : « فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يُستعتبون » (٥٧ : الروم)

الآيات : (١٦ — ٣٣)

* « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) »

التفسير :

[وحى القرآن ووحى السنة . . هذا غير ذاك]

قوله تعالى :

* « لاتحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه » .

تبدو مناسبة هذه الآيات، للآيات التى قبلها ، ثم للآيات التى بعدها ـ تبدو المناسبة بعيدة فى ظاهر الأمر ، حيث أن هذه الآيات حديث خاص إلى النبىّ ، فى شأن من شئون تلقّيه للوحى .. وما بعد هذه الآيات وما قبلها ، هو عرض

للمشركين والضالين فى موقف الحساب والجزاء يوم القيامة .. فما سرّ وضع هذه هذه الآيات هنا ؟ وما المناسبة الجامعة بينها وبين ماتقدمها ، وما جاء بعدها ؟

نقول والله أعلم : إن هذا الترتيب الذى جاء عليه نظم هذه الآيات ، يشير إلى أكثر من دلالة ، ويومىء إلى أكثر من مقصد :

فأولا : هذا القطع لنسق النظم ، فى صورة فجائية ، وبلا مقدمات — هو إلفات قاهر ، لا إرادى ، لأولئك المشركين الذين يكذبون بيوم الدين ، ويكذبون بما تلا عليهم رسول الله من آيات الله ، وما تحمل إليهم هذه الآيات ، من أخبار هذا اليوم ، وأحداثه . . وفى هذه اللفتة القاهرة يرون النبى فى مقام التلقّى عن ربه ، وفى مجلس التلقين ، والتعليم منه ، سبحانه ، وأنه — صلوات الله وسلامه عليه — يتعلم مما علمه الله ، وأن هذا العلم لا يستأثر به وحده ، وإنما هو مأمور بحمله وعرضه على الناس جميعاً ، ليأخذوا حظهم كاملا منه . .

ولا شك أن هذا من شأنه أن يخفف كثيراً مما فى قلوب المشركين من مشاعر الحسد للنبى ، والغيرة منه ، كما أن هذا الموقف يفتح عيون كثير من المكذبين والمعاندين على وجه الحق الذى غاب عنهم فى دخان الحسد المنبعث من صدورهم ، حيث يرون النبى — صلوات الله وسلامه عليه — يتلقى هذا التحذير والتأديب فى مقام التعلّم ، وأنه ليس هناك أمام عظمة الله عظيم . . إن الله سبحانه هو رب العالمين ، وكلهم مربوبون له ، منقادون لأمره ، وأن ما جاءهم به النبى قد احتمل فى سبيله جَهداً أو مشقة ، وهم يتلقونه منه دون أن يسألهم عليه أجراً . .

وثانياً : الطبيعة البشرية يغلب عليها حب التملك ، ومن أجل هذا كان شأن الناس إيثارَ العاجل على الآجل ، والحاضر على الغائب ، وكان من هذا

أن صرّف كثير من الناس أعينهم عن الحياة الآخرة ، وأقاموا بينهم وبينها سدوداً من الخداع ، والتضليل ، حتى لا يروا لها أثراً يلفتهم إليها ، ويقطع مشاعرهم المنصرفة كلها إلى الحياة الدنيا ، وما هم فيه منها . .

وفى عرض النبي — صلوات الله وسلامه عليه — فى هذا الموقف الذى يستعجل فيه النطق بكلمات الآية وحفظها ، قبل أن تفلت منه — فى هذا ما يكشف المشركين عن أن حب العاجل طبيعة مركوزة فى الناس ، كما يقول سبحانه وتعالى : « خُلق الإنسان من عجل » (٣٧ : الأنبياء) وأن العجلة غير محمودة حتى فى مقام الإحسان ، وفى طلب الخير . . بل إن الرفق ، والتوسط فى الأمور هو المحمود ، وهو الذى يتيح للإنسان فرصة التروى والتعقل ، ووزن الأمور بميزان الروية والعقل . . فكيف بالمشركين وهم يخوضون خوضاً فى متاع الحياة الدنيا ؟ أفلا يكون منهم تمهل فى هذا الجرى اللاهث وراء هذا الحطام الزائل ؟ ثم ألا يكون منهم وقفة مع هذا الذى يدعوهم النبي إليه ؟

وثالثا : إذا كان على النبي أن يُصغى إلى الوحى ، ولا يحرك لسانه قبل أن ينتهى رسول الوحى من إلقاء بالقاء ما يوحى به إليه ، وذلك لتكتمل صورة المعانى المراد إلقاؤها على النبي ، ولتقع من نفسه موقعاً واضحاً متمكناً — إذا كان على النبي أن يفعل هذا ، مع كلمات الله ـ أفما كان على الذين يستمعون من النبي لآيات الله ، أن يصغوا إليها ، وألا يفتحوا أفواههم بكلمة وهم بين يديها ، حتى ينتهى عرضها ، ليكون لهم سبيل إلى فهم معانيها ، وإدراك بعض أسرارها ؟ . .

قيل إن النبي — صلوات الله وسلامه عليه — كان وهو يتلقى سورة القيامة من الوحى ، وذلك فى أوائل اتصال النبي بالوحى — كان يخشى أن تُفلت منه بعض الكلمات ، أو يختلف عليه نظامها ، فيبادر — حرصاً منه — بتلقف

الكلمة من جبريل ، قبل أن يتم الآية .. فلما بلغ معه الوحى إلى قوله تعالى : « بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره » — نزل عليه قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه » . .

ولا شك أن هذا شاهد من شهود القرآن التى لا تحصى ، على أن هذا القرآن من عند الله ، وأن ليس لمحمد إلا تلقيه من الوحى ، وحمله إلى الناس .. وإلا لو كان هذا القرآن من كلام محمد — أكان محمد يلبس هذه الشخصيات جميعها ، فيكون مخاطَباً وغائباً ، وناهيا ومنهيًّا ، كل ذلك فى حال واحدة ، وموقف واحد ؟ .

أيعقل فى هذا الموقف الذى يواجه فيه المشركين بهذه النذر المطلة عليهم من يوم القيامة — أيعقل فى هذا الموقف ، أن يقطع محمد هذا العرض ، ثم يتحول إلى نفسه ، محاسباً ، وناصحا وموجِّها ؟ وماشأن الناس بهذا ، لو كان محمد هو صاحب هذا الموقف ، والمصور له بكلماته ؟ . .

إن صاحب الموقف — وهو الله سبحانه وتعالى — هو الذى يملك أن يقطع هذا العَرْض ، وأن يُلقِىَ على المتلقى عنه ، ما يشاء من توجيه ، وإرشاد ، حتى يجىء العرض واضحاً ، كاملا .. إن الذى يملك الموقف كله ، قوة قائمة على محمد ، وعلى من يلقاهم محمد بهذا الحديث .. وتلك القوة هى التى تدير الخطاب ، وتوجهه كيف تشاء إلى أىٍّ من المخاطبين ، أفراداً ، أو جماعات ..

وقوله تعالى : « لا تحرك به لسانك » نهى يراد به النصح والتوجيه إلى ما ينبغى أن يكون عليه النبى مع الوحى ، وهو ألا يحرك لسانه بكلمات القرآن ، قبل أن ينتهى جبريل من الوحى . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقْضَى إليك وحيه وقل رب زدنى علما » (١١٤ : طه) . .

فإن كل كلمة يوحَى بها إلى النبي ، هى علم يزداد به علمه ، فلا يعجل بقطع هذا المدد الذى تَهمِى عليه غيوثه .

وقوله تعالى : « لتعجل به » بيان للسبب الذى من أجله كان يسرع النبي بترديد الكلمات التى يسمعها من جبريل .. إنه — لشدة شوقه ، إلى كلمات ربه — لا يكاد يسمع الكلمة تقع فى قلبه من جبريل ، حتى يسرع بالنطق بها ، ليذوق حلاوتها على لسانه ، كما ذاق حلاوتها فى قلبه . .

وقوله تعالى :

* « إن علينا جمعه وقرآنه » ..

هو تطمين للنبي — صلوات الله وسلامه عليه — من أنه لن يفوته حفظ شىء مما يوحى إليه من آيات ربه ، فإن الله سبحانه وتعالى ، هو الذى يتولى جمع هذا القرآن كله فى صدره — صلوات الله وسلامه عليه — كما سيتولى سبحانه ، حفظَه على الزمن ، قرآناً تَعمُر به قلوب المؤمنين ، وترتله ألسنة الحافظين ، كما يقول سبحانه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٩ : الحجر) ..

قوله تعالى :

* « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » .

وفى إسناد القراءة إلى الله سبحانه وتعالى ، تشريف ، وتكريم للنبي ، الذى يسمع آيات الله متلوة عليه من ربه ، وإن كان جبريل عليه السلام ، هو الذى ينقلها إلى النبي ..

وهذا يعنى أن الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — إذ يتلقى آيات الله ، من جبريل عليه السلام ، يجد فيها نداء الحق سبحانه وتعالى له ، ويسمع خطابه سبحانه وتعالى إليه . .

ونقول — والله أعلم — إن النبي — صلوات الله وسلامه عليه — حين كان يوحَى إليه بآيات الله ، يسمع ما يوحى إليه لفظا من جبريل ، ومعنًى من الله سبحانه وتعالى .. وعلى هذا المعنى يكون الضمير « نا » فى قوله تعالى: « قرأناه » عائداً إلى الله سبحانه وتعالى ، وإلى جبريل ، أى أن الحق سبحانه وتعالى يقول للنبي : إذا قرأتُ القرآن عليك بمعناه ، وقرأه جبريل عليك بألفاظه ، فلا تعجل بتحريك لسانك . بترجمة هذه المعانى إلى ألفاظ ، بل تمهل وخذ الألفاظ التى يلقيها عليك جبريل ، حتى تتحقق الصورة الكاملة ، المطابقة بين اللفظ والمعنى !! .

وعلى هذا المعنى يكون قوله تعالى : « فاتبع قرآنه » أى اتبع قراءة رسول الوحى جبريل ، وقف عند حدود الألفاظ التى يُلقيها إليك ، ولا تنازعه بما يسبق إليه خاطرك من كلمات تريد أن تمسك بها من هذه المعانى التى قذفها الله سبحانه وتعالى فى قلبك ، قبل أن تُفلت منك ..

وهذا المعنى الذى ذهبنا إليه ، هو معنًى لا نظن أحداً من المفسرين قد التفت إليه ، على كثرة ما توارد على هذه الآية من مختلف الآراء . .

فنرجو أن يكون هذا الرأى أقرب إلى الحق ، وأدنى إلى الصواب . .

ولعل هذا يفسر لنا تلك الحال التى كانت تعرو النبي فى أثناء الوحى ، وما كان يغشاه من شدة ، حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً فى اليوم الشديد البرد كما تقول السيدة عائشة رضى الله عنها !! .

وليست هذه الحال التى كان يعانيها النبى من الوحى — دون سائر الأنبياء — ليست إلا لأن الله سبحانه وتعالى يتجلى على النبى — صلوات الله وسلامه عليه — فى كلماته القرآنية ، ساعة تلقيها من جبريل . .

ونقول إن تلك المعاناة التى كان يعانيها النبى من الوحى ، هى خاصة به وحده ، دون مانعرف من الوحى الذى يوحَى إلى الأنبياء ، والرّسل ، لأن الذى يقصه القرآن علينا من أمر الرسل ، وصلتهم بالوحى ، هو أن — رسول الوحى ، أو رسل الوحى ، كانو يجيئون إليهم فى صورة بشرية كاملة ، يلتقون بهم فيها كما يلتقى الناس بالناس ، ويتحدثون إليهم كما يتحدث الناس إلى الناس .. فلم يكن الرسول من هؤلاء الرسل الكرام ، يشعر بأن قوة خفية دخلت عليه ، أو خالطت وجدانه ، ومدركاته ، وذلك على غير ما كان فى حال الوحى مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وما كان يلقى فى تلقىّ الوحى من شدّة .

فقد جاء الوحى إلى إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل فى صورة رؤيا رآها فى المنام . . كما يقول سبحانه على لسانه : « يابنى . . إنى أرى فى المنام أنى أذبحك . . فانظر ماذا ترى » (١٠٢ : الصافات) . . كذلك جاء الوحى إليه فى صورة جماعة من الضيوف ، نزلوا عليه : « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكَرون . فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين ، فقربه إليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خِيفةً قالوا لاتخف وبشروه بغلام عليم ، فأقبلت امرأته فى صرَّة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ، قالوا كذلك قال ربّك إنه هو الحكيم العليم » (٢٤ ـ ٣٠ : الذاريات) .

كذلك جاء ، الوحى إلى لوط عليه السلام ، فى صورة هؤلاء الضيف الذين نزلوا على إبراهيم . . وفيهم يقول لوط لقومه : « إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون . واتقوا الله ولا تخزون » (٦٨ ــ ٦٩ : الحجر) . . ويقولون هم ــ أى الملائكة ــ للوط : « يا لوط . . إنا رسل ربّك » . .

وإذا كان من الرسل من تلقّى الوحى على صورة أشبه بالصورة التى تلقى عليها النبى كلمات ربه ــ فهو موسى عليه السلام . .

ونقول أشبه بالصورة التى تلقّى عليها النبىّ كلمات ربّه ، ولا نقول مثلها ، لأن موسى ــ عليه السلام ــ كان يسمع من ربّه حقائق المعانى التى يُلقيها إليه ، ثم يصوغها هو فى الألفاظ التى يراها مناسبة لها . . ولهذا ، فإنّ موسى ــ وإن أخذه جلالُ التجلى لكلمات الله عليه . . فإن ذلك كان أخفّ عليه وطئاً مما كان يأخذ النبىّ صلوات الله وسلامه عليه ، لأنّ النبىّ مع وقوعه تحت سلطان هذا التجلّى ، كان واقعاً من جهة أخرى تحت غِشيان الرّوح السماوىّ له ، وتلبسه به ، ونقلِ كلماتِ الله إليه . . فالنبىّ هنا واقع تحت سلطان التجلّى من الله سبحانه وتعالى عليه ، وتحت تلبّس الملك السماوىّ ــ جبريل ــ به . . ولهذا كان عليه الصلاة والسلام ، يعانى من شدّة الوحى أكثر مما كان يعانى موسى عليه السلام . . أما الشريعة الموسوية ، فقد تلقاها موسى عليه السلام مكتوبة فى الألواح . .

وما كنّا نريد أن نذهب إلى هذا الذى ذهبنا إليه فى مفهومنا لتلك الآيات مخالفين بذلك أكثر المفسرين ، فى فهمها على غير هذا الفهم .

ثم ما كنا نريد أن نذهب إلى أبعد من هذا الذى ذهبنا إليه . . ولكن الأمر ليس إلينا ، ونحن بين يدى آيات الله . . إنها هى التى تشدنا إليها ،

وتبسط سلطانها علينا ، فلا نملك أن نبرح ساحتها إلا باستئذان ، وإذن ، منها ، وإنه لكفران بالإحسان أن نبرح هذا المنزل الكريم الذى نزلناه من تلك الآيات ، وأن نقطع هذا الرزق الموصول إلينا من بين يديها ، وأن نعجل بقطع هذا الخير الذى تلقانا به .

فنحن سنمضى معها على هذا الطريق إلى غايته ، نرجو مزيداً من العطاء ونلتمس مزيداً من النور . .

ويلقانا هنا سؤال :

لماذا لم يجىء الوحى إلى النبىّ فى صورة بشرية ، على نحو ما كان يأتيه عليه فى بعض الأحيان . . فيكون ذلك أخفّ وطئاً عليه ، من الصورة المَلَكية التى كان يأتيه عليها فى معظم الحالات ، والتى كان يعانى منها مايعانى من شدّة ؟

والجواب على هذا ـ والله أعلم ـ هو أن الأحوال التى كان يأتى عليها الموحَى به قرآنا ، كان للوحى صورة خاصة ، لا تتبدّل ، ولا تختلف ، وإن كان الموحى به حديثاً قدسياً ، جاء الوحى على صورة خاصة أيضاً ، وإن كان الموحى به حكمةً ، وهى السنة القولية أو الفعلية ، كما يشير إليه قوله تعالى : « ذلك مما أوحى إليك ربّك من الحكمة » (٣٩ : الإسراء) ـ نقول إذا كان الموحى به حكمة ، جاء الوحى على صورة خاصة كذلك . . وهكذا . .

روى أن الحارث بن هشام سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله : كيف يأتيك الوحى ؟ قال : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس . .

وهذا أشده علىّ ، فَيَفصِمُ عنى وقد وَعَيت ما قال ، وأحيانا يتمثل الملكُ رجلا فأعِى ما يقول » .

فالحال التى كان يأتى فيها الوحى مثل صلصلة الجرس ، هى الوحى الذى ينزل بالقرآن ، حيث لا يستطيع رسولُ الوحى ، جبريل عليه السلام ، أن يبلّغ كلمات القرآن إلا وهو فى حال المَلَكية ، وهذا يجذب النبىّ إلى الخروج من حالة البشرية إلى حال هو أقرب فيها إلى عالم الملائكة ، وهذا لا يكون إلا عن مجاهدة عظيمة ،وإلا بعدمعاناة ، يجد منها النبىّ كربا ، ويعانى منهاشدة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ثم دنا ، فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى » (٨ — ٩ : النجم) .

أمّا فى حالِ تمثل الملك رجلاً ، فإن المَلَك هو الذى يحاول الخروج من صورته الملكية إلى صورة بشرية ، فيلتقى بالنبىّ ، كما يلتقى الإنسان بالإنسان . . وهذه الكيفية من الوحى، تكون فيما يُوحَى به إلى النبىّ من الأحاديث والسنن القولية أو الفعلية ، أو التقريرية ، التى أُثرت عن النبىّ . . من قول أو فعل أو تقرير . . فى حال التشريع ، وهو وحى من عند الله كذلك، وهذا مما يشير إليه قوله تعالى : « وما ينطق عن الهوى » (٣ : النجم) .

وقد ثبت من تاريخ نزول القرآن ، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، كثيراً ما كان ينزل عليه الوحى وهو بين أصحابه ، فيغشاه ما يغشاه من شدة ، حتى إذا قُضى الوحى ، كان أول ما يتحدث به الرسول إلى أصحابه وكتّاب وحيه ، هو ما نزل به الوحى عليه من آيات ربّه . . وهكذا ، فى جميع ما يروى من الأخبار الثابتة . . كل حال كان يأتى فيها الوحى إلى النبىّ مثل صلصلة الجرس، كان الموحَى به إليه فى تلك الحال ، قرآناً كريماً ، لا حديثاً قدسياً ، ولا سنة قولية أو فعلية . .

كذلك ثبت من تاريخ السنة النبوية . . القولية ، والتقريرية . . أن ما كان يوحَى به إلى النبىّ فى هذا المقام ، إمّا بإلهام من الله ، وإمّا بوساطة رسول الوحى، يتمثل للنبىّ فى صورة بشرية . .

فقد ثبت أنه حيث فرضت الصلاة ، جاء جبريل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأخذ بيده ، ثم همز الأرض بقدمه ، فتفجر الماء ، فتوضأ ، وتوضأ النبىّ معه . . ثم صلى به الصبح . . وفعل كذلك مع النبىّ عند صلاة الظهر والعصر ، والمغرب ، والعشاء . . وبيّن له أوقاتها ، وعدد ركعاتها . . وكما فعل جبريل مع النبىّ ، فعل النبىّ مع المؤمنين ، وصلّى بهم الصلوات المفروضة، ثم قال : : « صلّوا كما رأيتمونى أصلّى » .

يُروى عن ابن عباس قال : « لما افترضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أتاه جبريل ، فصلى به الظهر حين مالت الشمس ، ثم صلى به العصر حين كان ظلّه مثلَه ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس ، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب الشفق ، ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر ، ثم جاءه فصلى به الظهر من غده ، حين كان ظله مثلَه ، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثليه ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها فى الأمس ، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل الأول ، ثم صلى به الصبح مُسفِرا غير مشرق .. ثم قال : « يا محمد ، الصلاة فيما بين صلاتك اليوم وصلاتِك بالأمس » . .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : « سلونى ، فهابوا أن يسألوه ، فجاء رجل فجلس عند ركبته ، فقال : « يا رسول الله : ما الإسلام ؟ قال : لا تشرك بالله شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان » قال : صدقت ! قال : « يا رسول الله : ما الإيمان ؟

قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ، ورسله ، وتؤمن بالبعث ، وتؤمن بالقَدَر كله » قال صدقت ! قال يارسول الله : «ماالإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإنك إن لاتكن تراه فإنه يراك ! . . قال صدقت ، ثم قام الرجل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رُدّوه علىّ» فالتُمس فلم يجدوه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا جبريل ، أراد أن تُعلّموا إذ لم تسألوا » !

ومن ذلك أيضاً ، ماروى من أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، دعا الناسَ ، فقال هلمّوا إلىّ ، فأقبلوا إليه ، فقال:« هذا رسول رب العالمين ، جبريل ، نَفَث فى رُوعى أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، وإن أبطأ عليها ، فاتقوا الله ، وأجمِلوا فى الطلب » .

ولا يُعترض على هذا بما كان من أول لقاء لجبريل مع النبىّ فى غار حراء ، وأنه جاءه ـ كما يقال ـ فى صورة بشرية ، وأنه أقرأه قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من عَلَق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » ـ فكيف إذن يتفق هذا مع القول بأن الوحى القرآنىّ إنما كان ينزل به جبريل على النبى فى صورته المَلَكية ، دائماً ، وفى جميع الأحوال ؟

وردّنا على هذا ، أن جبريل إذا كان فى أول لقاء له مع النبىّ ، قد جاء فى صورة بشرية ـ فإنه لم يلقه بالقرآن من أول الأمر ، وإنما الذى حدث ـ كما هو ثابت فى تاريخ القرآن ـ أن جبريل دعا النبى إلى أن يقرأ ، فقال له: « اقرأ » . . هكذا قراءة مطلقة ، وأن النبى أجابه الجواب الذى تقتضيه داعية الحال ، فقال : « ما أنا بقارىء » . . وهكذا تردد الأمر بين جبريل والنبى، ثلاثَ مرات ، فلما

كانت الرابعة غطّه جبريل غطًّا شديداً ، كاد يفقد معه وعيه .. ثم قال له : « اقرأ باسم ربك الذى خلق .. » الآيات .

فهذا هو القرآن الذى أوحى به جبريل إلى النبى ، وقد أوحاه إليه فى صورة خرج بها عن حاله التى تمثل فيها له بشراً .. فإن هذه الغطة غيّرت الموقف تغيراً تاما ، فجمعت بين جبريل ، وبين النبى فى كيانٍ مَلَكى بشرى .. فكان النبى بشراً يقترب من الملك ، وكان جبريل ملَكا يقترب من البشر ! وهذا يؤكد ماذهبنا إليه من أن الوحى القرآنى ، كان دائماً على تلك الصورة التى لا يتمثل فيها جبريل رجلا ، يخاطِب النبىّ بلسان بشرىّ ، وإنما كان يأتيه مثل صلصلة الجرس ..

والذى نريد أن نصل إليه من حديثنا هذا ، هو أن القرآن الكريم ، كان يتلقاه النبى من الوحى على صورة خاصة ملازمة دائماً ، وهى أن جبريل كان فيها لايخرج عن صورته الملكية إلا بالقدْر الذى يستطيع فيه أن يلتقى مع النبى وهو ساع إلى لقائه فى صورة ملائكية ، بشرية ، كما كان النبى يرتفع إلى أعلى أفق نحو الملائكية ، ولا ينسلخ انسلاخاً كاملا من ثوب البشرية ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى » (٨ - ٩ : النجم) على ماذهبنا إليه فى تفسير هذه الآيات فى سورة النجم ، وعلى أن الضمير فيها عائد إلى جبريل عليه السلام .

وهذا يعنى أن جبريل عليه السلام ، كان فى تلك الحال التى ينزل فيها بالقرآن واقعاً تحت تجلّى الله سبحانه وتعالى عليه بكلماته التى يوحيها إلى النبى .

فجبريل إذ يتصل بالنبى ، فى مقام تنزل آيات الله عليه - يكون فى حال أشبه بحال النبى .. كلاهما يتلقى تجليات آيات الله عليه ، وإن كان جبريل هو الذى يتلقى صدمة الصعقة أولا ، حتى يخفّ على النبى وقعُها .. وهذا يعنى أن النبى -

صلوات الله وسلامه عليه ـ إنما يسمع كلام الله سبحانه وتعالى له ، من خلال جبريل ، أى أن جبريل عليه السلام يكون أشبه ـ مع المفارقة البعيدة فى صورتى التشبيه ـ بجهاز استقبال وإرسال معاً .. يتلقى كلام الله سبحانه وتعالى ، فتنطبع عليه صورته ، ثم يذيعه كما انطبع عليه ..

ولهذا كان يسمع النبى ـ الوحى ـ فى تلك الحال ـ كصلصلة الجرس ، أى أنه يأتيه من جميع الجهات ، لأن المتكلم به هو الله سبحانه ، ولو كان جبريل هو المتكلم بالقرآن لسمع النبى كلامه من جهة واحدة ، كما كان يحدث فيما يوحِى به جبريل من أحاديث قدسية ، أو أحاديث نبوية .. والله أعلم .

هذا ، وبعد أن فرغت من تقرير هذا الرأى ، اطلعت على رأى لعالم جليل من علماء سلفنا الصالحين ، هو الدباغ ، فى كتابه « الإبريز » الذى تلقاه عن ابن المبارك .. وفى هذا الرأى يذكر الدباغ فروقا دقيقة بين القرآن الكريم ، والحديث القدسى ، والحديث النبوى ، ومن هذه الفروق تتبين الأحوال التى كان عليها النبى ، وهو يتحدث بالقرآن ، أو بالحديث القدسى ، أو الحديث النبوى .

وقد رأينا أن ننقل كلمات الدباغ[1] ، لأنها تلقى أضواء كاشفة على موضوعنا هذا ، الذى قررنا فيه أسلوب الوحى القرآنى ، وكيف كان يوحَى به إلى النبى ..

سئل الدباغ عن الفرق بين القرآن ، والحديث القدسى ، والحديث النبوى .. فقال :

« الفرق بينها ، وإن كانت كلها خرجت من بين شفتيه صلى الله عليه وسلم ، وكلها معها أنوارٌ من أنواره صلى الله عليه وسلم ـ أن النور الذى فى

(١) نقلا عن كتاب : « مع الفكر الإسلامى فى بعض قضاياه » ـ للعالم الربانى الأستاذ محمد شاهين حمزة

القرآن قديم ، من ذات الحق سبحانه ، لأن كلامه تعالى قديم . . والنور الذى فى الحديث القدسى من (روحه) صلى الله عليه وسلم ، وليس هو مثل نور القرآن، فإن نور القرآن قديم ، ونور هذا ـ أى الحديث القدسى ـ ليس بقديم . . والنور الذى فى الحديث الذى ليس بقدسى من (ذاته) صلى الله عليه وسلم .. فهى أنوار ثلاثة ، اختلفت بالإضافة .. فنور القرآن من ذات الحق ، ونور الحديث القدسى من روحه صلى الله عليه وسلم ، ونور ماليس بقدسى ، من ذاته صلى الله عليه وسلم . .

فلما سئل الدباغ : ما الفرق بين نور الروح ، ونور الذات ؟ أجاب :

الذات خُلقت من تراب ، ومن التراب خُلق سائر العباد ، والروح من الملأ الأعلى ، وهم ـ أى الملأ الأعلى ـ أعرف الخلق بالحق سبحانه . . وكل واحد ـ أى من الذات والروح ـ يحنّ إلى أصله ، فكان نور الروح متعلقاً بالحق سبحانه ، ونور الذات متعلقاً بالخلق ، فلذا ترى الأحاديث القدسية تتعلق بالحق سبحانه ، بتبيين عظمته أو إظهار رحمته ، أو بالتنبيه على سعة ملكه ، وكثرة عطائه ، فمن الأول، حديث : « ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم . . » ومن الثانى ، حديث : « أعددت لعبادى الصالحين .. » ومن الثالث حديث : « يدُ الله ملأى ... » وهذه من علوم الروح فى الحق سبحانه .. أما الأحاديث التى ليست بقدسية ، فتتكلم على مايصلح البلاد والعباد ، بذكر الحلال والحرام ، والحث على الامتثال بذكر الوعد والوعيد . .

ثم يمضى الدباغ فى حديثه عن الفرق بين القرآن والحديث القدسى ، والحديث النبوى يقول :

إن الأنوار من الحق سبحانه ، تَهبّ على ذات النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى تحصل له مشاهدة خاصة ، وإن كان دائما فى المشاهدة . .

فإن سمع من الأنوار كلامَ الله سبحانه ، ونزلَ عليه مَلَك ، فذلك هو القرآن . .

وإن لم يسمع كلاماً ، ولا نزل عليه مَلَك ، فذلك وقت الحديث القدسيّ ، فيتكلم عليه الصلاة والسلام ، ولا يتكلم حينئذ إلا فى شأن الربوبية بتعظيمها ، وذكر حقوقها . . .

وأما الحديث الذى ليس بقدسى ، فإنه يخرج من النور الساكن فى ذاته عليه السلام ، الذى لا يغيب عنه أبداً ، وذلك أنه عز وجل أمدّ ذاته عليه السلام بأنوار الحق ، كما أمد جرم الشمس بالأنوار المحسوسة . . فالنور لازم الذات النبوية الشريفة ، لزوم نور الشمس لها .

ثم يزيد الدباغ الأمر وضوحاً فيقول :

« إذا تكلم النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان الكلام بغير اختياره فهو القرآن.. وإن كان باختياره ، فإن سطعت حينئذ أنوار عارضة ، فهو الحديث القدسى ، وإن كانت الأنوار الدائمة ، فهو الحديث الذى ليس بقدسى ، ولأن كلامَه صلى الله عليه وسلم لابد أن يكون معه أنوار الحق سبحانه ، كان جميع ما يتكلم به وحياً يوحى . . وباختلاف أحوالِ الأنوار افترق إلى الأقسام الثلاثة » .

وهذه الأنوار القدسية التى يشير إليها « الدباغ » والتى يستمد منها النبى - صلوات الله وسلامه عليه - القرآن والحكمة - هى أنوار النبوة المفاضة عليه من ربه ، فكان صلوات الله وسلامه عليه نوراً من نور الحق ، كما كانت كلماته من كلمات الله سبحانه . . وهذا ما يشير إليه سبحانه وتعالى فى قوله :

« يٰأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه

وسراجاً منيراً » (٤٥ ـ ٤٦ : الأحزاب) . . فهو — صلوات الله وسلامه عليه سراج منير ، وهو نور هذا السراج كما يشير إليه قوله تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » (١٥ : المائد)

قوله تعالى :

* « ثم إن علينا بيانه » . .

هو تطمين للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه لن يفوته شيء مما تجلّى عليه من آيات الله ، وما قذف الله سبحانه وتعالى فى قلبه من معانيها ، التى كان يريد النبى أن ينطق بها ، ويصورها كما وقعت له . . فليقفْ النبيّ إذن عند حدود الألفاظ التى يلقيها عليه جبريل ، وإن كانت هذه الألفاظ لا تكشف كل ماوقع فى قلبه من معنًى ، فإنه مازال الوحي يتنزل ، وما زالت آيات الله تجىء بتفصيل ما أُجمل من أحكام ، وأحداث ، وقصص .. ولعل هذا هو السر فى العطف بالحرف « ثمّ » التى تفيد التراخى ، حيث إن البيان إنما تمّ فى زمن متباعد، ينتظم فترة الوحى كلها ، من مبدأ أول آية نزلت إلى أن تم نزول القرآن كله .

فمثلا قصة موسى مع فرعون .. جاءت أولا فى كلمات معدودة ، وفى صورة مصغرة جداً ، مثل قوله تعالى : « وفرعونَ ذى الأوتاد ، الذين طغوْا فى البلاد، فأكثروا فيها الفساد ، فصبّ عليهم ربك سوط عذاب» (١٠ ـ ١٣ : الفجر) .

ومثل قوله سبحانه : « هل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى * اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى * فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » (١٥ — ٢٥ : النازعات)

ففى هذا العرض الموجز لقصة موسى ، كان النبى يرى فى كلمات الله تلك ، ـ بما قذف الله سبحانه وتعالى فى قلبه من أنوار الحق ـ كان يرى القصة كاملة ، تتحرك على مسرح الحياة ، بأحداثها ، وأشخاصها ، وأمكنتها . . ثم كان يحاول فى أول الوحى أن يمسك بالصورة كاملة ، كما وقعت له ، فجاء الأمر الربانى : « لاتحرك به لسانك لتعجل به.. إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه »

قوله تعالى :

* « كلا بل تحبون العاجلة * وتذرون الآخرة »

هو بيان الطبيعة البشرية التى يغلب عليها حب العاجل من الأمور ، والتطلع إلى الثمرة قبل الغرس . . وتُرى هذه الطبيعة واضحة فى موقف آدم من الشجرة التى نهاه الله سبحانه وتعالى عن الأكل منها ، مع إطلاق يديه جميعاً للأكل من كل فواكه الجنة . . ولكنه زهد فى هذه الفواكه كلها ، ومدّ يده إلى تلك الفاكهة المحرمة ، فأكل منها ، وعصى أمر ربه ، وتعرض لما يتعرض له العصاة ، من اللوم والعقاب . .

ولم تكن هذه الشجرة ، بأكرم أشجار الجنة ، ولا أطيبها فاكهة ، ولكنه حُبّ الاستطلاع ، والرغبة فى الحصول على كل شىء ، فى اليوم الحاضر ، دون نظر إلى الغد . .

وحب العاجل كما يكون فى المذموم ، يكون فى المحمود . . كالسبق إلى الخير ، والمبادرة بالأعمال الصالحة . . فهذا من مطالب النفوس الطيبة ، ومن شهواتها ، إن صح هذا التعبير . . إنها تشتهى الخير ، والإحسان ، وتستكثر منه فى يومها ، كما تستكثر النفوس الخبيثة من الخبيث فى حاضرها ، غير مبقية

شيئاً لغدها ، كما يقول سبحانه عن أصحاب هذه النفوس التى استنفدت كل جهدها فى الحياة الدنيا ؛ : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » . (٢٠ : الأحقاف)

والمخاطبون بقوله تعالى : « كلا بل تحبّون العاجلة وتذرون الآخرة » هم المشركون ، والكافرون ، وأصحاب الضلالات ، الذين كفروا بالحياة الآخرة وأخلَوْا مشاعرهم من التعلق بها ، والإعداد لها . .

وقد حسُنت مواجهة المنكرين للبعث ، الذين يؤثرون العاجلة ، ويذرون الآخرة — حسنت مواجهتهم فى هذا المقام ، الذى يكشف عن أنفسهم ، وهم فى مواجهة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وحبه لعاجل الأمور فى مقام تحصيل الخير ، والاستزادة من العلم . . فهذا مقام ، وذاك مقام ، وإن اشتركا معاً فى أن حبّ العاجلة قسمة بينهما . .

وفى هذه المفارقة البعيدة ، يرى المشركون مدى استغراقهم فى الضلال ، وأنهم إنما يُنهَوْن عن الاستزادة من المنكر ، والضلال ، على حين يُنهى غيرهم عن الاستزادة من الخير والإحسان ، حتى لا يشق على نفسه ، ولا يكلفها فوق ما تطيق . . فالرسول يدعو إلى شريعة قائمة على السماحة ورفع الحرج ، وإنه لأولى عباد الله بالأخذ لنفسه من سماحتها ويسرها . .

قوله تعالى :

* « وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة » .

هو عرض لأحوال الذين يؤمنون بالآخرة ، ويعملون لها . .

فها هى ذى الآخرة ، وهذه هى أحوال أهلها ، وما يقع للناس فيها . .

فالناس هناك فريقان : مؤمنون ، وكافرون . .

والمنازل هناك منزلان : الجنة . . والنار

فالمؤمنون منزلهم الجنة ، والكافرون مأواهم النار . .

وفى عرض أصحاب الجنة يومئذ بما يكشف عن وجوههم وحدها ، هو عرض لحالهم جميعها ، ظاهرها ، وباطنها ، حيث تبدو على الوجه أحوال الإنسان ، وما يكون عليه من نعيم أو شقاء ، ومن طمأنينة أو جزع . .

ونضارة الوجوه ، تحدّث عن النعمة التى يعيش فيها أصحابها ، وعن الخصب والخير الذى يحفّ بهم ، حتى لقد فاضت الوجوه نضارة وبِشراً ، وحتى لكأنها الزهر المتفتح على أنسام الربيع فى روض أريض .

وقوله تعالى : « إلى ربها ناظرة »

أكْثَرَ المفسرون من المقولات التى تقال فى تأويل الوجوه الناظرة إلى ربها ، وهل فى الإمكان رؤية الله ؟ إن الرؤية معناها تحديد المرئىّ وتجسيده ، والله سبحانه منزه عن التحديد والتجسيد . . فكيف يمكن رؤيته ؟

وهذه قضية استنفدت كثيراً من جهد العلماء ، من المتكلمين وأهل السنة ، ولو أنصف هؤلاء وهؤلاء عقولهم ، لأمسكوا بها عن الخوض فى لجج هذا البحر الذى لا ساحل له ، فإن عقولنا تلك، إنما خلقت لهذا العالم الأرضى ، ولكشف ما فيه من حقائق ، أما عالم الآخرة ، فعقولنا بمعزل عنه ، فكيف بذات الله سبحانه وتعالى ؟ وكيف بعقولنا المحدودة القاصرة يُراد لها أن تحتوى هذا الجلال الذى لا حدود له ، والذى وسع كرسيه السموات والأرض ؟

ولهذا ، فإن خير ما يُحمل عليه قوله تعالى : « إلى ربها ناظرة » هو ما ذهب إليه السلف من أن المراد بالنظر إلى الله ، هو النظر إلى رحمة الله ،

والطمع فى رضوانه ، والتعلق بالرجاء فيه ، فى ذلك اليوم الذى ينقطع فيه كل رجاء إلا منه جلّ وعلا . . وهذا النظر إلى رحمة الله ، لا يختلف عن معنى الرغبة إلى الله ، والرجوع إليه ، كما يقول سبحانه : « إنا إلى ربنا راغبون » (٣٢ : القلم) وكما يقول جل شأنه : « وإنا إليه راجعون » (١٥٦ : البقرة) أما النظر فى وجه الله سبحانه وتعالى فى الآخرة ، وأما إمكانه وكيفيته ، فذلك — إن صحت الأخبار المروية عنه — مما نؤمن به غيباً ، ولا نبحث عنه صورة وكيفا ! !

قوله تعالى :

* « ووجوه يومئذ باسرة * تظن أن يُفعل بها فاقرة » .

هو معطوف على قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة . . » وهو عطف حال على حال ، ومقام على مقام . . فهناك وجوه ناضرة إلى ربهـا ناظرة ، تقابلها فى الجانب الآخر ، وجوه باسرة ، أى كالحة مغبرّة ، تتوقع أن يفعل بها الفواقر ، وهى الدواهى والمهلـكات . . والوجوه الناضرة ، الطامعة فى رحمة ربها ، هى وجوه المؤمنين ، والوجوه الـكالحة المتوقعة للهلاك ، هى وجوه المشركين ، والضالين . .

وقوله تعالى :

* « كلاّ إذا بلغت التراق * وقيل من راق * وظن أنه الفراق * والتفت الساقُ بالساق * إلى ربك يومئذ المساق . » .

هو إعراض عن حديث يوم القيامة ، الذى لا يصـدّق به المشركون ، وعرض لهذا المشهد الذى يراه الناس بأعينهم فى الحياة الدنيا ، وهو مشهـد الموت ، الذى يُنهِى حياة الإنسان من هذا العالم الدنيوى . .

وفى هذا المشهد يرى المكذبون بيوم القيامة ـ كما يرى غيرهم ـ حالاً من أحوال النّزع والاحتضار ، وقد بلغت الروح فيها الحلقوم ، كما يقول سبحانه فى آية أخرى : «فلولا إذا بلغت الحلقوم* وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين* تَرجعونها إن كنتم صادقين » (٨٣ — ٨٧: الواقعة) :

وقد جاء التعبير هنا عن بلوغ الروح الحلقوم ، ببلوغها التراقى ـ وهى جمع ترقوة ، والترقوتان من الإنسان هما عظمتان تمتدان يميناً وشمالاً من ثُغرة النحر إلى العنق ـ وفى ذلك ما يدل على أن الروح تتحرك أثناء النزع والاحتضار ، فتنتقل من التراقى أى النحر ، إلى الحلقوم ، فإذا بلغت الحلقوم لفظ الإنسان أنفاسه الأخيرة ، إذ كان ذلك آخر حدود الروح مع الجسد

وقوله تعالى : « وقيل من راق » أى التمس أهلُ المحتضَر ، الاساةَ والرقاة لدفع يد الموت الممتدة إليه ، وهو ينازع سكراته . .

والراق ، هو من يسترقى المريض بالرُّقىَ والتعاويذ ونحوها ، رجاء أن يشفيه من دائه ، أو يخفف ما به

والرُّقى ، أسلوب من أساليب التطبب والاستشفاء عند الجاهليين ، وقد ذكره القرآن هنا على لسان المتعاملين به ، فهو من واقع الحال ، الذى يقتضى الصدق نقلَه كما هو . .

وقوله تعالى : « وظن أنه الفراق » . . بيان لمرحلة ثالثة من مراحل الاحتضار . . حيث كانت المرحلة الأولى ، هى بلوغ الروح التراقى ، ثم كانت المرحلة الثانية استدعاء الرقاة والمتطببين . . ثم كانت المرحلة الثالثة ، وهى

اليأس من رُقَ الرقاة، فقد تيقن أهل المحتضَر أنه لا يلبث إلا قليلا حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة، وها هى ذى الروح وقد بلغت الحلقوم.

وقوله تعالى: « والتفت الساق بالساق » بيان لمرحلة رابعة، فى مسيرة هذا المحتضر.. إنه لا يموت، ويتحول إلى عدم، كما يظن ذلك الذين يكذبون بالحياة الآخرة، بل إنه سيحيا فى عالم آخر.. فبعد خروج الروح من هذا الجسد، تنطلق إلى عالم الحق، وتساق سوقًا عنيفًا إلى ربها، فيلتف الساق بالساق من شدة الكرب، وثِقَل البلاء، لأن هذه الروح، روحُ إنسان لم يكن يؤمن بربه، ولم يكن ممن يصدق بآيات الله وبرسل الله، ولم يكن من المصلّين، الذين استجابوا لله، كما يقول سبحانه: « فلا صدق ولا صلى، ولكن كذب وتولى ».. أى كذب بآيات الله معرضًا عنها: « ثم ذهب إلى أهله يتمطى » أى حين أعطى ظهره معرضًا عن آيات الله، أقبل على أهله، ومجتمع ناديه، يمشى معجبًا بنفسه، نافخًا صدره، مادًّا عنقه، فاردًا جناحيه، كأنه القائد المظفر، وقد عاد من الميدان يسوق بين يديه الغنائم والأسرى!

والتفاف الساق بالساق، كناية عن الشدة والكرب، حيث لا يقوى المرء على التحكم فى أوصاله، أو أن يضبط حركات رجليه، فهو يمشى متخالجًا متماوجًا، كما يمشى المصروع..

الآيات: (٣٤ — ٤٠)

* « أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ

عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ (٤٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

« أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى » — هو دعوة إلى هذا المشرك ، الكافر باليوم الآخر ، المكذب بالبعث ، والحساب ، والجزاء — دعوة له إلى ماهو أولى به ، وأحسن عاقبة له ..

* ولم تصرح الآية الكريمة بهذا الأولى ، الذى يُدْعى إليه هذا الضال ، بل جعلته مطلقاً من غير تحديد . .

وفى هذا ما يشير إلى أمور :

فأولا : أن ما فيه هذا الضال من ضلال ، هو أمر واضح لا يحتاج بيان ما فيه من نُكر ، إلى عرض الوجه المقابل له ، لأنه مستغن بذاته عن أن يُدَل على شناعته .

وثانياً : أن أى مذهب يذهبه هذا الضال ، هو أهدى سبيلا من طريقه الذى يسير فيه ، والذى سيُلقى به فى التهلكة ، إن هو تابع مسيرته عليه . .

وثالثاً : أن إطلاق هذه الدعوة ، التى لا تحمل غير الإشارة إلى أن هناك حالا أولى من تلك الحال التى هو فيها ، دون الإشارة إلى الحال التى يُراد منه الاتجاه إليها — فى هذا ما يوقظ مشاعر هـذا الإنسان الغارق فى

ضلاله ، ويهز كيانه كله ، حين ينبّه إلى أن هناك خطراً محدقاً به ، دون أن يُكشف له عن طريق النجاة من هذا الخطر . . إن عليه وحده أن يعرف مصدر هذا الخطر ، وعليه وحده أن يجد الطريق إلى الفِرار منه .. وذلك من شأنه أن يبعث فيه كل القوى الواعية المدركة ليدفع عن نفسه هذا البلاء المشتمل عليه ، وليطفىء بيديه هذه النار المشتعلة فيه ..

وقد كُررت الدعوة فى قوله تعالى : « أولى لك فأولى » للتوكيد . . ثم كررت هذه الدعوة مؤكدة أيضاً فى قوله تعالى : « ثم أولى لك فأولى » مبالغة فى التنبيه والتحذير ..

ويرى أكثر المفسرين أن قوله تعالى : « أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » — هو تهديد ووعيد ، وأن المراد بما هو أولى له ، هو النار المعدّة له ، وأن ذلك العذاب هو مايُدْعى إليه . . هذا المكذب بآيات الله

والرأى ـ والله أعلم ـ هو ما ذهبنا إليه ، من أن هذا إلفات وتنبيه وإغراء بالرجوع إلى الله ، وأخذ طريق غير طريق الضلال الذى يركبه هؤلاء الضالون . . والآيات التى جاءت عقب هذا الإلفات تؤيد الرأى الذى ذهبنا إليه ، لأنها تُحاجّ الإنسان وتفتح له طاقات من نور يمكن أن يرى على ضوئها طريق الحق فيسلكه . .

قوله تعالى :

* « أيحسب الإنسان أن يُترك سدى » . .

هو تعقيب على هذه الدعوة الموجّهة إلى منكرى البعث والحساب والجزاء . .

والإنسان هنا ، هو جنس الإنسان المكذب بالبعث والحساب والجزاء .

وفى الاستفهام إنكار لموقف هذا المنكر ليوم القيامة ، لأنه يظن أن أن يُترك سدًى ، أى هَمَلا ، بلا حساب ، أو جزاء .. وهذا ظن خاطىء من وجوه :

فأولا : أن العاقل لا يرضى لنفسه أن ينزل إلى مرتبة الحيوان ، وأن يُنظر إليه نظرة من يُعفى من تبعة أعماله ، فتلك حال لا يصير إليها الإنسان إلا إذا كان ناقص الأهلية ، أو فاقدها ..

وثانيا : الإنسان فى هذه الحياة ، إذا أحسن عملا انتظر جزاء إحسانه ، وتوقع الخير من ورائه ، وأنه إذا لم يجد هذا الجزاء ، استشعر مرارة الغبن وخفت فى نفسه موازين الإحسان ، كما أنه إذا أسىء إليه ، توقع أن يؤخذ له بحقه ممن أساء إليه ، وإلا تحول إلى حيوان يستعمل مخالبه وأنيابه ، مهاجماً ومدافعاً ؟. فكان لابدّ من حساب يُسوّى عليه مابين الناس من مظالم ..

وثالثا : هذا الاختلاف بين مذاهب الناس فى الحياة ، من محسنين ومسيئين ، وعاملين ، ومقصرين ، وأخيار وأشرار ، ومظلومين وظالمين — إلى غير ذلك مما يجعل كل إنسان منهم عالماً قائماً بذاته ـ هذا الاختلاف الحاد بينهم فى هذه الحياة ، لا بد له أن يسوى ، فيكون الأخيار فى جانب ، والأشرار فى جانب ، بعد أن كشفت تجربة اجتماعهم معاً فى الحياة عن هذه المتناقضات . . وهذا لا يكون إلا فى عالم غير هذا العالم ، وفى حياة غير هذه الحياة .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، مالكم كيف تحكمون » (٣٥ ـ ٣٦ : القلم) . .

وعلى هذا ، فإنه أولى فأولى ، ثم أولى فأولى لأهل الضلال أن ينزعوا عن

ضلالهم ، وأن يطلبوا النجاة والسلامة لأنفسهم من الدينونة والعقاب فى الآخرة التى لابد منها . .

قوله تعالى :

* « ألم يك نطفة من منىّ يُمنى » . .

هو دليل من الأدلة الكاشفة عن قدرة الله ،وأن من متعلقات هذه القدرة بعثَ الموتى من القبور . .

فهؤلاء الموتى ، قد كانوا عدماً قبل أن تُخرجهم القدرة القادرة إلى الحياة ، كما يقول سبحانه : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » (٢٨ : البقرة) .

وهذا الإنسان الذى ينكر البعث ، ويستبعده على قدرة الله ـ ألاَ ينظر إلى أثر هذه القدرة فيه ؟ ثم ألا يدرس مسيرة حياته ، ليعلم من أين بدأ ؟ وكيف صار ؟ وإلى أين انتهى ؟ .

إنه لم يك شيئاً أبداً : « أوَلاَ يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » (٦٧ . مريم) . .

ثم إنه كان نطفة من منىّ .. لاتعدو أن تكون أشبه بالمخاط ، تستقذره النفوس وتمتهنه ، كما يقول سبحانه : « ألم نخلقكم من ماء مهين » (٢٠ : المرسلات) .. وهو مهين لأنه لا ينتفع به فى أى وجه من وجوه النفع ، إلا إذا امتدت إليه يد القدرة ، فنفخت فيه من روح الحق جل وعلا . .

وفى وصف المنى بأنه « يُمنَى » — إشارة إلى أنه لا يكون قابلا للإخصاب

حتى يمنى ، أى يخرج من صلب الرجل ، بعد أن ينضج ، ويصبح صالحاً للقذف به فى رحم الأنثى ..

قوله تعالى :

* « ثم كان علقة فخلق فسوّى » ..

أى ثم أصبحت هذه النطفة علقة ، وهى النطفة بعد أن تأخذ شكلا جديداً فى مسيرتها نحو الحياة ، فتكون قطعة من الدم الغليظ المتجمد ، لا حياة ، فيها ، ولا صورة محددة لها . .

وقوله تعالى : « فخلق فسوى » . . فاعل خلق هو الله سبحانه وتعالى ، أي فخلق الله سبحانه وتعالى من تلك النطفة ، علقةً ، ثم خلق من تلك العلقة صوراً ، وأشكالا ، فسوّاها حالا بعد حال ، وخلقاً بعد خلق ، حتى كان منها هذا الإنسان السوىّ ، الذى يسمع ، ويبصر ، ويعقل ، ويملأ هذه الدنيا خيراً ، وشرّاً .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث » (٦ : الزمر) . .

ولم يُذكر فاعل « خلق » لأنه أوضح من أن يذكر ، إذ لا خالق غير الله سبحانه وتعالى ، لايشاركه أحد فى هذا الفعل ، فحيث ذُكر الخلق كان فاعله هو الله سبحانه : « ألا له الخلق والأمر » (٥٤ : الأعراف)

وقوله تعالى :

* « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » .

أى فجعل الله سبحانه من هذا الخلق السوىّ ، الذكرَ والأنثى ، اللذين بهما يتناسل الإنسان وتتكاثر مواليده..

والخلق ـ كما قلنا فى أكثر من موضع ـ هو إيجاد المخلوق على الصورة التى أرادها الله سبحانه وتعالى له ، أمّا الجعل ، فهو إعطاء المخلوق الصفةَ الوظيفية التى يقوم بها .. فالخلق إبداع ، والجعل تسخير وتسيير لهذا المخلوق المبدَع ..وهذا يعنى أن خَلْق المرأة والرجل يجرى على نسق واحد ، ويقع على صورة واحدة ، حتى إذا اكتمل خَلْق الإنسان ، انقسم إلى مخلوقين ، أحدهما ذكر والآخر أنثى ، كاليدين للإنسان ، إحداهما يمين ، والأخرى شمال .. وباليدين معاً يؤدّى الإنسان وظيفته ، وبالرجل والمرأة يتم للإنسان وجودَه .. فكلٌّ من الرجل والمرأة نصف الإنسان ، وبهما معاً يكمل الإنسان ، ويكون له القدرة على أداء وظيفته فى الحياة ..

أما ما جاء فى قوله تعالى : « والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى * وماخلق الذكر والأنثى * » فإن هذا فى مقام إلفات النظر إلى عالم المخلوقات الحية ، حيث تبدو هذه المخلوقات فى أجناسها ، وكأن كل جنسٍ منها صنف واحد ، حيث لاتمايز بين أفراده ، مع أنه فى الحقيقة صنفان، ذكور وإناث .. فهذا مقام ، وذاك مقام .

قوله تعالى :

« أليس ذلك بقادرٍ على أن يحيي الموتى ؟ » ..

هذه هى القضية التى نُصبت لها تلك الأدلة ، التى تُحدّث عن قدرة الله سبحانه وتعالى ، والتى كانت السورة كلها معارض لتلك القدرة .

أى : أليس ذلك الإله الذى خلق الإنسان من نطفة ، بقادر على أن يحيي الموتى ؟

والجواب على هذا السؤال ، هو بالإيجاب الملزِم لكلٍّ ذى عقل أن يجيب

به ، إذا هو استجاب للحق ، وأذعن لمنطق العقل ، ولم يغلبه الهوى ، أو يستبدّ به العناد ، ويركبه الحمقُ والغَباء .

وبهذه الآية تختم السورة ، التي كان عنوانها « القيامة » .. فإنه لاقيامة إذا لم يتقرر إمكانُ بعث الموتى من القبور ، فإذا تقرر ذلك ، لم يكن الإخبار عن أن هناك بعثاً ، وقيامة ، وحساباً ، وجزاء - لم يكن هذا الإخبار بالأمر الذى يُمارى فيه ، أو يقع موقع الشك أو الإنكار ..

* * *

٧٦ - سورة الإنسان

نزولها : مدنية نزلت بعد سورة الرحمن ..

عدد آياتها : إحدى وثلاثون آية ..

عدد كلماتها : مائتان وأربعون .. كلمة .

عدد حروفها : ألف وخمسون .. حرفاً ..

مناسبتها لما قبلها

كانت سورة « القيامة » معرضاً للأدلة ، الدالة على قدرة الله سبحانه ، وعلى إمكان البعث ، ووقوع القيامة ..

و « الإنسان » هو موضوع « القيامة » وهو الذى يُساق إلى موقف الحساب والجزاء فيها ..

فكان جعلهُ عنواناً لسورة خاصة به ، ثم كان جعله فى مواجهة يوم القيامة ، بعد عرضها عليه ـ كان ذلك مما يقيم له مرآة ينظر فيها إلى نفسه ، وإلى مكانه فى هذا الوجود ، وإلى مسيرته فى الحياة ، وكيف بدأ ، وإلى أين ينتهى .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٤)

* « هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا » .

يَرَى أكثر المفسرين أن الاستفهام هنا لا يراد به حقيقته ، وإنما هو بمعنى الخبر ، وأن « هل » بمعنى « قد » . . أى قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . . !

والرأى عندنا ـ والله أعلم ـ أن الاستفهام على حقيقته ، وأنه يَحمل سؤالا موجهاً إلى الإنسان ليجيب عليه ، وليبحث عن حقيقته ، وكيف كان ؟ ثم كيف صار ؟ ثم إلى أين ينتهى به خط مسيرته ؟

فهذا السؤال من شأنه أن يستثير تفكير الإنسان ، وأن يُنشّط مداركه الخامدة ، وأن يفتح عينيه المغمضتين ، على هذا الوجود ، وعلى القدرة المسيّرة له ، والقائمة على هذا النظام الممسك به .

ولو لبس الاستفهام صورة الخبر ـ كما يذهب إلى ذلك المفسّرون ـ لمَا كان له هذا الأثر فى تفكير الإنسان ، ولما أحدث فى نفسه تلك المشاعر التى يستثيرها هذا الاستفهام الطارق لها . .

والحين من الدهر ، هو القطعة المقتطعة من الزمن الطويل .. لأن الدهر زمن ممتد لانهاية له ، والقطعة منه أيًّا كانت ، هى زمن طويل قد يبلغ ألوف السنين .

وهذا يعنى أن الإنسان يمكن أن يكون قد مضى عليه دهر طويلٌ لم يكن فيه شيئاً مذكوراً ، أى ذا ذِكر ، وأثر مشهود ، فى الحياة ..

ولو أراد الإنسان أن يجيب على هذا السؤال وهو : كم مضى عليه من الزمن لم يكن شيئاً مذكوراً ؟ ـ لاقتضاه ذلك أن يرجع ببصره إلى الوراء ، وأن يفتش فى أغوار الزمن السحيق عن يوم ميلاده الذى كان فيه شيئاً مذكوراً .. ثم كان عليه أن يغوص أكثر وأكثر فى أعماق الزمن ليرى وجوده قبل أن يكون شيئاً مذكوراً ..

وفى هذه النظرة العميقة المتفحصة يتسع مجال البحث ، وتتشعب مسالك

الدرس ، حتى لتشمل علم الحياة ، وكيف بدأت جرثومة الحياة على هذه الأرض، وكيف تطورت هذه الحياة،وكيف لبست صوراً ، وأشكالا ، لاتنتهي عند حدّ؟ إن ذلك يتطلب دراسة شاملة لأصل الحياة على هذه الأرض، ثم لتاريخ الإنسان، وخط مسيرته فى عالم الأحياء ، وهذا باب واسع من أبواب العلم والمعرفة ، لاتزال معارف الإنسانية كلها تقف على شاطئه .

وقوله تعالى :

* « إنا خلقنا الإنسان من نطفةٍ أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » .

هو إشارة إلى موقع من مواقع الإجابة على هذه التساؤلات الكثيرة ، التى لا تتصدى للإجابة عليها إلا عقولُ العلماء الدارسين . . أما هذا الموقع فهو مما تشارك فى إمكان تصوره ، والإجابة عليه عقولُ الناس جميعاً ، وهو خَلْق الإنسان من النطفة.. فهذا الخلق عملية مشاهدة ، يراها كل إنسان فى مواليده التى يلدها ، كما يشهدها فى مواليد الكائنات الحية التى تزخر بها الحياة من حوله . .

فهذه دعوة إلى كل عقل ، لينظر إلى تلك الحقيقة المشاهدة ، فى واقع الحس ، والتى لا يستطيع أن ينكرها ، أو يكابر فيها . . « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج » . . والنطفة ، هى التى أشار إليها قوله تعالى فى آخر سورة القيامة : « ألم يك نطفة من منىّ يمنَى » . . والتى هى ماء الذكر ، يقذف به فى رحم الأنثى .

والأمشاج : هى الأخلاط .. واحدها : مِشْج ، ومَشَج ، ومَشيج . . ومَشَج الشيء بالشيء : هو مزجه وخلطه به .

وهذا يعنى أن تلك النطفة وإن بدت فى مرأى العين مجردَ ماء ، هى فى

حقيقتها ماء مشوب بأشياء أخرى ، أودعتها فيه قدرة الخالق جل وعلا ، كما أودعت فى هذه البذرة ، صورةَ الشجرة ولون زهرها ، وطعم ثمرها.. كذلك هذه النطفة الأمشاج ، قد حملت فى كيانها صورة الإنسان ، ولونَه ، ومستوى إدراكه ، ومستودعَ عواطفه ، ومشاعره ، وكل ما يكون به إنسانًا له ذاتيته التى يتميز بها عن غيره من أبناء جنسه !

وقوله تعالى : « نبتليه * فجعلناه سميعاً بصيراً » أى فجعلنا هذا الإنسان سميعاً بصيراً لنبتليه ، ونختبر ماذا يعطى من ثمرٍ بهذه القوى التى أودعناها فيه ، من السمع والبصر . .

وقدّم الابتلاء وهو المسبَّب ، على سببه الذى هو السمع والبصر المودعان فيه — للإشارة إلى أن الإنسان إنما خلق للابتلاء ، وأنه لم يخلق عبثاً . . فهو الكائن الوحيد فى هذه الأرض ، الذى حمل الأمانة ، أمانة التكاليف ، التى عُرضت على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان . .

فالفاء فى قوله تعالى : « فجعلناه » فاء السببية ، أى فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه . . ووصف الإنسان بأنه سميع بصير ، لا بأنه سامع ومبصر ، إشارة إلى أن سمعه وبصره ليس كسمع الحيوان وبصره ، وإنما هو سمع يحوّل المسموعات إلى حقائق ومعان ، تنفذ إلى أعماق المسموع ، وإلى ما وراء دلالات الصوت الذى يقع على الأذن من كل ما يطرقها من مسموعات ، سواءاً كان كلمات ، أو غير كلمات . .

وكذلك الشأن فى البصر ، فهو ليس بَصَراً ينقل الأشياء إلى العين ، كما تنقلها المصوِّرة ، وإنما هو بصر يدخل إلى دائرة العقل الذى يكشف عن الحقائق المضمرة فى كيان الشىء المبصَر ..

وبهذا السمع ، والبصر ، صار الإنسان سميعا ، بصيراً ، أى ذا قدرة على استطلاع النتائج المرتقبة من كل مسموع ومُبْصَر ، وما وراءه.. من خير أو شر ، أو حق وباطل . .

وبهذه القوى الإضافية التى أضافها الخالق جلّ وعلا إلى الإنسان ، وأخرجه بها عن دائرة الحيوان ـ كان مَنَاطاً للتكليف ، وأهلا للحساب والجزاء . .

قوله تعالى :

* « إنّا هَدَيناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » . .

أى بهذا السمع والبصر ، وما يفعلان فى الإنسان ، وما يكشفان له من حقائق ـ أراه الله سبحانه وتعالى ، السبيل الذى ينبغى أن يسلكه ، وأقام له على هذه السبيل المعالم التى يقيم بها خطوه عليها ، بما بعث إليه من رسل ، وما شرع له من شرائع ، وما بيّن له من أحكام . . وهنا يُترك له الخيار فيما هو صانع بنفسه ، فيتقدم أو يتأخر ، ويستقيم أو ينحرف ، ويشكر ، أو يكفر ، كما يقول سبحانه على لسان سليمان عليه السلام : « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر . . ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنىٌّ كريم » (٤٠ : النمل) وكما يقول سبحانه فى آخر هذه السورة : « لمن شاء منكم أن يستقيم » . .

وقوله تعالى :

* « إنا أعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيراً » .

هو بيان للجزاء الذى سيلقاه الذين يكفرون بالله ، ولا يستقيمون على صراطه المستقيم . .

ومعنى : أعتدنا ،أى أعددنا ، وأحضرنا ، والسلاسل : القيود ، تكون

فى الأرجل والأيدى .. والأغلال : الأطواق، تكون فى الأعناق.. والسعير : النار المتسعرة بوقودها . .

ولا بد هنا من الإشارة إلى الرسم العثمانى لكلمة « سلاسلا » ورسمها بالألف ، من غير تنوين . وكان من حقها أن تكتب من غير ألف . .

والسؤال هنا : لمَ كُتبت بهذا الرسم ؟ : أذلك لأن الكتابة العربية لم تكن يوم كتابة المصحف العثمانى قد استوفت شكلها الكامل ، وقامت أسسها على قواعد مضبوطة ؟ أم أن ذلك كان عن قصد وعمد ؟

والجواب على هذا ــ والله أعلم ــ هو أن القول بأن الكتابة العربية لم تكن قد استوفت شكلها النهائى يوم أن كتب المصحف العثمانى ــ قول مستبعد . . وذلك لأن ألفاظاً وردت فى القرآن الكريم على صيغة « فعائل » أو « مفاعل » ولم تكتب بالألف ، مثل قوله تعالى : « كنَّا طرائقَ قِدداً » (١١ : الجن) وقوله سبحانه : « ومساكنَ طيبة فى جنات عدن » (٧٢ : التوبة) وقوله تبارك اسمه : « قل لو أنتم تملكون خزائنَ رحمة ربى إذًا لأمسكتم خشية الإنفاق » (١٠٠ : الإسراء) فلو كان ذلك عن نقص فى رسم الكتابة لأخذت أمثال هذه الصيغ الممنوعة من الصرف ، شكلا واحداً فى كتابتها .

وإذن فما الحكمة ، فى رسم « سلاسلا » بهذه الصورة ؟

والذى يقع فى مفهومنا لهذا ــ والله أعلم ــ هو أن هذه الألف الزائدة قد زيدت عن قصد ، ولحكمة تُراد لها ، وهى أن هذه الألف تشير إلى معنى مضمر فى كلمة « سلاسلا » وأنها سلاسل طويلة جاوزت فى طولها الحد المعروف للسلاسل التى يقيد بها الحيوان ، أو الإنسان . .

ولعلّ سائلاً يسأل : أهذا يعدّ تفسيراً لبعض كلمات القرآن ، يصحب الرسم التي ترسم به هذه الكلمات ؟ .

ونقول ـ والله أعلم ـ نعم ! إنّه إشارة إلى معنًى من معانى الكلمة ، ودلالة من دلالاتها ، وهذا المعنى أو تلك الدلالة ، ليس عن مجرد اجتهاد شخصىّ من كتّاب المصحف العثمانى ، وإنما هو عن نظر إلى معنًى صريح جاء فى آية أخرى ، يحدّث عن هذه السلاسل وطولها ، وذلك فى قوله تعالى : «ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » (٣٢ : الحاقة)

فهل رأى الناس سلسلة طولها سبعون ذراعاً يُشدّ إليها إنسان أو حيوان ؟

فهذه السلاسلُ ، هى من نوع هذه السلسلة الغريبة ، ولهذا رسمت ذلك الرسم الغريب فى صورته شكلاً ، ونطقاً . . إذ كانت الألف تحتمل مطّ الصوت بها وامتداده ، وإطالته ، كما طالت تلك السلاسل ، طولاً غريباً .

وما قلناه فى لفظ « سلاسل » يقال فى لفظ « قواريرا * قواريرا » ، فقد رسم هذا اللفظ فى الموضعين بألف زائدة فى آخره ، دون تنوين . .

وهذا الرسم يشير إلى غرابة هذه القوارير ، وأنها ليست مما للناس عَهد به . . فما رأى الناس أبداً قوارير من فضة ، أى أكواباً زجاجية ، هى فى حقيقة أمرها من فضة ! فالأكواب إما من فضة ، وإمّا من زجاج . .

أما أن تكون فضة وزجاجاً معاً ، فذلك هو الذى لايقع فى تصوّر أحد . . ولكن هذه أكواب الجنة التى يشرب بها عباد الله هناك شرابَهم . . إنها أكواب من فضة ، ولكنها فى صفاء الزجاج ، وشفافيته ، حيث يُرى من ظاهرها لونُ ما فيها من شراب ، وهذا لا يكون إلا لآنية الزجاج وحده . .

قوله تعالى :

* « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً » .

الأبرار . جمع بَرّ ، أو بارّ . . والبارّ : هو النقى الطاهر ، الذى لم يغيّر من فطرته الطاهرة النقية شىء من كبير الذنوب أو صغيرها . .

والكأس : إناء الشراب ، ويطلق على الشراب نفسه . كما يقول الشاعر :

وكأسٍ شربتُ على لذّة وأخرى تداويت منها بها

ولا يقال له كأس إلا إذا كان فيه شراب ، فإذا كان فارغاً سُمّى قدحاً .

والكافور : نبت طيّب الريح . .

أى أن هؤلاء الأبرار يشربون من كأس ممزوجة بالكافور الذى يجعل لها ريحاً طيبة ، إلى جانب مذاقها الطيب .

وإذ كان معنى الكأس هنا هو الشراب الذى فيها ، كان معنى شرب الأبرار من تلك الكأس أنهم يشربون من هذا الشراب ، أو من هذه الخمر ، التى مزاجها كافور . .

قوله تعالى :

* « عيْنًا يَشرب بها عبادُ الله يفجّرونها تفجيراً » .

هو بيان لهذه الكأس ، أو هذه الخمر ، وهى أنها عينٌ يشرب بها عباد الله . .

ونُصِبَ « عيناً » على أنه مفسّرٌ لقوله تعالى : « من كأسٍ » على سبيل الاختصاص للمدح . .

وعباد الله ، هم الأبرار الذين ذكرهم الله سبحانه فى قوله : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً » . . وفى إضافتهم إلى الله سبحانه تعالى ، تشريف ، وتكريم ، لهؤلاء الصفوة الكرام من الناس ، فهم عباده ، وهم أهل وُدّه .

وفى قوله تعالى : « يفجرونها تفجيراً » أى أنها عين تتفجر دائماً كلما أرادوا أن يشربوا من خمر هذه العين .. فما هى إلا همسة خاطر حتى تنبع العين ، ويتفجر منها الخمر ، على هيئة كئوس تتناولها الأيدى من قريب .

وفى تعدية الفعل « يشرب » بحرف الجر « الباء » مع أنه يتعدى بنفسه أو بحرف الجر « من » فيقال شربت اللبن ، أو شربت من اللبن — فى تعدية هذا الفعل بالباء ، إشارة إلى أن العين التى يشرب منها عباد الله ، هى خمر وكأس معاً ، وأنهم إذ يشربون بهذه العين التى هى خمر ، يشربون الخمر ذاتها .. وهذا يعنى أن هذا الشراب الذى ينبع من تلك العين ، لصفائه ، ورقته ، وشعشعة أضوائه — قد امتزج بالكأس ، فصارا معاً كياناً واحداً ، لايدرى الناظر إليهما ، أينظر إلى كأس أم إلى خمر .. فكلاهما أصفى من الهواء ، وأرق من الشعاع .. وإلى هذا المعنى يشير أبو نواس فى قوله :

رَقّ الزجاج ورقت الخمر وتشا كلا فتشابه الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وهذا المعنى الذى ذهبنا إليه ، إنما لحمناه من قوله تعالى : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً » حيث عَدَل النظم القرآنى عن تعدية الفعل « يشرب » إلى أداة الشرب بالباء ، كما هو المألوف ، إذ يقال شربت بالكأس وبالكوب ، وعدى إلى تلك الأداة بمِن .. ثم جاء قوله قوله تعالى : « عيناً يشرب بها عباد الله » فعدل عن تعدية الفعل إلى مادة الشراب بحرف الجر من ، إلى تعديته بحرف الجر الباء « عيناً يشرب بها عباد الله » .. وبهذا أحلّ النظم القرآنى مادةَ الشراب (العين) محلّ الكأس ، على حين أقام الكأس مقام العين ! .. وبهذا تبدو الصورة هكذا ..

— « إن الأبرار يشربون من كأس » ومقتضى النظم : « إن الأبرار يشربون بكأس »

— «عيناً يشرب بها عباد الله»ومقتضي النظم كذلك : «عيناً يشرب منها عباد الله » :

وقد عدّ وصف أبى نواس للخمر والكأس أبلغ ما قالت العرب من وصف جامع للخمر والكأس معاً . .

ولكن الذى ينظر فى الوصف القرآنى للخمر والكأس ، لا يجد من وصف أبى نواس إلا طنين ذباب ، بين يدى نغم علوىّ آسر ، يملك زمام العقول ، ويهزّ أوتار القلوب ! وأين زُبالة المصباح من ضياء الشمس ، ورونقها ؟ وأين ضآلة المخلوق من عظمة الخالق وجلاله ؟

أبو نواس آلة مصورة لروض جميل رائع ، ولكن لا حياة فيه ، ولا ريح زهره ولا مذاق لثمره . .

والنظم القرآنى ينقل هذا المنظر فى كلمات تنبض بالحياة ، وتندَى بالطيب فتنشَق الأنوف عَبيرَه ، وتطعم الأرواح مذاق جَنَاه !!

أبو نواس يستعين على إخراج الصورة بالأسلوب التقريرى المباشر ، فيقول « رق الزجاج ورقت الخمر .. »

فهو يقرر الصفة التى عليها كلٌّ من الكأس والخمر ، وهى الرقة . . ثم يَبنِى على هذه المقدمة حكماً مسلَّماً به ، وهو التشاكل والتشابه بين شيئين كل منهما على صفة الآخر . . وهذا عيب فى الأسلوب البلاغى ، الذى يعتمد على التلميح دون التصريح ، ويستغنى بالإماءة ، عن المواجهة والمكاشفة !

فإذا استمعت إلى قوله تعالى : « عيناً يشرب بها عباد الله » تمثلت لك العين كأساً يُشرب بها ، ثم نازعتك نفسك إلى البحث عن أداة الشرب ، فلا تجد إلا العين شراباً وكأساً معاً . .

وإذا استمعت إلى قوله تعالى : « يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً » تمثلت لك الكأس عيناً يُشرب منها ، فإذا شاقك أن ترى العين وجدتها هى الكأس والشراب معاً ، قد أصبحا كياناً واحدا . .

هذا ، ولم يجمع النظم القرآنى بين الوصفين — وصف الخمر ، ووصف الكأس — حتى يقيم منهما الصورة التى تحقق صفتهما معاً — لم يفعل النظم القرآنى هذا الصنيع ، لأن كل صورة منهما تحقق الوصفَ المطلوب للكأس والخمر أتم تحقيق . فإذا نظر الناظر فى الصورتين معاً وجد أنهما وجهان لحقيقة واحدة ! كأس وخمر ، وخمر وكأس . .

وقد جاء النظم القرآنى بهذا الإعجاز من أقرب طريق ، وأيسره ، فبكلمة واحدة ، لا بل بحرف واحد ، أقام هذا الإعجاز ، وكشف عن وجه هذه المعجزة . . فمازاد النظم القرآنى عن أن أقام حرف « الباء » مكان الحرف « من » فى إحدى المعجزتين ، على حين أقام الحرف « من » مقام حرف « الباء » فى المعجزة الأخرى !

فهذا كلام الله ، تتجلى معجزاته فى غير بهرج من اللفظ ، ولا خلابة أو تهويل من النظم . . حتى ليبدو ـ فى ظاهره ـ وكأنه مما يتكلم به الناس ، من منثور ومنظوم . . تماماً كما كانت تبدو عصا موسى فى يده ، عصاً يتوكأ عليها ويَهُش بها على غنمه . . لكن ما إن ألقاها من يده حتى سرت فى كيانها نفخة من روح الحق ، وإذا هى حية تسعى ؟ . . وهكذا كلمات الله ، تبدو

فى ظاهرها ، وكأنها من مادة ما نتكلم به ، من حروف وكلمات ، ولكنها آيات معجزة ، تتحدّى ، وتُفحم ، وتُعجز .

قوله تعالى:

* « يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً »

النذر : ما ألزم الإنسان به نفسه من طاعات وقربات ، ومنه قوله تعالى ، على لسان مريم عليها السلام : « إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً » (٢٦ : مريم)

والوفاء بالنذر : هو إمضاء لعقدٍ عقده الإنسان مع ربه ، بما يتقرب به إليه ، فهو عقد ملزِم ، لا ينبغى انفكاك منه ، والله سبحانه وتعالى يقول : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » (١ : المائدة) .

وهذا النذر ، هو من صفات الأبرار ، حيث لا يقفون عند أداء ما فرض الله سبحانه وتعالى عليهم من فرائض ، وما أوجب عليهم من واجبات ، ولا ما سن لهم الرسول الكريم من سنن ، بل يتجاوزن ذلك إلى طلب المزيد من القربات لله ، فى كل ما يرون لله سبحانه فيه رضاً ، ولو شقّ ذلك عليهم ، وحرمهم لذة النوم ، والشبع ، والرىّ . .

ولم تعطف هذه الآية على ما قبلها ، لأنها جواب عن سؤال ، هو تعقيب على ما ذُكر فى الآيات السابقة ، مما وعد الله سبحانه وتعالى به الأبرار ، من عظيم المثوبة ، وكريم الجزاء — فكانَ مما يُسأل عنه فى هذا المقامَ هو : وبم استحق هؤلاء المكرَمون هذا التكريم ؟ وماذا كان شأنهم فى الحياة الدنيا ؟ فكان الجواب : « يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً » . (٧ : الإنسان)

وجيء بالجواب فى صورة المستقبل « يوفون » ، مع أن السؤال عن حال مَن وقع منهم الوفاء كان فعلا فى الماضى قد وقع منهم ، واستحقوا الجزاء الحسن عليه ـ وذلك للإشارة إلى أن هذا الفعل ليس مقصوراً على جماعة بأعيانهم ، فى زمن معين ، بل هو فعل ممتد الزمن على مدى الحياة الإنسانية فى هذه الدنيا ، فهو فعل متجدد الأزمان ، والأعيان .. وكأنّ الجواب هو هكذا : هذا الجزاء لمن يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً . .

وقوله تعالى : « ويخافون يوماً كان شره مستطيراً » ـ صفة أخرى من صفات هؤلاء الأبرار ، وهى أنهم يخافون لقاء الله يوم القيامة ، ومايغشى الناسَ فى هذا اليوم من أهوال وشدائد ، فهو يوم شره عظيم مستطير .. فمن لم يعمل حسابه ، ويتزود له بالأعمال الصالحة ، احتواه هذا الشر ، واشتمل عليه .. إنه امتحان قاسٍ لايجوز بحره المتلاطم إلاّ من أعد نفسه له ..

قوله تعالى :

* « ويطعمون الطعام على حُبه مسكيناً ويتيما وأسيراً » .

أى ومن صفات هؤلاء الأبرار أنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .. فالطعام الذى عليه قوام الحياة ومِلاكها ، لايؤثرون أنفسهم به ، بل يجعلون لمن يعوزهم هذا الطعام نصيباً منه ، ولو كانوا هم أنفسهم فى أشد الحاجة إليه .

وفى قوله تعالى : « على حبه » ـ إشـــارة إلى أن هذا الطعام ليس شيئاً رخيصاً مبتذَلا ، كشأنه فى أحوال الرخاء ، ووفرة حاجات النفوس منه ، وإنما هو الطعام فى أحوال القحط ، والجدب ، وفى أزمان المجاعات التى تـكون فيها لقمة الطعام أعز مايملك الناس ، وأثمن مايحرصون عليه من مال ومتاع ، حتى إن المرء ليسترخص كل عزيز يملـكه ، فى سبيل شىء منه . . وهذا مايشير إليه

قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (٩٢ : آل عمران) ولهذا استحق هؤلاء المطعِمون لهذا الطعام أن يكونوا فى الأبرار ، لأنهم أنفقوا مما يحبون ، ومما تشتد رغبة النفس إليه ، وحرصها عليه .. والمسكين ، واليتيم ، والأسير ، هم أضعف أعضاء الجسد الاجتماعى ، وهم الذين يتلقون أولَ الضربات وأقساها وأفعلها ، فى أزمان المحل ، والجدب ، فيكونون أولَ حَطَب تشتعل فيه نار المجاعات .

فالمسكين قد أضْرَعه الفقر ، وأذلّه الحرمان ، حتى فى أوقات الرخاء واليسر ، وهو فى حال القحط والمجاعة أشد ضراعة ، وأكثر ذِلة وضعفاً وحرماناً ..

واليتيم ـ والمراد به اليتيم الفقير ـ قد اجتمع عليه اليتم والفقر معاً ، فذهب اليُتم بالجناح الذى كان يظله ، وقُصّ الجناحُ الذى كان يطير به ، على حين ذهب الفقر بكل حبة كانت فى عُشه .

والأسير ،سجين فى قيد الأسر .. إن كان ذا غنًى فهو لاسبيل له إلى ماءلك ، وإن كان قوياً ذا حول وحيلة ، فقد عطّل الأسر كل قواه ، وسلبه كل مالَه من حول وحيلة .

ومثل الأسير كل من انقطعت وسائله المتاحة له ، وحيل بينه وبين مصادر رزقه ، وعمله ، كالمرضَى والمساجين ، وأبناء السبيل ، وذوى العاهات ، ونحوهم .

قوله تعالى :

* « إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكوراً » .

هو حكاية لقول الأبرار ، الذين يطعمون ـ فى ساعة العسرة ـ المسكينَ واليتيمَ والأسير ، فهم إنما يطعمون من يطعمون ابتغاء وجه الله ، لايريدون على ما أطعموا جزاء ، ولا شكوراً ممن أطعموهم .. ولو أنهم فعلوا ذلك لما كان لهم

فضل، ولما استحقوا عند الله أجراً، لأنهم استوفوْا جزاء ما عملوا، ممن صنعوا بهم هذا الصنيع..

وهذا القول من الأبرار ليس بلسان المقال، يواجهون به من أطعموهم، فإنهم لو فعلوا، لكان ذلك من باب المنّ والأذى، الذى يُحبط الأعمال، ويمحق الإحسان ـ وإنما هو بلسان الحال، ومما انطوت عليه ضمائرهم، وانعقدت عليه نيّاتهم..

قال مجاهد، وسعيد بن جبير، رضى الله عنهما: « والله ماقالوا ذلك بألسنتهم، ولكن عَلِمَه الله من قلوبهم، فأثنى به عليهم، ليرغَب فى ذلك راغب »..

وروى عن عائشة رضى الله عنها، أنها كانت إذا بعثت بالصدقة إلى أهل بيت من الفقراء، سألت من بعثته: ماذا قالوا لك؟ فإن ذَكَر أنهم دعَوْا لها، أخذت هى بالدعاء لهم، ليبقىَ لها عملها خالصاً لوجه الله.

قوله تعالى:

* « إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ».

وهذا أيضاً مما يقوله الأبرار المتصدقون، بلسان الحال، لابلسان المقال.. إنهم إنما فعلوا مافعلوا ابتغاء وجه ربهم، وخوفاًمن لقائه يوم القيامة، حيث مُزْدَحم الأهوال، وحيث يكثر العويل، والبكاء، وصرير الأسنان!!

ووصف اليوم بأنه هو العبوس القمطرير، لأنه يطلع على الناس أغبر متجهماً، يرمى بالنذر والمهلكات.. وإنه على صفحة الأيام والليالى تنطبع أحوال الناس، فالحزين يرى الحزن مخيّماً على وجه أيامه ولياليه، والمتوجّع الشاكى، لايسمع من أصداء الزمن إلا توجعاً وأنيناً، على حين يجد الخلىّ المغتبط، الأيامَ

والليالى، تغازله بالبسَمات ، والضحكات .. وهكذا تتلون ساعات الزمن بألوان النفوس ، وتصطبغ بما فيها من مساءات أو مسرات ..

يسمع المحزون هديل الحمام ، وسجع البلابل ، فيقع ذلك على أذنه وقع العويل والنواح ، ويسمع السعيد الهانىء تلك الأصوات ، فتوقّع على سمعه أعذب الألحان ، وأحلى الأنغام . . وإلى هذا المعنى يشير الشاعر إلى وقع هديل الحمام من النفوس ، فيقول :

شجا قلبَ الخلىّ فقيل غنّى وبرّح بالشجىّ فقيل ناحا

والقمطرير : وصف للعبوس بأنه عبوس بالغ الغرابة فى شدته ، متناهٍ فى صفته . .

ولفظ القمطرير ، يحكى بجَرْسه مايشبه هدير الرعد ، وقصف العواصف . فبناؤه اللفظىّ يجسّم أصدق صورة لمعناه . .

قوله تعالى :

* « فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسروراً » .

أى أن هؤلاء الأبرار ، الذين خافوا هذا اليوم ، وأعدوا العدة له ، قد وقاهم الله شره ، ودفع عنهم مكارهه ، وألقى عليهم نضرة النعيم ، وبهجة الرضوان ، ففاضت نفوسهم مسرة وحبوراً .

قوله تعالى :

* « وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً » .

أى وجعل الله سبحانه جزاءهم عنده أن أدخلهم الجنة ، وكساهم فيها خير مايُكسَى به أهل النعيم فى الدنيا ، وهو الحرير ، ولكنه حرير الجنة الذى لايعلم صفته إلا الله تعالى .

وقوله تعالى : « بما صبروا » — إشارة إلى أن جزاءهم هذا الجزاء الطيب

إنما كان بصبرهم فى الدنيا على أعباء التكاليف ، وأداء الواجبات . . فالطاعات والأعمال الصالحة كلها لاتؤدّى إلا بمجاهدة النفس ، ومغالبة الهوى . وفى الحديث : « حُفّت الجنة بالمكاره ، وحُفّت النار بالشهوات »

قوله تعالى :

* « متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمساً ولا زمهريراً »

هى حال من أحوال الأبرار ، وقد أخذوا منازلهم من الجنة ، ولبسوا فيها فاخر الحلل .. فإذا نظر إليهم ناظر هناك ، رآهم متكئين على الأرائك ، قد أخلوا أنفسهم من هموم الدنيا ، وتوقعات المساءات منهـــا ، من مرض ، أو فقر ، أو شيخوخة ، أو موت..

والأرائك : جمع أريكة ، وهى السرير ، مُرْخَى عليه السُّترُ الرقيقة ، رِفهاً وتنعّما . .

وفى الاتكاء على السرر ، مع أن الاتكاء إنما يكون على الوسائد ، على حين أن النوم يكون على السرر — فى هذا إشارة إلى أن هذه السُّرُر هى متكأ لأهل الجنة ، وأنها بمنزلة الوسائد فى الدنيا ، وأن أهل الدنيا إذا اتخذوا السرر ، وجملوها بما جملوها به ، ليكون منامهم عليها ، فإن أهل الجنة يتخذون هـــذه السرر للاتكاء ، والاسترخاء عليها ، لأن أهل الجنة لاينامون . .

وقوله تعالى : « لايرون فيها شمساً ولا زمهريراً » أى أنهم لايرون فى هذه الجنة شمساً ، أى حراً ، لأن الشمس هى مصدر الحرارة ، كما أنهم لايرون زمهريراً ، أى لايحسون برداً ، ولو لم تكن هناك شمس . . بل إن الجنة نور من نور الحق جلّ وعلا ، وجوها سجسج ، لاحرّ فيه ولا برد . .

جوّها سجسج وفيها نسيم كل غصنٍ إلى لقاه يميل

وأين جو من جو ؟ وأين نسيم من نسيم ؟ وأين ما فى دار الفناء مما فى دار البقاء ؟

قوله تعالى :

* « ودانيةً عليهم ظِلالُها وذللتْ قُطوفها تذليلا » .

ودانيةً : معطوف على قوله تعالى : « متكئين » . . وظلالها فاعل لاسم الفاعل : « ودانية » . .

أى أن هذه الجنة قد أرسلت ظلال أشجارها على هؤلاء الأبرار . . أما قطوفها أى ثمارها ، فقد ذللت لهم ، أى انقادت ، وخضعت لمشيئتهم ، بحيث أرادوها وجدوها حاضرة بين أيديهم ، يأخذون منها مايشاءون ، ومنه قوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »

الآيات : (١٥ — ٢٢)

* « وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢) » .

التفسير :

قوله تعالى : « ويطاف عليهم بآنية من فضة . . . » .

أى ومن نعيم الأبرار فى الجنة ، أنه يطاف عليهم فيها بأوان من فضة ، قد ملئت بألوان النعيم ، من مأكول ومشروب ، كما يطاف عليهم بأكواب لم ترها عين فى الحياة الدنيا ، فهى أكواب من فضة ، ولكنها فى شفافية الزجاج ، حتى ليحسبها الرائى قوارير ، أى زجاجا . . والواقع أنها من الفضة ، والفضة مهما رقّت لاتشفّ أبدا ، فلو استطاع صانع أن يصنع من درهم فضة إبريقا ، أو دلوا ، لما شف هذا الإناء عما فى داخله كما يشفّ الإناء من الزجاج . .

وقوله تعالى : « قدروها تقديرا » . . الضمير فى قدروها يعود إلى السقاة الذين يطوفون بتلك الآنية ، وهذه الأكواب . . وأنهم جعلوها بمقادير وأحجام مقدرة بحسب طلب كل طالب . . كما يصح أن يعود هذا الضمير على الشاربين ، وأنهم إذا رغبوا فى الشراب انتصبت فى الحال بين أيديهم تلك الأكواب ، فكانت على قدر مارغبوا .

ومما يساق إلى الأبرار من نعيم ، أنهم يُسقون فى هذه الأكواب — التى أصبحت بالشراب كأسا — يسقون كأسا قد امتزج فيها طعم الزنجبيل بمذاق الخمر . .

والزنجبيل : عروق نبات تمتد فى الأرض ، نقيمه حرّيف الطعم ، يكون أشبه بالتفكهة لشارب الخمر . .

فالضمير فى « فيها » من قوله تعالى : « يسقون فيها كأسا » يعود إلى تلك الأكواب التى هى قوارير من فضة . .

فالأكواب ، وصف لكئوس الشراب وهى فارغة ، والكأس مُسمّاه وهى ملأى بالشراب . .

وقوله تعالى : « عيناً فيها تسمى سلسبيلا » أى ويسقون عيناً فى هذه الكأس تسمّى سلسبيلا . .

فقوله تعالى : « عيناً فيها » عطف بيان لقوله تعالى : « كأساً » . . فالعين هى الكأس ، والكأس هى الأكواب .. يرون هذا المشهد يمرّ بهم فى لحظة خاطفة .. فأداة الشرب ، وهى الكوب ، تبدو أولا ، ثم ـ وفى لحظة لازمنية ـ تُرى كأسا ملأى بالشراب .. ثم ـ وفى لحظة لازمنية أيضا ـ تُرى هذه الكأس عيناً تفجر تفجيراً ، لا ينفد شرابها ، مادامت الكأس على فم الشارب ، فإذا أخذ حاجته منها غاضت هذه العين ، وغاب وجه الساقى القائم على خدمتها ، ليُفسح المكان لألوان أخرى من النعيم . . لاتنتهى أبداً . .

والسلسبيل : الدائم الجريان ، السائغ الطعم ، فيجرى فى الحلق جريان الماء فى منحدر الوادى . وبه سميت العين ، من تسمية الموصوف بصفته . .

وقد جُمعت الأكواب ، حتى إذا امتلأت بالشراب ، أُفردت ، فكان لكل شارب كأسه الذى يشرب منه ، والعين التى تفيض من هذه الكأس . . وهذا من إعجاز القرآن الكريم فى جلال التصوير ، وروعة الأداء ، وصدق العرض . .

ولا تظنن أنا ذهبنا مذهب الشطط ، أو الشطح فى تأويل هذه الآيات . . فما ذلك إلا شعاعة من سناها العلوى ، الذى يملأ الوجود كله . . وإن هذا الترف الذى يبدو من الصورة التى عرضناها لمجلس الشراب ، هو صورة باهتة هزيلة للحقيقة الواقعة التى يعيش فيها أهل هذا المجلس ، فى الجنة . .

قوله تعالى :

* « ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا »

أى أن الذين يطوفون بهذا الشراب ، ويقومون على خدمة الشاربين ، هم ولدان ، أى غلمان فى أول بواكير الشباب ، إذا رآهم راء حسبهم لؤلؤا منثوراً .. صفاء ، ورونقاً ، ونضارة ، وإشراقاً . .

وفى مجىء نظم الآية فى صورة خطاب ـ بعث لأشواق المخاطَب ، ودعوة له إلى مشاهدة هذه الأحوال ، ثم العمل على أخذ مكانه مع هؤلاء الذين ينظر إليهم.

والمخلدون : الذين لا يتحولون عن حالهم تلك أبداً ، ولا يتأثرون بمرور الدهور والأزمان . . وهو من الخلد : أى الثبات ، وعدم التحول ، والانتقال من مكان إلى مكان . . يقال ، أخْلَدَ فلان فى مكانه ، أى لزمه ، وأخلد إلى الراحة أى أقام فى ظلها . . ومنه جنّة الخُلد ، أى الخلود والدوام فيها .

واللؤلؤ المنثور ، هو اللؤلؤ المتناثر الحبات ، الذى لم ينتظمه عقد . . واللؤلؤ المنثور أبهى منظراً ، وأبهر موقعاً فى العين ، منه لو كان منضمًا بعضه إلى بعض .. كالمنثور من الزهر فى الروض ، تنتقل العين فى محاسنه من زهرة إلى زهرة ، على خلاف مالو ضُمَّ بعضه إلى بعض لأخذته العين كله بنظرة واحدة ! !

قوله تعالى :

* « وإذا رأيت ثَمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً »

ثم : أى هناك ، فى الجنة ، وما يلقاه أهلها فيها من نعيم . .

إنك لو كنت هناك — جعلنا الله وإياك من أهلها — لرأيت نعيما لاحدود له ، وملكاً كبيراً قائماً بين يدى أصحاب النعيم .

والمراد بالملك الكبير هنا ، السلطان العظيم الذى هو مظهر من مظاهر الملك ، وسمة من سماته . .

وأى سلطان أعظم من سلطان أهل الجنة ، حيث تَمْضِى إرادتهم فى كل

شيء ، وتنفذ مشيئتهم فى كل شيء ؟ إن خطرات النفوس ، وهمسات الخواطر — أيًّا كانت هذه الخطرات ، وأيًّا كانت هذه الهمسات — تتمثل لهم واقعاً حاضراً بين أيديهم ، قبل أن يكتمل ميلاد الخطرة ، أو تتشكل صورة الهمسة ! ! فمن فى هذه الدنيا بلغ من نفوذ سلطانه معشار هذا السلطان ؟

وتاء الخطاب فى قوله تعالى : « إذا رأيتهم حسبتهم » وفى قوله سبحانه : « وإذا رأيت ثَمّ » — هو لكل مستمع لهذه الآيات ، أو تالٍ لها ، وفى هذا ما يبعث أشواقه إلى الجنة ، ويشدّ عزمه على العمل لها ، ليكون من أهلها ، المنعمين بنعيمها ، لا أن يكون من المشاهدين لهذا النعيم من بعيد ، كما يشهد أصحاب النار أصحابَ الجنة ! !

وهذا عندنا — والله أعلم — أولى من القول بأن هذا الخطاب للنبى صلوات الله وسلامه عليه . .

فالنبى — صلوات الله وسلامه عليه — مخاطب بالقرآن كله ، ثم إنه — صلوات الله وسلامه عليه — قد رأى الجنةَ ونعيمها ، كما رأى أكثر من الجنة ونعيمها ، فى مسراه — صلوات الله وسلامه عليه — وفى عروجه إلى الملأ الأعلى : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » (١٨ : النجم)

قوله تعالى :

* « عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلّوا أساور من فضّة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً »

أى أن هؤلاء الأبرار ، يَطعمون أطيب المطاعم ، ويشربون ألذ وأمرأ المشارب ، وهم فى حال اتكاء واسترواح ، وبين أيديهم اللؤلؤ المنثور من الغلمان يقومون على خدمتهم ، وإذ يفيض عليهم من هذا النعيم ، ما تشرق به وجوههم

من رضاً ورضوان — تراهم وقد ألبسوا أنخر الثياب ، وُحلّوا بأثمن الحلى ، وأكرمها . . فهذا مما يتم به النعيم ، وتـكمل به المسرات . .

والسندس ، ضرب من نسيج الحرير الرقيق ، والإستبرق نسيج أغلظ من نسيج السندس . . أى أن السندس يكون شِعاراً ، والإستبرق يكون دثاراً . .

و « عاليهم » ظرف ، بمعنى فوقهم ، أى تعلوهم ثياب سندس خضر . .

وفى التعبير بلفظ « عاليهم » بدلا من عليهم ـ هو — والله أعلم ـ إشارة إلى أن هذه الملابس لا تلتصق بأجسامهم كما تلتصق ثيابنا على أجسادنا فى هذه الدنيا ، وإنما هى ألوان من النور ، أشبه بألوان الطيف ، تنعكس على هذه الأجسام النورانية .. وهذا يعنى أن الحياة فى الجنة حياة روحية ، لا يخالطها شىء من عالم المادة إلا كان فى شفافية الروح وصفائها ..

وقوله تعالى : « وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » — هو إشارة إلى عِظَم ما يساق إلى هؤلاء الأبرار من نعيم ، حيث يتناولون هذا الشراب الطهور من ربهم ، بعد أن يكونوا قد تذوقوا ألوان النعيم الأخرى .. فكان هذا الشراب من يد البر الرحيم ، هو النشوة الـكبرى ، التى لا يحيط بها وصف ، ولا يعرف كنهها إلا من أكرمه الله بها ..

فما أضل الذين ولّوا وجوههم إلى غير ربهم ، وما أخسر صفقةَ الذين اشتروا الدنيا كلها ، بقطرة من قطرات هذا الرضوان ! !

قوله تعالى :

* « إن هذا كان لـكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً »

هو من تحية الله سبحانه وتعـالى لعباده الأبرار المـكرمين ، وهو يسقيهم

من هذا الشراب الطَّهور . . فهم إذ يتناولون هذا الشراب من ربهم ، يتناولونه محمّلا بهذه التحية المباركة من المنعم المتفضل عليهم إذ يقال لهم هذا جزاء ما عملتم ، وهو ثمرة ما سعيتم ، إن سعيكم كان مشكوراً لكم من ربكم ، وهذه التحية من ربكم هى تحية شكر وحمد لسعيكم .

[الجنة ونعيمها . . بين الروحى والجسدى]

ونريد هنا أن نقف وقفة قصيرة مع تلك الأوصاف التى ذكرها القرآن الكريم لنعيم الجنة ، والتى تبدو كأنها صورة من النعيم الدنيوى ، بما فيه من ألوان المآكل ، والمشارب ، والدور ، والقصور ، والملابس ، والحلىّ ، والأوانى والأمتعة ، والجوارى والغلمان ، والعيون والأنهار ، والأشجار والثمار ، إلى غير ذلك مما اعتاد الناس فى الدنيا أن يروْه ، أو يعيشوا فيه . .

وهذا مما دَعا بعض الأدعياء أو الأغبياء إلى أن القول بأن هذه الجنة مما يحلم به المحرومون ، ومما يغذّى به الدين هذه الأحلام الجائعة !

ولنسلم ــ جدلا ــ من أول الأمر بأن نعيم الجنة هو من هذا النعيم الذى يعرفه الناس فى الدنيا ، ويجدّون فى طلبه ، ويَشقَوْن فى تحصيله ، ثم يفوتهم كله ، أو الكثير منه ــ فأى قصور يلحق هذا النعيم ، وأى مطلب يعوز الذين ينزلون منازل هذه الجنة فيجدون كل ما كانت تشتهى أنفسهم فى الدنيا حاضراً بين أيديهم ، لا يتكلفون له جهداً ، ولا يُريقون من أجله دما أو عرقا ؟ أهذا نعيم تزهد فيه النفوس ؟ وأهذا مقام يبغى إنسان التحولَ عنه ؟ ولم إذن استبدت الرغبة فى هذا النعيم بنفوس الناس فى الدنيا ؟ ولم أفنوْا أعمارهم فى طلبه ؟ ولم أراقوا دماءهم فى سبيله ؟

فلتكن الجنة عالماً ماديًّا ، ولتكن كلها سُوقاً حُشدت فيه كل ما فى هذه الدنيا من متع ولذاذات ومسرات ومباهج ؟ أليس هذا العالم هو حلم

الإنسانية الذى لم ولن يتحقق لها على هذه الأرض ؟ فماذا لو وجدت عالَماً آخر يتحقق لها فيه هذا الحلم البعيد المنال ؟ وأى إنسان يزهد فى هذا النعيم إذا أُتيح له ، ووجد السبيل إليه ؟ ولا تمدن عينيك هنا إلى أولئك الذين يقال إنهم زهدوا فى نعيم الحياة المادية من الفلاسفة والحكماء ، والمتصوفة ، وغيرهم ممن عفّوا ، أو عافوا متعة الجسد ، وراحوا يعيشون على قوت أرواحهم ، وعرائس أفكارهم . . فهؤلاء جميعاً — إن صدقت أحوالهم — إنما أقاموا لأنفسهم عالماً من الوهم ، والخيال ، تتراقص فيه طيوف رؤاهم وأحلامهم ، بكل ما قصرت عنه أيديهم من متع مادية استبدّ بها غيرهم . . ومن زهد منهم فى تلك المتع ، وقد أتيحت له — فإنما لأنه استقصر حياته معها ، أو توقع فرارها من يده ! ولو كان هذا النعيم دائماً ، وكان لمن يعيش فيه ضمانٌ بالخلود معه ، لكان الحكماء ، والفلاسفة ، والمتصوفة أكثرَ الناس طلباً ، وازدحاماً على مورده . .

ومع هذا ، فإن ما جاء فى القرآن الكريم من أوصاف الجنة ونعيمها ، ليس هو كل ما فيها من نعيم ، وإنما ذلك هو معرض من معارضها ، وإشارة دالة على ما وراء هذا النعيم مما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ولا خطر على قلب بشر . . إنه هو الجزء القليل الذى يمكن أن يقع فى مفهوم الناس ، وهم فى هذا العالم الدنيوى ، حتى يكونَ للجنة التى يوعدون بها تصور ، وحتى يكون لدعوتهم إليها استجابة . . ولو جاءتهم الجنة غير مألوفة لهم ، لما وقعت من أنفسهم موقعاً ، ولما وجدت لها فى مشاعرهم ووجداناتهم مكاناً . .

ولا يقال — كما قيل فعلا — إن هذا النعيم الأخروى ، هو نعيم جسدى ، يشبع أحلام الجوعَى والمحرومين ، ويرضى مطالب البيئات الفقيرة

الجدبة . . وهذا بدوره يعنى أن الدِّين الذى يَعِدُ أهلَه بمثل تلك الجنة فى الآخرة ، إنما هو دين على مستوى هذه الحياة البدائية فى الصحراء ، التى لاتبعد الحياة فيها كثيراً عن حياة الغابة ، وأن الدين ليس إلا أكذوبة خادعة تستهوى الجوعَى والمحرومين بهذه الموائد الممدودة لهم فى عالم الرؤى والأحلام .

فهذا القول ، إن كان من جاهل ، فهو جهل يفضح أهلَه ويخزيهم ، وإن كان من عالم فهو زور وبهتان ، يتخرص به المتخرصون فى غير خجل أو حياء ، ممن يكيدون للإسلام ، من مستشرقى أوربا وأمريكا : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » (٨ : الصف) .

إن نعيم الجنة المادى ، وما جاء فى القرآن مما أعد الله سبحانه وتعالى منه لأهلها ، من حور عين ، وولدان مخلدين ، ولحم طير مما يشتهون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ومن أنهار من ماء ولبن ، وخمر ، وعسل — إن هذا — كما قلنا — هو من مطلوب الحياة الإنسانية ، وبه قوام حياة الإنسان ، وسعادته ، مادام الإنسان إنسانا بشراً ، لم يتحول إلى عالم الملائكة ، ولم يصبح روحا هائماً لاذاتية له . .

وإن الإنسان ، هو الإنسان ، فى الدنيا ، أو الآخرة . . هذا ما يجب القطع به . . إذ لابد أن يجد الإنسان ذاتَه ووجوده الإنسانى كله فى الآخرة ، وإلا لكان مخلوقا غريباً ، ليس بينه وبين الإنسان الذى عاش فى هذه الدنيا من صلة ، ثم لكان حسابه وجزاؤه فى الآخرة ليس حساباً ، ولا جزاء لهذا الإنسان الذى كان فى الدنيا . .

وإنه لكى يظل الإنسان إنساناً ، وليلاقىَ حسابَه وجزاءه ، الحسن أو السيء ، ويجد طعمه الحلو أو المر — ينبغى أن يكون على طبيعته ، فى جميع أحواله ،

وكل حيواته .. الدنيوية ، والأخروية .. إنه ينبغى أن تظل هذه « الذاتية » مع الإنسان ، وأن تصحبه تلك الشخصية المشخصة له فى عالم الدنيا والآخرة جميعاً . .

أما أن تتفكك هذه الشخصية ، أو تتحلّ ، أو تخرج عن طبيعتها جملة ، فإنها لن تكون ذلك الإنسان ، الذى عُرف فى وقت ما ، أوفى حال ما ، أنه فلان ؟ ابن فلان ! . .

نعم ، قد تعلو ذاتية الإنسان وتصفو مشاعره وعواطفه ، وقد تنزل ، وتسفّ ، وتتكدر . . ولكن ذلك لا يخرج بالإنسان — فى أى حال من الأحوال — عن دائرة الإنسانية — ولا يُلحقه بعالم الملائكة أو الشياطين . .

إن الإنسان ليتنقل فى أطوار شتى . . من الولادة إلى الطفولة ، والصبا والشباب ، والشيخوخة . .

وهو فى كل طور من أطوار حياته ، هو تلك « الذات » أو « الشخصية » التى لا يجد فيها صاحبها أن طفولته أو صباه أو شبابه أو شيخوخته — أوصالٌ مقطعة من « ذاته » .. بل إنه هو هو ، فى كل طور من هذه الأطوار ، وإن تغيرت بعض ملامحه ، وزادت معارفه ، واتسعت آفاقه ..وشتان ما بين الطفولة والشباب ، وشتان بين « سقراط » الطفل وسقراط الفيلسوف .. ولكنه هو هو سقراط ، طفلا ، وصبياً ، وشاباً ، وشيخاً ! ! .

ثم مالنا ندفع مطاعن الأوربيين عن شريعة الإسلام ، وما جاء فى تلك الشريعة من أوصاف حسية لنعيم الجنة — مالنا ندفع هذا ، والحال أنهم هم مطالبون أن يدفعوا هذه المطاعن ذاتها عن المسيحية ، إن كانوا يؤمنون بها ،

أو يدفعوا بها إليها إن كانوا غير مؤمنين بها .. فإن المسيحية ـ على الرغم من أنها تلبس لباس الروحانية ـ حين تحدثت عن النعيم الذى يلقاه أهل الجنة — نجدها تعرض صوراً حسية من هذا النعيم ، مثل تلك الصور التى جاء بها القرآن ، سواء بسواء ! .

فقد ذكر المسيح — عليه السلام — لتلاميذه ، أنهم سيشربون معه من ابنة العنب فى ملكوت السموات : يقول لهم : « إنى لست شارباً من ابنة هذه الكرمة حتى أشربها معكم فى ملكوت السموات[١] » .

فأخبر بأن فى الملكوت شراباً ، وشراباً من خمر ، وحيث يكون شراب ، لا يُستنكر المأكل . . فيقول السيد المسيح : « ستأكلون وتشربون على مائدة أبى[٢] » .

ثم هناك إلى جانب الأكل والشرب ، غرف لأهل الجنة . . يقول السيد المسيح : « ما أكثر الغرف والمساكن عند أبى[٣] » .

فالقرآن إذن لم يكن بِدعاً بين الكتب السماوية ، فيما جاء فيه عن النعيم الحسىّ فى الجنة .. فلمَ تُتهم شريعة الإسلام وحدها بأنها شريعة الجسد ، وبأنها الشريعة التى تغرى أتباعها بهذه الألوان التى يسيل لها لعابهم ، وتستيقظ لها حيوانيتهم ؟ .

إنها تهمة ظالمة باطلة . . !

---

(١) إنجيل مق (٢٦ : ٢٩) .

(٢) إنجيل مق : (٢٢ : ٣) .

(٣) إنجيل يوحنا (١٤ : ٢) .

أما أنها ظالمة ، فلأنها تتجه إلى الإسلام وحده ، دون الشرائع والديانات التي تقول بما يقول به الإسلام في وصف هذا النعيم . .

وأما أنها باطلة ، فلأنها تقوم على فهم خاطىء للإنسان ، وللوحدة الذاتية، التي ينبغي أن يُحتفظ له بها في الحياة الآخرة . . تلك الوحدة التي تجمع الروح والجسد معاً . . فلا يكون الإنسان إنساناً إلا بجسد وروح ، ولا يعرف الإنسان السعادة أو الشقاء إلا إذا كان لكلٍّ من الجسد والروح نصيب مما يسعد به الناس أو يشقون !.

إن أهل الجنة يحملون معهم نفوساً بشريّة ، لها رغباتها ، ونوازعها ، ومن شأن نعيم الجنة ، الذي يحقق النعيم الكامل — من شأنه أن يُشبع — في غير ملل — هذه الرغبات وتلك النوازع ، وإلا كان نعيما غير كامل . .

والله سبحانه وتعالى يقول : « ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدّعون » (٣١ : فصلت) .

وعلى هذا فإن لنا أن نقول إن نعيم أهل الجنة ـ هذا النعيم الحسى ، الذي جاء في القرآن ، من مطاعم ، ومشارب ، وملابس ، ومساكن — هو نعيم مطلوب للإنسان ، لا يتم نعيمه إلا إذا أخذ حظه منه ، وهو نعيم خالص من الشوائب ، التي تَعلَق بكل نعيم دنيوى . .

ثم إن وراء هذا النعيم الحسى ، نعيما روحيًّا . . فهناك مسرات الروح التي لا حدود لها . . وإنها لمسرات لا يمكن أن توصف بألفاظ وعبارات ، ولا يمكن أن تُضبط لها صورة ،وغاية ما يمكن أن يقال عنها إنها بهجة النفس ولذة الروح . .

أما مادة تلك اللذة ، وهذه البهجة ، فلا يمكن أن توصف بألفاظنا ، أو تدرك بعقولنا المحدودة القاصرة . .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى بعض دلالات هذا النعيم الروحى ، ولكنه لم يكشف عن مادة هذا النعيم وعناصره . . فهناك نَضْرة النعيم التى تُسفر بها وجوه أهل الجنة : « تَعرف فى وجوههم نضرة النعيم » (٢٤ : المطففين) .

وهناك الأمن والاطمئنان من كل ما يزعج النفس أو يقلقها من حاضر أو مستقبل : « ادخلوا الجنة . . لا خوف عليكُمْ ولا أنتم تحزنون » (٤٩ : الأعراف)

ثم أليس الخلاص من جهنم ، وأليست السلامة منها ، مصدرَ نعيم نفسى لا ينفد أبداً ؟ إنها لسعادة غامرة ، وهناءة كاملة ، أن يرى أهلُ الجنة عذابَ السعير ، وهم فى مأمن من هذا العذاب . . « فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » (١٨٥ : آل عمران)

ومن أجل هذا كان من حمد أهل الجنة لله سبحانه وتعالى أن أنقذهم من عذاب النار ، هو ما ذكره الله سبحانه من قولهم « وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذى أحلنا دار المقامة من فضله ، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب » (٣٥ : فاطر)

أليس هذا نعيما للنفس ، وروْحاً للروح . . يتجدد فى كل نظرة ينظر بها أصحاب الجنة إلى أصحاب الجحيم ؟

ثم ماذا يطلب الإنسان من النعيم ، غيرَ أن يجد فيه السعادة المطلقة . .

السعادة التى لا يدخل عليها ما يقطعها ، أو يُنقص منها ، أو يفسد طعمها ؟ إن سعادة الجنة ، هى سعادة دائمة خالدة ، لا تنفصل عن أهلها ، ولا ينفصلون عنها ، وذلك هو نعيم أهل الجنة ، سواء أكان ماديًّا أو معنويًّا ، جسديًّا أو روحيًّا .. « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ، خالدين فيها لا يبغون عنها حِوَلا » (١٠٧ - ١٠٨ : الكهف) .

وحسب هذا النعيم أنه غير زائل عن أهله ، وحسب المنعمين به أن يقيموا عليه ، ولا يبغون عنه حولا .

وأعجبُ ما فى هذه القضية ، أن يجىء الإنكار على الإسلام لهذا النعيم الجسدى الذى يَعِدُ به أتباعه فى الآخرة - من عجب أن يجىء هذا الإنكار من أوربا وأمريكا ، التى فنيت شعوبها فناء مطلقا فى عالم المادة ، حتى لقد كادت تتغير الطبيعة الإنسانية فى هذه المجتمعات ، وتختفى المشاعر والعواطف .. حتى بين الآباء والأبناء .. وإنه لو كان لتلك الشعوب أن تحلُم بجنة فى الآخرة ، لما كانت جنة أحلامهم تلك إلا أنهاراً تجرى من خمر ، وإلا حانات تعج بالراقصين والراقصات ، وإلا موائد ممدودة للطعام والشراب ، والقمار .. فإن هذا الذى بلغته شعوب أوربا وأمريكا من تقدم فى العلوم والفنون ، وإنما كان وسيلة إلى تحقيق هذا النعيم المادىّ الذى إن فات أحدَهم حظه منه ، ولم يستطع الوصول إليه ، ضاقت الدنيا فى عينيه ، واستولى عليه الكرب والهم .. ثم لم يكن له بدّ من أن يركب أحد طريقين : فإما أن يلبس ثوب الوجودية ، ويتحول إلى حيوان يعيش فى غابة ، فلا يغير من ثيابه ، ولا يصلح من هندامه ، ولا يقص شعراً ولا ظفراً ، ولا يغطى جسداً ولا يستر عورة .. وهو بهذا يخرج عن عالم الناس ، ومن ثَمّ فلا يعنيه أن يملك مثل ما يملكون ، أو يتمتع مثل ما يتمتعون .. إن له متعته الخاصة التى هى على غير ما يتمتع به الناس .. وهل يلذ للذئاب مثلا

أن نجلس إلى مائدة ، وأن نتناول مما يطعم منه الناس . ؟

أما من لم يجد له مكاناً فى هذا العالم فثمة طريق آخر . . طريق المنتحرين . . وليس ثمة طريق ثالث .

الآيات : (٢٣ — ٣١)

* « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً (٢٣) فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢٦) إِنَّ هَٰؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً (٢٧) نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨) إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١) »

التفسير :

بعد أن عرضت الآيات السابقة وجود الإنسان ، ولفتته إلى أصل خلقه ، وأين كان ؟ وكيف بدأ ؟ وإلى أين صار ؟ وبعد أن لقيت هذا الإنسان بما سيلقى فى الآخرة عن عذاب ونكال ، إذا هو كفر بالله ، وجحد حق خالقه عليه ، وما سيلقى من نعيم ورضوان ، إذا هو عرف ربه ، وذكر حقه عليه ، وخاف مقامه بين يديه ــ بعد هذا العرض ، عادت آيات الله ، تدعو النبى ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ إلى حضرة ربه سبحانه وتعالى ، لتُسمعه حديثَه إليه ، فيلقاه الحق سبحانه وتعالى بقوله :

* « إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا » .

أى أن هذا القرآن الذى تتلوه على الناس ، هو منزل عليك من عند ربك ، وليس رسولُ الوحى جبريل ـ عليه السلام ـ إلا رسولا من عند الله إليك به .

وفى قوله تعالى : « نزلنا عليك القرآن تنزيلا » ـ إشارة إلى أن هذا القرآن ينزل على النبىّ آياتٍ آياتٍ لاجملةً واحدة ، كما يفيد ذلك لفظ الفعل « نزل » الذى يفيد وقوع الفعل حالا بعد حال ، لامرة واحدة .

قوله تعالى :

* « فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفوراً » .

والآثم : من غلب عليه الاستغراق فى معاطاة الآثام ، من أهل الكفر والضلال . .

والكفور : من استغلظ كفره ، ولج به الضلال والعناد ، فلا يرى حقًّا ، ولا يذعن لحق إذا هو رآه . . وكل من الآثم والكفور ، آثم وكافر معاً ، ولكن منهم من غَلَب إثمه على كفره ، ومنهم من غلب كفره على إثمه . .

والفاء فى قوله تعالى : « فاصبر » فاء السببية ، أى وبسبب أنا أنزلنا عليك القرآن تنزيلا ، ، اصبر لحكم ربك .. أى اصبر على امتداد نزول القرآن عليك ، وما دام القرآن لم يختم فإن مسيرتك لم تنته وزادك فى هذه المسيرة ، هو الصبر .. فاصبر . .

وحكم الله سبحانه وتعالى ، هو مايقضى به جل شأنه بين النبى وقومه . .

واللام فى « لحكم ربك » هى اللام الحينية ، أى التى بمعنى حين ، أى إلى حين حكم ربك .

وقوله تعالى : « ولا تُطع منهم آثما أو كفوراً » نهى النبى عن أن يستمع

إلى مايدعوه إليه المشركون من قومه ، من الكفّ عن دعوتهم ، وإنذارهم بآيات الله التي يتلوها عليهم ، أو أن يصغى إلى مايعرضونه عليه من دنياهم التى يلوحون له بها ..

وفى هذا إعلام للمشركين بأن النبيّ مأمور من ربه بالصبر على أذاهم ، وبألا يستمع إلى مايدعونه إليه ، وهم يعلمون أن النبي لايخالف أمر ربه .. ولهذا كان لهذا الأمر الموجه إلى النبي من ربه ، وقعٌ على نفوس المشركين ، وتيئيس لهم مما يطمعون فيه من النبي ..

وقوله تعالى :

* « واذكر اسم ربك بكرةً وأصيلا » .

هو معطوف على قوله تعالى : « فاصبر لحكم ربك .. »

أى ومما يعينك على الصبر على ماتكره من قومك ، وما يقيمك بالمقام المطمئن الذى تثبت به قدمك على طريق الدعوة التى تدعو بها ــ هو أن تذكر اسم ربك ، وتستحضر جلاله ، وعظمته ، وعندئذ تجد كل هؤلاء المتعاظمين ، والمتعالين ، نِمالا تدبّ على الأرض ، أو ذباباً يجتمع على قَذَر !

والبكرة : أول النهار ، والأصيل آخره ..

فهذا عمل النبيّ بالنهار ، إلى جانب دعوته التى يقوم بها فى الناس .. إنه ذكر لاسم الله ، فى مفتتح نهاره ، ومختتمه .

فإذا كان الليل ، خلا إلى ربه ، وأطال ذكره ، وتسبيحه ، وسجوده ، وهذا ماجاء الأمر به بعد ذلك فى قوله تعالى :

* « ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا » .

« ومن الليل » أى ومن بعض الليل لا كلّه . . فحرف الجر « من » للتبعيض . .

فهنا أمران : أمر بالسجود ، لله بعضاً من الليل . . وأمر بالتسبيح له تسبيحاً طويلا ممتداً ، ماوسع الجهد . . وهذا على معنى أن « طويلا » صفة لمصدر محذوف دل عليه الفعل « سبحه » أى سبحه تسبيحا طويلا فى وقت الليل . . وهذا المعنى الذى ذهبنا إليه ، هو أولى عندنا مما ذهب إليه المفسرون من أن طويلا صفة لقوله تعالى : « ليلا » . . فإن وصف الليل هنا بالطول لامعنى له . . فالليل هو الليل ، طويلا كان أم قصيراً . . ثم إن « من » التى تفيد التبعيض لاتجعل لوصف الليل بالطول معنى . .

وقوله تعـالى :

* « إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا » .

الإشارة هنا بهؤلاء ، هى إلى المشركين الموصوفين بالإثم والـكفر . .

إنهم يحبون العاجلة ، أى الدنيا ، ويستهلـكون وجودهم كله فيها ، ولا يعطون شيئاً للآخرة ، بل يطرحونها وراء ظهورهم ، وهى لاحقة بهم ، لاتدعهم حتى تمسك بهم ، ويطلع عليهم منها يوم ثقيل وقعه ، بمـا يلقون فيه من كرب وبلاء . .

قوله تعالى :

* « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلا » .

الأسر : القوّة ، والمراد به ما أودع الله سبحانه وتعالى فى الإنسان من قوّى جسدية . وعقلية ، وروحية ، ونفسية . .

فهذه القوى التى أودعها الخالق جلّ وعلا فى كيان الانسان ، هى قوى

مجتمعة ، متساندة ، متآلفة ، يعمل بعضها مع بعض كأنها قوة واحدة . .

وفى هذا بيان لما لله سبحانه وتعالى من فضل وإحسان ، على الإنسان ، الذى خلقه ، فأحسن خلقه ، وأقامه على هذه الصورة التى علا بها على أفق الحيوان ، فصار بشراً سوياً ، وأصبح خليفة لله على هذا الكوكب الأرضى .

وقوله تعالى : «وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلا» .. إشارة إلى قدرة الله القادرة التى لا يفلت من سلطانها مخلوق ، والتى تخلق ماتشاء وتختار ، دون معوّق ، أو معقب . .

وهؤلاء الآدميون الذين خلقهم الله سبحانه على تلك الصورة من الإحكام والإتقان ، لا يمسكها إلا الله ، ولا يحفظ عليها وجودها إلا هو ، فإذا أراد سبحانه أن يبدّل بهؤلاء الآدميين غيرهم نفذت إرادته ومضت مشيئته . . « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم » (٣٨ : محمد) .

وفى جمع الأمثال : إشارة إلى أن قدرة الله سبحانه لا حدود لها ، وأنه قادر على أن يقيم مكان هؤلاء الآدميين أمثالا ، لا مِثلا واحداً . .

قوله تعالى :

* « إنّ هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا »

أى إن هذه الآيات ، وما ضُمّت عليه ، من علم ، وحكمة ، هى تذكرة وموعظة ، وهى دليل هاد ، وقائد أمين ، لمن شاء أن يتعرف طريقه إلى الله ، ويسلك مسالك الهدى والرّشد . وإنها لا تحمل قوة مادية قاهرة ملزمة تسوق الناس سوقا إلى الله ، وإنما هى إشارات مضيئة إلى طريق الله . فمن شاء أقام وجهه على هذا الطريق ، ومن شاء تنكّبه ، وأدار ظهره له . .

قوله تعالى :

* « وما تشاءون إلا أن يشاء الله . . إن الله كان عليما حكيما » .

هو تعقيب على الآية السابقة ، يراد به الاحتراس من أن تفهم المشيئة الإنسانية على إطلاقها ،فهذه المشيئة مقيدة بمشيئة الله ، دائرة فى فلكها . . فمن كانت مشيئة الله سبحانه وتعالى فيه أن يؤمن ، جرَت مشيئته وراء مشيئة الله فكان من المؤمنين ، ومن كانت مشيئة الله سبحانه وتعالى فيه أن يكفر ، جرت مشيئته وراء مشيئة الله ، وكان من الكافرين . .

ولِمَ كانت مشيئة الله سبحانه وتعالى مختلفة فى الناس ، ولم تكن مشيئة واحدة ؟ . .

إن ذلك تقييد لمشيئة الله سبحانه أولا ، ثم هو إلزام لله سبحانه ثانياً ، ثم هو إفساد لصورة الوجود ثالثاً . . إذ أن من مقتضى وحدة المشيئة فى المخلوقات أن يكون الوجود كله لوناً واحداً ، لا أرض ولا سماء ، ولا نجوم ولا كواكب ولا جماد ولا نبات ولا حيوان . . إلى غير ذلك مما ضمّ عليه هذا الوجود من مخلوقات ، إذ أن تعدد هذه المخلوقات ، واختلافها ، صوراً ، وأشكالا ، وألوانا وأمكنة وأزماناً ، هو من عمل مشيئة الله سبحانه فى كل مخلوق خَلَقَه . . إنها مشيئة واحدة ، يقع على كل مخلوق حظه منها ، وذلك بتقدير العليم الحكيم.

« إن الله كان عليما حكيما » يفعل ما يشاء عن علم محيط بكل شىء ، وعن حكمة ، مقدّرة لكل شىء . .

قوله تعالى :

* « يدخل من يشاء فى رحمته ... والظالمين أعد لهم عذابا أليما » .

ومن مشيئته سبحانه ، أنه يدخل من يشاء فى رحمته . . وأعد للظالمين عذابا أليما . .

والمراد بالرحمة هنا الجنة ، لأن الرحمة هى السبب الموصل للجنة ا وأنه بغير رحمة الله لاسبيل لأحد إلى الجنة .. ولهذا يقول الرسول الكريم : « لا يدخل أحدكم الجنة بعمله » .. قيل ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله « برحمته » ..

ومن أسرار كتاب الله الكريم أن كان مفتتحه: « بسم الله الرحمن الرحيم » وكان مفتتح كل سورة منه « بسم الله الرحمن الرحيم » .. وكان مفتتح كل تلاوة لآياته الاستعاذة من الشيطان الرجيم ، باسم الله الرحمن الرحيم ..

* * *

٧٧ - سورة المرسلات

نزولها: مكية .. نزلت بعد سورة الهمزة .

عدد آياتها: خمسون آية ..

عدد كلماتها: مائة وإحدى وثمانون كلمة .

عدد حروفها: ثمانمائة وستة عشر حرفا .

مناسبتها لما قبلها

كان ختام سورة « الإنسان » السابقة على هذه السورة ، هو قوله تعالى: « يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعدّ لهم عذابا » وفى هذا وعْد المؤمنين ووعيد الكافرين .. وهذا الوعد ، وذلك الوعيد إنما يتحققان يوم القيامة ، فكان لابد من إبراز هذا اليوم ، والتأكيد على وقوعه ، وذلك مما يزيد فى إيمان المؤمنين ، ويرفع الحجب الكثيفة عن عيون كثير من الذين لا يؤمنون .. وهذا ما جاءت هذه السورة « المرسلات » مقررة ، ومؤكدة له .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٧)

* « وَٱلْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَٱلْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَٱلنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَٱلْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَٱلْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) »

التفسير :

قوله تعالى :

« والمُرسلات عُرفًا » . .

ما المرسلات ؟

اختلف المفسرون فى معنى المرسلات ، وتعددت مقولاتهم فيها ، وكثرت الروايات والأسانيد التى تضاف إلى صحابة رسول الله فى هذا المقام . . وهذا الاختلاف الشديد بين تلك المقولات ، مما يضعف هذه الروايات ، بل ويكذب نسبتها إلى من نُسبت ادعاء إليهم . . إذ لو كانت صحيحة لما كانت إلا قولا واحداً . . لأن صحابة رسول الله لم يقولوا فى تأويل كلام الله برأيهم ، بل كل ماصحت نسبته إليهم من أقوال فى معنى حرف ، أو كلمة ، أو آية ، هو مما علموه من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . . وليس للرسول الكريم إلا قول واحد . فى المقام الواحد . . « وما ينطق عن الهوى » (٣ : النجم) .

وعلى هذا . فإن ما نقوله أو يقوله غيرنا فى تفسير كلمة « المرسلات » هو اجتهاد فى تحرى أقرب المفاهيم التى يطمئن إليها كل مفسر ، حسب ما أداه

إليه اجتهاده .. وهنا لا بأس أن يختلف المفسرون ، إذ ليس قول أحدهم حجة على الآخرين .. وذلك على خلاف ما إذا نسب التفسير إلى أحد من صحابة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فإنه إذا ثبتت نسبته إليه كان حجة عليها .

والرأى الذى نرتضيه من آراء المفسرين فى تفسير كلمة « المرسلات » هو القول بأنها الرياح ، فقد جاءت كلمة « العاصفات » بعدها قرينة قوية على أنهما من مورد واحد ، وإن اختلفا قوة وضعفاً ..

فقد جاء فى القرآن الكريم وصف الريح بهذا الوصف ، فقال تعالى : « ولسليمان الريح عاصفة » (٨١ : الأنبياء) .. والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، ويشهد بعضه لبعض ..

وهناك قرينة أخرى ، وهى أن القرآن الكريم قد أكثر من لفظ أرسل ، ويرسل عند الحديث عن الرياح ، كما يقول سبحانه : « وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته » (٥٧ : الأعراف) وقوله سبحانه : « وأرسلنا الرياح لواقح » (٢٢ : الحجر) وقوله تبارك اسمه : « فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم » (٦٩ : الإسراء) ..

فقوله تعالى : « والمرسلات عرفاً » هو قسم بالرياح المرسلة من عند الله ، فى هبوب دائم ، على الوجه المعروف للناس من الرياح ..

وقوله تعالى :

* « فالعاصفات عصفاً » ..

هو حال من أحوال الرياح ، حين يشتدّ هبوبها ، فتتحول إلى عواصف ..

وقوله تعالى :

* « والناشرات نشراً » ..

هى الرياح فى حال أخرى من أحوالها ، ومع أثرٍ من آثارها ، وهى حين تنشر السحب فى جو السماء ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كِسَفاً » (٤٨ : الروم) . .

وقوله تعالى :

• « فالفارقات فرقا » ..

هى الريح أيضاً وأفعالها بالسحب .. فهى بعد أن تبسطها فى السماء ، تسوقها أمامها ، وتذهب بها إلى مواقع مختلفة متفرقة من الأرض ، بعضها شرقاً ، أو غرباً ، وبعضها شمالا أو جنوباً .. كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من بَرَدٍ فيصيب به من يشاء ويصرفه عن يشاء » (٤٣ : النور) ..

وقوله تعالى :

• « فالملقيات ذكراً » ..

هى السحب الممطرة ، التى تلقى بما حملت من ماء ، على المواقع التى ساقها الله سبحانه وتعالى إليها ..

ويسمى المطر « ذكراً » لأنه مما يذكر بالله سبحانه وتعالى ، ويحدّث عن واسع فضله ، وعظيم رحمته ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وهو الذى

ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته » (٤٨ : الشورى) . وقوله سبحانه : « وإن كانوا من قبل أن يُنزَّل عليه من قبله لمبلسين »(٤٩ : الروم) فأنظار الناس وآمالهم متعلقة بالمطر ، فى حال إمساكه ،أو حال نزوله ، لأن فيه حياتهم ، وحياة حيوانهم وزروعهم . .

وقوله تعالى :

* « عذراً أو نذراً » .

هو بيان لقوله تعالى « ذكراً » .. فهذا الذكر الذى يحدثه المطر ، إما أن يكون إعذاراً ،أو إنذاراً . . فهو إعذار للمؤمنين الذين غفلوا عن ذكر الله سبحانه وتعالى ، وهو إنذار للكافرين الذين لا يذكرون الله أصلا..

وقوله تعالى :

• « إن ما توعدون لواقع » . .

هو جواب هذا القسم الذى أقسم الله سبحانه وتعالى به فى مفتتح السورة. . والذى يوعَد به الناس ، هو يوم القيامة ، وما يلقون فيه من جزاء .

ومن إعجاز القرآن الكريم هنا أنه فرق بين الرياح فى مهابّها على الأرض ، وبين الرياح فى مدارها مع السحاب ، فى طيّه ونشره ، وفى سوْقه وتوجيه مساره ..

فيقسم سبحانه وتعالى أولا بالرياح على إطلاقها وعمومها ، : « والمرسلات عرفاً » ثم يعطف على هذه الرياح حالاً من أحوالها العارضة ، وهى العواصف : « فالعاصفات عصفا » . .

ثم يقسم سبحانه وتعالى قسما آخر بالرياح ، وهى تنشىء السحاب وتنشره : « والناشرات نشراً » ويعطف على هذه الرياح — صورَ مواليدها التى تولّدت عنها ، من سحب متفرقة ، ومن غيوث هاطلة : « فالفارقات فرقاً ، فالملقيات ذكراً » . .

وفى القَسَم بالرياح وآثارها ، إلفات إلى قدرة الله سبحانه وتعالى ، وإلى أن تلك القدرة التى سخرت هذه الرياح ، وأودعت فيها ما أودعت من أرواح سارية ، يستمد منها الأحياء حياتهم ، ويلتقطون أنفاس الحياة منها ، ثم لا تقف عند هذا بل تسوق إليهم مادة الحياة وقوامها، من هذا الماء الذى يتحلّب من السحاب المتولد عنها ، والمنشأ على يديها — هذه القدرة لا يعجزها أن تبعث الموتى من قبورهم ، وأن تحشرهم يوم القيامة للحساب والجزاء : « إنما توعدون لصادق » . . فمن كذب بهذا الوعد استبعاداً له ، وإعجازاً لأية قدرة أن تحققه — جاءه من عالم الرياح شهود عدول ، يُدينونه ويفضحون مدعياته الباطلة . .

الآيات : (٨ — ١٥)

* « فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ (١٣) وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥) »

التفسير :

قوله تعالى :فإذا النجوم طُمِسَت » .

وإذ تَقَرَّرأن يوم الفصل آت لاريب فيه ، وأن ما يوعد الناس به فى هذا اليوم واقع لا محالة — إذ تقرر هذا جاءت الآيات لتعرض صوراً من مشاهد هذا اليوم ، وما يقوم بين يديه من إرهاصات ..

فمن إرهاصات هذا اليوم التى تتقدم وقوعَه ، أن تُطمس النجوم ، أو يذهب ضوءها ، فلا تراها العيون على ما عهدتها عليه من قبل فى هذه الدنيا . . وأن تنشق السماء ، فلا تُرى سقفاً مُصمتا مغلقا كما تبدو للناظرين اليوم : « وفتحت السماء فكانت أبوابا » . . وأن تضيع معالم الجبال ، فلا يُرى لها على وجه الأرض ظل : « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً ، فيذرها قاعا صفصفاً ، لاترى فيها عوجا ولا أمتا » . (١٠٥ — ١٠٧ : طه)

وقد أشرنا فى غير موضع من تفسيرنا : « التفسير القرآنى للقرآن » [1] — إلى أن تغير هذه المعالم الكونية يوم القيامة — إنما هو نتيجة لتغير موقف الإنسان منها ، ومايطرأ على حواسه المتلقية لها من تغير .. أما هذه المعالم فى ذاتها فهى باقية على ماهى عليه . . ومن إرهاصات يوم القيامة أن تؤقت الرسل ، أى يؤجل بعثُها إلى الناس ، فلا يبعث فيهم رسول . . وهذا يعنى أننا منذ بعثة الرسول محمد — صلوات الله وسلامه عليه — ونحن على مشارف هذا اليوم الموعود ، إذ كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه — خاتم رَسل الله ، وأن لا نبى بعده . . وهذا ما يشير إليه الرسول الكريم بقوله « بعثت أنا والساعة كهاتين » — وأشار —

---

(١) انظر مثلا ، تفسيرنا لسورة « الطور » .

صلوات الله وسلامه عليه ـ بأصبعيه : السبابة والوسطى » .

ويجوز أن يكون المراد بالرسل هنا ـ والله أعلم ـ العقول الرشيدة ، والفِطَر السليمة في الناس، حيث أن مع كل إنسان رسولا إلى نفسه ، هو عقله ، وفطرته . . فإذا انتهى الأمر بالناس إلى أن تضل عقولهم جميعا عن الحق ، وأن تَزيغ قلوبهم جميعا عن الهدى ، فلم يبق فيهم مؤمن بالله ، قائم على شريعته ـ كان ذلك إيذانا بقرب يوم القيامة، وإرهاصاً من إرهاصات وقوعه، ويكون معنى توقيت الرسل هنا ، تعطل العقول عن عملها ، ووقوع الخلل والفساد فى الطبيعة البشرية وتنكيسها فى الخلْق .

ومما يشهد لهذا المعنى الذى ذهبنا إليه ، ماورد فى الآثار من تبدل أحوال الناس بين يدى نفخة الصور الأولى ، وانتكاس طبيعتهم ، كما يشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « بدأ الدين غريبا، وسيعود كما بدأ . . فطوبى للغرباء »

وقوله تعالى :

* « لأى يوم أجلت »

هو سؤال وارد على الخبر فى قوله تعالى : « وإذا الرسل أقتت » ـ أى إلى أىّ يوم هذا التوقيت ، أو التأجيل للرسل ؟ فكان الجواب :

* « ليوم الفصل »

أى ليوم القيامة . . فهو غاية لتأجيل الرسل ، وتعطيل عملهم . .

والسؤال هنا هو : وهل إذا كان تأجيل الرسل أو تعطيل عملهم غايته هو يوم القيامة ، فهل إذا جاء يوم القيامة ينتهى هذا التوقيت ، ويعود الرسل إلى مكانهم فى الناس ؟

والجواب : أن نعم ؛ وعلى كلا الرأيين اللذين ذهبنا إليهما . .

فإن رسل الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ سيظهرون مرة أخرى مع أقوامهم فى مشهد الحساب والجزاء ، يشهدون على أقوامهم، وما كان منهم من استجابة لهم ، أو خلاف عليهم ، وتكذيب بهم ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد . . وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » (٤١ : النساء) وقوله سبحانه : « يوم يجمع الله الرسل. فيقول ماذا أجبتم ؟ »(١٠٩ : المائدة) .

أما العقول التى ضاع رشادها ، والقلوب التى عميت بصيرتها — فإنها تجىء يوم القيامة وقد انكشف الغطاء عنها ، فترى الأمورَ رؤية كاشفة ، وتعرف الحقّ واضحاً مشرقاً . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (٢٢ : ق)

قوله تعالى :

* « وما أدراك ما يوم الفصل » يوم الفصل ، هو يوم القيامة ، الذى يَفصل فيه سبحانه وتعالى بين الناس .

والاستفهام يراد به تهويل هذا اليوم ، وما يقع فيه من أحداث ، لا يمكن أن تتصورها الأوهام ، ولا أن تحيط بها العقول .

وقوله تعالى :

* « ويل يومئذ للمكذبين » .. هو جواب الشرط « إذا» فى قوله تعالى : « فإذا النجوم طمست » وما عطف عليه .

والويل : هو الهلاك والبلاء المبين . . وهو وعيد للمكذبين بهذا اليوم ، حيث لم يُعِدّوا أنفسَهم له ، ولم يَعملوا حساباً للقائه . . « إنهم كانوا لا يرجون حساباً » (٢٧ : النبأ)

الآيات : (١٦ — ٢٨)

* « أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ألم نهلك الأولين * ثم نتبعهم الآخرين * كذلك نفعل بالمجرمين * ويل يومئذ للمكذبين » .

هو مواجهة المشركين المكذبين بيوم الفصل ، وتهديد لهم بالهلاك الدنيوى ، وأخذهم بما أخذ الله به المكذبين من قبلهم فى الأمم السابقة ، بعيدها وقريبها . .

والأولون الذين أهلكهم الله ، هم قوم نوح ، وعاد ، وثمود .. والآخرون هم من جاءوا بعدهم ، كقوم فرعون ، وقوم لوط . .

والمراد بالاستفهام هنا ، التقرير ، واستنطاق الواقع الذى شهدته الحياة ، وسجله التاريخ ..

وقوله تعالى : « كذلك نفعل بالمجرمين » ـ هو تعقيب على هذا التقرير ..

أى كما فعلنا بالأولين ، وألحقنا بهم الآخرين ، كذلك نفعل بالمجرمين، فى كل أمة ، وفى كل جيل . . فهذا هو حكم الله فى أهل الضلال ، لا استثناء فيه . . وفى هذا إشارة إلى المشركين الذين يواجهون النبى بعنادهم وضلالهم ، ، ويركبون نفس الطريق الذى ركبه الضالون من الأولين والآخرين قبلهم .. فالويل لهم يومئذ من عذاب الله المرصود لكل مكذِّب بهذا الحديث . .

قوله تعالى :

* « ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه فى قرار مكين * إلى قدر معلوم ؟ »

هو دعوة إلى هؤلاء الضالين المكذبين من المشركين ، أن يعيدوا النظر فى موقفهم من إنكار البعث ، وتكذيبهم به ، واستبعادهم له ، حتى يخلِّصوا بأنفسهم من هذا الويل المطلّ عليهم، فتلك هى فرصتهم الأخيرة ، فإن لم يبادروها ويصححوا موقفهم فيها ، أفلتت سفينة النجاة ، وتركتهم يغرقون فى هذا الطوفان المقبل عليهم !!

فهؤلاء الذين يستبعدون البعث ، ويستعجزون قدرة الله عن إعادتهم إلى الحياة بعد الموت ـ ألم يخلقهم الله من ماء مهين ؟ فما الفرق بين خلقهم من هذا الماء المهين ، وبين بعثهم من التراب ؟

والماء المهين ، هو ماء الرجل ، وهو المنىّ الذى يتخلق منه الجنين فى رحم الأمّ .

ووصف الماء الذى خلق منه الإنسان بأنه مهين ـ إشارة إلى أنه فى ظاهره شىء لا وزن له فى مرأى العين ، بل هو شىء مُسْتَقذَر ، لا يحرص عليه الإنسان ..

قوله تعالى :

* « فجعلناه فى قرار مكين » .

أى أن هذا الماء المستقذَر المهين ، قد جعله الله سبحانه وتعالى ، ماء مصونا محفوظاً « فى قرار مكين » ـ هو رحم الأم .

إن هذا الماء المهين إذن ، ليس كما يبدو فى ظاهر الأمر شيئاً مُحقَراً ، أشبه بفضلات الإنسان ، وإنما هو فى حقيقته حياة ، تضم فى كيانها هذه المخلوقات البشرية .. إنه الناس ، فى صورهم وأشكالهم .. إنه صورهم المضمرة ، ووجودهم المستور .. ولهذا صانه الله سبحانه وتعالى ، وأودعه هذا القرار المكين الذى أعده له .

وقوله تعالى :

« إلى قدر معلوم » .

متعلق بقوله تعالى : « فجعلناه فى قرار مكين » أى أن هذا المستودع الذى أودع فيه هذا الماء ، لايمسك هذا الماء إلا إلى زمن محدود ، وغاية ينتهى إليها ، وهى مدة حمل الجنين فى رحم الأم ، من استقرار النطفة فيه إلى خروجها منه بشراً سويًّا .

وقوله تعالى :

« فَقَدَرْنا فنعم القادرون * ويل يومئذ المكذبين » .

أى فقدرنا بقدرتنا وحكمتنا مسيرةَ هذه النطفة فى الرحم ، وتنقلها فيه من طور إلى طور ، وذلك بقدَر معلوم ، وتقدير موزون ، وحساب محكم دقيق ..

وقوله تعالى : « فنعم القادرون » هو ثناء من الله سبحانه وتعالى على ذاته الكريمة ، التى لايحسن الثناء عليها ، ولا يوفيها حقها ، إلا هو سبحانه وتعالى ، وفى هذا يقول الرسول الكريم ، فى تمجيد ربه والثناء عليه : « سبحانك .. لا أحصى ثناء عليك .. أنت كما أثنيت على نفسك » ..

وفى هذا الثناء من الله سبحانه وتعالى على ذاته الكريمة ـ إشارة إلى أن هذا الإبداع فى الخلق ، والإحكام فى التصوير ، مشهد يقف الوجود كله مبهوراً أمام جلاله وروعته ، ثم لايجد من صيغ الثناء ماينطق به فى هذا المقام ، فكان صمته أبلغَ من كل كلام ، وكانت حجته على الصمت ، أنْ نَطَقَ أحكم الحاكين رب العالمين . . فليس بعد قول الله قول ، ولا بعد ثنائه ثناء !

فالويل يومئذ لمن كان لايرجو لله وقاراً ، ولا يعرف لجلاله قدراً !

قوله تعالى :

* « ألم نجعل الأرض كفاتاً ، أحياء وأمواتاً » .

هذا مشهد آخر من مشاهد قدرة الخالق جلّ وعلا . .

فإذا عَمِيت بعض البصائر عن أن ترى مسيرة هذه النطفة الصغيرة ، وأن تشهد ما انطوت عليه من حياة ، وما تفجر منها من مخلوقات ـ فإنها تستطيع أن تنظر إلى كائن آخر ، أكبر حجماً من هذه النطفة . . إنه الأرض ! ! الأرض كلها بما على ظهرها ، ومافى بطنها . .

فماذا يُرى من هذه الأرض ، ظاهراً أو باطناً ؟

إنها النطفة . . مكبرّة ! !

إنها حياة وموت . . فى وقت معاً . .

إنها حياة منطلقة من موات ، وموات يتخلف من حياة . .

إنها رحمٌ كبير ، يتفتح لنطف الماء الذى يتحلب عليه من السحاب !

ـــ « وترى الأرض هامدة .. فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وَربت وأنبتت من كل زوج بهيج » (٥ : الحج) .

— « أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم » (٢٧ : السجدة) .

— « أنا صَبَبْنا الماء صبًّا * ثم شققنا الأرض شقًّا * فأنبتنا فيها حبًّا * وعنباً وقضباً * وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا * وفاكهة وأبًّا » (٢٥ ـ ٣١ : عبس) .

ومعنى « كفاتا » أى مستودعاً . . يقال : كفت الشىء ، أى ضمه إلى نفسه ، مثل كَفَله .

وقوله تعالى : « أحياء وأمواتاً » عامل النصب فى أولها فعل محذوف ، مفهوم من قوله تعالى : « كفاتًا » أى مستودعاً يضمُّ أحياء وأمواتاً . . ويجوز أن يكون عامل النصب هو « كفاتًا » بمعنى ضَامّةً أحياء وأمواتا . .

قوله تعالى :

* « وجعلنا فيها رواسى شامخاتٍ وأسقيناكم ماء فراتا • ويل يومئذ للمكذبين » . .

هو إشارة إلى الجبال التى تبرز على وجه الأرض عالية شامخة ، تَهُول ، وتروع ، وتُحدّث عن عظمة الصانع العظيم الذى أقامها .

وقوله تعالى : « وأسقيناكم ماء فراتا » أى ماء عذبا ، زلالا ، هو بعض هذا الماء الملح ، الذى على كثرته لاتقوم عليه حياة الإنسان .. أفبعد هذا تكذبون بالبعث ، وتنكرون يوم الجزاء ؟ فالويل لكم من هذا الضلال الذى أنتم غارقون فيه . . أيها المكذبون !

الآيات : (٢٩ — ٤٠)

* « انطَلِقُوٓا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوٓا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ (٣٠) لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا

تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون * انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب * لاظليل ولا يغنى من اللهب » . .

هو إشارة إلى المكذبين بيوم الفصل ، بعد أن أصروا على موقفهم من التكذيب به ، وبعد أن ضربوا صفحاً عن كل ماقام بين أيديهم من شواهد ، وما انتصب لهم من أدلة على قدرة الله التى لايُعجزها شىء ، فمضوا فى طريق الكفر والضلال ، حتى ضمتهم القبور . . ثم هاهم أولاء يُبعثون من قبورهم ، ويتلفتون إلى أى مساقٍ هم مسوقون إليه ، وإذا صوت مزلزل يخترق أصماخَ آذانهم، ويُلقى فيها بهذا الأمر الصادع: « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون » .. أى انطلقوا إلى موقف الحساب والجزاء ، إلى ساحة الفصل ، فهذا يومه الذى كنتم به تكذبون . . ثم يُتْبِع هذا الأمرَ بأمر آخر يكشف لهم عن وجه المنطلق الذى ينطلقون إليه : «انطلقوا إلى ظلّ ذى ثلاث شعب » .

وأين ذلك الظل ذو الثلاث شعب ؟ إنه على غير ما يعرف الناس من ظل فى الحياة الدنيا . . فليبحثوا عنه هنا فى المحشر . . إنه بلا جدال ليس من ظلال

الجنة ، فظلال الجنة ممتدة دائمة ، كما وصفها الله سبحانه وتعالى فى قوله : « أُكُلُها دائم وظلها » (٣٥: الرعد) وفى قوله تبارك اسمه : « وأصحاب اليمين ، ما أصحاب اليمين ، فى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود » (٢٧ - ٣٠ الواقعة) .

وإذن فهذا الظل لامكان له إلا فى جهنم ، إذ ليس فى هـذا اليوم إلا الجنة والنار . . وإنه لهناك فعلا . .

وقد جاء فى القرآن الـكريم وصف لهذا الظل الجهنمى فى قوله تعـالى : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ؟ فى سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لابارد ولا كريم » (٤١ - ٤٤ : الواقعة)

واليحموم الدخان الأسود الـكثيف ، الذى ينعقد فى الجو . .

والدخان الـكثيف ، إذا خرج من موقده ، كان فى أول أمره كتلة واحدة ، فإذا ارتفع قليلا فى الجو تخلله الهواء ، ورق قليلا ، وكان طبقة أرق من الطبقة التى تحته ، ، ثم إذا علا فى الجو ، رقّ ، فـكان أرق مما تحته . . ثم إذا ارتفع أكثر من هذا المدى ذاب فى الهواء وتبدد ، ولم يعد له ظل ! ! فهذا هو الظل ، وتلك هى شعبه الثلاث التى تشعب إليها ، وكأن كل شعبة من الشعب الثلاث كيان قائم بذاته ، وإنما سميت شعبة لأن أصلها من مصدر واحد ، هو النار .

وقوله تعالى : « لاظليل ولا يغنى من اللهب » — هو وصف لهذا الظل الجهنمى .. إنه لاظليل ، أى لا يُستظل به من حر ، ولا يأوِى إلى ظله محرور ، من الـكائنات الحية ، وإنه لايغنى من اللهب ، أى لا يدفع عنهم لهب جهنم الذى يَنُوشهم من كل جانب . .

وفى دعوتهم إلى الانطلاق إلى ظلّ هو من دخان جهنم ، لا إلى جهنم ذاتها ، مع أنهم مدعوون إليها أصلا — فى هذا استهزاء بهم ، وسخرية منهم ، ومبالغة

فى إيلامهم ، حيث يلوّح لهم بالظل ، الذى يفتح لهم بابا من الأمل ، فإذا هذا الظل لا يتمتع به إلا من أخذ مقعده من النار ! !

قوله تعالى :

* « إنها ترمى بشرر كالقصر »

الضمير فى إنها يعود إلى جهنم ، التى يقوم على سمائها هـذا الظل ذو الثلاث شعب .

وفى وصف الشرر الذى ترمى به بأنه كالقصر ، أى البيت العظيم — إشارة الى ضخامة حريقها ، الذى لاتبلغ جبال الدنيا مجتمعة بعضاً من ضخامته .

وقوله تعالى :

* « كأنه جِمالات صفر * ويل يومئذ للمكذبين »

الجمالات : جمع جَمَل ، وهو الحيوان المعروف .

وفى جمع الجمل ، على جمالات ، إشارة إلى أنها من الجمال المتخيرة من بين الجمال ، ضخامة ، وامتلاء . . مثل رجالات ، التى هى جمع لرجال ذوى صفات متميزة . .

وفى وصف الجمال بأنها صفر ، إشارة إلى وصف لون الشرر ، بعد أن وصف بالضخامة بأنه كالقصر . .

وفى وصف لون الشرر بالجمالات الصفر ، دون غيرها من كل ذى لون أصفر — إشارة إلى الحركة ، واللون ، والضخامة ، جميعاً . فهذا الشرر ينطلق بعضه إثر بعض فى تتابع كأنه قطعان من الجمال الصفراء ، ينطلق بعضها إثر بعض !

فالويل للمكذبين ، من هذا البلاء المحيط بهم ، ومن هذه النار التى ترمى بهذا الشرر العظيم . .

قوله تعالى :

* « هـذا يومُ لاينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، ويل يومئذ للمكذبين » . .

أى هذا اليوم الذى تقع فيه هذه الأهوال بالمكذبين الضالين ، هو يوم لاينطقون فيه ، ولا تتحرك ألسنتهم بمثل هذا الزور الذى كانت تتشدق به فى الدنيا . . « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » (٦٥ : يس)

وهذا لاينفى أنهم يتكلمون يوم القيامة ، ولكن ليس الكلامَ الذى كان يجرى على ألسنتهم فى الدنيا، من زور وبهتان ، ومن تفاخر وتطاول على العباد . . إن كل شىء فيهم يومئذ ينطق بالحق !

وقوله تعالى : «ولا يؤذن لهم فيعتذرون » — أى لايؤذن لهم بكلام يُلقُون فيه بأعذار يعتذرون بها عن جناياتهم فى الحياة الدنيا : « فاليومَ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يُستعتبون » (٥٧ : الروم)

فالويل لهؤلاء المكذبين ، ولكل مكذب بيوم الدين . .

قوله تعالى :

* « هذا يوم الفصل جمعنا كم والأولين »

أى هذا هو يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ، لقد وقع ، فلا مناص لكم منه ، ولا مخرج لكم من البلاء الذى أنتم ملاقوه فيه ، وقد التقيتم فيه بمن سبقكم من المكذبين قبلكم ، الذين ضُربت لكم الأمثال بهم فى الدنيا ، فلم تنتفعوا بها ، ولم يكن لكم فيمن سبقكم عبرة . .

قوله تعالى :

* « فإن كان لكم كيد فكيدون * ويل يومئذ للمكذبين » .

أى فإن كان لكم أيها المكذبون الضالون حيلة تحتالون بها ، أو كيد تكيدون به ، لتخرجوا من هذا البلاء ـ فهاتوه !!

فالأمر هنا ، أمرُ تعجيز ، حيث يواجَه المأمور بما هو محال .

فادفع بكفك إن أردت نخازنا شهلان ذو الهضبات هل يتحلحل ؟

إنه لا كيد لهم ، ولا حيلة بين أيديهم لدفع هذا البلاء ، فالويل لهم من عذاب الله . .

الآيات : (٤١ — ٥٠)

* « إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ (٥٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إن المتقين فى ظلال وعيون * وفوا كه مما يشتهون »

هذا عرض لحال أهل الإيمان والتقوى ، يوم القيامة ، حيث يُدْعون إلى الجنة ، وما فيها من ظلال وعيون ، وفوا كه مما تشتهى الأنفس ، وتلذ الأعين وقد دُعى أهل الضلال من قبل إلى جهنم ، وإلى ظلها ذى الثلاث شعب !

وقوله تعالى :

* « كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ، إنا كذلك نجزى المحسنين »

هو دعوة لأهل الجنة إلى هذه الموائد الممدودة لهم وما عليها من نعيم الجنة وثمارها .. فليأكلوا ماطاب لهم ، وليهنئوا بما أكلوا وما شربوا ، فهذا جزاء ما كانوا يعملون .. إنه الجزاء الذى أعده الله لأهل الإحسان من عباده .

وفى هذا العرض للمتقين،وفى هذه الدعوةالتى تستحثهم على الطعام والشراب ـ كبْت للمكذبين الضالين ، وإثارة للحسد الذى يأكل قلوبهم ، إن كان ثَمّة بقية لم تأكلها نار جهنم ..

قوله تعالى :

* « ويل يومئذ للمكذبين * كُلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون .. * ويل يومئذ للمكذبين » .

هو مواجهة للمكذبين الضالين ، وهم فى أماكنهم من دنياهم ، وما هم فيه منها من لهو ولعب ، إنه ليس لهم إلا الويل ، والبلاء . . فليأكلوا ، وليتمتعوا فى دنياهم بما شاءوا . . إنهم مجرمون ، يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعام ، ثم تساق إلى الذبح . . وهذا مايشير اليه قوله تعالى : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » (١٢ : محمد)

فمن كانت النار تنتظره ، كيف يهنؤه طعام ، أو يسوغ له شراب ؟

وفى قوله تعالى : « قليلا » إشارة إلى أن هذا المتاع الذى ينال المشركون فى الدنيا . . هو ـ مَهما كَثُر ـ متاع قليل ، لا يلبث أن يزول مُعْقِبا وراءه بلاء طويلا ، وعذاباً دائماً . وقوله تعالى : « إنكم مجرمون » هو تعليل لهذا الوعد من قوله تعالى : « كلوا وتمتعوا قليلاً » . . وهذا مثل قوله تعالى : « قل من كان فى الضلالة فليَمْدُدْ له الرحمن مَدًا » (٧٥ : مريم)

قوله تعالى :

* « وإذا قيل لهم اركعوا لايركعون • ويل يومئذ للمكذبين »

هو معطوف على قوله تعالى : « إنكم مجرمون » ومن إجرامهم أنهم

كانوا « إذا قيل لهم اركعوا » أى استجيبوا لله وأسلموا له « لا يركعون » أى لا يسمعون ، ولا يستجيبون ، عِناداً ، واستكباراً ، وضلالا . . فالويل والبلاء يومئذ للمكذبين . . وهؤلاء فريق منهم .

وفى العدول عن الخطاب إلى الغيبة ، استدعاء لغيرهم أن يشهد موقفهم هذا الآثم ، وأن ينكره عليهم ، ويتلقى منهم عبرة وموعظة ، فلا يقع تحت طائلة هذا التهديد الذى هُدّدوا به . .

قوله تعالى :

* « فبأى حديث بعده يؤمنون »

إنكار لموقف هؤلاء المشركين من دعوة الحق التى دُعوا إليها ، والتى حملها إليهم القرآن الكريم ، الذى يتلوه عليهم رسول كريم . . وأنهم إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن ، ولم ينكشف لهم على ضوئه طريق الهدى والإيمان ، فبأى حديث إذن بعد هذا الحديث يؤمنون ؟ وبأى نور بعد نوره يبصرون ؟ إنهم إذا لم يهتدوا بهذا القرآن فلن يهتدوا أبدا ، ولن يجدوا إلى نور الحق سبيلا . .

هذا ، وقد تكرر فى السورة الكريمة قوله تعالى: «ويل يومئذ للمكذبين» ـ عشرَ مرات ، وكلها تدعّ المكذبين الضالين دعًّا ، وتلقاهم على رأس كل مرحلة من مراحل مسيرتهم إلى جهنم ، بالويل والثبور ، وترجمهم باللعنات ، تصبها على رءوسهم صبًّا . .

وأكثر من هذا ، فإنهم وهم يساقون إلى جهنم، وإذا يُلقَوْن فى جحيمها ، ويستظلون بظلها ذى الثلاث شعب ـ يجيئُهم حديث عن أهل الجنة ، وما يلقون فيها من نعيم ، فإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب الجنة ، رُدّوا عنها بهذه الصاعقة يُرمى بها فى وجوههم : « ويل يومئذ للمكذبين » انهم ليس لهم إلا الويل ، يأتيهم من كل لسان ، وفى كل مقام .

تم الجزء التاسع والعشرون ، ويليه الجزء الثلاثون . . إن شاء الله

عبد الكريم الخطيب

التفسير القرآني للقرآن

الكتاب الخامس عشر

الجزء الثلاثون



من مباحث هذا الكتاب

- الليالي العشر.... ما تأويلها ؟.
- وهديناه النجدين .... ما تأويله ؟
- مسيرة الإنسان ... إلى أمام أم وراء
- سورة اللهب ونظمها .
- النبيّ .. وحديث السحر

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

مطبعة السنة المحمدية
١٧ شارع شريف باشا الكبير

رقم إيداع دار الكتب

٥٩٢٢ لسنة ١٩٧٠

(٧٨) سورة النبأ

نزولها . مكية ، نزلت بعد سورة المعارج

عدد آياتها : أربعون آية .

عدد كلماتها : مائة وثلاث وسبعون كلمة .

عدد حروفها : ثمانمائة وستة عشر حرفا .

مناسبتها لما قبلها

كانت سورة « المرسلات » قبل هذه السورة ـ حديثا متصلا عن المشركين ، وكانت نهاية هذا الحديث معهم أن ألقى بهم فى جهنم ، وأخذ كل منهم مكانه فيها . . ثم أعيدوا إلى مكانهم من هذه الحياة الدنيا ، حيث يأكلون ويتمتعون ، كما تأكل الأنعام ، دون أن يكون لهم من تلك الرحلة المشئومة بهم إلى جهنم ، وما رأوا من أهوالها ـ ما يغير شيئا مما فى أنفسهم من ضلال وعناد ، فما زالوا على موقفهم من آيات الله التى تتلى عليهم ، وما زالوا فى تكذيب لرسول الله ، وفى عجب واستنكار ، حتى ليتساءل الوجود كله : إذن فبأى حديث بعد هذا الحديث يؤمن هؤلاء الضالون المكذبون ؟

وتجىء سورة « النبأ » بعد هذا التساؤل الاستنكارى لتمسك بهم وهم فى حديث عن هذا الحديث ، وفى بلبلة واضطراب من أمره ، وفى تنازع واختلاف فيه ، لا يجدون ـ حتى فى أودية الزور والبهتان ـ الكلمة التى يقولونها فيه ، والتهمة التى يلصقونها به . . إن أية قولة زور يزينها لهم الشيطان ليلقوا بها فى وجه القرآن ، لتسقط على رءوسهم ، كما يسقط الحصى يُرمَى به فى وجه الشمس ، ليخفى ضوءها ، أو يعطل مسيرتها . .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٦)

* « عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا ونباتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « عم يتساءلون » ؟

أى عن أى شىء يتساءل هؤلاء المشركون ؟ وهل هناك مشكلة مستعصية عليهم ، حتى يكون منهم هذا التساؤل الملحاح ، الذى يصبحون فيه ويمسون ؟

قوله تعالى :

* « عن النبأ العظيم * الذى هم فيه مختلفون » .

يجوز أن يكون هذا جواباً عن السؤال الوارد فى قوله تعالى : « عم يتساءلون » ؟ أى أنهم يتساءلون عن النبأ العظيم ، الذى اختلفت فيه آراؤهم ، وتشعبت به فى طرق الضلال عقولهم ، دون أن يتعرف أحد منهم الطريق إلى

المدى ، وإلى الخروج من دوامة هذا الاختلاف . . إنهم لا يختلفون فى سبيل البحث عن الحقيقة ، والتعرف عليها ، وإنما خلافهم فى أن يجدوا طريقاً واحداً من طرق الضلال والبهتان ، تجتمع عليه كلمتهم ، ويلتقى عنده رأيهم .

والنبأ العظيم ، هو الأمر ذو الشأن ، الذى تنطّى أخبارُه كل خبر ، فتتجه إليه الأنظار ، وتشغَل به الخواطر . . والمراد به هنا ، القرآن الكريم ، وما يحدثهم به عن البعث والقيامة ، والحساب . الأمر الذى لا تحتمل عقولُهم تصورَ إمكانه .

ويجوز أن يكون قوله تعالى : « عن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون » سؤالا آخر بعد السؤال الأول : « عم يتساءلون » ؟ . أى أيتساءلون عن هذا النبأ العظيم ، الذى هم مختلفون فى مذاهب القول فيه ، وفى أن ما يحدثهم به النبى — صلوات الله وسلامه عليه — عن البعث ، والحساب والجزاء ، شىء لايصدق ، وأن ذلك إنما هو من خداع « محمد » واستهوائهم لاتّباع دعوتِه ، لحاجة فى نفسه ؟ أذلك هو النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون ؟

قوله تعالى :

* « كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون »

هو رد على هذا الذى يتساءلون عنه . . إنه أمر لايدعو إلى تساؤل من عاقل ، ولايثير خلافاً بين عقلاء .. إذ كان أظهرَ من أن يُسأل عنه ، وأوضح من أن يُختلف فيه ، وأنهم إذا جهلوه لجهلهم ، أو تجاهلوه بعنادهم ـ فإنه سيأتى اليوم الذى يعلمونه فيه يقيناً ، ويرونه عياناً . .

وفى تكرار الخبر ، توكيد له ، وتقرير لتلك الحقيقة السافرة ، التى تقوم بين يديها ومن خلفها ، الأدلةُ القاطعة ، والبراهين الناطقة !

قوله تعالى :

• « ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً ، وخلقناكم أزواجاً ، وجعلنا نومكم سباتاً ، وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً ، وبنينا فوقكم سبعا شداداً ، وجعلنا سراجا وهّاجاً ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ، لنخرج به حبًّا ونباتا ، وجنات ألفافا . . »

هذا عرض لبعض الأدلة والبراهين التى تقوم شاهدةً على قدرة الله سبحانه وتعالى ، وعلى مافى متناول هذه القدرة من التصريف فى عالم الإنسان ، حياةً ، وموتا ، وبعثا . . وقد كان من شأنهم — لو كان لهم عقول — أن يقفوا بين يدى هذه المعارض من قدرة الله ، وأن يقرءوا فى صحفها ما يحدثهم عن جلال الله وقدرته . .

فهذه الأرض ، قد جعلها الله بقدرته القادرة « مهاداً » أى فراشا ممهدا ، وبساطا ممدودا ، يتحرك فيها الإنسان ، ويسلك مسالكها ، ويجد وسائل العيش والحياة فيها . .

وهذه الجبال ، قد جعلها الله سبحانه « أوتاداً » تمسك الأرض ، حتى لاتميد وتضطرب . . إنها أشبه بالأوتاد التى تشد الخيمة ، وتمسك بها . .

ثم هاأنتم أيها الناس ، وقد خلقكم الله أزواجا ، ذكراً وأنثى ، حتى تتوالدوا فى هذه الأرض وتتكاثروا ، ويتصل نسلكم فيها ، وتعمر وجوهها بأجيالكم المتعاقبة عليها . .

وليست هذه المزاوجة لكم وحدكم ، أيها الناس ، بل هى أمر عام ينتظم عوالم الأحياء كلها ، من نبات وحيوان . . بل إن هذا الحكم ليمتد ، فيشمل كل ماخلق الله . . فكل مخلوق ، من عالم الجماد ، أو النبات أو الحيوان ، لايقوم له وجود إلا إذا كان له مايقابله من جنسه ، مقابلة عِنادِيّة ، من شأنها

أن تستثير قواه ، وتبعث كوامنه ، وهو بالتالى يستثير المقابل له ، ويستخرج كوامنَه ، وبهذا يلتقيان ، ويتزاوجان ، وتتكون من تزاوجهما طاقة يتولد عنها مخلوق جديد ، وهكذا الشأن فى عالم المعانى أيضا . .

فالذكر تقابله الأنثى ، والأنثى يقابلها الذكر ، والنور يقابله الظلام ، والنهار يقابله الليل ، واليقظة يقابلها النوم ، والحياة يقابلها الموت ، والحق يقابله الباطل ، والجميل يقابله القبيح . . وهكذا ، فليس شىء فى الوجود قائم بذاته ، متفرد بوجوده . . وذلك لتكون الوحدانيةُ خالصة لله الواحد القهار .

قوله تعالى:

• « وجعلنا نومكم سباتا »

السُّبات : السكون ، والهمود ، والمسبوت الميّت ، يقال : ضربه فأسبته ، أى أخمد أنفاسه ، وأبطل حركته . . والسبت : القطْع .

ومن قدرة الله سبحانه وتعالى ، ومن آثار رحمته ، أنه جعل النوم موتا لنا ونحن أحياء ، فألبسنا الحياةَ والموت معاً . . نحيا ، ونموت ، ونموت ونحيا ، وذلك فى كل يوم من أيام حياتنا .

فالنوم ، صورة مصغرة من الموت ، وانطلاق الروح فى حال النوم ، وسياحتها ورحلتها المنطلقة بعيداً عن الجسد ، هو أشبه بانطلاقها انطلاقاً مطلقا بعد الموت ، وارتحالها الأبدى فيما وراء المادة . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموتَ ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » (٤٢ : الزمر) وقوله سبحانه : « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجلٌ مُسَمًّى ثم إليه مرجعكم » (٦٠ : الأنعام)

قوله تعالى :

* « وجعلنا الليل لباسًا » .

أى ومن فيض قدرته — سبحانه — ومن تدبير حكمته ، أنه جعل الليل لباساً ، أى ساتراً ، يستر الكائنات ، كما يستر الثوبُ الجسد ، ويُرخى على الأحياء ستراً يُمسك حواسها المنطلقة أثناء النهار ، ليعطيها فرصتها من الراحة والسكون ، وليتيح القوى المندسة فى كيان الإنسان ، من مدركات ـ وعواطف ، ومشاعر ـ أن تنطلق ، لتجد وجودها كاملا ، وبهذا يحدث التوازن بين كل القوى المتزاوجة فى الإنسان . . بين جسده وروحه ، بين مادياته ومعنوياته ، بين حركته وسكونه ، بين يقظته ونومه . .

قوله تعالى :

* « وجعلنا النهار معاشاً »

المعاش : الحياة . . وسميت الحياة معاشاً باسم سببها ، وهو العيش الذى لاحياة لحىّ إلا بما يتبلغ به من طعام . .

أى ومن قدرة الله سبحانه ، ومن فيض فضله ورحمته ، أن جعل النهار مبصراً ، ليرى الأحياء فيه مواقعَ معاشهم ، ووسائل كسبهم . .

قوله تعالى :

* « وبنينا فوقكم سبعا شدادا »

السبع الشداد ، السموات السبع . . ووصف السموات بأنها شداد ، إشارة إلى مايبدو لنا من قيامها سقفاً مرفوعا فوقنا ، دون أن تسقط علينا ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » (٦ : ق) وقوله تعالى : « والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون » (٤٧ : الذاريات)

وأمّا القول بأنها الكواكب السبعة ، فغير صحيح ، لأن الكواكب ليست سبعة ، وإنما الذى عُرف منها إلى الآن تسع ، وهناك كواكب كثيرة لم تكتشف بعدُ ، وقد تبلغ المئات عدّاً . .

وأصحّ من هذا أن يقال إنها الطرائق السبع ، التى ذكرها الله سبحانه وتعالى فى قوله : « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين » (١٧ : المؤمنون) وهى أطباق السموات السبع ، كما يقول سبحانه : « الذى خلق سبع سموات طباقا » (٣ : الملك)

قوله تعالى :

* « وجعلنا سراجا وهاجا »

والسراج الوهاج ، هو الشمس ، ووصف السراج بأنه وهاج ، إشارة إلى توهج الشمس وتوقدها ، فهى كرة من نار ، متّقدة . .

قوله تعالى :

* « وأنزلنا من المعصِرات ماء ثجاجا »

المعصرات : هى السحب التى يتحلب منها الماء ، أشبه بالثوب المبلول يُعتصر ، فيتساقط الماء منه . .

وفى وصف السحب بأنها معصرات ، إشارة إلى أن الماء الذى تحمله متلبس بها ، مندسّ فى كيانها ، بل هى فى حقيقتها ماء ، ووعاء . . معا . .

والثجاج أو السحاح . المتدفق .

قوله تعالى :

* « لنخرج به حبًّا ونباتا ، وجنّاتٍ ألفافا » .

هو بيان لما يتولد من هذا الماء المتدفق من السحب ، فبهذا الماء يُخرج الله الحب والنبات ، ومنه يخرج هذه الجنات المتشابكة الأغصان ، المتعانقة الأفنان . . والله سبحانه قادر على أن يخرج النبات من غير ماء ، ولكن أقام سبحانه نظام الوجود على أسباب ومسببات . . فمنه سبحانه الأسباب ، ومنه تبارك اسمه المسببات . .

والحب : مايقتات منه الناس ، كالبُرّ ، والشعير ، والذرة ، والأرز ، ونحوها . .

والنبات : مايأكل منه الأنعام ، كالكلأ ونحوه . .

فهذه بعض مظاهر قدرة الله . . أفلا يرى المشركون المكذبون بالبعث ، المختلفون فيما يحدثهم به النبيّ عنه ـ أفلا يرون أن بعثهم لايعجز هذه القدرة القادرة ، التي أبدعت هذه الآيات ، وأحكمت صنعها ؟ وألا يُحدِث ذلك لهم علما يرفع هذا الخلاف الذي هم فيه ؟

الآيات : (١٧ — ٣٠)

* « إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّاغِينَ مَـَٔابًا (٢٢) لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَآءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إن يوم الفصل كان ميقاتاً »

هو تهديد للمشركين بهذا اليوم الذى يكذبون به ، ويختلفون فيه . . إنه آت لاريب فيه ،وهو يوم الفصل، فيما هم فيه مختلفون ، وفيما يقضى به الله سبحانه وتعالى فيهم من عذاب . .

والميقات : الموعد الذى أقّتَ لهذا اليوم . .

قوله تعالى :

* « يوم يُنفخ فى الصور فتأتون أفواجاً »

هو بدل من يوم الفصل ، فيوم الفصل ، هو يوم النفخ فى الصور ، فإذا نفخ فى الصور ، بُعث الموتى من قبورهم ، وجاءوا إلى المحشر أفواجاً ، أى زمرا ، إثر زمر . .

قوله تعالى :

* « وفتحت السماء فكانت أبوابا ، وسيرت الجبال فكانت سرابا »

الواو فى قوله تعالى : « وفتحت » واو الحال ، والجملة بعدها حال من فاعل « فتأتون أفواجًا » . . أى تأتون جماعات وأمما ، وقد فتحت السماء فكانت أبوابا ، وأزيح عن أعينكم هذا الغطاء الذى ترونها فيه ـ وأنتم فى الدنيا ـ سقفا سميكا مطبقا . . وكذلك الجبال تبدو وكأنها سراب يتراقص على وجه الأرض . .

وقد أشرنا من قبل إلى هذا التبدل الذى يقع فى عوالم الوجود يوم القيامة ، وقلنا إنه تبدل يقع فى حواس الإنسان ومدركاته، يومئذ، لا فى هذه العوالم ذاتها[1]

(١) انظر هذا البحث فى الكتاب الرابع عشر (سورة الطور ص ٥٤٥) .

يقول الأستاذ الإمام « محمد عبده » رحمه الله فى هذا المعنى : « يتغير فى ذلك اليوم — يوم القيامة — نظام الـكون ، فلا تبقى أرض على أنها تقلّ ، ولاسماء على أنها تُظِلّ ، بل تـكون السماء بالنسبة إلى الأرواح مفتحةَ الأبواب ، بل تـكون أبوابا ، فلا يبقى علو ولا سفل ، ولا يكون مانع يمنع الأرواح من السير حيث تشاء . .

ثم يقول : « والآخرة عالمَ آخر غير عالم الدنيا التى نحن فيها ، فنؤمن بما ورد به الخبر فى وصفه ، ولا نبحث عن حقائقه مادام الوارد غيرَ مُحَال . . ولا شك أن امتناع السماء علينا إنما هو لطبيعة أجسامنا فى هذه الحياة الدنيا . . أما النشأة الأخرى ، فقد تـكون السماء بالنسبة لنا أبوابا ندخل من أيها شئنا بإذن الله . . »

وقوله تعالى :

* « إن جهنم كانت مرصاداً ◦ للطاغين مآباً »

هو تهديد للمشركين ، المـكذبين بيوم القيامة ، وبما فيه من حساب وجزاء . . فهذه جهنم على موعد معهم ، قد أعدت لهم ، ورُصدت للقائهم . . إنها مآب ومرجع للطاغين المـكذبين ، الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر . .

قوله تعالى:

* « لابثين فيها أحقاباً »

الأحقاب ، جمع حُقُب ، والحقُب : جمع حِقبة . . والحقبة من الزمن ،القطعة الطويلة الممتدة منه ، وسميت أجزاء الزمن حقباً لأن بعضها يعقب بعضاً ، ومنه الحقيبة ، التى يحملها المرء خلف ظهره . والمراد أن هؤلاء الطاغين الذين أخذوا منازلهم فى جهنم ، لا يخرجون منها ، بل يعيشون فيها أزماناً بعد أزمان ، تتبدل

فيها أحوالهم : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، ليذوقوا العذاب » (٥٦ : النساء) فهم ليسوا على حال واحدة ، بل هم فى أحوال شتى من العذاب ، يتقلبون فيه ، وينتقلون من حال إلى حال ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « لتركبن طبقاً عن طبق » (١٩ : الانشقاق) وقوله سبحانه : « سأرهقه صعوداً » (١٧ : المدثر) وقوله سبحانه فى آية تالية ، فى هذه السورة: « فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً »

قوله تعالى:

* « لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً * إلا حميا وغساقاً * جزاءاً وفاقاً »

الضمير فى « فيها » يعود إلى جهنم ، ويجوز أن يكون عائداً إلى الأحقاب . .

أى أن الطاغين الذى ألقوا فى جهنم ، لا يذوقون فيها « برداً » أى شيئا من البرد الذى يخفف عنهم سعير جهنم ، أولا يجدون شيئاً من الراحة والسكون ، بل هم فى عذاب دائم : « لا يفتَّر عنهم وهم فيه مبلسون » (٧٥ : الزخرف) كما أنهم لا يسقون فيها شرابا إلا ما كان من حميم وغساق . .

والحميم : الماء الذى يغلى ، والغساق : ما يسيل من أجسادهم من صديد يغلى فى البطون كغلى الحميم . . فهذا جزاء من جنس عملهم . . إنهم لم يعملوا إلا السوء، فكان جزاؤهم من حصاد هذا السوء الذى زرعوه ، « جزاء وفاقا » لما عملوا ، ومجانسا له . .

قوله تعالى:

* « إنهم كانوا لا يرجون حسابا ٠ وكذبوا بآياتنا كذابا »

هو بيان للسبب الذى من أجله صاروا إلى هذا المصير الكئيب المشئوم ..

إنهم كانوا لا يتوقعون حسابا ، ولا يؤمنون به ، بل كذبوا بآيات الله التى تحدثهم عن البعث والجزاء والحساب ، فلم يعملوا لهذا اليوم حسابا .

والكِذاب : وصف للكذب ، ومبالغة فى صفته ، كما أن كَذاب (بالفتح) مبالغة لمن اتصف به . . أى أنهم كذبوا بآيات الله تكذيبا منكراً شنيعاً ، لما صحب تكذيبهم من سفاهة وتطاول على رسول الله . .

وفى التعبير عن تكذيبهم بالحساب ، بقوله تعالى : « لا يرجون » ، مع أن الرجاء عادة إنما يكون لتوقع الخير — فى هذا إشارة إلى أن يوم القيامة ، من شأنه أن يكون أملاً مرجوّاً عند الناس ، ففيه الحياة الحق ، والخلود الدائم ، والنعيم الكامل ، وأن مقام الإنسان فى الحياة الدنيا هو مقامُ قلق ، وإزعاج ، لا ينبغى للعاقل أن يقيم وجوده عليه ، بل ينبغى أن يسعى إلى التحول عنه ، والنظر إلى ما وراءه ، والرجاء فى حياة أكرم ، وأفضل ، وأبقى . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعملْ عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » (١١٠ : الكهف)

قوله تعالى:

* « وكلّ شىء أحصيناه كتاباً »

أى وكل شىء كان أويكون فى هذا الوجود محصّى فى كتاب مبين . . وكذلك أعمال هؤلاء المكذبين الضالين محصاة عليهم ، مسجلة فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

قوله تعالى:

• « فذوقوا .. فلن نزيدكم إلا عذابا »

هو من سياط البلاء والنكال التي تنهال على أصحاب النار ، وهم على هذا المورد الوبيل ، أن يشربوا من هذا العذاب ، وأن يتجرعوا كئوسه الملأى بالحميم والغساق ، وأن ما هم فيه فى لحظتهم تلك أهون مما يذوقونه فى كل لحظة آتية . . إنهم ينتقلون من عذاب إلى ماهو أشد منه ، حالا بعد حال ، ولحظة بعد لحظة ، فليبادروا بشرب ما بأيديهم ، قبل أن يشتد لهيبا ، ويزداد غليانا .

الآيات : (٣١ — ٤٠)

* « إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَآئِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (٣٥) جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا (٣٦) رَّبِّ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَآئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَئَابًا (٣٩) إِنَّآ أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إن المتقين مفازاً * حدائق وأعنابا * وكواعب أترابا * وكأسا دهاقا »

هو وصف لما يتلقى المتقون من ربهم ، من فضل وإحسان ، فى مواجهة ما لقى المكذبون الضالون من عذاب ونكال .

فالمتقون لهم عند ربهم « مفاز » أى لهم مدخل إلى جناته ورضوانه ، وإلى ما فى هذه الجنات من ثمار طيبة .. منها العنب ، وقد خُصّ العنب بالذكر ، لأنه كما يبدو — فى الحياة الدنيا — طيبُ الثمر ، دانى القطوف ، ممتد الظل . . — وفى هذه الجنة « كواعب » جمع كاعب ، وهى الفتاة التى نَهَدَ ثدياها ، وذلك فى أول شبابها ، وهؤلاء الكواعب « أتراب » أى متماثلات فى الخلقة ، حُسنا ، وبهاء ، وشبابا . . وهذا يعنى أنهن خلقن على صورة من الكمال ليس بعدها غاية ، حتى يقع تفاوت فيها . . وفى هذه الجنة كئوس « دِهاق » مُترَعة ملأى ، لا تفرغ أبداً . مما فيها من خمر لذةٍ للشاربين .

قوله تعالى .

* « لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا »

أى ومن نعيم أهل الجنة ألاّ يدخل على نفوسهم شىء مما يكدر صفاءها ، من لغو القول ، وهُجره ، وفحشه .. « وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » (١٠ : يونس)

قوله تعالى :

* « جزاء من ربك عطاء حسابا » ..

أى هذا النعيم الذى يساق إلى المتقين فى جنات النعيم ، هو جزاء لهم من ربهم ، على ما عملوا من صالح ، وما أحسنوا من عمل .

وقوله تعالى : « عطاء حسابا » إشارة إلى أن هذا الجزاء الذى يجزيهم به ربهم ، ليس على قدر أعمالهم ، فإن أعمالهم ـ مهما عظمت ـ لا تزن مثقال ذرة

من هذا النعيم ، وإنما ذلك عطاء من ربهم ، وفضل من فضله ، وإحسان من إحسانه .. أما أعمالهم الصالحة ، فليست إلا وسيلة يتوسلون بها إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى ، فإذا رضى الله عنهم أرضاهم ، وأجزل العطاء لهم ..

وفى العدول عن خطاب المؤمنين إلى خطاب النبى فى قوله تعالى : « من ربّك » بدلاً « من ربهم » ـ فى هذا تكريم للنبى الكريم ، وأنه من فضل ربّه عليه كان هذا العطاء الذى وسع المؤمنين جميعاً .

وفى قوله تعالى : « حسابا » إشارة أخرى إلى أن هذا العطاء ذو صفتين : فأولا ، هو عطاء بحساب ، حَسْبَ منازلِ المتقين عند الله ، وحَسَب درجاتهم من التقوى ، وثانيا ، هو عطاء يكفى كل من نال منه ، فلا تبقى له حاجة يشتهيها بعد هذا العطاء ..

هذا ، وقد أشرنا ـ فى غير موضع ـ إلى أن نعيم الجنة ، وإن استجاب لكل ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، فإنه يختلف بحسب مقام المتنعمين به ، حيث تقبّلهم لهذا النعيم ، واتساع قواهم له .. وهذا التقبل وهذا الاتساع يتْبع مقامَ المتنعِم ومنزلتَه عند الله .. وقد ضربنا لهذا مثلا بمائدة ممدودة عليها كل ماتشتهى الأنفس من طيبات ، وحولها أعداد من المدعوين إليها .. فكلٌّ ينال منها قدر طاقته ، وشهوته ، وإن كانوا جميعا قد نالوا مايشتهون منها .. ولكن شتان بين من أخذ لُقَيمات ، وبين من قطف من كل ماعليها من ثمار !

قوله تعالى :

* « ربِّ السمواتِ والأرض وما بينهما الرحمن لايملكون منه خطابا » .

هو وصف لله سبحانه وتعالى ، المنعم بهذه النعم الجليلة .. إنها من ربّ

العالمين، رب السموات والأرض وما بينهما ، من رب رحمن رحيم .

وقوله تعالى : « لايملكون منه خطابا » ـ إشارة إلى أن هذا النعيم الذى ينعم به المتقون ، إنما هو من رحمة الرحمن الذى أنزلهم منها هذا المنزل الكريم .. ولو ساقهم الله سبحانه إلى النار لما كان لهم على الله حجة ، لأن أحداً فى موقف الحساب والجزاء لايستطيع أن يسأل الله عن المصير الذى هو صائر إليه .. إنه لايملك خطاباً ، ولا مراجعة .

قوله تعالى :

* « يوم يقوم الروح والملائكة صفًا لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » ..

الظرف « يوم » هو قيد لهذا الوقت الذى لايملك فيه المتقون خطابا .. فقوله تعالى : « لايملكون منه خطابا » مظروف بهذا الظرف ، وهو وقت قيام الروح والملائكة صفًا بين يدى الله ، فى موقف الحساب والجزاء.. وقوله تعالى : « لايتكلمون » — هو بدل من قوله تعالى : « لايملكون منه خطاباً » .

والروح : هى أرواح البشر ، فى موقف الحساب .. ويجوز أن يكون الروح ، جبريل ..

فالروح — أى الخلائق — ، والملائكة ، لا يتكلمون فى هذا الموقف ، إلا من أذن الله له بالكلام ، وقال صواباً فيما أذن الله سبحانه وتعالى له به من كلام .. فإذا أنطقه الله يومئذ ، فإنما ينطق بالحق .

قوله تعالى :

* « ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا » .

أى ذلك اليوم ، هو اليوم الحق ، الذى كذّب به المكذبون ، واختلف فيه المختلفون .. فمن شاء النجاة والفوز فيه ، اتخذ مآبا ومرجعا إلى ربه ، وعمل

حسابا لهذا المرجع والمـآب ، وأعد لنفسه العملَ الصالح لهذا اليوم . .

قوله تعالى :

* « إنا أنذرناكم عذابا قريبا * يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا » .

أى بهذا الحديث ، وبهذه الأدلة التى سيقت لكم فيه ، قد جاءكم النذير أيها المكذبون بيوم القيامة ، وهو نذير بالعذاب لكم فى هذا اليوم ، وهو يوم قريب ، وإن ظننتموه بعيداً بعداً ، تائها فى الزمن . . إنه مطلٌّ عليكم ، ويومَها ينظر المرء ماقدمت يداه ، ويرى ماعمل من خير أو شر ، ويومَها يتمنى الكافر أن لو كان ترابا من هول مايطلع عليه من سيئات أعماله . . وهى أمنية لاسبيل له إليها . . ! !

* * *

(٧٩) سورة النازعات

نزولها : مكية . . نزلت بعد سورة « النبأ »

عدد آياتها : ست وأربعون آية . .

عدد كلماتها : مائة وتسع وسبعون كلمة .

عدد حروفها : سبعمائة وثلاثة وخمسون حرفاً .

مناسبتها لما قبلها

ختمت سورة « النبأ » بهذا النذير الذى يُلقىَ به فى وجه المكذبين باليوم الآخر ، وبما يلقاهم منه من بلاء ، حتى إنه ليتمنى الكافر يومئذ أن يكون مغيّبا فى التراب ، غائصا فى أعماقه ، من هول مايراه . .

وقد جاءت سورة « النازعات » مفتَتَحةً بهذه الأقسام ، على أن هذا اليوم واقع لاشك فيه ، ولم يذكر لهذه الأقسام جواب ، لأن جوابها قد سبقها ، فى قوله تعالى : « إنا أنذرناكم عذابا قريبا ...الآية » أى أن هذا العذاب القريب الذى أنذرناكم به واقع ، وحقّ « النازعاتِ غرقا ، والناشطات نشطا . . الآيات » .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٤)

* « وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ

الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

« والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبّرات أمراً » .

يقول الأستاذ الإمام « محمد عبده » رحمه الله ، عن هذه الأقسام التى أقسم الله سبحانه وتعالى بها من مخلوقاته — يقول :

« جاء فى القرآن الكريم ضروب من القسَم ، بالأزمنة والأمكنة والأشياء . .

والقَسَم إنما يكون بشىء يخشى المقسِم إذا حنث فى حَلِفه به أن يقع تحت المؤاخذة — نعوذ بالله أن يتوهم شىء من هذا فى جانب الله — وما كان الله جل شأنه ليحتاج فى تأكيد أخباره إلى القسم بما هو من صنع قدرته ، فليس لشىء فى الوجود قدْر إذا نسب إلى قدره تعالى ، الذى لايقدُره القادرون ، بل لا وجود لكائن إذا قيس إلى وجوده ـ سبحانه ـ إلا لأنه انبسط عليه شعاع من أشعة ظهوره جل شأنه .

ولهذا ، قد يسأل السائل عن هذا النوع من الخبر الذى اختُص به القرآن وكيف يوجد فى كلام الله ؟

فيجاب ، بأنك إذا رجعت إلى جميع ما أقسم الله به ، وجدته إما شيئا أنكره بعضُ الناس ، أو احتقره لغفلته عن فائدته ، أو ذُهل عن موضع العبرة فيه ، وعَمِى عن حكمة الله فى خلقه ، أو انعكس عليه الرأى فى أمره ، فاعتقد فيه غيرَ الحق الذى قرر الله شأنَه عليه ـ فيقسم الله به ، إما لتقرير وجوده فى عقل من ينكره ، أو تعظيم شأنه فى نفس من يَحقِره ، أو تنبيه الشعور إلى ما فيه عند من لا يذكره ، أو لقلب الاعتقاد فى قلب من أضله الوهم ، أو خانه الفهم . . . .

« ومن ذلك النجوم . . قوم يحقِرونها لأنها من جملة عالم المادة ، أو يغفُلون عن حكمة الله فيها ، وما ناط بها من المصالح ، وآخرون يعتقدونها آلهة تتصرف فى الأكوان السفلية تصرّف الرب فى المربوب ، فيقسم الله بأوصاف تدل على أنها من المخلوقات ، التى تصرّفها القدرة الإلهية ، وليس فيها شىء من صفات الألوهية . . .

ثم يقول الإمام :

« وهناك أمر يجب التنبيه عليه ، وهو أن من الأديان السابقة على دين الإسلام ، ما ظن أهلُه أن هذا الكون الجسمانى ، وما فيه من نور وظلمة ، وأجرام ، وأعراض — إنما هو كون مادى ، لم يشأ الله كونَه إلا ليكون حبْسا للأنفس ، وفتنة للأرواح ، فمن طلب رضا الله ، فليعرض عنه ، وليبعد عن طيباته ، وليأخذ بدنه بضربٍ من الإعنات والتعذيب وأصناف الحرمان ، وليغمض عينيه عن النظر إلى شىء مما يشتمل عليه هذا الكون الفاسد فى زعمه ـ اللهم إلا على نية مقته ، والهروب منه . .

فأقسم الله بكثير من هذه الكائنات ، ليبين مقدار عنايته بها ، وأنه لا يغضبه من عباده أن يتمتعوا بما متعهم به منها ، متى أدركوا حكمة الله فى هذا المتاع ، ووقفوا عند حدوده فى الانتفاع » .

وقد رأينا أن ننقل رأى الإمام فى هذه الأقسام التى أقسم الله سبحانه بها فى القرآن ، لأننا لم نجد قولا خيراً من هذا القول ، ولا أوضح منه فى هذا المقام .

قوله تعالى :

* « والنازعات غرقاً »

اختلف المفسرون ـ كشأنهم دائماً فيما يحتمل التأويل والتخريج ـ فلم يجتمعوا على رأى فى مدلول كلمة « النازعات » .

والرأى عندنا ـ والله أعلم ـ أنها هى النجوم البعيدة ، الغائرة ، الغارقة فى أطباق السماء العليا . .

فالنزع : بمعنى الانطلاق ، والنزوح البعيد . .

والغرق : بمعنى الإغراق فى الأمر ، ومجاوزة الحدود . .

* « والناشطات نشطاً »

هى النجوم ، القريبة ـ نسبيًّا ، ـ منّا ، فنرى لها حركات ظاهرة ، على خلاف النجوم ، الغارقة فى أجواء السموات العلا ، حيث تبدو وكأنها مقيدة فى أماكنها ، أما النجوم القريبة ، فتظهر عليها الحركة ، وتبدو كأنها انشطت من عقالها . .

* « والسابحات سبحا »

هى الكواكب ، المطلة علينا فى سماء الدنيا ، كالشمس ، والقمر ، والمشترى والمريخ ، وزحل ، وغيرها .

فهذه الكواكب لقربها منا ، نراها سابحة فى الجو ، كما تسبح الطيور . .

— « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » (٣٨ : يس) . .

* « فالسابقات سبقاً » . .

هى هـذه الـكواكب السابحة سبحاً ، وهى — كما يبدو من ظاهر حركاتها — فى سباق مع بعضها، حيث ترُى الشمس مرة أمام القمر ، ويُرى القمر مرة أمامها . .

* « فالمدبرات أمراً » . .

هى أيضاً نفس هذه الـكواكب ، السابحات سبحاً ، والسابقات سبقاً.. إنها فى تعاملنا معها ، تضبط الزمن ، ساعاتٍ ، وأياماً ، وشهوراً . . « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب » (١٢ : الإسراء) . .

وتدبير هـذه الـكواكب لأمورنا ، هو فيما يظهر من آثارها فى حياتنا ، من حرّ وبرد ، ومن هبوب رياح ، ونزول أمطار ، وإنضاج ثمار ، ومدّ وجزر فى البحار ، وغير ذلك مما نشهده من حركة الشمس والقمر ، وما يتبع هذه الحركة من آثار فى عالمنا الأرضى ، برّاً ، وبحراً ، وجوّا . .

قوله تعالى :

* « يوم ترجُف الراجفة • تتبعها الرادفة » . .

ليس هذا جواب القسم ، فجواب القسم — كما قلنا — هو مادل عليه ختام سورة النبأ ، أما هذا فهو بيان لما يجرى فى يوم القيامة ، الذى جاء القسم لتوكيده ، الأمر الذى يقتضى التسليم به ، فلم يبق إلا بيان ما يَحْدثُ فيه . .

والراجفة : الأرض ، والرادفة السماء . .

فالأرض ترجف يوم القيامة ، ثم تتبعها السماء ، فيما يقع فيها من أحداث هذا اليوم ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : «يوم تُبَدّل الأرض غيرَ الأرض والسموات » (٤٨ : إبراهيم) . .

وقيل : الراجفة : النفخة الأولى ، وهى صعقة الموت : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله » (٦٨ : الزمر) ..

والرادفة : النفخة الثانية ، وهى نفخة البعث : « ثم نُفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » (٦٨ : الزمر) .. وجملة « تتبعها الرادفة » حال من « الراجفة » ..

وقوله تعالى :

* « قلوب يومئذ واجفة » ..

الواجفة : الخائفة ، المذعورة : المضطربة .. والوجيف : ضرب من السير السريع المضطرب .

وهو إخبار عن حال المشركين الذين يكذبون بيوم الدين ، وذلك حين تطلع عليهم أمارات الساعة ، وإرهاصاتها ..

وفى الإخبار عن القلوب ، دون أصحابها ، إشارة إلى أن القلوب فى هذا اليوم ، هى التى تتلقى هذه الأحداث ، وتتفاعل بها ، وأن الإنسان فى هذا اليوم قد استحال إلى قلب واجف مضطرب ، كل جارحة فيه ، وكل عضو من أعضائه ، قد صار قلباً ، يدرك ، ويشعر ، وينفعل .. وذلك من شدة وقع الأحداث ، التى يتنبه لها كيان الإنسان كله .. وفى تنكير القلوب ، إشارة إلى أنها قلوب غير تلك القلوب التى عهدها الناس ، إنها هذا الإنسان المجتمع فيها بكل أعضائه وجوارحه .

قوله تعالى :

* « أبصارها خاشعة » ..

أى أبصار هذه القلوب أو أبصار أصحابها ، إذ لا فرق بين الإنسان وقلبه يومئذ .. والخاشعة الذليلة .. وإنما أوقع الذلّ على الأبصار ، لأنها هى المرآة التى تتجلى على صفحتها أحوال الإنسان ، وما يقع فى القلب من مسرات ومساءات . .

قوله تعالى :

* « يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة . أئذا كنا عظاماً نخرة » ؟ .

الحافرة : الحياة الأولى التى كان عليها الإنسان . . يقال رجع إلى حافرته ، أى إلى الطريق الذى جاء منه . .

والفعل «يقولون» هو الناصب للظرف : « يوم ترجف الراجفة » أى يوم ترجف الراجفة ، متبوعة بالرادفة ، متبوعةً بقلوب يومئذ واجفة ، أبصارها خاشعة — فى هذا اليوم يقولُ المشركون : « أئنا لمردودون فى الحافرة » أى أنردّ إلى الحياة الدنيا مرة أخرى بعد أن نموت ، ونتحول إلى عظام بالية ؟ إن هذه الأحداث لتشير إلى أن هناك بعثاً وحياة بعد الموت ! ! لقد قال الذين يحدثوننا عن يوم القيامة إن هناك إرهاصات تسبقه ، وهذه هى الإرهاصات .. فهل يقع البعث حقا ؟ إن ذلك مما تشهد له هذه الأحداث !

وهكذا تتردد فى صدورهم الخواطر المزعجة ، والوساوس المفزعة .

قوله تعالى :

* « قالوا تلك إذاً كرة خاسرة » . .

أى عندئذ ، وبعد أن يعاين المشركون أمارات الساعة ، وهم فى هذه الدنيا ، وبعد أن يتبين لهم أن أمر البعث جِدٌّ لا هزل ، وأنه لا شكّ واقع — عندئذ « قالوا تلك إذا كرة خاسرة » أى رجعة قد خسرنا فيها أنفسنا ، إذ لم

نكن نتوقعها ، ولم نعمل لها حساباً ..

قوله تعالى:

* « فإنما هى زجرة واحدة ، فإذا هم بالساهرة » .

« هى » ضمير الشأن ، أى فإنما الحال والشأن زجرة واحدة ، أى صيحة واحدة ، أو نفخة واحدة . . « فإذا هم بالساهرة » أى فإذا هم على ظهر الأرض . .

والساهرة : الأرض ، وسميت ساهرة ، لأنه لا نومَ للناس يومئذ فيها ، بل هم فى سهر دائم ، بعد مبعثهم من نومهم فى القبور . .

الآيات : (١٥ — ٢٦)

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٢٦) »

التفسير :

بعد أن واجهت الآيات السابقة المشركين ، بما يقع فى نفوسهم من

كمد وحسرة ، حين تنجؤم الساعة بأحداثها ، وحين يُفلت من أيديهم الطريقُ إلى النجاة — جاءت هذه الآيات لتعرض عليهم وجهاً من وجوه الضلال ، فيه مشابه كثيرة منهم ، وهو وجه « فرعون » وقد أشرنا فى غير موضع إلى أن القرآن الكريم كثيراً ما يجمع بين هؤلاء المشركين وبين فرعون، إذ كانوا أشبه الناس به ، عناداً ، واستعلاء ، وكبراً .

وقوله تعالى :

* « هل أتاك حديث موسى» . .

الخطاب من الله سبحانه وتعالى للنبى — صلوات الله وسلامه عليه — وفيه استدعاء له من هذا الجو الخانق الذى يَنفُثُ فيه المشركون سمومَهم والذى ترى فيه أنفاسهم بدخان كثيف من تلك النار المشتعلة فى قلوبهم، كمداً ، وغيظاً من النبىّ ودعوته .. وفى هذا الخطاب إدناء للنبىّ الكريم من ربه جلّ وعلا ، وإيناس له .

والاستفهام ، يراد به الخبر . . أى لم يأتك حديث موسى . . فاستمع إليه إذن ! وقد جاء الخبر فى صيغة الاستفهام ، لِما يؤذِن به الاستفهام هنا من عظيم اللطف ، وكريم الإحسان من الله سبحانه إلى النبىّ الكريم ، حتى ليخاطبه مولاه خطابَ الحبيب إلى الحبيب ، فى رفق ، ومودّة ، ليقول له : « هل أتاك حديث موسى »؟ أى أعلمت حديث موسى؟ وأتريد أن تعلمه ؟ ألا ، فاستمع! !

وفى هذا مايشير إلى أن ذلك أول ماتلقاه النبىّ من آيات الله، من نبأ موسى وفرعون ..

وقوله تعالى : « إذ ناداه ربه بالواد المقدّس طوى » أى الحديث الذى

نريد أن نبلغك إياه من أمر موسى ، هو ما كان من نداء الله سبحانه وتعالى، إياه ، وهو بالواد المقدس « طوى » ..

و « الوادى المقدس » ، هو واد فى أسفل جبل سيناء ، من الجانب الأيمن منه ، فى الطريق المتجه من الشام إلى مصر . . كما يقول سبحانه : « وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيًّا » (٥٢ : مريم)

و « طوًى» اسم لهذا الوادى .

قوله تعالى:

* « اذهب إلى فرعون إنه طغى »

هو بيان لما نُودى به موسى من ربه ، أى ناداه سبحانه بقوله تعالى : « اذهب إلى فرعون »

وقوله تعالى : « إنه طغى » هو بيان لسبب الدعوة بالذهاب إليه . . إنه طغى ، وتجاوز الحدود فى بغيه وعدوانه ، وفى كفره وضلاله .

قوله تعالى :

* « فقل هل لك إلى أن تزكّى ، وأهديَك إلى ربك فتخشى » .

وتلك هى الرسالة التى يحملها موسى من ربه إلى فرعون . .

وقوله تعالى: « هل لك إلى أن تزكى » أى هل تودّ أن تتزكى ، وتتطهر ؟

وفى هذا الأسلوب الاستفهامى ، ترفق وتلطف فى الدعوة إلى الله ، وفى مواجهة عناد المعاندين وكِبر المتكبرين باللطف واللين . .

إن الحكمة تقضى فى مثل هذا المقام ، أن يستميل الداعى إلى الحقّ مَن يدعوه إليه ، وأن يترفق فى الدخول إلى قلبه ، حتى يجد منه أذنا صاغية ، وقلباً

واعيا ، إذا كان فيه بقية من عقل ، أو يقظة من ضمير . . ولو جاء الداعى إلى مَن يدعوه إلى العدول عن الطريق الذى هو عليه ـ لو جاءه آمراً ، أو زاجراً ، أو فاضحا لحاله المتلبس بها ، لمَا وجد منه إلا إعراضا وازوراراً ، وتنكرّها لسماع ما يلقى إليه من حديث ، فكيف إذا كان هذا المدعوّ جباراً عنيداً كفرعون ؟ ولهذا جاء قوله تعالى : « فقل هل لك إلى أن تَزَكى » راسماً لموسى هذا المنهج الحكيم لدعوة هذا الجبار العنيد ، كما جاء ذلك فى قوله تعالى : « اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » (٤٣—٤٤ : طه) .

وفى هذا الأسلوب القرآنى الخطة المثلى ، والمَثَل الكامل القويم ، لأصحاب الدعوات ، من القادة ، والزعماء ، والمصلحين . . إنهم لن يبلغوا بدعوتهم مواطن الإقناع ، ولن يحصلوا منها على ثمر طيب ، إلا إذا جعلوا الرفق واللين سبيلها إلى الناس ، وإلا إذا غذّوها بمشاعر الحبّ ، والرغبة الصادقة فى الإصلاح ، وبخاصة إذا كان الداعى يدعو إلى حقّ ، ويهدف إلى هدى وإصلاح : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » (١٢٥ : النحل) .

وليس مما يدخل فى هذا الباب ، المداهنةُ ، والمخادعةُ ، والنفاق . . فذلك كله شر ، إذا اختلط بالدعوة الصالحة أفسدها ، وإذا خالط الحقّ أثار الدخان الكثيف فى سمائه الصافية ، فغشّى على الأبصار ، وحجب الرؤية عن مواقع الهدى . .

قوله تعالى :

« فأراه الآية الكبرى » .

هنا كلام كثير محذوف ، دلّ عليه المقام ، أى فجاء موسى إلى فرعون ودعاه فى رفق ولطف إلى الله ، فما كان من فرعون إلا أن ردّ موسى ردّاً قبيحا ، وأغلظ له القول ، ورماه بالكذب والجنون ، فلما أراد موسى أن يدفع هذه التهم عنه ، ويُثبت لفرعون أنه رسول ربّ العالمين ، تحدّاه فرعون بأن يأتى بما يدلّ على أنه رسول من عند الله ـ « فأراه الآية الكبرى » وهى العصا وانقلابها حية تسعى . . وهى أكبر الآيات التى بين يدى موسى . .

وقوله تعالى :

* « فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى ، فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى » .

هذا بيان لموقف فرعون بعد أن أراه موسى الآية الكبرى .. لقد كذب بما رآه واتهم موسى بأنه ساحر . . ثم جمع سَحَرته ، ولقى بهم موسى ، معلنا فى الناس أنه الرب الأعلى ، وأن الرب الذى يدعو إليه موسى ، هو رب دونه منزلةً وعلوّاً . . فهكذا يبلغ الضلال والسّفه بالضالين السفهاء ! !

وفى قوله تعالى : « ثم أدبر يسعى » إشارة إلى أنه بعد أن رأى الحية وأفاعليها ، وما أوقعته فى قلبه وقلوب من معه ـ لبس ثوبَ الحية ، فجعل يسعى فى الناس مهدداً متوعداً ، باعثاً الرعب والفزع فى القلوب ، حتى يخرج منها هذا الفزع الذى استولى عليها من حيّة موسى .

قوله تعالى :

« فأخذه الله نكال الآخرةِ والأولى »

هذه هو ختام القصة . . لقد انتهت بهزيمة فرعون ، وخزيه ، وفضح ربوبيته على أعين الناس .. ثم لم يقف الأمر عند هذا ، بل أخذه الله بالعذاب

فى الآخرة، بأن أعدله أسوأ مكان فى جهنم ، كما أخذه بالعذاب فى الدنيا بأن أماته شر ميتة ، بأن أهلكه غرقا ، ثم ألقى جثته المتعفنة على الشاطئ ، وقد عافت حيوانات البر أن تطعم منها ، بل ظلت هكذا عبرة وعظة ، فى هذا الإله المتعفن ، الذى يزكم الأنوف ريحه النتن . « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » (٩٢ : يونس)

وقدّم نكال الآخرة على نكال الأولى ، لأن عذاب الآخرة أشد وأقسى ، لا يكاد مالقيه فرعون من عذاب فى الدنيا يُعدّ شيئا بالنسبة سيلقاه لما فى الآخرة .

وقوله تعالى :

* « إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى »

أى إن فى هذا الحديث ، وفى الأحداث التى يعرضها القرآن ، لعبرة وعظة ، لمن كان له عقل يرى به مصير أهل السوء والضلال ، فيخشى على نفسه مثلَ هذا المصير ، فيباعد بينها وبين السوء والضلال .

الآيات : (٢٧ — ٤١)

« ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَآ (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٤١) »

التفسير :

تجىء هذه الآيات ، بعد هذا العرض الذى عرضت فيه الآيات السابقة — فى إيجاز — قصة موسى وفرعون ، ومالقى فرعون من خزى وبلاء فى الدنيا ، وما أعد له فى الآخرةمنعذاب أشد خزياً ، وآلم وقعاً من كل عذاب — تجىء هذه الآيات ، لتلقىَ المشركين ، بقوة اللهسبحانه وتعالى ، وليرى المشركون كيف تجليات هذه القدرة ، وكيف آثارها ، وأنهم ليسوا أربابا ، كما ظن فرعون فى نفسه أنه ربّ ، وربٌّ أعلى . .

قوله تعالى :

* « أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ؟ »

أى ماقوتكم أنتم أيها المشركون مع قوة الله ؟ وأين قوتكم من قوة بعض مخلوقات الله ؟

أأنتم أشد خلقاً وقوة أم السماء ؟

فمن بنى هذه السماء ؟ ومن أقامها سقفاً مرفوعا فوقكم ؟

الله بناها ، والله رفع سمكها ، أى قامتها ، والله سواها ، على هذا النظام البديع ، وما تتزيّن به من كواكب ونجوم .

وقوله تعالى :

* « وأغطش ليلها وأخرج ضحاها »

والله — سبحانه — هو الذى أغطش ، أى أظلم ليلها ، أى ليل هذه السماء ، وفى إضافة الليل إلى السماء ، إشارة إلى أن الليل إنما يُرى كوناً معتما ، مطبقاً على الأرض . . فهو ليل السماء ، التى أُطفىء سراجُها ، وهو الشمس . .

والله — سبحانه — هو الذى أخرج ضحى هذه السماء ، وأضاء سراجها ، وأوقده ، بعد أن أخرجه من عالم الظلام .

والإشارة إلى الضحى ، من بين أوقات النهار ، إلفات إلى الوقت الذى يمتد فيه نور الشمس ، فيغمر الآفاق كلها . . وهو ما يسمّى رائعة النهار .

قوله تعالى :

« والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبالَ أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم » .

أى والله سبحانه ، هو الذى دحا الأرض ، وبسطها ، بعد أن رفع السماء وسواها . .

وهو سبحانه الذى أخرج من هذه الأرض الماء الذى فيه حياة كل حى . . وبهذا الماء أخرج الله المرعى ، أى ما يأكله الناس والأنعام . .

والماء الذى يخرج من الأرض ، هو من هذا الماء الملح ، الذى سخرته القدرة الإلهية ، ليكون بخارا ، فسحابا ، فمطراً ، فماء عذبا تفيض به الأنهار ، وتتفجر منه العيون . . وكما أخرج الله سبحانه الماء والمرعى من الأرض ، أرسى فيها الجبال لتمسكها وتحفظ توازنها . .

وقوله تعالى : « متاعاً لكم ولأنعامكم » هو مفعول له ، أى دحا الله الأرض وأخرج منها الماء والمرعى ، متاعاً لكم ولأنعامكم وزاداً تتزودون به لحياتكم وحياة أنعامكم . .

وفى جعل المرعى متاعا للناس والأنعام — إشارة إلى أن الناس والأنعام سواء فى هذا الرزق الذى أخرجه الله سبحانه وتعالى من الأرض ، وأن العقل الذى امتاز به الناس على سائر الحيوان ، ليس هو الذى يفيض عليهم هذا الرزق ، وإنما هو فضل من فضل الله ، ورزق من رزقه ! إنهم يُرزقون من فضل الله كما تُرزق الأنعام . . سواء بسواء . .

قوله تعالى :

* « فإذا جاءت الطامّة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسان ما سعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى » أى فإذا وقعت الواقعة ، وجاء اليوم الموعود ، الذى هو طامة كبرى ، وبلاء عظيم على أهل الضلال والفساد ، والذى يتذكر فيه كل إنسان ما عمل من خير وشر ، وبُرزت الجحيم ، أى ظهرت بارزة واضحة لمن كانت له عينان يبصر بهما ـ إذا كان كل ذلك ، حُوسب الناس على ما عملوا ، ولاقى كل عامل جزاء عمله . .

فجواب الشرط محذوف ، دل عليه ما بعده من قوله تعالى : « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا . . »

قوله تعالى :

* « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هى المأوى »

أى أنه إذا حوسب الناس ، اختلفت منازلهم ، حسب أعمالهم . . فأما من طغى واستكبر ، وسلك مسلك فرعون ، وآثر الحياة الدنيا ، ولم يعمل للآخرة عملا ـ فإن جهنم هى مأواه ، ومنزله الذى يأوى إليه . .

قوله تعالى :

* « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المـأوى » .

أى وأما من خشى ربه ، وخاف حسابه وعذابه ، وصرف نفسه عن هواها ، ابتغاء مرضاة الله ـ فإن الجنة مأواه ، ومنزله الذى يَهْنَأ فيه بنعيم الله ورضوانه .

وفى قوله تعالى : « ونهى النفس عن الهوى » — إشارة إلى أن لأهواء النفس سلطانا قاهرا ، وأنه إذا لم يقُم الإنسان على نفسه ناهيا ينهاها ، وزاجراً يزجرها عن اتباع هواها كلما دعتها دواعيه — إنقاد لهذا الهوى الذى يغلبه على أمره ، ويطرحه فى مطارح الضلال ، والهلاك .

الآيات : (٤٢ — ٤٦)

* « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَآ (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ (٤٤) إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) »

التفسير

قوله تعالى :

* « يسألونك عن الساعة أيان مرساها »

أى يسألك المشركون أيها النبى ، عن القيامة : متى موعدها ؟ ومتى تُلقى مراسيها على الشاطىء الموعود ؟

وفى قوله تعالى : « أيّان مرساها » — إشارة إلى أن الحياة الدنيا ، أشبه بسفينة أقلعت بالناس ، آخذة مسيرتها بهم على أمواج الزمن ، حتى تُلقى بهم على الشاطىء الآخر ، المقابل للشاطىء الذى أقلعت منه سفينتهم . فكأنهم يقولون : متى ترسو بنا سفينة الحياة على مرفأ هذا اليوم الموعود ؟ إنهم يسألون سؤال المنكر المستهزىء

وقوله تعالى :

* « فِيمَ أنت من ذِكراها »

أى فى أى شىء أنت أيها النبى من ذكرها لهم ؟ إنك لا تدرى ما جواب هذا السؤال الذى يسألونك فيه عن يومها ، لأنك لم تسأل ربك هذا السؤال ، ولم تَشْغل نفسك به ، ولم تتكلف له جوابا ، لأنه ليس الذى يعنيك من هذا اليوم موعده ، وإنما الذى أنت مشغول به منه ، هو لقاؤه ، والإعداد له . . وهو آت لا ريب فيه . .

قوله تعالى :

* « إلى ربك منتهاها »

أى أن أمر الساعة عند الله ، وإليه منتهى مسيرة الناس إليها ، لا يعلم أحد متى يكون ذلك . . كما يقول سبحانه : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثَقُلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة » (١٨٧ : الأعراف)

قوله تعالى :

* « إنما أنت منذرُ من يخشاها »

أى أنه ليس لك أن تسأل عنها ، ولا أن تجيب السائلين عن سؤالهم عن يومها ، فليس ذلك من رسالتك ، وإنما رسالتك هى أن تُنذر بها ، وتحذّر منها ، من يخشاها ، ويعمل حسابها ، ويُعدّ نفسه ليومها .

قوله تعالى :

* « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها »

أى أن هؤلاء الذين يسألون عن الساعة ، ويستعجلون يومها ، استهزاء ، واستخفافا ، دون أن يُعدّوا أنفسهم لها ـ هؤلاء سيعلمون حين تطلع عليهم أن رحلتهم إليها لم تَطلْ ، وأنهم لم يلبثوا فى دنياهم إلا عشيةَ ليلة ، أو ضُحَى هذه الليلة . .

* * *

(٨٠) سورة عبس

نزولها : مكية . . نزلت بعد سورة النجم .

عدد آياتها : اثنتان وأربعون آية .

عدد كلماتها : مائتان وثلاث وثلاثون.. كلمة .

عدد حروفها : خمسمائة وثلاثةوثلاثون . . حرفا .

مناسبتها لما قبلها

كان مما خُتمت به سورة « النازعات » قوله تعالى : « إنما أنت منذرُ من يخشاها » وكان فى ذلك ما يشير إلى المقام الذى يأخذه النبي من قومه ، الذين لج بهم الضلال والعناد ، وجعلوا همهم المماحكة والمجادلة ، ولقاء النبي بالأسئلة التى لا محصّل لها ولا ثمرة منها . . إنهم لم يؤمنوا بوقوع هذا اليوم - يوم القيامة - وسؤالهم عن موعِد شيء لا يؤمنون به ولا يصدقون بوجوده ، إنما هو ضلال من ضلالهم .

وجاءت سورة « عبس » مفتتحة بهذا الموقف ، الذى كان بين النبي وبين جماعة من المعاندين الضالين ، الذين طمع النبي فى هدايتهم ، فصرف إليهم وجهه كله ،دون أن يلتفت إلىذلك الأعمى ، الذىآمن بالله ، والذى جاءهيطلب مزيداً من النور والهدى . .

وكلاّ ، فإنه ليس ذلك من محامل دعوةالنبي ، التى رسم الله له طريقها فى قوله : « إنما أنت منذرُ مَن يخشاها » . . وهؤلاء الضالون المعاندون لا يخشونَ الله ، ولا يؤمنون باليوم الآخر، ولن يؤمنوا أبدأمهما طال وقوفكمعهم . .

وكلا : « إنها تذكِرة • فمن شاء ذكره »

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٦)

« عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « عَبَس وتولى * أن جاءه الأعمى » .

فاعل عبس ضميرُ غيبة ، يُراد به النبيّ ـ صلوات الله وسلامه عليه .

والأعمى الذى جاء إلى النبى ، فلم يَهشّ له ، هو عبد الله بن أم مكتوم الأعمى .. وهو صحابى جليل ، من المهاجرين الأولين .

وفى توجيه الحديث إلى النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بضمير الغائب ، تكريم له من الله سبحانه وتعالى ، وحماية لذاته الشريفة ، من أن يواجَه بالعتب واللوم ، وأن تَلتفت إليه الأنظار وهو فى تلك الحال التى يكون فيها بموضع اللائمة والعتاب .. فالذى عَبس غائب هنا عن محضرِ هذه المواجهة والعتاب .

ويذكر النبي الكريم من هذا العتاب الرفيق من ربه، أنه كان فى مواجهة جماعة من عُتاة المشركين ، ومن قادة الحملة المسعورة عليه ، وعلى دعوته ، وقد انتهزها النبي فرصة ، لإسماعهم كلمات الله ، لعل شعاعات من نورها ، تصافح قلوبهم المظلمة ، فتستضىء بنور الحق ، وتَفِىء إلى أمر الله ، وتتقبل الهدى المُهدَى إليها .. فإن ذلك لو حدث لانفتح هذا السد الذى يقف حائلا بين الناس ، وبين الإيمان بالله ، ولدخل الناس فى دين الله أفواجا . .

ويذكر النبي أيضاً ، من هذا العتاب الرقيق من ربه ، أنه وهو فى مجلسه هذا مع عُتاة قومه ، أن هذا الأعمى ، قد ورد عليه ، ولم يكن يعلم من أمر النبيّ ماهو مشغول به ، فجعل يسأل النبي أن يقرئه شيئاً من آيات الله ، فلم يلتفت إليه النبي ، وهو يسأل ، ويسأل ، حتى ضاق به الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وظهر ذلك على وجهه الشريف . .

* « عَبَس وتولى » . .

والعبُوس : تقطيب الوجه ، ضيقاً ، وضجراً ، والتولىّ : الإعراض عن الشىء ، تكرّهاً له . .

وإذ يذكر النبيّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ موقفه هذا ، بعد أن تلقى تلك الفتة الكريمة الرحيمة من ربه ، ويراجع نفسه عليها ، يلقاه قولُه تعالى :

* « وما يُدريك لعله يزكى . أو يذّكر فتنفعه الذكرى » .

وهنا ينتقل النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من حال الغيبة إلى حال الحضور ، فبعد أن كان ينظر إلى ذاته من داخل ، وكأنه مع ذاتٍ غير ذاته ، إذا هو يرى ذاته ماثلة بين يديه ، وكأنه هو الذى يحاسبها ويراجعها ، وكأنه هو الذى يخاطِب نفسه ، ويقول لذاته : « وما يُدريك لعله يزكى » !

وتبدو الصورة هكذا :

الذى عبس وتولى غائب ، ليس هنا فى مجلس النبىّ . . إنه هناك . . بعيد بعيد . !

ثم إن هذا الغائب ، إذ يَبْسَم بعد عُبوس ، وإذ يقُبل بعد إعراض ، وإذ يكون على الحال التى تتناسب ومقام الخطاب من ربه . . هنا يقبل عليه ربه ـ سبحانه وتعالى ـ مخاطباً معلمًا ، ومرشداً . .

فتوجيه الخطاب من الله سبحانه ، إلى النبى أولاً ، بضمير الغائب ، فيه عتبٌ ، وفيه إعراض ، وخطابه سبحانه إلى النبىّ ثانياً ، بضمير الحاضر ، فيه الرضا بعد العتب ، والإقبال بعد الإعراض . .

وفى قوله تعالى : « وما يدريك لعله يزكى » ـ إشارة إلى ما كان يبغى هذا الأعمى من حضوره مجلسَ النبى ، والإلحاح بسؤاله . . إنه يسأل سؤالَ من يريد مزيداً من العلم ، ومزيداً من الهدى . .

والاستفهام هنا يراد به النفى ، أى ومن أين لك أنت أن تعلم أن هذا الأعمى لاينتفع بما يسألك عنه ، حتى تُعرض عنه ؟ أنت لاتعلم ، وقد كان ينبغى فى تلك الحال أن تجيبه إلى ماسأل ، لعله ينتفع بما يتعلمه ، ولعله يتزكى ، أى يتطهر بما يُفاض عليه من علم ، أو لعله يتلقى من حديثك إليه مايقيم له عظة تنفعه ، وتزيد فى إيمانه . .

قوله تعالى :

* « أما من استغنى ، فأنت له تصدّى ، وما عليك ألاّ يزّكى » .

هنا تفصيل لمجمل هذا الحَدَث ، الذى جاء من أجله هذا العتاب . . أى كان موقفك هنا أيها النبى معدولا به عن الطريق الذى ينبغى أن يكون عليه . . وإليك بيان هذا الموقف :

أما من استغنى عنك ، وزهد فيما فى يديك من علم وهدى ، « فأنت له تصدى » أى تتعرض له ، وتمسك به ، وتنشده إليك ! وإنك لتعلم أنه ماعليك إلا البلاغ ، وأنه ليس من همك أن تحمل الناس حَمْلا على الإيمان ، فإنه لاعليك من لوم ، إذا لم يؤمن ، ولم يتطهر بالإيمان ،من إذا دعوته ، وبلغته رسالة ربك ـ فلم يستجب إليك . . هذه حال دعاك الحرص فيها على هداية الناس ، إلى أن جاوزت حدود الخط المرسوم لدعوتك . .

هذا من جهة . . ومن جهة أخرى ، فإنك وقفت موقفاً مخالفاً لموقفك الأول ، فبينما أنت تقبل على من أعرض عنك ، وزهد فيما معك ، إذا أنت تُعرض عن أقبل عليك ، ورغب فيما بين يديك من نور الله !!

* « أما من استغنى . فأنت له تصدى . وما عليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تَلَهّى » .

أليس ذلك كذلك ؟ ألم يكن هذا موقفك ؟

وكلاً . . إن الأمر ليس على هذا الوجه . . كما سنبين لك .

وفى قوله تعالى : « جاءك يسعى » إشارة إلى الرغبة المنبعثة من صدر هذا الأعمى ، والتى تدفعه دفعاً إلى أن يَحُثّ الخطا ، وأن يسعى إلى النبى فى انطلاق وشوق ، مع أنه فى قيد العمى والعجز .

وقوله تعالى : « وهو يخشى » حال أخرى ، من فاعل : « جاءك » أى تلك حال هذا الأعمى ، إنه جاءك ساعياً إليك ، خاشياً لله . .

وقوله تعالى : « فأنت عنه تلهى » . . إشارة إلى أن ما كان فيه النبى — صلوات الله وسلامه عليه — من حديث مع هؤلاء المشركين المعاندين من قومه ، وأنه حديث لامحصّل له ، ولا ثمرة من ورائه ، إذ كان القوم معرضين عنه ،

متكرهين له .. فكأنه إنما يتلهى بهذا الحديث ، الذى لا يجىء بثمر .. وإن كان — صلوات الله وسلامه عليه — جادًّا فى هذا الحديث كل الجد ، مقبلا عليه كل الإقبال ، ولكنه إنما يضرب فى حديد بارد ، أشبه بمن يريد أن يستنبت الزرع فى الصخر الصلد . . فمن رآه على تلك الحال لم يقع فى نفسه إلا أنه يتلهى بما يعمل ..

قوله تعالى :

* « كلا إنها تذكرة * فمن شاء ذكره » ..

أى ليس الأمر كما تصورته أنت أيها النبىّ ، ولا على الموقف الذى وقفته هنا . .

« إنها تذكرة » أى إن دعوتك ، هى تذكرة للناس ، وتنبيه للغافل ، وحسب . .

وليس لك أن تذهب إلى أبعد من هذا .. فمع كل إنسان عقله الذى يهديه ، ومع كل إنسان فطرته التى من شأنها أن تدعوه إلى الحق والخير ، وتصرفه عن الضلال والشر . .

إن رسالة الرسل ليست إلا إيقاظاً لهذا العقل إذا غفل ، وإلا تذكيراً لهذه الفطرة إذا نسيت .. وإنه ليكفى لهذا أن يؤذّن مؤذّن الحقّ فى الناس ، فمن شاء أجاب ، ومن شاء أعرض ! .

والضمير فى « ذَكَره » وهو الهاء ، يعود إلى الله سبحانه وتعالى ، فمن شاء ذكر ربه بهذه التذكرة التى جاءته من آيات الله ، التى يتلوها عليه رسول الله . .

قوله تعالى :

« فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدى سفرة ، كرام بررة » . .

أى هذه التذكرة ـ وهى آيات الله ـ هى فى صحف مكرمة عند الله ، وهى صحف مطهرة فى مقام عالٍ لا يرق إليها فيه دنس .. والصحف المكرمة المطهرة ، صحف اللوح المحفوظ . .

قوله تعالى : « مرفوعة » أى عالية القدر ، مطهرة من كل نقص أو عيب . .

وقوله تعالى : « بأيدى سفرة » أى أنها محمولة من اللوح المحفوظ إلى رسل الله بأيدى ملائكة ، يَسفرُون بها بين الله سبحانه وتعالى ، وبين رسله ، فهم سفراء الله إلى الرسل ..

والبررة ، جمع بارّ ، وهو التقىّ النقى ، المبرأ من الدنس والرجس ..

هذا ، وفى هذه الآيات التى ووجه فيها النبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — بهذا العتاب الرحيم الرفيق من ربه — ما نود أن نقف عنده :

فأولا : أن قدر الإنسان ومنزلته ، هى فيما فى عقله من بصيرة ، وما فى قلبه من استعداد لتقبّل الخير والإقبال عليه .. وأن رجلا فقيراً أعمى يحمل مثل هذا العقل وذلك القلب ، لَيرجح ميزانُه المئاتِ والألوف من الذين عميت بصائرهم ، وزاغت قلوبهم ، ولو كانوا فى الناس سادة ، وقادة ، بما لِهم ، وجاههم وسلطانهم ..

رُوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تألف من تألف من قادة قريش وزعمائها مما أفاء الله عليه من أموال هوازن ، مثل عيينة بن حصن ، وأبى سفيان ، ومعاوية ، والأقرع بن حابس وغيرهم — سأله بعضُ أصحابه فى شأن جُعيل بن سُراقة ، وأنه من فقراء المسلمين ، ومن أهل البلاء فيهم .. فقال صلوات الله وسلامه عليه :

« أمَا والذى نفسى بيده لجَميل بن سراقة خير من طِلاع[1] الأرض مثل عيينة والأقرع ، ولكن تألفتهما ليُسلما ، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه » ..

وثانياً : أن هؤلاء المشركين من قريش ، لايرى فيهم الإسلام شيئاً يُحرَص عليه ، ويشتدّ طلبه له ، وأن أى مسلم من الجماعة التى دخلت فى دين الله، وآمنت به ، وصَدَق إيمانُها ، هو ـ فى ميزان الإسلام شىء ـ عظيم ، وأن بشاشة النبىّ فى وجهه لا يحرمه منها طمع فى إسلام هؤلاء المشركين الذين ما زالوا فى قبضة الشرك .. فالأمر هنا موازنة بين مؤمن ، تحقّق إيمانُه ، وبين مشركين مطموع فى إيمانهم .. ومع هذا فإن سبقه إلى الإيمان — وبصرف النظر عن تقبّل هؤلاء المشركين الإيمان أو إعراضهم عنه — يجعل كفّته راجحة عليهم أبداً، وإن يلحقوا به حتى ولو وقع الإيمان فى قلوبهم مثل ماوقع فى قلبه ، ففضل السبق إلى الإيمان ، منزلة لا يبلغها إلا أهل السبق . .

الآيات : (١٧ — ٣٢)

« قُتِلَ ٱلْإِنسَانُ مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧) مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣) فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٢) »

(١) من طلاع الأرض : من ملء الأرض .

التفسير :

تعود هذه الآيات إلى الكشف عن نفوس أهل الكفر والضلال ، وأنها نفوس منطوية على فساد قاتل لكل معنًى من معانى الحق والخير فيها . .

وقوله تعالى: « قتل الإنسان ما أكفره » !! هو تعجب من أمر هذا الإنسان الذى يحمل فى كيانه الكفرَ والضلال . . والدعاء عليه بالقتل هنا هو جارٍ على مألوف عادة العرب من دعائهم على من يكون على بِدْعٍ من الأمر ، وذلك فى الاستهجان ، أو الاستحسان على السواء ..

وقوله تعالى « ما أكفره » أى ما أشد كفره ، وضلاله .. ويجوز أن تكون « ما » للاستفهام .. أى قتل الإنسان ماذا دعاه إلى الكفر ؟

والمراد بالإنسان هنا ، هوجنس هذا الإنسان الضال العنيد ، لا كل الإنسان على إطلاقه ..

قوله تعالى:

* « من أى شىء خلقه ؟ »

هو كشف عن شناعة ضلال هذا الضال ، وكفره بربه . . إنه من ضلاله البعيد ، ينسى أن له خالقاً خلقه من عدم أو ما يُشبه العدم .

قوله تعالى :

* « من نطفة خلقه فقدّره . ثم السبيلَ يسره »

هو جواب على هذا السؤال ، الذى كان من شأن الإنسان أن يجيب عليه، ولو أنه أجاب على هذا السؤال الجوابَ الصحيح لآمن بربه ، وشكر له . . ولكنه لم يسأل نفسه ، هذا السؤال ، ولم يُجب أو لم يحسن الإجابة على هذا السؤال إذا

سُئل . . والاَ فليسمعْ الجوابَ الصحيح ، إن كانت له أذنان يسمع بهما . . .
« من نطفة خلقه ، فقدّره » . .فهذا هو الجواب

وقوله تعالى : « فقدره » أى فقدر خلقه ، وحدد صورته ، وشكّل ذاته من تلك النطفة على الوجه الذى اقتضته إرادة الخالق جل وعلا فيه . . فكان ذَكَراً أو أنثى ، جميلا أو قبيحاً ، ذكيًا أو غبيًّا، غنيًا أو فقيراً . . إلى غير ذلك مما يتصل بالإنسان ، ذاتاً ، وحياة . .

قوله تعالى :

* « ثم السبيلَ يسره »

أى ثم بعد أن تمّ تكوينُه وخلقه ، يسّره الله سبحانه وتعالى إلى الطريق الذى يسلكه فى الحياة ، من استقامة وعوج ، ومن هدى وضلال ، ومن إيمان وكفر ، كما يقول سبحانه : « وهديناه النجدين » (١٠ : البلد)

قوله تعالى :

* « ثم أماته فأقبره »

ثم أمات الله هذا الإنسان بعد أن انتهى أجلُه المقدور له فى الحياة الدنيا ، وجعل له بعد الموت قبراً يُدفن ويوارَى جسده فى ترابه ، فلا تظهر الأحوال التى تعرض له بعد الموت ، من تعفن ، وتفسخ وتحلل ، والتى من شأنها أن تثير الاشمئزاز والهوان للكائن الإنسانى كله . . فكان هذا الدفن فى القبر مواراة لهذه السوءات ، ولهذا قيل : « من تكريم الميت التعجل بدفنه » .

قوله تعالى :

* « ثم إذا شاء أنشره » .

أى أنه حين يشاء الله نشرَ هذا الميت ، وبعْثه من قبره ـ نشره بقدرته التى لا يُعجزها شىء

والنشر لا يكون إلا بعد طىّ ، وقد كان الإنسان حيًّا ، ثم طويت حياته بالموت ، ثم هاهو ذا يُنشر بعد طىّ ، بالبعث والحياة بعد الموت .

قوله تعالى:

* « كلاَّ لمّا يقض ما أمره »

وهذا النفى فى قوله تعالى : « كلا » هو جواب على سؤال يرد عند عرض هذه الآيات التى تتحدث عن قدرة الله سبحانه وتعالى ، وعن آثارها فى هذا الإنسان الذى كفر بربه ، بعد أن خلقه من نطفة ، ثم سوّاه رجلا . .

والسؤال هو : هل آمن هذا الكافر الذى تتمثل فيه وجوه هؤلاء المشركين جميعاً ، بعد أن عرضت عليه هذه الآيات ؟

فكان الجواب : كلا . . لمّا يقض ما أمره الله به ، ودعاه إليه ، من الإيمان والعمل الصالح . . وفى نفى هذا الخبر عن الإنسان بحرف النفى « لما » التى تفيد امتداد النفى إلى الوقت الحاضر ، ولا تتجاوزه إلى المستقبل ، الذى لم يُحكم عليه إلى الآن بالنفى أو الإيجاب — فى هذا ما يشير إلى أن هؤلاء المخاطَبين من المشركين فى شخص هذا الإنسان ، وإن كانوا لم يؤمنوا بالله بعد ، فهم ما زالوا فى معرض الإيمان ، لم ينقطع بهم الطريق إليه ، وأنه يُرجى منهم أن يؤمنوا ، أو أن يؤمن معظمهم .. وقد كان .. فهؤلاء المشركون ، قد آمنوا بالله بعد هذا ، ودخلوا فى دين الله أفواجاً ، ولم يبق منهم بعد الفتح مشرك .

والمراد بالأمر فى قوله تعالى : « ما أمره » — هو الأمر التكليفى ،

لا الأمر الخلقى التقديرى . . إذ لو كان أمراً تقديريًا لكان نافذاً لا يرد، ولما كان للمأمور أن يخرج عن هذا الأمر . .

قوله تعالى :

« فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبًّا . ثم شققنا الأرض شقًا . فأنبتنا فيها حبًّا . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلا . وحدائق غلباً . وفاكهة وأبًّا »

وفى هذه الآيات لقاء مع الإنسان أمام معرض آخر من معارض قدرة الله ، بعد أن عُرضت عليه ذاته الإنسانية ، وما لله سبحانه وتعالى فيها من عجيب الخلق وبديع الصنع ، فلم يُحدث له ذلك ذِكراً ، ولم يفتح له طريقاً إلى الإيمان بالله .

وفى هذا المعرض ، يرى الإنسان دلائل قدرة الله ، فيما هو خارج عن ذاته الإنسانية ، إذ قد يرى الإنسان ما هو خارج عن ذاته ، دون أن يرى هذه الذات ولا ما بداخلها . .

فهذا الطعام الذى يأكله الإنسان . . من أين جاء ؟ ومن جاء به ؟

فلينظر الإنسان إلى هذا الطعام ، ولينظر إلى أنا قد صببنا الماء صبًّا ، أى أنزلناه من السماء ، ثم شققنا الأرض شقًّا بما يخرج منها من نبات ، نخرج من هذه المتشققات الحبّ ، وهو كل ما حُصد من برّ ، وأرز ، وشعير ، وذرة ، ونحوها . . كما خرج منها العنب ، والقضب ، وهو ما يؤكل من النبات رطبا ، كالبصل ، والفجل ، ونحوها .

وخرج منها الزيتون ، الذى يستخرج منه الزيت ، ليكون إداما ، والنخل الذى يثمر التمر الذى يُتفكه به بعد الطعام

فالحب يُتخذ منه الخبز، والعنب يتخذ منه الخل، والقضب ـ كالخس، والبصل ونحوها ـ تتخذ منه المخللات، والزيتون، يتخذ منه الزيت، والنخل، يؤخذ منه التمر . . ومن هذا جميعه تنتصب مائدة كاملة بين يدى الإنسان، فيها طعامه وإدامه، وما يتخلل به أثناء طعامه، ومايتفكه به بعد الطعام !!

كذلك خرج من هذه الأرض الحدائق الغُلب، أى كثيرة الأشجار ذات الظلال، والفواكه، وفى هذه الحدائق متعة العين، وبهجة النفس، ومسرة القلب، يجىء إليها الإنسان، ليتنعم، ويهنأ بالاستظلال بظلها، بعد أن يستوفى حاجته من الطعام . . فتتم بذلك النعمة، ويكمل النعيم .

وفى هذه الحدائق الغُلب، ذات الظلال الممدودة، والفواكه الدانية القطوف، بسط ممدودة من العشب، الذى يكسو أرض هذه الحدائق بهجة، وجمالا . . وهذا العشب هو « الأبّ » الذى يمسك بالأرض، ويلتصق بها، ويتأبى ـ مع صغره، وضعف سُوقه ـ على الرياح والعواصف أن تنتزعه من مكانه ..هذا، وفى تلك النعم التى ينعم بها الإنسان، جانب تناله الأنعام وتأكل منه، كورق الشجر، والعنب، والقضب ونحوه . ولهذا جاء قوله تعالى تعقيباً على هذه النعم : « متاعاً لكم ولأنعامكم » .

وقد اختلف العلماء فى معنى كلمة « الأبّ » وتواردت عليها كثير من الآراء، والروايات، لما رأوا من غرابة هذه الكلمة، وقلة دورانها على الألسنة، ومجيئها فى سياق كلمات معروفة، كثيرة التداول، كالحبّ، والعنب، والقضب، والزيتون والنخل .

وحين تكثر الآراء حول معنى كلمة من الكلمات، تُجلب لها الروايات التى تُضيف أقوالا إلى صحابة رسول الله، بل إلى رسول الله أحياناً، يَسْنِد بها كل

ذى رأى رأيه ، حتى ليجد المرء نفسه بين هذه الآراء المتعارضة المتضاربة ، أن الأولى به أن يَدَعها جميعها ، وأن يجعل هذه الكلمات من كتاب الله ، من المتشابه ، الذى لايعلم تأويله إلا الله !!

ومن الروايات التى رويت حول كلمة « الأبّ » ما يروونه مضافا إلى أبى بكر رضى الله عنه ، وقد سئل عن معنى الأب ، فقال : « أى سماء تُظلنى ، وأى أرض تُقلنى إذا قلت فى كتاب الله مالا علم لى به » !!

كذلك يروون أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قرأ هذه الآية مرة ، فقال : « كلّ هذا قد عرفنا . . فما الأب ؟ » قالوا : « ثم رَفَضَ عمر عصا كانت بيده — أى كسرها غضبا على نفسه ، ولوماً لها — وقال : « هذا لعمْرو الله التكلف . . وما عليك يابن أم عمر أن لاتدرى ما الأب ؟ » . . ثم قال : « اتّبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب ، ومالا ، فدعوه !! » .

ونحن نقطع بتلفيق هذين الخبرين ، وإلا كان علينا أن نلغى عقولنا ، وأن نعطل مداركنا ، ولنا على القطع بتلفيق هذين الخبرين أكثر من شاهد :

فأولا : هذه الآية ، فى سورة مكية ، ومن أوائل مانزل بمكة من آيات الله . . وهذا يعنى أن هذه الآية كانت على ألسنة السابقين الأولين من المسلمين، كأبى بكر وعمر — رضى الله عنهما — وأنها كانت مما يُتلى من آيات الله كل يوم مرات كثيرة ، وليس يُعقل — مع هذا — أن تظل كلمة « الأب » خفية الدلالة ، بين هذه المجموعة من الكلمات التى تعدد نعم الله ، والأب لاشك نعمة من تلك النعم ، وصنف من أصنافها — نقول لا يعقل أن تظل هذه الكلمة — وهذا شأنها — خفيّة الدلالة على أصحاب رسول الله ، ثم لايتوجهون إليه — صلوات الله وسلامه عليه — بالسؤال عنها ، إن كان معناها غائباً عنهم !

وثانياً : لايعقل أيضاً أن يمضى العهد المكى ، ثم العهد المدنى ، دون أن

تُحدِّث عمرَ نفسُه هذا الحديث الذى تحدث به من الأبّ ، إلا بعد أن يفارق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هذه الدنيا ، ويلحق بالرفيق الأعلى ، ثم يجد عمر هذه الكلمة ، وكأنه يتلوها لأول مرة !!

وثالثاً : لا يعقل أيضاً أن يأتى القرآن الكريم فى معرض آياته التى تحدث للمشركين عن نعم الله التى أفاضها عليهم ، بكلمة لا يعرفون لها مدلولا ، ولا يجدون لها فيما بين أيديهم من نعم ـ مكاناً !! .

ورابعا : ورد فى الشعر العربى الجاهلى ، أكثر من شاهد ، يدل على أن العرب كانوا يعرفون كلمة الأب فى قاموس لغتهم ، وكانوا يستعملونها فى المعنى المناسب لها ..

ومن الأشعار للروية ، مايروى عن الأعشى من قوله فى الفخر :

جَذْمُنا قيسٌ وسعد دارنا ولنا الأبُّ بها والمكرع(١)

هذا ، ويعلق الإمام محمد عبده ، على الرواية المنسوبة إلى سيدنا عمر ابن الخطاب — على فرض التسليم بصحتها — فيقول :

« إذا سمعتَ هذه الروايات ، فلا تظنّ أن سيدنا عمر بن الخطاب ينهى عن تتبع معانى القرآن ، والبحث عن مشكلاته ، ولكنه يريد أن يعلمك أن الذى عليك من حيث أنت مؤمن ، إنما هو فهم جملة المعنى . . فالمطلوب منك فى هذه الآيات ، هو أن تعلم أن الله يمنّ عليك بنعم أسداها إليك فى نفسك، وتقويم حياتك ، وجعلها متاعا لك ولأنعامك . . فإذا جاء فى سردها لفظ لم تفهمه ، لم يكن من جَدّ المؤمن — أى من حظه — أن ينقطع لطلب هذا المعنى ، بعد فهم

---

(١) الجذم : الأصل : ويروى جدنا بدلا من جذمنا ، والمكرعات : النخل التى على الماء ، والمكرع : الماء نفسه ، والمنهل الذى يروى منه .

المراد من ذكره، بل الواجب على أهل الجد والعزيمة، أن يعتبروا بتعداد النعم وأن يجعلوا معظم همهم الشكر، والعمل . .

ثم يمضى الإمام فيقول :

« هكذا كان شأن الصحابة — رضى الله عنهم — ثم خَلَفَ من بعدهم خَلْف وقفوا عند الألفاظ، وجعلوها شغلا شاغلا، لا يهمهم إلا التشدق بتصريفها وتأويلها، وتحميلها مالا تحتمله، وقد تركوا قلوبهم خالية من الفكر والذكر، وأعضاءهم معطلة عن العمل الصالح والشكر ! » . .

الآيات : (٣٣ — ٤٢)

* « فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ (٤٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « فإذا جاءت الصاخة »

الصاخة : هى الطامة الكبرى، التى جاء ذكرها فى قوله تعالى : « فإذا جاءت الطامة الكبرى » (٣٤ : النازعات) وهى تلك الأحداث المزلزلة التى تقع يوم القيامة . .

وسميت صاخة، لأنها تصخّ الآذان، أى تقرعها قرعا شديداً عاتيا، بما يكون من صراخ وعويل، وصرير أسنان . . فى هذا اليوم العظيم .

وقوله تعالى .

* « يوم يفرّ المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته ، وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه »

يومَ ، هو الظرف ، الذى تجىءُ فيه هذه الصاخة ، المدويّة ، المرعبة . .

وفى هذا اليوم : « يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . » يفر من كل هؤلاء الذين كانوا ملاذه ، وعونه ، وأمْنه ، طالباً النجاة لنفسه من هذا الهول، الذى لايدع فرصة لأحد أن ينظر إلى غير نفسه : « لكل امرىءٌ منهم يومئذ شأن يغنيه » : فكل إنسان فى هذا اليوم همّه الذى يشغله ، ويستغرق كل ذرة فى كيانه ، فلا يبقى عنده فضل لغيره ، ولو كان أحب الناس إليه وآثرهم عنده .

ومن الإعجاز النفسى للقرآن الكريم فى هذه الآيات ، أنه غاص فى أعماق النفس الإنسانية ، وأقام مشاعرها على ميزان دقيق محكم ، فجاء هذا الترتيب لموقف الإنسان ممن يفر منهم فى زحمة هذا البلاء ، حسب درجة شعوره بهم ، ووزنه لكل منهم . .

إنه يفرّ أولا من الناس جميعاً . . جملة واحدة . . لا ينظر إلى أحد . .

ثم هو يجد نفسه مع أشخاص قد ارتبط بهم ارتباط الجسد بأعضائه . . هم أهله، الذى هو فرع من شجرة جمعتهم وإياه . . أخوه ، وأمه وأبوه، وزوجه وبنوه!

ثم هو من جهة أخرى محمول بالإكراه ــ تحت قسوة الموقف ــ أن يفر منهم جميعاً . . ومع أن زحمة الأحداث، وشدة البلاء ــ لاتدع له فرصة الاختيار ، إلا أنه فى لحظة خاطفة ، من أجزاء الزمن ، أشبه بالذرات ــ يفرّ منهم على صورة تأخذ هذا الترتيب التصاعدى ، القريب ، فالأقرب ، فمن هو أشد قربا . . فيفر أولا من أخيه ، ثم أمه وأبيه ، ثم زوجه ، ثم يكون آخر من ينفصل عنه

أبناؤه الذين هم بَضعة منه ، والذين لا يبقَى بعدهم من ينفصل منه إلا بعض أجزاء جسمه هو ! !

وليس هناك ـ كما قلنا ـ زمن يقع فيه هذا الفرار على آنات متتابعة ، وإنما هى وحدة شعورية بالفرار ، انقسمت فى داخلها ، كما تنقسم الذرة !

ويلاحظ أن الزوجة ، لم تأخذ مكانها من هذا الترتيب، ولم تفضُل الأبوين، إلا وهى زوجة ذات صفات خاصة ، وهى أنها صاحبة وزوج معاً ، والزوجة حين تكون بهذه الصفة هى أقرب مخلوق إلى نفس الإنسان وآثره، بعد الأبناء !

هذه هى حركة النفس الإنسانية ، وتلك معطيات شعورها فى حال الفرار من الخطر ، والتماس سبيل النجاة . .

فإذا كان الإنسان واقعاً ليد الخطر فعلاً ، وقد أحاط به من كل جانب ، وعلقت به النار من رأسه إلى إخمص قدمه ـ فما الحركة الشعورية للنفس فى دفع هذا الخطر ، وإطفاء تلك النار المشتعلة فيه ؟

نجد الجواب على هـذا فى قوله تعالى ، فى سورة المعارج ، إذ يقول سبحانه :

« يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلتـه التى تُؤويه ، ومن فى الأرض جميعـاً ثم ينجيـه * كلا إنها لظى » . (١١ — ١٥)

إن الحركة الشعورية للإنسان هنا تأخذ اتجاها عكس الاتجاه الأول ، الذى أخذته فى موقف الفرارِ . .

ففى موقف الفرار ، هناك شىء من السعة ، يتيح للإنسان أن يتحرك

فيه ، نحو الجهة التى يتوهم أن له سبيلا إليها ، وإن لم يكن ثمةَ سبيل . .
أما فى موقفه وقد أحاط به البلاء ، واشتملت عليه النار ، فإنه ليس ثمة إلا أن يمد يده إلى أقرب شىء يمكن أن يصل إليه ، ليقيم منه ستاراً على جسده الذى تأكله النار ، وقد يكون هذا الشىء بعضَ أعضاء جسده هو ، كيده التى يدفع بها النار عن وجهه مثلا !! وأقرب شىء إلى الإنسان بعد أعضائه ، هم بنوه ، ثم صاحبته (زوجه) ثم .. ثم أسرته من أعمام ، وأبناء أعمام . . ثم أهل الأرض جميعاً . . كل هؤلاء يتخذ منهم دروعاً واقية له ، يرمى بهم فى وجه البلاء واحداً بعد واحد ، ولكن هيهات أن يجد من أىّ وقايةً من هذا البلاء.. إنه مجرد أمل يراوده لو أمكنته الفرصة من تحقيقه ، ولكن ليس إلى ذلك من سبيل .. !

فهذا وجه من وجوه الإعجاز القرآنى ، الذى يستولى ببيانه على حقائق الأشياء ، وينفذ إلى أعماقها وخفاياها ، فإذا هى فى وجه صبح مشرق مبين ! ! . .[1]

قوله تعالى :

* « وجوه يومئذ مسفرة » . .

هو جواب « إذا » فى قوله تعالى : « فإذا جاءت الصاخة » أى فإذا جاءت القيامة ، فأمرُ الناس مختلف ، فهم فريقان :

— « وجوه يومئذ مسفرة » أى مشرقة بالبهجة والمسرة ، تضحك استبشاراً بما لاح لها من دلائل الفوز ، ، وماهبّ عليها من أنسام الرضوان والجنان ..

* « ووجوه يومئذ عليها غَبَرَة » أى عليها غبرة الكمد والحسد ، وسواد الكآبة والذلة .. « ترهقها قترة » .. أى يعلوها الشحوب ، ويعتصر ماءها

(١) انظر أيضا عرضنا لهذا الموضوع فى تفسيرنا لسورة المعارج .

الرّهَق والتعب .. «وأولئك هم الـكفرة الفجرة» أى أن أصحاب هذه الوجوه المغبرة الـكالحة الشاحبة ،هم الـكفرة الفجرة ، أى الذين جمعوا بين الـكفر بالله ، وبين المبالغة فى الضلال ، والفجور . . فالـكفر ظلمات بعضها أشد ظلاماً من بعض ، والـكفار أصناف ، بعضهم أشد إيغـالا فى الـكفر والضلال من بعض ، وشتان بين كـفر أبى لهب ، وأبى جهل ، وبين كفر غيرهم من حواشى القوم .

والحديث عن الوجوه عوضاً عن أصحابها — هو — كما قلنا فى غير موضع — لِمَا فى الوجوه من قدرة على التعبير عما فى النفوس من مشاعر وعواطف . .حيث ينطبع عليها كلّ ما يقع على الإنسان مما يسوء أو يَسُرّ . .

* * *

(٨١) سورة التكوير

نزولها : نزلت بمكة بعد سورة المسد.

عدد آياتها : تسع وعشرون .. آية.

عدد كلماتها : مائة وأربعون كلمة.

عدد حروفها : خمسمائة وثلاثة وثلاثون.. حرفاً.

مناسبتها لما قبلها

جاء فى سورة « عبس » عرضٌ ليوم القيامة ، وللعذاب الشديد الذى يحيط بالكافرين ، حتى ليفر الكافر من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ..

وقد جاءت سورة « التكوير » بعدها ، عارضة المشاهدَ التى تسبق هذا اليوم ، لتخرج بالمشركين وراء دائرة العذاب قليلا ، ليُلقوا نظرة على الحياة الدنيا ، التى كانوا فيها ، والتى يودون الفرار إليها ..

فهل إذا أتيحت لهم فرصة الفرار من هذا العذاب ، وعادوا إلى الدنيا ، أيصلحون ما أفسدوا من حياتهم ؟ أيؤمنون بهذا اليوم ، وما يلقى الكافرون فيه ؟ وإنهم لفى هذا اليوم فِعلا ، إنهم لم يبرحوا هذه الدنيا بعد .. فماذا هم فاعلون ؟ .. هذا سؤال ستكشف الأيام عن الجواب الذى يُعطيه هؤلاء المشركون عنه ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٤)

« إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ (١٤) »

التفسير :

قوله تعالى : « إذا الشمس كورت . . . »

تكوير الشمس : ظهورها كالكرة فى أعين الناس يومئذ أى يوم القيامة ، حيث يشرف عليها الإنسان من علٍ فيراها من جميع وجوهها ، لا من وجه واحد ، كما تبدو لنا الآن وكأنها قرص مسطح .

وانكدار النجوم : انطفاء بريقها ، حيث أن بريق هذا الضوء الذى نراه منها ، إنما هو بسبب الغلاف الهوائى المحيط بالأرض .. فإذا جاوز الإنسان الغلاف الهوائى للأرض بدت النجوم كراتٍ لامعةً معلقة فى القضاء ، لا يشع منها ضوء . .

وتعطيل العشار : ، وهى النوق الحوامل ، هو إلقاء ما فى بطونها من أجنة ، ثم عدم تعرضها للحمل ، حيث يصرفها الهول عن الاستجابة لداعى الغريزة الطبيعية فيها ..

يقول الإمام القرطبي : « إن تعطيل العشار تمثيل لشدة الكرب ، وإلا فلا عشار ولا تعطيل » . .

ونقول : إن هذا وإن كشف عن حال الشدة والكرب فى هذا الوقت ، فإنه لا يمنع من أن تكون هناك العشار ، وأن يكون تعطيلها عن الحمل . . فهذا خبر جاء به القرآن ، ولا بد أن يقع على ما جاء به .

وحشر الوحوش : هو جمع بعضها إلى بعض ، وسوقها إلى أكنانها ، حيث يدفعها البلاء إلى الفرار ، وطلب النجاة مما تراه من أحداث القيامة ، فترتدّ عن مسارحها مسرعة إلى حيث ما تظن عنده الاختفاء من الخطر المحدق بها ، فتجيء من كل وجه ، ويلوذ بعضها ببعض ، حيث يذهب الهول بكل ما فيها من نوازع الشر والعدوان .

أما ما يقال من حشر الوحوش بمعنى بعثها ، وسوقها إلى الحساب والجزاء ، كما يُفعل بالناس ، فذلك ما لا يقوم عليه دليل من كتاب الله ، حيث أن الدنيا هى دار ابتلاء وتكليف للإنسان وحده من بين سائر المخلوقات التى على الأرض ، وأن هذه البهائم لم تكلف بشىء ، ولم تدع إلى شىء ، وإنما هى مما خلق الله سبحانه للإنسان ، لينتفع بها ، أو ليبتلى بالضار منها ، كما فى النبات أو الجماد من نافع وضار . .

ويقول الإمام محمد عبده : « وحشر الوحوش ، إما جمعها لاستيلاء الرعب عليها ، وخروجها من أجحارها وأوكارها ، ونسيانها ما كانت تخافه ، فتفر منه . . فتُحشر هائمة ، لا يخشى بعضها بعضا ، ولا يخشى جميعها سطوة الإنسان .. وقيل حشر الوحوش هلاكها ..»

قوله تعالى :

* « وإذا البحار سجرت » . . أى رؤيت وكأنها بحر واحد ، محيط بالأرض ، لا حركة له ، وكأنه مسجور ، أى مربوط بالأرض . . أما ما يقال بأن تسجير البحار هو تضرّمها ، وتلهبها ، حيث تصبح كتلة من نار ، فهذا لا مفهوم له ، إلا أن يقال ـ كما قيل ـ إن هذا دليل على قدرة الله سبحانه ، وأنه كما أنبت الشجر فى أصل الجحيم ، أخرج النار من قلب الماء . . وقدرة الله سبحانه لا تحتاج للدلالة عليها إلى مثل هذه الصور الشوهاء التى تفسد نظام الوجود ، وتذهب بجلال الحكمة الممسكة به فى دقة وروعة ، وإحكام . .

قوله تعالى :

* « وإذا النفوس زوّجت »

أى زوجت الأبدان التى كانت فيها ، وردّت إليها ، لتخرج من قبورها للبعث والحساب ، والجزاء . . فالمراد بالنفوس هنا الأرواح .

وقوله تعالى :

* « وإذا الموءودة سئلت . بأىّ ذنب قتلت ؟ »

الموءودة ، من تُوءَدُ من البنات ، وتدفن حية ، بيد أهلها ، كما كان كذلك عادة عند بعض قبائل العرب فى الجاهلية . . كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودّا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون » (٥٨ ـ ٥٩ النحل) . .

وسؤال الموءودة يوم القيامة ، فى مواجهة مَنْ وأدها ، مع أن الأولى ـ

فى ظاهر الأمر ـ أن يُسألَ الجانى لا المجنى عليه ـ فى هذا تشنيع على الجانى ومواجهة له بالجريمة التى أجرمها ، ووضعها بين يديه ، ليرى تلك الجناية الغليظة المنكرة ، وليسمع من قتيلته التى ظنّ أنه سوّى حسابه معها ، ليسمع منطقها الذى يأخذ بتلابيبه ، ويملأ قلبه فزعاً ورعباً . .

أرأيت إلى قتيل يظهر على مسرح القضاء ، هذ وقاتله فى موقف المحاكمة ؟ ثم أرأيت إلى هذا القتيل ، وهو يروى القاضى : لم قتل ؟ وكيف قتل ؟ ثم أرأيت إلى القاتل ، وقد أذهله الموقف ، نخرس لسانه ، وارتعدت فرائصه ، وانهار كيانه ؟ ذلك بعض من هذا المشهد الذى يكون بين الموءودة ووائدها يوم القيامة ! .

وقوله تعالى :

* « وإذا الصحف نشرت » .

أى صحف الأعمال ، حيث يقرأ كل إنسان ما سجل فى كتابه المسطور بين يديه . .

قوله تعالى :

* « وإذا السماء كشطت » . .

وكَشْط السماء ، هو زوال هذه الصورة التى تبدو منها لنا فى الدنيا ، وكأنها سقف سميك ، فتبدو السماء حينئذ ، وكأنها قد أزيلت من مكانها ، فكانت أبواباً مفتحة تنطلق فيها الأرواح إلى ما شاء الله من علوّ ، دون أن تصطدم بشىء يردّها . .

قوله تعالى :

* « وإذا الجحيم سعرت . وإذا الجنة أزلفت » .

سعرت : أى توقدت ، وتسعر جمرها ، وعلا لهيبها .

وأزلفت : أى قربت ودنت من أهلها . .

قوله تعالى :

* « علمت نفس ما أحضرت »

هو جواب « إذا » الشرطية الظرفية التى تواردت على هذه الأحداث التى تقع بين يدى الساعة ، وفى يوم مجيئها . .

ففى هذا اليوم تعلم كلُّ نفس ما أحضرت معها من أعمال عملتها فى الدنيا من خير أو شر . .

الآيات : (١٥ — ٢٩)

« فَلَآ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّآ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس » .

قلنا ، فى غير هذا الموضع ، إن هذه الأقسام المنفية ، يراد بهـا التعريض بالقسم ، لا وقوع القسم ذاته . . إذ كان الأمر الواقع فى معرض القسم أظهر من أن يحتاج إلى توكيد وجوده بقسم .

والخنس : هى الكواكب ، إذا طلع عليها النهار خَنَست أى غابت ، واختفت معالمها عن الأنظار . .

والجوار الكنس، هى هذه الكواكب فى حال ظهورها بالليل ، ثم تغيبها فى الأفق الغربىّ ، بفعل حركة الأرض ، ودورانهـا اليومى من الغرب إلى الشرق . . والكناس ، مأوى الظباء ، وبيتها الذى تسكن إليه .

والخنس : جمع خنساء ، وهى الظبية ، تدخل فى كناسها ، ومن هذا تَسَمّى العرب به بعض بناتهم ، ومنهن الخنساء الشاعرة المعروفة ؛ تشبيها بالظبية فى جمالها وتناسق أعضائها ، ثم فى خفرها ، وحيائها ، وصونها .

هذا ، ومن أسماء الشمس عند العرب « الغزالة » تشبيهاً لها بالغزالة فى جمالها وتحركها الرتيب الهادىء على مسرح مرعاها ، حتى إذا غربت الشمس ، عادت إلى كناسها ، واختفت فيه . وخنست . . قال المعرى :

ولم أرغب عن اللذات إلاّ لأنّ خيارها عنىّ خَنَسْنَهْ

والفاء فى قوله تعالى : « فلا أقسم » هو مرتبط بمـا وقع جواباً للشرط « إذا » فى أول السورة وهو قوله تعالى « علمت نفس ما أحضرت » أى إن هذا الحق واقع ، فلا أقسم لكم على توكيده بالخنس ، الجوار الكنس » .

قوله تعالى

* « والليل إذا عسعس » . .

عسعس الليل ، أى قفل راجعاً ، وذهب ظلامه الذى كان مخيما على الكون . . ومنه العسس ، وهم حراس الليل من الجنود ، يَمِسّون فى الطرقات

أى يتحركون تحت جُنح الظلام ، ليروْا ماذا يجرى من أحداث يُحدثها أهل الشرّ تحت هذا الستار من الظلام . . فالليل ، متحرك ، وليس ثابتاً . . إنه يجرى إلى كِنَاسه ، كما تجرى الكواكب إلى كناسها . .

قوله تعالى:

* « والصبح إذا تنفس »

معطوف على قوله تعالى : « والليل إذا عسعس »

وتنفس الصبح ، ظهوره ، ودبيب الحياة فيه .

وفى التعبير عن ظهور الصبح بالتنفس ، إشارة إلى أنه مولد حياة للأحياء جميعها ، حيث تُبعث الحياة من جديد فى الأحياء ، مع الصباح ، بعد أن غشيها النوم ، وحبسها عن الحركة ، فبدت وكأنها فى عالم الموتى . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه » (٦٠ : الأنعام)

قوله تعالى :

* « إنه لقول رسول كريم • ذى قوة عند ذى العرش مكين * مطاع ثَمّ أمين »

هو جواب القسم المنفى : « فلا أقسم بالخنس ... » أى فلا أقسم لكم بالخنس ، الجوار الكنس ، ولا بالليل إذا عسعس ، ولا بالصبح إذا تنفس — بأن أخبار يوم القيامة وأحداثها ، واقعة لا شك فيها ، وأن هذه الأخبار التى تحدثكم عن هذا اليوم ، هى قول رسول كريم ، هو رسول الوحى ، جبريل عليه السلام ، يبلغ به كلمات ربه إليه . . لا أقسم لكم بهذه العوالم على وقوع هذا الخبر ، فإنه بَيّنٌ ظاهر . .

ونسبة القول، وهو القرآن ، إلى جبريل ، لأنه هو المبلّغ له ، القائل لما قيل له من ربه سبحانه وتعالى . .

وقوله تعالى : « ذى قوة عند ذى العرش مكين » هو من صفة جبريل عليه السلام ، وهو أنه ذو مكانة مكينة عند ذى العرش ، وهو الله سبحانه وتعالى . .

وقوله تعالى : « مطاع ثَمّ أمين » ومن صفات جبريل أيضاً أنه مطاع هناك من ملائكة الرحمن ، أمين على ما يحمل من كلمات الله إلى رسل الله ، لا يبدل ، ولا يحرّف .

قوله تعالى :

* « وما صاحبكم بمجنون »

وإذن فما صاحبكم هذا ، وهو محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ما هو بمجنون كما تقولون عنه ، وإنما هو يتلقى هذا القول الذى يقوله لكم ، من رسول أمين من السماء، يبلغ النبيّ رسالةَ ربه إليه .

قوله تعالى:

* « ولقد رآه بالأفق المبين »

المفسرون على أن الهاء فى قوله تعالى : « ولقد رآه » يعود إلى جبريل ، عليه السلام ، وأن المرئى لجبريل ، هو النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن الأفق المبين ، هو الأفق العالى ، أى أفق السموات العلا ، حيث عُرِج بالنبى ، فظهر له جبريل على صورته الملكية . .

وإنه الأولى عندنا ، أن يكون هذا الضمير عائدا على القرآن الكريم ،

وهو هذا القول الذى تلقاه النبى من جبريل . . فلقد رأى النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ القرآنَ الكريم بالأفق المبين ، العالى الواضح ، فى مِعراجه إلى الملأ الأعلى، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » (١٨ : النجم) فالقرآن هو بعضُ ما رأى النبى الكريم فى معراجه . . حيث كان القرآن قد نزل إلى السماء الدنيا ليلةَ القدر ، كما يذهب إلى ذلك أكثر العلماء فى تفسير قوله تعالى : « إنّا أنزلناه فى ليلة القدر »

قوله تعالى :

* « وما هو على الغيب بضنين »

أى وليس النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بالذى يضن بأنباء الغيب التى يتلقاها من ربه ، فيما تحمل إليه آيات الله من أحداث يوم القيامة ، وغيرها مما جاء فى القرآن الكريم، وإنما هو رسول من عند الله ، ومطلوب منه أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » (٦٧ : المائدة)

فالمراد بالغيب هنا ، هو القرآن الكريم ، وآياته التى حملت إلى النبى — صلوات الله وسلامه عليه — كثيراً من أنباء الغيب ، من قصص وغيره ، كما يقول سبحانه : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » (٤٩ : هود)

وقرىء : بضنين ، بظنين ، أى بمتهم .. أى ليس النبى — صلوات الله وسلامه عليه — بمتهم فيما يبلغ من آيات ربه .

قوله تعالى:

* « وما هو بقول شيطان رجيم » ؟

أى أن هذا القرآن هو من قول الله سبحانه وتعالى ، الذى نقله رسول الوحى جبريل ، وليس من وساوس الشيطان ، ولا من مقولاته . . «وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغى لهم وما يستطيعون ، إنهم عن السمع لمعزولون » (٢١٠ ـ ٢١٢ : الشعراء)

وقوله تعالى:

*« فأين تذهبون » ؟

أى فإلى أى مذهب من مذاهب الضلال تذهبون ، بعد هذا البيان المبين ، وبعد تلك الحجة الواضحة ؟

أهناك مذهب لكم إلى غير الله ، وإلى غير ما تدعوكم إليه آيات الله ؟ إن أى طريق آخر غير هذا الطريق ؛ هو الضلال والهلاك

وقوله تعالى:

* « إنْ هو إلاّ ذكر للعالمين »

أى هذا القرآن ، ما هو إلا ذكر ، وهدًى ، للعالمين

وقوله تعالى:

*« لمن شاء منكم أن يستقيم »

هو بدل بعضٍ من كلٍّ من قوله تعالى : « للعالمين » أى هذا القرآن هو ذكر للعالمين جميعاً . . وهو ذكر لمن شاء منكم أيها المشركون ، أن يتلقى منه الموعظة والهدى ، ويستقيم على طريق الحق ويسلك مسلك النجاة . .

وقوله تعالى :

* « وما تشاءون إلا أن يشآءَ اللهُ ربُّ العالمين » .

الواو هنا للحال ، أى من شاء منكم أن يستقيم ، فليطلب الاستقامة ، وليرِدْ مواردها ، وليأخذ بالأسباب إليها .. ثم إن مشيئتكم تلك مرتهنة بمشيئة الله العامة الشاملة ، التي كل مشيئة منطوية تحتها ، دائرة فى فلكها ..

فالإنسان ـ وإن كانت له مشيئة ـ ليس بالذى يستقلّ بمشيئته عن مشيئة الله ، فهو إذ يشاء شيئا ، وإذ يمضى هذا الشىء ، فإنما ذلك من مشيئة الله فيه .. وهذا ليس بالذى يدعو الإنسان إلى أن يعطل مشيئته ، منتظراً مشيئة الله فيه ، لأنه لا يعلم ما مشيئة الله فيه .. بل إن عليه أن يُعمل مشيئَتَه ، كما يُعمل جوارحه جميعها ، فإذا وافقت مشيئته مشيئةَ الله، مضت ونفذت ، وإن خالفت مشيئة الله لم تمض ، ولم تنفذ ، ومضت مشيئة الله ! هذا هو المطلوب من العبد ... فإن أعطى مشيئته ما ينبغى أن يقدّمه بين يديها من بحث ـ ونظر ، وعقل ـ جاءت مشيئته قائمة على طريق الحق ، مثمرة له أطيب الثمر ، تماما ، كما إذا أيقظ حواسه ، وعمل بها فى المحسوسات ، كان له من معطياتها ما يصله بالحياة وصلا وثيقا ، ويقيمه على طريقها دون أن يتعثر ، أو يضلّ !

* * *

(٨٢) سورة الانفطار

نزولها : نزلت بمكة بعد سورة النازعات.

عدد آياتها : تسع عشرة آية . .

عدد كلماتها : مائة كلمة .

عدد حروفها : ثلاثمائة وتسعة عشر حرفا .

مناسبتها لما قبلها

هذه السورة الكريمة ، هى على شاكلة سابقتها « التكوير » . . كل منهما حديث عن يوم القيامة وإرهاصاتها . . فكان جمعهما فى هذا السياق من جمع النظير إلى نظيره ، ليتأكد ويتقرر فى الأذهان ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٢)

« إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ (١) وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ (٦) ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَـٰتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إذا السماء انفطرت » .

هو مشابه لقوله تعالى : «إذا السماء انشقت» ، وانفطار السماء هو تشققها وزوال هذا السقف الذى يبدو منها فى مرأى العين .. وقد أشرنا إلى هذا من قبل .. وقلنا إن هذا التغير فى نظام الوجود يوم القيامة ، هو بسبب تغير حواسنا ومدركاتنا ، وانتقالنا من عالم إلى عالم ..

وقوله تعالى :

* « وإذا الكواكب انتثرت » ..

وتناثر الكواكب : هو ظهورها لنا على حقيقتها ، فهى تبدو الآن — فى موقع النظر — أشبه بالمصابيح المعلقة فى السقف .. فإذا كان يوم القيامة ظهرت لنا على حقيقتها ، وهى أجرام هائلة ، معلقة فى الفضاء ، كذلك تبدو لنا يوم القيامة فى منازل مختلفة فى علوّها ، فبعضها أعلى من بعض علوّاً سحيقا يقدر بألوف السنين الضوئية ، على حين تظهر لنا اليوم ، وكأنها على درجة واحدة فى علوها ، حيث تأخذ — كما يبدو لنا — مكانها من هذا السقف المرفوع فوقنا ، وكأنها مصابيح مضيئة فى سقف مرفوع ، على سمت واحد .

وقوله تعالى :

* « وإذا البحار فجرت »

وتفجير البحار ، هو ما يبدو يومئذ من إحاطتها بالكرة الأرضية من جميع جوانبها ، على حين تبدو هذه القارات وكأنها جزر صغيرة غارقة فى الماء

وقوله تعالى :

* « وإذا القبور بعثرت »

وبعثرة القبور، هو إخراج ما فيها من أموات، حيث تنطلق منها الحياة التى كانت مندسّة فيها، وكأنها قذائف تنفجر من باطن الأرض ..

قوله تعالى:

* «علمت نفس ما قدمت وأخرت» ..

هو جواب «إذا» الشرطية الظرفية، وما بعدها من معطوف عليها ..

أى إذا حدثت هذه الأحداث، علمت كل نفس ما قدمت من عمل صالح للآخرة، وما فاتها أن تعمله فى الدنيا من خير. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «يومئذ يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى * يقول ياليتنى قدمت لحياتى» (٢٣ : ٢٤ الفجر) .. وفى تنكير «نفس» ـ إشارة وَحدة النفوس فى هذا اليوم من حيث العلم بما لها وما عليها، فالنفوس جميعها سواء فى هذا العلم الذى يكشف كل شىء، حتى لقد أصبحت نفوس الناس جميعاً أشبه بنفس واحدة ..

قوله تعالى:

«يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم» ..

الخطاب بيأيها الإنسان، استدعاء لمعانى الإنسانية التى أودعها الله سبحانه وتعالى فى الإنسان، من قوى عاقلة مدركة، من شأنها أن تميز بين الخير والشر، وتفرق بين الإحسان والإساءة، وأن تضع بين يدى الإنسان ميزاناً سليما يضع فى إحدى كفتيه ما أحسن الله به إليه، ويضع فى الكفة الأخرى ما يقدر عليه من شكر، وذلك بإحسان العمل، كما يقول سبحانه: «وأحسن كما أحسن الله إليك». (٧٧ : القصص)

فإذا رأى الإنسان الكفة التى وضع فيها إحسان الله إليه ملأى بالعطايا والمنن، ثم لم يضع فى الكفة الأخرى شيئاً فى مقابل هذا الإحسان، بل وتجاوز هذا، فملأ الكفة كفراً بالله، ومحادة لله ولأوليائه ـــ فأىّ إنسان هو؟ وأى جزاء يجزى به؟

وفى اختيار صفة « الكريم » لله سبحانه وتعالى فى هذا المقام ، من بين صفاته الكريمة جل شأنه — فى هذا إلفات إلى هذا الإحسان العظيم الذى أفاضه الله على الإنسان ، وإلى مقدار جحود الإنسان وكفرانه ، وضلاله ، مع هذا الفضل الغامر ، الذى يجده الإنسان فى كل ذرة من ذراته ، ومع كل نَفَس من أنفاسه . .

وفى قوله تعالى : « ما غرك » إنكار على الإنسان أن يدعوه توالى الإحسان عليه ، وتكاثر النعم بين يديه ، إلى أن يتخذ من ذلك أسلحة يحارب بها ربه المحسن الكريم . .

وكرم الكريم ، وإحسان المحسن ، إذا قوبل ممن أُكرم وأُحسن إليه ، بالاستخفاف ، ثم الكفران والجحود ، ثم بالحرب والعدوان على الحدود — كان من مقتضى الحكمة والعدل معاً ، أن يؤدَّب هذا الجاحد المنكر ، وأن يذوق مرارة الحرمان ، كما ذاق حلاوة الإحسان . . وإلا فَقَدَ الإحسانُ معناه ، وذهب ريحه الطيب ، الذى يجده الذين يعرفون قدره ، ويؤدون حقه . .

يقول المتنبى :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا   مضِرٌّ كوضع السيف فى موضع الندى

وقد تأول بعض المتأولين هذه الآية تأويلا فاسداً ، حين أقاموا منها حجة لأهل الزيغ والضلال ، يلقوْن بها ربهم ، إذا سُئل أحدهم من ربه : « ما غرك بربك الكريم ؟ » فيقول فى بَجَحٍ ، وبلا حياء : « غرّنى كرمك » !! إن ذلك مكر بالله ، والله أسرع مكراً !

ونعم ، إن الله كريم كرما لا حدود له . . ولكن هذا الكرم ، لا يقع إلا حيث المواقع التى تحيا به ، وتثمر أطيب الثمر فى ظله . . إنه كرم بحكمة ،

وحساب وتقدير .. « وكلُّ شيء عنده بمقدار » .(٨ : الرعد)

ولقد وسِع كرمُه سبحانه ، سيئاتِ المسيئين ، فتقبل توبتهم ، وجعل السيئة سيئةً ، والحسنة عشرا ، إلى سبعمائة ، وأضعاف السبعمائة : « والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » .(٢٦١ : البقرة)

ثم كيف يَعرف كرمَ الكريم ، ويَطمع فى أن ينال منه ، مَن لا يعرف الكريم ذاته ، ومن لا يرجو له وقاراً ؟ إن حجة هؤلاء داحضة ، ومكرُ أولئك يبور !

قوله تعالى :

* « الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ماشاء ركبك » .

هو بيان لبعض كرم الكريم ، سبحانه وتعالى ، على الإنسان ، وإحسانه إليه.

فلقد خلق الله سبحانه هذا الإنسان فى أحسن تقويم ، فعَدَّل خلقَه ، وأحسن صورته ، ومنحه عقلا امتاز به على كثير من المخلوقات : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (٧٠ : الإسراء).

وقوله تعالى : « فى أى صورة ما شاء ركبك » — « ما » هنا للتفخيم ، الذى يشير إلى قدرة الصانع ، وما أودع فى جرم الإنسان الصغير ، من قوى عَمَر بها هذه الأرض ، وفتح بها مغالق كنوزها ، واستأهل أن يكون خليفة الله عليها . .

قوله تعالى :

* « كلا . . بل تكذبون بالدين . وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون » .

« كلا » رد على جواب مفترَض ، ينبغى أن يجيب به الناس على قوله تعالى : « يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم » وهو قولهم : لم نغتر بكرمك يا كريم .. فجاء الرد عليهم « كلا » لقد غرّكم كرمى .. وإلا فلماذا « تكذّبون بيوم الدين » ؟ أليس تكذيبكم بما جاءت به رسل الله إليكم ، مع مواصلة إحسانى إليكم ، وتوالى نعمى عليكم — أليس ذلك منكم اغتراراً بكرمى ؟

وعلى هذا يكون الإنسان المخاطب فى قوله : « يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم » — هو ذلك الإنسان الكافر بالله ، المكذب بآياته .. وهو الغارق فى المعاصى ، الذى لم يلتفت إلى ما وراء الحياة الدنيا ، ولم يعمل للآخرة حساباً ، كأنه مكذب بها . .

والحافظون ، هم الملائكة الموكلون بالناس ، وبتسجيل ما يعملون من خير أو شر . . وهم الكرام عند الله ، المكرمون بفضله وإحسانه ، الكاتبون لما يعمل الناس . .

الآيات : (١٣ — ١٩)

* « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إن الأبرار لفى نعيم » .

هو بيان لحال من لا يغترون بكرم الله ، ومن يغترون به .

فالذين قَدَروا الله قدره ، وعرفوا فضله وإحسانه ، فآمنوا به ، واستقاموا على شريعته ، ولزموا حدوده ـ هؤلاء فى نعيمِ يومَ القيامة ، حيث ينُزلهم الله فى جنات ، ينعمون فيها بما يشتهون . .

والأبرار : جمع برّ ، وهو الذى عمل البر ، والبرّ هو كل عمل طيب فى ظل الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، وللملائكة والكتاب والنبيين . . وسمى البَرّ برًّا ، لأنه بَرّ بما عاهد اللهَ عليه ، وبالميثاق الذى واثقه به .

قوله تعالى :

* « وإن الفجار لفى جحيم » .

والفجار : جمع فاجر ، والفاجر من يفجُر عن أمر الله ، ويتعدى حدوده . .

قوله تعالى :

* « يصلونها يوم الدين » .

أى هذه الجحيم ، التى يلقى فيها الفجار ، إنما يصلونها ويعذبون بها يوم الدين ، أى يوم القيامة ، الذى يكذبون به .

وقوله تعالى :

* « وماهم عنها بغائبين » .

أى لا يغيبون عنها ، ولا يخرجون منها أبداً ، بعد أن يدخلوها . .

ويجوز أن يكون المعنى أنهم ليسوا غائبين عنها فى هذه الدنيا ، فهم مشرفون عليها ، مسوقون إليها بفجورهم ، وإن لم يروها . .

قوله تعالى :

* « وما أدراك ما يومُ الدين . ثم ما أدراك ما يومُ الدين » .

استفهام يراد به عرض هذا اليوم على ماهو عليه من هول لايوصف ، ولا يُعرف كنهه ، لأنه شيء لم تره العيون ، ولم تحُمْ حوله الظنون .

قوله تعالى :

* « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله »

أى أن هذا اليوم المهول ، هو يوم يتعرّى فيه الناس من كل قوة وسلطان ، فلا يملك أحد لأحد شيئاً ، ولا يدفع أحد عن أحد مكروها . . فالأمر كله بيد الله ، لايملك أحد معه من الأمر شيئاً .

وفى قيد الأمر لله بيوم القيامة ، مع أن الأمر كله لله فى جميع الأزمان والأحوال — إشارة إلى أن الناس وإن كانوا فى الدنيا يظنون أنهم يملكون شيئا ، وأنهم يملكون فيما بينهم الضر والنفع — فإن هذا الظاهر من أمرهم فى الدنيا ، لن يكون لهم منه شيء فى الآخرة .. كما يقول سبحانه : « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » (١٦ : غافر)

* * *

(٨٣) سورة المطففين

نزولها : نزلت بمكة ، بعد العنكبوت . . وهى آخر ما نزل بمكة . .
وقيل أولُ ما نزل بالمدينة

عدد آياتها : ست وثلاثون . . آية

عدد كلماتها : مائة كلمة ، وتسع كلمات

عدد حروفها : أربعمائة وثلاثون . . حرفًا

مناسبتها لما قبلها

أجملت سورة الانفطار التى سبقت المطففين مصير الفجار ، ومصير الأبرار . .
فجاءت سورة المطففين . مفصلة شيئا من هذا المصير ، كما جاءت كاشفة مبينة عن وجوهٍ من فُجر الفجار ، كالتطفيف فى الكيل والميزان ، والتكذيب بيوم الدين ، والاتهام لرسول الله ، ولآيات الله . .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٧)

« وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (٦) كَلَّآ إِنَّ كِتَابَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ (٧) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ

لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (١٧)

التفسير

قوله تعالى:

« ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون • وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون »

التطفيف : الخروج عن سواء السبيل فى الكيل والميزان ، زيادة أو نقصاً .. وقد بين الله ذلك فى قوله تعالى : « الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون • وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » .. فهؤلاء هم المطففون ، قد توعدهم الله سبحانه وتعالى بالويل والعذاب الشديد فى الآخرة ، لأنهم يأكلون أموال الناس بالباطل ، فيأخذون أكثر مما لهم إذا كالوا أو وزنوا ، أو يأخذونه كاملا وافيا « يستوفون » على حين يعطون أقل مما عليهم إذا كالوا لغيرهم أو وزنوا لهم « يخسرون » .. إنهم اؤتمنوا فخانوا الأمانة ، ووضع فى أيديهم ميزان الحق ، فعبثوا به ، واستخفوا بحرمته .. فيستوفون حقهم كاملا إذا أخذوا ، ويعطونه مبخوساً ناقصاً إذا أعطوا !!!

وفى قوله تعالى : « اكتالوا على الناس » وفى تعدية الفعل بحرف الجر « على » — إشارة إلى أن هذا الذى يكيلونه هو شىء لهم على غيرهم .

أمّا تعدية الفعلين « كالوهم ووزنوهم » بدون حرف الجر « إلى » - فهو إشارة إلى أنهم فى تلك الحال هم الذين يكيلون ويزِنون ، فكأنه قيل : وإذا أعطوهم مكيلا أو موزونا يخسرون . .

قيل إن أهل المدينة ، كانوا قبل الإسلام أخبثَ الناس كيلا ، فلما جاء الإسلام ، وكشف لهم عن شناعة هذا العمل ، وما يجر على مقترفيه من نقمة الله وعذابه — أصبحوا أعدل الناس كيلا ووزنا إلى اليوم . .

والقول بأن هذه السورة هى آخر ما نزل بمكة ، أولى من القول بأنها نزلت فى المدينة . . ذلك أن نزولها بالمدينة ، وفى أول مقدِم الرسول إليها ، فيه مواجهة بالخزى والفضيحة ، والتشنيع ، على هؤلاء القوم الكرام ، الذى استجابوا لدين الله ، ورصدوا أنفسهم وأموالهم لنصرته ، وفتحوا مدينتهم ودورهم لإيواء المسلمين الفارّين بدينهم من مشركى قريش . . وإن الذى يتفق وأدب الإسلام وحكمته لعلاج هذا الأمر المنكر ، الذى قيل إنه كان فاشياً فى أهل المدينة — الذى يتفق مع أدب الإسلام وحكمته أن يُعلن رأيه فى هذا الأمر ، وحكمه على فاعليه ، بعيداً عن موقع المواجهة ، وأن يرمى به فى وجه المشركين قبل أن تنتقل الدعوة من ديارهم ، حتى إذا بلغت سورة المطففين أسماع أهل المدينة ، انخلعوا من هذا المنكر ، واستقبلوا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وقد طَهُرَت مدينتهم من هذا الخبثَ .

والخيانة فى الكيل والميزان ، ليست كما يبدو فى ظاهرها ، أمراً عارضاً هيناً ، لا يمسّ إلا جانباً من حواشى حياة الجماعة ، ولا يؤثر تأثيراً ذا بال فى نظام حياتها . . وكلاّ ، فإن هذا الداء ، إذا تفشّى فى مجتمع من المجتمعات ،

أفسد نظامه كله ، وامتد ظله الأسود الكئيب على حياة المجتمع ، ماديّاتها ومعنوياتها جميعاً . . وحسب أى جماعة ضياعاً وهلاكا ، أن تفقد الثقة فى معاملاتها ، وأن يكون الاتهامُ نقداً متبادلاً بين أفرادها ، أخذاً ، وإعطاء . .

ونتصور هنا جماعة قد شاع فى معاملاتها النقد الزائف ، واختلط بالنقد الصحيح . . فهل يجتمع لهذه الجماعة شمل ، أو يستتب فيها نظام ، أو تغشاها سكينة واطمئنان ؟ . .

إن حياة الناس قائمة على التبادل ، والأخذ والعطاء ، فإذا لم يقم ذلك بينهم على ثقة متبادلة بينهم كما يتبادلون كل شىء ، انحلّ عقد نظامهم ، وتقطعت عُرا أوثق رابطة تربط بين الناس والناس ، وتجمع بعضهم إلى بعض وهى الثقة .

وفى القرآن الكريم ، إشارة صريحة إلى خطورة التبادل ، القائم بين الناس — أخذاً وعطاء ، والذى إذا لم يقم على أساس متين من العدل والإحسان ، أتى على كل صالحة فى حياة الناس . . وهذا ما نراه فى دعوة نبى الله شعيب — عليه السلام — ورسالته فى قومه . .

إنها رسالة ، تعالج هذا الداء الذى استشرى فى القوم وتَطِبّ له قبل أى داء آخر ، بعد داء الكفر . . فإنه لا يقوم بناء ، ولا يُستنبت خير ، إلا إذا اقتُلع هذا الداء ، وطهرت منه الأرض التى يراد استصلاحها ، وغرس البذور الطيبة فيها . .

يقول الله سبحانه وتعالى على لسان شعيب إلى قومه : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان . . إنى أراكم بخير . . وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط » (٨٤ : هود) ويقول سبحانه على لسانه أيضاً : « أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين * وزنوا بالقسطاس

المستقيم * ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » (١٨١-١٨٣ الشعراء).

إنها قضية حق وعدل .. فإذا افتقد الحق مكانه فى قوم، وإذا اختلت موازين العدل فى أيديهم، فليأذنوا بتصدع بنيانهم، وانهيار عمرانهم، وبوار سعيهم، وسوء مصيرهم ..

وقوله تعالى :

* « ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين » ..

هو استفهام إنكارى، لهذا الأمر المنكر الذى يأتيه المطففون فى الكيل والميزان . . إن هؤلاء المطففين لايظنون أنهم مبعوثون ليوم عظيم، فيه حساب، وجزاء .. ولو كانوا يظنون هذا ما اجترءوا على أكل حقوق الناس بالباطل، ولحجزهم عن ذلك حاجزُ الخوفِ من الله، ومن لقائه بهذا المنكر الشنيع ..

وفى التعبير بفعل الظن، بدلا من فعل الاعتقاد فى البعث، إشارة إلى أن مجرد الظن بأن هناك بعثا، وحسابا، وعقابا - يكفى فى العدول عن هذا المنكر، وتجنبه، توقيا للشر المستطير، الذى ينجم عنه .. فكيف بمن يعتقد البعث، ويؤمن به ؟ إنه أشد توقيا للبعث، ومحاذرة منه، وإعدادا له ..

وقوله تعالى :

* « كلا .. إن كتاب الفجار لفى سجين » ..

كلاّ هو رد على قوله تعالى : « ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ؟ » ..

وكلا . . إنهم لايظنون أنهم مبعوثون، ولو ظنوا أنهم مبعوثون مافعلوا هذا الذى فعلوه من التطفيف فى الكيل والميزان ..

وقوله تعالى : «كلا إن كتاب الفجار لفى سجين » ـ هو إشارة إلى أن هؤلاء المطففين من الفجار ، الذين خرجوا على حدود الله ، وأن كتابهم الذى سجلت فيه أعمالهم المنكرة ، كتاب منكر ، فى مكان منكر .

والسجّين : مكان مطبق ، مغلق على هذا الكتاب ، وهو مبالغة من السجن ، وهو الحبس.. وفى هذا إشارة إلى أن هذا الكتاب ـ لما يضم من شنائع ومنكرات ـ قد ألقى به فى مكان بعيد عن الأعين ، كما تُلْقَى الجيف ، أو يردم على الرم .

وقوله تعالى : « وما أدراك ماسجّين » تهويل ، وتشنيع ، على هذا المكان الذى ضَمّ هذا الكتاب العَفِن ، الذى تفوح منه رائحة هذه المنكرات الخبيثة . .

وقوله تعالى : « كتاب مرقوم » هو بدل من « سجين » . . حيث يدل ذلك على أن هذا الكتاب المنكر ، والمكان الذى ألقى فيه ، قد صار شيئاً واحداً ، هو هذا الكتاب المرقوم ، أى الموسوم بتلك العلامات ، والشواهد الدالة على ماضم عليه من آثام ومنكرات . .

قوله تعالى :

* « ويل يومئذ للمكذبين ، الذين يكذبون بيوم الدين »

هو تهديد ووعيد لهؤلاء الذين يكذبون بالبعث ، ولا يظنون أنهم مبعوثون ليوم عظيم . . إن لهم الويل ، والهلاك ، والعذاب الأليم فى هذا اليوم العظيم ، الذى يقوم فيه الناس لرب العالمين . .

وقوله تعالى :

* « وما يكذب به إلا كل معتد أثيم * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير

الأولين » أى أنه لايكذب بهذا اليوم إلا كل معتد على حرمات الله ،غارق فى الإثم والضلال . .

وإن من كان هذا شأنه من التهالك على المنكر ، والاستغراق فى الإثم ، هو فى سَكرة مما هو فيه ، لايود أن يفيق منها أبداً ، ولا ينتظر الليلة سُكره صباحاً ، يقطع عنه أضغاث أحلامه ، وهذَيانَ خُماره .

إن آفة الذين لايؤمنون باليوم الآخر،ليست عن حجة من عقل أو منطق،وإنما هى كامنة فى تلك الشهوات المستبدة بهم ،والمتسلطة عليهم،والتى من شأنها - لكى تضمن وجودها ، وتدافع عن بقائها — أن تدفع كل خاطر يزحمها ، أو طارق يتهدد وجودها . . فإذا اتجهت النفس إلى الإيمان باليوم الآخر ، بدا لها هذا القيد الذى يقيدها به الإيمان ، ويحول بينها وبين هذا المرعى الذى تنطلق فيه هائمةً على وجهها . . وهنا يضعف ذوو النفوس الخبيثة عن قبول هذا الالتزام بالوقوف عند حدود الله ، فيتهمون هذا الهاتف الذى يهتف فى ضمائرهم بالإيمان بالله واليوم الآخر ليظلّوا عاكفين على ما هم فيه من آثام ومنكرات . روى أن الأعشى الشاعر الجاهلى،حين سمع بأمر النبىّ ، جاء يريد الإسلام،فتلقته قريش ، وقالوا له إن محمداً يحرّم الزنا ، فقال : هذا لا إربة لى فيه ، فقالوا : إنه يحرم الخمر ، فقال : أما هذه ، فإنها شهوة نفسى ، وعندى خابية منها ، سأروى نفسى منها سنة ، ثم أعود فأدخل فى دين محمد . . فرجع ولكنه لم يَمُدْ ، فقد مات فى عامه هذا ! ! وهكذا يتعلل أصحاب المنكرات بالعلل والمعاذير ، حتى يموتوا على ما هم عليه من ضلال . .

وقوله تعالى :

* « كلا . . بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

كلا ، هو ردّ على قول هذا المعتدى الأثيم ، الذى إذا تتلى عليه آيات الله

قال : « أساطير الأولين » . . إنه يغمض عينيه عن هذا النور المشعّ ، الذى يبدّد ظلام ليله الفارق فى ضلاله، بتلك القولة الضالة التى يقولها عن كتاب الله : « أساطير الأولين » ! !

وكلا . . ليس الأمر كما زعم ، ضلالا ، وافتراء .. وإنما قد ران على قلبه هذا الإثم الذى غرق فيه ، فلم يَعُدْ يرى حقًّا ، أو يهتدى إلى حقّ !

و « ران على قلوبهم » أى غطى على قلوبهم . . والرّين على الشيء حجبه، وتغطيته .

وقوله تعالى :

* « كلا . . إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » .

هو توكيد لهذا الرّين الذى غطى قلوبهم ، وأنه قد صحبهم إلى الآخرة ، فحجبهم الله سبحانه وتعالى عن رؤيته ، وعن موقع رحمته وإحسانه ، كما حجبوا هم أنفسهم بآثامهم عن رؤية الحقّ فى الدنيا .

وقوله تعالى :

* « ثم إنهم لصالوا الجحيم ، ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون » .

أى وليس حجبهم عن الله سبحانه وتعالى فى الآخرة ، وبعدهم عن مواقع رحمته ، هو كل جزائهم فى الآخرة ، وإن كان جزاء أليما ، وعقاباً زاجراً ، بل إن وراء هذا ناراً تلظّى ، يلقوْن فيها ، ويكونون حطباً لها .. ثم لا يتركون هكذا للنار تأكلهم ، وترعى فى أجسامهم ، بل ينُخسون بهذه القوارع ، بما يرجمون به من كل جانب ، من ملائكة جهنم وخزنتها بقولهم لهم : « ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تكذبون » فذوقوه لتعلموا إن كان ما كذبتم به حقا أو غير حق ، واقعاً أو غير واقع : « فهل وجدتم ماوعد ربكم حقاً ؟ » (٤٤ : الأعراف)

الآيات : (١٨ — ٢٨)

* كَلَّآ إِنَّ كِتَابَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « كلا .. إن كتاب الأبرار لفى عليين » ..

هو رد على هؤلاء الفجار الذين أجرموا ، الذين ظنوا أن مصير الناس جميعاً كمصيرهم هذا ، الذى يلاقون فيه أشد الهوان، وأقسى العذاب .. وكلا.. فهناك الأبرار ، أهل الإيمان والإحسان .. وأنه إذا كان كتاب الفجار ، قد جمع المخازى والموبقات ، وأودع فى سجين ، فإن كتاب الأبرار ، قد حوى المكارم والطيبات ، فأخذ مكانه فى عليين .

وقوله تعالى :

* « وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون » ..

المراد بالاستفهام هنا ، النفى ، هو تنويه بهذا الكتاب ، ورفع لقدره ، وقدر المكان الذى أودع فيه .. وكما رُقم كتاب الفجار ، ووسم بميسم التجريم ، فقد رقم كتاب الأبرار ، وختم بخاتم الرحمة ، والمغفرة ، بمحضر من

المقربين من ملائكة الرحمن .. إنهم يطالعون صفحاته ، ليروْا فيها كيف طاعة المطيعين ، وإحسان المحسنين ، من عباد الله .

وقوله تعالى :

* « إن الأبرار لفى نعيم ، على الأرائك ينظرون » .

وكما قاد كتابُ الفجار أصحابَه إلى جهنم وعذابها ، فإن كتاب الأبرار قاد أصحابه كذلك ، ولكن إلى الجنة ونعيمها ، وإنهم ليأخذون مجالس نعيمهم فيها على الأرائك ، وهى الأسرة ذات السُّتُر ، حيث يسرحون بأبصارهم فى هذا النعيم المحيط بهم ، ويتحملون محاسنه ومباهجه ، فيعظم نعيمهم ، وتتضاعف مسراتهم . .

وقوله تعالى :

* « تعرف فى وجوههم نضرة النعيم »

أى أن آثار النعيم الذى هم فيه ، تراه ظاهراً على وجوههم المشرقة بنضرة النعيم ورونقه وبشاشته .

وفى التعبير بقوله تعالى : « تعرف فى وجوههم » بدلا من « ترى على وجوههم » — إشارة إلى أثر هذا النعيم الواضح على الوجوه ، وأن مجرد النظر إلى هذه الوجوه يفيد علماً ومعرفة ، بما يلْقى أصحاب هذه الوجوه من ألوان النعيم . .

وقوله تعالى :

* « يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون »

أى أن هؤلاء الأبرار ، الذين أخذوا منازلهم فى الجنة ، واتكئوا على الأرائك المعدّة لهم، وسرّحوا بأبصارهم فى ألوان هذا النعيم الممدود بين أيديهم إنه يُطاف عليهم بالرحيق ، وهو الشراب الخالص من كل كدر ، المبرأ من كل سوء، وقد خُتم بخاتم من المسك ، فإذا فُضّ ختامه عبقت منه رائحة المسك ، فعطرت الجو من حوله ، فتنتعش النفوس لشرابه ، وتَهَشّ لاستقباله . « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » أى لمثل هذا فليعمل العاملون ، ويجد المجدون، ويتنافس المتنافسون . . فهذا هو الذى ينبغى أن يُطلب ، ويشتد الطلب عليه ، ويكثر التنافس فيه ، وأما ماسواه ، فهو هباء وقبض الريح .

قوله تعالى:

* « ومزاجه من تسنيم *عينا يشرب بها المقربون »

أى أن هذا الرحيق الذى يُسقى منه الأبرار فى الجنة ، والذى تعبق منه رائحة المسك ، هو ممزوج بتسنيم !!

وقد بين الله تعالى هذا التسنيم الذى يُمزج بهذا الرحيق ، وهو عين من عيون الجنة ، لا يعلم كنهها إلا الله سبحانه وتعالى ، قد أعدها ــ جل شأنه ـ ليشرب منها عباد الله المقربون ، أى أهل القرب منه ، وأهل الكرامة عنده . .

وفى تعدية الفعل يشرب بالباء ، بدلا من حرف الجر « من » كما يقضى بذلك وضع اللغة ــ فى هذا إشارة إلى أن هذه العين هى شراب ، وأداة الشراب أيضاً ، فهم يشربون بهذه العين من العين !! . . وقد أشرنا إلى هذا عند تفسير قوله تعالى : « عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً » (٦ : الإنسان)

الآيات : (٢٩ — ٣٦)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ (٣٢) وَمَآ أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ـ وإذا مروا بهم يتغامزون »

هو عودة بالمشركين ، المجرمين إلى الحياة الدنيا ، وإلى مكانهم الذى زايلوه فيها ، بعد هذه النُّقلة السريعة التى انتقلوا بها إلى الدار الآخرة ، وشهدوا فيها ماأعد لهم هناك من عذاب ونكال . .

وإذ يعود المجرمون إلى مكانهم من دنياهم ، يرون بين أيديهم مشهداً من تلك المشاهد المتكررة التى يعيشون فيها مع أهل الإيمان والإحسان . . إنهم يتخذون من المؤمنين مسرحاً للضحك منهم ، والسخرية بهم ، فإذا مرّ بهم المؤمنون تغامزوا ، أى غمز بعضهم بعضاً ، بإشارات من أعينهم ، أو غمزات بأكتافهم ، وكأنهم أمام مشهد عجيب غريب ، يثير العجب والضحك . .

وقوله تعالى :

* « وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فَكِهِين »

وهذا شأنهم بعد أن ينفض مجلسهم الآثم الذى جرّحُوا فيه المؤمنين بتغامزهم وتلامزهم . . إنهم يعودون من هذا المجلس إلى أهلهم ، وعلى أفواههم طعم هذا المنكر الذى طعموه فيها ، يتشدقون به ويقصّون على أهلهم مادار على ألسنتهم من فجور ، وما رموا به المؤمنين من هُجر القول ، وفُجره ، يجعلون ذلك مادة التندر والتفكه .

والفكِه : كثير الفكاهة والمزاح . .

قوله تعالى :

* « وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون »

أى وليس هذا كل ماعند المجرمين من كيدِ المؤمنين ، بل إنهم كلما رأوا أحداً من المؤمنين أشاروا إليه كمعْلَم من معالم الضلال ، وكأنهم يُشفقون عليه من هذا الطريق الذى يسير فيه . . فيقول بعضهم لبعض : انظروا إلى هذا المسكين المغرور ، الذى يُمَنِّيه محمد بالجنة ونعيمها !! إنه مسكين . . لقد وقع فريسة لخداع محمد وتمويهه ! !

وقوله تعالى :

* « وما أرسلوا عليهم حافظين »

هو ردٌّ على هؤلاء المجرمين ، وعلى إنكارهم على المؤمنين ماهم فيه . . إنهم لم يُرسلوا عليهم حافظين لهم ، حارسين لما يتهددهم من سوء ! وقد كان الأولى بهؤلاء المجرمين الضالين أن ينظروا إلى أنفسهم ، وأن يحفظوها من هذا البلاء الذى اشتمل عليهم . . ولكن هكذا أهل السوء أبداً ، يُشغلون عن أنفسهم وعن حراستها من المهالك والمعاثر ، بالبحث عن عيوب الناس ، وتتبع سقطاتهم وزلاتهم ، والتشنيع بها عليهم . .

قوله تعالى :

* « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون »

هو عودة بالمجرمين من موقفهم هذا فى الحياة الدنيا ، إلى موقف الحساب والجزاء مرة أخرى ، وإنزالهم منازلهم فى جهنم ، حيث تتعالى صَرَخاتهم ، على حين ينظر إليهم المؤمنون ، ضاحكين منهم ، ساخرين بهم ، كما كانوا هم يسخرون من المؤمنين ويضحكون منهم فى الدنيا . .

وقوله تعالى :

* « على الأرائك ينظرون »

هو بيان للحال التى عليها المؤمنون ، وهم يضحكون من الكفار . . إنهم يضحكون وهم جالسون ، مستريحون على الأرائك ، على حين يتقلب المجرمون على جَمْر جهنم .

وقوله تعالى : « ينظرون » حال أخرى من أحوال المؤمنين ، وهم يضحكون من الكفار ، حال جلوسهم على الأرائك ، ينظرون ، أى يملئون عيونهم من نعيم الجنة الذى يحفّ بهم . .

وقوله تعالى :

* « هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون »

يجوز أن يكون معمولا لقوله تعالى : « ينظرون » أى ينظر المؤمنون وهم على أرائكهم ليروا هل ثوب الكفار ، أى هل جوزوا بما كانوا يفعلون ؟ وذلك ليتحقق لهم وعيد الله فى أهل الضلال ، كما تحقق لهم وعده فى أهل الإيمان . .

ويجوز أن يكون هذا كلاماً مستأنفاً ، يراد به تبكيت الكفار ، وهل جوزوا الجزاء الذى يستحقونه ، أم أن هناك مزيداً من العذاب يريدونه إن كان فوق ماهم فيه مزيد ؟ . .

(٨٤) سورة الانشقاق

نزولها : مكية . . نزلت بعد سورة الانفطار

عدد آياتها : خمس وعشرون آية

عدد كلماتها : مائة كلمة وسبع كلمات .

عدد حروفها: أربعمائة وثلاثة وثلاثون حرفا

مناسبتها لما قبلها

تُعَد هذه السورة ، وما سبقها ، وما يأتى بعدها ، حديثاً متصلا عن القيامة وأحداثها . . فكل سورة منها معرض من معارض هذا اليوم المشهود . .

فإذا ذهبنا نلتمس مناسبة لترتيب هذه السور ، كان ذلك أشبه بالتماس للمناسبة بين ترتيب الآى فى السورة الواحدة . . والمناسبة هنا وهناك قائمة أبداً . .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٥)

* « إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إذا السماء انشقت » هو مثل قوله تعالى : « إذا السماء انفطرت » — وتشقق السماء وانفطارها يوم القيامة ، هو — كما قلنا — لما يكون فى قدرة الإنسان يومئذ على التصعيد فى آفاق السماء ، دون أن يجد لهذا السقف الذى يراه فى الدنيا ، أثراً . . فهى أبواب مفتحة ، ينطلق فيها إلى ما لا حدود له . . « وفتحت السماء فكانت أبوابا » (١٩ : النبأ)

وقوله تعالى :

* « وأذنت لربها وحقت »

أى أصغت ، واستجابت لأمر ربها . . يقال أذن فلان لفلان ، أى أصغى إليه ، وأعطاه أذنه ، متقبّلا ما يتحدث به إليه .. « وحقت » أى لزمتها الطاعة، وحُقّ عليها الولاء والخضوع لأمر الله .. وهل تملك غير هذا ؟ فإن لم تستجب لذلك طوعاً أجابت كرهاً . . « فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » (١١ : فصلت)

قوله تعالى :

● « وإذا الأرض مدت . وألقت ما فيها وتخلت . وأذنت لربهـا وحقت »

ومَدّ الأرض ، هو ظهورها كالبساط الممدود ، فلا ترى العينُ المحلقة بعيداً فوقها ، جبالا ولا هضاباً ، وإنما تراها على مستوى واحد ، لا عوج فيها ولا أمتا .

وإلقاء مافى الأرض : هو إخراج ما فيها من موتى ، كما يقول سبحانه : « وأخرجت الأرض أثقالها » (٢ : الزلزلة)

وفى التعبير هنا بلفظ الإلقاء ــ إشارة إلى أنها تلفظ ما فيها لفظاً ، كما يُلقَى سَقَط الجنين من بطن أمه .

وقوله تعالى : « وتخلت » أى أنها تخلت عما ألقته من بطنها ، فلم تمسك به على ظهرها ، وهذا ما يشير إلى أن الحشر سيكون فى موضع آخر غير الأرض ، الله سبحانه وتعالى أعلم به .

قوله تعالى:

● « يـأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه »

هو جواب إذا الشرطية . . أى إذا حدث هذا ، فاعلم يأيها الإنسان أنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه

ومعنى الكدح : السعى الشديد ، وقد أكد بقوله تعالى : « كدحاً » أى سعياً جاداً متصلا ، لا ينقطع . .

أى أنه إذا حدثت هذه الأحداث ، فتلك هى أشراط الساعة ، وهنا تبدأ مسيرتك إلى المحشر ، أيها الإنسان ، وإلى لقاء ربك ، وذلك على طريق كله أهوال وشدائد ، تشيب لها الولدان . .

قوله تعالى:

* « فأما من أوتى كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حساباً يسيراً * وينقلب إلى أهله مسروراً »

أى وهناك فى موقف الحساب ، يُؤتى كل إنسان كتابه : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونُخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » (١٣ — ١٤ : الإسراء)

فأما من أوتى كتابه بيمينه ، فهو من أهل السلامة والنجاة . إنه يحاسب حساباً يسيراً ، لا رَهَق فيه ، لا عسر . . فما هو إلا أن يُعرض فى موقف الحساب ، حتى يُخلى سبيله . ففترة العرض والانتظار ، هى هذا الحساب اليسير . . فى الحديث عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حُوسب يوم القيامة عُذّب » قالت : فقلت يارسول الله : أليس قد قال الله : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً » فقال : « ليس ذلك الحساب : إنما ذلك العرض . . من نُوقش الحساب يوم القيامة عُذب »

ثم ينقلب من هذا الحساب ـ وقد برئت ساحته ـ يَزُف إلى أهله من إخوانه المؤمنين بشرى نجاته وسلامته ، وقد غمره السرور ، وفاض عليه البشر ؛ فلا يملك إلا أن يهتف بكل من يلقاه من أهل الحشر : « هاؤم اقرءوا كتابيه » (١٩ : الحاقة)

وقوله تعالى :

« وأما من أوتى كتابه وراء ظهره ، فسوف يدعو ثبوراً ، ويصلى سعيراً ، إنه كان فى أهله مسروراً * إنه ظن أن لن يحور »

« وأما من أوتى كتابه وراء ظهره » إشارة إلى أن المجرم حين رأى هذا الكتاب وما طلع به عليه من نُذُر الشؤم والبلاء ـ فرّ منه ؟ وطرح يديه وراء ظهره بعيداً عنه ، حتى لا يمسه ، ولكن أنّى له أن يهرب منه ، إنه لابد أن يأخذه ، فإن لم يمد يده هو إلى أخذه ، لحق الكتاب به ، وتعلق بشماله حيث بلغت مداها من الارتداد وراء ظهره .

وفى هذه الصورة ما يكشف عن حركات النفس ، وما يتبعها من حركات ترتسم على الجوارح . . !

وقوله تعالى : « فسوف يدعو ثبوراً » أى أن من أوتى كتابه بهـذا الأسلوب ، من وراء ظهره ، فسوف يصرخ صرخات الثبور ، ويولول ولولات الهلاك ، نادباً نفسه ، ناعياً مصيره . . وكيف لا يكون منه هذا والنار قد فتحت أبوابها له .

وقوله تعالى : « إنه كان فى أهله مسروراً » إشارة إلى ما كان عليه هذا الضال فى الدنيا من غرور بنفسه ، وإعجاب بحاله ، وبما يسوقه إلى المؤمنين من كيد . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فَكِهين » (٣١ : المطففين)

وقوله تعالى : « إنه ظن أن لن يحور » أى أن هذا الضالّ ظن أن لن يرجع إلى الله ، وأن يُبعث بعد الموت ، ويحاسب على ما كان منه . .

وحار : يحور : أى رجع إلى المكان الذى بدأ منه مسيرته ، فى حركة دائرية تصحبه فيها الحيرة والقلق ، والاضطراب . . وهكذا مسيرة الإنسان فى الحياة ، يتحرك فيها على طريق دائرى ، ينتهى من حيث بدأ ويبدأ من حيث انتهى .

وقوله تعالى :

* « بلى إن ربه كان به بصيراً »

هو جواب بالإيجاب لما بعد النفى . . أى بلى ليحورَنّ ، وليرجعنّ إلى الله ، الذى هو بصير بعباده ، يعلم مايصلحون له ، وما يصلح لهم . .

وهذه الحياة الأخرى ، هى امتداد لحياة الإنسان الأولى على هذه الأرض . . والحياة على أية صورة نعمة من نعم الله ، وهى على ما تكون عليه ، خير من العدم . . ولو كانت الحياة الدنيا هى غاية حياة الإنسان ، ثم عاد بعدها إلى العدم لكان شأنه فى هذا شأن أحط الحيوانات ، من ديدان وحشرات . . وإرادة الله سبحانه وتعالى فى الإنسان أنه مخلوق مكرم مفضل على كثير من المخلوقات . . ومن مقتضى هذا التفضيل والتكريم أن تمتد حياته ، وأن يتصل وجوده ، وأن يُنقل من عالم الأرض إلى عالم السماء ! ولعل هذا هو بعض السر فى إضافة هذا الإنسان — على ضلاله — إلى ربه . . « إن ربه كان به بصيرا » . . فليتحمل الإنسان الضالّ ، هذه القارف سبيل الحياة ، وليتطهر من أدرانه بها . . فتلك هى ضريبة الحياة ، وإن كانت فادحة على أهل الكفر والضلال ، كما كانت الحياة الدنيا ثقيلة على أهل العدل والإحسان . .

وأما ما يتمناه الكافر حين يلقى به فى النار من قوله : « ياليتنى كنت ترابا » (٤٠ : النبأ) فتلك صرخة من صرخات العذاب ، إنه ينطق بها ، وهو ممسك بالحياة حريص عليها ، كما يفعل ذلك كثير من الناس فى الدنيا ، حين تشتد بهم خطوبها ، فيتمنون الموت . . ولو جاءهم الموت لفرّوا منه ، وتشبثوا بحياتهم تلك . .

الآيات : (١٦ — ٢٥)

« فَلَآ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

« فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، لتركبن طبقا عن طبق » . .

قلنا — فى أكثر من موضع — : إن هذه الأقسام المنفية فى القرآن ، إنما يقسم بها على أمور واضحة ، لا تحتاج فى تقرير حقيقتها ، وتوكيد وجودها ، إلى قسم . . فالتلويح بالقسم هنا إشارة إلى أن ما يقسم عليه لا يحتاج إلى قسم

لمن عنده أدنى نظر ، أو مَسكة عقل ، فهو فى الواقع قسم مؤكَّد بهذا النفى الذى وقع عليه . .

والشفق : هو الصفرة المشوبة بحمرة ، تعلو وجه النهار عند الغروب . . وهو إيذان بدخول الليل ، ولهذا جاء الليل معطوفاً على الشفق . . «فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق » . .

وقوله تعالى : « والليل وما وسق » — إشارة إلى ما يحمل الليل من نجوم وكواكب ، كما أنه يحمل كل هذه الكائنات التى كانت تتحرك بالنهار ، فيضمها إلى جناحه ويحملها على صدره ، كما تحمل الأم وليدها . . والوسق : الحِمل ، الذى يوضع على ظهر الدابة .

وقوله تعالى : « والقمر إذا اتسق » أى إذا اكتمل ، وصار بدراً . . يقال : اتسق الشىء : أى بلغ غاية تمامه . .

وفى الجمع بين الشفق ، والليل ، والقمر ، مراعاة للمناسبة الزمنية الجامعة بينها . . فالشفق أول الليل من الأفق الغربى ، والقمر أوله من الأفق الشرقى . . (حيث يكون اتساقه وكماله وهو بدر فى الليلة الخامسة عشرة .)

فالمقسم به الواقع عليه النفى ، هو هـذا الظرف من الزمن ، وهو ليلة انتصاف الشهر القمرى ، حيث تغرب الشمس ، ويطلع القمر . . أو حيث يولّى سلطان الشمس ، ويقوم سلطان القمر . .

فالظرف الزمنى هنا ، هو الليل الذى يقوم عليه سلطان القمر . .

والليل ، يمثل الإنسان فى جسده الترابى ، المظلم المعتم . .

والقمر ، يمثل الضمير ، أو الفطرة المركوزة فى هـذا الإنسان ، والتى

يهتدى بها إلى الحق والخير ، حين تُظلم شمس العقل ، وتختفى فى ظلمات الحيرة ، وبين سحب الشكوك والريب .

ولهذا وقع القسم على تلك الحال التى يركب فيها الإنسان غواشى الضلال ، وتلقاه على طريقه المزالق والمعاثر : « لتركبن طبقاً عن طبق » فلا يكون له مفزع حينئذ إلا فطرته ، التى يهتدى بها إلى طريق النجاة ، كما يفعل الحيوان فى تصريف أموره ، على ما توجهه إليه غريزته .. فإذا افتقد الإنسان فطرته فى هذا الوطن ، كان من الهالكين ..

وقوله تعالى :

* « لتركبن طبقاً عن طبق » .

هو جواب لهذه الأقسام المنفية التى لُوّح بها ، والتى يخفيها النفى ، ويظهرها المقام ..

وقوله تعالى : « طبقاً عن طبق » أى لتتحولن عن حالكم تلك إلى حال أخرى مطابقة لها ، حيث تجدون وجودكم فى الآخرة ، صادراً عن وجودكم فى الدنيا ..

وفى التعبير بالركوب ، عن التحول من حال إلى حال ، ومن موقف إلى موقف — إشارة إلى أن ذلك لا يكون إلا على طريق شاق ، يلاقى فيه الناس الأهوالَ والمخاطر ..

إنهم ينتقلون من نهار ، كله سعى وعمل ، إلى ليل بَطَلَ فيه كل سعى وعمل .. وفى الليل يلتقى المهمومون مع همومهم ، على حين يتناجى السعداء مع آمالهم وأحلامهم ! .. ثم إنهم ينتقلون من الحياة إلى الموت ، ثم من الموت

إلى الحياة . . من الدنيا إلى الآخرة . . وهى رحلة طويلة شاقة يقطعها الإنسان فى جَهْد وعنَاء ، متنقلاً من حال إلى حال ، ومتقلّبا فى صور مختلفة ، ومنازل متباينة .

قوله تعالى :

* « فما لهم لا يؤمنون » . .

أى ما لهؤلاء المكذبين باليوم الآخر ، لا يؤمنون به ، ولا يعملون له وقد جاءتهم به النذر ؟ .

وماذا أضلهم عنه ، أو حجبهم دونه ؟ إنه ليس إلا التكبر والعناد .. وإلا التنكر لفطرتهم التى تهتف بهم أن آمنوا بالله !

وقوله تعالى :

* « وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون » .

ثم مالهم إذا تُليت عليهم آيات الله ، لا يسجدون لجلالها ، ولا يخشعون لعظمتها ؟ . .

وفى هذا إشارة إلى مافى القرآن من جلال تعنو له الجباه ، وتخشع لسلطانه القلوب .. « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » (٢١ : الحشر) ..

وقوله تعالى :

* « بل الذين كفروا يكذبون » ..

هو إضراب عن هذا السؤال ، الذى يستحثهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وإلى توقير آيات الله ، والخشوع بين يديها . . فهذا التحريض لهم ، لا ينفعهم ، ولا يؤثر فيهم .. إنهم كافرون ، والكافرون من شأنهم التكذيب :

«إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون» (٦ : البقرة)
«إن الذين حقت عليهم كلمة ربّك لايؤمنون . ولو جاءتهم كلّ آية حتى يروا العذاب الأليم» (٩٦ - ٩٧ : يونس)

وقوله تعالى :

* «والله أعلم بما يُوعون» . .

هو تهديد لهؤلاء المكذبين بآيات الله ، المنكرين للبعث .. فالله سبحانه أعلم بما يجمعون من محصول ضلالهم وكفرهم . .

ويُوعون : من أوعَى يُوعِي .. أى جمع وحفظ ماجمع فى وِعاء . . ومنه قوله تعالى : «وجمع فأوعى» (١٨ : المعارج) . .

قوله تعالى :

* «فبشرهم بعذاب أليم» .

وهكذا يتحول النبى مع هؤلاء المشركين المكذبين ، من منذر إلى مبشر ، ولكنه مبشّر بالعذاب الأليم لهم .. فهذا ما يبشرهم به ، على حين يبشر المؤمنين بجنات النعيم .. وفى التعبير بالبشرى عن العذاب الأليم بدلا من الإنذار به - إشارة إلى أنه لاشىء لهؤلاء الضالين المكذبين يبشرون به فى هذا اليوم ، وأنهم إذا بُشروا بشىء فليس إلا النار ، والعذاب الأليم . . وفى هذا تيئيس لهؤلاء الضالين من أى خير !!

قوله تعالى :

* «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون» . .

أى لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جزاؤهم من البر والإحسان ، لا ينقطع أبداً .. فالاستثناء هنا منقطع ..

(٨٥) سورة البروج

نزولها: مكية ـ نزلت بعد سورة الشمس.

عدد آياتها: : اثنتان وعشرون آية..

عدد كلماتها: مائة كلمة، وتسع كلمات.

عدد حروفها. أربعمائة وثمانية وخمسون.. حرفاً.

مناسبتها لما قبلهـــا

هى معرض من معارض يوم القيامة، فكان سياقها مع ما سبقها، سياقَ الجزء من كل..

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات: (١ — ٩)

* «وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ (١) وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلْأُخْدُودِ (٤) ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (٨) ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٩)»

التفسير:

قوله تعالى:

* «والسماء ذات البروج».

البروج : جمع برج ، وهو القصر ، أو الحصن ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « ولو كنتم فى بروج مشيّدة » .

وبروج السماء ، هى المنازل التى تنزل فيها الكواكب والنجوم فى مداراتها وبروج الشمس ،هى منازلها فى حركتها على مدار السنة ، وهى اثنا عشر برجاً .. منها ستة شمال خط الاستواء ، وستة فى جنوبه .. وقد رصد الفلكيون قديماً وحديثاً ، هذه المنازل ، وسموها بأسمائها .. وهى : الحمل ، والثور ، والجوزاء والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت . .

قوله تعالى:

* « واليوم الموعود » . . هو يوم القيامة ، الذى وعد به الناس على لسان رسل الله .

وقوله تعالى :

« وشاهد ومشهود » ..

الشاهد : الرائى للأشياء ، المحسّ بها ، حيث يشهدها واقعة فى حواسه .

والمشهود : مايقع عليه الحسّ البصرى من عوالم المخلوقات ، فى الأرض وفى السماء ..

ففى هذه الأقسام الثلاثة جمع الله سبحانه وتعالى، عالم المخلوقات ، علويّة ، وسفلية ، وغائبة وحاضرة ، ومنظورة وناظرة . .

لقد استحضر الله سبحانه وتعالى ، الوجود كله ، ليشهد هذا الجرم الغليظ ، وليسمع حكمه سبحانه ، على المجرمين الذين اقترفوه .

ومَن هؤلاء المجرمون ؟

إنهم أصحاب الأخدود !!

وبماذا حكم الله عليهم ؟

* بالقتل بيده سبحانه ، كما قتلوا المؤمنين ، رجالَ الله ، بأيديهم ..

* « قُتل أصحاب الأخدود » .

والأخدود : الشق فى الأرض ، وجمعه أخاديد .

وأصحاب الأخدود ، هم قوم كافرون بالله ، كان لهم موقف مع المؤمنين بالله ، شأنهم فى هذا شأن كل الكافرين مع المؤمنين فى كل زمان ومكان .. ولكن أصحاب الأخدود هؤلاء ، قد جاءوا بمنكر لم يأته أحدٌ من إخوانهم من أهل الضلال ، ولهذا كانت جريمتهم أشنع جريمة ، يستدعى لها الوجود كله ، ليشهد محاكمتهم ، وليسمع حكم الله عليهم .

لقد خَدّوا أخاديد فى الأرض ، أى حفروا حفراً عميقة فى الأرض ، وملئوها حطباً ، وأوقدوا فيها النـــار ، حتى تسعرت ، وعلا لهيبها ، واشتد ضرامها ، ثم نصبوا كراسى حولها يجلسون عليها ، وجاءوا بالمؤمنين بالله يرسفون فى أغلالهم يعرضونهم على النار واحداً بعد واحد ، ويلقونهم فيها مؤمناً إثر مؤمن .. والمؤمنون يرون هذا ويُقدمون عليه ، دون أن ينال هذا العذاب من إيمانهم ، أو يردهم عن دينهم الذى ارتضوه .. وفى هذا شاهد من شهود الإيمان المتمكن من القلوب ، الراسخ فى النفوس .. إنه أقوى من الجبال الراسيات ، لاتنال منها الأعاصير ، ولا تزحزحها عاتيات العواصف !

وقوله تعالى :

* « النار ذات الوقود » .

وهو بدل من « الأخدود » .. أى قتل أصحاب النار ذات الوقود .

وقوله تعالى :

* « إذهم عليها قعود . وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود » .

أى أن أصحاب الأخدود قعود على هذه النار ، قائمون عليها ، يشهدون تنفيذ حكمهم فى المؤمنين بالله ، ويتشفون بما هم فيه من عذاب .

وقوله تعالى :

* « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد » .

أى أنه ليس بين أصحاب الأخدود هؤلاء ، وبين المؤمنين ، من ذنب يأخذونهم به ، إلا إيمانهم بالله العزيز الحميد . . إنهم يؤمنون بالله الذى لاقوة إلا قوته ، ولا عزة إلا عزته ، وأن مايملكه أصحاب الأخدود من قوة ، وما يجدونه فى أنفسهم من عزة ، هو شىء محَقَّر مهين إلى جانب عزة الله ، التى يلوذ بها المؤمنون .. وهم ـ أى المؤمنون ـ يحمدون الله على السراء كما يحمدونه على الضراء ، فهو سبحانه المستحق وحده للحمد فى جميع الأحوال .. وهو سبحانه ، له ملك السموات والأرض وما فيهن ، من عتاة وجبارين ومتكبرين ، وهو يرى ويعلم كل شىء ، فينتقم لأوليائه ، ويأخذ لهم بحقهم ممن اعتدى عليهم ..

ولقد انتقم الله لأوليائه ، وهاهم أولاء المجرمون قد سيقوا إلى ساحة قضائه العادل ، وقد صب الله عليهم لعنته ، وألقى بهم فى عذاب الحريق !

وفى التعبير عن إيمان المؤمنين بفعل المستقبل : « إلا أن يؤمنوا » ، بدلا من الفعل الماضى ، الذى يقتضيه المقام ، والذى بسبب وقوعه كانت نقمة الناقمين عليهم ـ فى هذا إشارة إلى أن هذا الإيمان الذى فى قلوب هؤلاء المؤمنين ، هو إيمان ثابت فى قلوبهم ، مصاحب لهم ، لايتحولون عنه ، ولا يُجليه عن قلوبهم وعد أو وعيد .

هذا ولقد كثرت الأقوال فى أصحاب الأخدود ، وفى الزمان الذى كانوا فيه ، والوطن الذى ينتسبون إليه .. وكثرةُ هذه الأقوال وتعارضها يفقدها الأثر الذى لها ، ويجعل كلّ قول غيرها ـ ولو كان من واردات الظن والافتراض ـ مثلها تماماً فى النظر إليه عند تصوُّر الحدث .

والقرآن الكريم ، لا يذكر أسماء الأشخاص ، أو تحديد الأماكن أو الأزمان ، إلا إذا كان للشخص دلالة خاصة فى ذاته ، لا تُرى فى غيره ، وإلا إذا كان للمكان أو الزمان ، أثر خاص فى الحدَث الذى حدث فيه ، أو صفات لا توجد فى مكان آخر ، أو زمن غير هذا الزمن .

أما حين لا يكون للشخص أو المكان أو الزمان وزن خاص فى ميلاد الحدَث ، وفى تكوين صورته ، وطبعه بطابعه الخاص ، فلا يُعْنى القرآن بذكر ذات الشخص ، ولا موضع المكان ، ولا حدود الزمان . . وذلك ليكون الحدث مطلقاً من أى قيد ، ليعطى دلالة وحكمة ، حيث يلتقى بما يشبهه من ذوات الأشخاص ، وملامح الزمان والمكان .

الآيات : (١٠ — ٢٢)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ (١٤) ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ (١٩) وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » .

الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات : أى الذين كادوا لهم فى دينهم ، وأخذوهم بالبأساء والضراء ليفتنوهم فى دينهم ، ويخرجوهم منه .

وهذا وعيد من الله سبحانه وتعالى لكل من تعرض لأوليائه المؤمنين والمؤمنات ، بأذى، يريد أن يصرفهم عن الإيمان ، أو يصدّهم عنه.. فهؤلاء الذين آذوا المؤمنين والمؤمنات بسبب إيمانهم ، إذا لم ينزعوا عما هم فيه ، ولم يرجعوا إلى الله مؤمنين تائبين ، فقد أعدّ الله لهم عذاب جهنم ، بما فيها من مقامع من حديد ، ومن شدّ إلى السلاسل والأغلال ، ومن حميم يُصبّ فوق الرءوس ، ومن غساق يقطع الأمعاء . . ثم لهم فوق ذلك كله عذاب الحريق ، أى عذاب النار ذاتها ، الذى يرعى أجسامهم ، كما ترعى النار الحطب .

قوله تعالى :

* « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز العظيم » .

هو فى مقابل ما يلقى الذى فتنوا المؤمنين والمؤمنات ، من عذاب . . إذ ليس العذاب هو كل ما فى الآخرة ، بل فيها إلى جانب النار المجرمين ، جنات تجرى من تحتها الأنهار للمؤمنين المتقين : « وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان » (٢٠ : الحديد)

قوله تعالى :

* « إن بطش ربك لشديد »

البطش الأخذ بالشدة الباطشة ، كما فى قوله تعالى : « إن أخـذه أليم شديد » أى أن عقاب الله سبحانه للمجرمين عقاب شديد ، متمكن منهم ، لايجدون سبيلا للفرار منه . . وفى هذا وعيد المشركين ، وشدّ لأزر النبىّ ، وإلفاته إلى أن هؤلاء المشركين هم فى قبضة الله ، لا يفلتون منه أبداً .

وقوله تعـالى :

* « إنه هو يبدىء ويعيد » .

أى أنه سبحانه يبدىء الخلق ويعيده ، فيحيي ويميت ، ويميت ويحيي ، وفى هذا دليل على القدرة الفعّالة الدائمة ، القائمة على تدبير هذا الوجود ، وتبدّل صوره حالا بعد حال ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « كلّ يوم هو فى شأن » (٢٩:الرحمن) .

وقوله تعالى :

* « وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد . فعال لما يريد » .

أى ومن صفاته سبحانه أنه « الغفور » أى الـكثير المغفرة لذنوب عباده المؤمنين ، الذين يجيئون إليه تائبين مستغفرين : « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » (٨٢ : طه) . . وهو سبحانه « الودود » أى الـكثير الودّ لمن وادّ الله ورسوله ، كما يقول سبحانه : « إن الذين آمنـوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً » (٩٦ : مريم) وهو سبحانه صاحب السلطان الرفيع العظيم ، الذى لا يساميه سلطان .

وهو ـ سبحانه ـ الفعال لما يريد . أى يفعل مايشاء دون معوق أو معقب . . فـكل ما أراده سبحانه تمضيه قدرته . .

وفى هذا العرض لصفات الله ـ سبحانه ـ الجامعة بين القدرة والبطش ، وبين المغفرة والود — فى هذا وعيد ووعد ، وتهديد وترغيب . . فمن خاف وعيد الله بالعذاب ، تلقاه وعده بالرحمة والرضوان، ومن أفزعه التهديد بالنار وعذابها، آنسه الترغيب بالجنة ونعيمها

وقوله تعالى :

* « هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود . »

هو إلفات إلى طُغْمة من عتاة الناس وأشرارهم ، من الذين استخفوا بقدرة الله ، ولم يرهبوا سلطانه ، فتسلطوا على العباد ، وطغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد .

والاستفهام هنا : إما أن يكون على حقيقته ، ويكون النبي صلى الله عليه وسلم قد تلقى من آيات ربه قبل ذلك ، حديثاً عن فرعون ، وثمود ، وما أخذهم الله به من بلاء ونكال ، وعلى هذا يكون جواب الاستفهام محذوفاً ، تقديره . نعم أتانى حديث الجنود فرعون ، وثمود ! ويكون التعقيب على هذا الجواب أظهر من أن يدل عليه ، وهو : ألا ترى فى هذا الحديث ما أخذ الله به أهل البغى والتعدى ؟ وهل قومك أعتى عتوًّا وأشد قوة من فرعون وجبروته ، وثمود وبطشهم ؟

ويجوز أن يكون الاستفهام مراداً به بالنفى ، أى إنه لم يأتك حديث الجنود . . وإذن فسنقصه عليك فيما سينزل عليك من آياتنا بعد . . وفى هذا ما يبعث الشوق والتطلع إلى هذا الحديث العجيب ، وانتظاره فى لهفة ، وترقب .

وفى وصف القوم بالجنود ، إشارة دالة إلى أنهم ذوو بأس وقوة ،

كبأس أبطال الحرب وقوتهم ، وأنهم فى حرب مع أولياء الله ، يلبسون لباس الحرب دائماً .

قوله تعالى :

* « بل الذين كفروا فى تكذيب ، والله من ورائهم محيط »

هو إضراب عن انتفاع المشركين بهذه العبر والمُثلات ، التى يقصها الله سبحانه وتعالى من أخبار القرون الأولى ، وما أخذ به أهل الضلال والسفه والعناد . . فالذين كفروا « فى تكذيب » أى هكذا شأنهم دائما ، هم فى سلسلة لا تنقطع من التكذيب لكل ما يسمعون من آيات الله ، دون أن يصغوا إلى ما يسمعونه ، أو يعقلوه . . فالتكذيب بآيات الله وبرسل الله ، هو الظرف الذى يحتويهم فى كل زمان ومكان . .

وقوله تعالى : « والله من ورائهم محيط » تهديد لهم بأن الله سبحانه وتعالى محيط بهم ، وهم فى غفلة عن هذا ، وهم لهذا سيؤخذون دون أن يشعروا ، لأنهم غافلون عن علم الله ، وعن قدرته ، ذاهلون عن عقابه الراصد للمجرمين الضالين . .

وقوله تعالى :

* « بل هو قرآن مجيد ، فى لوح محفوظ »

هو إضراب عن هذا الإضراب . . وذلك أن المشركين ، وإن لم ينتفعوا بما فى القرآن ، ولا بشىء من نوره الذى يملأ الآفاق . . فهو قرآن مجيد ، أى عالى القدر ، رفيع الشأن لا ينال منه هذا النباح ، ولا يصل إلى سمائه هذا العواء ، من المشركين الضالين . . أنه فى لوح محفوظ عند الله ،وفى كتاب مكنون ، ولا يمسّه ، ولا يصافح نورَه ، إلاّ من طهُرت أنفسهم من دنس الكفر ورجس الضلال . .

(٨٦) سورة الطارق

نزولها : مكية . . نزلت بعد سورة البلد

عدد آياتها : سبع عشرة آية . .

عدد كلماتها : إحدى وستون كلمة

عدد حروفها : مائتان وتسعة وثلاثون حرفا

مناسبتها لما قبلها

هى نسق متسق مع ما سبقها ، فى عرض أحداث يوم القيامة ، وإرهاصاتها ، تقريراً ، وتوكيداً لهذا اليوم . .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٧)

« وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « والسماء والطارق . وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب » .

القَسَم هنا ، بشيئين ، هما : السماء ، والطارق !

ولأن السماء معروفة ، وهى هذا البناء القائم ذو السقف المرفوع فوقنا ــ فلهذا لم يكشف القرآن عن وجهها . .

أما « الطارق » فهو مما لا يُعرف على وجه التحديد ، فإن لفظ « الطارق » يحتمل معانى كثيرة . . فكل ما طرق الإنسان وجاءه على غير انتظار ، فهو طارق ، سواء أكان شخصاً أم حَدَثاً . . وفى الحديث الشريف : « أعوذ بك من طوارق الليل والنهار إلاّ طارقاً يطرق بخير يا رحمن » . ولهذا فقد جاء القرآن بهذا السؤال عنه : « وما أدراك ما الطارق ؟ » حتى ينبِّه إليه ، ويبعث على التطلع إلى معرفته . . ثم بينه الله سبحانه وتعالى بقوله : « النجم الثاقب » فهذا هو الطارق . . إنه النجم الثاقب !

والنجم الثاقب : قد يكون نجماً واحداً ، وهو النجم القطبى ، الذى يثقب ظلمة الليل بضوئه المشعّ ، كما أشرنا إلى ذلك فى سورة النجم .

وقد يكون مراداً به ، جنس النجم ، أى كل ما يظهر فى السماء من نجوم ، تثقب بضوئها أديم السماء المعتم .

وقد يكون المراد به تلك الشهب الراصدة ، التى تُرجم بها الشياطين ، وهى النيازك التى تُرى ساقطة من السماء إلى الأرض فى الليل ، ثاقبة الظلام المنعقد بين السماء والأرض . .

وهذا ، هو الأنسب ، لأنه يتّسق مع قوله تعالى بعد ذلك : « إن كل نفسٍ لمّا عليها حافظ » أى أنه كما للسماء حَفَظة يحفظونها من أن تدخل الشياطين حماها ، كما يقول سبحانه وتعالى على لسان الجن : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها مُلئت حرساً شديداً وشهباً » (٨ : الجن) . . وكما يقول جل شأنه : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين » (٥ : الملك) وكما يقول سبحانه : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظاً من كل شيطان مارد » (٦ ، ٧ : الصافات) ـ أى كما جعلنا للسماء حفظة يحفظونها ، كذلك جعلنا على كل نفس حافظاً موكّلا بها من عندنا ، يسجل أعمالها ، كما يقول سبحانه : « وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين » (١٠ ، ١١ الانفطار) وكما يقول تعالى : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » (١١ : الرعد) .

وقوله تعالى :

* « إنْ كلُّ نفس لمّا عليها حافظ » .. هو جواب القسم ..

أى ما كل نفس إلاّ عليها حافظ ، أى حارس أمين ، ضابط لكل ماتعمل من خير أو شر ، أو أن كل نفس يقوم عليها من كيانها مايحفظ عليها وجودها ، وذلك بما أودع الخالق جل وعلا فيها ، من قوى مادية ومعنوية ، تجعل منها جميعاً أسلحة عاملة ، تحمى الإنسان ، وتدفع عنه مايعترض طريقه على مسيرة الحياة ، وإن أظهر حافظ يحفظ الإنسان هو عقله ، الذى يميز به الخير من الشر ، والخبيث من الطيب ، ولعلّ هذا أقرب إلى الصواب ، إذ جاءت بعد هذه الآية دعوة الإنسان إلى أن يستعمل عقله ، وينظر فى أصل خَلْقه ، ومادة وجوده ..

وهو قوله تعالى :

* « فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب » أى وإذ كان مع كل إنسان حافظ ، هو عقله ، فلينظر بهذا العقل الحافظ ، إلى قدرة الله سبحانه وتعالى ، فى ذاته هو ، وإلى قدرة الله سبحانه

فى إبداع هذه الذات وتصويرها .. فإنه لو نَظَر بهذا العقل إلى هذا الذى يوجَّه إليه من حقائق ، لعرف طريق الحق ، وسلك مسالك الهدى .

فمن أين خلق هذا الإنسان ، ذو العقل والبصر ؟ خلق من ماء دافق ، أى ماء سائلٍ ، جارٍ ، لا كوْن له ، ولا تماسك بين أجزائه ..

وقوله تعالى : « يخرج من بين الصلب والترائب » ـ إشارة إلى مورد هذا الماء الدافق ، وأنه ماء مخرجه من بين الصلب والترائب ..

والصلب ، فِقار الظهر ، والمراد به صُلب الرجل ، أى ظهره .

والترائب : جمع تَرِيبة ، وهى موضع القلادة من الصدر .. والمراد بالتريبة هنا تريبة المرأة ..

فالماء الذي يُخلق منه الإنسان ، هو ماء الرجل والمرأة معاً ، حين يلتقيان فى رحم المرأة ..

وفى وصف الماء بالتدفق ، إشارة إلى أنه ماء قد خرج خروجاً طبيعياً ، بعد أن استوى ونضج فى صلب الرجل ، وتَرِيبة المرأة ،وأنه ليس ماء انتزع انتزاعاً من موضعه قبل أن ينضج ويستوى ..

قوله تعالى :

* « إنه على رجعه لقادر * يوم تبلى السرائر » .

أى أن الله سبحانه الذى خلق هذا الإنسان من هذا الماء الدافق ، قادر على أن يرجعه إلى الحياة بعد الموت ، ويخلقه خلقاً آخر ، كما خلقه أول مرة .. فهذا الماء لا يختلف ـ فى تقدير الإنسان ـ عن هذا التراب الذى الذى يُبعث منه الإنسان بعد موته .. كلاهما شىء بعيد عن صورة الإنسان .. فما أبعد ما بين الإنسان ، وبين الماء ، أو التراب !

وقوله تعالى : « يوم تُبلى السرائر » إشارة إلى الوقت الذى يُبعث فيه هذا الإنسان إلى الحياة مرة أخرى ، فذلك هو يوم « تبلى السرائر » أى يوم يخرج كل ما انطوى فى سريرة الإنسان ، وكل ما احتفظ به فى صدره من أسرار ، فلا يبقى سر إلا ظهر على الملأ ، يوم الحساب والجزاء . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « أفلا يعلم إذا بُعثر ما فى القبور • وحصل مافى الصدور • إن ربهم بهم يومئذ لخبير » (٩ — ١١ : العاديات) .

قوله تعالى :

* « فما له من قوةٍ ولا ناصر » .

أى فى هذا اليوم ، يوم يكشف عما فى الصدور ، ويوضع موضع الفحص والاختبار ، ليتبين الخبيث من الطيب ـ فى هذا اليوم لا يكون للإنسان قوة من ذات نفسه ، يدفع بها السوء عنه ، كما أنه لايجد ناصراً ينصره ويعينه .. فكل إنسان مشغول بما هو فيه : « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » . (٣٧ : عبس)

وقوله تعـالى :

* « والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ، وماهو بالهزل » .

هو قَسَم بالسماء ذات الرجع ، أى ذات المطر الذى ينزل من السحاب ، وسمى المطر رَجعاً ، لأنه خرج من الأرض ، وإليها يرجع .. وقَسَمٌ آخر بالأرض ذات الصدع ،أى التى تتشقق ليخرج منها النبات ، الذى يتخلق فى رحمها من هذا الماء المصبوب فيها . .

فالسماء التى ينزل منها الماء ، إنما تعيد هذا الماء إلى الأرض الذى خرج منها إلى السماء ، والأرض التى تتصدع عن النبات تعيد هذا النبات الذى نفذ إليها من ظهرها ـ تعيد إلى ظهرها مرة أخرى . وفى هذا ، وذاك ، دليل على تلك الدورة

التي يدور فيها الإنسان ، فينقل من ظهر الأرض إلى بطنها ، ثم يعود من بطنها إلى ظهرها ..

وقوله تعالى :

* « إنه لقول فصل ، وماهو بالهزل » .

هو المقسَم عليه بالقسَمين السابقين ، وهو أن هذا القول الذى تنطق به آيات الله ، هو قولٌ حقٌّ ، واقع لاشكَّ فيه ، وليس هو بالهزل الذى لاتُقصد به دلالاته ومعانيه ..

وقوله تعالى :

* « إنهم يكيدون كيداً » .

هو تعقيب على قوله تعالى : « إنه لقول فصل ، وماهو بالهزل » ـ وهو فى موقع جوابٍ عن سؤال هو : ماذا كان موقف المشركين من هذا القول الفصل ؟ فكان الجواب : « إنهم يكيدون كيداً » أى يمكرون مكراً ، ويستقبلون هذا القول بالمماحكة والجدل ، وينصبون الشراك له ، ويقيمون المعاثر فى طريقه ، ليصدّوا الناس عنه . . إنهم فى حربٍ معه ، يكيدون له بكل يقدرون عليه ، مجتمعين ، أو فُرادَى . .

وقوله تعالى :

* « وأكيد كيداً » .

هو ردٌّ على كيد هؤلاء الكائدين ، لإبطال كيدهم ولقتلهم بالسلاح الذى يحاربون به كلام الله .. وهذا مثل قوله تعالى : « ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » .. فهم إذا كادوا للقرآن ، ودبروا أمرهم بليل ، فإن الله سبحانه وتعالى كيداً ، حيث يأخذهم العذاب ، وهم لايشعرون .

قوله تعالى :

* « فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً »

هو تهديد للمشركين بما ينتظرهم من وراء كيدهم هذا .. وإنه ليس إلا أياما قليلة يقضونها فى دنياهم ، حتى يلقاهم اليومُ الذى يوعدون ، وحيث يأخذهم عذاب الله ، وليس لهم من دون الله من ولى ولا نصير . .

وفى هذا عزاء للنبي الكريم ، وتثبيت لقدمه على طريق دعوته ، التى تقوم على طريقها هذه الذئاب المتربصة بها . . إنه فى حراسة الله ، فليمض فى طريقه وليدَعْ لله سبحانه ردَّ هذا الكيد الذى يكاده .

(٨٧) سورة الأعلى

نزولها مكية.. نزلت بعد سورة المدثر

عدد آياتها : تسع عشرة آية ..

عدد كلماتها : ثمان وسبعون آية ..

عدد حروفها : مائتان وواحد وسبعون حرفا

مناسبتها لما قبلها

ختمت سورة « الطارق » — قبل هذه السورة بقوله تعالى : « إنهم يكيدون كيداً . وأكيد كيداً . فمهل الكافرين أمهلهم رويداً » وفى هذا — كما عرفنا — تهديد للمشركين ، وتطمين لقلب النبي ، وحماية له من هذا الكيد الذى يُكاد له ، فناسب أن تجىء بعد ذلك سورة « الأعلى » مبتدئة بقوله تعالى : « سبح اسم ربك الأعلى » ، ففى هذا الاستفتاح دعوة إلى تمجيد الله وتعظيمه ، والتسبيح بحمده ، على أن أخذ الظالمين بظلمهم ، وأبطل كيدهم ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٩)

« سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩) »

التفسير :

قوله تعالى:

* « سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى »

« اسم ربك » أى الاسم الذى يدل على ذات الله سبحانه وتعالى ، ولله سبحانه وتعالى أسماء كثيرة ، ذكرها فى القرآن الكريم ، كما ذكرها النبى الكريم ، فى حديث رواه البخارى ، وهو قوله صلوات الله وسلامه عليه « إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً . . . »

وأسماء الله تعالى، هى صفاته للموصوف بها، وهى وإن كانت مما قد تَصِفُ به ذواتَنا، من العلم، والسمع، والبصر، والقدرة، وغيرها، إلا أن لله سبحانه كمالَ هذه الصفات، كمالا مطلقاً، على حين أن ما نتداوله نحن من هذه الصفات هو فى حدود وجودنا المحدود، فيقال فلان حفيظ، وعليم، وقادر، وكريم، وهو فى هذه الصفات كائن بشرى محدود، واتصافه بها إنما هو بالإضافة إلى غيره، ممن هو أقل منه حفظا، أو علماً، أو قدرة، أو كرماً..

فالتسبيح باسم الله، هو ذكره سبحانه بكل ما له من الأسماء الحسنى، كما يقول سبحانه: «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها» (١٨٠ : الأعراف)

والمراد بالتسبيح باسم الله، هو التسبيح لذاته سبحانه وتعالى.. ولكن الذات العلية لا يمكن تصورها، وإنما الذى يمكن تصوره — مهما بالغنا فى هذا التصور — هو ما تتصف به الذات من صفات الكمال التى تتجلى فى أسمائه الحسنى.

وقوله تعالى «الذى خلق فسوى» هو مما نذكره من صفات الله سبحانه وتعالى، حين نذكر اسمه الكريم: «الخالق».. فإذا ذكرنا اسم الله هذا، ذكَرْنا منه أن الله سبحانه هو المتفرد بالخلق، لا يشاركه أحد فيما خلق فى السماء أو فى الأرض.. وهو سبحانه الذى سوّى ما خلق، فأقام كل مخلوق على أتم صورة له وأكملها، كما أقام من هذه المخلوقات جميعها صورةً مسوّاة محكمة للوجود كله «ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت» (٣ : الملك)

وقوله تعالى:

* «والذى قدّر فهدى»

أى وهو سبحانه الذى قدّر لكل مخلوق ما هو مناسب له، ملائم لوجوده، محتفظ له بمكانه بين المخلوقات .. « الذى أعطى كل شىء خَلْقَه ثم هدى » (٥٠ : طه) فكل مخلوق، من إنسان، أو حيوان، أو نبات، أو جماد ـ ميسر لما خلق له .. كما فى الحديث الشريف : « اعملوا فكل ميسر لما خُلق له »

قولهُ تعالى :

* « والذى أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى »

ومن آثار الخالق سبحانه وتعالى، أنه أخرج من الأرض ما يأكل منه الناس والأنعام .. فكل ما على الأرض من نبات، هو مرعًى للناس، وللحيوان، وأنه إذا كان الإنسان بعقله قد أدخل الصنعة على هذا المرعى، فاتخذ من الحبّ خبزاً، ومن الفاكهة شراباً ـ فإن ذلك لا يخرج بهذا النبات عن أن يكون مرعًى للناس وللأنعام، يشير إلى ذلك قوله تعالى : « والأرض بعد ذلك دحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها، متاعاً لكم ولأنعامكم » (٣٠ — ٣٣ النازعات) فالناس والأنعام سواء أمام هذه المائدة الممدودة من فضل الله .

وقوله تعالى : « فجعله غُثاء أحوى » ـ إشارة إلى أن هذا المرعى الأخضر، لا يثبت على حال واحدة، بل إنه ينتقل من حالٍ إلى حال، فيتحول من الحياة والخضرة، إلى الجفاف، والموات، فيكون « غُثاء » أى هشيما « أحوى » أى أسمر اللون، بعد أن يلوّحه الجفاف، ويذهب منه ماء الحياة الذى كان يسرى فى كيانه .. وهذا من إبداع القدرة، التى تبدىء وتعيد .

قوله تعالى :

* « سنقرئك فلا تنسى * إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى » .

مناسبة هذه الآيات لما قبلها، هى أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم فى أول السورة أن يسبح باسمه، وأن يذكره، وذلك بتلاوة آيات

الله التي يتلقاهـا وحياً من ربه ، فإن خير ذكرٍ لله ، هو بتلاوة آياته سبحانه وتعالى ، ولهذا كان أول ماتلقاه النبي - صلوات الله وسلامه عليه - من ربه ، هو قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم » فهو مثل قوله تعالى : « سبح اسم ربك الأعلى ، الذي خَلق فسوى ، والذي قـدر فهدى ، والذي أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى » .

ولما كانت هذه السورة — سورة الأعلى — من أوائل ما نزل من القرآن ، فقد كان النبي الكريم يحرص أشد الحرص على أن يحفظ حفظاً موثقاً كلّ ما يتلقى من وحى .. فلما حَمِىَ الوحى وبدأت آيات الله تنزل عليه تِباعاً ، خشى أن يَثقُل على حافظته حفظُ ما يوحى إليه ، ولهذا كان يسمع الآية من جبريل عليه السلام فيعيد تكرارها على لسانه حتى يثبت حفظها فى قلبه ، فنزل عليه قوله تعالى : « لاتحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرآناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه » (١٦ — ١٩ : القيامة) .. ثم جاء قوله تعالى : « سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله » .. وذلك ليقطع على النبىّ كل خاطر يخطر له من أن شيئاً مما نزل عليه من آيات الله ، يكون فى معرض النسيان يوماً ما ..

وفى قوله تعالى : « إلا ما شاء الله » — إشارة إلى أن هذا الحكم المطلق المؤيد بعدم النسيان ، هو رهن بمشيئة الله ، وأن مشيئة الله مطلقة لا يقيدها شىء .. فلو شاء سبحانه أن يذهب بما حفظ النبىّ من آيات الله لذهب به ، ولكنه سبحانه لم يشأ ، فهى مشيئة مقيدة بمشيئة ، وكلا المشيئتين من الله ، وإلى الله .. وهذا مثل قوله تعالى : « ولو شئنا لنذهبنّ بالذى أوحينا إليك »

(٨٦ : الإسراء) ولكنه سبحانه وتعالى لم يشأ هذه المشيئة ! وبذلك يظل النبىّ مع هذا الوعد الكريم من ربه ، على ثقة واطمئنان ، بأن مايتلقى من آيات ربه ، سيكون محفوظاً فى صدره ، ثم هو فى الوقت نفسه لا يُخلى نفسه من معاناة الحفظ ، والتلاوة ، ومراجعة ما حفظ ، وذلك ليعطى وجوده حقه من الطلب والمعاناة ، وإلا — وحاشاه — كان أشبه بآلة مسجلة ، تُملأ ، ثم تدار ، لتفرغ ماملئت به .. ولهذا كان من بعض حكمة الله سبحانه فى نزول القرآن منجما ، ما أشار إليه سبحانه فى قوله تعالى : « كذلك لنثبت به فؤادك » وذلك بمعايشة كلمات الله ، وقتا كافيا ، تَقَرّ فيه فى صدر النبىّ ، وتَثْبت بالحفظ ، والمراجعة والمعاناة ..

والدليل على ما ذهبنا إليه ، ماثبت من تاريخ القرآن ، من أن النبىّ عليه الصلاة والسلام ، كان يعرض على جبريل كلّ عام ما نزل عليه من القرآن ، فلما كانت السنة التى توفى فيها النبىّ ، عَرَضَ على جبريل القرآن كله ، مرتين ، وقيل ثلاث مرات ، وذلك لتأكيد ما حفظ النبىّ وتوثيقه ..

وهذا يعنى أن سنن الله الكونية — وهى من مشيئته وحكمته — قائمة أبداً ، وأن الأخذ بالأسباب مطلوب فى كل حال ، ومع كل مخلوق ، حسب وجوده فى عالمه ..

وقوله تعالى : « إنه يعلم الجهر وما يخفى » هو تأكيد لهذا الوعد مع الاستثناء ، وأن الله سبحانه ، الذى وعد النبىّ بألا ينسى ما يحفظ ، هو عالم الجهر والسر ، وهو سبحانه الذى يملك خطرات النفوس ، وخلجات الصدور ، فيتصرف فيها كيف يشاء ..

وقوله تعالى :

* « ونيسرك لليسرى » ..

أى والله سبحانه وتعالى لايشقّ عليك أيها النبىّ ، ولا يكلفك مالا تطيق ، فهو ميسرٌ لك أمرَك جميعَه ، ومن أولى دلائل اليسر أنه أعانك على حفظ القرآن وتثبيته فى صدرك ، فلا يذهب شىء منه .. ومن تيسيره عليك أنه جعل الشريعة التى أنت داع إليها وقائم بها شريعةَ يسر وسماحة ، لاحرج فيها ، ولا إعنات، كما يقول سبحانه : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » .. (٧٨ : الحج)

قوله تعالى:

* « فذكر إن نفعت الذكرى » ..

أى وبهذه الشريعة السمحاء ادع الناس إليها ، وذكّر بها ، ووجه القلوب والعقول إلى الله بها ..

وقوله تعالى : « إن نفعت الذكرى» — إشارة إلى أن يذكّر النبىّ ما وجد الذكرى نفعاً ، والذكرى لا تخلو من نفع أبداً ، فإنها إذا لم تجد فى الناس من يستجيب لها ، وينتفع بها ، فإنها واجدة فيهم أيضاً من يستجيب وينتفع ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى: «وذكرفإن الذكرى تنفع المؤمنين» (٥٥ : الذاريات) . وهذا يعنى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لا يتخلّى عن مهمة التذكير أبداً .. فقيد الأمر بالتذكير ، بنفع الذكرى قيد لازم ، ومن لزوم هذا القيد أن يكون النبىّ مذكّراً بدعوته دائماً ، لأن مع كل ذكرى نفعا ، وما دام النفع معها ، فهى مطلوبة من النبىّ أبداً ، وهو مذكر أبداً ..

وقد اضطرب المفسرون فى تأويل هذه الآية ، وفى تأويل القيد الوارد عليها فى هذا الشرط : « إن نفعت الذكرى » ، وبدا لهم من ذلك أن النبىّ لايذكّر إلا فى حال يكون فيها للذكرى نفع ، فإن لم يكن فيها نفع ،فلا تذكير !! والنبىّ مطلوب منه أن يذكّر دائماً نفعت الذكرى أو لم تنفع .. فكيف يتفق

هذا الدوام ، مع هذا القيد ، وهو التذكير فى حال النفع وحده ؟

وقد ذهب المفسرون مذاهب شتى فى حل هذا الإشكال ، وخرجوه على وجوه قُلّبت فيها مذاهب النحو ، واللغة ، على جميع وجوهها ، دون أن يحصلوا من ذلك على طائل ، نستريح له ونطمئن إليه ..

وقد رأيتَ كيف كانت نظرتنا إلى الآية .. فلعلك تجد فيها ما تطمئن إليه وتستريح له ..

قوله تعالى :

* « سيذكر من يخشى » ..

هو إشارة إلى أن الذكرى على أية حال نافعة ، وأنه سيذكر بها من يخشى الله سبحانهُ وتعالىٰ .. وأنه لن تخلو الإنسانية ممن يخشى الله ويتقيه ، ويفتح قلبه للهدى المرسل فى آياته ..

قوله تعالى :

* « ويتجنبها الأشقى * الذى يصلى النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيا » ..

وهذا هو الوجه الآخر من الذكرى ، وهو الوجه الذى لا يكون فيه منها نفع للأشقياء الذين غلبت عليهم شقوتهم ، فحرموا التهدى إلى الهدى ..

ووصف النار بأنها الكبرى — إشارة إلى أنها ليست كنار الدنيا مع شدة ضرامها ، وقسوة حرارتها ، وإنما هى نار تأكل نار الدنيا ، فى شدة ضرامها ، وقسوة حرارتها .

وقوله تعالى : « ثم لا يموت فيها ولا يحيا » — إشارة إلى أن الأشقياء الذين

يُلقون فى هذه النار ، سيخلدون فيها ، وهو خلود فى عذاب شديد — وقانا الله شره — وأن الحياة فى هذا العذاب ليست حياة يجد فيها الحى طعماً للحياة ، وليست موتاً يستريح فيه من هذه الحياة .. فلا هو فى الأحياء ، ولا فى الأموات ، إنه فى حياة متلبسة بالموت ، وفى موت ملبس بالحياة : « ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت » وهذا أقسى ألوان الحياة وأشدها ..

قوله تعالى :

* « قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى » ..

الذين لاتنفعهم الذكرى ، هم الأشقياء الذين غلبت عليهم شِقوتهم فلم تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق .. فكان مصيرهم النار ، لايموتون فيها ولايحيون .. ذلك ، على حين قد أفلح من تزكى ، أى تطهر من أوضار الكفر والضلال ، فآمن بالله ، وذكر اسم ربه ، وأقام الصلاة .

وقوله تعالى : « وذكر اسم ربه فصلى » ـ إشارة إلى أن الصلاة مرتبة على ذكر الله ، فمن لم يذكر الله سبحانه ، ويستحضر جلاله وعظمته فيما يذكر من أسمائه وصفاته ـ لايخشع قلبه لله ، ولا يصلّى له ..

وفى ذكر الصلاة على أنها الأثر المترتب على ذكر الله ـ إشارة إلى أن الصلاة ، بما فيها من ولاء ، وخشوع ، وركوع ، وسجود ، هى أكمل الوسائل وأعظم القربات التى يتقرب بها العبد إلى ربه ، ومن هذا كانت رأس العبادات .. ومِلاك الطاعات .. وهى شريعة كل نبى ، ودعوة كل رسول إلى قومه ، بعد الإيمان بالله .. فيقول سبحانه عن إسماعيل: « وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً » (٥٥ : مريم) ويقول سبحانه على لسان عيسى : « وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً » (٣١ : مريم) .

وفى ذكر الله سبحانه وتعالى بالربوبية من بين أسمائه الكريمة كلها —

إشارة إلى أن الذى يذكر الإنسانُ اسمَه ، هو مربيه ، ومنشئه ، والمنعم عليه بالإيجاد ، والخلق على هذه الصورة السوية .

قوله تعالى :

* « بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى » .

هو إضراب عن هذا الخبر : « قد أفلح من تزكى » ـ حيث لم يستجب له معظم الناس ، ولم يدخل فيه أكثرهم ، إذ قد آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ، وشُغلوا بها عن ذكر الله ، وإقامة الصلاة على تمامها وكمالها ، فى إخلاص ، وخشوع ، وإخلاء القلب لها من هموم الحياة وشواغلها ..

فإن الصلاة إذا لم تستوف أركانها ، ولم يدخل فيها المصلى بعد ذكر الله ، واستحضار جلاله وعظمته ـ كانت مجرد حركات ، يخشع لها قلب ، ولا تنتعش بها روح !! إنها إن لم تكن نفاقاً مع الناس ، كانت نفاقاً مع الإنسان ونفسه واختيانا من الإنسان للأمانة التى اؤتمن عليها ، ليؤديها إلى روحه ، وقلبه ، غذاء وضياء ! وهذا مايشير إليه قوله تعالى فى وصف المنافقين : « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا » (١٤٢ : النساء) .

وهؤلاء الذين قصروا فى ذكر الله ، وفى الصلاة القائمة على ذكر الله ، قد بَخَسُوا أنفسهم ، لأنهم آثروا الفانية على الباقية ، ، اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، « والآخرة خيرٌ وأبقى » .

قوله تعالى :

* « إن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى » .

الإشارة هنا إلى ماتحدثت به الآيات السابقة ، من أن من آثر الحياة

الدنيا ، واستغواه غيّها وضلالها ، فإن النار مأواه ، وأن من ذكر اسم ربه فصلى ، فإنه من أهل الفوز والفلاح ـ فهذا الذى تحدثت به الآيات هو من الحقائق الكبرى الخالدة ، التى حملتها كتب الأنبياء السابقين ، ومنهم إبراهيم وموسى ..

وفى اختيار إبراهيم وموسى من بين الأنبياء والرسل ، إشارة إلى أن إبراهيم هو أبو الأنبياء ، وشريعته من الشرائع الأولى ، وعلى امتدادها جاءت شريعة موسى ، ثم شريعة الإسلام ..

---

(٨٨) سورة الغاشية

نزولها : مكية .. نزلت بعد سورة الذاريات ..

عدد آياتها : ست وعشرون آية .

عدد كلماتها : اثنتان وتسعون كلمة .

عدد حروفها : ثلاثمائة وواحد وثمانون حرفاً .

مناسبتها لما قبلها

ختمت سورة «الأعلى» بالحديث عن الآخرة ، وعن أنها الحياة الخالدة الباقية ، التى تستحق أن يعمل الإنسان لها ، ويؤثرها عَلَى الدنيا ، إيثارَ الحقِّ على الباطل ، والعظيم على الحقير ، والباقى على الفانى .. ولكن حب الدنيا قد غَلب على أكثر الناس ، فصرفوا همهم كله إلى الدنيا ، ولم يعطوا الحياة الآخرة شيئاً من وجودهم ، فجاءوا إلى يوم القيامة ، مُفْلسين معدمين ، ليس فى أيديهم زاد لها ، بل كل مايحملون هو أوزار وآثام ، وضلالات .. فكان الحديث

عن الغاشية ، وهى القيامة ، وعن أهوالها ، تذكيراً للناس بها ، وتنبيهاً لهم إلى مايلقى المجرمون فيها من عذاب ونكال ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٦)

* « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « هل أتاك حديث الغاشية ؟ »

سؤال ، يُراد به تشويق المسئول إلى المسئول عنه ، وإثارة الرغبة عنده فى التطلع إليه ، والبحث عن جواب له .

وما يكاد المسئول يبحث فى خاطره عن جواب هذا السؤال ، حتى يَرِد عليه الجواب من خارج ، فيلتقى مع ماتردد فى خاطره من أجوبة عليه . . فإذا كان

ماوقع فى خاطره صحيحاً ، التقى مع هذا الجواب الوارد عليه التقاء متمكناً ، وعانقه عِنَاق الغائب للمنتظَر ، وإلا أخذ الجواب الصحيح ، وأقامه مقام مالم يصح من خواطره ، وتصوراته . .

والغاشية : مايغشَى الناسَ فى هذا اليوم ، من أهوال ، ومايطلع عليهم فيه من شدائد . . وأصله من الغَشْى ، وهو السطو والهجوم . .

* « وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة » .

هذا هو مطلع حديث الغاشية ، وهذا هو الجواب على السؤال عنها . . إنه ماتحدِّث به الغاشيةُ عن نفسها ليس كلاما ، وإنما هو أفعال وأحداث . . ومن أحداثها ، تلك الوجوه الخاشعة . . وخشوعها هو خشوع ذِلة ، وضراعة ، ومهانة ، وليس خشوعَ تقوى وتوقير وإجلال . . فالذل خشوع انكسار ، وامتهان ، تموت معه العواطف ، والمشاعر ، كما يقول تعالى فى أصحاب النار : « وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرفٍ خفىّ » .

وفى قوله تعالى : « عاملة ناصبة » ـ إشارة إلى هذا الرهَق الذى غشى تلك الوجوه الخاشعة ، لأن أصحابها فى نصب دائم ، وعمل مضنٍ لاينقطع ، من موقفهم موقف المساءلة ، والحساب ، وعرض مخازيهم عليهم ، إلى وضع الأغلال فى أعناقهم ، إلى سحبهم على وجوههم فى جهنم ، إلى صرخات الويل والثبور التى تملأ الآفاق من حولهم ، فكل هذا وكثير غيره من الأهوال ، تنطبع على وجوههم آثاره ، قتاماً وعبوساً ، ورَهقاً . .

وقوله تعالى :

* « تَصْلَى ناراً حامية . تُسْقَى من عين آنية » .

هو صفة لهذه الوجوه ، وما يَرِد عليها من مساءات . . إنها « تصلى ناراً

حامية» أى تعذب بنار حامية .. وفى وصف النار بأنها حامية ، إشارة إلى أنها نار ذات صفة خاصة ،على خلاف المعهود من نار الدنيا . . فكل نار ، حامية ، وهذا الوصف الوارد على النار ، يعطى وصفا جديداً لها .

وهذه الوجوه أيضا ، تسقى من ماء حار ، يغلى فى البطون كغلى الحميم .

وإسناد هذه الأفعال إلى الوجوه ، لأن الوجوه ، هى عنوان الذات الإنسانية ، وهى وحدها التى تحدّث عن ذات الإنسان ، وتدل عليه . . فالناس يتشابهون أجساداً، ولكن الذى يفرق بين إنسان وإنسان هو الوجه الذى يحمل لكل إنسان صورته التى يُعرف بها بين الناس . . إن الوجه هو الذات الإنسانية بكل مشخصاتها ومقوماتها ، ولهذا كان له هذا الشأن فى موقف الحساب والجزاء ، وما يلقى الإنسان هناك من نعيم أو عذاب ، إن كل صور العذاب والآلام تنطبع عليه ..

قوله تعالى :

* « ليس لهم طعام إلا من ضريع * لا يسمن ولا يغنى من جوع » ..

عُدِل هنا عن الحديث إلى الوجوه ، واتّجه به إلى أصحابها ، لأن الطعام لا يساق إلى الوجوه وإنما يساق إلى البطون ، ثم تنطبع آثاره على الوجوه .. وفى هذا ما يعطى كل جزء من أجزاء الجسد نصيبَه من هذا العذاب . فالعذاب الذى يقع على جزء من الجسد ، يَشيع فى الجسد كله ،فإذا كان كل جزء من الجسد واقعاً تحت لون من ألوان العذاب يتناسب مع طبيعته ، كان ذلك أنكى وآلم ، حيث يتحول الإنسان تحت وطأة هذا العذاب إلى طاقات كثيرة متعددة ، يُصبّ فيها العذاب الذى يحتوى كل ذرة فيها ، ولعل هذا من بعض ما يشير إليه قوله تعالى : « يضاعف له العذاب يوم القيامة » (٦٩ : الفرقان) .

والضريع، كما يدل عليه لفظه، طعام غثّ ردىء، لا تتولد عنه إلا الضراعة، والذلة، والمهانة ..

وقد اختلف المفسرون فى معنى « الضريع » والفصيلة الذى ينتمى إليه من فصائل النبات .. وقال كل ذى رأى برأيه فيه، وتكلف له التأويل والتخريج ..

والرأى — والله أعلم — أنه من طعام أهل النار، لايعرف له شبيه فى الحياة الدنيا، ولهذا وصفه الله سبحانه بأنه « لايسمن ولا يغنى من جوع » أي أنه لا تتقبله الأجسام، ولا تتفاعل معه، كما أنه لايشبع جوعَ الجياع .. ولو كان معروفاً عند العرب، لما وصف هذا الوصف الكاشف !.

قوله تعالى :

* « وجوه يومئذ ناعمة * لسعيها راضية * فى جنة عالية * لا تسمع فيها لاغية » . .

وهذا من حديث الغاشية أيضاً ..

فإذا كان من معارض يومها، وجوه خاشعة، عاملة، ناصبة — فإن من معارضها، كذلك، وجوه ناعمة، لسعيها راضية، فى جنة عالية ..

والوجوه الناعمة، هى التى تُرى عليها نَضْرة النعيم، وبشاشة الرضوان، فتترقرق على صفحتها وَضاءة البشاشة، ويجرى فى أديمها رونق البهاء، والصفاء .. ولم تعطف هذه الوجوه على ما قبلها، مع أنها من حديث الغاشية، ليكون ذلك عزلاً لها عن تلك الوجوه المنكرة، العاملة، الناصبة، التى تصلى ناراً حامية .. فهذه وجوه، وتلك وجوه، ولا جامعةَ بينهما، إذ فريق فى الجنة وفريق فى السعير ..

وقوله تعالى : « لسعيها راضية » .. أى راضية لأجل سعيها الذى قدمته بين يديها . فاللام هنا للتعليل . .

وقوله تعالى : « فى جنة عالية » حال من ضمير الوجوه فى قوله تعالى : « راضية » .. والجنة العالية : أى عالية القدر ، عظيمة الشأن ..

وقوله تعالى : « لاتسمع فيها لاغية » صفة لهذه الجنة العالية ، التى علا مقامها وارتفع قدرها عن أن يطوف بها طائف من الهذر أو اللغو . .

واللاغية : الكلمة التى لا يعتد بها ، لإسفافها وسقوطها . .

وقوله تعالى : « فيها عين جارية » .. وحيث كان الماء كانت الحياة،وكان الخصب ، والخير ، وكانت البهجة والمسرة ..

قوله تعالى :

* « فيها سرر مرفوعة * وأكواب موضوعة * ونمارق مصفوفة * وزرابى مبثوثة » ..

هو عرض لما فى هذه الجنة العالية من ألوان النعيم . . ففيها سرر مرفوعة » أى عالية القدر ، وأكواب موضوعة ، أى معدة للشاربين ، وفيها « نمارق مصفوفة» أى وسائد ، قد صُفّ بعضُها إلى جانب بعض، ليتكىء عليها الجالسون على هذا النعيم .. واحدتها نُمْرُقة .. وفى هذه الجنة « زرابى مبثوثة » أى بسط متناثرة على أرض هذه الجنة ، كأنها النجوم ..

الآيات : (١٧ — ٢٦)

* « أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم

بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (٢٦) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت » ..

هو إلفات لهؤلاء المشركين المكذبين بالغاشية ، إلى قدرة الله سبحانه وتعالى، تلك القدرة القادرة على أن تعيدهم إلى الحياة بعد الموت ، وأن تردّهم إلى الله سبحانه ، للحساب والجزاء . .

وفى إلفاتهم إلى الإبل ، وإلى ضخامتها ، وقوتها ، وما أودع الخالق فيها من قوى قادرة على حمل الأثقال ، والمشى فى الرمال ، وإلى الصبر على الجوع والعطش ـ كل هذا يكشف عن صانع عظيم ، عليم ، حكيم ، خلق فسوى ، وقدر فهدى . .

ولأن أول مايلفت النظر إلى الإبل ، هو قاماتها العالية ، ورقابها المرفوعة ، فقد ناسب ذلك أن يُلفتوا إلى السماء ، وإلى هذا العلو الشاهق الذى لاحدود له .. « وإلى السماء كيف رفعت » .. كذلك ناسب أيضاً أن يُلفتوا إلى الجبال ، وقد مدت رقابها فوق الأرض كأنها رقاب الإبل ، أو أسنمتها .. « وإلى الجبال كيف نصبت » .. ثم إن الشأن ليس فى رفع الشىء وعلوه ، فما رفع الشىء إلا لحكمة ، كما أنه ماخفض شىء إلا لحكمة .. فهذه الأرض المبسوطة الممدودة، لو كانت كلها أسنمة كأسنمة الأبل ، أو رقاباً كرقابها ، لما أمكن الانتفاع بها ، والسير فيها . . فهى مع ارتفاع بعض أجزائها ، قد انبسط

بعض أجزائها الأخرى ، لتكون مهاداً للناس ، وبساطاً ممدوداً .. وبهذا تُذَلَّل لهم وتستجيب لحركتهم عليها .. « هو الذى جعل لكم الأرض ذَلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » (١٥ : الملك) .

وقوله تعالى :

* « فذكرْ إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر » .

هو دعوة إلى النبى الكريم أن يعرض هذه الآيات التى تحدثتْ عن قدرة الله سبحانه ، وعن حكمته ، ليكون فيها تذكرة لمن يتذكر ، وعبرة لمن يعتبر .. فوظيفة النبىّ ، هى التذكير بالله ، وإلفات العقول والقلوب إلى قدرته ، وعلمه ، وحكمته ، وإلى ماله سبحانه من نعم سابغة على عباده ..

وقوله تعالى : « لست عليهم بمسيطر » أى لست أيها النبى بمتسلط على الناس ، تقهرهم بسلطانٍ قوى ، وبقوة قاهرة ، على أن يؤمنوا بالله ، ويستجيبوا لما تدعوهم إليه .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » (٤٥ : ق) .

وفى هذا إطلاق للإنسان ، وتحرير لذاته وشخصيته من أى سلطان ، إلا سلطانَ عقله وضميره ، وفى هذا تكريم للإنسان ، واعتراف بمكانه فى الوجود ، وأنه لاوصاية عليه من أحد حتى الأنبياء والرسل .. إنهم ليسوا أوصياء عليه ، وإنما هم هداة يرفعون لعينيه مشاعل الهدى فى طريق حياته ، فإن شاء سار فى الطريق الذى يكشف عنه هذا النور ، وإن شاء أخذ الطريق الذى اختاره له عقله ، وارتضاه ضميره .. ولو كان كفراً وضلالا ، فتلك مشيئته التى شاءها لنفسه !.

قوله تعالى :

* « إلا من تولى كفر * فيعذبه الله العذاب الأكبر » ..

إلا هنا استثناء من عموم الأحوال التى تدخل فى السيطرة الواقع عليها النفى .. أى لست مسيطراً على الناس إلا فى حال واحدة ، وهى حال من تولى وكفر ، فإنه فى هذه الحال واقع تحت سلطان العذاب الذى أنذرته به . . وهذا العذاب فى يد الله ، يعذب به هؤلاء الذين تولوْا وكفروا . . فالسلطان الواقع على الإنسان هنا ، هو سلطان الله سبحانه ، وليس الرسولُ إلا منذراً بهذا السلطان ، محذراً منه ..

* والعذاب الأكبر ، هو عذاب يوم القيامة .. ووصف العذاب بهذه الصفة التى تحصر غاية العذاب وصوره كلها فيه ـ لأن كل ماعرفه الناس فى الدنيا من عذاب ، هو عذاب دون هذا العذاب قدراً وأثراً . . فهو العذاب الأكبر كبراً مطلقاً ، لاحدود له .

وقوله تعالى :

« إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم » ..

أى أن هؤلاء الذين تولوا وكفروا ، ولا يفلتون من هذا الذى أنذروا به ـ أنهم سيعودون إلى الله ، وسيحاسبون على ما اجترحوا من آثام .. وليس وراء هذا الحساب إلا العذاب الأليم .. العذاب الأكبر ! وأنهم إذا كانوا قد خرجوا من سلطان النبىّ ، فإنهم لن يخرجوا من سلطان الله الذى يلقاهم بهذا العذاب . .

والإياب الرجوع إلى المكان الذى خرج منه الإنسان .. كالمسافر يثوب من سفره .. وفى هذا إشارة إلى أن البعث هو عودة إلى الحياة التى فارقها الإنسان فى رحلته التى بدأت بالموت .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إن إلى ربك الرجعى . . » (٨ : العلق) .

* * *

(٨٩) سورة الفجر

نزولها : مكية .. نزلت بعد سورة الليل

عدد آياتها : ثلاثون آية ..

عدد كلماتها : مائة وسبع وعشرون كلمة ..

عدد حروفها : خمسمائة وتسعة وتسعون حرفاً ..

مناسبتها لما قبلها

هذه السورة ، هى امتداد لعرض آيات من قدرة الله سبحانه وتعالى ، وما أخذ به المكذبين بالحياة الآخرة ، الذين لم يؤمنوا بالله ، ولم يصدقوا بما جاءهم على يد رسل الله من آيات مبصرة ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٤)

* « وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) »

التفسير :

[الليالى العشر .. ما تأويلها]

قوله تعالى :

* « والفجر * وليالٍ عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر * هل فى ذلك قَسَمٌ لذى حِجر ؟ »

هذه خمسة أقسام ، أقسم الله سبحانه وتعالى بها ، مفتتحاً بها هذه السورة الكريمة ..

وهى : الفجر ، والليالى العشر ، والشفع ، والوتر ، والليل ..

والفجر ، معروف فى اللغة ، ودلالته محددة لا اختلاف عليها .. وهو أول مطلع النهار ، فى جلد الليل الأسود ..

أما الشفع ، فهو الزوج من كل شىء .. فالاثنان فى العدد شفع ، والاثنان من الناس ، أو الأنعام ، أو الشجر ، شفع .. وذلك على خلاف الوتر ، الذى يدل على واحد فرد ، لم يُشفع بواحد آخر من جنسه ..

ولكن ما دلالة : « ليالٍ عشر » .. إنها إذا أخذت على إطلاقها ، صَحّ أن يقال إنها أى ليال عشر مقتطعة من ليالى الزمن على امتداده ، فهى إذن ليست ليالٍ على صفة خاصة ، ولهذا جاءت منكّرة ، ومع هذا فقد كثرت فيها أقوال المفسرين ، فقيل هى الليالى العشر الأولى من ذى الحجة ،وقيل هى العشر الأواخر من رمضان ، التى بدىء بنزول القرآن فيها ، والتى فيها ليلة القدر ، وقيل هى عشر ليالى موسى التى كانت من الليالى الأربعين التى واعده الله سبحانه

وتعالى فيها ، كما يقول تبارك اسمه : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر » (١٤٢ : الأعراف) . .

وقيل ، وقيل كثير غير هذا . .

وكذلك كانت المقولات فى الشفع ، والوتر . . فقيل إن الشفع صلاة الصبح ، والوتر صلاة المغرب ، وقيل إن الشفع هو الخلق ، وما فيه من تزاوج بين المخلوقات ، كالذكر والأنثى ، والليل والنهار ، والأرض ، والسماء ، والخير والشر . . ونحوها . . والوتر ، هو الخالق سبحانه وتعالى ، لأنه جل شأنه الواحد ، المتفرد بالوحدانية . .

ولم يخل من هذا الاختلاف إلا « الليل » فهو الذى أجراه المفسرون على إطلاقه . . حتى « الفجر » الذى قلنا إن دلالته محدودة فى اللغة ، لم يسلم من هذا الخلاف ، فالذين قالوا إن الليالى العشر ، هى العشر الأواخر من ذى الحجة ـ قالوا إن الفجر هو فجر الليلة العاشرة التى تتم فيها مناسك الحج ، وتُنحر مع فجرها الأضُحيات .

وتقطيع الوحدة الزمنية مع هذه الأوقات التى أقسم الله سبحانه وتعالى بها ، يجعل الجمع بينها خِلواً من المناسبة التى تجمع بينها ، وتؤلف منها كياناً متسقاً متلاحماً ، الأمر الذى لا يفوتُ النظمَ القرآنى ، فى أىّ موضع يجتمع فيه شىء إلى شىء ، سواء أكان هذا الجمع على سبيل التوافق أو التضاد .

ولعل خير موقف نأخذه عند النظر فى هذه الأقسام ، للخروج من هذا التضارب فى دلالاتها ، هو أن نقف بها عند مدلولها اللفظى ، مطلقاً من كل قيد .

فالفجر ، هو الفجر . . أى فجر يكون !

والليالى العشر : هى ليال عشر ، من أى ليالى الزمن كله على امتداده .

والشفع والوتر ، هو العدد الزوجى ، أو الفردى ، من الليالى .

والليل ، هو أى ليل يقابل النهار ، من أى يوم من أيام الزمن .

وفى هذا نجد أن المقسم به هنا هو الزمن ، فى وحدات زمنية منه ، هى : الفجر ، والليل ، وعشر ليال من هذا الليل .

أما الشفع والوتر ، وإن لم يكن من المتعيّن أن المعدود بهما قِطَع من الزمن، فإن السياق الذى جاءا فيه ، يقضى بأن يكون المعدود — زوجاً أو فرداً — قِطَعاً من الزمن ، وأقرب هذه القطع أن تكون من الليالى ، شفعاً أو وتراً !.. إذ سبقهما قوله تعالى : « وليال عشر » وهى عدد شفع ، وتلاهما قوله تعالى : « والليل إذا يسر » وهو عدد وتر ! ويكون القسم بالليالى العشر جملة ، ثم القسم بها ليلتين ليلتين ، وليلة ليلة .

فإذا ذهبنا — وهذا من التكلف الذى لا بأس به — إذا ذهبنا نلتمس الحكمة فى القسم بهذه القِطع من الزمن، دون غيرها : فإنا نقول — والله أعلم — إن القسم بالفجر إشارة إلى تفجر النور من أحشاء هذا الظلام الموحش ، الذى يطبق على الوجود ويلفه فى رداء ثقيل ، أشبه بالأكفان التى يُلَفّ فيها الموتى .. إنه إشارة إلى بعث جديد للحياة ، ودعوة مجددة للأحياء أن يكتحلوا بهذا النور، وأن يأخذوا مواقفهم فيه على طريق العمل .

والليالى العشر ، هى الليالى العشر الأولى من أول كل شهر قمرى ، وهى الليالى العشر فى وسطه ، ثم هى الليالى الأخيرة منه ، فهى عشر فى أول الشهر القمرى ، وعشر فى وسطه ، وعشر فى آخره .

ويكاد يكون سلطان القمر فى العشر الليالى الأولى من الشهر ، وفى العشر

الأواخر منه ـ يكاد يكون سلطانه على حدّ سواء فيهما، من حيث غَلَبة الظلام عليه .. أما عشر الليالى المتوسطة بين العشر الأولى والأخيرة ، فهى التى يكون سلطان القمر فيها غالباً على ظلام الليل .

وعلى هذا يكون الشفع ، هو العشر الليالى الأولى ، والعشر الأخيرة من كل شهر قمرى . باعتبارهما وحدتين زمنيتين متماثلتين .

وأما الوتر ، فهو العشر الليالى المتوسطة من الشهر ، باعتبارها وحدة زمنية واحدة !

ومن هذا يكون القسم بالليالى العشر ، واقعاً على الليالى كلها ، فى امتداد الزمن ، ولكن مع دعوة إلى مراقبة الزمن ، وملاحظة التغيرات التى تجرى على الليل . . ليلة ليلة . . فالليل يلبس فى كل ليلة ثوباً جديداً مع القمر على مدى ثلاثين ليلة . . ثم يعود فيبدأ دورته من جديد معه ، من هلال إلى بدر ، إلى محاق . .

وقوله تعالى : « والليل إذا يسر » — هو إطلاق لليل من هذا القيد الذى شدّه إلى القمر ودورته معه . . فهو ليل مطلق ، يسرى فى غلالته السوداء ، مع القمر فى كل منزل من منازله معه . فهو فى كل حال ، ليل يسرىَ ، ويبسط سلطانه على الكائنات ، وأنه لا يوقف مسيرة الليل إلا الفجر . .

وفى التعبير عن حركة الليل بالسُّرَى : « إذا يسر » إشارة إلى أنه يتحرك فى مسيرته والأحياء نيام لا يشعرون به ، كما يتحرك الذين يسيرون فيه دون أن يشعر بهم أحد . .

فالأقسام — كما ترى — هى أقسام بوحدات من الزمن ، وفى هذه الوحدات ، يبدو الزمن كائناً حيًّا ، يعايش الناس ، ويشاركهم تقلبهم فى الحياة، وفى هذا ما يبعث على النظر ، والتدبر ، والتفكر ، مما يكشف عن قدرة الخالق وعظمته ، وحكمته .

وبهذه المراقبة للزمن ، والالتفات الواعى إلى حركته ، يعرف الإنسان قيمة الزمن ـ ويحرص على الانتفاع بكل لحظة تمر منه .

وقوله تعالى :

* « هل فى ذلك قسم لذى حجر »

الحجر : العقل ، وسمى العقل حجراً ، لأنه يحجر صاحبه ويحميه من الضلال والضياع ، ومنه الحجْر على السفيه ، صيانة لما له ، من تصرفاته الحمقاء . . ومنه سميت الحجرة ، لأنها تحجر من بداخلها ، وتحميه من الحر ، والبرد ، ومن أيدى اللصوص ، ونظرات المتلصصين . . والاستفهام هنا دعوة إلى أصحاب العقول أن ينظروا فى هذه الأقسام التى تمجد من شأن الزمن ، وتجعل من كل قطعة منه آية من آيات القدرة الإلهية ، لا يراها إلا أصحاب العقول ، ولا يدرك سر القسم بها إلا أولو البصائر والأبصار

وفى دعوة العقول إلى النظر والملاحظة لسير الزمن وحركاته بالليل ، إشارة إلى أن الليل هو الوقت الذى تهدأ فيه النفس ، وتسكن الجوارح ، فيجد العقل فيه فرصته للانطلاق ، والقدرة على التأمل ، والتفكير . . كما أن أكثر الناس يغفلون عن الليل ، ولا يرونه إلا قبراً يحتوى أجسامهم ، فلا يكون لهم وجود فيه ، ولا يكون لعقولهم تعامل معه ، فى حين أنه يمثل جزءاً كبيراً من حياتهم يعادل نصف هذه الحياة . . وإنه لخسران عظيم للإنسان أن يدع هذا النصف من عمره يذهب هباء ، فكيف بمن يخسر عمره كلّه ؟

وقوله تعالى :

* « ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد »

الاستفهام هنا تقريرى ، تهديدى . . أى انظر كيف فعل ربك بعباد . . وكذلك يفعل ربك بالطاغين والمتجبرين .

وعادٌ ، قبيلة قديمة من العرب البائدة ، وكانت ديارهم بالأحقاف ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : «واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف» (٢١ . الأحقاف)

وإرم ، هى موطن عاد ، وهى بدل من كلمة « عاد » أى ألم تر كيف فعل ربك بإرم ذات العماد ، التى عَمَرتها قبيلة عاد ، وأعملت فيها قوتها الجسدية ، وجلبت لها كل ما قدرت عليه من مال ، ومتاع . . فكانت كما وصفها الله سبحانه : « لم يُخلق مثلها فى البلاد » أى لم يكن لها مثيل فيما جاورها من بلاد . .

وكان النبى الذى أرسله الله إليهم ، هو «هود» عليه السلام ، وقد دعاهم إلى الله ، وترفق بهم ، وذكّرهم بآلاء الله عليهم ، وإحسانه إليهم ، فلم يزدهم ذلك إلا عناداً ، وضلالا . . وفيما كان يقول «هود» لهم ، ماجاء فى قوله تعالى : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » (٦٩ : الأعراف)

وقد أهلكهم الله بريح صرصر عاتية ، كما يقول سبحانه : « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية » (٦ ــ ٨ : الحاقة)

وسمى بناء المدينة وإقامتها على هذه الصورة العجيبة من القوة ، والضخامة ، والإحكام ــ سمى هذا خَلقاً ، لأنها من عمل مخلوقات لله ، وكل ما يعمل فيه الناس ، هو من خلق الله ، كما يقول سبحانه : « والله خلقكم وما تعملون » (٩٦ : الصافات)

ومناسبة قصة عاد وثمود وفرعون ، لما قبلها ، هى أنها تعرض قضية من

القضايا التى تستحق من العقل أن يناقشها ، وان يستحضر وجوده كله لها ، وذلك بعد أن استُدعى هذا الاستدعاء القوى الذى شُدَّ إليه بالقسم ، لينظر فى الزمن ، وما تلد آناته ولحظاته من عجائب .

والقضية التى يُدعى إليها العقل هنا ، هى سُنّة من سنة الله سبحانه وتعالى ، فيما يأخذ به أهل الزيغ والضلال ، من بأساء وضراء فى الدنيا ، وما أعد لهم فى الآخرة من عذاب السعير . .

وفى عاد وثمود وفرعون، يتمثل وجه كريه من وجوه الكفر والضلال ، والعتوّ . . وقد أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فاقتلعهم من جذورهم ، وقطع نسلهم ، وأتى على ما بنوا ، وشيدوا .

وقوله تعالى :

* « وثمود الذين جابوا الصخر بالواد »

معطوف على قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد » وكيف فعل ربك بثمود ؟ وثمود ، هم قوم صالح عليه السلام ، وهم من العرب البائدة ، وديارهم بالحِجر بين الشام والعراق ، وقد مر بها النبى ، صلى الله عليه وسلم — فى غزوة تبوك فسجّى ثوبه على وجهه ، وأمر أصحابه أن يمروا بها مسرعين ، وقال : « لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون ، خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم »

وقوله تعالى : « جابوا الصخر » أى قطعوه ، وشقوه كما يشق الجيب ، وهو فتحة الثوب التى يلبس منها . ومعنى ذلك أنهم نحتوا الصخر فى الوادى الذى يسكنون فيه ، وجعلوا بيوتهم منحوتة فى كيان الصخر ، فكانت

أشبه بحصون .. كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين » (١٤٩ : الشعراء)

قوله تعالى:

* « وفرعون ذى الأوتاد »

معطوف على « وثمودَ » ..

والأوتاد جمع وتد ، وهى تلك الأهرامات العظيمة التى أقامها فراعين مصر ، فكانت أشبه بالجبال ، التى هى أوتاد الأرض ، كما يقول سبحانه : « ألم نجعل الأرض مهاداً . والجبال أوتاداً » (٦ ، ٧ : النبأ)

وقوله تعالى :

* « الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب »

« الذين طغوا فى البلاد » هو وصف لعاد ، وثمود ، وفرعون .. فهم جميعاً من الطغاة الباغين ، الذين استبدوا بالبلاد ، وبالعباد ، فأشاعوا الفساد حيث كانوا ، ولهذا أخذهم الله جميعاً بالعذاب فصبّه صبًّا عليهم .

والسوط : أصله من ساط الشىء يَسُوطه ، أى خلطه بغيره ، لأن السوط يختلط بالجلد ، حين يُضرب به ..

وسوط العذب ، هو خليط من ألوان العذاب ، وقد أخذ الله سبحانه كلّ جماعة من أهل الضلال بلون من ألوان الهلاك كما يقول سبحانه : « فكلاًّ أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا » (٤٠ : العنكبوت)

وإذ قد جمع الله سبحانه وتعالى بين عاد ، وثمود ، وفرعون ، فى سياق قصة واحدة — فكان من إعجاز النظم القرآنى أن يجمع عذابهم ، وما أخذ به كل فريق منهم ، فى إناء واحد ، وأن يصبّه عليهم جميعاً ، فإذا وقع بهم ، أخذ كل فريق لونَ العذابِ المسلّط عليه !

وقوله تعالى :

* « إن ربك لبالمرصاد »

المرصاد : المكان العالى ، الذى يقوم فيه الراصد ، ليرقب ما يجرى هنا وهناك .

وفى هذا إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى رقيب على أعمال الناس ، يرى كل ما يعملون ، وسيحاسبهم على ما عملوا ، دون أن يفلت أحد منهم ، لأن الله سبحانه متمكن منهم ، بهذا العلو الذى لا يُدَانَى . .

الآيات : (١٥ — ٣٠)

* « فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ (٢٦)

«يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى (٢٩) وَٱدْخُلِى جَنَّتِى (٣٠)»

التفسير :

قوله تعالى :

* « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعّمه فيقول ربّى أكرمن »

الفاء هنا للتفصيل والإفصاح عما أجمله قوله تعالى : « إن ربك لبالمرصاد » فكونه سبحانه وتعالى بالمرصاد ، يرقب العباد ، ويرى ما يعملون من خير أو شر — يقتضى أن هناك أعمالا مرصودة مسجلة على الناس ، وأن الناس بحسب أعمالهم وإيمانهم بالله ، وتصورهم لجلاله وعظمته وحكمته ـ ليسوا على حال واحدة ، بل هم أحوال شتى وأنماط مختلفة ، ترجع جميعها إلى أمرين : الشكر ، أو الكفر .

ولما كان المال ، هو محكّ الإنسان ، الذى يُختبر به دينُه وخلقه ـ فقد وضع الله سبحانه الإنسان فى امتحان إزاء المال ، منحا ومنعاً ، وإعطاء وحرمانا . . فماذا كان موقف الإنسان فى هذين الحالين ؟ .

إنه موقف مختلف ، كما يتبيّن ذلك من آيات الله .

* « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعّمه فيقول ربى أكرمن »

فى الحال التى يُفيض الله سبحانه وتعالى فيها المال على الإنسان ، ويسوق إليه الكثير منه ، لا يرى أن ذلك ابتلاء واختبار ، كما يرى ذلك عباد الله المتقون ، وكما يقول سبحانه على لسان سليمان عليه السلام : « هذا من فضل

ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ؟ » (٤٠ : النمل) - بل إنه يرى أن ذلك الإحسانَ المسوق إليه من عند الله ، هو حقٌّ اقتضاه من الله سبحانه ، لِما يرى فى نفسه من مَيْزات استحق بها هذا الإحسانَ دون الناس ، فيقول كما يقول أهل الزيغ والضلال ، فيما أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله : « ولئن أذقناه رحمةً منّا من بعد ضَرّاء مسّته ليقولَنّ هذا لى و أظن الساعة قائمة ولئن رُجعت إلى ربّى إن لى عنده للحسنى » (٥٠ : فصلت) .

فالإنسان ضعيف أمام سلطان المال ، وتسلطه عليه ، فإذا لم يَحضّ نفسه على مراقبة الله ، وإذا لم يُقِمْ على نفسه وازعاً يزعه من غلبة الهوى ، استبدت به شهوة المال ، وصرفته عن الله ، وأرته الحياة الآخرة سراباً خادعاً ، لا ينبغى له أن يدع هذا الحاضر الذى بين يديه ، ويتعلق بهذا السراب الخادع الذى لا يدرى ما وراءه !!

والإنسان هنا ، هو مطلَق الإنسان ، إلا من عصم الله ، وهم قليل . .

وفى قوله تعالى : « ابتلاه ربه » إشارة إلى أن هذا المال المسُوق إلى الإنسان ، وتلك النعم التى ملأ الله بها يديه ، هو ابتلاء وامتحان له من الله ، يكشف به عن شكره أو كفره ، وأن ذلك ليس لميزة امتاز بها على الناس ، فكما يبتلى الله أولياءه بالمال ، يبتلى أعداءه به أيضاً ، فيعطى كلاًّ من الأولياء والأعداء مايشاء . أما الأولياء فيَحمَدون ، ويشكرون ، وأما الأعداء فيزدادون كفراً وعناداً . . والله سبحانه وتعالى يقول : « ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة وإلينا ترجعون » (٣٥ : الأنبياء)

وفى قوله تعالى : « فأكرمه ونعّمه » — إشارة إلى أن الابتلاء بالإعطاء والمنح ، هو — عند من يعرف قدره ، ويحسن استقباله — فضل وإكرام من الله ، وإنه لجدير بالعاقل ألا ينزع عن نفسه هذا الثوب الذى كساه الله إياه ، ويُلبس نفسَه لباس الشقاء والبلاء ..

فالذين أنعم الله عليهم من عباده المكرمين بالمُلك والجاه والمال والسلطان — يرون فضلَ الله عليهم ، وإحسانَه إليهم ، فلا يكون همُّهم إلا إفراغَ جهدهم كله فى القيام بواجب الشكر لله ، والحمد لله ، أن أكرمهم بهذا العطاء ، وعافاهم من المنع والحرمان . وفى هذا يقول سليمان عليه السلام : « يأيها الناس عُلّمنا منطقَ الطير وأوتينا من كل شىء ، إن هذا لهو الفضل المبين » (١٦ : النمل) . إنه يهتف من أعماقه ، محدّثاً بنعمة الله عليه ، داعياً الناسَ أن يشهدوا عليه ، وهو بين يدى نعم الله السوابغ عليه ، وأنه إذا لم يقم فى مقام الشاكرين لله ، فليمدّوه جاحداً ، بل وليخرجوا عن سلطانه الذى مكن الله سبحانه وتعالى به على الناس .. ويقول سليمان فى موضع آخر ، وقد رأى عرش مَلْكة سبأ ماثلاً بين يديه : « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم » (٤٠ : النمل) .

هكذا النفوس الكريمة الطيبة ، تستقبل الإحسان بالإحسان ، وتتلقّ الخير بالخير ..

بل إنها لتضيق بالإحسان ، وتراه حِملا ثقيلا عليها ، إذا هى وجدت ضعفاً عن القيام بشكره .. يقول الشاعر مخاطباً أحد ممدوحيه الذين أضعفوا عطاياهم له ، وأضفوا إحسانهم عليه .. يقول :

لا تُسدِيَنَّ إلىّ عارفةً . حتى أقوم بشكر ما سَلَفا

أنت الذى جلّلتنى مِنناً أوهت قُوى ظهرى فقد ضعفا

وهذا وإن كان شعراً ، وكان للخيال منه مكان — فإنه يقوم على أصل أصيل من مشاعر الفطرة الإنسانية السليمة ، التى لم يفسدها الهوى ، ولم يغلبها الطبع الحيوانى المتوحش الكامن فى الإنسان ..

فالمال نعمة من نعم الله ، وإحسان من إحسانه ، وإنه لمن الغبن لمن أنعم الله به عليه ، بفضله وإحسانه ، أن يشترى به عداوة الله ، وأن يفتح به إلى جهنم باباً من أبوابها !!

فالمال نعمة ، يمكن أن ينال بها العاقل طيبات الحياة الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة ..

ولكنه حين يقع ليد الأغبياء المغرورين ، يكون عليهم وبالا ، وشقاء ، فى الدنيا والآخرة جميعاً .. وفى « قارون » شاهد عبرة وعظة !

وقوله تعالى :

* « وأما إذا ما ابتلاه ربه فقدَرَ عليه رزقَه فيقول ربى أهانن » ..

قَدَر عليه رزقه : أى ضيّقه عليه ، ولم يوسع له فيه ، بالنسبة لما يراه فى غيره من الناس ..

وفى هذه الحال يُحاجّ هذا الإنسان الغافل الكفور — يحاجّ ربّه ، ويلقاه متسخطاً متبرماً ، متهماً خالقه بأنه لم يعرف قدره ، ولم يؤد له ما هو جدير به ، وأنه ليس أقلّ من فلان ، وفلان ، من أصحاب الغنى والثراء !!

وهذا ضلال مودٍ بأهله ، ومورد إيام موارد التهلكة . .

فالامتحان بالفقر ، والضيق ، والشدة ، كالامتحان بالغنى ، والثراء ، والنعم . فإذا كان الامتحان بالغنى يضع الإنسانَ أمام شهوات عارمة ، وأهواء غالبة ،

تحتاج لقهرها إلى رصيد عظيم من العزم ، وقوة الإرادة ـ فإن الامتحان بالفقر والشدة ، يضع الإنسان أمام عدوّ يريد أن تزعزع إيمانه ، ويغتال صبره لحكم ربه ، ورضاه بما قضى الله فيه .

قوله تعالى :

* « كلا بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضّون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلا لمًّا ، وتحبون المال حبًّا جمًّا » .

هو رد على مايقوم فى نفوس كثير من الناس من تلك المفاهيم الخاطئة فيما يبتليهم الله سبحانه وتعالى به ، من غنى أو فقر ، فليست التوسعة فى الرزق ، بالتى تعطى العبدَ حجة بأنه من المكرمين عند الله ، وليس التضييق فى الرزق ، بالذى يدلّ على إهانة الله سبحانه لمن قَدَرَ عليه رزقَه .. إن هذا وذاك ، امتحان وابتلاء ، وليس كما يظن الجاهلون بأن الله إنما يرزق الناسَ فى الدنيا بحسب مكانتهم عنده ، فيوسّع على أوليائه ، ويضيّق على أعدائه ، وأن هؤلاء الذين أفقرهم الله ، لو كانوا من المكرمين عنده لما ضيق عليهم فى الرزق ، ولما وضعهم بموضع الحاجة إلى الأغنياء ، وهذا مايشير إليه سبحانه وتعالى فى فضح منطقهم الفاسد ، إذ يقول سبحانه على لسانهم : « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ » (٤٧ : يس) ..

وكلا .. فإن هذا منطق ضالّ ، ورأى فاسد سقيم !! ولقد أحالهم هذا الفهم الضال إلى حيوانات ، لا تعرف غير ما تملأ به بطنها من طعام ، فلقد جفّت فيهم عواطف الإنسانية ، وانتُزعت من قلوبهم مشاعر الرحمة .. فلم يُكرموا اليتيم ، كما أكرمهم الله ، ولم يحسنوا إلى الفقير ، كما أحسن الله إليهم . بل اغتالوا حق اليتيم ، ولم يمدّوا أيديهم بإحسان إلى مسكين ، وأكلوا مايرثون

أكلاً جامعاً ، غير مستبقين شيئاً لِما افترض الله سبحانه وتعالى عليهم فى هذا الميراث الذى جاءهم من غير كدّ ولا عمل ، فهو ليس لهم وحدهم ، وإنما هو أشبه بلُقَطة يلتقطونها من عرض الطريق ، وأن من حق مَن يحضُرهم وهم يمدون أيديهم إلى هذا المال أن ينال نصيباً منه ، إذا كان من أهل العَوز والحاجة ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » (٨ : النساء) . . والمراد بالقسمة هنا قسمة الميراث . . والمراد برزق أولى القربى واليتامى والمساكين من هذا الميراث ـ هو إعطاؤهم نصيباً منه ، غيرَ مقدَّر بقدْر محدود ، وإنما هو فضل وإحسان . . ولقد أنكروا هذا الحق ، وأكلوا الميراث كله !!

وفى قوله تعالى : « أكلاً لمًّا » إشارة إلى أنهم أكلوا ما لهم من حق فى هذا الميراث ، مع مالذوى القربى واليتامى والمساكين من حق فيه ، وجمعوا هذا إلى ذاك ، وأكلوه جميعه .

وقوله تعالى :

* « كلا إذا دكت الأرض دكًّا دكًّا * وجاء ربك والملك صفًّا صفًّا * وجىء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى * يقول ياليتنى قدمت لحياتى . »

كلا ، هو ردّ على موقف هؤلاء الذين لا يكرمون اليتيم ، ولا يتحاضّون على طعام المسكين ، ويأكلون التراث أكلا لمًّا ، ويحبون المال حبًّا جمًّا . . إن ذلك ليس هو طريق الفلاح والنجاة ، بل هو طريق الخسران ، والهلاك ، وإنه ذلك ليبدو لهم جليًّا وضحا « إذا دكت الأرض دكًّا دكًّا » أى إذا جاء يوم القيامة ، وتبدلت معالم هذه الحياة الدنيا ، وذهب كل ما جمعوا فيها ، وما أقاموه

من دور وقصور . . وفى التعبير عن يوم القيامة ، بدكّ الأرض « دكا دكا » ـ إشارة الى أن ما بين أيديهم من متاع الحياة الدنيا سيتحول إلى حطام وأنقاض ، فيكون بعضاً من هذه الأرض التى لا يبقى على وجهها شىء ، مخلِّفا وراءه الويلَ لهم ، والحساب العسير على ما أكلوا من حقوق ، وما ضيعوا من واجبات .

وقوله تعالى : « وجاء ربك والملك صفًّا صفًّا » ـ أى جاء أمر الله وسلطانه ونُصبت موازين الحساب ، ووقف الملائكة فى المحشر جنداً حراساً ، ينفذون أمر الله ، ويسوقون أهل الضلال إلى النار ، وأهل الإيمان إلى الجنة . . « ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود » (١٠٣ : هود)

وقوله تعالى : « وجىء يومئذ بجهنم » — برزت جهنم لأهلها ، فهذا هو يومُها ، ويومُ المنذَرين بها ، المعذبين فيها . . « وبُرِّزت الجحيم لمن يرى » (٣٦ : النازعات)

وقوله تعالى : « يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى » — أى فى هذا اليوم يَعْقِلُ الإنسان كل شىء ، ويعلم عن يقين ما فاته علمُه فى الدنيا من حق . . ولكن لا تنفعه الذكرى ، ولا يفيده العلم ، فقد طويت صحف الأعمال ، ولا سبيل إلى تدارك ما فات !

وقوله تعالى : « يقول يا ليتنى قدمت لحياتى » إنه الندم الذى يملأ القلب حسرة وكمداً ، وإنه النظر اليائس المتحسر إلى سِقاء الماء وقد أريق كل ما فيه ، فى وسط صحراء ليس فيها قطرة ماء ! !

وفى قوله « لحياتى » — إشارة إلى أن هذه الحياة — حياة الآخرة ـ هى حياة الإنسان حقا ، وأن الحياة الدنيا ليست إلا مَعْبراً إلى هذه الحياة . .

قوله تعالى:

« فيومئذ لا يعذِّب عذابه أحد ، ولا يوثِق وَثاقه أحد » — أى فى هذا اليوم لا يشهد الناس عذابا كهذا العذاب الذى يعذب الله به أهل الضلال ، ولا قيداً محكما وثيقا كهذا القيد الذى يقيدهم الله به ، فلا يجدون سبيلا للإفلات والهرب ! والضمير فى عذابه ، يرجع إلى الله ، ومثله الضمير فى وثاقه .

وقوله تعالى :

« يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية »

هذا النداء الكريم ، الذى يدعو به الله سبحانه وتعالى أهل وُدّه ، من وسط هذا البلاء الخانق ، المحيط بالناس يوم القيامة — هو قارب النجاة ، الذى يخفّ مسرعاً إلى تلك السفينة الغارقة فى هذا البحر اللّجى ، فيحمل هؤلاء الذين أكرمهم الله بفضله وإحسانه ، فنجاهم من شر هذا اليوم ، ولقاهم نضرة وسروراً . إن هذا النداء الذى يجئ على فُجاءة وسط هذا البلاء ، لهو أوقع أثراً ، وأبلغ فى إدخال المسرة على النفس ، من أن يجىء مسبوقا بمقدمات تشير إليه ، وتبشر به . .

والنفس المطمئنة ، هى النفس المؤمنة ، التى لا يستبد بها القلق فى أى حال من أحوالها ، فى السراء أو الضراء ، إنها فى حال واحدة أبداً من الرضا بما قَسَم الله لها . . فهى فى السراء شاكرة ، حامدة ، وفى الضراء صابرة راضية ، فلا الغنى يُطغيها ، ويَخرج بها عن طريق الاستقامة ، ولا الفقر يسخطها ، ويَعدِل بها عن الاطمئنان إلى قضاء الله فيها ، وحكمه عليها . . إنها نفس مطمئنة ثابتة ، على حال واحدة فى إيمانها بالله ، ورضاها بما قسم لها . . وهذا الاطمئنان وذلك الرضا ، لا يجدهما إلا المؤمنون بالله ، المتوكلون عليه ، المفوضون أمورهم

إليه . فالاطمئنان الذى تصيبه بعضُ النفوس ، ويكون صفة غالبة عليها ، هو ثمرة الإيمان الوثيق بالله ، القائم على أصول ثابتة من المعرفة بالله سبحانه وتعالى ، وما له جل شأنه من سلطان مطلق متمكن ، قائم على كل ذرة فى هذا الوجود ، وأنه لا يقع فى هذا الوجود شىء إلا بتقديره سبحانه ، وبمقتضى حكمته وعلمه ، وعدله .

وقد نُودى الإنسان هنا بنفسه ولم ينادَ بذاته ، لأن النفس هى جوهره السماوى ، وهى التى كانت موطن الإيمان والاطمئنان . . وهى لهذا استحقت أن ترجع إلى ربها ، وأن تنزل منازل رضوانه ، إذ لم تَغْرَق فى تراب الأرض ، ولم تَضِـع معالمها فيه ، كما ضاعت نفوس الضالين والغاوين . .

وقوله تعالى : « راضية مرضية » أي راضية بما أرضاها الله سبحانه به من فضله ، مَرضيًّا عنها من ربها . . فالكلمتان حالان من أحوال النفس ، وقد دُعيت من ربها إلى الرجوع إليه . . إنها ترجع إلى ربها ، وقد رضيت بما لقيها به ربُّها من إكرام وإحسان ، وقد رضى ربها عنها بما قدمت من أعمال طيبة . . فالله سبحانه وتعالى يَرْضى ويُرضِى ، يرضى عن عباده المحسنين ، ويُرضيهم بإحسانه ، كما يقول سبحانه : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » . . وفى الجمع بين صفة الرضا للنفس ، والرضا من الله عنها — إشارة الى أن هذا الرضا الذى تجده النفس هو رضاً دائم متصل ، لأنه مستمد من رضا الله عنها ، وأنه ليس مجردَ شعور يطرقها ، أو خاطر يطوف بها ، ثم يذهب هذا الشعور ، ويغيب هذا الخاطر ، مع موجات الخواطر ، والمشاعر التى تموج فى كيان الإنسان . . !! كلا إنه رضاً لا ينقطع أبداً . .

وقوله تعالى : « فادخلى فى عبادى . وادخلى جنتى » — هو دعوة إلى هذه النفس المطمئنة ، بعد أن عادت إلى ربها ، أن تأخذ مكانها بين عباده الذين أضافهم سبحانه وتعالى إليه ، وجعلهم فى مقام كرمه وإحسانه ، وأدخلهم جنته التى أعدها لهم ، فلتأخذ هى مكانها معهم من تلك الجنة ، ولتنعم بما يَنعم به عبادُ الله المكرمون ، من نعيم لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بشر . . جعلنا الله منهم ، وألحقنا بهم ، إنه أهل التقوى وأهل المغفرة

(٩٠) سورة البلد

نزولهـــا : مكية . . بإجماع . . نزلت بعد سورة « ق » .

عدد آياتها : عشرون آية .

عدد كلماتها : اثنتان وثمانون. كلمة .

عدد حروفها : ثلاثمائة وواحد وخمسون حرفاً .

مناسبتها لما قبلهـــا

الإنسان الذى ابتلاه الله فأكرمه ونعمه ، فلم يحمد الله ، ولم يشكر له فضله وإحسانه ، والإنسان الذى قَدَر الله عليه رزقَه ، فساء ظنُّه بالله ، وغيّر موقفَه منه — هذا الإنسان — فى حاليه اللذين عرضتهما سورة « الفجر » — يُرى فى أوضح صورة فى إنسان هذا البلد ، وهو مكة ، البلد الحرام الذى رفع الله قدره ، وجعله حرماً آمناً ، يُجبَى إليه ثمرات كل شىء ، وجعله موضعاً

لأول بيت يُعبد فيه على هذه الأرض ـ هذا الإنسان الذى يعيش فى هذا البلد الأمين ، كان جديراً به أن يكون أعرف الناس بربه ، وأرضاهم لحكمه ، ولكنه لم يرع حرمة هذا البلد ، فلم يكرم اليتيم ، ولم يحض على طعام المسكين ، وأكل التراث أكلاً لما ، وأحب المال حباً جمًّا ، أعماه عن طريق الحق ، وأضله عن سبيل الرشاد . . فهل هو بعد هذه النّذُر عائد إلى ربه ، داخل فى عباده ؟ ذلك ما ستكشف عنه الأيام منه ، مع دعوة الحق التى يحملها رسول الله إليه . . فالمناسبة بين السورتين قريبة دانية .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٢٠)

* « لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ (١١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ (١٧) أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (١٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ (٢٠) »

التفسير

[لا أقسم بهذا البلد .. ما تأويله ؟]

قوله تعالى :

* « لا أقسم بهذا البلد »

قلنا ـ فى غير موضع ـ إن القَسَم المنفى فيما ورد فى القرآن الكريم ، هو تعريض بالقسم ، وتلويح به ، دون إيقاعه ، إذ كان الأمر الواقع فى حيز القسم ، أوضحَ وأظهر من أن يُقسم عليه ، توكيداً ، أو تقريراً .. ونفى القسم هنا هو لعِلة فى المقسَم به ، لا بالمقسَم عليه ، كما سنرى .. والبلد ، هو البلد الحرام ، مكة المكرمة ، وقد أقسم الله به فى غير هذا الموضع ، فى قوله تعالى : « والتين . والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين » .

وقوله تعالى :

* « وأنتَ حِلٌّ بهذا البلد »

الواو هنا للحال ، والجملة حال من فاعل لا أقسم ، وهو الله سبحانه وتعالى .. أى لا أقسم بهذا البلد فى تلك الحال التى أنت حلٌّ به ، فالضمير « أنت » خطاب للنبى صلوات الله وسلامه عليه . والحِلُّ : الحلال ، المستباح ..

والمراد بالحِلّ ، هنا هو النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وأنّ المشركين لم يَرْعَوا فيه حرمةَ القرابة ، ولا حُرمة البلد الحرام الذى يأوى إليه ، بل أباحوا سبّه وشتمه ، وأطلقوا ألسنتهم بكل قالة سوء فيه ، بل وتجاوزوا هذا إلى التعرض له بالأذى المادى ، حتى لكادوا يرجمونه ..

وهنا ندرك بعض السر فى نفى القسم بالبلد الحرام .. لقد جعله المشركون بلداً غير حرام ، وغيّروا صفتَه التى له ، حتى لقد صار هذا البلد غيرَ أهلٍ لأن

يُقسم به من الله سبحانه ، لأن القسم من الله هو تشريف وتكريم لما يقسم به سبحانه ، وإن الله سبحانه لن يقسم بهذا البلد ما دام النبى - صلوات الله وسلامه عليه - لا تُرعى له حرمة فى البلد الحرام . . فإن حرمة هذا البلد من حرمة النبى، وأنه إنما أقيم من أول وجود المجتمع الإنسانى ، ليستقبل دين الله وقد كَمُل ، وليكون مطافاً لخاتم المرسلين وقد ظهر .

وفى نفى القسم بالبلد الحرام ، تجريم للمشركين ، وتشنيع على جنايتهم الغليظة التى اقترفوها فى حق رسول الله، وفى حق البلد الأمين ، وأن تلك الجناية الشنعاء قد امتدت آثارها إلى البلد الحرام، فسلبته حرمته، وأن الله سبحانه وتعالى رافع عنه هذه الحرمة ، حتى ينتقم لنبيه الكريم من هؤلاء المجرمين ، ويردّ إليه اعتباره من التوقير والتكريم فى رحاب البلد الحرام .وعندئذ تعود للبلد حرمته !!

وإنا لنذهب إلى أبعد من هذا ، فنقول إن رفع الحرمة عن البلد الحرام قد ظلّ معلقا هكذا إلى أن خرج منه النبى - صلوات الله وسلامه عليه - مهاجراً ثم عاد إليه فاتحاً فى السنة الثامنة من الهجرة ، وأنه قد أُبيح له من هذا البلد يوم الفتح،ما كان حراماً ، فأمر صلوات الله وسلامه عليه بقتل بعض المشركين ، وهم متعلقون بأستار الكعبة ، يومئذ ،وهم ابن خَطَل ، ومَقِيس بن صُبابة ، وغيرهم

وفى هذا يقول الرسول الكريم عن هذا البلد يوم الفتح : « إن الله حرم مكة ، يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام إلى أن تقوم الساعة ، فلم تحل لأحد قبلى ، ولا تحل لأحد من بعدى ، ولم تحل لى إلا ساعةً من نهار »

وإنه ما إن يفرغ النبى - صلوات الله وسلامه عليه — من حساب هؤلاء المتاكيد الذين أمر بقتلهم فى المسجد الحرام ، بالبلد الحرام ، حتى تعود للبلد الحرام حرمته ويُطّهر من الشرك والرجس ، ومن الأصنام وعُبّاد الأصنام .

هذا ، ولا يفهم مما قلناه : من أن البلد الحرام ، قد رُفعت عنه حرمته منذ

أحل المشركون من النبي ما أحلّوا ـ لا يفهم من هذا ، أن ذلك بالذى ينقص من قدر هذا البلد ، أو يجور على شيء من مكانته ، وعلو مقامه . . فهو هو على ما شرفه الله به ، ورفع قدره ، ولكن رفعَ الحرمة عن هذا البلد ، هو عقاب لهؤلاء المشركين الذين آواهم هذا البلد ، وجعله حرماً لهم . . فلما استباحوا حرمته ، باستباحة حرمة النبي ، حرّامهم الله من هذه الحلة الكريمة التي خلعها عليهم البلد الحرام . . ! ولهذا أقسم الله سبحانه بهذا البلد الذى أبيحت حرمته من المشركين ، ووصفه بالبلد الأمين فى قوله تعالى : « والتين ، والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين » .

قوله تعالى:

* « ووالد وما ولد » ـ معطوف على قوله تعالى : « لا أقسم بهذا البلد » . .

والمراد بالوالد وما ولد ـ والله أعلم ـ هو هذا التوالد الذى يقع بين الناس . . فكل والد ، هو مولود ، وكل مولود ، سيكون والداً ، وبهذا ، يتصل النسل ، وتكاثر المخلوقات ، وتعمر الأرض . .

وفى عملية التوالد ، تتجلى قدرة الخالق جل وعلا ، وعلى مسرح هذه العملية مَراد فسيح للدراسة ، والتأمل ، والبحث ، وجامعةُ علمٍ غزير للعلماء والدارسين ، ومَعلم من معالم الهدى واليقين للمؤمنين والمتوسمين . .

وفى نفس القسم بالوالد ، وما ولد (وهو الإنسان) ـ إشارة إلى أن الإنسان الذى كرمه الله سبحانه وتعالى ، ورفع قدره على كثير من المخلوقات ، كما رفع قدر هذا البلد الأمين على سائر البلدان ـ هذا الإنسان ، قد خلع هذا الثوبَ الكريم الذى ألبسه الله إياه ، وتخلّى عن المعانى الإنسانية الشريفة التى

أودعها الخالق جل وعلا فيه ، فأحلّ حرمات الله ، واعتدى على حدوده ، وبهذا لم يصبح أهلاً لأن يقسِم الله به ، وأن يَعرِضه فى معرض التشريف والتكريم .

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » (٤ ـ ٦ : التين)

ومن هنا ندرك بعض السر فى نفى القسم بالوالد وما ولد .. فإن الله سبحانه أقسم بكثير من مخلوقاته ، من سماء وأرض ، وما فى السماء ، من شمس وقمر ، ونجوم ، وما فى الأرض من تين وزيتون ، وخيل عادية ، ورياح عاصفة ، وغير هذا ، مما أقسم الله سبحانه وتعالى به ، من عوالم الجماد ، والنبات ، والحيوان .

فهذه المخلوقات قائمة على ما خلقها الله سبحانه وتعالى عليه ، لم تخرج عن طبيعتها ، ولم تحِد عن طريقها المرسوم لها ، على خلاف الإنسان ، الذى غير وبدل ، وانحرف عن سواء السبيل ..

وأما حين أقسم الله سبحانه وتعالى بالإنسان ، فإنما أقسم به فى فطرته التى أودعها الله سبحانه فيه ، تلك الفطرة التى جعلها الله تعالى أمانة بين يدى الإنسان ، فلم يرْعَها ، ولم يحفظها . وفى هذا يقول سبحانه : « ونفس وما سواها » .. فهذه النفس ، هى الفطرة التى فطر الله الناس عليها « فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها » . .

والصورة الكاملة الإنسانية ، التى احتفظت بهذه الفطرة ، وزكتها التزكية المطلوبة لها ، هو رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وقد ألبسه الله سبحانه الشرف كله ، وتوجه بتاج العظمة على المخلوقات جميعها ، إذ أقسم به الحق جل وعلا ، مضافاً إلى ذاته الكريمة ، فقال تعالى : « فوربك لنسألنهم أجمعين *

عما كانوا يعملون » (٩٢ ـ ٩٣ : الحجر) . .

وقد وزنه الله سبحانه وتعالى بهذا القسم ، فرجح ميزانُه ميزانَ السموات والأرض ، إذ أقسم بهما الحق جل وعلا مضافين إلى ذاته العلية في قوله جل شأنه : « فورب السماء والأرض إنه لحق » (٢٣ : الذاريات) . .

ولكن شتان بين قسم الله سبحانه وتعالى بذاته مضيفاً إليها الرسولَ الكريم ، في مقام الخطاب ، وبين قَسَمه سبحانه بالسماء والأرض ، مضافتين إلى ذاته ـ جل وعلا ـ في مقام الغيبة .. ! فصلوات الله وسلامه عليك يارسول الله ، صلاة ننال بها شفاعتك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

قوله تعالى :

* « لقد خلقنا الإنسان في كبد » . .

هو جواب للقَسَم المطوىّ ، فى كيان القسم المنفى . .

والإنسان هو ثمرة من ثمرات التوالد بين الأحياء ، سواء فى هذا ، الوالدُ ، والولد . .

والكبد : المعاناة والشدة . .

والظرف : « فى » هو المحتوَى الذى يضم الإنسان ، وما يلاقى فيه من كبد . .

فحياة الإنسان ـ كل إنسان ـ فى هذه الدنيا ، هى شدائد ، ومعاناة . فما يَسْلَم إنسان أبداً من هموم الحياة وآلامها ، النفسية ، أو الجسدية ، فكم يفقد الإنسان من صديق وحبيب ؟ وكم يتداعَى على جسده من أمراض وعلل ؟ وكم ؟ وكم ؟ مما يطرق الناس من أحداث على مر الأيام ، وكر الليالى ؟ فالشباب يَذْبل

ويولّى ، والقوة تتبدد وتصبح وهناً وضعفاً ، وهذا الجسد الذى ملأ الدنيا حياة وحركة سيعصف به الموت يوماً ، ويُلْقىَ به فى باطن الأرض ، جثة هامدة متعفنة ،لاتلبث أن تصير تراباً ! .

فالإنسانِ وحده من بين المخلوقات ـ فيما نعلم ـ هو الذى تستبدّ به هذه المخاوف ، وتطرقه هذه التصورات ، على خلاف سائرا لأحياء التى تقطع مسيرتَها فى الحياة ، فى غير قلق أو إزعاج من المستقبل الذى ينتظرها .. إنما لاتنظر إليه ،ولا تتصوره ، ولا تعيش فيه قبل أن يصبح واقعاً ..

أما الإنسان ، فإنه يعيش فى المستقبل أكثر مما يعيش فى الواقع ، حتى إنه ليرى بعين الغيب فى يوم مولده ، ماهو مقبل عليه من آلام ومكابدات فى مستقبل حياته . . يقول ابن الرومى :

لِمَا تُؤْذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعةَ يولدُ

وإلاّ فما يبكيه منها ، وإنها لأرحب مما كان فيه وأرغد

هذا هو الإنسان ، وتلك هى مسيرته فى الحياة ، فلا يغترنّ جاهل بقوته ، ولا يركننّ مغرور إلى مابين يديه من مال وسلطان . . فكل زائل وقبض الريح ! . .

قوله تعالى :

* « أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ؟ »

هو إلفات لهذا المغرور بقوته ، المعتزّ بسلطانه وجاهه ، المفتون بنفسه ، المتشامخ بذاته،حتى ليحسب أن أحداً لن يقدر عليه ، ولن يسلبه شيئاً مما معه . إنه أضعف من أن يثبت لنخسة من نخسات الحياة ، كما يقول سبحانه :

« الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة » (٥٤ : الروم) ويقول سبحانه : « وخلق الإنسان ضعيفاً » (٢٨ : النساء)وإن بعوضة تلسعه لتحرق جسده بالحمّى ، وإن جرثومة تتدسس إلى كيانه لتهدّ بنيانه ، وتقوض أركانه ! ! ثم ما قوة هذا الإنسان ؟ أهو أقوى من خالقه الذى خلقه من نطفة ثم سواه رجلا ؟

فما أضعف الإنسان ،وما أخف وزنه ، إذا كان معياره قائماً مع هذا الجسد ، دون أن يكون لروحه حساب ، أو لنفسه اعتبار !

وقوله تعالى :

* « يقول أهلكت مالا لُبداً »

هكذا يقول الإنسان مباهياً مفاخراً بما أنفق من مال . .

واللبد : الكثير ، الذى جُمع بعضه إلى بعض ، فكان أكداساً مكدسة . .

وفيم أهلك هذا السفيه المغرور هذا المال الكثير ؟ أفى ابتناء محمدة ، أو اكتساب مكرمة ؟ أو إغاثة ملهوف ؟ أو إطعام جائع ؟ كلاّ . . إنه لا يعرف وجهاً من هذه الوجوه ولا تنضح يدها بدرهم ، من هذا المال الكثير الذى أهلكه . . إنه أهلكه فى مباذله ، وفى استرضاء شهواته ، وإشباع نزواته . . ولهذا فهو مال هالك ، ومهلك لمن أنفقه وهذا بعض السرّ فى قوله تعالى : « أهلكت » الذى يدل على أن هذا المال ذهب فى طريق الضياع والفساد .

وقوله تعالى :

* « أيحسب أن لم يره أحد ؟ »

أى أيحسب هذا السفيه المفتون ، أن عين الله لا تراه ، ولا تكشف عن هذه الوجوه المنكَرة التى يُهلِك فيها هذا المال اللبد ؟ وكلاّ ، فإنه محاسب على هذا المال الذى أهلكه فى وجوه الضلال ، والبغى والعدوان . .

قوله تعالى :

* « ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين ؟ »

هو تعقيب على موقف هذا الجهول المفتون ، الذى ظن أن قدرته لا تُغلب، وأن ماله لا ينفد ، وأنه لا يحاسب على ما يفعل ، ولا يراجع فيما يقول ، وأنه عند نفسه أكبر من أن يحاسب ، وأعظم من أن يراجع ! !

وإذا سُلّم لهذا الغبىّ الجهول ، أن جاهه وسلطانه من كسب يده ، وأن المال الذى ينفق منه بغير حساب على شهواته وأهوائه ، هو من ثمرة عمله — إذا سُلّم له بهذا ، فهل يجرؤ على أن يدّعى — ولو تجرد من كل حياء — أنه هوالذى أوجد وجوده ، وأودع فيه هذه القوى التى يعمل بها ؟ أيجرؤ على أن يقول إنه هو الذى خلق هاتين العينين اللتين يبصر بهما ، أو هو الذى خلق جهاز النطق الذى ينطق به ، من لسان وشفتين ؟ فإذا كان لا يملك تلك القوى المودعة فيه ، فهل يملك ما تحصّله له تلك القوى من جاه ، ومال ، وسلطان ؟ إنه يستطيع — ولو جدلا وسفهاً — أن يقول مشيراً إلى نفسه : هذا مالى قد جمعته ، وهذا جاهى وسلطانى قد أقمته ولكن لا يستطيع أبدا أن يقول ها هوذا أنا الذى أوجدته ! !

[وهديناه النجدين . ما تأويله ؟]

قوله تعالى

* « وهديناه النجدين »

النجد : ما ارتفع من الأرض، أشبه بالنّهد البارز على الصدر ،وجمعه نجود، وبه سمى الصُّقع المعروف من بلاد العرب ، بنجد ، لأنه عالٍ بارز على ماحوله من الأماكن ، مثل تهامة وغيرها . .

والنجدان هنا ، هما جانبا الخير والشر فى الإنسان . . وسُميا نجدين لأنهما أمران بارزان بين ما يتقلب فيه الإنسان من أمور . . فالخير واضح الملامح ،

بيّن السمات ، وكذلك الشر ، أمره ظاهر لا يخفى .. وإن يخطىء أحد التفرقة بين ما هو خير وما هو شر ، كما لا يخطىء أحد التفرقة بين النور والظلام ، والنهار والليل ، والحلو والمر .. اللهم إلا من فسد عقله ، واختل تفكيره ، فيرى الأمور على غير وجهها ، تماماً ، كمن تعطلت حاسة من حواسه ، من سمع أو بصر ، أو شم ، أو ذوق ، فلا يميز بين المسموعات أو المبصرات ، أو المشمومات أو المذوقات .. وهذا ما يشير إليه الرسول الكريم بقوله : « إن الحلال بين وإنّ الحرام بيّن .. وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس » .

والإنسان السوىّ ، يعرف الخير والشر ، والهدى والضلال ، والنافع والضار ، ويتهدى إلى ذلك بنفسه ، كما يتهدّى الحيوان إلى مسالكه فى الحياة ، وإلى ما يحفظ وجوده بين الأحياء ..

ومن هنا كانت دعوة الإسلام - كما كانت دعوة الشرائع السماوية كلها - هى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .. والمعروف هو ما عرف الناس بفطرتهم أنه ملائم لهم ، فاتجهوا إليه ، وتجاوبوا معه ، وأخذوا وأعطوا به .. والمنكر ، ما أنكره الناس بفطرتهم ، واستوحشوه ، ونفروا منه ، ونأوا بأنفسهم عنه .. ومن هنا أيضاً كان الإجماع فى الشريعة الإسلامية أصلا من أصول هذه الشريعة ، يقوم إلى جانب أصليها : الكتاب والسنة .. وليس الإجماع فى حقيقته إلا توارد العقول وتلاقى الفطر على أمر ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله نصٌّ فيه ..

وهذا يعنى أن الرأى العام حَكَمٌ يقضى بين الناس ، وفيصلٌ فيما لم يجدوا له حكما فى الكتاب أو السنة ..

وأكثر من هذا ، فإن أحكام الكتاب والسنة ، إنما هى موزونة بميزان الفطرة السليمة ، والعقل الصحيح ، أو قل إن أحكام الكتاب والسنة ضابطة

لمسيرة الفطرة السليمة ، والعقل الصحيح . ومن هنا لا تجد النفوس السوية حَرَجاً ، ولا ضيقاً ، فى التزامها حدودَ الشريعة والوفاء بها . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » (٧٨ : الحج)

فمعنى قوله تعالى : « وهديناه النجدين » أى عرّفناه وجهى الخير والشر ، وأعطيناه الميزان الذى يزنهما به ، ويضع كلاًّ منهما موضعه الذى هو له . . وكما يشير النجدان إلى أن كلاًّ من الخير والشر بالمكان البارز الذى لا يخفى وجهه ولا تخطىء الأنظار الاستدلالَ عليه ـ كذلك يشيران إلى أن الاتجاه إلى أى منهما ، وأخذ الطريق إليه ، هو مرتقًى صعب ، يحتاج إلى جهد ومعاناة !

فالذى يتجه إلى الخير ، ويحمل نفسه على معايشته ، إنما يغالب أهواء جامحة ، ويدافع شهوات معربدة . . وفى الحديث : « حُفّت الجنة بالمكاره » . . ولهذا كان الصبر من عُدّة المؤمنين ، ومن زادهم على طريق الحق والخير . . فمن لم يُرزَق الصبر ، لم يقو على السير فى طريق الهدى والإيمان . . « إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » (٢ ـ ٣ : العصر) . . « وما يُلَقّاها إلاّ الذين صبروا وما يلقاها إلاّ ذو حظ عظيم » (٣٥ : فصلت)

والشرّ ، وإن بدا فى ظاهر الأمر أنه أخفّ محملا ، وأيسر سبيلا ، لأن مسيرته متجهة مع أهواء النفس ، مندفعة مع تيار الشهوات ـ إلا أنه فى واقع الأمر على خلاف الظاهر ، فليس محمل الشر خفيفاً ، ولا طريقه سهلا معبّداً . . فما أكثر المزالق والعثرات التى يلقاها الأشرار فى طريقهم ، وما أكثر الآلام التى تتولد من اقتراف الآثام ، وإشباع الشهوات . . وإن اللذة العارضة لشهوة من الشهوات ، أو إثم من الآثام ، لتعقبها دائماً آلام مبرّحة ، وأوجاع قاتلة ، إن لم يكن ذلك فى يومها ، ففى غدٍ قريب أو بعيد . . فما أكثر العلل

الجسدية التى تخلقها الآثام ، وما أكثر العلل والأوجاع التى يرثها أولئك الذين يزرعون الشر ، ويستكثرون منه !

هذا ، وللإنسان - كل إنسان،حتى أكثر الناس جرأة على الشر ومقارفة له - لحظات يصحو فيها من غفلته ، ويفيق فيها من سكرته ، ويتنبه من ذهوله ، وعندها يجد بين يديه هذا الحصاد المشئوم، الذى تنبعث منه روائح كريهة عفنة، حتى لتكاد تخنق أنفاسه ، وتزهق روحه !

وكم لأهل الضلال ، ومقترفى الآثام من ساعات، يحترقون فيها بنار الندم والحسرة ، ويتقلبون فيها على جحيم التقريع واللوم ، ولكن بعد فوات الأوان ، وإفلات الفرصة . . وأىّ عزاء يعزِّى به نفسه رجل كأبى نواس مثلا ، حين يذهب شبابه ، وتموت نوازعه وشهواته ، ثم يتلفت فيجد بين يديه أشباح آثامه وفجوره ، تتراقص من حوله ، بوجوهها الكالحة ، وأنيابها المكشرة ، ومخالبها الحادة ، وكأنها الحيات تطل من أجحارها ، وتهجم عليه من كل جانب ؟

وَلقد نَهَزْتُ مع الغواة بدلوهم
وأَسَمْتُ سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه
فإذا عصارة كل ذاك أثام !

هكذا يَلقى أبو نواس نفسه فى صحوة الموت ، وقد بلغت الروح الحلقوم !!

وأى حسرة وأى ألم فاضت بهما نفس رجل كالحجاج ، وقد قام على منبر سلطانه فى العراق ، يرمى الناس بالصواعق من كلماته ، فتنخلع منها القلوب ، وتضطرب النفوس ، ويشهر سيفه بيد هذا السلطان المطلق ، ويقول : « إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها ، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى . . » ثم ينفذ هذا الوعيد ، فيقطع رءوساً بريئة ، ويُريق

دماء طاهرة . . ثم شئ صفحته الملطخة بالدماء ، بدم « سعيد بن جبير » بقية السلف الصالح ، والنبتة الكريمة الباقية من رياض التابعين ؟

والذين شهدوا الحجاج وهو على فراش الموت ، يعانى سكراته ، وينظر نظرات الفزع والرعب إلى ماضيه الذى حضر كله بين يديه ـ الذين شهدوا الحجاج وهو فى تلك الحال ، فاضت نفوسهم أسى عليه ، ورحمة به ، حتى أولئك الذين كانوا أشد الناس بغضاً له ، واستعجالا ليومه هذا !

فكم يساوى سلطان الحجاج ، وجبروته ، وما أرضى به نفسه من هذا السلطان ، وذلك الجبروت ـ كم يساوى كل هذا من آلام ساعة من ساعاته الأخيرة ، وهو يرى حصاد هذا السلطان ، وثمر هذا الجبروت ؟

هذا حساب الإنسان مع نفسه ، فكيف حسابه مع الله ، إذا كان قد أخذ طريقاً غير طريق الله ؟ .

وقوله تعالى :

* « فلا اقتحم العقبة »

العقبة ، هى الطريق الوعر فى الجبل ، تحف بسالكها المخاوف والمهالك . .

والاقتحام ، هو الإقدام من المرء على الأمر فى قوة وعزم ، دون مبالاة بما يعترضه من صعاب . . والمخاطب باقتحام العقبة هنا ، هو هذا الإنسان الذى هداه الله النجدين ، وعرّفه — بما أودع فيه من عقل ، وما غرس فيه من فطرة — التهدّى إلى طريق الخير أو الشر ، ثم لم يقتحم العقبة إلى موارد الخير ، ومواقع الإحسان ، وآثر أن يأخذ طريق الشر ، ويقتحّم عقبته تحت غواشى ضلاله ، وغمرة شهواته . . وسطوة نزواته . .

وقوله تعالى .

* « وما أدراك ما العقبة »

سؤال يثير العقل ، ويحرك الفكر ، نحو هذا المجهول الذى يُسأل عنه .

وقوله تعالى :

* « فكُّ رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة » : المسغبة : الجاعة ، والمتربة : التراب ، ويراد بها الفقر الشديد ، كأن المتصف بها لا يملك غير التراب !

هذه هى العقبة التى كانت موضوع السؤال : « وما أدراك ما العقبة ؟ »

إنها عقبة ، تقوم بين يدى من يريد اجتيازها إلى مواقع الخير ـ عقبات : منها : « فك رقبة » أى عتق رقبة ، وفكها وإطلاقها من أسر العبودية ، والرق ، وتحريرها من البهيمية التى اغتالت معالم الإنسانية فيها . .

إن الإنسان — مطلق الإنسان — له حرمته عند الله، وإن الاستخفاف بهذه الحرمة عدوان على حمى الله . . ولهذا كان من أعظم القربات عند الله سبحانه وتعالى ، هو رد اعتبار هذا الإنسان ، وتصحيح وجوده بين الناس . . إنه خليفة الله فى الأرض !

ومن العقبات التى يقتحمها من يأخذ طريقه إلى الله : « إطعامٌ فى يوم ذى مسغبة، يتيما ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة » أى بذل الطعام فى الجاعات ، وفى أيام الجدب والقحط ، للجياع والمحرومين . . وأوْلَى هؤلاء الجياع بالإطعام ، الأيتامُ الفقراء ، لضعفهم ، وعجزهم عن الكسب . . وأحق الأيتام بهذا الإحسان ، ذوو القربى ، إذ كان للقرابة حق يجب أن يُرْعى ، فمن قصّر فى حق ذوى قرابته ، فهو مع غيرهم أكثر ضنًّا ،وأشد تقصيراً . والمسكين الفقير ، هو أشبه باليتيم ، فى ضعفه ، وقلة حيلته ، وإطعامه ـ حين لا يجد الطعام ـ أولى من غيره !

وفرق بين الفقير ، والمسكين . . فقد يكون المسكين فقيراً ، وقد يكون

الفقير غير مسكين .. والمسكين هو الذليل ، المهين .. سواء أكان فقيراً أم غير فقير ، ومن هنا لم يكن فى المؤمنين مسكين . إذ لا يجتمع الإيمان ، وذلة المسكين ومهانته ..

وعلى هذا يكون المسكين ، هو الذمّى ، الذى يعيش فى دار الإسلام ، ويكون من حقه على المسلمين إذا كان فقيراً أن تُسُدّ مفَاقره ، وأن يكون له نصيب من البر والإحسان . كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين ... » أما الفقير على إطلاقه ، فهو من كان من المؤمنين ، ولا مال معه ، وهذا الفقر لن يُلبسه لباسَ المسكنة أبداً .. وكيف ، وهو العزيز بإيمانه ، القوى بالثقة فى ربه ؟

وسميت هذه الأمور عَقَبة ، لأن الذى يتخطاها ، إنما يغالب نوازع نفسه ، من الأَثَرَة ، وحب المال ، وإنه ليس من السهل على الإنسان أن ينزع من نفسه الأنانية والأثرة ، وحبّ المال ، وإن ذلك ليحتاج إلى معاناة وجهاد ومغالبة ، حتى يقهر المرء هذه القوى التى تحول بينه وبين البذل والسخاء ..

وقوله تعالى :

* « ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » ..

إشارة إلى أن هذه الأعمال المبرورة ، لا يُنزلُها منــازلَ القبول من الله إلا الإيمان بالله . فإذا فعلها المرء غيرَ مؤمن بالله ، وغيرَ راغب فى ثوابه ، طامع فى حسن المثوبة منه ــ لم يكن لها عند الله وزن .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وقَدِمْنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » (٢٣ : الفرقان) وقوله سبحانه : « أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » (١٠٥ : الكهف) .

وقوله تعالى : « وتواصوْا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » ـ إشارة إلى أن الإيمان ـ مجرد الإيمان ـ لايمكّن المرء من اقتحام هذه العقبة ، وإن كان يدعو إلى اقتحامها ، ويشدّ البصر نحوها . . إذ لابد من أن يقوم مع الإيمان ، دعوة موجّهة إلى الصبر ، وإلى الرحمة ، وأن يتزود المرء بزاد عتيد منها .

والتواصى بالصبر والمرحمة ، هو إلحاح المرء على نفسه بالدعوةِ إليهما ، والتمسك بهما ، فإذا جزع فى مواجهة مالٍ يَخْرج من يده ، حَمَل نفسه على الصبر على ماتكره ، واستدعى من مشاعره دواعى الحنان والرحمة . . فذلك مما يُعينه على مغالبة أهوائه ، وقهر شحّه وبخله .. ثم لايقف المرء عند هذا ، بل ينبغى أن يكون هو داعية إلى الصبر وإلى الرحمة ، يبشر بهما فى الناس ، ويدعو إليهما فى كل مجتمع ، فذلك من شأنه أن يترك آثاره فيه ، إلى جانب مايتركه من إشاعة هذا المعروف بين الناس . .

قوله تعالى :

* « أولئك أصحاب الميمنة » . .

أى أن هؤلاء الذين آمنوا ، وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة ، وتخطوا هذه العقبة ، ففكوا الرقاب ، وأطعموا الجياع من الأيتام والمساكين ـ هؤلاء « هم أصحاب الميمنة » أى أصحاب اليمين ، والفوز ، والفلاح ، وأنهم من أهل اليمين ، الذين وعدهم الله جنات النعيم . .

قوله تعالى :

* « والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة » . .

أى والذين لم يؤمنوا بالله ، ولم يقتحموا العقبة ، سيأخذون الجانب الآخر

المقابل لأصحاب الميمنة ، وهو جانب الشؤم ، والبـلاء .. حيث نار جهنم ، يصلونها وبئس المصير ..

قوله تعالى :

* « عليهم نار مؤصدة » ..

أى هذا هو المساق الذى يُساق إليه أصحاب المشئمة ، حيث تشتمل عليهم النار ، وتُغلق عليهم أبوابها ، فلا مهربَ ، ولا إفلات لهم منها ..

---

(٩١) سورة الشمس

نزولها : مكية .. نزلت بعد سورة « القدر » ..

عدد آياتها : خمس عشرة آية ..

عدد كلماتها : أربع وخمسون كلمة ..

عدد حروفها : مائتان وأربعون حرفا ..

مناسبتها لمـا قبلهـــا

أشارت سورة « البلد » إلى الإنسان ، وإلى ما أودع الله سبحانه وتعالى فيه من قوى تميز بين الخير والشر ، إذ يقول سبحانه : « وهديناه النجدين » .. وفى سورة « الشمس » بيان شارح للنجدين ، إذ يقول سبحانه : « ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها » ثم أشارت الآيات بعد هذا إلى موقف الإنسان من هذين النجدين ، إذ يقول جل شأنه : « قد أفلح من زَكّاها ، وقد خاب من دساها » .. فالمناسبة بين السورتين ظاهرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١٥)

* « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) »

التفسير :

قوله تعالى : (والشمس وضحاها . .)

هذه أقسام عِدَّتها أحدَ عشرَ قَسَما ، أقسم الله سبحانه وتعالى بها، مفتتحاً السورة الكريمة .. الشمس ، وضحى الشمس ، والقمر ، والنهار ، والليل ، والسماء ، وبناؤها ، والأرض ، وبسطها . ثم النفس ، وماركّب فيها . .

وفى هذه الأقسام نرى ستة منها متزاوجة ، متقابلة .. فالشمس يقابلها القمر ، والنهار يقابله الليل ، والسماء تقابلها الأرض .. ثم نرى الشمس ، والنهار ، والسماء ، يقابلها على التوالى : القمر ، والليل ، والأرض ..

وإذ نبحث عن مقابلٍ للنفس ، لا نجد هذا المقابل ، الذى يستدعيه سياق النظم فى ظاهره . .

فإذا أمعنا النظر قليلا ، نجد أن النفس تَضُمّ فى كيانها شيئين متقابلين ، هما : الفجور والتقوى ، أو إن شئت فقل ، الشمس والقمر ، أو النهار والليل ، أو السماء والأرض . .

ففى كيان النفس ، نور وظلام ، ونهار وليل ، وعلوّ وسفل .

فإذا تعمقنا النظر ، وجدنا الشمس تمثل العقل ، والقمر يمثل الضمير ، الذى تستضىء بصيرته من العقل ، كما يستمد القمر نوره من الشمس . . والعقل شروق وغروب . فإذا اتجه إلى الحق أسفر عن وجهه وكان نهاراً مبصِراً ، يتحرك الإنسان فيه على هدى وبصيرة . . وإذا اتجه إلى الباطل غربت شمسه ، وأطبق ليله ، وعُمّيت على صاحبه السبل ، ودرست معالمها . .

ثم إذا أخذ الإنسان طريق الحق اتجه صُعُداً نحو معالم النور ، فكان أقرب إلى عالم السماء منه إلى عالم الأرض . . أما إذا رَكب مركب الضلال ، فإنه يهبط منحدراً حتى تغوص أقدامه فى التراب ، وقد يتدلّى حتى يكون حشرة من حشرات الأرض ، أو دودة من ديدانها . .

وننظر فى أجزاء هذه الصورة التى رسمتها الآيات القرآنية للإنسان من داخل نفسه كما تحدثت عنها آيات الكتاب الكريم . .

* « والشمس وضحاها » . .

الواو هنا للقسم ، وما بعدها من واوات هى حرف عطف ، تعطف هذه الأقسام بعضها على بعض . .

هكذا يكون الإنسان حين مولده .. إنه أشبه بالشمس فى إشراقه ووضاءته ..

إنه الإنسان فى أحسن تقويم ، كما خلقه الخالق جل وعلا ، قبل أن تنعقد فى سمائه سحب الضلالات ، وتهبّ عليه أعاصير الحياة محملة بالغُثاء والتراب .

* « والقمر إذا تلاها .. »

هو الإنسان الذى خيمت عليه موروثات الآباء والأجداد فى بيئة الكفر والضلال ، فلعبت بعقله ، وحجبت شمسَ فكره ، ثم بقى معه بعد ذلك شىء من شعاع العقل ، يجده مندسًّا فى ضميره ، مختزَنًا فى فطرته .. فيقف فى مفترق الطريق بين الهدى والضلال ، بين أن يرجع إلى عقله ، ويحتكم إلى رأيه ، أو ينساق مع هواه ، ويتّبع ما كان عليه آباؤه

* « والنهار إذا جلاها » ..

فإذا غلب الرأى على الهوى ، وأخذ الإنسان طريق الحق ، عادَ إلى العقل سلطانُه ، وتجلت فى الإنسان آياتُ شمسه ، فأضاءت كل شىء حوله ..

* « والليل إذا يغشاها » ..

وأما إذا غلب الهوى على الرأي ، وأخذ الإنسان طريق الباطل ، فقد غربت شمس العقل ، وعميت بصيرة الإنسان ، واشتمل عليه ليل دامس ، لا نجم فى سمائه ولا قمر ..

* « والسماء وما بناها »

والإنسان الذى أمسك بعقله ، واستجاب لسلطانه ، هو ـ كما قلنا ـ إلى عالم

السماء أقرب منه إلى عـالم الأرض . . إنه الإنسـان الذى خلقـه الله فى أحسن تقويم . .

* « والأرض وما طحاها »

هو الإنسان الذى زهد فى عقله ، وأسلم زمامه لهواه ، فـكان بعضاً من هذه الأرض . .

إنه الإنسان الذى ردّه الله أسفلَ سافلين . .

* « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها »

هى النفس الإنسانية على إطلاقها . . إنها مستعدة للهدى والضلال ، فاردةٌ قلاعَها إلى جهتى الخير والشر . . هكذا صاغها الخالق جل وعلا ، من النور والظلام ، من نفحات السماء ، ومن تراب الأرض . « فألهمها فجورها وتقواها » أى آتاها الله سبحانه وتعالى القدرة على الاتجاه نحو اليمين أو الشمال ، نحو الخير أو الشر ، نحو الإيمان أو الـكفر . . هكذا يرى الإنسان القدرة من نفسه على التحرك فى هذين الاتجاهين . .

* « قد أفلح من زكّاها ، وقدخاب من دساها » .. هو الواقع عليه هذه الأقسام ، فهو جوابها . . إن السعيد من الناس ، من زكّى نفسه وطهرها نخلصها من تراب الأرض ، وأطلق روحه من أسْر المـادة ، فحلّقت به فى عـالم الحق والنور .

وإن الشقى من دسّى نفسَه ،أى أخفاها ، وغطّى عليها بكثافة المادة وظلامها ، وعاش حبيساً داخل هذه القوقعة التى نسجها حول نفسه ، لا يرى ،ولا يسمع ، ولا يتحرك .

و « ما » فى قوله تعالى : « والسماء (وما) بناها ،والأرض (وما) طحاها

ونفس (وما) سواها » هى « ما » المصدرية ، أى والشمس، وبنائها ، والأرض وبسطها ، والنفس وتسوية خلقها . .

فقوله تعالى : « وما بناها » أى وما بنى السماء ، وأقامها من غير عَمَد . . وهو ما أودع الله سبحانه وتعالى فيها من قوى ممسكة بها ، ضابطة لنظامها ، حافظة لوجودها ..

وقوله تعالى : « وما طحاها » أي وما طحا الأرض ، أى بسطها ، وأمسك بها أن تميد . . وهو النظام الذى يمسك كيانَها ويحفظ وجودها . .

وقوله تعالى : « ونفس وما سواها » أى وما سوى خلقها ، وأمدها بالقوى العاملة فيها . .

فالقسم هنا ، قَسَمٌ بالشىء ، والصفة التى قام عليها . . وهذا يعنى مزيداً من التشريف والتكريم للشىء المقسَم به ؛ إذ كان فى ذاته أهلا للقسم ، ثم كانت صفاته أهلا للقسم أيضاً .

وقوله تعالى :

* « كذبت ثمود بطغواها » .

هو عرض للمواجهة الضالة التى اتجه إليها أهل الضلال ، مؤثرين إياها على طريق الحق والهدى . . إنهم لم يزكّوا أنفسهم ، ولم يرتفعوا بالجانب الطيب المشرق منها ، بل آثروا جانب الفجور ، وأفردوا قلوع سفينتهم فى اتجاه ريحه العاصفة .

« وثمود » ، هم قوم صالح عليه السلام ، دعاهم نبيهم إلى الإيمان بالله فبهَتُوه ، وكذبوه . . « قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب » (٦٢ : هود)

وقد توعدهم نبيهم بالعذاب ، وأنذرهم به ، ووضع بين أيديهم آيةً من

آيات الله ، هى الناقة ، وجعل وقوعَ العذاب الذى أنذروا به رهنا بأن يتعرضوا لتلك الناقة بسوء : « وياقوم هذه ناقة الله لكم آيةً فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ، فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب » (٦٤ — ٦٥ هود)

وقوله تعالى : « بطغواها » أى بسبب طغواها ، أى بطغيانها ، وبجاوزتها الحد فى العدوان على حرمات الله ـ كان تكذيبُها برسول الله وبآيات الله . .

وقوله تعالى :

* « إذ انبعث أشقاها »

أى ولقد بلغت ثمود غاية الطغيان والعدوان ، حين « انبعث أشقاها » أى اندفع هذا الشقى من أبنائها فى جنون صارخ ، نحو الناقة ، يريد عقرها ، فلم يقف فى طريقه أحد ، ولم ينصح له ناصح ، بل تركوه يمضى إلى حيث سوّلت له نفسُه ، عقرَ الناقة ، فعقرها ، فعمهم البلاء ، جميعاً ، وكان صاحبهم هذا أشقى هؤلاء الأشقياء الذين تركوه ، ولم يأخذوا على يده . .

قوله تعالى :

* « فقال لهم رسول الله ناقةَ الله وسُقياها »

أى حين رأى صالح ما يريد هذا الشقى بالناقة من سوء ، حذّر القومَ من أن يرتكبوا هذه الحماقة المهلكة . . فقال لهم : « ناقةَ الله » أى احذروا ناقة الله ، وإياكم أن تمسوها بسوء ، أو تعرِضوا لها يومَ شِربها ، وأن تمنعوها السُّقيا فى يومها المرسوم لها . .

وقوله تعالى :

* « فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها » . .

أى أنهم لم يستمعوا نصحَ صالح لهم ، ولم يصدقوا ما أنذرهم به ، ولم يأخذوا على يد هذا الشقى ، بل تركوه حتى عَقَر الناقة !

وقوله تعالى : « فدمدم عليهم ربهم بذنبهم » أى أخذهم الله جميعا بالعذاب، فلم يُبق منهم باقية بسبب هذا الجرم الغليظ الذى كان منهم . .

والدمدمة : الإهلاك الجامع ، الذى لا يُبقى ولا يذر . .

وقوله تعالى : « فسواها » أى أطبق عليهم الأرضَ ، فلم يبق لهم ولا لديارهم أثرٌ عليها ، بل سُويت الدور بالأرض ، كأن لم يكن عليها شىء . .
والضمير وهو « ها » فى قوله تعالى « فسواها » يعود إلى الأرض ، التى يشير إليها قوله تعالى : « فدمدم عليهم ربهم » لأن الدمدمة ، أى التسوية مما يفعل بالأرض، لا بالناس .

وقوله تعالى :

* « ولا يخاف عقباها » . .

أى أن الله سبحانه فَعل بهم مافعل ، واقتلعهم من الأرض اقتلاعاً ، دون أن يحول بينه وبين مافعل بهم حائل ، أو يحاسبه محاسب . . إنه فعل ذلك بعدله وقوته ، وسلطانه ، الذى لا معقب عليه . .

وذكر الخوف هنا تمثيل ، يراد منه الإشارة إلى هذا التدمير الشامل ، المتمكن ، فإن الذى يخاف عاقبة أمرٍ لا تتسلط عليه يدُه تسلطاً كاملا ، بل يحول بينه وبين تصرفه المطلق فيه ، خوفُ الحساب والجزاء ، ممن يحاسبه ويجازيه . . وتعالى الله سبحانه عن ذلك علواً كبيراً . .

* * *

(٩٢) سورة الليل

نزولها : مكية .. نزلت بعد سورة « الأعلى » .

عدد آياتها : إحدى وعشرون آية .

عدد كلماتها : إحدى وسبعون كلمة .

عدد حروفها : ثلاثمائة وعشرة أحرف

مناسبتها لما قبلها

ختمت سورة « الشمس » بهذا العذاب الذى أوقعه الله سبحانه بثمود ، فغشيهم العذاب واشتمل عليهم ، ولفّهم برداء أسود كثيب . .

وبدئت سورة « الليل » بالقسم بالليل إذا يغشى ، فكان ظلام هذا الليل كَفَناً آخر لثمود ، يصحبهم فى قبورهم التى ابتلعتهم ، ويقيم عليهم راية سوداء تحوّم عليهم ، كما تحوّم الغربان على الجيف !!

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٢١)

« وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ

وَٱسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ (١٠)
وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا
لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَىٰهَآ
إِلَّا ٱلْأَشْقَى (١٥) ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى (١٧)
ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ (١٩)
إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « والليل إذا يغشى »

قَسَم بالليل حين يغشى ظلامُه الكائنات ، ويغطّي سوادُه وجه الأرض..

وبدء السورة بهذا القسم ـ كما قلنا ـ هو أشبه براية سوداء تحوّم على مواطن ثمود ، التي دمدم الله عليها ، كما تحوم الغربان على الرمم . . ثم إنه من جهة أخرى ، يمثل الجانب الأعظم من جانبي الإنسانية ، جانبي الكفر والإيمان، والضلال ، والهدى ، والظلام والنور . .فأغلب الناس على ضلال ، وقليل منهم المهتدون ، كما يقول سبحانه : « وما أكثرُ الناس ولو حرصتَ بمؤمنين » (١٠٣ : يوسف)

وفى التعبير بفعل المستقبل « يغشى» عن ظلام الليل ـ إشارة إلى أن الظلام عارض دخيل، يعرض للنور الذى هو أصل الوجود ، كما يعرض الضلال للفطرة الإنسانية التى خلقها الله تعالى صافيةً لاشيةَ فيها .

وقوله تعالى :

* « والنهار إذا تجلى »

معطوف على قوله تعالى : « والليل إذا يغشى » . . وهو قَسَم بالنهار إذا ظهر ، وتجلّى على الوجود ضوءه . .

وفى تقديم الليل على النهار ، إشارة إلى هذا الظلام الذى كان منعقداً فى أفق الحياة الإنسانية حين كانت ثمود تتحرك بطغيانها على الأرض ، فلما دمدم الله عليهم الأرض ، ورمى فى أحشائها بهذا الظلام ـ عاد إلى الحياة صفاؤها ، وطلع نهارُها ! !

وقوله تعالى :

* وما خلق الذكر والأنثى » :

معطوف على قوله تعالى : « والنهار إذا تجلى »

و « ما » هنا مصدرية . . أى وخلقُ الذكر والأنثى ، وما أودع الخالق فى كلٍّ منهما من آيات علمه ، وحكمته ، ورحمته . .

والذكر والأنثى ، هو مطلق كل ذكر ، وكل أنثى ، فى عالم المخلوقات . . والذكر والأنثى تتم دورة الحياة وتعاقب الأجيال ، كما بالليل والنهار يتوالد الزمن ، ويتكاثر نسله من الليالى والأيام !

وقوله تعالى :

* « إن سعيكم لشتّى »

هو جواب القسم ، وهو المقسَم عليه . .

والسعى : العمل فى كل وجه من وجوه الحياة . . « وشتّى » أى شتيت مختلف الوجوه ، متغاير الألوان . . فلكل إنسان وجهته التى هو مولّيها ، وطريقه

الذى يسلكه ، وهيهات أن يتطابق إنسان وإنسان تطابقاً تاماً ، حتى ولو أخذا وجهاً واحداً ، ودانا بدين واحد . .

فنى الناس المؤمن والكافر ، وفى الناس المنافق الذى يجمع بين الكفر والإيمان .. والمؤمنون ،درجات،ومنازل، والكافرون ، أنماط وصور ، والمنافقون وجوه وأشكال . .

واختلاف سعى الناس، أمر بَدَهىٌّ، يراه كل إنسان : المؤمنون والكافرون ، والمحسنون والمسيئون جميعاً . . فكل ذى عينين يشهد أن الناس طرائقُ قِدَد ، وإلاّ لاجتمعوا على عقيدة واحدة ، ومذهب واحد ، واتجاه واحد ، فيما يأخذون أو يدَعون من أمور . . هذه بديهة لا تحتاج إلى توكيد — فلم جاءت الآيات القرآنية مؤكدة لها بهذا القسم ؟

والجواب على هذا ، هو أن التوكيد بالقسم وإن وقع على المقسَم عليه ، وهو اختلاف سعى الناس ـ إلا أن المنظور إليه هو ما وراء هذا الاختلاف فى المسعى ، وهو أن هناك محسنين ومسيئين . . وهذا أمر يدعو العاقل إلى أن ينظر إلى نفسه وأن يفتش عن مكانه فى المحسنين أو المسيئين ، إذ كل إنسان عند نفسه أنه محسن ، وحتى المحسن حقيقة ، يقدر أن إحسانه مطاق لا تقع منه إساءة ، وهذا غير واقع ، فالمحسن ليس سعيه كله قائماً على ميزان الإحسان ، بل إن سعيه مختلف ، فيه الحسن ، وفيه السيء ، فلا ينبغى أن يُسوِّىَ حسابَ أعماله بينه وبين نفسه على ميزان الإحسان دائماً . . بل يجب أن ينظر فى كل عمل ، ويعرضه على ميزان الحق ، والعدل ، والخير ، فإن اطمأن إليه ، ورضى عنه ، أمضاه ، وإلا عدل عنه .

قوله تعالى :

* « فأما من أعطى واتقى • وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى » .

والناس فى عمومهم ، يدخلون تحت وصفين عامّين : مؤمنون وكافرون ، أو محسنون ومسيئون . .

فأما من أعطى ، أى أنفق فى سبيل الله ، وفى وجوه الخير والإحسان ، متقيا بذلك ربّه ، خائفا عذابَه ، طامعا فى ثوابه « وصدّق بالحسنى » أى مؤمنا بما للعمل الطيب من قدر ، معتقدا أنه العمل الأفضل والأحسن ، لا أن يكون ما يصدر منه من أعمال الخير تلقائيا ، وعفوا ، لا تشده إليه إرادة صادقة ، أو قصد محسوب حسابه ، مقدرة آثاره . . وهذا يعنى أن الأعمال إنما تحكمها النيات الباعثة لها ، الداعية إليها . . أما العمل الذى لا تنعقد عليه نية ، ولا ينطلق من إرادة ، فإنه سهم طائش ، ورمية من غير رام . . وهذا ما يشير إليه الرسول الكريم بقوله : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » . .

وفى إطلاق الفعل « أعطى » من قيد الشيء المعطى ـ إشارة إلى أمرين :

أولها : أن ما يعطَى لا بد أن يكون شيئا طيبا نافعا لأن الإعطاء يقابله الأخذ ، والإعطاء والأخذ لا يتمّان إلا برغبة متبادلة بين المعطى والآخذ . . والآخذ لا يأخذ إلا ما ينفعه ويرضيه . .

والأمر الآخر الذى يشير إليه إطلاق الفعل ، هو أنه لا حدود للإعطاء ، قلّة أو كثرة ، كما يقول سبحانه : « ما على المحسنين من سبيل » . . (٩١ : التوبة)

وقوله تعالى : « فسنيسره لليسرى » أى أن من أخذ طريق الحق ، وشدّ عزمَه عليه ، وصرف همه نحوه ، يسّر الله له طريقه ، وأعانه على المضى فيه ، لأنه طريق الله ، ومن كان على طريق الله ، لم يُحرَم عونَه ، وتوفيقه . .

وقوله تعالى :

* « وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى » .

وعلى عكس هذا . من يبخل بماله ، ويضنّ ببذله فى سبيل الله ، وفى وجوه الخير ، ومن وراء هذا البخل تكذيب بالإحسان ، وبخس لقدره ، واعتقاد بعدم جدواه — من يفعل هذا ، فهو على طريق الضلال ، يرصده عليه شيطان يغريه ويغويه ، ويدفع به دفعاً على هذا الطريق .. وهذا يعنى أن الله سبحانه وتعالى يُيَسّر لكل إنسان طريقَه الذى يضع قدمه عليه.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » (٣٩ : الأنعام) أى من يشأ الله إضلاله . أخلى بينه وبين نفسه ، على طريق الضلال ، وقيض له شيطاناً ، فهو له قرين، ورفيق ، على هذا الطريق كما يقول سبحانه: «ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » (٣٦ : الزخرف) .. ومن يشأ الله هدايته أقام وجهه على طريق الهدى ، وزوده بالزاد الطيب الذى يعينه على مواصلة السير فيه .. وفى هذا يقول الرسول الكريم : « اعملوا فكلٌّ مُيَسرٌ لما خُلق له .. »

والعُسرى : ضد اليسرى . وهى من العسر ، والتعقيد ، بخلاف اليسرى فإنها من اليسر والسهولة . . وسميت طريق الضلال « عسرى » لأنها طريق مظلم ، لا مَعْلَمَ من معالم الهدى فيه ، وإن صاحبه ليظل يَخبِط فى ظلام ، ويتردّى فى معاثر حتى يرد مورد الهالكين .. أما طريق الهدى ، فهى طريق واضحة المعالم ، لا يضل سالكها أبداً . . « أفمن يمشى مكبًّا على وجهه أهدى أمَّن يمشى سويًّا على صراط مستقيم » (٢٢ : الملك)

وقوله تعالى :

* « وما يغنى عنه ماله إذا تردّى »

أى أن الذى بخل بماله ، وضن بالإنفاق منه فى وجوه الخير ، لن ينفعه هذا المال الذى أمسكه، ولن يجد منه عونا ، إذا هو تردّى فى هاوية الجحيم ! .

والتردى : الهُوِىّ والسقوط من عَلٍ .

وقوله تعالى:

* « إن علينا للهدى » .

أى إن علينا أن نبين للإنسان طريق الهدى،ونكشف له عنه ، بما أودعنا فيه من عقل ، وما بعثنا إليه من رسل ، وما أنزلنا من كتب .. فهذه كلها أنوار كاشفة تكشف للإنسان عن وجه الحق والخير ، وعن وجوه الضلال والشر .. ثم إن للإنسان أن يختار الطريق الذى يسلكه . .

فالهدى ، غير الهداية .. ولهذا جاء النظم القرآنى : « إن علينا للهدى » ولو جاء هكذا : « إن علينا للهداية » لكان على الله أن يهدى الناس جميعا ، وأن يكون ذلك على سبيل القهر والإلزام ، وهذا مالم يقع فى حكمة الله ، ولم يكن من تدبيره سبحانه وتعالى .. بل جعل الله للإنسان كسبا يكسبه بإرادته ، وعملا يعمله باختياره ،حتى يحقق وجوده كإنسان ، ويثبت ذاتيته كخليفة لله على الأرض .. وبهذا يستأهل الثواب والعقاب ! ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » (١٣ : السجدة) . . وهذا لايتعارض مع مالله سبحانه من مشيئة مطلقة غالبة .. ولكنّ مشيئة الله تدور فى فلكها مشيئةُ الإنسان ، التى بها يقضى فى أموره ، ويأخذ الطريق الذى يختاره ويرضاه . .

فالإنسان — فيما يرى نفسه — مطلق المشيئة ، وإن كان مقيداً ، حرٌّ الإرادة ، وإن كان مجبراً . .

وقوله تعالى :

* « وإن لنا للآخرة والأولى » . .

المفسرون مجمعون على أن الآخرة ، هى الحياة الآخرة ، وأن الأولى هى الحياة الدنيا . .

والرأى عندنا — والله أعلم — أن الآخرة والأولى ، هما اليسرى والعسرى ، اللتان أشار إليهما سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة . . وفى ذلك إشارة إلى أن اختيار الإنسان لليسرى أو العسرى ، وإن بدا أنه اختيار مطلق ، هو مقيد بمشيئة الله ، محكوم بإرادته ، إذ كلٌّ مردّه إلى الله ، فى واقع الأمر ، وكلٌّ صائرٌ إلى حُكمه ، وما قضى به فى عباده : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » (٢٩ : التكوير) . . « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » (٣٩ : الأنعام) . .

وقوله تعالى:

* « فأنذرتكم ناراً تلظى * لا يصلاها إلا الأشقى * الذى كذب وتولى » . .

وهذا مما أشار إليه سبحانه وتعالى فى قوله : « إن علينا للهدى » . . ومن هذا الهدى ما أنذر الله به عباده ، على يد رسله ، من عذاب أليم فى الآخرة ، لمن رأى الضلال ، وسلك مسالكه ، ورأى الهدى ، فحاد عنه ، وصرف نفسه عن طريقه . .

وقوله تعالى :

* « وسيجنبها الأتقى * الذى يؤتى ماله يتزكى * وما لأحدٍ عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى » . .

والسلامة من هذا البلاء ، والنجاة من ذلك العذاب ، إنما هى لمن اتقى الله ، وخاف عذابه ، وأنفق المال طالباً زكاةَ نفسه ، وتطهيرها ، مبتغياً بذلك وجه ربه الأعلى ، المالك كلّ شىء ، القائم على كل شىء ، لا يريد بما أنفق جزاءً ولا شكوراً من أحدٍ من عباد الله .. فمن فعل ذلك ابتغاء وجه الله ، أرضاه الله وأقرّ عينَه بما عمل . . إنه أرضى ربه ، فكان حقًّا على الله أن يرضيه . .

وفى لفظ « الأشقى » و « الأتقى » ما يفيد المبالغة فى كل من الشقوة والتقوى ، وفى هذا مايدعو الشقى إلى التخفف مما يزيد فى شقوته ، حتى لايزداد بذلك عذابُه ، كما يدعو التقىّ أن يزداد فى تقواه ما استطاع ، حتى يزداد بذلك بعداً من النار ، وقرباً من الجنة . .

* * *

(٩٣) سورة الضحى

نزولها : مكية .. نزلت بعد سورة الفجر ..

عدد آياتها : إحدى عشرة آية ..

عدد كلماتها : أربعون كلمة ..

عدد حروفها : مائة واثنان وسبعون حرفاً ..

مناسبتها لمـــا قبلها

أقسم سبحانه في سورة « الليل » ، بالليل إذا يغشى ، وبالنهار إذا تجلى . . وبدأ بالقسم بالليل ، ثم أعقبه بالقسم بالنهار . .

وهنا يقسم الله سبحانه بالنهار أولا « والضحى » ثم بالليل ثانياً .. « والليل إذا سجى » وبهذا يتوازن الليل والنهار ، فيقدّم أحدُهما في موضع ويقدم الآخر في موضع ، ولكل من التقديم والتأخير في الموضعين مناسبته . . وقد أشرنا من قبل إلى المناسبة في تقديم الليل على النهار في سورة الليل ، وسنرى هنا المناسبةَ في تقديم النهار على الليل . .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١١)

* « وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى »

الضحى : أول النهار وشبابه ، حيث تعلو الشمس على أفقها الشرقى ، فتبسط ضوءها على الوجود . .

« والليل إذا سجى » . . سجا الليل ، يسجو ، سَجْوًا ، وسُجُوًّا ، أى سكن ، وهدأ ، حيث تسكن فيه حركة الحياة ، كما يسكن موج البحر ، وينطوى صخبه وهديره ، وهذا يعنى الدخولَ فى الليل إلى حدّ استوائه ، كالدخول فى النهار إلى وقت الضحى ، حيث يسفر وجه النهار على تمامه وكماله . .

قيل إن هذه السورة نزلت بعد فترة انقطع فيها الوحى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى لقد اتخذ المشركون من ذلك مادة للسخرية من النبي ، وأن ربَّه ـ الذى يقول إنه يوحِى إليه بما يحدثهم به ـ قد قَلاَه ، أى هجره ، كرها له وبغضا ! !

وفى القسم بالضحى ، إشارة إلى مطالع شمس النبوة ، وأن مطلعها لا يمكن أن يقف عند حد الضحى الذى بلغته فى مسيرتها ، بل لا بد أن تبلغ مداها ، وأن تتم دورتها . . فالشمس فى مسيرتها ، لا يمسكها شىء إذا طلعت .

وفى القَسَم بالليل بعد الضحى ، وإلى سجوّ هذا الليل وسكونه — إشارة أخرى إلى أن فترة انقطاع الوحى ، ليست إلا فترة هدوء ، واستجمام يجمع فيها النبي نفسه ، ويلمّ فيها خواطره ، بعد هذا النور الغامر الذى بهره ، وهز أعماق نفسه . . وإن بَعْد هذا الليل الهادئ الوادع نهاراً ، مشرقا وضيئاً . . فهكذا يجرى نظام الكون ، على ما أقامه الصانع الحكيم .

يقول الأستاذ الإمام محمد عبده : « وليس فى نسق السورة ما يشير إلى أن المشركين أو غيرهم بغرضٍ من الخطاب . . ومن أين كان للمشركين أن يعلموا فترة الوحى ، فيقولوا أو يطعنوا ، ولكن ذلك كان شوق النبى — صلى الله عليه وسلم إلى مثل ما رآى وما فهم عن الله ، وما ذاق من حلاوة الاتصال بوحيه . . وكل شوق يصحبه قلق ، وكل قلق يشوبه خوف » . .

وهذا ما نقول به ، ونرضى عنه . . وقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل جبريل ، لم لا يداوم الاتصال به ويكثر من الوحى إليه ، فنزل قوله تعالى : « وما نتنزل إلا بأمر ربك . . » (٦٤ : مريم)

وقوله تعالى : « ما ودعك ربك وما قلى »

هو المقسَم عليه ، وهو أن الله سبحانه لم يودع النبى ، وداعاً لا لقاء بعده ، بل إن الله معه، فى كل لحظة من لحظات حياته، ومع كل نَفَس من أنفاس صدره . وأن انقطاع الوحى فى تلك الفترة لم يكن عن قِلَى وهجر من الله سبحانه وتعالى له ، فهو الحبيب إلى ربه ، المجتبى إليه من خلقه . .

وفى توكيد الخبر بالقسم ، مزيد من فضل الله ورحمته ، للنبى الكريم ، ورفع لمنزلة النبىّ عند ربّه ، حتى لينزل منزلة الحبيب من حبيبه .

وقوله تعالى :

« والآخرة خير لك من الأولى »

الآخرة ، خاتمة أمر النبى مع النبوة ، والأولى ، مبدأ أمره معها . .

أى أن آخرة أمر النبى مع رسالته ، خير من أولها . . فإذا بدأت رسالته بهذا العناء المتصل ، الذى واجهه من عناد قومه ، ومن تأبيهم عليه ، وتكذيبهم له ، وملاحقته هو والمؤمنون معه بالأذى ، والضر ، وبالحرب والقتال — فإن خاتمة هذه الرسالة ستكون نصراً مؤزّراً له ، وفتحاً عظيما للدعوة ، وخزياً وإذلالاً للضالين المعاندين . .

قوله تعالى:

* « ولسوف يعطيك ربك فترضى »

أى ولسوف يلقاك ربك بالعطايا والمِنن، حتى تقر عينك، وينشرح صدرك، وذلك بما ينزل عليك من آيات ربك، وبما يحقق لدعوتك من نصر وتمكين.

وقوله تعالى:

* « ألم يجدك يتيما فآوى، ووجدك ضالاًّ فهدى، ووجدك عائلا فأغنى »

هذا من بعض ما أعطى الله النبي، فيما مضى، ولسوف يعطيه أكثر وأكثر فيما يستقبل من الحياة..

فإذا نظر النبي إلى نفسه، من مولده إلى يومه هذا الذى لقيته فيه تلك الآيات ـ وجد أنه وُلد يتيما، فكفله الله، وأنزله من جده عبد المطلب، وعمه أبى طالب، منزلة أعز الأبناء وأحبهم إلى آبائهم.. ثم إذا نظر مرة ثانية إلى شبابه، وجد أنه كان قلق النفس، منزعج الضمير، مما كان يرى من الحياة الضالة التى يعيش فيها قومه، ولم يكن يدرى كيف يجد لنفسه سَكنا، ولقلبه اطمئنانا وسط هذا الجوّ الخانق، فهداه الله إلى الخلوة إلى نفسه فى غار حراء، والابتعاد عن قومه، والانقطاع إلى ربه متحنّثا متعبداً، متأملا متفكراً.. وقد ظل هذا شأنه إلى أن جاءه وحى السماء، فسكب السكينة فى قلبه، والطمأنينة فى نفسه.. إنه صلوات الله وسلامه عليه، كان يرى أن ما عليه قومه ليس مما يَدين به عاقل، أو تستقيم به حياة العقلاء، ولم يكن يدرى ـ صلوات الله وسلامه عليه — كيف

يغير من مسيرتهم الضالة ، ولا كيف يقيم هو نفسَه هو على شريعة يبشّر بها فى الناس ، كما يقول سبحانه : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان . . » (٥٢ : الشورى)

ثم إذا أعاد النبي النظر إلى نفسه مرة ثالثة ، وجد أنه كان فقيراً عائلا ، أى كثير العيال ، فأغناه الله ، وسدّ حاجة عياله ، من مال زوجه ، وأم أبنائه ، السيدة خديجة رضى الله عنها . . وفى هذا ما يشير إلى فضل السيدة خديجة ، وإلى أنها نعمة من نعم الله على النبى . . هذا كله يراه النبى — صلوات الله وسلامه عليه — من نفسه ، ماضياً ، وحاضراً . .

قوله تعالى :

* « فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث » . .

هو تعقيب على هذا الإحسان الذى أفاضه الله وما سيفيضه على نبيه ، وأن من حق هذا الإحسان أن يقابل بالحمد والشكران لله رب العالمين . . وقد صرف الله سبحانه وتعالى هذا الحمد، وذلك الشكران إلى الضعفاء ، والمحتاجين من عباده ، فيكون حمده وشكره ، بالإحسان إليهم ، والرعاية لهم . فلا نَهْرَ لليتيم ، ولا كسر لخاطره ، ولا ترك لمرارة اليتم تنعقد فى فمه . . وإن أولى الناس برعاية اليتيم ، وجبر خاطره ، مَن عرف اليُتم ، ثم كفله الله . . وإنه لا نهر أى لا زجر للسائل ، وهو من يقف موقف من يسأل ، عما هو محتاج إليه ، من طعام يسدّ به جوعه ، أو علم يغذى به عقله ، أو هدًى يعرف به طريق الخلاص لروحه . . فإن السائل ضعيف أمام المسئول ، ومن حقه على القوى أن يتلطف معه ،

ويرفق به .. إنه أشبه بالضالّ الذى لا يعرف الطريق ، والمسئول هو موضع أمله ، ومعقِد رجائه ، فى أن يخرجه من هذا الضلال ، وأن يقيمه على الطريق المستقيم .. وأولى الناس بهذا من عرف الحيْرة ، ونَشَد وجه الهداية ، فأصابها وقَدَرها قدْرها ..

وقوله تعالى :

* « وأما بنعمة ربك فحدث » .

نعمة الله هنا ، هو القرآن الكريم ، وهو من أجلّ وأعظم ما أنعم الله به على النبى ، وهو نعمة عامة شاملة ، وإنه لمطلوب من النبى أن ينفق منهـا على الناس ، وأن يسعهم جميعاً فيها ..

فهى نعمة سابغة ، لا تنفد على الإنفاق . فليحدّث النبى الناس بها ، وليكثر من هذا التحديث بها ، والإنفاق منهـا : « فذكِّرْ إن نفعت الذكرى » (٩ : الأعلى) . . « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » (٤٥ : ق) . . « فذكر إنما أنت مذكر » (٢١ : الغاشية) . . فهذا التحديث بالقرآن ، هو التذكير به ، وفى التذكير به هدًى ورحمة للناس ، حيث يجدون فى آياته شفاء الصدور ، وجلاء البصائر ، ورَوْحَ النفوس .

* * *

(٩٤) سورة الشرح
وتسمى سورة الانشراح

نزولها : نزلت بمكة بعد سورة « الضحى »

عدد آياتها : ثمان آيات

عدد كلماتها : ست وعشرون كلمة .

عدد حروفها : مائة وخمسون حرفا .

مناسبتها لما قبلها

هذه السورة متممة لسورة « الضحى » قبلها ، فكلتاهما عرض لما أنعم الله به على النبى ، وتذكير له بهذه النعم ، وتوجيه له إلى ما ينبغى أن يؤديه لها من حقّ عليه .. وهكذا شأن كل نعمة يُنعم الله بها على الإنسان ، لا تتم إلا بالشكر للمنعِم ، وبالإنفاق منها على كل ذى حاجة إليها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ ـ ٨)

* « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب (٨) »

التفسير :

* « ألم نشرح لك صدرك »

الاستفهام هنا تقريرى ، يفيد توكيد الخبر الواقع عليه الاستفهام . . فهو خبر ، ولذلك عُطف عليه الخبر وهو قوله تعالى بعد ذلك : « ووضعنا عنك وزرك » . . أى « شرحنا لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك »

وشرْح الصدر ، هو إخلاؤه من وساوس الحيْرة والقلق ، وإجلاء خواطر الهمّ ، والغم التى تعشش فيه . . وبهذا يتسع لبلابل الفرح والبهجة أن تصدح فى جنباته ، وأن تغرد على أفنانه . .

وإنه ليس كالهمّ قبضاً للصدور ، وخنقاً للأنفاس ، وإظلاماً للمشاعر ، وتجميداً للعواطف . .

إن المهموم المكروب ، مكظوم الصدر ، مبهور الأنفاس . . على عكس الخلىّ من الهموم ، المعافَى من الآلام . . إن صدره منبسط يستقبل أنسام الحياة فيرتوى بها ، وينتعش بأندائها العطرة ، ثم يحسو منها كما يحسو الطير من جداول الربيع ، تسيل من عيون الجبال !

هذا هو ما نفهم من قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك »

أما ما يُروى من أخبار شرح صدر الرسول الكريم ، بما يشبه العملية الجراحية ، على يد مَلَكين كريمين يقال إن الله سبحانه بعثهما لهذه المهمة ، فشقّا صدر النبى ، وفتحا قلبه ، وغسلاه ، وملآه حكمة وعلماً ، فهذا مما ينبغى مجاوزته ، وعدم الوقوف طويلا عنده ، إذ ليس هذا القلب الصنوبرى من اللحم والدم ، هو مستودع العلم والحكمة ، وعلى فرض أنه هو مستودع العلم والحكمة ، فإنه ما كانت قدرة الله تعالى بالتى تعالج هذا الأمر مع النبى على هذا الأسلوب

الذى توصل العلم الحديث إلى ما هو خير منه . . ولا ندرى كيف تحمل كتب التفسير والحديث مثل هذه الأخبار ، التى إذا وزنت بميزان العقل لم يكن لها وزن فى معايير الحقيقة والواقع ، الأمر الذى إذا وقف عليه غير الراسخين فى العلم ، أشاع الشك عندهم فى حقائق هذا الدين كلها ، وغطى دخان مثل هذه المقولات الساذجة الملفقة على حقائقه ، وحجب الرؤية الصحيحة عن كثير من الأبصار !!

إن الأمر يحتاج إلى نظرة فاحصة من علماء المسلمين جميعاً ، وإلى كلمة سواء بينهم فى هذه المرويات المتهافتة ، التى تضاف إلى الصفوة المختارة من صحابة رسول الله ، والذين اتخذ الوُضّاع والمنافقون من مكانتهم فى نفوس المسلمين ، مدخلا يدخلون به عليهم ، ويروّجون عندهم هذا الزور من القول ، معزواً إلى كبار صحابة رسول الله ، وإلى أعلام الإسلام ، ومصابيح هداه !!

وفى القرآن الكريم أكثر من آية تدل على أن شرح الصدر ، هو تفتّحه للحياة ، وإقباله على معالجة أمورها ، فى رضاً ، وشوق ، وإقبال . . وفى هذا يقول الله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » (٢٢: الزمر) ويقول سبحانه : «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يُرد أن يضله يجعل صدره ضيّقاً حرَجاً كأنما يصعّد فى السماء »(١٢٥ : الأنعام) وعلى لسان موسى عليه السلام ، يقول الله تعالى : « رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى » (٢٥ — ٢٧ : طه)

وشرح الصدر فى هذه المواضع كلها ، هو بمعنى استجابته للخير الذى يُدعى إليه ، وتقبله له ، واتساعه للكثير منه .. وضيقه ، هو عدم تقبله للخير ، واختناقه به ، كما يختنق الصدر بالروائح الخبيثة المنكرة !

فلم إذن يكون شرح الله سبحانه وتعالى لصدر رسول الله على هذه الصورة التى تشبه الملهاة ، أو المأساة ؟

وأكثر من هذا ، فإن قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك » يقابله فى آية أخرى قوله تعالى : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » (٩٧ : الحجر) فهل كان ضيق الصدر بعملية جراحية كعملية شرحه ؟ إن هذا من ذاك سواء بسواء !

وعلى أىٍّ ، فإنه إذا صحت هذه المرويات عن شق صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه ينبغى ألا تحمل على محاملها المادية الظاهرة ، بل ينبغى أن يُلتمس لها وجه من التأويل تُقبل عليه .

وقوله تعالى :

* « ووضعنا عنك وزرك . الذى أنقض ظهرك . »

الوِزر : الحمل الثقيل ، من الهموم ، ونحوها . .

ونقض الظهر : هو نَوْءه بالحِمل الثقيل ، وانحناؤه تحته . .

وهنا سؤال : أكان النبى صلى الله عليه وسلم يحمل أثقالا على ظهره ، أم أنها أثقال المعاناة النفسية التى كان يعانيها من عناد قومه ، وخلافهم عليه ؟ وإذا كان الله سبحانه ، قد شرح صدر النبى هذا الشرح المادى الذى شق به صدره ، وفتح به قلبه ـ فهل فعل سبحانه مثل هذا بظهره ، فشدّ أعصابه ، وقوّى فِقاره ؟ أليس هذا من ذاك ؟

وقوله تعالى :

* « ورفعنا لك ذكرك »

أى أجرينا ذكرك الحسن على الألسنة ، وجعلنا لك ذكراً عالياً باقياً على الزمن . . فما آمن مؤمن بالله إلا جعل الإيمان بنبوّتك من تمام إيمانه بالله ، وإنه لا يؤمن بالله من لم يؤمن بأنك رسول الله ، يقرِن ذكرك بذكر الله .

فأىّ ذِكر أعظم من هذا الذِكر ؟ وأى قَدْر مثل هذا القدر لبشرٍ غيرك ؟

وإنا إذ ننظر فى قوله تعالى فى سورة : « الضحى » :

« ألم يجدك يتيما فآوى ؟ ووجدك ضالاً فهدى ؟ ووجدك عائلا فأغنى ؟ »

ثم ننظر فى قوله تعالى فى سورة « الانشراح » :

« ألم نشرح لك صدرك ؟ ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك ؟ » :

إذ ننظر فى هذه الآيات وتلك معاً ، نجد تطابقاً فى المعنى ، وتقريراً له . .
فهذا اليتيم الفقير ، يُؤْويه الله سبحانه ، ويرفع ذكره فى العالمين ، ويجرى الحديث الطيب عنه على كل لسان ، أبدَ الدهر . .

والعهد باليُتم والفقر ، أن يقيما الإنسان فى أدنى درجة فى سلم المجتمع الإنسانى ، حيث يلفه الخمول والضياع ، من مولده إلى مماته . .

وهذا الضال الذى استبدّت به الحيرة ، ورَهِقه البحث عن طريق الخلاص والنجاة ، قد هداه الله ، وجعله مصباح هدى للعالمين ، فوضع بذلك عن كاهله هذا العبء الثقيل الذى كان ينوء به ، من حيرته فى أمره وأمر الظلام المنعقد على قومه .. والعهد بالحائرين أن تَعْلَقَ بهم الحيرة ، وأن تترك بصماتها الواضحة عليهم ، حتى بعد شفائهم مما كان قد ألمّ بهم من حيرة وقلق .

وهذا الفقير المُعِيل ، وكان حسبه أن يجدَ الغنى الذى يسد مفاقره ، ويشبع جوعه وجوع عياله ـ قد أغناه الله ، وكفل له ولعياله لقمة العيش . . ثم لم يقف غناه عند هذا ، بل شرح الله صدره ، وأودع فيه مالاً تتسع له كنوز الدنيا كلها ، بما نزل عليه من آيات ربه ، وبما أراه ربه من مقامه عنده ، وبما بارك عليه فى أسرته التى تضم كل مسلم ومسلمة فى مشارق الأرض ومغاربها ، يَعدّها على

الزمن بهذا الغذاء الذى لاينفد أبدَ الدهر ، من ثمرات الإيمان ، وزاد التقوى .. فأى شرح للصدر ، وأى غبطة ورضا ومسرة تعمر جوانبه ، أكثر من هذا وأعظم ، وأبقى ؟

قوله تعالى :

* « فإن مع العُسر يُسراً ، إن مع العسر يسراً » .

العُسر : الضيق ، والشدة .. واليُسر : السعة والرخاء ..

وهكذا كان تدبير الله سبحانه وتعالى مع النبي الكريم ، بدأ أمره بالعسر والضيق ، ثم كانت عاقبة أمره إلى اليسر والسعة ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وللآخرة خير لك من الأولى » ، وإنما الأمور بخواتيمها .. فما أجمل العافية بعد المرض ، وما أطيب الصحة بعد الاعتلال ، وما أهنأ الشبع بعد الجوع ، والرىّ بعد الظمأ ! !

وهكذا فى كل مايسوء ويسر .. إذا جاءت المسرة بعد السوء ، عظُم وقعها ، وجمل أثرها ، وعفّى على كل أثر للمساءة والمضرة :

كأن الفتى لم يعْرَ يوماً إذا اكتسى ولم يكُ صعلوكا إذا ماتمولا !

وعكس هذا صحيح .. فإنه ما أثقل المرض بعد العافية ، والاعتلال بعد الصحة ، وما أقسى الجوع بعد الشبع ، والظمأ بعد الرى .. وهكذا فى كل مساءة تعقب المسرة ، حيث يذهب بها كل شىء كان جميلا طيباً ، ثم لا يبقى إلا وجهها الكريه البغيض ، يؤلم ، ويورق ، ويُضنى ..

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يَسْمُر بمكة سامر

فالذين يمشون فى أول حياتهم على الشوك ، ويغسلون أجسادهم بعرق الكفاح والصبر ، يجنون أطيب الثمرات ، ويضعون أقدامهم على مواقع العزة والجادة ،

ويتحلّون بحلل الكرامة والفخار.. أما الذين يستقبلون الحياة مستنيمين فى ظلها ، متجنبين الخوض فى غمراتها ، متخففين من حمل أعبائها وأثقالها ، فهيهات أن تسلمهم الحياة آخر الأمر إلى غير المهانة والضياع . .

تريدين إدراك المعالى رخيصةً ولابد دون الشهد من إبر النحل !

وهكذا الشأن فيما بين الدنيا والآخرة . . فمن حمل نفسه على المكروه فى الدنيا ، نزل منازل النعيم والرضوان فى الآخرة .. ومن وضع فمه فى ثدى الدنيا يرضع منها حتى يضع قدمه على طريق الآخرة ـ انقطع به مورد فطامه هناك ، وكان من الهالكين . .

وفى تكرار الآية ، بدون حرف عطف ، توكيد للخبر الذى ساقته ، وتقرير للحكم الذى قضت به .. « فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً » .

يقول المفسّرون والبلاغيوّن : إن المعرفة إذا كررت كانت هى هى ، وأن النكرة إذا كُررت كان اللفظ الثانى غيرَ الأول .. وهذا يقولون : إن كلمة « العسر » ـ وهى معرفة ـ هى عسر واحد بعينه فى الموضعين ، وأما كلمة « يسر » ـ وهى نكرة ـ فإنها يسر بعينه فى كل موضع ، ومن هنا قالوا « لن يغلب عُسر يسريْن » ـ يعنون بذلك أن العسر دائماً يواجهه يسران ، وأنهما لابد أن يقهراه ويغلباه ، ويأتون على هذا بحديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لن يغلب عسر يسرين » .

هذا وجه يراه العلماء فى هذا التكرار ..

ووجه آخر ، نراه نحن ـ والله أعلم ـ وهو هذه المعيّة « مع » ، التى تحمل مع كل عسر يسراً مصاحباً له، مندسًا فى كيانه . . «إن مع العسر يسراً » ـ أى إن العسر ـ أىّ عسر ـ لايلقَى الإنسانَ إلا ومن محامله اليسر ، الذى يعمل على مقاومته ، ومصارعته حتى يقهره آخر الأمر ، ويتركه صريعا ، ليأخذ اليسر

مكانه ، متمكنا ، لا ينازعه عسر !

هكذا الشدائد تتولد منها دائما مواليد الخير ، وتُستنبت فى أرضها أطيب الثمرات ، وأكرمها ، وأهنؤها . .

وهناك سؤال : إذا كان مع العسر يسر ، فهل العكس صحيح ، وهو أن يكون مع اليسر عسر ؟

وكلا . . فإن اليُسر رحمة من رحمة الله . . إنه من موارد الحق ، والخير . . وما كان كذلك كان صفواً من كل كدر ، خالصاً من كل سوء . . فاليسر لا يحمل فى كيانه أبداً شيئا ما يكدره . . إنه من العالم العلوى ، أشبه بماء المطر ، لا يخالطه شىء من الملح . . أما العُسر فهو أشبه بالماء الملح ، يحمل فى كيانه الماء العذب . .

اليسر جوهر ، والعسر عَرَض ! ومن هنا نجد مع كل عسر يسراً ، ولا نجد مع كل يسر عسراً . . ومن هنا أيضا يلد العسر يسراً ، ولا يلد اليُسر إلا يسراً .

ومفهوم العسر واليسر هنا ، هو المفهوم العام المطلق لهما ، لا المفهوم الذى يوزن بميزان شخصى ، ويقوم على اعتبـــار فردى . . وهذا المفهوم المطلق — العسر واليسر — إذا أمعنا النظر فيه ، نجد أنه لا عسر أصلا ، وأنه لا يدخل فى نظام الوجود العام ، الذى ينتظم الموجودات كلها ، ويجعل منها جميعاً نغماً متسق الألحان . . « ما ترى فى خَلق الرحمن من تفاوت » . . (٣ : الملك)

وقوله تعالى :

* « فإذا فرغت فانصب • وإلى ربك فارغب » .

هو تعقيب على قوله تعالى : « فإن مع العسر يسراً • إن مع العسر يسراً »

أى أنه إذا كان من شأن العسر أن يصحبه يسرٌ ، ومن شأن النّصَب والتعب أن تعقبهما الراحة والرضا ، فجدير بك أيها النبى — كما هو جدير بكل إنسان —

أنك إذا فرغت من أى موقع من مواقع الكفاح ، والجهاد ، فلا تركن إلى الراحة ، بل افتح جبهة جديدة للكفاح والجهاد ، فإنه بقدر مايمتد بك هذا الطريق الشاق المسير ، بقدر ماتحصل من خير ، وبقدر ماتبلغ من علو شأن ورِفعة قدر ..

وقوله تعالى : « وإلى ربك فارغب » ـ إشارة إلى أن هذا الجهاد والكفاح، وما تحتمل فية النفس من نَصَب وتعب ـ إنما يعطى هذا الثمر الطيب ، إذا كان متجَهه إلى الله ، وكانت غايته مرضاة الله ، والرغبة فيما عنده .. أما النصَب والتعب فيما لا يراد به وجهُ الله ، والدار الآخرة ، فهو عَنَاء ، وبلاء . إن النصب والتعب فى مغارس الحق والخير ، يزكو نباته ، ويطيب ثمره ، ويكثر خيره ، وأما النصب والتعب فى أودية التيه والضلال ، فذلك مالا ينبت ـ إن كان له نبات ـ إلا الشوك والحَسَك .

---

(٩٥) سورة التين

نزولها : مكية .. نزلت بعد سورة « البروج » .

عدد آياتها : ثمانى آيات .

عدد كلماتها: أربع وثلاثون كلمة .

عدد حروفها : مائة وخمسون حرفاً .

مناسبتها لما قبلها

خُتمت سورة « الانشراح » بالدعوة إلى الكد والنصب ، فى الحياة الدنيا ، ليبنى الإنسان بذلك دار مُقامه فى الآخرة ، ويعمرها بما يساق إليه فيها من نعيم الله ورضوانه .

وبدئت سورة « التين » بهذه الأقسام من الله سبحانه وتعالى ، لتقرير حقيقة الإنسان وتذكيره بوجوده ، وأن الله سبحانه خلقه فى أحسن تقويم ، وأودع فيه القوى التى تمكّن له من الاحتفاظ بهذه الصورة الكريمة ، وأن يبلغ أعلى المنازل عند الله ، ولكن ميل الإنسان إلى حب العاجلة ، قد أغراه باقتطاف اللذات الدانية له من دنياه ، دون أن يلتفت إلى الآخرة ، أو يعمل لها ، فردّ إلى أسفل سافلين . . وقليل هم أولئك الذين عرفوا قدْر أنفسهم ، فعلوْا بها عن هذا الأفق الضيق ، ونظروا إلى ماوراء هذه الدنيا .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ ـ ٨)

* « وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَـٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « والتين والزيتون • وطور سينين • وهذا البلد الأمين »

اختُلف فى معنى التين والزيتون ، وكثرت مقولات المفسرين فيهما ، ويروون عن ابن عباس أنه قال فيهما : «هو تينكم الذى تأكلون ، وزيتونكم

الذى تَعْصِرون منه الزيت ، قال تعالى : « وشجرةً تخرج من طورسَيْنَاَء تنبت بالدُّهنِ وصِبغ للآكلين » (٤٠ : المؤمنون) .

ويُرْوَى عن أبى ذرّ أنه أهدى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم سَلٌّ من تين ، فقال : « كلُوا » ، وأكل منه ، ثم قال : « لو قلتُ : إنّ فاكهةً نزلت من الجنة لَقُلْتُ هذه ، لأن فاكهة الجنة بلا عجم[1] ، فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النِّقْرِس » . . وقيل التين المسجد الحرام ، والزيتون المسجد الأقصى ، وقيل : هما جبلان بالشام . . وقيل كثير غير هذا .

ورجّح القرطبي أنهما التين والزيتون على الحقيقة ، وقال : « لا يُعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل » ! .

ولكن إذا أخذنا بالقول بأن التين والزيتون هما هاتان الثمرتان ـ لا نجد جامعةً بين التين والزيتون ، وبين طور سينين والبلد الأمين . . وعادة القرآن أنه لا يَجمع بين الأقسام إلا إذا كانت بينها علاقة تَشَابه أو تضادّ ، وهنا لا نجد علاقة واضحة بين هاتين الفاكهتين ، وبين طور سينين والبلد الأمين ، اللهم إلا إذا قلنا : إن طور سيناء ينبُت فيه التين والزيتون ، ويطيب ثَمره ، فتكون العلاقة بينهما علاقة نسبة إلى المكان، ويقوّى هذه النسبة أن القرآن الكريم أشار فى موضع آخر إلى منبِت شجرة الزيتون ، وأن طور سيناء هو أطيب منبت لها ، إذ يقول سبحانه : « وشجرةً تخرج من طور سيناء تنبت بالدُّهنِ وصِبغٍ لِلآكلين » . (٢٠ : المؤمنون)

وقيل : إن التين والزيتون فاكهتان ، ولكن لمْ يقسم بهما هنا لفوائدهما ، بل لما يذكّران به من الحوادث العظيمة التى لها آثارها الباقية

---

(١) أى بلا نوى .

وذلك أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يذكّرنا بأربعة فصول من كتاب الإنسان الطويل ، من أول نشأته إلى مبعث النبي صلى الله عليه وسلم .

فالتين ، إشارة إلى عهد الإنسان الأول ، فإن آدم — كما تقول التوراة — كان يستظل فى الجنة بشجر التين ، وعند ما بَدَت له ولزوجه سوءاتُهما طفقا يخصفان عليهما من ورق التين .. فهذا أول فصل من فصول حياة الإنسان ..

والزيتون ، إشارة إلى الفصل الثانى ، وهو عهد نوح ، وذلك أنه بعد أن فسد البشر ، وأهلك الله من أهلك بالطوفان ، ونجّى نوحاً ومن معه فى السفينة، واستقرت السفينة على اليابسة— نظر نوح — كما تقول التوراة - إلى ما حوله ، فرأى الحياة لاتزال تغطى وجه الأرض ، فأرسل حمامة تأتى له بدليل على انحسار المياه عن وجه الأرض ، فجاءت إليه وفى فمها وريقات من شجر الزيتون ، فعرف أن المياه بدأت تظهر على وجه الأرض من جديد !

أما طور سينين ، فهو إشارة إلى الفصل الثالث من حياة الإنسان ، وهو ظهور الشريعة الموسوية ، وقد كانت تلك الشريعة دعوة لكثير من أنبياء الله ورسله إلى عهد المسيح عليه السلام ، الذى كان خاتمة هذه الشريعة .

وأما البلد الأمين — وهو مكة — فقد كان مطلع الرسالة الخاتمة لما شرع الله للناس ، وبها يختتم الفصل الأخير من حياة الإنسان على هذه الأرض ..

وهذه كلها أقوال متقاربة ، يمكن أن يؤخذ بأىٍّ منها ، أو بها جميعها .

[مسيرة الإنسان .. إلى أمام ، أم وراء ؟]

وقوله تعالى :

* « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين *

إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » .

هو جواب القسم ، وهو المقسَم عليه ، لتوكيده ، وتقريره بالقسم .

وفى توكيد هذا الخبر ، وهو خلْق الإنسان فى أحسن تقويم — إشارة إلى كثير ممن تشهد عليهم أفعالهم بأنهم يكفرون خَلْقهم القويم هذا ، ولا يعرفون قدره فينزلون إلى مرتبة الحيوان ، ويُسلمون قياد وجودهم إلى شهواتهم البهيمية ، غير ملتفتين إلى ما أودع الخالق فيهم من عقل حَمَل أمانة أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها ، فضيع الإنسان هذه الأمانة، ولاكها فى فمه كما تلوك البهيمة العشب . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

* « ثم رددناه أسفل سافلين » . . فلقد رُدّ الإنسان بهذه الغفلة عن وجوده الحقيقى ، إلى الوراء ، منكّساً فى خلقه ، حتى بلغ أدنى مراتب الحيوانية ، وصار وراء الحيوان الأعجم الذى تسيره طبيعته التى ركبت فيه ، على خلاف هذا الإنسان الذى غيّر فطرته ، وانتقل من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان ، فلم يصبح حيوانا ، ولم يَعُدْ إنسانا !

يقول الأستاذ الإمام محمد عبده عن الإنسان وخَلْقه فى أحسن تقويم، ورده إلى أسفل سافلين : « وما أشبهه — أى الإنسان ـ فى حاله الأولى — بثمرة التين ، تؤكل كلها ، لا يُرمى منها شىء .. والإنسان — أى فى حاله الأولى — كان صلاحاً كله ، لم يشذّ عن الجماعة منه فرد ، تلك كانت أيام القناعة بما تيسر له من العيش ، وشدة الإحساس بحاجة كل فرد إلى الآخر فى تحصيله ، وفى دفع العوادى عن النفس .. تنبّهت الشهوات بعد ذلك وتخالفت الرغبات ، فنبت الحسد والحقد ، وتبعه التقاطع ، واستشرى الفساد بالأنفس ، حتى صارت الأمانة عند بعض الحيوان ، أفضل منها عند الإنسان ، فانحطت بذلك نفسه عن مقامها الذى كان لها بمقتضى الفطرة ، وقد كان ذلك — ولا يزال — حالَ أكثر

الناس . فهذا قوله : « ثم رددناه أسفل سافلين » !

ونظرة الأستاذ الإمام هنا ، قائمة على أن الإنسان فى حال السذاجة والبداثية كان خيراً منه فى حال الحضارة والمدنية ، أو بمعنى آخر ، أنه كان فى حياة الغابة بين الحيوان ، لا يتكلف لحياته أكثر مما يتكلف الحيوان ، حيث يأكل مما يأكل الحيوان ، ويسكن فى كهوف ، وأجحار كما يسكن الحيوان ـ كان فى هذه الحياة خيراً منه فى حياة المدن ، وما ولّد له عقله فيها من قوى سخّر بها الطبيعة ، واستخرج منها كنوزها المودعة فى كيانها، وأمسك بمفاتح أسرارها ، فاستضاء بالكهرباء ، واتخذ الهواء مركباً له ، بل وصعّد فى السماء حتى وضع قدميه على القمر ، وهو بسبيل أن يضع أقدامه على الكواكب الأخرى ! !

ولو صحّ هذا الذى يقوله الأستاذ الإمام ، لكان معناه أن الحياة الإنسانية تسير إلى الوراء ، وهذا ما لا تسير عليه الحياة ، ولا ما تقتضيه سنّة التطور فى الكائن الحىّ نفسه .. فالإنسان بدأ من طين ، ثم صار خَلْقًا سويًّا، فى أطوار ينتقل فيها من أسفلَ إلى أعلى.. من التراب ، ثم النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة . . ثم .. ثم . . إلى أن يكون طفلاً ، ثم غلامًا ، ثم شابًّا ، ثم رجلا . . كذلك الشأن فى عالم النبات . . البَذْرة ، ثم النَّبتة ، ثم الشجرة ، ثم الدَّوْحة العظيمة . . وهكذا . . حتى فى عالم الجماد .

وإنه لأوْلى من هذا أن تكون هذه النظرة مقصورة على الأفراد فى أنواعها ، لا على الأنواع فى أفرادها ، بمعنى أن الأفراد تدور فى فلك محدود يكون لها فيه شروق وغروب ، وصعود وهبوط ، وازدهار وذُبول ، ونُضج وعَطَب . . أما الأنواع ـ مع ما يقع فى أفرادها من تحول وتبدّل ـ فهى سائرة إلى الأمام أبداً ، متطورة إلى ما هو أحسن وأكمل . . وشاهد

هذا الشرائعُ السماوية نفسُها ، فما كَمُلت شريعة السماء إلا فى الشريعة الإسلامية ، التى التقت مع الإنسان بعد هذه الدورات الطويلة الممتدة من مسيرة الحياة الإنسانية - فهذا هو مِعيار الإنسان ، ووزنه الذى يوزن به ! ودورة الإنسان هذه على هذه الأرض هى دورة جزيئة فى فلك الوجود ، إذا غربت شمسه على هذه الأرض ، طلعت من جديد فى عالم آخر ، هو عالم الخلود ! .

أما قوله تعالى : « فرددناه أسفل سافلين » - فهذا حكم على الإنسان فى أفراده ، لا فى نوعه ، فالإنسان - كفرد - يولد - فى أىّ زمن من أزمان الحياة الإنسانية « فى أحسن تقويم » بما أودع الخالق فيه من عقل مبصر ، وفطرة سليمة ، ثم إن كثيراً من الناس يطفئون نور عقولهم بأيديهم ، ويغتالون فطرتهم بشهواتهم ، فيفسدون وجودهم الإنسانىّ ويُرَدّون إلى عالم الحيوان ، وقليل منهم يحتفظون بوجودهم الإنسانىّ - عقلاً وفطرة - فيكونون شاهداً قائماً على أن الإنسان - فى كل زمن هو خليفة الله فى هذه الأرض ، وهو سيّد ما عليها من مخلوقات ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » . . فهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، هم الإنسان ، وهؤلاء هم الإنسان الذى يتناول من ربّه أجره الإنسان كاملًا فى الدنيا والآخرة ، وإنه لأجر يتكافأ مع هـذا الخلْق العظيم الذى خُلق عليه فى أحسن تقويم ، لا يناله غيره من عالم الأحياء . . إنه أجرٌ مقدّر بقدْره محسوبٌ بشرف خَلْقه . . أما من نزلوا عن هذا القدْر وتخلّوا عن هذا الشرف ، فلهم الأجر الذى هم أهله : « يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوًى لهم » وهل للأنعام إلا أن تُسمّن ، وتذبح ، ثم تـكون وقوداً للبطون الجائعة ؟ .

إن الوجود فى تطور ، وفى نماء ، وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى :

« يزيد فى الخلق ما يشاء » . . (١ : فاطر) . . وإن نظرة فى تاريخ الإنسانية لتريبنا أن الإنسان فى أول ظهوره على هذا الكوكب الأرضى ، كان أقربَ إلى الحيوان منه إلى الإنسان ، يسكن الغابات والكهوف ، ويعيش عاريًا أو شبه عارٍ ، لا يستره إلا ورق الشجر أو نحوه ، كما لا تزال شواهدُ من هذا قائمة فى البيئات المتخلّفة ، كما فى الزنوج ، والهنود الحمر . . فهذا الإنسان البدائى كان ـ ولا يزال ـ محكومًا بغرائزه الحيوانية . . أما هذا الإنسان الذى شهد عهد النبوّات ، فهو وليد حياة متطورة ، قطع الإنسان مسيرتَها فى مئات الألوف من السنين ، حتى أصبح أهلاً لأن يخاطب من السماء ، وأن تُناط به التكاليف الشرعية ، وأن يكون محلاً للحساب ، والثواب ، والعقاب .

والنظرة التى يُنظر بها إلى الإنسان على أن أمسه خير من يومه ، ويومه خير من غده ، وأنه سائر فى طريق يتدلّى به سُلَّمًا سُلَّمًا من السماء إلى الأرض ـ هذه النظرة خاطئة من وجوه :

فأولا : أنها نظرة محصورة فى الوجود الذاتى للإنسان . . فالإنسان فى نظرته إلى نفسه يرى أن واقعه الذى يعيش فيه ، غير محقِّق لرضاه عنه ، أيًّا كان هذا الوجود ، وأيًّا كان حظّه مما لم يظفر به غيره . . إنه يتطلع دائمًا إلى ما هو أفضل . .

وثانيًا : وتأسيسًا على هـذا ، أن عدم رضا الإنسان عن واقعه ، وتطلعه إلى المستقبل الذى لا يجد فيه ما يرضيه ـ هذا التطلع ـ يُشرف به على عالم مجهول ، لا يدرى ما سيطلع عليه منه ، فلا يجد إلا الماضى الذى يعيش فى ذكرياته ، وأنه حين ينظر إلى هذا الماضى لا يذكر منه إلاّ ما كان موضع مسرّته ورضاه . . أما ما يسوءه منه فإنه يختفى من حياته ، ولهذا كان الحنين إلى الماضى رغبة منبعثة من صدور كل إنسان .

وثالثاً : وتأسيساً على هذا أيضاً ـ كان هـذا الإحساس الذى يجده الإنسان دائماً من تقديس الماضى وتمجيده ، وأنه بقدر ما يَبعُد الزمن فى أغوار الماضى ، بقدر تعدّد ما يلبس من أثواب التقديس والتمجيد .

فالحياة بخير ، والإنسانية فى طريقها من الأرض إلى السماء ، وليست فى هبوط من السماء إلى الأرض !!

قوله تعالى :

* « فما يكذبك بعدُ بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين » .

الدِّين هنا ، هو ما يَدين به الإنسانُ لخالقه الذى خلقه فى أحسن تقويم ، وهو الاحتفاظ بهذه المنزلة العالية التى له فى عالم المخلوقات ، بما له من عقل مبصر ، وفطرة سليمة .

والمراد بالتكذيب ، هو إنكار هذا العقل ، وعدم الإصغاء إليه والتخلّى عن هذه الفطرة ، وتعطيل وظيفتها .

والاستفهام إنكارى ، يكشف عن حال أولئك الذين خرَجوا عن إنسانيتهم تلك ، وتحوّلوا إلى دنيا الحيوان ، بلا عقل ، ولا قلب !!

وقوله تعالى : « أليس الله بأحكم الحاكمين » هو إنكار بعد إنكار ، لمن زهدوا فيما أودع الخالق فيهم من آياته ، فردّوها ، وعرّوا أنفسهم منها ، كأنهم لا يرضون بما زينهم الله به ، وكأنهم يرون أن ما صنع الله بهم ليس على التمام والكمال ، فهم يزهدون فيه ، ويطلبون لأنفسهم ما هو أحكم وأكمل !! فالتكذيب بالدين لا يكون من إنسان عاقلٍ رشيد ، وإنما يكون ممن سَفِه نفسه وجهل قَدْره !

(٩٦) سورة العلق

نزولها : مكية .. أول ما نزل من القرآن الكريم .

عدد آياتها : تسع عشرة آية .

عدد كلماتها : اثنتان وتسعون كلمة .

عدد حروفها : مائتان وثمانون حرفاً .

مناسبتها لما قبلها

كانت سورة « التين » مواجَهةً للإنسان فى خَلْقه القويم ، الجليل ، الذى خلقه الله عليه ، وأن هذا الإنسان إذا استطاع أن يحتفظ بهذا الخلْق الكريم ، كان فى أعلى عليين .. أما إذا لم يحسن سياسة هذا الخلق ، ولم يحسن تدبيره فإنه يهوى إلى أسفل سافلين .

وتبدأ سورة « العلق » بهذه المواجهة مع الإنسان فى أعلى منازله ، وأكرم وأشرف صورة له ، وهو رسول الله « محمد » صلوات الله وسلامه عليه ، مدعواً من ربه إلى أكمل كمالات الإنسان ، وأكرم ما يتناسب مع كماله وشرفه ، وهو القراءة ، التى هى مَجْلَى العقل، ومنارة هديه ورشده.

وبهذا تكون المناسبة جامعة بين السورتين ، ختاماً ، وبدءاً .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١—١٩)

* « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب (١٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم » .

يكاد إجماع العلماء والمفسرين ينعقد على أن هذه الآيات الخمس ، هى أول مانزل من القرآن الكريم ، وأول ما استُفتحت به الرسالة المحمدية . وقد نزل بها جبريل على النبىّ وهو يتعبد فى غار حراء ، وقد فَجِئَه الوحى بقوله

تعالى : « اقرأ » .

ففى الصحيحين عن السيدة عائشة ، رضى الله عنها ، قالت: « أولُ مابدىء به رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبّب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حار ، يتحنث فيه الليالى ذوات العدد ، قبل أن يرجع إلى أهله ، ويتزود لمثل ذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فجئه الحق ، وهو فى غار حراء ، فجاء الملَك ، فقال : « اقرأ » فقال: « ما أنا بقارىء » قال فأخذنى فغطّنى [١] حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : « اقرأ » فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : « اقرأ » فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال: « اقرأ باسم ربك الذى خَلق ، خَلَق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » .

هذه هى الآيات الخمس الأولى ، التى استُفتح بها كتاب الله الذى نزل على النبىّ . .

والنبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أمّى ، لايقرأ ، وأمره بالقراءة ، إنما هو قراءة من هذا الكتاب السماوى ، الذى يقرأ منه جبريل ، فيقرىء النبىّ منه .. فهى قراءةُ متابَعة لقارىء السماء ، جبريل ، من كتاب الله .

وقول الملَك النبى : « اقرأ » هو دعوة إلى قراءة من كتاب ، والنبى صلوات الله وسلامه عليه ، لايقرأ ، ثم إنه ليس هناك كتاب يقرؤه لو كان قارئاً . . ولهذا كان ردّ النبى : « ما أنا بقارىء ! » .. وقد تكرر هذا الموقف بين

(١) ضمنى إليه ضما شديداً .

جبريل ، وبين النبي ثلاث مرات : « اقرأ » .. « ما أنا بقارىء ! » أى لا أعرف القراءة ..

وفى هذا تنويه بشأن القراءة ، وأنها السبيل إلى المعرفة والعلم ..

ثم إن الأمية ، وإن كانت حائلة بين المرء وبين أن يقرأ فى كتاب ، فإنها لا تحول بينه وبين العلم والمعرفة ، فهناك كتاب الوجود ، الذى يقرأ الإنسان آياته بالنظر المتأمل فيه ، والبصيرة النافذة إلى أسراره ، وعجائبه .. ثم هناك التلقى عن أهل العلم ، ممن يقرءون ويدرسون .. فليكن الإنسان قارئا أبداً ، على أى حال من أحواله ، قارئا بنفسه ، أو قارئا متابعاً لغيره .

أما أمية النبى الكريم ، فهى أمية مباركة ، قد فتحت عليه خزائن علم الله ، إذ بعث الله سبحانه وتعالى إليه رسولا من عنده يقرأ عليه كتاب الله ، ويملأ قلبه هدى ونوراً منه ..

ولهذا كان النبى قارئا ، فقرأ حين أقرأه جبريل : « اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم » .

وقوله تعالى : « اقرأ باسم ربك » أى اقرأ بأمر ربك ، أى أن جبريل يقول : هذا الأمر الذى آمرك به ليس بأمرى ، وإنما هو بأمر ربك ، الذى يدعوك إلى أن تقرأ ما أقرئك إياه ، من كتاب ربك .. وهذا مثل قوله تعالى : « واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك » (٢٧ : الكهف) . وقوله تعالى : « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » (١٨ : القيامة) .

وقوله تعالى : « الذى خلق * خلق الإنسان من علق » ـ هو بيان لقدرة الله سبحانه وتعالى ، وأنه هو الخالق وحده لا شريك له ، وأنه هو الذى بقدرته

خلق الإنسان ، هذا الخلق السوى « من علق » أى من دم لزِج ، متجمد .

فالذى خلق الإنسان من هذا العَلَق ، وسوّاه على هذا الخلق ، لايقف به عند هذا الحد ، بل هو سبحانه ، بالغ به منازل الكمالَ ، بما يفتح له من أبواب العلم والمعرفة . .

وقوله تعالى : « اقرأ وربك الأكرم » أى خذ ما أعطاك ربك من علم ، وما دعاك إليه من معرفة ، فإن ربك كريم واسع العطاء ، لاينفد عطاؤه .

فقوله تعالى : « وربك الأكرم » ـ جملة خبرية ، تقع موقع الحال من فاعل « اقرأ » وهو النبى صلى الله عليه وسلم ، أى اقرأ مستيقناً أن ربك هو الأكرم . . أى ذو الفضل العظيم ، والكرم الذى لاحدود له . .

وفى تعريف طرفى الجملة الخبرية ، مايفيد القصر ، أى قصر صفة الكرم على الله وحده . .

وقوله تعالى : « الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » . . أى ومن كرمه سبحانه أنه جعل من القلم الذى هو قطعة جامدة من الحطب ، أو الخشب ، أداةَ للعلم وللمعرفة ، ففتح به على الإنسان أبواب العلوم والمعارف ، وجعل من ثماره هذه الكتب التى حفظت ثمار العقول ، فكانت ميراثاً للعلماء ، يرثها الخَلَف عن السلف ، وينميها ويثمرها العلماء جيلا بعد جيل . . وبهذا تعلم الإنسان مالم يكن يعلم ، ويعلمه هذا المستفاد من سلفه ، فتح أبواباً جديدة من العلم يتلقاها عنه من بعده ، ويفعل فعلَه ، بما يفتح من أبواب جديدة للعلم . . وهكذا تتسع معارف الإنسان ، ويزداد علمه على مدى الأجيال . .

وهذا يعنى أن الإنسانية متطورة ، وسائرة نحو الأمام ، بما تتوارث أجيالها من ثمار العقول ، التى يتركها السلف للخلف ، جيلا بعد جيل . .

وهكذا يذهب الناس ، كأجساد ، وتبقى غِراس عقولهم ، وثمار أفكارهم .

وقوله تعالى :

* « كلا . إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى » .

هو رد على سؤال وارد على قوله تعالى : « علم الإنسان مالم يعلم » . .

ومع أن هذه الآية وما بعدها ، قد نزلت بعد خمس الآيات التى افتتحت بها السورة بزمن ممتد ، إلا أن المناسبة جامعة بينها وبين ماقبلها ، وهذا هو السر فى سردها فى سياقها .. فقد قلنا : إن قوله تعالى : « كلاّ إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » ـ هو رد على سؤال وارد على قوله تعالى : « علم الإنسان مالم يعلم » .. والسؤال هو : هل أدّى الإنسان حق هذه النعمة التى أنعمها الله عليه ؟ وهل كان له من علمه هذا الذى تعلمه ، نفع له ، وللناس معه ؟ والجواب على هذا : « كلاّ » .. فإن هذا العلم الذى فتح على الناس وجوه المنافع ، وملأ أيديهم من ثمرات الحياة ، بما مكن لهم به من الأرض ، وما سخر لهم من قوى الطبيعة ـ هذا العلم ، قد فتنهم سلطانُه ، وأغرى بعضَهم ببعض ، فاتخذوا منه سلاحاً للبغى والعدوان ، والتسلط والقهر . . وبهذا طغى الإنسان ، وتجبر وظلم ، حين رأى نفسه بمنقطع عن الناس ، مستغنياً عنهم بجاهه وسلطانه ..

وهذا مما لايعيب العلمَ ، ولا يُنقص من قدره .. فإنه وإن يكن استحدث به الإنسان كثيراً من أدوات الاهلاك والتدمير ، فلقد استنبط منه مالا يحصى من النعم الجليلة التى كشفت للإنسان عن فضل الله وإحسانه على الناس ، كما أقام من آيات الله شواهد ناطقة تشهد بجلاله ، وعظمته ، وحكمته ، وتضع الناس وجهاً لوجه أمام أسرار هذا الكون ، وماتنطوى عليه تلك الأسرار من سعة علم الله ، وعظمة جلاله وقدرته . .

وفرق كبير بين الإنسان البُدائى ، وبين رجل العلم فى العصر الحديث ، فى

موقفهما إزاء الوجود ، وفى نظرتهما إلى عظمة الله وقدرته .. فالبدائى ينظر إلى عوالم الوجود بنظر شارد تائه ، لا يبعد كثيراً عن نظر بعض الحيوانات أمام مشرق الشمس أو مغربها ..أما رجل العصر الحديث فإنه ينفذ بنظره إلى أعماق بعيدة فى الموجودات ، حيث يطلع على أسرار لانهـاية لها ، يروعه جلالها ، ويبهره نظامها وإحكامها ..

وشتان بين الإنسان البدائى الذى خاف الطبيعة وظواهرها ، فعَبَدَها ، وتخاضع بين يديهـا ، وبين الرجل العصرى ، الذى أمسك بزمام الطبيعة ، وسخرها لخدمته ، ونظر إليها نظرة السيد المالك لها . . ثم كان عليه بعد هذا أن يبحث عن السيد المالك له هو ، ولهذا الوجود كلّه.. وهو لابد مستدل بعقله على خالق هذا الوجود وسيده ، وذلك هو الإيمان الذى لازيغ معه ولاضلال ..

ولعل هذا يفسر لنا كثرة الأنبياء والرسل فى الأزمان السالفة .. ثم قلّتهم شيئاً فشيئاً كلما تقدم الزمن ، وتقدم معه العقل الإنسانى ، الذى يقوم مقـام الرسول فى الدعوة إلى الله ، والهداية إليه . ، ثم انقطاع الرسل والأنبياء بخاتم سيد الرسل ونبى الأنبياء ، محمد رسول الله ، بعد أن بلغت الإنسانية رشدها . .

وقوله تعالى :

* « إن إلى ربك الرجعى » .

هو تهديد لهذا الإنسان الذى جحد نعمة الله عليه ، واتخذ منهـا أسلحة يحارب بها الفضيلة ، ويقطع بها ما أمر الله به أن يوصل .. إن هذا الإنسان راجع إلى ربه يوماً ، وسيلقى جزاء بغيه وعدوانه ..

وقوله تعالى :

* « أرأيت الذى ينهى * عبداً إذا صلى » ..

وهذه صورة لهذا الإنسان الذى طغى ، حين رأى نفسه ذاقوة وسلطان ..

إنه لايؤمن بالله ، ولا يقف موقف الأولياء منه ، بل إنه ليحارب المؤمنين بالله ، ويحول بينهم وبين أداء ما لله سبحانه وتعالى عليهم من حق .. فجرم هذا الطاغية جرم مضاعف .. فلا هو يؤمن بالله ، ولا يؤدى حق ربه عليه ، ولا يدع المؤمنين يؤدّون حق ربهم عليهم .. والاستفهام هنا تعجب من الأمر المستفهَم عنه ، وتشنيع على فاعله ، ودعوة الناس إلى ضبطه وهو قائم على هذا المنكر ، متلبس به ! !

وفى جعل فاصلة الآية الفعل : « ينهى » وفى قطع الفعل « ينهى » عن معموله، وهو « عبداً إذا صلى » ـ فى هذا تشنيع على طغيان هذا الطاغية فإذا .. استمع مستمع إلى قوله تعالى : « أرأيت الذى ينهى » ـ وقع فى تفكيره لأول وهلة ، أن هذا الإنسان إنما ينهى عن منكَر ، لأن هذا هو شأن ما يُنهَى عنه .. فإذا فاجأه الخبر بأن ماينْهَى عنه هذا الآثم ، إنما هو الصلاة والولاء لله رب العالمين اشتد إنكاره له ، وتضاعفت جريمته عنده ..

والنهى هنا بمعنى المنع ، لأن الذى يملك النهى عن فعل الشيء ، يملك منع المنهىّ عن فعله ، إذ النهىَ فى حقيقته لايكون إلا من ذى سلطان متمكن ممن ينهاه ، ويقدر على منعه مما نهاه عنه .

وفى قوله تعالى : « عبداً » ـ إشارة إلى أن هذا المنهى عن الصلاة ، هو فى مقام العبودية والولاء لربه .. فهو عبد ، ولكنه سيد الأسياد جميعاً فى هذه الدنيا ، إذ كان عبداً لله رب العالمين ..

وقوله تعالى:

« أرأيت إن كان على الهدى . أو أمر بالتقوى ؟ »

« أرأيت » هنا ، استفهام إنكارى ، بمعنى ماذا ترى من حال هذا الأثيم

الذى ينهى عبداً عن الصلاة ، ويحول بينه وبينها ؟ ثم أرأيت لو أنه كان فى موقف آخر غير هذا الموقف ، فكان قائماً على طريق الهدى ، مؤمناً بربه ، مواليا له ، آمراً بالبر والتقوى بدلا من نهيه عن البر والتقوى ؟ فأىّ حاليْه كان خيراً له وأهدى سبيلا ؟ أحال الضلال ، والعمى ، والصد عن سبيل الله ، أم حال الاستقامة والهدى والدعوة إلى الله ؟ وشتان بين الظلام والنور ، والشر والخير ، والكفر والإيمان !

وقوله تعالى :

«أرأيت إن كذب وتولى * ألم يعلم بأن الله يرى» .

أى ثم ماذا ترى من حال هذا الضال ، وقد أبى أن يكون على الهدى أو يأمر بالتقوى ، بل كذب بآيات الله ، وتولى معرضاً عن دعاه إلى الله ، ورفع لعينيه مصابيح الهدى ؟ فأى إنسان هذا ؟ وبأى نظر ينظر ، وبأى عقل يفكر ويميز بين الخير والشر ؟ «ألم يعلم بأن الله يرى ؟» أسَفِهَ نفسَه حتى أنكر أن لهذا الوجود إلٰها قائماً عليه ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ؟ ألا يخاف بأس الله ؟ ألا يخشى عقابه ؟

* وقوله تعالى :

« كلا .. لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة » .

هو ردٌّ على هذا السؤال فى قوله تعالى : « ألم يعلم بأن الله يرى » .. وكلا، إنه لا يعلم بأن الله مطلع على كل شىء ، ولو كان يعلم هذا علماً مستيقناً لخاف ربه وخشى بأسه ، ولكن ضلاله أعمى قلبه ، وأظلم بصيرته ، فلم يرى جلال الله ، ولم يشهد عظمته ، ولم يخش بأسه !

وقوله تعالى : « لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية » هو وعيد وتهديد لهذا الضال

إن لم ينزع عن ضلاله ، ويَرْعَوِ عن غَيِّه ، ويثوب إلى رشده ، ويؤمن بربه ، ويستقم على الهدى — لنسفعن بناصيته ، أى لنجرنّه من رأسه جراً إلى جهنم كما يقول سبحانه : « يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام » .. وفى هذا امتهان أى امتهان ، وإذلال أى إذلال لهذا المتشامخ بأنفه ، المتطاول برأسه !

وقوله تعالى : « ناصية كاذبة خاطئة » أى هى رأس فارغة من كل خير ، حشوها الكذب والضلال ، ونبتها الخطيئة والإثم ، فكانت النار أولى بها ، حطباً ووقوداً .

وقوله تعالى :

* « فليدع ناديه * سندع الزبانية » .

أى ها نحن أولاء آخذون بناصية هذا العتلّ الأثيم إلى جهنم كما يؤخذ برأس الكبش من قرونه ، فليهتف بناديه أى أهل النادى الذى يأخذ مجلسه بينهم ، ويدير أحاديث الإثم والضلال عليهم .. أما نحن فسندعو الزبانية الذين يأخذون بناصيته إلى جهنم .. فهل من أصحابه من يخِفّ له ، ويسعى إلى تخليصه من يد الزبانية ؟ هيهات هيهات .. لقد علقت أيديهم به ، ولن يفلت حتى يُلقَى به فى جهنم ، مع جماعة السوء الذين انضوى إليهم ، واعتزّ بهم ..

وقوله تعالى :

* « كلا لاتطعه واسجد واقترب » ..

هو رد على قوله تعالى: « أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى » أى لاتسمع لنهى هذا الغوى ، ولا تخش بأسه .. إنه مأخوذ بناصيته إلى جهنم بيد

الزبانية .. وإذن فاسجد لربك واقترب منه بهذا السجود .. كما يقول الرسول الكريم : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » .

والزبانية ، جمع زِبْنِيه ، أو زِبى .. وأصله من الزَّبْن ، وهو الدفع .. يقال زبنه ، أى دفعه ليزيله عن موضعه .. وهم ملائكة العذاب الموكلون بأهل النار يدعّونهم إلى جهنم دعًّا ..

قيل إن هذه الآيات نزلت فى أبى جهل ، وقد كان يعترض النبىّ فى الصلاة ، ويترصد له ، ويتهدده كلما ألمّ بالبيت الحرام .. وقد جاء فى الخبر أن أبا جهل قال : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن عنقه .. فجاءه من يقول له : إن محمداً يصلى فى الكعبة ، فاتجه إليه يريد أن يفعل فعلته ، فما كاد يقارب النبىّ حتى رأى فحلا هائجا يريد أن ينقض عليه ، فولّى مذعوراً مبهوراً .. فلما رأى القوم منه ذلك ، سألوه مابه .. فقص عليهم ما رأى .. ولما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم ذلك قال : « لو فعل لأخذته الملائكة » !!

والخطاب مع هذا عام ، لكل من هو أهل الخطاب .

* * *

(٩٧) سورة القدر

نزولها : مكية ، وقيل مدنية .. نزلت بعد سورة « عبس » .

عدد آياتها : خمس آيات .

عدد كلماتها : ثلاثون كلمة .

عدد حروفها : مائة واثنا عشر حرفاً .

مناسبتها لما قبلها

ختمت سورة « العلق » بقوله تعالى : « كلا لا تطعه واسجد واقترب » وجاءت بعد ذلك سورة القدر ، وفيها تنويه بشأن هذا القرآن الذى أنزل على النبى ، والذى هداه ربه ، وملأ قلبه إيماناً ويقيناً بعظمته وجلاله .. وبهذا الإيمان الوثيق يتجه النبى إلى ربه لايخشى وعيداً ، ولا يرهب تهديداً ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات: (١ — ٥)

* « إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ (١) وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ ٱلْمَلَآئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ (٥) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » ..

الضمير فى « أنزلناه » يعود إلى القرآن الكريم ، وهو وإن لم يجر له ذكر سابق فى السورة ، إلا أنه مذكور بما له من إشعاع يملأ الوجود .. فإذا نزل شىء من عند الله ، فهو هذا القرآن ، أو فيض من فيض هذا القرآن ..

وليلة القدر ، هى الليلة المباركة ، التى أشار إليها سبحانه وتعالى بقوله : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك إنه هو السميع العليم » (٣ - ٦ : الدخان) . وهى ليلة من ليالى رمضان ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » . (١٨٥ : البقرة)

ومعنى « أنزلناه فى ليلة القدر » أى ابتدأنا إنزاله فى ليلة القدر ، وهى الليلة التى افتتح فيها الوحى ، واتصل فيها جبريل بالنبى ، قائلا له : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » .

وقد اختلف فى أى ليلة من ليالى رمضان ليلة القدر ، وأصح الأقوال أنها فى العشر الأواخر من رمضان .. واختلف كذلك أى ليلة هى فى الليالى العشر ، وأصح الأقوال كذلك أنها فى الليالى الفردية ، أى فى الليلة الحادية والعشرين ، أو الثالثة والعشرين ، أو الخامسة والعشرين أو السابعة والعشرين أو التاسعة والعشرين . . وأصح الأقوال هنا أنها الليلة السابعة والعشرون ، أى الليلة السابعة من العشر الأواخر من رمضان .. وهذا ما يُروَى عن ابن عباس من أنه

قال : « هى سابعة تمضى أو سابعة تبقى من العشر الأواخر من رمضان »
وقد سئل فى هذا فقال : نظرت فى كتاب الله فرأيت أن الله سبحانه قد جعل
خلق الإنسان فى سبع ، فقال تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من
طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة
مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً . ثم أنشأناه خلقاً آخر »
(١٢ ـ ١٤ : المؤمنون) ورأيت أن الله سبحانه وتعالى جعل رزقه فى سبع ، فقال
تعالى : « فأنبتنا فيها حبّا وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلا وحدائق غلباً * وفاكهة
وأبًّا متاعاً لكم ولأنعامكم » (٢٧ ـ ٣٢ : عبس) ورأيت أن الله خلق سبع
سموات ، وسبع أرضين ، وسبعة أيام » ..

هذا وقد استظهر بعضهم أنها الليلة السابعة والعشرون ، وذلك بأن عدَد
كلمات السورة من أولها إلى قوله تعالى : « هى » سبع وعشرون كلمة ..
وهذا يعنى أن كل كلمة تعدل ليلة من ليالى رمضان ، حتى إذا كانت ليلة
القدر جاءت الإشارة إليها بقوله تعالى : « هى » أى هى هنا عند الكلمة
السابعة والعشرين ، أو الليلة السابعة والعشرين ..

وفى محاولة تحديد هذه الليلة تكلف ، لاتدعو إليه الحاجة ، فهى ليلة من
ليالى رمضان ، وكفى ، ولو أراد سبحانه وتعالى بيانها لبينها ، وإنما أراد سبحانه
إشاعتها فى ليالى الشهر المبارك كله ، ليجتهد المؤمنون فى إحياء ليالى الشهر
جميعه ! ..

وسميت ليلة « القدر » بهذا الاسم ، لأنها ذات شأن عظيم ، وقدر جليل ،
لأنها الليلة التى نزل فيها القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ،

إنها الليلة التى توزن فيها أقدار الناس حسب قربهم وبعدهم من كتاب الله ، ويفرق فيها بين المحقين والمبطلين ..

وقد أشار إليها الله سبحانه وتعالى فى سورة أخرى بقوله : « فيها يفرق كل أمر حكيم » أى يبين فيها حكم الله فيما هو حلال أو حرام ، وحق أو باطل ، وهدى أو ضلال ، وذلك بما نزل فيها من آيات الله ..

وقوله تعالى :

* « وما أدراك ما ليلة القدر » ؟

تنويه بشأن هذه الليلة ، وتفخيم لقدرها ، وأنها ليلة لا يدرى أحد كُنهَ عظمتها ، ولا حدود قدرها ..

قوله تعالى :

* « ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر » .

اختُلف فى تحديد المفاضلة بين هذه الليلة وبين الألف شهر .. وقد تواردت على هذا مقولات وأخبار شتى ..

ونقول — والله أعلم — إنه ليس المراد من ذكر الألف شهر وزن هذه الليلة بهذا العدد من الأيام والليالى والسنين ، وأنها ترجح عليها فى ميزانها ، وإنما المراد هو تفخيم هذه الليلة وتعظيمها ، وأن ذكر هذا العدد ليس إلا دلالة على عظم شأنها ، إذ كان عدد الألف هو أقصى ما تعرفه العرب من عقود العدد . عشرة ، ومائة ، وألف ، ومضاعفاتها .

وإذن فهى ليلة لا حدود لفضلها ، ولا عِدل لها من أيام الزمن ولياليه ، وإن بلغت ما بلغت عدداً .

وقدْر هذه الليلة ، إنما هو — كما قلنا — فى أنها كانت الظرف الذى نزل فيه القرآن ، والوعاء الذى حمل هذه الرحمة العامة إلى الإنسانية كلها . . إنها الليلة

الوَلود التي بزغت فيها شمس الهدى ، على حين أنه قد تمضي مئات وألوف من الليالي عقيما لاتلد شيئا يُنتفع به ، ولا تطلع على الناس ببارقة من خير يتلقونه منها : . .

إن شأن هذه الليلة فى الليالى ، شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الإنسانية ..

إنه — صلوات الله وسلامه عليه — واحد الإنسانية ، ومجدها وشرفها ، وهى واحدة ليالى الزمن ، ومجده ، وشرفه .. فكان التقاؤهما بالنبى على رأس الأربعين من عمره — وقد توجه ربه بتاج النبوة — كان ، التقاء جمع بين الزمن مختصراً فى ليلة ، وبين الإنسانية مختصرة فى إنسان ،هو رسول الله .. وكان ذلك قدراً مقدوراًمن الله العزيز الحكيم .

وقوله تعالى :

* « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم » أى يتنزل فيها جبريل عليه السلام ، الذى هو مختص بتبليغ الوحى ، والاتصال بالنبىّ .. أما الملائكة الذين يحفون به ، فهم وفد الله معه لحمل هذه الرحمة إلى رسول الله ، وإلى عباد الله .. وهم إنما يتنزلون بأمر الله كما يقول سبحانه: « ومانتنزل إلا بأمر ربك » (٦٤ : مريم) فجبريل لم يكن ينزل وحده بالوحى ، وإنما كان ينزل فى كوكبة عظيمة من الملائكة تشريفاً وتكريما ، لما يحمل إلى رسول الله من آيات الله ..

يقول الأستاذ الإمام محمد عبده :

« وإنما عبر بالمضارع فى قوله تعالى : « تنزل الملائكة » وقوله : « فيها يفرق كل أمر حكيم » — مع أن المعنى ماض ، لأن الحديث عن مبدإ نزول الوحى — ارجهين :

الأول : لاستحضار الماضى ، ولعظمته على نحو ما فى قوله تعالى : « وزلزلوا حتى يقول الرسول » (٢١٤ : البقرة) .. فإن المضارع بعد الماضى يزيد الأمر تصويراً ..

والثانى : لأن مبدأ النزول كان فيها ، ولكن بقية الكتاب ، وما فيه من تفصيل الأوامر والأحكام — كان فيما بعد .. فكأنه يشير إلى أن ما ابتدأ فيها يستمر فى مستقبل الزمان ، حتى يكمل الدين» !!

وقوله تعالى : « من كل أمر » أى تتنزل الملائكة حاملة من كل أمر من أوامر الله ، ومن أحكامه ، ما يأذن الله لها به ، كما تقضى بذلك حكمته .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين رحمة من ربك إنه هو السميع العليم » (٤ ـ ٥ : الدخان) .

وقوله تعالى :

* « سلام هى حتى مطلع الفجر » .

أى أنها ليلة وُلد فيها الأمن والسلام . . من بدئها إلى ختامها . . فهى ليلة القرآن . . والقرآن من مبدئه إلى ختامه سلام وأمن كلّه ، ورسالة القرآن هى « الإسلام » الذى هو السلام ، والنجاة ، لمن طلب السلامة والنجاة . !

* * *

(٩٨) سورة البيّنة

نزولهـــا : مدنية — وقيل مكية — نزلت بعد سورة الطلاق

عدد آياتها : ثمانى آيات .

عدد كلماتهـا : أربع وسبعون كلمة .

عدد حروفها : ثلاثمائة وتسعة وتسعون حرفاً .

مناسبتها لمـا قبلهـا

كانت سورة « القدر » التى سبقت هذه السورة تنويهاً بالليلة المباركة التى نَزَل فيها القرآن الكريم ، فنالت بشرف نزوله فيها هذا القدر العظيم الذى ارتفعت به على الليالى جميعاً . . فالتنويه بليلة القدر هو ـ فى الواقع ـ تنويه بالقرآن الكريم ، وأن الاتصال به يُكسب الشرف وَيُعلى القدر للأزمان والأمكنة والأشخاص .

وسورة « البيّنة » تحدّث عن هذا القرآن ، وعن رسول الله الحامل لهذا القرآن ، وموقف الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ، من القرآن ، والرسول الداعى إلى الله بالقرآن . . ومن هنا كان الجمع بين السورتين قائماً على هذا الترابط القوىّ ، الذى يجعل منهما وَحدة واحدة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ ـ ٨)

* « لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢)

فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ (٤) وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا ٱلزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ (٧) جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ (٨) »

التفسير:

قوله تعالى:

* « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين مُنفَكِّينَ حتى تأتيهم البَيِّنَةُ * رسولٌ من الله يتلو صحفاً مطهرة ».

« من » فى قوله تعالى: « من أهل الكتاب » بيانية ، وفيها معنى التبعيض أيضاً ، إذ ليس كلّ أهل الكتاب كافرين ، بل هم كما يقول الله تعالى: « منهم المؤمنون وأكثرهم الكافرون » (١١٠ : آل عمران).

فالمراد بالذين كفروا هنا ليس الكافرين على إطلاقهم ، وإنما هم الكافرون من أهل الكتاب — اليهود والنصارى — وهم بعض من أهل الكتاب ، أو معظم أهل الكتاب.

والمشركون ، هم مشركو العرب ، وعلى رأسهم مشركو قريش.

ومعنى الانفكاك فى قوله تعالى : « مُنْفَكِّين » هو حلّ تلك الرابطة الوثيقة التى جمعت بينهم جميعاً على الكفر والضلال .

فالذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون ، على سواء فى الضلال ، وفى البُعد عن مواقع الحق . . فهم وإن اختلفوا ديناً ومعتقداً ، وجنساً وموطناً ـ على سواء فى الضلال وفساد المعتقد ، وهم لهذا كِيان واحد ، وقبيل واحد ، ينتسبون إلى أبٍ واحد ، هو الكفر والضلال .

أما الكافرون من أهل الكتاب ، فقد كان كفرهم بما غيّروا ، وبدّلوا من شرع الله ، وبما تأوّلوا من كتب الله التى بين أيديهم ، لحرّفوا الكلم عن مواضعه ، وقالوا عن الله سبحانه ما لم يَقُلْه .

وأما المشركون ، فقد اغتال جهلُهم وضلالهم كل معانى الحق ، التى تركها فيهم أنبياؤهم الأولون ، كهود ، وصالح ، وإبراهيم ، وإسماعيل ، عليهم السلام .. فانتهى بهم الأمر إلى الشرك بالله ، وعبادة الأصنام من دون الله .

ومجمل معنى الآية الكريمة : أن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون لن تنحلّ منهم هذه الرابطة الوثيقة التى جمعت بينهم على الكفر والضلال ، حتى تأتيهم البينة . . فإذا أتتهم البينة تقطع مابينهم ، وانحلت وَحدتهم ، وأخذ كلٌّ الطريقَ الذى يختاره . .

و « البينة » هى ما أشار إليها قوله تعالى : « رسول من الله يتلو صُحفاً مطهرة » فالرسول صلوات الله وسلامه عليه ـ هو « البينة » ، أى البيان المبين ، الذى يبين طريق الحقّ بما يتلو من آيات الله على الناس . .

وفى جعل الرسول هو البينة ـ مع أن البينة هى آيات الله ـ إشارة إلى أن الرسول الكريم ، هو فى ذاته بينة ، وهو آية من آيات الله ، فى كماله ، وأدبه ، وعظمة خُلقه ، حتى لقد كان كثير من المشركين يلقوْن النبى لأول مرة فيؤمنون

به ، قبل أن يستمعوا إلى آيات الله منه ، وقبل أن يشهدوا وجه الإعجاز فيها . . وأنه ليكفى أن يقول لهم إنه رسول الله ، فيقرءون آيات الصدق فى وجهه وفى وقع كلماته على آذانهم . . وقد آمن المؤمنون الأولون ، ولم يكن قد نزل من القرآن قدر يعرفون منه أحكام الدين ، ومبادئه ، وأخلاقياته .. بل إن إيمانهم كان استجابة لما دعاهم إليه رسول الله ، لأنه لايدعو ـ كما عرفوه وخبَروه ـ إلا إلى خير وحق .

والصحف المطهرة ، هى آيات القرآن الكريم ، التى يتلوها الرسول الكريم ، كما أوحاها إليه ربه ، وكما تلقاها من رسول الوحى ، على ماهى عليه فى صحف اللوح المحفوظ ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « كلا إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره ، فى صحفٍ مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدى سفرة ، كرام بررة » (١١ ـ ١٦ : عبس) .

وطهارة هذه الصحف ، هو نقاء آياتها ، وصفاؤها ، من كل سوء .. فهى حق خالص ، وكمال مطلق . . « إنه الكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » . (٤٢ : فصلت) .

وقوله تعالى :

* « فيها كُتُبٌ قيمة » .

والكتب القيمة التى فى هذه الصحف ، هى الكتب التى نزلت على أنبياء الله ورسله ، كصحف إبراهيم وموسى . . كما يقول سبحانه : « إن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى » (١٨ ـ ١٩ : الأعلى) .

فالقرآن الكريم جَمع ماتفرق فيما أنزل الله من كتب على أنبيائه ، فكان به تمام دين الله ، الذى هو الإسلام ، كما يقول سبحانه : « إنَ الدين عند الله الإسلام » (١٩ : آل عمران) .

وكون الصحف تحوى فى كيانها الكتب ، مع أن العكس هو الصحيح ، كما هو فى معهودنا ، إشارة إلى أن صحف القرآن ، هى بالنسبة إلى الكتب السماوية السابقة ، كتب . . وأن الصحيفة ، أو مجموعة الصحف منه تعادل كتاباً من تلك الكتب إذ جمعت فى كلماتها المعجزة ما تفرق فى هذه الكتب . وفى هذا مايدل على قدر هذا القرآن العظيم ، وأنه كان لهذا جديراً أن ينزل فى ليلة القدر ، التى هى ليلة الزمن كله ، كما أن هذا الكتاب هو شرع الله كله .

وقوله تعالى :

* « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة » .

الخطاب هنا إلى أهل الكتاب جميعاً ، لا إلى الذين كفروا منهم . . فأهل الكتاب جميعاً، هم فى هذا المقام فى مواجهة البينة . . وقد اختلف موقفهم منها ، فنهم من آمن ، ومنهم من كفر .. وهنا تفرق أمرهم ، وأخلى الذين آمنوا منهم مكانهم فيهم . .

والسؤال هنا :

ألم يكن أهل الكتاب متفرقين قبل أن يأتيهم رسول الله ، ويدعوهم إلى الإيمان بالله ؟

ألم يكن منهم مؤمنون وكافرون ، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب .. » ؟ . ألم يكن هذا الإخبار عنهم بهذا الوصف ، قبل أن تأتيهم البينة ؟ فما تأويل هذا ؟

نقول ـ والله أعلم ـ إن أهل الكتاب ، وإن كان فيهم المؤمنون الذين استقاموا على شريعة الله ، كما جاءهم بها أنبياؤهم ، غير متبعين مادخل عليهم من تبديل وتحريف ـ إلا أن هؤلاء المؤمنين ، هم فى مواجهة الشريعة الإسلامية

غير مؤمنين، إذا لم يصلوا إيمانهم هذا ، بالايمان بدين الله (الإسلام) الذى كمل به الدين .. فالمؤمنون حقًّا من أهل الكتاب ، لا يجدون فى الإيمان بالإسلام حجازاً يحجز بينهم وبينه ، إذ كان دينهم بعضا من هذا الدين ، وبعض الشيء ينجذب إلى كله ، ولا يأخذ طريقاً غير طريقه !

فأهل الكتاب جميعاً — المؤمنون منهم والكافرون — على سواء فى مواجهة الدين الإسلامى ، كلّهم مدعوون إلى الإيمان به ، فمن لم يؤمن به فهو كافر .

وأهل الكتاب ، إذ دُعوا إلى الإيمان بدين الله ، تفرقوا ، فآمن قليلٌ منهم ، وكفر كثير . . وهذا مايشير إليه سبحانه وتعالى فى قوله : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به » (١٢١ : البقرة) وبقوله سبحانه : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين » (٥٢ — ٥٣ : القصص) .

وأما المشركون ، فقد انفكوا ، وانفصلوا عن الكافرين من أهل الكتاب ، بعد أن جاءتهم البينة إذ أنهم آمنوا بالله ، ودخلوا فى دين الله جميعاً ، بعد أن تلبثوا على طريق العناد والضلال !

وقوله تعالى :

* « وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حُنفآء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » .

أى أن أهل الكتاب الذين دُعوا إلى الإيمان بشريعة الإسلام ، لم يُدعَوْا إلى أمرٍ لايعرفونه ، ولم يُؤمروا بأمرٍ لم تأمرهم به شريعتهم التى هم بها يؤمنون . . إنهم ما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ، لايعبدون إلها غيره « حنفاء »

أى مائلين عن أى طريق غير طريق الله .. وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة . فهذا هو شرع الله ، وتلك أحكام شريعته لـكل المؤمنين بشرائع السماء .. إنها جميعاً تقوم على هذه الأصول الثابتة :

وأولها الإيمان بالله وحده ، إيماناً خالصاً من كل شرك ، مبرأ من كل مالا يحمل لله سبحانه وتعالى التفرد بالخلق والأمر .

ثم إقام الصلاة ، التى هى مظهر الولاء لله ، وآية الخضوع لجلاله وعظمته ..

ثم إيتاء الزكاة ، التى هى أثر من آثار الإيمان بالله ، الذى من شأنه أن يقيم المؤمنين بالله على التوادّ والتراحم ، والتعاطف فيما بينهم ، كما يقيمهم الولاء لله ، والخضوع لجلاله وعظمته ، كياناً واحداً فى محراب الصلاة له . .

وإذا كان هذا هو ماتدعو إليه الشرائع السماوية جميعاً ، وإذا كان هذا ماتدعو إليه شريعة الإسلام — فإن الذى يفرق بين هذه الشرائع وبين شريعة الإسلام ، هو جائر عن طريق الحق ، معتدٍ على حدود الله .. إذ كانت شرائع الله كلها — سابقها ولاحقها — حَرَم الله وحدوده التى حدها لعباده : « ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » .. ولهذا كانت دعوة الإسلام قائمة على الإيمان بشرائع الله كلها ، وبرسل الله كلهم : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم . لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (١٣٦ : البقرة)

قوله تعالى :

* « وذلك دين القيمة » ..

أى الدين القيم ، أى المستقيم ، أو دين الملة أو الأمة المستقيمة على الحق القائمة بالقسط ـ فـكل من خرج على هذا الدين فهو على غير دين الله ، كما يقول

سبحانه : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لستَ منهم فى شىء » (١٥٩ : الأنعام) ومن معانى « الدِّين » هنا ، دين الله ، وهو الإسلام ..

والقيّمة : مذكّر القيّم ، بمعنى المستقيم ، كما يقول تعالى : « ذلك الدين القيم » (٣٦ : التوبة) .

قوله تعالى :

« إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية » ..

هو مواجَهة للذين ظلّوا على كفرهم من أهل الكتاب ، والذين أقاموا على شركهم من المشركين بعد أن جاءتهم البينة .. فهؤلاء وأولئك جميعاً سيلقون فى نار جهنم خالدين فيها .. وهؤلاء وأولئك هم شر البرية ، أى شر الخلق .. لأنهم لم يؤمنوا وقد جاءتهم البينة ، التى جمعت البنيان كله ، واشتملت على الهدى جميعه ، فكانت آياتها قائمة بين الناس ، يلقونها فى كل لحظة ، ويُديرون عقولهم وقلوبهم إليها ، فى كل زمان ومكان ، ولم تكن آياتها آياتٍ عارضةً ، تلقاها حواسّ من يشهدونها ساعة من نهار ، ثم تزول فلا ترى أبد الدهر ، كما رأى الراءون من آيات موسى ، وعيسى عليهما السلام .. وإنما هى آيات تعايش الإنسان ، وتصحبه ماشاء أن تصحبه وتعيش معه ..

والحق حين تتضح آياته هذا الوضوح المشرق ، وحين يتجلّى وجهُه هذا التجلى المبين ، يكون منكِره ، والحائد عنه ، أشدّ الناس ضلالا ، وأكثرهم عناداً ، وأبعدهم عن الخير ، وأقربهم إلى الشر .. « أولئك هم شر البرية » ..

وقوله تعالى :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية * جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » .

أى الذين آمنوا بهذا الدّين وعملوا الصالحات، أولئك هم خير الخلق جميعاً، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: «كُنتُمْ خير أمة أُخرِجَتْ لِلنَّاس»، إذ ألبسهم إيمانهم بالله، وأعمالهم الصالحة فى ظِل هذا الإيمان ـ لباسَ التقوى، فكانوا هم عبادَ الله، وكانوا أهلَ وُدِّه، ولهذا كان جزاؤهم عند ربهم هذا الجزاء الكريم: «جناتِ عدن» أى جنات خلود واستقرار، تجرى من تحتها الأنهار، خالدين فيها أبداً، لا يتحولون عنها.. «رضى الله عنهم» فأدخلهم فى جنّاته، وأفاض عليهم من نعيمه. «ورضوا عنه» أى رضوا عن ربّهم، وحمدوه، وشكروا له هذا النعيم الذى هم فيه... وذلك النعيم والرضوان، إنما هو لمن خشى ربّه، واتقاه، وخاف مقامه.

هذا، ويلاحظ هنا أمران:

أولهما: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات قد جاء الحديث عنهم مطلقاً من غير قيدِ الإضافة إلى أهل الكتاب، أو المشركين، فلم يجىء النظم القرآنى هكذا: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات من أهل الكتاب والمشركين».. كما جاء فى الآية السابقة: «إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين» ـ وذلك لأن الذين يؤمنون بالله ويعملون الصالحات فى جميع الأحوال والأزمان داخلون فى ساحة المؤمنين بشريعة الإسلام.. سواء أكان هذا الإيمان عن دعوة رسول وكتاب، أو عن دعوة العقل، وإلهام الفطرة، فالمؤمن بالله حيث كان، وحيث كان مصدر إيمانه، هو لاحق بهؤلاء المؤمنين، وهو ملاق هذا الجزاء الذى يُجزى به المؤمنون.

أما حصر الكافرين هنا فى الذين كفروا من أهل الكتاب، والذين كفروا من المشركين، بعد أن جاءتهم البينة ـ فهو تشنيع على هذا الوجه الكريه الغليظ من وجوه الكفر، فى مواجهة هذا الصبح المشرق، الذى

لا ينكره إلا مكابر ، ولا يكفر به إلا من ختم الله على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غِشاوة ، ومن هنا كانوا شَرَّ البرية على الإطلاق ، كما كان المؤمنون بشريعة الإسلام خيرَ البرية على الإطلاق كذلك .

وثانى الأمرين : هو أن وعيد الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين بالخلود فى النّار ـ لم يُقيَّد بلفظ التأبيد « أبداً » بل جاء مطلقاً هكذا : « خالدين فيها » على حين جاء وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالخلود فى الجنة مؤبداً . . هكذا « خالدين فيها أبداً » .

فما تأويل هذا ؟

نقول ـ والله أعلم ـ إن تأبيد الخلود فى الجنة، هو أمر عام لكل من أكرمه الله بدخول الجنة ، وأخذ مكانه فيها ، ونزل منزله منها .. فإنه لايتحول أبداً عن هذا المنزل ، وإن كان ثمة تحول فهو إلى منزل آخر فى الجنة ، أعلى من منزله الذى هو فيه . . فخلود أهل الجنة فى الجنة ، خلود مؤبد لكل من دخلها .. أما أهل النار .. فإن كثيراً ممن يدخلها من عصاة المؤمنين،لايخلدون فيها ، بل يتحولون عنها إلى الجنة ، بعد أن ينالوا جزاءهم من العذاب فى النار ، وأما الذين يخلدون فى النار فهم أهل الكفر ، وحسبهم من العذاب أن يكون خالداً ، أى طويلا ممتدّاً إلى ماشاء الله . . فمعنى الخلود هنا هو امتداد الزمن وطوله ، كما يفهم من قوله تعالى : « يحسب أن ماله أخلده » أى يخلده ، ويمد له فى عمره زمناً طويلا ..

ثم إن هؤلاء الخالدين فى النار ، هم بعد ذلك إلى مشيئة الله ، فى تأبيد هذا الخلود أو توقيته ، وهذا مايفهم من قوله تعالى فى أصحاب النار : « فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفيرٌ وشهيق ، خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك إن ربك فعال لما يريد » وقوله تعالى بعد ذلك فى أصحاب

الجنة : « وأما الذين سُعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشآء ربك عطآء غير مجذوذ » (١٠٦ — ١٠٨ : هود) .

ففي جانب المخلدين فى النار جاء قوله تعالى : « إن ربك فعال لما يريد » مؤذِناً بأن لله سبحانه وتعالى فعلا آخر فى أهل النار غير هذا الخلود ، بعد أن يستوفوه .. ولا ندرى ماهو .. غير أن رحمة الله التى وسعت كل شيء لاتقْصُر عن أن تنال هؤلاء الخالدين فى النار ببعض آثارها . . تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

أما فى جانب المخلدين فى الجنة ، فقد جاء قوله تعالى : « عطآء غير مجذوذٍ » مؤذِناً بأن هذا العطاء الذى أُعطوه فى الجنة ، لن ينقطع أبداً .. والله أعلم .

---

(٩٩) سورة الزلزلة

نزولها : مدنية .. نزلت بعد سورة « النساء »

عدد آياتها : ثمانى آيات ..

عدد كلماتها : خمس وثلاثون . .

عدد حروفها : مائة وتسعة عشر حرفاً . .

مناسبتها لما قبلها

خُتمت سورة « البينة » قبلَ هذه السوَرة بما يَلْقىَ الكافرون ، من عذاب ، خالدين فى النار ، وبما يلقى المؤمنون ، من نعيم ، خالدين فيه خلوداً مؤبداً فى الجنة ..

وجاءت سورة الزلزلة محدّثة بهذا اليوم الذى يجزى فيه كل من الكافرين والمؤمنين هذا الجزاءَ الذى يستحقه كل فريق منهم ، فكان عرض هذا اليوم ،

وإخراج الناس فيه من قبورهم للحساب والجزاء ـ كان عرض هذا اليوم منظوراً إليه من خلال صورتى النار والجنة اللتين تحدثت عنهما السورة السابقة ـ كان أبعثَ للرهبة منه ، والخشية من لقائه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٨)

« إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ ٱلْإِنسَانُ مَالَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إذا زلزلت الأرض زلزالها * وأخرجت الأرض أثقالها * وقال الإنسان مالها ؟ » .

هذا من إرهاصات يوم البعث والنشور ، حيث تزلزل الأرض وتضطرب، وهذا الزلزال الذى سيقع لها يوم البعث ، هو زلزال خاص بهذا اليوم ، ولهذا أضيف إليها فى قوله تعالى « زلزالها ، » وكأنه هو الزلزال الوحيد الذى تُزَلْزله ،

« إن زلزلة الساعة شيء عظيم » (١ : الحج). أما ما يَحدُث من زلزال الأرض فيما قبل هذا الزلزال ، فلا حساب له ، إذا نُظر له من خلال هـذا هذا الزلزال العظيم . .

وفى هذا اليوم تُخرج الأرض أثقالها ، أى ما حملت فى بطنها من أموات، فكأنها تلدهم من جديد ، كما تلد الأم أبناءها ، بعد أن يتم حملها ، وتَثقُل به بطنها .. كما يقول سبحانه : « فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعَوَا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين » (١٨٩ : الأعراف) . .

وقوله تعالى : « وقال الإنسان مالها » ؟ هو سؤالُ عجب ودهش، يسأله الإنسانُ نفسَه بعد أن تلفظه الأرض من بطنها ، وتُلقى به على ظهرها .. إنه ينكر هذا الذى حدث . . لقد كان فى بطن الأرض ، فماذا أخرجه منها ؟ وماذا يراد به ؟ وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون * قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟ » (٥١ ـ ٥٢ يس) .

وقوله تعالى :

* « يومئذ تحدِّث أخبارها • بأن ربك أوحى لها » ـ هو جواب الشرط « إذا » فى قوله تعالى : « إذا زلزلت الأرض زلزالها »

أى فى هذا اليوم ، يوم البعث والنشور ، الذى تزلزل فيه الأرض ـ تحدث الأرض « أخبارها » أى تظهر الأرض أخبارها التى كانت مكنونة فى صدرها . .

وفى التعبير عن إظهار أخبارها بالتحديث ـــ إشارة إلى أن أحداثها التى يراها الناس يومئذ ، هى أبلغ حديث ، وأظهر بيان ، فهو شواهد ناطقة بلسان الحال ، أبلغ من لسان المقال . .

وفى التعبير عن خبء الأرض ، وما تخرجه من بطنها بلفظ الأخبار ـ إشارة أخرى إلى أن هذه الأسرار المضمرة التى كانت مخبوءة فى صدر الأرض ، قد أعلنت وأصبحت أخبارًا يعلمها الناس جميعاً . . وهذا مايشير إليه الرسول الكريم بقوله ، وقد سئل صلوات الله وسلامه عليه عن معنى قوله تعالى : « يومئذ تحدث أخبارها » . . فقال : « أتدرون ما أخبارُهـا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمَة بما عمل على ظهرها . تقول عمل كذا وكذا يومَ كذا وكذا . . »

وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : « يومئذ تحدِّث أخبارها » أى تنشر أخبارها ، وتُظهر أسرارها ، وتخرج خبأها . .

« إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان مالها ، يومئذ تحدث أخبارها » . . فالضمير « ها » الذى يعود إلى الأرض فى « زلزالها » و « أثقالها » و « مالها » و « أخبارها » يشير إلى أمور خاصة بالأرض فى هذا اليوم ، يوم ينفخ فى الصور ، للبعث والنشور . . فللأرض فى هذا اليوم زلزالها الذى ينتظرها ، ولها أثقالها التى تخرجها ، ولها هذا التساؤل الذى يتساءله الناس عنها ، ولها حديثها الذى تحدثه للناس ، وعن الناس ، فى هذا اليوم الموعود .

وليس هذا الذى رآه الناس من أحداث الأرض يومئذ هو من تلقاء نفسها ، وإنما ذلك بما أوحى به إليها ربُّها ، وما أمرها الله به ، فامتثلت له ، وأمضته كما أمر الله . .

وفى قوله تعالى : « أوحى لها » ـ إشارة إلى أنها بمجرد الإشارة إليها من الله ، خضعت لمشيئة الله . . فلم تكن فى خضوعها لربها محتاجة لأن يردّد عليها القول ، أو يؤكد لها الأمر . . بل هو مجرد اللمح والإشارة . . وهذا هو شأن

الخاضع المطيع ، الذى لا إرادة له مع من يأمره .. إنه لايحتاج إلى أمر صريح مؤكد ، بل تغنى الإشارة عن العبارة ..

فالوحى هنا ، هو التلميح ، دون التصريح ، والإشارة دون العبارة .. وهذا من معنى قوله تعالى : « وإذا الأرض مدت ، وألقت مافيها وتخلت ، وأذنت لربها وحُقت » أى حُقَ ووجب عليها الامتثال والطاعة .

قوله تعالى :

* « يومئذ يَصْدر الناس أشتاتاً ليُرَوْا أعمالهم » .

أى فى هذا اليوم ، يوم البعث ، يصدر الناس ، أى يجىء الناس ، صادرين من قبورهم « أشتاتاً » أى أفراداً ، متفرقين ، كأنهم جرادٌ منتشر ، إلى حيث يَرِدُون على المحشر فى موقف الحساب .. فالناس فى هذا اليوم صدور ، وورود .. صدور من القبور ، وورود إلى المحشر .

وقوله تعالى : « ليُرَوْا أعمالهم » هو تعليل لهذا الصدور ، أى وذلك ليروا أعمالهم التى عملوها فى الدنيا . « ينبأ الإنسانُ يومئذٍ بما قدم وأخر » .

وقوله تعالى :

* « فمن يعمل مثقال ذَرَّة خيراً يَرَه ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

أى فمن يعمل فى هذه الدنيا مثقال ذرة من خير ، يره خيراً فى الآخرة ، ومن يعمل فى دنياه مثقال ذرة من شر ، يره شراً يوم القيامة .. فليس المراد برؤية الأعمال مجردَ الرؤية ، وإنما المراد هو ماوراء هذه الأعمال من جزاء .. فالعمل الطيب إذا رآه صاحبه سُرّ به ، ورأى فى وجهه البشيرَ الذى يحمل إليه رحمة الله ورضوانه فى هذا اليوم العظيم .. والعمل السىء إذا رآه صاحبه حاضراً بين يديه فى مقام الحساب ، ساءه ذلك ، وملأ نفسه حسرة وغماً ، إذ كان هو الشاهدَ الذى يشهد بتأثيمه وتجريمه .

ومثقال الذرة : وزنها .

والذرة : هباءة من غُبار ، لا ترى إلا فى ضوء الشمس المتسلل من كوّة فى مكان مظلم .. وعن ابن عباس : الذرّ مايلتصق بيدك إذا مست التراب .

---

(١٠٠) سورة العاديات

نزولها : مكية .. نزلت بعد سورة العصر .

عدد آياتها : إحدى عشرة آية . .

عدد كلماتها : أربعون كلمة . .

عدد حروفها : مائة وستون حرفاً

مناسبتها لما قبلها

الزلزلة التى تُزَلزلها الأرضُ يوم البعث ، وإخراج الأرض أثقـالها وما فى جوفها من الموتى ، وصدور الناس أشتاتاً من القبور إلى موقف الحشر ، والمواجهة هناك بين الكافرين والمؤمنين ـ كل هذا تمثله صورة واقعة فى الحياة ، نجدها حين تقوم حالة حرب بين الناس ، فتزلزل الأرض تحت أقدام الجيوش الزاحفة نحو ساحة القتال ، بما يركبون من خيل ، وما يحملون من عُدد القتال ، وهم يَصْدُرون من بيوتهم فى سرعة الرياح العاصفة إلى لقاء العدو ، لايمسكهم شىء عن الانطلاق حتى يبلغوا ساحة الحرب ..

قوم إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زَرافاتٍ ووحدانا

هكذا يوم الحرب .. إنه من يوم القيامة قريب فى أهواله ، وشدائده ، وما يلقى الناس منه ، من هولٍ وشدة .

ففى ميـدان الحرب ، حساب وجزاء ، وربح وخسران ، وهول وفزع ، يشمل المحاربين جميعاً .

فالحرب ، وميدانها فى الدنيا ، هى أقرب شىء يمثّل به المحشر ، والحساب ، والجزاء فى الآخرة ..

ولهذا جاءت سورة العاديات تالية سورة الزلزلة ، لهذه المشابه التى بينهما .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ ـ ١١)

« وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا (١) فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا (٢) فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا (٥) إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١)

التفسير :

قوله تعالى :

* « والعاديات ضَبحا . فالموريات قدحاً . فالمغيرات صبحاً .. »

العاديات : جمع عادية ، وهى الخيل تعدو فى خفّة ، وسرعة ، كما يعدو خفيف الوحش .

والضبح : مايخرج من صدور الخيل من أصوات وهى تعدو ، أشبه بأنفاس

الإنسان وهو يلهث أثناء الجرى .. وسمى ضبحاً حكايةً لصوت الخيل الذى يشبه صوت هذا اللفظ عند النطق به « ضَبْح » .

والمقسَم به هنا ، هو الخيل ، فى حال عَدْوها ، حاملةً فرسانها إلى ميدان القتال .. فهى تعدو ضابحة ، وهى فى عدوها تُورِى ناراً تنقدح من احتكاك حوافرها بالحجارة التى تعدو عليها ..

وفى هذا مايشير إلى أنها تسير تحت جنح الظلام بفرسانها حتى لاتراها عين العدوّ ، وحتى لا يُنذَر بها هذا العدوّ ، ويأخذ حذره من المفاجأة حين تطلع عليه على غير انتظار ، ولهذا يظهر هذا الشرر الذى ينقدح من احتكاك حوافرها بالصوّان . . كما يقول الشاعر فى وصف سيوف الأبطال فى الحرب :

تَقُدُّ السلوقىَّ المضاعَفَ نَسجُه وتُوقِدُ بالصُّفاحِ نار الُحباحِبِ[1]

فإذا بلغت الخيل المكان الذى تشرف به على عدوّها ، أمسكت عن السير ، حتى تَهجُم عليه وتبغته على حين غفلة منه ، مع مطلع الصبح ، قبل أن يَدِبّ دبيب الحياة فى الأحياء .

فهذه ثلاثة أقسام بالخيل فى مسيرتها نحو الحرب . . فأقسم بها سبحانه ، وهى فى أول طريقها إلى القتال ، ثم أقسم بها ، وهى تكيد للعدو ، فتسير إليه ليلاً ، وتستخفى نهاراً ، ثم أقسم بها ، وهى تَلْقى العدوّ بغتةً مع أول النهار .

وفى هذا تعظيم لمسيرة هذه الخيل فى كل حال من أحوالها ، وإنها لجدير بها أن تكون خيلَ المؤمنين ، التى تسير هذه المسيرة المباركة للجهاد فى سبيل الله ،

---

(١) السلوقى : الدرع السابغة ، نسبة إلى سلوق ، بلدة باليمن . الصفاح : الحجارة ، والحباحب . قيل إنه نوع من الحشرات إذا طار بالليل وتلامست أجنحته بعضها ببعض ، ندّ عن ضوء أشبه بالشرر .

وإن هذا التدبير لجدير أن يكون من تدبير المؤمنين فى لقاء العدوّ ، فيلقوْن عدوّهم بالعدد ، والعُدد ، وبالتدبير والمكيدة .

وبهذا يُكتب لهم الغلب ، ويتحقق لهم النصر .

قوله تعالى : « ضَبْحًا ، وَقَدْحًا ، وصبحاً » منصوبة على الحال من العاديات . . بمعنى ضابحةً ، وقادحة ، ومصبحةً العدوّ . .

قوله تعالى :

* « فَأَثَرْنَ به نقعاً * فوسطن به جمعاً » .

هو إلفاتٌ إلى موقف الخيل ، وقد دخلت ميدان القتال ، إنها تثير فيه النقع ، أى الغبار بحركاتها ، وتنقّل فرسانها عليها ، بين كرّ وفرّ ، ومحاورة ومداورة ، انتهازاً للفرصة التى تمكّن من العدو ، وتصيبه فى مقاتله .

والضمير فى « به » يعود إلى ميدان القتال المفهوم من مسيرة هذه الخيل العادية . . إنها الخيل تعدو إلى جهاد فى سبيل الله ، وليست الخيلَ التى تعدو للصيد واللهو ، ونحو هذا .

قوله تعالى : « فوسطن به جمعاً » . . إشارة إلى أنها وإن جاءت فُرَادى ، وهى متجهة إلى ميدان القتال ، فإنها لا تشتبك مع العدوّ فى الحرب إلا مجتمعة ، حيث يضرب المغيرون عليها عدوّهم بيد مجتمعة قوية متمكنة .

وفى قوله تعالى : « فوسَطْنَ به جمعاً » إشارة أخرى إلى أنّ هذه الخيل إنما تدخل المعمعة بفرسانها ، وتهجم على قلب العدوّ ، وتدخل فى كيانه ، لا أنها تخطِف الخطفة من بُعدٍ ، دون أن تلتحم بالعدوّ ، وتختلط به ، وفى العطف بالفاء فى قوله تعالى : « فأثَرْنَ به نقعاً * فوسطن به جمعاً » ـ فى هذا ما يشعر بأن هذين الفعلين من أفعال الخيل العاديات ، وأنهما داخلان فى حيّز القسم بها ، والتقدير : والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فالمثيرات به نقعاً ، فالمتوسطات به جمعاً .

وكل هذا الذى يشير إليه القرآن الكريم ، هو تخطيط للحرب ، ولما ينبغى أن يكون من تدبير جيش المسلمين فى لقاء العدوّ . . فهو درس بليغ فى الحرب ، يأتى عَرَضاً ، فيكون أثره أبلغ وأوقع من الدرس المباشر ، الذى يواجه الإنسانَ مواجهة الأستاذ لتلميذه . . فلقد جاء العرض للخيل ، وفرسانها ، وأفعالهم فى الحرب ، والمسلمون محصورون فى مكة ، واقعون تحت قبضة المشركين ، لا يدور فى تفكيرهم أبداً أنهم سيكونون يوماً هم فرسان هذه الخيل ، وهم جنود الله ، تعدو بهم هذه العاديات إلى الجهاد فى سبيل الله ، فيمكن الله لدينه بهم فى الأرض ، ويقيم بهم دولة الإسلام ! .

يقول الأستاذ الإمام محمد عبده ، معلقاً على هذا الدرس الذى يلقّنه القرآن الكريم لأتباعه فى الإعداد للحرب ، والتمكن من وسائلها :

« أفليس من أعجب العجب أن ترى أمماً ـ وخير من هذا أن يقال أمّة ، لأن المسلمين أمة لا أمم ـ هذا كتابها ، قد أهملت شأنَ الخيل والفروسية ، إلى أن صار يُشَارُ إلى راكبها بينهم بالهزء والسخرية ، وأخذت كرام الخيل تهجر بلادهم إلى بلادٍ أخرى ؟ .

« أليس من أغرب ما يُستغرب أن أناساً يزعمون أن هذا الكتاب كتابهم ، يكون طلاب العلوم الدينية منهم أشدَّ الناس رهبةً من ركوب الخيل ، وأبعدَهم عن صفات الرجولة ، حتى وقع من أحد أساتذتهم المشار إليه بالبنان ، عندما كنت أكلّمه فى منافع بعض العلوم وفوائدها فى علم الدين ـ أن قال لى : « إذا كان كل ما يفيد فى الدين نعلّمه لطلبة العلم ، كان علينا إذن أن نعلمهم ركوب الخيل ؟ ! .

« يقول هذا ليفحمنى ، وتقوم له الحجة علىّ ، كأنّ تعليم ركوب الخيل مما لا يليق ولا ينبغى لطلبة العلم ، وهم يقولون : إن العلماء ورثة الأنبياء . .

فهل هذه الأعمال ، وهذه العقائد تتفق مع الإيمان بهذا الكتاب ؟
أنصِفْ واحكم ! » .

والحق ماقال الإمام ، فإن فرسان الحرب فى الإسلام ، كانوا أئمة المسلمين ، والقمم العالية فيهم ، وحسبنا أن نذكر هنا على بن أبى طالب ، وحمزة بن عبد المطلب ، وخالد بن الوليد ، وعبيدة بن الجراح ، وطلحة والزبير ، وسعد ابن أبى وقاص ، وغيرهم وغيرهم كثير كثير !

ولو أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم شهدوا عصر الدبابات ، والطائرات ، والصواريخ ، لكانوا أساتذة هذا الميدان ، إبداعاً واستعمالا ، ولكانت الأمم التى تملك الصواريخ اليوم أمماً متخلفة ، بالنسبة إليهم .. ذلك أن نفوسهم أشرقت بنور الحق ، وقلوبهم امتلأت بقوة الإيمان وعزته ، فعظمت نفوسهم ، واتسعت آمالهم ، وأبت عليهم نفوسهم العالية ، وهممهم العظيمة أن يسبقها سابق فيما يُكسب العزة والسيادة ، والمجادة .. فإذا صغرت النفوس ، وضعفت الهمم ، رضيت بالدُّون ، واستغنت بالتافة الحقير من الأمور .. فليس بالمؤمن من صَغُرت نفسه ، وضؤل شخصه ، وأمسك من دنياه بقبض الريح منها .. والله سبحانه وتعالى يقول : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .. وإنه لاعزة مع الضعف ، ولا إيمان بغير القوة والعزة .. القوة فى المادة والروح جميعاً .

وقوله تعالى :

* « إن الإنسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد » .

هو جواب القسم بالعاديات ..

والكنود : الجاحد لنعمة ربه ، المنكر لإحسانه إليه . . !

وهذا شأن كثير من الناس ، بل هو شأن معظم الناس ، ولهذا جاء الحكم مطلقاً ، إذ ليس فى الناس إلا قلة قليلة هى التى تعرف فضل الله عليها ، وإحسانه إليها ، ومع هذا فإنها لن تبلغ مهما اجتهدت ، ماينبغى لله سبحانه من حمد وشكر .. وإلى هذا يشير قوله تعالى : « وقليلٌ من عبادى الشكور » (١٣ : سبأ)

وفى قوله تعالى : « وإنه على ذلك لشهيد » ـ استدعاء للإنسان أن يستحضر وجوده ، وأن يحاسب نفسه ، وسيرى ـ إن كان على علم وحق ـ أنه مقصر فى حق الله ، جاحد لفضله عليه .. وأن حبه الشديد لتحصيل المال ، والاستكثار منه ، هو آفته التى تُنسيه فضلَ الله عليه، فيغمط حُقوق الله ، ويَعْمَى عن وجوه الإنفاق فى سبيل الله .. وفى التعبير عن المال بلفظ الخير ـ إشارة إلى أنه خير فى ذاته ، ولكنه قد يتحول فى أيدى كثير من الناس إلى شر مستطير يحرق أهله ! !

وقوله تعالى :

* « أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور * وحُصّل ما فى الصدور » .

أى أفلا يعلم هذا الإنسان الكنود ، وهو يحاسب نفسه ، أنّه إذا بُعثر ما فى القبور ، وخرج الموتى من قبورهم إلى المحشر ، « وَحُصِّلَ » أى جمع ما فى صدورهم من خفايا أعمالهم ، ورأوه عِياناً بين أيديهم ـ أفلا يعلم ما يكون عليه حاله يومئذ ، وما ينزل به من عذاب الله ؟ .

وفى حذف مفعول الفعل « يعلم » . . استدعاء للعقل أن يبحث عن هذا المفعول ، وأن يستدلّ عليه ، وفى هذا ما يدعوه إلى إعمال فكره ، فيجد العبرة والعظة . . أى أفلا يعلم ما يكون فى هذا اليوم ؟ إنه لو علم لكان له مزدجَر عن غيّه وضلاله .

وقوله تعالى :

* « إن ربهم بهم يومئذ لخبير » .

هو تعقيب على هذا السؤال : « أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور » .. أى فإذا لم يكن يعلم ماذا يكون فى هذا اليوم ، فليذكر هذه الحقيقة المطلقة ، التى ينادَى بها فى الوجود كله ، وهى حقيقة ثابتة : « إن ربهم بهم يومئذ لخبير » .. إذا علم هذه الحقيقة ، وآمن بها ، علم ماذا يكون عليه حاله يومئذ .. إن ربه الذى يعلم كل شىء ، قد علم ما كان منه فى الدنيا ، وأنه محاسبه على ما عمل ..

وليس الظرف فى قوله تعالى : « إن ربهم بهم يومئذ لخبير » قيد لعلم الله وحصره فى هذا اليوم ، بل إن علم الله بما يعمل الناس ، هو علم دائم متصل ، ولكن علمه فى هذا اليوم بأعمال الناس ، يقتضى محاسبتهم عليها ، وجزاءهم بما عملوا .. فهذا يوم الجزاء لعمل كل عامل ..

---

(١٠١) سورة القارعة

نزولهـــا : مكية .. نزلت بعد سورة « قريش » .

عدد آياتها : إحدى عشرة آية .

عدد كلماتها : ست وثلاثون كلمة .

عدد حروفها : مائة وخمسون حرفا .

مناسبتها لما قبلهـــا

خُتمت سورة « العاديات » بقوله تعالى : « أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور * وحصل ما فى الصدور * إن ربهم بهم يومئذ لخبير » .. وفيها دعوة إلى الناس

أن يحاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، قبل يوم الحساب والجزاء فى الآخرة .. وجاءت سورة القارعة تقرع الناس بهذا اليوم ، يوم الجزاء ، وتدعوهم إلى الحساب والجزاء ، بعد أن أخذوا الفرصة الممكّنة لهم من حساب أنفسهم ، وإعدادها لهذا اليوم ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ١١)

« ٱلْقَارِعَةُ (١) مَا ٱلْقَارِعَةُ (٢) وَمَآ أَدْرَاكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ (٦) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ (٨) فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَآ أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) »

التفسير

قوله تعالى:

* « القارعة * ما القارعة * وما أدراك ما القارعة » .

القارعة : هى يوم القيامة ، لأنها تقرع القلوب بهولها ، كأنها المقرعة التى تقع على الرأس بضربة مفاجئة .. فهى كالحاقة ، والصاخة ، والطامة ، والغاشية ..

والاستفهام عنها هنا ، هو تهويل لها ، وليومها ، وأنها مما لا تحيط العقول بكنهها ..

وقوله تعالى :

* « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنفوش » ..

هو خبر عن القارعة ، أى هى يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش .. أى فى هذا اليوم يكون الناس كالفراش المنتشر ، فى انطلاقهم إلى الحشر ، وفى حومهم حول النار كما يحوم الفراش .. وتكون الجبال فى هذا اليوم كالصوف المنفوش ، أى الذى تفككت شُعَيْراته بعضها عن بعض .. وقد عرضنا لهذا فى مبحث خاص [1]

وقوله تعالى :

* « فأما من ثقلت موازينه . فهو فى عيشة راضية » — المراد بثقل الموازين هنا هو اعتبار الأعمال ، وإقامة وزن لها، حتى إذا وزنت كان لها رجحان على غيرها من الأعمال التى لا قدر لها ولا وزن ، كما يقول سبحانه وتعالى عن أعمال الكافرين : « أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » (١٠٥ : الكهف) لأن أعمالهم لا قيمة لها ولا قدر .. ، لأنها لم تتم فى ظل الإيمان بالله .

فأصحاب الأعمال الحسنة التى رجحت بها موازينهم وارتفعت بها أقدارهم على الناس يومئذ ، هم فى عيشة راضية ، حيث ينعمون فى جنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ..

---

(١) انظر صفحة ٥٤٩ الكتاب الرابع عشر من التفسير القرآنى .

وفى وصف المعيشة بأنها راضية ، مع أن الرضا إنما يكون لمن يعيشون فيها ـ فى هذا إشارة إلى أنها راضية فى ذاتها ، بحيث تبدو وكأنها كائن حىّ قد اجتمع له كل ما يرضيه . . فهذه المعيشة قد اجتمع لها كل أسباب الرضوان لجميع الناس على اختلاف مطالبهم . .

وقد عرضنا لهذا فى تفسير سورة « الحاقة » .

قوله تعالى :

« وأما من خفت موازينه • فأمه هاوية • وما أدراك ماهيه • نار حامية »

وهؤلاء هم الكافرون الذين حبطت أعمالهم ، فلم يكن لهم ولا لأعمالهم وزن — هؤلاء أمّهم . التى تضمهم إليهم ، وتحنو عليهم ، هى هاوية ، حيث تهوى بأصحابها إلى قرار الجحيم .. إنها نار حامية ، تأكل أهلها كما تأكل النار الحطب ..

وفى جميع الموازين ، إشارة إلى أن كل عمل من أعمال الإنسان له ميزانه الذى يوزن به ، حسب قدره ، وقيمة ..

أما الميزان الذى توزن به الأعمال ، فهذا مما استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه ، ولا ينبغى لنا أن نتكلف له تصوراً ، وحسبنا أن نؤمن بأن هناك ميزاناً توزن به الأعمال ، وتتبين به قيمة كل عمل ، صغر أو كبر .. أما هيئة هذا الميزان وكيفيته ، وكيف توزن الأعمال به ـ فهذا مما يتولاه الله عنا ، ولا شأن لنا به .. إنه سبحانه يحاسب ، ويقضى ، ويحكم ، وهو أحكم الحاكمين .

* * *

(١٠٢) سورة التكاثر

نزولها : مكية . . نزلت بعد سورة « الكوثر » . .

عدد آياتها : ثمانى آيات . .

عدد كلماتها : ثمان وعشرون كلمة . .

عدد حروفها : مائة وعشرون حرفا . .

مناسبتها لما قبلها

الحديث فى هذه السورة ، متصل بما قبلها من الحديث عن القيامة ، وعما يُذهل الناس عنها ، ويشغلهم عن الإعداد لها .. وهو المال والتكاثر منه .

بسم الله الرحمن الرحيم

« أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر » ..

أى أيها الناس ، قد شغلكم التكاثر فى الأموال والمتاع ، فقطعتم حياتكم فى جمع المال وكنزه ، وفى تحصيل الجاه والسلطان ، دون أن تلتفتوا إلى مايجمّل العقل ، ويغذى الروح ، ويكمل النفس .. « حتى زرتم المقابر » أى نزلتم فى قبوركم ، وإنها ليست دارَ مُقام لكم ، وإنما هى إلمامة تُلمّون بها ، أشبه بالزائر يطرق مكاناً ، ثم يرحل عنه . وهكذا أنتم فى هذه القبور التى ستضمكم يوماً .. إنها زوْرة ، ثم تحوّلون عنها إلى الحياة الآخرة . . إنها منزل على الطريق إلى البعث ، والحساب والجزاء ..

فالخطاب هنا عام للناس جميعاً ، والمؤمنون منهم أولى بهذا الخطاب من غيرهم ، إذ كان يُرجى منهم أن ينتفعوا به ، وأن ينظروا إلى أنفسهم نظراً مجدّداً على ضوئه .

وقوله تعالى :

* « كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقين * لترَوُنّ الجحيم » .

وكلا ، فليس هذا هو الموقف السليم الذى ينبغى أن يقفه الإنسان فى الحياة ، وليس هو الطريق القويم الذى يحق له أن يسلكه .. فإن جمع المال للتلهى به ، وإشباع شهوات النفس منه ، وإرضاء غرورها بالتعالى والتشامخ على الناس ، لا لكسب محمدة ، أو قضاء حق لله أو للناس ـ هو ضلال ووبال .. وستعلمون حقيقة هذا لو أنكم نظرتم نظراً عاقلا مستبصراً ، ثم كلا .. إنكم لم تحسنوا النظر ، ولم تُعملوا الفكر ، فما زال علمكم بما أنتم عليه من ضلال ، علماً لا يحرك شعوراً ، ولا يثير خاطراً ، ولا ينزع بكم إلى أخذ اتجاه غير اتجاهكم .. فأعيدوا النظر ، وجددوا البحث فى حالكم تلك ، وسوف تعلمون .. وكلا .. فهذا العلم الجديد الذى علمتموه لايُعدّ علماً ، فما زلتم فى شك وريب من البعث والحساب

والجزاء ، ولو كان علماً عن يقين ، لتغير حالكم ، ولما كان هذا موقفكم فى الحياة . .

فلو كنتم تعلمون علم اليقين « لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين » ، وأنتم فى هذه الدنيا ، ولعلمتم أن العذاب هو جزاء أهل الضلال ، وأن العاقل ليرى جهنم فى الدنيا وكأنها ماثلة بين عينيه ، فيتوقاها بالإيمان بالله ، والعمل الصالح ، ويخاف مقام ربه ، ويخشى لقاءه بما يجنى من منكرات . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب » (١٨ : فاطر) .

وقوله تعالى : « ثم لترونها عين اليقين » أى لرأيتم الجحيم فى الدنيا رؤية علمية يدلكم عليها العقل ، فكأنها ماثلة بين أعينكم .. ثم إنكم بعد ذلك : « لترونها عين اليقين » أى رؤية بصرية ، واقعية ، حيث يشهدها كل من فى المحشر ، ويراها رأى العين ، كما يقول سبحانه : « وإن منكم إلا واردها » (٧١ : مريم) وكما يقول جل شأنه : « وبرزت الجحيم لمن يرى »(٣٦ : النازعات)

وتوكيد جواب « لو » هنا لتحقق وقوعه مستقبلا . .

وذلك لأن « لو » حرف يمتنع جوابها لامتناع شرطها .. وذلك محقق فى الماضى ، لأن الشرط لم يقع ، فامتنع لذلك وقوع الجواب ..

فإذا جاء الشرط والجواب مضارعين ، كان الحكم معلقاً ، فقد يقع الشرط فيقع تبعاً لذلك الجواب ، وقد لايقع الشرط فلا يقع الجواب .. تقول لوجاء الضيف لأكرمته .. وهذا يعنى أن الضيف لم يجىء وبالتالى لم يقع إكرامه .. وتقول لو يجىء الضيف لأكرمنّه .. فالضيف لم يجىء بعد ، وقد يجىء ، فإذا جاء لم يكن بدٌّ من إكرامه . . والتوكيد للفعل هنا واجب ، لأنه حلّ محل

فعل غَلَب أن يكون ممتنعاً وقوعه ، وهو جواب لو الماضى الذى يجىء أكثَرَ مايجىء فعلا ماضياً ، فلزم توكيدالجواب هنا ، ليقطع كل احتمال لامتناع وقوعه .

وقوله تعالى :

* « ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم » .

أى ثم إذ ترون الجحيم فى الحشر ، تحاسبون على ما أنعم الله به عليكم من نعم ، وأجلّها العقل ، والرسول ، والقرآن .. فمن رَعَى هذه النعم ، وأدى واجب الشكر عليها ، نجا من هذه النار ، ونزل منازل المؤمنين فى الجنة ، ومن كفر بهذه النعم ، حُرِمَ نعيم الجنة ، وألقى به فى عذاب الجحيم .

(١٠٣) سورة العصر

نزولها : مكية .. نزلت بعد سورة الانشراح .

عدد آياتها : ثلاث آيات .

عدد كلماتها : أربع عشرة كلمة .

عدد حروفها : ثمانية وستون حرفاً .

مناسبتها لما قبلها

الإنسان الذى ألهاه التكاثر بالأموال ، والتفاخر بالجاه والسلطان ، دون أن يتزود للآخرة بزاد الإيمان والتقوى ، هو هذا الإنسان الخاسر .. وأى خسران أكثر من أنه اشترى الدنيا بالآخرة ؟ وهذا ماجاءت سورة العصر لتقرره ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ - ٣)

« وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) »

التفسير :

قوله تعالى:

* « والعصر » .

هو قسم بهذا الوقت من أوقات الزمن ، وهو الساعات الأخيرة من النهار.. وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بأجزاء من الزمن ، كالفجر ، والضحى ، والليل ، والنهار ..

وفى القسم « بالعصر » تنويه بشأن هذا الوقت من الزمن ، الذى تبدأ فيه الأحياء تجمع نفسها ، وتعود إلى مأواها بما حصّلت وجمعت فى سعيها فى الحياة .. وإنه لجدير بالعاقل أن يحاسب نفسه على ماعمل فى يومه هذا ، وماحصل فيه من خير ، وما اقترف فيه من إثم .. إنه وقت محاسبة ومراجعة لأعمال اليوم ، وتصحيح الأخطاء التى وقع فيها ، فلا يستأنفها فى غده .. ولهذا كانت صلاة العصر هى الصلاة الوسطى ـ على ماجاءت به الأخبار الصحيحة ، وقرره معظم أهل العلم ـ تلك الصلاة التى نوه الله سبحانه وتعالى بها ، فقال تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » (٢٣٨ : البقرة) .

وقوله تعالى :

* « إن الإنسان لفى خُسر » .

هو المقسَم عليه ، وهو جواب القسم ..

والإنسان فى خسر ، أى فى ضلال ، لأنه لم يعرف قدره ، ولم يرتفع بإنسانيته إلى المقام الذى أهّله الله سبحانه وتعالى له .. فلقد خَلَق الله سبحانه الإنسان فى أحسن تقويم ، ولكن الإنسان لم يلتفت إلى هذا الخلق ، ولم يقْدُرْه قدره، ولم يأخذ الطريق الذى يدعو إليه العقل ، بل انقاد لشهواته ، واستخف بإنسانيته، وتحول إلى عالم البهيمة ، يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام ..

ذلك هو شأن الإنسان فى معظم أفرادهوأحواله . . وقليل هم أولئك الذين عرفوا قدر إنسانيتهم ، وما أودع الله سبحانه وتعالى فيهم من قوى قادرة على أن ترتفع بهم إلى الملأ الأعلى ، لو أنهم أحسنوا استعمالها ، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه وتعالى بقوله :

* « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوْا بالحق وتواصوا بالصبر » .

فهؤلاء هم الإنسان الكريم عند الله ، الذى يلقاه ربه بالرضا والرضوان ..

إنهم هم الذين آمنوا بالله ، وعرفوا مالله سبحانه وتعالى ، من كمال وجلال .. فاستمسكوا بالحق ، وهو الإيمان ، وما يدعو إليه ، وما ينهى عنه . . ثم تواصوا به فيما بينهم ، فنصح بعضهم لبعض بالاستقامة عليه ، والتمسك به ، وفى هذا ما يقوّى من جبهة الحق ، ويكثّر من أتباعه .

وفى قوله تعالى : « وتواصوا بالصبر » ـ إشارة إلى أن طريق الإيمان ، والاستقامة على شريعته ليس أمراً هيناً ، فإن ذلك إنما يحتاج إلى معاناة وصبر على مغالبة الشهوات ، وقهر دواعى الأهواء ، ووساوس الشيطان . . فطريق الحق طريق محفوف بالمكاره ، والصبر هو زاد الذين يسلكون طريقه ، ويبلغون به غايات الفوز والفلاح ..

(١٠٤) سورة الهمزة

نزولهـــا : نزلت بمكة . . بعد سورة القيامة .

عدد آياتهـــا : تسع آيات .

عدد كلماتهـا : ثلاث وثلاثون كلمة .

عدد حروفهـا : مائة وثلاثون حرفا .

مناسبتها لمـــا قبلها

فى سورة العصر أقسم الحقّ جلّ وعلا « بالعصر » على أن الإنسان فى خُسْرٍ ، مستثنياً الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوْا بالحق ، وتواصَوْا بالصبر .

وفى هذه السورة (سورة الهمزة) عرض للإنسان الخاسر ، ومن أين كان خسرانه ، وإلى أين يكون مصيره .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ ـ ٩)

* « وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ (٤) وَمَآ أَدْرَاكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ (٥) نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ (٦) ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨) فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (٩) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ » .

« الهُمَزَةُ » هو الذى يَهمز الناسَ ، أى يُؤْذِيهم بقوارص الكَلِم جهرةً ، فيخدش حياءهم ، ويمتهن كرامتهم ، ليزداد هو عُلوًّا وتطاولاً على الناس ، ولتَخِفَّ موازينهم إزاء ميزانه ، فلا يرتفع أمامه رأس ، ولا يشمخ أنف .

و « اللُّمَزة » هو الذى يُنقِص من أقدار ذوى الأقدار ، فى غير مواجهتهم ، إذ كان لا يستطيع أن يلقاهم وجهًا لوجه . فيُشِيع الفاحشة فيهم ، ويذيع قالة السوء عنهم .

فالهَمْزُ واللَّمز غايتهما واحدة ، وهى الحطُّ من أقدار الناس ، ومحاولة إنزالهم منازلَ الدّون فى الحياة . . وإن كان الهمز بأسلوب العلانية ، واللمز بأسلوب السرّ والخفاء . . ومن كان من شأنه الهَمز كان من شأنه اللمز كذلك ، والعكس صحيح . . إذ هما ينبعان من طبيعة واحدة .

وقوله تعالى :

* « الذى جمع مَالاً وَعَدَّدَه »

هو من أوصاف هذا الهُمَزَةُ اللُّمَزة ، الذى توعّده الله سبحانه وتعالى بالويل والعذاب . .

فأ كثرُ الناس هَمْزًا ولمزًا للناس ، هو الذى يَحرص على جمع المال ، ويجعل هذا الجمع كلّ همّه فى الدنيا . .

وإنه لكى ينفسح له طريق الجمع ، ويخلوَ له مَيدان الكسب ، يُحارِب الناسَ بكل سلاح ، فلا يدع فى الميدان الذى يعمل فيه إنسانًا إلا طعنه

الطعنات القاتلة متى أمكنته الفرصة فيه . . بالهمز حيناً ، وباللمز أحياناً .

ثم إنه من جهة أخرى — إذ يجمع ما يجمع من مال — حريص على أن يدفع عن هذا المال كل عادية يراها بأوهامه وظنونه ، فهو لشدة حرصه على ما جمع ، يَحسب أن كل الناس لصوص يريدون أن يسرقوه ، أو قطاعُ طرق يتربصون به . . وهو لهذا يرمى الناس بكل سلاح ، ويطعنهم بكل ما يقع ليده . . وكأنهم متلبسون بسرقة ماله الذى جمع ! !

ثم هو من جهة ثالثة ، حريص على أن يقيم له من هذا المال الذى جمعه ، سلطاناً على الناس ، لا بما ينفق عليهم منه فى وجوه الخير ، ولا بما يَمُدّ به يده إليهم من معروف ، بل بما يُرِى الناسَ من غناه وكثرة أمواله . . وهو لهذا يعمل على إعلاء نفسه بهدم غيره ، والحطّ من منزلته . . وهذا هو الإنسان فى أسوأ أحواله ، وأخسّ منازله . . إنه لا يسمو بذاتيته ، ولا يرتفع بسعيه فى وجوه الخير والفلاح ، بل إنه يرتفع على حطام الناس ، ويعلو على جثث ضحاياه ، الذين يريق دمهم بهمزه ولمزه .

وهذا هو السرّ — والله أعلم — فى الجمع هنا بين الهُمَزَة اللُّمزة ، وجامع المال ومكتنزه .

فالهمز واللمز ، وإن كان طبيعة غالبة فى الناس من أغنياء وفقراء ، إلاّ أنه عند الذين همُّهم كلّه هو المال ، يُعدّ سلاحًا من الأسلحة العاملة لهم فى جمع المال ، وفى حراسته ، وفى التمكين لهم من التسلط على الناس به .

وعدّدَ المالَ : جمع بعضَه إلى بعض فى صفوف متراصّة ، وفى صنوف متعددة ، كل صِنف منها يأخذ مكاناً خاصًّا به ، فهذا ذَهَب ، وذاك فِضة ، وذا جواهر ولآلىء ، وتلك أنعام وزروع ، ورياض ، وهذه دور وقصور ، وأثاث ورياش ، إلى غير ذلك مما يُعدُّ من عالم المال ، ويُحسب بحسابه .

وقوله تعالى :

* « يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَه »

جملة حالية تكشف عن ظنون هذا الإنسان وأوهامه ، وهو أنه على ظنٍّ من أن هذا المال الذى جمعه ، سيخلّده ، ويَمُدّ له فى الحياة ، وأنه بقدر ما يستكثر من المال بقدر ما يكون له من بقاء فى هذه الدنيا .. هكذا شأن الحريصين على المال ، الذين اتجه همهم كلّه إلى جمعه .. إنهم لا يذكرون الموت أبداً ، ولا يَغْشَون مكاناً يذكّرهم به ، ولا يستمعون إلى حديث يذكّر فيه . إن الموت عندهم هو عدوٌّ قد قتلوه بأمانيّهم الباطلة ، وأراحوا أنفسهم منه ، فما لهم والحديثَ عنه ؟ وما لَهم وما يذكّرهم به ؟

وقوله تعالى :

* « كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ » .

أى كلاَّ ، إنه فى وهمٍ خادع ، وفى ضلال مبين ، إذ يَحسب أن المال يُخلِّد صاحبَه ويَمُدُّ له فى العمر .. وكلا إنه سيموت ، وسيُبعث ، وسيُنبذ أى يُرمَى فى الْحُطمة ، أى جهنّم ، التى تحطمه حطماً ، وتدقّه دقًّا ، وتهشمه هشماً ..

ونبذ الشىء : طرحه فى غير مبالاة ، هواناً له واستخفافاً به .. كما تُنبذ النواة من الثمرة بعد أن تؤكل .

وقوله تعالى :

* « وما أَدْرَاكَ ما الْحُطَمَة ؟ نَارُ اللهِ الْمُوقدة » .

استفهام عن الحطمة ، يلفت النظر إليها ، ويُدير العقل للبحث عن حقيقتها ..

وجواب يُجيب عن هذا السؤال ، ليكشف عن حقيقة هذه الحطمة ، ليلتقى مع ما وقع فى النفس من تصورات لها ، فتزداد حقيقتها وضوحاً وبياناً .
إنها نار الله الموقدة . . قد أوقدها الله ، فكانت نارَ لله ، وليست من تلك النار التى يوقدها الناس ! .

وقوله تعالى :

* « التى تَطَّلِـع على الأفئدة » .

أى أنها نار ذات شأن عجيب ، ليس فى نار الدنيا شىء من صفاتها وآثارها . . إنها تطلع على الأفئدة ، أى أنها لا تتسلط على الأجسام وحسب ، بل إنها تتسلط كذلك على المشاعر والوجدانات ، فتشتعل بها المشاعر ، وتحترق بها الوجدانات . . وقد يكون فى هذا ما يشير ـ والله أعلم ـ إلى أن عذاب أهل النار نفسىّ ، أكثر منه مادىّ .

وقد قيل إن معنى الاطلاع على الأفئدة ، هو أن هذه النار العجيبة تعرف أهلها ، وكأنّها اطلعت على سرائرهم ، وما عملوا من منكرات ، فتدعوهم إليها ، وتمسك بهم ، وتشتمل عليهم ، كما يُشير إلى ذلك قوله تعالى : « تدعو من أدبر وتولّى وجمع فأوعى » (١٧ ـ ١٨ المعارج) وقوله سبحانه : « إذا رأتهم من مكان بعيدٍ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً » (١٢ : الفرقان) .

قوله تعالى :

* « إنّها عليهم مؤصدة • فى عَمَدٍ ممدّدة » .

أى أن هذه النار مؤصدة ، أى مغلقة على أهلها ، مطبقة عليهم ، لايجدون لهم فيها منفذاً إلى العالم الخارجى . . أما هم ، فهم مشدودون إلى عمد ممددة ، قد شدت أغلالهم إليها . . فهم بهذه القيود فى سجن ، داخل هذا السجن !

وقد قلنا فى غير موضع إن هذه الأوصاف التى توصف بها أدوات العذاب ، فى النار ، وتلك الأوصاف التى توصف بها ألوان النعيم فى الجنة ، هى مما نعيشه فى الدنيا ، ونرى مشابه منه كما نطق به القرآن الكريم ، أما كُنْه هذه الأشياء وحقيقتها ، فلا يعلمها إلا الله ، سبحانه ، وعلينا أن نصدق بها كما وردت ، دون أن نبحث عن صفاتها ، وحدودها

(١٠٥) سورة الفيل

نزولها : مكية . . نزلت بعد سورة « الكافرون » .

عدد آياتها : خمس آيات .

عدد كلماتها : ثلاث وعشرون كلمة .

عدد حروفها : ثلاثة وتسعون حرفا .

مناسبتها لما قبلها

فى سورة « الهمزة » عرض لمن جَمَع المالَ ، واتخذ منه سلاحا يغمز به الناس ، ويهمزهم ، ويمزق أديمهم ، ويزيل وجودهم الإنسانى بين الناس . .

وسورة «الفيل» تعرض لجماعة من تلك الجماعات ، التى اجتمع ليدها قوة من تلك القوى المخيفة ، هى الفيل ، الذى يشبه قوة المال فى طغيانه ، حين يجتمع ليد إنسان جهول غشوم ، طاغية ، فيتسلط على الناس ، كما يتسلط صاحب الفيل على صاحب الحمار ، أو الحصان، مثلا . . فكان عاقبةَ صاحب هذا الفيل الهلاكُ والدمار ، كما كان عاقبةَ صاحب هذا المال ، الذلُّ والخزى ، والخسران . .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ ـ ٥)

* « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) »

التفسير :

فيما يحدث به التاريخ ، وتتوارد عليه الأخبار الصحيحة ، تلك الحادثة التى تُسمى حادثة الفيل ، والتى أرخ بها العرب الجاهليون ، كما كانوا يؤرخون بالأحداث العظيمة ، التى تقع لهم فى مسيرة حياتهم . . فاتخذوا عامَ الفيل مبدأ لمرحلة من مراحل التاريخ عندهم . .

وحادثة الفيل ـ كما تروى كتب التاريخ والسير ـ كانت عام ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم . . وأن مسرحها كان مكة ، البلدَ الحرام ، وأن مقصدها كان هدمَ الكعبة والبيت الحرام !

قيل إن قائداً حبشياً اسمه « أبرهة » ، كان قد غلب على اليمن ، ثم رأى تعظيمَ العرب الكعبة ، وإقبالهم عليها ، وتمسحهم بها ، فأراد أن يجعل وجهة العرب إليه ، فبنى بَنِيّة ، أراد بها أن يحج العرب إليها ، وأن ينصرفوا عن الكعبة . . فلما لم يجد منهم استجابة لدعوته ، ولا التفاتاً إلى بنيته ، قرر أن يهدم الكعبة ، ويزيل معالمها ، حتى لا يكون للعرب متجه إليها ، فيخلو بذلك وجههم لهذه البنية التى بناها . . فسار بجيش كثيف ، يتقدمه فيل عظيم ، كان

عدّةً له من عدد الحرب التى يُرهب بها أعداءه . . فلما سمعت قريش بمقدم أبرهة بهذا الفيل الذى يتهددهم به ، فزعت ، وهالها الأمر . .

قالوا : ونزل أبرهة بجيشه وفيله بمكان اسمه « المغمّس » على مشارف مكة ، وحط رحاله هناك ، استعداداً لدخول مكة ، وهدم الكعبة ..

ثم إنه استدعى إليه صاحب كلمة قريش يومئذ ، وكان عبدَ المطلب بن هاشم ، جدّ النبي . . فجاء إليه ، فكلمه أبرهة فيما جاء له ، وأنه لا يريد شرًّا بالناس ، وإنما جاء ليهدم الكعبة ، فإن أخلت قريش بينه وبين الكعبة لم يعرِض لهم بسوء ، وإلا فقد عرفوا ما سوف ينزل بهم من بلاء !! فقال له « عبد المطلب » : دونك وما تشاء . . ولكن رُدّ إلينا ما احتواه جيشك من أموالنا . . وكان جيش أبرهة قد ساق كل ما صادفه فى طريقه من إبل وشاء ، وعبيد ، مما كان على مواقع المراعى لقريش .. فقال أبرهة : أحدثك فى شأن الكعبة ، وتحدثنى عن الإبل والشاء ؟ أترى هذه الأنعام أكرمَ عندكم وأغلى من هذا البيت الذى تعظمونه ؟ فقال « عبد المطلب » هذه الأنعام لنا ، أما البيت فله ربّ يحميه ! !

قالوا : ودعا عبد المطلب قريشاً إلى أن يخرجوا من مكة إلى شعابها ، وجبالها ، وأن يدعوا أبرهة والبيت الحرام ..

وفى صبيحة اليوم الذى تأهب فيه أبرهة لدخول البلد الحرام ، فشا فى جيشه الجدرى ، فهلك الجيش جميعه .

قالوا ، وكان ذلك أول عهد العرب بهذا الداء ، الذى لم تعرفه من قبل . .

وقالوا : إن هذا الداء كان يهرى جسد من يلمّ به ، حيث يتناثر لحمه ، ويتساقط ، قطعاً قطعاً ، كما تتساقط الرمم المتعفنة . .

وهكذا قُضى على الجيش كله ، ولم تبق منه إلا تلك الأشلاء الممزقة ، المتناثرة .

والقرآن الكريم ، لايشير إلى هذا الداء ـ داء الجدرى ـ الذى يقال إنه هو الذى هلك به أبرهة وجيشه ، وإنما يتحدث عن طيرٍ أبابيل ، رمت القوم بحجارة من سجيل ، فجعلتهم كعصفٍ مأكول ، كما يقول سبحانه :

* « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم فى تضليل »

وهو استفهام تقريرى تنطق به الحال المشاهدة . .

والتضليل : الضياع ، والخيبة ، والبوار . .

وقوله تعالى :

* « وأرسل عليهم طيراً أبابيل » . .

الأبابيل : الجماعات ، والأسراب التى يتبع بعضها بعضاً . .

وقوله تعالى :

* « ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصفٍ مأكول . . » .

أى أن هذه الأسراب من الطير كانت ترمى القوم بحجارة من سجيل . .

وهذه الحجارة لا يدرى حقيقتَها إلا الله سبحانه وتعالى ، والأوصاف التى يصفها بها المفسرون والمحدّثون لاينبغى الوقوف عندها . . وهل يُسأل عن عصا موسى وكيف كانت تنقلب حيـة ؟ وعن يد عيسى وكيف كانت تبرىء الأكمه والأبرص ، وعن كلمته ، وكيف كانت تحيي الموتى ؟ . . إنها آيات من عند الله ، وآيات الله ، وإن لبست فى الظاهر صوراً حسية ، فإن فى كيانها أسراراً لايعلمها إلا علام الغيوب . . وهذه الطير ، هى طير ، والذى كانت تحمله وترمى به القوم ، هو حجـارة من سجيل . . أما جنس هذا الطـير ، وصفته ، وأما الأحجار وصفتها فذلك مالا يعلمه إلا الله ، والبحث عنه رجم بالغيوب . .

هذا ، ويُطلَق الطير على كل ما طار بجناحين ، سواء أكان بعوضاً ، أم ذباباً ، أم نسوراً ، وعقباناً . .

والسجيل : الحجارة الصلدة ، وأصل السجيل ، الطين المطبوخ .

والعصف : الكِمّ الذى يضم الحب فى كيانه ، كحب القمح ، والشعير ، ونحوه . . كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « والحبُّ ذو العصف » .

والعصف المأكول : أى الذى أكل منه الحب ، وبقى هذا القشر الرقيق الذى كان يغلّفه . . ولا شك أن هذا الذى أخذ الله سبحانه وتعالى به هذا الطاغية الذى جاء ليهدم بيت الله ، هو آية من الآيات الدالة على ما لهذا البيت عند الله من حرمة ، وأنه بيته على هذه الأرض ، الذى كان أول بيت وضع للناس ، وسيكون آخر بيت يبقى على وجه الأرض . . وأنه لا يزول حتى تزول معالم الحياة من هذا العالم . . ثم إن وقوع هذه الآية مع مطلع ميلاد النبى ، هو آية من آيات الله ، على ما لرسول الله عند ربه من مقام كريم ، فلا ينزل سوء ببلد هو فيه . . إنه صلوات الله وسلامه عليه ـ رحمة حيث كان . . رحمة للناس ، وبركة على المكان والزمان . . فرحم الله قومه ، وأكرمهم من أجله ، فلم ينزل به ما نزل بالأقوام الضالين الذين عصوْا رسلهم ، بل عافاهم الله سبحانه من هذا البلاء وأخذ بهم إلى طريق الهدى والإيمان . وكذلك فعل سبحانه بالبلد الحرام ، مطلع نبوته ، ومبدأ رسالته ، فحماها من كل سوء ، ودفع عنها كل مكروه . . فى ماضيها ، وحاضرها ومستقبلها ، وستبقى هكذا إلى يوم الدين ، البيتَ المعمور ، الذى تتجه إليه أبداً قلوب الأمة الإسلامية ووجوهها .

* * *

(١٠٦) سورة قريش

نزولها : مكية .. نزلت بعد سورة التين ..

عدد آياتها : أربع آيات ..

عدد كلماتها : تسع عشرة كلمة ..

عدد حروفها : ثلاثة وسبعون حرفاً ..

مناسبتها لمـــا قبلها

أشارت سورة « الفيل » إلى هذه المنّة العظيمة التى امتن بها الله سبحانه وتعالى على « قريش » إذ دفع عن بلدهم الحرام ، وعن بيته الحرام هذا المكروه ، وردّ عنهم هذا البلاء ، وأخذ المعتدى على حرمة هذا البيت أخذَ عزيز مقتدر . . وبهذا وجدت قريش فى هذا البلد أمنها ، ووجدت فى جوار البيت الحرام حماها ، وصار لها فى قلوب العرب مكانة عالية ، وقدر عظيم ، لا يستطيع أحد أن يحدّث نفسه بسوء ينال به أحداً من أهل هذا البلد الحرام ، وقد رأى ما صنع الله بمن أراد به أو بأهله سوءاً . .

وجاءت سورة « قريش » بعد هذا ، وكأنها تعقيب على حادثة الفيل ، ونتيجة لازمة من نتائج هذه الحادثة .. ولهذا وصل كثيرٌ من العلماء هذه السورة بسورة الفيل ، وجعل اللام فى قوله تعالى : « لإيلاف قريش » لام تعليل ، متعلقاً بقوله تعالى « فجعلهم كعصفٍ مأكول » .. أى جعلهم كعصفٍ مأكول لإيلاف قريش .. كما سنرى ذلك بعد ..

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ ـ ٤)

« لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) »

التفسير :

الإيلاف : من التأليف ، والجمع ، فى تجانس وألفة ، ومودة ..

فقوله تعالى : « لإيلاف قريش » أى لأجل أن تألف قريش رحلة الشتاء والصيف ، ولكى تعتاد تنظيمَ حياتها على هاتين الرحلتين ـ كان هذا الذى صنعه الله بهذا العدوّ صاحب الفيل ، الذى جاء يبغى إزعاجهم عن البلد الحرام ، ونزع مافى القلوب من مكانة لهم ، وتعظيم لشأنهم ، باعتبارهم سَدَنة البيت الحرام الذى كانت تعظمه العرب ، وتعظم ساكنيه .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » (٢٥ : الحج) .

وقوله تعالى : « إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » .. هو بدل من قوله تعالى : « لإيلاف قريش » .. أى لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، كان هذا الذى فعلناه بهذا العدو المغير الذى جاء يزعج أهل هذا البلد الآمن .. فكانوا فى رحلتيهم التجاريتين ، فى الشتاء والصيف ، فى أمن وسلام ، لايعرض لهم أحدٌ

بسوء ، فحيث نزلوا وجدوا الألفة والمودة من كل من يلقاهم ، ويعرف أنهم أهل هذا البلد الحرام ..

فقوله تعالى : « رحلة الشتاء والصيف » مفعول به للمصدر « إيلافهم » .

وقد كان لقريش رحلتان للتجارة .. رحلة فى الشتاء ، إلى اليمن ، ورحلة فى الصيف ، إلى الشام ..

والذى يعرف الحياة الجاهلية ، وما كان يعرض المسافرين فى طرقها وشعابها من أخطار ، وما يترصدهم على طريقهم من المغيرين وقطاع الطرق ، يدرك قيمة هذا الأمن الذى كان يصحب قريشاً فى قوافلها المتجهة إلى اليمن أو الشام ، محملة بالأمتعة ، والبضائع ، دون أن يعرض لها أحد .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « أو لم يروْا أنا جعلنا حَرَماً آمناً ويُتخطف الناس من حولهم» (٦٧ : العنكبوت)

ولهذا جاء قوله تعالى : « فليعبدوا رب هذا البيت * الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » ـ جاء تعقيباً على هذه النعمة العظيمة التى أنعمها الله على قريش ، وجعل من حقّ شكرها أن يعبدوا رب هذا البيت ، فهو ـ سبحانه ـ الذى حفظه لهم مما كان يُراد به من سوء ، وحفظ عليهم أمنهم وسلامتهم فيه . فلقد أطعمهم الله سبحانه من جوع ، بما فتح لهم من طرق آمنة يغْدُون فيها ويروحون بتجاراتهم ، وألبسهم لباس الأمن حيث كانوا ، داخل هذا البلد الحرام أو خارجه .. وإنه لا أجلّ من نعمة الأمن يجده الإنسان وسط غابة ، تزأر فيها الأسود ، وتعوى الذئاب !

وفى إضافة البيت إلى الله سبحانه وتعالى ، تشريف لهذا البيت ، ورفع لقدره وتنويه به ..

فالله سبحانه وتعالى ، هو رب هذا البيت ، ورب كلّ شىء فى هذا الوجود ، ولكن إضافة هذا البيت وحده إلى ربوبيته سبحانه وتعالى ، تجعل لهذا البيت

شأنا غير شأن عوالم المخلوقات كلّها .. فهل يعرف المشركون قدر هذا البيت ؟ وهل يحفظون حرمته ، ويرعونها حق رعايتها ؟

وقد أشرنا من قبل ـ فى تفسير سورة القدر ـ إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يُضف إلى ذاته سبحانه فى مقام القسم ـ من عالم البشر غير النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن هذه الإضافة ، تضع النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى كِفة ، وعالم المخلوقات كلها فى كِفة ، وأن كفته ترجح كفة المخلوقات جميعها ، فى سمائها وأرضها ، وما فى سمائها وأرضها .

ونقول هنا ، إن الله سبحانه لم يضف إلى ذاته الكريمة ـ فى مقام الربوبية ـ بيتاً ، غير هذا البيت الحرام .. « رب هذا البيت » .. وهذا يعنى أن هذا البيت ، يرجُح فى ميزانه بيوتَ الله جميعها .

(١٠٧) سورة الماعون

نزولها : مكية .. نزلت بعد سورة التكاثر .

عدد آياتها : سبع آيات ..

عدد كلماتها : خمس وعشرون كلمة ..

عدد حروفها : مائة وخمسة وعشرون حرفاً ..

مناسبتها لما قبلها

جاء فى سورة « قريش » تنويه عظيم بشأن الشِّبع من الجوع ، والأمن من الخوف ، حيث لاحياة بغير طعام ، ولا طعم لحياةٍ بغير أمن !

وجاءت سورة « الماعون » لتضرب ـ والحديد ساخن ـ كما يقولون ـ على أوتار هذه القلوب الجافية ، ولتهزّ تلك المشاعر الجامدة ، التى عرفت طعم الشِّبع بعد الجوع ، وذاقت هداة الأمن بعد الخوف ، حتى تَندَ بالمعروف ، وتسخوَ بالخير ، قبل أن تنسى لذعة الجوع ، ورِعدةَ الخوف .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ - ٧)

« أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) »

التفسير :

« أرأيت الذى يكذب بالدين ؟ » .

خطاب للنبى ، صلوات الله وسلامه عليه ، ولكل من هو أهل للخطاب ، ولتلقّى العبرةَ والعظة منه ..

والاستفهام هنا يراد به إلفات الأنظار والعقول إلى هذا الإنسان الذى يكذب بالدين .. إنه إنسان عجيب ، لا ينبغى لعاقل أن يفوته النظرُ إلى هذا الكائن العجيب وتلك الظاهرة النادرة ! ففيه عبرة لمن يعتبر ، وفيه ملهاة لمن يريد أن يتلهّى ..

والدين : هو الدينونة ، أى الحساب والجزاء فى الحياة الآخرة . .

والذين يكذبون بالدينونة ، والبعث ، والحساب ، والجنة ، والنار ، لا يؤمنون بالله ، وإن آمنوا به فهم لا يوقرونه ، ولا يعرفون قدره . ومن هنا فهم

لا يعملون حسابا للقاء الله ، ولا يقدّمون شيئا اليوم الآخر ، فإنّ من خلت نفسُه من شعور الثواب أو العقاب من الجهة التي يتعامل معها ، فإنه لا يلقاها إلا فى تراخ وفتور ، وعدم مبالاة .

وقوله تعالى :

* « فذلك الذى يدعّ اليتيم * ولا يحضّ على طعام المسكين » .

الفاء واقعة فى جواب شرط مقدر ، يدل عليه الاستفهام فى قوله تعالى : « أرأيت الذى يكذب بالدين ؟ » أى إذا لم تكن رأيته ، فها هو ذا ، فانظر إليه ، وشاهد أحواله ، فهو ذلك الذى يدعّ اليتيم . .

والإشارة مشار بها إلى هذا الذى يكذب بالدين . . إنه ذلك الذى « يدعّ اليتيم » أى يقهره ، ويذِله ، وينزع عنه لباسَ الأمن والطمأنينة إذا وقع ليده ، وعاش فى ظله . . إن اليتيم ضعيف ، عاجز ، أشبه بالطير المقصوص الجناح ، يحتاج إلى اللطف ، والرعاية ، والحنان . . فإذا وقع ليد إنسان قد خلا قلبه من الرحمة ، وجفت عواطفه من الحنان والعطف ـ كان أشبهَ بفرخ الطير وقع تحت مخالب نسر كاسر ، فيموت فزعا وخوفا ، قبل أن يموت تمزيقا ونهشا . .

وقوله تعالى :

* « ولا يحضّ على طعام المسكين » .

أى لا يدعو إلى إطعام المسكين ، ولا يجعل من رسالته فى الناس إطعامَ الجياع . . فإن من لا يحمل همّ الجياع ، ولا يدعو الناس إلى إطعامهم ، لا يجد من نفسه الدافع الذى يدفعه إلى إطعامهم من ذات يده . . ذلك أن الذى يُعرف عنه فى الناس أنه يحضّ على هذه المكرمة ويناذى بها فيهم ـ يستحى أن يدعو إلى فعلٍ ولا يفعله . .

وإنك لن تجد بخيلا أبداً يدعو إلى الإحسان ، لأن كلمة الإحسان تُفزعه، حتى لو نطق بها زوراً وبهتاناً .. فإذا دعا داع إلى الإحسان كان معنى هذا أنه يمكن أن يكون فى المحسنين يوماً ما .. وهذا هو السرّ فى احتفاء القرآن الكريم بالحضّ على فعل المكارم ، فمن حضّ على مكرُمة ، وجعلها دعوة له ، كان قميناً بأن يكون من أهلها عملا ، بعد أن كان من دعاتها قولاً . .

وإذا جاز لإنسان أن يدعّ اليتيم ، ويزعج أمْنَه ، أو يضن على جائع بلقمة يتبلغ بها — وهو غير جائز ، ولا مقبول على أى حال — فإنه لايجوز ولا يقبل أن يكون ذلك من أحد من قريش ، الذين أطعمهم الله من جوع ، وآمنهم من خوف ، من بين العرب جميعاً ..

إنهم يشهدون ذلك فى كل لحظة من لحظات حياتهم : « أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم » (٦٧ : العنكبوت) .

وقوله تعالى :

« فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » .

مناسبة هذه الآيات لما قبلها ، هى أن الصلاة فى حقيقتها نور يضىء ظلام القلوب ، ويجلّى غشاوة النفوس ، لأنها أوثق الصلات التى تصل العبد بربه ، وتقرّبه منه ، وتعرضه لنفحات الرحمة ، فتُشيع فى كيانه الحب والحنان ، حيث يُضْفيهما على عباد الله ، وخاصة الضعفاء والفقراء ، الذين وصّى الله سبحانه وتعالى بهم الأقوياء والأغنياء ، واسترعاهم إياهم .

والصلاة لاتثمر هذا الثمر الطيب ، ولا تؤتى هذا الأُكُل الكريم ، إلا إذا كانت خالصة لله ، يشهد فيها المصلّى جلالَ خالقه ، وعظمة ربه .. وذلك

لا يكون حتى تَصْدُقَ النية ، وتَخْلُص الرغبة ، ويعظم اليقين فى لقاء الله ، والثقة فى أنّ من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

والذين يسهون عن الصلاة ، أى يَغفلون عنها ، ولا يشغلون أنفسهم بها ، وبانتظار أوقاتها ليهيئوا أنفسهم لها ، ويعدوها للقاء الله فى محرابها — هؤلاء ليسوا مصلين فى الحقيقة ، وإن ركعوا ، وسجدوا ، لأن صلاتهم تلك إنما تقع عفواً ، وتجىء حسب ما اتفق ، كأن يكونوا فى جماعة ، وقد أذّن للمؤذن للصلاة ، فيمنعهم الحياء ، أو الخوف من قالة السوء فيهم أن تصلى الجماعة ولا يصلون ، أو أنهم يصلون فى الأوقات التى لا يشغلهم فيها شىء ، ولو كان تافهاً . أما إذا شغلهم عمل ، أو لهو ، فلا يذكرون الصلاة ، ولا يؤثرونها على مابين أيديهم من عمل ، أو لهو ، حتى لكأن الصلاة نافلة من نوافل الحياة ، لاقدْر لها ولا وزن !

فهذا هو السهو ، وهؤلاء هم الساهون عن الصلاة الذين توعدهم الله سبحانه وتعالى بالويل ، لأنهم يراءون الناس ، ويخادعونهم أو يخادعون أنفسهم بها ، وهم لهذا لا ينتفعون بالصلاة ، فلا يأتمرون منها بمعروف ، ولا ينتهون بها عن منكر . .

وقوله تعالى : « ويمنعون الماعون » .

الماعون : من العون ، وهو ما يجد فيه الإنسان عوناً على ما يلمّ به من حاجة وعَوَز . .

والمراد بالماعون هنا الزكاة ، لأنها أوسع الأبواب ، وأجداها فى إسداء العون ، للفقير ، والمسكين ، وابن السبيل . .

فالويل إنما يتجه الوعيد به هنا ، إلى الذين لا يقيمون الصلاة على وجهها ، ولا يؤدّون الزكاة على تمامها وكمالها ، طيبةً بها أنفسهم ، منشرحة بها صدورهم . .

فهم يمنعون الزكاة ما استطاعوا منعها، ويؤدونها إذا قام عليهم سلطان قاهر، يرصد أموالهم، ويستخرج منها زكاتهم، كما يستخرج رجال الأمن المال المسروق من جيب السارق !!

وفى قوله تعالى : « فويل للمصلين » ـ وفى جعل هاتين الكلمتين آيةً ذاتَ دلالة مستقلة، مستوفية أركان الجملة المفيدة من مبتدأ وخبر ـ فى هذا إعجاز من إعجاز البلاغة القرآنية، حيث تهزّ هاتين الكلمتين أقطار النفس، وتستثير دواعى الفكر، حين يجد المرء نفسه بين يدى هذه الحقيقة الغريبة المذهلة : « ويل للمصلين » !! وكيف يكون الويل للمصلين، والصلاة عماد الدين، وركنه المتين، وعليها يقوم بناؤه، وبها تشتد أركانه، وتثبت دعائمه ؟ أهذا ممكن أن يكون ؟ ويجىء الجواب نعم ! وكيف ؟ إنها صلاة الساهين عنها، المستخفين بها، الذين يأتونها رياء ونفاقاً . . وإن الذين لا يؤدون الصلاة أصلاً، ممن يؤمنون بالله، لهم أحسن حالا، من هؤلاء المصلين المرائين، لأن الذين لا يؤدونها أصلا، لم يتعاملوا بالصلاة بعد، ولم يزنوها بهذا الميزان البخس، ولو أنهم صلّوا فقد يقيمونها على ميزان يعْرف قدرَها، ويبين عن جلالها، وعظمة شأنها . . أما الذى يصلى ساهياً عن الصلاة متغافلا عنها، مستخفّا بها ـ فقد بان قدر الصلاة عنده ووزنها فى مشاعره .. وهو قدر هزيل، ووزن لا وزن له، ومن هنا كان جزاؤه هذا الوعيد بالويل والعذاب الشديد . .

* * *

(١٠٨) سورة الكوثر

نزولها : مكية نزلت بعد سورة العاديات

عدد آياتها : ثلاث آيات

عدد كلماتها : عشر كلمات

عدد حروفها : اثنان وأربعون حرفاً

مناسبتها لما قبلها

فى سورة « الماعون » ، توعد الله الذين لا يقيمون الصلاة ، ولا يؤدّون الزكاة لأنهم مكذبون بالدين ، غير مؤمنين بالبعث والحساب ، والجزاء ـ توعد الله سبحانه هؤلاء ، بالويل والهلاك ، والعذاب الشديد فى نار جهنم ..

وفى مقابل هذا ، جاءت سورة الكوثر تزفّ إلى سيد المؤمنين بالله واليوم الآخر ، هذا العطاء الجزيل ، وذلك الفضل الكبير من ربه .. ومن هذا العطاء ، وذلك الفضل ، ينال كلّ مؤمن ومؤمنة نصيبه من فضل الله ، وعطائه على قدر ما عمل ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ ـ ٣)

* « إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ (٣) »

التفسير :

الكوثر : مبالغة فى الكثرة ، والمراد بالكثرة هنا ، الكثرةُ فى العطاء من الخير والإحسان ، والخطاب هنا للنبى صلوات الله وسلامه عليه .

والمراد بهذا الخبر هو التنويه بمقام النبىّ الكريم عند ربه جلّ وعلا ، وبرضاه عنه ، ذلك الرضا الذى لاحدود له ، والذى تملأ القطرة منه وجوهَ الوجود ، بشاشةً ، ومَسَرّة ، وإسعاداً . .

وفى إطلاق لفظ الكوثر ، دون قيده بنوع ، أو قدْر - إشارة إلى تناوله كل ماهو خير ، وبلوغه إلى مالا يُعرف له نهاية أو حدّ ، كما أنه إشارة أخرى إلى أنه خيرٌ ، وخيرٌ مطلق ، مصفّى من كل شائبة ، خالص من كل كدَرَ .. ذلك أنه عطاء ، والعطاء لا يكون إلا مما هو خير ، وإحسان ، فكيف إذا كان عطاء من يد الله سبحانه وتعالى ؟ . . إن صفة هذا العطاء هى من صفات المعطِى جلّ وعلا . . فلا تَسَلْ بعد هذا مايكون هذا العطاء ! « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » . . وإنه لحسْب المؤمن إذا دعا ربه أن يقول : « اللهم أعطنى ، ولا تحرمنى » .. فإذا تقبل الله دعاءه ، فليسعدْ السعادة كلها بما أعطى من عطاء ربه ! فاللهم أعطنا ولا تحرمنا ، واللهم استجب لنا ولا تردنا ، فأنت خير من أعطى ، وأكرم من سئل ..

ولعلك تسأل : وماذا أُعطى النبى الكريم ؟ .

لقد أعطى الله سبحانه وتعالى النبى الكريم خيرَ ما أعطى عبداً من عباده . . وحسبه أنه خاتَم النبيين ، وحسبه القرآن الذى كمل به دين الله ، وتمت به شريعته ، وحسبه الدعوةُ التى قام عليها ، وبلَغَ بها غايتها ، وأقام بها دين الله فى الأرض ، وغرس مغارسه فى مشارقها ومغاربها .. وحسبه أن رفع الله

تعالى ذكره فى العالمين إلى يوم الدين. وحسبه أن أسرى به مولاه إلى السموات العُلا ، واستضافه فى الملأ الأعلى ، وأراه من آيات ربه الكبرى .. « ألم نشرح لك صَدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك » .. « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى » .. « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » (١١٣ : النساء) .. « ولسوف يعطيك ربك فترضى » ..

هذا بعض ما أعطى الله سبحانه نبيّه الكريم ، وإنّ عطيةً واحدة من هذه العطايا لتملأ الدنيا كلها خيراً وبركة ، وتسع الناس جميعاً سعادة ورضا !

وهذا هو ميزان الرسول الكريم عند ربه ، دون الناس جميعاً .. وإنه ميزان ليرجُح كل ما أُعطى الناسُ من جزيل عطايا الله سبحانه وتعالى ومننه .. فكل ما أعطى الناس بعد هذا ، أو قبل هذا ، من مال وبنين ، ومن علم ومعرفة ، ومن هدى ونور ، وكل ما أصابوا من خير مادى أو معنوى — هو من بعض هذا الذى أعطى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .. فما أعظم هذا الغنى وما أطيبه ، وما أبقاه وأخلده .. « ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خيروأبقى » (١٣١ : طه)

وهل يلتفت رسول الله بعد هذا إلى ماعند الناس مما رزقهم الله من مال وبنين ؟ وهل يرى شيئاً من حطام الدّنيا يجرى مع هذا الذى أعطاه الله ، ويأخذ له مكاناً فيه ؟ وهل تشتهى نفسٌ بين يديها مائدة حافلة بطيب الطعام ، وصنوف المآكل ، إلى فتات فى مزبلة يتداعى عليها الذباب ؟

وقوله تعالى :

* « فصل لربك وانحر » .

الفاء هنا للسببية ، والتعقيب على هذه البشرى المسعدة التى شرح سبحانه

وتعالى بها صدر النبي الكريم ، وملأ قلبه بها سعادة ورضا . . وإذن فليشكر ربّه ، وليسبح بحمده ، عرفاناً بهذا العطاء الجزيل ، وتقديراً لقدره . .

والصلاة ، هي أفضل القربات إلى الله ، وأعظم وسائل الزّلفى إليه ، والولاء له . . واللام في قوله تعالى : « لربك » لام الملكية ، أي صل الصلاة لله وحده ، واجعلها خالصة له سبحانه ، لا يدخل عليها شيء من الغفلة ، أو الاشتغال بغير الله . .

وقوله تعالى : « وانحر » أي أطعم الفقراء والمساكين . . فهذا من الزكاة التي هي أخت الصلاة . .

وقد اختلف المفسرون في هذه الصلاة : أهي صلاة عيد الأضحى ، أم هي الصلاة على إطلاقها . . وكذلك اختلفوا في النحر ، وهل هو ما ينحر من الأضاحي ، يوم عيد النحر ، بعد الصلاة ، أم هو النحر إطلاقاً ؟ والأولى عندنا أن تكون الصلاة مطلقة ، لا يراد بها صلاة عيد الأضحى ، بل المراد بالأمر بها المداومة عليها ولو كانت صلاة عيد الأضحى ، لخفّ في مقابلها وزن هذا العطاء الجزيل الذي أعطاه الله نبيه ، في قوله تعالى : « إنا أعطيناك الكوثر » . . فصلاة عيد الأضحى ركعتان لا غير في كل عام . . ثم إن صلاة العيد هذه ليست فرضاً ، وإنما هي سنة !! فهل هاتان الركعتان تتوازنان مع هذا العطاء الجزيل ، وهل يقومان بواجب الشكر عليه ؟

فالمراد بالصلاة إذن هي الصلاة مطلقة في فرائضها ، وسننها . . ونوافلها . . وهي صلاة تكاد تكون مستغرقة معظم الأيام والليالي مدى العمر . . وهذا ما يمكن أن يكون في مقام الحمد والشكر على ما أعطى النبي الكريم من ربه ، هذا العطاء الجليل الكثير ، الذي لا حدود له . .

وعلى هذا ، فالقول بأن المراد بالنحر ، هو نحر الأضحية بعد صلاة العيد ،

قول متهافت ، وأولى منه أن يُراد به مطلق النحر ، وأن يراد بمطلق النحر ، إطعام الفقراء والمساكين ، وأن يراد بإطعام الفقراء والمساكين الزكاة ، إذ كان من بعضها مايطْعَم منه الفقراء والمساكين .. وعُبّر عن إطعامهم بما ينحر من ذبائح ، لأن ذلك خير مايُطعمونه إذ كان اللحم هو الطعام الذى يتشهاه الفقراء والمحرومون ، ولا يجدون سبيلا إليه ، وإن وجدوا السبيل إلى لقمة العيش !!

وقوله تعالى :

* « إن شانئك هو الأبتر » .

الشانىء : هو المبغض ، والمعادى ، والمتجنب لمن يبغضه ويعاديه ..

والأبتر : المنقطع عن كل خير ، المحروم من كل مافيه غَناء ونفع ..

وشانىء النبىّ ، هو المكذّب له ، الكافر بما يدعو إليه من الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والعمل الصالح الذى يرضى الله ، ويقرّب العبد من رحمته ، فيخلص بهذا من عذاب الآخرة ، وينجو من أهوالها وشدائدها ..

وشانىء النبى ، محروم من كل خير ، منقطع عن موارد الهدى والنور ، فهو إلى ضياع وهلاك ، وإلى عذاب جهنم خالداً فيها أبدا .. إن شانىء النبى ومبغضه مصروف عن الإيمان بالله ، واليوم الآخر .. وحسبه بهذا هلاكاً وضياعاً ، وحرماناً من كل خير ..

هذا هو حظ شانىء النبى ومبغضه ، فى كل زمان ومكان .. إنه البعد عن كل خير ، والحرمان من كل طيّب ، ثم العذاب الأليم فى نار جهنم ..

والروايات التى تحدّث عن أن هذه السورة نزلت فى العاص بن وائل ، أو عقبة بن أبى معيط ، أو أبى جهل ، أو أبى لهب ، وأنهم كانوا يعيّرون النبى صلى الله عليه وسلم بموت ولديه ، القاسم ، وعبد الله ، وأنه لانسل له غيرهما من

الكوثر ، وأن عَقِبه قد بُتر وانقطع ـ هذه الروايات إن دلت على شىء ، فإنما تدل على أن نزول هذه السورة الكريمة ، كان فى هذا الوقت الذى تتحدث به قريش بهذا الحديث المنكر ، وأن ذلك كان مناسبة جاءت فى وقتها ، لا أن هذا الحديث كان سبباً باعثاً لنزولها ، إذ كانت محامل السورة أعظم قدراً ، وأكبر شأناً ، من أن تلتقى مع هذا الحديث عن الولد ، وحفظ النسل به ، وإن كان ذلك مما تعتزّ به قريش ، وتحرص عليه .

(١٠٩) سورة الكافرون

نزولها : مكية .. نزلت بعد سورة الماعون ..

عدد آياتها : ست آيات ..

عدد كلماتها : ثمان وعشرون كلمة ..

عدد حروفها : أربعة وتسعون حرفاً ..

مناسبتها لما قبلها

الكوثر الذى أعطاه الله سبحانه وتعالى النبىّ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان فى مقابله البتر والحرمان من كل خير لمن يشنأ هذا النبى ، الذى وضع الله سبحانه وتعالى ، الخيرَ كله فى يده ..وهذا مجمل ماتحدثت عنه سورة « الكوثر »

وفى سورة « الكافرون » التى تأتى بعد هذه السورة ، موقف بين النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وما أعطاه الله سبحانه من خير كثير ، يفيض من النبع الأعظم ، وهو الإيمان بالله ـ وبين المشركين الذين عزلوا أنفسهم عن هذا الخير ، وحُرموا أن ينالوا شيئاً منه .. وفى هذا الموقف يعلن النبى عن هذا الخير الذى منّ الله به عليه ، وأنه ممسكٌ به ، مقيمٌ عليه ، لايصرفه عنه شىء من هذه الدنيا .. فهو لايعبد غير الله سبحانه وتعالى ، ولايتحول عن عبادته أبداً ، ولا ينظر إلى شىء وراءه من مال وبنين ! !

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ ـ ٦)

* « قُلْ يَٰأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ (١) لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ (٣) وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ (٦) »

التفسير :

كان مما يلقى به المشركون النبىّ لصرفه عن دعوته — أن يجمعوا له مالا ، إن كان يريد مالا ، حتى يكون أكثرهم مالا ، وأوسعهم غنى ، أو يقيموه رئيساً عليهم ، إن كان يطمع فى الرياسة ، أو يزوجوه أجمل بناتهم ، وأكرمهم نسباً ، إن كان يرغب فى ذلك .. فلما لم يلقوا من النبى الكريم إلا تسامياً عن هذه المطالب الرخيصة ، وإلا إعراضاً عنها ، وأنه لا يتحول عن الدّين الذى يدعو إليه ، ولو وضعوا الشمس فى يمينه ، والقمر فى يساره ! — لمّا لم يجدوا استجابة من النبىّ فى ترك دعوته ، جاءوه يعرضون عليه أن يخلطوا دينهم بدينه ، وأن يجمعوا بينهما ، فيعبدون هم ما يعبده النبىّ إلى جانب ما يعبدون ويعبد هو ما يعبد المشركون إلى جانب معبوده الذى يعبده فإن كان الذى جاء به خيراً مما معهم شاركوه فيه ، وأخذوا حظهم منه ، وإن كان الذى هم عليه خيراً مما جاء به شاركهم فيه ، وأخذ حظه منه .. وبهذا تنقطع أسباب الشقاق ، والعداوة ، بينهم وبينه ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « قل أفغير الله تأمرونّى أعبد أيها الجاهلون » (٦٤ : الزمر) ..

وهذا من ضلال القوم وسَفَه أحلامهم ، وسوء معتقدهم .. فإن الحق كلٌّ لايتجزأ ، ولا يتبعّض .. فإما أن يكون ما يعبدون حقاً ، وإذن فإنّ خلْطَه بشيء دخيل عليه يغيّر من صورته ، ويفسد حقيقتَه ، فلا يكون حقاً ، ولا يكون باطلا ، وإنما هو حق وباطل معاً .. وإما أن يكون باطلا ، وإذن فلمَ يمسكون به ، ويحرصون عليه ؟ .. وإن في تفريطهم في معتقدهم على هذا الوجه لدليلا على أنه معتقَد فاسد ، وأنهم هم أنفسهم لايجدون فيه ما يقيمهم منه على يقين به ، واطمئنان إليه ، وأنه من السهل الميسور عندهم أن يبيعوه بالثمن البخس لأول عارض يعرض لهم .

فالمخاطبون من قريش هنا هم الكافرون الذين حكم عليهم بالكفر حكما مؤبداً ، وأنهم لن يؤمنوا أبداً ، ولهذا أخذوا هذا الوضع في سورة خاصة بهم ..

قوله تعالى :

* « قل يٰأيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد » ..

الكافرون هنا ، هم المشركون من قريش ..

وقوله تعالى : « لا أعبد ماتعبدون » أى أنا لا أعبد المعبودات التى تعبدونها . إن لى معبوداً لا أعبد سواه ..

وقوله تعالى : « ولاأنتم عابدون ما أعبد » أى وأنتم لا تعبدون الإله الذى أعبده أنا .. إن لكم آلهة تعبدونها ، غير الإله الذى أعبده ..

فهناك إذن اختلاف بعيد بينى وبينكم ، فى ذات المعبود الذى أعبده ، وذوات المعبودات التى تعبدونها . هذا هو حالى وحالكم الآن .. وهذا هو الحكم فيما أعبد ، وفيما تعبدون .. وتلك حقيقة لاخلاف بيننا عليها .. أنا لا أعبد

معبوداتكم ، وأنتم لا تعبدون معبودى ..

وقوله تعالى :

* « ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد » ..

هو تعقيب على هذا الحكم العام المطلق ، وينبنى عليه : أننى لا أنا عابد ماعبدتم ، فى أى حال من أحوالى ، لا حاضراً ولا مستقبلا .. ولا أنتم عابدون فى المستقبل الإله الذى أعبده .. فأنا على ما أنا عليه من عبادة الإله الذى أعبده، لا أتحول عن عبادته ، وأنتم على ما أنتم عليه من عبادة ماتعبدون من معبودات لا تتحولون عن عبادتها ..

وهذا يعنى أن الذين خُوطبوا بهذا الخطاب من المشركين ، لم يدخلوا فى الإسلام ، ولم يؤمنوا بالله ، بل ماتوا على شركهم .. وهذا ما يفهم من قوله تعالى : « قل يأيها الكافرون » ففى وصف المشركين بالكفر إشارة إلى أنهم من الذين استبدّ بهم العناد ، وركبهم الضلال ، فانتقلوا — بدعوة النبىّ لهم إلى الإيمان بالله — انتقلوا من الشرك إلى الكفر الصريح ..

يقول الطَّبَرْسى فى تفسيره : يريد (أى بالكافرين) قوماً معينين ، لأن الألف واللام للعهد ..

والقرآن الكريم ، حين يلقى رءوس المشركين ، ومن غَلَبت عليه الشِّقوة منهم ممن لا يدخلون فى دين الله أبداً — كان يخاطبهم بوصف الكافرين لا المشركين ، ومن ذلك قوله تعالى : « إنهم يكيدون كيداً • وأكيد كيداً • فهل الكافرين أمهلهم رويداً » (١٥ — ١٧ الطارق) .. ويقول سبحانه فى أحد رءوس هؤلاء المشركين : « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً * أطلع على الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً * كلا

سنكتب ما يقول ونَمُدّ له من العذاب مداً » (٧٧ - ٧٩ مريم) ..

فهؤلاء المخاطبون بوصف الكفر من المشركين ، قد ماتوا على الكفر ، وسيلقون جزاء الكافرين فى الآخرة .. إنهم قبل دعوتهم إلى الإسلام كانوا مشركين ، فلما لم يستجيبوا لهذه الدعوة انتقلوا من الشرك إلى الكفر.. وكذلك أهل الكتاب ، كانوا قبل دعوة النبيّ لهم ضُلاّلا ، فلما دعاهم وأبوْا أن يؤمنوا ، صاروا كفاراً .

وقوله تعالى :

* « لكم دينكم ولى دين » .

هو فصل الخطاب ، ومقطع الأمر فيما بين النبيّ ، وهؤلاء الكافرين .. إن لهم دينهم الذى يدينون به ويحاسبون عليه ، وهو له دينه الذى يدين به ، ويلقى ربه عليه .

« وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون » (٤١ : يونس) .

---

(١١٠) سورة النصر

نزولها : مدنية . اختلف فى ترتيب نزولها ، والرأى عندنا أنها نزلت قبل فتح مكة .

عدد آياتها : ثلاث آيات

عدد كلماتها : ست وعشرون كلمة

عدد حروفها . أربعة وسبعون حرفاً

مناسبتها لما قبلها

آذن النبي — صلوات الله وسلامه عليه — المشركين فى سورة « الكافرون » التى سبقت هذه السورة — آذانهم بكلمة الفصل بينه وبينهم « لكم دينكم

ولى دين » .. ووراء هذه الكلمة الحاسمة القاطعة ، التى أخذ بها النبى طريقه إلى ربه ومعبوده ، واتخذ بها المشركون طريقهم إلى آلهتهم ومعبوداتهم — وراء هذه الكلمة تشخص الأبصار إلى مسيرة كلّ من النبى والمشركين الذين أخذوا طريقاً غير طريقه ، لترى ماذا ينتهى إليه الطريق بكل منهما ..

وتختفى عن الأبصار طريق أهل الشرك ، وتبتلعهم رمال العواصف الهابّة عليهم من صحراء ضلالهم . .

أما الطريق الذى أخذه النبى صلوات الله وسلامه عليه ، فها هو ذا النصر العظيم يلقاه عليه ، وها هو ذا الفتح المبين ترفرف أعلامه بين يديه ، وها هو ذا دين الله الذى يدعو إليه ، قد فتحت أبوابه ، ودخل الناس فيه أفواجاً . .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ ـ ٣)

* « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) »

التفسير :

قوله تعالى :

* « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً » .

إذا ظرف ، شرطىّ ، لما يستقبل من الزمان .. وهذا يعنى أن ما بعدها

لم يتحقق بعد ، وهو إذا كان وعداً من الله سبحانه وتعالى ، فإن تحققه أمر لاشك فيه ، وهو واقع موقع اليقين من المؤمنين قبل أن يتحقق .

ونصر الله والفتح ، هو نصر دين الله، بنصر النبي والمؤمنين على المشركين ، ومن اجتمعوا معهم على حرب النبيّ والمؤمنين ، والوقوف فى وجه دين الله ، الذى يدعو إليه رسولُ الله . . والفتح ، هو فتح مكة ، التى كان مشركوها هم القوة المحركة لكل عدوان على النبيّ والمؤمنين . . فإذا فُتحت كان فتحها هو النصرَ المبين ، والفتح العظيم ..

وهذا يعنى أن هذه السورة ، نزلت قبل فتح مكة ، فكانت من أنباء الغيب ، ومن البشريات التى بُشر بها النبي والمسلمون ، فى وسط هذا الصراع الدائر بينه وبين المشركين . .

وتكاد الأخبار التى يرويها المفسرون ـ تُجمع على أن هذه السورة كانت من أواخر مانزل من القرآن ، وأنهانزلت بعد سورة الفتح ، وقُبَيْل وفاة النبي صلوات الله وسلامه عليه بأيام ، قيل عنها فى أكثر الروايات إنها كانت ثمانين يوماً ! ! وهذا ما نخالفهم فيه .

فالقرآن الكريم صريح فى أن قوله تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً » هو وعد ، يتحقق فى زمن مستقبل . . فهذا ماينطق به صريح النظم القرآنى .. ولن يعدل بنا شىء عن الأخذ بمنطوق الآية الكريمة . ولهذا فإنا نقول ـ فى ثقة واطمئنان ، وفى قطع ويقين : إن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة ، وفى أشد مواقف النبي حرجاً وضيقاً ، وهو فى مواجهة أهل الشرك والضلال ـ فكانتَ مدداً من أمداد السماء ، وزاداً من عند الله ، يتزود به النبي وأصحابه ، فيما امتُحنوا به فى أنفسهم

وأموالهم . . إنها طاقة من النور السماوى ، فى وسط هذا الظلام الكثيف ، يرى المؤمنون على ضوئها وجهَ المستقبل المشرق ، الذى وعدهم الله فيه بالنصر ، والفتح !

وقوله تعالى : « فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » .

والتسبيح أولاً ، لأنه المطلوب فى مقام الشكر ، على هذه النعمة العظيمة ، بالنصر والفتح . . ثم الاستغفار ثانياً ، مما وقع من تقصير فى حق الله على مسيرة الجهاد ، حتى جاء يوم النصر ، والفتح . .

فعلى مسيرة الجهاد ، وفى أوقات الشدة والضيق ، وفى مواقع الهزيمة ، وفقد الأحباب والأعزاء ، تتغير مواقف المجاهدين ، وتحوم حول مشاعرهم خواطرُ تهز إيمانهم ، على درجات مختلفة ، حسب ما فى النفوس من إيمان ، وما فى القلوب من يقين . .

فالنفس البشرية ـ أيا كانت من وثاقة الإيمان بالله ـ تعرض لها فى الشدائد والمحن ، عوارض ، من الخواطر ، والتصورات ، لاترضاها لدينها ، ولإيمانها بربها فى ساعة اليسر ، وفى أوقات السلام والأمن . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا » (١١٠ : يوسف) وقوله تعالى عن النبي وأصحابه : « وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ » (٢١٤ : البقرة) ويقول سبحانه عن المؤمنين فى غزوة الأحزاب : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » (١٠ : الأحزاب) ـ وقد صرح المنافقون والذين فى قلوبهم مرض من المؤمنين ـ صرحوا عن ظنونهم بالله يومئذ ، فقالوا ماذكره الله تعالى عنهم من قولهم : « ماوعدنا الله ورسوله إلا غروراً » (١٢ : الأحزاب) .

فدعوة النبي إلى الاستغفار ، هى دعوة له ، وللمؤمنين معه ـ من باب أولى ـ إلى لقاء الله تعالى تائبين مستغفرين ، بعد أن يُتم الله عليهم نعمة النصر والفتح ، ويبلغ بهم منزل السلامة والأمن .. وإنه ليس فى هذا الاستغفار إلا مراجعة لما وقع فى النفوس من ظنون بالله عند بعض المؤمنين ، أو ضجر من الصبر على البلاء عند بعض آخر ، أو شعور بشىء من الأسى والحزن عند فريق ثالث .. وهكذا ؛ وذلك فى مسيرتهم على طريق الضرّ والأذى ، إلى أن لقيهم نصر الله والفتح .

وقوله تعالى : « إنه كان توابا » أى كثير التوبة على عباده ، واسع المغفرة لذنوبهم .. وفى المبالغة فى التوبة دلالة على كثرتها ، والدلالة على كثرتها ، دلالة على كثرة ذنوب العباد ، وما وقع لهم فى مسيرتهم على الجهاد ، مما ينبغى أن يتطهر منه المجاهدون ، وأن يصفّو حسابهم معه بالتوبة والاستغفار ، بعد أن رأوا ما رأوا من قدرة الله ، ومن إحسانه وفضله عليهم .. وهذا مثل قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يَزيغ قلوبُ فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم » (١١٧ : التوبة)

(١١١) سورة المسد

نزولها : نزلت بمكة .. بعد الفاتحة ..

عدد آياتها : خمس آيات ..

عدد كلماتها : ثلاث وعشرون كلمة ..

عدد حروفها : سبعة وسبعون حرفا ..

مناسبتها لما قبلها

كانت سورة « النصر » ـ كما قلنا ـ مددا من أمداد السماء ، تحمل بين يديها هذه البشريات المسعدة للنبىّ وللمؤمنين ، وتريهم رأى العين عزّة

الإسلام، وغلبته، وتخلع عليهم حلل النصر، وتعقد على جبينهم إكليل الفوز والظفر.

وتحت سنابك خيل الإسلام المعقود بنواصيها النصر، والتي هي على وعد من الله به ـ حطام هذا الطاغية العنيد الذي يمثل ضلال المشركين كلّهم، ويجمع في كيانه وحدَه، سَفَههم، وعِنادهم، وما كادوا به النبيّ والمؤمنين..
إنه أبو لهب.. وامرأته حمالة الحطب..

[سورة اللهب.. ونظمها]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات: (١ ـ ٥)

* «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)»

التفسير:

«أبو لهب» ـ كما أشرنا من قبل، كان أبرز مَعلَم من معالم الجاهلية، التي واجهتها الدعوة الإسلامية، بما كان عليه هذا الجهول من طيش طاغ، وضلال مبين..

ومع أنه كان عمّ النبي صلى الله عليه وسلم، وكان مما تقضى به التقاليد العربية الجاهلية الانتصارُ للقريب، ظالماً أو مظلوماً، كما كان ذلك شأنهم ـ

فإن هذا الشقى كان من أسفه السفهاء على النبى ، وأشدهم عدوانا عليه ، وأكثرهم أذى له ، حتى إنه – وعلى غير تقاليد الجاهلية – يُدخل معه امرأته فى هذه العداوة ، ويجرها جرّاً إلى تلك المعركة التى يخوضها ضد النبىّ ، ولهذا كان لرجلَ الوحيد من قريش الذى ذكره القرآن باسمه ، وأعلن فى العالمين عداوته لله ، وغضبَ الله عليه ، ووقوعَ بأسه وعذابه به ، وذلك ليكون لعنة على كل لسان إلى يوم الدين ، لايذكر اسمه إلا ذُكر مدموغا باللعنة ، مرجوما بالشماتة والازدراء ، تتبعه امرأته مشدودة إليه بحبل من مسد ، كما كانت مشدودة إليه فى الدنيا بحبل عداوتهما للنبى ، وحسدهما له . .

وقوله تعالى :

* « تبت يدا أبى لهب وتب » .

التب : القطع للشىء . . وهو كالبت . . ولفظه يدل على القطع والحسم ، ويحكى الصوتَ الذى يَحدث عند فصل الشىء عن الشىء . .

والمفسرون مجمعون على أن هذا دعاء على أبى لهب من الله سبحانه وتعالى، بقطع يديه ، أى قطع القوى العاملة فيه ، الممكّنة له من الشر والعدوان ، وهما يداه اللتان يبطش بهما ، إذ كانت اليد دائماً هى مظهر آثار الإنسان ، بها يأخذ، وبها يعطى . . فإذا ذهبت اليد اليمنى ، قامت اليسرى مقامها ، فإذا ذهبت اليدان أصبح الإنسان معطلَ الحركة ، عاجزاً عن أن يحصّل خيراً ، أو يتناول خيراً ، أشبه بالطائر الذى فقد جناحيه ، إنه هالك لامحالة ، ولهذا جاء بعد ذلك قوله تعالى : « وتب » أى هلك هو ، بعد أن قطعت يداه . .

والرأى عندنا – والله أعلم – أن هذا الخبر على حقيقته ، وأنه خبر مطلق ، لم يخرج عن حقيقته إلى الدعاء . . فأبو لهب قد وقع عليه الهلاك فعلا ، وحل به البلاء منذ اتخذ من النبى ، ومن الدعوة الإسلامية ، هذا الموقفَ الأثيم الضال . .

لقد ركب الطريق الذى لا نجاة لسالكه، ولا سلامة لسائرٍ فيه، وكذلك امرأتُه التى ركبت معه هذا الطريق، وعلقت فيه حبالها بحباله..

والإخبار بالماضى عما لم يقع بعد، إشارة إلى تحقق وقوعه، وأنه وإن لم يقع فهو فى حكم الواقع، إذ تقدمته أسبابه، وقامت علله، التى تدفع به دفعاً إلى الواقع المحتوم.. وفى هذا الخبر إلفات للأنظار إلى هذا الطاغية الأثيم، وهو يلبس رداء الهلاك والضياع، على حين لا يزال شَبَحاً يتحرك بين الناس.. إنه أشبه بالمحكوم عليه بالموت، ينتظر ساعة التنفيذ فيه!!

وقوله تعالى:

* «ما أغنى عنه مالُه وما كسب».

هو تعقيب على هذا الخبر، فقد هلك أبو لهب، ونزل به ما نزل من هوان وخسران، دون أن ينفعه هذا المال الذى جمعه، واعتز به، ولا هؤلاء الأبناء الذين اشتد ظهره بهم.. لقد تخلى عنه ماله وولده جميعاً، وتركوه لمصيره الذى هو صائر إليه.. إنه فى قيد الهلاك وهو بين أيديهم.. فهل يستطيع أحد أن يمد يده إلى نجاته؟ إنه بين مخالب عُقاب محلق به فى السماء.. إن سقط من بين مخالبه هلك، وإن مضى به هلك!!

وما كسبه أبو لهب، هو أولاده، لأن الولد من كسب أبيه، ومن تثميره، كما يقول النابغة الذبيانى.

مهلاً فداءٌ لك الأقوام كلهم وما أثمرُ من مال ومن ولد

قيل إن أبا لهب قد أصيب بداء يسمى العدَسة - ولعله الطاعون - وكانت العرب تخشى هذا الداء، وتتحاشى المصاب به، وكان ذلك بعد غزوة بدر ببضعة أيام، فلما مات بدائه هذا، لم يقترب أحد من أبنائه لمواراته فى التراب، خوفاً من

هذا الداء ، بل ألقوا عليه الحجارة من بعيد حتى أخفوا جثته ، وكأنهم يرجمونه ، ويشيعونه بهذه الرجوم ، وهم يذرفون الدمع الحزين عليه !!

وقوله تعالى :

* « سيصلى ناراً ذات لهب » ..

هذا وعيد من الله سبحانه وتعالى لما سيلقى أبو لهب فى الآخرة ، بعد أن عرف مصيره فى الدنيا ، وأن كل ما كان يكيد به للنبى ، قد رُدت سهامُه إليه ، فرأى بعينيه فى الدنيا ، كيف حلت الهزيمة بقريش يوم بدر ، وكيف قتل صناديدها ، وأسر زعماؤها ..

وفى وصف النار بأنها ذات لهب ، إشارة إلى شؤم هذا الاسمَ الذى تسمى به ، أو الكنية التى تكنى بها « أبو لهب » .. فقد وُلد ، وهو يلبس هذا الثوب النارى ، الذى جعل منه وقوداً يشتعل ، ويتلهب ، وكأنه شارة من شارات جهنم ذات اللهب التى يلقاها فى الآخرة ، ويَصْلَى جحيمها .. إنه من لهب ، وإلى اللهب ..

وقوله تعالى :

* « وامرأته حمالةَ الحطب » ..

معطوف على فاعل « سيصلى » أى سيصلى هو ناراً ذات لهب ، وستصلى امرأته معه هذه النار ، ذات اللّهب ..

وقوله تعالى : « حمالة الحطب » منصوب على الذمّ ، بفعل محذوف قصد به التخصيص لصفة الغالبة عليها ، وتقديره : أعنى ، أو أقصد .. حمالة الحطب .

و « حمالة الحطب » أى حمالة الفتنة ، التى تؤجج بها نار العداوة ، وتسعى بها بين الناس ، لتثير النفوس على النبى ، وتَهيج عداوة المشركين له .. فقد كانت

امرأة أبى لهب ـ واسمها أم جميل بنت حرب ، أخت أبى سفيان ـ كانت أشدّ نساء قريش عداوة للنبى ، وسلاطة لسان ، وسوء قالة فيه ، كما كان ذلك شأن زوجها أبى لهب من بيْن مشركى قريش كلهم .. وهكذا تتآلف النفوس الخبيثة ، وتتزاوج ، وتتوافق ، وتتجاذب ! وقيل حمالة الحطب : أى حمالة الذنوب ، التى أشبه بالحطب الذى يتخذ وقوداً ، والذى يتعرض لأية شرارة تعلق به فتأتى على كل ما اتصل من أثاث وغيره ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « يحملون أوزارهم على ظهورهم » (٣١ : الأنعام) .

وانظر إلى الإعجاز القرآنى فى وصف امرأة أبى لهب ، وسعيها بالفتنة ، وإغراء الصدور على النبى ـ بأنها حمالة الحطب .. فهذا الحطب الذى تحمله ، مع مجاورته للهب الذى هو كيان زوجها كله ، لابد أن يشتعل يوماً ، وقد كان .. فأصبح الرجل وزوجه وقوداً لنار جهنم ..

وانظر مرة أخرى إلى هذا الإعجاز فى التفرقة بين « أبى لهب » وحمالة الحطب .. إنه هو الذى أوقد فيها هذه النار ، بما تطاير من شرره إلى هذا الحطب الذى تحمله ، وهو الذى أوقع بها هذا البلاء .. إنها كانت تحمل حطباً ، وحسب .. وهذا الحطب ـ وإن كان من وقود النار ـ إلا أنه قد يسلم منها ، لو لم يخالطها ، ويعلق بها .. وأما وقد خالطها « أبو لهب » فلابد أن تشتعل ، وتحترق !

وقوله تعالى : « فى جيدها حبل من مسد » .

الجيد : العنق ، والجيد من محاسن المرأة ، وسمى جيداً من الجودة ، وفيه تضع المرأة أجمل ماتتزين به من حلى وجواهر ..

والمسد : الليف ، أو مايشبهه ، مما تتخذ منه الحبال ..

وفى تعليق هذا الحبل فى جيد أم جميل ، تصوير بليغ معجز لشناعة هذه المرأة ، وفى تشويه خلقها .. فما أبشع « جيد » امرأة كان من شأنه أن يتحلى

بعقد من كريم الجواهر ، يشدّ إليه حبل من ليف .. إنه إهانة لعزيز ، وإذلال لكريم .. وإن الإهانة للعزيز ، والإذلال للكريم ، لأ قتل للنفس ، وأنكى للقلب ، من إهانة المهين ، وإذلال الذليل !

فكلمة « جيد » هنا مقصودة لذاتها ، إنه يراد بها مالا يراد بلفظ رقبة ، أو عنق .. إنها تُنزل امرأة من عقائل قريش ، ومن بيوتاتها الممدودة فيها ، لتُلقى بها فى عرض الطريق ، وهى تحمل على ظهرها حُزَم الحطب ، وتشدها إلى جيدها بحبل من ليف !!

ولهذا فزعت المرأة ، وولولت حين سمعت هذا الوصف الذى وصفها القرآن الكريم به ، فخرجت ــ كما يقول الرواة ــ فى جنون مسعور ، تستعدى قريشاً على النبى الذى هجاها ــ كما تزعم ــ هذا الهجاء الفاضح ، وعَرَضَها عارية على الملأ ! وحُق للمرأة أن تفزع وأن تُجنّ ، فلقد كانت هذه الصورة التى رسمها القرآن لها ، وعرضها هذا العرض المذل المهين لها ، حديثَ قريش ــ نسائها ورجالها ــ ومادة تندرها ، ومعابثها ، زمناً طويلا ..

وأكثر من هذا ..

فإن النظم الذى جاءت عليه السورة الكريمة ، قد جاء فى صورة تغرى بأن تكون أغنية يتغنى بها الولدان ، ويحدو بها الركبان ، ويتناشد بها الرعاة .. إنها تصلح أن تكون ــ فى نظمها ــ غناء ، أو نشيداً ، أو حُداء .. ولا نحسب إلا أنها كانت ، بعد أيام قليلة من نزولها ، نشيداً مُردداً فى طرقات مكة ، على ألسنة الصبيان ، وفى البوادى على أفواه الرعاة ، والحداة ، وأنها قد أخذت صوراً وأشكالا من الأوزان ، والأنغام ، التى تولدت من نظمها العجيب المعجز ..

أنظر . .

ألاَ يمكن أن تُنْشد هكذا :

تبت يدا أبى لهب وَتبًّا

ما أغنى عنه مالُه وما كسبا

سيصلى ناراً ذات لهبِ

وامرأته حمالة الحطبِ

فى جيدها حبل من مَسد

ثم ألا يمكن أن تكون صوت حداء .. هكذا ..

تبتْ يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب

سيصلى ناراً ذاتَ لهب وامرأته حمالةَ الحطب

فى جيدها حبل مِن مسد ؟

ثم ألا يمكن أن تكون نشيدَ رعاة .. هكذا :

تبّت يدَا أبى لهب وتبْ

ما أغنى عنه مـاله وما كسب

سَيَصلى نـاراً ذات لهب

وامرأته حمالة الحطب

فى جيدها حبل من مسد ؟

وهكذا ، يمكن أن تتوالد منها الصور ، وتتعدد !

وفى الإخبار عن أبى لهب وامرأته بأنهم من أهل النار ، وفى مواجهتهم بهذا الخبر ، ثم موتهم بعد هذا على الكفر ـ فى هذا إعجاز من إعجاز القرآن ، الذى ساق أبا لهب وامرأته إلى النار وهما حيان يُرزقان .. ولو أن أبا لهب آمن بالله ـ ولو حتى عن نِفاق ـ لأقام حجة قاطعة على كذب النبى ، وافتراء ماجاء

به ، لأن النار التى توعدها الله إنما هى لكفره ، فلو أعلن الإيمان لما كان لهذا الوعيد حجة عليه ، بل كان حجة على القرآن بأنه مفترًى . ولكن أنَّى يكون هذا ، وقد قضى الله بعذابه فى جهنم ، ونزل القرآن بالخبر القاطع بهذا ؟

إنها كلمة واحدة كانت تخرج من فم أبى لهب أو امرأته ، بإعلان إسلامهما ، فيُقضَى بها على محمد ودعوته . . وهذه معجزة متحدية من معجزات القرآن ، الذى أمسك لسان الرجل والمرأة عن أن ينطقا بهذه الكلمة ، بكلمة الإسلام ، فى أوضح صورة ، وأكملها وأصرحها ، كما جاءت بها سورة « الإخلاص » .

وتلك شهادة قائمة على الدهر ، بأن هذا القرآن كلام الله ، وأنه الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

---

(١١٢) سورة الإخلاص

« وتسمى سورة التوحيد »

نزولها : نزلت بمكة . . بعد الناس .

عدد آياتها : أربع آيات .

عدد كلماتها : إحدى عشرة كلمة .

عدد حروفها : سبعة وأربعون حرفًا .

مناسبتها لماقبلها

كانت عداوة أبى لهب وزوجه للنبىّ ، ممثلةً فى عداوتهما لدعوة التوحيد التى كانت عنوانَ رسالة النبىّ ، صلوات الله وسلامه عليه ، وكلمتَه الأولى إلى قومه ..

وقد ساقت هذه الكلمة أبا لهب وزوجه ، ومن تبعهما فى جحود هذه الكلمة ، والتنكر لها ـ ساقتهم إلى هذا البلاء الذى لقياه فى الدنيا ، وإلى هذا العذاب الأليم فى جهنم المرصودة لهما فى الآخرة . .

وسورة « الإخلاص » وما تحمل من إقرار بإخلاص وحدانية الله من كل شرك ـ هى مركب النجاة لمن أراد أن ينجو بنفسه من هذا البلاء ، وأن يخرج من تلك السفينة الغارقة التى ركبها أبو لهب وزوجه ، ومن اتخذ سبيله معهما من مشركى قريش ومشركاتها . . وها هوذا النبى الكريم ، يؤذّن فى القوم ، بسورة الإخلاص ، ومركب الخلاص .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ ـ ٤)

« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) »

التفسير :

قوله تعالى :

« قل » أمر من الله سبحانه وتعالى للنبى بالقول ، قولاً مطلقاً ..

وماذا يقول ؟ .

يقول « هو » !

ومن هو هذا الطلق أيضاً ، الذى لا تحدّه حدود ، ولا تقيده قيود ؟

ـ « الله أحدٌ » ! .

ولفظ الجلالة ـ « الله » ـ من الألوهة ، وهو اسم الذات ، الجامع لأسماء الله تعالى وصفاته كلها . .

و « أحد » صفة لله سبحانه ، بمعنى الأحد معرفاً بأل ، لأنه فى مقابل : « الله الصمد » فأحد ، وأن كان نكرة لفظاً ، هو معرفة دلالةً ومعنى ، لأنه إذا قيل « أحد » لم ينصرف الذهن إلى غيره ، فإذا قيل « أحد » كان معناه الأحد ، الذى ليس وراءه ثان أو ثالث ، أو رابع . .

فاستغنى بهذا عن التعريف ، لأن التعريف إنما يراد به الدلالة على المعرّف دون أفراد جنسه المشاركة له ، فإذا انحصر الجنس كله فى فردٍ واحد ، لم يكن ثمة داعية إلى تعريفه ، إذ كان أعرفَ من أن يُعرّف .

فالله ، هو الأحد ، الذى لا يشاركه فى هذا الوصف موصوف .. فالأحدية هى الصفة التى لا يشارك الله سبحانه فيها أحد ، كما أن « الله » هو اسم الذات الذى لا يسمّى به أحدٌ سواه .

والأحديّة هى الصفة التى تناسب الألوهة ، وهى الصفة التى تناسب كل صفة من صفات الله سبحانه . .

فالله ـ سبحانه ـ واحد فى ذاته ، واحد فى صفاته ..

فالكريم ، هو الله وحده ، والرحيم هو الله وحده ، والرحمن هو الله وحده ، والغفور هو الله وحده ، والشكور هو الله وحده ، والعليم هو الله وحده .. وهكذا ، كل صفة من صفات الكمال ، قد تفردّ بها الله ـ سبحانه ـ وحده ، لا ينازعه فيها أحد ..

وفى وصف الله سبحانه وتعالى بأحد ، دون واحد ، تحقيق لمعنى التفرّد ، لأن الأحد لا يتعدد ، على حين أن الواحد يتعدد ، باثنين ، وثلاثة ، وأربعة ، إلى ما لا نهاية من الأعداد . .

يقول الإمام « الطبَرسي » فى تفسيره [مجمع البيان فى تفسير القرآن] :

« قيل إنما قال « أحد » ولم يقُل « واحد » لأن الواحد يدخل فى الحساب ، ويضُمُّ إليه آخر .. وأما الأحد فهو الذى لايتجزأ ، ولا ينقسم فى ذاته ، ولافى معنى صفاته ، ويجوز أن يُجعل للواحد ثانٍ ، ولا يجوز أن يجعل للأحد ثان .. لأن الأحد يستوعب جنسه ، بخلاف الواحد .. ألا ترى أنك لو قلت فلان لايقاومه واحد ، جاز أن يقاومه اثنان ، وإذا قلت : لايقاومه أحد لم يجز أن يقاومه اثنان ، ولا أكثر .. فهو أبلغ .. »

ويقول الطبرسى :

قال الإمام الباقر : « الله » : معناه المعبود الذى أَلِهَ الخلقَ عن إدراك ماهيته ، والإحاطة بكيفيته ، وتقول العرب : أَلِهَ الرجل إذا تحيّر فى الشىء فلم يحط به علماً ، وَوَلِهَ ، إذا فزع .. » فمعنى قوله « الله أحد » أى المعبود الذى يأْلَهُ الخلق عن إدراكه ، والإحاطة بكيفيته .. وهو فرد بألوهيته ، متعال عن صفات خلقه ..

وقوله تعالى :

* « الله الصمد » ..

اختُلف فى معنى الصمد ، وكل ماقيل فى معناه يرجع إلى تمجيد الله سبحانه وتعظيمه ، وتفرده بالخلق والأمر ..

وفى تعريف طرفى الجملة ، إفادة لمعنى الحصر ، أى حصر الصمدية فى الله سبحانه وتعالى وحده ..

قيل إن أهل البصرة ، كتبوا إلى الإمام الحسين ، رضى الله عنه يسألون عن معنى « الصمد » ، فكتب إليهم يقول :

« أما بعد ،فلا تخوضوا فى القرآن ، ولا تجادلوا فيه ، ولا تكلّموا فيه بغير علم ، فقد سمعت جدّى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » وإن الله قد فسر سبحانه الصمد ، فقال : « لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » ..

وقوله تعالى :

* « لم يلد ، ولم يولد » .

أى أنه سبحانه منزه عن أن يكون له ولد ، لأن الولد يَدُلّ على والد ، والوالد هو مولود لوالد .وهكذا فى سلسلة لاتنتهى .ثم إن الولد يماثل الوالد ، وقد يفوقه ، ويرُبِى عليه ، فى قوته ، وعلمه ..

يقول الإمام الطبرسى فى معنى « لم يلد » : أى لم يخرج منه شىء كثيف ، كالولد ، ولا سائر الأشياء الكثيفة التى تخرج من المخلوقين ، ولاشىء لطيف كالنّفَس ، ولا تنبعث منه البدَوات ، كالسِّنة والنوم ، والخطْرة والغم ، والحزن والبهجة ، والضحك والبكاء ، والخوف والرجاء ، والرغبة والسآمة ، والجوع والشّبع ، تعالى أن يخرج منه شىء ، وأن يتولد منه شىء .. كثيف أو لطيف » .

وفى قوله تعالى : « ولم يولد » يقول الطبرسى أيضاً : « أى ولم يتولد هو من شىء ، ولم يخرج من شىء ، كما تخرج الأشياء الكثيفة من عناصرها ، كالشىء من الشىء ، والدابة ، والنبات من النبات ، والماء من الينابيع ، والثمار من الأشجار .. ولا كما تخرج الأشياء اللطيفة من مراكزها ، كالبصر من العين ، والسمع من الأذن ، والشم من الأنف ، والذوق من الفم ، والكلام من اللسان، والمعرفة والتمييز من القلب ، والنار من الحجر .. لا ،بل هو الله « الصمد » الذى لا من شىء ، ولا فى شىء ، ولا على شىء . . مبدع الأشياء وخالقها ، ومنشىء

الأشياء بقدرته .. فذلكم الله الصمد الذى لم يلد ولم يولد ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال .. »

ويروى أن الإمام عليا ـ كرم الله وجهه ـ سئل عن تفسير هذه السورة ، فقال : « قل هو الله أحد » بلا تأويل عدد .. « الصمد » بلا تبعيض بدد .. « لم يلد » فيكون موروثا هالكا « ولم يولد » فيكون إلها مشاركا « ولم يكن له كفوا أحد » من خلقه .

وقوله تعالى :

* « ولم يكن له كفوا أحد » .

كفء الشىء : عديله ، ومماثله ، قيمةً ، ووَزناً ، وقدراً .

فالله سبحانه وتعالى ، متعال عن الشبيه ، والنظير ، والكفء والمثيل .. وهذا ما يَنفِى عن الله سبحانه وتعالى أن يلد ، وأن يولد ، لأن التوالد إنما يكون بين الأشباه والنظائر ، وإذ قد انتفى عن أن يكون لله سبحانه شبيه أو نظير ، فقد انتفى عنه أن يكون والدا ، وأن يكون مولوداً .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ..

* * *

(١١٣) سورة الفلق

نزولهـا : مكية ، وفى بعض الأقوال أنها مدنية ..

عدد آياتها : خمس آيات .

عدد كلماتهـا : ثلاث وعشرون كلمة .

عدد حروفها : أربعة وسبعون حرفا .

مناسبتها لما قبلها

تقرر فى سورة « الإخلاص » ماينبغى أن يكون عليه مفهوم المخلوقين لخالق سبحانه وتعالى ، من تفرده بالألوهية ، وتنزيهه أن يكون والداً أو مولوداً ، وعن أن تكون له نسبةٌ إلى المخلوقات ، إلا نسبةَ الدلالة على قدرته وحكمته ، وعلمه ، وأنهـا جميعها مفتقرة إليه فى وجودها ، وفى بقائها ، وأنه سبحانه لامثيل له ، ولا شبيه ، ولا كفء ولا ندّ ..

هذا ما أمر الله سبحانه النبي أن يؤمن به أولا ، ثم أن يؤذن به فى الناس ..

ثم جاءت بعد هذا سورتا المعوذتين ، « الفلق » و « الناس » تقرران هذه الحقيقة ، وتؤكدانها فى مجال التطبيق العملى لآثارها ، وذلك بدعوة النبيّ والناس جميعاً أن يعوذوا بربهم ، وأن يستظلوا بحمى ربوبيته من كل مايسوءهم، أو مايتوقع أن يعرض له بسوء ، فذلك هو الإيمان بالله سبحانه ، والإقرار بسلطانه القائم على هذا الوجود ، وأنه وحده الذى تتجه الوجوه كلها إليه فى السراء والضراء .. فهو سبحانه القادر على كل شىء ، وهو سبحانه الذى بيده مقاليد كل شىء .. أما المخلوقون فهم جميعاً على سواء فى الحاجة إلى الله ، وفى الافتقار إليه ، غنيهم وفقيرهم ، قويهم وضعيفهم : « يـأيها الناس أنتم الفقراء

إلى الله والله هو الغنى الحميد » «إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » ..

وقد صُدِّرت سورة الإخلاص، والمعوذتين بعدها، بقوله تعالى: « قل » وهذا الأمر بالقول داخل فى مقول القول الذى يقوله النبى، ويقوله كل من يتأسّون به، فمطلوب من النبى، ومن المؤمنين أن يقولوا: « قل هو الله أحد .. قل أعوذ برب الفلق .. قل أعوذ برب الناس » .. فهذا الأمر بالقول، هو قرآن متعبد به، وهو يعنى أن القرآن كلمات الله، وأنه لاتبديل لكلمات الله وأن هذه الكلمات قد انطبعت فى قلب النبىّ صلوات الله وسلامه عليه، فهو يقرؤها من كتاب قلبه كما أنزلت عليه، دون تبديل فيها .. فإذا قيل له ـ صلوات الله وسلامه عليه: « قل سبحان ربى » .. قال: «قل سبحان ربى » .. وإذا قيل له « قل: إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحَى إلىّ » قال: « قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحَى إلىّ » وإذا قيل له: « يَـأيها النبىُّ لم تحرم ما أحلّ الله لك ؟ » قال: « يأيها النبىُّ لم تحرّمُ ما أحلّ الله لك .. » وهكذا.

وقد عرضنا هذا الموضوع فى مبحث خاص، عند تفسير سورة « الجن ».

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات (١ ـ ٥)

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) »

التفسير :

* (قل أعوذ برب الفلق . . .) .

الفَلَق : جميع الخَلْق ، لأن كل مخلوق يتولد من غيره ، وينفلق عنه ، كما تنفلق الحبّة عن الشجرة ، والكِمُّ عن الزّهرة ، والزّهرة عن الثمرة ، والرّحِمُ عن الجنين . . وهكذا مما نعلم من المخلوقات . . ومنه قوله تعالى : « إن الله فالق الحبِّ والنَّوَى » وقوله تعالى : « فالق الإصباح » لأن الإصباح يخرج من أحشاء الظلام ، كما يخرج الجنين من رحم الأُمّ .

والاستعاذة : التعوذ ، واللَّجأ إلى من يُستعاذُ به طلباً للحماية ، ودفعاً للسوء ، والمكروه .

والغاسق : الليل وظلامه المائج فيه . . والغَسَق ظلمة الليل . .

وأصل الغَسَق ، السَّيلان ، والتدفق ، يقال غَسَقت القُرْحة إذا جرى صديدها وتدفق ، ومنه « الغسّاق » وهو صديد أهل النار .

والوُقوب ، والوَقْب : الدخول ، ومنه النّقرة ، لأنه يُدْخَل فيها غيرها من الأشياء ، والغاسق إذا وقب ، أى الليل إذا هجم ، ودخل على النهار فأجلاه عن مكانه .

والنفاثات : من النَّفْث ، وهو النّفخ بالفم فى الشىء . . وهو جمع نفّاثة مبالغة فى النّفث ، أى كثير النّفْث ، مثل علاّمة ، وفهّامة . . ويجوز أن يكون جمع مؤنث . .

والعُقد : جمع عقدة ، وهى ما يُعقد بها على الشىء ، لربطه ، وإحكامه ، ومنه اليمين المنعقدة ، وهى التى تقع عن نية وقصد ، ومنه عقد البيع الذى يتم بين المتبايعيْن ، وعقدة النكاح التى تتمّ بين الزوجين .

وقوله تعالى :

* « قل أعوذ برب الفلق » .

الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم، ولكل متابع له، مستجيب لدعوته..

أى اجعل ـ أيها النبيّ ـ عياذك، ولَجَأكَ متعلّقاً برب المخلوقات، مقصوراً عليه وحده.

والعياذ، إنما يكون من الشرور، والمكاره، التي يلقاها الإنسان على طريق حياته، وهى تتوارد على الإنسان من المخلوقات، سواء أكانت من عالم الأحياء أو غير الأحياء، ، وسواء أكانت منظورة، معلومة، أوخفيّة مجهولة.. ولهذا جاء قوله تعالى:

* « مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ».

فهذا هو المستعاذ بالله من شرّه، وهو المخلوقات على إطلاقها.

والمخلوقات كلها لله سبحانه، وهى من صَنعة يده، وهو وحده سبحانه القادر على دفع شرّها، وردّ بأسها، سواء أكانت من قوى الطبيعة، أو من الحيوان أو الإنسان..

وليست المخلوقات شرّا. وإنما هى خير فى ذاتها، وفى نظام الوجود العام، الذى يأخذ فيه كل مخلوق مكانَه من بنائه، ولو أخلى مكانَه لاختلّ نظام الوجود واضطربت مسيرته.

ومن جهة نظر الإنسان إلى المخلوقات، فإنه ليس كل المخلوقات شرّا، بل إن معظمها هو خير، يعيش فيه، وينعم به، وحتى ما يراه هو من بعض المخلوقات شَرّا خالصاً، ليس بالشرّ الخالص، وأنه لو أنعم النظر فيه لوجد بعضَ الخير قائماً إلى جانب هذا الشر.. فالمخلوقات خيرها كثير، وشرها بالإضافة إلى الإنسان فى ذاته، قليل.

فالمستعاذ منه هو هذا الشر القليل إلى جانب الخير الكثير، والمراد

بالاستعاذة من هذا الشر ، هو أن يلقى الإنسان المخلوقات فى خيرها الخالص ، دون شرها ، الذى يستعيذ بالله منه .

وقد يكون للإنسان ، أو الحيوان حيلة فى دفع بعض الشرّ ، فليحتلْ حيلته ، وليبذلْ وُسعَه ، ولكن هذا لا يمنع الإنسانَ العاقلَ من أن يجعل مَعاذه هو الله سبحانه ، كما أن معاذه بالله ، لا يحمله على تعطيل مَلَكاته وقواه ، فتلك وسائل أودعها الخالق جلّ وعلا فيه ، وهى داخلة فى الاستعاذة بالله ، والتجأ إليه . . فما يملكه الإنسان من قُدرات على دفع ما يدفع به من شرور ، ومكاره ، هى أسلحة من عند الله سلّحه بها ، فلا يُعطلها ، وليذكرْ فضلَ المنعم بها عليه ، فإنها عند المؤمن استعاذة بالله .

وليس الشرُّ المستعاذ بالله منه ، هو شرٌّ فى ذاته ، لأن الله سبحانه ما خلق شرًّا ، وإنما هو شرٌّ إضافىّ ، أو نسبىّ ، وذلك بالإضافة إلى من وقع عليه ، والذى يعدّه شرًّا بالنسبة له هو ، ولكنه فى النظام العام للوجود ، هو خير مطلق ، كما قلنا .

وأما الشر المستعاذ به ، فهو شر يقع من احتكاك الموجودات بعضها ببعض ، أشبه بالشرر المتطاير من احتكاك الزناد بالصّوان ، بل هو أشبه بآلام المخاض لميلاد حياة متجددة فى الحياة !

فالإنسان فى ذاته يشعر بآلام المرض ، والجوع ، ويجد لذعة الحرمان والفقر ، ومرارة فقد الأحباب والأعزاء ، وخيبة الآمال ، وضياع الفرص — إلى غير ذلك مما يُساء به الإنسان ، ويألم منه ، ويعده شراً مقيساً بمقياس ذاته مضبوطاً على تلقيات مشاعره له ، وإحساسه به .. وهذا كله غير منكور ، ومن حقّ الإنسان أن يلجأ إلى حِمَى ربه ، وأن يستعيذ به ، وأن يطلب منه اللطف والعافية ..

والمستعيذ بالله اللاجىء إلى حماه ، عن إيمان وثيق ، وعن معرفة تامة ، بما لله سبحانه وتعالى ، من علم ، وحكمة ، وقدرة ، وسلطان — يجد نفسه دائماً فى هذا الحمى العزيز الذى لا ينال ، وتحت ظل هذا السلطان القوى الذى لا يغلب ، وأن هذه الشرور التى استعاذ بربه منها ، قد انصرفت عنه جملة ، أو خفّت وطأتها ، وذلك حين يعيد النظر فى هذه الشرور على ضوء هذه المشاعر الجديدة التى لقى بها ربه ، وفوض إليه فيها أمره — فيرى كثيراً من هذه الشرور أوهاماً وتخيلات ، كما يرى كثير منها أقربَ إلى الخير منها إلى الشر ، ثم ما كان منها شرًّا خالصاً — فى تقديره — يصبح فى ظل التفويض لله ، والتسليم لحكمه ، مستساغَ الطعم ، خفيف الحمل ، لما يرى من حُسن المثوبة عند الله ، على ما أصابه ، وصَبَرَ عليه ، محتسباً عند الله أجرَه [1] . .

قوله تعالى :

* « ومن شر غاسق إذا وَقَب » .

فى الآية السابقة كانت الاستعاذة بالله ، استعاذة عامة من جميع الشرور التى تردُ على الإنسان من المخلوقات كلها . .

وفى قوله تعالى : « ومن شر غاسق إذا وقب » — وما بعدها من الآيات إلى آخر السورة ، استعاذة من شرور بعض المخلوقات ، البادى شرها . .

فالليل حين يهجم على الكائنات ، ويحتوى الإنسان ، يثير فيه كثيراً من المخاوف ، التى تطل عليه من وراء هذا العالم المجهول ، المحجب بهذا الستار

---

(1) وقد عرضنا لهذا الموضوع فى مبحث خاص من كتابنا : « قضية الألوهية » — الجزء الثانى ، وفيه تفصيل لهذا الإجمال .

الكثيف من الظلام .. من عدوّ متربص ، أو حيوان مفترس ، أو حشرة سامة ، ونحو هذا ..

وفى الليل ، وفى وحشة الظلام ، والسكون ، والوحدة — تطرق الإنسانَ همومُه ووساوسه ، وتتوارد عليه آلامه وأشجانه ، فيبيت مؤرقاً يئن تحت وطأة هذه الهموم ، وتلك الوساوس .. ومن هنا كثرت مناجاة الناس لليل، وشكايتهم له ، وبثهم إياه ما توارد عليهم فيه من هموم ، وما طرقهم من غاشيات الذكريات الموجعة ..

يقول امرؤ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى

ويقول النابغة الذبيانى :

كِليِنى لهمّ يا أميمةُ ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب

تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذى يرعَى النجوم بآيب

فالليل ، هو الليل ، بوحشته ، وتوارد الهموم على صدور الناس فيه ، ولن يتغير هذا الوجه من الليل، ولن يتحول إلى نهار بما أطلع الإنسان فيه من شموس وأقمار ، من مولدات الكهرباء .. إن لظلامه سلطاناً ، يتسلل من هذه الثياب المصطنعة من النور ، إلى داخل الإنسان ، فيجثم على صدره ، وينسكب فى مشاعره .

وقوله تعالى :

* « ومن شر النفاثات فى العقد » ..

النفث فى العُقد : هو السعى بين الناس بالوشاية والنميمة ، فتنحل بذلك عقد الإخاء ، والمودة بينهم ..

وأصل النفث فى الشىء النفخ فيه .. ومنه يقال للحية نفثت سمومها أى

ألقت بها من فمها فى جسد الضحية التى وقعت لها ..

وهذه استعاذة بالله من شر جزئى ، من شرور المخلوقات ، وهو الشر الذى الذى ينجم من مثيرى الفتن والقلاقل ، ومن مهيجى النفوس وإيقاد نار العداوة بين الناس ، فتنحلّ بذلك روابط الإخاء بينهم ، وتنفك عُقَد التواصل والتراحم بين المتواصلين والمتراحمين .. وإن أكثر ما يقع بين الناس من شر ، وما يقوم بينهم من صراع ، هو من حصاد هؤلاء النفاثين فى العقد ، من الرجال والنفاثات فيها من النساء ، ابتغاء الفتنة ، وتمزيق الوحـــدة ، وتشتيت الشمل ..

وإذ كانت الـكلمة هنا هى الأداة العاملة فى هذا المجال ، فى إيغار الصدور ، وإثارة النفوس ، وبلبلة المشاعر ، وتعكير صفو العواطف ، بالحديث الكاذب والقالة المفتراة ، والشائعة المضللة ـــ فقد نصح الله سبحانه وتعالى لنا ،بالاستعاذة من شر تلك الأفواه الآثمة التى تنفث سمومها فى العُقد الموثَّقة بيننا وبين أهلنا ، وأصدقائنا ، أبناء مجتمعنا الذى نعيش فيه ..

والنصيحة هنا ذات شقين : أن نأخذ حِذرنا من هؤلاء الساعين بالنميمة ، المتنقلين بين الناس بالفتنة ، فنحذرهم كما نحذر الحيات والأفاعى ، ونعوذ بالله من شرهم ، ونستعين به سبحانه على ردّ كيدهم ، ودفع أذاهم ، والله سبحانه وتعالى يقول : « يـأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » (٦ : الحجرات) .. ومن جهة أخرى ، نحذر من أنفسنا أن توردنا هذا المورد ، وأن تدفع بنا إلى هذا الطريق الذى يُلبسنا ثوب الشر الذى يستعاذ بالله منه ..

وفى الاستعاذة بالله من النفاثات ، استعاذة ضمنية أيضاً من النفاثين ، إذ

كانت النساء فى هذا المجال أكثر من الرجال عدداً ، وأثراً ، وإذ كان غالباً وراء كل رجل يثير فتنة ، امرأة تغريه بها ، وتدفع به إليها ، وحسبنا أن نذكر هنا امرأة أبى لهب حمالة الحطب ، والعهد بها قريب ..

وقيل النفاثات : النفوس الخبيثة ، والأرواح الفاسدة . سواء تعلقت بالرجال أو بالنساء . .

هذا ، وفى هذا التعبير عن إفساد مابين الناس من روابط ، بكلمة « النفاثات فى العقد » — إعجاز من إعجاز النظم القرآنى ..

والذى يتأمل هذا اللفظ المعجز يجد :

أولا : أن كلمة النّفث تشير إلى هذا الشبه بين فم هذا الذى يسعى بين الناس بالكلمة الآثمة الفاجرة ، وبين الحية التى تنفث سمومها فتصيب بها من الناس مقتلا ..

وثانياً : أن هذا النفث المنطلق من فم هذا الإنسان ، يصدر عن صدر ملىء بالعداوة والبغضاء للناس جميعا .. أشبه بتلك العداوة المتوارثة بين الحية والناس .

وثالثا : أن كلمة « العقد » وهى الروابط القائمة بين الناس ، هى حياةٌ لهم أشبه بتلك الحياة السارية فى أبدانهم ، وأن حلها يفسد هذه الحياة ، كما يفسد حياتَهم نفثُ الأفاعى فيهم ..

ورابعا : ان النفث فى العقد المادية ، من حبال ونحوها ، من شأنه أن يلين من صلابتها ، وأن يعين على حلها ، وكذلك الشأن فى العقد المعنوية ، من روابط الأخوة والمودة بين الناس ، فإن النفث فيها بالنميمة موهن لها ، وممهد لحلّها ..

وقوله تعالى :

* « ومن شر حاسد إذا حسد »

والحسد ، فى الأعمّ الأغلب هو الدافع إلى كل عداوة ، الموقِد لكل فتنة ، المغرى بالكذب والافتراء على الناس ، لحلّ عقد الوئام والوفاق بينهم ، ولنزع هذه البَسْمة التى تعلو الشفاه بين المتحابّين ، ولإطفاء إشراقة البشاشة والرضا التى تفيض من وجوه أهل النعمة والرضا . .

فالحسد — وهو ما يجده الحاسد فى قلبه ضيق وحسرة ، حين يرى فى يد أحد خيراً ليس فى يده ، ثم لا يهدأ له بال ، ولا تستريح له نفس ، حتى يغرب وجه هذا الخير ـ هو داء يغتال كل معانى الإنسانية فى الإنسان ، فيصبح عداوةً متحركة فى الناس ، ترميهم برجوم من العداوة والبغضاء ، وتنفث فيهم سموم الحقد والضغينة ، حتى يميت أو يموت .

كالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله . .

والحسد — وليس غيره — هو الذى أغرى أهل الكتاب — وخاصة اليهود ـ بهذا الموقف الضال الآثم ، من رسالة رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وكتمانهم الحق عن علم بأنه رسول الله ، وأنه الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، كما يقول سبحانه وتعالى فيهم : « يٰأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » (٧١ : آل عمران)

ويقول سبحانه وتعالى عنهم : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » (١٤٦ : البقرة) ويقول جل شأنه فيهم أيضاً : « ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد

إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » (١٠٩ : البقرة).

وفى نار الحسد التى تأججت فى صدور اليهود ، ذابت كلّ معالم الحق الذى كان معهم من أمر النبى ، فكفروا به ، واتخذوا طريق الضلال مركباً إلى عذاب الجحيم . .

والحسد — وليس غيره — هو الذى أغرق مشركى قريش فى الضلال ، وأغراهم بهذا الموقف اللئيم الآثم الذى وقفوه من النبى ، حتى كان عمه أبو لهب هو وامرأته من أشدّ الناس حسداً له،وتصديا لدعوته ، وتشنيعاً عليه، وكان من مقولات المشركين ماذكره الله عنهم من قولهم :« أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ » (٢٥ : القمر) . . « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »(٣١ : الزخرف) « أبشرا منّا واحد نتبعه ؟ إنا إذا لفى ضلال وسُعُر » (٢٤ : القمر)

وقوله تعالى : « إذا حسد » — هو قيد للاستعاذة بالله من الشر الذى ينقدح من صدر الحاسد ، فتشتعل ناره ، وتعلَق بمن حسده . .

أما الحسد الساكن ، الذى لم ينضبج بعد ، ولم يتحرك من صدر صاحبه ، ولم يبلغ من القوة بحيث يأخذ صورة عملية ، أبعد من دائرة الخواطر والمشاعر — أما هذا الحسد ، فهو طبيعة غالبة فى الناس ، قلّ أن يسلم منه قلب ، أو تخلو منه نفس . . فما أكثر ما يمد الإنسان بصره إلى ما عند الناس ، مما ليس فى يده ، من مال ، أو علم ، أو صحة ، أو شباب ، أو جمال ، أو بنين ، أو نحو هذا ، مما ترغب فيه النفوس ، وتتداعى عليه الآمال ، وما أكثر ما تتولد مشاعر الحسد من المحروم إلى حيث مواطن هذه المحبّبات إلى النفوس ، ثم يجد من دينه ، أو عقله ، أو مروءته ما يردّه عن موقف الحسد ، ثم لا تلبث هذه المشاعر أن

تزول وتختفي . . فهذا الحسد الذى لا يجد من صاحبه قلباً مفتوحاً له ، أو نفساً راضية عنه ، هو حسد قد تولى صاحبه دفعه عن الناس، وأطفأ ناره قبل أن تمتد إلى أحد ، ومن هنا لم يكن وراءه شر يُستعاذ به منه . .

هذا ، وقد تكرر لفظ « شر » أربع مرات ، مضافاً فى كل مرة إلى جهة خاصة غير الجهات الثلاث ، وذلك لأن الشر الناجم من كل جهة منها مختلف عن غيرها . .

[النبي . . وحديث السحر]

هذا ما يفهم من منطوق آيات الله فى قوله تعالى : « ومن شر النفاثات فى العقد * ومن شر حاسد إذا حسد » . . وهو فهم يتفق مع سياق السورة ، ومع سورة الإخلاص التى سبقتها ، وسورة الناس التى جاءت بعدها ، والتى كان من ثلاثتها خاتمة كتاب الله على ترتيبه فى المصحف ، الذى رتبت سوره بتوقيف من الله تعالى ، على ما وقع فى يقيننا .

ولكن بعض المفسرين قد ذهب فى فهم هاتين الآيتين فهماً آخر ، إذ زعم أن سورتى الفلق ، والناس نزلتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسترق بهما من السحر الذى أصابه ، والذى كان قد صنعه به رجل يهودى ، يدعى لَبِيد بن الأعصم . . وقد استند هؤلاء المفسرون فى هذا على ما جاء فى صحيحى البخارى ومسلم وغيرهما من كتب الحديث ، من حديث هذا السحر الذى يقال إنه أصاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

رَوَى البخارى ، عن هشام بن عروة بن الزبير ، عن أبيه ، عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت :

« سَحَرَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، رجلٌ من بنى زُرَيق ، يقال له لبيد بن الأعصم ، حتى كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يُخَيَّل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله .. حتى إذا كان ذات يوم ، أو ذات ليلة ، وهو عندى ، دعا الله ، ودعاه ، ثم قال : ياعائشة .. أشَعَرتِ أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه ؟ أتانى رجلان ، فجلس أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلى ، ثم قال أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل ؟ فقال : مطبوب ! قال من طَبَّه ؟ قال لبيد بن الأعصم اليهودى ، من بنى زريق ! قال فى أى شىء ؟ قال فى مُشْط ومُشاطة ، وجُفّ طلع نخلة ذكر ![1] قال : فأين هو ؟ قال فى بئر ذروان ! .. فأتاها رسول الله صلى الله عليه فى ناسٍ من أصحابه ، فنظر إليها ، وعليها نخل ، ثم رجع إلى عائشة ، فقال : والله لكأن ماءها نُقَاعة الحِناء ، وكأنّ رءوس نخلها الشياطين » قلت يارسول الله أفأخرجته ؟ قال : لا .. أما أنا فقد عافانى الله وشفانى ، وخشيت أن أثير علَى الناس منه شراً .. فأمر بها ـ أى البئر ـ فدفنت » . أى ردمت

هذا حديث يرويه البخارى عن السيدة عائشة .

ويروى البخارى ، أيضاً عن هشام بن عروة بن الزبير ، عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سُحر حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن ـ وهذا أشدّ ما يكون من السحر ، إذا كان كذا ـ فقال ياعائشة : أعلمتِ أن الله أفتانى فيما أستفتيته فيه ؟ أتانى رجلان ، فقعد أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلى فقال الذى عند رأسى للآخر : ما بال الرجل ؟ قال : مطبوب ، قال : ومن طبه ؟

---

(١) المطبوب : الذى يطلب له من يطبه ، أى يعالجه . . والمشط : ما يمشط به الشعر .. والمشاطة : الشعر الذى يسقط من الرأس عند مشطه . . والجف : الغلاف الذى يحتوى طلع النخلة عند ظهوره (الجراب) .

قال لبيد بن الأعصم ، رجل من بنى زُريق ، حليف ليهودَ ، كان منافقاً .
قال : وفيم ؟ قال فى مُشط ومُشاطة ؟ قال : وأين ؟ قال : فى جُفِّ طلعة ذَكَر ،
تحت راعوفة[1] فى بئر ذى أروان . . قالت : فأتى النبى - صلى الله عليه وسلم -
البئر حتى استخرجه ، فقال هذه البئر التى أريتها ، وكأن ماءها نقاعة الحنّاء ،
وكأن نخلها رءوس الشياطين . . »

وفى حديث ثالث يرويه البخارى عن هشام بن عروة عن أبيه عن
عائشة رضى الله ، عنها . . قالت : « سُحِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
حتى إنه ليخيّل إليه أنه يفعل الشىء وما فعله ، حتى إذا كان ذات يوم وهو
عندى ، دعا الله ودعاه ، ثم قال : « أشَعَرْتِ يا عائشة أن الله قد أفتانى فيما
استفتيه فيه ؟ » قلت : وما ذاك يارسول الله ؟ قال : « جاءنى رجلان . .
فجلس أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلى ، ثم قال أحدهما لصاحبه :
ما وجع الرجل ؟ قال مطبوب ؟ قال : ومن طبّه ؟ قال لبيد بن الأعصم
اليهودى من بنى زريق ! قال : فى ماذا ؟ قال : فى مشط ومشاطة وجُفّ
طلعة ذكر . قال فأين هو ؟ قال : فى بئر ذى أروان[2] . قالت : فذهب
النبى صلى الله عليه وسلم فى ناس من أصحابه إلى البئر ، فنظر إليها ، وعليها نخل
ثم رجع إلى عائشة ، فقال : والله لكأن ماءها نُقَّاعة الحِنّاء[3] ، ولكأن
نخلها رءوس الشياطين . . قلت : يا رسول الله ، أفأخرجته ؟ قال : لا . .
أمّا أنا فقد عافانى الله ، وشفانى ، وخشيت أن أثير على الناس منه شرًّا . .
وأمر بها فدفنت » .

---

(١) الراعوفة : الحجر الذى يغطى به البئر .
(٢) بئر ذى أروان : عين فى بستان بنى زريق بالمدينة .
(٣) نقاعة الحناء : نقيعها ، والحناء : صبغ معروف .

هذا ما رواه البخارى من حديث السّحر ، ومثله ما رواه مسلم - والروايات الثلاث الحديث متقاربة اللفظ والمعنى . . وهى تشير إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقع تحت تأثير السّحر من رجل يهودىّ ، وأن هذا التأثير قد بلغ به حدًّا يُخيّل إليه فيه أنه يفعل الشىء وما فعله ، وأنه يأتى النساء ولا يأتيهن .

وفى مسند الإمام أحمد عن إبراهيم بن خالد عن معمر عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : لبث رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة أشهر يرى أنه يأتى النساء ولا يأتى ، فأتاه مَلَكان فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه ... الحديث »

وفى تفسير الثعلبى عن ابن عباس وعائشة رضى الله عنهما ، أن غلاماً من اليهود كان يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدبّت[1] إليه اليهود ، فلم يزالوا به حتى أخذ مُشاطةَ رأسِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعدّةً من أسنان مشطه ، فأعطاها اليهود فسحروه فيها ، وكان الذى تولّى ذلك رجل منهم يقال له ابن أعصم ، ثم دسّها فى بئر لبنى زريق ، يقـال له ذروان ، فمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتثر شعر رأسه ، ولبث ستة أشهر ، يرى أنه يأتى النسـاء ولا يأتيهن ، وجعل يذوى ، ولا يدرى ما عراه ، فبينما هو نائم أتاه مَلَـكان ، فجلس أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجليه ، فقال الذى عند رأسه للذى عند رجليه : ما بال الرجل ؟ قال : طُبّ ، قال : وما طُبّ ، قال : سُحر ، قال : ومن سحره ؟ قال لبيد بن الأعصم اليهودى ! قال : وبم طبّه ؟ قال : بمشط ومشاطة . . قال : وأين هو ؟ قال : فى جُفّة طلعة ذكر ، تحت راعوفة فى بئر ذروان . . فانتبه النبىّ صلى الله عليه وسلم

(١) دبت إليه : أى سعت إليه .

مذعوراً ، وقال ياعائشة : أما شعرتِ أن الله أخبرنى بدائى ؟ ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًا والزبير وعمار بن ياسر ، فنزحوا ماء البئر كأنه نقاعة الحنّاء ، ثم رفعوا الصخرة ، وأخرجوا الجُفّ ، فإذا فيه مشاطة رأسه ، وأسنان من مشطه ، وإذا فيه وتر معقود فيه اثنتا عشرة عقدة ، مغروزة بالإبر ، فأنزل الله تعالى السورتين (أى المعوذتين) فجعل كلما قرأ آية انحلّت عقدة ، ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم خِفّة حين انحلّت العقدة الأخيرة ، فقام كأنما أُنشط من عِقال ، ونام ليس به بأس . . »

والذى ينظر فى هذه الأحاديث ، وتلك الأخبار يتردّد كثيراً فى قبولها ، أو الوقوف عندها ، إذ كانت تضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموضع الذى يجور على كماله ، وينتقص من عصمته . .

وقد كان ذلك مثارَ بحث وخلاف بين العلماء ، فردّ كثير منهم هذه الأحاديث وأبى أن يقبلها ، جاعلاً عصمةَ النبىّ فوق كل اعتبار ، رافعاً مقام النبوّة فوق كلّ مقام .. على حين نجد كثيراً من العلماء ، قد انبرى للدفاع عن كتب السنة الصحاح ، وما ورد فيها من أحاديث ، محاولاً سدّ باب الطعن فيها ، بتخريج مثل هذه الأحاديث على وجهٍ يمكن قبولُها عليه ، ولو رَكِب فى هذا مركب التعسّف فى التأويل والتخريج . . والانتصارُ للسنّة ، ولكتب الصحاح الحاملة لها ، أمر يحرص عليه كلّ مسلم ، ويلتقى عنده المسلمون جميعاً بلا خلاف . . ولكن حين يكون الموقف كهذا الذى نحن بين يديه ، تختلف وجهات النظر ، ويكون فى المسلمين من يؤثر الجمع بين قبول الحديث وبين الجهة التى يتعلق بها هذا الحديث ، محاولاً تعليل ذلك وتبريره ، على حين يكون فى المسلمين من يؤثر مقام النبوّة وتنزيهها عن عوارض النقص ، على كل خبر يُساق ، أو حديث يُروى . .

وممن ردّ حديث السحر ، والأخبار المتصلة ، به من المفسِّرين ، الإمام الطبرسى ، فنراه يقول تعقيباً على هذا الحديث المروىّ عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ : « وهذا لا يجوز ، لأن من وُصف بأنه مسحور ، فكأنه قد خُبل عقلُه ، وقد أبى الله سبحانه وتعالى ذلك فى قوله تعالى : « إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلاً » (٤٧ — ٤٨ : الإسراء) .

« ولكن الذى يمكن أن يكون ـ هو أن « اليهودىّ » أو بناته ، قد اجتهدوا فى ذلك فلم يقدروا عليه ، وأطلع الله نبيّه صلى الله عليه وسلم على ما فعلوه من التمويه ، حتى استُخرج ، وكان ذلك دلالة على صدقه . .

« ثم كيف يجوز أن يكون المرض من فعلهم ، ولو قَدَروا على ذلك لقتلوه ـ أى النبىّ ـ وقتلوا كثيراً من المؤمنين ؟ » .

وهذا الذى يتلمسه الإمام الطبرسى لقبول الخبر بقوله : « ولكن الذى يمكن أن يكون ـ هو أن اليهودىّ أو بناته اجتهدوا فى ذلك فلم يقدروا عليه ، وأطلع الله نبيّه على ما فعلوه من التمويه ، حتى استُخرج ، وكان بذلك دِلالةً على صدقه . . » . . نقول هذا القول لا تقوم منه حجة على صحة الحديث وقبوله ، وذلك :

أولا : أن الخبر المروى يقول : إن لبيد بن الأعصم هو الذى سحر النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يجر لبناته ذِكر فى الحديث على تعدد الروايات التى روى بها . .

والخبر وحدةٌ واحدة ، فإما أن يُقبل كله ، أو يردّ كله . .

وثانيا : إذا كان مافعله لبيد هذا ، هو من قبيل التمويه .. فما الحكمة فى أن

يطلع الله نبيه عليه ؟ ولمَ يحرص النبي على استخراجه من البئر إذا لم يكن له أثر ؟ وأى دلالة على صدق النبي فى استخراج شىء لا أثر له فى واقع الحياة ؟

ويقول الإمام محمد عبده، تعقيباً على حديث السحر :

« وقد قال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ماهى النبوة، ولا مايجب لها :
« إن الخبر بتأثير السحر فى النفس الشريفة ـ يقصدون نفس النبي ـ قد صحّ ، فيلزم الاعتقاد به .. وعـــدم التصديق به من بِدَع المبتدعين ، لأنه ضرب من ضروب السحر ، وقد جاء القرآن بصحة السحر ! » .

ويعلق الإمام محمد عبده على هذه المقولة بقوله :

« فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح ، والحق الصريح فى نظر المقلد ـ بدعة ؟ نعوذ بالله !

« يُحتج بالقرآن على ثبوت السحر(١) ، ويُعرض عن القرآن فى نفيه السحر عنه صلى الله عليه وسلم ، وعدّه من افتراء المشركين(٢) عليه ويُؤول القرآن فى هذا ، ولا يؤول فى تلك ، مع أن الذى قصده المشركون ظاهر ، لأنهم كانوا يقولون : إن الشيطان يلابسه ـ عليه السلام ـ وملابسة الشيطان تُعرف بالسحر عندهم ، وضرب من ضروبه ، وهو بعينه أثر السحر الذى نُسب إلى لبيد بن الأعصم . . فإنه ـ أى السحر الذى سحره بن الأعصم ـ قد خالط عقله (أى عقل النبي) وإدراكه فى زعمهم . .

---

(١) أى بما جاء فى سورة البقرة ، عن الملكين اللذين يعلمان الناس السحر .

(٢) وهو مارد الله به على المشركين قولهم : « إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً » فرماهم الله سبحانه بقوله : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » .

ثم يقول الإمام محمد عبده :

« والذى يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به ، وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ، فهو الذى يجب الاعتقاد بما يثبته ، وعدم الاعتقاد بما ينفيه .

« وقد جاء ـ أى القرآن ـ بنفى السحر عنه ، عليه السلام ، حيث نَسَب القول بإثبات حصول السحر له ، إلى المشركين أعدائه ، ووبخهم على زعمهم هذا .. فإذن ليس هو بمسحور قطعاً .

« وأما الحديث ـ على فرض صحته ـ فهو آحاد ، والآحاد لا يؤخذ بها فى باب العقائد .. وعصمة النبى من تأثير السحر فى عقله ، عقيدة من العقائد ، لا يؤخذ فى نفيها عنه إلا باليقين ، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون ..

ثم يقول الإمام ..

« على أن الحديث الذى يصل إلينا عن طريق الآحاد ، إنما يحصّل الظنّ عند من صحّ عنده .. أما من قامت له الأدلة على أنه غير صحيح ، فلا تقوم به عليه حجة ..

ثم يقول الإمام :

« وعلى أى حال ، فَلَنَا ، بل علينا أن نفوض الأمر فى الحديث ، ولا نحكّمه فى عقيدتنا ، ونأخذ بنص الكتاب ، وبدليل العقل .. فإنه إذا خوالط النبى فى عقله ـ كما زعموا ـ جاز عليه أن يظن أنه بلّغ شيئاً وهو لم يبلغه ، أو أن شيئاً نزل عليه وهو لم ينزل عليه .. والأمر ظاهر لا يحتاج إلى بيان .. »

والإمامان الجليلان ـ الطبرسى ، ومحمد عبده ـ يقفان هذا الموقف من حديث السحر ، وبين يديهما هذه المقولات الكثيرة التى تنتصر لهذا الحديث وتدفع يد المعارضين له ، بل وترميهم بالكفر ، والإلحاد . .

يقول القاضي عياض في كتابه : « الشفا ، بتعريف حقوق المصطفى » في التعليق على حديث السحر : « إعلم وفقنا الله وإياك أن هذا الحديث صحيح متفق عليه ، وقد طعنت فيه الملحدة ، وتدرّبت به ، لسخف عقولها ، وتلبيسها على أمثالها إلى التشكيك في الشرع ، وقد نزه الله الشرع والنبيّ ، عما يُدخِل في أمره لبساً . وإنما السحر مرض من الأمراض ، وعارض من العلل ، يجوز عليه — أى على النبي — كأنواع الأمراض ، مما لا ينكر ، ولا يقدح في نبوته . .

« وأما ما ورد من أنه كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولا يفعله ، فليس في هذا ما يُدخل عليه داخلةً في شيء من تبليغه أو شريعته ، أو يقدح في صدقه ، لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا ، وإنما هذا فيما طُروّه عليه في أمر دنياه التي لم يُبعث بسببها ، ولا فُضّل من أجلها ، وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر ، فغير بعيد أن يخيل له من أمورها مالا حقيقة له ، ثم ينجـــــلي عنه كما كان ! !

ثم يقول القاضي عياض : « فقد استبان لك من مضمون هذه الروايات ، أنه إنما تسلط على ظاهره ، وجوارحه ، لا على قلبه ، واعتقاده وعقله ، وأنه إنما أثّر في بصره ، وحَبَسه عن وطء نسائه وطعامه ، وأضعف جسمه وأمرضه . . ويكون معنى قوله : « يُخيل إليه أنه أتى أهـله ولا يأتيهن » أى يظهر له من نشاطه ، ومتقدم عادته القدرة على النساء ، فإذا دنا منهن أصابته أخذة السحر فلم يقدر على إتيانهن ، كما يعترى من أخذ وامترض . »

وينقل الألوسي في تفسيره روح المعاني عن الإمام المازرى قوله تعليقاً على هذا الحديث :

« قد أنـكر هذا الحديثَ المبتدعـةُ ، من حيث أنه يحطّ منصب النبوة ويشكك فيها ، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع .

« وأجيب ، بأن الحديث صحيح ، وهو غير مراغم للنص [1] ، ولا يلزم عليه حطّ منصب النبوة والتشكيك فيها ، لأن الكفار أرادوا بقولهم « مسحور » أنه مجنون ، وحاشاه .. ولو سُلِّم إرادة ظاهره ، فهو من قبيل هذه القصة ، أو مرادهم أن السحر أثر فيه ، وأن ما يأتيه من الوحى ، من تخيلات السحر ، وهو كذب أيضاً ، . لأن الله تعالى ، عصمه فيما يتعلق بالرسالة ، وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التى لم يبعث عليه الصلاة والسلام بسببها ، وهى مما يعرض البشر ، فغير بعيد أن يخيل إليه من ذلك مالا حقيقة له . . وقد قيل إنه كان يخيل إليه أنه وطىء زوجاته وليس بواطىء . . وقد يخيل لإنسان مثل هذا فى المنام ، فلا يبعد تخيله فى اليقظة » .

وهذا — كما ترى — دفاع متهافت ، فإن التسلط على البدن والجوارح ، من شأنه أن يجور على التفكير ، وأن يفسد الرؤية الصحيحة للأمور ، كما حدث ذلك فيما دخل على النبى ، وعلى تصوراته ، كما يقول الحديث !!

وأما ابن قيم الجوزية ، فيعلق على حديث السحر بقوله :

« هذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث ، متلقّى منهم بالقبول . . لا يختلفون فى صحته ، وقد اعتاص على كثير من أهل الكلام وغيرهم ، وأنكروه أشد الإنكار ، وقابلوه بالتكذيب ، وصنف فيه بعضهم مصنفاً مفرداً ، حمل فيه على هشام ـ ابن عروة بن الزبير ـ راوى الحديث عن السيدة

---

(١) مراغم أى مخالف ، والمراد بالنص : النص القرآنى فى نفى السحر عن الرسول فى رده سبحانه وتعالى على الكافرين قولهم فى الرسول : « إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً »

عائشة ـ وكان غاية من أحسن القول فيه (أى فى هشام) ، أن قال : « غَلِطَ ، واشتبه عليه الأمر » ولم يكن من هذا شىء ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن يُسحر ، فإنه ـ أى لو سحر ـ يكون تصديقاً لقول الكفار : « إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً » قالوا ـــ أى الذين يَرُدون هذا الحديث ـــ : وهذا كما قال فرعون : « وإنى لأظنك يا موسى مسحوراً » وكما قال قوم صالح له : « إنما أنت من المسحَّرين » « (١٥٣ : الشعراء) وكما قال قوم شعيب له : « إنما أنت من المسحرين » (١٨٥ : الشعراء)

« قالوا ـــ أى الذين يردّون هذا الحديث : « فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يُسحروا ، فإن ذلك ينافى حماية الله لهم ، وعصمتهم من الشياطين . »

ثم يقول ابن القيم :

« وهذا الذى قاله هؤلاء ، مردود عند أهل العلم . . فإن هشاماً من أوثق الناس وأعلمهم ، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب ردَّ حديثه . .

« فما المتكلمين وما لهذا الشأن ؟ وقد رواه غير هشام عن عائشة . . وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث ، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة . . ؟

ويقول ابن القيم :

«والسحر الذى أصابه (صلوات الله وسلامه عليه) كان مرضاً عارضاً ، شفاه الله منه . ولا نقص فى ذلك ولا عيب بوجه ما، فإن المرض يجوز على الأنبياء ، وكذلك الإغماء ، فقد أُغمى عليه صلى الله عليه وسلم فى مرضه ، ووقع حين انفكت قدمه ،

وجَحِشَ شِقُّه[١] ، وهذا من البلاء ، الذى يزيده الله به رفعةً فى درجاته ، ونيل كرامته . . وأشد الناس بلاء الأنبياء ، فابتلوا من أممهم بما ابتلوا به ، من القتل والضرب ، والشتم ، والحبس . . فليس بِبِدع أن يبتلى النبى صلى الله عليه وسلم من بعض أعدائه بنوع من السحر ، كما ابتلى بالذى رماه فشجّه ، وابتلى بالذى ألقى عليه السلام السَّلاَ[٢] وهو ساجد ، وغير ذلك ، فلا نقص عليهم - أى الأنبياء - ولا عار فى ذلك ، بل هذا من كمالهم وعلو درجاتهم عند الله

ثم يقول :

« وأما قولكم : إن سحر الأنبياء ينافى حماية الله لهم . . فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ، ويحفظهم ويتولاهم ، فإنه يبتليهم بما شاء من أذى الكفار ، ليستوجبوا كمال كرامته ، وليتأسّى بهم مَن بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس فرأوا ماجرى على الرسل والأنبياء — صبروا وتأسوا بهم ، ولتمتلىء صاع الكفار ، فيستوجبوا ما أعد لهم من النكال العاجل ، والعقوبة الآجلة ، فيمحقهم الله بسبب بغيهم وعدوانهم ، فيعجل تطهير الأرض منهم . . فهذا من بعض حكمته تعالى فى ابتلاء أنبيائه ورسله ، بإيذائهم من أقوامهم ، وله الحكمة البالغة ، والنعمة السابغة ، لا إله غيره ، ولا رب سواه » .

وهذا — كما ترى — دفاع متهافت أيضا ، فإن مايبتلى الله سبحانه أنبياءه به من صنوف الابتلاء من أقوامهم ، إنما هو فى عناد هؤلاء الأقوام ، وفى ضلالهم وتأبيهم على قبول الخير ، وهذا مالا يمسّ الأنبياء شىء منه . . وأما ماعرض للرسول

(١) جحش شقه : أى انخدش جنبه ، وذلك فى غزوة أحد ، حين أحاط المشركون بالنبى .

(٢) السلا : ما يخرج من بطن الناقة ونحوها مع الولد عند ولادته .

من إغماء ونحوه ، فقد كان أمراً عارضاً لايتجاوز لحظة من عمر يوم أو ليلة . . أما أن يمتد هذا العارض ستة أشهر أو سنة ، فهذا مايقطع النبىّ عن رسالته ، ويعزله من مقام النبوة .

ويقول ابن حزم فى كتابه المُحلّى تعقيباً على حديث السحر :

« فهذا خبر صحيح .. وقد عَرّف اللهُ تعالى رسولَه صلى الله عليه وسلم مَن سحره ، فلم يقتله ! ! »

ومن عجب أن عالماً فقيها مجتهداً ، واسع الأفق كابن القيم ، وأن عالما كبيرا عُرف بنفاذ البصيرة ، واحترام العقل كابن حزم — من عجب أن يكون هذا موقفُ هذين العالمين الجليلين من حديث السحر ، يغلب عليهما فيه ماتواردت عليه مقولات العلماء ، من قبوله ، والاحتجاج إليه . . ولا أدلّ على ذلك من أن ابن القيم يتحدث فى موقف آخر عن السحر ، فيقول — فيما ينقله عنه ابن حجر فى شرح هذا الحـــديث من البخارى — يقول : « قال ابن القيم : من أنفع الأدوية وأقوى مايوجد من النشرة — أى استخراج السحر ، وإبطال عمله — مقاومةُ السحر — الذى هو من تأثيرات الأرواح الخبيثة — بالأدوية الإلٰهية ، من الذّكر والدعاء ، لايخل به[1] — كان ذلك من أعظم الأسباب المانعة من إصابة السحر له .. قال (أى ابن القيم) :

« وسلطان تأثير السحر ، هو فى القلوب الضعيفة ، ولهذا غالبُ ما يؤثّر ، فى النساء ، والصبيان والجهال ، لأن الأرواح الخبيثة ، إنماتنشط على أرواح من تلقاهمستعدة لما يناسبها »

هذا ما يقرره ابن القيم هنا من تمكن الأرواح الخبيثة ، التى يقع من آثارها

---

(١) أى لاينقطع عنه .

مايسمى السحر ، حسب رأيه .. وهو يرى أن هذه الأرواح الخبيثة لاسلطان لها إلا على الأرواح النازلة ، الضعيفة ، كأرواح الصبيان والجهال .. فكيف يقبل - مع هذا - قولٌ ، بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قد سحر ؟ وكيف يكون هذا قولاً لابن القيم نفسه ؟ ينزل هذا بالنبيّ وبمقامه العظيم إلى مستوى الصبيان والجهّال ؟

ويردّ ابن حجَر على مانقله — ملخصا — من قول ابن القيم ، فيقول : « ويعكّر عليه — أى يؤخذ على قوله هذا — حديث الباب (أى الباب الذى ورد فيه حديث السحر) . وجواز السحر على النبي صلى الله عليه وسلم — مع عظيم مقامه ، وصدق توجهه ، وملازمة ورده (أى ذِكر الله)

ثم يقول ابن حجر : « ولكن يمكن الانفصال عن ذلك - أى الرد على قول ابن القيم — بأن الذى ذكره محمول على الغالب ، وإنما وقع به صلى الله عليه وسلم — لبيان تجويز ذلك » . .

هذا هو جانب من موقف المنكرين لهذا الحديث ، والمدافعين عنه .

وهناك كثير من العلماء ، آثروا العافية ، وأعفوْا أنفسهم من أن يكونوا طَرَفاً فى هذه القضية ، وهؤلاء هم جماعة من أئمة المفسرين ، لم يشاءوا أن يعرضوا لحديث السحر ، عند تفسيرهم لسورة « الفلق » بل نظروا فى قوله تعالى : « ومن شر النفاثات فى العقد » — نظروا فيه نظراً مجانباً لحديث السحر ، فلم يشيروا إلى هذا الحديث من قريب أو بعيد ، مع أن هـذا هو موضعه الذى يشار إليه فيه .. وهذا يعنى أنهم فى موقف توقّف إزاء هذا الحديث ، وأنهم يميلون إلى ردّه ، أكثر من ميلهم إلى قبوله . . ومن هؤلاء الأئمة المفسرين الذين وقفوا هذا الموقف من حديث السحر : الزمخشرى ، والطبرى ، والقرطبى ، والنّسفى . .

هناك إذن ثلاثة مواقف للعلماء من هذا الحديث ، حديث السحر ..

موقف من يردّه ، ويأبى التسليم به ، تنزيها لمقام النبوة ، وتأكيداً لعصمة النبي ..

وموقف مَن ينصر هذا الحديث ، ويحاول تخريجه على ما يحفظ للنبوة مقامها ، ويُبقى على النبي عصمته ..

وموقف من تجنب الخوض فى هذه المعركة ، مهاجماً أو مدافعاً ، فلم يعرض لهذا الحديث بإشارة من قريب أو من بعيد ..

وإنى إذ أسأل نفسى أىّ موقف من هذه المواقف أنحاز إليه ، وآخذ مكانى فيه ، ما دمت قد أقحمت نفسى فى زمرة العلماء الدارسين لكتاب الله — لأجدنى محمولا حملا لاشعورياً على التوقف فى هذا الحديث ، ثم عَلَى تركه وعدم الأخذ به .. وذلك لأمور :

أولها : أنه ليس حديثاً يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — يريد به أمراً من أوامر الدين ، أو نهياً من نواهيه ، أو يبغى به نصحاً أو إرشاداً مما يتصل بالشريعة وأحكامها وآدابها ..

فهذا الحديث — إن صح — لايعدو أن يكون خبراً عن حال من أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الخاصة به ، والتى لايطلع عليها غير خاصة أهله كالسيدة عائشة رضى الله عنها .. فهذا الحديث — إن صح — لم يرد إلا عن السيدة عائشة ، وهذا يعنى أن هذا العارض الذى عرض للنبى — صلوات الله وسلامه عليه — لم يكن له أى أثر خارج بيت الرسول ، وخارج صلته بالسيدة عائشة بالذات ، والتى قيل إن رسول الله حُبس عنها ستة أشهر ، وفى بعض الروايات سنة .. ولو كان هذا العارض الذى عرض للنبىّ ذا أثر فى غير هذه

الدائرة الضيقة المحدودة ، لاشتهر أمره ، ولكان حدثاً من الأحداث التى يهتز لها كيان المجتمع الإسلامى كله ، بل ولطارت أنباؤه خارج الجزيرة العربية ، ولكان حديثاً جاريا على ألسنة المسلمين وأعداء المسلمين فى كل مكان ، ولعاش فى أجيال الأمة المسلمين زمنا ممتداً ، لاينقطع الحديث عنه ..

أما أن يكون حديثَ آحاد ، لايمسك به إلا آل الزبير عن السيدة عائشة ، فهذا مالا يتسع منطق الحياة لقبوله ، إلا أن يكون مما يتصل بالعلاقة الزوجية بين النبى ، وبين السيدة عائشة وحدها .. ، فلا تطلع عليه إلا هى ومن كان قريباً منها كأبناء أختها صفية ، من زوجها الزبير بن العوام .

وثانيها : أن القرآن الكريم يقول للنبى الكريم : « والله يعصمك من الناس » ..

وهذا وعد من الله سبحانه وتعالى بحفظ النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مما يكيد له به أعداؤه ، سواء أكان ذلك فيما يتصل بجسده ، أو عقله ، أو مشاعره ..

فالله سبحانه قد تولى حراسة النبى حراسة مطلقة ، بحيث لا يَخلُص إليه من الناس أذى ، أو يصل إليه منهم سوء ..

ولهذا قال النبىّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حين تلقى هذه الآية ـ قال لمن كان يتولى حراسته من أصحابه تطوعا : « يأيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله عزّ وجلّ »

فهل يُعقل بعد هذا ، أن يتولى الله سبحانه وتعالى حراسة النبى ، وأن يخبره بهذا ، ثم لايدفع عنه هذا الكيد الذى يقال إن لبيد بن الأعصم كاده له ، وأصابه به فى أقتل مقاتله ، وهو عقله ؟.. وكم امتدت هذهَ البلوى ؟ لقد قيل إنها ستة أشهر ، وقيل سنة كاملة !! ..

وماذا يبقى من النبى ـ بل من أى إنسان ـ إذا أصيب فى عقله ، واختُلط فى تفكيره ، حتى ليخيل إليه أنه يفعل الشىء وهو لا يفعله ، ويأتى أزواجه وهو لا يأتيهن ؟

أمَا كان من الجائز ، بل من الواقع الذى لايمكن توقيه ـ أن يُحدِث النبى ـ وحاشاه ـ فى شرع الله حَدَثا ، فيقول ـ وهو لايدرى ـ ما يحسبه المؤمنون المتلقون عنه ـ أنه قرآن أو سنّة ، وهو ليس بقرآن ولا سنة ، فيأخذون به ويقيمون دينهم عليه ؟ أم ترى أن المسلمين ـ وقد عرفوا ما بالنبى ـ عزلوه عن النبوة خلال تلك المدة ، فلم يسمعوا ما يقول ، ولم يقبلوه منه ؟ وكيف والله سبحانه وتعالى يقول : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ؟ (٧ : الحشر) أمسلمون بلانبىّ ، والنبى فيهم ؟ أم نبى ولا مسلمون ، والمسلمون ألوف ،وألوف بين يديه .. ؟

وثالثها : المعروف المؤكد من سيرة الرسول أنه كان إمامَ المسلمين فى الصلوات الخمس ، فى الحضر ، وفى السفر ـ فهل كان النبىّ خلال هذا العارض الذى عرض له ـ وقد امتدّ أشهراً ـ هل كان يقيم المسلمين صلاتهم دون أن يختلط عليه أمر الصلاة ، فى أقوالها ، وأفعالها ؟ وكيف كان يمكن أن يتحقق من أنه جالس ، أو قائم ، أو راكع ، أو ساجد .. وهو فى حال يختيل إليه فيها أنه يفعل الشىء ولا يفعله ؟

لقد كان الرسول صلوات الله عليه حريصاً على أن يقيم المسلمين صلاتهم حتى فى مرض موته ، فكان يتحامل على نفسه ، ويَمضى إلى المسجد ـ لا تكاد تحمله قدماه ـ مستنداً من جانبيه على صاحبين من صحابته ، حتى ثَقل عليه المرض فى اليومين الأخيرين من حياته فى هذه الدنيا ، فأمر أبا بكر بأن يصلّى بالناس . .

وإذن فالمقطوع به ، أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقطعه عارض أبداً عن الصلاة بأصحابه غيرَ عارض مرض الموت فى يوميه الأخيرين . . وإذن فأين ، ومتى ، كان هذا العارض الذى دخل على النبيّ من السّحر ، والذى أدار تفكيره ، وقلب موازين الأمور بين يديه ؟ وهل كان هذا العارض ، ولم يشهد المسلمون أثراً له فى أقوال النبيّ وأفعاله فى الصلاة ؟ ولِمَ إذن يأخذ هذا الوصفَ ؟ ولم إذن يكون له فى حياة النبيّ ذكر ؟ .

فإذا قلنا إن النبيّ – صلوات الله وسلامه عليه – لم يُسحر ، ولم يمسه سوء ، فى جسده ، أو عقله ، قام بين أيدينا أكثر من شاهد يصدّق هذا القول ويؤكده . .

فأولاً : عصمة النبوّة ، تلك العصمة التى لا تتحقق إلا بالسلامة المطلقة فى العقل أولاً ، وفى الجسد ثانياً .

وثانياً : ما وعد الله به نبيّه الكريم فى قوله سبحانه : « والله يعصمك من الناس » .

وثالثاً : الواقع المحسوس الذى قامت عليه حياة الرسول فى أصحابه ، وأنه كان يقيم لهم صلاتهم ، فى الحضر والسفر ، فى السلم والحرب ، لم يتخلف عن هذا يوماً واحداً ، أو فريضة واحدة ، إلا فى اليومين الأخيرين من حياته . .

هذا ما ينبغى أن يتقرر ويتأكد ، وما يجب أن نقيم عليه إيماننا بالله ، وبرسول الله . .

هذا وقد يلقانا من يقول : كيف تتصدى لخبر ورد فى البخارى ، وفى مسلم وفى كتب السنة الصحاح ؟ وكيف تشك فيه وتتردد فى قبوله ؟ إن ذلك إن سُلّم لك به كان معناه إهدارَ السنة ، ووضع مصادرها الموثّقة موضع الاتهام !!

ونقول : كلا : إننا نحترم كتب السنة ، ونُنزل أصحابها من نفوسنا منزلة

الإعزاز والإجلال ، ونُكْبِر جهادَهم المبرورَ فى جَمْع السنّة المطهرة وحفظها . .
ولكن هذه قضية ، ورفع مقام هذه الكتب فوق مقام القرآن الكريم ،
وإنزاله على حكمها ، بما يخالف صريح محكم آياته ـ قضية أخرى . .

ولقد صحّ منا العزم ، ونحن نكتب هذه السطور الأخيرة من تفسير كتاب
الله ، أن نلتقى بكتب السنّة فى دراسة ، نرجو أن يوفقنا الله فيها ، وأن يعيننا عليها ،
وأن يسدد خطانا على طريق الحق إلى سنة رسول الله ، صلوات الله وسلامه
عليه ، التى هى وحى من عند الله ، وبيان شارح لكتاب الله . . « ربنا لا تزغ
قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . . »

---

(١١٤) سورة الناس

نزولها : مدنية ، وقيل مكية . . نزلت بعد سورة الفلق . .

عدد آياتها : ست آيات . .

عدد كلماتها : عشرون كلمة .

عدد حروفها : تسعة وسبعون حرفا . .

مناسبتها لما قبلها

هى امتداد لسورة « الفلق » قبلها ، ومتممة لما يُستعاذ بالله منه . .
و « المعوذتان » أشبه بسورة واحدة ، ولهذا فقد جمعهما اسم واحد :
« المعوذتان » .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات : (١ — ٦)

* « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) »

التفسير :

كان العياذ فى سورة « الفلق » برَبّ « الفَلَق » ، أى رب المخلوقات جميعها . .

وهنا فى سورة الناس ، يأتى الأمر بالاستعاذة ، برَبّ الناس ، من الناس ، وهم بعض ماخَلَقَ الله سبحانه وتعالى .

وقد وُصف الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة ، بثلاث صفات : أنه سبحانه « رب الناس» أى مربيهم ، والقائم عليهم بعد خلقهم .. وأنه جلّ شأنه : « مَلِك الناس » أى مالك أمرهم ، وباسط سلطانه عليهم ، وأنه سبحانه « إله الناس » أى سيدهم ، وهم عبيده ، يتصرف فيهم كيف يشاء ، بماله من سلطان عليهم . .

وقد يقال : إن صفة الألوهية يقوم لها السلطان المطلق على المألوهين من غير داعية إلى ربوبية ، أو مِلْك .. فما داعية ذكر الربوبية والمِلْك هنا ؟

والجواب ـ والله أعلم ـ أن ذكر الربوبية بيان لفضل الله وإحسانه على عباده ، وأنه لم يملكهم إلا وقد خلع عليهم خِلَع الربوبية ، فرباهم ، ونشّأهم ،

وأمدّهم بكل ماهم فى حاجة إليه .. فملكهم بإحسانه وفضله ، قبل أن يملكهم بجبروته وقهره .. وفى ذكر الملك ، إشارة إلى أن الله سبحانه إنما يربّى مايملك ، ويتصرف فيما هو له ..

فإذا قامت الألوهية على الناس بعد هذا بسلطانها ، لم يكن هذا السلطان سلطانَ قهر وجَبْريّة ، وإنما هو سلطانَ فضل وإحسان ، سلطان المالك فيما ملك .

وقد جاءت هذه الصفات الثلاث لله سبحانه على هذا الترتيب : الربوبية فالملك ، فالألوهية ، لتكشف عما لله سبحانه فى الناس من سلطان متمكن ، قائم على العدل والإحسان . . فهو سبحانه المربِّى والمنشىء لهم . . وقد يربّى المربِّى ، وينشّىء المنشىء ولا يملك ماربّاه ونشّأه . . ولكن الله سبحانه ، هو المربى ، وهو المالك لما يربى .. ثم إنه قد يربى المربى ، ويملك مايربّيه ، ولكن لايقوم له سلطان متمكن على مايربيه ويملكه ، فقد يخرج عن يده لسبب أو لآخر .. ولكن الله سبحانه هو المربى والمالك لما يربى ، والإله القائم بسلطانه المطلق على ماربّى وما ملك !

وفى تخصيص الناس بالاستعاذة منهم ، وفى جعل هذا فى سورة خاصة بهم تسمى سورة « الناس » ـ فى هذا إشارة إلى أن الناس ، من بين المخلوقات التى يعرفونها ، هم الذين يفعلون الشر ، بما رُكّب فيهم من إرادة عاملة ، قادرة على أن تتجه نحو الخير ، أو الشر ..

فكل مخلوق ـــ فيما يرى الإنسانُ ويعلم ـــ قائم على فطرة ، لا يتحول عنها ، ولا يأخذ طريقاً غير طريقها الذى أقامها الله سبحانه وتعالى عليه .

ومن هنا ، نرى جميع المخلوقات ، التى تعايشنا على هذه الأرض تحكمها طبيعة واحدة ، فى كل جنس من أجناسها ، أو نوع من أنواعها

فأفراد الجنس الواحد ، أو النوع الواحد ، كلها على طريق سواء ، فى حياتها ، لا يختلف فرد عن فرد ، ولا تشذّ جماعة عن جماعة ، فى أى مكان وأى زمان . .

فالنملة الواحدة ، هى النمل جميعه ، والنحلة الواحدة ، هى النحل كله ، والغراب الواحد ، هو الغربان جميعها ، والذئب الواحد ، هو الذئاب كلها . . وهكذا ، كل فرد فى جنسه ، يحمل تاريخ الجنس كله ، لا تحتاج فى التعرف على هذا الجنس إلى أكثر من التعرف على فرد منه . . فى أى مكان وفى أى زمان .

ومن هنا كان من الممكن رصد الشرور الناجمة من بعض الحيوان ، والعمل على توقيها ، وأخذ الحذر منها . . فإنه إذا عُرف الشرّ أمكن توقيه ، وسدّ المنافذ التى ينفذ منها . .

وليس كذلك الإنسان . . فكل إنسان عالَم وحده ، له وجوده الذاتى ، وله عقله ، وإدراكه ، وتصوراته ، ومنازعه ، وخيره ، وشرّه . . وهيهات أن يلتقى إنسان مع إنسان لقاء مطابقاً فى جميع الوجوه ، ظاهراً وباطناً . . ولهذا فإنه لا يمكن رصد شرور الناس ، بل إنه لا يمكن رصد شرّ إنسان واحد ، ولا رسم الحدود التى يقف عندها . . ومن هنا كانت الاستعاذه من الناس ، على هذا الوجه الخاص ، لأن الشرور التى تقع منهم ، بل من أىّ واحد منهم ، كثيرة لا تُحصى ، متعددة متنوعة ، لا تحصر . . ولعل هذا هو بعض السر فى تكرار لفظ « الناس » ثلاث مرات فى مطلع السورة ، فهم ليسوا ناساً وحسب ، بل هم ناس ، وناس ، وناس . . إنهم فى مجموعهم ، أخيار ، وأشرار ، وخليط من أخيار وأشرار . . وهم فى أفرادهم : خير ، وشر ، وخليط من الخير والشر . فالإنسان يحسن ، ويسىء ، ويقف موقفاً بين الإساءة والإحسان .

قوله تعالى :

* « من شرّ الوسواس الخناس * الذى يوسوس فى صدور الناس من الجِنة والناس »

هو بيان للمستعاذ منه، برب الناس، ملك الناس، إله الناس..

والوسواس الخناس : هو ما يطرق الإنسان من وساوس وظنون، مما تسوّل له به نفسُه، من منكرات، وما يزين له به إخوانُ السوء، وما يغريه به أهل الضلال من مفاسد، وآثام ..

وتسمية هذه الطوارق المنكرة، وتلك الواردات المضلّة، بالوسواس، لأنها تدخل على الإنسان فى مسارّة ومخافتة، وتلقاه من وراء عقله، وفى غفلة من ضميره .. إنها توسوس له، وتهمس فى صدره، دون أن يَحضُرها عقلُه، أو تشهدها حواسه ..

وهذا واضح إذا كان هذا الوسواس من ذات الإنسان نفسه، ومن نزغات شيطانه ..

أما إذا كان هذا الوسواس من شيطان من شياطين الإنس، فإن الوسوسة تكون بينه وبين من يوسوس له، بمعزل عن أعين الناس، وعن أسماعهم، حتى لا يروا ولا يسمعوا هذا السوء الذى يوسوس به، ولا هذا المنكر الذى يدعو إليه ..

وهكذا المنكرات والآثام، لا يُدْعَى إليها علانية، كما لا يأتيها مقترفوها علانية .. إنها لاتتمشّى إلا فى الظلام، ولا يلتقى بها أصحابها المتعاملون بها — من داعين بها ومدعوين إليها — إلا فى تلصص ومسارقة ..

وفى وصف الوسواس « بالخناس » إشارة إلى أنه يخنس ، أى يغيب شخصه ويتلاشى وجوده ، وهو يؤدى مهمته بما يوسوس به ، فلا يرَى المستمع له ظلا لشخصه ، ولا يحسّ وجوداً لذاته، وإنما الذى يتمثل له فى تلك الحال هو شخوص ما يوسوس له به، ووجوه ما يدعو إليه .. فالموسوس ـ لكى يؤدى دوره على أتمّ وجه ـ ينبغى أن يغيب شخصه ، وأن يختفى وجودُه ، حتى يُخلى المكان لما يوسوس به ، فلا يَشْغل الموسوس إليه بشىء عنه ، ولا يتمشى فى صدره شىء غير تلك الوسوسة ..

وفى قوله تعالى : « الذى يوسوس فى صدور الناس » وفى جعل الوسوسة فى الصدور ، مع أنها تكون فى الآذان — إشارة إلى أن هذه الوسوسة إنما تندس إلى الصدور ، دون أن تشعر بها الآذان ، وأنها لا تحدث أثرها السيء إلا إذا أخذت مكانها من الصدور ، أى القلوب ، ووقعت منها موقعاً . . على خلاف الآذان ، فإن كثيراً من وساوس السوء تطرقها ، ثم لا تجد لها من أصحابها أذناً صاغية ، فتسقط ميتة ، وتُدْرج فى أكفان الريح !

وقوله تعالى : « من الجِنَّة والناس »

« من » هنا بيانية ، تكشف عن وجه الوسواس الخناس ، وهو أنه إما أن يكون إنساناً ، أو شيطاناً .. من عالم الإنس ، أو عالم الجن ..

والوسواس الخناس — كما قلنا — كائن لا يكاد يُرى شخصه ، حين يوسوس ، حيث يتدسس إلى من يوسوس إليه خِفية ، ويدخل عليه من حيث لا يشعر .. ولهذا جمع الله سبحانه وتعالى بين الوسواس من عالم الإنس ، والوسواس من عالم الجن . . فالإنسان الذى يوسوس للناس بالسوء ، ويغريهم به . هو شيطان ، فى خفاء شخصه ، وفى عداوته للإنسان ، وفيما يحمل إليه

من شر ، وإن على الإنسان أن يحذر هذا الوسواس من النـاس كما يحذر الشيطان ..

وعُبّر عن الشيطان هنا بلفظ الجن ، للدلالة على خفائه ، وعدم إمكان وقوع العين عليه ، وإن كان له لَمّةٌ يعرفها المؤمن ، ونخسة يشعر بها ، ويعلم أنها من وارداته . .

وعالم الجن ، أو الشيطان ، وإن يكن غير منظور لنا ، فإن علينا الإيمان به ، وأنه يعيش معنا على هذه الأرض ، ويرانا من حيث لا نراه ، كما يقول تعالى عن الشيطان : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم » (٢٧ : الأعراف) وهذا العالم غير المرئى ، هو عدوّ لنا ، متربص بنا ، أشبه بجراثيم الأمراض التى لاتُرى بالعين المجردة ، وإن كان يمكن رؤيتها بأجهزة خاصة ، كما يمكن أن يرى الشيطان لـكثير من المؤمنين بعين البصيرة لا الإبصـار ، فلنحذر هذا العدو الراصد ، كما نحذر الوباء ، كما يقول سبحانه : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا » (٦ : فاطر) وإنه ليس علينا أن نبحث عن كُنْه الشيطان ، ولا عن حياته الخاصة فى عالمه ، ولا عن طعامه ، وشرابه ، وتزاوجه ، وتوالده . . وإنما الذى علينا أن نعلمه ، هو أنه عدوّ غير مرئىّ لنا ، وأنه يتدسس إلى مشاعرنا ، ومدركاتنا ، وعواطفنا ، ويحـاول جاهداً أن يؤثر فيها ، وأن يخرج بها عن جادّة الحق والخير ، إلى طريق الغواية والضلال ، فيزين لنا الشر ، فنراه خيراً ، والضلال ، فنراه هدًى !

والشيطان ، ليس هو النفس الأمارة بالسوء ، كما يرى ذلك بعض الناس ، وإنما هو كائن له وجوده المستقل خارج العالم الإنسانى ، وله حياته الخاصة ، شأنه فى هذا شأن الـكائنات والعوالم غير المرئية التى تعيش معنا ، كالجراثيم ، والهواء ، بل والإنسان الذى يلبس ثوب الوسواس .. فإنه شيطان غير مرئى .

وهو ـ أى الشيطان ـ مخاطب خطاباً مستقلا من الله سبحانه وتعالى ، كما هو شأن الإنسان ، وهو محاسب ، ومجازًى على مايعمل ، وفى هذا يقول الله تعالى : « وأجلبْ عليهم بخيلك ورَجِلك وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعِدْهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً .. إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » (٦٤ ـ ٦٥ الإسراء) ويقول سبحانه : « وكذلك جعلنا لكل نبىٍّ عدوًّا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعضٍ زخرف القول غروراً » ١١٢ : الأنعام) . . ويقول جل شأنه : « وأنه كان رجالٌ من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً » (٦ : الجن) . . وقد سخر الله بعضَ الجن لسليمان ـ عليه السلام ـ كما سخر له الريح . . فقال تعالى : « ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين » (٨٢ الأنبياء) وقال سبحانه : « يعملون له مايشاء من محاريبَ وتماثيلَ وجِفانٍ كالجواب وقدورٍ راسياتٍ » (١٣ : سبأ) .

فالشيطان أو الجن ، عالم غير منظور ، يقابل عالم الإنسان المنظور ، وبين العالمين احتكاك أشبه بالاحتكاك الذى يقع بين الإنسان والإنسان ، وفى احتكاك الإنسان بالإنسان يتولد خير وشر .. أما احتكاك الشيطان بالإنسان ، فلا يتولد منه إلا شر محض .. كما يتولد الشر من احتكاك الإنسان بالإنسان فى مجال العداوة والبغضاء .. وليس بين الشيطان والإنسان إلا عداوة دائمة متصلة ، وليس يَرِدُ على الإنسان من الشيطان إلا السوء الخالص ، والشر الصريح ، كما يقول سبحانه .. « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا .. إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » . (٦ : فاطر)

فاللهم احفظنا من وساوس النفس وأهوائها ، ومن كيد الشيطان ونزغانه ، واجعل لنا من لدنك وليًّا ، واجعل لنا من لدنك نصيراً ، حتى نستقيم على

طريقك القويم ، ونبلغ بعونك وتوفيقك مايرضيك عنّا ، ويدخلُنا فى عبادك الصالحين فى الدنيا والآخرة .. « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل فى قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم » .. « ربنا هَبْ لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً » وصلِّ اللهم وسلم على محمد ، نبيك ورسولك ، الرحمة المهداة ، والنور المبين ، الذى اهتدينا به ، وبما تلاه علينا من كتابك الكريم ، وعلى آله ، وصحبه ، ومن اهتدى بهديه ، وسلك سبيله .. وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ، فاتحةَ بدء ، وحسنَ ختام .

* * *

هذا ، وكان غاية هذه الرحلة المباركة فى رياض كتاب الله ، وفى صحبته ، تلك الصحبة المسعدة المتصلة مع آياته ، آية آية ، ومع كلماته ، كلمة كلمة ، حتى استوفت القرآن الكريم كله ـ كان ذلك صباحَ يوم الخميس المبارك ، لتسعة عشر يوماً خَلَت من جمادى الأولى سنة تسعين وثلاثمائة وألف ، من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الموافق لليوم الثالث والعشرين من شهر يوليو سنة ألف وتسعمائة وسبعين ميلادية ..

وعلى زاد هذه الرحلة المباركة ، نعيش مابقى لنا من أجل ، ومن جَنَى ثمارها الطيبة المباركة ، نعطى مما فى وُسعنا ، وننفق مما فى أيدينا .. نبتغى بذلك وجه الله ، وحسن المثوبة ، وكريم الشفاعة من كتاب الله ، ومن رسول الله ، فهما وسيلتى إلى الله ، أرجو بهما خير الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة : « والله عنده حسن المآب » كما أسأله ـ سبحانه ـ أن يبارك لى فى زوجى التى هيأت لى أسباب التوفر على هذا العمل ، وكانت لى رفيق سفر فى هذه الهجرة المباركة إلى كتاب

الله . . فجزاها الله عنّى خيراً ، وأقرّ عينها وعينى بوحيدتنا « هناء » وبارك لنا فيها ، وتولاّها برعايته وتوفيقه ، وجعلها من أحبابه وأهل ودّه ، فى الدنيا والآخرة . إنه سميع مجيب .

* * *

هذا ، وقد كنا على نية أن نلحق بخاتمة هذا التفسير ، تعريفاً بالمؤلف ، يتناول حياته ، وثقافته ، وظروف الحيـاة التى تلبست به وهو بين يدى هذا التفسير ، وأحداث عصره التى أثّرت فيه . . فذلك ـ فى رأينا ـ مما يرفع لعينى الدارس لهذا التفسير صورةً للمؤلف ، توثق الصلة به ، وتجعل حديثه إليه بظهر الغيب ، حديثَ مشاهدة ومشافهة ، وبهذا يتسع بينهما مجال المحاورة والمجادلة ، وتـكثر فى طريقهما مواقف المراجعة والحساب ، الأمر الذى من شأنه أن يبعث نشاط الدارس ، ويستثير ملكاتِه ، ويشعره دائماً أنه فى مواجهة من يحاسبه ويراجعه ، ويحصى عليه غَفَلاتِه ، وشرود خواطره ، كما يحاسب هو المؤلفَ ويراجعه ، ويأخذ عليه غَفَلاته وهفواته !

نعم ، كنت على هذه النية ، حتى إذا كتب القلمُ آخرَ كلمات فى تفسير سورة الناس ، وأردتُه على أن يمضى معى فيما انتويته من كتابة التعريف بالمؤلف ، أبى إلا جِماحًا وشروداً ، وبدا لى أن يد القدر تمسك بالقلم عن أن يمضى لما قصدت إليه ، وأن من الخير أن يخرج هذا التفسير خالصاً من كل ماليس من صميمه ! !

لهذا عوّلت على أن يكون التعريف بالمؤلف ، وما اتصل به فى عصره من أشخاص وأحداث ـ فى كتاب خاص ، يُلحق به مايُسفر عنه ظهور هذا التفسير وتداوله فى محيط العلماء والدارسين ، وما لهم فيه من آراء ..فإلى اللقاء مع المؤلف فى هذا الملحق . .إن شاء الله .

* * *

[كلمة شكر]

على أنه لا يفوتنى هنا أن أسبق هذا الكتاب المرتقب ، فأبادر بتقديم خالص الشكر للسادة العلماء فى آفاق العالم الإسلامى ، الذين استقبلوا هذا التفسير بكثير من الحمد والرضا ، سواء منهم من تابع الاطلاع ، والدراسة ، والتعقيب ، على كل جزء تم طبعه من هذا التفسير ، أو مَن أقام رأيه فيه على أول جزء ظهر منه ، مقدّراً أن مبادىء الأمور تدل على خواتيمها ، ، وأن مطالع الزهر ، ينبىء عن وجوه الثمر .. وسواء مِن هؤلاء السادة العلماء مَن كان ثناؤه خالصاً ، ومن جاء حديثه موجِّهاً ناصحاً .. فلهؤلاء وهؤلاء جميعاً أوجّه عظيم الشكر ومزيد الحمد .

* * *

وإنى لأذكر هنا بالحمد والثناء مالقى هذا التفسير وصاحبه من أسرة مجلة « قافلة الزيت » بالمملكة العربية السعودية من احتفاء وتنويه .. فمنذ صدر الكتاب الأول من « التفسير القرآنى » والمجلة ترصد حركاته ، وتُعلن عن مولد كل جديد منه .. حتى إذا كاد يكتمل ويبلغ الغاية تفضلت أسرة المجلة بتقديم هدية كتابية ثمينة طىّ رسالة رقيقة من رئيس تحريرها الأستاذ الجليل « منصور مدنى » فكان ذلك خير جزاء معجل فى الدنيا لهذا الجهد الذى بذلته ابتغاء وجه الله ، والذى أرجو أن يكون لكل من ساعد فى هذا الجهد ، بقول أو عمل ، جزاؤه من واسع فضل الله ، وعظيم إحسانه ، فإنه لا يشكر الله ، من لا يشكر الناس ..

فجزى الله أسرة مجلة « قافلة الزيت » عنّى خيراً ، وأجزل المثوبة لمديرها العام الأستاذ الكبير « مصطفى حسن الخان » ومديرها المسئول الأستاذ الفاضل « على حسن قناديلى » ورئيس تحريرها الأستاذ النبيل « منصور مـدنى » ومحررها المساعد الأستاذ الفاضل « عونى أبو كشك » .

أما الأستاذ ـ محمد محمود الخضرى ـ صاحب ـ دار الفكر العربى ، وناشر هذا التفسير ، والذى وقف إلى جانبى بكل ماءملك من جهد ، وواصل المسيرة معى خطوة خطوة ، من بدء هذه الهجرة إلى كتاب الله حتى نهايتها ـ غيرَ ضنين بجهد أو مال فى سبيل تحقيق هذه الرسالة ، ابتغاء خدمة كتاب الله ، وتيسير آياته للذكر ، وتعميم النفع به ـ فهو قسيمى فيما نرجو من حسن المثوبة ، وكريم العطاء من رب العالمين ، فجزاه الله خيراً ، وبارك عليه فى ولده ، وأهله ، وماله ، ورعى الله هذه الدار العربية الإسلامية ، ورعى العاملين بها ، السادة : فهمى حامد على مدير الدار ، وأمين محمد محمود الخضرى ، وبدوى بدوى مصطفى ..والابن العزيز محمد عبد الغنى السيد ، الذى شارك مع أخى وزميلى الأستاذ الجليل سيد طلبه القصّاص ، فى عملية المراجعة والتصحيح أثناء عملية الطبع ، وكان لهما فضل كبير فى تجنب كثير من الأخطاء .

فلقد كان هؤلاء جميعاً يتعبدون لله فى محراب العمل معى ، لإخراج هذا التفسير ، ودفع العوائق التى تعترض سبيله ، أو تعوّق مسيرته .

* * *

هذا ، ومن توفيق الله ، ومن تيسيره لهذا العمل ، أن تتولى طبعه وإخراجه مطبعة « السنة المحمدية » التى أسسها العالم الحافظ الإمام المجتهد ، محيى السنة ، المرحوم « الشيخ محمد حامد الفقى » . فقد أقام هذه المطبعة على أساس من تقوى الله ورضوانه ، فطابت فيها مغارسه من رجال ، وأعمال ، حتى لقد خَرَجتْ هذه المطبعة عن أن تكون عملا تجاريًا ، إلى دار عبادة ، ومحراب صلاة .. ولهذا تجدنى إذ أذكر صاحب هذه المطبعة ، وأدعو له بالرحمة والرضوان ، أذكر أبناءه وتلاميذه الذين رباهم فيها على يديه ، ونشأهم على الأمانة والتقوى ، وعلى رأسهم ابنه الفاضل

الأستاذ محمد الطيب، وتلميذه الوفى البار الحاج أحمد إبراهيم القائم على إدارة المطبعة، وتصريف شئونها، فى مراقبة لله، وإخلاص فى العمل، وحفيده محمد سيد احمد، ومريدوه: الشيخ محمد محمد نصر الدين، وعبد الرازق محمد الكاشف، وجميع عمال المطبعة، الذين حملوا الأمانة، وصَدَقُوا ما عاهدوا الله عليه.

ولو أنى ذهبتُ أذكر جميع الذين لهم فضل المشاركة والمعاونة فى هذا الكتاب لاتسع مجال القول، وجاوز الحدّ الذى عزمت على التزامه، والوقوف عنده فى المقام.

فشكراً شكراً، لكل من شارك فى هذا التفسير من قريب أو بعيد، فى سرّ أو عَلَن.

« وقل الحمد لله .. وسلام على عباده الذين اصطفى ..

« سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين ».

القاهرة فى } ٢٧ رمضان ١٣٩٠ هـ
يوم الخميس } ٢٦ نوفبر ١٩٧٠ م

أحمد إبراهيم
رئيس مطبعة السنة المحمدية

فهــــرس الموضوعات

(جـزء .. عمّ)

تصويب الأخطاء

نعتذر عن بعض الأخطاء التي وقعت فى هذا التفسير ، على الرغم من اجتهادنا فى تجنبها وتوقّى الوقوع فيها .

ولكن كيف لانخطىء ونحن بشر ؟ إن الخطأ منّا شهادة ناطقة على أن الكمال لله وحده ، وأن العصمة لأنبيائه ورسله ، وقد وقع معظم هذه الأخطاء فى الكتب الأربعة الأولى ، قبل أن تتمهد الطريق بين المؤلف والمطبعة . .

والمرجو أن يتفضل القارىء مشكوراً فيجرى بالقلم هذه التصويبات :

	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
الكتاب الأول	٢٠	٩	الطاغوتِ	الطاغوتَ
	٦٣	١١	ولقد خلقنا	لقد خلقنا
	٨٣	١٩	والمساكين وابن السبيل وقولوا	والمساكين وقولوا
	١٣٧	١	ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل	ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة
	١٤٦	١٤	وهو ربنا وربكم ونحن له مخلصون	وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون
	١٧١	٧	أرأيت من اتخذ	أفرأيت من اتخذ
	١٧٣	١٨	أمواتاً	أموات
	١٨٥	٧	وأن الله شديد العقاب	وأن الله شديد العذاب
	١٨٨	٥	ما وجدنا عليه	ما ألفينا عليه
	٢٠٢	١٠	ولتكبروا الله مع	ولتكبروا الله على
	٢٣٢	٧	فإن الله سريع الحساب	فإن الله شديد العقاب
	٢٤٣	١٥	آياته	الآيات
	٢٤٧	١١	آياته	الآيات
	٣٠٥	١٤	وقالوا لنبي لهم	إذ قالوا لنبيّ لهم

الكتاب الثاني

الصفحة	السطر	الخطـأ	الصواب
٣٨٦	١٣	والله بكل شيء عليم	والله بما تعملون عليم
٤٣٥	٤	إذ قالت رب	إذ قالت امرأة عمران رب
٤٧٥	١٥	فاما الذين آمنوا	وأما الذين آمنوا
٥٣٨	٤	إن تطيعوا الذين	إن تطيعوا فريقا من الذين
٥٨٧	٧	أولئك يؤتونه	أولئك يؤتون
٦١٢	٦	الآخرةِ	الآخرةَ
٦١٥	١٩	لـكيلا تأسوا	لـكيلا تحزنوا
٦٢٣	١٨	مما تعملون خبير	بما تعملون بصير
٦٢٩	٩	فليتوكل المؤمنين	فليتوكل المؤمنون
٦٤٢	٤	لم يلحقوا به	لم يلحقوا بهم
٦٥١	٤	حتى يميز الله الخبيث	حتى يميز الخبيث
٦٥٤	٨	من بين يديه خلفه	من بين يديه ومن خلفه

الكتاب الثالث

الصفحة	السطر	الخطـأ	الصواب
٧٧٣	١٦	والذين يجتنبون	الذين يجتنبون
٨٣٧	١٤	هم الغالبون	هم المفلحون
٨٧٧	١٥	وكان الله غفوراً رحيما	وكان الله عفواً غفورا
٩٣٦	١١	جامع الـكافرين والمنافقين	جامع المنافقين والـكافرين
٩٣٨	١٨	جامع الـكافرين والمنافقين	جامع المنافقين والـكافرين
٩٥٥	١٠	سميعاً بصيراً	سميعاً عليما
٩٦٣	٧	طبع الله عليها فلا	طبع الله عليها بكفرهم فلا
١٠٦١	٦	المسيح عيسى بن مريم	المسيح ابن مريم
١١٤٣	١٧	وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا	وعمل صالحاً فلا خوف عليهم

الكتاب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
الكتاب الرابع	١٥	١٤	ومن قتل خطأ	ومن قتل مؤمناً خطأ
	٢٩	١٠	إلا ذكيتم	إلا ما ذكيتم
	٦٨	١٠	إنا إذن من الآثمين	إنا إذا من لمن الآثمين
	٧٤	٦	إذا أيدتك	إذ أيدتك
	٢١٦	٦	قل إن الهدى هدى الله	قل إن هدى الله هو الهدى
	٢١٨	٨	والشهادة الحكيم الخبير	والشهادة وهو الحكيم الخبير
	٢٤٧	١٨	قد فصلنا الآية	قد فصلنا الآيات
الكتاب الخامس	٥٨٩	١٨	واعلموا أن الله مع المتقين	واعلموا أن الله شديد العقاب
	٨٢٣	٨	قل هو أذن خير لكم	قل أذن خير لكم
	٨٢٣	١٠	قل هو أذن خير لكم	قل أذن خير لكم

هذا ، وهناك بعض أخطاء لا يخفى وجه الصواب فيها على فطنة القارىء .

فهــــرس

الموضوعات ، والمباحث ، والقضايا التى عالجها هذا التفسير

الكتاب الأول (المجلد الأول)

الكتاب الثانى

الكتاب الثالث

الموضـوع	الصفحة	السورة

الـكتاب الرابع (المجلد الثانى)

الـكتاب الخامس

الـكتاب السادس

(الـكتاب السابع) المجلد الثالث

الموضوع	الصفحة	السورة

الكتاب الثانى عشر

الكتاب الثالث عشر (المجلد الخامس)

الكتاب الرابع عشر

« ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعفُ عنّا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

« وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين » .

للمؤلف

* في العقيدة *

- قضية الألوهية . . جزءان .
- القضاء والقدر .
- المسيح في القرآن والتوراة والإنجيل .
- نشأة التصوف .
- التعريف بالإسلام .

* في الشريعة *

- إعجاز القرآن . . جزءان .
- التفسير القرآني للقرآن . . . خمسة عشر جزءاً .
- النبي محمد صلى الله عليه وسلم .
- القصص القرآني .
- السياسة المالية في الإسلام .
- في طريق الإسلام .
- من الحقل الإسلامي .
- الخلافة والإمامة .
- الدعاء المستجاب .

* في السير *

• عمر بن الخطاب
• علي بن أبي طالب
• محمد بن عبد الوهاب (الدعوة الوهابية)

* في الأدب *

الأدب الصوفي في مفهوم جديد